K.U.C.J

الرقم المعياري الدولي
ISSN : 2414 - 7419

عدد خاص
المؤتمر العلمي الدولي الأول

مجلة كلية الكوت الجامعة

مجلة اكاديمية علمية محكمة

تصدر عن

مركز البحوث والدراسات والنشر

كلية الكوت الجامعة

1

العدد الأول

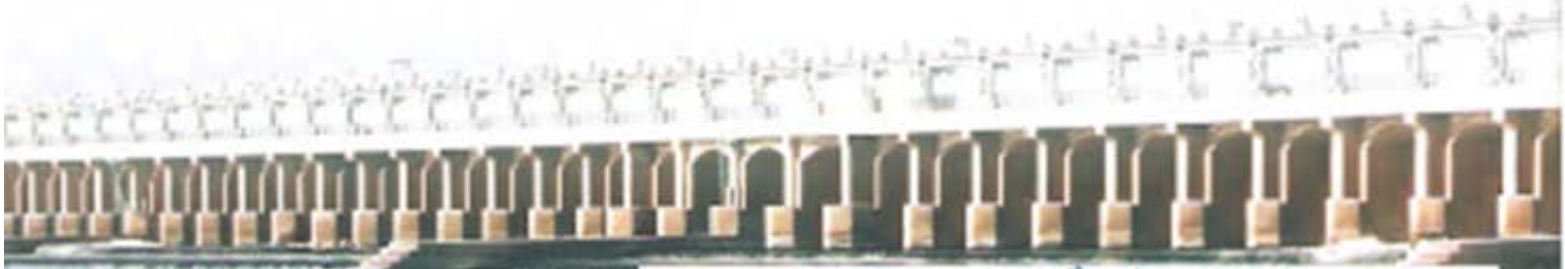

محافظة واسط
29 - 30 نيسان 2017
2 - 3 شعبان 1438

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٢١٠٩ لسنة ٢٠١٥

عدد خاص / المؤتمر العلمي الدولي الأول العدد الأول/ 29-30 نيسان 2017
كلية الكوت الجامعة
ISSN 2414 - 7419

K.U.C.J
مجلة كلية الكوت الجامعة

مجلة أكاديمية علمية محكمة
تصدر عن مركز البحوث والدراسات والنشر
كلية الكوت الجامعة

رئيس مجلس الإدارة
رئيس الهيئة المؤسسة
د. طالب زيدان الموسوي
رئيس التحرير
أ.م. د. أحمد صبيح عطية
مدير التحرير
أ.م. د. أحلام حسين الموسوي

الهيئة الإستشارية
أ. د. شارف فاديم إيفاتوفيتش – الأحياء – روسيا
أ.م.د. سكاليارنكو سيمن ألكساندروفيت –إقتصاد – روسيا
أ.د. عمر حمد شهاب العبيدي – الكيمياء – العراق
أ.د. مرعي محمد العجيلي – جامعة بنغازي – ليبيا
أ.د. نبيل محي الدين عبد الحميد– جامعة كفر الشيخ– مصر
أ.د. محمود أحمد سرور- الجامعة اللبنانية الحكومية - لبنان
أ.د. لطفي حميد جودة – إقتصاد - العراق
أ.د. تغريد هاشم جاسم المنور – كيمياء-العراق
أ.د. جمال الحيدري – قانون-العراق
أ.د. خضير مهدي عمران – علم النفس-العراق
أ.د. محمد صالح مهدي–هندسة الليزر-العراق
أ.د. فاخر جبر مطر – علوم القرآن-العراق
أ.د. كاظم كريم الجابري – علم النفس-العراق
أ.د. محمد عبدالوهاب منشد -هندسة الليزر-العراق
الشيخ د. سلمان البهادلي – علوم القرآن
أ.د. عدوية جمعة حيدر – فيزياء الليزر - العراق

هيئة التحرير
أ.م. د. موفق كاظم عبد الرضا الزيدي
أ.م. د. هادي كاظم عطار
أ.م. د. عبد الأمير حسن الموسوي
أ.م.د. سلام منعم الشمري
أ.م.د. شمال عبد الله محمد سعيد المفتي
م.د. شلال عبد خميس الربيعي
م. د. رحيم عبد علي فرحان
م.د. سعيد رشيد عبد النبي
م. د. محمد عناد حسين
م. د. أحمد شهاب حمد
م. د. بدرية ناصرعبد سعيد
م.م. سهيركريم رماني
م.م. يسرى جلوب مدلول
م.م. رغد طارق الحسني
.م. حيدر عبد الجبار بحر
م.م. مروه كريم قاسم
م.م. محمد خالد عبود

الإشراف العلمي واللغوي
أ.د. علي عبد الحسين زوين

سكرتارية التحرير
منتهى رحيم مفتن

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (2109) لسنة 2015

حقوق الطبع والنشرمحفوظة لمركز البحوث والدراسات والنشر/ كلية الكوت الجامعة

رقم الإداع في دار الكتب والوثائق ببغداد

(2109) لسنة 2015

K.U.C.J

مجلة كلية الكوت الجامعة

وقائع المؤتمر العلمي الدولي الأول/ كلية الكوت الجامعة

العدد الأول

عنوان الكلية : العراق / محافظة واسط –حي الإمام علي (عليه السلام)- كلية الكوت الجامعة

عنوان مركز البحوث والدراسات والنشر العراق – بغداد

شارع فلسطين (محلة 506 شارع 15 دار 119)

ص.ب. 46137 مكتب بريد الجامعة المستنصرية.

البريد الألكتروني e-mail:

talibmosawi@gmail.com
alkutcollege2016@gmail.com

Website: www.alkutcollege.com

الهواتف

009647712346303
009647704351552
009647708834116
009647801034476

ترحب هيئة تحرير مجلة كلية الكوت الجامعة بإسهام السادة التدريسيين والباحثين في التخصصات الأكاديمية كافة وتأمل التواصل معها خدمة للمسيرة العلمية والمعرفية للعراق العظيم وأهله.

ضوابط وقواعد النشر

يتقيد الباحث في إعداد بحثه بالضوابط الآتية:

1. **يلتزم الباحث بقواعد البحث العلمي من حيث المنهجية العلمية وتوثيق المصادر والمراجع والتحليل والإسناد ويهتم بسلامة اللغة وحسن صياغتها.**
2. **أن لا يزيد عدد صفحات البحث على 25 صفحة وخلاصتين موجزتين باللغة العربية والإنكليزية بما لا يزيد عن 250 كلمة حتماً.**
3. **يشترط أن لا تكون البحوث المرسلة للنشر في المجلة قد نشرت أو أرسلت للنشر .**
4. **يقدم البحث بثلاثة نسخ على ورقة قياس (A4) على أن يكون الخط المستخدم في البحوث باللغة العربية هو "Arabic Transparent" و باللغة الإنكليزية " Times New Roman " وبحجم 14 ليتسنى أرسالها إلى التحكيم العلمي.**
5. **يرفق مع البحث قرص مدمج (CD) يحتوي مادة البحث مطبوعة على برنامج Word، وتخضع البحوث للتقويم والمراجعة والتحكيم السري من لدن المقومين العلميين وحسب الاختصاص الدقيق، ولا تعاد البحوث إلى أصحابها سواءً قبلت للنشر أم لا.**
6. **الإشارة إلى المصادر تكون بإستخدام أرقام داخل أقواس كبيرة (مربعة) ضمن المتن، ومرتبة على التوالي حسب تسلسل ظهورها لأول مرة ويمكن الإشارة إلى إسم الباحث (الباحثين) في المتن لكن يجب أن يرفق معه الترقيم أعلاه:**

أ- إذا كان المصدر مجلة علمية: يكتب إسم الباحث (الباحثين) يتبع بإسم البحث وإسم المجلة كل منهما بين قوسين وبالحرف الغامق وبعدها العدد ثم السنة وأخيراً رقم الصفحات.

ب- إذا كان المصدر كتاباً: يكتب إسم المؤلف (المؤلفين) أولاً ثم العنوان بين قوسين وبالحرف الغامق، ثم الطبعة فسنة النشر والناشر ومكان النشر وأخيراً مدى الصفحات.

ج - للبحوث الإنسانية تثبت الهوامش في نهاية البحث وبحسب تسلسلها في المتن ثم تثبت المصادر والمراجع التي إعتمدها الباحث على صفحة أو صفحات مستقلة بحيث تذكر المراجع العربية أولاً ثم المراجع الأجنبية.

7. **يُكتب عنوان البحث باللغتين العربية والإنكليزية وإسم الباحث وعنوانه مع البريد الألكترونيان وجد على الصفحة الأولى للبحث.**
8. **المجلة تُعنى بنشر البحوث العلمية الرصينة المقدمة إليها في مجالات العلوم والمعارف المختلفة.**
9. **يعبر البحث عن رأي كاتبه وليس بالضرورة عن رأي المجلة.**
10. **يتعهد الباحث بأن بحثه غير مسروق أو مستل من رسائل الماجستير أو أطاريح الدكتوراه التي لم يشرف عليها أو الإستلال من أي بحث منشور أو قابل للنشر لا يمت له بصلة ويتحمل الباحث كافة التبعات القانونية إن ثبت ذلك.**
11. **إذا أرتأت هيئة التحرير إجراء أي تعديل في مضمون البحث ومنهجيته يعاد البحث لصاحبه لإجراء التعديلات اللازمة قبل نشره في المجلة.**
12. **ترسل البحوث العلمية إلى إدارة المجلة على العنوان المثبت في المجلة.**

كلمة رئيس مجلس الادارة المحترم
في المؤتمر الدولي الاول لكلية الكوت الجامعة
بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خير المرسلين ، سيدنا ونبينا محمد صلى الله علية و آله اجمعين ، وعلى صحبه المنتجبين ، الى يوم الدين ، قال الله تعالى في محكم كتابه الكريم من سورة المجادلة الآية الحادية عشر (11) ((يَرْفع الله الذين آمنوا منكم والذين أُوتوا العِلْمَ درجاتٍ)) .

صدق الله العلي العظيم))))
أما بعد ,
فباسمي واسم إخوتي الأساتذة الكرام في الهيئة العلمية والهيئة التحضيرية وأساتذة الكلية وطلبة وموظفي الكلية ، أرحب واشكر لكل من الضيوف الكرام الباحثين والمشاركين في مؤتمرنا العلمي الدولي هذا ، من خارج البلاد وداخلها .....

شكري وتقديري لممثل فخامة رئيس الجمهورية الأستاذ الدكتور محمد صالح مهدي الخفاجي المستشار لشؤون التربية والتعليم ، وشكري وتقديري لممثل وزارة التعليم العالي والبحث العلمي : الاستاذ علي رزوقي مدير دائرة التعليم الجامعي الاهلي المحترم
وشكري وتقديري للأساتذة الزائرين من جمهورية لبنان - الجامعة اللبنانية: الأستاذ الدكتور محمد سرور المحترم .
شكري وتقديري للأساتذة من الجمهورية الإسلامية الإيرانية وهم كل من:
جامعة إيلام : الاستاذ الدكتور انور شكيب المحترم .
شكري وتقديري للأستاذ الدكتور يوسف طلال من جامعة (USQ) (University of Southern Queensland)
وشكري وتقديري لمحافظة واسط مجلساً ومحافظاً وشكري وتقديري لكل الحضور الكرام جميعاً مع حفظ جميع المقامات والمناصب والشكر موصول الاساتذة الكرام الذين لم يسعني ذكر اسمائهم وقد تحملوا عناء السفر من اجل نجاح مؤتمرنا.

في اجواء عطرة بذكرى ولادات الأئمة الأطهار (عليهم السلام) وانتصارات الحشد الشعبي المجاهد، وقواتنا المسلحة البطله ، على اعداء الانسانية والنور , يقام مؤتمرنا العلمي الدولي الاول وشعاره ((بالعلم والمعرفة يُبْنَى العراق)) برعاية معالي وزير التعليم العالي والبحث العلمي الاستاذ الدكتور عبد الرزاق العيسى المحترم ، وإشراف علمي من لدن دائرة التعليم الأهلي الجامعي فبالعلم والسلاح تحمى البلاد وتتقدم .

إن تطور البلدان ورقيها يقاس من خلال المؤسسات الاكاديمية ، والعلمية ، والثقافية ، واصلاح التعليم العالي ، وتطويره ، والبحث العلمي لا يكون الا بتوافر مقومات الابداع والابتكار , وهذا يتطلب مؤسسة جامعية غير تقليدية لها واستقلال مالي واداري واشراف الوزارة العلمي عليها لكي تكون نمطاً جديداً من التعلم , تسطيع مواكبة التطور العلمي المتسارع ، مثلما تسطيع استيعاب ما يحدث من تغيير جوهري في منظومة العلاقات والمؤتمرات الدولية وانعكاس هذا الامر على واقع الحياة اليومية في عموم المجتمعات ... ومنها مجتمعنا العراقي و كل هذا يتطلب ربط التعليم الجامعي بالاهتمامات والاحتياجات اليومية من اجل رقي وتقدم بلدنا الحبيب وهذا يستدعي اعادة النظر في وظيفة المؤسسة الجامعية

وادائها واعتمادها على المعايير العلمية العالمية وانضوائها تحت الاتحادات والروابط العالمية والوطنية من اجل تبادل الخبرات والتجارب ونظم التعليم والتعلم .

ان محافظتنا احتضنت كل من جامعة واسط وكلية الكوت الجامعة والمعاهد التقنية المختلفة ومؤسسات العلمية الاخرى، واسهمت إسهاماً علمياً كبيراً في خدمة المجتمع العراقي الجديد كما واكبت التطور العلمي والتسارع الحاصل في مجال المعرفة ، وإن كليتنا خطت خطوات كبرى من اجل التطوير المستمر في برامجها المختلفة من خلال انفتاح بعلاقات تعاون علمي وثقافي لنقل البرامج والمناهج ونظم التعليم من الجمهورية اللبنانية والجمهورية الاسلامية الايرانية , وروسيا الاتحادية , وماليزيا , واستراليا , فضلا عن الجامعات العراقية كجامعة واسط والجامعة التكنولوجية ، والعمل مستمر للمشاركة في المؤتمرات الدولية للجامعات والكليات ذات التمويل الذاتي في الولايات المتحدة الامريكية مع الجامعات الاهلية والحكومية الاخرى وبجهود وطنية مخلصة من لدن وزارتنا متمثلة بالأستاذ علي رزوقي المحترم مدير التعليم الاهلي الجامعي . وفريق عمله ذي الكفاية الادارية والوطنية العالية ان هذا التطور الحاصل خلال السنة الاخيرة في الجامعات والكليات الاهلية لم يحصل لولا الادارة العلمية الاكاديمية الحكيمة لمعالي وزير التعليم العالي والبحث العلمي المحترم حيث تم استحداث اكثر من ستين قسماً علمياً في العراق ، وهذا مايغني آلاف الطلبة عن الهجرة الى دول الجوار او غيرها لطلب العلم والمعرفة والحصول على الشهادات المختلفة .ولا يخفى على الجميع ان سفر الطلبة يكلف الدولة وابنائها جهداً ومالاً ووقتاً يؤثر على البلاد وتطورها ونمو اقتصادها ومثال بسيط تم تعيين اكثر من مئتي استاذ وموظف وعامل بدرجات مختلفة في كلية الكوت الجامعة وحدها . والعمل مستمر على تطوير وفتح اقسام جديدة غير تقليدية و ذات جدوى اقتصادية وعلمية وثقافية لتطوير مجتمعنا العراقي وسد الاحتياج الحاصل في التخصصات النادرة ، والتي تفيد في بناء المجتمع العراقي مدينة الكوت مدينة الخير والعطاء (سلة خبز العراق) مدينة نهر دجلة والغراف والدجيلة التي انتجت كلية الكوت نهر علم يفيض بالخير على اهلها الكرام أن كليتنا على الرغم من حداثة تأسيسها في عام (2012م) اصبحت احدى مركزاً للاشعاع الحضاري والفكري والعلمي والثقافي في المجتمع العراقي بشكل عام ، والواسطي بشكل خاص بجهود كل العاملين بإخلاص واتقان ومثابرة مستنيرة بتوجيهات الوزارة واشرافها العلمي وتطبيقي والاخذ بمتطلبات الجودة والأداء في كل المختبرات العلمية وتطبيق وسائل التعليم الالكتروني في الصفوف الدراسية ومتابعة واتاحت الاستفادة من المكتبة الالكترونية المجانية لطلبة الكلية واعتماد نظام مؤسسة الكترونية في شؤون الكلية من اجل زيادة قدرة الابداع والابتكار والتفكير وتحقيق الاهداف العلمية المنشودة التي حرصت الكلية على تطبيقاها .

أقامت الكلية مؤتمرها العلمي الدولي الاول ، حيث وصل عدد بحوث المشاركة الى تسعة وتسعون بحثاً علمياً رصينا من داخل البلاد وخارجها في شتى جوانب المعرفة وفي التخصصات العلمية والانسانية مايضمن الفائدة العلمية لبناء العراق الحديث وجعله في مصاف الدول المتقدمه لانه بلد مهد الحضارة الاولى به بدء اول حرف و اول رقم واول دستور، بلد الانبياء والرسل وبلد الأئمة الاطهار (عليهم السلام) اجمعين .

والله ولي التوفيق

مع خالص احترامي وشكري وتقديري لكم جميعا

د. طالب زيدان الموسوي

محتويات العدد الأول
للمؤتمر العلمي الدولي الأول / كلية الكوت الجامعة

ت	عنوان البحث وأسماء الباحثين	الصفحة
.1	واقع البحث العلمي في الجامعات العراقية وسبل الارتقاء به م.د. حسين عليوي ناصر الزيادي	1
.2	التكامل بين تخطيط الاعمال وتخطيط تقنية المعلومات في الشركات صغيرة الحجم أ.م. د عبد العظيم الزيادي	14
.3	جدولة المشروع باستعمال برنامج (Auto CAD.2016) وادارة المشروع بأسلوب البرمجة بالأهداف (مشروع مجاري بلد الكبير) أمجد عباس عبد الرحيم البلداوي	29
.4	الالتزام التنظيمي ودورة في تقليل سلوك العمل المنحرف دراسة تحليلية لآراء عينة من العاملين في معمل طابوق لديوانية م.م. خيرية عبد فضل الخالدي	63
.5	تعزيز قابلية المؤسسات المالية والمصرفية في مواجهة الأزمات المالية "دراسة على وفق المنهج الاقتصادي الاسلامي الدكتور صدّام فيصل كوكز المحمدي	97
.6	مستويات النشاط الاشعاعي الطبيعي ومؤشرات الخطر الاشعاعي في بعض انواع الاسمدة المستوردة المستخدمة في لعراق ميثم سلمان أمانة، نجوى جاسم جبير، صبا فرحان حطحوط ، صباح عباس فليح و وأيمان محمد عليوي	128
.7	الهوية وتحولات المكان في رواية مثل زهرة مجففة لمحمود يعقوب ا.د. ضياء غني العبودي و و الباحث : حوراء شهيد حسين	140
.8	الإعجاز البياني للتشبيه غير التمثيل في ضوء النصوص القرآنية أ.م.د أحمد شكر محمد مهاوش العزاوي	155
.9	تحليل خطب نهج البلاغة في ضوء القيم التربوية م.م حيدر الموسوي و م.م عتاب بسيم السوداني	182
.10	التأصيل اللغوي لألفاظ التعليم في العراق القديم - دراسة مقارنة – أ.د. منذر ابراهيم حسين الحلي و م . فضيلة صبيح نومان الخزاعي	205
.11	الطبيعة ومشاهدها التصويرية في خطب الإمام علي –عليه السلام- " دراسة تحليلية" أ.م.د سعاد بديع مطير	222
.12	اللغة والدلالة الرمزية والإيحائية للأسطورة أ. د.علي زوين	242
.13	إيديولوجيا الموت في رواية فرانكشتاين في بغداد م.د. محمد جري جاسم النداوي	258
.14	تحضير ودراسة بعض الخصائص الفيزياوية والتحسسية لاغشية CdO:In الرقيقة د. شذى شمعون بطرس ، د . عباس فاضل عيسى و حسين محمود علي	278
.15	العلاقة بين المحكمة الجنائية الدولية ومجلس الامن بين الاختصاص القانوني والتوظيف السياسي م.د الاء طالب خلف	289
.16	حوال مجانبة السلطة التشريعية في العراق لاختصاصها الدستوري في المجال الضريبي أ.د. رائد ناجي احمد	312
.17	القانون الدولي لحقوق الانسان و القانون الدولي الانساني -دراسة مقارنة- ا.م.د. رياض مهدي عبد الكاظم	342
.18	ذوو الأرحام واختلاف العلماء في توريثهم م . د . صاحب جلال عجاج الصبَّاحي	357
.19	أثر السّياق في توجيه القراءات القرآنيّة عند أبي عليّ الفارسيّ أ.م.د. أحمد عبدالله ظاهر	382
.20	منهج الشريف المرتضى العقلي في تفسير القرآن الكريم أ.م.د. ثامر نعمان مصطاف و م.م. حيدر عبد الجبار بحر	394
.21	هل تنطوي المرابحة للآمر بالشراء على مخاطر التجارة؟ احمد حمود منصور المعموري	409

.22	نحو تفعيل دور الجهاز المصرفي العراقي في سوق العراق للأوراق المالية أ.م.د. احمد صبيح عطية العطواني و الباحثة رأم طالب راضي الصافي	427
.23	اثر التخطيط الاستراتيجي في تقويم الجودة الشاملة (دراسة تطبيقية في كلية الكوت الجامعة) م.م نازك نجم عبود و م.م هدية حسن مطرود و م.م سهير كريم رماني	454
.24	(سعاد) و (الناقة) في بردة كعب بن زهير أسطورة أم واقع أ.م. د. احمد حيال جهاد و م.د. محمد مهدي ياسين	466
.25	تجليات الأخر في الشعر الجاهلي القبائل العدنانية أنموذجا أ.م.د احمد حيال جهاد و أ.م.د حمادي خلف سعود	480
.26	أثر كف البصر في إغتراب الشعراء سبط ابن التعاويذي أنموذجاً م.د. عيسى محسن و م.د. آيات عبد جوني	506
.27	دراسة تأثير الأكاسيد والكبريتيدات على سبائك الحديد د.ستار عبود عباس	529
.28	الدفع الشكلي ببطلان التبليغ القضائي ومعالجاته د.نبأ محمد عبد و المحامي مهند ابراهيم حسين	540
.29	حق قوامة الرجل على المرأة في ضوء الشريعة والقانون أ.م.د. ساهرة حسين كاظم	555
.30	تطابق بعض الحقائق العلمية والمكتشفة حديثاً مع القران الكريم د. يسرى جلوب مدلول	564
.31	أخلاقيات الحوار عند الرسول محمد (صلى الله عليه واله وسلم) في ضوء القران الكريم ا.م.د. محمد فهد حسين القيسي و ا.م.د. حيدر تقي فضيل العلاق	588
.32	دراسة احصائية واقتصادية لدالة الانتاج لقطاع الصناعات التحويلية في العراق للمدة 1970-2011 الاستاذ الدكتور عباس لفتة كنيهر العقابي و الباحثة شيماء خطاب عبيد	604

واقع البحث العلمي في الجامعات العراقية وسبل الارتقاء به

ا.م.د. حسين عليوي ناصر الزيادي
جامعة ذي قار – كلية الاداب – قسم الجغرافية

المقدمة

اتسعت مجالات البحث العلمي مع تطور الحضارة الإنسانية، حيث كان العلم ممارسة للوصف اللفظي، وقد خضع لكثير من التغيير والتطوير، وكان للعرب باع طويل في مجال العلم والعلماء ، إذ كانت الرسائل العلمية بما تحتويه من حقائق ونظريات وتصورات من أرقى ما يمكن الحصول عليه في أي مكان آخر من العالم[1] .

يتمثل هدف البحث بدراسة مفهوم البحث العلمي في العراق وبيان دوره في خدمة المجتمع، ومن الطبيعي أن تواجهه الصعوبات والعوائق، لانَّ الارتقاء به على وفق الإمكانيات المتاحة ، كما تطرق البحث إلى أثر الجامعات العراقية باعتبارها الحاضنة الأساسية للبحث العلمي.

أما الأدوات الاستقصائية المستعملة في البحث أو المنهج المتبع، فقد تم استنباط واستشفاف المعلومات من مصادرها المختلفة، وتم الاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي الاستقرائي في دراسة العديد من التطورات والمتغيرات التي صاحبت التطور التاريخي للبحث العلمي، وكما يقال فإنَّ التاريخ هو " الأب الشرعي للعلوم الإنسانية ومن أقدم المجالات التي انشغل بها العقل البشري "[2] ، فنحن جزء من التاريخ، وسنتحول يوما ما إلى تاريخ ، والتاريخ كان مستقبلا لتاريخ قبله وحاضرا لتاريخ سبقه . ولكي نفهم الحاضر لابد من دراسة الماضي بكل أبعاده، وفهمه بالشكل الذي يساعدنا على التنبؤ بالمستقبل وإعطاء توقعات أقرب ما تكون للدقة والواقعية .

وفيما يتعلق بمصادر الدراسة، فقد تم الاعتماد على المصادر والمراجع الرسمية في مجال البحث العلمي ، فضلا عن المراجع العربية المترجمة.

أما هيكلية البحث، فقد اقتضت الضرورة العلمية تقسيم البحث على محاور عدة ، تناول المحور الأول مفهوم البحث العلمي والتطور التاريخي له ، في حين تناول المحور الثاني أهمية البحث العلمي وأثره في خدمة المجتمع مقارنة بالدول الإقليمية، والعربية، والعالمية والمشاكل التي تواجه البحث، والباحث العلمي في العراق، ثم مسك الختام تسجيل سبل القضاء على تلك المشكلات.

أولا : مفهوم البحث العلمي

يمكن تعريف البحث العلمي بأنه تحليل، وتسجيل، وتصنيف للظواهر من أجل التوصل إلى نتائج موضوعية ودقيقة وواضحة في حقل معرفي معين أو في حقول مختلفة [3]. كما يعرَّف بأنَّه سلوك إنساني واع ومنظم يهدف إلى استقصاء صحة معلومة أو فرضية أو إثبات لموقف أو ظاهرة وفهم أسبابها ونتائجها ومعالجتها أو إيجاد حل ناجح لمشكلة محددة أو سلوكية اجتماعية تهم الفرد

والمجتمع أو إثبات عدم صحة نظرية أو مسألة معينة، وإذا كان البحث العلمي يمتاز بالعمومية سابقا فقد تحول الآن إلى مبدأ التخصص الدقيق ضمن المجال العلمي الواحد .

ومن أشهر تعريفات البحث العلمي هو إنه " عملية فكرية منظمة يقوم بها شخص يسمى الباحث من أجل تقصي الحقائق في شأن مسألة أو مشكلة معينة تسمى موضوع البحث باتباع طريقة علمية منظمة تسمى منهج البحث، بغية الوصول إلى حلول ملائمة للعلاج أو إلى نتائج صالحة للتعميم على المشكلات المماثلة تسمى نتائج البحث .

إن عبارة البحث العلمي مصطلح مترجمة عن اللغة الإنجليزية "Scientific Research " ، فالبحث العلمي يعتمد على الطريقة العلمية ، والطريقة العلمية تعتمد على الأساليب الموضوعية المنظمة في الملاحظة وتسجيل المعلومات[4] ووصف الأحداث وتكوين الفرضيات واتباع المناهج العلمية .

يهدف البحث العلمي إلى نمو الإدراك البشري، وزيادة قدرته على الإفادة من الموارد الطبيعية والبشرية ، وبما يوفر حياة حضارية كريمة للفرد والمجتمع، فهو سلوك إجرائي واع يحدث بعمليات تخطيطية وتنفيذية متنوعة للحصول على النتائج المقصودة، وقد يتم ذلك من خلال الاطلاع على الدراسات السابقة التي تعد من الأسس المهمة لتعزيز الدراسة البحثية، وتساعد في التعرف على أهمية تلك الدراسات، والمحاور التي تناولها الباحثون والمنهجية التي ساروا عليها فضلا عن تشخيص مكامن النقص في تلك الدراسات، ومقارنتها بالنتائج الحالية، ثم ذكر تلك الدراسات أمر تقتضيه الأمانة العلمية والأخلاقية.

إلا أنَّ التطرق للدراسات السابقة ينبغي أن لا يقود إلى التأثر بها بشكل أو بآخر " فالعالم كالفيلسوف مطالب بان يطهر عقله منذ بداية البحث من كل ما يحتويه من معلومات قد تكون خاطئة فتقود إلى الضلال وقد حرص على ذلك واضعو مناهج التفكير العلمي من الغربيين منذ مطلع العصور الحديثة مثل فرنسيس بيكون (Bacon.f) واضع أصول المنهج العلمي والى ذلك ذهب ديكارت (Descartes) في كتابه التأملات في الفلسفة الأولى ".

أهمية البحث العلمي

إنَّ البحث العلمي يغني المعرفة الإنسانية وينميها، فهو يرتبط بخدمة حاجات المجتمع وتلبيتها بصورة مباشرة أو غير مباشرة، فهو أما أن يؤدي إلى زيادة المعارف التي تفسر الظواهر، أو تعالج مشاكل أقرب ما تكون مناسبة للأطر الأكاديمية الفلسفية، أو يكون تطبيقيا يخدم الأهداف التي أجري من أجلها، والبحث العلمي بأطره الأكاديمية أو النظرية والتطبيقية سيجد الحلول العلمية للمشاكل التي تقابل العمل في مجمل النشاط الإنساني .

كما أن للبحث العلمي مردودا غير مباشر على القائمين به، فهو ينمي معارفهم والقدرة على البحث والاطلاع الدائم على الإنجازات العلمية، وتوفير موارد أضافية لهم ولمؤسساتهم العلمية من خلال أساليب جديدة أخذت دورها في بعض الجامعات وهو ما أطلق عليه ((الجامعة المنتجة))، فالبحث العلمي يقوم بخدمة المجتمع بصورة مباشرة أو غير مباشرة ومن خلال ذلك يمكن القول إنَّ البحث العلمي هو الرؤية الاستراتيجية للتغير الاجتماعي، والاقتصادي، والثقافي، والفكري المنشود، فهو يهتم بالأفراد، والمجتمع، حاضرا، ومستقبلا ويمكننا القول إنَّ أبرز الاتجاهات المعاصرة والمصاحبة لهذه التغيرات الجذرية الشاملة هو الثورة العلمية والتكنولوجية وتعاظم قدرتها وانعكاس ذلك على أوجه الحياة الاجتماعية كافة، فمن سمات الثورة العلمية تنمية المعرفة وبروز مجالاتها العديدة والزيادة السريعة في حجمها والتغير في هيكلها التنظيمي العام، ولهذه الأسباب تعززت أهمية البحث العلمي وأهمية العلوم، واكتسبت مسألة الركون إليها في حل المشكلات، وتطوير التكنولوجيا أهميه بالغة بالنسبة لدول العالم قاطبة إذ لم يعد بإمكان أي من المجتمعات المعاصرة تجاهل التأثير الملموس لأنشطة البحث العلمي على تطورها الاقتصادي والاجتماعي، أو أن تتخذ موقفا سلبيا من هذا النشاط بدعوى أنه نوع من الترف الفكري الذي ينعكس فقط على تطور العلوم ذاته .

أهداف البحث العلمي

١- البحث العلمي هو منهجية منظمة مدروسة تفرز نتائج منطقية وموضوعية توظف في حل مشاكل المعرفة البشرية ، مما يؤدي إلى تقدم الإنسان وانتقاله من توفير الحاجيات اليومية إلى أفضليات أخرى أعلى وأكثر قيمة ليعزز تفوقه الحضاري .

2- يؤدي البحث العلمي إلى تطوير الفكر الموضوعي ويرفع مردودهم السلوكي نوعاً وكماً ويزيد من نسب نجاح أعمالهم .

٣- توضيح النظريات العلمية التي تم التوصل إليها أو التحقق من صلاحيتها مع بيان الحقائق المتناقضة في الفهم البشري واختيار الصحيح منها.

٤- تصحيح منهجيات البحوث الخاطئة بما في ذلك استعمالات طرق ومؤشرات التحليل الإحصائي والتغذية الراجعة لتقويمها.

٥- حل المشاكل العلمية والعملية التي تواجه الأفراد والجماعات.

٦ -إيجاد تقنيات جديدة وأساليب حياة متطورة عبر الاستفادة من المتاح الطبيعي غير المكتشف مما يساهم في زيادة المعرفة البشرية الحضارية.

مشاكل البحث العلمي في العراق

أولا – قلة الإنفاق

إنَّ التقدم الهائل السريع الذي يشهده العالم اليوم له أسباب كثيرة، يقف في مقدمتها الاهتمام الشديد بالبحث العلمي، ففي الوقت الذي تقف فيه المشروعات العربية، في مجال البحث والتطوير، عند عتبة الدعاية البعيدة عن جدية الإنجاز، أو عند باب" الترف الأكاديمي" فحسب، نجد أن دول العالم المتقدم تكرس الكثير والوفير من إمكاناتها لدعم البحث والتجارب العلمية المختلفة من أجل التطوير، ومن أجل مستقبل أكثر ثباتاً.

فالبحث العلمي في المجتمعات المتقدمة يجد الدعم السخي من المؤسسات الرسمية وغير الرسمية المستفيدة، لأنه، أي البحث استثماري داعم" يترجم أو يتحول في العموم إلى متمم للتنمية الاقتصادية والاجتماعية .فالبحث العلمي ، في هذه الحالة، وبهذا المعنى، هو استثمار وليس ترفاً أكاديمياً عشوائياً[5].

إن العراق لا يختلف عن محيطه العربي في هذا المجال ، إذا علمنا أن متوسط الإنفاق على البحث العلمي في العالم العربي فلا يتجاوز (0.2%) من الناتج المحلي الإجمالي بينما المتوسط العالمي نحو (1.4%) أي سبعة أضعاف إنفاق الدول العربية ويبلغ الإنفاق 3.8% و 2.6% و 2.8%و 2.8% و 2.6% و 2.4% في كل من السويد، وسويسرا، واليابان، وكوريا الجنوبية ، والولايات المتحدة الامريكية، والمانيا على التوالي، أما في إسرائيل فيبلغ 2.4% ، وهذا يعني أن إسرائيل تنفق على البحث العلمي ما مقداره (12) مرة أكثر من متوسط ما تنفقه الدول العربية مجتمعة[6] .

وفي هذا السياق يستحسن عرض مبسط لطبيعة الانفاق المالي وحجمه على البحث العلمي في العالم، فقد ذكر أحد الباحثين أن العالم ينفق حوالي 2,1 %من مجمل دخله الوطني على مجالات البحث العلمي ، أي ما يساوي حوالي 536 بليون دولار، ويعمل في مؤسسات البحث العلمي في العالم ما يقارب 3,4 مليون باحث، أي بمعدل 1,3 باحث لكل ألف من القوى العاملة.

وقد قدِّر إنفاق الولايات المتحدة الأمريكية، واليابان والاتحاد الأوروبي على البحث والتطوير بما يقارب 417 بليون دولار، وهو ما يتجاوز ثلاثة أرباع إجمالي الإنفاق العالمي بأسره على البحث العلمي. والولايات المتحدة وحدها تنفق سنوياً على البحث العلمي أكثر من 168 بليون دولار، أي حوالي 32% من مجمل ما ينفق العالم كله.

وتأتي اليابان بعد الولايات المتحد ة 130 :بليون دولار، أي ما يوازي أكثر من % 24 من إنفاق دول العالم .ثم يتوالى بعد ذلك ترتيب دول العالم المتقدم :ألمانيا ، فرنسا، بريطانيا، إيطاليا، كندا، ليكون مجموع ما تنفقه الدول السبع أكثر من 420 بليون دولار .ففي هذه الدول السبع مليونان و 265ألف باحث، يمثلون أكثر من % 66 من مجموع الباحثين في العالم، ويكلف كل باحث منهم حوالي 185 ألف دولار في السنة [7].

وقد تصدرت الدول الإسكندنافية قائمة الدول الأوروبية الداعمة للبحث ولابتكارات، و ذلك بالنسبة إلى نواتجها القومية ، فجاءت النسب التي خصصتها تلك الدول للبحث والتطوير على هذا النحو، والسويد 4.27%، فنلندا 3.51% ، الدانمارك 2.6% وتأتي بولندا بنسبة 0.59%) (3–33) في المرتبة الأخيرة بين الدول الأوروبية وقد بلغت ميزانية الاتحاد الأوروبي للبحث العلمي من 2002 م إلى 2006 م 17.5 بليون يورو، وهي تمثل % 3.9 من الموازنة الإجمالية للاتحاد الأوروبي في العام 2001 م .وفي أقل من عقدين من3% المشتركة للبحث العلمي 366 الزمان تضاعف تمويل البرام، وفي مصادر أخرى بلغت ميزانية الاتحاد الأوربي للبحث العلمي خلال الفترة من 2007 إلى 2014حوالي 300 بليون يورو وتولي دول جنوب وشرق آسيا أهمية متزايدة للبحث والتطوير، فقد رفعت كوريا الجنوبية نسبة إنفاقها على البحث والتطوير، من المحلي الإجمالي في العام 1980 م إلى 2.89% في 0.6% من الناتج لعام 1997 م، ووجهت اهتمامها نحو الإلكترونيات، وعلوم البحار والمحيطات ، وتقنيات البيئة، وتقنيات المعلومات، وأدوات التقييس، والمواد الجديدة، وعلوم الفضاء والطيران .ووفق مصادر أخرى فقد رفعت كوريا الجنوبية ميزانية البحث العلمي إلى ما يقرب من 4% في العام 2010 م لتصل ميزانيتها إلى 11.5 مليار.

أما الصين فقد خططت لرفع نسبة إنفاقها على البحث والتطوير من 0.5% في العام 1995 م إلى 1.5 % من إجمالي الناتج في العام 2000 م ، ووجهت أيضاً أهداف خطتها الخمسية خلال تلك الفترة نحو تحسين تطبيقات التقنية في قطاع الزراعة ، وتطوير البنية الأساس الوطنية للمعلومات، وزيادة التطوير في عمليات التصنيع).

وقد ارتفعت نسبة الإنفاق على البحث العلمي في الصين مؤخراً إلى ما يقرب من 2.5% من إجمالي الإنفاق القومي، فقد بلغت ميزانية الصين للبحث العلمي ما يقرب من 136 مليار دولار في الوقت الذي لم تتجاوز فيه هذه الميزانية 30 مليار دولار فقط في العام 2005

أما باقي دول العالم ومنها الدول العربية ، فلا يتجاوز إنفاقها على البحث العلمي أكثر من 116 بليون دولا ر .وهذا المبلغ ليس لأمة العرب فيه سوى 535 مليون دولار، أي ما يساوي 11 في الألف من الدخل القومي لتلك البقية من العالم .

كما أن جملة الباحثين في الوطن العربي هم أقل من 16 ألف باحث، وتكلفة الباحث الواحد في السنة لا تتعدى 36 ألف دولار .وفي إحصائيات صادرة عن الجامعة العربية في العام 2006 أنه يقابل كل مليون عربي 318 باحث، في الوقت الذي تصل فيه النسبة في الغرب إلى 4500 باحث لكل مليون شخص.

ويذكر أن إسرائيل تنفق على البحث العلمي 9 مليار دولار حسب معطيات العام 2008 م وهو ما يوازي 4.7% من إنتاج إسرائيل القومي (9).كما أن معدل ما تصرفه حكومة إسرائيل على البحث والتطوير المدني في مؤسسات التعليم العالي ما يوازي % 34.6 من الموازنة الحكومية المخصصة

للتعليم العالي بكامله، أما باقي الموازنة، فهو للرواتب، والمنشآت، والصيانة، والتجهيزات (10)

الدولة	نسبة الإنفاق من الناتج القومي	نصيب الفرد من الإنفاق على البحث العلمي (دولار)

وجملة الباحثين في إسرائيل حوالي 24 ألف باحث . وأفادت مصادر بوجود حوالي 90 ألف عالم ومهندس في إسرائيل يعملون في البحث العلمي وتصنيع التكنولوجيا المتقدمة خاصة الإليكترونيات الدقيقة والتكنولوجيا الحيوية (11) ،

وتكلفة الباحث الواحد في الدولة اليهودية 162 ألف دولار في السنة أي أكثر من أربعة أضعاف تكلفة الباحث العرب وفي الوقت الذي يوجد في العالم العربي 363 باحثاً لكل مليون نسمة، فقد بلغ عدد الباحثين في إسرائيل 25 ألفاً، بمعدل 5 آلاف باحث لكل مليون نسمة .وتلك أعلى نسبة في العالم بعد اليابان التي وصل العدد فيها إلى 5100 باحث.

وبالنظر إلى نسبة الإنفاق على البحث العلمي من إجمالي الدخل القومي، فإن إسرائيل تتساوى في الصرف على البحث العلمي مع اليابان والولايات المتحدة وألمانيا وفرنسا، وإسرائيل تنفق على البحث العلمي ما يساوي 1% مما ينفق في العالم أجمع، وإسرائيل تنفق ضعف ما تنفقه الدول العربية مجتمعة على البحث العلمي والتطوير، فالولايات المتحدة تنفق .3.7 % وبريطانياً .1.8% وألمانيا 2.6%[8].

ثانيا– انخفاض نصيب الفرد من الأنفاق على البحث العلمي

أما بالنسبة لنصيب الفرد من الإنفاق على البحث العلمي ، فقد احتلت إسرائيل المرتبة الأولى عالميا بواقع 1272.8 دولار وجاءت في المرتبة الثانية الولايات المتحدة الأمريكية وأنفقت حوالي 1205.9

دولار وثالثا جاءت اليابان بواقع 1153.3 دولار. أما الدول العربية فقد جاءت مائة مرة اقل من إسرائيل من حيث نصيب الفرد من الإنفاق على البحث العلمي حيث أنفقت ما معدله 14.7 دولار سنويا على الفرد، والدول العربية الموجودة في آسيا بما فيها الدول النفطية كان نصيب الفرد 11.9 دولار وهو ما يساوي ما تنفقه الدول الأفريقية التي تصنف بالفقيرة جداً التي بلغ نصيب الفرد فيها ما مقداره 9.4 دولار .

جدول (1) نصيب الفرد من الانفاق على البحث العلمي.

إسرائيل	4.7	1,272.8
اليابان	3.4	1,153.3
الدول الأوروبية	1.8	531
أمريكيا الشمالية	2.6	1,205.9
أمريكيا اللاتينية	0.6	58.4
الدول المتقدمة	2.3	710
الدول النامية	1.0	58.5
الدول العربية	0.2	14.7
الدول العربية في آسيا	0.1	11.9
الدول الأفريقية	0.5	9.4
المعدل العالمي	1.7	170

المصدر: تقرير اليونسكو حول العلوم والتكنولوجيا 2008 الجدول

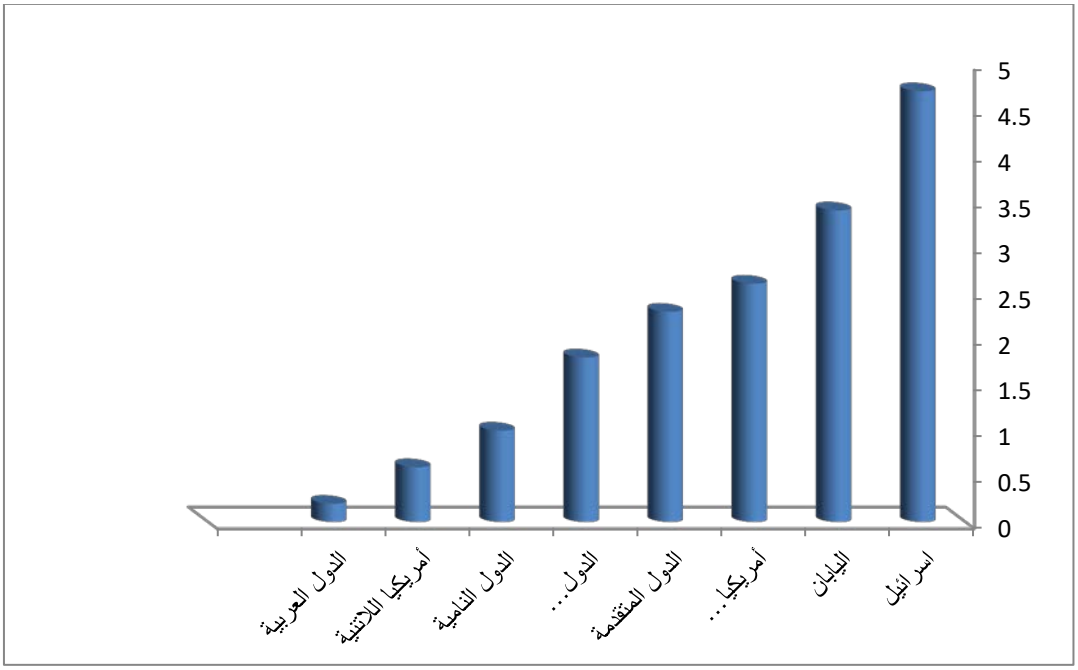

الشكل (1) نصيب الفرد من الإنفاق على البحث العلمي بحسب أقاليم العالم المختلفة

وتقدر إنتاجية الباحث الواحد في حدود (0.2) بحث للباحث سنويًا، وتصل إلى 1.5 بحث للباحث سنويًا في الدول المتقدمة، ويصل معدل الإنفاق على البحث والتطوير في المنطقة العربية إلى حوالي أربعة دولارات للفرد الواحد، بينما يصل في اليابان إلى (195) دولار، وإلى230 دولار في ألمانيا .وتخصص الجامعات العربية (1 %) من ميزانيتها للبحث العلمي، بينما تتجاوز هذه الحصة في الولايات المتحدة 40% [9]

ويرى المهتمون بالتعليم الجامعي، من خلال خبراتهم وملاحظاتهم وواقع البحث العلمي ومنشوراته في الجامعات، أن البحث العلمي في العراق لا يزال متواضعًا، في المجالين النظري والتطبيقي، وغالبا ما نجد أن نشاطات البحث العلمي التي يقوم بها عضو هيئة التدريس

في الجامعات العربية لا تشكل في أحسن الأحوال أكثر من (5 %) من مجموع أعبائه الوظيفية، إضافة إلى أن البحث العلمي في الجامعات العراقية موجه وفي أغلب الأحيان، لأغراض الترقية الأكاديمية والتثبيت، ونادرًا ما يوجه إلى معالجة قضايا المجتمع ومشكلاته وهمومه .

جدول (2) الترتيب العربي من التصنيف العالمي لبراءات الأختراع.

الدولة	المجموع الكلي	المرتبة العالمية
الولايات المتحدة	4,380,724	1
اليابان	725,866	2
المانيا	313,078	3
المملكة المتحدة	129,762	4
كوريا الجنوبية	57,968	8
إسرائيل	16,805	14
الدول العربية مجتمعة	836	
لوكسمبورغ	974	

المصدر: تقرير اليونسكو حول العلوم والتكنولوجيا ،2008

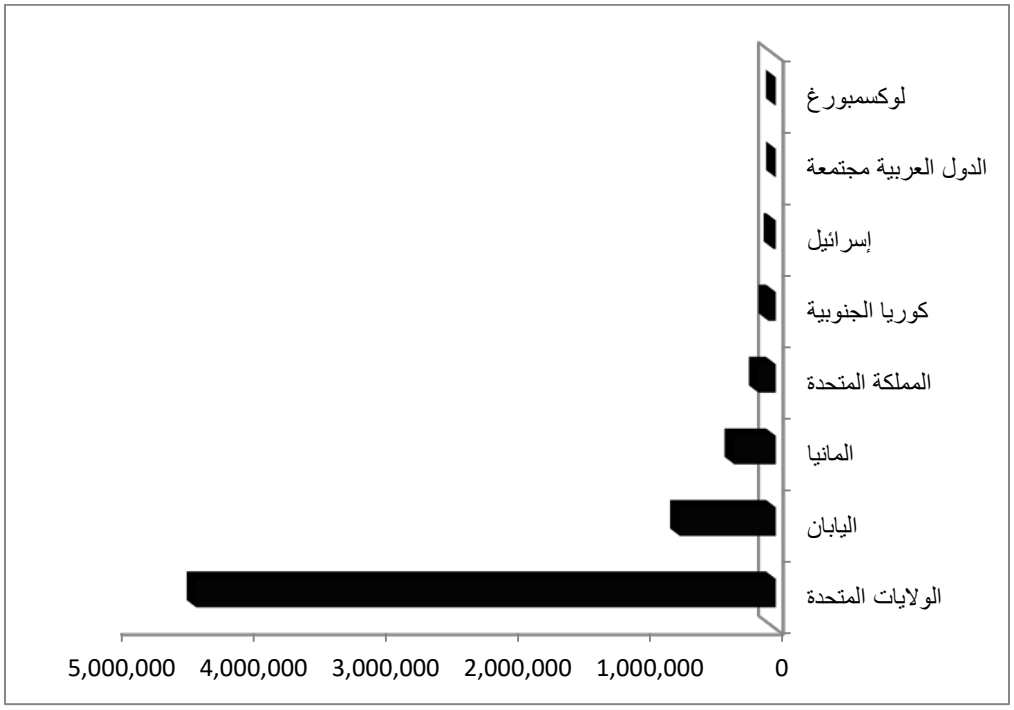

الشكل (2) الترتيب العربي من التصنيف العالمي لبراءات الأختراع

ثالثا: انفصال البحث العلمي عن المجال التطبيقي ومشكلات المجتمع

هناك فجوة واسعة بين هموم المجتمع وتطلعات البحث العلمي ، فاغلب البحوث عبارة عن بحوث نظرية لا تعالج الواقع الذي يعيشه المجتمع، إذ يتم التركيز على الجوانب المجردة من دون الاهتمام بواقع المجتمع المحلي، من أجل هذا نلمس غياب الانسجام بين ما يعده الطلاب من عمل علمي وما يحدث في مجتمعاتهم من مشاكل ، كما أن البحوث العلمية التي يجريها الباحثون هي في اغلبها تهدف لأغراض الترقية العلمية، لذا على الباحث اليوم أن يتجه نحو معالجة ما تعانيه المجتمعات من مشاكل على جميع الأصعدة، وأن تواكب المواضيع المختارة مختلف المستجدات التي تحدث في مختلف المجالات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية ، وأن توجه بالدرجة الأولى لخدمة واقع المجتمع المحلي. ويمكن تقسيم البحوث العلمية الى ما يأتي [10].

- البحوث الأساسية Basic Research وهي الأنشطة التجريبية أو النظرية التي تجري أصلا من أجل اكتشاف معارف جديدة.
- البحوث التطبيقية Applied Research وهي بحوث تجري حسب أهداف محددة لتطبيق نتائج مباشرة يتم تنفيذها من قبل باحث أو فريق متعدد الاختصاصات وحسب برنامج زمني محدد .
- البحث والتطويرR and D وهو نشاط خلاق منسق ويجري لزيادة المعرفة العلمية والتكنولوجيا للوصول إلى تطبيق جديد .

والجدير ذكره أن حوالي (99%) من رسائل الماجستير والدكتوراه في اليابان مبنية على مشكلات حقيقية تعاني منها المؤسسات البيئية والصناعية .

رابعا : المعوقات العلمية

وتتجلى في ضَعف التعاون والتنسيق البحثي، فكلّ يدخل البحث العلمي بمفرده، فرداً، أو جماعة، أو مركزاً، أو جامعة، ويمكن تلخيص أهم المعوقات في البحث العلمي فيما يأتي [11]:

1 – عدم وجود إستراتيجيات واضحة في مجال البحث العلمي.

2 – ضَعف الأعداد والتأهيل البحثي للباحثين

3 – ضَعف قاعدة المعلومات في المراكز البحثية والمؤسسات التعليمية

4 – الجهل بالمراكز البحثية في الجامعات وضَعف التواصل معها.

5– فقر الجامعات المدقع للمكتبات المتطورة، ولربما انعدامها تماما في بعض الكليات.

خامسا : غياب مفهوم الجامعة المنتجة

الجامعات في الدول النامية لا تزال بصفة عامة عاجزة عن بناء علاقة تفاعلية قوية مع مجتمعها وهى تعيش في عزلة تامة ، وتشكل عبئا على ميزانية الدولة ولا تظهر أي اهتمام

لإحداث المجتمع وقضاياه ، كما أن مؤسسات الدولة ودوائرها لا تتجه صوب تفعيل العلاقة مع الجامعة، بل تتركها تعيش في قصرها العاجي في دوامة التنظير مبتعدة عن التطبيق الفعلي والحقيقي ، كما أن بعض بحوثها التطبيقية تبقى أسيرة الرفوف . وهذا النموذج يمثل الحالة الأسوأ التي يمكن أن تكون عليها الجامعة.

قد أوضحت التجارب في الدول النامية خلال المراحل الزمنية السابقة نماذج من التخبط والتأرجح في سياستها الداخلية والخارجية ، فضلا عن أن تلك السياسات كانت بمعزل عن البعد الجماهيري ، وهي على الأغلب قرارات عشوائية متخبطة تلتمس طريقها وسط ظلام دامس . كما أصبحت الجامعات في تلك الدول مجرد مؤسسات لمنح الشهادات وتخريج أعداد هائلة من الطلبة ، وهي مؤسسات تكاد تكون منغلقة على نفسها تمثل عبئا إضافيا على الميزانية العامة للدولة [12].

سادسا: الاستهانة بنظام الدراسات العليا من خلال فتح آفاق القبول، والابتعاد عن الرقابة في الأبحاث والدراسات العلمية.

سابعا: عدم تطبيق معايير الجودة في التعليم العالي والبحث العلمي بدءا بأعداد الطلبة ونظام القاعات، وغيرها.

ثامنا: تدني المستوى الاقتصادي لأسرة الطالب، مما ينعكس سلبا على نفسيته وعملية اقتناء الكتاب والمستلزمات الخاصة بالدراسة نحو الحاسوب وغيره.

تاسعا: عدم الإيمان العميق بفلسفة الجامعة وهويتها الأساسية القائمة على التعلم، والإنتاج وعلاقة الواقع، وبناء الإنسان، فقد بدأت تكون على شكل واجهة اجتماعية في البلد ليس إلا.

عاشرا : فشل مؤسسات التعليم العالي والمتمثلة بالجامعات في طريقة مخاطبة عقول الطلبة من خلال فشلها في تحفيزهم على التفكير والابتكار ، واعتماد المنهجية المتبعة على الحفظ والتلقين ، وهي عادة سيئة اكتسبها الطلبة واعتاد عليها الكثير من التدريسين اما لسهولتها او لوجود عقبات تحول دون اتباع وسائل اخرى . وتاسيسا على ماتقدم اعتاد الطلبة على روتين تلقيني يقوم على الجمود والتذكر ، كما اعتاد التدريسي على عدم الابداع والتقوقع ضمن حيز علمي محدود ، وهذا الحال يعد اهم عقبة تواجه البحث العلمي لان هذا النظام لايحفز على البحث والتقصي .

النتائج والتوصيات:

يجب على الجامعات العراقية التوجه إلى بناء قاعدة معلوماتية عربية الهوية وخاصة في ظل ثورة العولمة التي نقلت قدرات العمليات الإنتاجية إلى مناطق مختلفة من العالم، وقد خلص البحث إلى مجموعة من التوصيات يمكن عرضها من خلال النقاط التالية:

1- تشجيع إقامة مراكز البحوث والتطوير الصناعية مع تفعيل دور هذه المؤسسات في الشراكات مع مراكز البحوث العالمية وفقاً لحاجات كل دولة وبشكل تكاملي في مجالات المياه والطاقة المتجددة، والتكنولوجيا الحيوية، ومكافحة التصحر والاستخدامات السلمية للطاقة النووية ودعم عمليات التطوير للتكنولوجيا وصولا إلى مرحلة الاستيعاب والإبداع وترجمة هذه البحوث و تسويقها تجارياً.

2- تشجيع الارتباط بالتكنولوجيا الصناعية الدولية من خلال المشاريع المشتركة التفاعلية وصولا إلى الإنتاج والتسويق وفقا لمعايير الجودة الشاملة عالميا.

3- تغطية السوق العراقية بدراسات تسويقية متكاملة لخدمات البحث العلمي تحدد نقاط القوة والضعف للمنتجات، وما ينبغي أن تكون عليه هذه المنتجات وما يمكن تقديمه من خلال الصناعات العربية سواء على المدى القريب أو المتوسط أو البعيد ، بمعنى الأخذ بالبعد الاستراتيجي في الحسبان.

4- إنشاء شبكة معلومات صناعية عراقية تخدم كافة قطاعات الصناعة ومرتبطة بشبكات المعلومات الدولية حتى تيسر الوقوف على وملاحقة المتغيرات الدولية.

5- تهيئة التشريعات والإدارات الحكومية للعمل على تشجيع التعاون والتبادل السلعي والخدمي وفي كافة الصناعات المعرفية (الاستهلاكية – الوسيطة – الرأسمالية) وصولا إلى الاستخدام الأمثل للموارد الاقتصادية.

6- إعادة هيكلة مراكز البحوث والتطوير من خلال استراتيجية متكاملة للبحث العلمي.

7- زيادة الأنفاق على البحث العلمي العربي إلى ما يعادل 2,5% من الناتج القومي الصافي خلال
العشر سنوات القادمة .

8- ضرورة الاهتمام بالبحوث العلمية التي تتناول القضايا التطبيقية ذات التأثير في حياة المجتمع لتحقيق الانسجام بين المجتمع ، مع وجوب تفعيلها على أرض الواقع لحل مختلف المشكلات كي لا تظل حبيسة الأدراج.

9- تمتاز الدول العربية عموما والعراق واحد منها بعدم وجود نظم وتشريعات واضحة ومستقرة بعيدة عن البيروقراطية تنظم أداء المؤسسات البحثية وفق معايير كفاءة وجودة يشارك في تطبيقها علماء على قدر كبير من الخبرة والمسئولية والكفاءة المهنية.

10-الاهتمام بالكادر التدريسي من خلال إعداده الإعداد السليم، والعناية بمنهج البحث لديه.

11- رسم الخطوات المستقبلية العلمية من خلال تشكيل فرق الاستشارة العلمية، والعمل بالخطط المستقبلية.

12-اعتماد التوزيع المكاني السليم، والبنايات المؤهلة للجامعات، فقد تقوقعت بعض الجامعات في مدارس أو بنايات خربة لا ترقى لان تكون جامعة.

13- تصعيد لغة الخطاب العلمي في وسائل الإعلام المرئي والمسموع والمقروء من أجل المحاولة بالتأثير في المتلقي، وإعلاء منصة الطالب والأستاذ، وبيان قيمتهما وقيمة الجامعة والمدرسة والمؤسسة العلمية.

14- ضرورة اعتماد معايير الجودة العالمية التي توصي بها وزارة التعليم العالي والبحث العلمي.

15- ردم الهوَّة والفجوة الواسعتين بين التخطيط والتعليم العالي، لا سيما التخطيط الاقتصادي والاجتماعي والسياسي.

الهوامش والمصادر

(1) توبي ا .هيف ، فجر العلم الحديث الإسلام –الصين –الغرب ،ترجمة محمد غصفور ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، العدد (260) ،2000،ص67

(2) يمني طريف الخولي ، فلسفة العلم في القرن العشرين : الأصول .المصادر .الآفاق المستقبلية ، سلسلة عالم المعرفة (264) ، الكويت ، 2000، ص 14 .

(3) عبد اللطيف عبد الحميد العاني ، البحث العلمي والتنمية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد

(4) أسود، فلاح شاكر، الدراسة الميدانية أسلوب البحث المعتمد في المدرسة الجغرافية العربية، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية، مجلد 11، مطبعة الحوادث، بغداد، 1980.

(5) فهد العرابي الحارثي ، البحث العلمي والتنمية ، مركز أسبار للدراسات والبحوث والإعلام ، الرياض ،2009

(6) اتحاد مجالس البحث العلمي العربية ، استراتيجية عمل اتحاد مجالس البحث العلمي العربية خلال الفترة 2008-2016 الخرطوم– جمهورية السودان ، www.pdffactory.com

(7) صبحي القاسم، سيرة البحث العلمي والتطوير في الوطن العربي، معالم الواقع وتحديات المستقبل ، شئون عربية، عدد 104 ، ديسمبر 2000 .

(8) عماد أحمد البرغوثي ومحمود أحمد أبوسمرة ، مشكلات البحث العلمي في العالم العربي ، مجلة الجامعة الإسلامية ،جامعة القدس، سلسلة الدراسات الإنسانية ، المجلد الخامس عشر، العدد الثاني،2007 ،ص1138

(9) حسين عليوي ناصر الزيادي ، البحث العلمي في العالم العربي – واقعه – مشاكله – دوره في خدمة المجتمع ، بحث مشارك في المؤتمر الفكري السابع لمركز الدراسات التاريخية الموسوم بالبحث العلمي نرتقي بالأداء الجامعي ،جامعة تكريت ،26-27-11- 2013

(10) المصدر نفسه .

(11) حسين عليوي ناصر الزيادي ، دور الجامعة في تنمية المجتمع واتخاذ القرار السليم ، بحث مشارك في المؤتمر العلمي السابع لمركز المستنصرية للدراسات العربية والدولية ،29-30 نيسان 2013

(12) عبد الباقي عبد الجبار الحيدري، واقع التعليم العالي في العراق بين التحديات والضرورة، بحث في موقع الحوار المتمدن: 11/ 12/ 2012م.

التكامل بين تخطيط الاعمال وتخطيط تقنية المعلومات في الشركات صغيرة الحجم

أ.م. د عبد العظيم الزيادي
كلية الإدارة والاقتصاد/جامعة ذي قار

المستخلص

ازدادت شراسة المنافسة التي تواجهها الشركات صغيرة الحجم، وأصبحت سوق عملها عاصفة بمعنى الكلمة، لذا، أصبح تسخير قوة تقنية المعلومات لتنفيذ استراتيجياتها وتحسين عملياتها وتعزيز قيمة منتجاتها وخدماتها يشكل هاجسا للمعنيين بإدارة تقنية المعلومات فيها. لان العديد منها ركزت اهتمامها ولفترة طويلة على التقنية ولهثت كثيرا للحاق بأحدث ما توصلت الية الابداعات والابتكارات بدون الالتفات الى تأثيرها على الاعمال ولم تستوعب حاجات تلك الاعمال بدقة. ولتجاوز هذه الإشكالية ظهر تخطيط أنظمة المعلومات المتكامل مع تخطيط الاعمال بوصفه أحد خياراتها الرئيسة وتجلت أهميته بحكم محاولة الشركات صغيرة الحجم في مختلف بقاع العالم الاستفادة القصوى من تطبيقات تقنية المعلومات التي يكمن سر الوصول اليها في تكامل خطط أنظمة المعلومات مع خطط الاعمال التي تؤدي في نهاية المطاف الى المؤازرة المتبادلة بينهما. وقد بينت الشواهد ان الشركة التي تسلك هذا الطريق تتفوق في أدائها على التي تتجاهله (Vincent et al: 2017:59). ومع ما يحمله من أهمية استثنائية فانه من المواضيع التي تجاهلها الباحثين في مكتبة أنظمة المعلومات العراقية. ومع امتداد تسارع وتيرة الإبداعات بتقنية المعلومات والاتصالات في العقد الأخير الى جميع الشركات، الذي أدى الى فرض ضغوط كبيرة عليها، دفعتها صوب الاستعانة بها، لتحسين قدرتها في الاستجابة بسرعة لما يطلب منها ولتحقق ما تريده لذاتها ولتصل في نهاية المطاف الى تحقيق أهدافها. استلزم الامر الخوض أكاديميا في هذه الجزئية لتنبيه المعنيين لها في شركاتنا.

المقدمة

أصبح ربط المعرفة ذات الصلة بالأعمال وبتقنية المعلومات التي يحوز عليها ويتبادلها المديرين بالأعمال وبتقنية المعلومات في غاية الأهمية للشركات صغيرة الحجم لأنها تُمكن المديرين بالأعمال وبتقنية المعلومات والمديرين الاخرين على نحو مشترك من تشخيص حلول تقنية المعلومات المناسبة التي يمكن ان تعالج احتياجات العمل. لذا أصبح التكامل بين تخطيط المنظمة وتخطيط أنظمة المعلومات واقعا يتطور بتطور قابليات تقنية المعلومات وأضحت ادارة المنظمة الفاعلة له مكمنا للنجاح وسرا من اسرار بلوغ الشركات على اختلاف مسمياتها اهدافها على الصعيدين التشغيلي والاستراتيجي في عموم العالم. وفي ضوء هذا الفهم ، ومادام مدير تقنية المعلومات في الشركة افتراضاً يخطى بقوة هيكلية وينبغي ان يتوافر على قابليات تؤهله لإظهار فاعليته الاستراتيجية ويحتكم على رؤية وبصيرة ثاقبة تمكنه من صياغة علاقات وفهم متبادل حول الاعمال وتقنية المعلومات لأنها ممارسات تنضوي تحت جناح تخطيط أنظمة المعلومات اتجه المهتمون بالموضوع الى العناية به والبحث عن طرائق تجعله يتعشق مع تخطيط الاعمال.الذي وصفه (King:2009) بانه عمليات معرفية وتنظيمية لتحديد

اهداف المستقبل وتشخيص الأفعال والموارد الضرورية لبلوغ تلك الأهداف وانشاء طرائق لتقييم النتائج طيلة فترة التخطيط وكيفية مراجعة هذه الخطط. ومع انه عملية صعبه لا يحبذ المديرين الانخراط بها، مع ذلك، ان وجود ارض الممارسة المناسبة له يُمكن أصحاب القرار من وضع أصابعهم اكتشافا لتصور معين تبثق منه قيما خاصة، ومن الطبيعي ان يكون معبراً عنة بلون خاص وأهم ما يميزه انه فاعل ومنشئ ولا يتأمل الضائع وانما يجسد حركة الواقع والمتصور، يدفع المنظمة نحو التجدد وينطوي على مبادرات وتصورات تستلهم من استراتيجية شركته. وإذا لم تنخرط المنظمات به وفقا لما سوق له (Salmela et al :2000) فقد تفشل في بلوغ النتائج المرجوة من استثماراتها في تقنية المعلومات. ومع انتشار تقنية المعلومات وتغلغلها في معظم النشاطات التنظيمية، شُخص التكامل بين تخطيط الاعمال وتخطيط أنظمة المعلومات على انه واحدا من القضايا الرئيسة التي تواجه المديرين التنفيذيين المعنيين بالأعمال وبتقنية المعلومات. ويكمن جوهر تخطيط أنظمة المعلومات في عمليات التخطيط التي تُقيم بيئية أنظمة المعلومات الخارجية والمتطلبات الداخلية وتشخيص التطبيقات الحديثة وتطوير مجموعة من خطط تقنية المعلومات الاستراتيجية لدعم خطط المنظمة (Premkumar and King:1992).ومهد الدور الجديد لتقنية المعلومات في المنظمة السبيل للتخطيط لوظيفة تقنية المعلومات وصياغة خططها على غرار خطط الاعمال . ولان قرار استراتيجية الاعمال يحدد ملامح طريق العمل على أساس فهم موارد المنظمة وموقفها التنافسي وحاجات السوق، وان هذه القرارات توظف افتراضا الموارد المتاحة للوصول بالمنظمة الى أفضل حالة تنافس مع الاخريات، ومن ثم تأتي القرارات التفصيلية ذات الصلة بالكيفية التي تترجم بها استراتيجية تقنية المعلومات استراتيجية الاعمال بما يسمح للمنظمة التنافس على نحو فاعل وان هذه القرارات غالبا ما تتخذ بعد اتخاذ قرارات استراتيجية الأعمال لان النتائج لا تكون على وفق ما هو مأمول إذا ابتعدت الاستراتيجيتين عن بعضهما. وبينت الشواهد إن سبب ذلك وجود فجوة بين تخطيط الاعمال وتخطيط أنظمة المعلومات، الذي أدى الى ضعف التآزر بينهما، وبالنتيجة أسفر عن عدم إسناد تقنية المعلومات للمجالات الوظيفية الأخر، ويقود إلى تلكأ المنظمة في تحقيق ما تصبو أليه. وبالتالي أخذت أسهم التكامل بين تخطيط المنظمة وتخطيط تقنية المعلومات بالتصاعد وظهر إلى واجهة الأحداث بقوة وتعزز موقعه في بداية العقد الحالي، وعزى (Earl and Feeny:1994) هذا الاهتمام إلى زيادة المنظمات العالمية استثماراتها في نظم المعلومات بشكل كبير مما دفع المديرين التنفيذيين إلى التساؤل عن المدى الذي تساند هذه الاستثمارات أهداف المنظمة الاستراتيجية ومقدار استغلال الفرص التي توفرها نظم المعلومات اكتساب المزايا التنافسية. وأن هذا الوصف على وفق ما ذكره(Jarmo:2004) وضع تحدي جديد على إدارة نظم المعلومات حثها على وجوب توجيه خططها لخدمة المنظمة وجعلها مساندة لها، واستلزم الأمر من واضعي استراتيجية تقنية المعلومات أدراك مفهوم ومحتوى استراتيجية المنظمة على حد سواء ، وتوجب على مخططي الاستراتيجية استيعاب مضمون خطط تقنية المعلومات لكي يسير العمل على نحو متناسق للوصول إلى التنفيذ الناجح لكلا الاستراتيجيتين بما يكفل نجاح المنظمة .وبالنتيجة أملت على

المنظمة تطوير استراتيجيات تقنية واستراتيجيات الأعمال على نحو منسجم وان يجري إعدادهما وتنفيذهما بشكل متزامن وان تتم صياغتهما بإشراك مخططي نظام المعلومات في وضع الخطط الاستراتيجية للمنظمة والعكس بالعكس ليكون هذا التكامل بمثابة الدرع الواقي الذي يمكن المنظمة من السيطرة على هيكل كلفها ومحاولة الانتفاع إلى أقصى حد ممكن مواردها وقابليتها لمواجهة ما يعترضها من منافسة شديدة في الأسواق ولتوكيد بقائها وتعزيز فرص نموها وزيادة أرباحها. وهذا ما حفز الباحث في التصدي لهذه المسألة واستباق الأحداث في محاولة بناء أسس نظرية مستمدة من دراسات وتجارب رائدة في هذا المضمار لردم الفجوة بين إستراتيجية المنظمة واستراتيجية تقنية المعلومات. عسى أن ينفع المنظمة العراقية في بناء خطط لنظم معلوماتها تتكامل وتصب في خدمة خططها العامة وتوجهها لتكون قوه دفع لها في استيفاء مستحقات التنافس في الأسواق العالمية وتحقيق موطئ قدم لها في الأسواق العالمية.

مبررات الدراســة وأهميتها

نـال التكامـل بـين تخطـيط الاعمـال وتخطـيط أنظمـة المعلومـات الـذي يعـده (Lederer and Sethi:1991) بمثابـة عمليـات انشـاء اهـداف حاسـبيه المنظمـة وتشخيص التطبيقات الممكنة التي يتعين على المنظمة تنفيذها. قسطا وافرا من الاهتمام في العالم المتقدم منذ فترة ليست بالقصيرة، وان كانت مجرد إشارات عابرة، غير إن الموضوع بدا يشغل حيزاً كبيراً ويظهر بجلاء من خلال تناوله في الدوريات العلمية التي تعج بالكثير من الدراسات، فقد انبرا عدد كبير من الباحثين لدراسته وبيان دلالاته وانعكاساته بالتطبيق خصوصا في السنوات الأخيرة. فانتقل الموضوع من مجرد التفكير بدراسته الى محاولة بناء أسسه الفلسفية وتحريك فاعليته وتطويرها وإغنائها بمفاهيم من هذا الجانب أو ذاك. ولئن كان نمو الموضوع محل النقاش تحيط به الصعاب، ويشق طريقة بصعوبة لتداخل الكثير من العوامل فيه، فقد شرعت المنظمات المرموقة في تطبيقه لأنها لمست ان الإتقان غير البارع له لايسفر عنه ماهو مطلوب ولا يكن بوسعها جني نتائج تؤهلها لأن تكون في الصدارة، غير أن الموضوع لازال غير مطروق في المكتبة العراقية. ويكاد من الصعب على المتابع أن يجد دراسة علمية تعالج الموضوع من قريب أو بعيد. مما أسفر عن شحة معرفية وانسداد نظري لعقل مدير المنظمة العراقية على نحو جعله ينغلق على ذاته ويمتنع عن التعمق في الموضوع ويسبر أغواره ويستوضح دلالاته ومضامينه. كما أن تطبيقاته تبدو ضعيفة أن لم تكن موجود أصلا، ونجم عنه عدم أدراك أهميته وقيمته الفعلية في توجيه موارد المعلومات نحو صياغة وتنفيذ استراتيجية المنظمة.

واستنادا لأهميته ومن منطلق الضرورة شعر الباحث بان هناك حاجة ملحة لإجراء دراسة تعرف بمفهوم وأهمية واستراتيجيات التكامل وكيفية جعلها مصدراً لانتزاع الفرص وبلورتها، لتعد بمثابة نقطة انطلاق نحو دراسات لاحقه تبحث في وسائل وطرائق تساعد في تنمية الموضوع نظريا وتطبيقيا وتمهد السبيل للمدير العراقي باختيار ما يلائم منظمته وبما يجعلها تضيف قدرات وقابليات جديدة تتسلح بها لما قد

يواجهها من منافسة، لاسيما أنها سوف تدخل السوق المفتوح في المستقبل القريب، إن لم تكن قد دخلته فعلا.

أهمية الدراسة وأسئلتها البحثية.

تكمن أهمية الدراسة في كونها وثيقة تهدف إلى توجيه أبصار الباحثين أصحاب القرار في المنظمة العراقية نحو التكامل بين تخطيط الاعمال وتخطيط أنظمة المعلومات من خلال الإجابة عن التساؤلات الآتية:

1.ما هو مفهوم التكامل بين تخطيط الاعمال وتخطيط أنظمة المعلومات وما هي أهميته؟

2.كيف نشأ وما هي مراحل تطوره؟

3.ماهو دوره في الوصول الى التكامل الاستراتيجي؟

مفهوم التكامل بين تخطيط الاعمال وتخطيط أنظمة المعلومات وأهميته

تعددت تفسيرات التكامل بين تخطيط الاعمال وتخطيط أنظمة المعلومات بتعدد المنطلقات الفلسفية والعلمية والإنسانية للمعنيين الذين حاولوا الإحاطة به، و حينما نحتكم أليه بكل ما فيه من قوه وفاعلية للارتقاء بمستوى أداء المنظمة ،يبدو من الضروري التعمق والغوص في منابعه لمد أصحاب القرار بمفهوم واضح الأبعاد يمكنهم من خلق سلوك إيجابي يدفع نحو الاعتقاد بالتطور الحاصل فيه والحاجة أليه لكي تستمد منظمتهم ما يميزها عن الآخرين .وفي ضوء هذا الفهم ،وقبل الدخول في عرض المفهوم ثمة ملاحظة لابد من الإشارة لها وهي أن منظرو علم نظم المعلومات يستخدمون مفردات مختلفة على نحو متبادل (Link,Alignment,Integration) وسوف يستخدم الباحث تعبير التكامل الاستراتيجي(Alignment)التي يعرفه قاموس(Webster's) على أنها وضع شيئين مع بعضهما أو دمج الجزء مع الكل .أما المفهوم العلمي للتكامل فيصفه(Broadbent and Weill:1993) بأنه الحالة التي بها تساند استراتيجيات نظم المعلومات استراتيجية المنظمة،ويعتقد (Woolfe:1993)أن وجود تناغم بين أهداف ونشاطات الأعمال مع أهداف ونشاطات نظم المعلومات يدل على تكامل تخطيط نظام المعلومات مع تخطيط المنظمة،وقصد (Lederer and Mendelow:1989) بالتكامل دعم نظم المعلومات للأهداف والنشاطات التنظيمية في أي مستوى تنظيمي.وصوره (Das et al:1991) بانسجام وتناغم محتوى وعمليات تخطيط نظم المعلومات مع استراتيجية المنظمة التنافسية .وبين (Scarbough:1998) أن التكامل هو محاولة لربط تقنية المعلومات بالحاجات الاستراتيجية للأعمال. وخلص (Kent:1999) إلى القول إن التكامل هو تعشيق وظائف ونشاطات تخطيط أنظمة المعلومات مع تخطيط المنظمة. ووصف (Vincent et al :2017) التكامل الاستراتيجي بانه التلاؤم بين توجه استراتيجية الاعمال واستراتيجية تقنية المعلومات وتركيزه التكامل بين خطة الاعمال وخطة تقنية

المعلومات من اجل المحافظة على تكامل حلول واستراتيجيات الاعمال وتقنية المعلومات. وبذلك فانه برأي (Lunardi:2017) يعد بمثابة وسيلة لضمان إضافة الاستثمارات في تقنية المعلومات قيمة للمنظمة.

أما أهمية الموضوع فيبررها تهافت المنظمات عليه وهرولتها مسرعتاً نحوه، وفي هذا الصدد، شخص المعنيين طائفة منوعة من المبررات التي تحفز المنظمة على النزوح نحوه، وسيقت أدلة كثيرة تحفز السير باتجاهه، وأفاض كل منهم في دراسته بمبرر للاستعانة به. وأشار (Goldsmith :1991) إلى إن التكامل يساعد في الاستغلال الأمثل للفرص التي توفرها تقانة المعلومات لأغراض إستراتيجية. وأوضح (Byrd et al :1995) بان التكامل يسفر عنه تآزر وانسجام بين خطط المنظمة وخطط نظام المعلومات من خلال دمجه المشاغل الفنية مع مشاغل المنظمة. ويرى King and Teo:1996) انه يكفل تناسق أنشطة تخطيط نظم المعلومات مع أنشطة تخطيط المنظمة وبذلك تؤدي وظائف نظم المعلومات إلى دعم استراتيجية المنظمة. ويعتقد (King and Teo :2000) بان التكامل حيوي لوظيفة نظام المعلومات لأنه يساند وعلى نحو فاعل استراتيجية المنظمة. وبرر (Corbett and Molloy:1999) الدعوة المتصاعدة للتكامل بأنها تؤدي إلى تحسين العلاقة مع المستفيد ويزيد من دعم الإدارة العليا والتنبؤ بالموارد المطلوبة وتخصيصها على وفق ذلك مما يساعد في تنفيذ خطط المنظمة ويحقق أهدافها. وشدد(Mortagy:2003) بان إستراتيجية تقنية المعلومات تحدد الأنظمة الالكترونية الداعمة والمعبرة عن إستراتيجية المنظمة ورويتها المستقبلية ،لذا لابد من تكامل الاثنين مع بعضهما.وذهب (King:2003) الى القول ان إستراتيجية تقنية المعلومات وصف مستقبلي للمنظمة وما تكون علية في المستقبل،وهذا مبرر كاف لضرورة تكاملها مع إستراتيجية المنظمة.وأكد(Harast et al:2003) ان عدم تبني التخطيط الواضح والمعتمد على تنفيذ إعمال المنظمة ومراقبة دمج تقنية المعلومات في المنظمة مؤشر عال على ارتفاع المخاطرة ومؤشر على الفشل في تحقيق النتائج المرجوة أثناء تنفيذ مشروع تقنية المعلومات. وأفاد(Phillips:2006) أن المنظمة التي تسعى إلى المحافظة على أداء نشاطها واستمرارها وتكيفها مع التغيرات في العالم ،لابد ان تلجأ الى إعداد إستراتيجية تقنية المعلومات وتتابع التغيرات في هذا المضمار.وذكر(Marchewke:2006)ان إستراتيجية تقنية المعلومات تمكن المنظمة من تقديم المنتجات والخدمات ،وتغير طبيعة العلاقة بين المنظمة والمنظمات الأخرى ،والعلاقة مع الموردين والعملاء ،وبين العاملين في المنظمة،وعلى ذلك ،ثمة حاجة لإيجاد التوازن بينها وبين إستراتيجية المنظمة لضمان نجاح اقتناء وتنفيذ الأنظمة التقنية المناسبة.

صفوة القول، أن التكامل يعمل على تسخير القدرات المميزة لتقنية المعلومات ويضعها تحت تصرف إدارة المنظمة بما يمكنها من امتلاك مفتاح تستطيع به أيجاد الحلول لما يواجهها من مشاكل طارئة أم مستديمة، ودرء الأخطار عنها لتكون في مأمن من كل ما يحول بينها وبين الارتقاء بأدائها وصولاً إلى اكتسابها حداً تنافسياً. وربما يوفر العرض متقدم الذكر أجابه على تساؤل الدراسة الأول.

جذور التكامل الاستراتيجي ومراحل تطوره

أن الحديث عن التكامل لم يكن وليد اليوم، فجذوره ترجع إلى الستينات من القرن السابق عندما بينت الوقائع آنذاك استحالة تنفيذ النظم المخطط لها بشكل فوري. وفي الوقت ذاته، أدركت المنظمات أن التطوير المتتابع للأنظمة لا يسفر عنه أنظمة تتداخل مع بعضها بشكل سليم. عليه، اقترح مفهوم التكامل لضمان ترابط الأنظمة المطورة مع بعضها البعض لتشكل خطة نظام المعلومات. ورغم حصر مفهوم التكامل بخطة نظام المعلومات، إلى إن النوايا الهادفة لتطبيقه لم تخرج عن المألوف. لذلك، يمكن القول إن البداية الحقيقية للتكامل الاستراتيجي تعود إلى حقبة السبعينات من القرن السابق. وفي هذا الشأن يذكر (king : 1978) ويوصف بانه من أوائل الذين لاحظوا واهتموا به واخذ عاتقه نقل التكامل من أزقته الضيقة إلى أفق أوسع وأفرزت جهوده عن ولادة منهجية لتخطيط نظم المعلومات وقد اقترح منهجية تخطيط أنظمة المعلومات التي يمكن ان تستخدم لدمج استراتيجية الاعمال مع استراتيجية أنظمة المعلومات وأكدت هذه المنهجية على ان مجموعة استراتيجية أنظمة المعلومات (اهداف النظام وقيود النظام واستراتيجيات تصميم النظام) يجب ان تستمد من مجموعة الاستراتيجية التنظيمية (رساله الاعمال واهداف الاعمال والسمات التنظيمية الأخرى)وأطلق عليها (تحويل مجموعة الاستراتيجية) الذي اصبح فيما بعد يسمى التكامل الاستراتيجي . وبمعنى أكثر دقة، إن استراتيجية نظام المعلومات تستمد من استراتيجية المنظمة وتوظف لخدمتها. وتصدى (king and Zmud:1981) للمثالب التي شابت دراسة (king:1978) متقدمة الذكر. واقترحا ما يعرف بالتكامل المتقابل (ذو الاتجاهين) بين تخطيط المنظمة وأنظمة المعلومات. وقد سميت هذه الرؤية فيما بعد بالأنظمة الاستراتيجية، ومهدت هذه الفكرة السبيل إلى إدراك حقيقة مهمة وهي إن نظام المعلومات يمكن إن يؤثر في صياغة الاستراتيجية. وتوالت الدراسات التي حاولت إن تطور مفهوم التكامل الاستراتيجي غير إن الانعطافة الكبرى في مفهوم التكامل حصلت عندما وسع (king:1984) مفهوم التكامل الذي أصبح يعرف بالتكامل التام وبدوره بات أساس الدراسات والتطبيقات اللاحقة في هذا المضمار وتطور ليستوعب المتغيرات الجديدة ويمكن المنظمة من الانتفاع التام من موارد المعلومات. وقد تساهم الصورة التي عرضت قبل قليل إجابة على التساؤل الثاني للدراسة.

ولأجل رسم صورة واضحة عن الموضوع لابد ان نعرج على مراحل تطور التكامل بين تخطيط أنظمة المعلومات وتخطيط المنظمة، الذي يشكل قاعدة له يوصف بأنه طريق سالك لتحقيقه. وقد مر بثلاث مراحل على وفق التصنيف الذي وضعه (Synnott:1987) وهي بإيجاز:

المرحلة الأولى: عصر تخطيط نظم المعلومات ما قبل الإستراتيجية.

نمت هذه المرحلة أواسط العقد السابع من القرن الماضي، تميز تخطيط نظم المعلومات بأنه غير ذي طابع استراتيجي، ولم تكن نظم المعلومات الإستراتيجية معروفة من الناحية العملية. وفي هذا الصدد ذكر (Brynjolfsson:1998) أن الاهتمام انصب

علـى التخطـيط الفنـي والعمليـاتي لـنظم المعلومـات. وبمعنـى آخـر ركـز تخطـيط نظـم المعلومـات فـي تلك الحقبـة علـى تقدير حاجـة المنظمـة المستقبلية مـن الطاقـة الحاسوبية لضمان توفير هذه الطاقة على نحو مناسب بما يكفل أداء مهام المنظمة. وغني عن القول ان فصل تخطيط أنظمة المعلومات عن تخطيط المنظمة سمه لازمت معظم الممارسات ذات الصلة في تلك الفترة.

المرحلة الثانية: عصر تخطيط نظم المعلومات في بداية الإستراتيجية

بدأت في أواخر السبعينات،حيث بدا التخطيط الاستراتيجي للأعمال تأثيره على نظم المعلومات ، وظهرت في تلك الفترة منهجيات التخطيط الاستراتيجي في حقل نظم المعلومات.إذ ركز آنذاك على البيانات وباتت المعلومات تشكل موردا مشتركا ويجب إن يخطط له على نحو شمولي .وفي معرض تناوله لهذه المسالة أشار(Jarmo:2004) إلى إن المنظمات في مستهل العقد الثامن من القرن السابق أعارت اهتماماً ملحوظاً إلى تخطيط نظم المعلومات ،وعزى هذا الاهتمام إلى تزايد تنفيذ مشاريع نظم المعلومات وأتساع نطاقها، دون إن تكون هناك رقابة وسيطرة واضحة عليها.من هنا شرعت الإدارة العليا بالانغماس في تخطيط نظم المعلومات.و شاع في هذه المرحلة تخطيط نظم المعلومات وغدا التخطيط ذا أهمية قصوى للمنظمات في محاولتها لرفع قدرة نظم معلوماتها لتحسين فاعليتها وكفاءتها .

المرحلة الثالثة: العصر الحديث

مع تغلغل تقنية المعلومات وتصاعد أهميتها الاستراتيجية لعديد من المنظمات بشتى مسمياتها أصبح تخطيط أنظمة المعلومات من المشاغل الرئيسة التي تواجه المديرين التنفيذين لأنظمة المعلومات. وظهرت ملامح هذه المرحلة في أواخر الثمانينات واستمرت لحد الآن. وأضحى تخطيط نظم المعلومات يشمل اعتبارات إستراتيجية تعتمد على مفهوم الفاعلية بدلا من اعتبارات الطاقة القائمة على مفهوم الكفاءة. ومما شكل تحديا في هذه المرحلة هو إعادة التفكير بعملية التخطيط وجعلها جزء مكمل لتخطيط المنظمة الشامل .وشهدت هذه المرحلة الدلائل الحقيقية للتطبيقات الإستراتيجية لنظم المعلومات وعمليات تكاملها مع خطط المنظمة.وفي معرض تفسيره لهذا التحول أفاد (Earl:1989) بان المنظمات أدركت أن صياغة إستراتيجية المنظمة وإستراتيجية نظم المعلومات كل على حدة لا يعدو كافياً لضمان مساهمة نظم المعلومات في تحقيق أهداف المنظمة ،من هنا بدأ الحاجة ملحة للتكامل التام.وشاع خلال هذه الفترة التخطيط الاستراتيجي لنظم المعلومات الذي يهدف تقدير موارد معلومات المنظمة ومن ثم إيجاد الاستراتيجيات التي ترفع قدرة هذه الموارد .وأصبح التخطيط الاستراتيجي لنظم المعلومات الذي يتكامل ويتعشق مع خطة المنظمة في العصر الراهن أداة قوية بيد المنظمة المعاصرة للإفادة من تطبيقات نظم المعلومات لإعادة هندسة الأعمال والحصول على مزايا تنافسية .التخطيط الاستراتيجي لأنظمة المعلومات هو عملية تعلم إدارية تفاعلية لغرض دمج اعتبارات تقنية المعلومات في عمليات تخطيط الشركة ودمج

تطبيقات أنظمة المعلومات بأهداف الاعمال وتطوير خطط أنظمة المعلومات المفصلة وتحديد المطلوبات المطلوبة لبلوغ اهداف الاعمال. (Teo and King, 1997)

مما تقدم، يبدو أن التكامل الذي يحمل بين طياته تداخل بين خطط نظام المعلومات وخطط المنظمة بأسرها بما يجعل حركة نظام المعلومات مولد لقدرة أعلى تساعد على تحقيق خطط المنظمة وأهدافها يحظى بأهمية قصوى، لان التسلح بخطة نظام المعلومات لا يكفل النجاح لنظام المعلومات ولا للمنظمة، فثمة حاجة لتجسير العلاقة بين الاثنين. وآلاتي تفسير لصور التكامل بين تخطيط أنظمة المعلومات وتخطيط المنظمة. ورسمت دراسة (King and Teo:1996) اربعة صور للتكامل بين تخطيط المنظمة وتخطيط أنظمة المعلومات من المنظور التطوري.

1-التكامل الإداري

توجد في هذا النوع من التكامل علاقة ضعيفة بين تخطيط المنظمة وتخطيط نظام المعلومات. كما يظهر بالشكل رقم (1). حيث تبدو العلاقة على شكل خطوط متقطعة. ويدل ذلك على إن الجهود المبذولة لاستخدام نظام المعلومات و تقانة المعلومات (حواسيب، الاتصال عن بعد .....الخ) لدعم خطط المنظمة ضئيلة ولا يبدو هناك اهتمام حقيقي بها .

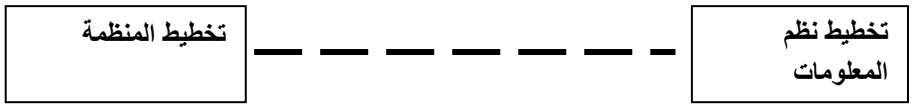

الشكل (1) التكامل الإداري

أن الغرض من التكامل هنا لم يكن ذي طابع استراتيجي، ويركز على دعم العمل الإداري، وتعد وظيفة نظام المعلومات ذات توجه فني بحت، وينحسر دور مدير المعلومات بتصميم الأنظمة مما يستلزم مهارات فنية وتقنية عالية. تعتمد معايير الأداء على الكفاءة التشغيلية، وتطور التطبيقات لتحسين الكفاءة من خلال أتمته العمليات. لا تبدي الإدارة العليا اهتمام بوظيفة نظم المعلومات لأنها وظيفة غير مباشرة لا يتولد عنها سوى التكاليف ولا يظهر دور للمستفيد كمشارك في تخطيط نظم المعلومات. ويبدو تخطيط نظم المعلومات مجرد استجابة للحالة الظرفية، بهذا الصدد ذكر (Hufnagle:1987) إن التخطيط كرس لتبرير المصاريف الكبيرة المخصصة لاقتناء المكونات المادية للحاسوب، تخفيض التكاليف، تحسين القدرات في مجال توليد التقارير والرقابة على نشاطات التطوير .

2-التكامل ألتتابعي.

بمرور الزمن، بدا تخطيط نظم المعلومات يتطور بصفته حقل معرفي، بعد إن لمست المنظمات حقيقة هامة تتمثل في إن التطبيقات التي يجري تطويرها على نحو منعزل يكون من الأجدى إن يتم ذلك من خلال دمجها مع الأنظمة. ويقوم هذا النوع من

التخطيط على وجود علاقة تعاقب أو تتابع بين تخطيط المنظمة وتخطيط نظام المعلومات. وتعتمد فكرة هذا النوع من التكامل حسب ما ذكره(Jarmo:2004) على إن استراتيجية نظم المعلومات يجب إن تستنير وتسترشد باستراتيجية المنظمة. إذ تستمد عمليات تخطيط نظام المعلومات توجيهاتها واتجاهاتها العامة من خطط المنظمة وتصور العلاقة على شكل خط متصل ينبع من تخطيط المنظمة ويصب في تخطيط نظام المعلومات والذي يكون في هذه الحالة مستجيب كما يظهر في الشكل (2) ، واستنادا إلى الفهم ، اخذ مفهوم تخطيط نظام المعلومات ينتقل إلى ضفة أخرى تبتعد عن الاهتمام بمجرد تحديد الإجراءات ذات الصلة بالمفاضلة بين المشاريع المتنافسة وتنظيم الأولويات ، ليصل إلى مرحلة توكيد دور مدخلات الإدارة ، وعلى وفق رأي (Teo and Ang:2000) فان تخطيط نظم المعلومات في هذه المرحلة اهتم بكيفية إدخال أهداف الأعمال في خطط نظم المعلومات. ووفقا لما جاء على لسان (King:2009) فان هذا النوع من التخطيط انشغل فقط بمسائل التخطيط الإداري مثل جدولة مختلف الحداث في عمليات التخطيط وتقديم معلومات التخطيط وتنسيق تقديم الخطة

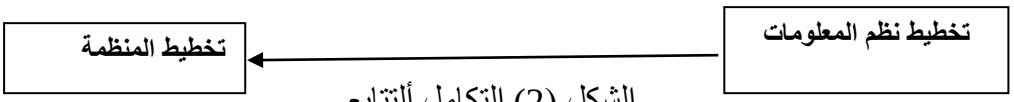

الشكل (2) التكامل ألتتابعي

تبدأ وظيفة نظم المعلومات بدعم استراتيجية الأعمال، كما تستخدم وظيفة نظم المعلومات كمورد لدعم تنفيذ استراتيجيات الأعمال وأصبح مدير المعلومات بمثابة خبير يقوم بصياغة استراتيجية نظم المعلومات لغرض تنفيذ أهداف الإعمال. ويهتم تخطيط أنظمة المعلومات بتهيئة البنية التحتية والبرامج التي تلبي مطالب استراتيجيات الاعمال (Teo and Ang :2000) وفي معرض نقاشة بين (King:2009) ان التدفق الرئيس للمعلومات يأتي من جهة تخطيط الاعمال الى تخطيط أنظمة المعلومات وهذا الوصف يفسر الموقف الذي تتخذ به القرارات اثناء عمليات تخطيط الاعمال الذي ينشغل بمسائل اهداف واستراتيجيات الاعمال وصور وظيفة أنظمة المعلومات هنا على انها منفذ لاستراتيجيات الاعمال.

أن معايير الأداء لوظيفة نظم المعلومات هو التنفيذ الناجح لإستراتيجية الإعمال، تطور تطبيقات نظم المعلومات وفق حاجة المنظمة. أشر هذا النوع من التكامل بداية مشاركة الإدارة العليا في تخطيط نظم المعلومات عندما يتم استخدام إستراتيجيات نظم المعلومات لإسناد إستراتيجيات الأعمال، وتظهر في هذه الاستراتيجية بعض ملامح مشاركة المستفيد في عمليات تخطيط نظم المعلومات.

3- **التكامل المتقابل**

يظهر هذا النوع من التكامل بين تخطيط المنظمة وتخطيط أنظمة المعلومات تدفقا للمعلومات الجوهرية والإدارية باتجاه متقابل وتعكس هذه الصورة إقرار إدارة المنظمة بان موارد تقنية المعلومات قد تقود استراتيجية المنظمة تدفقا للمعلومات ويفترض هذا النوع من التكامل وجود علاقة متقابلة أو اعتمادية بين تخطيط المنظمة وتخطيط نظام

المعلومات(King:2009). ويبدو في الشكل (3) نوعين من الأسهم. ينبع أحدهما من تخطيط المنظمة ويصب في تخطيط نظام المعلومات وبالعكس. وفي ضوء هكذا علاقة، فأن تخطيط نظام المعلومات يؤدي دور مساند لخطط المنظمة وفي ذات الوقت يؤثر بها. وبدأت ملامح التخطيط الاستراتيجي تظهر هنا، عندما اقترح (Keider :1984) مدخل جديد أضاف بعد استراتيجي إلى النتائج الممكنة لعمليات تخطيط نظام المعلومات ، وشخص ثلاثة خطوات لعملية اتخاذ القرار من الإدارة العليا (تحديد الأهداف ،و وضع سياسة خاصة بالمشاغل البيئية وتقييم أنظمة الحاسوب المرتقبة) ، غير نقطة التحول في التفكير للتكامل ترجع إلى طروحات (King:1978) حينما ابتدع منهجية تحول المجموعة الاستراتيجية التي أشرنا لها قبل قليل .

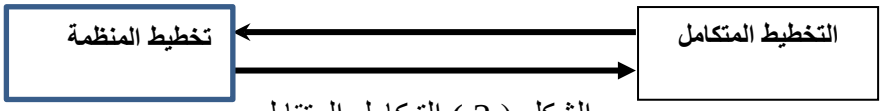

الشكل (3) التكامل المتقابل

إذ تؤثر إستراتيجية نظم المعلومات على استراتيجية الأعمال، وتساهم نظم المعلومات في صياغة استراتيجية الأعمال، ويلعب مدير المعلومات دور رئيسي في تطوير وتنفيذ تطبيقات نظم المعلومات والتأثير عليها من اجل تحقيق أهداف الأعمال. تطور تطبيقات نظم المعلومات لمد المنظمة بالحد التنافسي. وتعتمد معايير الأداء على نوعية مدخلات نظم المعلومات لعملية صياغة وتنفيذ إستراتيجية الأعمال.

تظهر مشاركة الإدارة العليا بكثافة وعلى نحو فاعل في تخطيط نظم المعلومات أإدراكا منها لحقيقة أن تخطيط نظم المعلومات يؤثر في فاعلية استراتيجية الأعمال وتصبح مشاركة المستفيدين أكثر أهمية من اجل الاستغلال الكلي لموارد المعلومات.

4-التكامل التام.

أصبح الفهم المشترك بين إدارة أنظمة المعلومات وإدارة الشركة في غاية الأهمية لبلوغ الأهداف المتوخاة لذا أضحت العلاقة الوثيقة والفاعل المشترك بين الاثنين حيوية وتدفع بالتكامل التام الى دائرة الضوء. ويوحي هذا النوع من التكامل وفقا لما عرضة (King:2009) بان عمليات التخطيط لا يمكن فصلهما. ويستند هذا النوع من التكامل على دمج عمليات تخطيط المنظمة وعمليات تخطيط نظام المعلومات على نحو يصعب التمييز بينهما، وأن أمكن ذلك فهو ضئيل جداً. ويكون التطوير متزامن بين النوعين وفي عمليات تخطيط متكاملة .ومن الشكل رقم (4) نلاحظ أن تخطيط نظم المعلومات وتخطيط المنظمة يجري إعدادهما بشكل متزامن وان نظام المعلومات يكون هنا بمثابة مولد لخطط المنظمة ويشكل في الوقت نفسة قوة توليدية لاستراتيجيتها.وفي معرض تفسيره لهذا التحول أفاد (Earl:1989) بان المنظمات لمست حقيقة حية وهي إن صياغة استراتيجية المنظمة ومن ثم استنباط استراتيجية نظم المعلومات لا يعدو كافياً لضمان تحقيق أهداف المنظمة ،من هنا بدأ الدعوات تنادي بضرورة الأعداد المتزامن والمتكامل لكلاهما .وبمعنى أخر اقتناص الفرص التي يخلقها نظام معلومات المنظمة ومن ثم صياغة الأهداف المرتقب تحقيقها . وفي هذا الصدد أكد(Scarbough:1998) على إن

صياغة خطط المنظمة وخطط نظم المعلومات تصبح عملية تفاعلية تجسر العلاقة بين الخبرات الفنية والتنظيمية والتسويقية لدى المنظمة.

التخطيط المتكامل

الشكل (4) التخطيط المتكامل

أن الغرض من التكامل هنا هو تطوير استراتيجيته للأعمال ولنظم المعلومات. وتعتبر وظيفة نظم المعلومات حيوية لنجاح المنظمة على المدى البعيد إذ يصبح مدير نظم المعلومات عضواً رسميا في فريق الإدارة العليا ويوفر مدخلات مهمة في كل المسائل ذات الصلة بنظم المعلومات لصياغة خطط المنظمة وخطط نظام المعلومات، تصبح معايير الأداء لوظيفة نظم المعلومات هي الاثار المستقبلية البعيد سواء كانت مالية أو غير مالية، تطور التطبيقات التي يؤدي إلى خلق قيمة للأعمال، ويشارك المستفيدون بشكل مكثف في تخطيط الأعمال. وان أحد المداخل المتينة لبناء وادامة هذا التفاعل يتسع له التكامل الاستراتيجي، وبوسعها ايضاً ان تجعله جزءاً لا يتجزأ من الحياة اليومية ويتغلغل من نسيجها التنظيمي ويكون موردا نادرا لها وعلى وقع خطوات ازدياد عدم التأكد البيئي وتحول المنظمات الى التكامل الافقي في قدرات تقنية المعلومات. وتمكن الشراكة الاستراتيجية بين مدير تقنية المعلومات وفريق الادارة العليا على ما جاء في دراسة (Earl and Fenny 1994) : من الحصول على فهم شامل لأهداف واستراتيجيات الاعمال وتساعد مدير تقنية المعلومات من مناقشة الكيفية التي تمكن استراتيجية تقنية المعلومات من اضافة قيمة الاستراتيجيات الاعمال. وان علاقة مدير تقنية المعلومات بالإدارة العليا تعد حيوية لتسهيل عمليات دمج موجودات تقنية المعلومات و القابليات المتممة لكي تحصل المنظمة على استراتيجية من تقنية المعلومات لان مديرها يكون معني بقرارات تقنية المعلومات الاستراتيجية في حين ان فريق الادارة العليا يكون مسؤول عن استراتيجية الاعمال ويبدو من قراءة التكامل التام الذي بات يشكل بديل ناجح للمنظمة إنها تستلزم العمل التضامني المشترك بين مخططي نظم المعلومات ومخططي الأعمال بغية توجيه الاستثمار بنظام المعلومات نحو تعزيز أهداف المنظمة واستغلال تقنية المعلومات على الوجه الأكمل وتوجيهها نحو خلق القيمة و اكتساب مزايا تنافسية.كما أن التعاون بين المخططين قد يسفر عنه توليد للأفكار،وربما يميل هذا التعاون إلى إثارة ما يعرف بملكية الخطط والنتائج،وبالتالي تنمية روح العمل الجماعي والمشاركة وتعزيز ملكية المنظمة وتشجيع التعلم التنظيمي لتسخير التكامل لتحقيق الأهداف المنشودة.

إن الاعتماد على التكامل منهجا عاما لتحقيق أهداف المنظمة لم يسجل نجاحاً ملحوظاً على المستوى الكلي في المنظمات المرموقة إلا بسبب تفاعلات المجالات الوظيفية والتحامها مع بعضها البعض واستعدادها المتناهي لهضم هذا الالتحام واستيعاب مضامينه. من هنا فحين ترغب المنظمة في اختيار هذا المنهج إطارا عاما لبناء إستراتيجياتها الشاملة، يتعين عليها أن تأخذ هذه الحقيقة بالاعتبار وتحاول البحث عن مركب قادر على تعبئة قدرات المنظمة وتوجيهها صوب ما تريد.

وبلا شك أن ذلك يتطلب بناء نظام فلسفي ونظام اجتماعي يوفق بين مصالح الجميع ويمهد السبيل لفكرة الجميع فائز والذي بدوره يجعل من حركة المنظمة بأسرها متناسقة ومتناغمة. لان هذه الحركة تعبر عن نمو إرادتها وانطلاق قابليتها نتيجة القدرة التي يولدها نظام المعلومات مما يدفع المنظمة إلى الأمام ويكسبها ميزات تنافسيه. وعلى الطرف الآخر، نجد أن التكامل يصل إلى مداه الأقصى، فتخطيط نظام المعلومات يستخدم لصياغة وإسناد ودعم استراتيجية المنظمة والتأثير عليها وتحديد الفرص لاستخدام التطبيقات الاستراتيجية لنظام المعلومات. وبذلك يصبح هو الذي يلد الاستراتيجية.

يعتقد الباحث أن هذه المراحل في تسلسلها ليست عملية جامدة، وأن الوقت اللازم لها مرن أيضا، حيث يعتمد الانتقال من مرحلة لأخرى على مجموعة قوى دافعة قد تسهل بشكل كبير الشروع فيه أو التحول من مرحلة لأخرى.

الخلاصة النهائية

لقد غدت المنظمة اليوم هي الحدود الجديدة لكادر تقنية المعلومات ونشاطاته، إدراكا لحقيقة وضحت مؤخرا بجلاء وهي أن من يفهم ويستوعب ويستخدم قدرات وقابليات تقنية المعلومات ويوجهها لخدمة المنظمة بأسرها فأن مصيره الرخاء ومن يتجاهل ذلك، فلا هم له غير اللهاث وراء الآخرين. لذلك، فأن المنظمة التي تروم الانتفاع من أنظمة معلوماتها لكي يخلق مساهمة قيمة للأعمال، عليها ان تضع عينيها عليه، يجب عليها أن تصهره وتدمجها في خططها فالافتقار لمثل هكذا علاقة ربما يكون مستساغ قبل عقد من الزمان، لكن، في عالم اليوم المفعم بالمنافسة أصبح الخطأ مرفوض والتلكؤ يكلف الكثير. عليه، فأن الباحث يرى ضرورة قيام المنظمة العراقية بالإفادة الحقيقية من مواردها لتجعل تميزها في أذهان زبائنها حقيقة قائمة، والانتفاع منه مما يوفره نظام معلوماتها يأتي عن طريق دمج خططه مع خطط المنظمة والتأكيد على أن الفائز النهائي هو الكل وليس الجزء، ويوصي الباحث المهتمين والباحثين بالتصدي للموضوع والعمل على دراسته تجريبيا لبناء إطار عمل يكون ذات نفع للمنظمة العراقية.

References

1-Broadbent, M.,and Weill, .,(1993),"Improving business and information strategy alignment :Learning from the banking industry," IBM Systems Journal,Vol.32,PP.162-176.

2-Brynjolfsson, L., (1998),''Beyond the productivity paradox ", Communications of the ACM, VoI.,41, PP.49-55.

3-Byrd, T., Sambamurthy, V., and Zmud, R., (1995), "An examination of IT planning in a large diversified public organization ", Decision Sciences, Vol. 26, No. 1, PP. 49 – 73.

4-Chan,Y.,and Reich,B.(2007).IT alignment: what have learned . Journal of Information systems, NO.22, PP.297-315.

5-Das, S. Zahra, S. and Warkentin, M., (1991), "Integrating the content and process of strategic MIS planning with competitive strategy ", Decision Sciences, Vol. 22, PP. 953-84.

6-Earl, M.,(1989),"Management strategies for information technology ",prentice Hall International (UK)Ltd. Cambridge .

7-Earl, M., and Feeny, D., (1994)," Is your CIO adding value?" Sloan Management Review, Vol.35, No.3, PP.11-20.

9-Hufnagel, E., (1987)," Information systems planning lessons from strategic planning", Information and Management, Vol. 12, PP. 263 – 270.

10-Jarmo, T., (2004),"Increasing role of information systems in public health care-challenge to the management'', proceedings of the 37th Hawaii International Conference on System Sciences, IEEE, PP.1-10.

11-Keider, S., (1984)''Systems planning issues to discuss with your MIS manger '', Information Strategic, The Executive Journal, PP.16-20.

12-King, W. (1978), "Strategic planning for management information systems "MIS Quarterly, Vol. 2, No. 1, PP. 27-37.

13-King, W., and Zmud, W., (1981), "Managing information systems: policy planning, strategic planning and operational planning ", Proceeding of the Second International Conference on Information Systems, Boston.

14-King, W., (1984) "Exploiting information as a strategic resource ", International Journal of Policy and Information, Vol. 8, No. 1, PP. 1-8.

15-King, W. and Teo, T., (1994), "Facilitators and inhibitors for the strategic use of information technology ", Information and Management, Vol. 27, PP. 71-87.

16-King, W., and Teo, T., (1996), "Key dimensions of facilitators and inhibitors for the strategic use of information technology ", Journal of Management Information System, Vol. 12, No. 4, PP. 35-53.

17-King, W. and Teo, T., (1997), "Integration between business planning and information systems planning: Validating a stag hypothesis ", Decision Sciences Vol. 28, No. 2, PP. 279-308.

18-King, W., and Teo, T., (2000)," Assessing the impact of proactive versus reactive modes of strategic information systems planning "Omega, PP. 667-79.

19-King,W.,(2009),''Advance in management information systems ,planning for information systems'' ,M.E.Sharp.N.Y.

20-Kent, A., (1999), " Encyclopedia of library and Information Science ", Vol. 64, PP. 170-188.

21-Lederer, A., and Mendelow, A., (1989)," Coordination of information systems plans with business plans ", Journal of Management Information Systems, Vol. 6, No.2, PP. 5-10.

22- Marchewek,J.(2006)IT project management providing measurable organization value ,Jon Willy and son.

23-Lederer, A., and sethi, V. (1992), " The process of strategic information planning ", Journal of Management Information Systems, Vol. 9, No.1, PP. 76-83.- Salmela, H., Lederer, A.,and Reponen, T.,(2000). Information systems planning in a turbulent environment. European Journal of Information Systems, 9, 1, 3–15.

24- Lunardi ,G., Macada,A., and Becker,J.,(2017). "Antecedents of IT Governance Effectiveness: An Empirical Examination in Brazilian Firms", Journal of Information Systems ,Vol.31,No.1,PP.41-57.

25-Scarbrough, h., (1998)''Linking strategy and IT-based innovation: the importance of the management of expertise'', Information Technology and Organization Transformation, John Wiley Sons Ltd.

26-Synnott, W., (1987) “The information weapon: Winning customers’ markets with technology “, John Willy, New York.

27-Teo, T, and Ang, J., (2000), “How useful are strategic plans for information systems “, Behavior and Information Technology, Vol. 19, No. 4, PP. 275-82.

28-Teo, T. and King, W., (1997), “Integration between business planning and information systems planning: An evolutionary Contingency perspective “, Journal of management Information systems, Summer, Vol. 14, No. 1, PP. 185-214.

29- Vincent,N., Higgs ,J., and Pinsker ,R.,2017). "IT governance and the maturity of IT risk management practices", Journal of information Systems,31(1),pp.59-77.

30-Wallace, L., Keil, M., and Rai, A., (2004). How software project risk affects project performance: an investigation of the dimensions of risk and an exploratory model, Decision Sciences 35(2): 289–321

31-Woolfe, R., (1993)” The path to strategic alignment”, Information Strategy: The Executive Journal, Vol.32, PP.13-23.

جدولة المشروع باستعمال برنامج (Auto CAD.2016) وادارة المشروع بأسلوب البرمجة بالأهداف (مشروع مجاري بلد الكبير)

أمجد عباس عبد الرحيم البلداوي
مجلس محافظة صلاح الدين / الهندسية
:مدرس مساعد في كلية الامام الجامعة (المسائية الاهلية) / قسم ادارة الاعمال.

المستخلص :

يعد مشروع مجاري بلد الكبير احد اكبر المشاريع التي هي قيد الانجاز في محافظة صلاح الدين ضمن خطة تنمية الاقاليم للعام 2013 , فهو مشروع ضخم يسير باتجاهين الاول مد الشبكات و الثاني انشاء محطات الرفع وللمحورين (الثقيل والمطري) , والتي تسعى مديرية مجاري صلاح الدين تنفيذه لخدمة اربع احياء في قضاء بلد .

إن من أهم التحديات التي تعيق ادارة المشاريع اليوم هي التأكد من انجاز تلك المشاريع في وقتها المحدد , وكذلك الكلفة و المعاير الفنية المحدد ايضا , وبالرغم من خضوع اغلب هذه المشاريع لقيود محددة (محددات) تتعلق بالوقت واخرى تتعلق بالموارد المالية المخصصة للمشروع لذا فأن موضوع الوقت والكلفة في ادارة اي مشروع يحتاج الى حسابات دقيقة لهما .

وقد تم اختيار هذا المشروع للدراسة لعدة اسباب مهمة , السبب الاول : إن المشروع متوقف حاليا بسبب الظروف الامنية والمادية في صلاح الدين على وجه الخصوص , وهذا دافع كبير لدراسة كيفية التعامل مع وقت وكلفة انجازه في حال استأنف العمل به , والسبب ثانيا اثناء تنفيذ المشروع كانت هنالك انحرافات عن نسب الانجاز الفعلي , مما يدفع الى توفير دراسة وبأسلوب علمي ومنطقي لتجاوز هذه الانحرافات في المستقبل , اما السبب الثالث فهو إن المشروع يحتوي على الكثير من الانشطة مما يعطي اهمية كبيرة للأساليب العلمية والرياضية التي سوف تؤثر بشكل كبير في تنفيذ المشروع بأسلوب مدروس .

لذا تم دراسة المشروع من جديد وفقا لأساليب علمية ورياضية حديثة , اختيار اسلوب المسار الحرج (CPM) باعتباره احد اساليب الادارة العلمية للمشاريع لإيجاد وقت انجاز المشروع الطبيعي والتعجيلي , وبما ان لإدارة هذا المشروع اهداف متعددة تسعى الى تحقيقها في مدة زمنية محددة , الامر الذي يتطلب الكثير من الدقة في الوصول للقرارات المناسبة , فكان من الاجدر استخدام اسلوب رياضي كفوء لبناء نموذج رياضي متعدد الاهداف يعمل مع جميع هذه المتغيرات في المدة الزمنية المحددة وحسب اولوياتها وتسمى البرمجة الهدفية (Goal Programming) , وكذلك تم استخدام بعض البرامج الجاهزة لرسم الشبكة كبرنامج (Primavera V6) والبرنامج الهندسي المعروف (AUTO CAD 2016) , وبرنامج (Win QSB) لحل الأنموذج متعدد الاهداف , ومحاولة الاستفادة من مميزات هذه البرامج في جدولة المشروع .

المصطلحات الرئيسية للبحث :

إدارة المشروع , جدولة المشروع , برمجة الأهداف , أسلوب المسار الحرج (CPM) , الجدولة بطريقة مبتكرة بواسطة برنامج (Auto Cad 2016) .

اتخذ البحث مساره النظري والعملي على وفق المباحث الآتية :

المبحث الأول : منهجية البحث
المبحث الثاني : جدولة المشروع
المبحث الثاني : برمجة الأهداف
المبحث الرابع : الإطار العملي للبحث .

المبحث الخامس : الاستنتاجات والتوصيات

المقدمة :

تسعى اغلب الدول للفوز بمضمار المنافسة لاهتمامها بالمشاريع سواء كانت هذه المشاريع إنتاجية , خدمية أو عمرانية , كما إن هناك تطور سريع قد حصل في الدول المتقدمة في العالم اليوم يدفعنا لمواكبة هذه التطورات ، لاسيما إننا متأخرين عن بقية الدول لعقود من الزمن بسبب الظروف العصيبة التي مرت بنا , وللخروج من النطاق الضيق إلى نطاق أوسع للكشف عن الفرص الموجودة والمحتملة في انجاز المشاريع , وكيفية استثمار هذه الفرص لتحقيق أداء متميز في تلك الأعمال , وكيفية التعامل مع الوقت والكلفة وبعض المتغيرات الأخرى في إدارة المشاريع سواء كانت صغيرة أم كبيرة لابد من استخدام طرق علمية ورياضية حديثة لإدارتها .

ان مفهوم المشروع اليوم قد تبلور كنتاج أفرزتها بيئة الأعمال والصناعات المختلفة والمتطورة بشكل سريع جدا , وهذا يتطلب أنماط جديدة لتنظيم هذه الأعمال , وكانت الأداة الإدارية المثالية للتعامل مع مثل هذه الأنماط هي إدارة المشاريع , وان ما يجب أن نركز عليه في دورة حياة المشروع اولا هو مرحلة جدولة المشروع , حيث تعتبر هذه المرحلة من أهم المراحل الخاصة بالمشروع وفي هذه المرحلة يتم التعامل مع احد أهم متغير في إدارة المشاريع وهو الوقت , إضافة إلى وضع التقديرات لحاجة كل نشاط من الموارد الرئيسية كالكلف , المواد , المعدات , القوى العاملة وغيرها .

وقد تم استعمال واحدة من اكفأ الطرق في جدولة المشاريع وهي طريقة المسار الحرج (CPM) لإيجاد الوقت والكلفة الطبيعيتين لإنجاز المشروع وكذلك الوقت والكلفة التعجيليتين لمشروع مجاري بلد الكبير في ضل وجود علاقات متشعبة ومتداخلة بين أنشطة المشروع , كما تم استخدام أسلوب البرمجة بالأهداف (Goal Programming) لتكوين أنموذج رياضي يهدف لتحقيق الأهداف المتعددة والتي تسعى الإدارة إلى تحقيقها في نفس الوقت .

و بلا شك قدم العديد من الباحثين دراسات متعددة ومتنوعة حول موضوع جدولة المشروع باستعمال اسلوب البرمجة بالأهداف وفي ما يلي خلاصة لبعض الدراسات والبحوث السابقة حول هذا الموضوع ففي عام 2015 قدمت الباحثة (خضر) دراسة ميدانية في مشروع القرية العصرية في محافظة واسط باستعمال اسلوب البرمجة بالأهداف , حيث بينت النتائج التي حصلت عليها الباحثة من حل الانموذج الرياضي لهذه الدراسة الأهمية الكبيرة لهذا الأسلوب عند وجود اهداف كثيرة متعددة ومختلفة نسبيا في أهميتها لإدارة الشركة في ظل وجود علاقة غير تقليدية لبعض انشطة المشروع , وكذلك في عام 2014 قام الباحثان (Berrouiguet&Tissourassi) بتقديم دراسة عن تطبيق برمجة الاهداف بالمبادلة بين الوقت والكلفة , وتم تطبيق هذه الدراسة في شركة (SEROR) للبناء والأعمار في الجزائر وقد تم اختيار ثلاث مشاريع مختلفة لغرض انجازها بالوقت والكلفة المناسب , وقد توصل الباحثان الى إمكانية انجاز المشروعين الاول والثاني ضمن الوقت والكلفة المناسبين اما المشروع الثالث لم يحقق هدف المبادلة بين وقته وكلفته حيث يحتاج إلى (2 161 027.03) دينار جزائري ككلفة إضافية لكلفته الاصلية والبالغة (127 971 789.61) دينار جزائري , اما في عام 2010 فقد اعتمد الباحث (Mubiru) على اسلوب البرمجة بالأهداف في حساب الوقت والكلفة المرغوب فيهما وقد استنتج الباحث ان اسلوب البرمجة بالأهداف حقق مستوى مرضي من الاهداف القابلة للتنفيذ , كذلك استخدم الباحث (Premachandra) في عام 2007 البرمجة الهدفية في عملية ضغط شبكات المشروع , حيث قام الباحث بأخذ مشروع إنتاجي متعدد الاهداف ووظف

البرمجة بالأهداف في التعامل مع جميع هذه الاهداف , ومن خلال النتائج حقق الباحث الهدفين الاول (ضغط النشاط H) والثاني (انجاز المشروع في 9 أسابيع) ولم يحقق الهدف الثالث (حصر كلفة المشروع بمبلغ 4000 دولار) .

ويختلف هذا البحث عن البحوث والرسائل السابقة بطابعة التطبيقي من جهة ومن جهة اخرى استخدام اسلوب جديد ومبتكر يستعمل للمرة الاولى في جدولة المشروع وهو الجدولة بواسطة برنامج ال(AutoCAD 2016) بأسلوب بسيط ومبتكر سيسهل الكثير من الجهد ويقلل من وقت جدولة المشاريع في المستقبل .

المبحث الأول / منهجية البحث

أولا : مشكلة البحث :

من الواضح إن بلدنا يعاني اليوم من الكثير من المشاريع المتلكئة ومن هذه المشاريع هو مشروع مجاري بلد الكبير في محافظة صلاح الدين حيث لم يتم انجازه لحد ألان على الرغم من مرور مدة طويلة على المباشرة بالعمل منذ 31/1/2013 وهذا بسبب تلكأ الشركة المنفذة للعمل وذلك لأسباب عديدة منها ما يتعلق بالقوانين والتعليمات النافذة ومنها ما يتعلق بالظرف الأمني , والتي يسعى الباحث قدر الممكن إيجاد حلول لها ومن أسباب التلكؤ هي اما ناتجة من عدم دقة الشركات في توقيتات تنفيذ المشاريع , لعدم اعتمادها على الأساليب العلمية الحديثة وكذلك هناك الكثير من الشركات غير الرصينة وغير قادرة على دراسة و انجاز المشاريع بأساليب علمية حديثة , وبناءً على الأساليب العلمية والرياضية الحديثة التي سوف يقوم الباحث باستخدامها في التحكم في جدولة المشروع في هذا البحث سوف نقوم بالإجابة على التساؤلات التالية :

1) هل يمكن احتساب وقت وكلفة انجاز المشروع في الظرف الطبيعي وفي ظل وجود علاقات متداخلة بين الانشطة ؟
2) هل يمكن التعجيل في انجاز المشروع مع ضمان عدم تجاوز حدود الكلفة المتفق عليها ؟
3) هل بالإمكان استعمال اسلوب رياضي وكمي كفوء هو (برمجة الاهداف) في تحقيق مجموعة من الاهداف التي ترغب الادارة في تحقيقها جميعا في وقت واحد ؟

ثانيا : هدف البحث :

استخدام اسلوب المسار الحرج (CPM) لإيجاد وقت وكلفة انجاز المشروع في الظروف الطبيعية والتعجيلية , حيث تم الاعتماد على برنامج (AutoCad.2016) في رسم اعتمادية المشروع وكذلك احتساب وقت انجازه , وبما ان ادارة المشروع تملك عدة اهداف تسعى لتحقيقها كان لابد من استخدام اسلوب رياضي كفوء هو برمجة الاهداف لبناء نموذج رياضي متعدد الاهداف يساعد ادارة المشروع على تحقيق العديد من الاهداف في وقت واحد من خلال احد استخدام احد البرامج الجاهزة والكفؤة في إيجاد النتائج لمثل هذه المعادلات وهو (Win Q.S.B) لهذا من اهم اهداف البحث هي :

1) صياغة انموذج رياضي لأهداف متعددة ترغب الجهة المستفيدة والشركة المنفذة للمشروع تحقيقها في نفس وقت وفقا لأهميتها النسبية , وبهذا المساعدة على اتخاذ القرارات الصحيحة وفقا للأساليب الرياضية الحديثة .
2) توضيح العلاقات التقليدية وغير التقليدية بين الانشطة من خلال رسم اعتمادية الانشطة وكذلك الاعتماد على البرامج الرصينة مثل (AutoCad.2016) في جدولة المشروع الذي يعتمد عليه اغلب مدراء المشاريع في عمل مخططات مشاريعهم .

3) مساعدة المسؤولين عن تنفيذ مشروع مجاري بلد الكبير وغيرها من مشاريع البنى التحتية في محافظة صلاح الدين بوضع الأسس العلمية الرصينة في حساباتهم والاستفادة منها في المستقبل.

ثالثا : أهمية البحث: يكتسب البحث أهميته من عدة محاور اهمها :

1) يتميز البحث بطابعة العملي والتطبيقي لهذا ستكون له اهمية كبيرة في كيفية عمل الدوائر الحكومية بشكل عام ودوائر محافظة صلاح الدين بشكل خاص في كيفية ادارة وجدولة المشروع وكذلك الية اختيار الشركات المتقدمة لتنفيذ المشاريع في المستقبل .
2) يحتوي البحث على اسلوب جديد مبتكر لجدولة المشروع وهو الجدولة بواسطة برنامج ال(AutoCAD) وبهذا يمكن ان يكون لهذا البحث قيمة علمية يعتمد عليها في اعداد البحوث القادمة.

خامسا : الطرق و الأدوات المستخدمة في ايجاد النتائج

استخدم الباحث اسلوب المسار الحرج (CPM) لإيجاد وقت وكلفة انجاز المشروع في الظروف الطبيعية والتعجيلية كما استخدم اسلوب برمجة الاهداف (طريقة الاولويات) لبناء الانموذج الرياضي (متعدد الاهداف) اما الادوات المستخدمة في ايجاد النتائج هي :

1) البرنامج الجاهز(Win Q.S.B) الذي استخدام في حل معادلات الانموذج الرياضي البرمجة الهدفية.
2) برنامج (AutoCad.2016) والمستخدم في رسم الشبكات وكذلك جدولة المشروع بالأسلوب الخطي المبتكر من قبل الباحث وهو من أهم البرامج الهندسية المستخدم في إعداد التصاميم الهندسية المختلفة .

المبحث الثاني / الإطار النظري: جدولة المشروع

أولا : مفهوم المشروع : هنالك تعاريف عديدة ومنوعة لمفهوم المشروع ومنها :

عرفها العقلة على انها رسم خطة من اجل بذل مجهود لتحقيق متطلبات محددة وبهذا فله اهداف محددة وبداية ونهاية محددة (العقلة , 2007 : 3) , كما عرفت من قبل (krajewski & Ritzman , 2005 : 342) مجموعة من الانشطة المترابطة التي لها نقطتا بداية ونهاية محدده ويخصص موارد محددة لها والتي ينتج منها منتج فريد , اما Heizer فقد عرفها بسلسة من المهام المترابطة موجهه نحو منتج رئيس (Heizer & Rander , 2006 : 321) , لهذا يتوجب علينا لتنفيذ أي مشروع توفير الموارد الضرورية له أولا , ومن ثم يأتي دور الادارة في كيفية استثمار جميع هذه الموارد بالشكل الأفضل أي بكفاءة وفاعلية لتحقيق الهدف المنشود منه , وبهذا يجب التأكد بأن الموارد جميعها تمثل قيودا كالوقت وكذلك المواصفات والشروط الواجب تحقيقها بما يحقق الغاية من المشروع , ووفقا لهذا المبدأ تأتي أهمية وظيفتي التخطيط والجدولة التي تحتم على ادارة المشروع التفاعل معها بدقة و شمولية عالية , وبهذا يمكن وضع تعريفا مبسطا لجدولة المشروع (Project Schedule) بأنها " عملية تحول خطة المشروع (Project Plan) الى جدول زمني (Project Table) لتشغيل المشروع ابتداء من لحظة المباشرة (Start) مرورا بجميع الانشطة المتتابعة والمتداخلة والاحداث (Events) والمحطات الرئيسية (Milestones) وصولا الى لحظة انتهاء العمل في المشروع (Finish) وتحديد الوقت اللازم لتنفيذ المشروع من لحظة البدء وحتى لحظة الانتهاء " (خير الدين , 2012 : 138) , وبالاعتماد على كل ما تقدم يمكن تعريفه بأنه **مجموعة من النشاطات المتتالية والمتداخلة لها ازمنة وكلف محددة** .

ثانيا : أهمية جدولة المشروع :

تهتم جدولة المشروع بأحد اهم المكونات في المشروع وهو الزمن فهو واحد من اهم الاهداف للمشروع فان ادارة الوقت تعتبر من العوامل المهمة في وصول المشروع الى أهدافه وتحقيق الكثير من المنافع ومنها : (خير الدين , 2012 : 139), (Wysocki , 2009 : 175)

1) تعتبر جدولة المشروع إطارا منسقا لتخطيط وتوجيه ومراقبه المشروع .
2) توضح جدولة المشروع حالات الاعتمادية والتداخل (Interdependency) بين كافة الانشطة ووحدات العمل وحزم العمل والمهام في المشروع .
3) تساعد الجدولة في ايجاد ترابط منطقي واقصر بين الأقسام والوظائف وفرق العمل لإنجاز العمل .
4) تساعد الجدولة في ايجاد وقت انجاز المشروع من خلال مسارها الحرج وبالتالي تم معرفة النشاطات الحرجة (Critical Activities) التي إذا تأخر تنفيذها سوف يتأخر زمن انجاز المشروع وكذلك معرفة الانشطة غير الحرجة (Non Critical Activities) التي اذا تأخرت لوقت محدد ضمن حدود المسار الحرج لا تؤثر سلبا على وقت انجاز المشروع وبالتالي وضع أولويات للنشاطات .
5) تساعد الجدولة منفذ المشروع من وضع تواريخ محددة لبداية ونهاية كل نشاط من الانشطة وعلاقة هذه الانشطة بالأنشطة الاخرى وهذا يساعد في عمل التنسيق اللازم لإتمام الانشطة وخصوصا الحرجة منها في الزمن المحدد والمطلوب بشكل انسيابي ومتناسق ودون حصول أي اختناقات في العمل .
6) وتساعد جدولة المشروع في تقليل الخلافات الشخصية والقضاء على الصراعات على الموارد .

ثالثا : مراحل جدولة المشروع : وهي ثلاث مراحل رئيسية وكما يلي: (العلي , 2009 : 188)

1) مرحلة التخطيط **(Planning Phase)** : تعتبر هذه المرحلة من اهم مراحل جدولة المشروع والذي سوف تصبح في ما بعد أساس لجميع اعمال الشركة , ومن الضروري محاذاة اهداف المشروع مع الاستراتيجيات التي تريد إدارته تحقيقها , وعن طريقه يتم وضع مؤشرات الاداء الرئيسية لمتابعة اداء العمل في المشاريع وتتضمن هذه المرحلة تحليل الانشطة وتحويلها لمجاميع من الانشطة تتميز هذه الأنشطة بنفس نوع العمل وهذا ما يعرف بطريقة (WBS[1]) , وبعدها يتم بناء الشبكة (Network) و تبدأ من تحديد وظيفة كل نشاط ومن ثم علاقته بالأنشطة الاخرى أي تتابعا واعتمادها على بعضها .
2) مرحلة جدولة الانشطة **(Scheduling Phase)** : تتضمن تحديد وقت كل نشاط وتكلفته وبالتالي تخمين الكلفة الكلية لإنجاز المشروع و توفير الموارد المالية والبشرية لكل نشاط من الانشطة .
3) مرحلة الرقابة (**Control Phase**) : مرحلة التحقق من ان العمل قد تم انجازه في وقته المحدد وفقا لما تم تخطيطه مسبقا او قد حدثت انحرافات في التنفيذ مثل التأخير في بعض الانشطة او اختلاف الموارد البشرية والمادية عن المقدار المحدد وبالتالي القيام بإجراءات تصحيحية لمعالجه هذه الانحرافات وكذلك تلافي حدوثها في المستقبل .

رابعا : ادارة المشروع :

أ) كلف جدولة المشروع : يجب حساب جميع الموارد الضرورية لكل نشاط و فاعليته من القوى الفاعلة و الإشراف و التوجيه الاداري مثل (الرواتب , الاعمال

[1] Work Break Structure :

الاضافية والمميزات الاخرى) كذلك الموارد المادية مثل (الماء , الكهرباء والمواد الأولية) إضافة الى تكاليف المشروع الثابتة , لتقدير كلفة المشروع , ولتحقيق ترابط منطقي بين تكاليف المشروع للوصول الى الوقت المناسب اللازم لإنهاء المشروع , مع مراعاة التنسيق في الاعمال كي لا تكون هناك أي كلف او أعباء اضافية الى لإدارة كلف الجدولة . (Passenheim,2005:27) ,(Nagarajan,2004:23)

1) التحليل (تحليل جميع الانشطة اللازمة) .
2) تحديد النشاطات حسب التسلسل (تحديد فعالياته السابق واللاحق) .
3) الرسم (رسم الشبكة وتحديد المسار الحرج لها) .
4) حساب الكلف .

اما ادارة كلفة المشروع فتتمثل بالتالي : (Pmbok , 2004 : 82)

اولا: تقدير التكاليف : يتطلب تقدير حجم التكاليف اللازم لإتمام المشروع , تحديد هيكل تقسيم الاعمال وتحديد الاحتياجات من الموارد وتخمين اسعار المواد وبعض المعلومات حول اسعارها في الفترات السابقة حيث تقسم تكاليف المشروع لقسمين هما :

1) التكاليف المباشرة (Direct Costs) : مثل الأيدي العاملة , تشغيل مكائن واضافة ساعات عمل وشراء معدات اضافية وغيرها , وتصنف هذه التكاليف الى صنفين :
   - تكاليف طبيعية (Normal Costs) .
   - تكاليف تعجيلية او مضغوطة (Crash Costs) .

و لهذا سوف يترتب على هذا التقسيم للكلفة تقسيما للوقت وهذا التقسيم كما يلي :
   - وقت طبيعي (Normal Time) : اي الوقت اللازم لإنجاز المشروع في ظل الظروف الطبيعية .
   - وقت تعجيلي او مضغوط (Crash Time) : اي اقصر وقت ممكن لإنجاز المشروع .

2) التكاليف غير المباشرة (Indirect Costs) : مثل الرسوم , الضرائب والاشراف وغيرها .

ثانيا : تحديد الموازنة : اي تحديد مصادر الإنفاق التي تصاحب كل نشاط من الانشطة ويكون هذا من تقدير الكلفة , وهيكل تقسيم الاعمال وتسلسلها والبرنامج الزمني لإنجازها .

ثالثا : الرقابة على التكاليف : مراقبة تغيرات موازنة المشروع ومحاولة تجنب جميع العوائق التي تعرقل سير الاعمال بالاعتماد على التقارير وبالتالي تعديل او تغير خطة ادارة الكلفة لنشاط او أكثر .

أ) ادارة وقت المشروع : العمليات المطلوبة لضمان إتمام المشروع في وقته المحدد , وتشمل عمليات ادارة وقت المشروع ما يلي : (المعهد القومي للمقاييس الأمريكية , 2006 : 127),(White & Fortune , 2004 : 9)

1) تحديد النشاط : تحديد أنشطة الجدول التي تحتاج الى التركيز عليها عند تنفيذها لأهميتها .
2) تتابع الانشطة : معرفة الاعتمادية بين الانشطة .
3) تقدير موارد النشاط : تقدير نوع الموارد لكل نشاط والكميات المطلوبة لتنفيذه .
تقدير الفترة الزمنية للنشاط : تقدير فترات العمل المطلوبة لإتمام تنفيذ كل نشاط منفردا .
4) تطوير الجدول الزمني : دراسة تسلسلات الانشطة ومددها الزمنية ومتطلباتها من الموارد والقيود الزمنية المفروضة وبالتالي الخروج من ذلك بجدول زمني لإنجاز اعمال المشروع .
5) ضبط الجدول الزمني للمشروع : اي ضبط تغيراته .

هناك تفاعل بين جميع هذه العمليات ويمكن ان تنجز كل واحدة منها بجهد فردي او بجهد جماعي وكذلك بالاعتماد على حاجة المشروع الاساسية , كما يمكن ان تحدث كل عملية من العمليات أعلاه مرة واحدة على الأقل في كل مشروع .

ج) المفاضلة بين الوقت والكلفة : ان اهم بعدين يتم جدولة المشاريع على أساسها هي الزمن (الوقت) والكلفة وفي اغلب الأحيان ان الزمن يتناسب عكسيا مع الكلفة في جدولة المشروع اي عندما نرغب بتعجيل وقت انجاز المشروع سوف يكون مصاحبا لزيادة في كلفته وذلك لأن ضغط الوقت يحتاج الى موارد اضافية مثل (استعمال آليات اضافية , زيادة ساعات العمل والعمال , وإعطاء أجور اضافية للمشرفين وغيرها) , وان نماذج الشبكات تتيح المفاضلة بين هذين البعدين , فهذه المخططات تعتبر الأداة المهمة لمراقبة وحساب الوقت والكلفة , وان مبدأ المفاضلة الذي تقوم عليه هو تدنيه التكاليف الى اقل ما يمكن بعد ضغط أوقات تنفيذها الى ادني حد ممكن . (ألعبيدي & الفضل , 2010 : 232)

اما المفاضلة بين النشاطات التي سوف نقوم بضغطها أولا ستتم من خلال احتساب الميل (Slop) عن طريق المعادلة التالية :

$$(Slop)^2 = \frac{\text{فرق الكلف}}{\text{فرق الوقت}} \quad \text{.....} \quad (2\text{-}1)$$

خامسا : اسلوب المسار الحرج CPM في جدولة المشروع :

ظهر اسلوب المسار الحرج في عام 1957 على يد كل من (Remington & Rand) لغرض المساعدة في حل مشكلة إيقاف وحدات الإنتاج للصيانة ثم إعادة تشغيلها في بعض الشركات الكبرى ومنذ ذلك الوقت توسع صيت اسلوب المسار الحرج المعروف ب (CPM). (O'Brien & Plotnick , 2010 : 25) وبسبب المزايا التي تحققت من استعمال هذا الأسلوب قامت شركة (Du Pount) في امريكا باستعماله وتخفيض زمن إصلاح الأعطال من (125 الى 78) ساعة . (عابد , 2011 : 212) , وكذلك يستخدم هذا الأسلوب على سبيل المثال في :

1) رسم شبكة اعمال خاصة بنقل الغاز او غيرها بواسطة الأنابيب من منطقة الاستلام الى منطقة التسليم والغرض من ذلك هو تقليل كلفة انشاء خط الأنابيب .
2) عمل شبكة اعمال خاصة بإنشاء المباني والجسور للوصول الى الوقت الفعلي لإنجازها .
3) تحديد الطرق بين منطقتين , والغرض تقليل الوقت او الكلفة او كلاهما .

تعد تقنية المسار الحرج من الأساليب المهمة في استخدامها للأدوات الكمية , اذ تساعد المدراء في المشاريع من اتخاذ القرارات المناسبة في تحليلهم او تخطيطهم او جدولتهم للمشاريع الموكلة إليهم , وخصوصا المشاريع الكبيرة ذات النشاطات المعقدة , حيث يقوم المدير او المخطط في اسلوب المسار الحرج الى تدنيه كلف المشروع كما يمكن تغير وقت أكثر الأزمنة وبالنتيجة يتم تحمل موارد اضافية والمتمثلة بالآلات والأيدي العاملة وكذلك رأس المال وغيرها , وهذا الضغط للمشاريع ينجم عنه زيادة في التكلفة الكلية للمشروع . (خير الدين , 2012 : 150)

أ) **أهمية طريقة المسار الحرج** : تكمن اهمية المسار الحرج من خلال ما يلي :

1) التبوء بالوقت اللازم لإنهاء المشروع .
2) الحصول على تمثيل تخطيطي للمشروع .
3) ان هذا الأسلوب يتوقع ما سيحدث وبالتالي تعمل على التحكم في الانشطة .
4) التفرقة بين الانشطة الحرجة وغير الحرجة في المشروع وبالتالي تحديد إمكانية المناورة لكل منها حيث يمكن نقل بعض الاعمال كنقل المواد والموارد من الانشطة

الغير حرجة والتركيز على الحرجة مما سوف ينتج عنه تقليل وقت أجاز المشروع دون التأثير في كلفته . (نعمان , 2012 : 198)

ب) : **خطوات حساب المسار الحرج** : (عابد , 2011 : 202),(الفرهود , 2012 : 14)

1) معرفة النشاطات التي يتكون منها المشروع وبيان الانشطة السابقة والتالية لمعرفة اعتماديتها .
2) تصميم شبكة العمل تبعاً لاعتمادية الاعمال (الانشطة) وتداخلها .
3) تخمين وقت البداية المبكرة (ES) والنهاية المبكرة (EF) لأزمنة الانشطة .
4) تخمين وقت البداية المتأخرة (LS) والنهاية المتأخرة (LF) لأزمنة الانشطة .
5) احتساب الوقت الفائض (Slack) لكل نشاط من الانشطة .
6) احتساب الوقت الكلي النهائي لإكمال وقت عمل المشروع والمسمى بالمسار الحرج (CPM).

ج) : **حسابات طريقة المسار الحرج** : (خضر , 2015 : 19) (Brien & Plotnick , O'2010 : 45)

لتحديد المسار الحرج لأي مشروع لابد من حساب ما يلي :

1) حساب الأوقات المبكرة والمتأخرة للمشروع : ولهذا الغرض يتم إجراء نوعين من الحسابات:

- الحسابات الأمامية (Forward Computation) : تبدأ من أول نقطة زمنية في المخطط الشبكي وتتجه الى آخر نقطة زمنية في المخطط ، وعند كل نقطة زمنية نضع رقم (يوضع داخل مربع صغير) ويمثل ذلك الرقم وقت الابتداء المبكر لهذا النشاط الذي يبدأ بالحدث (i) وحسب المعادلات التالية :

أ) الحدث الاول لأي مخطط شبكي يساوي صفراً .

$$ES\ 1 = LS\ 1 = 0 \qquad (2\text{-}2)$$

ب) اذا كان الحدث (j) في المخطط الشبكي يرتبط بنشاط واحد ، فأن معادلته الرياضية هي :

$$EFj = ESi + Dij^{2} \qquad (2\text{-}3)$$

ت) اذا كان الحدث (j) يرتبط بأكثر من نشاط واحد ، نستخدم أعلى وقت مبكر لهذا الحدث ، وبالتالي فان معادلته الرياضية هي :

$$EFj = Max\ (\ ESi + Dij\ ) \qquad (2\text{-}4)$$

- الحسابات الخلفية (Backward Computation) : تبدأ هذه الحسابات من حيث تنتهي الحسابات الأمامية أي إنها تبدأ من الحدث الأخير في المخطط الشبكي وتنخفض بشكل تراجعي الى الحدث الاول ، وهي الحسابات التي تحدد الوقت المتأخر لانجاز الانشطة ، وفقاً للمعادلات الرياضية التالية :

أ) ا
لحدث الأخير في المخطط الشبكي يساوي وقت انجاز المشروع وحسب المعادلة الرياضية التالية :

$$LSj = EFj \qquad (2\text{-}5)$$

ب) اذا كان الحدث (i) في المخطط الشبكي يرتبط بنشاط واحد ، فأن معادلته الرياضية هي :

$$LSi = LFj - Dij \qquad (2\text{-}6)$$

[2] : الفترة الزمنية اللازمة لإنجاز النشاطين (i & j)

ت) اذا كان الحدث (i) يرتبط بأكثر من نشاط واحد ، نستخدم اقل وقت ، وبهذا فمعادلته الرياضية هي :

$$LSi = Min (LFj + Dij) \quad (2-7)$$

2) حساب أوقات المرونة (Float Times) :

يقصد بها الوقت الفائض بين الفترة التي تم التخطيط لها والأوقات الفعلية وقيمتها تكون اما موجبة او صفرية او سالبة , فالموجبة تعني هناك إمكانية تأخير تنفيذ النشاط ضمن حدود تلك المرونة , والصفرية فهي لا يمكن ان تتحمل أي تأخير في تنفيذها أي انها ضمن النشاطات الحرجة , وما السالبة فهي تعني ان الوقت المتوفر غير كافي لإتمام العمل , وهناك أنواع للمرونة اهمها : (الموسوي , 2009 : 188)

أ) اوقات المرونة الكلية (Total Slack Time) : وهي الفرق بين الزمن المتاح والمطلوب لإنجاز النشاط , اي اكبر وقت يمكن تأجيل النشاط او التأخر في انجازه من دون التأثير على وقت انجاز المشروع الكلي , ويرمز لها (TS) و حسابها من الفرق بين البدايتين (المبكرة والمتأخرة) والنهايتين (المبكرة والمتأخرة) ويحسب من المعادلتين التاليتين :

$$TS = LSi – ESi \quad (2-8)$$

$$TS = LFj – EFj \quad (2-9)$$

ب) الوقت المرن الحر (Free Float Times) : وهو اكبر وقت يمكن ان يتأخر بدء النشاط على ضوءه مع افتراض ان كافة الانشطة السابقة الاخرى قد ابتدأت في الأوقات المبكرة لها ويرمز لهذا الوقت (FFij) للنشاط (ij) ويتم حسابه من خلال المعادلة التالية :

$$F.Fij = Ef\ j – Esi – Dij \quad (2-10)$$

ت) الوقت المرن المستقل (Independent Float) :

هو كمية الوقت الذي يمكن ان يتأخر بقدرها بدء النشاط دون ان يؤثر على البدايات المبكرة للأنشطة التالية وبافتراض بان النشاط السابق قد انجز في نهايته المتأخرة ويرمز له (IF) , ويحسب من المعادلة التالية : (سعدي , 2004 : 241)

$$IF = Min (EFj) – Max (LSi) - Di \quad (2-11)$$

سادسا : رسم شبكة المسار الحرج : يعتبر رسم الشبكة اساس التنفيذ التقليدي المعروف لطريقة المسار الحرج يمثل السهم نشاط واحد في المشروع حيث ان بداية السهم يمثل بداية النشاط (Start) ونهاية السهم يمثل انتهاء النشاط (Finish) وكما موضح بالشكل (2-1), ويمكن رسم السهم بأشكال مختلفة كالمنحنيات او الخطوط المستقيمة والمائلة , ولكن بدون ان يتقاطع . (O'Brien & Plotnick , 2010 : 25)

الشكل رقم (2-1) : نموذج بسيط لشبكة الاعمال (خضر , 2015: 22)

سابعا : اشكال وصيغ تصميم شبكات المسار الحرج :

يوجد ضمن شبكات العمل اشكال و صيغ مختلفة تعتمد على نوع المشروع وطبيعة انشطته , وبشكل عام يمكن تقسيم صيغ واشكال الشبكات لنوعين هما :(Khalaf , : 203 2009),(العبيدي & الفضل ,2010:139)

1) تصميم شبكات العمل على اساس العقد (AON[3]) : وبهذا التصميم يكون النقط او العقد هي التي تمثل النشاط بينما الاسهم تمثل الاحداث , وكما في الشكل (2-2) حيث يتم اضافة الانشطة واحد تلو الاخر بالتسلسل ليتم تضمين النشاط الذي سبقه .

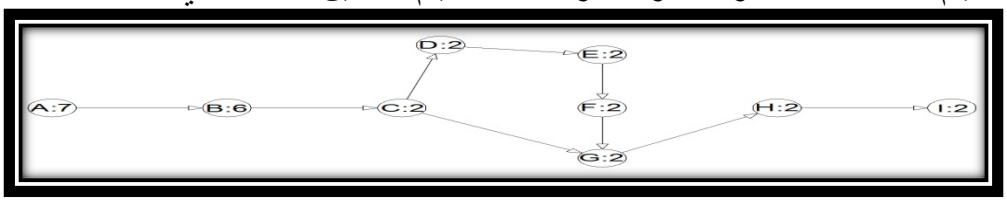

الشكل (2-2) شبكة المشروع وفقا لتصميم AON الشكل من اعداد الباحث

2) تصميم شبكات العمل على الانشطة على الاسهم (AOA[4]) : وبهذا النوع من التصاميم يكون السهم هو الذي يمثل النشاط بينما العقد او النقاط تمثل الاحداث , وكما في الشكل (2-3) .

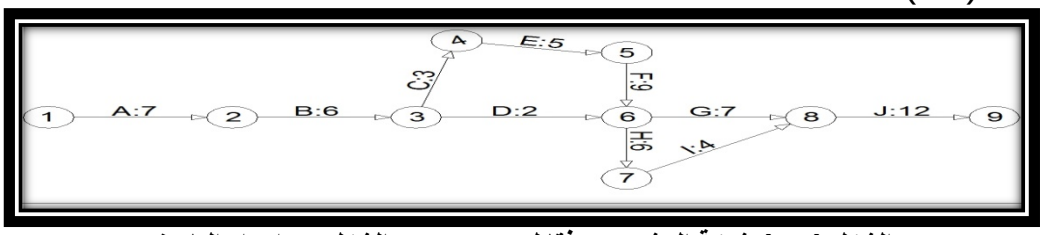

الشكل (2-3) شبكة المشروع وفقا لتصميم AOA الشكل من اعداد الباحث

3) الفرق بين الشبكة من نوع AOA & AON : كما في الجدول التالي .

الجدول (2-1) الفرق بين شبكتي AOA & AON

	الشبكة من نوع AON	الشبكة من نوع AOA
	اكثر حداثة وأزاد استخدامه لفوائده المتعددة.	**هو النظام الأقدم لهذا هو أكثر شيوعا .**
	يمكن اضافة أي نشاط بسرعة وسهوله و يمكن إدخال أزمنة تأخير وتقديم الى شبكة العمل .	**لعمل الشبكة يجب توفر معلومات تفصيلية وافية لتفادي الاخطاء لئن ذلك يتطلب تعديلا في الخطة**
	يتم ترقيم النشاط برقم واحد فقط .	**ترقم بزوج من الأرقام إشارة الى بداية ونهاية النشاط**
	مجموعة الانشطة الفعلية هي التي تمثل المسار في هذا النظام .	**المسار هنا يتمثل بمجموعة من الانشطة الفعلية والوهمية و أحداث بدايتها ونهايتها .**
	الاسهم تمثل العلاقة المنطقية الدوائر تمثل الانشطة ولا يستعمل هنا الانشطة الوهمية لذلك رسم الشبكة يكون أسرع وأسهل .	**الاسهم تمثل الانشطة والدوائر تمثل الاحداث وتوجد أيضا اسهم متقطعة تمثل (الانشطة الوهمية) لذلك قد يتطلب رسم الشبكة وقتاً ليس بالقصير .**
	المؤشرات هنا خاصة بالأنشطة فقط وهي تماثل طريقة AOA لكن هناك اختلافاً في طريقة حسابها	**المؤشرات هنا خاصة بعناصر الشبكة وتشمل مؤشرات الأحداث والأنشطة .**

الجدول من اعداد الباحث

المبحث الثالث : برمجة الاهداف

أولا : مفهوم برمجة الاهداف : هناك العديد من الأهداف التي تسعى الادارة في أي مشروع الى تحقيقها , ودائما ما تكون هذه الاهداف ذات أبعاد متعددة ومتنوعة ترافقها محدودية في الموارد المتوفرة وقيودا أخرى مفروضة على الادارة مما يعسر الأمر على متخذي القرار في اتخاذ القرارات الصحيحة , كون هناك أمور يجب أخذها بنظر

[3] Activity On Noad :

[4] Activity On Arrow :

الاعتبار تجعل من المشاكل أكثر تعقيداً كالظروف داخل وخارج المنظمة وكذلك القوانين والأنظمة المفروضة عليها , كذلك الأساليب الرياضية المعروفة كالبرمجة الخطية والعددية التي لا يمكن في بعض الحالات استخدامها في حل المشاكل ذات الاهداف المتعددة لقصورها الواضح في حلها لهذا تكون طريقة السمبلكس الاعتيادية ذات جدوى محدودة في استخراج الحل الأمثل لمثل هذه المشاكل . (Render , 2009 : 507) . ولهذا نحن بحاجة الى طريقة فعالة تساعدنا في الوصول الى حلول دقيقة ومقبولة أيضا تكون ذات صيغة تمكنها من اخذ أكثر من هدف لتحقيقه , وبهذا تم تطوير احد أساليب البرمجة الخطية يدعى ببرمجة الاهداف , ومما تقدم يمكن تعريف برمجة الاهداف بأنها "طريقة مخصصة تستعمل للتعامل بكفاءة مع المشكلات ذات الاهداف المتعددة وفقا لأسبقيات معينة "أي ان الاهداف ترتب حسب أهميتها (الأهم ثم المهم) او ذات أوزان نسبية أي انها تتعامل مع اهداف موزونة ضمن مستوى الأسبقية الواحدة , مما يعطي مرونة عالية لمتخذ القرار في كيفية التعامل مع أهدافه وفهمها بشكل أعمق .(نجم , 2008 : 217)

ويذكر(Winston , 1997 : 38) " تعتبر تقنية تستخدم من اجل تحديد القرارات الأفضل في حال وجود اهداف متعددة تسعى المنظمة لتحقيقها , وبهذا يمكن تعرف برمجة الاهداف أيضا بأنها " اسلوب لحل نماذج ذات اهداف متعددة من خلال تحويل الاهداف الرئيسية المتعددة الى هدف فردي لتكون النتيجة ما يسمى بالحل الكفوء " . (Taha , 2007 : 349)

ثانيا : اهم المصطلحات المستخدمة : (الطالب,1999:2),(زيدان,2012: 15),(الشاهين,2007: 119-122) , (Sen & Nandi , 2012 : 2) , (Lgnizio & Romero ,2003:489)

1) الانموذج : هي مجرد أفكار (تعبيرات) تجريدية تظهر الميزات التي لها علاقة بسلوك النظام الحقيقي , أي ان الانموذج يعبر عن نظام وظاهرة حقيقية .

2) دالة الهدف : هي الدالة التي يتم من خلالها قياس نسب الانجاز من خلال تقليل متغيرات الهدف التي تحتوي على انحرافات غير المرغوب فيها في نموذج البرمجة بالأهداف .

3) القيود الهدفية : هي اهداف تسعى البرمجة الى تحقيقها , أي بمستوى تم تحديده مسبقا .

4) الانحرافات الموجبة : الانحرافات التي تكون قيمتها اعلى من الهدف (Upper Deviation) .

5) الانحرافات السالبة : الانحرافات التي تكون قيمتها اقل من الهدف (Lower Deviation) .

6) الخوارزمية : عبارة عن مجموعة من خطوات منطقية متسلسلة رياضياً لحل مشكلة محددة .

7) متغير القرار : عبارة عن متغير يمثل منتج جديد او بدائل إدارية يرغب متخذ القرار تحديد قيمة مثلى له من خلال العمليات الرياضية المنطقية المتسلسلة .

ثالثا : أهمية البرمجة بالأهداف : دائما تكون حالات القرار لها اتجاهات وإبعاد مختلفة ومتنوعة وعند وضع حلولا لها يكون هذا الحل مقتصرا على تحقيق هدفا واحدا قد لا يحقق كل توجهات وحاجات المنظمة , لأنه ليس دائما من الممكن ان يوضع معيارا واحدا لقياسها دون إمكانية الاهتمام بتحقيق الاهداف الاخرى , وهنا يتضح عدم فائدة طرق الأمثلة كالبرمجة الخطية و العددية , مما دفع الى التوجه الى اسلوب جديد وهو البرمجة بالأهداف للتعامل مع مشاكل القرارات مختلفة الأبعاد المختلفة وتكمن الأهمية العظمى لبرمجة الاهداف في إمكانيتها التعامل مع مجاميع من الاهداف (الاهداف المتناقضة والمتعارضة , الاهداف ذات الأبعاد المتعددة والأهداف التي يصعب تحديدها كميا) . (كاظم , 2005 : 54)

رابعا : خصائص ومميزات برمجة الاهداف : تتميز البرمجة بالأهداف بخصائص عن البرمجة الخطية وهي : (زيدان , 2012 : 16),(العجمي , 2009 :9),(Bryson ,1995:648),(Sen & Nandi , 2012:2)

1) عند تضارب الأهداف او تناقضها فان اسلوب البرمجة بالأهداف يعتبر الأسلوب الناجح للتعامل معها بشكل شامل , وهذا ما تعجز عنه الأساليب الاخرى .

2) يقوم اسلوب البرمجة بالأهداف بمعالجة مشاكل القرارات مع هدف لوحده او مع اهداف متعددة حيث يتم تحقيق هذه الاهداف بحسب أوزانها وتسلسلاتها ، وان دالة الهدف تكون بأبعاد متعددة وحسب الأوزان النسبية لها علاوة على معالجة مشاكل الاهداف مع بعضها البعض ، كذلك ان إعداد معادلة دالة الهدف لنماذج البرمجة بالأهداف لا يشترط ان تتوفر وحدة قياس واحدة لجميع الاهداف المراد تحقيقها (اي ممكن ان تحتوي على وحدات قياس غير موحدة) .

3) تستخدم البرمجة بالأهداف متغيرات انحرافية تدعى (di-,di+) لكل قيد للهدف المنشود وكما يلي :

أ. تحقيق مستوى الهدف بالضبط : ويعني ان على متخذ القرار ان يحقق مستوى الهدف بالضبط من دون أي زيادة او نقصان في قيمته ، وفي هذه الحالة يتم وضع المتغيرات الانحرافة (d-,d+) في معادلة دالة الهدف وكما يلي : ((المطلوب تخفيض (d-,d+) الى أدنى حد ممكن))

ب. تحقيق أقصى قيمة للهدف : ويعني ان على متخذ القرار ان يحقق تخفيضاً في الانحرافات السالبة ولا يرغب بالتخفيض الانحرافات الموجبة المرغوب فيها هنا و في هذه الحالة يتم صياغة معادلة دالة الهدف من الانحرافات السالبة فقط (d-) وكما يلي : ((المطلوب تخفيض (d-) الى ادنى حد ممكن))

ت. تحقيق ادني قيمة للهدف : ويعني ان على متخذ القرار ان يحقق تخفيضاً في الانحرافات الموجبة ولا يرغب بتخفيض الانحرافات السالبة المرغوب فيها هنا و في هذه الحالة يتم صياغة معادلة دالة الهدف من الانحرافات الموجبة فقط (d+) وكما يلي : ((المطلوب تخفيض (d+) الى ادنى حد ممكن))

وبصفة عامة اذا كان قيد الهدف (اصغر من او يساوي) قبل اضافة متغير الانحراف فأننا سوف نقوم بإضافة متغير الانحراف الموجب (d+) الى دالة الهدف ، وعلى العكس اذا كان قيد الهدف (اكبر من او يساوي) فأننا سوف نقوم بإضافة متغير الانحراف السالب (d-) الى دالة الهدف ، اما اذا كان قيد الهدف (يساوي) فان دالة الهدف سوف تحتوي على متغيري الانحراف السالب والموجب (d-,d+) .

4) تحتوي البرمجة بالأهداف على ما يلي :

أ. القيود الهدفية : هي حدود الاهداف التي تترتب على شكل أسبقيات لدالة الهدف التي نعمل انجازها.

ب. قيود البرمجة الخطية (قيود الانموذج) : وهي اهداف مطلقة لا يمكن الاستغناء عنها وعدم حلها يؤدي الى الحصول على حلول غير مقبولة .

ت. شروط عدم السالبية : ووفقاً لهذا الشرط لا تكون متغيرات المشكلة الخاضعة للدراسة والتي سوف يتم استخرجها من الحل الأمثل بقيم سالبة , أي تكون مساوية او اكبر من الصفر وتشمل متغيرات نموذج برمجة الاهداف ، سواء كانت متغيرات القرار او المتغيرات الانحرافية (السالبة والموجبة) عن القيم المحددة للأهداف (او المتغيرات الراكدة) .

من اهم مميزات البرمجة بالأهداف ما يلي :

1) يوجد دائما حل للمشاكل او النموذج وان كانت بعض أهدافها متعارضة , بشرط ان تكون منطقة الحلول الممكنة غير خالية , ويعود ذلك الى إدراج متغيراتها الانحرافية

, اذ تظهر هذه المتغيرات سواء تم تحقيق الاهداف او لم يتم تحقيقها , وفي حالة لم يتم تحقيقها تقاس المسافة بينها وبين مستوى الطموح .

2) عادة ان البرمجة بالأهداف لا تحتاج الى إجراءات حل متطورة جدا ويمكن ان تحل بسهولة من خلال طرق البرمجة الخطية الموجودة . (Sen & Nandi , 2012 : 2) , وكما في الشكل (2-4) التالي .

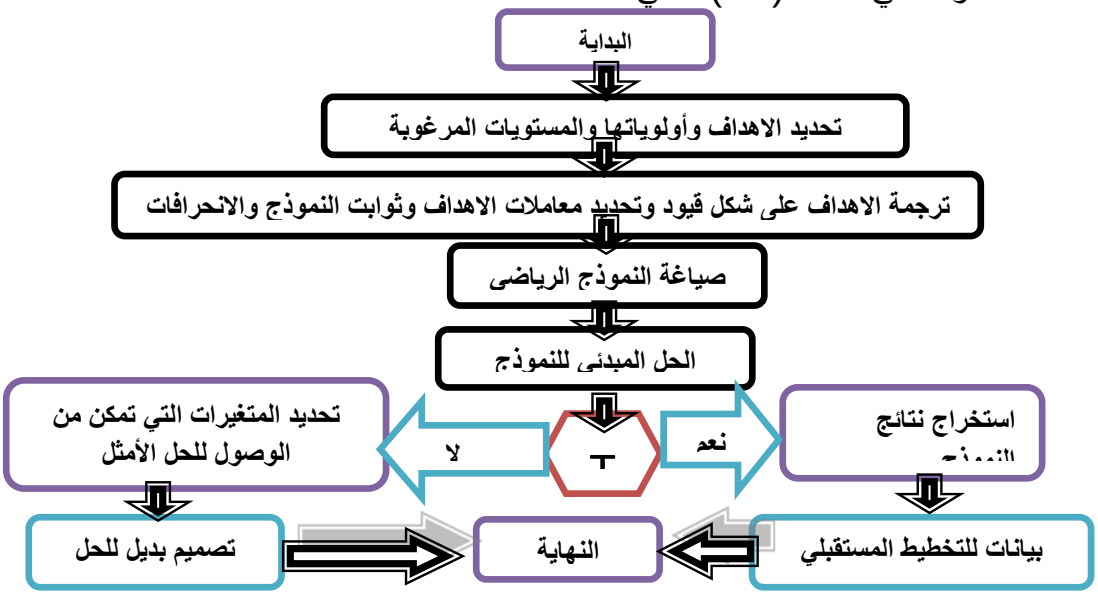

الشكل رقم (2-4) المخطط العام لنموذج البرمجة بالأهداف

المصدر:(العجمي , 2009 :13, برمجة الاهداف , رسالة ماجستير مقدمة الى كلية الاقتصاد/ جامعة دمشق)

خامسا : فرضيات اسلوب البرمجة بالأهداف:

اهم الفرضيات الاساسية التي يرتكز عليها اسلوب البرمجة بالأهداف ما يلي : (حسن , 2013 : 13)

1) تحديد مسؤولية متخذ القرار في وضع الأوزان النسبية للأهداف .
2) هناك شيء من التشابه بين الفرضيات التي تطبق في اسلوب البرمجة بالأهداف والتي تطبق في البرمجة الخطية , كذلك هناك بعض الاختلافات كون البرمجة الهدفية يمكنها التعامل مع أكثر من متغير بدلا من متغير واحد كالبرمجة الخطية , اضافة الى تلك الاختلافات هناك بعض التغيرات المضافة وهي:

أ. متغير الانحراف ذو الإشارة الموجبة . ب. متغير الانحراف ذو الإشارة السالبة

ويكون ذلك بعد معرفة : اولا اهداف المشكلة وإعطائها أوزان وأولويات لكل هدف من الاهداف , وبعدها القيود الهدفية للمشكلة ومن ثم القيود غير الهدفية للمشكلة .

سادسا : خوارزميات البرمجة بالأهداف :

هناك أسلوبان رئيسيان للخوارزميات في حل مشكلات البرمجة بالأهداف وهما :(Taha , 2007 : 354) , (Hillier , 2001 : 22)

1) الطريقة الموزونة (Weighting Method) .
2) طريقة الاولويات (The Preemptive Method) .

وكلا الطريقتين تقوم على وضع كل الاهداف بدالة هدف واحدة , ففي الطريقة الأولى يتم تكوين دالة هدف واحدة من المجموع المرجح للدوال التي تمثل اهداف المشكلة , اما في الطريقة الثانية فتبدأ بترتيب الاهداف حسب الأولوية او الأهمية , ولكل طريقة تصميم يحقق لمتخذ القرار بعض التفضيلات , وكذلك ان وضع النموذج الملائم للمشكلة يحتاج لعدة خطوات لتحديد الاولويات والأوزان وكما يلي .

أ) كتابة وتصنيف وترتيب الاهداف (بشكل أولي) , ومن ثم جمعها حسب الاولوية .
ب) تحديد وزن لكل هدف من الاهداف ضمن كل مستوى من المستويات الأولية .
ت) يجب ان تكون الاهداف المطلقة ضمن المستوى الأعلى للأولويات .

1) الطريقة الموزونة (Weighting Method) : عندما تكون جميع الأهداف المراد تحقيقها بنفس الأهمية بالنسبة للقائمين على ادارة المشروع , فأن عملية اختيار بين تلك الاهداف سيكون معقدا لهذا يتم اللجوء الى هذه الطريقة الموزونة حيث تحدد الأوزان وفقا لأهميتها من وجهة نضر القائمين على المشروع , وبهذا تقلل من الانحرافات الموزونة غير المرغوب فيها (Sen & Nandi , 2012 : 2)

فلو فرضنا ان نموذج البرمجة بالأهداف سوف يتكون من عدد n من الاهداف فان دالة الهدف سوف تكون كما يلي . (Taha , 2011 : 520)

$$Gi , I = 1 , 2 , 3 , \ldots\ldots , n$$

$$Min (Z) = WG1 + WG2 + WG3 + \ldots\ldots + WnGn \qquad (3\text{-}12)$$

اذ ان (Wi) تمثل الأوزان الموجبة وهي عادة ما تعكس تفضيلات متخذ القرار بالإشارة الى الأهمية المتعلقة بكل هدف , ويجب ان يكون مجموع الأوزان يساوي 1 .

2) طريقة الاولويات (The Preemptive Method) : في اغلب الأوقات يواجه مدراء المشاريع (متخذين القرارات) مشكلات متعددة الأبعاد ولتجاوز هذه المشاكل يتم اللجوء الى وضع أولويات لهذه الإبعاد , بحيث يعطى الهدف الاول الأسبقية الأولى في تنفيذه , وبطبيعة حال طريقة الاولويات ان الهدف الثاني هو اقل أهمية من الهدف الاول وأكثر أهمية من الهدف الثالث , وكذلك لا يتم النظر الى الهدف الثاني دون إتمام الهدف الاول , ويرمز للأسبقية الأولية بالرمز(P) . (Anderson , 1995 : 799)

ويعبر عن انموذج برمجة الاهداف بطريقة الاولويات بالشكل الرياضي التالي: (Sen & Nandi , 2012: 32)

$$\begin{aligned} &Minimize\ (Z) = \sum_{i=1}^{m} Pj\ (di-\ , di+) \\ &S.T \\ &\sum_{j}^{n} = 1\ Cj * Xj - (di+) + (di-) = gi \\ &\sum_{j}^{n} = 1\ aij * Xj = ai \\ &di+\ , di-\ , Xj \geq 0 \\ &j : 1,2,3,\ldots\ldots , \quad \& \quad i : 1,2,3,\ldots\ldots , m \end{aligned} \qquad (2-13)$$

n

سابعا : خطوات بناء النموذج الرياضي لبرمجة الاهداف :

الخطوات الستة الضرورية لبناء نموذج البرمجة بالأهداف هي : (Anderson , 1995 : 907)

1) تحديد الاهداف و القيود التي تعكس حجم الموارد الموجودة وكذلك اي تعيق تحقيق الاهداف .
2) معرفة الاولويات وكذلك الأسبقيات لكل هدف من الاهداف , وبمعنى أخر ان الهدف الذي يأتي بالمستوى p1 هو الهدف الأهم , ويأتي p2 بعده ومن ثم p3 .... الى أخره من الاهداف .
3) معرفة متغيرات القرار .
4) بناء جميع القيود الخاصة بنظام البرمجة الخطية (بناء اعتيادي) .

5) تحديد معادلة الهدف لكل هدف من الاهداف , وبهذه الخطوة يتم تحديد القيمة المستهدفة للهدف على الجانب الأيمن , وكذلك المتغيرات الانحرافية (di+ , di -) الموجود في كل معادلة من معادلات الاهداف تعبيرا عن احتمالية هذا الانحراف اما تحت او فوق القيمة المستهدفة .

6) كتابة معادلة دالة الهدف التي تقلل من قيم المتغيرات الانحرافية حسب الاولويات الى ادنى حد يمكن الوصول إليه .

ثامنا : طرق حل نماذج البرمجة بالأهداف : وبعدها تأتي مرحلة حل نماذج البرمجة بالأهداف بعد صياغة المشكلة على شكل نموذج رياضي , وبهذا يمكن الاعتماد على أكثر من طريقة في حل هذا النموذج ومن ابرز هذه الطرق : (حسن , 2013 : 17) , (Render , 2009 : 409),(الشاهين , 2007 : 122)

1) الطريقة البيانية (Graphical Method) : يمكن استخدام هذه الطريقة في الحل اذا توفر التالي .

أ. اذا احتوى النموذج على اثنين من متغيرات القرار فقط .
ب. اذا كانت نمذجة برمجة الاهداف من نوع تقليل او تخفيض فقط (Min) .
ت. هنالك عدة اهداف تسعى المنظمة الوصول إليها .
ث. ان يتم تخفيض الانحراف للأولوية الأولى الى أقصى حد ممكن قبل ان يحقق اي تخفيض في الهدف ذو الأولوية الثانية .

ولا يخفى ان لهذه الطريقة عيوب وهذه العيوب تكمن في انها تستخدم فقط مع المشاكل التي فيها متغيرين حقيقيين فقط .

2) الطريقة المبسطة المعدلة (Modified Simplex Method) : استناداً الى الخصائص التي تتميز بها مشاكل البرمجة بالأهداف وتميزها عن مشاكل البرمجة الخطية ، فان الطريقة المبسطة الشائعة في البرمجة الخطية بالإمكان ان تعدل او تحور لكي تستعمل لحل مشاكل البرمجة بالأهداف ، وهذه التعديلات او التحويرات تشمل صف المعيارية (cj-zj) ، وبهذا تصبح عبارة عن عدة صفوف لكي تلاؤم التعدد في الاولويات بالنسبة للأهداف في النموذج او الموضوع من قبل متخذ القرار .

المبحث الرابع / الإطار العملي

أولا : نبذة عامة عن مشروع مجاري بلد الكبير .

يعد مشروع مجاري بلد الكبير احد اكبر المشاريع الواردة ضمن خطة تنمية الأقاليم في محافظة صلاح الدين لسنة (2013) م , ومدة تنفيذ المشروع هي (900) يوم , تاريخ المباشرة بالمشروع 2013/1/31 , يشرف على عمل المشروع جهتين الأولى هي دائرة المهندس المقيم المتمثلة بقسم مجاري قضاء بلد التابع لمديرية مجاري صلاح الدين وواجبها الإشراف ومراقبة سير الاعمال في المشروع اما الجهة الاخرى فهي شركة استشارية قامت المحافظة بالتعاقد معها لمراقبة سير الاعمال وتقديم الاستشارة وتصحيح الانحرافات التي تحدث خلال وقت انجاز المشروع , قيمة المشروع الكلية هي (46,944,944000) دينار عراقي , يشمل المشروع مد شبكات المجاري (الثقيل والمطري) لأربع أحياء وكذلك انشاء محطات (ثقيلة ومطرية) لأربع أحياء أيضا , ومن الجدير بالذكر ان مشروع مجاري بلد متوقف منذ 2014/6/12 بسبب الظرف الأمني الذي مرت به المحافظة , وبعد مراجعة قسم مجاري بلد ومديرية مجاري صلاح الدين في تكريت مركز محافظة صلاح الدين للتقصي عن المشاكل التي تمر بها هذه الانواع من المشاريع بصورة عامة ومشروع مجاري بلد الكبير بشكل خاص وبعد المداولة وقراءة التقارير الشهرية الخاصة بإنجاز العمل قبل توقفه و المعدة من قبل الشركة الاستشارية المشرفة على تنفيذ المشروع , وجد ان ابرز المشاكل التي كانت

تعاني منها الشركة المنفذة هي نسب الانحراف التراكمية المتزايدة و التي بلغت كما في الجدول (3-1) .

الجدول رقم (3-1) نسب الانحراف الفعلية في المشروع

ت ت	الوقت من تاريخ المباشرة بالمشروع من 2013/1/31	المدة بالأشهر	نسبة الانجاز المخطط	نسبة الانجاز الفعلي	نسبة الانحراف
1 1	الى 2013 /6/24	5	% 6.8	% 4.5	% 2.3
2 2	الى 2014/4/25	15	% 49	% 23	% 25

المصدر : تقارير سير العمل الشهرية والمعدة من قبل شركة (صقر الفحل) للاستشارة الهندسية التقرير الشهري رقم (13&3)

ولقد قمنا بإخبار المديرية والقسم انه بالإمكان الاستفادة من المناهج العلمية الخاصة بإدارة المشاريع وتقديم دراسة تستند على أسس علمية رصينة لتقديم نتائج ايجابية تخدم المواطن والشركة المنفذة بوضع اهداف معلومة ومحاولة تحقيقها , كالعمل على تقليل وقت انجاز المشروع او تقليل كلفته او كلاهما بعد استئناف العمل ان شاء الله , وكذلك الاعتماد على هذه الدراسة في جدولة المشاريع التي تود المديرية تنفيذها في المحافظة في المستقبل , ويبين الشكل (3-1) التالي الاعمال الافتراضية للمشروع بشكل عام .

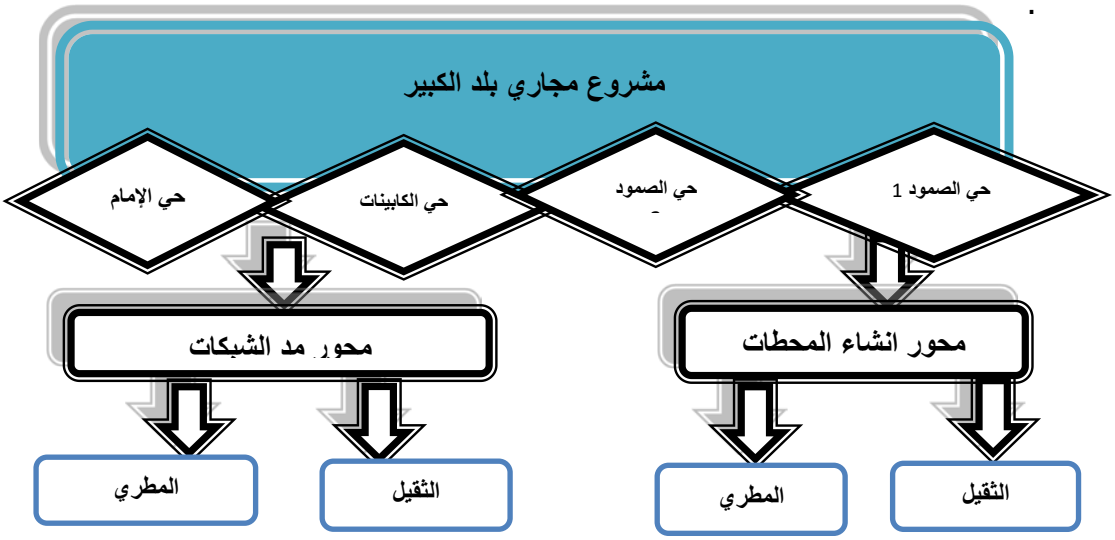

الشكل (3-1) يبين الاعمال الخاصة بمشروع مجاري بلد الكبير الشكل من اعداد الباحث

وبهذا فالمشروع مقسم الى محورين رئيسيين الاول انشاء مد الشبكات والثاني انشاء المحطات وكل محور من هذه المحاور يقسم الى جزئيين هما الثقيل والمطري لأربع أحياء , ولمحدودية وقت وعدد صفحات البحث سوف نقوم بدراسة نموذج لمحور مد الشبكات ولحي واحد فقط , أي سنقوم بدراسة مد الشبكات الثقيلة لأحد الأحياء الأربع , ومن الجدير بالذكر ان مدة تنفيذ اعمال مد الشبكات الثقيلة هو أطول من مدة تنفيذ اعمال مد الشبكات المطرية وذلك لأسباب هندسية فنية تتعلق بعمق الشبكة وكذلك كون العمل بهذا المحور يكون في حالة تماس مباشر مع المواطن لهذا فتقليل وقت انجاز العمل في هذا المحور بالوقت المرغوب فيه يعد من الضروري ولهذا تم اختيار محور مد الشبكات للثقيلة كنموذج للدراسة , علما ان أعمال مد الشبكات (الثقيلة والمطرية)

وأعمال انشاء المحطات بنوعيها فهي تعتبر كل منها بمثابة مشروع مستقل عن الأخر أي لا يؤثر البدء بأي واحد منها دون الأخر .

ثانيا : محور مد الشبكات الثقيلة

كما ذكرنا سابقا ان مشروع مد الشبكات يتكون من مد ثمانية شبكات اربعة ثقيلة واربعة مطرية واننا سوف نقوم بدراسة مد الشبكات الثقيلة كنموذج , وقد قدم قسم مجاري بلد بعض البيانات الخاصة بأنشاء المشروع المتمثل بجدول كميات المشروع , حيث قام الباحث بتوحيد هذه الجداول ومناقشة اوقات تقدم العمل بالنسبة لنشاطات الواردة في هذه الجداول وكذلك إمكانية ضغط أوقات هذه النشاطات مع المهندسين المشرفين على سير الاعمال في المشروع وكذلك اعتمادية هذه النشاطات على بعضها , وفي ما يلي الجدول (3- 2) الذي يوضح الأوقات الطبيعية والتعجيلية وكذلك الكلف الطبيعية والتعجيلية لكل نشاط من أنشطة المشروع وكذلك قيمة الميل (Slop) لها .

الجدول رقم (3-2) جدول كميات مد الشبكات

ت	اسم النشاط	رمز النشاط	النشاط السابق	الوقت الطبيعي (يوم)	الوقت المغطوط (يوم)	اعلى مدة ضغط	الكلفة الطبيعية (الف دينار)	الكلفة التعجيلية (الف دينار)	الميل (Slop)
	اعمال مد الانابيب H								
1	اعمال مد انابيب قطر250 pvc	H1	_	60	49	11	505 006	2 023 000	499.5
2	اعمال مد انابيب قطر 315 pvc	H2	H1,j1	15	12	3	480 200	3 204 500	1 340
3	اعمال مد انابيب قطر 400 pvc	H3	H2,j2	20	15	5	352 000	359 500	1 500
4	اعمال مد انابيب قطر 500 pvc	H4	H3,j3	6	5	1	92 480	93 500	1 020
5	اعمال مد انابيب قطر 600 pvc	H5	H4,j4	2	1	1	27 600	29 000	1 400
6	اعمال مد انابيب قطر 700 grb	H6	H5,j5	22	19	3	385 000	389 500	1 500
	احواض تفتيش I								
7	نوع AS مستطيل	i1	H1,j1	46	46	0	367 500	367 500	0
8	نوع BS دائري عمق اقل من 3 متر.	i2	H2,j2	32	32	0	365 000	365 000	0
9	نوع BD دائري عمق اكثر من 3 متر	i3	H4,j4	19	19	0	142 500	142 500	0
10	نوع A&B دائري للأنابيب700و800	i4	H6,j6	13	13	0	205 000	205 000	0
	اعمال المسارات (تكسير & صب J								
11	للأنابيب بقطر 250 .	j1	_	20	15	5	24 544,5	26 500	391.1
12	للأنابيب بقطر 315 .	J2	H1,j1	5	4	1	2 629,5	3 200	570.5
13	للأنابيب بقطر 400 .	J3	H2,j2	6	4	2	2 077,5	2 850	21.25
14	للأنابيب بقطر 500 .	J4	H3,j3	2	1	1	528	900	372
15	للأنابيب بقطر 600 .	J5	H4,j4	0.5	0.5	0	128	128	0
16	للأنابيب بقطر 700 .	J6	H5,j5	7	5	2	1 540	2 250	355
	اعمال توصيلات الدور K								
17	مد انابيب بقطر 110 & 160 ملم	K1	1,i2,i3,i4	76	40	36	80 000	98 000	500
18	تجهيز وتثبيت خرسانة فوق الربطات	K2	K3,K4	10	10	0	6 000	6 000	0
19	تجهيز وربط سدادة غطاء للأنابيب 110	K3	K1	5	3	2	6 000	6 200	100
20	تجهيز وربط سدادة غطاء للأنابيب 160	K4	K1	7	5	2	6 400	6 600	100
	اعمال اعمدة التهوية L								
21	عمود تهوية بارتفاع 6 م 160و 250ملم	L1	1,i2,i3,i4	10	8	2	24 000	25 100	550
22	تركيب ملحقات اعمدة التهوية	L2	L1	12	10	2	53 100	53 300	100

الجدول من اعداد الباحث بالتعاون مع المهندسين العاملين في دائرة المهندس المقيم للمشروع

ثالثا : تخمين وقت انجاز العمل في محور مد شبكات المجاري الثقيلة

قام الباحث باحتساب وقت انجاز المشروع بطريقة المسار الحرج (C.P.M) , وبأجراء الحسابات الأمامية (F.W) والخلفية (B.W) وأوقات انجاز نشاطاته المبكرة (ES,EF) والمتأخرة (LS,LF) باستخدام المعادلات الرياضية من (2-2)الى(2-7) الواردة في الفصل الثاني من هذه الرسالة وكذلك استخدم الباحث اسلوب (AOA) في رسم شبكة نشاطات المشروع , وكانت النتائج , الوقت الطبيعي لإنجاز المشروع (231) يوم , والكلفة الطبيعية لإنجاز المشروع هي (7,351,011,000) دينار عراقي , وكما في الشكل التالي .

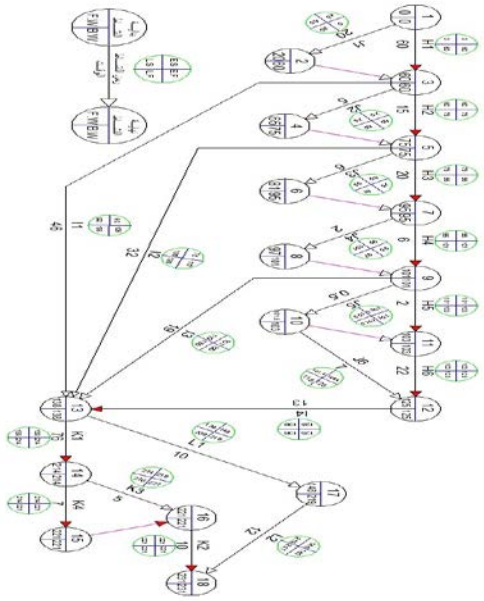

الشكل رقم (3-2) رسم اعتمادية نشاطات المشروع لمحور مد الشبكة الثقيلة في برنامج AutoCad2016 في رسم الشكل، وفقا لأسلوب AON

رابعا : مبادلة وقت انجاز العمل في انشاء مد شبكات المجاري الثقيلة بالكلفة

ان عملية ضغط وقت المشاريع ينجم عنها زيادة في كلف تنفيذها لهذا سوف يكون هناك أهمية نسبية لأحدهما عن الأخر , ومن هنا قمنا بعرض موضوع مبادلة الوقت بالكلفة على مديرية مجاري صلاح الدين وقسم مجاري بلد ومن ثم النظر الى النتائج النهائية التي سيكون هدفها تقليل وقت انجاز المشروع وبأقل كلفة مضافة ممكنة مع المحافظة على كفاءة العمل والاخذ بنظر الاعتبار بعض الانشطة التي لا يمكن ضغطها وذلك للضرورة الفنية في تنفيذها وهذه الانشطة هي :

1) صب وتنصيب احواض التفتيش بجميع انواعها وهي الانشطة (I4 , I3 , I2 , I1) .
2) اعمال تكسير وصب مسارات الانابيب بقطر 600 ملم وهو النشاط (J5) .
3) اعمال تجهيز وتثبيت خرسانة فوق الربطات في اعمال توصيلات الدور وهو النشاط (K2) .

وبعد إجراء الحسابات الرياضية الخاصة بمبادلة وقت المشروع بالكلفة وفقا للمحددات التي فرضت على الباحث من قبل الدائرة المستفيدة من المشروع , بعد توضيح اهمية الوقت في انجاز المشروع , وتم ذلك باحتساب الميل (Slop[5]) لكل نشاط من أنشطة المشروع باستخدام المعادلة (2-1) , وبعد تحديد المسار الحرج للمشروع بدأت عملية

[5] : هو معدل قيمة الكلفة التعجيلية لنشاط معين ينتج من قسمة فرق الكلف (الطبيعي والتعجيلي) على فرق الوقت (الطبيعي والتعجيلي) .

الضغط بالبدء بالأنشطة ذات الميل الاقل تصاعدا لحين الوصول المرغوب فيه لتنفيذ المشروع وبهذا تم ضغط وقت العمل بالمشروع من (231) الى (169) يوم وكما يلي.

الجدول رقم (3-3) بالتسلسل الانشطة المضغوطة مع كلفها والتعجيلية

رمز النشاط	الوقت (يوم)	مدة الضغط (يوم)	الميل (دينار)	كلفة الضغط (دينار)
K4	7	2	100 000	200 000
K1	76	36	500 000	18 000 000
H4	6	1	1 050 000	1 050 000
H2	15	3	1 340 000	4 020 000
H5	1	1	1 400 000	1 400 000
H1	60	11	1 499 500	16 495 000
H3	20	5	1 500 000	12 000 000
H6	22	3		
المجموع		62		53 135 000
كلفة المشروع التعجيلية				7 404 146 000

الجدول من اعداد الباحث

خامسا : احتساب أوقات المرونة للنشاطات لمحور مد الشبكات الثقيلة

ويتم احتساب أوقات المرونة لكل نشاط عن طريق إحدى المعدلتين (2-8) و (2-9) بعد تحديد كل من البدايات المبكرة (ES) والنهايات المبكرة (EF) عبر الحسابات التصاعدية الأمامية (F.W) , والبدايات المتأخرة (LS) والنهايات المتأخرة (LF) عبر الحسابات التنازلية الخلفية (B.W) , وكذلك قام الباحث بمقارنة أوقات المرونة لكل نشاط بنفسه قبل وبعد ضغط وقت المشروع وذلك لبيان الاختلاف الذي يحصل في المرونة بأغلب الانشطة وكما في الجدول (3- 4) التالي .

الجدول رقم (3-4) أوقات البداية والنهاية (المبكرة والمتأخرة) مع قيمة المرونة

رمز النشاط	النشاط السابق	الوقت الطبيعي					الوقت التعجيلي				
		ES	EF	LS	LF	المرونة الكلية	ES	EF	LS	LF	المرونة الكلية
H1	_	0	60	0	60	0	0	49	0	49	0
H2	H1,j1	60	75	60	75	0	49	61	49	61	0
H3	H2,j2	75	95	75	95	0	61	75	61	75	0
H4	H3,j3	95	101	95	101	0	76	81	76	81	0
H5	H4,j4	101	103	101	103	0	81	82	81	82	0
H6	H5,j5	103	125	103	125	0	82	101	82	101	0
i1	H1,j1	60	106	92	138	32	49	95	68	114	19
i2	H2,j2	75	107	106	138	31	61	93	82	114	21
i3	H4,j4	101	120	119	138	18	81	100	95	114	14
i4	H6,j6	125	138	125	138	0	101	114	101	114	0
j1	_	0	20	40	60	40	0	20	29	49	29
j2	H1,j1	60	65	70	75	10	49	54	56	61	7
j3	H2,j2	75	81	89	95	14	61	67	70	76	9
j4	H3,j3	95	97	99	101	4	76	78	79	81	3
j5	H4,j4	101	101.5	102.5	103	1.5	81	81.5	81.5	82	0.5
j6	H5,j5	101.5	110	118	125	15	82	89	94	101	12
K1	I1,i2,i3,i4	138	214	138	214	0	114	154	114	154	0
K2	K3,K4	221	231	221	231	0	159	169	159	169	0
K3	K1	214	219	216	221	2	154	159	154	159	0
K4	K1	214	221	214	221	0	154	159	154	159	0
L1	I1,i2,i3,i4	138	148	209	219	71	114	124	147	157	33
L2	L1	148	160	219	231	71	124	136	157	169	33
اكبر مرونة في النشاط L1,L2 حيث يمكن تأجيله لمدة .						71	اكبر مرونة				33
اقل مرونة في جميع النشاطات الحرجة حيث لا يمكن تأجيلها .						0	اقل مرونة				0

الجدول من اعداد الباحث

سادسا : حساب وقت انجاز المشروع باستخدام برنامج (AUTO CAD 2016)

تعتبر طريقة حساب وقت انجاز المشروع باستخدام برنامج (Auto Cad) اسلوب جديد و مبتكر قام الباحث باستخدامها بما تتناسب مع الإمكانيات المتاحة في البرنامج لرسم الانشطة بأبعاد (اي طول السهم يمثل طول النشاط) ومحاولة الاستفادة من هذه الخاصية في البرنامج لمعرفة النشاطات الحرجة وغير الحرجة وكذلك معرفة مدة تنفيذ المشروع و مدة كل نشاط من انشطته , ومن الجدير بالذكر ان هذا الاسلوب في جدولة المشروع سوف يوفر الكثير من الوقت والجهد وذلك لسهولة رسم الشكل لأنه لا يحتوي على نشاطات وهمية وكذلك يمكن للشكل حساب قيم المرونة في النشاطات بدون الحاجة الى اجراء العمليات الحسابية وكذلك قيم البداية والنهاية المبكرة والمتأخرة لكل نشاط بدون اجراء اي عمليات حسابية او معادلات وذلك من خلال استخدام الأمر (DIMANSTION) في البرنامج او باستخدام المسطرة بالتنسيق مع حجم الرسم (SCALE) بكبسة زر واحدة بعد إكمال عملية الجدولة , ويمكن جدولة المشروع بدون الحاجة للبرنامج بنفس الطريقة وذلك باستخدام الورق البياني والمسطرة بوضع مقياس رسم معين لجدولة المشروع ويكون هذا المقياس عبارة عن علاقة بين الوقت واحدى وحدات القياس كالسنتمتر او المليمتر مثل (كل 1 يوم يساوي 1 ملم) او غيرها , وكما في الشكل (3-4) التالي , والموجود بشكل واضح جدا داخل برنامج (Auto CAD 2016) ومرفق مع البحث المقدم .

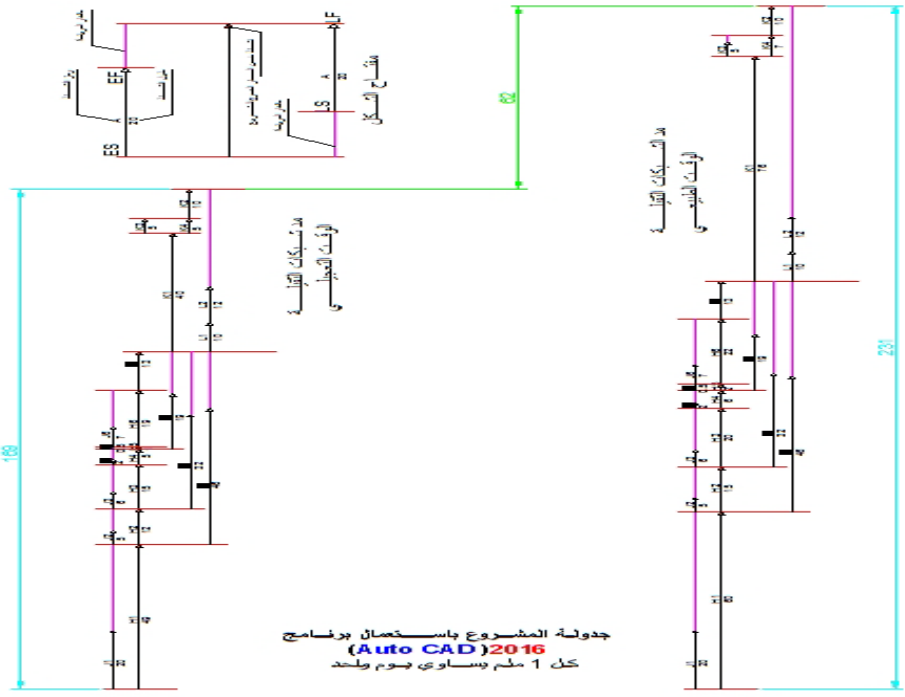

سابعا : مميزات جدولة المشروع بواسطة برنامج (AutoCAD2016) :

يعد برنامج (Auto Cad 2016) من البرامج الهندسية المهمة والمستخدمة في إعداد التصاميم الهندسية المختلفة , وان استخدام البرنامج في جدولة المشروع تعتبر

خطـوة جديدة في جدولة المشروع وذلك للاستفادة من مميزات هذا البرنامج لا بد من ذكرها وفي ما يلي ابرز المميزات :

1) وضع اغلب معلومات المشروع في الشكل البسيط المقترح من قبل الباحث وبالتالي يسهل الكثير من العمليات الحسابية التي نقوم بحسابها لحساب وقت انجاز المشروع , وبهذا سوف يوفر البرنامج عبر الأمر (Dimension) مدة تنفيذ المشروع بكبسة زر واحدة , علاوة على ان الشكل سوف يكون فيه قيم ال(Slack) واضحة ولا تحتاج الى إجراء العمليات الحسابية أيضا عن طريق نفس الأمر, وبالتالي توفير الكثير من الجهد والوقت ومن الجدير الإشارة إلية ان قيمة ال(Slack) في الشكل المقترح لا تعد رقما فحسب بل يوضح الشكل ان لهذه القيمة أهمية ويجب على القائمين على المشروع تنسيق عملية استخدامها مثلا في هذا النشاط مرونة ثلاثة أيام فيبين الرسم أين يجب ان تستغل هذه الأيام بالتنسيق مع النشاطات الاخرى لكي لا يكون هناك الكثير من الاعمال في يوم ما والقليل منها في يوم أخر .

2) سهولة رسم شبكة المشروع بالبرنامج ولا ضرورة لوجود أنشطة وهمية في الشكل المقترح.

3) ان اغلب المدراء التنفيذيين للمشاريع وكذلك اغلب المدراء المشرفين على هذه الاعمال هم من المهندسين وبهذا سوف يكون هذا الاسلوب الأقرب الى توجهاتهم لئن اغلبهم ممن يجيد العمل على هذا البرنامج وبأقل تقدير يجيد قراءة المخططات التي يتم انجازها من خلال هذا البرنامج .

4) ان استخدام هذا الاسلوب المبسط في رسم اعتمادية النشاطات في المشاريع الكبيرة سوف يوفر الكثير من الوقت والكلفة بالمقارنة مع الأساليب الاخرى المستخدمة لهذا الغرض , لئن رسم شبكة اي مشروع سوف يمكن تمثيله بشكل خطي واحد ولا حاجة لرسم أشكال متعددة علاوة على ان عملية ضغط الانشطة بشكل خاص والمشروع بشكل عام سوف تكون واضحة وبالإمكان المقارنة بين المسارين ألتعجيلي والطبيعي للمشروع وبسهولة .

ثامنا : مناقشة النتائج :

بالاطلاع على النتائج التي تم الحصول عليها من تطبيق المعـادلات الرياضية وباستخدام برنامج (AutoCad2016) يتضح ان وقت انجـاز المـشروع والمتمثل بأطول مسار للشبكة (المـسار الحرج) الذي يضم الانشطة التالية (H1,H2,H3,H4,H5,H6,i4,K1,K4,K2) وعليه فأن اي تأخير في انجاز اي من هذه الانشطة سوف يؤدي الى تأخير انجاز المشروع برمته وبهذا يمكن القول بان اي ضغط لوقت المشروع هو بشكل مصغر ضغط النشاطات مساره الحرج , ومن الجدير بالذكر ان هناك بعض الانشطة التي تنتمي او لا تنتمي للمسار الحرج لا يمكن ضغطها وذلك لارتباطها بمواصفات فنية محددة وهناك أنشطة اخرى يمكن ضغطها ولكن عملية ضغطها لن تؤثر على مدة تنفيذ المشروع الكلية وببساطة لأنها لا تنتمي للمسار الحرج , وحسب ما تم توضيحه من خلال الحسابات الأمامية والحسابات الخلفية ان وقت وكلفة انجاز المشروع , وبهذا تم الحصول على نتائج متكررة لوقت انجاز المشروع بطريقتين مختلفتين الأولى عن طريق المعادلات تطبيق الرياضية والثانية عن طريق البرنامج الهندسي (AUTO CAD 2016) . كما موضح في الجدول (3- 5) التالي .

الجدول (3- 5) ايجاد معدل الميل الكلي لضغط وقت المشروع / المحور الثاني

ت	الوقت (يوم)		الكلفة (دينار)	
1	**الطبيعي**	**231**	**الطبيعية**	**7 351 011 000**
2	**ألتعجيلي**	**169**	**التعجيلية**	**7 404 146 000**
3	**الفرق**	**62**	**الفرق**	**53 135 000**
Slop[6]	857 016,13			

الجدول من اعداد الباحث

ثامنا : بناء نموذج البرمجة بالأهداف للمشروع :

كما اشرنا سابقا ان مشروع مجاري بلد يتقسم الى اربع محورين رئيسية وهما انشاء المحطات ومد الشبكات وكل محور من هذه المحورين يقسم الى المجاري الثقيلة والمطرية وأننا سوف نختصر دراستنا فقط على الثقيلة في كلا المحورين وبهذا سوف نقوم بوضع دالة الهدف و القيود الهدفية وقيود النموذج .

القيود الهدفية (وحسب الأولوية) :

أ) الهدف الاول (P1) : انجاز المشروع في الوقت المرغوب فيه , وحسب المعادلة العامة التالية .[7]

$$T = Yn - (dp+) + (dp-) \qquad (3.-1)$$

ب) الهدف الثاني (P2) : تحديد الكلفة الاضافية والمقررة من قبل ادارة المشروع لضغط أنشطته , وحسب المعادلة العامة التالية :[8]

$$R = \sum Uq.Xq - (dh+) + (dh-) \qquad (3-2)$$

1) تحديد قيود النموذج الرياضي :

أ) تحديد قيد الحد الأقصى لضغط أوقات الانشطة , وحسب المعادلة الرياضية العامة التالية :

$$Xq \leq Rq \qquad (3.-3)$$

ب) تحديد قيد وقت الابتداء , وحسب المعادلة التالية :

$$Yi + tij - Xq \leq Yj \qquad (3.-4)$$

2) تحديد دالة الهدف : بلا شك ان دالة الهدف الرئيسية لهذا المحور هو تقليل الانحرافات الموجبة للأهداف حسب عددها وأولوياتها وكما في المعادلة التالية :

$$Min\ Z = P1\ (dh+), P2\ (dp+) \qquad (3.-5$$

تاسعا : تطبيق النموذج الرياضي (متعدد الاهداف) لمحور مد الشبكات الثقيلة

بتعويض النتائج التي تم الحصول عليها في النموذج الرياضي (متعدد الاهداف) ستكون دالة الهدف بتطبيق المعادلة رقم (3-5) وكما يلي :

$$Min\ Z = P1\ (dp+), P2\ (dh+)$$

اما بيانات ومعلومات القيود الهدفية حسب الأولوية .

القيد ألهدفي الاول : وذلك بتطبيق المعادلة رقم (3-2) نحصل على ما يلي :

$$170 = Y18 - (dp+) + (dp-)$$

---

[6] : معدل الميل الكلي للنشاطات المضغوطة في المسار الحرج ويمثل كلفة الضغط لكل يوم من الايام ال 62 المضغوطة .

[7] : تم استخدام المتغير الانحرافي dp1 بدلا من +dp و استخدام المتغير الانحرافي dp2 بدلا من -dp لعدم امكانية تعرف برنامج (Win QSB) على هذه المتغيرات .

[8] : تم استخدام المتغير الانحرافي dh1 بدلا من +dh و استخدام المتغير الانحرافي dh2 بدلا من -dh لعدم امكانية تعرف برنامج (Win QSB) على هذه المتغيرات .

القيد الهدفي الثاني : وذلك بتطبيق المعادلة رقم (3-1) نحصل على ما يلي :

(1495000)XH1+ (1340000)XH2 + (1500000)XH3 + (1050000)XH4 + (1400000)XH5 + (1500000)XH6 + (391100)XJ1 + (570500)XJ2 + (421250)XJ3 + (372000)XJ4 + (355000)XJ6 + (500000)XK1+ (100000)XK3 + (100000)XK4 + (550000)XL1 + (100000)XL2 – (dh+) + (dh-) = 50 000 000

اما بيانات ومعلومات قيود الانموذج كما يلي :

1) قيود الحد الاقصى لضغط الانشطة , بتطبيق المعادلة رقم (3-3) وكما يلي .

XH1 ≤ 11 XH2 ≤ 3 XH3 ≤ 5 XH4 ≤ 1 XH5 ≤ 1
XH6 ≤ 3 XI1 ≤ 0 XI2 ≤ 0 XI3 ≤ 0 XI4 ≤ 0 XJ1 ≤ 5 XJ2 ≤ 1 XJ3 ≤ 2
XJ4 ≤ 1 XJ5 ≤ 0
XJ6 ≤ 2 XK1 ≤ 36 XK2 ≤ 0 XK3 ≤ 2 XK4 ≤ 2 XL1 ≤ 2 XL2 ≤ 2

2) قيود وقت الابتداء , بتطبيق لمعادلة رقم (3-4) وكما يلي :

Y1 = 0
Y1 + (20) – Xj1 ≤ Y2
Y1 + (60) – XH1 ≤ Y3 or Y2 + (0) – XDum1 ≤ Y3
Y3 + (5) – Xj2 ≤Y4
Y3 + (15) – XH2 ≤ Y5 or Y4 + (0) – XDum2 ≤ Y5
Y5 + (6) – Xj3 ≤Y6
Y5 + (20) – XH3 ≤ Y7 or Y6 + (0) – XDum3 ≤ Y7
Y7 + (2) – Xj4 ≤ Y8
Y7 + (6) – XH4 ≤ Y9 or Y8 + (0) – XDum4 ≤ Y9
Y9 + (0.5)– Xj5 ≤Y10
Y9 + (2) – XH5 ≤ Y11 or Y10 + (0) – XDum5 ≤ Y11
Y11+ (22) – XH6 ≤ Y12 or Y10 + (7)– Xj6 ≤Y12
Y3 + (46) – XI1≤Y13 or Y5 + (32) – XI2≤Y13
or Y9+(19) –XI3≤Y13 or Y12+ (13) – XI4 ≤ Y13
Y13 + (76) – XK1 ≤ Y14
Y14 + (7) – XK4 ≤ Y15
Y14 + (5) – XK3 ≤ Y16 or Y15 + (0) – XDum6 ≤ Y16
Y13 + (10) – XL1 ≤ Y17
Y16 + (10) – XK2 ≤ Y18 or Y17 + (12) – XL2 ≤ Y18

عاشرا : حل النموذج الرياضي لمحور مد الشبكات الثقيلة بواسطة برنامج (Win Q.S.B V2):

بعد إدخال بيانات الانموذج الرياضي في برنامج (Win Q.S.B V2) وكذلك باستخدام برنامج (Excel) في ترتيب النتائج تم التوصل الى النتائج الآتية وكما مبين في الجدولين (3-6),(3-7).

الجدول رقم (3-6) والخاص بمتغيرات القرار للأنموذج :

N	Decision Variable	Solution Value	Unit Cost or Profit c(j)	Total Contribution	Reduced Cost	Basis Status	Allowable Min. c (j)	Allowable Max. c (j)
1	XH1	11.0000	0	0	0	Basic	-M	0
2	XH2	3.0000	0	0	0	Basic	-M	0
3	XH3	2.0000	0	0	0	Basic		0
4	XH4	1.0000	0	0	0	Basic	-M	0
5	XH5	1.0000	0	0	0	Basic	-M	0
6	XH6	3.0000	0	0	0	Basic	-M	0
7	XI1	0	0	0	0	at bound	0	M
8	XI2	0	0	0	0	at bound	0	M
9	XI3	0	0	0	0	at bound	0	M
10	XI4	0	0	0	0	Basic	-M	0
11	XJ1	0	0	0	0	at bound	0	M
12	XJ2	0	0	0	0	at bound	0	M
13	XJ3	0	0	0	0	at bound	0	M
14	XJ4	0	0	0	0	at bound	0	M
15	XJ5	0	0	0	0	at bound	0	M
16	XJ6	0	0	0	0	at bound	0	M
17	XK1	36.0000	0	0	0	Basic	-M	0
18	XK2	0	0	0	0	Basic	-M	0
19	XK3	0	0	0	0	at bound	0	M
20	XK4	1.0246	0	0	0	Basic	0	0.9333
21	XL1	0	0	0	0	at bound	0	M
22	XL2	0	0	0	0	at bound	0	M
23	Y1	0	0	0	0	Basic	-M	M
24	Y2	49.0000	0	0	0	Basic	0	M
25	Y3	49.0000	0	0	0	Basic	0	M
26	Y4	61.0000	0	0	0	Basic	0	M
27	Y5	61.0000	0	0	0	Basic	0	M
28	Y6	78.0000	0	0	0	Basic	0	0
29	Y7	78.0000	0	0	0	Basic	0	0
30	Y8	83.0000	0	0	0	Basic	0	0
31	Y9	83.0000	0	0	0	Basic	0	0
32	Y10	84.0000	0	0	0	Basic	0	0
33	Y11	84.0000	0	0	0	Basic	0	0
34	Y12	103.0246	0	0	0	Basic	0	0
35	Y13	116.0246	0	0	0	Basic	0	0
36	Y14	156.0246	0	0	0	Basic	0	14.0000
37	Y15	163.0246	0	0	0	Basic	0	0
38	Y16	160.0000	0	0	0	Basic	-1.0000	0

39	Y17	158.0000	0	0	0	Basic	0	0
40	Y18	170.0000	0	0	0	Basic	-1.0000	0
41	Xdum1	0	0	0	0	at bound	0	M
42	Xdum2	0	0	0	0	at bound	0	M
43	Xdum3	0	0	0	0	at bound	0	M
44	Xdum4	0	0	0	0	at bound	0	M
45	Xdum5	0	0	0	0	at bound	0	M
46	Xdum6	0	0	0	0	Basic	0	0
47	dp1	0	1.0000	0	1.0000	at bound	0	M
48	dp2	0	0	0	0	at bound	0	M
49	dh1	0	0	0	0	at bound	0	M
50	dh2	0	0	0	0	at bound	0	M

الجدول رقم (3-7) والخاص بقيود الأنموذج الرياضي :

N	Constraint	Left Hand Side	Direction	Right Hand Side	Slack Or Surplus	Shadow Price	Allowable Min.RHS	Allowable Max.RHS
1	هدف الوقتP1	170.0000	=	170.0000	0	0	169.0897	170.9563
2	هدف الكلفةP2	50,000,000.0000	=	50,000,000.0000	0	0	-M	M
3	Press H1	11.0000	≤	11.0000	0	0	8.9746	13.9764
4	Press H2	3.0000	≤	3.0000	0	0	0.7141	6.3593
5	Press H3	2.9754	≤	5.0000	2.0246	0	2.9754	M
6	Press H4	1.0000	≤	1.0000	0	0	0	3.9885
7	Press H5	1.0000	≤	1.0000	0	0	0	1.5000
8	Press H6	3.0000	≤	3.0000	0	0	0.9754	5.9754
9	Press I1	0	≤	0	0	0	0	M
10	Press I2	0	≤	0	0	0	0	M
11	Press I3	0	≤	0	0	0	0	M
12	Press I4	0	≤	0	0	0	0	0.9563
13	Press J1	0	≤	5.0000	5.0000	0	0	M
14	Press J2	0	≤	1.0000	1.0000	0	0	M
15	Press J3	0	≤	2.0000	2.0000	0	0	M
16	Press J4	0	≤	1.0000	1.0000	0	0	M
17	Press J5	0	≤	0	0	0	0	M
18	Press J6	0	≤	2.0000	2.0000	0	0	M
19	Press K1	36.0000	≤	36.0000	0	0	34.6345	37.4345
20	Press K2	0	≤	0	0	0	0	0.9563
21	Press K3	1.0246	≤	2.0000	0.9754	0	1.0246	M
22	Press K4	0	≤	2.0000	2.0000	0	0	M
23	Press L1	0	≤	2.0000	2.0000	0	0	M
24	Press L2	0	≤	2.0000	2.0000	0	0	M

25	Active Y1	0	=	0	0	0	0	0.9103
26	Active Y2	49.0000	≥	20.0000	29.0000	0	-M	49.0000
27	Active Y3	60.0000	≥	60.0000	0	0	59.0437	60.9103
28	orActive Y3	0	=	0	0	0	-M	29.0000
29	Active Y4	12.0000	≥	5.0000	7.0000	0	-M	12.0000
30	Active Y5	15.0000	≥	15.0000	0	0	14.0437	15.9103
31	orActive Y5	0	=	0	0	0	-M	7.0000
32	Active Y6	17.0246	≥	6.0000	11.0246	0	-M	17.0246
33	Active Y7	20.0000	≥	20.0000	0	0	19.0437	20.9103
34	orActive Y7	0	=	0	0	0	-M	11.0246
35	Active Y8	5.0000	≥	2.0000	2.0000	0	-M	5.0000
36	Active Y9	6.0000	≥	6.0000	0	0	5.0437	6.9103
37	orActive Y9	0	=	0	0	0	-M	3.0000
38	Active Y10	1.0000	≥	0.5000	0.5000	0	-M	1.0000
39	Active Y11	2.0000	≥	2.0000	0	0	1.5000	2.9103
40	orActive Y11	0	=	0	0	0	-12.0000	0.5000
41	Active Y12	19.0000	≥	7.0000	12.0000	0	-M	19.0000
42	orActive Y12	22.0000	≥	22.0000	0	0	21.0437	22.9103
43	Active Y13	67.0246	≥	46.0000	21.0246	0	-M	67.0246
44	orActive Y13	55.0246	≥	32.0000	23.0246	0	-M	55.0246
45	Or2Active Y13	33.0000	≥	19.0000	14.0000	0	-M	33.0000
46	Or3Active Y13	13.0000	≥	13.0000	0	0	12.0437	13.9103
47	Active Y14	76.0000	≥	76.0000	0	0	75.0437	76.9103
48	Active Y15	7.0000	≥	7.0000	0	0	3.9754	M
49	Active Y16	5.0000	≥	5.0000	0	0	4.0437	5.9103
50	orActive Y16	0	=	0	0	0	-3.0246	M
51	Active Y17	41.9754	≥	10.0000	31.9754	0	-M	41.9754
52	Active Y18	10.0000	≥	10.0000	0	0	9.0437	10.9103
53	orActive Y18	12.0000	≥	12.0000	0	0	-M	43.9754

احد عشر : تفسير نتائج حل الانموذج الرياضي (متعدد الاهداف) لمحور مد الشبكات الثقيلة : بعد الحصول على نتائج حل الانموذج الرياضي في الجدولين (3-6),(3-7) فيما يلي تفسير لنتائجهما .

أولا : جدول الحل رقم (3-6) والخاص بمتغيرات القرار للأنموذج يظهر في هذا الجدول نتائج الحل الأمثل لدالة الهدف ويحتوي على قيم وحال متغيرات القرار, ويتكون هذا الجدول من تسعة أعمدة هي:

العمود الاول (Number) : يبين هذا العمود العدد الكلي لمتغيرات القرار في دالة الهدف فمثلا العدد 6 يشير الى تسلسل متغير القرار (XH6) وهكذا .

العمود الثاني (Decision Variable) : يتكون هذا العمود من متغيرات القرار الموجودة أصلا في الانموذج الرياضي ومتغيرا القرار الخاصة بأوقات ضغط الانشطة والأوقات اللازمة لبدء أنشطة المشروع بعد الضغط .

العمود الثالث (Solution Value) : يتضمن قيم متغيرات القرار الموجودة في العمود السابق , وقيم متغيرات القيود الهدفية الموجبة والواقعة ضمن القيود الهدفية , فالهدف الاول هو هدف انجاز المشروع في والوقت المرغوب به (170) والهدف الثاني هو هدف الكلفة الاضافية والمحددة من قبل ادارة المشروع (50000000) قد تحققا تماما بدون وجود اي انحراف موجب او سالب في قيم المتغيرات الانحرافية (dh+ , dP- , dP+ , dh-) , اما بالنسبة لمتغيرات القرار فمن من التسلسل (1-22) تشير الى

الوقت المضغوط فعلا , فالرقم (1) والمقابل لمتغير القرار (XH5) يمثل مقدار الوقت الذي تم فيه ضغط النشاط (H5) اعمال مد أنابيب قطر 600ملم pvc , ومن التسلسل (23-40) فتشير الى أوقات ابتداء الانشطة , فالرقم (61) والمقابل لمتغير القرار (Y5) يشير الى الوقت اللازم للبدء في تنفيذ النشاط (H3) وهو اعمال مد أنابيب قطر 600ملم pvc .

العمود الرابع ((Unit Cost or Profit c(j)) : يحتوي هذا العمود على معاملات متغيرات القرار .

العمود الخامس (total Contribution) : تمثل قيم هذا العمود القيمة الكلية لكل متغير وهو عبارة عن حاصل ضرب معامل كل متغير بقيمة متغير القرار المقابل له .

العمود السادس (Reduced Cost): يبين هذا العمود الكلفة الناجمة اذا ضغط النشاط المقابل له لوحدة زمنية واحدة .

العمود السابع (Basis Status) : يشير هذا العمود لحالة المتغير في جدول الحل الأمثل اي ان النشاط هو متغير أساسي ام لا حيث يرمز للمتغير الأساسي ب (basic) اي انه يخضع لعملية الضغط اما المتغير غير الأساسي (at bound) فان ضغطه لا يؤثر على وقت المشروع الكلي .

العمود الثامن ((Allowable min c(j)) :يبين هذا العمود الحدود الدنيا المسموح بها لمعاملات متغيرات القرار في دالة الهدف والتي تحافظ على أمثليه الحل , مادام معامل المتغير ضمن الحدود الدنيا .

العمود التاسع ((Allowable max c(j)):يبين هذا العمود الحد الاعلى المسموح به لمعاملات متغيرات القرار في دالة الهدف مع الحفاظ على أمثليه الحل , مادام معامل المتغير ضمن هذه الحدود العليا .

ثانيا : جدول الحل رقم (3-7) والخاص بقيود الانموذج الرياضي : وهو الجدول الذي يعرض النتائج الخاصة بقيود الانموذج الرياضي , ويتألف هذا الجدول من تسع أعمدة هي .

العمود الاول (Number) : من خلال هذا العمود يمكن التعرف على العدد الكلي لقيود الانموذج الرياضي ومواقع وتسلسلات القيود .

العمود الثاني (Constraint) : يتألف هذا العمود من انواع قيود الانموذج الرياضي وهي اما قيود هدفيه او قيود وقت ضغط او قيود وقت الابتداء لجميع الانشطة .

العمود الثالث (Left Hand Side) : يحتوي هذا العمود على قيم الجانب الأيسر للقيود فالرقم (170) والمقابل للقيد ألهدفي الاول والذي يشير الى الوقت المستغل لضغط المشروع , اما الرقم (50000000) المقابلة للقيد ألهدفي الثاني فيشير الى ما تم استغلاله من الكلفة المضافة , اما بالنسبة لباقي القيود فمن التسلسل (3-24) فهي تشير الى مقدار ضغط الانشطة فالتسلسل (8) والمقابل ل (Press H6) يشير ان النشاط H6 قد تم ضغطه لمدة 3 يوما , ومن التسلسل (25-53) فتشير الى وقت انجاز الانشطة فالتسلسل (45) والمقابل للقيد (or2 Active Y19) يشير الى مدة انجاز النشاط I3 هو 33 يوما .

العمود الرابع (Direction) : يحدد هذا العمود اتجاه القيد والذي تم بناءه في الانموذج الرياضي والذي يكون اما (=) او (≤ , ≥) .

العمود الخامس (Right Hand Side) : يحتوي هذا العمود الجانب الأيمن من القيود (RHS) فالرقم (170) والمقابل للقيد ألهدفي الاول (P1) ويشير الى الوقت المتاح

لتنفيذ هذا المحور , اما الرقم (50000000) والمقابل للقيد ألهدفي الثاني وهي الكلفة المضافة لتنفيذ هذا المشروع في الوقت المرغوب فيه حيث يتضح لنا الاستغلال الكامل للموارد , اما بالنسبة لباقي القيود فمن التسلسل (24-3) تشير الى أقصى وقت محدد لضغط الانشطة فالرقم (3) والمقابل للقيد (Press H6) تشير الى اعلى حد لضغط النشاط (H6) هو ثلاث أيام , والقيود من التسلسل (53-25) فتشير الى أقصى مدة لإنجاز الانشطة فالرقم (76) والمقابل للقيد (Active Y14) فيشير الى أقصى مدة انجاز النشاط (K1) وهو مد أنابيب بقطر 110 و 160 ملم ضمن اعمال أعمدة التهوية .

العمود السادس (Slack or Surplus):يبين هذا العمود الأوقات الفائضة لكل نشاط من الانشطة, فالرقم (0) يشير الى ان النشاط قد اخذ كامل وقته المسموح لضغط , اي عدم وجود اي وقت فائض للنشاط .

العمود السابع (Shadow Price) : يبين هذا العمود مقدار الزيادة او النقص في قيمة دالة الهدف التي تنشأ بسبب الزيادة او النقصان في الكمية المتاحة من الموارد المستغلة , والذي يعرف بسعر ظل[9] .

العمود الثامن (Allowable min RHS) : يشير هذا العمود للحدود الدنيا المسموح بها والذي يمكن للطرف الأيمن للقيود النزول إليها دون ان يؤثر ذلك على أمثليه الحل , فالرقم (169.0897) المقابل للقيد ألهدفي الاول وهو قيد الوقت يشير الى الحد الأدنى المسموح به والذي يمكن للطرف الأيمن النزول إليه دون ان يؤثر ذلك على أمكانية الحل .

العمود التاسع (Allowable max RHS) : يشير هذا العمود للحدود العليا المسموح بها والذي يمكن للطرف الأيمن للقيود الوصول إليها دون ان يؤثر ذلك على أمثليه الحل , فالرقم (170.9563) والمقابل للقيد ألهدفي الاول وهو قيد الوقت حيث فيشير الى الحد الأعلى المسموح به والذي يمكن للطرف الأيمن الوصول إليه دون ان يؤثر ذلك على أمكانية الحل .

المبحث الخامس / الاستنتاجات والتوصيات

أولا : الاستنتاجات : إن من ابرز الاستنتاجات التي توصل إليها الباحث هي :

1) من خلال النتائج التي حصلنا عليها تتلخص بأن زمن انجاز هذا المحور (مد الشبكات الثقيلة) هو 231 يوما وبكلفة (000 011 315 7) دينار عراقي , وتطمح ادارة المشروع الى تقليص زمن انجاز هذا المحور وبكلفة اضافية محددة و بعد عمل المبادلة بين الوقت والكلفة والعمل على ضغط الانشطة , اصبحت مدة انجاز المحور الاول انشاء المحطات 337 يوم وبكلفة تعجيلية اضافية (500 744 21) دينار , والمحور الثاني مد الشبكات 169 يوم وبكلفة اضافية (000 135 53) دينار , وبالنظر لمعدل ضغط المحورين بالمقارنة مع كلفها والتعجيلية نرى ان عملية ضغط المحور الثاني هي مكلفة أكثر من المحور الاول حيث يصل معدل تعجيل العمل في المحور الثاني الى (857 016.13)لكل ليوم, اما في المحور الاول (260.5 306) لكل يوم .

2) ان عدم الاعتماد على الأساليب العلمية الحديثة في جدولة المشاريع في المحافظة وكذلك عدم الالتزام بتنفيذ نشاطات المشاريع في أوقاتها المحددة مسبقا وخصوصا الحرجة منها , يؤدي الى عدم إكمال المشاريع بالأوقات المحددة لها , وخير دليل على

[9]: لمزيد من التفاصيل انضر المصدر (**المفرجي ,2002**: **75**)

ذلك نسب الانحراف التراكمية والتصاعدية التي كان يعاني منها المشروع في تنفيذه كما في الجدول (3-1) .

3) يعتبر اسلوب البرمجة بالأهداف (Goal Programming) من الأساليب العلمية المرنة وذلك لسهولة تعاملها مع الاهداف المتعددة و المتناقضة , كما تمكن ادارة المشروع إجراء تغيرات على تسلسل أولويات الاهداف وفقا لما تقتضي مصلحة المشروع و وجهة نضر الجهة المستفيدة منه و النتائج التي تحققت بعد إدخال بيانات الأنموذج الرياضي (متعدد الاهداف) في برنامج (Win Q.S.B) أعطت معالم واضحة لإدارة المشروع التي لديها عدة اهداف بأولويات مختلفة , كما توضح هذه النتائج كيفية تحقيق هذه الاهداف حسب أهميتها وكذلك الاهداف التي لم تتحقق والسبب تفضيل بعضها على الاخر او توفير موارد اضافية اخرى لتحقيقها وهذا ما وضحته المتغيرات الانحرافية الموجبة والسالبة مما سوف يعطي دلائل واضح لمتخذ القرار لأتحاد لقرار الدقيق بما يتناسب مع رغبة الجهة المستفيدة منه .

4) يعتبر برنامج (Auto Cad 2016) من البرامج الهندسية المهمة والمستخدمة في إعداد اغلب التصاميم الهندسية بمختلف أشكالها , وان استخدام البرنامج في جدولة المشروع تعتبر خطوة جديدة في جدولة المشروع وذلك للاستفادة من مميزات هذا البرنامج وجعل الشكل النهائي لجدولة المشروع أكثر شمولية وسهولة من جهة , ومن جهة اخرى اختصار العمليات الحسابية .

5) ضرورة دراسة ملفات الشركات الخاصة وسيرتها الذاتية المعروفة ب (C.V) والمتقدمة للمنافسة على التعاقد لإنجاز مشروع معين , والتأكد من رصانتها وكذلك استخدامها للأساليب العلمية الحديثة , كما من الضرورة ان تكون لهذه الشركات اعمال مماثلة خصوصا في المشاريع الكبيرة .

6) ضرورة ان تكون هناك تقارير فنية تقوم الدوائر المستفيدة بأعدادها وإرسالها للمحافظة وبشكل دوري يذكر فيها تفاصيل سير الاعمال بشكل فني ونسب الانجاز وكذلك الانحرافات في تنفيذ الاعمال وفقا لجداول تقدم العمل المعد مسبقا .

ثانيا : التوصيات : من ابرز التوصيات التي يوصي بها الباحث هي :

1) اعتماد مديرية مجاري صلاح الدين على النتائج التي توصل اليها الباحث في دراسته لضمان نجاح خططها ومشاريعها في المستقبل .

2) اعتماد الجامعات العراقية على الاسلوب المبتكر الذي طرحه الباحث في جدولة المشروع لما لهذا الاسلوب من مميزات كثيرة تساعد متخذ القرار على اخذ القرارات الصحيحة حول استثمار الوقت بالشكل الأمثل من جهة ومن جهة اخرى توفير الكلفة المترتبة من استخدام الأساليب التقليدية القديمة في عملية الجدولة , علما ان عملية الجدولة ممكن ان تتم عن طريق استخدام الورق البياني و المسطرة بدلا من استخدام برنامج (AutoCAD 2016) الذي قام الباحث باستخدامه .

3) توفير قاعدة بيانات متكاملة لكافة المشاريع التي تقوم المحافظة بتنفيذها , والتي تشمل جميع الأوقات وتكاليف الخاصة بالأنشطة المختلفة في المشروع .

4) إقامة دورات تدريبية وورش عمل للمدراء والمهندسين العاملين في المحافظة بشكل عام ومديرية المجاري بشكل خاص وذلك للتعرف على الأساليب العلمية الحديثة وبالتالي مواكبة التطور العلمي الذي حدث في الدول المتقدمة في هذا المجال , ومن ابرز هذه الورش هي :

أ) ندوات حول اسلوب برمجة الاهداف وما مدا فعالية هذا الاسلوب في تحقيق التوازن بين اهداف المحافظة وأهداف الشركات المتضاربة .

ب) دورات تقوم بها كلية الادارة والاقتصاد لعدد من الموظفين المختصين في إعداد المشاريع لتعلم كيفية صياغة المعادلات الخاصة ببرمجة الاهداف وكيفه حل هذه المعادلات و الاستفادة منها على المستوى التطبيقي .

ت) دورات تعلم العمل على برنامج الرسم الهندسي (AutoCAD 2016) والعمل على استخدام هذا البرنامج في رسم شبكات المشاريع بالأسلوب المبتكر الذي استخدمه الباحث لما فيه من مميزات كثيرة تم ذكرها .

5) من المهم قيام مديرية مجاري صلاح الدين بإلزام جميع الشركات المقدمة للعطاءات بتقديم جدول لتقدم العمل والمعد وفقا للأساليب العلمية الحديثة , وكذلك تقديم جدول تقدم العمل بالأوقات والكلف و تكون الشركة المنفذة للعمل ملزمة به في حال طلب الجهة المستفيدة ذلك .

6) الاستعانة بالكفاءات العلمية الموجودة في المؤسسات التعليمية العراقية لحل المشاكل التي تعاني منها اغلب دوائرنا اليوم علاوة على إدخال الأساليب العلمية الحديثة في ادارة مشاريع المحافظة من خلال مبدأ التعاون.

7) بسبب التزام الباحث بالحد الأعلى لعدد صفحات قام بأخذ جانب اعمال المجاري الثقيلة لهذا يوصي الباحث بتكملة الجانب الأخر وهو اعمال المجاري المطرية ولجميع الأحياء , لكي تكون هناك دراسة متكاملة للمشروع بجميع محاوره , وبهذا يتم الحصول على الفائدة الأكبر من البحث .

8) أهمية تعاون الأقسام الهندسية الموجودة بالمحافظة مع الجهات المستفيدة من المشاريع في تذليل اثر عوائق التي تؤثر سلبا على وقت انجاز المشاريع وتكمن أهمية هذا التعاون في عدة جوانب أهمها :

أ) التنسيق العالي في رصد مبالغ المشاريع التي هي قيد الانجاز وتفادي توقفها لأسباب تتعلق بعدم صرف السلف وتوفير السيولة المادية لتنفيذها .

ب) أعداد جاهزية ارض المشروع قبل تسلمها للجهة المنفذة .

ت) الأشراف المشترك على تنفيذ المشاريع ومتابعة نسب انجاز الاعمال , ويمكن ان يكون ذلك من خلال زج مهندسين المحافظة في اللجان المختصة بالأشراف على المشاريع ومتابعتها.

ث)

المصادر
References

اولا : المصادر العربية :

1) **الجزائري , صفاء محمد (2008) استخدام اساليب جدولة المشروع بيرت والمسار الحرج في المفاضلة بين الوقت والكلفة لإنجاز المشاريع , دراسة تطبيقية في المعهد التقني البصرة , المجلة التقنية , المجلد (18) , العدد (9) .**

2) **الموسوي , منعم زميزر (2009) بحوث العمليات – مدخل عملي لأتخاذ القرار , الطبعة الاولى , عمان , دار وائل للنشر والتوزيع .**

3) **المولى , محمد عامر (1998) تطبيق برمجة الاهداف في نقل المنتجات النفطية , رسالة مقدمة لكلية الادارة والاقتصاد / جامعة بغداد , للحصول على درجة الماجستير علوم في بحوث العمليات .**

4) **المعهد القومي للمقاييس الامريكي , معهد ادارة المشروعات , الدليل المعرفي لإدارة المشروعات (2006) الاصدار الثالث .**

5) المفرجي , وقاص سعد (2002) تخطيط الانتاج لشركة 7 نيسان العامة باستعمال اسلوب البرمجة الخطية , رسالة مقدمة كلية الادارة والاقتصاد / جامعة بغداد , للحصول على درجة الماجستير في بحوث العمليات .

6) العبيدي , محمود و الفضل , مؤيد (2010) , ادارة المشاريع كمنهج كمي , الطبعة الثانية , عمان , دار الوراق للنشر والتوزيع .

7) العجمي , محمد سامر (2009) برمجة الاهداف , رسالة ماجستير مقدمة لكلية الادارة والاقتصاد / جامعة دمشق – سوريا .

8) العلي , محمد عبد الستار (2009) ادارة المشروعات العامة , الطبعة الاولى , عمان , دار المسيرة للنشر والتوزيع.

9) العقلة , محمد (2007) المشروع ودورة حياته , دمشق _ سوريا , مكتب العباسيين للطباعة والنشر , دمشق - سوريا .

10) الفرهود , فيصل عبد الاله (2012) توظيف البرمجة الخطية في المخططات الشبكية لتحديد الأمثلية للزمن والكلف لإنجاز بعض مشاريع وزارة الشباب , رسالة مقدمة كلية الادارة والاقتصاد / جامعة بغداد , للحصول على درجة الماجستير علوم في بحوث العمليات .

11) الشاهين , نداء صالح (2007) تصميم انموذج متعدد الاهداف لتقيم اهداف ادارة الصحة والسلامة المهنية على وفق المواصفة OHSA18001 , دراسة حالة في الشركة العامة لمصافي الوسط في الدورة , اطروحة دكتوراه مقدمة كلية الادارة والاقتصاد / جامعة بغداد .

12) الطالب , بشار عبد العزيز مجيد (1997) مقارنة البرمجة الهدفية مع المربعات الصغرى وانحدار الحرف في تقدير المعلمات, رسالة مقدمة لكلية الادارة والاقتصاد / جامعة الموصل , , للحصول على درجة الماجستير في الاحصاء.

13) سعدي , د. سهيلة عبد الله (2004) الجديد في الاساليب الكمية وبحوث العمليات , الطبعة الاولى , عمان- الاردن , دار الحامد .

14) حاوي , ايمان عسكر (2005) استخدام اسلوبي المسار الحرج وبيرت في تخطيط ومتابعة انجاز الزوارق , دراسة تطبيقية في شركة ابن ماجد العامة , مجلة التقني , المجلد (18) , العدد (4) .

15) حسن , نورس عبد الكريم (2013) استعمال البرمجة الهدفية الضبابية في تحديد الكميات المثلى لبعض الادوية في شركة تسويق الادوية , رسالة ماجستير مقدمة لكلية الادارة والاقتصاد / جامعة بغداد .

16) كاضم , صفاء كريم (2005) استخدام برمجة الاهداف الخطية في تخطيط ونقل الماء الصالح للشرب في دينة السماوة , مجلة القادسية للعلوم الاقتصادية , المجلد (7) , العدد (4) .

17) ميريديث , جاك ., مانتل , صمويل ., ابراهيم , سرور علي (1999) ادارة المشاريع , الطبعة الاولى , الرياض , دار المريخ للنشر .

18) علي , عابد (2011) دور التخطيط والرقابة في ادارة المشاريع باستخدام التحليل الشبكي , رسالة مقدمة الى كلية العلوم الاقتصادية / جامعة ابو بكر بلقايد – تلمسان - الجزائر , للحصول على درجة الماجستير علوم في الاقتصاد .

19) شعبان , عبد الكريم (2008) تطبيقات في الاساليب الكمية وبحوث العمليات مشاكل...وحلول , الطبعة الاولى , النجف الاشرف , مطبعة الغزي الحديثة .

20) خير الدين , احمد (2012) ادارة المشاريع المعاصرة , الطبعة الاولى , عمان , دار وائل للنشر .

21) خضر , تمام سلمان (2015) جدولة المشروع باستعمال اسلوب برمجة الاهداف , دراسة ميدانية في مشروع القرية العصرية في محافظة واسط , رسالة مقدمة لكلية الادارة والاقتصاد / جامعة بغداد , للحصول على درجة الماجستير علوم في الادارة الصناعية .

22) نجم , نجم عبود (2008) مدخل الى الاساليب الكمية في التطبيقات باستعمال (Microsoft Excel) , الطبعة الثانية , عمان , مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع .

23) نعمان , ليث داود (2012) استخدام طريقة المسار الحرج لتخطيط اعمال صيانة في محطة لإنتاج الطاقة الكهربائية , مجلة الهندسة التكنولوجية , المجلد (30) , العدد (8) .

24) زيدان , كريم قاسم محمد (2012) تخطيط الانتاج باستعمال البرمجة الهدفية في معمل انتاج محولات التوزيع الكهربائية في ديالى , رسالة مقدمة لكلية الادارة والاقتصاد / جامعة بغداد , , للحصول على درجة الماجستير علوم في بحوث العمليات .

ثانيا : المصادر الانكليزية :

25) A Guide to Project Management Body of Knowledge – PMBOK Guide , (3th ed) Project Management Institute Newtown Square , Pennsylvania , U.S.A , 2004 .

26) Anderson , David R ., Sweeney , Dennis J ., and Williams , Thomas A .,(1995) Quantitative Methods for Business , (6th ed) ,West Publishing Com .

27) Bryson , N(1995) "A Goal Programming Method for Generating Priority Vectors" , Journal of The Operational Research Society , Vol (46) , No (5) , PP (641-648) .

28) Berroiguet , Abdelkrim yahia and Tissourassis ,Khadija ,(2004) , Application of goal programming model for allocating time and cost in project management : A case study form the the company of construction seror Yugoslav , Journal of Operation Research .

29) Heizer , Jay & Render , Barry (2006) Production of Operation Management , (6th ed) , Pearson - Prentice Hall , New Jersey .

30) Hillier , Frederick S and Lieberman , Gerald J (2001) Introduction to Operations Research , (7th ed) Mc Graw – Hill , New York .

31) Khalaf , W. S & Leong , W.J (2009) A Linear Programming Approach for the Project Controlling . Research Journal of Applied Sciences , p: 202-212 .

32) Krajewski , Lee J & Ritzman , Larry p (2005) Operations Management – Processes and Value Chaine , (7th ed) , Pearson – Prentice Hall , New Jersey .

33) Lgnizio , James P & Romero , Carlos (2003) Gool Programming Encyclopedia of Information Systims , Vol (2) , PP (489-500) .

34) Mubiru , Paul Kizito , (2010) A goal programming model for allocating time and cost in project management , Department of Mechanical and production Engineering Kyambogo University , Uganda .

35) Nagarajan K (2004) Project Management , (2th ed) , New Age International .

36) Nicholas , John M (2004) "Project Management for Business and Engineering" (2nded) , Elsevier .

37) O'Brien , James , J & Plotnick , Fredric , L (2010) "CPM in Construction Management" (6th ed) , Mc Graw – Hill .

38) Passenheim , Olaf (2005) Project Management , (2th ed) , Prentice – Hall , New Jersey.

39)Render , Barry & Stair , Jr & Ralph M & Hanna , Michael E (2009) Quantitative Analysis for Management , (10th ed) , Pearson – Prentice Hall , New Jersey .

40) Premachandra I.M. , (2007) , "A Goal – programming Model for Activity Crashing in project Networks" International Journal of Operations & Production Management , MCB University Press .

41) Sen , Nabendu & Nandi , Manish (2012) A Gool Programming Approach to Rubber Plantation Planning in Tripura , Applied Mathematical Sciences Vol (6) , NO(124) , PP (6171-6179)

42) Taha , H.A (2007) Operations Research An Introduction (8th ed) , New Jersey : Prntice Hill .
43)White , D & Fortune (2004) "Current Practice in Project Management : an empirical Stude " , International Journal of Project Management , Vol. 20,1,pp.1-11 .
44) W.L, Winston , S ., Christian Albright , and M .,Broadie (1997) "Practical Management Scince – Spreadsheet Modeling and Applications" , International Thomson Publishing Company , USA .
45) Wysocki , Robert K (2009) Effective Project Management , (5th ed) , Wiley Publishing , lnc .

SCHEDULING PROJECT BY USING AUTO CAD2016 AND MANAGEMENT BY USING THE GOAL PROGRAMMING METHOD
(BALAD`S MAJOR SEWERAGE SYSTEM)

BY : AMJAD ABBAS ABDUL RAHEEM ALBALDAWY

Abstract :

The project of balad's major sewerage system is one of the biggest projects who is still in progress in salahulddin province provincial - development plan that was approved in 2013 . This project works in two parts ; the 1st is installing the sewerage networks (both of heavy sewerage & rain sewerage) and the 2nd is installing the life – off units (for heavy sewerage & rain sewerage , as well) . the directorate of salahuiddin is aiming that at end of construction it will be able to provide services for four residential quarters , one of the main challenges that project's management experience is how to achieve these projects in the determined time , added cost and technical specifications although the majority of these projects have been managed with predetermined time and financial resources limits , they still need some improved strategies and more careful calculation in their time and cost management . This project was chosen for the following reasons , The first reason is that the project is currently stopped, because of the security and financial circumstances in salahulddin province in particular .this is a great manage time and cost when the work is resumed , and the second reason is during the progress of the project, the until it was stopped, the completion percentage was behind what it was planned originally . this highlights the need to study how to avoid these delays in future using a scientific and logical method , and the third reason that the project has many variables that affect the progress, which are of great importance for scientific and mathematical methods .

To achieve this purpose the project was studied using modern scientific and mathematical methods , which are the curved part method (CPM) for project's real and accelerated timing the Primavera V6 software and the AutoCAD 2016 software . the goal is to benefit from these methods and software to establish a new work schedule for the project . Due to the project's various and clashed (in sometimes) objectives that are have to be accomplished in a limited time , it is very important to be careful and accurate with making the right time . It was highly needed to use an efficient mathematical model that work with all these variables in the limited time allowed and according to their priorities . This mathematical method is called the Goal Programming for multi-objective mathematical models .

Key words : Project Management , Project Scheduling , Goals Programming , Critical Path Method , Scheduling by AutoCAD 2016 .

الالتزام التنظيمي ودورة في تقليل سلوك العمل المنحرف
دراسة تحليلية لآراء عينة من العاملين في معمل طابوق الديوانية

مدرس مساعد خيرية عبد فضل الخالدي

المعهد التقني / ديوانية

المستخلص

يهدف هذا البحث إلى اختبار دور الالتزام التنظيمي في تقليل سلوك العمل المنحرف لعينة من العاملين في معمل طابوق الديوانية , إذ تم توزيع (115) استمارة استبيان على العاملين ورؤساء الأقسام في المعمل . وبعد تفحص الاستمارات المسترجعة استبعدت (15) استمارة لعدم صلاحيتها وعدم تحقيق الشروط المطلوبة للإجابة عن الاستبيان، وبذلك يكون عدد الاستمارات الصالحة للدراسة والتحليل (100) استمارة باستخدام برنامج (SPSS.24). يضم مفهوم الالتزام التنظيمي ثلاث متغيرات هما (الالتزام المعياري , والالتزام العاطفي, والالتزام المستمر), أما متغير سلوك العمل المنحرف فيتكون من ثلاث أبعاد رئيسة هي: سلوك العمل المنحرف تجاه المنظمة، و سلوك العمل المنحرف تجاه المشرف المباشر وسلوك العمل المنحرف تجاه الزملاء. وتدور الفرضيات الرئيسة للدراسة حول فكرة أساسية مفادها بأنه كلما اتصف العاملين بالتزامهم تجاه المنظمة كلما انخفض سلوك العمل المنحرف تجاه (1) المنظمة و(2) المشرف المباشر و (3) وزملاء العمل . وقد أثبتت نتائج الدراسة صحة الفرضيات وتوصلت إلى مجموعة من الاستنتاجات الهادفة كان من ابرزها بأن للالتزام التنظيمي دور في تقليل ممارسة سلوك العمل المنحرف داخل المنظمة وهذا يدل على ان العاملين عندما يشعرون بالمسؤولية والرغبة بالاستمرار بالمنظمة سوف يقللون من التصرفات السلبية التي تؤذي المنظمة واعضاءها , وفي ضوء الاستنتاجات صيغت مجموعة من التوصيات .

Organizational Commitment And its Role in Reducing Deviance Work Behavior

Khariya A. Fathel Al-Khalidi
The Technical Institute / Diwaniya
Khariya_abed@yahoo.com

Abstract

The aim of this research is to examine the role of organizational commitment in reducing Deviance work behavior in AL- Diwaniyah brick factory. A sum of (115) copies of a questionnaire were disseminated among workers and division managers in that factory. After checking the restored copies, (15) ones were eliminated for being inappropriate and not meeting the required terms of response. This made the total valid copies (100) for examination and analysis with (SPSS.24).

The concept of organizational commitment includes three variables: (standard commitment, emotional commitment and continuous commitment). The variable of Deviance work behavior has three

dimensions: (Deviance work behavior toward the organization; Deviance work behavior toward the immediate supervisor; and Deviance work behavior toward colleagues.
The key hypotheses of this research focus on a main idea that the more committed workers are toward the organization the less Deviance behavior is toward (1) the organization, (2) the immediate supervisor, and (3) the work colleagues. Results supported the study hypotheses and gave way to some solid conclusions which, to mention a key one, that organizational commitment has a role in reducing Deviance work behavior in the organization. This means that when workers feel responsible and willing to continue with the organization, they reduce their negative behaviors which harm the organization and its members. In light of such conclusions, a set of recommendations were developed.

المقدمة

إن نجاح أي منظمة يتوقف على كفاءة المورد البشري فيها, بوصفه عنصراً أساسياً يساعدها على تحقيق أهدافها وقدرتها على البقاء والاستمرار في بيئة الأعمال , وان دراسة السلوك البشري داخل المنظمة وتحديد العوامل التي تزيد من السلوكيات الايجابية او تحد من السلوكيات السلبية هو امر بالغ الاهمية , فعندما يؤمن الموظف بقيم واهداف المنظمة , ويشعر بالفخر والانتماء والرغبة بالبقاء داخل المنظمة والعمل كفريق واحد لتحقيق هذه الاهداف فأن ذلك سوف يقلل من ممارسته للسلوكيات السلبية ومنها سلوك العمل المنحرف .اذ ان دافع الاهتمام بسلوك العمل المنحرف يعود للانتشار المتزايد لذا النوع من السلوكيات في مكان العمل , بالإضافة للتكاليف المرتبطة بمثل هذا السلوك .

وكذلك يعتبر الالتزام التنظيمي من المواضيع المهمة التي لاقت اهتمام العديد من الباحثين والمنظرين في دراسة المنظمات , فالأفراد الملتزمون سيشعرون بالمسؤولية تجاه منظماتهم , وشعورهم بانهم جزء منها . لذا نجد ان موضوع الالتزام التنظيمي له تأثير كبير على سلوكيات الافراد وله انعكاس على الفرد والمنظمة على حد سواء ,

فقد جاء البحث الحالي للتعرف على دور الالتزام التنظيمي في تقليل سلوك العمل المنحرف في احد المصانع التابعة للقطاع الصناعي في العراق وهو معمل طابوق القادسية , و تضمن هذا البحث اربع محاور أساسية ، المحور الاول تناول منهجية البحث وإجراءاته .أما المحور الثاني فقد عرج على أدبيات متغيرات البحث ، في حين تناول المحور الثالث الجانب التطبيقي للبحث , والمحور الرابع والاخير تناول الاستنتاجات والتوصيات.

المحور الاول/ منهجية البحث

أولا. مشكلة البحث

من المشاكل التي تتعرض لها المنظمات العراقية في كافه قطاعاتها ومنها القطاع الصناعي والذي يعاني من ترهل تنظيمي كبير ممزوج بافتقاد المبررات السليمة للنهوض بواقعه لمواكبة التطورات الحديثة التي تشهدها بيئة الصناعة ,وهي ممارسة السلوكيات السلبية ومنها سلوك العمل المنحرف و على سبيل المثال ,(السرقة والتزوير والرشوة والفساد المالي والاختلاس .... وغيرها) , ومع تزايد هذه المشاكل سعت المنظمات للبحث عن الوسائل التي تعالج او تحد من سلوكيات العمل المنحرف, لذا يسعى البحث الحالي لبيان هل ان لرغبة الفرد بالبقاء والارتباط بالمنظمة من خلال ربط مصالحه مع مصالح المنظمة , وشعورة بالالتزام والواجب تجاه المنظمة سيقلل من ممارسة سلوكيات العمل المنحرف ؟ لذا تتجسد مشكله البحث في التساؤلات التالية :

1. ما هو سلوك العمل المنحرف السائد في معمل طابوق الديوانية .
2. ما هو واقع الالتزام التنظيمي في معمل طابوق الديوانية.
3. معرفه في ما اذا كان الالتزام التنظيمي سوف يقلل من ممارسه سلوك العمل المنحرف .

ثانياً. أهمية البحث

يمكن تحديد أهمية البحث من خلال النقاط التالية :

1. تتجسد أهمية البحث من خلال أهمية المتغيرات التي تمت معالجتها إذ يعتبر سلوك العمل المنحرف من المتغيرات المهمة في الأدبيات الإدارية وكذلك الحال بالنسبة لمتغير الالتزام التنظيمي .
2. تنبع أهمية البحث من خلال إسهاماته في تقديم الإرشادات الواضحة لمتخذي القرار في المعمل عينة البحث وكذلك المنظمات المحلية في مجال معالجة مشكله سلوك العمل المنحرف.
3. ينظم هذا البحث الى الجهود البحثية الاخرى في اثراء الجانب النظري والمعرفي , فضلاً عن اسهاماته في دعم الابحاث الاخرى في هذا الميدان .
4. مساهمة هذا البحث في زياده وعي المعمل المبحوث بأهمية معرفه التدابير اللازمة التي تقلل من ممارسة السلوكيات السلبية بمكان العمل ومنها(سلوك العمل المنحرف).

ثالثاً. أهداف البحث

يتضمن البحث الحالي مجموعة من الأهداف التي يسعى إلى تحقيقها و هي على النحو أدناه:

1. بيان مستوى ممارسة الإفراد في المعمل عينة البحث لسلوكيات العمل المنحرف بمؤشراتها الثلاثة (سلوك العمل المنحرف تجاه المنظمة , وسلوك العمل المنحرف تجاه المشرف المباشر, وسلوك العمل المنحرف تجاه زملاء العمل).
2. التعرف على مستوى الالتزام التنظيمي للعاملين في المعمل عينه البحث بمؤشراته الثلاثة (الالتزام المعياري, الالتزام العاطفي , الالتزام المستمر).
3. الكشف عن تأثير أي مؤشر من مؤشرات الالتزام التنظيمي يساهم في تقليل سلوك العمل المنحرف.
4. تقديم توصيات للمعمل عينة البحث حول الطرق المعالجة للسلوكيات المنحرفة وتبني الوسائل التي تزيد من التزام العاملين لمنظماتهم .

رابعاً. نموذج الفرضي للبحث

يوضح الشكل (1) النموذج الفرضي للبحث والذي يوضح طبيعة العلاقة بين متغيرات الدراسة، وكالأتي:

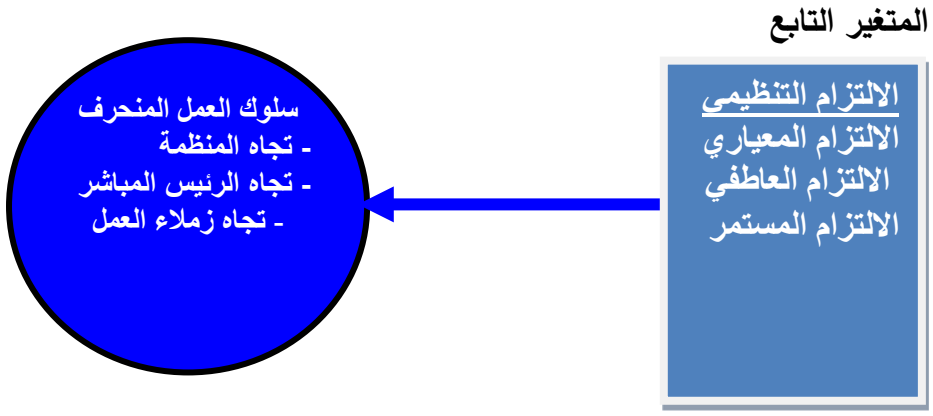

الشكل (1) النموذج الفرضي للبحث

خامساً. فرضيات البحث

تنص الفرضية الرئيسة بأنه:عندما يتصف العاملين بالالتزام التنظيمي بمكان العمل (التزام معياري , التزام عاطفي, التزام مستمر) فأن ذلك سيقلل من سلوك العمل المنحرف ، ويتفرع من هذه الفرضية ثلاث فرضيات فرعية وعلى النحو أدناه:

1. عندما يتصف العاملين بالالتزام التنظيمي بمكان العمل (التزام معياري , التزام عاطفي, التزام مستمر) فأن ذلك سيقلل من سلوك العمل المنحرف تجاه المنظمة .

2. عندما يتصف العاملين بالالتزام التنظيمي بمكان العمل(التزام معياري, التزام عاطفي, التزام مستمر) فأن ذلك سيقلل من سلوك العمل المنحرف تجاه زملاء العمل .
3. عندما يتصف العاملين بالالتزام التنظيمي بمكان العمل(التزام معياري, التزام عاطفي, التزام مستمر) فأن ذلك سيقلل من سلوك العمل المنحرف تجاه المشرف .

سادساً. الأساليب الإحصائية المستخدمة

اعتمد البحث في جانبه الميداني على عدد من الأدوات الإحصائية لتحليل البيانات وكما يلي:
1. الوسط الحسابي والانحراف المعياري والاهمية النسبية .
2. معامل كرونباخ الفا .
3. معادلة الانحدار الخطي البسيط .
4. اختبار F لغرض اختبار معنوية نموذج الانحدار الخطي البسيط .
5. اختبار T لاختبار اثر المتغيرات المستقلة على المتغير التابع .

سابعاً. أدوات البحث

1. **الجانب النظري** : اعتمد البحث في تغطية الجانب النظري للبحث على المصادر العلمية من كتب ومجلات ودوريات وأطاريح ورسائل عربية وأجنبية ذات صلة بموضوع الدراسة, فضلا عن البحوث والمقالات الأجنبية التي تم الحصول عليها عن طريق الانترنيت.
2. **الجانب العملي** : اعتمد البحث في جانبه العملي على استمارة الاستبيان والتي اعتبرت أداة القياس لجمع البيانات وقد تم الاعتماد في فقراتها على عدد من الدراسات ذات الصلة بمتغيراتها إذ تم عرض النموذج الأولي لأداة القياس على عدد من الخبراء في حقل الاختصاص لمعرفة آرائهم وملاحظاتهم حول فقراتها وقد تمت إعادة صياغته وفقا لآرائهم بما يلاءم بيئة العمل وثقافة مجتمع الدراسة وعينته.

ثامناً. أداة القياس

تتكون أداة قياس البحث من جزئيين أساسيين الجزء الاول يتمثل بالبيانات الديموغرافية والوظيفية. و الجزء الثاني يمثل بمتغيرات الدراسة , المتغير المستقل (الالتزام التنظيمي) والذي يقاس وفق مقياس (Allen and Meyer, 1990) لأبعاده الثلاثة (الالتزام المعياري والالتزام العاطفي والالتزام المستمر).
و المتغير التابع (سلوك العمل المنحرف) والذي أعتمد في صياغة فقراته على الاستبانة المستعملة في دراسة (Bennett & Robinson, 2000) بالنسبة لبعدي (سلوك العمل المنحرف تجاه المنظمة وتجاه زملاء العمل), ودراسة (Mitchell & Ambrose, 2007) بالنسبة لبعد (سلوك العمل المنحرف تجاه المشرف المباشر).
وقد استخدمت الباحثة طريقتين في توزيع أداة القياس وهما طريقة التقرير الذاتي (self-report) وطريقة تقرير المشرف (supervisor report). بخصوص متغير الالتزام التنظيمي فقد استخدمت الباحثة طريقة التقرير الذاتي ويقصد بها توزيع استمارة الاستبيان على العاملين أنفسهم، أما بخصوص متغير سلوك العمل المنحرف فقد تم استخدام طريقة تقرير مشرف العمل والذي يتمثل بتوزيع مقياس سلوك العمل المنحرف على الرؤساء المباشرين للعاملين بدلاً من العاملين أنفسهم والسبب وراء ذلك يعود إلى أن العاملين يكرهون أو يتجنبون الاعتراف أو الإقرار بأدائهم لأفعال منحرفة مثل السرقة أو الرشوة أو تخريب ممتلكات

المنظمة والذي يحتم استخدام مصدر بديل للمعلومات والذي يكون من خلال رئيس العمل المباشر (Stewart et al., 2009: 207). والجدول أدناه رقم (1) يبين ترميز وتوصيف لاستمارة الاستبيان.

جدول (1): **ترميز وتوصيف لاستمارة الاستبيان.**

ت	اسم المتغير	الرمز	عدد الفقرات	المصدر	نوع المقياس وتدرجه
1	الالتزام التنظيمي	CO	18	Allen and Meyer, 1990	(ليكرت الخماسي) (1) الى مدى منخفض جداً - (5) الى مدى عالي جداً
	1. الالتزام المعياري	NO	6		
	2. الالتزام العاطفي	AO	6		
	3.الالتزام المستمر	CC	6		
2	سلوك العمل المنحرف:	DevBeh	28	Bennett & Robinson, 2000	(ليكرت الخماسي) (1) دائماً - (5) أبدا لا
	1- تجاه المنظمة	DevOrg	12		
	2- تجاه الزملاء	DevInt	7		
	3- تجاه المشرف المباشر	DevSup	9	Mitchell & Ambrose, 2007	

تاسعاً. صدق أداه البحث وثباتها

ان صدق اداة القياس يتمثل بالقابلية على القياس الدقيق والموثوق ، اي المدى الذي تمثل فيه اداة القياس الخصائص التي تتوفر في الظاهرة قيد الدراسة والتحقيق منها (Hinkin, 1995: 968). وقد أجرت الباحثة اختبارات الصدق والثبات لأداه القياس وتم التحقق من صدق الأداة الظاهري وصدق المحتوى , كما تم التحقق من الثبات البنائي لأداة القياس الخاصة بالبحث الحالي من خلال حساب معامل الثبات للمقاييس باستخدام معامل ارتباط الفا كرونباخ الموضح في الجدول (2).

الجدول (2): معاملات كرونباخ الفا لمتغيرات البحث.

المتغير	كرونباخ الفا للمتغير	البعد	كرونباخ الفا للبعد
الالتزام التنظيمي	0.864	1. الالتزام المعياري	0.882
		2. الالتزام العاطفي	0.873
		3. الالتزام المستمر	0.814
سلوك العمل المنحرف	0.842	1. سلوك العمل المنحرف تجاه المنظمة	0.805
		2. سلوك العمل المنحرف تجاه زملاء العمل	0.832
		3. سلوك العمل المنحرف تجاه المشرف المباشر	0.895

وقد تراوحت قيم معامل كرونباخ الفا بين (0.805–0.895) وهي مقبولة إحصائيا في البحوث الإدارية والسلوكية لان قيمتها اكبر (0.75) (Nunnaly & Bernstein,1994)، والتي تدل على ان المقاييس تتصف بالاتساق الداخلي .

عاشراً. مجتمع البحث وعينته

تم تطبيق البحث على احد المعامل المحلية التابعة للقطاع الصناعي في العراق وهو (معمل طابوق الديوانية) , اما عينة البحث فتمثلت العاملين ورؤساء الأقسام في معمل طابوق الديوانية , إذ تم توزيع (115) استمارة استبيان على العاملين ورؤساء الاقسام وبعد تفحص الاستمارات المسترجعة استبعدت (15) استمارة لعدم صلاحيتها وعدم تحقيق الشروط المطلوبة للإجابة عن الاستبيان، وبذلك يكون عدد الاستمارات الصالحة للدراسة والتحليل (100) استمارة . وبهدف وصف خصائص عينة البحث تم تفصيلهما بالجدول (3) كما موضح أدناه:

الجدول (3): خصائص عينة البحث.

ت	المتغيرات	الفئات المستهدفة	التكرار	النسبة
1	النوع الاجتماعي	ذكور	62	%62
		إناث	38	%38
		المجموع	100	%100
2	العمر	من 25 فما دون	12	%12
		26- 35	18	%18
		36- 45	28	%28
		أكثر من 45	42	%42
		المجموع	100	%100
3	المؤهل العلمي	الدبلوم الفني	30	%30
		البكالوريوس	65	%65
		ماجستير	6	%6
		المجموع	100	%100
4	عدد سنوات الخدمة	أقل من 10 سنوات	17	%17
		11 – 20 سنة	20	%20
		21 – 30 سنة	22	%22
		31 فما فوق	41	%41
		المجموع	100	%100
5	المركز الوظيفي الحالي	فني	76	%76
		أداري	24	%24
		المجموع	100	%100

يتبين من خلال الجدول (3) أعلاه ما يأتي:

1- النوع الاجتماعي: نلاحظ من الجدول السابق بان النسبة الأكثر لعينة الدراسة من مجموع العاملين في معمل طابوق الديوانية كانت اغلبها ذكور حيث بلغت النسبة (62%) بينما بلغت نسبة الإناث (38%)

2- العمر: يتضح من الجدول إن أعلى نسبة قد بلغت (42%) وهي النسبة المحصورة (أكثر من 45) والتي كانت أكثر تكراراً.

3- المؤهل العلمي: يتبين من الجدول أعلاه بان أعلى نسبة تضمنت حملة شهادة (البكالوريوس) التي حصلت على نسبة (65%) الذين كانوا اغلبهم من العاملين المهندسين في معمل طابوق الديوانية.

4- سنوات الخدمة: يظهر من الجدول أعلاه ان الفئة (31 فما فوق) قد حصلت على أعلى نسبة بلغت (41%) وهذا يدل على ان معدل خدمة العاملين عينة البحث هو بمستوى معتدل نسبياً.

5- المركز الوظيفي الحالي : نلاحظ من خلال الجدول بأن الفنيين حصل على نسبة اعلى من الاداريين وكان بنسبة (76%) .

المحور الثاني/ مراجعة نظرية

اولاً. الالتزام التنظيمي

اولاً. مفهوم الالتزام التنظيمي

بدء الاهتمام بموضوع الالتزام التنظيمي في القرن العشرين منذ مطلع النصف الثاني منه وليومنا هذا (Rowden, 2000: 3) , اذ يعد الالتزام من الظواهر المهمة في حياة البشرية بشكل عام ، وفي المنظمات بشكل خاص، ونتيجة لذلك فقد برزت الحاجة إلى دراسة السلوك الإنساني في المنظمات بغرض تحفيزه وزيادة التزامه ، مما أدى إلى ظهور العديد من النظريات وإجراء الكثير من الأبحاث الميدانية والتطبيقية في الفترة الأخيرة (البقمي , 2012: 9) , ومن أوائل من قدموا تعريفا للالتزام التنظيمي كان (Porter & Smith, 1970) اذ نظرا إليه من منظور نفسي ووصفاه بأنه(توجه يتسم بالفاعلية والايجابية نحو المنظمة) وهو التعريف الذي اتفق عليه اغلب الباحثين في مجال الالتزام التنظيمي (بالأطرش , 2011 : 13) . اذ خضع مفهوم الالتزام التنظيمي الى الكثير من الدراسات ، ولا يزال يمثل واحد من اكثر التحديات والدراسات في مجال الادارة والسلوك التنظيمي وادارة الموارد البشرية (Cohen, 2007: 336). وكانت هناك العديد من الوسائل لدراسة وتعريف الالتزام التنظيمي من قبل الباحثين في السنوات الماضية وفي مختلف المجالات (Anttilla, 2014: 3) إذ غالباً ما ينظر الى الالتزام

التنظيمي باعتباره القوة التي تربط الفرد بمسار العمل والذي يرتبط بهدف واحد او اكثر ويمكن ان نوجه تلك الاهداف الى الافراد، وكذلك الى المؤسسات المختلفة (Cohen, 2007: 338). اذ يعرف الالتزام التنظيمي بأنه درجة تطابق الفرد مع منظمته وارتباطه بها (البقمي, 2012: 10). كما عرف (porter) وزملاءه الالتزام التنظيمي بأنه القوة النسبية لتعريف الشخص بنفسه على أنه موظف في المنظمة التي يعمل بها (Cohen, 2007: 338) , وعرف ايضاً بانه الدرجة التي يرغب العاملين بها الانتماء للمنظمة والاستمرار بها (Greenbery & Baron, 2004: 215) , كما يرى(O'Reilly & Chatman, 1986: 492) بان الالتزام التنظيمي هو " ارتباط سيكولوجي بالمنظمة " , ووفقاً لـ (Ruokolainen, 2011: 15) بانه يعكس الدرجة التي يقوم فيها الافراد بتقمص او تبني خصائص او وجهات نظر المنظمة . اما (Allen& Meyer, 2000) فقد عرف الالتزام التنظيمي بانه شعور داخلي يتسم بعلاقة الموظف مع المنظمة ويقلل من احتمال انه/انها سوف يترك العمل في فيها (Mousa & Alas, 2016: 249) .

ثانياً. ابعاد الالتزام التنظيمي

1. الالتزام المعياري :

يحدث الالتزام المعياري عندما يتولد شعور لدى العاملين بالالتزام نحو البقاء في المنظمة (Mowday, 2005:3) , فهم يشعرون بأن المنظمة وظفتهم وبالمقابل فأن دورهم ومسؤوليتهم التفكير لتحسين وضع هذه المنظمة , وعلى المنظمة دفع هؤلاء العاملين بشكل جيد من اجل الاستفادة منهم (Mohmood, 2015: 33) . وغالبًا ما يعزز هذا الشعور بالدعم الجيد من قبل المنظمة لمنسوبيها، والسماح لهم بالمشاركة، والتفاعل الإيجابي ليس فقط في كيفية الإجراءات وتنفيذ العمل بل المساهمة في وضع الأهداف والخطط ورسم السياسات العامة للتنظيم (العوفي, 2005: 35-36).

كما اوضح (Ailen & Meyer, 1990: 2) الالتزام المعياري بأنه الشعور بالواجب أي الالتزام تجاه مواصلة العمل, اذ تعمل المعتقدات أو القيم الأخلاقية الذاتية على أجبار العامل على الحفاظ على وجوده في المنظمة , كما يبين بانه حق أخلاقي في البقاء بالمنظمة بغض النظر عن مقدار الوضع الأفضل أو الارتياح المتحققة لهم بمرور الوقت.

2. الالتزام العاطفي :

يحدث الالتزام العاطفي عند الافراد الذين يحتضنون اهداف وقيم المنظمة , وبالتالي سيرتفع لديهم الالتزام العاطفي مع المنظمة ويتولد لديهم شعور شخصي بالمسؤولية عن مستوى نجاح المنظمة , وتظهر لديهم مستويات عاليه من الاداء ومواقف ايجابية بمكان العمل ورغبة في

البقاء بالمنظمة (Mowday, 2005: 3) . اذ عرف الالتزام العاطفي بأنة مشاعر ايجابية من التماثل والتمسك والانغماس في المنظمة (Ogunlana et al., 2016: 3) . كما يشير الى رغبة العامل في الاستمرار بالمنظمة لان اهدافه وقيمة تتطابق مع اهداف وقيم المنظمة ويسعى لتحقيق تلك الاهداف (Greenbery & Baron, 2004: 217) , وعرفة Felt (2003) بانه ارتباط او التمسك العاطفي او التطابق او الاندماج بقيم واهداف المنظمة (حمادي, 2016: 312) , أي هو الارتياح العاطفي بالمنظمة والتوافق مع المنظمة والمشاركة مع المنظمة , ولهذا فأن الالتزام العاطفي يكون قائماً على الرغبة , وهناك عدد من العوامل التي تساعد بشكل كبير على زيادة الالتزام العاطفي منها (Ailen & Meyer, 1990: 1-3) :

أ. عندما يصبح العامل منغمس بالمنظمة بسبب دافعة الذاتي أو اندماجه بالمنظمة أو طبيعة العمل.

ب. شعور العامل بالقيمة والتقدير والناتجة عن طبيعة العمل ومساراته التنظيمية.

ج. ارتباطه بأسلوب أو طبيعة العمل والذي سوف يشكل شخصية وكيانه الفرد العامل .

3.الالتزام المستمر :

هذا النوع من الالتزام يصف مستوى الفائدة المرتبطة التي يمنحها بقاء العامل بالمنظمة (Mahmood, 2015: 32) , اذ ان الالتزام المستمر يتطور عندما يرى العاملين انه لا يوجد بدائل اخرى لو ترك العمل بالمنظمة(Mousa & Alas, 2016: 249) . فالعاملين تحت هذا النوع من الالتزام سيلتزمون بالمنظمة لان لديهم بعض المنافع الشخصية وهذه المنافع تشمل بعض المزايا على سبيل المثال (الترقيات , و العلاوات , والمكافئات و التقييم , والامتيازات الإضافية الاخرى) , فعندما يعتقد العامل بان البقاء في المنظمة سيمكنه من الاستفادة منها في المستقبل سوف يمارس الالتزام لغرض البقاء في تلك المنظمة (Mahmood, 2015: 32). لذلك يمكن تعريف الالتزام المستمر بانه رغبة العاملين بالبقاء بالمنظمة لاعتقاده بان ترك المنظمة سيتسبب بفقدان العديد من الامور التي استثمرها في مساره المهني (Greenbery & Baron, 2004: 216) , أي أدراك الفرد للتكاليف الباهظة المرتبطة بمغادرته للمنظمة (Anttilla, 2014: 8). وتجري هذه العملية بشكل طبيعي وذلك يعود إلى تصور الفرد أو تقيمه للثمن أو المخاطر التي قد يتعرض لها الفرد عند مغادرة العمل الحالي في المنظمة (Meyer & Ailen, 1997: 3) .

ثالثاً. اهمية الالتزام التنظيمي

أكدت العديد من الدراسات على أهمية الالتزام التنظيمي ومدى تأثيره على المستوى الفردي والتنظيمي , اذ أوضحت هذه الدراسات بأن ارتفاع مستوى الالتزام التنظيمي في بيئة العمل ينتج

عنه انخفاض بمستوى مجموعة من الظواهر السلبية وفي مقدمتها ظاهرتي الغياب والتهرب عن أداء العمل (البقمي, 2011: 12) , وبإمكان المنظمة الاستفادة من التزام العاملين بطرق مختلفة وعلى نطاق واسع, وذلك من خلال امتلاكهم القدرة على التأثير على الفاعلية التنظيمية (Meyer & Herscovitch, 2001: 299) . اذ يكون العاملين اقل عرضه لترك العمل في المنظمة وبالتالي، الحد من معدل دوران العاملين (Allen & Meyer, 1990: 1). وبنفس القدر من الاهمية ، اشار كل من (Shahid & Azhar, 2013: 253) بان العاملين الملتزمين، غالباً ما يقوموا بإنجاز العمل وبشكل جيد حتى بدون وجود نظم جيدة ، والتي هي أساسية لزيادة الانتاجية في المنظمات. كما يعبر الالتزام التنظيمي عن استثمار متبادل بين الفرد والمنظمة باستمرار العلاقة التعاقدية ويترتب عليه أن يقدم أكثر مما هو متوقع منه تقديمه والمرغوب فيه من جانب المنظمة ، ورغبة الفرد في إعطاء جزء من نفسه من أجل الإسهام في نجاح واستمرارية المنظمة ، كالاستعداد لبذل مجهود كبير والقيام بأعمال تطوعيه ، وتحمل مسئوليات إضافية (البقمي, 2011: 11) , فعندما يكون هناك التزام كبير من قبل العامل، فمن المحتمل ان نرى هناك العديد من النتائج الايجابية المتحققة على المستوى الفردي ، فضلاً عن، المستوى التنظيمي , فهذة المنافع تتمثل بسعادة العامل داخل المنظمة، وحياته بشكل عام , وكذلك زيادة الرضا الوظيفي لدى العامل (Shahid & Azhar, 2013: 253) . ويقلل من السلوكيات السلبية داخل المنظمة (كسلوك العمل المنحرف والسلوك المسيس والمقاطعة بمكان العمل والتهكم التنظيمي ... وغيرها (Farhadi et al., 2012: 7). وكذلك يؤدي الالتزام التنظيمي الى تحسين العلاقات والاداء للمنظمة (Rylander, 2003: 142). وبعد اجراء التحليل الاحصائي للعديد من الدراسات التي تناولت الالتزام التنظيمي, تم ايجاد بان اكثرها تكون مرتبطة بالأداء التنظيمي والسلوك الارتدادي (Wright et al., 2005: 426– 431) . على سبيل المثال (نيّة البحث عن بديل للعمل الحالي، والنيّة بترك المنظمة، ودوران العمل (Mayer, 2007: 47).

ثانياً. سلوك العمل المنحرف

أولاً. مفهوم سلوك العمل المنحرف

إن دراسة سلوك الموظف في مكان العمل ظلت لعقود من الزمن جزءاً لا يتجزأ من علم النفس الصناعي , إذ سعى الباحثين لشرح مختلف السلوكيات في مكان العمل وقد ركزوا بشكل أساسي على السلوكيات الايجابية مثل سلوك المواطنة التنظيمي (Bashir et al., 2012: 357) , وتحفيز العاملين, والسلوك الاجتماعي المؤيد للمنظمة ...الخ (Schnake, 2013: 3). الا انه في السنوات الأخيرة جذب سلوك العمل المنحرف انتباه الباحثين , إذ أن العديد

من الدراسات في أمريكيا الشمالية جعلت الباحثين يتناولون دراسته (Xia & Yu-Xiao, 2010: 1) . وقد اختلفت تسميات سلوك العمل المنحرف , فيمكن أن يأخذ أشكالاً عديدة مثل العدوانية التنظيمية , والانتقام التنظيمي (Gualandri, 2012: 15) , والجنوح التنظيمي وانحراف العمل (Hammond, 2008: 3) والسلوك غير الاجتماعي , وسوء السلوك التنظيمي (Kura et al., 2013: 15) والانحراف المدمر (Bodankin & Tziner, 2009: 550) . وعلى الرغم من الاختلافات المفاهيمية لهذه المصطلحات إلى أنها تصف السلوك بأنه : أولاً . سلبي على الأداء الحالي للمنظمة و ثانياً. يكون متعمد (Maclane & Walmsley, 2010: 62) . فمصطلح سلوك العمل المنحرف يستخدم للتعبير عن السلوك الغريب والمنحرف والمخرب والانتقامي وغير الأخلاقي في العمل كما انه يتضمن مفردات كثيرة , مثل التعجرف , والفساد, وسوء الانضباط, والكسل , والتخريب, وتدمير الممتلكات ,والتحرش الجنسي , والإزعاج, والاختلاس ,والعنف والتنمر(Furnham & Taylor, 2004: 83) , السرقة , حجب الجهد , العدوان بين الأفراد و التغيب (Berry et al., 2012: 614) , والاحتيال وتعاطي المخدرات والكحول (Fine et al., 2010: 73) . وقد عرف (Robinson & Bennett,1995) سلوك العمل المنحرف بأنه سلوك طوعي ينتهك معايير تنظيميه هامة ويهدد بالنتيجة سلامة المنظمة أو أعضائها أوكلاهما (Robinson & Bennett, 1995: 556; Bennett & Robinson, 2000: 349) اما (Spector & Fox, 2005) فعرف سلوك العمل المنحرف بأنه مجموعه تصرفات قصديه أو إرادية تصدر عن الموظف القادر على إيذاء المنظمة أو أفرادها أو كليهما (Joe-Akunne et al., 2014: 42) . وعرفه (Chang & Smithikrai, 2010) بأنه فئة السلوكيات التي تعمل ضد مصالح المنظمة , يختارها الأفراد بشكل طوعي وينخرطوا فيها (Ansari et al., 2013: 79) . كما عرف سلوك العمل المنحرف بأنه أي أفعال ينخرط فيها العاملين لإلحاق الضرر بالمنظمة أو أعضاء المنظمة (Bowling & Gruys, 2010: 54) , كما عرف سلوك العمل المنحرف عموماً بأنة أفعال تضر بالمنظمة وأهدافها لأنها تؤثر في عملها أو ممتلكاتها أو تضر بالعاملين مما يؤثر على فاعليتهم (Kanten & Ulker, 2013: 148) , أي ان سلوكيات العمل المنحرفة هي تلك الأفعال التي تصدر عن الموظف وتكون ضارة لبيئة العمل ككل وتختلف أسبابها ووسائل التعبير عنها بحسب الموقف ولذا يصعب على المنظمة تشخيص الأسباب الحقيقية ورائها (Ramshida & Manikandan, 2013: 61).

ثانياً. أبعاد سلوك العمل المنحرف

1. سلوك العمل المنحرف تجاه المنظمة

ويعرف بأنة السلوك الذي يعمل بشكل صريح ضد أهداف المنظمة أي انه ينتهك المعايير التنظيمية (Ersoy, 2010: 7) .كما انه مجموعه السلوكيات التي تعمل ضد مصالح المنظمة (Ansari et al., 2013: 351) . ومن امثله هذة السلوكيات (السرقه , تخريب الممتلكات, التأخير عن العمل , والتغيب , تعمد هدر الوقت , الإفراط في وقت الاستراحة (Hammond, 2008: 3) , وحجب الجهد في العمل (Fagbohungbe et al., 2012: 208) والرشوة (Kalinoski, 2012: 4) , والتنمر , و الهدر المتعمد للموارد , وعدم العناية المتعمد بنظافة وتنظيم الموارد بمكان العمل (Ansari et al., 2013: 79) , و فقدان الإنتاجية , وفقدان الزبائن (Bowling & Gruys, 2010: 54) , و سوء استخدام المعلومات , و سوء جوده العمل (Maclane & Walmsley, 2010: 65).

2. سلوك العمل المنحرف تجاه زملاء العمل

ويقصد به مجموعه السلوكيات الضارة الموجهة نحو زملاء العمل أو الآخرين والتي تسبب أضراراً جسدية أو نفسيه من خلال التهديدات , أو التعليقات السيئة , أو تجاهل الأشخاص, او تقويض قدره الشخص على العمل بفاعلية (Ansari et al., 2013: 79) , وكذلك يشمل سرقه زملاء العمل ,و الاعتداء على زملاء العمل, و التأثير على رفاهية زملاء العمل (Bowling & Gruys, 2010: 54) , والألفاظ الغير ملائمة كمجادلة الزبائن , والمضايقة أللفضية لزملاء العمل , والتحرش , والنبذ , والتشاؤم (Maclane & Walmsley, 2010: 65) .

3. سلوك العمل المنحرف تجاه المشرف المباشر

وهي مجموعه السلوكيات المنحرفة التي تكون موجهه نحو إيذاء الرئيس المباشر في العمل (Idiakheua & Obetoh, 2012: 913), والتي تشمل عدم أتباع تعليمات المشرف (Muafi, 2011: 123) , والسخرية من المشرف أو العمل الفظ أو المشاجرة أو العدوانية الجسدية (Fagbohungbe et al., 2012: 209) , الانتقاص من قدره , يبث الإشاعات حول رئيسه المباشر في العمل , إحراج رئيسه المباشر بشكل علني , يشتم او يلعن رئيسه المباشر , يتفَوَّهَ بكلمات جارحة تجاهه (Mitchell and Ambrose, 2007: 1168) .

ثالثاً. تأثيرات سلوك العمل المنحرف

تناولت العديد من الدراسات تأثيرات سلوك العمل المنحرف وعواقبه التنظيمية والشخصية بمكان العمل (Jensen & Patel, 2011: 466) . وان الدافع للاهتمام بدراسة سلوك العمل المنحرف يعود للانتشار المتزايد لهذا النوع من السلوك في مكان العمل , فضلاً عن التكاليف الباهظة المرتبطة بمثل هذا السلوك (Appelbaum et al., 2007: 587) . اذ ان له تأثير اقتصادي واجتماعي ونفسي للمنظمة ككل وعلى اعضاءها (Bodankin & Tziner, 2009:

549) . وقد أشار Jones (2009) انه قد يحدث فشل في الأعمال عندما تنتشر ممارسة الانحراف من قبل العاملين في المنظمة والمدراء لم يعد قادرين على السيطرة علية (Elakremi et al., 2010: 1987) . و ان الانحراف يتفاوت من حيث الشدة والحدة من أشكال بسيطة إلى أشكال خطيرة جداً (Bennett & Robinson, 2000: 350) . اذ انه يعد مشكله بالنسبة لاقتصاديات العمالة في جميع أنحاء العالم (Fine et al., 2010: 73) , وفقدت المنظمات مليارات الدولارات سنوياً بسب سلوك العمل المنحرف (Farhadi et al., 2012: 2) . وقد أثبتت الأدلة أن سلوكيات العمل المنحرفة والضارة والغير أخلاقية والمدمرة تحدث معدلات مثيرة للقلق وتكلف المنظمات المليارات من الدولارات (Stewart et al., 2009: 207) , و ان تقديرات انتشار وتكاليف سلوك العمل المنحرف تختلف اختلافاً كبيراً اعتماداً على سلوك معين (Jensen et al., 2010: 555) , اذ أشار (Robinson & Bennett, 1995) ان (75%) من العاملين يعملون بشكل او بأخر من أشكال سلوكيات العمل المنحرفة التالية (السرقة , الاحتيال , الاختلاس , التخريب , تدمير الممتلكات , الغياب) (Appelbaum et al., 2007: 588) , اذ ان هذه السلوكيات معظمها ترتبط بكلف عالية , فالسرقة لها أثار سلبية على الأرباح وصورة المنظمة (Rimkus, 2012: 3) , وتكون السرقة هي العامل الرئيسي في (20%) إلى (50%) من جميع حالات الإفلاس (Rogojan, 2009: 10).

اما Murphy (1993) أوضح ارتباط هذه السلوكيات بخسارات سنوية قدرت من(6$ إلى 200$) , وبعد عشرين سنة تقريباً ازداد هذا الرقم بشكل كبير , فقد ارتكب(75–33%) من الموظفين هذه السلوكيات لمرة واحدة على الأقل (Rimkus, 2012: 3) . أما دراسة Bensimon (1994) فتقدر التكلفة السنوية للانحراف بمكان العمل (كالعنف أكثر من (4) بليون دولار , وتقديرات التكلفة السنوية الإجمالية لمجموعه واسعة من نطاق الانحراف من (4) بليون دولار إلى (120) بليون دولار سنوياً (Lanyon & Goodsten, 2004: 534) , أما في استراليا كلف الاحتيال الذي يرتكبه أعضاء المنظمة معدل (2.1) مليون دولار عن كل حادثة احتيال في تجارب المنظمات (Muafi, 2011: 123) , ورغم التكاليف المالية الناتجة من سلوكيات العمل المنحرف إلا أن الانخراط فيها يؤثر على رأس المال البشري للمنظمة , إذ يمكن لسلوك العمل المنحرف ان يؤثر على مشاعر الاستياء والتوتر وهذا يؤدي في نهاية الأمر إلى نية المغادرة من المنظمة (Hafidz, 2012: 220) , كما ذكر (Robinson & Bennett, 1995) شكلاً خطيراً من أشكال الانحراف التنظيمي وهو قبول الرشوة أو الفساد المالي (Bashir et al., 2012: 358) , وأشار Luo (2005) إذ يعتبر الفساد العائق

الرئيسي ضد التقدم الاجتماعي (Bashir et al., 2012: 359) . وأن الإبكار في تشخيص المشاكل يسهل معالجتها وإدارتها بحكمة مما يحد من كلف سلوك العمل المنحرف (Furnham & Taylor, 2004: 84) .

بالإضافة للتكاليف المالية التي تسببها ممارسة سلوك العمل المنحرف , فأن يؤثر ايضاً على المواقف التنظيمية بمكان العمل , والتي تمثل الاعتبارات الهامة في موقف الموظف وسلوكه اثناء العمل (Kura et al., 2013: 17) , اذ ان لسلوك العمل المنحرف تأثير على السلوكيات الايجابية في المنظمة, فهو يقلل من السلوكيات الإيجابية كسلوك المواطنة التنظيمي (Bukhari & Ali, 2009) , و الاداء التنظيمي و تحفيز العاملين (Schnake, 2013: 3) و الثقه التنظيمية (Xia & Xiao, 2010) ويزيد من السلوكيات السلبية , كالمقاطعة بمكان العمل (Dierolf, 2010) , والسلوك المتهكم (Ahmed et al., 2013: 148) , والتقويض الاجتماعي (Crossley, 2008: 1) . كما انه يؤثر على المتغيرات الموقفية داخل المنظمة , فهو يقلل من الرضا الوظيفي , فعندما يواجه العاملين في كثير من الأحيان مثل هذه السلوكيات الضارة لبيئة العمل فإنهم يصبحون اقل رضا واقل قدرة على التركيز على مهام وظائفهم (Sakurai, 2011: 8) . وكذلك يؤثر على الالتزام التنظيمي (Mat & Naser, 2012), و الاجهاد الوظيفي(Fox et al., 2011) و الثقافه التنظيمية (Fine et al., 2010) والاستقرار الوظيفي (Gualandri, 2012) , وان زيادة سلوك العمل المنحرف يرتبط بانخفاض الإنتاجية وعدم الرضا الوظيفي ومعاناة نفسية كبيرة (Jensen & Patel, 2011: 466) , , كما أشار (Spector) وزملاءه (2006) بان سلوكيات العمل المنحرف تضر بفاعلية المنظمة (Aube et al., 2009: 352) . كما ان ادراكات عدم العدالة والقيود التنظيمية تؤدي إلى زيادة بمستويات الاختراق الوظيفي وهذا يسبب سلوكيات عمل منحرف ايجابية أو سلبية على حد سواء ضد المنظمة أو أعضائها (Ansari et al., 2013: 351) .

ثالثاً. الالتزام التنظيمي وسلوك العمل المنحرف

يمثل الالتزام التنظيمي الانتماء بين العاملين والمنظمة , فليس من السهل قياس مدى التزام العامل في حياته / منظمته , كما ان الالتزام غير مادي ولا يمكن رؤيته او ملاحظته جسدياً, لكن يمكن قياسه اذا كانت هناك حاله سلبية غير متوقعه في مكان العمل تمكن المنظمة من ملاحظة استجابة العاملين كرد فعل لتلك الحالة السلبية (Mahmood, 2015: 30) . ويمكن اعتبار سلوك العمل المنحرف واحد من الحالات السلبية التي تتعرض لها المنظمة (Kalinoski, 2012: 4) . فعندما يشعر العاملين بغياب الدعم من قبل زملاء العمل , او

الشعور بالظلم وعدم العدالة , سيتولد لديهم المعاملة بالمثل على مصدر عدم المساواة من خلال التعامل بطريقة سلبية (Hung et al., 2009: 259) . ولكن لو اتجهت المنظمة الى تنمية العلاقة ما بينها وبين العاملين , فان هذه العلاقه ستجلب الكثير من الاشياء الجيده للمنظمة نفسها, وبالتالي عندما يشعر العاملين بالعدالة والانتماء تجاه المنظمة وانها قد وفرت لهم الفوائد والتقييم , بالمقابل سيفكر العاملين بالمسؤولية لتحسين وضع هذه المنظمة وسيكونون اكثر حماساً ويقدموا الافضل لها ,وهذا هو الاخلاص والصدق الذي يظهره مدى التزام العاملين تجاه المنظمة (Mahmood, 2015: 33). فالالتزام التنظيمي يحسن موقف العامل تجاه وظيفته ويُمَكن من الاحتفاظ بالعاملين داخل المنظمة وعدم جعلهم يهددون بترك العمل (Ogunlana et al., 2016: 3). وبالتالي ستقل ممارسة السلوكيات المنحرفة والتي ستهدد سلامة المنظمة او اعضاءها او كليهما , فالعلاقة بين الالتزام التنظيمي وسلوك العمل المنحرف علاقة عكسية , فكلما ارتفع التزام العاملين تجاه المنظمة كلما قل ممارسة السلوكيات المنحرفة في تلك المنظمة وهذا ما ستثبته الفرضيات في الجانب العملي للمبحث ادناه .

المحور الثالث/ الجانب العملي

أولاً. الوصف الإحصائي

تتضمن هذة الفقرة تشخيص ووصف متغيرات البحث في معمل طابوق الديوانية (عينة البحث) باستخدام الوسط الحسابي والانحراف المعياري لبيان مدى تركيز وتشتت اجابات افراد عينة البحث , وتم تحديد مستوى الإجابات في ضوء المتوسطات الحسابية من خلال انتماءها لأي فئة ولتحديد قيم المتوسطات الحسابية ضمن أي مستوى يتم مقارنتها وفق الجدول رقم (4) ادناه :

الجدول (4): درجات مستويات قيم الأوساط الحسابية

تقدير الدرجات	مستوى الإجابة
1.80 –1	منخفض جداً
2.60 – 1.81	منخفض
3.40 – 2.61	معتدل
4.20 – 3.41	مرتفع
5.0 – 4.21	مرتفع جداً

أولاً. الوصف الإحصائي لمتغير الالتزام التنظيمي

الجدول (5):المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية ومستوى الإجابة والأهمية النسبية للالتزام التنظيمي (N=100)

المتغير المستقل (الالتزام التنظيمي)					
أولاً. الالتزام المعياري					
ت	العبارة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	مستوى الإجابة	الأهمية النسبية
1	هناك التزام دائم من قبلي تجاه المعمل	3.94	0.694	مرتفع	2
2	يستحق معملي الإخلاص والالتزام من قبل المرؤوسين فيها.	4.02	0.710	مرتفع	1
3	أن قرار ارتباطي بالعمل في المعمل يعتبر قراراً صائباً.	3.85	0.744	مرتفع	4
4	أبذل قصارى جهدي لتحقيق أهداف المعمل.	3.87	0.761	مرتفع	3
5	أحافظ على سمعة المعمل لدى المجتمع.	3.84	0.735	مرتفع	5
6	أهتم بوضع ومستقبل المعمل أثناء تأدية عملي	3.61	0.840	مرتفع	6
	المعدل العام	3.850	0.5220	مرتفع	الثانية
ثانياً. الالتزام العاطفي					
1	أشعر حقاً أن مشاكل المعمل هي جزء من مشاكلي الشخصية	3.79	0.878	مرتفع	5
2	هناك توافق بين قيمي وقيم المعمل التي أعملُ فيها	4.01	0.586	مرتفع	1
3	هناك شعور بالعلاقة الأخوية بين زملائي في المعمل	4.00	0.603	مرتفع	2
4	مناخ العمل في المعمل يشعرني بالراحة والاستقرار	3.93	0.671	مرتفع	3
5	انتمائي للمعمل هي رغبة قديمة تحققت أخيراً	3.68	0.750	مرتفع	6
6	دائماً ما أقضي أوقاتاً سعيدة في عملي داخل المعمل	3.81	0.748	مرتفع	4
	المعدل العام	3.890	0.485	مرتفع	الأولى
ثالثاً. الالتزام المستمر					
1	هناك خيارات محدودة للغاية لان أفكر في ترك	3.54	0.717	مرتفع	6

	العمل داخل المعمل				
2	أرى أن جهة عملي الحالية من أفضل جهات العمل للألتحاق بها	3.71	0.868	مرتفع	5
3	أتطلع للحصول على منصب وظيفي متميز في المعمل	3.75	0.783	مرتفع	2
4	وجودي في عملي الحالي يمثل استثماراً وظيفياً جيداً بالنسبة لي	3.76	0.806	مرتفع	1
5	لدي رغبة بالبقاء في عملي الحالي حتى لو توفرت فرصة بديلة أخرى	3.73	0.983	مرتفع	3
6	لدي رغبة في بذل جهد أكبر يساهم في نجاح المعمل	3.71	0.656	مرتفع	4
	المعدل العام	3.7	0.525	مرتفع	الثالثة

يظهر من خلال الجدول (5) المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية ومستوى الاجابة والاهمية النسبية لإجابات عينة البحث اتجاه أبعاد متغير الالتزام التنظيمي . اذ يلاحظ في هذا الجدول بالنسبه لبعد الالتزام المعياري بان الفقرة (2) الخاصة بـ (**يستحق معملي الإخلاص والالتزام من قبل المرؤوسين فيها)** . قد حصلت على أعلى المتوسطات الحسابية فقد بلغ (4.02) وبانحراف معياري (0.718) وهذا يبين تناسق وتناغم إجابات عينة البحث اتجاه هذه الفقرة، وضمن مستوى اجابة " مرتفع ". في حين حصلت الفقرة (6) والخاصة (**أهتم بوضع ومستقبل المعمل أثناء تأدية عملي**) على أدنى المتوسطات الحسابية والذي بلغ (3.61) وبانحراف معياري بلغ (0.840) وهذا بين انسجام اجابات الافراد عينة البحث وضمن مستوى اجابة " مرتفع ".

اما بالنسبة لبعد الالتزام العاطفي فيظهر الجدول (5) بان الفقرة (2) الخاصة بـ **(هناك توافق بين قيمي وقيم المعمل التي أعملُ فيها)** . قد حصلت على أعلى المتوسطات الحسابية فقد بلغ (4.01) وبانحراف معياري (0.586) وهذا يبين تناسق وتناغم اجابات عينة البحث اتجاه هذه الفقرة، وضمن مستوى اجابة "مرتفع ". في حين حصلت الفقرة (5) الخاصة (**انتمائي للمعمل هي رغبة قديمة تحققت أخيراً**) على ادنى المتوسطات الحسابية بلغ (3.68)

وبانحراف معياري بلغ (0.750) وهذا يبين انسجام اجابات الافراد عينة البحث وضمن مستوى اجابة " مرتفع.

كما يلاحظ في هذا الجدول بالنسبه لبعد الالتزام المستمر, بان الفقرة (4) الخاصة بـ **(وجودي في عملي الحالي يمثل استثماراً وظيفياً جيداً بالنسبة لي)** . قد حصلت على أعلى المتوسطات الحسابية فقد بلغ (3.76) وبانحراف معياري (0.806) وهذا يبين تناسق وتناغم اجابات عينة البحث اتجاه هذه الفقرة، وضمن مستوى اجابة "مرتفع ". في حين حصلت الفقرة (1) الخاصة **(هناك خيارات محدودة للغاية لان أفكر في ترك العمل داخل المعمل)** على ادنى المتوسطات الحسابية بلغ (3.54) وبانحراف معياري بلغ (0.717) وهذا يبين انسجام اجابات الافراد عينة البحث وضمن مستوى اجابة " مرتفع.

ووفقاً لما تقدم، فان المعدل العام لبعد الالتزام العاطفي قد بلغ (3.890) بانحراف معياري عام بلغ (0.485) وقد حصل هذا البعد على مستوى اجابة " مرتفع " وكانت الأهمية النسبية لهذا البعد مقارنة مع الأبعاد الأخرى لمتغير الالتزام التنظيمي في التسلسل (الأول) , يليه بعد الالتزام المعياري بمعدل عام مقداره (3.850) وبانحراف معياري (0.522) , واخيراً بعد الالتزام المستمر يأتي في المرتبة الثالثة وبمعدل عام(3.7) وانحراف معياري (0.525) .

والشكل (2) يوضح المتوسطات الحسابية لكل بعد من أبعاد الالتزام التنظيمي .

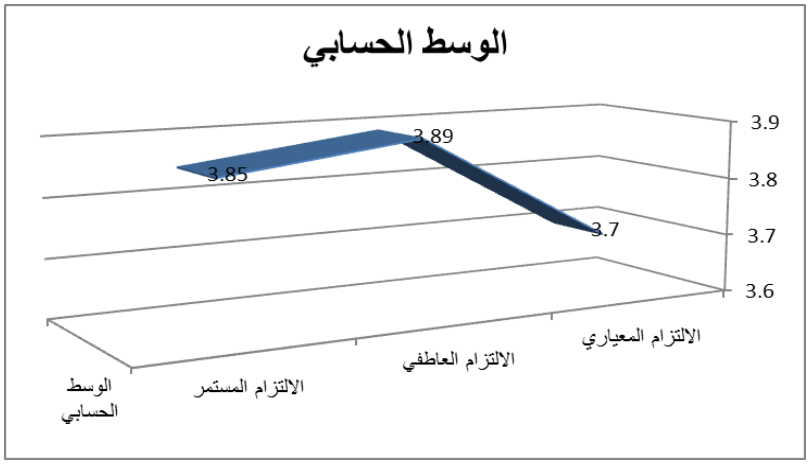

شكل (2): المتوسطات الحسابية لأبعاد الالتزام التنظيمي .

ثانياً. الوصف الإحصائي لمتغير سلوك العمل المنحرف

الجدول(6): المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية ومستوى الإجابة والأهمية النسبية لسلوك العمل المنحرف (N=100).

المتغير التابع : سلوك العمل المنحرف					
أولاً. سلوك العمل المنحرف تجاه المنظمة					
ت	العبارة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	مستوى الإجابة	الأهمية النسبية
1	الأخذ من ممتلكات المصنع بدون رخصة.	2.02	1.197	منخفض	11
2	قضاء كثير من الوقت في التفكير بأمور لا تخص العمل.	3.39	1.313	معتدل	3
3	تزوير وصولات بغية الحصول على أموال أضافية تفوق نفقات العمل اللازمة.	2.06	1.229	منخفض	10
4	اخذ استراحة بالعمل تزيد عن الوقت المسموح به.	3.40	1.235	معتدل	2
5	الوصول متأخر إلى العمل بدون رخصة.	3.57	1.265	مرتفع	1
6	إثارة الفوضى في بيئة العمل.	2.32	1.348	منخفض	4
7	تقصد العمل بشكل أبطأ مما يقدر عليه.	2.06	1.099	منخفض	9
8	مناقشة معلومات سرية تخص العمل مع أشخاص غير مخولين.	2.26	1.260	منخفض	5
9	التعامل بالرشوة.	1.82	0.936	منخفض	12
10	بذل جهود قليلة في العمل.	2.25	1.282	منخفض	6
11	التأخر خارج العمل للحصول على وقت إضافي.	2.16	1.089	منخفض	8
12	عدم الاكتراث في تنفيذ تعليمات المسؤول المباشر.	2.19	1.237	منخفض	7
	المعدل العام	2.232	0.859	منخفض	الأولى
ثانياً. سلوك العمل المنحرف تجاه زملاء العمل					
1	ينقص من قدر بعض زملاءه في العمل.	2.63	0.978	معتدل	2
2	يتفَوَّهَ بكلمات جارحة اتجاه بعض زملاءه الآخرين في العمل.	4.03	1.267	مرتفع	1
3	يدلي بتصريحات دينية، أو عنصرية أو عرقية اتجاه بعض زملاء العمل الآخرين.	2.36	1.307	منخفض	3
4	يشتم أو يلعن بعض زملاءه في العمل.	2	1.146	منخفض	6
5	يمارس الخدع والحيل اتجاه بعض زملاءه في العمل.	2.26	1.260	منخفض	5
6	يتصرف بوقاحة و فضاضة اتجاه زملاءه	2.33	1.272	منخفض	4

	الآخرين في العمل.				
7	يحرج بشكل علني زملاءه الآخرين في العمل.	2.01	1.336	منخفض	7
	المعدل العام	2.078	0.895	منخفض	الثانية
ثالثاً. سلوك العمل المنحرف تجاه المشرف المباشر					
1	ينقص من قدر رئيسه المباشر في العمل.	2.60	0.944	معتدل	3
2	يبث الإشاعات حول رئيسه المباشر في العمل.	1.83	1.014	منخفض	8
3	يتفَوَّهَ بكلمات جارحة اتجاه رئيسه المباشر في العمل.	1.85	1.00	منخفض	7
4	يحرج بشكل علني رئيسه المباشر في العمل.	1.94	1.144	منخفض	6
5	يرفض التحدث إلى رئيسه المباشر.	2.62	1.121	معتدل	2
6	يتصرف بوقاحة اتجاه رئيسه المباشر في العمل.	1.97	1.201	منخفض	5
7	يجري إيماءات أو تعليقات بذيئة اتجاه رئيسه المباشر في العمل.	2.50	0.970	منخفض	4
8	يشتم أو يلعن رئيسه المباشر في العمل.	1.55	0.809	منخفض جداً	9
9	يدلي بتصريحات دينية، أو عنصرية أو عرقية اتجاه رئيسه المباشر في العمل.	3.30	1.439	معتدل	1
	المعدل العام	1.988	0.684	منخفض	الثالثة

يظهر من خلال الجدول (6) المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية ومستوى الإجابة والأهمية النسبية لإجابات عينة البحث اتجاه أبعاد متغير سلوك العمل المنحرف. اذ يلاحظ في هذا الجدول بالنسبة لبعد سلوك العمل المنحرف تجاه المنظمة بان الفقرة (5) الخاصة بـ (**الوصول متأخر إلى العمل بدون رخصة)** . قد حصلت على أعلى المتوسطات الحسابية فقد بلغ (3.57) وبانحراف معياري (1.265) وهذا يبين تناسق وتناغم إجابات عينة البحث اتجاه هذه الفقرة، وضمن مستوى اجابة " مرتفع ". في حين حصلت الفقرة (9) الخاصة (**التعامل بالرشوة**) على أدنى المتوسطات الحسابية بلغ (1.82) وبانحراف معياري بلغ (0.936) وهذا يبين انسجام اجابات الافراد عينة البحث وضمن مستوى اجابة " منخفض". كما يلاحظ في هذا الجدول بالنسبه لبعد سلوك العمل المنحرف تجاه زملاء العمل بان الفقرة (2) الخاصة بـ **(يتفَوَّهَ بكلمات جارحة اتجاه بعض زملاءه الآخرين في العمل).** قد حصلت

على أعلى المتوسطات الحسابية فقد بلغ (4.03) وبانحراف معياري (1.267) وهذا يبين تناسق وتناغم اجابات عينة البحث اتجاه هذه الفقرة، وضمن مستوى اجابة "مرتفع ". في حين حصلت الفقرة (7) الخاصة **(يحرج بشكل علني زملاءه الآخرين في العمل)** على ادنى المتوسطات الحسابية بلغ (2.01) وبانحراف معياري بلغ (1.336) وهذا يبين انسجام اجابات الافراد عينة البحث وضمن مستوى اجابة " منخفض" . اما بعد سلوك العمل المنحرف تجاه المشرف المباشر فيلاحظ من خلال الجدول (6) بان الفقرة (9) الخاصة بـ **(يدلي بتصريحات دينية، أو عنصرية أو عرقية اتجاه رئيسه المباشر في العمل)**. قد حصلت على أعلى المتوسطات الحسابية فقد بلغ (3.30) وبانحراف معياري (1.439) وهذا يبين تناسق وتناغم اجابات عينة البحث اتجاه هذه الفقرة، وضمن مستوى اجابة " معتدل ". في حين حصلت الفقرة (8) الخاصة **(يشتم أو يلعن رئيسه المباشر في العمل)** على أدنى المتوسطات الحسابية بلغ (1.550) وبانحراف معياري بلغ (0.809) وهذا يبين انسجام اجابات الأفراد عينة البحث وضمن مستوى اجابة " منخفض جداً" .

ووفقاً لما تقدم، فان المعدل العام لبعد سلوك العمل المنحرف تجاه المنظمة قد بلغ (2.232) بانحراف معياري عام بلغ (0.859) وقد حصل هذا البعد على مستوى اجابة " منخفض " وكانت الأهمية النسبية لهذا البعد مقارنة مع الأبعاد الأخرى لمتغير سلوك العمل المنحرف في التسلسل (الأول) , يليه بعد سلوك العمل المنحرف تجاه زملاء العمل بمعدل عام بلغ (2.078) وبانحراف معياري (0.895) , واخيراً بعد سلوك العمل المنحرف تجاه المشرف المباشر يأتي في المرتبة الثالثة وبمعدل عام (1.988) وانحراف معياري (0.686). والشكل (3) يوضح المتوسطات الحسابية لكل بعد من أبعاد سلوك العمل المنحرف .

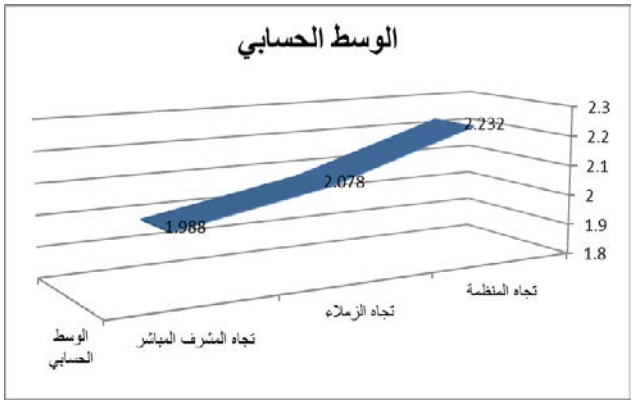

شكل (3) المتوسطات الحسابية لأبعاد سلوك العمل المنحرف.

ثانياً. اختبار الفرضيات

لغرض اختبار فرضيات البحث وبيان صحة الفرضية تم استخدام معادلة تحليل الانحدار , اذ تنص الفرضية الرئيسة بأنه: (**عندما يتصف العاملين بالالتزام التنظيمي في مكان العمل**

(التزام معياري , التزام عاطفي, التزام مستمر) فأن ذلك سيقلل من سلوك العمل المنحرف)، ويتفرع من هذه الفرضية ثلاث فرضيات فرعية وعلى النحو أدناه:

H1 : (عندما يتصف العاملين بالالتزام التنظيمي في مكان العمل (التزام معياري , التزام عاطفي, التزام مستمر) فأن ذلك سيقلل من سلوك العمل المنحرف تجاه المنظمة). وبين الجدول رقم (7) نتائج اختبار الفرضية الفرعية الأولى .

جدول(7): تأثير الالتزام التنظيمي على سلوك العمل المنحرف تجاه المنظمة **(N=100)**

المتغير المستقل الالتزام التنظيمي	F	Sig.	T	Sig.	R^2
الالتزام المعياري	4.661	0.032	2.320	0.022	0.73
الالتزام العاطفي			4.975	0.000	
الالتزام المستمر			6.403	0.000	

يلاحظ من خلال الجدول أعلاه بأنه يوجد تأثير معنوي بين الالتزام التنظيمي بأبعاده الثلاث (المعياري و العاطفي والمستمر) و سلوك العمل المنحرف تجاه المنظمة . من خلال قيمة F المحسوبة والتي بلغت (4.661) وهي اقل من قيمتها الجدوليه عند مستوى دلاله (0.05) وهذا يثبت صحة الفرضية بأنه كلما اتصف الموظفين في المعمل عينه البحث بالالتزام التنظيمي كلما قلت السلوكيات المنحرفة تجاه المنظمة ككل. وكانت قيم t معنوية وهذا يدل على انه يوجد تأثير لكل بعد من ابعاد الالتزام التنظيمي على سلوك العمل المنحرف تجاه المنظمة , وكانت القدرة التفسيرية لهذا النموذج مرتفعه والتي تبلغ (R^2 =0.73) وهذا يشير على قدرة المتغير المستقل في تفسير ما مقدارة (0.73) من الاختلافات الحاصلة في المتغير المعتمد . وبذلك تحققت صحة **الفرضية الفرعية الأولى** (H1).

H2 : (عندما يتصف العاملين بالالتزام التنظيمي في مكان العمل (التزام معياري , التزام عاطفي, التزام مستمر) فأن ذلك سيقلل من سلوك العمل المنحرف تجاه زملاء العمل) .

ويبين الجدول رقم (8) نتائج اختبار الفرضية الفرعية الثانية.

جدول (8): تأثير الالتزام التنظيمي على سلوك العمل المنحرف تجاه زملاء العمل **(N=100)**

المتغير المستقل الالتزام التنظيمي	F	Sig.	T	Sig.	R^2
الالتزام المعياري	6.58	0.011	2.348	0.020	0.68
الالتزام العاطفي			3.663	0.000	
الالتزام المستمر			4.514	0.000	

يلاحظ من خلال الجدول أعلاه بأنه يوجد تأثير معنوي بين الالتزام التنظيمي بابعادة الثلاث (المعياري و العاطفي والمستمر) و سلوك العمل المنحرف تجاه زملاء العمل. من خلال قيمة F المحسوبة والتي بلغت (6.58) وهي اقل من قيمتها الجدوليه عند مستوى دلاله (0.05) وهذا يثبت صحة الفرضية بأنه كلما اتصف الموظفين في المعمل عينه البحث بالالتزام التنظيمي كلما قلت السلوكيات المنحرفة تجاه المنظمة ككل.

وكانت قيم t معنوية وهذا يدل على انه يوجد تأثير لكل بعد من ابعاد الالتزام التنظيمي على سلوك العمل المنحرف تجاه المنظمة , وكانت القدرة التفسيرية لهذا النموذج مرتفعه والتي تبلغ (R^2 =0.68) وهذا يشير على قدرة المتغير المستقل في تفسير ما مقدارة (0.68) من الاختلافات الحاصلة في المتغير المعتمد . وبذلك تحققت **صحة الفرضية الفرعية الثانية (H2).**

H3 : (عندما يتصف العاملين بالالتزام التنظيمي في مكان العمل (التزام معياري , التزام عاطفي, التزام مستمر) فأن ذلك سيقلل من سلوك العمل المنحرف تجاه المشرف المباشر) .

ويبين الجدول رقم (9) نتائج اختبار الفرضية الفرعية الثالثة

جدول (9): تأثير الالتزام التنظيمي على سلوك العمل المنحرف تجاه المشرف المباشر **(N=100)**

المتغير المستقل الالتزام التنظيمي	**F**	**Sig.**	**T**	**Sig.**	**R^2**
الالتزام المعياري	**8.51**	**0.010**	**2.22**	**0.01**	**0.75**
الالتزام العاطفي			**2.87**	**0.034**	
الالتزام المستمر			**2.49**	**0.023**	

يلاحظ من خلال الجدول أعلاه بأنه يوجد تأثير معنوي بين الالتزام التنظيمي بابعادة الثلاث (المعياري و العاطفي والمستمر) و سلوك العمل المنحرف تجاه المنظمة . من خلال قيمة F المحسوبة والتي بلغت (8.51) وهي اقل من قيمتها الجدوليه عند مستوى دلاله (0.05) وهذا يثبت صحة الفرضية بأنه كلما اتصف الموظفين في المعمل عينه البحث بالالتزام التنظيمي كلما قلت السلوكيات المنحرفة تجاه المنظمة ككل.

وكانت قيم t معنوية وهذا يدل على انه يوجد تأثير لكل بعد من ابعاد الالتزام التنظيمي على سلوك العمل المنحرف تجاه المنظمة , وكانت القدرة التفسيرية لهذا النموذج مرتفعه والتي تبلغ

(R^2 =0.75) وهذا يشير على قدرة المتغير المستقل في تفسير ما مقدارة (0.75) من الاختلافات الحاصلة في المتغير المعتمد . وبذلك تحققت **صحة الفرضية الفرعية الثالثه (H3)** .

وبهذا فان الفرضية الرئيسة التي تنص على (**عندما يتصف العاملين بالالتزام التنظيمي في مكان العمل (التزام معياري , التزام عاطفي, التزام مستمر) فأن ذلك سيقلل من سلوك العمل المنحرف**) قد تحققت صحتها .

المحور الرابع: الاستنتاجات والتوصيات

أولاً. الاستنتاجات

1. أشارت تصورات العاملين وإدراكهم إلى ان هناك توافق بين قيمهم وقيم المعمل التي يعملون فيه , وان العاملين ليس لديهم خيارات للتفكير في ترك العمل داخل المعمل .
2. يمثل الالتزام التنظيمي بأنه سلوك ايجابي وعقلاني للعاملين من خلال ربط قيم واهداف المنظمة بقيمهم واهدافهم الشخصية .
3. ان اكثر السلوكيات المنحرفة تواجداً في معمل طابوق الديوانية هي سلوك العمل المنحرف تجاه المنظمة , اذ اكثر الظواهر انتشاراً في المعمل هي ظاهرة الوصول متأخر إلى العمل بدون رخصة وهذا ممكن ان يؤدي الى تأخير في العملية الانتاجية والتي بدورها تسبب خسائر مادية للمنظمة وان الامور المتعلقة بالرشوة والاختلاس تنخفض ممارستها داخل المعمل .
4. اظهرت نتائج قياس الاثر بين متغيري البحث بأن جميع ابعاد الالتزام التنظيمي (الالتزام المعياري, الالتزام العاطفي, الالتزام المستمر) لها دور في تقليل ممارسة سلوك العمل المنحرف داخل المنظمة وهذا يدل على ان العاملين عندما يشعرون بالمسؤولية والرغبة بالاستمرار بالمنظمة سوف يقللون من التصرفات السلبيه التي تؤذي المنظمة واعضاءها .

ثانياً. التوصيات

1. وضع استراتيجية لتفعيل وتعزيز الالتزام وتنمية مستوى الرغبة والاستعداد لدى الافراد العاملين لغرض البقاء والاستمرار في المعمل .
2. إعداد مدونة لقواعد السلوك ومعايير التصرف المهني لإرشاد تصرفات العاملين وسلوكهم وتكثيف برامج التوعية والتثقيف .
3. تقليل فرص ممارسة سلوك العمل المنحرف و وضع العوائق والمعرقلات أمام من يمارسه .

4. تحفيز العاملين مادياً ومعنوياً , وفتح المجال لهم للمشاركة وابداء اقتراحاتهم في العمل .

References

1. البقمي , سعد تراحيب غنام , (2012) , **" الالتزام التنظيمي وعلاقته بالأداء التنظيمي للعاملين بجوازات منطقه مكة المكرمة "** , رسالة ماجستير في العلوم الادارية , كليه الدراسات العليا . جامعه نايف العربية للعلوم الأمنية .

2. حمادي, احمد عباس , (2016), **" الالتزام التنظيمي ودوره في تعزيز اداء العاملين : بحث استطلاعي لآراء عينة من المدراء والعاملين في الشركة العامة لمنتوجات الالبان"** , مجلة العلوم الاقتصادية والإدارية, مجلد 22 , العدد 94, ص: 301-324.

3. العوفي , محمد بن غالب, (2005), **" الثقافة التنظيمية وعلاقتها بالالتزام التنظيمي "**, رسالة ماجستير في العلوم الادارية , كليه الدراسات العليا . جامعه نايف العربية للعلوم الأمنية .

4. Ahmed, Wasim, Kiyani, Asif Ayub & Hashmi, Shujahat Haider , (2013), "**the study on organizational cynicism, organizational injustice & breach of psychological contract as the determinants of deviant work behavior**", *новини світової науки* , Vol.140, No.(2). Pp:146-154.

5. Allen, Natalie J. Meyer, John P., (1990), **" The measurement and antecedents of affective, continuance and normative commitment to the organization"**, *Journal of Occupational Psychology*, Vol. *63,pp: 1-18* .

6. Ansari, Mohammad Esmaeel, Maleki V., Shokoofeh, & Mazraeh, Shirin, (2013), **"An Analysis of Factors Affected on Employees' Counterproductive Work Behavior: The Moderating Role of Job Burnout and Engagement"**, Journal of American Science,Vol.9,No.(1), PP:350-359.

7. Anttila, Elina, (2014), **" Components of organizational commitment – A case study consisting managers from Finnish industrial company**", Thesis for master, University of Tampere.

8. Appelbaum, Steven H., Iaconi, Giulio David & Matousek , Albert , (2007), **"Positive and negative deviant workplace behaviors: causes, impacts, and solutions"**, Emerald Group Publishing Limited , Vol.7, No. (5), PP:586-598.

9. Aube´, C., Rousseau,V.,Mama, C., & Morin , E. M., (2009**),"** **Counterproductive Behaviors and Psychological Well-being:The Moderating Effect of Task Interdependence**", J Bus Psychol, Vol.24, PP:351-361.

10. Bashir, Sajid, Nasir, Misbah, Qayyum, Saira, & Bashir, Ambreen **,** (2012), **"Dimensionality of Counterproductive Work Behaviors in**

Public Sector Organizations of Pakistan", Public Organiz Rev,Vol.12, PP:357–366 .

11. Bennett, R. J., & Robinson, S. L., (2000**), "Development of a measure of workplace CWB"**, Journal of Applied Psychology, Vol. 85,No.(3), PP: 349-360**.**

12. Berry, C. M., Carpenter, N. C., & Barratt, C. L., (2012), **"Do other-reports of counterproductive behavior provide an incremental contribution over self- report? A meta- analytic comparison"**, Journal of Applied Psychology, Vol. 97, No.(3), PP: 613– 636**.**

13. Bodankin, Moran, & Tziner, Aharon, (2009), **"Constructive Deviance, Destructive Deviance and Personality:How do they interrelate?"**, Economic Interferences, Vol.11, No.(26), PP:549-564.

14. Bowling, Nathan A. & Gruys, Melissa L., (2010**),"** **Overlooked issues in the conceptualization and measurement of counterproductive work behavior"**, Human Resource Management Review. Vol.20, Pp: 54–61**.**

15. Bukhari, Z. U. & Ali, U. (2009). **"Relationship Between Organizational Citizenship Behavior & Counterproductive Work Behavior In The Geographical Context of Pakistan".** *International Journal of Business And Management*, Vol. 4, No. 1, P.85-92.

16. Crossley, Craig, (2008), **" Emotional and behavioral reactions to social undermining: A closer look at perceived offender motives ",** Thesis for master, University of Nebraska–Lincoln.

17. Cohen, Aaron, (2007), **" Commitment before and after: An evaluation and reconceptualization of organizational commitment",** *Human Resource Management Review*, Vol. 17, Pp: 336–354.

18. Dierolf, Diplomarbeit von Angelika, (2010), "**Ostracism and Aggression Influence of increasing provocation by peers on aggressive behavior after acute experience of ostracism**" , Thesis For Master, Universitat Trier.

19. El Akremi, Assâad, Vandenberghe, Christian & Camerman, Julie, (2010), "**The role of justice and social exchange relationships in workplace deviance: Test of a mediated model ",** *human relations*, Vol., 63,No.(11), pp: 1687–1717 .

20. Ersoy, Nevra Cem, (2010), **" Organizational Citizenship Behavior and Counterproductive Work Behavior: Cross-cultural comparison between Turkey and the Netherlands",** Thesis For Master, the Erasmus University Rotterdam.

21. Fagbohungbe, B. O., Akinbode, G. A., & Ayodeji, F., (2012), **"Organizational determinants of workplace deviant behaviours: An**

empirical analysis in Nigeria" , *International Journal of Business and Management*, Vol.7,No.(5),PP: 207-221.

22. Farhadi, H., Fatimah, O., Nasir, R.& Wan Shahrazad, W. S., (2012), "**Agreeableness and Conscientiousness as Antecedents of Deviant Behavior in Workplace**", *Asian Social Science*, Vol. 8, No.(9),PP:2-7.

23. Fine, Saul, Horowitz, Ishayau, Weigler, Hanoch, & Basis, Liat, (2010), "**Is good character good enough? The effects of situational variables on the relationship between integrity and counterproductive work behaviors**", *Human Resource Management Review*,Vol.20,PP: 73–84.

24. Fox, S., Spector, P.E. & Miles, D. (2001). "***Counterproductive Work Behavior (CWB) in Response to Job Stressors and Organizational Justice: Some Mediator and Moderator Tests for Autonomy and Emotions***". Journal of Vocational Behavior, Vol. 59, P.291–309.

25. Furnham, Adrian, Taylor, John, (2004**), "The Dark Side of Behaviour at Work Understanding and avoiding employees leaving, thieving and deceiving**", Palgrave Macmillan Houndmills , United States.

26. Gualandri, Mario, (2012), "**Counterproductive Work Behaviors and Moral Disengagement**", Dissertation For Doctoral, Sapienza University of Rome.

27. Hafidz, Sarah Waheeda Muhammad, (2012),"**Individual Differences as Antecedents of Counterproductive Work Behaviour**", *Asian Social Science*, Vol. 8, No. (13) ,PP:220-226.

28. Hammond, Gregory David, (2008), **"The Relationship Between Job Attitudes and Counterproductive Work Behaviors: The Moderating Influence of Attitude Strength",** Thesis For Master, Wright State University .

29. Idiakheua, E.O, Obetoh, G.I., (2012), "**Counterproductive Work Behaviour Of Nigerians : Aninsight Into Make-Up Theory**" , *Institute of Interdisciplinary Business Research*, Vol.4,No.(7), PP:912-937.

30. Jensen, Jaclyn M., & Patel, Pankaj C., (2011), "**Predicting counterproductive work behavior from the interaction of personality traits",** *Personality and Individual Differences*, Vol. 51,PP: 466–471.

31. Jensen, Jaclyn M., Opland, Richard A., & Ryan , Ann Marie, (2010), "**Psychological Contracts and Counterproductive Work Behaviors: Employee Responses to Transactional and Relational Breach**" , *J Bus Psychol* ,Vol. 25,PP:555–568.

32. Joe-Akunne, Chiamaka O., Oguegbe, Tochukwu M., & Aguanunu, Ralph, (2014), "**Exploratory Study of Job Insecurity and Entrepreneurial Intention as Correlates of Counterproductive Work Behaviour",** *International Journal of Academic Research in Business and Social Sciences*, Vol. 4, No.(5), PP:41-52.

33. Kalinoski, Zachary T., (2012),"**Recognizing the Implicit and Explicit Aspects of Ethical Decision-Making: Schemas, Work Climates and Counterproductive Work Behaviors**", Dissertation For Doctoral, Wright State University .

34. Kanten, Pelin, & Ülker, Funda Er., (2013), "**The Effect of Organizational Climate on Counterproductive Behaviors: An Empirical Study on the Employees of Manufacturing Enterprises**" , *The Macrotheme Review*, Vol. 2,No.(4),PP:144-160.

35. Kura, Kabiru Maitama, Shamsudin, Faridahwati Mohd., & Chauhan, Ajay, (2013), "**Moderating Effect of Self-Regulatory Efficacy on the Relationship between Organizational Formal Controls and Workplace Deviance: A Proposed Framework**" , *International Journal of Academic Research in Business and Social Sciences*, Vol. 3, No.(1),PP:15-26.

36. Lanyon, Richard I., Goodstein, Leonard D., (2004), **" validity and reliability of a pre-employment screening test: The Counterproductive Behavior Index (CBI)"** *Journal of Business and Psychology, Vol. 18, No. (4), pp:533-553.*

37. MacLane, Charles N.,& Walmsley, Philip T., (2010), **"Reducing counterproductive work behavior through employee selection"** , *Human Resource Management Review*, Vol. 20,PP: 62–72 .

38. Mat, N. & Naser, N. M. (2012). "***Workplace Spirituality and Counterproductive Work Behaviour (Cwb): A Malaysian Perspective***". 3rd International Conference on Business and Economic Research, Vo. 3. P.148- 1161.

39. Meyer, J.P., & Allen, NJ. (1997). **"Commitment in the workplace: Theory, research, and application***"*. Thousand Oaks, CA: Sage**.**

40. Meyer, J. P., Stanley & Herscovitch, L., (2001), **" *Commitment in the workplace* Toward a general model",** *Human Resource Management Review*, Vol. 11, Pp: 299–326.

41. Mitchell, M. S., & Ambrose, M. L., (2007), **"Abusive supervision and workplace deviance and the moderating effects of negative reciprocity beliefs"**, *Journal of Applied Psychology*, Vol. 92,No.(4),PP: 1159-1168.

42. Muafi, (2011), "**Causes and Consequence Deviant Workplace Behavior**", *International Journal of Innovation, Management and Technology*, Vol. 2, No. (2), PP:123-126.

43. Nunnaly, J.C. & Bernstein, I.H., (1994)," **Psychometric theory**", New York: McGraw-Hill.

44. O'Reilly, Charles & Chatman, Jennifer, (1986), **" Organizational Commitment and Psychological Attachment: The Effects of Compliance, Identification, and Internalization on Prosocial Behavior",** *Journal of Applied Psychology*, Vol. 71, No.(3),PP: 492-499.

45. Ramshida, A.P, & Manikandan, DR. K., (2013), "**Organizational Commitment As A Mediator Of Counterproductive Work Behavior and Organizational Culture",** *International Journal of Social Science & Interdisciplinary Research*, Vol.2,No. (2), PP:59- 69.

46. Rimkus, Lauren K., (2012), "**A New Measure Of Counterproductive Student Behavior**", Thesis For Master, East Carolina University.

47. Rogojan, Paul-Titus, (2009), "**Deviant Workplace Behavior in Organizations: Antecedents, Influences, and Remedies**", Thesis For Master. Wlen University.

48. Ruokolainen, Mervi, (2011), **" Do Organizational and Job-Related Factors Relate to Organizational Commitment?",** ", Dissertation For Doctoral , the Faculty of Social Sciences of the University of Jyväskylä.

49. Sakurai, Kenji, (2011), "**Coworker Incivility and Incivility Targets Work Effort And counterproductive work behaviors: The Moderating Role Of Supervisor Social Support**", Dissertation For Doctoral, The Graduate College of Bowling Green State University in partial fulfillment.

50. Schnake, Mel E., (2013), "**Anti-Citizenship Behavior, Employee Deviant Behavior, Organizational Misbehavior, Dysfunctional Organizational Behavior, and Counterproductive Work Behavior: A Review, Synthesis and Research Suggestions**", Work Paper , Department of Management Valdosta State University , PP:1-14. *www.valdosta.edu/~mschnake/**Anti**OCB.doc*.

51. Shahid, Amena & Azhar, Shahid. M., (2013), **" Gaining Employee Commitment: Linking to Organizational Effectiveness",** Journal of Management Research, Vol. 5, No. 1, pp: 250- 286.

52. Stewart, Susan M., Bing, Mark N., Davison, H. Kristl, Woehr, David J., & McIntyre, Michael D., (2009), **"Research Reports In the Eyes of the Beholder: A Non-Self-Report Measure of Workplace**

Deviance", *Journal of Applied Psychology*, Vol. 94, No.(1),PP: 207–215.

53. WRIGHT, PATRICK M., GARDNER, TIMOTHY M., MOYNIHAN, LISA M. & ALLEN, MATHEW R., (2005), **" The relationship between HR practices and firm performance examining causal order",** PERSONNEL PSYCHOLOGY, Vol.58,pp: 409–446.

54. Xia, Ran, & Yu-xiao, Wang, (2010),"**The Influence of Trust on Counterproductive Work Behavior**", *Shaanxi Social Science Foundation*, PP:1-4.

ملحق (1)

الجزء الأول: بيانات شخصية ووظيفية

الجزء الثاني

الفقرات					
المركز الوظيفي الحالي	فني			أداري	
العمر	من 25 فما دون	26- 35		36 - 45	أكثر من 45
النوع الاجتماعي	ذكر			أنثى	
المؤهل التعليمي	دبلوم	بكالوريوس	دبلوم عالي	ماجستير	دكتوراه
سنوات الخدمة الوظيفية	أقل من 10 سنوات		11 – 20 سنة	21 – 30 سنة	31 فما فوق

مقاييس متغيرات الدراسة

اولاً. الالتزام التنظيمي

الفقرات					
اولاً. الالتزام المعياري	اتفق بشده	اتفق	غير متأكد	لا اتفق	لا اتفق بشده
1. هناك التزام دائم من قبلي تجاه المعمل					
2. يستحق معملي الإخلاص والالتزام من قبل المرؤوسين فيها.					
3. أن قرار ارتباطي بالعمل في المعمل يعتبر قراراً صائباً.					
4. أبذل قصارى جهدي لتحقيق أهداف المعمل.					
5. أحافظ على سمعة المعمل لدى المجتمع.					
6. أهتم بوضع ومستقبل المعمل أثناء تأدية عملي					

الفقرات					
ثانياً. الالتزام العاطفي	اتفق بشده	اتفق	غير متأكد	لا اتفق	لا اتفق بشده
1. أشعر حقاً أن مشاكل المعمل هي جزء من مشاكلي الشخصية					
2. هناك توافق بين قيمي وقيم المعمل التي أعملُ فيها					
3. هناك شعور بالعلاقة الأخوية بين زملائي في المعمل					
4. مناخ العمل في المعمل يشعرني بالراحة والاستقرار					
5. انتمائي للمعمل هي رغبة قديمة تحققت أخيراً					
6. دائماً ما أقضي أوقاتاً سعيدة في عملي داخل المعمل					

الفقرات					
ثالثاً. الالتزام المستمر	اتفق بشده	اتفق	غير متأكد	لا اتفق	لا اتفق بشده
1. هناك خيارات محدودة للغاية لان أفكر في ترك العمل داخل المعمل					
2. أرى أن جهة عملي الحالية من أفضل جهات العمل للالتحاق بها					
3. أتطلع للحصول على منصب وظيفي متميز في المعمل					
4. وجودي في عملي الحالي يمثل استثماراً وظيفياً جيداً بالنسبة لي					
5. لدي رغبة بالبقاء في عملي الحالي حتى لو توفرت فرصة بديلة أخرى					
6. لدي رغبة في بذل جهد أكبر يساهم في نجاح المعمل					

ثانياً. سلوك العمل المنحرف

سلوك العمل المنحرف تجاه المنظمة

الفقرات					
سلوك العمل المنحرف تجاه المنظمة	اسبوعياً	مرة او مرتين في الشهر	عدة مرات في السنة	مرة او مرتين في السنة	ابداً لا يمارس
بين المدى الذي يمارس فيه الموظف ..... إي من السلوكيات التالية:					
1. الأخذ من ممتلكات المصنع بدون رخصة.					
2. قضاء كثير من الوقت في التفكير بأمور لاتخص العمل.					
3. تزوير وصولات بغية الحصول على أموال أضافية تفوق نفقات العمل اللازمة.					
4. اخذ استراحة بالعمل تزيد عن الوقت المسموح به.					
5. الوصول متأخر إلى العمل بدون رخصة.					
6. أثارة الفوضى في بيئة العمل.					
7. تقصد العمل بشكل أبطأ مما يقدر عليه.					
8. مناقشة معلومات سرية تخص العمل مع أشخاص غير مخولين.					
9. التعامل بالرشوة.					
10. بذل جهود قليلة في العمل.					
11. التأخر خارج العمل للحصول على وقت إضافي.					
12. عدم الاكتراث في تنفيذ تعليمات المسؤول المباشر.					

سلوك العمل المنحرف تجاه الزملاء

الفقرات					
سلوك العمل المنحرف تجاه الزملاء	اسبوعياً	مرة او مرتين في الشهر	عدة مرات في السنة	مرة او مرتين في السنة	ابداً لا يمارس
بين المدى الذي يمارس فيه الموظف ..... إي من السلوكيات التالية:					
1. ينقص من قدر بعض زملاءه في العمل.					
2. يتفَوَّهَ بكلمات جارحة اتجاه بعض زملاءه الآخرين في العمل.					
3. يدلي بتصريحات دينية، أو عنصرية أو عرقية تجاه بعض زملاء العمل الآخرين.					
4. يشتم أو يلعن بعض زملاءه في العمل.					
5. يمارس الخدع والحيل اتجاه بعض زملاءه في العمل.					
6. يتصرف بوقاحة وفظاظة اتجاه زملاءه الآخرين في العمل.					
7. يحرج بشكل علني زملاءه الآخرين في العمل.					

سلوك العمل المنحرف تجاه المشرف المباشر

الفقرات					
سلوك العمل المنحرف تجاه المشرف المباشر	اسبوعياً	مرة أو مرتين في الشهر	عدة مرات في السنة	مرة أو مرتين في السنة	أبداً لا يمارس
بين المدى الذي يمارس فيه الموظف ..... إي من السلوكيات التالية اتجاهك:					
1. ينقص من قدر رئيسه المباشر في العمل.					
2. يبث الإشاعات حول رئيسه المباشر في العمل.					
3. يتفَوَهَ بكلمات جارحة اتجاه رئيسه المباشر في العمل.					
4. يحرج بشكل علني رئيسه المباشر في العمل.					
5. يرفض التحدث إلى رئيسه المباشر.					
6. يتصرف بوقاحة اتجاه رئيسه المباشر في العمل.					
7. يجري إيماءات أو تعليقات بذيئة اتجاه رئيسه المباشر في العمل.					
8. يشتم أو يلعن رئيسه المباشر في العمل.					
9. يدلي بتصريحات دينية، أو عنصرية أو عرقية تجاه رئيسه المباشر في العمل.					

تعزيز قابلية المؤسسات المالية والمصرفية في مواجهة الأزمات المالية "دراسة على وفق المنهج الاقتصادي الإسلامي"

الدكتور صدّام فيصل كوكز المحمدي
أستاذ القانون الخاص في كلية القانون بجامعة الفلوجة

الملخص

إنّ الوقوف على الأسباب الجذرية للأزمات المالية المتكررة التي تصاب بها قطاعات المصارف والمؤسسات المالية، يتم أساسا من خلال التحقق من الأسس الفلسفية والوظيفية للنظام الإقتصادي الرأسمالي وقواعده، وإستعراض المفاصل الأساسية التي تبنى عليها الأفكار والمبادئ الإقتصادية الرأسمالية، التي تبرز بوضوح قيمة وجود هذه الأزمات في النموذج الحالي للنظام الإقتصادي القائم، ومناقشتها في ضوء الفلسفة الإقتصادية للنظام الإقتصادي الإسلامي، هو ما يقودنا إلى التوصل إلى حل عقدة هذه الأزمات ومعرفة أصولها الجذرية، ويقدم لنا في ذات الوقت معالجات ناجحة لما يمكن أن تؤول إليه هذه الأزمات من عواقب وخيمة على النظام المصرفي والمالي في الدول ذات الإقتصاديات التي تتبع نهج ومبادئ الإقتصاد الرأسمالي، سواء على مستوى الأزمات المحلية أو حتى على مستوى الأزمات العالمية.

كلمات البحث المفتاحية :

الأزمة المالية – المشتقات المالية – الإقتصاد الإسلامي – الأسواق المالية – النظام الإقتصادي الإسلامي – الإقتصاد الحقيقي.

المقدمة

ما فتأت الأزمات المالية تتوالى في عالمنا الاقتصادي المعاصر تصيب بآثارها الوخيمة المؤسسات المالية والمصرفية بشدة، وباتت تعصف بإقتصاديات دول لم تكن توصف في فترات سابقة، إلّا بأنها دول ذات أنظمة إقتصادية متينة وقوية تدعي أنها تقوم على أسس رصينة فكرياً وعقلانياً، بل لم تكن بعض الدول مثل الولايات المتحدة الأمريكية ترى نفسها إلّا أنها الدولة القائدة والرائدة في العالم، حيث أنها الإقتصاد الاكبر في العالم الذي يملك قطاعا مصرفيا وماليا ضخما يعدّ المحور الذي تدور حوله وتعتمد عليه إقتصاديات دول أخرى، ولكن المفاجئة التي أذهلت الجميع، خصوصاً بعد الأزمة المالية العالمية التي عانى العالم بأجمعه من أوارها المستعر في عام 2008 م، حيث بدأت شرارتها من تراكم العديد من المغالطات وتشبع النظام الإقتصادي الرأسمالي

بالشوائب، الكبيرة منها والصغيرة، إلى الحد الذي أوشكت فيه إقتصاديات تلك الدول على الانهيار أو كادت، وبدأنا نشهد في هذه الاقتصاديات أزمات متتابعة، وإن إختلفت أنواعها إلّا أن أسبابها تكاد تكون واحدة، فتارة يدخل العالم الرأسمالي بأزمة كساد كبرى، ثم يدخل بعدها في أزمة تمويل ليجد نفسه مرة أخرى أمام تضخم غير مسبوق، تصحبه بطالة بمستويات مرتفعة ثم ليدخل العالم بعدها بأزمة ائتمان ونقص في السيولة، لتكون مدعاة لإشهار إفلاس العديد من المؤسسات المالية والمصرفية وشركات التأمين وشركات الاستثمار المالية العالمية، أو على الأقل وضعها تحت نظام وصاية من البنوك المركزية، وذلك في ظل أزمة لم يشهد لها العالم مثيلاً في القوة والآثار والمدى الجغرافي والإقليمي، وهي أزمة إستدعت لتلافي آثارها الوخيمة اللجوء إلى معالجات لم تزد جروحها إلّا عمقاً، ولم تفد في تجاوز آثارها كثيراً بقدر ما زادت في الطين بله، في الوقت الذي كانت فيه هذه المؤسسات المالية والمصرفية والكيانات الإقتصادية توصف وتصف نفسها " بأنها أكبر من أن تفلس "، وهذا الواقع الجديد الذي أدرك حقيقته الكثيرون، ممن أقروا بأنّ أساس الأزمات يكمن في النظام الاقتصادي الرأسمالي نفسه، وهو مرتبط بأسس ومبادئ هذا النظام، لأنها في الأصل مغلوطة ولا تستند إلى أسس فلسفية متينة.

وليس هناك من وقت أفضل وأحسن من هذا الوقت– الذي يمر فيه الفكر الإقتصادي الرأسمالي ومناصروه بأزمة خانقة – لطرح إشكاليات الإقتصاد الرأسمالي بقطاعيه الابرز المتمثلين بالقطاع المالي والقطاع المصرفي، وتبني الحلول الجذرية للأزمات ومعالجتها بحلول نابعة من منظور الإقتصاد الإسلامي، وما هذه الدراسة إلّا جهداً نبتغي فيه تعزيز هذه الرؤية ونزيد من زخمها، خصوصاً وإنّ الجميع قد أدركوا حقيقة مفادها؛ أن الحل يجب أن يخرج عن أسس ومفاهيم النظريات الإقتصادية الرأسمالية، لأنّ البقاء في قوقعتها لا يخرجهم من الأزمة بقدر ما يزيدها تعقيداً.

و على ذلك فقد دأبت الدراسة إلى إبراز الأفكار وتسهيل عرضها وتناولها ضمن إطار خطة علمية واضحة، تقسم فيها البحث إلى مبحثين، تناول أولهما المنهج الاقتصادي الإسلامي في معالجة الاختلالات الموجودة في النظام الرأسمالي، وقد قسمناه إلى مطالب ثلاث، تناولنا في أولها التأصيل التأريخي للأزمات المالية في النظم الإقتصادية الرأسمالية لبيان ملامح المبنى الفلسفي للاقتصاد الإسلامي، أما الثالث فأفردناه للبحث في التنظيم الخاطئ لهيكل شركات التمويل والمؤسسات المالية والمصرفية، بينما خصصنا المبحث الثاني للتعرّف على الاطار العام لضبط عمليات التمويل وفق منهج الاقتصاد الإسلامي، وقسمناه إلى مطالب ثلاث أيضا، بينا في الاول

منها المنهج الاقتصادي الإسلامي في معالجة الاختلالات الوظيفية في النظام الرأسمالي، واستعرضنا في الثاني الملامح الاساسية للتمويل المالي الإسلامي، وأوضحنا في المطلب الثالث منهج التمويل المالي الإسلامي في اطار الاثار المترتبة على الأزمة المالية.

وقد إختتمنا البحث بخاتمة تتضمن خلاصة مركّزة لما توصلنا إليه من أفكار، وددنا أن نسلّط الضوء عليها بغية إبرازها والتأكيد عليها.

المبحث الأول

المنهج الاقتصادي الإسلامي في معالجة الاختلالات الموجودة في النظام الرأسمالي

إنّ التعرّف على المنهج الاقتصادي الإسلامي الواجب اتباعه في سبيل معالجة الاختلالات الموجود في بنية النظام الاقتصادي الرأسمالي، يقتضي منا بيان التأصيل التأريخي للازمات المالية التي أصابت النظام الاقتصادي الرأسمالي، واستعراض أهم الملامح التي تبنى عليها فلسفة الاقتصاد الإسلامي، وبيان ماهية التنظيم الخاطئ لشركات التمويل والمؤسسات المالية والمصرفية في النظام الاقتصادي الرأسمالي، وذلك ما سنبينه في ثلاثة مطالب كالآتي:

المطلب الأول

التأصيل التأريخي للأزمات المالية في النظم الإقتصادية الرأسمالية

إنّ من أهم الخصائص التي تشترك بها الإقتصادات الرأسمالية المعاصرة في جميع أنحاء العالم، هي إنهيار الأسواق المالية، بدءاً من إنهيار الأسواق المالية عام 1901 وخلال الكساد الكبير من عام 1929 وحتى 1934 إلى أزمة الأثنين الأسود عام 1987، والأزمة المالية الاسيوية عام 1997 وإنتهاءً بتسونامي الأزمات المالية الكبير المتمثل بالأزمة المالية العالمية، التي وصلت ذروتها في عام 2008 ولا نزال نشهد آثارها حتى يومنا هذا [1]، وعلى مستوى دول العالم كافة.[2]

والأزمة المالية الاخيرة التي شهدها الإقتصاد الأمريكي خصوصاً والإقتصاد العالمي عموماً عام 2008، والتي تعد تسونامي كبير أحدث أكبر أزمة ائتمان في القرن الحادي والعشرين، [3] حيث جعلت هذه الأزمة الكثير من المتخصصين والناس على حد سواء يشككون في النظام الرأسمالي وإقتصاد السوق وظهرت الكثير من السلبيات حول إقتصاد الولايات المتحدة الأمريكية على اعتبارها زعيمة النظام الرأسمالي العالمي، بحيث بدأت توصف بأنها الرجل المريض في العالم المعاصر[4]، خصوصاً وإنّ كل أزمة تحدث في أي إقتصاد نادراً ما تمر دون أن تلحق اضراراً وخيمة بالإقتصاد بشكل كبير [5].

و وفقاً لتقارير صندوق النقد الدولي، فإنّ العالم شهد أكثر من 100 أزمة سوق أسهم في السنوات الثلاثين الماضية فقط، ومع ذلك فإنّ المساعي الكبيرة التي يبذلها الاكاديميون وواضعوا السياسات والباحثين من الذين لا يزالون في عملية تقصّي وبحث دؤوب للكشف عن أسباب هذه الأزمات والكوارث، وأبرز دليل على ذلك، هو أنّه بعدما يقرب من ثلاث عقود لم يستطيعوا أن يقدموا إجابة شافية مدعومة بحجج قوية يفسرون فيها أسباب إنهيار أسواق الأسهم عام 1987، حيث تشير الدراسات المتخصصة إلى أن جميع الجهود سواء على المستوى الأكاديمي الوطني أو الدولي أو على مستوى القمم والمؤتمرات الدولية، سواء قمة الدول الثمان G8 أو قمم الدول العشرين G20، حيث لم تشخص بصورة كفؤة الأسباب الجذرية لتلك الأزمة، في حين قدمت أسباباً ظاهرية لا تعدو عن كونها توقعات غير مدعومة بالواقع الذي تضاعفت فيه مشاكل البلدان وتدهورت إقتصاداتها، ودخلت في فترات ركود إقتصادي طويل الأمد، صحبتها قصص معاناة انسانية قوية، نتيجة فقدان الكثير من الناس لوظائفهم وإنتفاء أسباب رفاهيتهم وتدهور أحوالهم المعاشية مما دفع الكثيرين إلى الاقدام حتى على الانتحار.

صحيح أنّ العالم قد تعرض إلى هزات إقتصادية وأزمات مالية كبيرة إلّاَ أنّ أعمقها وأشدها تأثيرا هي الأزمة التي يمر بها العالم عام 2008، وحيث كانت هذه الأزمة أسوء أزمة مالية منذ الكساد الكبير عام 1929 [6]، وقد هزت الأزمة أكبر البنوك في البلدان الصناعية، وأجبرت البنوك المركزية ومنها البنك المركزي الفدرالي الأمريكي على إبتكار أساليب جديدة للتدخل من أجل إعادة النظام المالي إلى العمل مرة أخرى، وبحق فقد أظهرت للعالم هذه الأزمة للعالم بأنّ الولايات المتحدة يمكن أن تنهار إقتصادياً – وهو ما يؤدي إلى تعزيز إحتمالية عدم بقائها كدولة عظمى – وقد إحتاجت إلى موقف مساند من قبل دول وعواصم أخرى في آسيا ومنها الدول المنتجة للنفط، وكشفت الولايات المتحدة الأمريكية من خلال هذه الأزمة أنها أسيرة الأزمات المالية التي تتلخص أسبابها بما يأتي :

1–تركيز الإهتمام على سوق الرهون العقارية الأمريكية. [7]

2– إنتشار الأزمة تدريجياً في كل الأسواق المالية من خلال تداول المشتقات المالية الناتجة عن توريق الديون العقارية.

3–توريق القروض المصرفية وتخصيص الاعتمادات.

4-الإفراط في منح الحوافز الخاصة بالديون الخطرة، أي منح مكافئات إضافية للدائنين، لتغطية المخاطر المصاحبة لتوريق الديون، مما ينعكس في زيادة إحتمالات الفشل وحاجة كبيرة إلى تغطية المخاطر.

5-إنعدام الشفافية المرتبطة بتكاثر الوساطة بين المقرضين والمقترضين أثارت بسرعة أزمة ثقة بين المتعاملين.

6-توجيه الاستثمار نحو الأصول الإسمية ووضع الأصول الحقيقية نحو القمية السوقية.

7-لجوء البنوك إلى الإستدانة لتعزيز تمويلها، واللجوء إلى شركات وسيطة لتمرير هذه الأنظمة باستثناء بعض الأصول من توازنها.[8]

8-قيام بعض المؤسسات المالية والمصارف بإعادة تعيين النسب الاحتياطية، ببيع جزء من أصولها الحقيقية وزيادة رؤوس أموالها.

9-الترابط بين المستثمرين والمؤسسات المالية عبر العالم نتيجة توريق الديون التي أسفرت عن سهولة وصول المستثمرين إلى أسواق العقارات الأمريكية.

10- إعادة تقيم المخاطر السعرية نتيجة النقص في أسعار الأصول الحقيقية، ونتيجة تناقص الطلب على هذه السندات في أسواق الأسهم الأوربية، في الوقت الذي كانت فيه الأرباح مرتبطة بالحذر من قبل المستثمرين، فإنّ هذا الحذر أدى إلى العودة إلى أسواق السندات العامة، لأنّ المستثمرين يفضلون الاستثمار في السندات العامة لأنها أكثر أمناً، فقد قامت البنوك بصعوبة في ضمان توازن أرصدتها من خلال إعادة التمويل للعمليات بين البنوك والعمليات مع البنك المركزي، عن طريق زيادة كميات الأموال المقرضة للبنوك وخفض الفائدة الرئيسة وتحديد أسعارها، أو إتخاذ الاجرائين في وقت واحد، وهو ما أدى إلى استقرار نسبي بعد عام 2008، ولكن ذلك لم يدم طويلا، لاسيما بعد إنهيار بنك ليمان بروذرز،[9] وإفلاسه وسيادة حالة من النفور من المخاطر التي تنطوي على مؤثرات جديدة في أسواق الأسهم بين البنوك والاسواق. [10]

و تشير بعض الدراسات إلى أن الأزمة المالية الحالية هي مزيج بين ثلاثة أزمات متراكمة ومترابطة من حيث الطبيعة ولكنها منفصلة من حيث الخصائص والفترة الزمنية، وهي :

1-السيولة النقدية.

2-الأزمة المالية.

3-أزمة الرأسمالية.

و ما يفسر خطورة الوضع الحالي، هو أنّ هذا المزيج نادر الحصول للغاية، ولا يمكن مقارنته مع أزمة 1929، وأنّ هذه الأزمات لا تتطور على وتيرة واحدة، وفيها تداعيات وإيقاعات مختلفة، لكنها مع ذلك تترابط بإحكام لتحقق في النهاية أزمة في السيولة، ومن الغريب في واقع الحال أنّ هذه الأزمات الثلاث قد وضعت نفسها في لحظة واحدة من التأريخ في موقف تحدي للهيمنة الأمريكية، وجعلت مجمل إقتصاديات الدول الرأسمالية في أنحاء العالم المختلفة مشكوك فيها في وقت واحد، وأدّت الأزمة إلى سيادة الشعور بأنّه لا يمكن الإدعاء بأنّ السلطة والقوة الإقتصادية الكبيرة التي تصوّرها وتسوّق لها دائماً، تمكنها من الهيمنة على نماذج التنمية الناشئة في دول العالم المختلفة، مما يعني أن هذه الأزمات أصبحت فرص مناسبة لابدّ منها لإعادة التقييم لإستراتيجيات التكامل الإقتصادي العالمي. [11]

و ذلك فيما عدا اللوائح التنظيمية والتي تمّ من خلالها التخفيف من حدة آثار هذه الأزمة، عن طريق ضخ السيولة إلى السوق وتبني تدابير خاصة بأسعار الفائدة وشراء الأصول المتعثرة من خلال التأميم أو عمليات الانقاذ. [12]

المطلب الثاني

ملامح المبنى الفلسفي للإقتصاد الإسلامي

إنتشرت في العالم الإسلامي على مدى العقود الثلاث الاخيرة المصارف الإسلامية والمؤسسات المالية الإسلامية، وتدل المؤشرات الى أن قاعدة هذه المؤسسات التي تستند إلى الأصول الحقيقية سوف تستمر بالنمو، ولما كانت ممارسات البنوك الإسلامية والعلميات المصرفية الإسلامية متوافقة مع مبادئ الشريعة الإسلامية، [13] فإنّه عندما يتم إنشاؤها في الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً، سيعني ذلك بأنّ على المؤسسات المالية الإسلامية خلق روابط جديدة مع الجهات الرقابية التي تمارس أنشطتها على المصارف والعملاء. وهو ما يتطلّب ذلك تطوير الممارسات المالية الإسلامية على مستوى الفكر والعمليات المالية والممارسات المالية بشكل عام.

وتجدر الإشارة الى أنّ التدابير التي اتخذتها الدول السبعة G7 وقادة الدول العشرين G20 لمواجهة الأزمة المالية العالمية والقرارات التي تمثل عودة الى السياسات الحمائية وتصميم المنهجية أو النهج المقترح في ادخال نظام إقتصادي جديد يعمل على أساس مبادئ الشريعة الإسلامية التي تدعو إلى الغاء الفوائد، قد يحل جزء من المشاكل خاصة بتلك المرتبطة بالمضاربات قصيرة الامد وتحقيق الربح السريع، قد يضع هذه الأزمة في خط نهايتها.[14]

وفي الآونة الأخيرة شهدت ممارسات التمويل المعتمدة على مبادئ الإقتصاد الإسلامي – بما في ذلك العمليات المصرفية الإسلامية – تقدماً كبيرا، ولكن السؤال الذي يجب أن تواجه به هذه المؤسسات هو، هل أنها تستطيع التغلب على مشاكل التنمية التي تواجه البلدان مستقبلا ؟ والاجابة على هذا التساؤل بالإيجاب تعني أنّه لابدّ من تعزيز كافة العناصر الداعمة والمساعدة في تسريع التقدم في هيكليات ونظم الإقتصاد الإسلامي عموماً والعمليات المصرفية الإسلامية على وجه الخصوص.

وتشير بعض الدراسات الحديثة [15] إلى أنّه ليس من الممكن إبتداع هيكل جديد للمعالجات دون تحديد السبب الرئيس المباشر للأزمة، والسبب الذي يعتبره الجميع من أبرز أسباب الأزمات المالية عموماً، ألا وهو الإفراط في سياسات الإقراض والإستدانة ومنح الإئتمان لدى البنوك بصورة غير صحيحة، وهناك ثلاث عوامل تغذي هذه الممارسات هي:

العامل الاول هو عدم إنضباط السوق داخل النظام المالي الناجم عن عدم المشاركة في الربح والخسارة،

وأما العامل الثاني فهو التوسع المذهل في حجم المشتقات وأنواعها، لاسيما تلك الناشئة عن مقايضة العجز عن سداد الإئتمان.

ويتمثل العامل الثالث في إنتشار نظرة واهمة نحو بعض المؤسسات المالية والمصرفية من أنها " أكبر من أن تفلس، وهو الأمر الذي إعتمدت عليه كثير من البنوك على إعتبار أنّه يميل إلى إعطاء البنوك الكبيرة نوع من الأمان على أن البنوك المركزية ستأتي بالتأكيد لنجدتهم وإنتشالهم من الأزمة وعدم السماح لهم بالفشل. [16]

وفي نفس السياق [17] لابدّ من الإشارة إلى أنّ نظم المصرفية الإسلامية تختلف عن البنوك التقليدية، لأنّ الفائدة والربا محظورين أصلا في الشريعة الإسلامية، كما أن إعتماد المصرفية الإسلامية بشكل فريد على مبدأ تقاسم الأرباح والخسائر، يلغي أساساً مبدأ المضاربة، وهنا تؤسس فكرة المشاركة في تحمّل المخاطر، وذلك من خلال الإعتراف بمبدأ المشروع المشترك من حيث مفاهيم التعاقد الإسلامي، [18] تحت نموذج تقاسم الأرباح، وبالتالي تتكامل موجودات ومطلوبات البنوك الإسلامية والمقترضين، بحيث يتقاسمون الأرباح والخسائر، وما يمكن أن ينجم عن منح القروض والإئتمان من آثار.

وهنا يذهب البعض إلى أن البنوك الإسلامية من هذه الناحية، في وضع أفضل من البنوك التقليدية، وأكثر قدرة على إمتصاص الصدمات الخارجية، لأنه سيتم إمتصاص خسائر التمويل

جزئياً من قبل المودعين، [19] وبالمثل فإنّ ميزة تقاسم المخاطر التي تعتمدها البنوك الإسلامية في الإقراض على أساس المدى الطويل للمشاريع مع لمحات المخاطر والفوائد، وبالتالي تعزيز النمو الإقتصادي، [20] كما أن البنوك الإسلامية هي إلى حد ما كفؤة في إدارة المخاطر، حيث أن تقدير المخاطر وتقييمها وتحليلها هي المتغيرات الأكثر تأثيراً في ممارسات إدارة المخاطر.

يتضح لنا من العرض المتقدم أن النهج الإسلامي الخاص بتنظيم الإحتياجات المالية المختلفة، لا يتسق مع النظام الإقتصادي الرأسمالي التقليدي الذي يعترف بالنظام المالي الظاهري أو الإسمي الذي هو مختلف عن الإقتصاد الحقيقي، ويشمل النموذج التقليدي من النظام الإقتصادي الرأسمالي، والنظام المصرفي الربوي في الأسواق المالية ذات التبادل غير المقيد للملكية، مستوى وحدة العملة ممثلة بالدولار والتشكل التنظيمي الحالي لهياكل الشركات... الخ.

وحيث أنّ الأولوية القصوى للنظام الإقتصادي الإسلامي هي تلبية الإحتياجات الأساسية الناس، بغض النظر عن العقيدة، فقد بني النظام الإقتصادي على أساس لا شك فيه من قواعد أصول التشريع المقررة في الشريعة الخالدة التي أصلها القرآن الكريم والسنة المطهرة، كالتيسير ودفع الحرج عن الناس، وهذا الأصل مقصود به دوام الشريعة وإستمرار إقامة أحكامها ؛ لأنّ الشريعة الحاكمة على أفعال المكلّفين، والمشتملة على السعادة الحقة في العاجلة والآجلة، وضعت أصولها على أساس العدل الوسط، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ }[21]. وقال تعالى : { وما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ }[22]. وقال تعالى : { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ }[23]. وقال تعالى : { يُرِيدُ اللَّهُ أن يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا }[24]. وقد وصف الله رسوله صلى الله عليه وسلم. بما أتى به من أحكام لأمته { وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ }[25]. وبذلك سمّى رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم الشريعةَ التي أُرسل بها "بالشريعة السمحة".

ويجدر بنا في هذا المقام أن نشير إلى ما أورده الإمام بن القيم الجوزية رحمة الله عليه إذ يقول تحت عنوان "بناء الشريعة على مصالح العباد في المعاش والمعاد" ما نصه :

" هذا فصل عظيم النفع جداً، وقع بسبب الجهل به غلطٌ عظيم على الشريعة، أوجب من الحرج والمشقة وتكليف ما لا سبيل إليه ما يعلم أن الشريعة الباهرة التي هي أعلى رتب المصالح لا تأتي به، فإنّ الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإنّ

أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله صلى الله عليه وسلم ".[26]

ويتبين لنا مما تقدم أن ما يركز الإسلام تلبية احتياجات الناس الأساسية من مأكل وملبس ومأوى، وليس على زيادة الناتج المحلي الإجمالي، وما يحمله من مغالطات الرفاهية الإقتصادية، التي يستند إليها منظّروا النظام الإقتصادي الرأسمالي.

لذلك فإننا عندما نسلّط الضوء على الأزمات التي يمر بها عالمنا اليوم، نجد أزمات بدأت نتيجة إزدواج المعاملات الإسمية مع المعاملات الحقيقية، بوسائل قانونية تؤدي إلى أزمات ذات آثار مالية وخيمة، ومعالجتها يتطلب استبدال الآليات القائمة على المصالح الوقتية والمضاربة في المعاملات الإسمية، ودعم المعاملات الحقيقية، وأهم تلك الوسائل حضر توريق الأصول الإسمية والذي يقوم على نقل المخاطر بدلاً من تقاسم تبعتها، لأنّ الأثر السلبي لأيّة أزمة سيكون متناسباً مع الفجوة بين الإقتصاد الإسمي والإقتصاد الحقيقي، والآليات القانونية التي تحكم توزيع المخاطر، لذلك فإنّ أنصار التمويل الإسلامي الذي يقوم على مبدأ تقاسم المخاطر بدلاً من نقلها، يُبدون مرونة في الإستجابة لمتطلبات القطاع المالي الإسمي بالمقارنة مع الإقتصاد الحقيقي خلال الأزمة المالية العالمية GFC، لذلك برزت – بعد الأزمة المالية العالمية – العديد من الدراسات والأبحاث التي تهدف إلى تحديد أسباب وأصول هذه الأزمة وبيان أسبابها، بأنها تتراوح بين تراكم الإختلالات الإقتصادية الضخمة على مستوى العالم وتخمة الإدخار وفقدان السياسات النقدية الواضحة، على نحو غير منتظم للقطاع المالي.

المطلب الثالث

التنظيم الخاطئ لهيكل شركات التمويل والمؤسسات المالية والمصرفية في النظام الرأسمالي

لابدّ في النموذج الإقتصادي الرأسمالي من وضع هيكل " مغلوط" للشركة للمساعدة في تحقيق الربح الذي هو الغاية الأساسية من إنشائها، وهو منظور يتصف بالجشع حسب تعبير بعض الكتاب[27]، ففي الدول الرأسمالية يتم إنشاء أغلب أنواع الشركات بإعتبارها شخص معنوي يحكمه القانون ،[28] وبالتالي فإنها ستسعى لتحقيق الهدف المنشود من إنشائها[29] والذي يمكن تحقيقه من قبل المعنيين بإدارتها.

ويلزم المشرع العراقي مثلا بأنّه لا بدّ أن يتخذ المصرف شكل شركة، فقد نصّ قانون المصارف العراقية رقم 94 لسنة 2004 المعدل، في المادة الأولى إلى إنّ كلمة مصرف تعني

"شخصاً يحمل ترخيصاً أو تصريحاً بمقتضى هذا القانون لمباشرة الأعمال المصرفية والأنشطة المصرفية الأخرى".

فالمصارف بموجب قانون الشركات العراقي رقم 21 لسنة 1997 قبل التعديل بالأمر رقم 64 لسنة 2004، إستناداً إلى نص المادة العاشرة /ثانياً يجب أن تتخذ شكل شركة مساهمة حيث تنص هذه المادة، بأنّه يجب أن يتخذ شكل شركة مساهمة من يمارس أي من الأعمال الاتية:

1.المصارف.
2.التأمين وإعادة التأمين.
3. الإستثمار المالي.

إلّا أنّه تمّ ازالة المصارف من النص المذكور سالفاً بالأمر رقم 64 لسنة 2004 المعدِل لقانون الشركات العراقي رقم 21 لسنة 1997 فلم يشترط هذا القانون بعد هذا التعديل إنّ يتخذ المصرف شكل شركة مساهمة بعد رفع المصارف من النص المذكور، واصبح من الممكن تأسيس مصرف في العراق يتخذ شكل أي من أنواع الشركات سواء كانت شركة مساهمة أو غير مساهمة.

وفي قانون المصارف العراقية سمح المشرّع العراقي بإمكانية تأسيس المصرف بإتخاذه شكل شركة عامة بموجب قانون الشركات العامة رقم 22 لسنة 1997، أو شركة خاصة بموجب قانون الشركات رقم 21 لسنة 1997 المعدل النافذ، وبالتالي فإنّ إمكانية تأسيس مصرف من قبل أي نوع من أنواع الشركات، حتى لو كانت شركة أموال أو أشخاص أو شركة شخص واحد محدودة المسؤولية، وكذلك إمكانية تأسيس مصرف من قبل أشخاص أجنبية وفقا لنص المادة 12 المعدلة من قانون المصارف العراقية سابقة الذكر.

و يحدث في الأسواق المالية تداول الأسهم العائدة للشركة بين المشترين والباعة، الذين لا يعرف أحدهم الاخر وقد لا يراه أصلا، وكذلك الوسيط الذي يتدخل في عملية البيع والشراء والذي هو صانع الربح، لأنه يمتلك القدرة على التلاعب بأسعار الأسهم، ومن خلال السماح بشراء وبيع حصة في ملكية الشركات بدون عرض رسمي بدواعي تعزيز السيولة، فإنّ هذا الأمر يخلق المضاربة في الواقع، ويقود إلى مضاربات لاحقة أوسع [30]، لأنّ المستثمر غير ملزم بالحفاظ على الأوراق المالية، وإنما هو يحاول الاستفادة من تداول هذه الأوراق من خلال المضاربة وتحقيق الربح السريع وتوالي المضاربات على الأسهم تقود إلى تقلب أسواق الأسهم.

وعلاوة على ذلك، فإنّ القانون يسمح بإنشاء الشركات ذات المسؤولية المحدودة، فإذا ما تعثرت الشركة عن سداد ديونها أو لم تقم بالوفاء بإلتزاماتها، فلا يكون أمام الدائنين إلّا الشركة فقط، ولا يمكنهم المطالبة إلّا بحدود رأس المال الخاص بها، الذي هو الضمان العام لدائنيها، ولا يمكنهم مطالبة الشركاء بوفاء الديون من موجودات ذممهم المالية، لأنّ هذه الموجودات خارج نطاق الضمان العام للشركة، فمسؤوليتهم تقتصر في حدود حصتهم أو الأسهم التي يشاركون بها أو يمتلكونها في رأسمال الشركة [31].

لذلك فإنّ نظام الهيكل المؤسسي في النظام الإقتصادي الرأسمالي، للشركة يسمح بطبيعته أن يتخذ المسؤولين فيها أي قرار بغض النظر عن مستوى الخطر المتوقع فقط، لضمان تعاظم الأرباح، لأنّ المستوى النهائي لمسؤولية الشركة يتحدد بحجم رأسمالها، وكذلك يسمح القانون في حالة الإفلاس رفض مطالبة الدائنين بالوفاء فوق مستوى معين، ولنا أن نتخيل الفوائد التي تجنيها الشركات "الجشعة" من هذه المسؤولية المحدودة، في حين أن هذا الأمر لا يمكن تطبيقه في حالة المسؤولية الخاصة بالأشخاص القانونية الطبيعية، لأنّ أموال الشخص جميعها ضامنة للوفاء بديونه.[32]

و من وجهة نظر إسلامية، فإنّ هذا النظام المؤسسي لهيكل الشركة غير صالح، فالإسلام لا يعترف بشرعية تداول الملكية أو الديون عن طريق إصدار أوراق مالية، ويرجع ذلك إلى عدة جوانب أهمها :

أ– الأوراق المالية كعقد يتناقض مع القواعد الإسلامية المقررة في تنظيم العقود، لأنه في هذا النظام يمكن تبادل الملكية بسرعة كبيرة، دون الحاجة إلى مجلس العقد، ويكون التعارف عن طريق رسمي يتمثل بإيجاب وقبول، والغرض منها خلق السيولة في السوق.[33]

و حقيقة الأمر فإنه في ظل النظام الرأسمالي يسمح السوق بالتداول غير المقيد لشهادات الملكية وشهادات الدين لتعزيز السيولة، ولكن ذلك أدى إلى خلق أزمة إئتمان، الأمر الذي ينشئ أسباباً لتقلبات السوق وعدم الإستقرار الإقتصادي، بل ويسمح القانون في النظام الرأسمالي، أن يفرض ولو شخص واحد إرادته على بقية الشركاء، لمجرّد أنّه يملك أكثرية الأسهم في الشركة، وهذا الأمر لا نجده في الإسلام، حيث يقول تعالى " وَأَشْهِدُوا إذا تَبَايَعْتُمْ..."[34] ويقول تعالى أيضاً " ياَ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أموالكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إلّا أن تكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ۚ أن اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا" [35]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (البيع عن تراض، والخيار بعد الصفقة، ولا يحل لمسلم أن يغش مسلماً) "[36]، ومن تمام التراضي إثبات خيار المجلس

كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (البيِّعان بالخيار ما لم يتفرقا)،[37] وهذا التنظيم الإسلامي لا يعترف بالبيع عندما لا تجري الحيازة المادية على المبيع، لقوله صلى الله عليه وسلّم " لا تبع ما ليس عندك ". [38]

ب- أن الإسلام لا يعترف بالمسؤولية المحدودة للشركات وحتى في شركة " الوجوه "، فينبغي أن يُعلم أن المراد بالثقة التي تقوم عليها شركة الوجوه، هي الثقة المالية وهي الثقة بالسداد وليس الجاه والوجاهة، لأنّ الثقة إذا أُطلِقَت في موضوع التجارة والشركة ونحو ذلك فإنّماً يُقصد منها الثقة بالسداد، وهي الثقة المالية، وعلى ذلك فإنه يمكن أن يكون الشخص وجيهاً ولكنه غير موثوق بالسداد، فلا توجد فيه ثقة مالية ولا يعتبر أن لديه ثقة معتبرة في موضوع التجارة والشراكة، وسبب ذلك هو أنّه لا يوجد في النظام الإقتصادي الإسلامي وجود للشركات المحدودة، وعليه لما كان ضمان تنفيذ الأعمال التجارية في الإسلام غير مقيد بحدود معينة، فإنه من الطبيعي أن يقل النمو المفاجئ لأرباح الشركات، فضلاً عن تقليل إحتمالية الإنهيار المفاجئ للشركات، وتعريضها للإفلاس.

و لما كانت حالات إشهار الإفلاس قد كثرت إثر تفاقم الأزمة المالية العالمية في الآونة الاخيرة، فإنّ ذلك يشير إلى مساوئ هذا التنظيم، وذلك لما تساعد فيه المسؤولية المحدودة من ناحية تفاقم الديون، لأنّ الإفلاس سيكون حافزاً للوقاية من الآثار الجشعة الناتجة عن البقاء، كما في حالة إشهار الإفلاس التي وقعت لبنك ليمان براذورز سابق الذكر. [39]

المبحث الثاني

الإطار العام لضبط عمليات التمويل وفق المنهج الإقتصادي الإسلامي

إنّ الإطار العام لضبط عمليات التمويل وفق ما يقرره المنهج الإقتصادي الإسلامي، يمكن تحديده من خلال التعرّف على المنهج الإقتصادي الإسلامي في معالجة الاختلالات الوظيفية في النظام الإقتصادي الرأسمالي، لنبين بعدها منهج التمويل المالي الإسلامي في إطار الآثار المترتبة على الأزمة المالية، ومن ثمّ لنتعرف على الملامح الأساسية للتمويل المصرفي الإسلامي، وذلك في مطلبين كالآتي :

المطلب الاول

المنهج الإقتصادي الإسلامي في معالجة الاختلالات الوظيفية في النظام الإقتصادي الرأسمالي

ينظر الإسلام إلى الموارد اللازمة لتكون متوفرة بما يكفي لتلبية الإحتياجات الأساسية للبشرية جمعاء، حيث يقر بل ويسهّل الدين الإسلامي طرق إكتساب الرزق، بما في ذلك إنتاج السلع وأداء الخدمات في الإسلام عن طريق الوسائل المشروعة الحلال، ويحظر اقتناء بل ويوجب التخلص من المحرمات غير المشروعة، الناتجة عن بعض الوسائل غير المشروعة، ومن المؤكد أن النظام الإقتصادي الإسلامي لا يجعل حرية التملك أساساً في النظام الإقتصادي، ولا حتى المبدأ الإشتراكي المتمثل بمقولة " كل حسب قدرته، ولكل حسب حاجته "، والإسلام يعرف الوسائل القانونية لنقل الملكية، ومنها العقود النافذة التي من خلالها يتم نقل الملكية والمضاربة والمتاجرة بالملكية أو الدين.

ومع ذلك فإنّ الإسلام يترك للمتعاملين المجال واسعاً لتطوير الأساليب والوسائل التي يمكن بواسطتها أن تكتسب الملكية أو تنتقل.

و لم يتدخل الإسلام في إنتاج الثروة، حيث يركز جميع المشاركين في فعاليات الإقتصاد الإسلامي على الإقتصاد الحقيقي، من خلال توظيف أرباح الشركات والإستفادة من الأراضي بالزراعة والصناعات التحويلية، حيث يتم إنتاج الثروة وتعميمها على جوانب الإقتصاد الحقيقي، وهذا بالتأكيد يجلب فائدة كبيرة للثروة المتداولة في قطاع واحد فقط، الذي هو الإقتصاد الحقيقي، حيث يمكن للجميع المشاركة فيها، لذلك فإنه مع إغلاق نظام الفائدة وإنتفاء المخاطر في الأسواق لا أحد سيكون له حافز لإيداع الأموال في المصارف أو المؤسسات المالية، والتي ستكون وظيفتها حفظ الأموال دون أي استثمار، علاوة على ذلك سيتم فرض رسوم بنسبة مئوية على كل سنة، وهكذا يتم ترك الفوائض المنزلية أمام خيارات ثلاثة:

1–أمّا مزيد من الاستهلاك.

2–أو الإقراض للآخرين لكي يعملوا أو يستثمروا.

3–أو الإدخار لتلبية الإحتياجات الشخصية المستقبلة.

و هذه الخيارات الثلاثة كلها تصب في مصلحة الإقتصاد الحقيقي، لأنها تساهم في بدء المشاريع الخاصة، أو إنشاء الشركة للعمل والانتاج، بإتباع أي من الهياكل الخمسة للشركات، وفي الفقه الإسلامي تعتبر شركة العقود من أنواع البحث في تنمية الملك، ويتبين من إستقراء شركات العقود في الإسلام وتتبعها وتتبع الأحكام الشرعية المتعلقة بها والأدلة الشرعية الواردة في شأنها أن شركات العقود خمسة أنواع هي (شركة العنان، وشركة الأبدان، وشركة المضاربة، وشركة الوجوه، وشركة المفاوضة).[40]

و هذا الواقع يخلق عدد غير مسبوق من رجال الأعمال في الإقتصاد الحقيقي القائم، حيث أنّه يؤدي إلى زيادة الإنتاج وينمي الإقتصاد ويخلق فرص العمل، ويسهم في توزيع الثروة في القطاعات الإنتاجية الحقيقية، وعلاوة على ذلك، فإنّ هذه الهيكلية سوف تدعم نمو الأعمال وتوسيعها، وغير ذلك من الإحتياجات عن طريق إبلاغ المودعين من المقرضين المحتملين من الذين يسمح لهم باتخاذ قرارات الإقراض والإقتراض، وهذا سوف يقلل حتماً من مخاطر الإئتمان، لأنّ المقترض سيقنع المقرض بطبيعة العمل وآفاقه وإحتمالات نجاحه ويحدد مقدار حصته من الربح، وذلك عن طريق التفاوض وجهاً لوجه، وهنا سيتحمّل المقرض المخاطر بأكملها في حالة التخلف عن السداد، وسيتم صرف المبلغ المطلوب وبدون فائدة، وللمقرض الخيار الأفضل في الإيداع في الصندوق الذي ينشأ لهذا الغرض في مقابل دفع رسوم سنوية.

و بالتأكيد سيكون عاملاً حاسماً في إدارة الأعمال من قبل المقترض وهدفه بأكمله سيكون توليد عائد جيد لما يبذله من جهد، وتحقيق الربح عن طريق التفاوض مع المقرض، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا تفاوضتم فأحسنوا المفاوضة فإنّ فيها أعظم اليمن والبركة , ولا تجادلوا فإنّ المجادلة من الشيطان... " [41]، وترتكز السياسة النقدية في الإسلام على الغطاء القانوني إستناداً إلى معيار الذهب والفضّة، وليس أن تستند إلى معيار عملة نقدية ورقية، أو الإعتماد على أسعار الفائدة أو التضخم الإقتصادي، وعندما يتعلق الأمر بتبادل السلع مع وحدة نقدية محددة، فإنّ الإسلام وجه الناس إلى الوحدة النقدية في التبادل، والنظام المالي الإسلامي لا يسمح من حيث المبدأ بطباعة أي مبلغ من المال من خلال إصدار عملة ورقية، ويستدلون في ذلك على أن التضخم لم يرتفع خلال فترة العصر الذهبي للإسلام طوال عقود من الزمن بمعدل يزيد عن 7%.

فضلا عن ذلك فإنّ الإسلام لا يعرف مفهوم ضريبة الدخل، أو ضريبة القيمة المضافة ورسوم الإنتاج، ولا مساهمات التأمين الوطني، والإسلام يرتكز بدلا من ذلك على الضرائب على الثروة بدلاً من ضرائب الدخل، وهذا يساعد المواطن للحد من الأعباء المالية ويسمح بالمزيد من الإنصاف والعدالة في توزيع الناتج القومي في البلاد، وأخيراً فإنّ الدولة فرض عليها الإسلام أن تلعب دوراً مباشراً في الإقتصاد، لا أن تترك الأمور تماماً للسوق وتقلباته، والإسلام عموماً يحدد ثلاثة أنواع من الملكية هي الملكية العامة والملكية الخاصة وملكية الدولة.

و تتحدد هنا فائدة هذه الأنواع لإعتبارات لا غنى عنها لأي مجتمع، كما هو الحال في الممتلكات الأساسية، وملكية القطاع العام حيث يمكن أن تورّد إيرادات من شأنها أن تحقق مصالح

جميع المواطنين، ويستمد هذا من حديث النبي محمد صلى الله عليه وسلم " الناس شركاء في ثلاث، الماء والكلأ والنار" ،[42] وهذه الأمور الثلاثة وما شابهها من المرافق العامة، كالمدارس والمستشفيات والطرق العامة والجسور وحقول النفط ومحطات توليد الكهرباء والأنهار والبحار وقنوات الري العامة والخلجان والمضايق وا لسدود، وكل ما لا غنى عنه في حياة الناس والمجتمع ككل.

و يذهب الإسلام إلى السماح بالملكية الخاصة، كونها نظام لا غنى عنه في أيّ مجتمع، فإنّ هذا الحال سيكون له تأثير فريد من نوعه، كما أنّه سيضمن تلقي جميع المتطلبات الأساسية للعيش، وأن لا يكوّن على ذلك إرادة إحتكار أو إرتفاع في الأسعار.

إضافة لذلك؛ فإنّ الإسلام يحظر بشدة تحديد الأسعار أو خلق الإحتكار الأمر الذي سيخلق مسؤولية إلى حد كبير، ويستند في ذلك إلى قوله صلى الله عليه وسلّم " لا يحتكر إلّا خاطئ "، [43] فضلاً عن ذلك فإنّ الإسلام لديه آلية قوية جداً ومسؤولة لمراقبة الأسواق والتعاملات المالية بين الأفراد مع الأفراد والأفراد مع الدولة، وبين أجهزة الدولة والولايات، وهو نظام المحتسب أو قاضي الأسواق، وهو الذي يراقب الأوزان والمقاييس ويمنع الغش والخداع في التعامل في الأسواق والأماكن العامة، بالإضافة إلى رصد المخالفات والإنتهاكات، وإقرار قواعد للقضاة يستطيعوا بواسطتها حل المشاكل التي تواجه الناس في حياتهم اليومية بصورة آنية. [44]

كما أن النظام الإسلامي يقر إنشاء جهاز إداري للدولة للسيطرة على حركة المال، مثل أموال الزكاة وأموال الدولة والإيرادات، ومراقبة دخل القطاع العام. [45]

المطلب الثاني

الملامح الأساسية للتمويل الإسلامي

إنّ بيان الملامح الاساسية للتمويل الإسلامي، يمكن أن يتوضح من خلال استعراض اساسيات التمويل المصرفي الإسلامي، والتركيز على حظر إقرار التعامل بالفوائد الربوية في النظام المصرفي الإسلامي، وهو ما سنقوم به في فرعين، كما يأتي:

الفرع الأول

أساسيات التمويل المصرفي الإسلامي

يمكن هنا أن نسلّط الضوء على بعض ملامح التمويل المصرفي الإسلامي، والتي نرى بأنها لا تخفف من شدة الأزمة فقط، وإنما تمكن النظام المالي من توزيع آثار هذه الصدمات على نحو أكثر عدالة :

1- ينبغي أن تستند جميع القيود في أسواق البورصات إلى تبادل إثنين أو أكثر من العناصر الاقتصادية الحقيقية المختلفة.[46]

2- يجب على الأطراف المتعاقدة مشاركة المخاطر، بدلا من نقلها، وكذا الحال بالنسبة للعوائد الناتجة عن أي مشروع، ويمكن أن نفصّل الكلام في هذين الجانبين من نواح ثلاث، وكما يأتي :

فمن ناحية أولى لا تقر الشريعة الإسلامية التبادلات الإسمية أي بمعنى تبادل نفس السلع أو نفس العملات، أي تبادل المال من أجل المال، مثل القروض الربوية، فهذه العمليات محظورة في الدين الإسلامي، وبالتالي أي نشاط من أنشطة الأعمال التي تنطوي على خطر عدم وجود المحل، كقاعدة عامة هنا يطبق حديث الرسول صلى الله عليه وسلم " لا تبع ما ليس عندك "، ولكن ضرورات التعامل سمحت فقط كإستثناء تحت شروط محددة عقوداً مثل الاستصناع والسلم وكلاهما يتم دفع الثمن فيهما مقدماً.[47]

إضافة إلى ذلك فإنّ الممارسات التي يمكن أن توصف بأنها مصطنعة، بمعنى أنها لا تقوم على حقيقة واقعية مثل يوم التداول، هي ممارسات غير جائزة على الرأي الغالب في الشريعة الإسلامية، [48] وذلك لأنّ الإسلام يركز على أولوية التبادل الحقيقي ويقدمه على المعاملات الإسمية.

ومن ناحية ثانية، يشدد مناصروا التمويل المصرفي الإسلامي على ضرورة تكوين فهم واضح لتقاسم المخاطر بين الأطراف المتعاقدة الذي يكون فيه جميع الأطراف شركاء بحصص في المشروع، بالإعتماد على العقود القائمة على الشراكة كالمضاربة والمشاركة وغيرها، والهدف الرئيس من هذه العقود هو ضمان توزيع عادل للمخاطر المرتبطة بالمشاريع الإنتاجية (التبادل الحقيقي)، من خلال تملكهم حصص في المشروع مباشرة. [49]

و بالمقارنة مع النظام الربوي، فإننا نجده دائماً أدنى من مبدأ تقاسم المخاطر، [50] من حيث الانصاف والعدالة الإجتماعية، على العكس من ذلك فيما يتعلق بالكفاءة، إلّا أن حجة الكفاءة الآن هي أكثر حجة مثيرة للجدل، لا سيما ونحن نشهد أزمات متتالية بسبب الإعتماد على هذه الكفاءة، فالأزمات المالية المتكررة وعدم الإستقرار المستمر في الأنظمة المصرفية في جميع أنحاء العالم ،[51] يعزى إلى الديون المفرطة وعدم وجود انظباط في السوق نظراً لعدم وجود تقاسم للمخاطر التي خلقت مجالاً للمخاطرة الجسيمة، بينما تقاسم المخاطر يمكن أن يسفر عن قرارات متأنية وبالتالي زيادة في الكفاءة.[52]

ومن ناحية ثالثة يمكن أن يلقى اللوم إلى النزعات الأخلاقية في المجتمع الذي تصيبه الأزمة، والذي يشجع على القضاء على الرّبا، وهو مصطلح يشمل الفائدة المصرفية أيضاً، كما يمكن أن يشار إلى التعاملات غير الحقيقية المتعلقة بالبيع على المكشوف، [53] وكما لابدّ من لفت الإنتباه إلى فشل تخفيف المخاطر على مستويات مختلفة على إعتبار أنها السبب الرئيسي للأزمة، كما يؤكد بعض الباحثين إلى أنّ العالم يجب أن يتفق على طبيعة التعامل مع النقود، والتي ينبغي أن تبقى إستخداماتها في ظل الدور الذي أخترعت له، وهي وسيلة للتبادل ومخزن للقيمة، ويجب أن لا يتعامل معها كسلعة.

و القاعدة العامة المستمده من مبادئ التمويل المصرفي الإسلامي هي تشجيع التبادل الحقيقي ودعم المعاملات الإسمية (الدفع) إلى نسبة المعاملات الحقيقية، أي بما يعادل التسليم الحقيقي، والعكس بالعكس، والنظام المصرفي في الحقيقة لا يهم حيث يمكن أن يتم تأجيل الدفع أو تأجيل التسليم على حد سواء.

و على النقيض من التمويل التقليدي، حيث لا يتم دعم الصفقة الإسمية دائماً، قبل الصفقة الحقيقية، وإنّ ما يتم تبادله هو النقود بمقابل النقود، حيث أن الإفتراض الأساسي وراء التمويل الربوي، هو أن المال في النهاية سيستثمر في مشروع حقيقي، ولكن هذا الإفتراض ليس صحيحاً بالضرورة، وهو ما توصّلنا إليه بالطريقة الصحيحة عندما حلت بنا كارثة الأزمة المالية العالمية GFC وكان هذا أيضاً مدعاة لإختلاس تدفقات رؤوس الأموال المالية إلى البلدان ذات الفائض، بمعنى أنهّا لم تكن موجهة نحو الأنشطة الإنتاجية.[54]

و في هذا الصدد فإننا نشير إلى أنّ النظام التقليدي على سبيل المثال إذا ما قام المشرع مثلاً بإقرار الإعفاء الضريبي على أرباح رأس المال المستثمر في قطاع الإسكان، فإنّ هذا يمكن أن يحد من الإستثمارات في قطاع الإنتاج، وسيصاحب ذلك في ذات الوقت زيادة في أسعار العقارات، ولكن نفس هذا الشيء من المرجح جداً أن لا يحدث في النظام المالي الإسلامي، فلو كانت العقود التي يعترف بها النظام الإسلامي محل تلك العقود لما حصل هذا الشيء، وذلك لأنّ التأثير في الشريعة الإسلامية يكون واقعاً على الروابط الوثيقة بين المعاملات الإسمية والحقيقية.

و الحقيقة هنا، هي أن بعض الإقتصاديين يتفقون على أن رأس المال الاجنبي أو حتى المحلي إذا توجه نحو الأنشطة المدرة للدخل، فإنّ ذلك سيخلق فرصة للنمو الإقتصادي، أي ليس من الصحيح الركون إلى التدفقات المالية في حد ذاتها، وإنما في كيفية استخدام هذه التدفقات، لأنّ عدم إستخدامها إستخداماً صحيحاً هو إشكالية في حد ذاته.

و نحن نرى دعوة أنصار تطبيق مبادئ الاقتصاد الراسمالي، إلى إعادة النظر في الهيكل المالي ووسائله الذي لم تظهر جاذبية قوية تدعو إلى أخذه على محمل الجد في كثير من جوانبه، خصوصاً وإنّ الإبتكارات المالية تأخذ وتيرتها بالإرتفاع، ولا تزال وسائل التمويل الإسلامي في المهد، لذلك لم يتعرض هذا النظام إلى أزمة حقيقة، لأنّ الأزمات المالية المتكررة هي بمثابة المختبر الطبيعي لاظهار نقاط الضعف في النظام المالي، وبالتالي يستطيع مناصروا التمويل الإسلامي أن يستفيدوا من فرصة تبني حجج علمية تسند مبادئ التمويل الإسلامي في الشريعة الإسلامية حالياً، وبالتالي فإنّ من وجهة النظر هذه تكوّن الدعوة إلى إعادة التفكير الآن في الحصول على الإهتمام الجاد في التمويل الإسلامي، ليكون منافساً قوياً في هذا المجال، وهو ما حصل فعلا في الأزمة المالية العالمية، لاسيما سلوكيات المؤسسات المالية، التي تشجع على تحمل المخاطر المفرطة، لأنها قدمت هذه الديون مع فرصة لنقل هذه المخاطر إلى شركات التأمين دون نقل الملكية لهذه الديون، بينما يستند التأمين التكافلي الإسلامي على مبدأ تقسيم المخاطر، حيث يتم توزيع المخاطر الإفتراضية عبر حملة الوثائق، وشركة التأمين ليست سوى جهة تدير عملية التأمين مقابل مردودات مالية محددة.[55]

ومن الجدير بالذكر أن العقود المالية في ظل الشريعة الإسلامية توجد فيها أدوات تنويع تقليدية، وإنّ المحافظ الإستثمارية يجب أن لا تحتوي على أيّة مصلحة لتحميل الصكوك، كما يجب أن لا تحتوي هذه المحافظ على عناصر سامة مثل الرهون العقارية المعدومة أو ذات الضمانات الرديئة، وبدائل القروض من المشتقات المالية السيئة. [56]

و منذ بداية الثمانيات من القرن الماضي، والقطاع المالي يتفوق بإستمرار في معدلات النمو على بقية قطاعات الإقتصاد وحصته في الناتج المحلي الإجمالي 5% إلى 8% بعد عقدين من الزمن، وعلى مدى الفترة نفسها تضاعفت أيضاً الأرباح المالية كنسبة مئوية من إجمالي أرباح الشركات، وأيضا نمت الديون لدى المؤسسات الدائنة في نفس الفترة من 3 تريليون 130% من الناتج المحلي الإجمالي إلى 36 تريليون أو 270% من الناتج المحلي الإجمالي الأمريكي، بين عامي 1987 إلى 2007. [57]

و نود أن نشير هنا إلى أنّ الإنتقادات التي يمكن أن تقال عندما يقارن البعض بين تمويل المصارف والشركات المالية التقليدية، مقابل التمويل المصرفي الإسلامي، فإنّ هذه المقارنة تكون غير صحيحة في كثير من جوانبها، لأنّ هذه المقارنة لا معنى لها أساساً، لأنّ أساس تقاسم

المخاطر الذي تتبناه الشريعة الإسلامية يختلف عن نظم التمويل التقليدي، إضافة إلى ذلك فإنّ تقاسم المخاطر هو جانب مهم يرتبط إرتباطاً وثيقاً بالحوافز التي تحدد ديناميات أي نظام مالي.

ولابد هنا من بيان الدور الذي تلعبه وكالات الوساطة، والتصنيف في الأزمة المالية، حيث أن الدور الذي لعبته هذه الوكالات مركزياً مع تصنيف تعقيدات الصكوك والمشتقات المالية، حيث ركزت هذه الوكالات على تصنيف الأوراق المالية على أساس مشاركتهم وربطها مع عوامل الإنتاج الحقيقي، بدلاً من أي تدابير أخرى التي تفصل الأداء المالي عن الأصل الحقيقي للأصول، فإنها ستكون أقل عرضة للمخاطر وإرتكاب الأخطاء.

ومن المهم ذكره هنا، هو لما كانت العقود المالية الإسلامية ذاتية التنظيم بطبيعتها، كما يتم فيها تقييم المخاطر والعوائد المرتبطة بالإستثمارات بين الأطراف المتعاقدة، مما يقلل من الحوافز لتحويل الأموال إلى القطاعات المنتجة، وهذا يقلل من الإعتماد على السلطات التنظيمية والنتائج المتعارضة في ديناميات أكثر توجها نحو السوق مقارنة مع نظيرتها من العقود التقليدية، ومن الناحية المثالية فإنه لابدّ من تقليص الفجوة بين الأنشطة الإسمية والأنشطة الحقيقية، وليس توليد مطلوبات مفرطة ضد الأصول الحقيقية، وعلى هذا يتم الحفاظ على القيمة السوقية للأصول وسعر التضخم الناجم عن وجود فجوة بين المعاملات الحقيقية المعاملات الإسمية، لذلك يذهب البعض إلى القول بأنّ من حسنات الأزمة المالية أنها تعد وسيلة فطرية لتطهير النظام المالي من الإختلالات بإعتبارها تقلل من الفجوة بين القيمة الفعلية والقيم السوقية المبالغ فيها للأصول. [58]

أمّا معالجة الإسلام للمشكلة الناجمة عن تبني الحكومات سياسة تشجيع الإقراض العقاري، فهي معالجة جذرية تمنع المشكلة من الأساس، لأنّ الخلل المتأصل في هذه السياسات يتمثل بأنّ النظام أصلا قائم على الفائدة التي جعلت المؤسسات المالية قادرة على الإقراض وسهّلت للأفراد الحصول على الأموال المتاحة بالشكل الذي يسمح بتحويلها إلى الأنشطة غير الإنتاجية، أو أنها على الأقل تكون مخفية تحت أصول أخرى من خلال المضاربة، ولما كان التمويل الإسلامي لا يسمح بتداول الدين إلّا في حدود معينة.

علاوة على ذلك تتطلب الشريعة الإسلامية بشكل صارم الشفافية في جميع المعاملات، ولابد للمتعاملين من الإمتثال لمتطلباتها، وهو ما يعني الإفصاح عن جميع المعلومات المتاحة ذات الصلة بالأصول، إذ لابدّ للأطراف المتعاملة الإفصاح بالقول عن جميع ما يتعلق بمحل المعاملة، وإلّا عدّ ذلك مخالفة شرعية من قبيل الغش أو التدليس اللذين تمنعهماً الشريعة الإسلامية. [59]

الفرع الثاني

حظر التعامل بالفوائد في النظام المصرفي القائم

يعزو الكثير من الإقتصاديين إنهيار السوق المالي إلى العديد من الأسباب الأساسية، والتي منها وجود النظام المصرفي الربوي، وحجة البنوك الشائعة للتعامل بالفائدة الربوية، تشمل المساعدة على خلق الفرص والإستثمار الآمن والذي يتيح خلق فرص العمل ومساعدة القطاع الإنتاجي وتعزيز النمو الإقتصادي وما إلى ذلك من حجج. [60]

و لكن الواقع أدى إلى تحقق عكس ما تقول به هذه الحجج، وهنا لابدّ من أن نتساءل ؛ إذا كانت الحجج جدية وصحيحة بشكل كبير فلماذا إنهار مصرف Lehman Brothers وAIG's وUSB وMerril Lynch [61]، هذا من جهة.

و من جهة أخرى فإنّ لما كان الاستثمار في جميع أنحاء العالم قد بلغ في أسواق المشتقات المالية 664 تريليون دولار، بينما الناتج المحلي الإجمالي العالمي 54 تريليون، فإنّ هذا يعني أن ما نسبته 80% من إجمالي الاستثمارات العالمية يذهب إلى قطاع الصناعة المالية والخدمات، بينما يذهب 20% إلى الإقتصاد الحقيقي، والسؤال المشروع هنا هو كيف تكون هذه الإستثمارات آمنة، وهي لا تستند إلى أساس متين، فضلاً عن الاختلال في التوازن بين الإقتصاد المالي والحقيقي كبير جداً في الوقت الذي يصنّف فيه الإستثمار المالي بأنّه صناعة الخدمات المالية غير المستدامة.

و ثانياً :: يمكن أن يرد على الحجة المتعلقة بقدرة البنوك في خلق الكفاءة الإقتصادية، من خلال المثال الآتي :

إذا كان بنك A يقدم القروض بنسبة 6% في حين يقدم البنك B القروض بنسبة 4% فإنه من المؤكد أن أي شركة ستسعى للحصول على التمويل بالإقتراض من البنك A لأنّ تكلفة التمويل ستكون قليلة، وبالتالي فإنّ تقليل تكلفة ممارسة الأعمال التجارية ستصبح فعّالة من حيث الكلفة، فإذا كان هذا الأمر وارداً نجاحه بقوة، فماذا سيحدث لو أنّ النظام المالي يسمح بتوفير القروض عند مستوى الصفر % ؟

و من جهة أخرى فإنّ البنوك اليوم تستثمر اللوائح الموجودة لديها في مشاريع محفوفة بالمخاطر، بشكل كبير لضمان دفع الفائدة وكسب الربح المتوقع، وفي نفس الوقت فإنّ لدى البنوك احتياطي للسيولة في شكل SLR وCLR من حوالي 10% إلى 5% من الودائع في البنك، فضلاً عن أنّ هناك الحد الأدنى لإحتياطي الودائع في كل بنك، ولما فشل النظام القائم على الإستفادة

من كامل كمية المدخرات الوطنية بإسم الحفاظ على السيولة، فإنّ ذلك سيزيد من تكلفة التمويل للمقترض، الأمر الذي يؤدي إلى إرتفاع تكلفة الإنتاج.

علاوة على ذلك يسمح النظام المالي للبنوك من خلق M2 جنبا إلى جنب مع عملية خلق الإئتمان، مما يؤدي إلى نشوء فقاعات ضخمة في الإقتصاد نتيجة زيادة المعروض النقدي وتضخيمه في الإقتصاد، في حين أن الإقتصاد الحقيقي يقصر عنه كثيراً، وعلى سبيل المثال في الولايات المتحدة يكون من المشروع قانوناً إعطاء 30 $ مقابل دولار واحد من الودائع خلال عملية خلق الإئتمان.

أخيراً ومن جانب آخر، فإنّ إدراك الإدارات العليا للبنوك بأنّ مكافئاتهم وإمتيازاتهم ترتبط مع الأرباح التي تجنيها بنوكهم، فإنهم لابدّ أن يسعوا سعياً حثيثاً إلى زيادة منافذ بيع القروض أو جمع الودائع، حتى وإن لجأوا إلى فتح مجال الدوام جزئي أو فتح البنك خارج اوقات الدوام الرسمي، لأنّ ارتفاع مبيعات القروض سيكون مدعاة لزيادة الفوائد وبالتالي زيادة الأرباح، ولكن هذا الحال سيكون ذا طبيعة مدمرة.[62]

بينما حرم الإسلام بوضوح أي معاملة تقوم على الرّبا، حيث يقول تعالى " الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرّبا لَا يَقُومُونَ إِلّا كما يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ۚ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّماَ الْبَيْعُ مِثْلُ الرّبا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرّبا ۚ فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ ما سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (275) يَمْحَقُ اللَّهُ الرّبا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (276) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (277) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرّبا أن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (278)فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أموالكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (279) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وإِنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ أن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (280) وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (281) ".[63]

المطلب الثالث

منهج التمويل المالي الإسلامي في إطار الآثار المترتبة على الأزمة المالية

يبدو أن عدم كفاية الإطار التنظيمي والسياسات الحكومية غير الفعالة والممارسات المالية المريبة، جعلت من الدعوات الخاصة بضرورة إعادة التفكير في الهيكل المالي الذي يقوم عليه

النظام الرأسمالي تلقى آذاناً صاغية، وهنا لابدّ من أن نضع في حسباننا ثلاثة إعتبارات ذات معنى نفعي، وهي :

1–منع الأزمات أي تقليل إحتمالية حدوث أزمة مستقبلا.

2–الحد من تأثير الأزمات أي الحد من شدة الأزمة.

3–الإنصاف في توزيع آثار الأزمة. [64]

يقول أنصار التمويل الإسلامي بأنّ العقود المبرمة على أساس مبادئ الشريعة الإسلامية هي مرشحة بقوة للتطبيق في هذا الصدد، إذ أنها اقصر طريق للأداء الجذري للحل، وذلك لأنّ معظم العوامل التي أذكت الأزمة المالية هي محظورة في الشريعة الإسلامية، لاسيما وإنّ أكبر ما يلام هنا هو النظام الربوي، الذي تعتمده المؤسسات المالية المصرفية، التي يقوم عليها الهيكل الحالي للإقتصاد الرأسمالي، ولكن ما يمكن أن يقال هنا بصدد مجال التمويل الإسلامي، هو أن هناك حجة عامة يمكن أن تنطبق على الجوانب الأساسية في التمويل الإسلامي ذات الصلة بالأزمة، وهي أن الوسائل والمبادئ والقواعد المطبقة في مجال التمويل الإسلامي لم تظهر عن طريق الإبتكار العقلي والإستكشاف العلمي أو التطورات والتصورات النظرية للتعامل في الواقع، وإنما هي عبارة عن توجيهات دينية وإعتبارات آيدلوجية وعوامل إعتقادية تعتبر دوافع رئيسية وراء تطبيقها. [65]

إلى جانب حقيقة أنّ تاريخ تطبيق وسائل التمويل الإسلامي حديثة نسبياً وقصيرة، لذلك فإنّ دعوة أنصاره إلى إعادة النظر في الهيكل المالي ووسائله لم تظهر جاذبية قوية تدعو إلى أخذه على محمل الجد في كثير من جوانبه، خصوصاً وإنّ الإبتكارات المالية تأخذ وتيرتها بالإرتفاع، ولا تزال وسائل التمويل الإسلامي في المهد، لذلك لم يتعرض هذا النظام إلى أزمة حقيقة، لأنّ الأزمات المالية المتكررة هي بمثابة المختبر الطبيعي لاظهار نقاط الضعف في النظام المالي، وبالتالي يستطيع مناصروا التمويل الإسلامي أن يستفيدوا من فرصة تبني حجج علمية تسند مبادئ التمويل الإسلامي في الشريعة الإسلامية حالياً، وبالتالي فإنّ من وجهة النظر هذه تكوّن الدعوة إلى إعادة التفكير الآن في الحصول على الإهتمام الجاد في التمويل الإسلامي، ليكون منافساً قوياً في هذا المجال. [66]

و جدير بالذكر أن تطبيق المفاهيم الإسلامية هنا يرتكز على تحقيق مبدأي الإنصاف والرفاهية على حد سواء، دون تغليب أحدهما على الآخر، مع إختلاف النظرة بين النظام المالي التقليدي والإسلامي إلى كل منهما، فمن حيث المبدأ لا تأثير للغرر في الفائدة أي قلق من

الإنصاف في ناحية النظام الرأسمالي التقليدي، ولكنها لا تعتبر عادلة ومحرّمة وفقاً لمعايير الشريعة.

الخاتمة

الاستنتاجات والتوصيات

يمكن أن نسلط الضوء ونحن في خاتمة هذه الدراسة على بعض الاستنتاجات المهمة ونطرح بعض التوصيات التي نرى في الاخذ بها وتبنيها فائدة علمية وعملية، وكما يلي:

1- تختلف نظم المصرفية الإسلامية عن البنوك الرأسمالية التقليدية، والسبب في ذلك يعود إلى أنّ الفائدة والربا محظورين أصلا في الشريعة الإسلامية، كما أن إعتماد المصرفية الإسلامية بشكل فريد على مبدأ تقاسم الأرباح والخسائر، يلغي أساساً مبدأ المضاربة الذي تعتمده المصارف الرأسمالية، وهنا تؤسس فكرة المشاركة في تحمّل المخاطر، وذلك من خلال الإعتراف بمبدأ المشروع المشترك من حيث مفاهيم التعاقد الإسلامي، تحت نموذج تقاسم الأرباح، وبالتالي تتكامل موجودات ومطلوبات البنوك الإسلامية والمقترضين، بحيث يتقاسمون الأرباح والخسائر، وما يمكن أن ينجم عن منح القروض والإئتمان من آثار.

2- أن النهج الإسلامي الخاص بتنظيم الإحتياجات المالية المختلفة، لا يتسق مع النظام الإقتصادي الرأسمالي التقليدي الذي يعترف بالنظام المالي الظاهري أو الإسمي، والذي هو أساساً مختلف عن الإقتصاد الحقيقي، ويشمل النموذج التقليدي من النظام الإقتصادي الرأسمالي، والنظام المصرفي الربوي في الأسواق المالية ذات التبادل غير المقيد للملكية.

3- إنّ نظام الهيكل المؤسسي في النظام الإقتصادي الرأسمالي للشركة، التي يؤسس من خلالها المصرف، يسمح بطبيعته أن يتخذ المسؤولين فيها أي قرار بغض النظر عن مستوى الخطر المتوقع فقط، لضمان تعاظم الأرباح، لأنّ المستوى النهائي لمسؤولية الشركة يتحدد بحجم رأسمالها، وكذلك يسمح القانون في حالة الإفلاس رفض مطالبة الدائنين بالوفاء فوق مستوى معين، ولنا أن نتخيل الفوائد التي تجنيها الشركات "الجشعة" من هذه المسؤولية المحدودة، في حين أن هذا الأمر لا يمكن تطبيقه في حالة المسؤولية الخاصة بالأشخاص القانونية الطبيعية، لأنّ أموال الشخص جميعها ضامنة للوفاء بديونه.

4- إنّ الأزمات المالية المتكررة هي بمثابة المختبر الطبيعي لإظهار نقاط الضعف في النظام الإقتصادي والمصرفي الرأسمالي، وبالتالي يستطيع مناصروا التمويل الإسلامي أن يستفيدوا من فرصة تبني حجج علمية تسند مبادئ التمويل الإسلامي في الشريعة الإسلامية حالياً، رفع

الأصوات عالياً بالدعوة إلى إعادة التفكير الآن في الحصول على الإهتمام الجاد في التمويل المصرفي الإسلامي، ليكون منافساً قوياً في هذا المجال، ونبذ ونقد سلوكيات المؤسسات المالية والمصرفية الرأسمالية، والتي اعتادت على أن تشجع روح المغامرة لديها وتحمل المخاطر المفرطة، لأنها تقدم على توريق سندات الديون المعدومة، وهو ما أعطاها فرصة لنقل هذه المخاطر إلى شركات التأمين دون نقل الملكية لهذه الديون، بينما يستند التأمين التكافلي الإسلامي على مبدأ تقسيم المخاطر، حيث يتم توزيع المخاطر الإفتراضية عبر حملة الوثائق، وشركة التأمين ليست سوى جهة تدير عملية التأمين مقابل مردودات مالية محددة.

5- إنّ دعوة أنصار المنهج الاقتصادي الإسلامي إلى إعادة النظر في الهيكل المالي ووسائله للمؤسسات والمصارف الرأسمالية، لم تظهر جاذبية قوية تدعو إلى أخذها على محمل الجد في كثير من جوانبها، خصوصاً وإنّ الإبتكارات المالية تأخذ وتيرتها بالإرتفاع، ولا تزال وسائل التمويل الإسلامي في المهد، لذلك يطرح البعض بأن حداثة تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية هو السبب في عدم يتعرض هذا النظام إلى أزمة حقيقة، لأنّ الأزمات المالية المتكررة التي تصيب النظام المصرفي الرأسمالي، الذي استمر في التطبيق عقود طويلة من الزمن، وهذه هي بمثابة المختبر الطبيعي لاظهار نقاط الضعف في النظام المالي، وبالتالي يستطيع مناصروا التمويل الإسلامي أن يستفيدوا من فرصة تبني حجج علمية تسند مبادئ التمويل الإسلامي في الشريعة الإسلامية حالياً، وبالتالي فإنّ من وجهة النظر هذه تكوّن الدعوة إلى إعادة التفكير الآن في الحصول على الإهتمام الجاد في التمويل الإسلامي، ليكون منافساً قوياً في هذا المجال.

6- نوصي من خلال هذه الدراسة بتبني المصارف العراقسة اسس ومنهج الاقتصاد الإسلامي في عملها وأنشطتها، حيث أنّ تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية والمنهج الاقتصادي الإسلامي عندنا، في هذا الوقت، خصوصا في مجال المصرفية الإسلامية، يمثل فرصة سانحة لابدّ من استغلالها على الوجه الامثل، والسبب هي أن الاقتصاد الرأسمالي والقطاع المصرفي على وجه التحديد يمر بأضعف حالاته هذه الايام، رغم توالي خطط الانعاش الاقتصادي وتعزيز الدعم الحكومي لها، إلا أن ذلك لا يمثل سوى حلولا وقتية تنتهي فعاليتها بعد فترة، ويعود الاقتصاد بعدها الى التراجع من جديد، لأن الخلل لا يكمن في الفعاليات والنشاطات التي تمارسها المؤسسات المالية والمصرفية، وانما يكمن الخلل في المبادئ التي تسيّر هذه القطاعات، والتي هي مبادئ أثبتت التجربة العملية عدم نجاعتها وعدم نجاحها في تجاوز الازمات التي توالت عليها، على

العكس مما نشهده في المؤسسات المصرفية الإسلامية من استقرار ونمو مضطرد يتوقع لها الخبراء مستقبلا زاهراً تتمكن فيه من منافسة نظيراتها من المؤسسات المالية والمصرفية الرأسمالية القائمة.

[1]. Md. Al-Mamun & Md. Abdul Hanana Mia: Origin of & Solution to Global Financial Meltdown: An Islamic View Received: March 21, 2012 Accepted: April 16, 2012 Online Published: June 16, 2012 doi:10.5539/ijbm.v7n12p114 URL: http://dx.doi.org/ijbm.v7n12p114, www.ccsenet.org/ijbm International Journal of Business and Management Vol. 7, No. 12; June 2012 114 ISSN.

[2]. تشير المصادر التأريخية إلى أنّ أوّل حادث إنهيار لسوق الأسهم وقع في عام 1720، على اثر إنهيار شركة Mississippi Enron في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد حددت أحدث الدراسات ما يقارب من 148 أزمة في أسواق المال على مستوى العالم منذ عام 1870 إلى وقتنا الحالي، ففي أوّل أزمة شهد إقتصاد الولايات المتحدة الأمريكية إنخفاضاً ملحوضاً في الناتج المحلي الإجمالي التراكمي، بما لا يقل عن 10%.

[3]. Niall Ferguson (December, 2008). Wall Street Lays Another Egg, Vanity Fair.

[4]. وليس ادل على هذا المرض من حزمة الانقاذ التي قامت بها الحكومة الأمريكية عندما ضخت ما يقارب 700000000000 $ في الولايات المتحدة الأمريكية، ولم تكن هذه المبادرة بالكافية لانقاذ مصير الأسواق من الانهيار، بل هي مجرد ضاعفت من آثار الأزمة، لأنها زادت الفجوة بين الإقتصاد الإسمي والإقتصاد الحقيقي، ولم تكن إلّا خطوة ممهدة للانهيار، حيث سقطت العديد من المؤسسات المالية والمصرفية فريسة الأزمة، كما في حالة اعلان إفلاس بنك ليمان بروذرزو شركة التأمين AIG ومؤسستي فريدي ماك وفاني ماي، والاستيلاء على ميرل لنش وHBOS وفقدان القيمة الإسمية للاسهم بحوالي 65%، وانتشار الأزمة على مستوى العالم في قارتي أوربا وآسيا... للمزيد ينظر بحثنا الموسوم : اشكالات في أزمة الرهون العقارية الأمريكية – دراسة في أسباب الأزمة المالية العالمية، ومعالجاتها وفق أحكام القانون العراقي، بحث مقدم إلى اعمال المؤتمر القانوني الأول الذي عقدته كلية القانون بجامعة تكريت، في نيسان عام 2009.

[5]. Ahmed. M. (2008). The Birth of Global Economic Crisis. Working Paper 08, IBA, University of Dhaka.

[6]. Waechter, P. and You, M. (2008), Subprimes, la faillite mondiale?, Editions Alphe´e, Paris.

[7]. Be´nard, V. (2008), "Crise des subprimes, un de´sastre engendre´ par l'e´tat", Objectif Liberte´,18 August.

[8]. وفي هذا الصدد قال وزير الخزانة الأمريكي السابق، جون سنو أمام لجنة التحقيق في الأزمة المالية أن المؤسسات المالية قد نمت بشكل رئيس ببساطة عن طريق اقراض بعضها البعض، وليس عن طريق خلق فرص للاستثمار، حيث أقرضت في عام 1978 الشركات المالية 13 دولارا مقابل كل 100 دولار، فرضت من قبل الشركات غير المالية، وبحلول عام 2007، كانت الشركات المالية تفرض 51$ مقابل كل 100$. للمزيد ينظر: Nauman Ejaz and Hayat Khan: article precite.

[9]. *Lehman Brothers Holdings Inc)* هو بنك تم تأسيسه في ألاباما، الولايات المتحدة الأمريكية عام 1850 على يد ثلاثة أخوة يهود من تجار القطن , ليكون مؤسسة خدمات مالية دولية. ويقع مقره الرئيسي في نيويورك. أعلن عن إفلاسه في 14 سبتمبر 2008 بسبب الخسارة التي حدثت في سوق الرهن العقاري . وكان لافلاس البنك تأثيرات سلبية على الكثير من أسواق العالم". للمزيد ينظر: الموقع الالكتروني https://ar.wikipedia.org/wiki

[10]. Adda, J. (2009), "Jusqu'ou` iront les banques centrales?", Alternatives Economiques, Vol. 80.

[11]. Nauman Ejaz and Hayat Khan: article precite.

[12]. Md. Al-Mamun & Md. Abdul Hanana Mia:.artical precite .

[13]. Mohamed Ali Trabelsi, (2011): article precite.& Fitoussi, J.P. (2008), "Crise financie`re et pouvoirs politique", Les entretiens de Valpre´, 29 September, pp. 16-23.

[14]. Mohamed Ali Trabelsi, (2011),"The impact of the financial crisis on the global economy: can the Islamic financial system help?", The Journal of Risk Finance, Vol. 12 Iss 1 pp. 15 - 25
Permanent link to this document: http://dx.doi.org/10.1108/15265941111100049
Downloaded on: 09 December 2014, At: 02:23 (PT).
[15]. Chapra, M.U. (1992), Towards a Just Monetary System, The Islamic Foundation, Liecester.
[16]. Miskhin, F. (1997), "The causes and propagation of financial instability: lessons for policymakers
in Federal Reserve Bank of Kansas City", Maintaining Financial Stability in a Global Economy, Proceedings of a Symposium, Kansas City, MO.
[17]. Chong, B.S. and Liu, M.-H. (2009), "Islamic banking: interest-free or interest-based?",
Pacific-Basin Finance Journal, Vol. 17 No. 1, pp. 125-44.
[18]. Mohamed Ali Trabelsi, (2011): article precite. P- 25.
[19]. Iqbal, Z. (1997), "Islamic financial systems", Finance & Development, Vol. 43, pp. 42-5.
[20]. Chapra, M.U. (1992), article precite.

[21]. سورة البقرة : 143.
[22]. سورة الحج : 78.
[23]. سورة البقرة : 185.
[24]. سورة النساء : 28.
[25]. سورة الأعراف : 157.
26. ابن قيم الجوزية : إعلام الموقعين عن رب العالمين : محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله : دار الجيل - بيروت، 1973، تحقيق : طه عبد الرؤوف سعد، الجزء 3ص3 وما بعدها.
[27]. Hicks A., & Goo, S. H. (2008). Cases and materials on company law. London: Oxford University Press.
[28]. يعرف المشرع العراقي عقد الشركة في قانون الشركات رقم 21 لسنة 1997 المعدل لسنة 2004 بأنها " المادة 4 :أولا: الشركة عقد يلتزم به شخصان أو أكثر بأنّ يساهم كل منهم في مشروع إقتصادي بتقديم حصة من مال أو من عمل لاقتسام ما ينشا عنه من ربح أو خسارة. ثانيا: استثناء من أحكام البند أولا من هذه المادة: 1- يجوز أن تتكون الشركة من شخص طبيعي واحد وفق أحكام هذا القانون ويُشار لمثل هذه الشركة في ما بعد بـ المشروع الفردي. 2- يجوز تأسيس شركة محدودة المسؤولية من قبل مالك واحد وفقاً لنصوص هذا القانون. ثالثا: لا يجوز لمالكي رأس المال في شركة ما ممارسة سلطاتهم في الشركة للتصويت أو لممارسة أي سلطات أخرى تؤدي لقيام الشركة بأعمال أو تؤدي لموافقتها على أعمال من شانها:
1- إلحاق الأذى أو الضرر بالشركة لتحقيق مصلحتهم أو مصلحة المتعاونين معهم على حساب ملاك الشركة أو الآخرين،
2- تعريض حقوق الدائنين للخطر نتيجة سحب رأس مال الشركة أو نقل أصولها عندما يكون إعسار الشركة وشيك الوقوع، أو عندما يحظر القانون ذلك.
المادة 5 " تكتسب الشركة الشخصية المعنوية وفق أحكام هذا القانون.
[29]. Sanjai B., & Roberta Romano. (2007). Empirical studies of corporate law. Handbook of Law and Economics, 2.
[30]. Thomas Lux. (1998). The socio-economic dynamics of speculative markets: interacting agents, chaos, and the fat tails of return distributions. Journal of Economic Behavior & Organization, 33(2), 143-165. http://dx.doi.org/10.1016/S0167-2681(97)00088-7

[31]. بلغت على سبيل المثال ديون بنك ليمان بروذرز حوالي 44000000000$، بينماً لا يضمن في مواجهة الدائنين سوى بمقدار 2,7مليار $ وهو قيمة رأس المال الخاص بالمصرف المذكور، ولا سبيل أمام الدائنين إلّا أن يتقاسموه قسمة غرماء... ينظر :

A leading case in common law is Salomon v. Salomon & Co. [1897] AC 22.

[32]. تنص المادة 260 من القانون المدني العراقي رقم 40 لسنة 1951 النافذ المعدل على أن :

1 –اموال المدين جميعها ضامنة للوفاء بديونه.

2 –وجميع الدائنين متساوون في هذا الضمان إلّا من كان له منهم حق التقدم طبقاً للقانون.

[33]. تذهب القواعد العامة في القانون المدني إلى أن " المتعاقدان بالخيار بعد الايجاب إلى آخر المجلس، فلو رجع الموجب بعد الايجاب وقبل قبول او صدر من أحد المتعاقدين قول أو فعل يدل على الاغراض يبطل الايجاب ولا عبرة بالقبول الواقع بعد ذلك". ينظر نص المادة82 من القانون المدني العراقي.

[34]. سورة البقرة، الاية 282.

[35]. سورة النساء، الاية 29.

[36]. أخرجه ابن جرير وهذا حديث مرسل.

[37]وفي لفظ البخاري: (إذا تبايع الرجلان فكل واحد منهماً بالخيار ما لم يتفرقاً)،...

. http://www.alro7.net/ayaq.php?langg=arabic&aya=29&sourid=4

[38]. ذكر حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم في منع الرجل من بيع ما ليس عنده " في السنن والمسند من حديث حكيم بن حزام قال قلت ياً رسول الله يأتيني الرجل يسألني البيع ما ليس عندي فأبيعه منه ثم أبتاعه من السوق فقال لا تبع ما ليس عندك قال حديث حسن وفي السنن نحوه من حديث ابن عمرو رضي الله عنه ولفظه لا يحل سلف وبيع ولا شرطان بيع ولا ربح ما لم يضمن ولا بيع ما ليس عندك قال الترمذي حديث حسن صحيح :

http://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?p=309569

[39]. للمزيد من التفصيل ينظر بحثنا الموسوم اشكالات في أزمة الرهون العقارية الأمريكية ومعالجاتها في القانون العراقي... سابق الذكر.

[40]. ينظر للمزيد في فقه النظام الاقتصادي، أنواع الشركات في النظام الإقتصادي الإسلامي، للمزيد ينظر :

http://nusr.net/1/ar/nthm/nthm-iqtsd/513-nthm-igtsd-46

41. قال الحافظ الزيلعي عن هذا الحديث وما قبله: غريب أي لا أصل له، ثم حاول أن يجد أصلا للحديث، فقال: أخرج ابن ماجه في سننه عن صهيب قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : «ثلاث فيهن البركة: البيع إلى أجل، والمقارضة، وإخلاط البر بالشعير للبيت لا للبيع» ثم قال الزيلعي: ويوجد في بعض نسخ ابن ماجه (المفاوضة) بدل (المقارضة) (راجع نصب الراية: 3/475). للمزيد من التفصيل تنظر الموقع الإلكتروني للموسوعة الشاملة... أ.د. وَهْبَة الزُّحَيْلِيّ : الفِقْهُ الإسلامي وأدلَّتُهُ : الشَّامل للأدلّة الشَّرعيَّة والآراء المذهبيَّة وأهمّ النَّظريَّات الفقهيَّة وتحقيق الأحاديث النَّبويَّة وتخريجها... متاح على الموقع الإلكتروني :

http://islamport.com/w/fqh/Web/1272/3372.htm

[42]. عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال } : لا يمنع الماء والنار والكلأ { رواه ابن ماجه - (2405) وعن أبي خراش عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : }المسلمون شركاء في ثلاثة : في الماء والكلأ والنار { رواه أحمد وأبو داود، ورواه ابن ماجه من حديث ابن عباس ، وزاد فيه (وثمنه حرام) . للمزيد ينظر، أحاديث الأحكام في كتاب نيل الأوطار: الامام محمد بن علي الشوكاني ،دار الحديث، سنة النشر: 1413هـ/1993 رقم الطبعة: ط1، عدد الأجزاء: ثمانية أجزاء، متاح على الموقع الإلكتروني :

http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?idfrom=1816&idto=1819&bk_no=47&ID=761

[43]. صحيح مسلم بشرح النووي : كتاب المساقاة – باب تحريم الإحتكار في الاقوات، ج 6 /2492 رقم 4046.

[44]. تطبيقاً لقوله تعالى" قوله تعالى : وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ. " وقوله صلى الله عليه وسلم " من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإنّ لم يستطع فبلسانه، فإنّ لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان ."

45. قال تعالى " إِلّا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ(15) " فوجود قضاء المظالم الذي هو جهاز للمساءلة يضمن الإنصاف في

النظام الإقتصادي على وفق مبادئ الشريعة الإسلامية، تحقيقاً وتجسيداً لما جاءت به التعاليم القرانية الكريمة، وهو نظام حقق رفاهية للمجتمع على مدى 1300 سنة.

[46]. فماً رواه الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن رسول الله عليه الصلاة والسلام قوله : ((الذهب بالذهب ربا إلّا هاء وهاء، والفضة بالفضة ربا، والتمر بالتمر ربا إلّا هاء وهاء والشعير بالشعير ربا إلّا هاء وهاء)). أخرجه الستة.

[47]. Usmani, T. (2001) , 'An Introduction to Islamic Finance', Available at: http://www.mcca.com.au/uploads/58942/ufiles/an-introduction-to-islamic-finance.pd

[48].. Nauman Ejaz and Hayat Khan: article precite. p-50.

[49]. Chapra, M.U. (2007), 'The Case against Interest: Is it Compelling', Thunderbird International Business Review, 49, 161–86. & Chapra, M.U. (2008), 'The Global Financial Crisis: Can Islamic Finance Help Minimise the Severity and Frequency of Such a Crisis in the Future'. A Paper Presented at the Forum on the Global Financial Crisis held at the Islamic Development Bank..

[50]. Nauman Ejaz and Hayat Khan: article precite. P- 50 .

[51]. Chapra, M.U. (2007), & Chapra, M.U. (2008).

[52]. Siddiqi, M.N. (2008), 'The Current Financial Crisis and Islamic Economics', IIUM Journal of Economics and Management,16, 125–31.

[53]. Ahmed, H. (2009), 'Financial Crisis: Risks and Lessons for Islamic Finance', ISRA International Journal of IslamicFinance, 1, 1–32.

[54]. Stiglitz, J.E. (2011), 'The Anatomy of a Murder: Who Killed America's Economy', in Friedman, J. (ed.), What Caused the Financial Crisis. University of Pennsylvania Press, Philadelphia; 139–49.

[55].للمزيد في هذا الصدد ينظر : أ د. سامر مظهر قنطقجي : تطور صناعة التأمين التكافلي وافاقها المستقبلية، متاح على الموقع الإلكتروني :

http://www.kantakji.com/media/165286

[56]. Usmani, T. (2010), 'Post-Crisis Reforms: Some Points to Ponder', in Schwab K. and DeGioia J.J. (eds) Faith and theGlobal Agenda: Values for the Post-Crisis Economy. World Economic Forum, Geneva; 51–4.

[57]. Nauman Ejaz and Hayat Khan: article precite.p- 53.

[58]. Nauman Ejaz and Hayat Khan: article precite.p- 52.

[59]. يقول رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم : (من غشنا فليس منا) أخرجه مسلم في صحيحه (146) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ، فَلَيْسَ مِنَّا، وَمَنْ غَشَّنَا، فَلَيْسَ مِنَّا)، وفي رواية أخرى لمسلم (147) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه – أيضاً -، وفيه : (مَنْ غَشَّ، فَلَيْسَ مِنِّي)...

http://islamqa.info/ar/215061

[60]. Md. Al-Mamun & Md. Abdul Hanana Mia:.artical precite.

[61]. ينظر لتفصيل أكثر بحثنا في اشكالات في أزمة الرهون العقارية الامريكية... سابق الذكر.

[62]. كما تم اكتشافه من عمليات خلق الإئتمان المختلفة، بأنّ المنتجات المشتقة كانت سببا وعاملا مؤثرا في تداعيات الأزمة المالية العالمية، فعلى سبيل المثال تم في ديسمبر 2006 إنشاء مقايضات لاسعار الفائدة بمقدار 229800000000000$ في الأسواق العلملية بينماً كانت التجارة العالمية بمقدار 26 تريليون دولار فقط، ودون أي مبرر إقتصادي.

[63]. سورة البقرة، الأيات 275 وما بعدها.

[64]. حيث يرتكز تنظيم المعاملات والأعمال في الشريعة في المقام الأول على الانصاف وحماية واحترام مبادئ الشريعة الإسلامية المتعلقة بتحقيق الرعاية الاجتماعية لاصحاب الأعمال والمجتمع على حد سواء، وبالتالي فإنّ الاعتبارات النفعية الأساسية المقررة في كل اقتصاد، لا تتعارض مع مبادئ الشريعة الإسلامية....

Nauman Ejaz and Hayat Khan: article precite.p – 45.

[65]. Tahir, S. (2009), 'Islamic Finance – Undergraduate Education', Islamic Economic Studies, 16, 45 – 62.

[66]. Nauman Ejaz and Hayat Khan: article precite ,P-49.

المصادر

أولا// القران الكريم.

ثانيا// المراجع باللغة العربية:

- ابن قيم الجوزية : إعلام الموقعين عن رب العالمين : محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله : دار الجيل - بيروت، 1973، تحقيق : طه عبد الرؤوف سعد، الجزء 3.
- أ د. سامر مظهر قنطقجي : تطور صناعة التأمين التكافلي وافاقها المستقبلية، متاح على الموقع الإلكتروني : http://www.kantakji.com/media/165286
- د. صدام فيصل كوكز المحمدي: اشكالات في أزمة الرهون العقارية الأمريكية – دراسة في أسباب الأزمة المالية العالمية، ومعالجاتها وفق أحكام القانون العراقي، بحث مقدم إلى اعمال المؤتمر القانوني الأول الذي عقدته كلية القانون بجامعة تكريت، في نيسان عام 2009.
- صحيح مسلم بشرح النووي : كتاب المساقاة – باب تحريم الإحتكار في الاقوات، ج 6 /2492 رقم 4046.

ثالثا //المراجع باللغة الانكليزية:

- Adda, J. (2009), "Jusqu'ou` iront les banques centrales?", Alternatives Economiques, Vol. 80.
- Ahmed, H. (2009), 'Financial Crisis: Risks and Lessons for Islamic Finance', ISRA International Journal of IslamicFinance, 1, 1–32.
- Ahmed. M. (2008). The Birth of Global Economic Crisis. Working Paper 08, IBA, University of Dhaka.
- Be´nard, V. (2008), "Crise des subprimes, un de´sastre engendre´ par l'e´tat", Objectif Liberte´,18 August.
- Chapra, M.U. (1992), Towards a Just Monetary System, The Islamic Foundation, Liecester.
- Chapra, M.U. (2007), 'The Case against Interest: Is it Compelling', Thunderbird International Business Review, 49, 161–86. & Chapra, M.U. (2008), 'The Global Financial Crisis: Can Islamic Finance Help Minimise the Severity and Frequency of Such a Crisis in the Future'. A Paper Presented at the Forum on the Global Financial Crisis held at the Islamic Development Bank..
- Chong, B.S. and Liu, M.-H. (2009), "Islamic banking: interest-free or interest-based?",
- Hicks A., & Goo, S. H. (2008). Cases and materials on company law. London: Oxford University Press.
- Iqbal, Z. (1997), "Islamic financial systems", Finance & Development, Vol. 43, pp. 42-5.
- Md. Al-Mamun & Md. Abdul Hanana Mia: Origin of & Solution to Global Financial Meltdown: An Islamic View Received: March 21, 2012 Accepted: April 16, 2012 Online Published: June 16, 2012 doi:10.5539/ijbm.v7n12p114 URL:

http://dx.doi.org/ijbm.v7n12p114, www.ccsenet.org/ijbm International Journal of Business and Management Vol. 7, No. 12; June 2012 114 ISSN.

- Miskhin, F. (1997), "The causes and propagation of financial instability: lessons for policymakers in Federal Reserve Bank of Kansas City", Maintaining Financial Stability in a Global Economy, Proceedings of a Symposium, Kansas City, MO.
- Mohamed Ali Trabelsi, (2011),"The impact of the financial crisis on the global economy: can the Islamic financial system help?", The Journal of Risk Finance, Vol. 12 Iss 1 pp. 15 Permanent link to this document: http://dx.doi.org/10.1108/15265941111100049
- Mohamed Ali Trabelsi, (2011): article precite.& Fitoussi, J.P. (2008), "Crise financie`re et pouvoirs politique", Les entretiens de Valpre´, 29 September, pp. 16-23.
- Niall Ferguson (December, 2008). Wall Street Lays Another Egg, Vanity Fair.
- Pacific-Basin Finance Journal, Vol. 17 No. 1, pp. 125-44.
- Sanjai B., & Roberta Romano. (2007). Empirical studies of corporate law. Handbook of Law and Economics, 2.
- Siddiqi, M.N. (2008), 'The Current Financial Crisis and Islamic Economics', IIUM Journal of Economics and Management,16, 125–31.
- Stiglitz, J.E. (2011), 'The Anatomy of a Murder: Who Killed America's Economy', in Friedman, J. (ed.), What Caused the Financial Crisis. University of Pennsylvania Press, Philadelphia; 139–49.
- Tahir, S. (2009), 'Islamic Finance – Undergraduate Education', Islamic Economic Studies, 16.
- Thomas Lux. (1998). The socio-economic dynamics of speculative markets: interacting agents, chaos, and the fat tails of return distributions. Journal of Economic Behavior & Organization, 33(2), 143-165. http://dx.doi.org/10.1016/S0167-2681(97)00088-7
- Usmani, T. (2001) , 'An Introduction to Islamic Finance', Available at: http://www.mcca.com.au/uploads/58942/ufiles/an-introduction-to-islamic-finance.pd
- Usmani, T. (2010), 'Post-Crisis Reforms: Some Points to Ponder', in Schwab K. and DeGioia J.J. (eds) Faith and theGlobal Agenda: Values for the Post-Crisis Economy. World Economic Forum, Geneva; 51–4.
- Waechter, P. and You, M. (2008), Subprimes, la faillite mondiale?, Editions Alphe´e, Paris.

رابعا// القوانين:

- القانون المدني العراقي رقم 40 لسنة 1951 المعدل.
- قانون الشركات العراقي رقم 21 لسنة 1997 النافذ المعدل.
- قانون الشركات العامة العراقي رقم 22 لسنة 1997 النافذ.
- قانون المصارف العراقية رقم74 لسنة 2004.

خامسا// المواقع الالكترونية:

http://www.alro7.net/ayaq.php?langg=arabic&aya=29&sourid=4
http://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?p=309569

http://nusr.net/1/ar/nthm/nthm-iqtsd/513-nthm-igtsd-46
http://islamport.com/w/fqh/Web/1272/3372.htm
http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?idfrom=1816&idto=1819&bk_no=47&ID=761
https://ar.wikipedia.org/wiki

مستويات النشاط الاشعاعي الطبيعي ومؤشرات الخطر الاشعاعي في بعض انواع الاسمدة المستوردة المستخدمة في العراق

ميثم سلمان أمانة[1]، نجوى جاسم جبير[2]، صبا فرحان حطحوط[3]، صباح عباس فليح[4] وأيمان محمد عليوي[5]
(قسم الفيزياء- كلية العلوم- جامعة واسط) [1،2،3]
(مديرية بيئة واسط) [4،5]

Levels of natural radioactivity and radiological indicators of hazard in some types of imported fertilizer used in Iraq

Maitham S. Amana[1], Najwa J.Jubier[2], Saba F.Hathot[3], Sabah A. Flayyih[4] and Iman M. Allioui[5].

[1, 2,3] Physics Department, Sciences College, Wasit University, Iraq.
[4, 5] Directorate Wasit Environment.

Abstract:

The main objective of this research was to estimate the concentrations of natural radionuclides where the results of the analysis confirmed that the research samples contain significantly three radioactive isotopes are (Ra-226, Th-232 and K-40) to ten samples different originating from inorganic fertilizer imported. The estimations were done by utilizing NaI (Tl) detector which consists principally of 76×76 mm crystal size with 1024 a channel. The mean concentration of 29.02, 112.38 and 202.90 (Bq/Kg) for ^{232}Th, ^{238}U and ^{40}K, respectively. The arithmetic average radium content in research samples of fertilizers is higher than the global average, while the value of Th-232 and K-40 content within the internationally recommended limits. The calculated mean values of 167.24 Bq/Kg, 0.094mSv, 0.45and 0.75 for (Ra_{eq}, ED, H_{ex} and H_{in}) respectively, were less than the standard value, While the mean average values of 77.43 nGy/h for (D) are slightly more than the standard limit (UNSCEAR, 2000).

الكلمات المفتاحية: الاسمدة الفوسفاتية، النشاط الاشعاعي، الجرعة الاشعاعية .

المستخلص

في هذا البحث تم تحديد تراكيز النشاط الاشعاعي الطبيعي في عشرة نماذج من الاسمدة وذلك من خلال استخدام منظومة الكاشف الوميضي يوديد الصوديوم المنشط بالثاليوم NaI(Tl) بحجم (3×3) أنج وأظهرت نتائج القياسات أن مدى الفعالية الاشعاعية لليورانيوم-238 تتراوح بين (26.55- 514.16) بيكريل/ كجم وبمعدل 112.38بيكريل/ كجم، الثوريوم-232 (5.63-86.9) بيكريل/ كجم وبمعدل29.02 بيكريل/ كجم والبوتاسيوم-40 (31.84-515.83)بيكريل/ كجم وبمعدل 202.90 بيكريل/ كجم. ان محتوى الراديوم في عينات البحث من الاسمدة هو أعلى من قيمة المتوسط العالمي بينما كان محتوى Th-232 و40 -K ضمن

الحدود الموصى بها دوليا. أما بالنسبة لقيم الجرعة الممتصة في الهواء فقد تراوحت من 27.85 الى 243.50 نانو كراي/ ساعة وكان متوسط الجرعة الممتصة للعينات هو 77.43 نانو كراي/ ساعة وهي اعلى من القيم المتوسطة العالمية، وكذلك تم حساب مكافئ الراديوم حيث وجد أن قيمته تتراوح بين 60.11 إلى 527.16 بيكريل/ كجم وأن القيمة المتوسطة هي 167.24بيكريل/ كجم وهي اقل من القيمة المتوسطة المنشورة بواسطة (2000 , UNSCEAR). كما حسبت أيضا الجرعة السنوية الناتجة من المواد المشعة بالاسمدة ووجد أن قيمتها تتراوح من 0.03 ملي سيفرت الى 0.29 ملي سيفرت وأن القيمة المتوسطة هي 0.094 وهي اقل من القيم المتوسطة المنشورة عالميا والتي تبلغ قيمة مقدارها(1 ملي سيفرت). وبينت النتائج ان متوسط مؤشر خطر الاشعاع الخارجي كان 0.45 والداخلي0.75 لم يتجاوز القيم الموصى بها عالميا، واثبتت نتائج البحث ان متوسط المكافى الراديومي, مؤشر خطر الاشعاع الخارجي والداخلي للنماذج المدروسة كانت ضمن الحد المسموح به عالميا بالرغم من ارتفاع قيم الفعالية النوعية في بعض النماذج لذا فهي لا تشكل خطر على الكائنات الحية باستثناء عينة رقم(8).

1- المقدمة

خلال العقود الماضية توسعت الأنشطة الزراعية في العراق على نطاق واسع مما تسبب في زيادة استخدام الأسمدة غير العضوية، المبيدات الحشرية والمواد الكيميائية الزراعية الأخرى وذلك لزيادة إنتاج المحاصيل وتعزيز خواص التربة غير العضوية، اذ تتكون الأسمدة من مواد تحتوي على النيتروجين، البوتاسيوم والفوسفات وكذلك تحتوي على عناصر خطرة بما في ذلك المعادن الثقيلة مثل الكادميوم، الكروم، الرصاص والعناصر المشعة على سبيل المثال اليورانيوم، الثوريوم والراديوم التي يمكن اعتبارها خطرة على صحة الإنسان والحيوان [1]. نظرا لاستمرار الاستخدام الطويل الامد للاسمدة غير العضوية لهذا سوف تضيف المعادن الثقيلة والنويدات المشعة والتي يمكن أن تتراكم في التربة أي تراكيزها والتي تزداد مع مرور الوقت حيث ان تراكم الملوثات في التربة نتيجة للانشطة الزراعية على المدى الطويل يعتمد على تركيز النويدات المشعة في الأسمدة ، معدل الطلب السنوي من الأسمدة، الخصائص الفيزيائية والكيميائية للتربة وكذالك الخصائص الجيوكيميائية للملوث نفسه [2]. تعتبر الأسمدة مهمة جدا في الزراعة للحفاظ على خصوبة التربة والإنتاجية, بيد أنه قد يشكل مصدر من مصادر المواد المشعة التي يتم الحصول عليها من خامات الفوسفات المستخدمة في إنتاج الأسمدة غير العضوية وتكون مكوناتها الرئيسية مرتبطة مع المواد المشعة الطبيعية (اليورانيوم- 234، الثوريوم- 232، والبوتاسيوم- 40) ومنقوله من خام الفوسفات أثناء الإنتاج [3]. ان الأسمدة تعيد توزيع العناصر المشعة طبيعيا في مستويات ضئيلة في جميع أنحاء البيئة وتصبح مصدرا للنشاط الإشعاعي، وقد تساهم هذه الظاهرة في زيادة المخاطر الإشعاعية المحتملة بسبب التعرض الخارجي خلال فترة الاقامة في المزارع والتعرض الداخلي من خلال تناول الغذاء الذي يزرع في التربة والأسمدة [4]. قدمت العديد من الدراسات طرق مختلفة لحساب جرعات أشعة كاما على ارتفاع(1م) من سطح الأرض من النظائر المشعة الناتجة عن اليورانيوم والثوريوم وما ينتج عنهما من وليدات مشعة ضمن سلاسل الانحلال الإشعاعي في سطح التربة [5]. اجرى(Shahul Hameed, 2014) تحليل لبعض انواع الأسمدة الفوسفاتية المستخدمة بشكل شائع في الهند لايجاد تركيز نشاط U-238، Th-232 وكذلك K-40. من بين الأسمدة الفوسفاتية التي تم تحليلها السوبر فوسفات ألاحادي (SSP) حيث كانت تراكيزة (396.3 ، 23.3، 72.1 بيكريل / كغم) على التوالي، والسوبر فوسفات المركز الثلاثي(TSP) (284.2، 39.3 ، 56.3بيكريل / كغم) مسجلة أعلى مستويات من U-238 ومن نتائج التحاليل الاشعاعية للعينات تبين أن تطبيق الأسمدة الفوسفاتية رفع من مستوى

اليورانيوم في التربة [6]. وعمل الباحثان (Boukhenfouf ,w.and Boucenna,2011) على قياس النشاط الاشعاعي للتربة والاسمدة وكان الهدف الرئيسي من البحث هو تحديد محتوى النشاط الإشعاعي في العديد من الأسمدة التجارية التي تنتج في الجزائر ولتقدير تأثير الإشعاعي في التربة المزروعة التي تعرضت للتسميد على مدى طويل من الزمن وقد استعمل مطياف جاما لتحديد تركيز النشاط الطبيعي ^{226}Ra، ^{232}Th و ^{40}K لخمسة أنواع من العينات. وأظهرت النتائج أن هذه النويدات المشعة كانت موجودة في تركيز متوسط قدره 134.7 ± 24.1، 131.8 ± 16.7، 11644 ± 550 بيكريل / كغم للاسمدة من نوع NPK و190.3 ± 30، 117.2 ± 10.3، 5312 ± 249 بيكريل / كغم من اسمدة نوع (NPKs) و 47 ±7 ، 33 ± 7، 329 ± 19 بيكريل / كغم للتربة البكرغيرالمخصبة و 53 ± 10 50 ± 7 311 ± 18 بيكريل / كغم للتربة المخصبة و 1.93، 0.12 ، MDA> بيكريل / كغم لتربة استخدمت فيها مياه الآبار في الري على التوالي [7].

2- **الجانب العملي**

أ- تحضير العينات

تم طحن عينات الأسمدة إلى مسحوق ناعم عن طريق استخدام مطحنة الحبوب وغربلت من خلال منخل قطر الفتحة الواحدة فية 2 ملم، ثم تركت العينات لتجف في درجة حرارة الغرفة لمدة يوم واحد للحصول على وزن ثابت، ثم وزن كيلو غرام واحد (1kg) من كل عينة وتم تعبئتها فى عبوات اسطوانية من البلاستيك (مارنيلي بيكرسعة 1000مل) تم اختيارها لتناسب المساحة المخصصة لوعاء الكاشف وتركت العينات لمدة ثلاثون يوما بعد ان يتم غلقها باحكام للوصول الى حالة التوازن بين الراديوم ومتسلسلاتها قبل أن ينتقل للتحليل الطيفي لأشعة كاما من أجل تقييم تركيز النويدات الاولية، حيث تم تحليل عشرة انواع من الأسمدة المستوردة الشائع استخدامها كاسمدة في الاراضي الزراعية في الاسواق المحلية.

ب- النظام المستخدم للقياس

تم قياس تراكيز النشاط الاشعاعي لكل من Ra-226، Th-232 وK-40 باستخدام منظومة مطياف اشعة كاما (يوديد الصوديوم NaI) بحجم3×3 المنشط بالثاليوم لكل النوعيات المختلفة من عينات الأسمدة. يمتاز هذا النوع من الكواشف الوميضية بانة ذو كفاءة عالية حيث يعمل بفولتية تشغيل مقدارها 670 فولت وكفاءة تصل الى 60 % و تكون قابلية تمييز الكاشف للطاقة في حدود من 6.5 الى 8.5% من قيم الطاقة (0.662- 1.332) ميكا الكترون فولت، تحاط قاعدة الكاشف بدرع من الرصاص لحمايتة من الخلفية الاشعاعية وقد تم استخدام المصادر المشعة القياسية لمعايرة الطاقة للمنظومة وحساب كفاءة الكاشف.

3- **النتائج والمناقشة**

في هذا البحث، جمعت عشر عينات من الاسمدة المستوردة من بعض الدول العربية والاجنبية الشائع استخدامها في العراق . ادرجت بعض المعلومات عن تركيب ومنشا هذة الاسمدة بالاضافة الى الترميز والترقيم في جدول رقم(1).

جدول 1 : بعض المعلومات عن الاسمدة المستخدمة في البحث.

Sample number	Sample code	originating	Composition
1	P1	China	Humax Acid+10% K
2	P2	Germany	Humax Acid+11% K
3	P3	UAE	Magnesium nitrate
4	P4	UAE	Calcium nitrate
5	P5	USA	12N.6P.40K
6	P6	USA	10N.45P.10K
7	P7	UAE	20N.20P.20K
8	P8	Jordan	18N.40P.0K
9	P9	Finland	Peat moss
10	P10	Egypt	Super phosphate

تركيز النشاط الاشعاعي Activity concentration

ان تركيز(فعالية) النشاط الاشعاعي الطبيعي في كل عينة تم تقييمها في كاشف معين يمكن تحديدها باستخدام المعادلة التالية [8]:

$$A_S\left(\mathrm{Bq}\cdot\mathrm{kg}^{-1}\right)=C_a/\varepsilon P_r M_s \qquad \text{.....(1)}$$

حيث ان: A_S هو تركيز النشاط لكل عينة، C_a هو معدل عد الطاقة في الثانية الواحدة، ε هي كفائة الكاشف، P_r احتمالية انتقال الطاقة وM_s هو وزن العينة بوحدات الكيلوغرام.

تم في هذا البحث تعيين مستويات تركيز العناصر المشعة لسلسلة اليورانيوم-238 وتشمل عنصر الراديوم-226 وسلسلة الثوريوم-232 وتشمل عنصر الراديوم-228 (الاكتينيوم) وكذالك عنصر البوتاسيوم-40 كما هو مبين في جدول رقم(2).

من خلال النتاج المبينة في الجدول اعلاة، وجد أن أعلى قيمة لتركيز الراديوم-226 هي 514.16 بيكريل/ كجم في عينة رقم 8 وأن اقل قيمة 26.55 بيكريل/ كجم وجدت في عينة رقم 5 و أن قيمته المتوسطة هي 112.38 بيكريل/ كجم. ان حوالي 70٪ من القيم المسجلة من Ra-226 كانت أعلى من قيمة المتوسط العالمي والذي تبلغ قيمتة 35 بيكريل/ كجم حسب توصية لجنة الأمم المتحدة للعلوم المعنية بآثار الإشعاع الذري [9]. ويبين الشكل رقم (1) توزيع تراكيز نشاط Ra-226 من النويدات المشعة لسلسلة اليورانيوم- 238 في عينات الاسمدة.ويمكن أن يعزى ارتفاع مستوى U-238 إلى محتوى خامات الفوسفات العالي في هذة الأسمدة الناتج من عملية الخلط مع عناصر النيتروجين والبوتاسيوم وكذلك يرتبط اثراء U-238 في الأسمدة الفوسفاتية إلى تركيزالنويدات البدائية العالية في الفوسفات والعمليات الكيميائية المشاركة في إنتاج الأسمدة.ومن الجدير بالذكر، عندما يتم معاملة خام الفوسفات مع حامض الكبريتيك لإنتاج حامض الفوسفوريك والفوسفات فانة خلال عملية التحميض يتركزمحتوى اليورانيوم الموجود في الفوسفات في حامض الفوسفوريك [10].

جدول 2: تراكيز النشاط الاشعاعي لليورانيوم، الثوريوم والبوتاسيوم

Sample Code	Activity Concentration (Bq/Kg)		
	U-238 (Ra-226)	Th-232 (Ac-228)	K-40
P1	34.5	23.77	266.6
P2	35.06	34.27	202.9
P3	50.39	11.52	60.35
P4	49.06	5.63	42.86
P5	26.55	54.35	515.83
P6	65.2	16.6	276.69
P7	39.86	86.9	450.06
P8	514.16	7.2	38.65
P9	146.6	7.05	143.23
P10	152.43	42.73	31.84
Average	**112.38**	**29.02**	**202.90**

اما بالنسبة لسلسلة الثوريوم-232، فقد وجد أن أعلى قيمة لعنصر الراديوم-228 هى 86.9بيكريل/ كجم في عينة رقم 7 وان اقل قيمة 5.63 بيكريل/ كجم وجدت في عينة رقم 4، وان القيمة المتوسطة هي 29. 02 بيكريل/ كجم كماهو مبين في شكل رقم (2) ، وهي ضمن الحدود الموصى بها دوليا حسب لجنة الأمم المتحدة العلمية المعنية بآثار الإشعاع الذري (UNSCEAR. 2000) والذي تبلغ قيمتة 35 بيكريل/ كجم. أما بالنسبة للبوتاسيوم- 40 فقد وجد أن أقل قيمة له هي 31.84 بيكريل/ كجم والتي وجدت في عينة رقم 10وأن اعلى قيمة هي 515.83 بيكريل /كجموجدت في عينة رقم5 و أن قيمته المتوسطة هي 202.90بيكريل/ كجم. كماهو مبين في شكل رقم (3)، على الرغم من التباين الواسع(31-515 بيكريل /كجم) في مستوى النويدات المشعة البدائية (الاولية) الموجودة في الأسمدة الفوسفاتية الا ان 80% من العينات كانت اقل من قيمة المتوسط العالمي والذي تبلغ قيمتة 370 بيكريل/ كجم. و ترجع اسباب ذلك الى ارتباطه بالتباين الجيولوجي الواسع في استخراج وتجهيز الخامات والمواد الكيميائية التي تشارك في إنتاج الأسمدة.

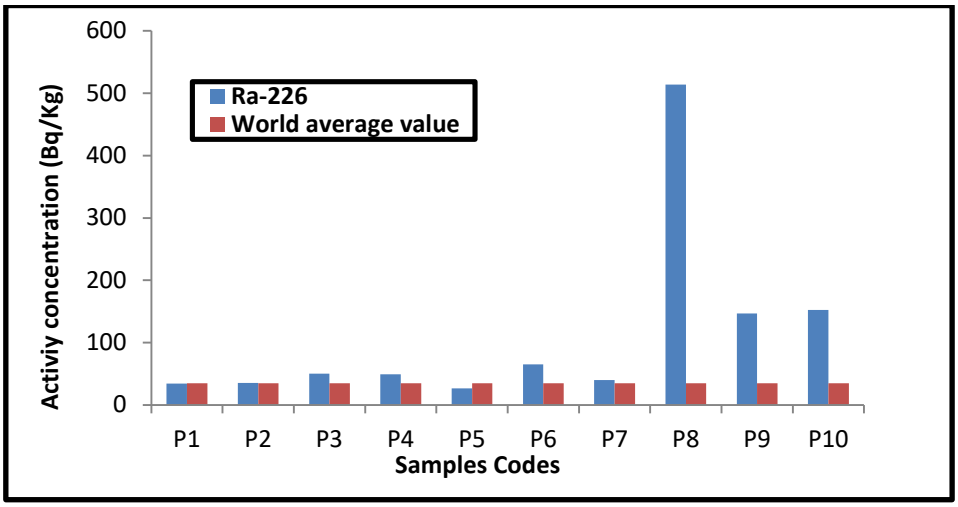

شكل1 : تركيزالنشاط الاشعاعي للراديوم-226 في عينات الاسمدة.

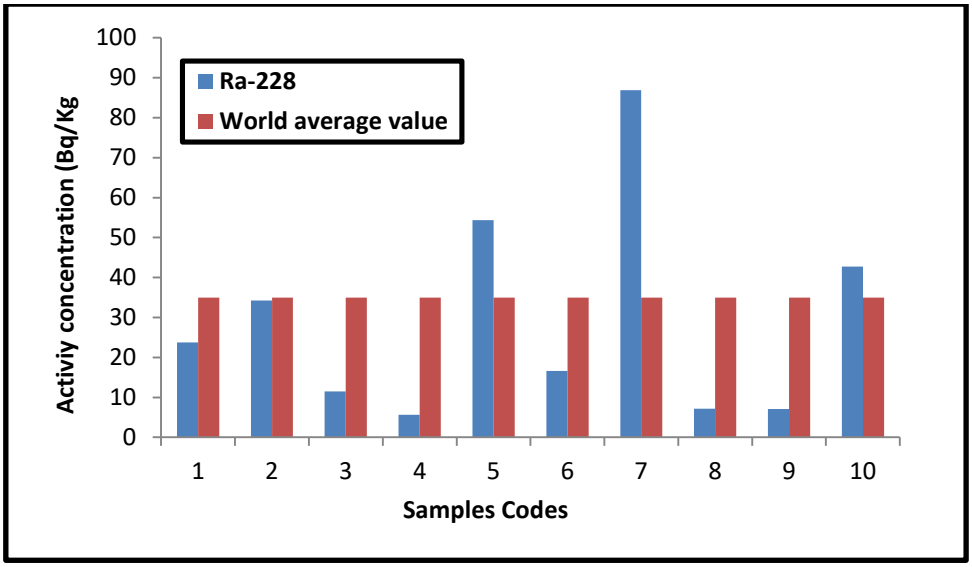

شكل2 : تركيزالنشاط الاشعاعي الراديوم-228 في عينات الاسمدة.

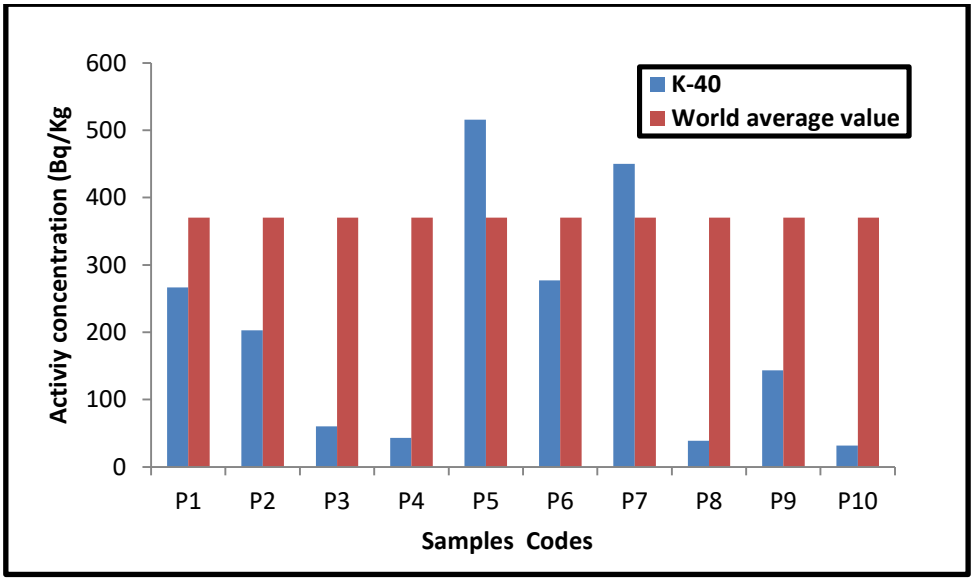

شكل3 : تركيزالنشاط الاشعاعي البوتاسيوم-40 في عينات الاسمدة.

المكافئ الراديومي (Ra_{eq})

يمكن استخدام مصطلح المكافئ الراديومي Ra_{eq} لمقارنة نشاط معين من المواد التي تحتوي على كميات مختلفة من ^{226}R، ^{232}Th و ^{40}K وذلك نتيجة لتوزيع النويدات الاولية غير المنتظم في الصخور والتربة. يمكن حساب المكافئ الراديومي من المعادلة التالية [11][12]:

$$Ra_{eq} = C_{Ra} + 1.43C_{Th} + 0.077C_K \quad \ldots\ldots\ 2$$

حيث ، C_{Ra}: نشاطية الراديوم-226، C_{Th}: نشاطية الثوريوم و C_K:نشاطية البوتاسيوم بوحدات البيكريل/كغم.

حيث تم حساب القيمة المكافئة للراديوم في الاسمدة كما هو مبين في جدول (3) والشكل(4)، وقد وجد أن قيمته تتراوح بين 60.11 إلى 527.16 بيكريل/ كجم وأن القيمة المتوسطة

هي167.24 بيكريل/ كجم وهي اقل من القيمة المتوسطة المنشورة عالميا من قبل لجنة الأمم المتحدة للعلوم المعنية بآثار الإشعاع الذري، والتي تبلغ (370 بيكريل/ كجم) وذلك لضمان عدم تجاوز حدود الجرعة الفعالة السنوية إلى 1 ملي سيفرت [9].

معدل الجرعة الممتصة (D)

يمكن حساب الجرعة الممتصة (D) باستخدام الصيغة التالية [13]:

$$D = 0.462\ C_{Ra} + 0.604\ C_{Th} + 0.0417\ C_K \quad \ldots\ldots\ldots 3$$

حيث C_{Ra}: نشاطية الراديوم-226، C_{Th}: نشاطية الثوريوم و C_K: نشاطية البوتاسيوم بوحدات نانو كراي/ ساعة. حيث تم حساب الجرعة الممتصة التي يتعرض لها الإنسان خارجيا على بعد 1 متر من سطح الارض ومقارنة القيم المحسوبة في هذا البحث بالقيم المنشورة ووجد إن هذه القيم أعلى من القيم المنشورة بواسطة اللجنة العلمية في خمسة انواع من الاسمدة كما هو مبين في جدول (3)، علما ان متوسط الجرعة الممتصة للعينات هو77.43نانو كراي/ ساعة وهي اعلى من القيم المتوسطة المنشورة بواسطة UNSCEAR 2000 والتي تبلغ (55 نانو كراي/ ساعة) كما موضح في شكل(5)، ويرجع السبب في ذالك بسبب التراكيز العالية في سلسلتي اليورانيوم والثوريوم.

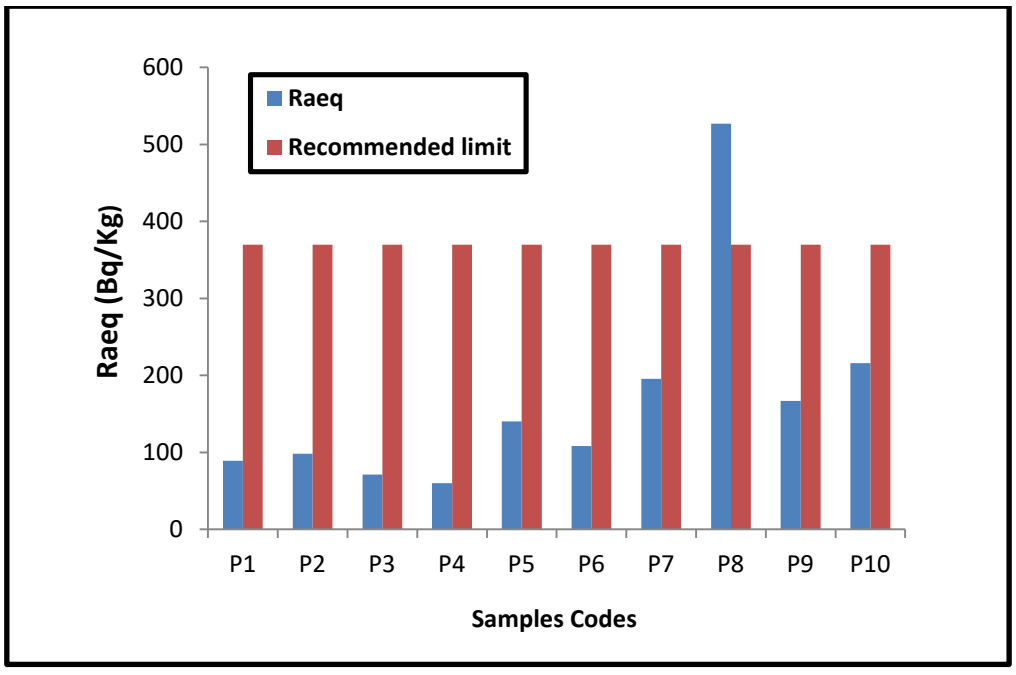

شكل4: مستويات المكافئ الراديومي في عينات الاسمدة.

الجرعة الفعالة السنوية

يمكن تقدير الجرعة السنوية الفعالة في الهواء الطلق(ED) وذلك من خلال المعادلة التالية [9] :

$$ED = D \times 8766\ h/yr \times 0.7(Sv/Gy) \times 0.2 \times 10^{-6} \quad \ldots\ldots\ldots 4$$

حيث يمثل D: معدلات الجرعة الممتصة في الهواء (nGy/h)، (0.7Sv/Gy) :معامل التحويل من معدل الجرعة الممتصة في الهواء إلى الجرعة الفعالة و (0.2): عامل الإشغال في الهواء الطلق.

الجدول (3) الذي يبين مقدار الجرعة السنوية الناتجة من المواد المشعة بالعينات، وجد أن متوسط هذه القيمة هي 0.094 ملي سيفرت لجميع العينات وهي اقل من القيم المتوسطة المنشورة بواسطة UNSCEAR , 2000. ان معدلات الجرعة الفعالة لجميع العينات لم تتجاوز القيمة الموصى بها 1 ملي سيفرت/سنة. ولذلك، فإن جميع العينات التي تم تحليلها في العمل الحالي تستوفي معيار السلامة العامة للجمهور.

مؤشر خطر الإشعاع الخارجي والداخلي (H_{in} وH_{ex}) من النويدات المشعة الطبيعية

يسمى أيضا مؤشر مستوى التمثيل، وتم إحتسابة من المعادلتين التاليتين[11]:

$$H_{ex}= C_{Ra}/ 370 +C_{Th}/ 259 + C_K/ 4810 \leq 1 \ldots\ldots 5$$

$$H_{in}= C_{Ra}/185 + C_{Th}/259 + C_K/4810 < 1 \ldots\ldots .6$$

حيث C_{RA}، C_{Th} وC_K لها نفس المعنى كما هو الحال في معادلة رقم (2).

ورتبت قيم هذا المؤشر في الجدول(3) والموضحة في الشكل رقم (6) ، حيث تراوحت مستوياتة من 0.16 الى 1.42وبمتوسط مقدارة 0.45 ، وهو أقل من مستوى دليل هذا المؤشر. ويجب أن تكون قيمة هذا المؤشر أقل من وحدة واحدة لكي يتوافق مع الحد الأقصى من الجرعة المكافئة الراديوم (370 Bq/kg) من أجل الابقاءعلى الخطر الإشعاعي بصورة ضئيلة.

ان التعرض الداخلي لغاز الرادون هي من الامور الخطرة جدا والتي يمكن أن تؤدي إلى أمراض الجهاز التنفسي مثل الربو، تراوحت مستوياتة من 0.29 الى 2.81 وبمتوسط مقدارة 0.75 ويجب ان تكون قيمة هذا الموشر اقل من وحدة واحدة لكي تبقى قيمتة مهملة غير موثرة وهذا يعني أن الجرعة الإشعاعية هي أقل قيمة من الحد المسموح به 1mSv/y الذي أوصت به الوكالة الدولية للطاقة الذرية (IAEA 2007)، [14] كما هو مبين في جدول(3) وشكل رقم (6).

جدول 3: المكافئ الراديومي Ra_{eq} ، معدل الجرعة الممتصة D ، الجرعة الفعالة السنوية ED ومؤشر الخطر الخارجي والداخلي H_{in} و H_{ex}.

Sample Code	Ra_{eq} Bq/Kg	Absorbed Dose Rate (nGy/h)	Effective Dose Rate (mSv/year)	external hazard	internal hazard
P1	89.01	41.41	0.05	0.24	0.33
P2	98.26	45.35	0.05	0.26	0.36
P3	71.08	32.75	0.04	0.19	0.32
P4	60.11	27.85	0.03	0.16	0.29
P5	140.37	66.60	0.08	0.38	0.46
P6	108.32	51.69	0.06	0.29	0.47
P7	195.63	89.67	0.10	0.53	0.64
P8	527.16	243.50	0.29	1.42	2.81
P9	166.70	77.96	0.09	0.45	0.84
P10	215.76	97.55	0.12	0.58	0.99
Average	167.24	77.43	0.094	0.45	0.75

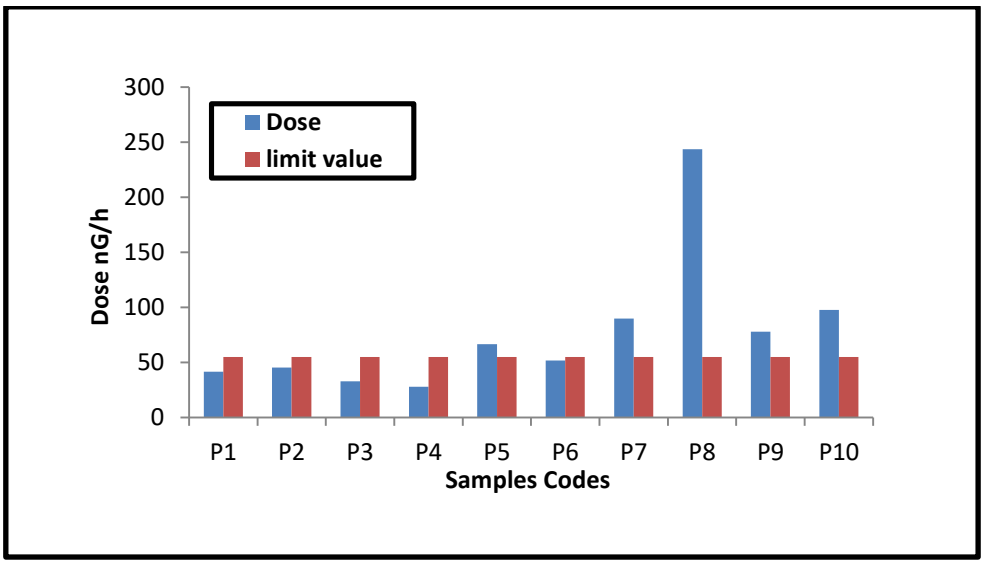

شكل5 :مستويات الجرعة الممتصة للهواء في عينات الاسمدة.

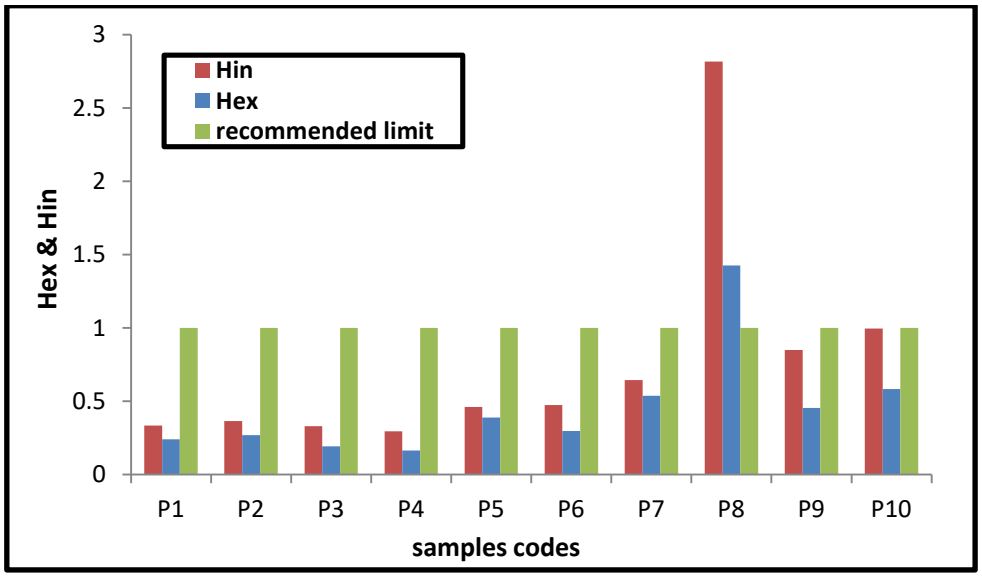

شكل6 :مستويات الإشعاع الخارجي والداخلي في عينات الاسمدة.

4- الاستنتاج والتوصيات

ان الهدف الرئيسي من هذا البحث هو تقدير مؤشرات المخاطر الصحية للإشعاع المرتبطة بالتعرض للاسمدة الفوسفاتية و تقييم مستويات النويدات المشعة الإشعاعية فى عينات من الاسمدة المستوردة التي تم تجميعها من السوق المحلية. وقد وجد أن القيمة المتوسطة لتركيز اليورانيوم -238 هو 112.38 بيكريل /كغم ولعنصر الراديوم- 228هي 29.02 بيكريل/ كغم أما بالنسبة لعنصرالبوتاسيوم- 40 فقد وجد أن قيمته المتوسطة هي 202.90 بيكريل/ كغم. كذلك تم حساب القيمة المكافئة للراديوم -226 في الاسمدة ووجد أن القيمة المتوسطة هي 167.24 بيكريل/ كغم وان متوسط الجرعة الممتصة هي 77.43 نانو كراي/ ساعة . أيضا تم حساب الجرعات السنوية الناتجة من المواد المشعة بالاسمدة ووجد أن متوسط هذه القيمة هي 0.103 ملي سيفرت .ومتوسط خطر الاشعاع الخارجي والداخلي كان0.45 و0.75 على التوالي وهي ضمن الحدود المسموح بها دوليا. وقد لوحظ من حلال نتائج القيمة المتوسطة للمكافئ الراديومي إلى أن خطر الإشعاع من النويدات المشعة البدائية في عينات الاسمدة في هذا البحث الحالي أقل من المتوسط العالمي وتقع ضمن حدود آمنة وفقا للجنة الدولية للوقاية من الإشعاع (ICRP) باستثناء عينة رقم(8). ومع ذلك، فإن الاستخدام الطويل الامد للأسمدة يمكن أن يكون لها تأثير تراكمي(للمواد المشعة) في التربة والتي يمكن أن تكون ضارة لصحة المزارعين والمستهلكين من المنتجات الزراعية. إن البيانات التي تم جمعها من هذه الدراسة يمكن ان تساعد في تطوير قاعدة بيانات مرجعية حول هذا الموضوع الهام بحيث أن أي تغيير في هذا الصدد في المستقبل بسبب اي نشاط اشعاعي يمكن التأكد منه ويمكن أن تؤخذ قياسات السلامة من الإشعاع وفقا لذلك.

REFERENCES

1- Mortvedt, J. J ., Sikora F. J. **" Heavy metal, radionuclides, and fluorides in phosphorus fertilizers"** In F.J. Sikora, ed. Future directions for agricultural phosphorus research TVA Bulletin Y-224. Muscle Shoals, USA,1992,pp. 69-73.

2- Brigden, K. Stringer, R. Santillo, D. **"Heavy metal and radionuclide contamination of fertilizer products and phosphor gypsum waste produced by the Lebanese Chemical Company"** Greenpeace Research Laboratories Technical Note 13,2002: 16p.

3- Ogunleye, P.O., Mayaki, M.C., & Amapu, I.Y**"Radioactivity and heavy metal composition of Nigerian phosphate rocks: possible environmental implications"** Journal of Environmental Radioactivity, 62,2001 ,pp. 39–48.

4- Rehman , N., Imtiaz, M. Faheem and Matiullah **"De-termination of 238U Contentsin Ore Samples Using CR- 39 Based Radon Dosimeter Disequilibrium Case"** Radia- tion Measurements, Vol. 41, 2006, pp. 471- 476.

5- Huang B, Kuo S, Bembenek R**"Availability of cadmium in some phosphorus fertilizers to field-grown lettuce. Water, Air, and Soil Pollution "**158, 2004, pp.37-51.

6- Shahul p. Hameed, G. Sankaran Pillai, R. Mathiyarasu.**"A study on the impact of phosphate fertilizers on the radioactivity profile of cultivated soils in Srirangam (Tamil Nadu, India)"** Journal of Radiation Research and Applied sciences. 2014,pp. 4 6 3- 4 7 1.

7- Boukhenfouf ,w.and Boucenna,A. **"The radioactivity measurements in soils and fertilizers using gamma spectrometry technique"** Journal of Environmental Radioactivity, 102, 2011, pp. 336–339.

8- Lalit, B. Y., and. Ramachandran, T. V.**"Natural Radiation Environment,"** 3rd Edition, Department of Energy.1980,pp. 800.

9- UNSCEAR **"United Nations Science Committee on the Effects of Atomic Radiation Report to the General Assembly, with Scientific Annexes"** United Nations, New York,2000.

10- Mazzilli, B., Palmiro, V., Saueia, C., & Nisti, M. B.**"Radiochemical characterization of Brazilian phosphogypsum"**Journal of Environmental Radioactivity Journal of, 49(1),2000, pp.113-122.

11- Beretka, J., and Mathew, P. J. **"Natural radioactivity of Australian building materials, industrial wastes and byproducts**" Health Physics, 48, 1985,pp. 87-95.

12- Sroor, A., Afifi, S., Abdel-Haleem, A., & Abdel-Sammad, M." **Environmental pollutant isotope measurements and natural radioactivity assessment for North Tushki area**" South Western desert, Egypt,2002.

13- Quindos, L. S., Fernandez, P. L., Soto, J., Rodenas, C. and Comez, J. " **Natural radioactivity in Spanish soils**" Health Physics, 66(2),1994,pp. 194-200.

14- IAEA"**International Atomic Energy Agency**" Safety Glossary, Terminology used in Nuclear Safety and Radiation Protection- 2007 Edition.

.

الهوية وتحولات المكان في رواية مثل زهرة مجففة لمحمود يعقوب

ا.د. ضياء غني العبودي و الباحث : حوراء شهيد حسين
قسم اللغة العربية /كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة ذي قار /العراق

ملخص :

يسهم المكان في تشكيل الهويات فالبحث عن الكيان والهوية يأخذ شكل الفعل عن المكان لتحويله إلى مرآة ترى فيها الأنا صورتها ،،وقطعا حين يكون الفرد بلا جماعة يكون بلا حماية ، بلا امن ، وهذا ما تجسده هذه الرواية (مثل زهرة مجففة)اذ يعيش البطل حالة من الاغتراب كما في رحلة إلى الخليج العربي أولا ومن ثم إلى بحر النجف ومن ثم في ارانم هولندا حيث الموت النفسي والعودة إلى الموطن الأول والموت الحقيقي.

Contributes to the place in the formation of identities quest for the entity and identity takes the form of the verb for the place to turn it into a mirror in which you see the ego its image, and, certainly, while the individual is no group is without protection, without security, and that's what embodies this novel (such as dried flowers) as living hero case of alienation as a trip to the Persian Gulf first and then to the Sea of Najaf and then in the Netherlands, where Aranm psychological death and return to the first real home, and death .

المقدمة :

يحتل المكان أهمية مميزة في النصوص الروائية ، فقد منح الكتّاب أهمية خاصة للمكان ، اذ إنَّ طبيعة الحدث وهوية الشخصية تتحدد في بعض تلك الأعمال بمكان السكن أو العمل أو الفضاء التي تعيش فيها تلك الشخصية ، حتى يبدو من تلك الأماكن أنَّ هوية الانتماء فيها شيئا مكتسباً أكثر مما هو معطى ، ولا سيما في رواية (مثل زهرة مجففة) للكاتب محمود يعقوب ، إذ بدأت الرواية وكأنها ترسم صراعا بين هوية معطاة وأخرى مكتسبة ، وإذا كان هذا بحد ذاته ليس جديدا أو مستغربا في عوالم السرد الروائي أو غيره من الأجناس ، فان اللافت هو دور المكان في كل ذلك وطبيعة الهوية التي يتمخض عنها الانتماء إلى المكان ، والاختيارات التي يقوم بها الكاتب بين مكان وأخر وتحريك الشخوص على هذا الأساس .

فالمكان ليس (موقع) الحدث فحسب ، بل أنه دافع ومحرك للحدث ومسبب لكل ما تقوم به الشخصيات من حركه داخل العمل الأدبي ، و هو واحد من العناصر التي يتخلّق وعي الإنسان وتتشكلّ تجاربه عبر تماسه معها ، فهو بذلك ليس وعاءً مجرداً لوقوع الحدث ، أو حيزاً للحياة فحسب ، بل صورةً مهمةً من صور وجودها .

ويسهم المكان في تشكيل الهويات فالبحث عن الكيان والهوية يأخذ شكل الفعل عن المكان لتحويله إلى مرآة ترى فيها الأنا صورتها ، ويستمد المكان دلالته من تعامل الشخصيات معه فهو لا يحمل قيمة ذاتية خارجية بل قيمته النصية تؤسسها علاقة الشخصيات به لان الإنسان هو الذي يسقط عليه الدلالة التي يعبر بها من الوجود الجغرافي والهندسي الجاف والأجوف إلى الوجود المكثف والثري بالمداليل والمعاني [1]

في ملاحظتنا للمكان الذي عاش به البطل في رواية (مثل زهرة مجففة) نشخص أربعة أمكنة عاشها البطل ، والمهنة التي امتهنها البطل في تلك الأماكن، وطبيعة تلك الأماكن سواء كانت منطقة سكنية معتاشة أو صحراء جرداء ، والجانب النفسي لبطل الرواية في تلك الأماكن من حيث تأقلمه وعدم تأقلمه في ذلك المكان وانعكاس ذلك في سلوكياته وأفعاله ، والشخصيات التي صادقته في تلك الأماكن وأثرها في تلك الشخصية، وفي تأصيل انتسابه للمكان أو عدمه ، بمعنى أخر شعوره بالانتماء إلى تلك البيئة من خلال قوة ارتباطه بتلك الشخصيات والعوالم المحيطة به ، كما القينا الضوء على أبرز الألفاظ التي وردت في تلك الأمكنة ودلالاتها .

وسنركز الحديث هنا على الأماكن التي تنقلت فيها الشخصية وهي : الأهواز البلد الأساس للبطل ستار ورحيله إلى الخليج الذي تضمن مكانين الصحراء ، وأجواء الحاضرة ، وبحر النجف ، وهولندا المحطة الأخيرة التي فقد فيها البطل شخصيته وهويته وانتمائه وإحساسه بالضياع الحقيقي . محاولين الإجابة عن السؤال الآتي : ما الذي يحدد هوية الشخص ، هل هو المكان ، أم العادات والتقاليد والأعراف ، أم التفاعل مع الآخر؟ .

الأهواز :

على ضيق الحيز الذي شغله هذا المكان في الرواية إلا أنه يمكن رصد هذا المكان وما يمثله من بيئة ريفية جميلة تحيط بها المياه والنخيل ، إلا أن بطل الرواية هُجِّر قهرا منه بسبب قضية مخلة بالشرف قام بها ابن أخيه . اما الشخصيات التي كان البطل يعيش بين أحضانهم فهم عائلة أخيه وأصدقائه دون ذكر اسم أي واحد منهم ، و حبيبة البطل ستار الحايف ، اكتفت الرواية بإشارات أو تلميح عنها . (إنه لم يلحق أن يودع أصدقاءه ، ولا حتى أن يخطف ساقيه ، وبخف إلى الثوب البرتقالي ذي المربعات الصفر، والحمر ، والبنية الغامقة ، ليدفن وجهه فيه ، ويشم منه العطر الفارسي الدفين ، ويسمع النهنهات والآهات ، عبر النحر الأبيض ، الحنون)[2]

أمّا المهنة التي كان يعمل بها البطل في المدينة فهي موظف في معمل للتمور . وكان ذا حالة مزاجية متقلبة تزدريه العائلة وتنزعج بسببه أيما انزعاج . (كلما قدموا له الشاي ثار على الفور ، وصاح محتجا: انه خفيف جدا مثل بول الرضيع ،ثم يرفع قدح الشاي إلى مستوى

عينيه وينظر من خلاله وهو يردف قائلا : ها أنذا أرى البصرة ، ذلك هو الفاو وتلك هي السيبة) [3]

وتأتي عناصر الطبيعة الاهوازية ملهمة للشخصية ومعبرة عن فكرة المكان التي سوف يغادره ستار الحايف من دون رجعة ، ولكنها تقبع في ذاكرته ، فقدمت الرواية أوصافا للطبيعة في منطقة الأهواز النخيل الذي يرمز إلى أصله الاهوازي فهي قديمة قدم الإنسان لا بل يقال إنَّها وجدت قبل أن يوجد الإنسان نفسه [4] وكما معروف أنَّ للنخلة مدلول ديني فقد ورد ذكرها في القران الكريم إذ التجات إليها السيدة مريم (عليها السلام)عندما خافت وجاءها المخاض وكانت بالنسبة اليها المكان والمأكل الأمان ، والجذوة الأولى لولادة نبي الله عيسى عليه السلام[5] وبذا يكون النخيل الأصل الذي انطلق منه البطل للخوض في معتركات الحياة المستقبلية .وكذلك المياه في رواية فقد عد النهر وسيلة للعبور أو الانتقال من المكان الأساس الأهواز إلى المكان الجديد أو الوجهة الجديدة من دون ان يحددها يقول :.

((إلى أي مدينة ستلجأ؟ ، لن الجأ إلى أية مدينة ،كيف؟ ، سأهاجر إلى الخليج أتطلع إلى مستقبل أفضل هناك ، يكفي أنني عملت في التمور سنينا دون طائل ،هل خططت للأمر جيداً؟ لايحتاج الأمر إلى تخطيط ، سأعبر الشاطئ وامضي)) (6) وكأنه بذلك يريد أن يحيا حياة أخرى جديدة غير التي كان يحياها ،ويتطلع إلى مستقبل جميل من هذا اختار طريق المياه رمزا للحياة الجديدة أو الولادة الجديدة التي سوف يولد بها .

الخليج / الكويت

الصحراء :

على الرغم مما تمثله الصحراء من حيز مكاني مجدب لما تحمله من خاصية جدب وما يترتب على تلك الخاصية من مجهولية مصير وخطر داهم يضاعفه اتصال الصحراء واتساعها جغرافيا [7] ، إلا أن هذه الدلالة لم نجدها في النص فحين وطأت قدما ستار الصحراء تحولت إلى مكان أليف، يألفه ويعتاش فيه، فارتبطت به ارتباطا وثيقا لاسبيل إلى فصله، وأصبح لها حضورا مكثفا حتى بعد رحيله عنها ، وأصبحت قوة فعالة مؤثرة في حياته (8) وإنْ كانت البدايات مغايرة لذلك((كان اليوم الأول في الصحراء غريبا ويائسا...يوما مترعا بالحنين إلى موطنه ومليئا بمزيج ممض من الحيرة، والدهشة، والإحباط)) [9]

فبعد معاناة طويلة في الأهواز توقف قطار محطته عند الصحراء القاحلة ، التي لا تحدها جدران، أحس فيها ستار الاهوازي بالغربة والحنين إلى وطنه ، والخوف من المستقبل ، لكنه سرعان ما إلف تلك الأمور وأصبح جزءا منها ، وأصبحت له عائلة ترعاه وتخاف عليه ، وهو يبادلها الشعور نفسه في الحب والاحترام ، عائلة أبو قمر التي احتضنته وأنزلته منزلة الابن، احرق ستار الحايف كل ما يتعلق بهويته الاهوازية، وذلك بدعوى أو نصيحة من أبي قمر، ولم

يعد يحمل من تلك الشخصية سوى الاسم ، فقد تغيّر لون وجهه وهندامه وطريقة حياته وأخيرا أحرق أوراقه ، ((ولكن الصحراء راحت تدبغه وبدا يتعلم دروسها وكان أول درس تعلمه واحتفظ به لنفسه أن الإنسان حر طليق لا تغل أقدامه الجدران)) [10]

((وهو يعتمر الكوفية العربية ، التي أحس بها في تلك الأيام وكأنها شعر مستعار فوق رأسه))[11]

أما هويته التي أحرقها وتصاعدت على شكل بخار نحو السماء نحو الفضاء الأعلى والذي أصبح بعدها متشردا لا يحمل سوى اسمه ((الآن بت مشردا تماما لا احمل سوى اسمي)) [12] .

وهذا الانسلاخ والتخلي عن الهوية جاء بمجرد شعور الشخصية بخطر تلك الأوراق في حالة وجودها معه((جميع هذه الأوراق ليست بذي نفع بعد اليوم مادمت لاتنوي العودة إلى بلادك وعلى العكس من ذلك فهي تشكل خطرا دائماً عليك ، وأنت تحفظها في طيات ثوبك ، ليل نهار)) [13] وبذلك يحرق هويته ، ويكون خارجاً على كل القوانين المتعلقة بالحقوق والواجبات. إنَّ أي مكان يلجأ إليه البطل حتى وإنْ قبله غريباً عنه فانه يجعله من رعايها ، أي أنَّه يمنحه درجة أقل من الحماية ، وبذلك يشعر الفرد . رغم اندغامه في جماعة . بانه مقطوع الجذور ، ولعل عدم الاستقرار على وطن واحد في اللجوء دليل على ذلك وكما سنلحظ ذلك ، فعندما يكون الفرد بلا جماعة يكون بلا حماية ، بلا امن ، ولذلك يعيش حالة من الاغتراب ، فالمكان الخالي القفر يتحول إلى مرآة عاكسه لذات الشخصية ، يعكس نفسه الخالية الموحشة، فكانت الصحراء المكان الواسع ممتزجة بالشعور بالحرية ولكنه شعور مبطن بالغربة.

اعتاش ستار الحايف في تلك البيئة التي أحبها واخذ يتعود على أكلها وشربها . ((في تلك الأماكن تعلم كيف يقنص اليرابيع الصحراوية ..... واتقن ذبحها وسلخها، وشيها على نيران العرفج)) [14] وأصبح له صديق من الحيوانات يفهمه وتفهمه وهي ناقته . نجوان . واصل السير يا نجوان ،((في ارضي الله الفسيحة لم يعد ستار يخشى من شيء واجه بعض المرات الذئب والضبع ، ولكن ذلك لم يوقفه))[15] فهو مكان عام لا يخضع لسلطة أحد ، يعكس الشعور بالحرية التي جيل عليها ، إنها الفضاء الواسع المفتوح لاحتضان ألم الشخصية والتخفيف من وطأة إحساسه بالغربة ، كيما يشبع نزعته في توحد النفس مع أشخاص يجد لديهم الحب الفطري ، ففي ما استبدله إغراء لنزعة الحصول على الانتماء ، بما يحقق القفز خارج ذلك النظام الصارم ، وتحقيق الحرية المطلقة ، والقضاء على غربته النفسية والمكانية ، فهي أشبه بالملجأ الآمن حين تضيق به الآفاق ، إن العيش في الصحراء جاء في سبيل تعزيز وجوده الإنساني.

إذاً اكتسب ستار الحايف هوية جديدة ومكانا جديدا ،لم يتغير فيه شكله وملبسه وطعامه فقط ، بل نفسيته المزاجية الصاخبة التي كان اعتادها في بلاده الأهواز ، وأصبح شخصا محبا للآخرين والآخرين محبين له ، أثرت تلك الصحراء فيه قلبا وقالبا، الوظيفة التي كان يعمل بها في تلك الإرجاء الواسعة الرعي حيث كان راعيا عند أبي قمر ، هام حبا بتلك العائلة البدوية وأصبحوا أهله وعشيرته وهويته ((يتعلق بتلك الحياة الحرة الهائمة ، ويهيم حبا بأولئك البدو الطيبين ، ويجد فيهم أهله وعشيرته))[16]

ولم يكن تأثير الحياة في البيئة الصحراوية على المكان والشخصية فقط، بل شمل الزمن بتمثلاته ،فالليل مثل رمز الهدوء والسكينة، وعلى الرغم من طوله في البادية إلا أنه لم يمكن يحس به مطلقا وسرعان ما ينقضي ويأتي الفجر معلنا بدء يوم جديد من حياة ستار في تلك الصحراء ((على الرغم من ان ليل البدو طويل ، لكنه مر كأنه بضع دقائق هكذا أحس ستار))[17] ((هكذا يبدو الليل رقيقا في الصحراء ، اذ ترتفع فوق الفلوات والبوادي فيه قبة سماوية من الياقوت الأزرق مرصعة بالنجوم مثل ثلج ابيض))[18]

إذ يمضي في وصف الليل وصفا جميلا من أجل الانتقال من الحالة الواقعية للمكان الصحراوي والشخصيات إلى خيال غير محدد الأبعاد مما جعل الرواية تمتلك فضاءً واسعاً [19].

وشاركت الأمطار التي هطلت وغطت تلك البوادي الشاسعة في إثارة الفرحة في نفوس سكانها ، إذ كانت تبث فيهم الحياة والثبات والاستقرار في تلك البقعة أطول مدة ممكنة ، إذ توفر لهم العشب والكلأ وتغني مواشيهم وما إلى ذلك .((وكان من الصعب بل من غير المعقول التصديق ان الصحراء تصير بحرا ، وفي الليل الصافي بانت المناظر خلابة تشع سحرا! فكل شيء حولهم صار سماء ،سماء فوق ، سماء تحت)) [20] لكن لم يستمر ذلك المنظر الخلاب الباعث للحياة والمواطنة إذ غاب عن الأنظار بعد ثلاثة أيام ، ارتشفته الرمال ((بعد ثلاثة أيام اختفى البحر ، ارتشفته الرمال الظامئة حتى آخر قطرة)) [21] وكان في ذلك إشارة إلى تغير الحياة وجفافها ، ووصولها إلى نقطة تحول جديدة في حياة الشخصية ، فهو يتطلع إلى الإبحار بعيدا ، فلم يكن طموحه يتوقف عند هذا حين هاجر من بلده الأهواز ((بينما هو يتعلق بتلك الحياة الحرة، الهائمة، ويهيم حبا بأولئك البدو الطيبين ، ويجد فيهم أهله وعشيرته ، ما تنفك من جانب آخر تلاحقه الخيبات ،... غالبا ما تشطح الأفكار به إلى تخيل أريكة فارهة في صالة استقبال عصرية، قريبا من جهاز التلفاز وهو يمضغ علكة.)) [22]

أخيرا يبزغ الفجر بعد دياجير الظلمات ليأتي الى تلك الصحراء القافلة أناس للنزهة والصيد في مواسم البر، أيام يهل الربيع فيها على الصحراء وهم يحملون صقورهم الهائلة على قبضات أيديهم وكلابهم السلوقية تعدو خلفهم كانت مواكبهم الباذخة تثير فضول البدو وتذهلهم .[23]

لتكون هذه الإشارة مبررا لتغيير هوية البطل من الصحراء إلى مكان آخر، من دون أن يكون هناك تفاوت معنوي أو انقطاع لدى المتلقي، لتنساب أحداثه انسيابا مشوقا يشد القارئ ويجذبه بأسلوبه الباهر وبدمجه أكثر مع شخصية ستار وهويته المكانية ، ويجعله يتطلع بشوق ولهفة إلى المكان التالي ، أو المحطة الأخرى التي سوف يضع البطل رحاله فيها، لم يكن اختيار مشهد الصيد إلا إشارة لبداية معاناة ستار بعد الاستقرار الذي نعم به في البيئة الصحراوية ، ووجد الأهل والأحبة والديار الآمنة، لكن الطبيعة البشرية الطامعة إلى المزيد وغير المقتنعة بما لديها تتحرك لديه ، ليغادر ذلك المكان الحاني عليه، ليكون مثله بذلك مثل الصيد الذي يقتل ويبيد أو يؤخذ ليوضع في أقفاص بعد أن كان حرا طليقا . يعرض الكاتب هذه الانتقال ليذكر حيوانين أحدهما محلق في السماء والآخر قابع في الأرض، كلاهما طوع أمر أولئك الحالّون على أرض الصحراء وهما الصقور والكلاب ((وهما ثنائيتان ضديتان كثيرا ما استخدم أمثالها في الشعر الحديث في شعر التفعيلة وفي قصيدة النثر اذ ان هذه الثنائيات وعلاماتها المتناقضة هي في حقيقتها مقدمة لموقف شمولي متناقض بين الوجود واللاوجود كالوطن والغربة الأعلى السماء الأسفل الأرض الحياة والموت))[24] وقد اختار الكاتب لإكمال دلالة الصيد طائر الصقر القوي الذي ينتظر حال كل من يقع بين يديه إلى الموت والدمار، وبذلك يمهد الكاتب للقارئ النهاية المأساوية التي ينتهي إليها ستار من تحطيم وضياع ، في رحلته إلى الخليج العربي أولا ومن ثم إلى بحر النجف ومن ثم في ارانم هولندا حيث الموت النفسي ، أما الكلب فهو يحمل أبعاد الوفاء وبذلك إشارة صريحة إلى ما سوف تؤول إليه الأمور في المحطة التالية للبطل .

الخليـــج :

في لحظات الوداع وقف جميع أبناء المخيم يذرفون الدمع والحسرات، يغالبهم شعور بانهم سيفتقدونه، كانت صورة بدوية خالصة لازيف فيها على الإطلاق ، لا تقلقوا سوف أزوركم في وقت آخر ، تلك هي اللحظات الأخيرة لستار الاهوازي في الصحراء، وعلى الرغم من الأسى والحب والوداع المشحون بالدموع فارق ستار تلك البيئة لينتقل إلى بيئة أخرى جديدة برفقة النقيب بشار، ذهب معه وهو لا يحمل سوى اسمه ، وأول شيء فعله الحايف في رحلته تغيير شكله أي تغيير هويته الشخصية للمرة الثانية ، زين شعره وسرحه ، ثم تخلى عن لحيته البدوية ، ليظهر بشكل جديد ، وبعد عشرة أيام أصبح الحايف شرطيا وعمل بأمانة واتقان، وكان حب الوطن الجديد يشق مجراه في قلبه يوما بعد آخر ، وأصبح له بيت جديد في شارع الربيع ولكن الذي أرقه طوال مدة عشية أنه كتب تحت اسمه في السجلات الرسمية مجهول الهوية ، وأطلق عليه فيما بعد اسم (البدون) [25] . ومع ذلك أصبح البيت المكان الذي يلقي نفسه بين أحضانه بعد يوم متعب ، إذ يعبر البيت عن مجموعة من الصور التي تعطي الإنسانية براهين

التوازن في الحياة ، و لا سيما عندما يكون منسجما مع الوضع الطبيعي الذي وجد لأجله، وذلك لأنَّه يعبر عن الإحساس بالألفة والطمأنينة ويوفر نوعا من الهناءة [26] ، ثم تحول هذا البيت إلى وكر للملذات ، وقد فاضت أركانه روح الشباب وأمسى مرتع اللهو والقصف، ولعل المهنة التي امتهنها واعني هنا انضمامه لسلك الشرطة، قد يكون نوع من التعويض لفقدان ذاته وهويته التي أصبح لم يحمل منها سوى اسمه ، وبذا يكون رمزا للقانون والسلطة الذي تخافه الناس ، ومن ثمَّ يعوض قليلا من كثير . وهذا العمل يمثل ذلك التناقض بين الانتماء وعدمه ، عدم الانتماء لأنه بلا هوية و الانتماء المتمثل بحفظ القانون ، وهو من لا يملك شيئا منه .

ولعل أبرز الشخصيات التي التقى بها في الخليج هو فاخر البصري [البدون أيضا]، والشرطي الصديق الذي لازمه طوال مدة مكوثه في الخليج وحتى بعد سفره منها ، إلا أنَّ مع هذا الاستقرار الوظيفي والمكاني لم يشعر الحايف بالاستقرار، وظلت الآثار البدوية تثير مواجعه بين الحين والآخر وكان أصله وشخصيته بدوية لا تلك الغارقة في اللهو والملذات [27] واجهت شخصية ستار العزلة والرفض في المجتمع لذا نجده جسد تلك الحالة بتلبس تام مسافرا بها إلى أعماق ذاته ، ليتأمل مواطن الخوف والوجود المقيد باحثا عن البديل ، متنقلا من مرحلة إلى أخرى صعودا بهدف الارتقاء في مجتمعه ..لذا نجد أن الانتقال يشكل لديه نوعا من الهروب الواقعي والانغماس في الخيال بعيدا عن مجتمع لا يروم أن يقدم له هويته ليشعر بكيانه .

فتكون هويته البدوية الصحراوية هي الأساس الحقيقي الذي يشعر به ، وهذا نابع من صدق العلاقة بين الطرفين . الحايف والبدو . علاقة خالية من النفاق والكره والمصلحة بل قوامها الحب والوفاء والاحترام .

ولم يكن أمامه في ضوء هذه الأحداث الصاخبة إلا التردد إلى البحر ، إذ كان المتنفس الوحيد الذي يهرب إليه كلما ضاق صدره من كلمة (بدون) التي تلاحقه ، أو كلما وجه إليه أبو قمر اللوم الذي يؤنبه فيه على انحلاله وملذاته ، لما يشكل البحر من متنفس للشخصيات المهمومة [28].

وفي هذا المكان يتعرف على رفيقة دربه، والتي أنهى بها علاقاته الصبيانية ، واتجه إلى تكوين أسرة في بيت عوضه الفرح و ما فقده الحايف في تلك البيئة ، إلّا أنه في هذه البيئة لم يتخلص من جذوره البدوية ، وكأن الصحراء والبادية طبعته بطباعها طوال ثلاث سنوات حتى أصبح فرداً من أفرادها ، فحين أراد الزواج من أفراح كان لابد من هوية للعقد الرسمي ، مما لجأ لشخصية اسمها ثعلب، فأشار عليه بان يعرفه أمام القاضي أنه قام بالاعتداء عليها ، ويرغب بالتكفير، مما يضطر المحكمة إلى إعلان الزواج الرسمي في سجلاتها الحكومية (29) .فصرخ في وجه ثعلب بلكنة بدوية خالصة لاتشوبها شائبة ((اخجل من لحيتك يا رجل ما

عساني أقول لوالدها الذي أودع في عنقي مائتي وستة عظام ما عساني ؟)) [30] لتكون آثار الحمية والعفة البدوية واضحة في ردود أفعاله .

وبعد ثلاث سنوات من الزواج طلت (زهرة) ثمرة حب أولا وثمرة أسرة ثانية وثمرة مكان ثالثا لتضيء سماء ستار وأفراح وتكتمل بذلك أسرتهم وبعد مرور الزمن ترجع إشكالية الهوية من جديد تؤرق مضجع ستار عندما صار سنها القانوني في المدرسة وحاول ودون جدوى وبقى مكتوب تحت اسمه في السجلات مجهول الهوية ((إنها حياة مغرقة بالمتاعب سرعان ما تنتهي إلى مقبرة البدون)) [31]

ومثلما مهد الروائي إلى انتقال شخصيته مع الصيادين ، أدخل حدثا آخر ليمهد انتقال الشخصية إلى مكان آخر وهوية أخرى وهو حدث الحرب ، فمن المعروف ان الحرب ثيمة روائية بارزة في البلدان التي شهدت حروبا فعلية ، ويشكل العراق مناخا ملائما لكتابة رواية الحرب مما جعل من الصعب أو المستحيل الإفلات من تأثيراتها في الأدب العراقي [32].

إذ نقلت هذه الحرب حين ابتلع البعثيون العراقيون في آب 1990 دولة الكويت لهجوم مباغت سريع غاشم ، في صباح لاهب الحرارة تفاجئ الجميع لضياع ذلك البلد [33] وأول المتضررين من جراء تلك الحرب هم أبناء البلد بما فيهم المهاجرين (البدون) الذين قاسوا الأمرين، فقد فتناثروا في الأرض سريعا كرماد الشيء المحترق،[34] هذه الأحداث نقلت ستار إلى عالم ثان لكن هذه المرة ليست بمفرده، ولكن بصحبة زوجته وابنته زهرة وأعز أصدقائه فاخر .

وبهذا الحدث الجلل يختم الكاتب حياة بطله في دولة الخليج (الكويت) بصورة واقعية جعلت من القارئ منشدّا بقوة نحو إكمال ما سوف تؤول إليه الأمور ومصير العائلة الثلاثية، إذ أضاف وجود زهرة وأفراح تعاطفاً كبيراً بين المتلقي وشخصية الحايف وأسرته، وانتظار الخاتمة في مكان آخر وهوية أخرى في العراق بعد تهجيرهم من الكويت .

العراق :

لقد كانت البصرة المحطة الأولى للشخصية ، ((ساعتان فقط ساعتان تفصلهما عن الخليج لا أكثر ولكنه لاح بعيدا وعصيا لاح بعيدا مثل حلم منحور في أوج رخاء المنام))[35] ونلحظ المرارة تطفح في نصوص الرواية نتيجة هول الصدمة ، وتقطع السبل بهم وقتل بعضهم وتشريد الآخر ، فحين أصبح الخليج له (الكويت) يعطيه بعض الشعور بالانتماء وإنْ كان مشوهاً إلا أنَّه فقده في ظرف لا دخل له فيه ، وهنا يطرح الاستفهام لماذا لم تعد الشخصية إلى قريتها الأم؟ هل بسبب قضية ابن أخيه، لماذا لم يفرح كونه في العراق؟ ولاسيما البصرة القريبة من الأهواز، فالصحراء أحرق لهيبها هويته الشخصية خوفا من المسائلة والملاحقة القانونية ، والخليج حرمه الهوية وأعطاه لقب البدون مع أنه كان يخدمه بكل أمانة وإخلاص وكأنه فرد من أفرادها ، فكان الضياع والتشتت ولاسيما في الكويت التي حرمته أن يسجل

زواجه في سجلاته ، وحرمت ابنته من التسجيل في مدرستها، لقد كانت صورة الكلاب والصقور واجهة للتخلص من المكان الصحراوي المجدب وعلى وفق أرادة ستار الاهوازي، اما الحرب التي أتت قسرا لتنقله إلى مكانه الجديد البصرة التي لا يد له فيها ؛ لذا كان مروره بها مبرراً لاستنشاق رائحة الأهواز فشعر بالحنين إليها ، لولا عائلته لذهب إليها سباحة [36].

إن الانتماء إلى مجتمع جديد دفعه إلى قطع علاقته بمجتمعه وأرضه، ليستبدل بها أرضا جديدة يجد فيها الأمن والطمأنينة ، والمجتمع الجديد الذي ينتمي إليه هو مجتمع عربي ، وهو يمتاز بتوفير حياة مختلفة عن المجتمعات التي عاش فيها .وهنا تحصل الشخصية على الهوية والانتماء ((ذات ظهيرة ساخنة عاد ستار إلى البيت مستبشرا، وهو يحمل ثلاث نسخ من بطاقات الأحوال المدنية ، له وللعائلة ،ومن يومها لم يعد اهوازيا))[37] ، منح البطل ستار الاهوازي المكان (البيت) الذي يطمئن ويأوي إليه، والهوية التي طالما حلم بها في الخليج ، والتي احرقها في الصحراء ، لقد حصل على المسكن والعائلة والهوية ، وهي جل ما تحتاج إليه كل عائلة تريد العيش بسلام، ولكن النفس الطامعة التي تميز بها بطلنا ، والتي نفسها قد حرضته على الخروج من البيئة الصحراوية الحانية عليه ، إلى بيئة أخرى هي نفسها سوف تقوم بشد رحاله إلى بلد يلقي فيه حتفه.

وفي هذه الأحداث المتلاحقة شكلت ثيمة المقبرة حضورا في النص التي تحمل دلالة الفقد ، سواء أكان ذلك الفقد الموت الحقيقي أم الموت النفسي (الأحياء الأموات) فعندما وصل ستار الاهوازي إلى الخليج وجد مقبرة وعندما سأل عنها قيل له انها مقبرة المهاجرين ، والتي كان يطلق عليها مقبرة الطيور حيث لا جنسية ولا وطن لمن يموت ويدفن فيها[38] وها هو الآن يحط رحاله بين ثناياها ويجعل منها بيئته الذي يألفه ويحبه ويعيش بين ظهرانيها [39] ف ((القبر المكان المغلق يحفه صراع الأحياء مع الأموات وكأنه دليل على انه لا فرق بين الأحياء والأموات)) [40] واختياره لهذا المكان هو جزء من حنينه إلى الصحراء، لانه يقع على مساحة رمليه واسعة، كما انه يربط أجزاء البحر ،أي انه جمع بين بيئتين أحبهما هي بيئة الصحراء وبيئة الخليج ، المكان هنا يختلف عما سبق فهو يعكس دواخل الشخصيات من جهة ، و يسهم في تشكيل الشخصية من جهة أخرى، المكان هنا أتى لخلق المعنى وبلورة الفكرة الرئيسة التي تتمحور حولها الرواية ،وهو بهذا يجسد إسقاط حالة الشخصية الفكرية والنفسية والجسدية [41]

ليس فقط مكان البيت الذي امتزج به حب الصحراء وحب الخليج لكن اللهجة التي جمعت بين الاثنين حيث طالما تحدث بلهجة بدوية غريبة وخليجية [42]. وقد شاع الحب والسلام والوئام في أركان تلك العائلة ،وكانوا ينعمون بحياة هادئة ،ونمت زهرة وترعرعت وذهبت إلى المدرسة ،تشق طريقها إلى مدرستها بين تلك القبور .

إلى أن حل الحصار الذي أضنى حياة الأسرة الهادئة، مما دفع معيلها إلى ان يعمل في معمل للتبغ ،واضطر في إثناء ذلك لبيع أثاث البيت لسد تكاليف المعيشة [43] كان هذا هو السبب الذي اختاره الكاتب لبطله لينقله إلى مكانه الجديد ، فضلا عن ذلك نفسه الطامحة للسفر جعلت هذه الفكرة تدق بأجراسها في مخيلته فاستحوذت على ستار وأفراح وزهرة أحلام الهجرة استحواذا شاملا، وبصورة بدا كل منهم وكأنه مسافر حقا حتى لم يعد أي منهم يطيق صبرا وسرعان ما رحلوا ..سرعان ما رحلوا ،وطعم رماد الأيام يلوث نظراتهم !..[44] إن عدم الشعور بالانتماء كان ينطوي على الاستهانة بالحياة والانطلاق في الفضاء العريض والمغامرة المثيرة ، سخرية مريرة بالحرية الفردية وشعوراً عميقاً بالتمزق والتشرد والضياع .

خارج العراق (عمان)

لم يمكث طويلا في تلك البلاد، حيث سرعان ما خرج منها هاربا إلى أحضان شمال العالم ، وكان مستبضرا جدا ، حيث وجد من سفره الى هناك سهولة ، ((كان يدفع بخريطة أوربا إلى طالبي اللجوء المتهافتين عليه مثلما يد فع نادل المطعم بقائمة الطعام إلى الزبائن)) [45]

لقد وجدت شخصية البطل وبعد ان انهكت في العمل بين مصنع التبغ وبين مهنة صقل وتنعيم الأبواب الخشبية في شخصية (الحاج دخيل) الملاذ الوحيد للخلاص، وهنا نقف عند دلالتين في شخصية البطل : الأولى :إنَّه لم يستطع استثمار محطات حياته نحو الأفضل وبقي يتنقل من مكان إلى آخر، يتخبط قراراته لايجيد سوى الهروب عندما يتأزم الموقف، وها هو الآن يسير نحو طريق مجهول لا تحمد عقباه.

أما الأخرى : التضحية بعائلته من أجل طموحه الشخصي ، وهذا ما اتضح في تغير شخصية ابنته من فتاة شرقية إلى غربية ، وتبديل عادتها وتقاليدها ، وإسباغها بصبغة غربية بعيدة كل البعد عن واقعها الشرقي ، وهذا الأمر ارق ستار وجعل منه حيوانا مفترسا إنْ صح التعبير ، وهذا ما سنلحظه في المحطة الأخيرة من حياة الهارب اللامسؤول ستار .

هولندا :

هولندا ذات الخريطة التي تشبه الأسد، وكأنها تنذر بالنهاية للشخصية ، سوف يقوم ذلك الأسد بالتهام السعادة والحياة والأمان، سوف يقوم بافتراس تلك الكائنات الضعيفة الممتلئة بعروق شرقية، لا تعرف التفاعل مع الغرب ، اعتادت أن تتعامل مع الجمال والرقة والحياة المعطاء للإنسان، أما هذا المكان فهو كائن غريب عليهم شكلا ومضمونا ،فقد كانت البنت زهرة تتطلع إلى الحرية وتحدث نفسها في حوار داخلي صريح ((هنا العبي يا زهرة ماطاب لكي اللعب))[46] وعلى الرغم من الحرية والسعادة التي منحها المكان للشخصية ستار ، إلا انه كان يبدو غريبا ، كما ان افراح الزوجة هي الأخرى شعرت بعدم الاطمئنان ، وفضلت المكوث في المنزل[47] الغربة تجسدت في عدم الانسجام مع تلك الحياة على الرغم من وداعتها ، فستار

وأفراح كانت لهم نواميسهم التي لم يستطيعوا التخلص منها ، أما زهرة الباعثة المتجددة للحياة التي تخلت عن أصولها الشرقية في مطار عمان وانفتحت للحياة الجديدة تفتح زهرة في ربيع (الآن أحس بأنني ولدت من جديد) [48] فأصبحت هي من تدير دفة البيت لاتقانها اللغة الهولندية، وانشراحها نحو الحياة الجديدة ، فأحست بالسعادة بعدها انتقلت تلك الزهرة للعيش في (دلفت) وذلك لالتحاقها بجامعة دلفت التاريخية كان يطلق على دلفت (مقبرة الملوك) .

بعد جملة من الأحداث والانغماس في الملذات ، تعرفت زهرة على شاب وسارت معه بعرف غربي، انحرفت فيه عن العرف الشرقي، وبمرأى من أبويها، فقد كانا يريانها دون ان يحركا ساكنا اكتفوا فقط بالنظر وانتظار الأحداث ،وفي إحدى المرات اتصلوا بها من الجامعة بعض الطلبة ليخبروها بشكل صريح إن ((ابنتك وقعت في غرام ولد ياباني)) [49] ،لتكون المواجهة بين إلام والفتاة التي أخذت زمام المبادرة في الحديث ((يا أمي نحن نعيش في أوربا وليس في بلادنا المتخلفة ، والدراسة هنا تجمع الذكور والإناث معا، والجميع يعيشون زملاء ،...هكذا واصلت زهرة حديثا مسهبا جعلت الأم المتشنجة تسترخي))[50] وهنا عاشت الشخصيات جميعها حالة التحول والصراع بين الهوية الشرقية والالتزام بتقاليدها وأعرافها ، والهوية الغربية القائمة على التحرر والانفتاح ، هذا الاضطراب عاشاه ستار وأفراح خصوصا بعد ما جاءت الأيام تحمل الخبر الذي صدم ستار بأن ابنته العذراء حامل ((هل أنت حبلى حقا ؟ إذا كنت حبلى أم غير حبلى فهذا الشيء يخصني وحدي ، وأنا أتكفل تصريف أموري، إنني لم اعد طفلة لتخافوا علي))[51] صعق الوالدان بالخبر ، وأرادا ان يلملما الموضوع بأقل الخسائر الممكنة، لكن زهرة لم تعد زهرة الصغيرة فقد طالبت ان تنفك عن الوالدين ، قررا ان يحبساها في البيت عند عودتها من الجامعة وقد حصل ما أرادا ((خطا نحوها وصفعها بغتة على وجهها ، قبل ان تتفوه بأي حرف ، وسحبها من ذراعها ،عنوة إلى غرفتها ، واخبرها قائلا: ستبقين هنا ولا تبرحين غرفتك حتى تتخلصي من جنينك ،وتتحرري من عاره ، لقد مرغت جبيني بالتراب، وكفاك استهتارا)) [52] إلا أن هذا الحل لم يجد نفعا، اذ سرعان ما سارعت الزهرة المقيدة إلى فك أسرها، والاتصال بصديقها وجلب الشرطة ، أقبلت الشرطة على زهرة مثلما تقبل على فتاة مخطوفة من قبل مجرمين عتاة في حين تعاملوا مع أفراح كامرأة لاتمت لها بصلة اقتادوا الفتاة وأفراح الى مركز الشرطة ، هاتف الشرطة بعضهم ببعض في الحال من اجل إلقاء القبض على ستار[53] بعد تجاذبات ومحادثات وعادات وتقاليد شرقية وغربية خرجت زهرة مع صديقها إلى مقبرة الملوك، وخرج أبواها إلى حيث الأفكار الجهنمية والتي باتت لم تفارقهم واتفقا على طريقة للتخلص من زهرة ،هذا ما درت عليه أفكارهم الشرقية وتحرك العرق البدوي في دمائهم ، ليكون السفر إلى العراق في مقبرة السلام ، من مقبرة الملوك إلى مقبرة السلام الأبدية كلاهما مقبرة لكن الأولى معنوية قبرت فيها أصولها الشرقية وعاداتها وتقاليدها ، والثانية مقبرة مادية

سوف تجف زهرة في ثناياها ولم يبق منها إلا عبيرها، ذكراها ، كومة تراب تعلو جسدها حين دبر وسيلة لقتلها ((هشم رأسها كأنه ليهشم آنية من فخار)) [54]و((سالت الدموع على وجهه وعاد ليكون أكثر قربا منها ، وهو يحملق فيها بخوف مريع وسألها فجأة زهرة هل مازلت حية ؟ ، زهرة هل تسمعينني؟)) [55] لقد فقدت الشخصية توافقها الاجتماعي ، وان فقدان هذا التوازن ينتهي بالفرد عادة إلى أن تكون صلته بمجتمعه قائمة على أساس ما يسميه بـ (السلوك الصراعي) ، هذا السلوك ظهر واضحا في قتل ابنته أفراح ، ليحقق حالة من التوازن وان كان توازناً غير مشروع .

بمقتل فتاته لم يفقد هويته مثلما فقدها في الصحراء ، بل فقد كل احساس بالحياة ، وفقد ثمرتها اليانعة . لقد اختار الروائي النهاية في مقبرة السلام ، ليكون الموت المعنوي للعائلة ، والحنين الأبدي للوطن الأول حين راح يغني بصوت اتخذت أوتاره مرارة لم يعهدها من قبل :

كارون ما أشقى السفر ...

كارون قل لي ما الخبر[56]، إنَّه الحنين إلى الموطن الأول الذي لا بديل له . فالهوية ربما ((لا تصان إلا بان يتمسك الشعب بثقافته التي ورثها عن أسلافه أي في العقيدة وفي اللغة وفي الفن وفي الأدب وفي كثير من النظم الاجتماعية)) [57] إنَّ شخصية ستار الحايف اعتمدت على كسر طوق الانتماء الذي يحمي وجوده ، فقطع كل اواشج القربى بينه وبين مجتمعه ، واعتقد انه قادراً على بناء نظام جديد ، ولكن ما يبنى على خطا لابد أن ينتهي إلى الانقراض ، وإذا كان البعض قد نجح في تكوين انتماء جديد كبديل من الانتماء السابق ،فان بعض الشخصيات فشلت في ذلك ، واياً كان تمرد الشخصية على مجتمعها والرغبة في الانفصال ، فانما يؤكد قضية واحدة لا ثاني لها ، هي ظاهرة الانتماء واثبات مظهر الانعتاق من خلالها – وان بدا بشكله السلبي لا الايجابي – ويظهر العجز في إظهار الانتماء الجديد من خلال قلة الأمن والطمأنينة ، فالشخصية تعيش خوفاً وقلقاً مستمرين . اذ تفيد الرواية ان الشخصية قد تأثرت بالمكان الصحراء، وتطبعت بطبائع أهلها وتأثرت بها ، وتمكنت عاداتها وتقاليدها في نفسه ، وحين انتقل إلى أوربا لم يتأثر كثيراً به لجفائه وغلظته وشدة تبديه . ويظهر من حياته انه لم يستطع ان يتأقلم مع الحياة الجديدة وان بدا ذلك للوهلة الأولى ، ومضى يعيش الحياة محاولا ان يخرج من ربقة التقاليد السابقة ، وعلى الرغم من التحول الذي أحدثته هولندا في نفس الشخصية ، إلا ان ما نشأت فيه الشخصية أوقعها في حرج ، فقد قبلت تلك التقاليد على مضض ، ومن خلال سلوكها ، ظهرت انه لا يمكنه الانقطاع عن ماضيها ، ولهذا حدث تعارض بين قديمها الموروث وجديدها المكتسب ، عبرت عنه من خلال تصرفاتها التي تخالف نمط الحياة الأوربية ، وذلك ناتج من عدم تمكن هؤلاء المهاجرين من فهم حقيقة الانتماء الفهم الصحيح ، فلم يستطيع مجارات التحولات الكبيرة في ذلك المجتمع المنفتح، والمتغيرات

المتلاحقة التي مر بها ، فظل متأرجحاً بين عادات القبلية والبداوة التي تأصلت في نفسه من قبل ، وعالم من حوله يتغير بسرعة متناهية لذا نلحظ ان المكان في النص ينتج من تفاعل ثلاثة بنى أساسية هي ، البنية الفضائية : وهي المحددات المادية والحسيه أي الأشياء المكونة للمحيط ، والبنية الفعالية أو الحدث المرتبط بالمكان والسلوك المتوقع اتخاذه كما يتضح في الصحراء أو النجف ، والبنية المفاهيميه ، وهي المفاهيم والقيم التي يحملها الشخص اتجاه ذلك المكان كما في هولندا، وفي تفاعل هذه البنى يتكون لدينا فهم للمكان[58].

الخاتمة :.

أولا : للمكان أهمية كبيرة في الرواية أهمية لا يمكن الاستغناء عنها، فهو مرتبط بالشخصية يمنحها الوجود الحقيقي، ومرتبط بالرواية يمنحها الوجود الواقعي ،و مرتبط بالمتلقي يمنحه ارتباطا وثيقا بالرواية .

ثانيا : يتوزع المكان في الرواية بين المكان الأليف الذي تالف الشخصية به ، الصحراء حيث جعل حبه الوثيق بها أنسانا بدويا أكثر منه اهوازيا، ومكان مغلق كتم على أنفاس البطل وهو هولندا التي حطمت أحلامه ، اما الخليج فقد تأرجح بين المكان الأليف والمعادي .

ثالثا : اغلب الألفاظ التي وردت في الرواية بدوية محضة، لا بل حتى الأفعال التي نجمت عن البطل دليلا حيا على شدة تعلقه بتلك البادية ، إلى درجة دفعت البطل إلى قتل فلذة كبده بدافع عرقه البدوي رغم كونه اهوازيا .

رابعا : شكل المكان دورا أساسيا في تشكيل الهوية ، وترك آثاره على الشخصيات .

خامسا : كان للصراعات في كل إشكالها المباشرة وغير المباشرة ، دورا في البحث عن الهوية الجديدة .والرحلة إلى المجهول وتحمل مشاق التكيف الجديد.

هوامش البحث :

1- رواية المرأة العربية من 1990 إلى 2007في ضوء النقد النسوي : .148
2- مثل زهرة مجففة ، رواية :18
3- ن، م :14
4- موقع النهار - ذو النخلة / سلام عبود / 12 كانون الاول 2015https://www.google.iq
5- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي
6- مثل زهرة مجففة :.17
7- سيمياء المكان في شعر محمود درويش : 159
8- البناء الفني في القصة القصيرة في العراق من 1990 – 2000 :240
9 - مثل زهرة مجففة : 32 .
10- م.ن: 36
11- م.ن : .36
12- ن / م :.33
13- م .ن. :43

14 - م.ن: .42.
15- م.ن: .42.
16- مثل زهرة مجففة :.47
17- م،ن: .33.
18- م ، ن: .33.
19 - البناء الفني في القصة القصيرة في العراق :85
20 - مثل زهرة مجففة :.40
21- م،ن: .47.
22- م،ن: .47.
23- م،ن:.48
24- شرق النص :65– 66
25- ينظر: مثل زهرة مجففة: 50 - .56.
26- سيمياء المكان في شعر محمود درويش :.13
27- مثل زهرة مجففة:62
28- مجلة النهار ، الأدب والبحر المحسوس ، عبد الحق ميفراني ، https://www.google.iq
29- مثل زهرة مجففة :82
30- ن ، م ،:.82
31- رواية مثل زهرة :82
32 - رواية المرأة العربية :.173
33- مثل زهرة مجففة :102
34 - م،ن:.103
35- م،ن:104
36- م ، :.106
37 - م، ن:.107
38- رواية لعنة الواقف قراءة في الرمزية والشخصيات ، علي أحمد ، الرأي برس ، https://www.google.iq
39- مثل زهرة مجففة :29
40 - م،ن:.118
41 - رواية المرأة العربية :154.
42- ينظر:مثل زهرة مجففة : الصفحات 120-ومابعدها
43- م،ن::130
44- م، ن: .132
45- م، ن:.152
46- م،ن:.155
47- ينظر : م،ن : 156و162
48- م،ن:156
49- م، ن: .172
50- مثل زهرة مجففة ص 193
51- م،ن: 192- 193
52- م،ن: .197
53 - م،ن: 243
54- م، ن: 243.

55- م،ن :244
56- م، ن :335
57- إشكالية الأنا والأخر ، د. ماجدة حمود ، كتاب عالم المعرفة 398مارس 2013 الكويت 13:
58- ينظر : الرؤية الذاتية لاستجلاء المكان والزمان في الخطاب القصصي:

المصادر والمراجع

- القران الكريم
- إشكالية الأنا والأخر ، د. ماجدة حمود ، كتاب عالم المعرفة 398مارس 2013 الكويت.
- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي ، منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات / بيروت لبنان.
- البناء الفني في القصة القصيرة في العراق1990- 2000، د. حسين غازي نصيف ،ط1، بغداد، 2011.
. الرؤية الذاتية لاستجلاء المكان والزمان في الخطاب القصصي، ماجد موجد، جريدة الصباح، ع533، س2005/4/25 الاثنين **0**
- رواية المرأة العربية من 1990 الى 2007 م في ضوء النقد النسوي ،هدى حسين الشيباني /ط1 ، بغداد،2013
- الغياب في الشعر الحديث ،د. عبد الخالق سلمان، ط1بغداد، 2016.
- العتبات النصية المحيطة في أعمال صنع الله إبراهيم الروائية، وداد هاتف وتوت ، ط، بغداد،1 2015
،
- سيمياء المكان في شعر محمود درويش، د. حسن غانم الجنابي ، بغداد، ط1 2016 .
- شرق النص قراءة في تضاريس القصيدة العراقية المعاصرة ، د. عبد القادر جبار / ط، بغداد،1 2014 .
- مثل زهرة مجففة ،رواية ،محمود يعقوب ، ط1 دار الضياء للطباعة، العراق، النجف2016.
شبكة الانترنت الدولية :
- رواية لعنة الواقف قراءة في الرمزية والشخصيات ، علي أحمد ، الرأي برس ، https://www.google.iq

- مجلة النهار ، الأدب والبحر المحسوس ، عبد الحق ميفراني ، https://www.google.iq
- موقع النهار ذو النخلة / سلام عبود / 12 كانون الاول / 2015 https://www.google.iq

الإعجاز البياني للتشبيه غير التمثيل في ضوء النصوص القرآنية

أ.م.د أحمد شكر محمد مهاوش العزاوي

كلية العلوم الإسلامية/ جامعة ديالى

Emil : husamazawy40@gmail.com

الملخص

موضوع بحثي هو الإعجاز البياني للتشبيه غير التمثيل في ضوء النصوص القرآنية، وهو يتكون من ثلاثة مباحث هى: التشبيه غير البليغ، والتشبيه البليغ، والصور غير المعروفة للتشبيه (التشبيه المقلوب والتشبيه الضمني) ، وبما أن كل هذه الأشياء تتعلق بالبلاغة فإن الهدف الأساسي من هذا البحث هو استخراج الأسرار البلاغية التي بها تحدى القرآن كافة الخلق من الإنس والجن فعجزوا عن الإتيان بمثله.

ثم عقدت البحث على التشبيهات التي تأتى تحت التشبيه غير التمثيلي بكل أقسامها من البليغ وغير البليغ والحسي والعقلي وغيرها وشرحتها في ضوء النصوص القرآنية، فاستخرجت المزايا والأسرار البلاغية. وقد ناقشت أكثر من قسم تحت دراسة آية واحدة؛ لأن الآيات القرآنية تضم أكثر من قسم واحد؛ لأن هذه الأقسام نتيجة للتقسيمات المختلفة وهى تجتمع في نص واحد فيمكن أن يكون التشبيه مفردا وفى نفس الوقت يكون حسيا وبليغا لأني لو كررت الآيات باختلاف الأقسام لأتعبت القارئ بتكرار كل التفاصيل المتعلقة بتلك الآية أو أنسيه إياها بعدم تكرارها فيفوت الغرض.

The graphic miracle of non-representation analogy in the light of Quranic texts

Summary

A research topic is the graphic miracle of the non-representation analogy in the light of the Qur'anic texts. It consists of three aspects: the non-eloquent analogy, the eloquent analogy, the unknown images of the analogy (the inverse metaphor and the implicit analogy). Research is the extraction of rhetorical secrets that challenged the Koran all creation of mankind and the Department were unable to bring the like.

Then the research was conducted on the analogies that come under the non-representative analogy in all its parts of the eloquent, non-eloquent, sensory, mental and other and explained in the light of the Koranic texts, and extracted the advantages and secrets rhetorical. I have discussed more than one section under the study of one verse; because the Quranic verses contain more than one section; because these sections are the result of the different divisions and they are combined in one text can be a metaphor alone and at the same time be sensitive and eloquent because I repeat the verses different sections to tire reader repeatedly All the details related to that verse or forget it not to repeat it and the purpose is lost.

المقدمة

يعد التشبيه من أهم موضوعات علم البيان وهو أسلوب يوجد في كلام العرب بكثرة فنجده في شعرهم ونثرهم فقد استخدموه في كلامهم بطرق مختلفة وزيّنوه به؛ لأنه يزيد المعنى وضوحا ويكسبه تأكيداً، ولهذا ما أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه، ولم يستغن أحدٌ منهم عنه. وقد جاء عن القدماء وأهل الجاهلية من كلّ جيل ما يستدلُّ به على شرفه وفضله وموقعه من البلاغة بكلّ لسان.

وقد أكثر القرآن الكريم استخدامه فأحسن استخدامه وهو أسلوب يخرج الأشياء الخفية إلى منصة الظهور ويبدّل الأشياء المعقولة في الأشياء المحسوسة وهو زريعة لتفهيم المخاطب تفهيما جيدا فيدنى له الأشياء البعيدة ويشرح له المناظر الصعب فهمها.

ومن مزية هذا الأسلوب أن المتكلم يكتفي بنص قليل للمعنى الكثير فإنه لو أراد أن يصف زيدا بالشجاعة بالأسلوب العادي لأطال في الكلام ومع ذالك عجز عن المرام. و أما في أسلوب التشبيه فنحصل أكثر ممّا نحصله في الأسلوب العادي بألفاظ قليلة.

بعد أن ألقيت ضوءاً سريعاً على التشبيه أريد أن أتكلم عن التشبيه غير التمثيل في ضوء النصوص القرآنية وهو الهدف الأصلي لبحثي وسأحاول أن يكون بحثي في إطار الإعجاز البياني للأنواع المختلفة للتشبيه غير التمثيل، وهو يكون مفردا ومركبا ويكون بليغا وغير بليغ ويكون حسيا وعقليا. وبما أن الآيات القرآنية تضم أكثر من قسم واحد لأن هذه الأقسام نتيجة

للتقسيمات المختلفة وهى تجتمع في نص واحد فيمكن أن يكون التشبيه مفردا وفى نفس الوقت يكون حسيا و بليغا فإني سأناقش كل هذه الأقسام في الآيات القرآنية في موضع واحد دون أن أكررها لمناقشة كل قسم فأتعب القارىء بتكرار كل التفاصيل المتعلقة بتلك الآية أو أنسيه إياها بعدم تكرارها فيفوت الغرض. فأدخلت بعض هذه الأقسام في بعض، وقد اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة، تحدثت في المبحث الأول عن التشبيه غير البليغ، وتطرقت في المبحث الثاني إلى التشبيه البليغ، وأشرت في المبحث الثالث إلى الصور غير المعروفة للتشبيه، وأخيراً الخاتمة بينت فيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث .

المبحث الأول/ التشبيه غير البليغ

التشبيه غير البليغ وهو ما ذكر فيه وجه الشبه وأداة الشبه أو أحدهما ومن بلاغة هذا القسم أنه يوضح المعاني توضيحا تاما فلا يبقى الخفاء في وجه الشبه ولا أداة الشبه وهذا القسم وإن كان أقل مرتبة في القوة من القسم الذي لم يذكر فيه وجه الشبه ولا أداة الشبه [1] ولكن البلاغة تتعلق بمقتضى المقام وبما أن القرآن الكريم في قمة من الفصاحة والبلاغة فقد استخدم الكلمات في مواضعها حسب الاقتضاء والضرورة.

ومن أمثلته في القرآن الكريم ما أراد الله تعالى أن يعظ نساء النبي صلى الله عليه وسلم بعدم اتصافهن بالأوصاف التي لا تليق بشأنهن من الخضوع في القول المنتج بطمع الشخص الذي في قلبه مرض فقبح هذا الوصف بإلقائه في زمرة الأوصاف التي تختارها النسوة العادية فأخبرهن بأنهن لسن كالنسوة العادية من الأمة بل شأنهن فوق ذلك فقال الله تعالى: "يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا" [2].

ففي هذه الآية يخاطب الله تعالى أمهات المؤمنين ويخبرهن أن قدرهن عنده فوق قدر غيرهن من النساء الصالحات [3]. وأن كل واحدة منهن أفضل من كل واحدة من غيرهن لما امتازت بشرف الزوجية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأمومة المؤمنين فلا ينبغي لهن أن يخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض ومع عدم الخضع في القول عليهن أن يقلن قولا معروفا [4].

في هذه الآية انتفى التشبيه بين أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وبين النسوة الباقية من الأمة فالمشبه به هو النسوة الباقية والمشبه هو أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، وكل من المشبه والمشبه به مفرد ويدرك بحاسة البصر وقد ذكرت أداة الشبه فهو من المفرد الحسي غير البليغ. ووجه الشبه هو السبق والفضل. ولابد أن يلاحظ أن كون هذا التشبيه منحصر باعتبار أن المراد تشبيه ذواتهن بذوات النسوة الباقية لأن الذوات من الحسيات وأما إن لوحظ التشبيه من حيث الأوصاف فالأوصاف من العقليات ولذا ربما نجد الاختلاف في قسم واحد من التشبيه وهكذا من الاستعارة فأحيانا نعدها من الحسيات وأحيانا من العقليات كما في تشبيه الكفار

والمنافقين والمؤمنين. وأنا لم أفصل هذا في كل آية لأن هذا لا يهمنا بل كل ما يهمنا هو البحث عن الأسرار التي كمنت فى هذه الأساليب. ففي هذا الأسلوب من المزايا البلاغية ما يأتي:

- إن الله تعالى قد هدم الأساس لخضع القول وهو المثلية بالنسوة الأخرى لأن النسوة العامة ما أتيحت لها من الفرصة ما أتيحت لأزواج المؤمنين وهو العيش بجوار النبي صلى الله عليه وسلم وهذا يقتضى أن لا يكن مثلهن في اختيار مثل هذه الذنوب وليس معنى هذا أن نساء الأمة قد عفيت عنهن أن يفعلن كما يشأن ولكن معنى هذا أنهن بمقتضى البشرية وعدم إتاحة الفرصة لهن ما أتيحت لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم يرتكبن الذنوب قليلا أم كثيرا.
- واستفيد من هذا أن المقربين من الرجال أو النساء سيحاسبون بقدر قربهم مع الله تعالى ومعرفتهم له ولهذا يقال "حسنات الأبرار سيئات المقربين".
- وعلم من هذا أن بعض الدرجات لا ينالها أحد بجهده وسعيه بل قسمة منه تعالى مثل كون رجل صحابيا وكون امرأة زوجا للنبى صلى الله عليه وسلم فمثل هذا ليس من الأشياء المكتسبة بل هبة من الله تعالى.

وأخبر الله تعالى أن الحق قد تبين من الغي فمن شاء فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ فالله تعالى قد أعد للظالمين نارا شديدة وشرابا حارا ووضح حرارة الماء بتشبيهه بالمهل فقال تعالى: "وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا"[5].

بعد أن أنزل الله تعالى دينه الذي لا مجال للشك فيه أمر نبيه أن يعلن أن ما جئت به هو الحق من عند ربكم ، فمن شاء أن يؤمن به فليؤمن ، فذلك خير له ، ومن شاء أن يكفر فليكفر فإنه لم يظلم إلا نفسه إننا أعددنا لمن ظلم نفسه بالكفر ناراً تحيط بهم كالسرادق. وإن يطلب الظالمون مستغيثين ربهم يؤت لهم بماء حار كالزيت العكر يحرق الوجوه قَبُحَ هذا الشراب لهم ، وقبحت جهنم مكاناً لراحتهم .

شبه الماء الذي يؤتى إليهم يوم القيامة بالمهل وهو عكر الزيت أو النحاس المذاب وكل من المشبه الماء والمشبه به المهل مفرد مدرك بحاسة البصر وقد ذكرت أداة الشبه فهذا من التشبيه المفرد الحسي غير البليغ ووجه الشبه هو الحرارة الشديدة فيهما. والدال عليه قوله تعالى يشوى الوجوه فنستطيع أن نقول إن وجه الشبه موجود في هذا التشبيه.فهو " تشبيه مرسل مفصل لذكر أداة الشبه ووجه الشبه"[6]. فى التشبيه بالمهل إشارة إلى أن وجه الشبه ليس فقط الحرارة بل اللون الذي هو سبب للتنفير عنه فلون عكر الزيت ينفر الناس لا عن أن يشربوه بل عن أن ينظروا إليه ففيه تقبيح المشبه به. ومن المزايا البلاغية في هذا الأسلوب ما يأتي:

- الجهنميون سيستغيثون ربهم من شدة العطش ويطلبون ما يدفع عطشهم فيعطى لهم ماء شديد الحرارة ويكون في لون عكر الزيت هو من أكره الألوان ولكن من شدة عطشهم لا يأبون أن يشربوا ذلك بل يقربونه إلى أفواههم فيحرق وجوههم وهذا يدل على اضطرارهم وشدة عطشهم وإلا فواحد من هذين الوصفين يكفى للإباء عنه خصوصا الحرارة الشديدة يقتضى على مقصد الطلب قال ابن عاشور رحمه الله تعالى "والتشبيه في سواد اللوْن وشدة الحرارة فلا يزيدهم إلا حرارة"[7].

- وفى قوله تعالى يغاثوا تهكم لأن الإغاثة معناه الإعانة في دفع المضرة وأما هنا فلا يعانوا في دفع المضرة التي منها يصرخون بل يزاد في عذابهم ففيه تهكم وإشارة إلى أنهم لا يليقون أن يخفف عنهم العذاب بل أن يزاد فيه.

ووصف الله تعالى شدة نار جهنم فقال: "إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ" [8]. هنا وصفت شدة نار جهنم فبين في هذه الآية أنها ترمى بشرر عظيمة كالحصن. شبه شرر النار بالقصر في العظم وكل من الشرر والحصن مفرد يدرك بحاسة البصر وقد ذكرت أداة الشبه فهو من التشبيه المفرد الحسي غير البليغ. ووجه الشبه هو العظم [9] . ومن المزايا البلاغية فى هذا الأسلوب ما يأتي:

- شبهت شرر النار وهى تكون أشياء صغيرة عادة للنار العادية فإذا صارت هذه الأشياء الصغيرة إلى حد يصل إلى عظم القصر فما شأن تلك النار؛لأن عظم الشرر يستلزم شدة النار.
- ويمكن أن يكون في اختيار القصر للتشبيه وهناك أشياء كثيرة أعظم من القصر إشارة إلى تذكيرهم بالأشياء التي ألهتهم عن ذكر يوم القيامة فينبغي لهم أن يذكروا النار التي لها شرر عظيمة مثل تلك القصور والله تعالى أعلم.

ويستمر في وصف نار جهنم فيقول :"كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ" [10] . هذا في الحقيقة تتمة للآية السابقة فقال تعالى إن هذه الشرر تكون مثل الإبل الصفر "فإنَّ الشررَ لما فيهِ من الناريةِ يكونُ أصفرَ وقيلَ سودٌ لأن سوادَ الإبلِ يضربُ إلى الصفرةِ السود المائلة إلى السواد" [11].

هذا تشبيه ثان لشرر نار جهنم وهذا التشبيه فى اللون والكثرة أما الأول فكان فى العظم وكل من الجمالة والشرر مفرد يدرك بحاسة البصر وقد ذكرت أداة التشبيه فهو من التشبيه المفرد الحسي غير البليغ. ووجه التشبيه كما ذكرت هو اللون والكثرة [12]. ومن المزايا البلاغية فى هذا الأسلوب ما يأتي:

- سأعيد نفس الملاحظة التي لاحظتها في التشبيه السابق والله تعالى أعلم. فالمال فتنة وهذه الفتنة تلهى صاحبها عن ذكر يوم القيامة والنار شديدة اللهب عظيمة الشرر فينبغى أن يذكر صاحب الإبل أن يذكر هادم هذه اللذات وهو الموت وما سيكون بعده.
- ثم لهذا التشبيه بُعد آخر في ذهني وهو أن حب الدنيا يلفظ هذه الأشياء وينشرها أمام صاحبها فكراهية الآخرة سيلفظ الشرر العظيمة مثل هذه الإبل العظيمة. فكما أن الإبل هي تكون كثيرة في أماكن مختلفة وهى تختلط فيما بينها وتتحرك فكذلك هذه الشرر تكون كثيرة تتحرك في كل مكان؛ لأن "هذا في اللونِ والكثرةِ والتتابعِ والاختلاطِ والحركةِ" [13]

ويصف الله تعالى شدة هول يوم القيامة فيقول:"يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ* وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ" [14] في هاتين الآيتين بيان هول من أهوال يوم القيامة فمن شدة هذا اليوم يكون الناس ينقادون للداعي إلى النار فيتهافتون كتهافت الفراش إلى النار وتكون الجبال في تطايرها وخفة تناثرها كالعهن المنفوش [15].

في هاتين الآيتين تشبيهان: الأول تشبيه الناس بالفراش المبثوث والمشبه مفرد مطلق والمشبه به مفرد مقيد وكلاهما حسيان ووجه الشبه فيه الكثرة والانتشار والضعف والهوان فكما

أن الفراش تكون في الكثرة وهى تكون منتشرة هنا وهناك وهى في الضعف أن يضرب بها المثل، فكذلك يكون الناس في ذلك اليوم خارجين من قبورهم مجتمعين للحساب فيكونون في الكثرة ويكون من شدة الخوف منتشرين هنا وهناك في ذلة وهوان و ينقادون للداعى إلى النار فيتهافتون كتهافت الفراش إلى النار[16]. والتشبيه الثانى هو تشبيه الجبال بالعهن المنفوش فى التطاير وخفة تناثرها. [17] والمشبه مفرد مطلق والمشبه به مفرد مقيد وكلاهما حسيان أيضا مثل التشبيه الأول وقد ذكرت أداة الشبه فهما من التشبيه المفرد الحسى غير البليغ. ووجه الشبه فى هذا التشبيه "تفرق الأجزاء لأن الجبال تندكّ بالزلازل ونحوها فتتفرق أجزاءً "[18]. ومن المزايا البلاغية فى هذا الأسلوب ما يأتي:

- فى تشبيه الناس بالفراش وهو مثل فى الوهن والضعف إشارة إلى وهن الناس وضعفهم فى ذلك اليوم الثقيل؛ لأن الفراش لا يقدر على اتقاء نفسه حتى ومن الشيئ الضعيف فكذلك الناس يكونون ضعفاء يوم القيامة لا يستطيعون أن يفعلوا شيئا لأنفسهم ولا لغيرهم [19].
- في تقييد الفراش بالبث إشارة إلى أن حركة الناس تكون بدون أي نظام لأجل الخوف من دهشة ذلك اليوم وهوله لأن البث لا يكون فيه تماسك ولا تكون فيه سيطرة على النفس ، فكما لا تكون للفراش سيطرة على النفس بل هو تابع لأمر الغير فكذلك الناس تكون حركتهم غير تابعة لمشيئتهم بل تكون بدون أي نظام[20].
- في تقييد العهن بالمنفوش إشارة إلى عظم قدرة الله تعالى لأن وصف التناثر والتطاير الذي يراعى في هذا التشبيه ينافى وصف الجبال وهو الثقل ولكن بقدرة الله تعالى تكون هذه الأجسام الثقيلة بهذا الوصف[21].

يبين الله تعالى حالة علماء بن إسرائيل في معرفة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أنهم كانوا يعرفون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم معرفة واضحة فقال تعالى: "الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ" [22] يُخبر الله تعالى عن علماء أهل الكتاب أنهم يعرفون محمدا صلى الله تعالى معرفة واضحة كمعرفة أبناءهم بل هم يعرفونه أكثر من معرفتهم أبناءهم كما هو مستفاد مما سأل عمر رضي الله تعالى عنه عبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنا أعلم به مني بابني قال: ولم ، قال: لأني لست أشك في محمد أنه نبي فأما ولدي فلعل والدته قد خانت [23]. ثم في إرجاع الضمير فى قوله"يعرفونه" أقوال:

- القول الأول أنه راجع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فمعناه: أنهم يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم معرفة جلية يميزون بينه وبين غيره بالوصف المعين المشخص كمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ لا يشتبه عليهم أبناؤهم وأبناء غيرهم. وهذا القول راجح ولا إشكال فيه وليس هذا إضمار قبل الذكر لأن الكلام يدل عليه على أن مثل هذا الإضمار فيه تفخيم وإشعار بأنه لشهرته وكونه علماً معلوماً بغير إعلام[24].
- والقول الثاني: أنه راجع إلى العلم المذكور في قوله تعالى: مّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ العلم فمعناه أنهم يعرفون العلم الذي جاءك من ربك كما يعرفون أبناءهم. [25]
- والقول الثالث : أنه راجع إلى القرآن الذى هو حاضر فى أذهان الناس فمعناه أنهم يعرفون القرآن كمعرفتهم أبناءهم. [26]
- والقول الرابع: أنه راجع إلى تحويل القبلة ومضمون الكلام يدل عليه[27].

والراجح من هذه الأقوال هو القول الأول لأنه هو المناسب مع التشبيه ,لأن المناسب تشبيه الشيء بما هو من جنسه وجنس الأبناء ما يكون من البشر لا غير. ثم التخصيص بأهل الكتاب يقتضي أن تكون هذه المعرفة مستفادة من [الكتاب] وقد أخبر سبحانه عن ذكر نعته صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل . [28]

ولهذا كانت اليهود قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن يسألون به الفتح والنصرة على المشركين إذا قاتلوهم يقولون : اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد نعته وصفته في التوراة . وكانوا يحذرون أعداءهم من المشركين بمجيئه وقتالهم إياهم فى صحبتهم فكانوا يقولون : قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم. [29]

ففي هذه الآية تشبيه معرفتهم محمدا صلى الله عليه وسلم [على اختلاف الأقوال]بمعرفتهم أبناءهم والمعرفة مفرد عقلي فهو من قبيل تشبيه المفرد العقلي وأداة التشبيه مذكورة فهو من التشبيه غير البليغ. ووجه الشبه وضوح المعرفة [30]. أي كما لا يشتبه عليهم أبناءهم فى أبناء غيرهم ولا يشكون فيهم أنهم أبناءهم فهم لا يشكون في أن محمدا صلى الله عليه وسلم نبي آخر الزمان, وهذه المعرفة مبنية على قراءتهم عنه وعن أوصافه صلى الله عليه وسلم فى الكتب السماوية المنزلة عندهم . [31] ونجد فى هذه الآية من المزايا البلاغية ما يأتي:

- هنا تشبيه لما يُدرك بالعقل بما يُدرك حسا لأن معرفتهم محمدا صلى الله عليه وسلم ما كانت مبنية على رؤيتهم بل على قراءتهم وأما معرفتهم أبناءهم فكانت مبنية على رؤيتهم إياهم ولا يخفى ما في هذا من إخراج الخفي من الخفاء إلى منصة الظهور والطباع الإنسانية تستأنس إلى الأشياء الظاهرة المحسوسة فتتحرك الأفكار في مجال المعرفة إلى ما يُرام بخلاف الأشياء الخفية فالأفكار تتضيق ولا تتحرك لأجل المعرفة. [32]
- وهذا التحريك يحصل بدون الجمل الطويلة بل باختصار شديد وهذا من وجوه الإعجاز القرآنية فهذا التشبيه ألقى فكرة معرفة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم باتصالها بفكرة أخرى التي هي معروفة لدى المخاطبين, لأن معرفة الأبناء حقيقة لا يُنكرها أحد. [33]
- خص الله تبارك وتعالى الأبناء بالذكر والمراد بهم الذكور مع أن الآباء كما يعرفون أبناءهم فكذلك يعرفون بناتهم لأن الأبناء أكثر مباشرة ومعاشرة للآباء ، وألصق وأعلق بقلوبهم من البنات ، فمن المستبعد أن يشتبه عليهم الأبناء وهذا الاشتباه لا يستبعد في البنات إلى هذه الغاية[34]. شبه الله تعالى معرفة محمد صلى الله تعالى بمعرفة الأبناء لا بمعرفة الأنفس مع أنهم كما يعرفون أبناءهم فكذلك يعرفون أنفسهم ولكن معرفة الأبناء آكد من الأنفس لأن الإنسان قد يمر عليه قطعة من الزمان لا يعرف فيها نفسه كزمن الطفولية بخلاف الأبناء فإنه لا يمر عليه زمان إلا وهو يعرف ابنه. وأما عدم معرفته أبناءهم في بعض الأمراض فنادر والنادر لا يُعبأ به. [35]

ويوبخ الله تعالى الذين كتب عليهم القتال فجعلوا يخشون الناس خشية كثيرة فقال الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا}[36].

هذه الآية قد نزلت عند جمهور المفسرين "في طائفة من المسلمين كانوا لقوا بمكة من المشركين أذى شديداً ، فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم " يا رسول الله كنّا في عزّ ونحن مشركون فلمّا آمنّا صرنا أذلّة" واستأذنوه في قتال المشركين ، فقال لهم : " أنّي أمرت بالعفو فكُفُّوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة " فلمّا هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وفُرض الجهاد جبن فريق من جملة الذين استأذنوه في القتال ، ففيهم نزلت الآية" [37]. ومعنى الآية: أنهم نهوا عن الجهاد فى سبيل الله في الحياة المكية وكانوا يتمنون ذلك فلما هاجروا إلى المدينة وكتب عليهم القتال جبن فريق من جملة الذين استأذنوه في القتال وخشي الناس كخشية الله تعالى بل أشد خشية. وهناك آراء أخرى فى شأن نزول هذه الآية فمنها أنها نزلت فى المنافقين ومنها أنها نزلت فى اليهود. [38]

شبهت خشيتهم الناس بخشية الله والخشية مفرد وهى لا تُدرك بإحدى الحواس الخمسة فهى عقلية وقد ذكرت أداة الشبه وهى الكاف فهو من قبيل التشبيه غير البليغ ووجه الشبه إنزال المصيبة من الناس بقتلهم ومن الله بإنزال بأسه عليهم. فمعنى الكلام: يخشون الكفار أن يقتلوهم كما يخشون الله أن ينزل عليهم بأسه ونجد من المزايا البلاغية في هذا الأسلوب ما يأتي:

- إن كان مرجع الضمير المؤمنين كما هو رأي جمهور المفسرين فالكلام "مسوق مساق التوبيخ لهم حيث رغبوا تأخير العمل بأمر الله بالجهاد لخوفهم من بأس المشركين ، فالتشبيه جار على طريقة المبالغة لأنّ حمل هذا الكلام على ظاهر الإخبار لا يلائم حالَهم من فضيلة الإيمان والهجرة"[39].
- وإن كان المرجع اليهود أو المنافقين فمعناه أنهم يخشون الناس كخشية المؤمنين الله تعالى. أم معناه أنهم يخشون الناس كخشية لا ينبغي إلا لله. فالكلام محمول على المبالغة.
- ولا تخفى المبالغة في الخشية على من له أدنى الفهم التى تضمنها هذا الأسلوب والتوبيخ على هذا العمل الذي لا يليق إلا لله تعالى.

ويعد الله تعالى يوسف عليه السلام بالاجتباء في أمور كثيرة فيقول:"وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" [40] أي مثل هذا الاجتباء وهو الاختيار بين إخوته أو من بين كثير من خلقه الذي دلت عليه الرؤيا من العناية الربانية يجتبيك ربك فى المستقبل ويعلمك من تأويل الرؤيا ويمنحك النعم الكاملة ويمنح آل يعقوب كما منحها أبويك إبراهيم وإسحاق إن ربك يعلم كل شيء وهو حكيم في أموره. [41]

في هذه الآية تشبيهان: الأول في قوله تعالى: "وكذلك يجتبيك" فالمشبه به هنا هوا الاجتباء الذي دلت عليه الرؤيا من العناية الربانية والمشبه هو الاجتباء الذي دلت عليه " يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ" فالاجتباء في كل من المشبه والمشبه به مفرد وعقلي لأن الحواس لا تدركه. وهو غير بليغ لأن الأداة مذكورة فيه. ووجه الشبه هو العناية الربانية.

والتشبيه الثاني فى قوله "كما أتمها على أبويك" فالمشبه به هو الإتمام الذى يدل عليه قوله تعالى" كما أتمها على أبويك" والمشبه هو الإتمام الذى يدل عليه قوله تعالى" وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ" والإتمام فى كل من المشبه والمشبه به مفرد ولا يدرك بالحواس فالتشبيه مفرد عقلى وبما أن

أداة التشبيه قد ذكرت فهو من التشبيه غير البليغ. ووجه الشبه هو الكمال الذى دل عليه الإتمام فى كل من المشبه والمشبه به.

والمرادُ بالتشبيه بيان المضاهاةِ المتحققةِ بين الصور المرئيةِ في عالم المثالِ وبين ما وقعت هي صوراً وأشباحاً له من الكائنات الظاهرةِ بحسبها في عالم الشهادة أي كما سُخّرت لك تلك الأجرامُ العظامُ يسخِّرْ لك وجوهَ الناس ونواصيَهم مذعنين لطاعتك خاضعين لك على وجه الاستكانة ، ومرادُه بيانُ إطاعةِ أبويه وإخوتِه له لكنه إنما لم يصرّح به حذراً من إذاعته [42].

ونجد فى هذا الأسلوب من المزايا البلاغية ما يأتي:

- في هذا الأسلوب إشارة إلى أن الله تعالى لا يصعب عليه شيء في الأرض ولا في السماء وإن كان الناس يزعمون أنه صعب فهو يختار من الخلائق من يشاء لما يشاء. فإقامة يوسف عليه السلام على المكانة الرفيعة ممكن جدا لله تبارك وتعالى. ففي هذا التشبيه إشارة إلى إمكان المشبه لأن له صور إمكانية في جانب المشبه به وهو إتمام النعم على أبويه من قبل.
- أشارت الآية إلى أن الرفعة المذكورة من النبوة والعلم الدنيوي تنحصر على العناية الربانية ولا مدخل للسعي فيه كثيرا وهذا من النظام التكويني الذي اختار التصرف فيه لنفسه. فيختار الأشياء والأشخاص للذي يريده وهو العليم الحكيم.

وبين الله تعالى يأس اليهود من الآخرة فقال:"يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور" [43].

ففي هذه الآية ينهى الله تعالى المؤمنين عن مؤالات اليهود الذين أعرضوا عن العمل للآخرة فكأنهم يئسوا من الآخرة مثل يأس المشركين من حياة الموتى والبعث. ومن المعلوم أن اليهود من أتباع الديانات الإلهامية فهم "لا ينكرون الدار الآخرة فكان معنى يأسهم من الآخرة محتمِلاً أن يراد به الإعراضُ عن العمل للآخرة فكأنهم في إهمال الاستعداد لها آيسُون منها " [44] ولهذا قلت فكأنهم يئسوا من الآخرة... فى هذه الآية شبه يأس اليهود من الآخرة بيأس المشركين من البعث بعد الموت واليأس الملحوظ في كلا الطرفين مفرد ومن الأمور العقلية فهو من التشبيه المفرد العقلي ولذكر أداة التشبيه هو من التشبيه غير البليغ. ومن المزايا البلاغية في هذا الأسلوب ما يأتي:

- في تشبيه يأس اليهود من الآخرة بيأس المشركين تشنيع باليهود لأنهم من أتباع الديانات الإلهامية وهم لا ينكرون الآخرة ولكن لإعراضهم عن العمل الصالح المستعد للدار الآخرة صاروا كأنهم ينكرونها.
- فيه إشارة إلى أن اليقين المحض دون العمل لذلك لا ينجى من عذاب الله كما أن اليهود على وعى من البعث بعد الموت ولكنهم لا يستعدون لذلك فهم مستحقون لعذاب الله وقد أخرجهم الله تعالى من استحقاق مؤالات المسلمين.
- ولا يخفى ما فى هذا التشبيه من المبالغة لأن المشبه به وهو المشركين لا يقرون بالبعث بعد الموت فجُعل اليهود في حكمهم وكأنهم أيضا ينكرون البعث.

ويبين الله تعالى سنته من الإيحاء إلى المرسلين وإلى النبي صلى الله عليه وسلم ووعده إياه في المستقبل فيقول تعالى: "كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم"[45] ينبه الله تعالى باهتمام شأن المعاني التي أوحاها إلى كل المرسلين من الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحق فيقول تعالى إنا أوحينا إلى الذين من قبلك من المرسلين هذه المعاني ونوحيها إليك فى المستقبل كما أوحيناها إليك في هذه السورة وهذه عادة الله تعالى وهو العزيز الحكيم. [46]

شبه الله تعالى إيحاء المعاني الموجودة في هذه السورة إلى الأنبياء قبل نبينا صلى الله عليه وسلم وإلى نبينا صلى الله عليه وسلم في المستقبل بإيحائها في هذه السورة فالمعنى: أوحى الله هذه المعاني إلى الأنبياء قبل نبينا صلى الله عليه وسلم وسيوحيها إلى نبينا صلى الله عليه وسلم فى المستقبل كما أوحاها إليه في هذه السورة. والإيحاء مفرد لا يدرك بإحدى الحواس الخمسة وقد ذكرت أداة الشبه. ووجه الشبه هو التساوي فيهما بدون إفراط وتفريط. ونجد من المزايا البلاغية في هذا الأسلوب ما يأتي:

- فى كلمة ذلك معنى البعد فهذا يوحى بعلو رتبة المشار إليه وبعد منزلته في الفضل فأفاد هذا أن محتويات هذه السورة مما تُعظم وتحترم وهى التوحيد والإرشاد إلى الحق وما فيه من صلاح العباد في المعاش والمعاد وهذا مما لاشك فيه أن هذه هي الأفكار الأساسية التي لأجلها أرسل الرسل فهي أفكار عظيمة. [47]
- واتّضح مما قلنا أن هذه هي الأفكار الأساسية التي جاء بها كل الرسل من آدم عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم بدون أي تغيير، نعم هناك فروق في الأشياء الثانوية حسب الزمان وقوى الأمة وغيرها ما تقتضيه الحكمة الربانية في تنفيذ هذه الأفكار الرئيسية. [48]
- ثم في استخدام صيغةُ المضارع على حكايةِ الحالِ الماضيةِ إيذان باستمرارِ الوحي وبأن إيحاءَ مثل هذا الوحى عادتُه. [49]
- بين الله تعالى أن الله تعالى يوحى مثل هذه الأفكار وكل الأنبياء قد جاءوا بها فهي أفكار مقدسة ونتيجة لهذا فهذه دعوة من الله تعالى إلى هذه المطالب العالية والمباحث المقدسة الإلهية . [50]

المبحث الثاني/ التشبيه البليغ

التشبيه البليغ وهو ما لم يذكر فيه من وجه الشبه وأداة الشبه ومن بلاغة هذا القسم أن فيه دعوى الاتحاد فكأنه لا فرق بين المشبه والمشبه به وهما في الحقيقة شيئ واحد ولا يخفى ما فيه من المبالغة لأنه هناك فرق كبير بين أن يقال: "قل هو أذى" [51] و"قل هو كالأذى" فالأول يدل على أن هناك مشابهة بين المشبه والمشبه به والمشابهة لا تكون من كل الوجوه وأما القول الثاني فيدل على أن هناك مشابهة من كل الوجوه فكأنه لا فرق بينهما وفيه من المبالغة ما لايخفى فتأمل. وسأذكر المزايا البلاغية بالتفصيل في دراسة كل آية إن شاء الله تعالى.

يبين الله تعالى رد المنافقين كلمة الحق فلا يقبلونها فى حال من الأحوال فيصفهم بالصمم والبكم والعمى فيقول الله تعالى: " صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ" [52] فى الآية السابقة مثّل الله المنافقين بمن استوقد نارا وفى هذه الآية أخبر بأنهم صم وبكم وعمى.

في هذه الآية احتمالان: الأول أنه إخبار عن الذي استوقد نارا "أنهم لما أوقدوا ناراً فذهب الله بنورهم ، وتركهم في ظلماتٍ هائلة أدهشتهم بحيث اختلت حواسهم وانتقصت قواهم ." [53] والثاني أنه إخبار عن المنافقين أنهم اختاروا الكفر والنفاق وتركوا الإيمان والهدى واتجروا فيما لا ربح فيه فأخبر أنهم لا ينتفعون بأعينهم في رؤية الأشياء الصحيحة وألسنتهم في التكلم كلاما حقا وآذانهم فى سماع الحق فكأنهم صم و بكم وعمى فلا يرجعون إلى الحقّ. [54]

فهذه الآية مبنية على الحقيقة بناء على الاحتمال الأول فمعناه أن مستوقدى نارا دُهشوا وحُرموا هذه الحواس حقيقةً فليس هناك مجاز ولا تشبيه. وهى مبنية على المجاز بناء على الاحتمال الثاني فمعناه أنهم لا يستفيدون بحواسهم فهم كالأعمى والأصم والأبكم.

ومبنى دراستنا لهذه الآية هو الاحتمال الثاني ففي هذه الآية شُبِّه المنافقون بالذين اتّصفوا بالصفات الثلاثة المذكورة فهم لا يسمعون ولا ينطقون ولا يُبصرون شيئا. وكل من المشبه والمشبه به مفرد فالتشبيه مفرد. والمشبه هو المنافقون وهم مدركون بحاسة البصر وإن كان المقصود بهم ليست أجسادهم بل كون هذه الأجساد متصفين بالصفات التي لا تدرك بالحواس الخمسة بل تدرك بالعقل ولكن المشبه في الآية المنافقون وهم الذات مع الوصف فالمشبه حسي والمشبه به كذلك وهو الذوات الحاملة للصفات المذكورة الثلاثة وهذه الصفات وإن لم تُدرك بالحواس الخمسة بل تدرك بالعقل ولكن الذوات الحاملة لها مدركة بحاسة البصر فالمشبه به أيضا حسي وإذ أن المشبه والمشبه به كلاهما حسيان فالتشبيه حسي.

ثم هذا التشبيه خال عن أداة التشبيه ووجه الشبه فالتشبيه بليغ. وهناك رأى آخر في صورة هذا المجاز فقال بعضهم إنها استعارة لأن الآية خالية عن ذكر المنافقين الذين استعير لهم أوصاف هؤلاء ولكن الأصح أن فيه تشبيه بليغ لأن ذكر المستعار منه وإن عدم في الظاهر ولكنه منوى فتقدير الكلام هم صم وبكم وعمى قال البيضاوى رحمه الله: "وههنا وإن طوي ذكره بحذف المبتدأ لكنه في حكم المنطوق به [55] " وذهب العلامة الزمخشري إلى أن هذا من التشبيه البليغ لأن الاستعارة تعتمد على أحد من المستعار والمستعار منه فإذا ذكرا معا فهو تشبيه وهما مذكوران في هذه الآية لأن المشبه منوي وهو ضمير"هم" الراجع إلى المنافقين والمنوي كالمذكور وأما المشبه به فمذكور صراحة[56]. ورجح ابن عاشور رحمه الله كونه تشبيها بليغا لا استعارة فقال رحمه الله: "والإخبار عنهم بهذه الأخبار جاء على طريقة التشبيه البليغ شبهوا في انعدام آثار الإحساس منهم بالصم البكم العمي ....وليس هو من الاستعارة عند محققي أهل البيان [57] وهكذا رجح قول التشبيه البليغ العلامة القونوي رحمه الله تعالى فقال: "ذهب بعضهم إلى أنه استعارة والمختار عند الشيخين كون مثل هذا تشبيها بليغا [58] .
وإذا أتينا إلى الأسرار البلاغية التي تعلقت بأهداب التشبيه المستخدم في هذه الآية نرى ما يلي:

- شبّه الله تبارك وتعالى المنافقين بمن فقدوا سماعتهم وبصارتهم ونطقهم مع أن مشاعرهم المعدودة سليمة لما أنهم حيث سدوا مسامعهم عن الإصاغة لما يتلى عليهم من الآيات والذكر الحكيم ، وأبَوْا أن يتلقَّوْها بالقبول ، ويُنطِقوا بها ألسنتهم ، ولم يجتلوا ما شاهدوا من المعجزات الظاهرة على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم ينظروا إلى آيات التوحيد المنصوبة في الآفاق والأنفس بعين التدبر ، وأصروا على ذلك بحيث لم يبقَ لهم احتمالُ الارعواء عنه ، صاروا كفاقدي تلك المشاعر بالكلية [59].

ففي وصفهم بهذه الأوصاف الثلاثة زيادة تفظيع و تهويل. لأن فقدان الحواس في ظلمات هائلة يزيد في دهشة المنافقين وتحيرهم.

- من المعلوم أن التشبيه ملحوظ في هذا الأسلوب ولكن أداة التشبيه ووجه الشبه غير مذكور فيه وفيه مبالغة لأن تناسى التشبيه يزيد في المبالغة فكأن المشبه عين المشبه به والمنافقين متصفون بصفة الصمم والبكم والعمى لا أنهم مشابهون بهم فيترشح من هذا الأسلوب أن المنافقين قد فقدوا سمعهم وأبصارهم ونطقهم لأنهم لا يستخدمونها في مكان ينبغي لهم أن يستخدموها فيه.
- فالآية الكريمة تتمة للتمثيل ، وتكميل له بأن ما أصابهم ليس مجردَ انطفاء نارهم وبقاؤهم في ظلمات كثيفة هائلة، بل مع ذلك هم قد حُرموا حواسهم التي تُستخدم للرؤية والسمع والنطق فاختلت مشاعرهم وبقوا جامدين ومتحيرين في أمكنتهم فما استطاعوا أن يتقدموا إلى الأمام أو يتأخروا إلى الخلف وفى هذا الأسلوب من المبالغة مالا يخفى على من له أدنى الفهم [60].
- والعدولُ إلى الجملة الاسمية للدَلالة على أن هذه الحالة لا تنفك عنهم بل هي مستمرة فيهم [61].

ويبين الله تعالى جواز الإتيان إلى النسوة من أين شاء أزواجهن إذا كان المحل واحدا فقال تعالى:"نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ" [62] المراد من الحرث في هذه الآية موضعه أي هن مواضع تنبتون فيها الأولاد" فالمرأة كالأرض والنطفة كالبذر والولد كالنبات الخارج" [63]. أباح الله تعالى لعباده أن يجامعوهن متى شاءوا وكيف شاءوا بعد أن يكون المأتى واحدا [64] وأن يقدموا لأنفسهم من التسمية عند الجماع أو طلب الولد على اختلاف الرأيين[65]. وأن يتقوا الله أن يعصوه حين المجامعة، أخبرهم أنهم سيلقونه وهو يسألهم عن أعمالهم والبشرى للذين لا يتعدون حدوده ويقفون عندها.

والمراد بالمرأة في تشبيه المرأة بالحرث رحمها والمراد بالحرث موضع الحرث فشبه الله تعالى رحم المرأة بالمزرعة في أن كلا من الرحم والمزرعة يستغل لحصول النتاج في صورة الأولاد من أحدهما وفى صورة الحرث من الآخر. فوجه الشبه هو كونهما صالحين للنتاج المطلوب. وكل من المشبه والمشبه به مفرد ومدرك بإحدى الحواس الخمسة. ووجه الشبه وأداته لم يذكرا. فهو من التشبيه المفرد الحسي البليغ. ومن المزايا البلاغية في هذا الأسلوب ما يأتي:

- التفهيم على وجه البصيرة روي أن اليهود ما كانوا يجيزون أن يأتي واحد إلى امرأته في قبلها من دبرها وكانوا يزعُمون أن مَنْ فعل هكذا يأتي ولده أحول فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت. [66]
- ففيه تفهيم المسلمين الذين كانوا متأثرين بزعمهم وكانوا فى الحيرة إزالة لأوهامهم بدليل وهو جعل الأرحام كالمزرعة ولا يمنع شيئ أحدا إلى المزرعة من حيث أتى.
- في التعبير عن الأرحام بالحرث يدل على أن المأتى واحد وهو القبل فلا يجوز لأحد أن يأتي امرأته في دبرها لأن الدبر موضع الفرث لا الحرث [67]. قال النيسابورى:"

ويؤيده قوله عز من قائل { قل هو أذى فاعتزلوا} جعل ثبوت الأذى علة للاعتزال ولا معنى للأذى ، إلا ما يتأذى الإنسان منه بنتن وتلوث وتنفر طبع ، والأذى في الدبر حاصل أبداً فالاعتزال عنه أولى بالوجوب" [68].

- تشبيه المرأة بالحرث يدل عندي والله أعلم على أن الإسراف في الجماع غير مستساغ. لأنه يوحى أن المطلوب الأصلي في الإتيان هو طلب النسل لا قضاء الشهوة "فلا تأتوهن إلا من المأتي الذي نيط به هذا المطلوب"[69]. أشار الأمر بالإتيان إلى موضع الحرث إلى أن حصول الأولاد من المقاصد الأولية لا قضاء الشهوة لأن الإنسان يأتي إلى المزرعة لمقصد أساسي وهو الحرث وأما الأشياء الأخرى فهي ثانوية[70].

ويمن الله تعالى على بني إسرائيل بلسان نبيه أن جعل فيهم أنبياء وجعلهم ملوكا وآتاهم من نعمه ما لم يؤت أحدا من العالمين فقال:"وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكا وَآَتَاكمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ"[71] في هذه الآية تذكير الله تعالى نعمته على بني إسرائيل إذ جعل فيهم أنبياء وملوكا وآتاهم من نعمه ما لم يؤت أحدا من خلقه. ثم مفهوم الآية يختلف باختلاف معنى الملوك فذهب البعض إلى أنه محمول على المعنى الحقيقي وذهب البعض إلى أن المراد بالملك من كان في رغد العيش ولا يحتاج أحدا فعلى الرأي الأول مفهومه أنهم لكثرة الملوك فيهم صاروا كلهم كأنهم ملوك لسلوكهم مسلك الملوك في السعة والترفة. وعلى الرأي الثاني فمفهومه أنهم ملوك وهم الذين لا يحتاجون أحدا لرغد العيش [72].

كما بينت المفهومين بناء على اختلاف الرأيين في معنى الملوك فعلى المفهوم الثاني حمل الكلام على الحقيقة وليس هناك تشبيه وأما على المفهوم الأول ففي الكلام تشبيه شُبه قوم موسى عليه السلام بالملوك فالقوم مشبه والملوك مشبه به ووجه الشبه هو رغد العيش فيهما، وقد حذف أداة التشبيه ووجه الشبه فهو من التشبيه البليغ. والمشبه وهو القوم حسي وأما الملوك فهم مدركون بإحدى الحواس ولكن ليس مع الوصف الملوكي ولكن المشبه هو ذوات الملوك المتصفة بذلك الوصف لا الوصف نفسه فهو أيضا مما يدرك بإحدى الحواس الخمسة ولذا فهذا من تشبيه المحسوس بالمحسوس. وفى هذا الأسلوب من المزايا البلاغية ما يأتي:

- في تشبيههم بالملوك مبالغة لأن غير الملوك وإن وصلوا في الغناء إلى أقصى حد ولكنهم لن يصلوا إلى وصف زائد موجود في الملوك وهو التصرف في الأعمال السلطانية فإذا شبهوا بهم دل على أنهم وإن لم يكن ملوكا ولكنهم وصلوا إلى مقام يمكن أن يقال لهم ملوك.
- وهذه المبالغة تزداد إذا جعل الشيئان شيئا واحدا في صورة التشبيه البليغ فكأنهم والملوك جنس واحد.
- ساق الله تعالى هذا الأسلوب في مقام الامتنان فنسب جعلهم الملوك إليه ولا شك أن الله تعالى هو المتصرف فى الأمور كلها فهذا يفيدهم فهما أن شكرا لله تعالى على نعمته التي أولاها بهم واجب عليهم.

وينقل الله تعالى قول ذي القرنين مع القوم إذا أراد بناء السد فيقول الله تعالى: "آَتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آَتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا" [73] في هذه الآية والآيات قبلها إشارة إلى قصة بناء سد ذي القرنين دون يأجوج ومأجوج فسأل

القوم أن يعينوه بالعمل كي يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدا حاجزا وأمرهم أن يأتوا بقطع الحديد فأتوه بها فبناه حتى ساوى السد بين الجبلين قال لهم أن ينفخوا على قطع الحديد فنفخوا حتى جعله كالنار فقال لهم أن يأتوه بالنحاس الذائب كي يصب النحاس على الحديد المحمى ففعلوا وفعل حتى التصق بعضه ببعض وصار سدا منيعا[74].

شبه الحديد المحمى بالنار في الحرارة الشديدة وشدة الاحمرار وكل من الحديد والنار مفرد مدرك بإحدى الحواس الخمسة ولم يذكر فيه وجه الشبه ولا أداته. فهو من التشبيه المفرد المحسوس البليغ[75]. ومن الأسرار البلاغية في هذا الأسلوب ما يأتي:

- من المعلوم أن النار معروفة بوصف الحرارة أكثر من كل شيئ فبهذا التشبيه قد ازداد وصف الحرارة بطريق المبالغة.
- ثم بطريق التشبيه البليغ قد ازداد هذا الوصف أكثر مما كان لأن فيه دعوى الاتحاد بين المشبه والمشبه به فكأنهما شيئ واحد فصار الحديد في الحرارة إلى درجة النار.

ويبين الله تعالى وظيفة بعثة النبي صلى الله عليه وسلم فيقول: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا *وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا" [76]. يخاطب الله تعالى في هاتين الآيتين أنه أرسله شاهدا على من أرسل إليهم وَمُبَشِّراً من صدّقه بالجنة وَنَذِيرًا منذراً من كذّبه بالنار.[77] وأرسله داعيا إلى الله تعالى بإذنه وهو "كالسراج المنير في الهداية الواضحة التي لا لبس فيها والتي لا تترك للباطل شبهة إلا فضحتها وأوقفت الناس على دخائلها ، كما يضيء السراج الوقّاد ظلمة المكان" [78].

شُبِّه النبي صلى الله عليه وسلم بالسراج المنير وكل من المشبه والمشبه به من الذي يدرك بإحدى الحواس الخمسة وكلاهما مفردان ولم تذكر أداة الشبه ولا وجهه فهو من البليغ. ووجه الشبه الإضاءة في كل من المشبه والمشبه به فكما أن السراج الوقاد يضيئ ظلمة المكان فهكذا النبي صلى الله عليه وسلم جاء بنور الهداية وأزال ظلمات الكفر والشرك والجهالة التي كانت مخيمة على ذلك المجتمع فدعت تلك الجهالة الناس أن يعيشوا كالأنعام فبمجيئه صلى الله عليه وسلم جعلت الظلمات تنطوي شيئا فشيئا وجعل النور يتسرب إلى آل مكان[79] . ونجد من المزايا البلاغية في هذا الأسلوب ما يأتي:

- يخيل إليّ من هذا التشبيه والله تعالى أعلم أن الإنارة من فرائض النبي صلى الله تعالى عليه وسلم دون أن يحصل من المنافع الدنيوية لأنه بمنزلة السراج الذي يستمر فى فريضته دون أن يستفيد من هذا بنفسه سوى الائتمار بالحكم الرباني ولهذا فالنبي صلى الله عليه وسلم ما كان يريد من الناس جزاء ولا شكورا.
- جعل النبي صلى الله عليه وسلم سراجا بنفسه مبالغة ولا شك أنه أنار الدنيا بنور الهداية أكثر منك أحد وكل شيئ. وهذا التشبيه مبنى على زعم الناس ومعرفتهم وإلا فالأمر على عكس هذا وهو أن صفة الإنارة موجودة في النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من وجودها في السراج أو الشيئ الآخر.
- وصف السراج بالمنير مع أن الإنارة من لوازم السراج هو كوصف الشيء بالوصف المشتق كما في "ليلٌ أَلْيَل" لإفادة قوة معنى الاسم في الموصوف بهِ الخاص فإن هدى النبي صلى الله عليه وسلم هو أوضح الهدى . وإرشاده أبلغ إرشاد[80].

- وفيه إشارة إلى أن الدين الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم غير قابل للتبديل والتحريف لأنه صلى الله عليه وسلم أوضح كل شيء ببيانه الوافى واستدلاله الواضح بخلاف الأديان الأخرى فإنها قبلت التغيير والتحريف لأنها ما كانت متصفة بهذا الوصف[81].

ويعبر الله تعالى عن القرآن بالبصائر فهي دلائل والبراهين لمن يسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الآيات الدالة على التوحيد والرسالة فقال: "وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" [82]. ففي هذه الآية خطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم من ربه بأنك إذا الم تأتهم بآية سألوك الإتيان بها قالوا لماذا لم تأت بهذه الآية من قبل نفسك قل لهم بأنك لا تستطيع أن تأتى بها إلا بإذن ربك وهذا القرآن الذي أتيت به من ربك مجموعة من الدلائل والحجج.[83] وقد فسر الطبري البصائر بقوله: "حجج عليكم، وبيان لكم من ربكم" [84]. فمعناه أن القرآن بمنزلة البصائرِ للقلوب فهى تُبصِر به الحقَّ والصراط المستقيم.

قد شبه الله تعالى القرآن الكريم بالبصائر والقرآن الكريم وإن كان مدركا بإحدى الحواس الخمسة ولكن المراد ليس ذاتها بل محتوياتها التي يشتمل عليها القرآن الكريم فهو بهذه الناحية عقلي والبصائر أيضا عقلية ثم لم تُذكر فيه أداة التشبيه فهو من البليغ. ووجه الشبه الإرشاد إلى الحق فى كل من القرآن والبصائر. ونجد من الأسرار البلاغية فى هذه الآية ما يلي:

- فيه إشارة إلى أن القرآن يتسرب إلى القلوب مباشرة وهو يجعل النور في القلوب وإذا نورت القلوب بمعارف إلهية انكشفت الأمور وصاحبها على وعى تام لا يحتاج إلى أي نور آخر.
- إضافة البصائر إلى الله تبارك وتعالى يؤكد الإيمان بها لأن الهداية والنور إذا جاءا من مالك القلوب والهداية فليس هناك مجال للشك والخيار فالإيمان به ضروري.
- إطلاق البصائر الكائنة من الرب تبارك وتعالى يؤذن بأن القرآن نور للناس كلهم بلا اختصاص نعم كونه هداية فمختصٌّ بالمؤمنين به لأنهم هم الذين يقتبسون من أنواره وهدايته ومن هنا يمحو السؤال عن الأذهان :أن القرآن كتاب الهداية فلماذا لا ينير قلوب المستشرقين الذين يبحثون عن معارفه ولا يهتدون؟ لأن القرآن هداية للمؤمنين فقط[85].
- وفى استخدام صيغة الجمع فى « البصائر » إشارة إلى أن القرآن أنواع من الهدى على حسب النواحي التي يهدي إليها، من تنوير العقل في إصلاح الاعتقاد ، وتسديد الفهم في الدين ، ووضع القوانين للمعاملات والمعاشرة بين الناس ، والدلالة على طرق النجاح والنجاة في الدنيا ، والتحذير من مهاوي الخسران[86].

وهكذا يمن الله تعالى على بني إسرائيل أن أنزل على نبيهم التوراة وهو بمنزلة نور القلب الذي يُستبصر به فقال: "وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَرُونَ" [87] يخبر الله تعالى فى هذه الآية عما أنعم به على عبده ورسوله موسى عليه السلام من إنزال التوراة عليه بعدما أهلك فرعون وملأه. وهو بمنزلة البصائر وهو جمع البصيرة والبصيرة : نور القلب الذي يستبصر به ، كما أن البصر نور العين الذي تبصر به ، يريد: آتيناه التوراة أنواراً للقلوب ، لأنها كانت عمياء لا تستبصر ولا تعرف

حقا من باطل [88]. وهو سبب للهداية ورحمة من الله تعالى وهذا كي يتعظوا. فشبه كتاب موسى عليه السلام بالبصائر والكتاب مدرك بحاسة البصر والمراد منه محتوياته التي يشتمل عليها كتاب موسى عليه السلام فهو بهذه الناحية عقلي و البصائر وهو نور القلب لا يدرك بإحدى الحواس الخمسة ولم تذكر أداة الشبه ولا وجه الشبه فهو من قبيل المفرد العقلي البليغ ووجه الشبه هو الاهتداء فيهما كما أن نور القلب يُستبصر به ويُميز الحق من الباطل فكذلك الكتاب سبب للاهتداء وتمييز بين الحق والباطل. قال العلامة الزحيلى رحمه الله تعالى: " تشبيه بليغ حذفت منه أداة الشبه ووجه الشبه أي أعطيناه التوراة كأنها أنوار لقلوب الناس"[89]. ونجد من المزايا البلاغية في هذا الأسلوب ما يأتي:

- لاشك أن الكتاب المنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم سبب لنور القلب به تُبصر القلوب العمياء وبه يتقى السالك من التخبط فى مهاوي الضلال وفى هذه الآية جعل الكتاب عين البصائر مبالغة لأنه ليس هناك نور أكثر من نور الله تعالى ولا دليلا أدل من نور الله تعالى قال أبو السعود: "وجُعل الكتاب بصائر باعتبار عدة دلائله وكثرة بيّناته" [90].
- ثم في اختيار صيغة الجمع"البصائر" من المبالغة وفيه إشارة إلى أن الكتاب المنزل على سيدنا موسى عليه السلام مجموعة من البصائر لكثرة الدلائل والبينات [91].

ووبخ الله تعالى الكفرة على أنهم كانوا يستعجلون بالعذاب الموعود من الله تعالى بلسان نبيه صلى الله تعالى وكانوا يستعجلون لأنهم ما كانوا يؤمنون به فقال تعالى: "وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ" [92] . وكان الكفار يقولون: "اللهم إن كانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مّنَ السماء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ" وكان كل هذا إنكار واستهزاء لأنهم ما كانوا يرجون لقاء الله تعالى ولهذا كانوا يستعجلون في العذاب فأجابهم الله تعالى أنه لو يعجل الله لهم الشرَّ عند استعجالِهم به تعجيلاً مثلَ تعجيلِه لهم الخيرَ عند استعجالِهم به "لأدى إليهم الأجلَ الذي عيّن لعذابهم وأُميتوا وأهلِكوا بالمرة وما أُمهلوا طرفةَ عينٍ" [93]. وتقديرُ الكلام في هذه الآية:"ولو يعجل الله لهم الشرَّ عند استعجالِهم به تعجيلاً مثلَ تعجيلِه لهم الخيرَ عند استعجالِهم به" [94].

فهناك تشبيهان الأول: تشبيه استعجال الكفار الشر باستعجالهم الخير والثاني: تشبيه تعجيل الله تعالى العذاب بتعجيله الخير. فالتعجيل والاستعجال في كل من المشبه والمشبه به عقليان فالتشبيه عقلي ولعدم ذكر الأداة ووجه الشبه تشبيه بليغ. ونرى من الأسرار البلاغية في هذا الأسلوب ما نرى:

- هذا الأسلوب يدل على أن الله تعالى يعجل الخير إذا استعجلوه حتى ولو لم يستعجلوه في بعض الأحيان و هذا يدل على رحمة الله الواسعة.
- وفى نفس الوقت فهو يدل على عدم استعجال الله تعالى الشر مع أن الكفار يستعجلونه ولكن رحمة الله تعالى الواسعة تأبى ذلك كي يمهل الكفار أن يتوبوا إلى الله تعالى في هذه الدنيا.
- أوحى هذا الأسلوب أن رحمة الله تعالى سبقت غضبه لأنه يعجل الخير إذا استعجله الكفار ولا يعجل الشر إذا استعجلوه بل يمهلهم كي يتوبوا.
- في حذف التعجيل والاستعجال إشعار بسرعة إجابتِه تعالى لهم بالخير حتى كان استعجالُهم بالخير نفسَ تعجيلِه لهم.

وأشار الله تعالى إلى قذارة الشرك وجعله كأقبح ما يستقذره الناس فقال تعالى: "ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ" [95]. بين الله تعالى فى هذه الآية أن تعظيم حرمات الله تعالى خير لفاعله والله تعالى أحل الأنعام للناس إلا ما بينه فى زمرة المحرمات فعلى العباد أن يجتنبوا عبادة الأوثان التي هي من القذر المعنوى وأن يجتنبوا شهادة الزور.

ومعنى الرجس فى اللغة هو القذر وهو عام للقذر الظاهرى الذى يكون من القذر المحسوس للناس والمعنوى وهو الشرك مع الله تعالى وقال صاحب القاموس المحيط: "والرِّجْسُ، بالكسر: القَذَرُ، ويُحَرَّكُ وتفتح الراءُ وتكسر الجيمُ، والمَأْثَمُ، وكلُّ ما اسْتُقْذِرَ من العَمَلِ، والعَمَلُ المُؤَدِّي إلى العذَابِ، والشَّكُّ، والعِقَابُ، والغَضَبُ. ورَجِسَ، كفرِحَ وكرُمَ، رَجاسَة: عَمِلَ عَمَلاً قبيحاً." [96] والمراد فى هذه الآية القذر المعنوى وهو الشرك وطاعة الشيطان. قال الطبرى:"وقوله: [فاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأوْثانِ] يقول: فاتقوا عبادة الأوثان، وطاعة الشيطان في عبادتها فإنها رجس"[97].

شبه الله تعالى الشرك بالرجس وكل من الشرك والرجس مفرد ثم الشرك لا يدرك بإحدى الحواس الخمسة فهو عقلى وأما الرجس فمدرك بها فهو حسى وأداة الشبه لم تذكر هنا فهو من قبيل التشبيه المفرد العقلى الحسى البليغ. ولكن هذا إذا كان المراد من الرجس القذر الظاهرى الذى يكون محسوسا للناس فإن كان المراد منه الرجس المعنوى الذى يكون غير محسوس للناس فهو من التشبيه المفرد العقلى البليغ. ونجد فى هذه الآية من الأسرار البلاغية ما يأتى:

- في هذا التشبيه تنفير المشبه لأن الناس ينفرون عن الرجس الذى شبه به فى هذه الآية فالله تعالى أخبرهم أن طاعة الشيطان والشرك مع الله تعالى من الرجس المعنوى الذى يكون أثره إلى الأبد. فنفر الله تعالى الناس عن الشرك بهذه الطريقة لأن الطبع السليم لا يواجه الرجس فكيف بشيء سماه الله تعالى الرجس.
- من اللازم أن الذين يحبون الأقذار يُكرهون طبعا بين الناس فعُلم بها أن المشركين يحبون الأقذار الاعتقادية فهم نجس ولذا قال الله تعالى " إنما المشركون نجس" فلا ينبغى للمسلمين أن يودوهم.
- وهكذا ينبغى للمسلمين أن ينفروا عن هذا القذر المعنوى مع تركهم إياه كما ينفر الناس الأقذار طبعا [98].

ويصف الله تعالى حقارة الدنيا ودناءتها فجعلها كالشيء الذى لا يقصد لذاتها ولا يقضى فيه من الوقت إلا قليل وهو اللهو واللعب فيقول الله تعالى: "وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ" [99]. يبين الله تعالى حقيقة الحياة الدنيا فهى لا تتجاوز من أن تكون لعبا ولهوا وأما الدار الآخرة فهى خير للمتقين أفلا يعقل المخاطبون هذه الحقيقة؟ واللعب : عمل أو قول في خفّة وسرعة وطيش ليست له غاية مفيدة بل غايته إراحة البال وتقصير الوقت واللهو : ما يشتغل به الإنسان ممّا ترتاح إليه نفسه ولا يتعب في الاشتغال به عقله . فلا يطلق إلاّ على ما فيه استمتاع ولذّة وملائمة للشهوة [100].

شبهت الحياة الدنيوية باللعب واللهو فى الاستمتاع وعدم الفائدة فيهما. الحياة الدنيوية مفرد مقيد والحياة شيء معنوى لا تدرك بإحدى الحواس الخمسة وقد شبهت بشيئين: اللعب واللهو وهما أمران حسيان ومفردان ثم لم تذكر أداة الشبه ولا وجه الشبه فهو من التشبيه المفرد العقلى الحسى البليغ. ولاحظنا أن المشبه واحد والمشبه به متعدد فهو تشبيه الجمع. ونجد من الأسرار البلاغية فى هذه الآية ما يأتي:

- جعلت الحياة الدنيوية واللعب واللهو شيئا واحدا وفيه مبالغة لتناسى التشبيه وكأنه ليس هناك تشبيه لأجل حذف أداة التشبيه ووجه الشبه [101]. ثم نرى أن الحياة الدنيوية قد انحصرت فى اللهو واللعب مع أن هناك أمورا أخرى سوى اللهو واللعب فالأعمال الحاصلة في الحياة كثيرة ، منها اللهو واللعب ، ومنها غيرهما فهذا القصر ادّعائي يقصد به المبالغة وفيه إشارة إلى أن الغالب على الناس اللعب واللهو إلاّ من آمن وعمل صالحاً. [102]
- وفيه أيضاً نداء على سخافة عقولهم إذ غرّتهم في الدنيا فسوّلت لهم الاستخفاف بدعوة الله إلى الحق لأنهم كانوا يقولون: إن هي إلاّ حياتنا الدنيا نموت ونحيى فقيل لهم إن هذه الدنيا ليست فى شيء مما يعبأ به وخير الحياة هى الحياة الأخروية [103] . وفيه إشارة أيضا إلى قصر عمر الدنيا لأن اللعب واللهو لا يكون طول العمر بل فى جزء من العمر ثم فى جزء من ذلك الجزء.

وهكذا يخبر الله تعالى عن فنائية الدنيا وزوالها وأنها لا تزيد على أن تكون متاعا إذا قورنت بالحياة الأخروية فقال تعالى: "اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ " [104] فالله تعالى يبين قسمته لعباده فى الرزق فهو يقسمه حسب حكمته وعلمه فيبسط لمن يشاء ويقدر لمن يشاء وأنهم رضوا بحظ الدنيا وقد أعرضوا عن نعيم الآخرة والحال أن ما فرحوا به في مقابلة ما أعرضوا عنه قليل النفع و سريع النفاد لأن المتاع هو يكون قليلا حسب الضرورة لا يراعى فيه الجودة لزاد الراكب فى السفر [105].

شبهت الحياة الدنيا بالمتاع وهو آل ما يتمتع به فى الدنيا والحياة الدنيا مفرد وغير مدرك بإحدى الحواس الخمسة والمتاع أيضا مفرد ولكنه مدرك بحاسة البصر ولم تذكر أداة الشبه ولا وجه الشبه فهو تشبيه مفرد عقلى حسى بليغ ووجه الشبه هو الحقارة وسرعة زواله. [106] ونجد فى هذه الآية من المزايا البلاغية ما يأتى:

- قد انحصرت الحياة الدنيا فى المتاع لأنهما ذكرا بـ"ما" و"إلا" وهما لحصر الأول فى الثانى والأول هو المشبه أى الحياة الدنيا والثانى هو المشبه به أى المتاع وهذا الحصر يفيد أن حقيقة الحياة الدنيا لا تتجاوز من أن تكون متاعا. ففيه حقارة الحياة الدنيا لأن المتاع ليست له قيمة بل يحتاجه الناس لوقت قليل.
- وكما نرى أن هذا التشبيه هو التشبيه البليغ فهذا يفيد أن الحياة الدنيا هى نفس المتاع ففيه مبالغة لأن للحياة الدنيا نواحى كثيرة ولكنها لم تُراعى فكأنها كلها متاع لا غير.
- هذا التشبيه أفاد أنه ينبغى أن لا تُراعى الجودة والراحة فى الحياة الدنيا لأنها كالسفر' والمسافر لا يبالى بالمتاع الذى يستخدمه لضرورة الوقت بل كل ما يراعى فيه هو العمل الذى لأجله يستخدم ذلك المتاع. فالحياة الدنيا هى نوع سفر يستمر إلى الدار الآخرة فينبغى لمسافر الآخرة أن يجعل نصب عينيه هدفه الأساسى ولا يبالى بالتسهيلات فى الحياة الدنيا.
- هذا التشبيه أشار أيضا إلى قلة الحياة الدنيا إذا قورنت بالحياة الآخرة لأن المتاع يكون قليلا زائلا فهكذا الحياة الدنيا قليلة ذاهبة زائلة بالنسبة إلى الحياة الآخرة. قال الله تعالى:" وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إلا مَتَاعٌ " أي: قليل ذاهب [107].
- فيه أيضا إشارة إلى أن الدنيا ليست هدفا أصليا بل طريق إلى الهدف الأصلى وهى الدار الآخرة ففى هذه الدنيا حياة تُستغل للآخرة بالعمل الصالح ويُتزود ذلك العمل للآخرة [108].

المبحث الثالث/ الصور غير المعروفة للتشبيه
[التشبيه المقلوب والتشبيه الضمني]

اعلم أن هناك صور معروفة للتشبيه وهى التى تكون المشبه به أصلا والمشبه فرعا, ولكنه قد ينحرف عن صوره المعروفة إلى صور غير معروفة فإحداهما التشبيه المقلوب وهو أن يجعل المشبه به مشبهاً والمشبه مشبهاً به، وهذه الصورة من التشبيه وهى منحرفة عن

الصور المعروفة التى يكون المشبه به أصلا والمشبه فرعا. ولا يخفى ما فى هذه الصورة من المبالغة فى الادعاء والتوبيخ وسنرى تفصيل هذا فى تحليل النصوص المتعلقة به. وثانيتهما التشبيه الضمنى وهو قسم من التشبيه الذى تدل عليه العبارة دلالة ضمنية دون أن يكون هناك أسلوب التشبيه المعهود من ذكر المشبه والمشبه به وأداة التشبيه ووجه الشبه أحيانا وعدم ذكرهما فى بعض الأحيان.

فأما التشبيه المقلوب نجده فى آية سورة البقرة حيث نرى أن الله تعالى صور قيام أكلة الربا من قبورهم يوم القيامة فى صورة من يتخبطه الشيطان من المس، فقال: الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [109].

فى هذه الآية تشبيهان: الأول تشبيه أكلة الربا بالذى يتخبطه الشيطان من المس والتشبيه الثانى فهو تشبيه البيع بالربا. فكل من المشبه والمشبه به مفرد وكلاهما مما لا يدرك بإحدى الحواس الخمسة فهو من التشبيه المفرد بالمفرد وتشبيه المعقول بالمعقول ووجه الشبه هو أخذ الفضل. قال العلامة الزمخشرى رحمه الله تعالى:"وكانت شبهتهم أنهم قالوا : لو اشترى الرجل ما لا يساوي إلا درهما بدرهمين جاز ، فكذلك إذا باع درهماً بدرهمين" [110] . وهذا التشبيه يعد من التشبيه المقلوب لأن الكلام فى الربا لا فى البيع وكان المفروض أن يقال:إنما الربا مثل البيع لأنهم جعلوا الربا مثل البيع فالأصل هو البيع لا الربا ولكن الأمر على عكس ذلك تماما وشبه البيع بالربا فما هو السر البلاغى فى هذا القلب؟

- جعل الربا أصلا ومشبها به وجعل البيع فرعا ومشبها للمبالغة وتفصيله أنهم قد بلغوا فى أكل الربا إلى أقصى حد وكأنهم قد جعلوه أصلا فى الحل فشبهوا البيع به وكأن الربا من الأشياء التى تشبه به الأشياء الأخرى [111].
- فيه تقبيح حالهم وهو أنه كان ينبغى لهم أن لا يأكل الربا ولكنهم استحلوا الربا وجعلوا حله علة لحل البيع فمعناه: أن البيع حلال لأن فيه فضل مثل الربا فكما أن الربا حلال أكله فكذلك البيع. ولا يخفى أن استحلال الربا وجعله أصلا لحل البيع شيئ بعيد من شان المسلم.

وهكذا يرد الله تعالى قول الكفرة "عند سماعهم بحديث الآخرة وما وعد الله تعالى إن صح أنا نبعث كما يزعم محمد صلى الله عليه وسلم ومن معه لم يكن حالنا وحالهم إلا مثل ما هي في الدنيا فلم يزيدوا علينا ولم يفضلونا وأقصى أمرهم أن يساوونا" [112] فيقول تعالى:"أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ" [113] المشبه هنا المسلمين والمشبه به هو المجرمين وكل من المشبه والمشبه به مفرد وحسى فهذا من قبيل تشبيه المفرد بالمفرد والمحسوس بالمحسوس ووجه الشبه هو الأجر والثواب فى الآخرة. وقدم الله تعالى هذا فى صورة التشبيه المقلوب لأن الأصل تشبيه المجرمين بالمسلمين فى الأجر والثواب لا العكس لأن الكلام فى ثواب المجرمين بأنهم لن يثابوا فى الآخرة لا فى ثواب المسلمين لأن المسلمين ادّعوا ذلك والكفار قالوا إن كان هذا هو الحق لكنا مثلهم فى الآخرة فرد الله تعالى عليهم فى صورة الاستفهام الإنكارى بأنهم لن يكونوا مثلهم فى الآخرة. واختار الله تعالى أسلوب التشبيه المقلوب للوجوه الآتية:

- أسلوب التشبيه المقلوب أبلغ لأن هذا يعكس علينا خبيئة الكفرة وهو أنهم يجعلون أنفسهم أصلا والمسلمين فرعا فكأنهم يزعمون إن كان هذا هو الحق فهم يكونون أول من يثاب فى الآخرة ثم بعدهم يثاب المسلمون. قال صاحب التفسير المنير: "تشبيه مقلوب ليكون أبلغ وأروع لأن الأصل أفنجعل المجرمين كالمسلمين فى الأجر والثواب" [114].

- ويمكن أن تكون الإشارة إلى أن المساواة المزعومة لديهم إن كان حقا فمعنى ذلك أن المسلمين يكونون مثلهم فى العقاب والعذاب لأنهم ليسوا أن يثابوا وينعموا فى الآخرة فى أى صورة لأنهم أعداء الله تعالى وخالفوه فى كل لحظة من لحظات حياته فرد الله تعالى عليهم بأن الله تعالى لن يعذب أولياءه مثلهم.

وهكذا يبين الله تعالى نعمته على عباده وقدرته فيقول:"وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا" [115] فهذه الآية سلسلة من نعم الله تعالى التى عدها على عباده بصورة الامتنان فيقول الله تعالى فى هذا المجال إنه خلق الشمس المنيرة ووصف الله تعالى الشمس بـ"الوهاج"، وهو أصله الشديد الوَهج [بفتح الواو وفتح الهاء ، ويقال : بفتح الواو وسكون الهاء] وهو الاتقاد يقَال : وَهَجَت النار إذا اضطرمت اضطراماً شديداً. ويطلق الوهاج على المتلألىء المضيء وهو المراد هنا لأن وصف وهاج أُجريَ على سراج ، أي سراجاً شديد الإضاءة [116].

شبه الله تعالى الشمس بالسراج وحقيقة السراج" المصباح الذي يستضاء به وهو إناء يجعل فيه الزيت وفي الزيت خرقة مفتولة تسمى الذُّبَالة تُشْعل بنار فتضيء ما دام فيها بلل الزيت" [117] وكل من الشمس والسراج من الحسيات وكل واحد منهما مفرد وليس هناك أداة التشبيه ولا وجهه فهو من المفرد الحسى غير البليغ. ووجه الشبه فى هذا التشبيه هو الإضاءة. ونجد من المزايا البلاغية فى هذا الأسلوب ما يأتي:

- فى هذا التشبيه تقريب توهج الشمس إلى أذهان السامعين لأن السراج معروف بهذه الصفة ولا يخفى على أحد أن نور السراج أقل قليلا من نور الشمس فهو من التشبيه المقلوب. كما فى قوله تعالى "مثل نوره كمشكوة... الآية"
- فى هذا التشبيه مبالغة لدعوى الاتحاد بين المشبه والمشبه به لعدم ذكر أداة التشبيه.
- وقد زاد فى المبالغة وصف السراج بالوهاج.

وأما التشبيه الضمنى فنراه فى الآية التالية حيث يبين الله تعالى فيها الحالة النفسية لمن ضاع عمله فى وقت هو شديد الحاجة إليها فقال تعالى:"أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ * الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ [118].

قدم الله تعالى هذه الحالة النفسية فى صورة التشبيه الضمنى وهو قسم من التشبيه الذى تدل عليه العبارة دلالة ضمنية دون أن يكون هناك أسلوب التشبيه المعهود ففيه تشبيه حال عمل المنافق والمرائى الذى يتبع ما أنفقوا المن والأذى بحال من له جنة ملتفة بأشجار النخيل والأعناب المثمرة وتجرى تحتها الأنهار وهى تثمر أنواعا من الثمار وهو ينتفع به ولكن إذا ضعف عن العمل وكان ذا عيال فهو وعياله فى حاجة شديدة إلى هذه الجنة ولكن ما بقت تلك الجنة بصفتها المذكورة بل أحرقتها الريح الشديدة الحارة وبقى هو وأولاده فى عسر وكانوا أشد حاجة لها مما كانوا قبل الضعف لأنه ضعف عن العمل وأولاده لا يستطيعون أن يعملوا شيئا.

ونرى فى هذا التشبيه أن المشبه وهو حال عمل المنافق بما وصف من الأوصاف المذكورة فهو مركب من العمل وعدم الإخلاص ثم إتباعه إياه المن والأذى والمشبه به مركب من الجنة وكونها ذات الأنهار والنخيل والأعناب ثم ضعف صاحبها ووجود الأولاد عنده ثم هب الريح الشديدة الحارة عليها واحتراقها فهو من التشبيه المركب بالمكب ثم الأجزاء التى ركب منها المشبه لا تدرك بإحدى الحواس الخمسة وأما الأجزاء التى ركب منها المشبه به فهى تدرك بحاسة البصر فهو من تشبيه المعقول بالمحسوس. ووجه الشبه "هو حصول خيبة ويأس في وقت تمام الرجاء وإشراف الإنتاج." [119] وهو منتزع من عدة أمور. فإذا دخلنا من مدخل هذا التصوير لتتراآى أمامنا صورتان: صورة المشبه به وصورة المشبه أما الصورة الأولى

فأمامنا صورة بطل قوى غنى بالجنات المثمرة بأنواع الثمرات وهو فى لذات الدنيا لايرى من الأمور المفزعة شيئا وفى هذه المرحلة من عمره هو يستطيع أن يكتسب له ولأولاده مزيدا من الدنيا فهو ذو قوة ومهنة وسرعان ما يتبدل الأمر فعنده أولاد صغار يعولون عليه فلا يقدرون على الكسب وهو قد تجاوز مرحلة القوة والمتانة فهو ضعيف لا يقدر على الكسب وهم يعيشون على تلك الجنة لكن تهب الريح الشديدة على جنته وهى مع شدتها حارة لا تبقى شيئا من النبات تمر عليه إلا أحرقته وقد حرموا عن الجنة التى هى الوسيلة الوحيدة لعيشه ولأولاده وهم ينظرون إلى بقايا جنتهم بحسرة ويأس ما بقى لهم شيئ يعيشون به ولا هم يستطيعون أن يكتسبوا لهم في الهم من الحسرة والحزن، ثم نسرى من هذه الصورة إلى صورة أخرى التى تُرى فى مرآة هذه الصورة وهى صورة من عمل عملا ليس فيه إخلاص ولا صدق النية فهو إما نتيجة الرياء أو النفاق ثم يمن بذلك العمل على من منّ عليه ويؤذيه فيضربه تارة ويشتمه تارة أخرى وكان فى الدنيا فى هذه الحالة كان فى وسعه أن يتوب من عمله الخبيث وأن يعمل عملا صالحا غير ذلك فالدنيا مزرعة الآخرة ولكن قضى حياته هكذا ثم بعث من قبره ليوم الحساب وتقدم إلى الله تعالى ولكن ما وجد عمله الذى عمله فى الدنيا فقد أحرق بنار النفاق والرياء فليس له عمل يتوسل به فيدخل الجنة ولا يستطيع أن يرجع إلى الدنيا فيتوب من عمله الخبيث أو يعمل عملا صالحا غير ذلك فبقى حيران فى حالة اليأس من النعم التى قد أعدت للمتقين.

يصور الله تعالى آلهة دونه فى صورة أضعف المخلوقات ويبين أنهم ليسوا فى شيئ من دفع الحاجة لعابديهم حتى ولا يقدرون على أن يدفعوا عن أنفسهم الأشياء المضرة فيقول تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ " [120] وهذا من التشبيه الضمنى لأن التشبيه فيه ليس على أسلوبه المعهود فالمشبه هو حال الأصنام المتعددة فى قبائل العرب وهو مركب من عبادة المشركين إياهم ودعائهم إياهم وعدم استجابة دعائهم وعجزهم وكل هذه الأشياء من الامور التى لا تدرك بإحدى الحواس الخمسة والمشبه به هو حال ضعاف الناس وهو مركب من عجزهم عن خلق أضعف مخلوق وهو الذبابة وعدم نصر أحد من الناس وعدم قدرتهم على الدفع من أنفسهم وآل هذه الأشياء أيضا لا تدرك بإحدى الحواس الخمسة فهذا من تشبيه المركب بالمركب وتشبيه المعقول بالمعقول.ووجه الشبه هو الضعف فى المشبه والمشبه به وهو منتزع من متعدد ونرى فى هذا التصوير الذى رسمه الله تعالى أن بعض الناس يدعون لحاجاتهم بعض الناس ويرجون أنهم سيقضون حاجاتهم ويستمرون فى حالتهم هذه وبعد مدة هم يكتشفون أن الذين كانوا يرجون منهم النصر ضعاف إلى حد أنهم لا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم الأشياء المضرة ولكنهم مع ذلك يستمرون على دعائهم ورجاء الحاجات فيا لهم من حماقة ثم نرى فى ضوء هذه الصورة صورة أخرى وهى صورة المشركين الذين نحتوا أصناما بأيديهم ثم بدءوا يعبدونها مع الرجاء أنهم ينفعون ويضرون ثم ينظرون أنهم لا يقدرون على دفع الذباب من أنفسهم ولا على إنقاذ الشيء من تلك الذبابة ولكن لا يقفون عن شركهم ويستمرون فيه.

الخاتمة:

بعد هذا الجهد المتواضع حاولت التقاط المحاسن الكامنة فى الأسلوب القرآني وبما أن محتويات بحثي هي الإعجاز البياني وقفت أمام أسلوب التشبيه غير التمثيل والتمست أن يرشح بعض المحاسن التي كمنت فى ردائه فى نصوص القرآن الكريم فرشح من محاسنه حسب علمي وفهمي فما انتهت محاسنه بل انقطعت عنى لما وصلت إلى حدود فهمي وعلمي. فمن هذه المزايا ما يلي:

- نجد فى هذا الأسلوب المعانى العالية الكثيرة فى الألفاظ القليلة ويسمى إيجازا فى علوم البلاغة وهو يتسبب لمزايا البلاغية الأخرى فهو يحض المخاطب على التفكر كي يصل إلى النتيجة ولا يخفى ما فى هذا التفكر من اللذة واكتشاف الحقائق.
- ونجد فى هذا الأسلوب من تقديم الأشياء المعنوية فى صورة الأشياء الحسية كما فى قوله تعالى" كأنما خرمن السماء" فهذه الصورة أعطت كثيرا من المعلومات فى صورة مرسومة أمام أعين المخاطب فهو يعرف الأشياء الكثيرة ببحثه وتفكره ولا ينحصر على خبر المتكلم وشرحه.
- ولا نستطيع أن ننكر المبالغة التى أعطاها التشبيه وخاصة فى أسلوب التشبيه البليغ ففيه دعوى الاتحاد بين المشبه والمشبه به وكأنه لا فرق بينهما، فيتولد من هذه المبالغة المزايا البلاغية الكثيرة ومنها شدة الحرص على فعل الشيء أو تركه وانبعاث النفرة فى القلوب .
- وبه يحصل الأنس للنفس لأن هذه الأساليب تخرج الأشياء الخفية من الخفاء إلى الظهور وتبديل الأشياء غير المألوفة فى صورها المألوفة والأشياء المعقولة فى صورها المحسوسة فتكون النفس مأنوسة معها فأحيانا نحن نعبر عن المعنى بعبارة نؤديه ونبالغ فيه بأسلوب عادى ولكن السامع لا يتلذذ به تلذذه بأسلوب التشبيه وربما لا يفهمه.
- ففيه توضيح المعاني لأن الشيء الخفي إذا شبه بالشيء الجلي يتبين فتتضح الأشياء المعقولة والأشياء الخفية إذا شبهت بالأشياء المحسوسة، فهي تكون أمام أعين المخاطب وهو يلتقط من ذلك الشيئ المحسوس ما يحتاجه بنفسه فعلمه يكون على وجه البصيرة.

الهوامش

[1] - انظر: الخطيب القزويني (729هـ)، (**الإيضاح في علوم البلاغة**) ، تحقيق: د. محمد عبد المنعم الخفاجي، دار الكتاب العربي اللبناني، ط5، بيروت، 1980م 1/ ص249- 250.

[2] - الأحزاب: 32

[3] - انظر:البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، (**معالم التنزيل**)، تحقيق: محمد عبد الله النمر- عثمان جمعة ضميرية- سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط4، 1417هـ- 1997م ، 6/ 348.

[4] - انظر: محمود الألوسي البغدادي (ت ١٢٧٠)، **(روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني)**، المطبعة المصطفائية ديوبند، (د.ت)، 16/ 97.

[5] - الكهف: 29.

[6] - وهبة الزحيلي، **(التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج)**، دار الفكر المعاصر، ط1، بيروت، لبنان، 1411هـ - 1991م، 15/ 238.

[7] - محمد طاهر بن عاشور، (**التحرير والتنوير**)، ط1، دار التونسية، (د.ت) ، 8/ 366.

[8] - المرسلات، 33.

[9]- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري(310 هـ)، (**تفسير الطبري**)، طبعة بولاق، القاهرة، 1328هـ ، 24/ 139.

[10] - المرسلات، 33.

[11] - ابن عاشور، (**التحرير والتنوير**)، 6/ 431.

[12] - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[13] - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
[14] - القارعة، 4- 5،
[15] - جار الله محمود بن عمر الزمخشري (هـ)، **(الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل)**: دار المعرفة، ط 1، بيروت، لبنان، 7/ 320.

[16] - انظر: المصدر نفسه ، 7/ 320
[17] - انظر: وهبة الزحيلي، **(التفسير المنير)**، 30/ 376.
[18] - ابن عاشور، **(التحرير والتنوير)**، 16/ 373.
[19] - انظر: محمد أبو موسى، (التصور البياني)، الناشر: مكتبة وهبة - القاهرة الطبعة الثالثة - 1993 ، 30.

[20] - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
[21] - انظر: أبو موسى، **(التصوير البياني)**، 30، وانظر: أبو الحسن علي بن محمد الماوردي البصري(450هـ)، **(النكت والعيون)**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1412،1هـ - 1992م، راجعه وعلق عليه: السيد عبد المقصود بن عبد الرحيم، 4/ 448.

[22] - البقرة، 146.
[23] - انظر: أبو سعيد ناصر الدين عبد الله بن عمربن محمد، **(تفسير البيضاوي)**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1417هـ، 1/ 184.

[24] انظر: الزمخشري، **(الكشاف)** في تفسير هذه الآية.
[25] - انظر:الآلوسي، **(روح المعاني)** في تفسير هذه الآية.
[26] - انظر: الزمخشري، **(الكشاف)** في تفسير هذه الآية.
[27] - انظر:الآلوسي، **(روح المعاني)**، في تفسير هذه الآية.
[28] -انظر: روح المعاني في تفسير هذه الآية.
[29] - انظر: نظام الدين الحسن بن محمد بن حسن النيسابوري (850هـ)، **(تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان)**، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، ط1، المطبعة العلمية، بيروت لبنان ، 1/ 266.

[30] - انظر: الزحيلي،(**التفسير المنير)** ، 2/ 18.
[31] - انظر: الزمخشري، **(الكشاف)** في تفسير هذه الآية.
[32] - انظر:عبد القاهر الجرجاني، **(أسرار البلاغة)**،تحقيق: سيد رضا، دار المعرفة، بيروت،(د. ت)، 1/ 44.

[33] - انظر: روح المعاني في تفسير هذه الآية.
[34] - انظرالمصدر نفسه في تفسير هذه الآية.
[35] - انظر: **المصدر نفسه** في تفسير هذه الآية.
[36] - النساء، 77.
[37] - ابن عاشور، **(التحرير والتنوير)**، 3/ 474.
[38] - انظر: الماوردي، **(النكت والعيون)**، 1/ 314.
[39] - انظر: ابن عاشور، **(التحرير والتنوير)**، 3/ 474.
[40] - يوسف، 6.
[41] - انظر: ابن عاشور، **(التحرير والتنوير)**، 7/ 232.
[42] - أبو السعود بن محمد العمادي، **(تفسير أبي السعود)**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 3/ 405.

[43] - الممتحنة، 13.
[44] - ابن عاشور، **(التحرير والتنوير)**، 15/ 15.
[45] - الشورى، 3.
[46] - انظر: أبو السعود، **(تفسير أبو السعود)**، 6/ 70.
[47] - انظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
[48] انظر: المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

[49] - انظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
[50] - انظر: أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر بن حسين الرازي، **التفسير الكبير : (مفاتيح الغيب)** ، ط2 ، دار الكتب ، طهران ، (د.ت) ، 13/ 408.

[51] - البقرة، 222.
[52] - البقرة، 18.
[53] - البيضاوي، **(تفسير البيضاوي)**، 1/ 39.
[54] انظر: أبو جعفر، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، الطبري (224- 310هـ)، **(جامع البيان في تأويل القرآن)**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ - 2000م ، في تفسير هذه الآية.

[55] - تفسير البيضاوي، 1/ 39.
[56] - انظر: الزمخشري، **(الكشاف)**، في تفسير هذه الآية.
[57] - ابن عاشور، **(التحرير والتنوير)**، 1/ 144.
[58] انظر: البضاوي في تفسير هذه الآية.
[59] - أبو السعود، **(تفسير أبي السعود)** ، 1/ 63.
[60] - المصدر نفسه، 1/ 63.
[61] - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
[62] - البقرة، 223.
[63] - الزحيلي، **(التفسير المنير)**، 2/ 297.
[64] - انظر: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، تفسير النسفي: **(مدارك التنزيل وحقائق التأويل)**، تحقيق : مروان محمد الشعار ،(د.ط)، دار النفائس ، بيروت ، 1996 ، 1/ 112.

[65] - انظر: جلال الدين السيوطي، **(الدر المنثور في التفسير بالمأثور)** ، تحقيق : د.عبد الله التركي، مركز هجر للبحوث، ط ١، القاهرة، 1424هـ، 2/ 28.

[66] - انظر: أبو السعود، **(تفسير أبي السعود)**، 1/ 282.
[67] - انظر: النسفي، تفسيره، 112/1.
[68] - المصدر نفسه، 2/ 45.
[69] - النسفي، تفسيره، 1/ 112.
[70] - تفسير أبي السعود، أبو السعود، 1/ 282.
[71] - المائدة، 20.
[72] - انظر: أبو محمد بن مسعود البغوي، **(معالم التنزيل)**، ط4، 1417- 1997، 3/ 35.
[73] - الكهف، 96.
[74] - انظر: الواحدي، **(الوجيز)**، 1/ 481.
[75] - انظر: الزحيلي، **(التفسير المنير)**، 16/ 20.
[76] - الأحزاب، 45- 46.
[77] - انظر: جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي، **(تفسير الجلالين)** ،(د.ط)، مكتبة الفلاح للطبع والنشر ، دمشق ، 1389هـ - 1969م ، 8/ 77.

[78] - ابن عاشور، **(التحرير والتنوير)**، 11/ 282.
[79] انظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
[80] - انظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
[81] - انظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
[82] - الأعراف، 203.
[83] - انظر: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، أستاذ عصره في علم التفسير، **(الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)**، تحقيق :صفوت عنان داودي، دار القلم، دمشق، ط1(١٤١٥ هـ)، الدار الشامية، بيروت ، 1/ 258.

[84] - الطبري، (**تفسير الطبري**)، 13/ 343.
[85] -انظر: أبو السعود، (**تفسير أبي السعود**)، 3/ 89.
[86] - ابن عاشور، (**التحرير والتنوير**)، 6/ 16.
[87] - القصص، 43.
[88] - انظر: الزمخشري، (**الكشاف**)، 5/ 146 وانظر: أبو الفداء عماد الدين اسماعيل القريشي المعروف بابن كثير، (**تفسير القرآن العظيم**) ، ط4 ، دار الأندلس ، بيروت ، 1983 م ، 6/ 239.

[89] - الزحيلي، (**التفسير المنير**)، 20/ 106.
[90] تفسيره، 10/ 399.
[91] - انظر: أبو السعود، (**تفسير أبي السعود**)، 10/ 399.
[92] - يونس، 11.
[93]- أبو السعود، (**تفسير أبي السعود**)، 3/ 239.
[94] - المصدر نفسه، الصفحة نفسها، .
[95] -الحج، 30.
[96] - الفيروز آبادي، (**القاموس المحيط**)، دار مكتبة التربية، بيروت، (د.ت) ، 2/ 86.
[97] - الطبري، (**تفسير الطبري**)، 18/ 618.
[98] - الزمخشري، (**الكشاف**) 4/ 288.
[99] - الأنعام، 32.
[100] - ابن عاشور، (**التحرير والتنوير**)، 4/ 406.
[101] - انظر: الزحيلي، (**التفسير المنير**)، 7/ 176.
[102] - انظر: ابن عاشور، (**التحرير والتنوير**)، 4/ 406.
[103] - انظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها،
[104] - الرعد، 26.
[105] انظر: الآلوسي، (**روح المعاني**)، 9/ 261.
[106] - انظر: الزحيلي، (**التفسير المنير**)، 13/ 161.
[107] انظر: البغوي تفسيره تحت الآية المذكورة.
[108] - انظر: الماوردي، (**النكت والعيون**) ، 2/ 311.
[109] - البقرة، 275.
[110] - الزمخشري، (**الكشاف**)، 1/ 246.
[111] - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
[112] - الآلوسي، (**روح المعاني**)، 21/ 185.
[113] - القلم، 35.
[114] - الزحيلي، (**التفسير المنير**)، 29/ 66.
[115] - النبأ، 13.
[116] - الآلوسي، (**روح المعاني**)، 15/ 67.
[117] - انظر، ابن عاشور، (**التحرير والتنوير**)، 16/ 37.
[118] - البقرة، 266.
[119] - ابن عاشور، (**التحرير والتنوير**)، 2/ 456.
[120] - الحج، 73.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، (**مدارك التنزيل وحقائق التأويل**): ، تحقيق : مروان محمد الشعار ،(د.ط)، دار النفائس ، بيروت ، 1996.

- جار الله محمود بن عمر الزمخشري هـ)، (**الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**)، دار المعرفة، ط 1، بيروت، لبنان،
- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري(310 هـ)، (**تفسير الطبري**)، طبغة بولاق، القاهرة، 1328.
- أبو جعفر، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (224-310هـ)، (**جامع البيان في تأويل القرآن**)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ - 2000م.
- جلال الدين السيوطي، (**الدر المنثور في التفسير بالمأثور**)، تحقيق : د.عبد الله التركي، مركز هجر للبحوث، ط ١، القاهرة، 1424هـ.
- جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي ، (**تفسير الجلالين**)، (د.ط)، مكتبة الفلاح للطبع والنشر ، دمشق ، 1389هـ - 1969م .
- أبو الحسن علي بن محمد الماوردي البصري، (450هـ)، (**النكت والعيون**)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1412،1هـ - 1992م، راجعه وعلق عليه: السيد عبد المقصود بن عبد الرحيم.
- أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، أستاذ عصره في علم التفسير، (**الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**)، تحقيق :صفوت عنان داودي، دار القلم، دمشق، ط1 (١٤١٥ هـ)، الدار الشامية، بيروت.
- الخطيب القزويني (729هـ)، (**الإيضاح في علوم البلاغة**)، تحقيق: د. محمد عبد المنعم الخفاجي، دار الكتاب العربي اللبناني، ط5، بيروت، 1980.
- محمد طاهر بن عاشور، (**التحرير والتنوير**)، ط1، دار التونسية، (د.ت).
- محمد أبو موسى، (**التصور البياني**)، الناشر: مكتبة وهبة - القاهرة الطبعة الثالثة - 1993 .
- أبو السعود بن محمد العمادي، (**تفسير أبي السعود**)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- أبو سعيد ناصر الدين عبد الله بن عمربن محمد، (**تفسير البيضاوي**)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1417هـ.
- أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر بن حسين الرازي ، التفسير الكبير (**مفاتيح الغيب**)، ط2 ، دار الكتب ، طهران ، (د.ت) .
- أبو الفداء عماد الدين اسماعيل القريشي المعروف بابن كثير، (**تفسير القرآن العظيم**)، ط4 ، دار الأندلس ، بيروت ، 1983 م .
- الفيروز آبادي، (**القاموس المحيط**)، دار مكتبة التربية، بيروت، (د.ت) .
- أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، (معالم التنزيل)، تحقيق: محمد عبد الله النمر- عثمان جمعة ضميرية- سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط4، 1417هـ-1997م.

- محمود الألوسي البغدادي (ت ١٢٧٠) ، (**روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**)، المطبعة المصطفائية ديوبند، (د.ت).
- نظام الدين الحسن بن محمد بن حسن النيسابوري (850هـ)، (**تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان**)، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، ط1، المطبعة العلمية، بيروت لبنان.
- وهبة الزحيلي، (**التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**)، دار الفكر المعاصر، ط1، بيروت، لبنان، 1411هـ - 1991م.

تحليل خطب نهج البلاغة في ضوء القيم التربوية

م.م حيدر الموسوي م.م عتاب بسيم السوداني

الجامعة الاسلامية . النجف الاشرف جامعة الكوفة . كلية التربية الأساسية

إن أزمة القيم تعد من السمات الواضحة والمميزة لهذا العصر ، نتيجة لسيادة الفكر المادي وتفشي ظاهرة النفع الشخصي و إيثار النفس و الذات فالتقدم الباهر الذي وصل إليه الإنسان لم يحقق له التوازن النفسي الذي يبتغيه ، بل إنه ساعد على اهتزاز القيم و تسبب في ضحالتها بداخله ، وبعضهم تنتفي لديه المبالغة في تصوير هذه الأزمة في قوله : " لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن أزمة هذا العصر هي أزمة القيم ، لذا فان السبب الحقيقي من وراء تخلف الأمة العربية هو عدم الالتزام بالقيم الإسلامية وهذا ما أكدته الكثير من الدراسات النظرية والميدانية والتي أجمعت على وجود خلل في منظومة القيم نتيجة العزوف عن القيم الإسلامية واللهث وراء القيم الغربية ومنها دراسة الجمالي والذي أكد إن الكثير من المسلمين بعد أن نسوا دينهم وهجروا قرآنهم،وصاروا يقلدون غيرهم ويستوردون عقائد ومبادئ متطرفة وبعيدة عن منهجنا الإسلامي،والقيم تختلف من إنسان لإنسان .. ومن بيئة لبيئة ..ومن مجتمع لمجتمع ..ومن زمان لآخر .. إلا إن المقطوع به أن النفس البشرية تبدأ بناء قيمها مع بداية الحياة وتنمو بنمو الأفراد لكونها تؤثر في العلاقات الإنسانية التي تقوم بينهم ، كما تحدد طبيعة العلاقات الاجتماعية ، ولهذا تظهر أهمية القيم بشكل واضح في المجتمعات الإنسانية، إذلا يمكن لأي جماعة تريد لتنظيماتها الاجتماعية أن تستمر في تحقيق أهدافها أن تعيش من دون هذه المعايير والقيم ،فضلاً عن إن القيم عنصر من عناصر الأخلاق بشكل عام ، والأخلاق تشكل مساحة واسعة في الفكر الإنساني في ماضيه وحاضره ومستقبله ، كما تمثل القيم ركناً أساسا من أركان الثقافة لأي مجتمع ، إذأن الثقافة في أساسها هي مجموعة من الأهداف والقيم والمعايير السلوكية التي تترجم أسلوب حياة الجماعة ، لذا حظي موضوع القيم في العقود الأخيرة باهتمام متزايد من المختصين و في شتى العلوم ، وهكذا يتضح الدور الذي تؤديه القيم في الحفاظ على تماسك المجتمع وفي تكوين الوعي الاجتماعي للأفراد ، فضلاً عن أهميتها في التمسك والحفاظ على الموروث التربوي الاجتماعي والثقافي والأخلاقي الصالح .وقد اهتم الإسلام اهتماماً كبيراً بالأخلاق والقيم إذ جعل من أهدافه الرئيسة العناية بخلق الإنسان وتنميته لتصبح جزءً من شخصية الإنسان العربي وقد يكون هذا من أهم العوامل التي حفظت الأمة العربية من التدهور والانحلال الخلقي الذي تعاني منه المجتمعات والحضارات المتقدمة المعاصرة إذ يسود ضياع القيم والأخلاق والانتحار وغيرها من مظاهر التأزم الخلقي والنفسي.وفي تراثنا التربوي الاسلامي نظام شامل للتربية والاعداد للحياة وتوجيه الشباب

التوجيه التربوي الصحيح وتقويم سلوكهم الذي يرتكز على اسس تعليمية وتربوية سليمة نابعة من تعاليم الدين الاسلامي الحنيف والذي جاء وافياً بمطالب الحياة كلها وانه لحري بكل مرب مخلص ان يستبصر بجوانب الفكر التربوي الاسلامي وابراز ايجابيته وما يزخر به من آداب وفضائل.وذلك من خلال العودة الى تراثنا وتأصيل قيمنا التربوية لدى ابنائنا من خلال القدوة الحسنة والمتمثلة برجالات الاسلام الفذة والذين يمثلون قيمها بأعلى مستوياتها من خلال ربطهم النظرية بالتطبيق الفعلي،وعلى رأس تلك الرجالات الإمام علي ابن أبي طالب (عليه السلام) والذي يعد في دنيا الاسلام قمة من قمم الرجال الذين صنعوا العظمة في تاريخ الاسلام والانسانية وسكبوا النور في دروب البشرية ، من خلال عطائه الفكري الفذ والمتمثل بالمئات من الوصايا والحكم والخطب والاشعار والادعية والتي ملأت كتب التاريخ،فضلاً عن الرسائل والخطب والوصاياوالمحاورات الصادرة عنه ومن هنا جاءت فكرة بحثنا هذا والمتضمن مبحثين :

الأول تناولنا فيه القيم لغة واصطلاحاً ومصادرها وأهميتها . وكيفية تحليل الخطب أما الثاني حللنا فيه خطب نهج البلاغة واستخرجت القيم التربوية الواردة فيها

الفصل الأول

المبحث الأول

مفهوم القيم

لغةً: جمع قيمة كما جاء في مختار الصحاح، أي الاعتدال، والاستواء، والاستقامة لقوله تعالى : ﴿**فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ** ﴾ فصلت/6 أي التوجه إليه وقوم الشيء تقويماً، فهو قويم أي مستقيم، لقوله تعالى : ﴿**ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**﴾الروم/30[1].

وفي الاصطلاح اتخذت كلمة القيم معانٍ كثيرة ،فلفظ القيمة له معاني مختلفة ، فهو من جهة يدل على موقف الاعتزاز بشيء وأثاره على أساس أنه ثمين ونفيس ، ومن جهة أخرى يعني التقويم عمل عقلي مميز قوامه المقارنة والحكم ، وفي الواقع قد وردت للقيم تعريفات عدة إلا أننا سنذكر اثنين منها على وجه الاختصار.

فقد عرفها طهطاوي (1996) على أنها: (مجموعة المبادئ والقواعد والمثل العليا التي يؤمن بها الناس، ويتفقون عليها فيما بينهم ويتخذون منها ميزاناً به يزنون أعمالهم، ويحكمون بها على تصرفاتهم المادية والمعنوية). [2]

وعرفها جابر (2004) على أنها : (أفكار الفرد حول ما هو صواب وجيد ومرغوب ، وهي موجهات لسلوك الأفراد ضمن ثقافة معينة أو مجتمع معين وعبر التنشئة الاجتماعية

ويعطيها الأفراد اهتماماً خاصاً ، وتشكل مبادئ تتكامل فيها الأهداف الفردية مع الأهداف العامة للمجتمع)[3].

ومفهوم القيم في المنظور الإسلامي تمثل (مجموعة من المثل العليا والغايات والمعتقدات والتشريعات والوسائل والضوابط والمعايير لسلوك الفرد والجماعة مصدرها الله عز وجل . وهذه القيم هي التي تحدد علاقة الإنسان إجمالا وتفصيلا مع الله تعالى ومع نفسه ومع البشر ومع الكون وتتضمن هذه القيم غايات ووسائل)[4]

وبناء على ما تقدم يرى الباحثان أن القيم هي محددات لسلوك الأفراد وترسم مقومات هذا السلوك ، فهي المعيار الذي يتم بموجبه الحكم على الأفراد تبعا للمجتمع الذي ينتمون إليه والثقافة التي يحملونها .

مصادر القيم

تختلف المصادر التي تشتق منها القيم من ثقافة إلى أخرى إلا أنه على الرغم من هذا الاختلاف فإنها لا تتعدى مصدرين هما :

1. التشريعات السماوية : وتشتق منها القيم المطلقة ، وهي ثابتة مثل القيم المتعلقة بالحق المطلق ، الخير المطلق ، والجمال المطلق ، وتشمل القيم الروحية والخلقية والمادية وغيرها .
2. الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية ومجمل الحياة الإنسانية .[5]

ويكمن القول أن القيم التي تشتق من الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية قيماً نسبية ومتغيرة وغير ثابتة لكونها مشتقة من مصادر مادية محسوسة تخضع لتاثير البيئة والمجتمع ، على خلاف القيم التي تشتق من التشريعات السماوية فهي قيم ثابتة مطلقة غير قابلة للتغيير ، فالأديان السماوية جميعها جاءت بقيم سامية ونبيلة ، لأنها قيم منزلة من الله عز وجل فقد جاء الإسلام بتعليمات أخلاقية ومثل عليا ظهرت في آيات كثيرة في القرآن الكريم منها ما جاء ليؤكد قيم الأمانة والعدل فقال سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ النساء / 58 . كما أمر الله عباده المؤمنين بالتقوى والالتحاق بركب الصادقين حين قال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ سورة التوبة /119

مفهوم التربية الإسلامية

التربية هي عملية يتم من خلالها إكساب الأفراد مجموعة من القيم ، فالتربية بجوهرها عملية قيمية إذ أن مهمتها ليس التعليم فقط وإنما تعني الإعداد والتنمية والتوجيه وغرس القيم

وتكوين الاتجاهات[6]،والتربية في المنظور الإسلامي هي منظومة قيمية من حيث المضمون والجوهر ، إذ أن هدفها الشامل يصب في تنمية الفرد والمجتمع نحو الأفضل عن طريق الاكتمال والنضج والتهذيب والتثقيف المستمر والتواصل [7]

وقد جاءت نظرة الإسلام للطبيعة الإنسانية متكاملة ، بمعنى انه ليس جسميا فقط أو روحياً فقط بل هي مزيج من جسد وروح وعقل،وهو وحدة متكاملة قائمة على حدَّ الامتزاج بين المادة والروح [8]

وانعكست هذه النظرة على القيم الإسلامية بحيث لم يقتصر هدف التعليم على تنمية العقل وتدريبه وإهمال الجسم بعدَّهِ معوقا لعمل العقل ، بل اهتمت التربية الإسلامية بالجسم في إطار الإنسان لارتباطه بالعقل والنفس ، وكان طابع التعليم دينيا ودنيويا ، إعداد الإنسان لعملي الدنيا والآخرة [9].

مبادئ التربية الإسلامية

امتلكت التربية الإسلامية منهجا كاملا للحياة والنظام التعليمي ومكوناته، ويتبين ذلك لنا من ذكر أهم مبادئها العامة وهي:

1- تربية تكاملية شاملة : ويقصد بالتكامل أو الشمول أنها لا تقتصر على جانب واحد من جوانب شخصية الإنسان ، فالتربية الإسلامية ترفض النظرة الثنائية إلى الطبيعة الإنسانية التي تقوم على التمييز بين العقل والجسم ويسمو العقل على الجسم وإنما تنظر إلى الإنسان نظرة متكاملة تشمل كل جوانب الشخصية ، فهي تربية الجسم وتربية النفس والعقل معاً [10].

2- تربية متوازنة : جاء الإسلام لتطابق شرائعه وأحكامه وآدابه مقتضى الفطرة البشرية ، فليس المطلوب من الإنسان أن يميت غرائزه ، ويكبت شهواته وحرمانه من التمتع بما رزقه الله من نعم الدنيا ، فذلك مناف للإسلام ، إذ قال تعالى : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الأعراف / 32 . وتحرص التربية الإسلامية على تحقيق التوازن بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة إذ قال تعالى :﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾القصص /77 .

3- تربية مبنية على مبدأ المساواة: جاء الإسلام بمبدأ المساواة ليقرر وحدة النوع البشري ، ويهدم قواعد التفرقة المقيتة ، وليرد البشر إلى حقيقتهم الكبيرة وليرجعهم الى أصلهم الواحد وذلك من قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ النساء /1

5- عالمية الرسالة : الدين الإسلامي هو رسالة موجهة لكل الناس تدعوهم إلى عبادة الله الواحد القهار ، وهدايتهم إلى الطريق المستقيمة وتحقيق سعادتهم في الدنيا والآخرة ،وتقوم هذه الدعوة بالنظر إلى الكون على أنه وحدة متكاملة من صنع الخالق تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ (الأنبياء:107).

6- تربية فردية و جماعية : تقوم التربية الإسلامية على تربية فردية وذاتية للانسان فهي تربية على الفضيلة ليكون مصدر خير لجماعته ، وتحمل مسؤولية أعماله وتصرفاته ، ولذلك كان الفرد في الجماعة من وجهة نظر الإسلام وحده تتفاعل مع غيرها تأخذ وتُعطي، لها استقلال مقيد، وحرية مقيدة ، فالحلال يمثل النفع الفردي (الشخصي) أو النفع العام، وهو نفع الآخرين مع الفرد في الجماعة والحرام بالعكس ، هو ما يمثل الضرر الفردي او الضرر العام ، وهو ضرر الآخرين مع الفرد في الجماعة .

7- العمل والإنتاج : الإسلام دين العمل والإنتاج ، ومما يدل على ذلك ورود كلمة العمل في أكثر من (201) آية قرآنية ، فالإسلام مثلما هو دين العبادة والتبتل والتفكير في مخلوقات الله ، هو دين العمل والتفكير في مشكلات الواقع والسعي والكد لما يصلح أحوال الفرد والمجتمع ، وما يصلح به الحياة الروحية والمادية معاً . ومن تمام كمال المسلم أنْ تتطابق أقواله مع أفعاله، والإيمان الصادق متبوع بتأثر عملي، أي أنّه اعتقاد وعمل وإخلاص معاً [11]

8- العدل والشورى: إنّ أساس قيام مجتمع قوي ومتماسك يعتمد على العدل والشورى، فإذا كان الدين المعاملة ، فان المعاملة تقوم على العدل والمساواة والتآخي والوئام والشورى والبيعة ، لذا اهتم الإسلام بإقامة العدل في الجماعة الإسلامية ، فالمسلم أخو المسلم لا يظلمه ، يجب عليه أن يعامل أخاه المسلم بما يجب إن يعامل به قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ والإحسان وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون﴾ النحل/90 .[12]

9- بلوغ الكمال الإنساني : ومن أهداف التربية الإسلامية بلوغ الكمال الإنساني إلى قمته ومع إنّ الكمال لله وحده ، فان الإنسان لا بدّ أن يتصف بالكمال بعدِّهِ خليفة الله في الأرض لقوله تعالى : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة /30 [12]

وبناء على ما تقدم ترى الباحثة أن الهدف الأسمى من التربية الإسلامية هو خلق جيل يؤمن بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر ، فضلا عن التنشئة الصالحة للأجيال وخلق روح التعاون والتوافق والتوازن بين جميع فئات المجتمع .

المبحث الثاني

منهجية التحليل

لتحليل خطب الإمام علي (عليه السلام) واستخراج القيم الواردة فيها استعمل الباحثان طريقة تحليل المحتوى، وهي طريقة تعدّ من الطرائق البحثية المناسبة التي يمكن استعمالها في مثل هذه البحوث، إذ تستعمل طريقة تحليل المحتوى في تحليل المجلات، والكتب، والصحف، والقصص الأدبية، والمذكرات، والأمثال ... وغير ذلك، أي جميع المواد الاتصالية التي بها تُنقَل الأفكار، والآراء والمعلومات، بين الناس سواء أكانت مكتوبة أم مسموعة [13] .

ولتحديد القيم التربوية في خطب الإمام علي (عليه السلام) أطلع الباحثان على جزء يسير من خطبه نظرا لضيق المقام بحيث اكتفت بتحليلها واستخراج عينة تمثل القيم التربوية في خطبه (عليه السلام) واعتمدت على وحدة تحليل الفكرة* في البحث للمبررات الآتية:

1- وحدة الفكرة هي الأكثر استعمالاً وفائدة في مثل هذه البحوث التي ترمي إلى تعرف قيم أو أفكار أو اتجاهات ضمن محتوى، يمثل في جملة يسيرة أو مركبة، ولأنّ الكلمة بحد ذاتها لا تعدُ مؤشراً للتوجه القيميّ فضلاً عن أن الحكم القيميّ يتضح من الفكرة .

2- لها من السعة ما يكفي لإعطاء معنى، ومن الصغر ما يقلل من احتمال ضمها لعدة قيم ، قياساً بوحدات اكبر مثل الموضوع .

3- يعدّها "وايت" الوحدة الأساسية للتحليل القيمي، ويعدّها "هولستي" وحدة لا مفر من استعمالها في الأبحاث، التي تتناول موضوعات القيم [14] .

---

* يوجد هناك أنواع عدة للتحليل هي: وحدة الكلمة، ووحدة الفكرة، ووحدة الموضوع، ووحدة الشخصية، ووحدة مقاييس المساحة والزمن .

وتنقسم وحدة الفكرة على قسمين، هما الفكرة الصريحة والفكرة الضمنية، والفكرة الصريحة هي جملة أو جملة مركبة يقال فيها صراحة وعلى نحوٍ مباشر بأنّ هدفاً أومعياراً للحكم مرغوب فيه أو مرغوب عنه، والمقصود بذلك أن الكُتّاب غالباً ما يعمدون الى أسلوب الوعظ والإرشاد، فينصحون القارئ أو المستمع بأنّ يفعل، أو يتجنب شيئاً معيناً على نحوٍ مباشر [15]. في حين أنّ الفكرة الضمنية تستنبط من الجملة أو العبارة

على نحوٍ غير مباشر،وغالباً ما نستعمل وحدة الفكرة الضمنية في تحليل نص،أو رسم ككلً متكامل[16] .

خطوات التحليل :اتبع الباحثان الخطوات الآتية عند التحليل:

أ- قراءة خطب الإمام علي (عليه السلام) قراءة متأنية ومعمقة لتعرّف الفكرة التي تحتويها .

ب- تأشير الفكرة التي تظهر للباحثة في أثناء القراءة .

ج- استخراج القيمة التربوية

قواعد التحليل

وضع الباحثان القواعد الآتية للتحليل:

أ- عندما تحتوي الفكرة الرئيسة على فكرة فرعية، تعامل كل فكرة فرعية على أنّها وحدة مستقلة في التحليل .

ب- يعدّ كلّ من المعطوف والمعطوف عليه أفكاراً مستقلة في التحليل .

ج- إذا ظهرت في الجملة فكرتان، وكانت أحداهما سبباً والأخرى نتيجة أو أحداهما وسيلة والأُخرى غاية، فإنّ كلاً منهما تعامل بوصفها فكرة مستقلة .

د- إذا كانت الفكرة لا تعطي مدلولاً قيمياً واضحاً لعدم اكتمال الفكرة أو لارتباطها بما قبلها أو بعدها، فيصار إلى قراءة الفكرة السابقة واللاحقة، لتتضح دلالتها القيمية.

هـ- إذا بدا أنّ فكرة ما، تضم أكثر من قيمة، يؤخذ بالقيمة التي يبدو تأكيدها أكثر من غيرها

الفصل الثاني

عرض نتائج البحث

في ضوء تحليل خطب الإمام علي (عليه السلام) وبحسب الإجراءات المشار إليها سلفا، تم استخلاص القيم التربوية ، وكما موضح في أدناه :

1- الإيمان

وهي العنصر الذي يأخذ بيد الإنسان نحو السبيل إلى الله والوصول إلى مدارج الكمال في قيادته وتدبيره. قال تعالى :(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) الأعراف / 96 وقد كان الإمام علي(عليه السلام) أعبد الناس في زمانه ، ومن أكثرهم إخلاصاً وإيمانا وطاعة لله ، وإذا ذكر الموت

بكى،وإذا ذكر القبر بكى،وإذا ذكر البعث والنشور بكى، وإذا ذكر الممر على الصراط بكى ، وإذا ذكر العرض على الله تعالى شهق شهقة يغشى عليه منها وقد وصف الإيمان في خطبته قائلاً:

سَبِيلٌ أَبْلَجُ الْمِنْهَاجِ أَنْوَرُ السِّرَاجِ – فَبِالإِيمَانِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحَاتِ – وبِالصَّالِحَاتِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الإِيمَانِ وبِالإِيمَانِ يُعْمَرُ الْعِلْمُ – وبِالْعِلْمِ يُرْهَبُ الْمَوْتُ وبِالْمَوْتِ تُخْتَمُ الدُّنْيَا – وبِالدُّنْيَا تُحْرَزُ الآخِرَةُ – وبِالْقِيَامَةِ تُزْلَفُ الْجَنَّةُ وتُبَرَّزُ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ – وإِنَّ الْخَلْقَ لَا مَقْصَرَ لَهُمْ عَنِ الْقِيَامَةِ – مُرْقِلِينَ فِي مِضْمَارِهَا إِلَى الْغَايَةِ الْقُصْوَى.

والمراد بالإيمان هنا التصديق القلبيّ بالتوحيد وبما جاء به الرسول صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ولا شكّ في كونه سبيلا أبلج واضح المسلك إلى الجنّة أنور السراج في ظلمات الجهل ، ولفظ السراج مستعار ، والصالحات هي الأعمال الصالحات من ساير العبادات ومكارم الأخلاق الَّتي وردت بها الشريعة ، وظاهر كونها معلولات للإيمان وثمرات له يستدلّ بوجوده في قلب العبد على ملازمته لها استدلالا بالعلَّة على المعلول ، ويستدلّ بصدورها من العبد على وجود الإيمان في قلبه استدلالا بالمعلول على العلَّة ، وأمّا قوله : وبالإيمان يعمر العلم . فلأنّ الإيمان بالتفسير المذكور إذا عضده البرهان كان علما وهو روح العلوم ،ويطلق اسم الإيمان عليه مع ثمراته، وهي الأعمال الصالحة لأنّها من كمالاته ولا تمام له ولا منفعة بدونها فإنّ العلم إذا لم يعضد بالعمل فهو قليل الفائدة في الآخرة بل لا ثمرة له فهو كالخراب الغير الصالح للاقتناء فكما لا يصلح الخراب للسكنى فكذلك العلم الخالي عن الأعمال الصالحة فلذلك قال عليه السّلام في موضع آخر : العلم مقرون بالعمل ، والعلم يهتفّ بالعمل فإن جاء به وإلَّا ارتحل ، وأمّا قوله : وبالعلم يرهب الموت . فلأنّ العلم بالله تعالى وغاية خلقه للإنسان وملاحظة نسبة الدنيا إلى الآخرة والعلم بأحوال المعاد يستلزم ذكر الموت ودوام ملاحظته وذلك مستلزم لرهبته والعمل له ولما بعده

وسُئِلَ عَنِ الإِيمَانِ – فَقَالَ الإِيمَانُ مَعْرِفَةٌ بِالْقَلْبِ – وإِقْرَارٌ بِاللِّسَانِ وعَمَلٌ بِالأَرْكَانِ[19]. الأركان : هي المساجد الخمسة . وأراد الإيمان الكامل .

2- الصدق

هو مطابقة الواقع ، وأشرف الفضائل النفسية ، والمزايا الخلقية ، لخصائصه الجليلة ، فهو زينة الحديث ودواؤه ، ورمز الاستقامة والصلاح . والصدق من الصفات التي ينبغي أن يتَّصف ويتحلَّي بها المسلم ، فمن صفات المسلم الصدق ، ومن صفات الكافر والمنافق الكذب ، لذا كان يلقب نبيُّنا الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل بعثته بالصَّادق الأمين . ووصف الإمام علي الصدق في خطبته قائلاً:

إِنَّ الْوَفَاءَ تَوْأَمُ الصِّدْقِ.[20]

و الوفاء ملكة نفسانيّة ينشأ من لزوم العهد كما ينبغي ، والبقاء عليه ، والصدق ملكة تحصل من لزوم الأقوال المطابقة ، وهما فضيلتان داخلتان تحت فضيلة العفّة متلازمتان ، ولمّا كان التوأم هو الولد المقارن لولد آخر في بطن واحد أشبهه الوفاء لمقارنته الصدق تحت العفّة ، فاستعار لفظه له . ثمّ لمّا كانت فضيلة الوفاء مقابلة برذيلة الغدر وفضيلة الصدق مقابلة برذيلة الكذب ورذيلتا الغدر والكذب أيضا توأمين تحت رذيلة الفجور المقابلة لفضيلة العفّة .[21]

3- صلة الرحم

أكد الإسلام على صلة الرَّحِم وأهمية تقويتها وتقويمها، كأصل من أصول السعادة الأسرية، وكأساس متين من أسس البنية الاجتماعية أخذت حيّزاً هاماً من كتاب الله المجيد, ومن أحاديث النبي وأهل بيته الكرام, صلواتُ اللهِ عليهم أجمعين. وذكر الإمام علي صلة الرحم قائلاً

وصِلَةُ الرَّحِمِ – فَإِنَّهَا مَثْرَاةٌ فِي الْمَالِ ومَنْسَأَةٌ فِي الأَجَلِ[22]

وذكر من فوائدها أمرين :

أحدهما : كونها مثراة في المال ، وذلك من وجهين : أحدهما : أنّ العناية الإلهيّة قسّمت لكلّ حيّ قسطا من الرزق يناله مدّة الحياة الدنيا وتقوم به صورة بدنه فإذا أعدّت شخصا من الناس للقيام بأمر جماعة وكلّفته بإمدادهم ومعونتهم وجب في العناية إفاضته أرزاقهم على يده وما يقوم بإمدادهم بحسب استعداده لذلك سواء كانوا ذوى أرحام أو مرحومين في نظره حتّى لو نوى قطع أحد منهم فربّما نقص ماله بحسب رزق ذلك المقطوع ، وذلك معنى كونه مثراة للمال . الثاني : أنّ صلة الرحم من الأخلاق الحميدة الَّتي يستمال بها طباع الخلق فواصل رحمه مرحوم في نظر الكلّ فيكون ذلك سببا لإمداده ومعونته من ذوى الإمداد والمعونات كالملوك ونحوهم فكانت صلة الرحم مظنّة لزيادة المال . والثاني : كونه منسأة للأجل وهو من وجهين : أحدهما : أنّ صلة الرحم توجب تعاطف ذوى الأرحام وتوازرهم ومعاضدتهم لواصلهم فيكون عن أذى الأعداد أبعد وفي ذلك مظنّة تأخيره وطول عمره . الثاني : أنّ مواصلة ذوى الأرحام توجب تعلّق هممهم ببقاء واصلهم وإمداده بالدعاء ويكون دعائهم له وتعلّق هممهم ببقائه من شرائط بقائه وإنساء أجله فكانت مواصلتهم منسأة في أجله[23] .

وفي خطبة أخرى وصف صلة الرحم قائلاً:

لنْ يُسْرِعَ أَحَدٌ قَبْلِي إِلَى دَعْوَةِ حَقٍّ – وصِلَةِ رَحِمٍ وعَائِدَةِ كَرَمٍ – فَاسْمَعُوا قَوْلِي وعُوا مَنْطِقِي – عَسَى أَنْ تَرَوْا هَذَا الأَمْرَ مِنْ بَعْدِ هَذَا الْيَوْمِ – تُنْتَضَى فِيهِ السُّيُوفُ وتُخَانُ فِيهِ الْعُهُودُ – حَتَّى يَكُونَ بَعْضُكُمْ أَئِمَّةً لأَهْلِ الضَّلَالَةِ – وشِيعَةً لأَهْلِ الْجَهَالَةِ[24]

أقول: هذا من جملة كلام قاله عليه السّلام لأهل الشورى ، وقد ذكرنا طرفا من أخبارها. فقوله : لن يسرع أحد . إلى قوله : وعائدة كرم .

تقرير لفضيلته ليسمع قوله ، ولذلك قال بعده : فسمعوا قولي وعوا منطقي ، وذكر فضائل ثلاثا : الدعوة إلى الحقّ الَّذي لن يسارعه أحد إليها إلَّا سرعه . وهى ثمرة العدالة ، وصلة الرحم ، وعائدة الكرم . وهما فضيلتان تحت ملكة العفّة . والَّذي أمرهم بسماعه هو التنبيه على عاقبة أمر الخلافة ، وما يقع فيها من الهرج والمرج بعدهم بناء على ما حضر من الخبط والاختلاط فيها فكأنّه يقول : إذا كان حال هذا الأمر هذه الحال من الخبط ومجاذبة من لا يستحقّه [لمن يستحقّه خ] والتغلَّب فيه على أهله فعسى أن ترونه بعد هذا اليوم بحال يختصم الناس فيه بالسيوف وتخان فيه العهود ، وهو إشارة إلى ما علمه من حال البغاة والخوارج عليه والناكثين لعهد بيعته . فقوله : حتّى يكون بعضهم أئمّة لأهل الضلالة وشيعة لأهل الجهالة . غاية للتغالب على هذا الأمر ، وأشار بالأئمّة إلى طلحة والزبير ، وبأهل الضلالة إلى أتباعهم ، وبأهل الجهالة إلى معاوية ورؤساء الخوارج وسائر أُمراء بنى أُميّة ، وبشيعة أهل الجهالة إلى أتباعهم . وبالله التوفيق .[25]

4- الحياء

وهو شعور تراعى فيه المثل والقيم والضوابط الاجتماعية ، ويسهم بشكل فعّال في ضمان تنفيذ القوانين والمنع من الإقدام على التجاوز والاعتداء ، وهو الذي يحصن الإنسان من جميع ألوان الانحراف والرذيلة.

وقَالَ (ع) واصفاً الحياء : مَنْ كَسَاه الْحَيَاءُ ثَوْبَه لَمْ يَرَ النَّاسُ عَيْبَه [26].

استعار لفظ الثوب لما يشمل الإنسان من الحياء ، ورشّح بذكر الكسوة . والمراد أنّ فضيلة الحياء تستلزم ترك المعايب فلا يرى في صاحبه ، أو إن ارتكب ما يعاب به من الرذائل كان على غاية من التستّر به والاجتهاد في إخفائه وهو بمظنّة أن لا يراه الناس. [27]

5- التواضع

هو أن يرى الإنسان نفسه في نفسه من حسن خُلقه وجميل عشرته للناس ، ولا يتعالى على أحد منهم ، ولا يرى أنّه فوقهم ، بل يشكر الله على كلِّ نعمة فضَّله الله بها عليهم . فالتواضع خلق كريم ، يستهوي القلوب ،ويستثير الإعجاب والتقدير، وناهيك في فضله أن الله تعالي أمر حبيبه ، وسيد رسله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالتواضع ، فقال : (لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ).الحجر / 88 ، ووصف التواضع قائلاً: واعْتَمِدُوا وَضْعَ التَّذَلُّلِ عَلَى رُءُوسِكُمْ – وإِلْقَاءَ التَّعَزُّزِ تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ – وخَلْعَ التَّكَبُّرِ مِنْ أَعْنَاقِكُمْ – واتَّخِذُوا التَّوَاضُعَ – مَسْلَحَةً بَيْنَكُمْ وبَيْنَ عَدُوِّكُمْ إِبْلِيسَ وجُنُودِه – فَإِنَّ لَه مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ جُنُوداً وأَعْوَاناً – ورَجِلًا وفُرْسَاناً – ولَا تَكُونُوا كَالْمُتَكَبِّرِ عَلَى ابْنِ أُمِّه – مِنْ غَيْرِ مَا فَضْلٍ جَعَلَه

اللَّه فِيه – سِوَى مَا أَلْحَقَتِ الْعَظَمَةُ بِنَفْسِه مِنْ عَدَاوَةِ الْحَسَدِ – وقَدَحَتِ الْحَمِيَّةُ فِي قَلْبِه مِنْ نَارِ الْغَضَبِ – ونَفَخَ الشَّيْطَانُ فِي أَنْفِه مِنْ رِيحِ الْكِبْرِ – الَّذِي أَعْقَبَه اللَّه بِه النَّدَامَةَ – وأَلْزَمَه آثَامَ الْقَاتِلِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ[28]

أمر للسامعين باعتبار حال إبليس في الكبر بعد شرح حاله في طاعة اللَّه وطول مدّة عبادته له وما لزمه بسبب كبر ساعة واحدة من إحباط عمله ولعنته والبعد عن رحمة اللَّه ليتنبّهوا للتخلّي عن هذه الرذيلة . وجه الاعتبار أن يقال : إذا كان حال من تكبّر من الملائكة بعد عبادة ستّة آلاف سنة كذلك فكيف بالمتكبّرين من البشر على قصر مدّة عبادتهم وكونهم بشرا . فبطريق الأولى أن يكونوا كذلك . وجهده الجهيد : أي اجتهاده الَّذي جهده وشقّ عليه .[29]

6- العفة

وهي الامتناع والترفع عمّا لا يحل أو لا يجمل، من شهوات البطن والجنس، والتحرر من استرقاقها المُذِل. وتعد من أنبل السجايا، وأرفع الخصائص. الدالة على سمو الإيمان، وشرف النفس، وعزّ الكرامة، ووصف الامام علي (عليه السلام) العفة :

والْحِرْفَةُ مَعَ الْعِفَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى مَعَ الْفُجُور[30]

نبّهه على وجوب الصبر في ضيق الرزق والحرمان إذا كان مع فضيلة العفّة ، وأنّ لزومه أولى من طلب الغنى المستلزم للفجور بضمير أيضا صغراه ما ذكر ، وتقدير كبراه : وكلّ ما كان خيرا من الغنى مع الفجور فلزومه أولى من طلب ذلك الغنى ، وإنّما كان كذلك لاستلزام تلك الحرفة الفضيلة واستلزام ذلك الغنى الرذيلة . وقد علمت أنّ العفّة فضيلة القوّة الشهويّة وأنّها بين رذيلتى تفريط يسمّى خمود الشهوة وإفراط يسمّى فجورا .[31]

7- غنى النفس

أغنى الغنى غنى النفس فانه برضا خاطره يشعر بالاستغناء عمّا في أيدي الناس ، وان هذه لهي الثروة الحقيقة . وقد ذكرنا أمير المؤمنين علي (عليه السلام) بهذا المعنى ببيان جميل إذ قال : (ان أكيس الكيس من اقتنى اليأس ولزم القنوع والورع ، وبريء من الحرص والطمع . فان الطمع والحرص الفقر الحاضر وان اليأس والقناعة الغنى الظاهر)[32]. وقد ذكر غنى النفس في قولة :

واعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ – إِلَّا ويَكَادُ صَاحِبُهُ يَشْبَعُ مِنْهُ – ويَمَلُّهُ إِلَّا الْحَيَاةَ فَإِنَّهُ لَا يَجِدُ فِي الْمَوْتِ رَاحَةً – وإِنَّمَا ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْحِكْمَةِ – الَّتِي هِيَ حَيَاةٌ لِلْقَلْبِ الْمَيِّتِ – وبَصَرٌ لِلْعَيْنِ الْعَمْيَاءِ – وسَمْعٌ لِلأُذُنِ الصَّمَّاءِ – ورِيٌّ لِلظَّمْآنِ وفِيهَا الْغِنَى كُلُّهُ والسَّلَامَةُ.[33]

وأراد بالغنى غنى النفس عن كلّ شيء وكمالها بها فإنّ غاية الحكمة الوصول إلى الحقّ سبحانه والغرق في بحار معرفته وفي ذلك غنى العارفين عن كلّ شيء[34]

8.الجهاد

.يعد الجهاد في سبيل الله من أعظم الطاعات وأشرف الأوامر الإلهية لبلوغ أقصى غاية يسعى إليها الإنسان المسلم وهو الموت في سبيل الله ، ولأنه كذلك فقد أصبح الباب العظيم الذي يشرف إليه خواص الأولياء فيعرجون من خلاله إلى ربهم المتعالي حيث السعادة العظمى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وقد وصف الجهاد في قوله :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ – فَتَحَه اللَّه لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِه وهُوَ لِبَاسُ التَّقْوَى – ودِرْعُ اللَّه الْحَصِينَةُ وجُنَّتُه الْوَثِيقَةُ – فَمَنْ تَرَكَه رَغْبَةً عَنْه أَلْبَسَه اللَّه ثَوْبَ الذُّلِّ وشَمِلَه الْبَلَاءُ – ودُيِّثَ بِالصَّغَارِ والْقَمَاءَةِ – وضُرِبَ عَلَى قَلْبِه بِالإِسْهَابِ – وأُدِيلَ الْحَقُّ مِنْه بِتَضْيِيعِ الْجِهَادِ – وسِيمَ الْخَسْفَ ومُنِعَ النَّصَفَ[35]

الجهاد باب من أبواب الجنّة وبيانه أنّ الجهاد تارة يراد به جهاد العدوّ الظاهر كما هو الظاهر هاهنا ، وتارة يعنى به جهاد العدوّ الخفيّ وهو النفس الأمارة بالسوء .وكلاهما بابان من أبواب الجنّة ، والثاني منهما مراد بواسطة الأوّل إذ هو لازمة له ، وذلك أنّك علمت أنّ لقاء الله سبحانه ومشاهدة حضرة الربوبيّة هي ثمرة الخلقة وغاية سعى عباد الله الأبرار ، ثمّ . قد ثبت بالضرورة من دين محمّد صلى الله عليه وآله وسلّم أنّ الجهاد أحد العبادات الخمس ، وثبت أيضا في علم السلوك إلى الله أنّ العبادات الشرعيّة هي المتمّة والمعينة على تطويع النفس الأمّارة بالسوء للنفس المطمئنّة ، وأنّ التطويع كيف يكون وسيلة إلى الجنّة الّتي وعد المتّقون . فيعلم من هذه المقدّمات أنّ الجهاد الشرعيّ باب من أبواب الجنّة إذ منه يعبر المجاهد السالك إلى الله إلى الباب الأعظم للجنّة وهو الرياضة وقهر الشيطان . ومن وقوفك على هذا السرّ تعلم أنّ الصلاة والصوم وسائر العبادات كلّها أبواب للجنّة إذ كان امتثالها على الوجه المأمور بها مستلزما للوصول إلى الجنّة . فإنّ باب كلّ شيء هو ما يدخل إليه منه ويتوصّل به إليه . ونحوه قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم في الصلاة : إنّها مفتاح الجنّة ، وفي الصوم إنّ للجنّة بابا يقال له الريّان لا يدخله إلّا الصائمون ومن أوصاف الجهاد أنّه باب فتحه الله لخاصّة أوليائه . والمراد بخواصّ الأولياء المخلصون له في المحبّة والعبادة . وظاهر أنّ المجاهدة لله لا لغرض آخر من خواصّ الأولياء ، وذلك أنّ المرء المسلم إذا فارق أهله وولده وماله وأقدم على من يغلب على ظنّه أنّه أقوى منه كما أمر المسلمون بأن يثبت أحدهم لعشرة من الكفّار ، ثمّ يعلم أنّه لو قهره لقتله واستباح ذرّيته وهو في كلّ تلك الأحوال صابر شاكر

ومعترف بالعبوديّة لله مسلّم أمره إلى الله فذلك هو الوليّ الحقّ الّذي قد أعرض عن غير الله رأسا ، وقهر شيطانه قهرا ، وآيسه أن يطيع له أمرا فإن قلت : إذا كان الغرض من العبادات هو جهاد الشيطان والإخلاص لله وكان التخصيص بالوصفين المذكورين لاستلزامه ذلك المعنى لم يبق حينئذ لسائر العبادات مزيّة عليه فما معنى قول الصحابة وقد رجعوا من جهاد المشركين : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر .

قلت : يحتمل معنيين :

أحدهما : أنّ الجهاد الظاهر ليس كلّ غرضه الذاتيّ هو جهاد النفس ، بل ربّما كان من أعظم أغراضه الذاتيّة هو قهر العدوّ الظاهر ليستقيم الناس على الدين الحقّ ، وينتظم أمرهم في سلوكه . ولذلك دخل فيه من أراد منه إلّا ذلك كالمؤلّفة قلوبهم وإن كانوا كفّارا . وذلك بخلاف سائر العبادات إذ غرضها ليس إلّا جهاد النفس ولا شكّ أنّه هو الجهاد الأكبر : أمّا أوّلا فباعتبار مضرّة العدّوين فإنّ مضرّة العدّو الظاهر مضرّة دنياويّة فانية ، ومضرّة الشيطان مضرّة أخرويّة باقية . ومن كانت مضرّته أعظم كان جهاده أكبر وأهمّ ، وأمّا ثانيا فلأنّ مجاهدة الشيطان مجاهدة عدوّ لازم ومع ذلك فلا يزال مخادعا غرّارا لا ينال غرضه إلّا بالخروج في ذيّ الناصحين الأصدقاء ، ولا شكّ أنّ الاحتراز من مثل هذا العدّو أصعب ، وجهاده أكبر من جهاد عدوّ مظهر لعداوته يقاتله الإنسان في عمره مرّة أو مرّتين . فحسن لذلك تخصيص الجهاد بالأصغر ، ومجاهدة النفس بالأكبر .

المعنى الثاني : أنّا وإن قلنا : إنّ الغرض من الجهاد الأصغر هو جهاد النفس إلّا أنّ جهادها في حال جهاد العدوّ الظاهر قد يكون أسهل وذلك أنّ القوى البدنيّة كالغضب والشهوة يثوران عند مناجزة العدّو طلبا لدفعه ، وتصيران مطيعين للنفس الإنسانيّة فيما تراه وتأمر به فلا يكون عليها كثير كلفة في تطويع تلك القوى . بخلاف سائر العبادات فإنّ طباع تلك القوى معاكسة فيها لرأى النفس . فلذلك كان جهادها في سائر العبادات أصعب وأكبر من جهادها في حال الحرب . والله أعلم .

الثالث : كونه لباس التقوى ، ودرع الله الحصينة ، وجنتّه الوثيقة . واستعار لفظ اللباس والدرع والجنّة ثمّ رشّح الاستعارتين الأخيرتين بوصفي الحصانة والوثاقة . ووجه المشابهة أنّ الإنسان يتّقى شرّ العدوّ أو سوء العذاب يوم القيامة كما يتّقى بثوبه ما يؤذيه من حرّ أو برد ، وبدرعه وجنّته ما يخشاه من عدوّه ، ثمّ أردف عليه السّلام ممادح الجهاد بتوعيد من تركه رغبة عنه من غير عذر يوجب تخلّفه بأمور منفور عنها طبعا : منها : أنّه يستعدّ بالترك لأن يلبسه الله ثوب الذلّ . واستعار لفظ الثوب للذلّ ولفظ اللباس لشموله له . ووجه المشابهة إحاطة الذلّ به

إحاطة الصفة بالموصوف كإحاطة الثوب بملابسه ، وأن يشمله بلاء العدوّ فيذلّه بالصغار والقماء ، وأن يضرب على قلبه بالأسهاب أي يذهب وجه عقله العمليّ في تدبير مصالحه : أمّا لحوق الذلّ به فذلك أنّ كثرة غارات العدوّ وتكرّرها منه موجب لتوهّم قهره وقوّته وذلك ممّا ينفعل عنه النفس بالانقهار والذلّ ،وحينئذ تذعن لشمول بلائه ، وتذهب وجه عقلها في استخراج وجوه المصالح في دفعه ومقاومته إمّا لقلّة اهتمامها بذلك عن عدم طمعها في مقاومته أو لتشويشها لخوفه عن ملاحظة وجه المصلحة ،وفي إطلاق لفظ الضرب على قلبه استعارة كقوله تعالى « وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ والْمَسْكَنَةُ » ووجه الشبه فيها إحاطة القبّة المضروبة بمن فيها ، أو لزوم قلّة العقل له كلزوم الطين المضروب على الحائط . ويحتمل أن يراد بالأسهاب كثرة الكلام من غير فائدة فإنّ الإنسان حال الخوف والذلّ كثيرا ما يخبط في القول ويكثر من غير إصابة فيه . وكذلك لحوق باقي الأمور به كإدالة الحقّ منه ، وغلبة العدوّ له ، وعدم انتصافه منه أمر ظاهر عن ترك جهاد عدوّه مع التمكن من ذلك . وهى أمور منفور عنها طبعا ومضرّة بحال من تلحقه في الدارين .[36]

9- الكرامة

مبدأ أخلاقي يقرر أنّ الإنسان ينبغي أن يعامل على هذا أنّهُ غاية في ذاته لا وسيلة . وكرامته من حيث هو إنسان فوق كلّ اعتبار [37]. وقد ذكر الإمام علي الكرامة في قوله :

وانْقَادَتِ النِّعْمَةُ لَه مَعَهُمْ ووَصَلَتِ الْكَرَامَةُ عَلَيْه حَبْلَهُمْ – وقَدْ بَلَغَتِ الْكَرَامَةُ مِنَ اللَّه لَهُمْ[38]

ووصلت الكرامة عليه حبلهم . واستعار لفظ الوصل لاجتماعهم عن كرامة اللّه لهم حال كونهم على ذلك الأمر ، ورشّح بذكر الحبل .[39]

10- الشجاعة

من أمهات الأخلاق وأصولها فضلاً عن الحكمة والعفة والعدل .[40] فالشجاعة:شدة القلب عند البأس، والرجل الشجاع قيل الذي فيه خفة كالهوج لقوته.[41] وإن الشجاع يصدر منه : الكرم، والنجدة ، والشهامة ، وكبر النفس ، والاحتمال ، والحكم ، والثبات ، وكظم الغيظ،والتودد،والوقار،) ووصف الإمام علي (عليه السلام) الشجاعة قائلاً:

ومِنَ الْعَجَبِ بَعْثُهُمْ إِلَيَّ أَنْ أَبْرُزَ لِلطِّعَانِ وأَنْ أَصْبِرَ لِلْجِلَادِ – هَبِلَتْهُمُ الْهَبُولُ – لَقَدْ كُنْتُ ومَا أُهَدَّدُ بِالْحَرْبِ ولَا أُرْهَبُ بِالضَّرْبِ – وإِنِّي لَعَلَى يَقِينٍ مِنْ رَبِّي وغَيْرِ شُبْهَةٍ مِنْ دِينِي[42]

وقوله ومن العجب بعثتهم إلىّ أن أبرز للطعان وأن أصبر للجلاد تعجّب من تهدّدهم له بذلك مع علمهم بحاله في الشجاعة والحرب والصبر على المكاره ، وهو محلّ الاستهزاء والتعجّب منهم ، وقوله هبلتهم الهبول أي ثكلتهم الثواكل ، وهي من الكلمات الَّتي تدعو بها العرب ، وقوله لقد كنت وما أهدّد بالحرب ولا أرهب بالضرب أي من حيث أنا كنت كذلك ، وقوله وإنّي

لعلى يقين من ربّي وفي غير شبهة من أمري تأكيد لقوّته على الحرب وإقدامه على الجلاد وجذب لقلوب السامعين إلى الثقة بأنّهم على بيّنة من الله وبصيرة في متابعته على القتال والحرب فإنّ الموقن بأنّه على الحقّ ناصر لله ذابّ عن دينه عار عن غبار الشبه الباطلة في وجه يقينه يكون أشدّ صبرا وأقوى جلدا وأثبت في المكاره ممّن لا يكون كذلك فيقدم على القتال بشبهة عظَّت على عين بصيرته أو هوى لزخرف الدنيا وباطلها قاده إلى ذلك ، وبالله التوفيق[43]

11- التفكر

سير الباطن من المبادئ إلى المقاصد ، ولا يرتقي من النقص إلى الكمال إلا بهذا السير ، ومبادئه الآفاق والأنفس بأن يتفكر في أجزاء العالم وذراته وفي الأجرام العلوية والكواكب ، وفي الأجرام السفلية ، برها وبحرها ومعادنها وحيواناتها ، وفي أجزاء الإنسان وأعضائه وما فيها من المصالح والحكم وغيرها ، مما يستدل بها على كمال الصانع وعظمته وعلمه وقدرته ، فالتفكر من حيث خلقها وإتقان صنعها وغرائب الصنع وعجائب الحكم الموجودة فيها ، أثره الإيقان بوجود الصانع وعلمه وقدرته وحكمته ، ومن حيث تغيرها وفنائها بعد وجودها ، أثره الانقطاع منها والتوجه بالكلية إلى خالقها وبارئها ، ونظيره التفكر في أحوال الماضين وانقطاع أيديهم عن الدنيا وما فيها ورجوعهم إلى دار الآخرة ، فإنه يوجب قطع المحبة عن غير الله ، والانقطاع إليه بالطاعة والتقوى .[44] وقد ذكر التفكر في قوله :

مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَرَ ومَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ[45]

نبّه على فضيلة التفكّر في الأمور بقوله : من تفكّر أبصر : أي أدرك بعين بصيرته حقائق الأمور وعواقبها

13- العلم

عنى الإسلام بهذه القيمة وأكد أهميتها في حياة المسلمين في كثير من آيات القران الكريم قال تعالى : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) العلق/ 1-5فالعلم كلمة لها قدسيتها في الإسلام وهي تحمل في طياتها كل مافيه صلاح البشر جميعاً، بل أن البشر فضلوا على الملائكة بالعلم، وبه استحقوا خلافة الله في الأرض،[46] . وبين ميزة العلم في قوله :

أَوْضَعُ الْعِلْمِ مَا وُقِفَ عَلَى اللِّسَانِ – وأَرْفَعُهُ مَا ظَهَرَ فِي الْجَوَارِحِ والأَرْكَانِ[47]

كنّى بالأوّل عن العلم الَّذي لا عمل معه وظهوره ووقوفه على اللسان فقط وهو أنقص درجات العلم وأراد بالثاني العلم المقرون بالعمل فإنّ الأعمال الصالحة لمّا كانت من ثمرات العلم بالله

وما هو أهله كان العلم فيها ظاهرا على جوارح العبد وأركانه ظهور العلَّة في معلولها وذلك هو العلم المنتفع به في الآخرة .[48]

وقال عليه السّلام :

اعْقِلُوا الْخَبَرَ إِذَا سَمِعْتُمُوهُ عَقْلَ رِعَايَةٍ لَا عَقْلَ رِوَايَةٍ – فَإِنَّ رُوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ ورُعَاتَهُ قَلِيلٌ[49]

عقل الرعاية : ضبطه بالفهم ورعاية العلم . وعقل الرواية : ضبط ألفاظها وسماعها دون تفهّم المعنى ورغَّب في ذلك بضمير صغراه قوله : فإنّ رواة العلم . إلى آخره . وتقديره كبراه : وكلَّما كان كذلك فينبغي أن يعقل عقل رعاية لتكثر رعاته .[50]

14– الوفاء بالعهد

إن الوفاء بالعهد من عوامل التّعايش الاجتماعيّ ، وهو من أركان سعادة المجتمع ، وله الأثر الكبير في جميع شؤون حياة الناس ، وهو الأساس الذي يبنى عليه التقدّم ،وان نقض العهود أكثر العوامل أثراً في تشتيت شمل المجتمع الإنساني وان شيوعه بينهم يسبب لهم الضعف والانحطاط ، ويوهن حبال المودة بين الناس ولا شك أن المجتمع الذي يحكمه التشتت وفقدان الثقة المتبادلة سيفقد توازن الحياة وتعادله ، ولا يطمئن أحد بأحد حتى أقرب الأقرباء إلى أقربهم . وقد راج سوق نقض العهود والخداع ضمن الانحطاط الأخلاقي الذي أصيب به الناس في هذا العصر ، وقد تفشّت صفة المجاملة في الأخلاق العامّة ، بصورة رهيبة . فيوجد في المجتمع أفراد لا يعتدّون بمواعيدهم ، بل يعدّون الخداع نوعاً من الحذق والذكاء والفطنة ، ويباهون به الآخرين . وبين الإمام (عليه السلام) الوفاء يالعهد في قوله :

النَّاسُ أَشَدُّ عَلَيْهِ اجْتِمَاعاً مَعَ تَفَرُّقِ أَهْوَائِهِمْ – وتَشَتُّتِ آرَائِهِمْ – مِنْ تَعْظِيمِ الْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ[51]

أنّ المشركين لزموا ذلك فيما بينهم واستثقلوا الغدر لما فيه من سوء العاقبة . والمذكوران صغريا ضمير تقدير الكبرى فيهما : وكلَّما كان كذلك فيجب لزومه والمحافظة عليه . ثمّ أكَّد ذلك بالنهى عن الغدر في العهد ونقض الذمّة وخداع العدوّ بمعاهدته ثمّ الغدر به ، ونفّر عن ذلك بوجهين : أحدهما : قوله : فإنّه . إلى قوله : الأشقى . وهو صغرى ضمير تلخيصها : فإنّ المجترى على اللّه شقىّ ، وتقدير كبراه : وناقض العهد والمدغل فيه مجتر على اللّه ، ينتج من الرابع فالشقيّ هو ناقض العهد والمدغل فيه . ويجوز أن يكون تقدير الصغرى : فإنّ ذلك جرأة على اللّه يستلزم الشقاوة ، وتقدير الكبرى : وكلَّما كان كذلك وجب اجتنابه[52]

15 . الصبر

هو استطاعة الفرد على ضبط أعصابه في أحرج المواقف، وممّا يدعو إلى تماسك الشخصية وتوازنها الصبر على الأحداث وعدم الانهيار أمام محن الأيام وخطوبها[53] ولقد أكد الإسلام أهمية التحلي بهذه القيمة وحث المسلمين عليها، إذ من يتحلى . بها فان الله يثيبه

بغير حساب قال تعالى: (وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) النحل/96، وقال تعالى : (وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا) الإنسان/12، وقال تعالى (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) السجدة/24 وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على نبيه أيوب (عليه السلام) لصبره بقوله : (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)ص/44

ومن خطبة له (ع) وهي المعروفة بالشقشقية وتشتمل على الشكوى من أمر الخلافة ثم ترجيح صبره عنها ثم مبايعة الناس له قائلاً:

أَمَا واللَّه لَقَدْ تَقَمَّصَهَا فُلَانٌ وإِنَّه لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى ، يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ ولَا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ ، فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْباً وطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحاً ، وطَفِقْتُ أَرْتَئِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ ، أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخْيَةٍ عَمْيَاءَ ، يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ ويَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ ، ويَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّه ، فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى ، فَصَبَرْتُ وفِي الْعَيْنِ قَذًى وفِي الْحَلْقِ شَجًا أَرَى تُرَاثِي نَهْباً حَتَّى مَضَى الأَوَّلُ لِسَبِيلِه ، فَأَدْلَى بِهَا إِلَى فُلَانٍ بَعْدَه[54]

قوله وطفقت أرتئي بين أن أصول بيد جذّاء أو أصبر على طخية عمياء يريد أنّي جعلت أجيل الفكر في تدبير أمر الخلافة وأردّه بين طرفي نقيض إمّا أن أصول على من حازها دوني أو أن أترك ، وفي كلّ واحد من هذين القسمين خطر أمّا القيام فبيد جذّاء وهو غير جائز لما فيه من التغرير بالنفس وتشويش نظام المسلمين من غير فائدة ، واستعار وصف الجذّاء لعدم الناصر ، ووجه المشابهة أنّ قطع اليد لمّا كان مستلزما لعدم القدرة على التصرّف بها والصولة وكان عدم الناصر بها والمؤيّد مستلزما لذلك لا جرم حسنت الاستعارة ، وأمّا الترك ففيه الصبر على مشاهد التباس الأمور واختلاطها وعدم تمييز الحقّ وتجريده عن الباطل وذلك في غاية الشدّة والبلاء أيضا ، واستعار لذلك الالتباس لفظ الطخية وهو استعارة لفظ المحسوس للمعقول ، ووجه المشابهة أنّ الظلمة كما لا يهتدى فيها للمطلوب كذلك اختلاط الأمور هاهنا لا يهتدى معها لتمييز الحقّ وكيفيّة السلوك إلى الله ، ووصف الطخية بالمعنى أيضا على وجه الاستعارة فإنّ الأعمى لمّا لم يكن ليهتدي لمطالبه كذلك هذه الظلمة لا يهتدى فيها للحقّ ولزومه ، ثمّ كنّى عن شدّة ذلك الاختلاط ومقاساة الخلق بسبب عدم انتظام الأحوال وطول مدّة ذلك بأوصاف : أحدها أنّه يهرم فيها الكبير ، والثاني أنّه يشيب فيها الصغير . والثالث أنّ المؤمن المجتهد في لزوم الحقّ والذبّ عنه يقاسي من ذلك الاختلاط شدائد ويكدح فيها حتّى يلقى ربّه ، وقيل : يد أب ويجتهد في الوصول إلى حقّه فلا يصل حتّى يموت ، ثمّ أشار بعد ذلك إلى ترجّح رأيه في اختيار القسم الثاني وهو الصبر وترك القيام في هذا الأمر بقوله : فرأيت أنّ الصبر على هاتا أحجى وأليق بنظام الإسلام ، ووجه الترجيح ظاهر فإنّه لمّا كان مقصود عليّ

عليه السّلام من هذه المنافسة إنّما هو إقامة الدين وإجراء قواعده على القانون المستقيم ونظام أمور الخلق كما هو المقصود من مقالات الشارعين صلوات الله عليهم أجمعين ، وكانت صولته ومحاربته لمنافسيه في الإمامة بغير ناصر لا تثمر القيام به ومع ذلك ففيه انشعاب أمور المسلمين وتفرّق كلمتهم وثوران الفتن بينهم خصوصا ، والإسلام غضّ لم ترسخ محبّته في قلوب كثير الخلق ولم يطعموا حلاوته وفيهم منافقون والأعداء المشركون في غاية القوّة من كلّ الأقطار لا جرم لم يمكنه مع ملاحظة هذه الأحوال إثارة الحرب والمنازعة لأداء ذلك إلى ضدّ ما هو مقصود له بحركته ومحاربته ، وأمّا الصبر وترك المقاومة وإن كان فيه بحسب رأيه ما ذكره من اختلال الدين وأنّه لو كان هو القائم لهذا الأمر لكان انتظامه به أتمّ وقوامه أكمل إلَّا أنّه أقليّ بالنسبة إلى الاختلال الَّذي كان يحصل لو نازع في هذا الأمر وقام في طلبه وبعض الشرّ أهون من بعض . قوله فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجى . الواو للحال والجملتان كنايتان عن شدّة ما أضمره من التأذّي والغبن بسبب سلبه ما يرى أنّه أولى به من غيره وما يعتقده من الخبط في الدين بيد غيره . قوله أرى تراثي نهبا قيل أراد بتراثه ما خلَّفه رسول الله صلى الله عليه وآله لابنته كفدك فإنّه يصدق عليها أنّه ميراثه لأنّ مال الزوجة في حكم مال الزوج ، والنهب إشارة إلى منع الخلفاء الثلاثة لها بالخبر الَّذي رواه أبو بكر نحن معاشر الأنبياء لا نورّث ما تركناه فهو صدقة ، وقيل : أراد منصب الخلافة ويصدق عليه لفظ الإرث كما صدق في قوله تعالى حكاية عن زكريّا عليه السّلام « يَرِثُنِي ويَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ » فإنّه أراد يرث علمي ومنصبي في نبوّته فكان اسم الميراث صادقا على ذلك .[55]

الخاتمة

وختاما نود أن نقول أن الأمة الإسلامية أمة الخلق القويم والأخلاق الفاضلة أمة دعائم وجودها القيم وما يتفرع عنها من آداب السلوك والتصرف ،وتقوم منظومة القيم في الثقافة الإسلامية على التعاليم الدينية وهذه هي السمة الفارقة لها عن غيرها من المنظومات التي لا تجعل للدين أي اعتبار في تشكيلاتها القيمية ومن خلال تحليلنا لخطب الإمام علي (عليه السلام) وصلنا إلى الاستنتاجات الآتية :

1. إنّ كلَّ العلاقات في القيم التربوية ترتبط ارتباطاً وثيقا بثقافة الأمة، لذا فان فصل القيم التربوية الإسلامية عن إطارها الثقافي السليم، ودمجها في مناخ من الازدواجية الثقافية، أو تركها تحت طائلة الغزو الثقافي من التأثر بالقيم الغربية، يعرضها للذوبان وينزع منها الفعالية في صياغة الشخصية الإسلامية القوية وصنع الواقع الحضاري السليم .

2. إنّ المصدر الذي استقى منه الإمام علي(عليه السلام) قيمه القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، التي قام عليها النظام التربوي الإسلامي.
3. إنّ بذرةً القيم التربوية التي هي قوام منهج الإسلام الشامل في نفوس الأفراد هي الضمان لتحقيق أهداف التربية الإسلامية،
4. إنّ أول شيء تثمره القيم التربوية الإسلامية في البناء الشخصي للإنسان المسلم تقوية صلته بالله عز وجل إلى الدرجة التي تجعله يراقبه في السر والعلن في كل حركاته وسكناته، فهو يراعي حرمة الله عزّ وجلّ، ومعنى ذلك أنّ المسلم في علاقته مع ربه يستشعر الخشية والخوف منه في الوقت نفسه الذي يتوجه اليه بالرجاء، ومن ذلك نستنتج أنّ نظام القيم التربوية في الإسلام يجمع شتات الإنسان ويركز طاقته وإمكانياته حول مركز واحد هو الولاء لله عز وجل وابتغاء وجهه الكريم .
5. إنّ القيم التربوية مرتبطة الواحدة بالأخرى، اذ ليس من الصواب الاهتمام بقيمة وإهمال القيم الأخرى؛ لأن كل واحدة منها تكمل الأخرى، وهذا التداخل فيما بينها يجعلها تشكل كتلة واحدة، فالعدل بحاجة إلى الشجاعة والحكمة، والعز، والكرامة لا بدّ لها من التضحية والشجاعة التي قد يكون طريقها الشهادة، وهكذا تتداخل هذه القيم فيما بينها لتشكل الإنسان المؤمن الذي هو هدف التربية الإسلامية.

وفي ظل الاستنتاجات اقترح الباحثان مجموعة من التوصيات :

1. تبني وزارتي التربية والتعليم العالي والبحث العلمي تبني المنظومة القيمية المطروحة في هذا البحث، لترسيخها في نفوس الطلبة من طريق رسمها للأهداف التربوية في كلتا الوزارتين .
2. حث الباحثين على الاهتمام بإحياء النفائس التربوية الإسلامية، التي تغيب عن أذهان الكثيرين في هذا العصر، وخاصة ما يتعلق بأئمة أهل البيت (عليهم السلام) فالاهتمام بهذا الجانب مسؤولية كل مرب.
3. تبنيّ واضعي المناهج الدراسية، لاسيما تلك المتعلقة بترسيخ القيم مثل مادة التربية الإسلامية القيم الواردة في هذا البحث ومحاولة تثبيتها في نفوس الطلبة من طريق طرح الموضوعات التي تؤكدها،.
4. الدعوة لعقد الندوات والمؤتمرات والحلقات النقاشية التي يسهم فيها التدريسون والطلبة لمناقشة القيم الإسلامية بنحو عام .

هوامش البحث

1. مختار الصحاح ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي :577

2. القيم التربوية في القصص القرآني، سيد احمد طهطاوي : 46

3. علم النفس الاجتماعي , جودت بنى جابر :288

4. تعلم القيم وتعليمها, ماجد زكي الجلاد :55

5 . المدخل إلى التربية والتعليم ، عبد الله الرشدان ، ونعيم جعنيني : 211

6. توظيف مصفوفة القيم في المنهج الدراسية ، عواد جاسم التميمي :12

7 . المصدر نفسه : 20

8 . القصة في التربية اصولها النفسية وتطور مادتها وطريقة سردها ، عبد العزيز عبد المجيد :97

9. الفكر التربوي الإسلامي ، محمد حسن العمايرة :179–180

10. المعلم والمناهج وطرق التدريس مرسي ، محمد عبد العليم :47

11. تدريس السيرة النبوية في مناهج التاريخ المدرسية ، سر الختم عثمان علي :82

12. التربية والمجتمع عبر العصور ، عبد الفتاح حجاج :111

13. تحليل المحتوى ، عبد العال السلمان، واخرون :4

14. القيم السائدة في صحافة الأطفال العراقية ، خلف نصار الهيتي:62

15.المصدر نفسه :63

16. تحليل المحتوى ،مصدر سابق :19

17 .نهج البلاغة ،محمد عبده، 48/2

18.شرح نهج البلاغة ،ابن هيثم البحراني ، 260/3

19. نهج البلاغة ،محمد عبده، 48/4_50

20. المصدر نفسه،92/1

21. شرح نهج البلاغة ،ابن هيثم البحراني ، 204/2

22. نهج البلاغة ،محمد عبده، 215/1

23. شرح نهج البلاغة ،ابن هيثم البحراني ، 73/3

24. نهج البلاغة ،محمد عبده،22/1

25. شرح نهج البلاغة ،ابن هيثم البحراني ،174/3

26. نهج البلاغة ،محمد عبده،50/4

27. شرح نهج البلاغة ،ابن هيثم البحراني ،354/5

28. نهج البلاغة ،محمد عبده، 141/2

29. شرح نهج البلاغة ،ابن هيثم البحراني ، 243/4

30. نهج البلاغة ،محمد عبده، 5/3

31. شرح نهج البلاغة ،ابن هيثم البحراني ، 42/5

32. عيون الحكم والمواعظ ، أبو الحسن علي بن محمد الليثي الواسطي : 160

33. نهج البلاغة ،محمد عبده، 17/2

34 . شرح نهج البلاغة ،ابن هيثم البحراني ،157/3

35. نهج البلاغة ،محمد عبده، 17/1

36. شرح نهج البلاغة ،ابن هيثم البحراني ، 29/2

37. المعجم العربي الأساسي . احمد العيد وآخرون : 1037

38. نهج البلاغة ،محمد عبده، 151/2

39. شرح نهج البلاغة ،ابن هيثم البحراني ، 287/4

40. أحياء علوم الدين ،أبو حامد الغزالي,ج 8 : 1437

41. مختار الصحاح ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي: 330

42. نهج البلاغة ،محمد عبده، 60/1

43. شرح نهج البلاغة ،ابن هيثم البحراني ، 332/1

44.دروس في الأخلاق ، آية الله المشكيني ، ج1 : 142

45 . نهج البلاغة ،محمد عبده، 52/3

46 . المعجم العربي الأساسي . احمد العيد وآخرون : 861

47 . نهج البلاغة ،محمد عبده، 20/4

48 . شرح نهج البلاغة ،ابن هيثم البحراني ، 286/5

49 . نهج البلاغة ،محمد عبده، 22/4

50. شرح نهج البلاغة ،ابن هيثم البحراني ، 290/5

51 . نهج البلاغة ،محمد عبده، 106/3

52 . شرح نهج البلاغة ،ابن هيثم البحراني ، 174/5

53. المعجم العربي الأساسي . احمد العيد وآخرون : 861

54 . نهج البلاغة ،محمد عبده، 30/1

55. شرح نهج البلاغة ،ابن هيثم البحراني ، 1/ 55

المصادر

- **القرآن الكريم**

– ابن أبي الحديد ،عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله (ت 656هـ/1258م) **شرح نهج البلاغة** ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ب. ت

–البحراني ،كمال الدين ميثم بن علي ، **شرح نهج البلاغة** ، ت679، ب. ت

– التميمي ،عواد جاسم . **توظيف مصفوفة القيم في المنهج الدراسية** ، الشركة العامة لإنتاج المستلزمات التربوية ،بغداد ،2005 .

– جابر ، جودت بن .**علم النفس الاجتماعي** ، دار الثقافة ، عمان ، 2004 .

– الجلاد ، ماجد زكي . **تعلم القيم وتعليمها ،دار المسيرة** ،عمان ،الاردن ،ط3 ،2010

– حجاج ، عبد الفتاح : **التربية والمجتمع عبر العصور** ، المؤتمر الفكري الثالث لاتحاد التربويين العرب، الأمانة العامة للاتحاد ، بغداد ، 1978 .

– الرازي ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر. **مختار الصحاح** ،دار الرسالة ، الكويت،1983

– الرشدان ، عبد الله ، ونعيم جعنيني : **المدخل إلى التربية والتعليم** ، دار الشروق ، بيروت – لبنان ، ط1 ، 1994م .

– السلمان، عبد العال اخرون، **تحليل المحتوى**، مصر مركز الحوث النفسية والتربوية، جامعة القاهرة 1984م

– طهطاوي، سيد احمد، **القيم التربوية في القصص القراني**،ط1، دار الفكر العربي،مصر ،1996م.

– عبد المجيد ، عبد العزيز . **القصة في التربية اصولها النفسية وتطور مادتها وطريقة سردها** ، مصر ، دار المعارف ، 1984 .

– علي ، سر الختم عثمان . **تدريس السيرة النبوية في مناهج التاريخ المدرسية**، كلية التربية جامعة الرياض ، نشر دار العلوم ، الرياض ، الملكة العربية السعودية ، 1982 .

– العمايرة ، محمد حسن. **الفكر التربوي الإسلامي**، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، ط1، 2001م.

– العيد، احمد وآخرون، **المعجم العربي الأساسي** ، تقديم الأستاذ الدكتور محي الدين صابر، جميع حقوق التأليف والنشر محفوظة للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم توزيع لاروسي ، 1408هـ ، 1988م.

– الغزالي ، أبو حامد . **إحياء علوم الدين**

– مرسي ، محمد عبد العليم . **المعلم والمناهج وطرق التدريس** ، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع ، الرياض ، 1982 .

– المشكيني ، آية الله . **دروس في الأخلاق**

– الهيتي ، خلف نصار . **القيم السائدة في صحافة الأطفال العراقية** ، بغداد ، دار الحرية للطباعة (رسالة ماجستير منشورة ضمن منشورات وزارة الثقافة والإعلام 1978م).

– الواسطي ، أبو الحسن علي بن محمد الليثي . **عيون الحكم والمواعظ** ، تحقيق : الشيخ : حسين الحسيني البيرجندي ، قم ، دار الحديث ، 1376

3.الأدب العباسي .

4.الأدب الحديث.

5.النقد الأدبي

المشاركات البحثية :-

1.مرويات السفراء الأربعة عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام)

2. بين أدب المرأة والرجل دراسة مقارنة

3. التنمية السياسية في فكر الإمام علي

4. دور الإمام السيستاني في وأد الفتنة الطائفية في العراق

التأصيل اللغوي لألفاظ التعليم في العراق القديم
دراسة مقارنة -

أ.د. منذر ابراهيم حسين الحلي
جامعة بابل / مركز بابل للدراسات الحضارية والتاريخية
م . فضيلة صبيح نومان الخزاعي
جامعة القادسية / كلية الاداب

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المصطفى الأمين النبي محمد ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وصحبه المنتجبين ... وبعد..

فقد كانت عندي رغبة منذ زمن بعيد ان أتناول موضوعاً يدرس أوجه التشابه بين اللغات العربية القديمة (أو ما تسمَّى اللغات السامية) ، وقد دُعى مراراً إلى مثل هذه المواضيع التي لم تدرس في حينها ، ولهذا شرعت بدراسة اللغتين العربية والأكدية من حيث اشتراك الفاظهما (الفاظ الطبيعة) بغية ان يقفني البحث على جوانب ، منها : التأصيل اللغوي المستمدة جذوره من التراث اللغوي العراقي القديم ، والمرحلة الزمنية للكلمة المشتركة ، والتغيرات الصوتية والصرفية والدلالية ، واللهجية التي مرت بها الكلمة.

واحسب ان هذا الموضوع لم يلق أهتماماً كثيراً على الرغم من ان هناك دعوات كثيرة ، منها لعلمائنا وأساتذتنا الأجلاّء ضمن أختصاص اللغات المسمارية القديمة ، فقد أكّد أ.د. طه باقر مواصلة الدرس المعجمي ، بقوله : إذ ستكون المفردات المشهورة التي سيجدها القارىء حافزاً للدارسين و الباحثين لمواصلة الدراسة والبحث تمهيداً لإعادة تدوين معاجمنا تدويناً حديثاً على وفق التأصيل اللغوي الصحيح مشفوعاً بتطور الاستعمال اللغوي والاصطلاحي [1] ، وقول د. خالد الأعظمي :

((ولما كنا على علاقة وثقى باللغة الأكدية ، واوثق منها باللغة العربية ، فقد رأينا لزاماً علينا ان نعقد مقارنة بين هاتين اللغتين))[2] ، وقول د. عامر سلمان :

((ومَمَّا يؤسف له أنه لم يصدر حتى الآن معجم عن اللغة السومرية ، أو عن اللغة

([1]) ظ : من تراثنا اللغوي القديم (أ0د0 طه باقر) : 4 0

([2]) من أصول اللغة الأكدية (أ0د خالد الأعظمي): سومر ، 1997–1998 ، مج/49 ، ج1–2 ، ص8 0

الأكدية باللغة العربية على الرغم من أهمية هاتين اللغتين وأهمية نصوصهما المسمارية الكثيرة بالنسبة لتاريخنا القديم))[3] .

وقول أساتذة اللغات العربية القديمة ، ومنهم د. رمضان عبد التواب :

((تخلو المكتبة العربية من كتاب يدرس اللغات السامية ، درسا مقارنا ... ولا شك ان هناك فوائد كثيرة ، تعود على الدرس اللغوي ، من معرفة الدارس باللغات السامية ، فانه فضلاً عمّا تفيده هذه المعرفة ، في الإلمام بتاريخ الشعوب السامية ، وحضاراتها ودياناتها ، وعاداتها وتقاليدها ، تؤدّي مقارنة هذه اللغات باللغة العربية إلى استنتاج أحكام لغوية ، لم نكن نصل إليها ، لو اقتصرت دراستنا على العربية فحسب ، ونفسر بهذا الأمر سرّ تقدّم المستشرقين ، في دراستهم للغة العربية ووصولهم فيها إلى أحكام لم يسبقوا إليها ، لانهم لا يدرسون العربية ، في داخل العربية وحدها ،

بل يدرسونها في أطار اللغات السامية ، على المنهج المقارن))[4] .

وقد تضمن البحث محورين تناول المحور الاول :- الاصول التاريخية للعلوم واللغة والاداب في العراق القديم , واما المحور الثاني فقد كان بعنوان من الفاظ التعليم المشتركة بين العربية والاكدية , فضلا عن الخاتمة والنتائج والمقترحات مع ثبت المصادر والمراجع القديمة والحديثة العربية والاجنبية , وملحق الخرائط والصور التوضيحية .

المحور الأوَّل : الأصول التاريخية للعلوم و اللغة و الآداب في العراق القديم

كثير من العلوم و المعارف و الآداب و الفنون التي ازدهرت في بلاد وادي الرافدين ولها تأثير كبير في العراق و البلاد المجاورة ، و قد اثبت الباحثون هذا التأثير من خلال السبق الزمني لآداب و علوم وادي الرافدين القديم و وجود الاتصالات التأريخية و تحديد الطرائق

([3]) المعاجم اللغوية من مظاهر أصالة حضارة وادي الرافدين (أ0 د0 عامر سلمان) ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، 1997، مج /24 ، ج2 ، ص355 ، (وقد صدر بعد هذا البحث الجزء الأول من المعجم المسماري ويحوي مقدمة عن الكتابة المسمارية وفقه اللغات السومرية والأكدية ، لمؤلفه أ0د 0 نائل حنون)

([4]) فقه اللغات السامية (كارل بروكلمان) ، مقدمة د0 رمضان عبد التواب : 5 0

التي انتقلت فيها الكثير من العناصر و المقومات الحضارية و منها التجارة و الحروب و الفتوح و الأسفار و ان هذه العلوم و الآداب منهل لا ينضب استقت منه الأمم و الشعوب اسس حضارتها و اتجاهاتها و عقائدها الأساسية ، فهو في رأي الباحثين يعد اصدق ما نقل عن احوال اقدم المجتمعات الإنسانية و عقائدها و نظرتها الى اصل الأنبياء و الآلهة و انظمة الحكم ، و ان نتاجات العراق القديم في الأدب كان يتجه اتجاها اسطورياً شعريا و نمطهم في التفكير كان يتجه اتجاها فلسفياً يستند الى الأستدلال و النقد و الاستنساخ المنطقي و التأمل و النظر في الأشياء .

كذلك يتميز ادب و علم العراق القديم بأن العراقيين هم دونوه بأنفسهم بمعنى انه لم يتعرض الى التغيير و التحريف و التحوير و الحذف و الإضافة حتى عند استنساخه من لدن النسّاخ القدماء على الواح الطين ، فقد تناول أدب بلاد الرافدين القديم مواضيع متعلقة بجوانب حياتهم كافة و كانت على قدر كبير من الأهمية في تاريخ تطور الإنسان لأنها اولى و أقدم محاولات من نوعها في تاريخ النوع الإنساني ، إذ انها عبرت عنه الخبرات الإنسانية الأولى بعد انتقال الإنسان الى طور الحضارة والمدينة و أن هذا قد انتج قطعا ادبية تتسم بالصفات المميزة للأدب الأصيل المبدع مهما كانت المعايير التي تقاس بها .

و الذي ساعد على هذا كله ذلك الأختراع الذي ظهر في حضارة وادي الرافدين ، و هو اختراع نظام التدوين الذي يميز الإنسان المتحضر ، و الكتابة التي يجعلها مؤرخوا الحضارة مرادفة للحضارة و بداية للعصور التاريخية بل انها جوهر الحضارة و العامل الحاسم في تقديم الإنسان و تطوره بنقل تجارب الأجيال و علومها ومعارفها من جيل الى آخر فيضيف له الخبرات و يعمل على تطويرها بذلك تستمر عجلة التقدم الحضاري و عند البحث في دور العلم و المعرفة في العراق القديم يؤكد بشواهد لا تقبل الشك ان افضل اختراع في العراق القديم مبتدئاً بالكتابة يعد الأساس لأستقرار حضارة وادي الرافدين بحسب ادق

الأحتمالات في شؤون الحياة و العلم في الوقت الحاضر كانت جميع الأمم تعيش في دياجير الظلام و التخلف ولا بد ان يكون هذا يرتبط بخصوصية تهدف الى الأغراض التربوية التي تسهم في امتلاك قدرة المعرفة و تساعد على تحصين الإنسان بما يعزز في نفسه و يقوي في داخله روح الإنتماء و الوفاء لهذه الحضارة ، إذ ان عملية التدوين الكتابي ابرزت المسيرة الحضارية في الماضي و خصائصها منذ القدم و الأسس التي قامت عليها و جذور مقوماتها التي كانت سبيلا لمعرفة هذه المكونات و تستمد حضارة بلاد وادي الرافدين من جذورها الممتدة عميقا في تربة هذه الأرض . و أما العلوم و المعارف الأخرى فيمكن ارجاع جذورها في تاريخ الإنسان الى عصور ما قبل التاريخ البعيدة منذ بدأ الإنسان بصنع الآلة ممثلة بالأدوات و الآلات الحجرية البسيطة و استعمال النار ، و اخذت هذه المعارف العملية بالازدياد و التنوع بعد ذلك و انتهى بظهور الحضارة الناضجة الأصيلة .

و تعد حضارة وادي الرافدين احدى الحضارات القديمة القليلة التي أطلق عليها المؤرخ الشهير (توينبي) ، مصطلح الحضارة الأصلية أو الأصيلة .. و هي الحضارات التي لم تشتق من حضارة سابقة لها بل انها نشأت و تطورت منذ عصور ما قبل التاريخ ، و هي قليلة العدد في تاريخ الإنسان و لن يتكرر ظهورها عند البشر على اغلب الأحتمالات و في مقدمتها حضارة وادي الرافدين و حضارة وادي النيل [(1)] .

كما ان الحديث عن حضارة وادي الرافدين طويل و متشعب ، فكان العراق بحق مهد الحضارة ، و مهبط الإلهام الأول ، ففي ربوع اقسامه الشمالية بدأت اولى المحاولات الحضارية من زراعة و غيرها و على شواطئ نهريه العظيمين دجلة و الفرات و روافدهما نشأت و تطورت أولى المدن و المراكز الحضارية و فيها كانت أولى محاولات الإنسان في الكتابة و التدوين و التربية و التعليم و تدوين التاريخ و القانون و العلوم و الفن و الأدب ، و غدت تلك المحاولات الأساس الهندسي الذي قامت عليه الحضارة العراقية القديمة ، فكان كل هذا صورة الأنسان الفكرية و مستواه الحضاري و اداة التعبير ، و منذ بداية التدوين كان التوجه الذكي يربط بين الفكر و المران على الكتابة .

كذلك كانت الكتابة عند العراقيين القدماء تعبيراً ذهنياً (عن ذهنية) خاصة متوارثة اذ كانوا يدركون حقائق بعض الأشياء و كأنها موجودة في ادراك الهي و كأنها صورة مشابهة

و هي ليست وجوداً محسوساً ، وان لكل لفظة قيمة موضوعية خاصة تحددها العلاقة المبدئية .

و أما اللغة فكانت بداية الحياة الإنسانية لأنها اضافت الطابع الإنساني للإنسان و استطاع الفكر ان يدرك الأنواع بأعتبارها متميزة عن الأشياء الجزئية ولولاها لبقي الفكر في الأشياء الجزئية أو الخبرات الجزئية .

(1) يُنظر: موجز في تاريخ العلوم و المعارف في الحضارات القديمة و الحضارة العربية الإسلامية (طه باقر) : 9–10 .

و من خلال اللغة استطاع الإنسان ان ينقل للآخرين المعاني التي يفكر بها و تخيلها ، فهي اصوات ينطقها المرء بعد ان يشترك في اخراجها عدة عناصر ، و يمكن اعتبار اللغة احدى الظواهر الإنسانية و التي بدأت في اقدم صورها بفعل غير منظم و بعيد عن الوضوح و قد مارسها الإنسان القديم منذ نشأته بشكل تدريجي و مارس استعمالها قبل تدوينها بفترة زمنية كبيرة .

و ان الكلام المكتوب اي فن الكتابة هو الترجمة الأولى لفكر الإنسان بما يحتويه من معارف و خبرة علمية أو مهنية كانت أم تطبيقية ، فكان العراقيون القدماء هم أول من توصل الى هذه التجربة الرائعة التي كانت تعتمد على تراكم الخبرات .

و كان من اهم روافد الأدب و التعليم في حضارة وادي الرافدين هم الكتبة البابليين الذين كانوا اكثر كثيراً من كونهم نسّاخين فحسب و قد ألف كثير من الكنز الأدبي الواسع الذي وصلنا من ذلك العصر القديم في مدارس تدريب الكَتَبة و لعل المساهمة الأكبر كانت لكَتَبة العهد البابلي القديم ، الذين لم يحافظوا على التراث الأدبي و التاريخي للعراقيين فحسب بل انتجوا هم انفسهم بعض اروع الكتابات المفعمة بالحيوية في العالم قبل الأغريق و الرومان [1] .

ولا يفوتنا القول ان اللغة الأكدية التي تعد اقدم اللغات العربية القديمة من حيث نصوصها المدونة ، إذ دونت اخبار السلالة الأكدية التي حكمت في العراق حدود منتصف الألف الثالث ق.م ثم اللغة البابلية و الآشورية ، و ان مصطلح اللغة الأكدية يفهم منه بوجه عام اللغتان البابلية و الآشورية [2] .

(1) يُنظر : بابل تاريخ مصور (جون اوتس) : 250 .

(2) يُنظر : دراسة في الكتابات المذكورة في المصادر المسمارية (طه باقر) ، مجلة سومر ،مجلد9 ، 19/2 .

المحور الثاني : الفاظ التعليم المشتركة بين العربية و الاكدية

1. سطر : جاء ذكرها في البابلي الآشوري ، بصيغة (شَطارُ : Šatāru) و معناها : خط و كتابة ، كذلك جائت الآرامية بصيغة : (Štārā) [1] ، و مقابلها العربي (و السَّطر : الخَطُّ و الكتابة) [2] ، و يرجع منشأ الكتابة و اختراعها الى عصر العبيد (4000–3000) ، في العصور الحجرية الأولى تقريباً [3] ، و جاءت كلمة سطر في ، قوله تعالى : (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) [4] ، و المراد بقوله (يَسْطُرُونَ) أو السطر : (المسطور و المكتوب ، كأنه تعالى أقسم بكل ما يُكتب) [5] .

و قد حصل تحول صوتي لكلمة (شَطارُ) البابلية ، من صوت الشين الى صوت السين في الكلمة العربية (سطر) ، و ذلك (لقرب السين من الشين في الهمس) [6] ، إذ ان الشين تبدل من السين في العربية ، كقولك جُعْسُوس وجُعشُوش للئيم[7] ، و قولك : السلام : شلام ، اللسان لشان ، و الاسم اشم [8] ، من المعروف ان الشين و السين من الاصوات اللثوية الأحتكاكية المرققة [9] ، و هو اصوات ضوضائية خالصة من دون ان تحدث ذبذبة منتظمة [10] ، كما ان السين و الشين ((صوتان توأمان لو ابدل احدهما بالآخر في الكلمات اللغة العربية و البابلية و الآشورية التي تتكون منهما لتشابهت كلمات الأولى بالقانية لفظاً و معنى)) [11] .

(1) AHW : 10/1171 .

(2) لسان العرب (مادة سطر) : 181/7

(3) الساميون في العصور القديمة (محمد عبد القادر) : 160 ، و يُنظر : الآداب السامية (محمد عطية الأبراشي) : 196 .

(4) القلم / 1

(5) التفسير الكبير (الفخري الرازي) : 78/30–79 .

(6) المعرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم (ابو منصور موهوب بن احمد الجواليقي) : 55 .

(7) يُنظر: ثلاثة كتب في الحروف (الخليل بن احمد و ابن السكيت و الرازي) : 152 .

(8) المزهر في علوم اللغة و انواعها (جلال الدين السيوطي) : 575/1 ، و اللغات السامية (تيو دور نولدكة) : 30 .

(9) يُنظر: حول اللغة العربية الفصحى و اللهجات العربية و اللغة العربية الام (فرنديم) ،مجلة كلية الآداب: 30/31 .

(10) يُنظر: دراسة الصوت اللغوي (د.احمد مختار عمر) : 3 ، و الكنز اللغوي في اللسن العربي (اوغست هفنر) : 41 ، و لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة (د.عبد العزيز مطر) : 187 ، و ظواهر المحافظة و التطور في الصوامت العربية على ضوء المناهج المقارنة لعلم اللغات السامية (رمزي بعلبكي) ، مجلة كلية الآداب 22/31 .

(11) صوت العين و كتابته في اللغة البابلية – الآشورية (خالد الاعظمي) ، مجلة سومر ، 1–2 / 174 .

2. <u>شعر</u> جاء ذكرها في البابلي القديم و الحديث بصيغة (شِيْرُ ēŠru(m)) و معناها : غناء و نشيد ، كذلك جاءت في الاوغاريتية و العبرية ، بصيغة : (ēŠr) ، و هي كلمة مستعارة من السومرية [1] ، و مقابلها العربي : ((و الشِّعْرُ : القريض المحدَّد بعلامات لا يجاوزها و سُمِّيَ شعراً ، لأن الشاعر يفطن له بما لا يفطن له غيره من معانيه [2] .

ان الباحثين يجمعون على ان الشعر كان اقدم ما زاوله الانسان من الفنون الأدبية ، كما يرجح كثيراً ان اصل الشعر كان من الغناء و الانشاد الشعبي و مما يقوي هذا الرأي ان الكلمة التي تطلق على الشعر في أدب حضارة وادي الرافدين و هي كلمة (شيرو) البابلية و (سير) و (شير) (SIR) السومرية التي ظهرت في نظام الكتابة المسمارية منذ أول ظهور الكتابة تعني في اصلها الغناء و الانشاد و الترنيم [3] ايضاً حصل ابدال صوتي في الكلمة البابلية (سيرُ) من السين في الكلمة العربية (شعر) في بعض صيغها التي جاءت بها ، و ذلك لأنهما صوتان مهموسان و قد ذكرنا هذا (في كلمة سطر) ، و قد فقدت كلمة (شير) و (سير) الاكديتان صوت العين ، و ذلك لأن : ((الخط المسماري للغة البابلية الآشورية ، خال من صوت العين ، و هي ان الكتابة المسمارية في اللغة السومرية خالية من صوت العين علماً ان البابليين و الآشوريين لم يأتوا بعلامة جديدة غير متطورة عن الخط

المسماري السومري لتؤدي صوت العين . . . و على اي حال فإن العلامة (e) المسمارية لا بد و ان يكون صوت العين فيها اكثر نصيباً من بقية حروف العلة)) [4] .

---

(1) AHW : 14/1219 .

(2) ترتيب كتابة العين للخليل بن احمد الفراهيدي : 922/2 هـ

(3) يُنظر : ملحمة كلكامش (طه باقر) : 29 .

(4) صوت العين وكتابته في اللغة البابلية الآشورية ، د.خالد الأعظمي ، مجلة سومر: 2/173–176 ، 191 .

3. قلم جاء ذكرها في البابلي القديم ، بصيغة (قِنُو(م) : qanûm) ، معناها انبوب[1] ، و مقابلها في اللغة العربية: ((القاف و اللام و الميم اصل صحيح يدلُّ على تسوية شيء عند بَرْيه و اصلاحه و القُلاَمَة ما يسقط من الظفر اذا قُلم ، و من هذا الباب سمي القلمُ قلماً))[2]

و قد جاء المعنى الاكدي (انبوب) ، متطابقاً مع المعنى العربي (القلم) ، وذلك لأن تسمية القلم قبل ان يكتب به و بعد الكتابة به ، فهو : ((قبل ان تبريه أنبوب فأذا بريته فهو قلم)) [3] ، كذلك جاء في اليونانية بصيغة (kalemos) و معناه قصبة[4] . و قد حصل ابدال صوتي بين النون في كلمة (قينوم) و اللام في الكلمة العربية (قلم) و ذلك لتقارب صفاتهما .

و قد تميز العصر البابلي القديم بظهور حركة واسعة في التدوين و في مقدمة ذلك تدوين الشرائع و النصوص السومرية الأدبية و ترجمة الكثير منها الى اللغة البابلية فضلاً عن تأليف المعاجم اللغوية بالعلامات المسمارية و شرح مفردات اللغة السومرية باللغة البابلية .[5]

و ان كثير من نصوص قوائم النباتات و الحيوانات و حتى الصيغ النحوية السومرية التي بقيت تدرس و تستنسخ بعد فترة طويلة من توقف النطق بالسومرية و ان هذه المعاجم عظيمة الفائدة للعلماء المحدثين و هي تكشف ايضاً اتساع العلوم العراقية القديمة و دقتها و قيودها ، و كان قدر كبير من تدريب الكاتب المبكر هو استنساخ هذ القوائم و تعلمها ، و اصبح ذلك بحلول العهد البابلي القديم تمارين مدرسية مألوفة [6] .

---

(1) AHW : 10 /898 .

(2) معجم مقاييس اللغة : 15/5 .

(3) مبادئ اللغة (ابي عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الأسكافي ت421هـ) : 90 .

(4) يُنظر : تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العرابية (طوبيا العنيسي الحلبي اللبناني) : 57 ، و يُنظر : من تراثنا اللغوي القديم (طه بالقر) : 121 .

(5) موجز في تاريخ العلوم و المعارف في الحضارات القديمة و الحضارة العرابية الإسلامية : 16 .

4. **معلم جاء ذكرها في النصوص اللغوية ، بصيغة (مُلمِّدُ : mulmmidu) ، و معناها : معلم[1] . ، و مقابلها العربي : (رجل علاّمة ، و غلام عليم)[2] ، و اشتقت من هذه الكلمة المشتقات و الألفاظ الدالة على التعليم ، مثل لمد و لمذ و اشتقت منها كلمة (معلم) و (التلميذ) ، و العبرانية و معناها (مُتعلِم و هو مشتق من لمد) أي علَّم و منه التلمود اي كتاب سُنن اليهود و تعليم [3] . و هكذا فان كلمة (معلم) و مشتقاتها موغلة في القدم في النصوص اللغوية الكدية ، كذلك فقدت كلمة (مُلّمد) الأكدية صوت العين كما حصل في كلمة (شعر) .**
5. **نسخ جاء ذكرها في الأكدي القديم ، فيما بعد ، بضيغة (نَساخْ : nasāḫu) ، و معناه : النقل من مكان لآخر أو الإزالة و سحب لشيء من موقفه و غيرها [4] .**

كذلك جاءت في العبرية و الآرامية و العربية ، بصيغة (nsḫ)[5] ، و مقابلتها العربي :(النون و السين و الخاء اصلٌ واحدِ) ، إلا انه مختلف في قياسه ، قال قوم قياسهُ رفعُ و

ثبات غيره مكانه ..... وكلٌّ شيء خَلَق شيئاً ، فقد انتسخه و انتسخت الشمس الظل [6] و غيرها ، و قد حصل في الكلمتين (نساخٌ) الأكدية و نسخ العربية تطابقاً تاماً لفظاً و معنى . و ان كثيرا من نصوص قوائم النبات و الحيوانات و حتى الصيغ النحوية السومرية التي بقيت تدرس و تستنسخ بعد فترة طويلة من توقف النطق بالسومرية و ان هذه المعاجم عظيمة الفائدة للعلماء المحدثين و هي تكشف ايضا اتساع العلوم العراقية القديمة و دقتها و قيودها ، و كان قدر كبير من تدريب الكاتب المبكر هو استنساخ هذه القوائم وتعلمها و اصبح ذلك بحلول العهد البابلي القديم تمارين مدرسية مألوفة [7] .

(1) ترتيب كتاب العين : 641/1 .

(2) CAD : 10,11/15 .

(3) تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية :18 .

(4) CAD : 7/16

(5) AHW : 9/749 .

(6) معجم مقاييس اللغة : 424/5 .

(7) بابل تاريخ مصور :247–249 .

ولولا فن النسخ في العراق القديم لما عثر مثلاً على نسخ كثيرة من ملحمة كلكامش في اقاليم نائية مثل الاناضول موطن الحضارة الحثية ، و قد دونت بعض هذه النصوص باللغة البابلية القديمة ، كما وجدت لها ترجمات الى اللغتين الحثية و لحورية ، و حديثاً تم اكتشاف مثير لنسخة من بعض فصولها في احدى مدن فلسطين القديمة و هي مدينة (مجدو) المشهورة في التوراة و يرجع زمن هذا النص الى حدود القرن الرابع عشر ق.م .... اذن هذا هو الانتشار الواسع بالطريقة المباشرة اي الاستنساخ و الترجمات المختلفة التي وجدت في مراكز الحضارات القديمة [1] .

(1) ملحمة كلكامش: 45 .

الخاتمة و النتائج

أ) النتائج العامة

1- أصالة تأليف المعجمات في التراث العراقي القديم ، وهي على انواع ، منها : (المعجمات اللغوية) وقد اتت بتسميات أُخر (قوائم تعليمية) و(قوائم معجمية) و (اثباتات) وهذه ايضاً على نوعين : الأول : المعاجم الأحادية التي تعطى الكلمة السومرية ومعناها السومري ، والثاني : معاجم ثنائية تعطى الكلمة السومرية ومعناها البابلي، و(المعجمات الموضوعية) التي تتضمن موضوعات النبات والحيوان والجبال ، و(معجمات البلدان والأقاليم والمدن).

2- شيوع الفنون الأدبية في التراث العراقي القديم ، ومنها : (الرسائل) بين الملوك داخل العراق ومع البلدان المجاورة له ، و (الوصايا) إذ يترك الملك الوصية بالحكم لمن بعده ، و (الملاحم) البطولية مثل ملحمة كَلكَامش ، و (القصَص) مثل قصّة الخليقة البابلية .

3- ميّز اهل العراق القدامى بين أنواع كتاباتهم المدونة ، ومنها : (الاجتماعية) التي تتضمن : الأسرة والأقارب ، وطبقات المجتمع ، والتشريع ... و(الفكرية) التي تتضمن : إلالهة والمعابد ، والقرابين والنذور ، والثواب والعقاب ، والأعياد الدينية ، والعقائد والأساطير والخرافات ، والفأل والعرافة ، والتنجيم والسحر 000 و (العلمية) التي تتضمن : التقويم أو الحوليات الآشورية والفلك ، والرياضيات ، والطبيعيات (بما فيها الكيمياء والفيزياء والأحياء) ، والهندسة

والمعمار ، و(الاقتصادية) التي تتضمن : الزراعة والصناعة والحرف ، والتجارة بما فيها : النقود والعقود والأختام والأوزان والمكاييل ووحدات المساحة)

ب) النتائج الخاصة

1- وأظهرت هذه الدراسة وجود العلاقة الوثيقة بين ألفاظ هذه المعارف في الاكدية والعربية.

2- لأسباب تتصل بعدم حلّ رموز الكتابة المسمارية إلاَّ في الوقت الحاضر ، واقتصار دراسة علم الآشوريات على مختصي الآثار والتاريخ القديم ، فقد تم تأصيل بعض أَلفاظ التراث اللغوي العراقي خطأً على انها اعجمية أو دخيلة أو يونانية و غيرها .

3- حصل ابدال صوتي الشين في الكلمة الاكدية (شطارُ) و السين في الكلمة العربية (السُطر) كذلك ابدال صوتي بين صوت النون في الكلمة الاكدية (قانو) و بين اللام في الكلمة العربية (قلم) .

4- حصل تطابق لفظاً و معنى في الكلمة الاكدية (نساخُ) و مقابلتها العربي (نسخ)

ثالثاً : المقترحات

1- اقترح تدريس المقابلات الصوتية (العربية الاكدية) ضمن مادة الصوت التي تدرس في أقسام اللغة العربية.

2- تدريس الأوزان العروضية المشتركة بين العربية والأكدية في مادة (العروض) التي تدرس في أقسام اللغة العربية ، والموضوع المقترح للدراسة ، هو : (الأوزان المشتركة بين الشعر العربي والشعر الاكدي : دراسة عروضية)

3- اشتراك الأساتذة المختصين باللغة العربية والأساتذة المختصين باللغة الاكدية والكتابة المسمارية في إعداد بحوث لأغناء المظاهر المشتركة بين اللغتين.

4- الاهتمام بالمعجمات الاكدية ومضمون الأدب الاكدي وتوافقهما أو تقاربهما في الأقل مع نظيريهما في العربية.

5- تصويب الأخطاء التي جاءت في بعض بحوث مجلة سومر – والتي اغلبها اخطاء طباعية – ومنها البحث المعنون : (دراسة في النباتات المذكورة في المصادر المسمارية) وكتاب : (من تراثنا اللغوي القديم) وهما للاستاذ الدكتور المرحوم طه باقر والغرض من هذا التصويب هو المزامنة مع ما يستجد من بحوث ودراسات لغوية معجمية مشتركة بين العربية والأكدية.

6- ترجمة بعض الكتب المهمة التي تتناول قواعد اللغة الاكدية ، من لدن المختصين باللغات العراقية القديمة السومرية والبابلية والآشورية ، ومنها : كتاب : اللغة الاكدية (لمؤلفه ليبن)

LIPIN (THE AKKAD AN LANGUAGE).

7- الإكثار من الدراسات اللغوية المعجمية المشتركة بين السومرية والعربية فضلاً على اشتراك ألفاظ هذه اللغات العراقية الثلاث في مابينها لفظاً ومعنى ، لما اثبتته هذه الرسالة وما تلحقها من دراسات لغوية مشتركة بين اللغات المسمارية القديمة وبين العربية.

8- الإكثار من البحوث والدراسات حول موضوع النقوش واللهجات الجنوبية الحميرية واليمنية ، وعدم الاقتصار على ما ذكرته كتب اللغات السامية واللهجات لنقشي النمارة وحران ، إذ إن هناك نقصاً كبيراً من حيث الدراسات اللغوية التاريخية المختصة للهجات الجنوبية لغةً ونحواً وصرفاً ودلالة ، والمقابلة بينها وبين ألفاظ العربية الشمالية.

9- الاكثار من الدراسات اللغوية المشتركة بين العربية واللغات العربية القديمة الأُخر ، ومنها : السُريانية والاوغاريتية والحبشية.

الملحقات / خرائط

ملحق رقم (1)

ملحق رقم (2)

المصادر و المراجع

القرآن الكريم

أ) المصادر و المراجع

- الآداب السامية مع بحث مستفيض عن اللغة العربية (محمد عطية الابراشي) ، دار الحداثة ، بيروت ، 2007 .
- بابل تاريخ مصور (جون اوتس ، ترجمة : سمير عبد الرحيم الجلبي ، دائرة الآثار و التراث ، بغداد ، 1990 .
- ترتيب كتاب العين للخليل بن احمد الفراهيدي ت 175هـ ، تحقيق : الدكتور مهدي المخزومي ،و الدكتور ابراهيم السامرائي ، تصميم الاستاذ اسعد الطيب ، مؤسسة الميلاد ، باقري ، قم ، ج2 ، ط1 ، 1414 هـ.ق .
- التفسير الكبير (الإمام فخر الدين الرازي ابو عبد الله محمد بن عمر حسين القريشي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1425هـ 2004 م .
- تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية مع ذكر اصلها بحروفه ، عنى بنشره و تصحيحه و تعليق حواشيه : الشيخ يوسف توما البستاني ، صاحب مكتبة العرب بالفجالة ، مصر ط2 ، 1932 .
- ثلاثة كتب في الحروف (الخليل بن احمد و ابن السكيت الرازي) ، تحقيق :د.رمضان عبد التواب ، القاهرة ، 1982 .
- دراسة الصوت اللغوي : د.احمد مختار عمر) ، القاهرة ، 1976 .
- الرافدان : موجز تاريخ العراق منذ اقدم العصور حتى الآن (سيتن لويد) نقله الى العربية طه باقر و بشير فرنسيس ، نقله الى العربية بأذن المؤلف و الناشرين اصحاب مطبعة جامعة اكسفورد ، 1934 .

- الساميون في العصور القديمة (محمد عبد القادر) ، مطبعة النهضة ، 1968 .
- فقه اللغات السامية (كارل بروكلمان) ، ترجمة د.رمضان عبد التواب ، جامعة الرياض 1977 م .
- الفلسفة اللغوية و الألفاظ العربية (جرجي زيدان) ، طبعة جديدة راجعها و علق عليها د.مراد كامل ، دار الهلال ، 1904 .
- الكنز اللغوي في اللسن العربي ، (و فيه كتاب القلب و الابدال لأبن السكيت و كتاب الابل رقم (1) للأصمعي ، و الأبل رقم(2) للأصمعي ، و كتاب خلق الإنسان للأصمعي ، تحقيق : أوغست هفنر (معلم اللغات السامية) ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، 1903 .
- لسان العرب لأبن منظور (630 – 711 هـ) ، دار احياء التراث العربي للطباعة و النشر و التوزيع ، مؤسسة التاريخ العربي . تصحيح : امين محمد عبد الوهاب و محمد الصادق العبيدي ، ط3، بيروت ، لبنان ، 1986 .
- اللغات السامية (تيودور نولدكة) ، ترجمة عن الألمانية : د.رمضان عبد التواب ، الناشر : مكتبة دار النهضة العربية ، مطبعة الكمالية ، ط2 ، 1963 .
- مبادئ اللغة (الشيخ الإمام ابي عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الأسكافي ت421هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت –لبنان ، ط1 ، 1405هـ–1985م .
- المزهر في علوم اللغة و انواعها (العلامة عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ت 911هـ ، شرحه و ضبطه و عنون موضوعاته و علق حواشيه : محمد احمد جاد المولى و علي محمد البجاوي و محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار احياء الكتب العربية عيسى الحلبي و شركاه ، ج1–2 ، د.ت .
- مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة (الوجيز في تاريخ حضارة وادي الرافدين)(طه باقر) ، ج1 ، بغداد ، 1955 .
- المعرب من كلام الأعجمي على حروف المعجم ابو منصور الجواليقي ، موهوب بن احمد بن محمد بن الخضر ت539هـ ، تحقيق احمد محمد شاكر ، 1969 .

- معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين احمد بن فارس بن زكريا ت 395 هـ ، بتحقيق و ضبط عبد السلام محمد هارون ، دار الكتب العلمية اسماعيليان نجفي ، ايران ، قم ، ج5 ، د.ت
- معجم المصطلحات و الأعلام في العراق القديم (حسن نجفي) ، طبع الدار العربية ، بغداد ، ط1 ، 1982 ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، 1980 .
- الموجز في تاريخ الحضارة و الثقافة ، مطبعة دار التأليف ، 1379هـ – 1959 م .
- موجز في تاريخ العلوم و المعارف في الحضارات القديمة و الحضارات العربية الاسلامية (طه باقر) ، مطبعة جامعة بغداد ، 1980 .
- من تراثنا اللغوي القديم(طه باقر) ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد 1980 .
- نظام التعليم في العراق (جمال اسد مزعل) ، مديرية دار الكتب للطباعة و النشر ، جامعة الموصل ، 1410هـ – 1989 م .

ب) الدوريات و البحوث و الدراسات

- الأصول الأكدية لعدد من المفردات والمصطلحات المندائية (دراسة صبيح مدلول السهير) مجلة المورد ، مجلد /19 ، ع/1 ، 1410هـ – 1990 م)
- حول اللغة العربية الفصحى و اللهجات العربية واللغة العربية الأم (فرنديم) ، ،مجلة كلية الآداب ، بيروت ، 314 ، 1983 .
- دراسة في النباتات المذكورة في المصادر المسمارية (طه باقر) ، مجلة سومر مديرية الآثار القديمة العامة ، بغداد ، مجلد 9 ، ج2 ، 1953 .

ج) المصادر الأجنبية

- AKKA DISCHES HAND WÖRTERDUCH : WOLFRAM VON SODEN VOL / 1979 = A.H.W 9,10,14(1979) .
- THE ASSYRIAN DICTIONARY OF THE ORIENTAL INSTIT UTE OF THE UNIVERSITY OF CHICAGO , CHICAGO , VOL / =7(1960) 10(1977) C.A.D .

الطبيعة ومشاهدها التصويرية في خطب الإمام علي –عليه السلام–
" دراسة تحليلية "

أ.م.د سعاد بديع مطير
جامعة واسط/ كلية التربية / قسم اللغة العربية

الملخص

يهدف البحث إلى تحليل المشهد الطبيعي في خطب الإمام علي عليه السلام؛ للتعرف على الجانب الجمالي فضلاً عن الجانب المعرفي . فقد استعار الإمام من عالم الحيوان ، وعالم النبات ، وعالم الفلك والكون وما يحيط به صوراً في ترجمة أسرار الكون الذي نعيش فيه . أو لتعليم درس التوحيد ، ومعرفة الله تعالى ، وفهم أسماء وصفات الحق سبحانه وتعالى ، أو ليطلع الآخرين على جانب من أسرار المعاد وغير ذلك .

والإمام علي –عليه السلام – هو ربيب الفصاحة والبلاغة ، بأسلوب طرحه، وفصاحة كلماته ، وحقائق معارفه . وهو ينبوع العلم والمعرفة ، تتدفق منه أسرار العلوم ، ومكامن الوجود . ولهذا أتت خطبه محملةً بالعلوم الدينية ، والتربوية ، والعلمية ، والهندسية . متخذاً من الطبيعة ، ومشاهدها ، ودقائقها فضاءً يسبح فيه خيال المخاطب في بعض خطبه من دون ان ينفي هذا المشهد الطبيعي الحقيقة الكونية ، أو الحقيقة العلمية فضلاً عن الحقيقة الجمالية.

ومن أبرز ماتوصل إليه البحث إنّ الطبيعة بمشاهدها التصويرية المختلفة في خطب الإمام جاءت عفوية نابعة من ثقافته المعرفية من دون تكلف أو تصنع . فضلاً عن استمداد عليه السلام صوره من مظاهر الطبيعة ، وظواهرها الكونية والطبيعية كالفلك والنجوم والإمطار والسحاب والسماء وماشابه ذلك من الظواهر المتعلقة بالعالم الأعلى. ليثبت من خلالها إدراكه للعالم والأمور الغيبية التي استمد معرفتها من الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم)، عن جبريل ، عن الله سبحانه وتعالى .

"The Depiction of Nature in the Speeches of AL- Imam Ali (Peace be upon him) " Analytical Study"

Asst . Prof.Suaad B. Mutair

Abstract

The aim of research is to analyze the natural scene in the speeches of AL- I mam Ali (pbuh) to identify their aesthetic and cognitive aspects. AL-Imam has adopted images derived from the different worlds of animals, plants; eel steal spheres, and the

universe. He utilizes these images to reveal secrets of the universe, to teach monotheism, to identify Allah (the Almighty) to understand his attributes, and to declare some of the secrets of restoration beside other matters connected to such subjects. AL- Imam Ali is known as the master of eloquence .a matter which is clear in his mastery of presentation , eloquence of words ,and the originality of his Knowledge. He is fountain from which rivers of knowledge spring and secrets of existence flow . thus , his speeches are all rich in religious educational, scientific and geometrical knowledge that is derived from natural scenes to create layers of space that widens the scope of imagination of the addressed . this imam usage of natural scenes and imagination does not conceal the universal , scientific and the aesthetic polygonal facts. The prominent conclusion of this research is that the depiction of nature and its various scenes in the speeches of AL- Imam ali all overflow from his ocean knowledge in a natural not an artificial process. Besides , he has utilizes his imagery from the phenomena of nature and all its parts and manifestations such as celestial sphere , stars , rain ,clouds, and all that is violated to the other world .this proves his knowledge and recognition – of this world and the other – whose source is the knowledge of prophet Muhammad ,knowledge of Galoriel, and as a result the knowledge of allah the almighty.

المقدمة

الحمد لله ربّ الأرض والسماء ، ناصر المؤمنين قاهر الأعداء ، والصلاة والسلام على خير خلقه أبي القاسم محمد ، وعلى آله الطيبين ، وأصحابه الغر المنتجبين.

وبعد.... .

فإنّ الإمام علي –عليه السلام – هو ربيب الفصاحة والبلاغة ، بأسلوب طرحه ، وفصاحة كلماته ، وحقائق معارفه . وهو ينبوع العلم والمعرفة ، تتدفق منه أسرار العلوم ، ومكامن الوجود .

وقد أتت خطبه محملةً بالعلوم الدينية ، والتربوية ، والعلمية ، والهندسية . متخذاً من الطبيعة ، ومشاهدها ، ودقائقها فضاءً يسبح فيه خيال المخاطب في بعض خطبه ، من دون ان ينفي هذا المشهد الطبيعي الحقيقة الكونية ، أو الحقيقة العلمية فضلاً عن الحقيقة الجمالية.

ونحن في بحثنا عن المشهد الطبيعي في خطب الإمام علي عليه السلام ، نهدف إلى التعرف على الجانب الجمالي فضلاً عن الجانب المعرفي في ظل الغاية التي هدف إليها النص . خاصة انه استعار من عالم الحيوان ، وعالم النبات ، وعالم الفلك ، والكون ومايحيط به صوراً في ترجمة أسرار الكون الذي نعيش فيه . أو لتعليم درس التوحيد ، ومعرفة الله تعالى ، وفهم أسماء وصفات الحق سبحانه وتعالى ، أو ليطلع الآخرين على جانب من أسرار المعاد وما شاكل ذلك.

وقد قسمنا بحثنا على محورين : تحدثنا في المحور الأول عن مهاد نظري للطبيعة والخطبة بمفهومهما اللغوي والاصطلاحي . ثم عرجنا بالحديث على صور المشهد الطبيعي في خطب الإمام علي عليه السلام. أما المحور الثاني فقد اختص بالجانب التطبيقي لنماذج من خطب الإمام علي (ع) ، ثم اتبعناهما بخاتمة وقائمة بالمصادر والمراجع .

المحور الأول

التمهيد النظري :

الطبيعة من الألفاظ التي لايحدها حداً لسعة مدلولها . وهذا ما أكده (كولنجوود)، في كتابه (فكرة الطبيعة)[1]. إلا ان هربرت ريد يقول عنها :" هي عملية الحياة ، والحركة العضوية بأكملها التي تشير في الكون ، وهي عملية تشمل الإنسان ، ولكنها لاتكترث بنزواته أو تأثيراته الذاتية ، أو تغيراته المزاجية "[2].

إذن فمفهوم الطبيعة " هو مفهوم فيزيائي ، وليس مفهوماً سيكولوجيا ، إلا أن التفاعل الذي يحصل بين الناس ، وهو يعيش في كنفها ومعها– أو مع أحد عناصرها أو ظواهرها – يحول الطبيعة ، مما هو فيزيائي ، إلى ما هو سيكولوجي . أي من الموضوعي إلى الذاتي "[3]. وهذا ما أكده الشاعر ورد زورث " الطبيعة تجسيم الروح القدسي "[4]. وقال ليونارد دافنشي " الطبيعة معلمة المعلمين جميعاً "[5]. مما يؤكد دور الطبيعة بكائناتها الحية ، وغير الحية في الحياة ، وتأثيرها في الإنسان .

مفهوم الخطابة :

الخطابة لغة : أُخذت لفظة الخطابة من قولهم :" خَطَبتُ أخطبُ خطابة ...وأشتُقَّ ذلك من (الخَطْب)، وهو الأمر الجليل ؛ لأنه إنّما يقام بالخُطب في الأمور التي تجلُّ وتعظم ، والاسم منها (خاطب) مثل راحم) فإذا جُعلَ وصفاً لازماً قيل:(خطيب)، كما قيل في راحم (رحيم)، وجُعل (رحيم) أبلغ في الوصف ، وأبين في الرحمة ، وكذلك لا يُسمّى خطيباً إلا من غلب ذلك على وصفه ، وصار صناعة له . والخُطبة الواحدة من المصدر.."[6]، و" المُخَاطَبة ، مُفَاعلة ، من الخطاب والمشاورة "[7]. والخطابة" إذا جمعتها قلت: (خُطَب)مثل (جُمْعَة) و(جُمَع) "[8].

أمّا اصطلاحاً:

---

[1])فكرة الطبيعة ، كولنجوود ، تر : احمد حمدي محمود .
[2]) تعريف الفن ، هربرت ريد ، ترجمة وتحقيق : ابراهيم امام . و مصطفى رفيق الأرنؤوطي :21.
[3]) الطبيعة في شعر ابي تمام : 20.
[4])نقلاً عن شعر الطبيعة في الأدب العربي ، سيد نوفل : 12
[5]) نفسه: 14.
[6])البرهان في وجوه البيان ، ابن وهب الكاتب ، تحق : د.أحمد مطلوب ،د. خديجة الحديثي ، ط1، مطبعة العاني ، بغداد ، 1967: 192-193.
[7])لسان العرب ، ابن منظور ، مادة (خطب):137/3.
[8])البرهان في وجوه البيان :193.

الخطابة هي " قياس مركب من مقدمات مقبولة ، أو مظنونة من شخص معتقد فيه . والغرض منها ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم ومعادهم كما يفعله الخطباء والوعاظ "[9].

وعرفها محمد أبو زهرة بأنها " الكلام المنثور المسجوع أو المزدوج ، أو المرسل الذي يقصد به التأثير والإقناع "[10].

فالخطابة ميدانها واسع ، وتحتاج إلى من يمتلك موهبة الخطيب القادر على التأثير في نفوس المُخاطبين . لأن من شروط المخاطبة أن يكون الكلام راسخاً " في نفوس المتكلم ، يقتدر بها على التصرف في فنون القول ، لمحاولة التأثير في نفوس السامعين ، وحملهم على مايراد منهم بترغيبهم وإقناعهم "[11].

ويعد الإمام علي (ع) خطيباً محنكاً . ويكفيه من الفخر أنه تربى في بيت النبوة ، واستقى من منبعها الصافي فكان خطيباً عالماً ، فقيهاً قاضياً ، بل أنه اعلم الناس بعد الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)،بالسُنّة بشهادة الصحابة الأبرار (عليهم السلام) [12].

والمقصود بـ(المشاهد الطبيعية) في المنظومة الخطابية لخطب الإمام (ع) أحد مستويات الأسلوب في" الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوع كان . وتلك المهمة ليست من شأن أي فن آخر"[13] .

إذن فالقيمة الأساسية للنص في خطب الإمام (ع) ، ماثلة في حضور الإبداع النصي في النشاط الفكري والكلامي له. من خلال رسم صوره الإبداعية بعفويته الثقافية من دون تأمل وتخطيط للوصول إلى المحطة الفنية .

---

[9])التعريفات ، السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني ، مكتبة لبنان ، بيروت ، 1985م : 104.
[10])الخطابة (أصولها ، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب)، محمد أبو زهرة ، ط1، مطبعة العلوم ، 1934م: 12.
[11]) الخطابة ، محمد أبو زهرة : 12.
[12])ينظر تاريخ الخلفاء ، جلال الدين السيوطي ، تحق: محمد محي الدين عبد الحميد ،ط3، مطبعة المدني ، 1964م:171.
[13])الخطابة ، أرسطو ، تر: عبد الرحمن بدوي ،ط2، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1986م: 209.

وتذهب خطب الإمام (ع) في جانبين : أحدهما : إن تكون مشاهد إجمالية . أي يتناول الكليات ، ثم يترك المخاطب يعيش المشهد ، ويندمج في حيثياته ليستخرج العلاقة . ويقف على مواطن الجمال فيه .

ثانيهما: هو المشهد الفسيح ، الذي لاتتقاصر الحدود أن تحيط به ، كما تتقاصر العين عن ان تسيطر عليه . فهي تعيش فيه ، ولكنها لا تهين عليه.

وكانت خطبه تنماز بقوة الملاحظة والدقة في أوصافها ، ووجودها . بما اشتملت عليه من أنواع الحيوانات مثل الإبل والفرس ، والعقاب والطيور وغيرها. أو بما تضمنته مظاهر الطبيعة ووجودها المتمثل في أنهارها ، وبحرها وسمائها، ونجومها ، وأفلاكها وغير ذلك .

وإذا تتبعنا الإغراض التي كانت خلف مشاهد الطبيعة التصويرية في خطب الإمام (ع)، ألفيناها تسير في اتجاهات شتى لتلتقي جميعاً في محطة العقيدة. فمثلاً المشهد الطبيعي يأتي اما للدلالة على الإلوهية ، أو الوحدانية، أو برهاناً على البعث ، أو للتذكير بنعم الله على الإنسان . أو لتبين علاقة الطبيعة بالله الخالق .وماشاكل ذلك من الموضوعات التي تصب في النهاية في بحر العقيدة الإسلامية.

وسنبحر مع نماذج من خطب الإمام علي عليه السلام لنقف عند الطبيعة بصورها ، ومظاهرها الكونية في صياغة معانيه ، ورسم مقاصده الدلالية والمعرفية.

المحور الثاني:

– الجانب التطبيقي :

استمد الإمام علي (ع) ، من الطبيعة ومظاهرها الكونية ، والفلكية صوراً ومشاهداً عكست نبوغه الثقافي ، والبلاغي في الصياغة والأسلوب لتحقيق الغرض الذي يصبو إليه في كل خطبة . لاسيما ان خطبه جاءت بموضوعات متفاوتة وبأهداف سامية ، ومعارف علمية دقيقة وعلمية . ونابعة من الحقيقة والواقع لا من الوهم والخيال .

وقد شكل اغلب صوره من عوالم المتلقين ، وتجاربهم وممارستهم المعيشية ، ومشاهداتهم العينية . فقد توزعت بين عالمين رئيسيين تتفرع عنهما عوالم أخرى وهما :

عالم المحسوسات الذي يدخل ضمنه ، عالم الحيوان ، وعالم النبات ، وعالم الفلك والهيئات من الاجرام السماوية.

صورة الحيوان :

عالم الحيوان من المصادر الذي " استقى منه علي بن أبي طالب صوره ، والحيوان كائن متحرك ذو شعور ، تتنوع مظاهر القوة والضعف فيه من جنس إلى آخر من أجناس الحيوانات "[14].

و" يعد عالم الحيوان أحد أبرز العوالم التي استقى منها الإمام علي صوره ، وليس أي حيوان ، إنه الحيوان المعروف والمألوف لدى عامة مخاطبيه ألا وهو الجمل والناقة والإبل"[15] والطيور والزواحف والحيوانات المفترسة.

ومن الأمثلة البيانية على ذلك قوله في تشبيه أصحابه المتقاعسين عن الحرب والجهاد معه بصورة الجمل الأسر والنضو الأدبر " دعوتكم إلى نصر إخوانكم ، فجرجرتم جرجرة الجمل الأسر، وتثاقلتم تثاقل النضو الأدبر، ثم خرج إليّ منكم جُنيد مُتذائب ضعيف ، كأنّما يُساقون إلى الموت وهم ينظرون" [16].

وقال في توبيخ أصحابه من أهل الكوفة على التباطؤ عن نصرة الحق : "تُربت أيديكم ! يا أشباه الإبل غابَ عنها رُعاتها ! كُلما جمعت من جانب تفرقت من آخر" [17].

شبه الإمام علي (ع) ، تفرقهم وفورهم ، وضعفهم واضطرابهم وازدراء العدو بهم بالإبل التي غاب عنها رعاتها فلا هادي يهديها ، ولا جامع يجمعها ولا حارس

[14])حجاجية الصورة الفنية في الخطاب الحربي خطب الإمام علي إنموذجاً ، د. علي عمران : 175.
[15])حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الامام علي عليه السلام ، د. كمال الزماني :176.
[16]) ينظر شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد :2/ 300 -301.
[17])نفسه : 71/7.

يرعاها . متخذا صوره من أسلوب التشبيه التمثيلي وأخضعها لمقصديته الدلالية في ذم المتخاذلين.

وقوله كذلك في حرب صفين : "تُركب أولاهم أخراهم كالإبل الهيم المطرودة عن حياضها وتذاد عن مواردها "[18].

إنّ بناء الإمام علي لمادة صوره انطلاقاً من هذا الحيوان لم يكن بشكل اعتباطي ، بل كان لغرض حجاجي يتمثل في جذب واستمالة المخاطبين ، وحملهم على الإذعان للمراد منهم ، وذلك باستغلال العلاقة الخاصة التي تربطهم بالجمل ، فالإبل – بحسب أبن عاشور– تمثل " أموالهم ورواحلهم ، ومنها عيشهم ولباسهم ونسج بيوتهم ، وهي حمالة أثقالهم ...وكم قد جرى ذكر الرواحل ، وصفاتها وحمدها في شعر العرب ، إذ لاتكاد تخلو قصيدة من طوالها عن وصف الرواحل ومزاياها "[19].فضلاً عن ذلك فقد ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز ، في قوله تعالى " أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت "[20].

إذن كان خطاب الإمام للناس بالصور المتعارفة عندهم ، ولهذا شبه الصوت الذي يصدره أتباعه عند تثاقلهم في الحرب ، بصورة جرجرة الجمل الأسر ، وهو الصوت الذي " يردده البعير في حنجرته ، وأكثر ما يكون ذلك عند الإعياء والتعب"[21] .والضجر[22]. ثم قرن هذه الجرجرة بتشبيه بليغ بوصفهم بالجمل الأسر : " أي المصاب بداء السرر ، وهو مرض في الكركرة ينشأ من الدبرة "[23] . ولم يكتف بذلك بل وصفهما بـ (الجمل الأسر–النضو الادبر) . النضو الأدبر وهي " الدابة التي هزلتها الأسفار وأذهبت لحمها "[24]. والأدبر من الدّبر :" الجرح الذي يكون في ظهر البعير"[25].

---

[18])نفسه : 7/ 179.
[19]) التحرير والتنوير ، ابن عاشور، الدار التونسية للنشر – تونس ، 1984م : 3/ 305.
[20])سورة الغاشية ، آية: 17.
[21])ينظر شرح نهج البلاغة ، ابن ابي الحديد : 2/ 301.
[22]) لسان العرب ، ابن منظور ، مادة (ج ر ر) .
[23])نهج البلاغة ، محمد عبدة .
[24])نفسه مادة (ن ض ا) .
[25])لسان العرب، مادة (دبر) : 3/ 290.

إنّ أداة التشبيه " رابط لفظي يعقد به المتكلم علاقة المشابهة بين الطرفين . وهي علامة على التكافؤ غير تام "[26].فجرجرة الجمل غير جرجرة المسلمين، وتثاقل النضو الأدبر غير تثاقلهم وانجحار الضبة والضبع غير انجحارهم ، وإنّ معاني الأفعال وردت على المجاز بينما معاني المصادر وردت على الحقيقة وهي استعارات. وهنا تكثيف في الصورة التي اختلطت فيها الاستعارة بالتشبيه البليغ ؛ للدلالة على الجبن والخوف والرفض للجهاد . وهو بلا شك مقصد حجاجي لذلك قال عبد القاهر الجرجاني " واعلم أنّ مااتفق العلماء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني وبرزت هي باختصار في معرضه...إن كان حجاجا كان برهانه أنور وسلطانه أقهر وبيانه أبهر"[27]

فهذا المشهد بمواصفاته المتباينة جاء لخدمة النص في بيان الحال الذي هم عليه من تثاقل وتذمر من القتال ." إضافة إلى ذلك ، فقد عمد الإمام علي إلى تصوير حالة نفور أهل الكوفة من الجهاد ، وعدم استجابتهم له بصورة الإبل التي غاب عنها رعاتها ، كلما جمعت من جانب ، تفرقت من آخر . وكذا تشبيه أعدائه بالإبل المطرودة التي تكون شديدة العطش فتحاول جاهدة أن تصد وتمنع غيرها من الوصول إلى مواردها "[28]. وبذلك كان حجاجه ذا " بداية قوية ونافذة "[29].فمحتوى خطبته أو مضمون لغته التي بني عليها صوره لايستطيع ان يجادل في محتواها أحد .

فقال في خطبته يصف أصحابه بصفين ، حين طال منعهم له من قتال أهل الشام :" فتداكوا عليّ تداك الإبل الهيم يومَ وردها ، وقد أرسلها راعيها وخُلعت مثانيها حتى ظننتُ أنهم قاتلي ، أو بعضهم قاتل بعض لديّ"[30].

صور الإمام علي المسلمين بالإبل العطشى . وهي حالة تنم عن الحالة الشديدة والملحة إلى الماء . والماء يكون بالارتواء في حالة البيعة للإمام .

---

[26])دروس في البلاغة العربية ، الأزهر الزناد :17.
[27])اسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني: 145-147.
[28]) حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الامام علي عليه السلام : 177.
[29])الحجاج في البلاغة المعاصرة، محمد سالم محمد الأمين : 111-112.
[30])شرح نهج البلاغة :

اذن فهم يطلبون منه البيعة . إذ كانت الأيام التي سبقته أيام جفاف وعطش.

وقال الإمام في إحدى خطبه:" اللّهمَّ فَارحَمْ أَنِينَ الآنّة وحَنِينَ الحَانَّةِ!"[31].

حصل جناس بين لفظتين :"أنين – حنين" فالهمزة والحاء في هاتين الكلمتين تُعدان من "الأصوات الحلقية"[32]. فالهمزة صوت حنجري يتميز بكونه شديداً ومهموساً ومرققاً[33].وأفاد دخوله على اللفظة خلق معنى يختلف عن اللفظة التي بعدها حيث أفادت معنى المرض والألم والتعب الذي تعانيه الشياه والتي رمز لها بـ (الآنة) ، والحاء " يتميز بكونه صوت صامت احتكاكي مهموس" [34]. فصور لنا حالة الاشتياق وتوقان النفس من خلال الصوت الذي تطلقه النياق بعد عودتها إلى مراعيها فلا تجد ما كانت تعتاد عليه من مأكل ومشرب. وخطب الإمام حين بويع في المدينة ، والذي يُعد من غرر كلامه بقوله :" ألا وإنّ الخَطَايا خَيْلٌ شُمُسٌ حُمِلَ عَلَيْهَا ، وَخُلِعَتْ لُجُمُها ، فَتَقَحّمَتْ بِهِمْ فِي النّارِ . ألا وإنّ التّقوى مَطَايَا ذُلُلٌ ، حُمِلَ عَلَيْها أَهْلُها ، وأعْطُوا أزِمّتَهَا ، فأوْرَدَتْهُمُ الجّنّةَ حَقَّ وَبَاطِلٌ وَلِكُلّ أَهْلٌ "[35].

صور الإمام في الفقرة السابقة لفظ الخيل للخطايا إذ وصفها وصفا منفراً وهو الشُمُوس ، والشيء المانع من الركوب كون هذه الخيل مع شموسها مخلوعة اللجم " ووجه الاستعارة ظاهر فإن الفرس فرس الشموس التي خلع لجامها لمّا كانت تقتحم براكبها المهالك ، وتجري به من غير نظام فكذلك راكب الخطيئة لما جرى به ركوبها على غير نظام الشريعة ، وخلع بذلك لجام الأوامر الشرعية وحدود الدين "[36]. والحال نفسه باستعارة لفظ المطايا لغرض وصف الحسن الموجب لكونها ذُللا ، وكيف أنه أشار بالأزمة إلى حدود الشريعة التي يلزمها صاحب التقوى ولا يتجاوزها[37].

---

[31]) شرح نهج البلاغة:205/7.
[32])الأصوات اللغوية: 176.
[33])ينظر مناهج البحث في اللغة ،د. تمام حسان :125.
[34])ينظر علم الأصوات :126.
[35])شرح نهج البلاغة: 253/1.
[36])شرح نهج البلاغة : ابن ميثم البحراني :1/ 301.
[37])شرح نهج البلاغة: 301/1.

وقد وظف حيوانات أخرى في بناء مشاهد صوره ، ومن ذلك مثلا قوله : –لما أنفذ عبد الله بن عباس إلى الزبير قبل وقوع الحرب يوم الجمل :" لاتلقين طلحة ، فإنك إن تلقه تجدهُ كالثور عاقصا قرنه يركب الصعب "[38].

وقوله لما أشير عليه بألا يتبع طلحة والزبير ، ولا يرصد لهما القتال : " والله لا أكون كالضبع تنام على طول اللدم ، حتى يصل اليها طالبها ويختلها راصدها" [39].

وقوله في ذم أهل البصرة : " كأني انظر إلى قريتكم هذه قد طبقها الماء، حتى ما يُرى منها إلا شرف المسجد كأنّه جؤجؤ طيرٍ لجة بحر"[40].

وقوله أيضاً في الخطبة نفسها : " وايم الله لتعرفن بلدتكم حتى كأني انظر إلى مسجدها كجؤجؤ سفينة أو نعامة جاثمة" [41].

وقوله في ذم أصحابه : "كُلما أطلّ عليكم منسر من مناسر أهل الشام أغلق كلّ رجلٍ منكم بابه ، وانجحر انجحار الضبة في جُحرها والضبع في وجارها"[42].

" ففي هذه الأمثلة جميعها بني الإمام علي عليه السلام مادة صوره انطلاقاً من عالم الحيوانات كالثور والضبع والسبع والذئب ، والضبة . وهي حيوانات لم تكن من وحي خياله ، بل كانت حيوانات معروفة عند المخاطبين آنذاك ، وخاصة صفات كل واحد منها.

ففي المثال الأول ، شبه الإمام علي شراسة خلق طلحة بالثور الذي يعطف قرنه استعدادا للمواجهة . أما في المثال الثاني فإنّه عليه السلام يرفض أن يكون حاله كحال الضبع التي تنام طول الوقت حتى إذا سمعت صوت حجر ، أو عصا ، أو غيرهما خرجت – من شدة حماقتها– فيصطادها مترقبوها . وهو بذلك إنما يبعث رسالة غير مباشرة إلى أصحابه يذم من خلالها حالة الجبن والخوف التي هم عليها ، إذ كلما دعوا إلى الجهاد والحرب فروا ، واستأثروا في بيوتهم كما تستأثر الضبة

[38])شرح نهج البلاغة : 2/ 162.
[39])شرح نهج البلاغة : 1/ 223.
[40])نفسه.
[41]) نفسه.
[42])نفسه: 6/ 102.

في جحرها ، والضبع في وجارها. أما في المثالين الأخيرين ، فإن الإمام علي عليه السلام ينزع إلى استنباط مادة صوره من نوع آخر من الحيوانات ألا وهو الطيور ، حيث شبه مسجد البصرة ، وقد غمرها الماء حتى لم يعد يرى منها الا هذا المسجد بصورة صدر نعامة ، أو طائر وسط عرض البحر"[43].

والملاحظ في هذه التشبيهات انها تنطلق دائما في إخراج الأشياء اعتمادا على ماهو واقع ومعروف ، ويحظى بالموافقة العامة عند المخاطبين جميعهم . فالكل يعرف أن الثور إذا عطف قرنه إلى الأسفل فإنه يكون في حالة شرسة ، والكل يعرف كذلك صفات الضبع ، والضب المتمثلة في الخوف والبلادة والغباء . وفي هذا يقول الجاحظ واصفاً الضب :" ولّما علم أنّه نَسّاء سيء الهداية ، لم يحفر وجاره إلاّ عند أكمة ، أو صخرةٍ ، أو شجرة ، ليكون متى تباعد من جُحره ، لطلب الطُّعم ، أو لبعض الخوف فالتفت ورآه ، أحسن الهداية إلى جحره ، ولأنّه إذا لم يُقم علماً فلعلّه أن يلج على ظربانٍ ، أو وَرَل، فلا يكون دون أكله له شيءٌ[44].

إنّ صورة الضبع والضب هي بدون شك صورة الجبان الخائف . ولذلك فمن أراد ان يغير هذه الصورة فما عليه إلا أن يتخلى عن جبنه وخوفه ، ويذعن لما يطلب منه ، وبهذا الإذعان تكون الصورة قد حققت هدفها الحجاجي المرغوب فيه ،لأن غاية الحجاج – حسب بيرلمان – " ان يجعل العقول تذعن لما يطرح عليها أو يزيد في درجة ذلك الإذعان "[45].

وقال في وصف حاله في إحدى خطبه عندما أُشير عليه ألا يتبع طلحة ، ولايرصد لهما القتال :" واللهِ لا أكون كالضّبُع تَنَامُ على طُول اللَّدْم حتّى يَصِلَ إليْها طَالبُها ، وَيَخْتلَهَا رَاصِدُها ، وَلكنّي أضْرِبُ بالمُقْبِلِ إلى الحقّ المُدْبِرَ عنهُ ، وبالسَّامِعِ المُطيعِ العَاصِي المُرِيبَ أبداَ حتّى يأتي عليَّ يومي.."[46]. رفض الإمام أن يقعد عن الحرب

---

[43])حجاجية الصورة في الخطابة السياسية: د. كمال الزماني: 179-180.

[44])الحيوان ، الجاحظ، تحق : عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ، 1996م: 6/ 42.

[45]).Chaim Perlman et Lucie Oibrechts Tyteca; Trahte de l argumentation, op.cit.p;59

[46]) الخطبة : 6.

وعن الانتصار لحقه فشبه حالته مع أعدائه في العجز والتسليم كحالة الضبع مع صائدها حالة النوم والعجز والوقوع في حبالته.

ومن خطبة له (ع) ، في التزهيد بالدنيا ، وثواب الله للزاهد ، ونعم الله على الخلق " فوالله لو حننتم حنين الوُلد العِجال ، ودعوتم بهديل الحمام ، وجأرتم جُؤار مُتبتل الرُّهبان ، وخرجتم إلى الله من الأموال والأولاد التماس القربة إليه في ارتفاع درجة عنده ، أو غفران سيئة أحصتها كتبه ، وحفظها رسله لكان قليلا فيما أرجو لكم من ثوابه وأضاف عليكم من عقابه "[47]

وقال عليه السلام "إيّاكُم والفُرْقَةَ ، فإنّ الشَّاذَّ مِنَ النّاسِ للشَّيْطَانِ ، كَمَا أنَّ الشَّاذَّ مِنَ الغَنَمِ للذِّئبِ. ألا مَنْ دَعَا إلى هذا الشِّعارِ فَاقْتُلُوه ، ولو كانَ تَحْتَ عِمامَتي هذه "[48].

جاءت خطبة الإمام عليه السلام رداً على ماقام به الخوارج مع المسلمين من قتل ودمار من جهة ، ومن تفريق في صفوف المسلمين من جهة أخرى.

ولهذا ابتدأ الإمام خطبته محذراً من الفرقة . معللاً سبب ذلك بصورة تشبيهية في كون الشاذ من الناس مثل الشاذ من الغنم . ووجه الشبه بين الصورتين الهلاك كون الأول يفترسه الشيطان ، والثاني يفترسه الذئب .ولهذا جاء أسلوب الالتفات الذي استخدمه ليمنع حدوث مثل هذا الأمر . من خلال الانتقال من الفعل الماضي (دعا) إلى فعل الأمر (اقتلوه).

وقال عليه السلام :"فَالطَّيْرُ مُسَخّرَةٌ لأمْرِهِ ،أحْصَى عَددَ الريش مِنْها والنفس، وأرْسَى قَوائِمَهَا على النّدى واليَبَسِ"[49].

تحدث الإمام عليه السلام في خطبة طويلة عن أصناف الحيوانات ، وعن كيفية خلقها لايجاريه احد أو يماثله بالخلق ، ثم بين ماوهب الله لها من أشياء يقف العقل مذهولا حائرا أمام خلقه سبحانه . ثم ينتقل إلى وصف الطير ، ومامنحها الله

[47])شرح نهج البلاغة :
[48])شرح نهج البلاغة : 8/ 91.
[49])شرح نهج البلاغة: 51/13.

من قدرة تتجلى في إيهام التضاد الحاصل بين لفظتي (الندى واليبس). فالندى ضد اليبس ظاهراً .لأن الندى من جنس الماء مبالغة للقدرة التي منحها الله لمخلوقاته . والمقصدية من وراء ذلك تبيين ان الله عز وجل أرسى قوائم بعض من هذه الطير على الماء ، وأخرى على الأرض.

ومن ذلك قوله عليه السلام عندما وصف أصحاب رسول الله (ص) ، لأتباعه من المتثاقلين عن القتال : إذا ذُكر الله وجلت هملت أعينهم حتى تبُلّ جيوبهم ومادوا . كما يميد الشجر يوم الريح العاصف خوفاً من العقاب ورجاءً للثواب[50]. " ففي هذا المثال يصور الإمام علي لأصحابه حركة أصحاب رسول الله (ص)، واضطرابهم عند سماعهم لذكر الله تعالى بحركة الأشجار يوم الريح العاصف . وهي صورة استوحاها مما يعرفه مخاطبوه ، ويشاهدونه في حياتهم المعيشية ، فكلهم يسلمون بأنه في اليوم الذي تهب فيه الريح العاصفة فإن الأشجار تعرف اضطراباً كبيرا في حركتها يجعلها تميل تارة إلى اليمين ، وتارة إلى اليسار ، وتارة إلى الشمال ، وتارة إلى الجنوب.

لايمكننا نفهم دلالات ومقاصد هذه الصورة الطبيعية العميقة عند الإمام علي إلا بالنظر الدقيق في المقام الذي قيلت فيه. فهي جاءت في مقام التأنيب الذي قامت عليه الخطبة ، وذلك حينما كان الإمام علي يحث أصحابه على وجوب طاعته مبيناً لهم أن : أهل الشام لا بد أن يظهروا على أهل العراق ليس لأنهم على الحق ، وأهل العراق على الباطل بل لأنهم أطوع لأميرهم [51]. فمدار النصر – عند الإمام علي– على الطاعة التي لا بدّ أن يسلم بها كل مخاطب ، كما يسلم بخضوع الشجر للريح العاصف .

صورة الأفلاك والاجرام السماوية :

يتحدث الإمام (ع) في خطبة له عن الأمانة :" ثُمّ أداءَ الأمانةِ ، فقدْ خَابَ مَنْ ليسَ مِنْ أهلِها إنّها عُرِضت على السّمواتِ والأرضيين المدْحَوةِ ، والجبالِ ذاتِ

[50])شرح نهج البلاغة : 7/ 77.
[51])نفسه: 7/ 72.

الطُّولِ المنصُوبةِ ، فلا أطولَ ولا أعرضَ ، ولا أعلى ، ولا أعظمَ مِنْها. ولو أمتنعَ شيءٌ بطولٍ أو عرضٍ ، أو قُوةٍ ، أو عِزّ، لامتنعن ، ولكن أشفَقْنّ مِنَ العُقُوبة ، وعقلنَ ما جهلَ مِنْ هُوَ أضعفُ مِنهُنّ ، وهو الإنسان "إنّهُ كَانَ جَهولا " "[52].

يصور المشهد لنا كيفية عرض الأمانة على أعظم مخلوقات الله شكلا وحجما (السموات ، والارضين ، والجبال). وقياس الإنسان بها لا شيء من جهة القوة . فرفضن حملها ، ليس آباء ، أو استكبارا بل لقصورها ، وعدم صلاحيتها لحمل هذه الأمانة . ولهذا قال:(أشفقن من العقوبة) وهو لفظ مجازي فإطلاق" الإشفاق هنا على إباء السماوات والأرض بلسان حالها مجازاً إطلاقاً لأسم السبب على المسبب . وقيل :إن ذلك الإباء والإشفاق على وجه التقدير ، وإنما جيء بلفظ الواقع لأن الواقع أبلغ من المقدّر"[53]. وقوله (عقلن) أي كان لهن عقل في تمييز الصواب من الخطأ فهو يصور لنا " الأجرام العلوية التي لا أعظم منها قد امتنعت من حمل هذه الأمانة حين عرضت عليها فكيف حملها من هو أضعف منها "[54].فكان الجواب مستوحي من قول الله عز وجل :" إنّه كانَ ظَلُوماً جَهُولاً "[55].

يصف الإمام حال السماوات وكيف رفعها الله بدون عمد في إحدى خطبه قائلا :" جَعَلَ سُفلاهُنَّ مَوْجَاَ مَكْفُوفاً ، وعُلْيَاهُنّ سَقْفاً مَحْفُوظاً"[56].

إنّ تصوير السموات يلغي حدود البعد المكاني . إذ لاتحده الابعاد والأطر . فالرفع هنا يتناسب في علة مع سعة السقف المرفوع . وكأن البصر ينظر في هذا الارتفاع فيتلاشى قبل بلوغ أدنى غاياته . وهذه معجزة الله في خلقه. إذ اعتاد الإنسان يرفع مايريد رفعه بأعمدة ، أو وسائط ، ولكنّ السموات رفعت بغير عمد . وبذلك يتكون لنا مشهد تصويري جميل يصف فيه حال الإنسان وهو يرفع رأسه لينظر للسماء وكأنه تنبه إلى حال هيأة السماء من أول أمر . يرى فيها قدرة الله وحكمته وإرادته .

---

[52])شرح نهج البلاغة: 10/ 158-159.
[53])شرح نهج البلاغة ، ابن ميثم البحراني : 3/ 467.
[54])المصدر نفسه .
[55]) سورة الأحزاب ، آية : 72.
[56]) شرح نهج البلاغة : 101/1.

وقال في احد اسطر خطبته :" أرضكم قريبة من الماء بعيدة من السماء...."[57]. انها لوحة آلهية لاتحدها الحدود في الكم والكيف ، يسرح فيها خيال المتأمل بعيداً بعيداً . كما يسرح البصر حراً طليقاً.

وقال عليه السلام :" أيُّهَا النّاسُ، إيّاكُم وَتَعَلُّمَ النُّجُومِ إلاّ مَا يُهْتَدى بِهِ في بَرّ أو بَحْرِ فَإنها تَدْعُو إلى الكَهَانَةِ "[58].حذر الإمام الناس من الركون إلى النجوم والكواكب في الأمور الغيبية أو ممن يروجون لها في كل الأوقات والخوف منها بوساطة لفظة " إياكم " التي تدل على التحذير أي تقدير الكلام : جنبوا أنفسكم تعلم النجوم. لأنها تدعو إلى الكهانة ، وهؤلاء يزعمون أنهم يعلمون الأمور الغيبية في المستقبل . وهذا كفر واجحاد بالله سبحانه وتعالى . فهو وحده يعلم الغيب.

وقال الإمام في مفتتح خطبته حينما أراد التوجه إلى صفين :" الحَمْدُ للهِ كلّمَا وَقَبَ لَيلٌ وغَسَقَ ، والحَمْدُ للهِ كُلَّما لاحَ نَجْمٌ وَخَفَقَ ، والحمدُ لله غَيرَ مَفْقُودِ الإنْعَامِ ، ولا مُكَافأ الأفضال "[59].

بدأ الإمام خطبته بحمد الله بتكرارها ثلاث مرات على أمور يستحق لها الخالق الحمد والثناء. فهو في أول الحمدين يجعلهما مصحوباً بـ "كلما"؛ لعظم الموقف المتمثل بتعاقب الليل والنهار ، وكذلك في طلوع الكواكب ، وغروبها لحكمة يقتضيها فهو مستحق على ذلك الحمد كل الحمد.والحمد الثالثة لنعمه المتتالية والتي لاتعد ولا تحصى .

وقال (ع) :" أمّا بعد : فإنّ الأمر ينزلُ من السماء إلى الأرض ، كقطرات المطر إلى كلّ نفسٍ بما قُسم لها من زيادة أو نقصان ..."[60].

وقال عليه السلام في توظيف الجبل والأرض للتدليل على ثباته ، ورباطة جأشه :" تَزُولُ الجِبالُ ولا تَزُلْ ، عضَّ على نَاجِذِكَ ، أعِرِ الله جُمْجُمَتَكَ ، تِدْ في الأرضِ قَدَمَكَ

[57]) شرح نهج البلاغة :
[58])شرح نهج البلاغة::159/6.
[59])شرح نهج البلاغة: 3/ 157.
[60]) شرح نهج البلاغة :

. ارْمِ بِبَصَـرِكَ أَقْصـى القـوْم ، وَغُـضَّ بَصَـرِكَ ، واعْلـمَ أنّ النّصْـرَ مِـنْ عِنْـدِ اللهِ سبحانه"[61].

وظف الإمام كنايات متتالية في خطبته ففي قوله : تزول الجبال ولاتزل، كناية عن صفة الثبات والملازمة . وعضّ على ناجذك كناية عن صفة الحمية ورباطة الجأش . تد في الأرض قدمك كناية عن صفة الشجاعة والإقدام .فمن تحلى بهذه الصفات ليحصل على النصر من عند الله العزيز.

الخاتمة

إنّ أبرز ماخلص إليه البحث من نتائج ، يمكننا أن نجملها على النحو الآتي:

-إنّ الطبيعة بمشاهدها التصويرية المختلفة في خطب الإمام جاءت عفوية نابعة من ثقافته المعرفية من دون تكلف أو تصنع .

- استمد عليه السلام صوره من مظاهر الطبيعة ، وظواهرها الكونية والطبيعية كالفلك والنجوم والإمطار والسحاب والسماء وماشابه ذلك من الظواهر المتعلقة بالعالم الأعلى؛ ليثبت من خلالها إدراكه للعالم والأمور الغيبية التي استمد معرفتها من الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم)، عن جبريل ، عن الله سبحانه وتعالى .

- ان ماينماز به المشهد الطبيعي في خطب الإمام هو الحركة الفاعلة . فكلامه ليس صورة جامدة ، وإنما هو حركة للحياة تُمد إلى كلّ شيء . ويمتد هذا الأمر حتى على الصور التي نعتقد بسكونها وصمتها كالليل والنهار متعاقبان يخلف احدهما الآخر ، والفلك تجري والماء ينزل ، والسماء والأرض والأرض تدب فيها الحياة. يعرضها الإمام بصورة حية فاعلة . فهذه الحركة غير منظورة لأنها حركة قلبية أو نفسية

[61]) الخطبة: 11.

-بني الإمام علي صوره من الحيوانات الأليفة كالجمل والناقة والإبل والثور والخيول . ليركز على الجوانب الخَلْقية كالشكل الخاص أو الصوت .أو الجوانب الخُلُقية كالخوف والجبن . أو الجوانب العرضية كالمرض.

قائمة المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم .**
- **أسرار البلاغة ، عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني(ت471هـ)، تحق: محمود محمد شاكر ، ط1، مطبعة المدني ،القاهرة، 1991م.**
- **الأصوات اللغوية،د. ابراهيم انيس ،ط4، مطبعة محمد عبد الكريم حسان ، 1999.**
- **البرهان في وجوه البيان ، ابن وهب الكاتب ، تحق: د. أحمد مطلوب،د. خديجة الحديثي ، ط1، مطبعة العاني ، بغداد ، 1967م.**
- **تاريخ الخلفاء ،جلال الدين السيوطي ، تحق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط3، مطبعة المدني ، 1964م.**
- **التحرير والتنوير،ابن عاشور ، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.**
- **التعريفات ، السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني ، مكتبة لبنان-بيروت ، 1985م.**
- **تعريف الفن ، هربرت ريد ، ترجمة وتحقيق ، ابراهيم امام . ومصطفى رفيق الأرنؤوطي ، ط1، هلا للنشر والتوزيع ، سلسلة مكتبة الفنون التشكيلية ، 2003م.**
- **الحجاج في البلاغة المعاصرة ، محمد سالم محمد الأمين ، د.ت ، د.ط.**
- **حجاجية الصورة الفنية في الخطاب الحربي خطب الإمام علي (إنموذجاً)، د. علي عمران ، دار نينوى للنشر والتوزيع ، سوريا-دمشق ،2009م.**
- **حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي عليه السلام ،د.كمال الزماني ،ط1، عالم الكتب الحديث ،أربد-الأردن ، 2012م.**

- الحيوان ،أبو عمرو الجاحظ ، تحق: عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل –بيروت، 1996م.
- الخطابة ،أرسطو ، تر: عبد الرحمن بدوي ،ط2، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد، 1986م.
- الخطابة أصولها ، تأريخها في أزهر عصورها عند العرب ، محمد أبو زهرة ،ط1، مطبعة العلوم ،1934م.
- دروس في البلاغة العربية، الأزهر الزناد، دار صادر للنشر والتوزيع، بيروت – لبنان.
- شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن محمد ألمعتزلي (ت656هـ)، تحق: محمد أبو الفضل إبراهيم ،ط1، دار الكتاب العربي ، بغداد،2005م.
- شرح نهج البلاغة ، ميثم بن علي البحراني (ت679هـ)، عُني بتصحيحه مجموعة من الأفاضل ، د.ط ، المطبعة الحيدرية ، طهران، 1378هـ .
- شعر الطبيعة في الأدب العربي ، سيد نوفل ، مصر–القاهرة،1974م.
- الطبيعة في شعر أبي تمام ،داود سلمان الشويلي ، 2002م.
- علم الأصوات العام (أصوات اللغة العربية)،د. بسام بركة (د.ط)، مركز الإنماء القومي، لبنان (د.ت).
- فكرة الطبيعة ، كولنجوود، تر: احمد حمدي محمود، الهيئة العامة للكتب/ القاهرة ، 1986م.
- لسان العرب ، محمد بن مكرم بن منظور المصري ، دار صادر–بيروت، ط1، ب . ت .
- معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، دار الفكر ، بيروت، د.ت .
- مناهج البحث في اللغة ، د. تمام حسان ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، د.ت.

- نهج البلاغة ، الشريف الرضي أبو الحسن محمد بن الحسين بن الطاهر (ت406هـ)، شرح محمد عبدة، وخرّج مصادره حسين الأعلمي ،ط1، مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، 1993م.

اللغة والدلالة الرمزية والإيحائية للأسطورة

الأستاذ الدكتور علي زوين
مدير مركز البحوث والدراسات والنشر/ كلية الكوت الجامعة

الخلاصة

يتناول هذا البحث الصلة الثقافية بين اللغة والرموز بما توحيه من دلالات مختلفة في ثقافات الشعوب عبر التأريخ. والرمز بمفهومه العام عنصر من العناصر المهمة للتعرف إلى النمط الفكري والديني للحضارات ومدى الائتلاف والاختلاف بين الأنماط من حيث الخصائص الجوهرية لكل حضارة وصولاً إلى العناصر المؤتلفة التي تكون ما يشبه الرؤى العامة المشتركة.

Abstract

This research deals with the cultural link between language and symbols including icons of different connotations in cultures throughout history. The symbol sense the public component of the important elements to identify the intellectual and religious pattern of civilizations and the extent of the coalition and the difference between the patterns in terms of the fundamental characteristics of each civilization up to the combined elements to be something like a shared common visions.

مقدمة :

الأسطورة ودراستها من الموضوعات المشتركة بين اللغة والتأريخ والأنثروبولوجيا الحضارية والاجتماعية والعقائد والأديان والرؤى النفسية وعالم ما وراء الطبيعة ونظرية الخلق والفطرة .

وموضوع هذا شأنه من التداخل والتشعب لا ينبغي أن ينظر فيه إلا من خلال تداخل التفسيرات وتكاملها وصولاً الى عدة تفسيرات يمكن أن تكون ذات أبعاد متفاوتة في فهم الأسطورة ، إذ الوصول الى تفسير واحد أو فهم محدد متعذر، لأن علم الأساطير من الموضوعات التي تتناول الحدس والتخمين متجاوزة البنى السطحية والشعور والبنى العميقة الى (اللاشعور) .

وظاهر الأساطير في تأريخ الإنسان منذ نشأته يستدعي أيضاً البحث في الموضوع من جانبين ، أحدهما : المظهر ، وهو ما تمثله الأسطورة من موضوع وأشياء معبرة عن الموضوع ، والآخر : الجوهر ، وهو المدلول الرمزي للأسطورة ، وحقيقة الربط بينهما وبين مجموعة الأساطير للأمم المختلفة وصولاً الى أوجه التشابه والاختلاف لبيان العناصر المشتركة ، ومن ثم البحث عن العناصر الأولية لفهم الأسطورة من خلال فهم الإنسان لها عبر مراحل وجوده . ولذلك كله يعد علم الأساطير من العلوم الوعرة الصعبة المرام ، المتعددة الأوجه ، المتباينة في الفهم والتحليل والاستنتاج .

وما أبتغيه في هذا المبحث هو تناول الأسطورة من خلال عنصر واحد من عناصرها العديدة ، وأعني به العنصر اللغوي ، والصلة بين اللغة والدلالة الرمزية للغة ، وما توحيه هذه الرمزية من المعاني الهامشية التي تضاف الى المعاني الحقيقية والمجازية .

الأسطورة : تعريفها ومفهومها وموضوعها :

يختلف تعريف الأسطورة باختلاف الباحثين في هذا الميدان من ميادين المعرفة الإنسانية والمدارس التي ينتمون إليها ؛ فالأسطورة (Myth) تطلق بمعناها العام على " قصة تقليدية قديمة عن الآلهة أو الأبطال ، ولاسيما تلك التي تقدم تفسيراً لحقائق أو ظواهر معينة .

قصة ذات معنىً غامض أو خفي . ما يعتقد – عموماً – أنه غير حقيقي أو بلا أساس " [1]، وهي مرادفة عند بعض الباحثين لكلمتي (خرافة) و (وهم) ، على أن ما بين الأسطورة والخرافة فرقاً جوهرياً من حيث الفكرة والتفسير والهدف .

ويطلق على العلم الذي يتناول الأسطورة بالدرس والتحقيق والتحليل مصطلح الميثولوجيا (Mythology) ، وهو يعني بمسألتين أساسيتين ، إحداهما : "دراسة الأسطورة بالمعنى الحرفي للكلمة " ، والأخرى : " مجموعة الأساطير و (الليجندات) [2] كلها لأي ثقافة خاصة كميثولوجيا اليونان القديمة " [3].

وبموجب هذا الفهم فإن الأساطير قد تشتمل على بعض العناصر الحقيقية الواقعية وإن كانت قليلة .

ويدل مصطلح علم الأساطير على معيارين للتمييز والفصل ، معيار يتضمن دراسة الأسطورة نفسها من حيث المتن والسرد والرمز والمعنى والفحوى وما تهدف إليه ، ومعيار يتضمن دراسة مجموعة الأساطير المنسوبة الى إقليم ما أو جماعة معينة أو حضارة من الحضارات .

وفيما يأتي بيان لأهم الملاحظات التي بموجبها يمكن فهم المقصود بالأسطورة[4] :

1- تتخذ الأسطورة طابعاً دينياً مقدساً أو اجتماعياً أكثر من الطابع الفردي السردي في موضوع معين ، وتعنى – في الأعم الأغلب- بالظواهر الطبيعية والثقافية والاجتماعية ، وقضايا متعلقة بما وراء الطبيعة .
2- في التراث الشعبي الشفهي لأمة من الأمم أو لجماعة من الناس قصص وحكايات أسطورية ، ولابد من التمييز بينها وبين الأسطورة لأنها من الموروث الشعبي الشفهي أيضاً ، غير أن التمييز بينهما " ليس تمييزاً صارماً" .
3- تشير الأسطورة عند العامة من الناس الى (معتقد زائف) ، ولذلك ينبغي التفريق بين المعنى الأنثروبولوجي للأسطورة ومعناها في الاستعمال الشائع بين العامة .
4- الأساطير قصص يتناقلها الناس في مجتمع معين من جيل الى آخر منذ أقدم العصور .
5- يعد عنصر الزمن في الأسطورة من العناصر الرئيسة لأنه يجعل من الخطاب الأسطوري (كلمة بناءة) ، ويجعل الأسطورة نفسها من حيث الصياغة غرضاً وهدفاً.
6- تبدأ الأسطورة عادة بقصة مصدرها فرد ، ثم تشيع بين الناس . ولكي تصدق عليها صفة الأسطورة لابد لها من توافر شرطين أساسيين ، أحدهما : أن تدخل ضمن أساطير الشعب المعني من حيث التطابق الشكلي والدلالي ، أي من حيث الأسلوب والمضمون . والآخر : اندثار مصدرها الفردي " لكي تصبح قصة عامة أنموذجية " .

واختلفت التوجهات الأنثروبولوجية والتأريخية والحضارية في فهم الأسطورة وتفسيرها وكيفية البحث فيها . ومن هذا القبيل التفسير الثقافي التأريخي في دراسة الأسطورة من خلال العلاقات التأريخية بين الأساطير باستعمال المعلومات الواردة فيها شواهد " على العلاقات التأريخية والجغرافية بين الثقافات والمناطق الثقافية " [5].

والأسطورة في مفهوم مالينوفسكي (1948م) نوع من أنواع (الميثاق الاجتماعي) ، وينبغي أن تفسر وفق هذا المعنى لتبرير العادات والتقاليد والسلوك الاجتماعي لجماعة معينة من الناس ، وتفهم (في ضوء سياقها الاجتماعي المعاصر) [6].

وهذا توجه اجتماعي في تفسير الأسطورة لما عرف عن مالينوفسكي ومنهجه الاجتماعي في الأنثروبولوجيا. وهو مدخل الى دراسة الأساطير تبنته الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية ما بين سنة 1930م وسنة 1960م.

وكان المنهج في الولايات المتحدة مختلفاً ؛ فقد درس (بواس) وأتباعه الأسطورة على أنها (مستودع معلومات عن الثقافة والسمات الثقافية) ، واتخذوا منها دليلاً لمعرفة (العلاقات التأريخية والجغرافية بين مختلف القبائل والجماعات البشرية) [7].

وعقد بعض الباحثين صلة بين الأسطورة والشعائر الدينية من حيث الأداء الشعائري للأسطورة والعناصر الرمزية المشتركة بينها وبين الشعائر . وقد أدّى هذا التوجه الى احتدام الجدل والحوار في مسألة أسبقية أي من الأسطورة أو الشعائر على الأخرى ، وأنها الأصل والأساس ، وما الأسطورة إلا تفسير لها . ولم ينته هذا الجدل الى نتيجة حاسمة ، وترك البحث في هذه المسألة ، وانصرف الباحثون الى بيان أهمية الصلة بين الاثنتين وتوصلوا الى نتيجة مفادها أن الأسطورة والشعائر ترتبطان بعلاقات متبادلة ، وأن كل واحدة منهما تصلح لتفسير الأخرى ؛ فانصرف اهتمام الأنثروبولوجيين الى توضيح الصلة بين الأسطورة والشعائر والنظم الاجتماعية بدلاً من الخوض في مسألة الأسبقية [8].

ومن المناهج المهمة في دراسة الأساطير ما عرف بـ(المنهج البنيوي) ، وهو منهج دعا إليه وتبناه (كلود ليفي شتراوس) الذي مثل هذا الاتجاه في المدرسة الفرنسية الأنثروبولوجية متأثراً بمدرسة فرديناند دي سوسير في علم اللغة بعد أن نشر تلامذة دي سوسير كتاب أستاذهم (في علم اللغة العام) ، وظهرت بذلك المدرسة الوصفية في اللسانيات وتطورت الى ما يعرف بـ(المدرسة البنيوية) .

ودخلت البنيوية في المباحث الأنثروبولوجية متأخرة بسبب قيام الحرب العالمية الثانية ويرتبط ظهورها بنشر كتاب شتراوس الموسوم بـ(البنى الأولية للقرابة) في سنة 1949م ، بيد أن هذا الاتجاه لم ينضج وتنضج معالمه إلا في أواخر الخمسينيات من القرن العشرين وبعد أن نشر المؤلف نفسه كتابه الآخر المعنون بـ(الأنثروبولوجيا البنيوية) في سنة 1958م[9].

وتأثر شتراوس في منهجه أيضاً بآراء جاكبسون (Jakobson) ، وخلاصة ما استفاده منه الربط بين البنى اللغوية الثابتة والمبادئ الأساسية للعقل البشري؛ فقد ذهب جاكبسون الى أن البنى اللغوية تظل ثابته مهما اختلفت اللغات ، ولما كانت اللغة تعبيراً عن النشاط الرمزي للإنسان فلابد لهذه البنى الثابتة من التعبير عن (مبادئ أساسية للعقل البشري) تظل ثابتة كثبوت البنى اللغوية . وبهذا المزج بين الفكرتين اتخذ شتراوس منهجه البنيوي وفسر به الظواهر الاجتماعية عند القبائل البدائية [10].

وطبق شتراوس البنيوية أيضاً على منهجه في دراسة الأساطير ، ولذلك كان مفهوم الأسطورة عنده يتصل بالتفسير الفكري والبنيوي للنظم الثقافية والاجتماعية مع الأخذ بنظر الاعتبار الأهمية الرمزية المعبرة عنها . واتضحت أفكاره في مؤلفه الكبير الموسوم بـ(الأساطير = Mythologiques) ، وقد صدر ما بين 1964م وسنة 1972م .

وعمدة ما ذهب إليه شتراوس في فهمه للأسطورة أنه عدها (نوعاً من أنواع التفكير) ومثالاً (لصياغة المبادئ البنيوية العامة التي تكمن وراء النظم الاجتماعية والثقافية) . وفي تحليله للأسطورة نظر إليها على أنها (أداة فكرية تستعمل لتأمل التناقضات الإنسانية العامة أو الخاصة بثقافات معينة) معتمداً في تحليله على المستوى الرمزي في حل هذه التناقضات .

وأهم ما في رؤية شتراوس ومنهجه في فهم الأسطورة وتحليلها وتفسيرها العناصر الثلاثة الآتية [11]:

1- فهم الأسطورة على أنها عملية خلق وتغيير دائمين للمعرفة والفكر المتمثلين بها . ويعني ذلك أنه تخلى عن فكرة البحث عن الصيغ الأصلية أو الصحيحة للأسطورة . والمهم عنده ليس النص الأصلي من غير تعديل وتحريف بل عملية ما يطرأ على الأسطورة من تغير يتناسب مع تطور المعرفة الأسطورية . وبتعبير مختصر آخر : الأسطورة ليست نصاً ثابتاً يقرأ بل هي معرفة مستمرة قابلة للتغيير .
2- إن وظيفة الأسطورة تكمن في أنها الإجراء الوحيد القابل للتطبيق من بين كل الترتيبات والإجراءات الممكنة للحياة لأن الجماعة هي التي تتبناه . وتعد الأسطورة بهذا المعنى " خطاباً محكماً ودقيقاً عن الارتباطات الممكنة للعلاقات الاجتماعية والذي يقود الى نتيجة مؤداها أنه لا شيء قابل للتطبيق سوى ذلك الذي تتبناه الجماعة " .

3- ونتيجة للصلة بين الأسطورة والتنظيم الاجتماعي وتفسير كل أسطورة من خلال علاقتها بسياقها الاجتماعي تيسر البحث في العلاقات المترابطة بين عدد كبير من الأساطير التي تنتمي الى حضارات وثقافات مختلفة ومتنوعة ، وبذلك وضح شتراوس " أن علم الأساطير يمكن أن يتجاوز الحدود السوسيولوجية ويشكل شبكة دائبة الاتساع من التحولات والتغيرات والارتباطات الرمزية " .

ومن المناهج التي اتبعت في تفسير الأسطورة المنهج النفسي التحليلي تبعاً لفرويد ومريديه من المدرسة التحليلية في علم النفس ، وقد تبنى هذا النهج لفيف من المعنيين بالانثروبولوجيا .

وخلاصة رأي فرويد هي (استعمال البيانات الأسطورية) في تفسير نظريته عن تأريخ الإنسان وسماته الشخصية الأساسية ، والتمس المتأثرون بذلك سبيلاً في الأسطورة للتعبير عن الصراع النفسي عند الإنسان كالحسد ، وعلاقة الرجل بالمرأة ، والغضب ، والانتقام ، والشجاعة ، والتهور ... الخ . وأفادوا أيضاً من بعض المجالات الرمزية الأخرى كالفنون والشعائر الدينية.

وأثرت آراء فرويد ومدرسته تأثيراً كبيراً في دراسة الأسطورة ، وتقبلها حتى الذين رفضوا أفكاره في (البناء والنمو النفسي والاجتماعي) ، وأفادوا من تحليله الرمزي للأسطورة . وتختلف الغايات من الأساطير باختلاف طبيعة الأشياء وحاجة الإنسان إليها ، كتفسير نشأة الكون وأسباب الرعد والزلازل والعواصف ، أو الوصول الى أصل الأشياء في الطبيعة كالنبات والحيوان والجبال والبحار والأنهار .. الخ ؛ فالإنسان في سعي حثيث منذ خلقه الى تفسير ما يجده محيطاً به والسيطرة على بيئته ولو كان تفسيراً أوليا بدائياً ، ما دفعه الى التدين بدين ما ، وإقامة العبادات والطقوس والشعائر الدينية المختلفة بمساعدة (الشامانات) [12] والكهنة والمطببين . وثمة أمور أخرى كانت تحتاج الى تفسير كالعادات والتقاليد الاجتماعية وأسرار الحياة والموت ؛ فاستعان الإنسان بالأسطورة لتفسر له ذلك (فاختلط الخيال والخرافة بالملاحظة) . وكانت الغاية من وضع بعض الأساطير التعليم ، وقد يبتغي بعضها الآخر (المتعة والتفنن في رواية القصص) [13].

ولا تقتصر الغايات من الأساطير على ما ذكر آنفاً ، إذ إن المسألة أعمق من ذلك بكثير ؛ فحال الأساطير كحال الإنسان ، فيه ما ظاهر للعيان ، فيه ما هو مستخف في أعماق نفسه وشعوره ، وقد يتعدى الى ما هو أكثر عمقاً وغوراً ، وأغني بذلك (اللاشعور) . وينبغي أن ينظر الى ذلك كله على مستويين ، أحدهما: المستوى الفردي ، والآخر : المستوى الجمعي ، وإذا ما توصل الباحث الى القضايا المشتركة ذات الصفة الجمعية ، أي المعبرة عن العقل الجمعي أو ما وراء العقل الجمعي فقد أصاب الهدف وتبينت له حقائق التحليل العلمي للأسطورة .

وللأساطير سمات مشتركة تعد المكونات الأساسية لأساطير الشعوب على اختلاف ثقافاتها ، وفيما يأتي بعض من هذه السمات [14]:

1- المسائل المتعلقة بخلق الكون والأرض والنظام الشمسي ، وأصل الآلهة وسلالتها ، والأسباب والبدايات للأشياء على نحو عام .
2- سمة (التجسيم) أو (التشخيص) ، إذ اتخذت الأساطير من التجسيم شكلها ، بمعنى " جعل المظاهر الطبيعية أو الأشياء الجامدة أو الصفات والمجردات تتخذ شكلاً بشرياً ، فتضفي عليها السمات البشرية " .
3- العامل الإنساني في تأليه المشخصات أو المجسمات ، فيعزى " الشكل الإنساني والصفات والمفاهيم الى إله أو حيوان أو نبات أو شيء آخر . وعن طريق التأليه ارتفع الناس والتشخيصات التي شخصوها الى مرتبة إله " .
4- عنصر التقديس في الأسطورة ، أي الصلة بين الأسطورة وما هو (مقدس) عند الإنسان . والتقديس غاية ما يصل إليه الوجود الواقعي كما يرى (الياد) ، وقد وضح

ذلك في قوله مقارناً بين (كيف) و (لماذا) في تفسير الوجود : " إن وصف كيفية وجود الأشياء هو تفسير وإجابة غير مباشرة عن سؤال آخر : لماذا وجدت تلك الأشياء ؟ ، فـ(لماذا) هو دوماً متداخل في (كيف) ، ويرجع ذلك الى سبب بسيط وهو أن رواية : كيف ولد شيء من الأشياء ؟ تكشف النقاب عن انبجاس (المقدس في العالم) ، وهو السبب الأقصى لكل وجود واقعي " [15].

5- عنصر الزمان في الأسطورة ، أي عامل الاستمرارية والديمومة والتجديد ، ويتضح مفهوم الزمان في أساطير الشعوب في ربط الدين بالزمان من حيث تجدد العالم فيكتسب بذلك القداسة ، بمعنى أن عملية التجديد في كل دورة سنوية تضفي على الزمن طابع القداسة ؛ فينظر الإنسان الى الزمن بعينين أو بإدراكين ، عين ترى فيه عدّاً للأيام والشهور والسنين ، وهي عين الظاهر ، وأخرى ترى فيه صفة التجديد ، وكأن العالم في خلق جديد دائماً ، وهي عين الباطن ، وهذه الصفة في مخيلة الإنسان من صفات الآلهة . قال الياد : " إن الإنسان الديني في الثقافات الغابرة يرى أن العالم يتجدد في كل سنة ، وبعبارة أخرى : إن العالم يجد في كل سنة جديدة (القداسة) الأصلية التي تحلى بها عندما خرج من بين يدي الخالق " [16].

ومهما قيل في تحليل الأسطورة وتفسيرها وأغراضها فإن (عنصر الخلق) يبقى هو العنصر الأساسي في أساطير البشرية منذ أقدم العصور ، وهو النواة الصلبة التي لا يمكن أن تتغير وتتبدل بتغير الزمان والمكان والأديان والثقافات والتوجهات الشعورية واللا شعورية الواعية وغير الواعية .

وتختلف النظرة الى عنصر الخلق هذا بين (الفطرة) و (الاكتساب) ، بيد أننا نجد أفكاراً في هذا المجال ظهرت عند المفكر الألماني (رودلف أوتو) الذي حاول موفقاً أن يجد للدين (تجذراً في الذهنية الإنسانية) ، " ومن اللزوم خوض عملية تحليلية ذات طابع نفسي حتى يتم بمقتضاها معانقة إللهي" . وهذا ميل واضح الى (الفطرة) .

وخلاصة ما توصل إليه أوتو – وقد تأثر بمنهج (المعرفة القبلية) للفيلسوفين اللاهوتيين (فريس) و (أبلت) ، وهما من أتباع الكانتية المحدثة – أن المعرفة الموضوعية مستقلة عن الخبرة الخارجية للإنسان ، وهي وليدة الخبرة الذاتية وليست نتاجاً للخبرة الخارجية التي يعيشها الإنسان . واستدل على ذلك بالتحليل النفسي الذي أظهر أن لدى كل إنسان " أفكاراً ومفاهيم يصعب تفسير أصلها تجريبياً ، ومن الصعب البرهنة عليها إلا بتأكيد أنها طبيعية أو أصلية لدى الإنسان ، أو أنها من جانبها عناصر إيمان ، كتمثلات الله والروح والحرية الحاضرة في الوعي الإنساني في مختلف الخبرات الدينية " [17]. وتوصل بعد ذلك الى استنتاج مفاده (أن هذه الأفكار نتاج إدراك ظرفي يصعب البرهنة عليها) .

وذهب (مسلان) الى قريب من هذا المعنى ، وخالف القائلين بالأصل الطبيعي للدين ، أي الأصل الذي يستقيه الإنسان من الطبيعة بعيداً عن جوهره النفسي ، فقال : " الإنسان ليس بإمكانه صنع الآلهة على صورته ، إذ في جوهر الشعور الديني يكمن وعي نفسي بما هو مفارق للإنسان ومتعالٍ عن ظرفه الخاص" [18].

ويمكن أن نستفيد من نظرية المعرفة القبلية ، والمعرفة الذاتية المستقلة عن الخبرة الخارجية ، يضاف إليها ما يظهر للإنسان من أفكار ومفاهيم يصعب تفسيرها تجريبياً ولكنها أفكار ومفاهيم طبيعية بحسب رؤية (أوتو) ، وصولاً الى مبدأ ما هو مفارق للإنسان ومتعالٍ عن ظرفه الخاص ، ونستدل من ذلك كله على ما اصطلحت عليه بـ(الإيمان الفطري) ، فلدى كل إنسان جانب (خَلْقي فِطْري) يكمن في بنيته النفسية العميقة تتشكل فيه العقيدة والإيمان بالخالق ، وهذا الجانب يتسع لما هو أبعد من (الوعي) و (الشعور) الى (اللاوعي) و (اللاشعور) . وبعبارة أخرى : كل إنسان مؤمن بالفطرة ، ولذلك نرى البشر عبر مراحل وجودهم في الأرض منذ القرون الغابرة يؤمنون بقوة خارقة تتصف بقدرات غير محدودة تهيمن على الكون ، واختلف الناس في تسمية هذه القوة الخارقة كما اختلفوا في (وحدانيتها) أو

(تعددها) أو في كنهها وصفاتها . أليس ذلك كله مصداقاً للآية القرآنية الكريمة : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ – الأعراف : 172) ؟

وبموجب هذه النظرة الشاملة ينبغي أن نفسر الأساطير ونحللها ونستنتج منها ما نشاء ؛ فمركز الدائرة وقطب الرحى في كل ما قيل عن الأسطورة هو هذه (النواة الصلبة) .

الأسطورة والرمز :

يعد الرمز من أهم الدلالات الإيحائية للأسطورة ، فهو يدل على الظاهر المحسوس ، ثم ينصرف الى ما هو أعمق إذ يدل على باطن مغاير لما هو محسوس ، بمعنى أن للرمز دلالتين : ظاهرية تطفو على السطح ، وباطنية تستقر في العمق . وبهذا المنظور عرّف القديس أوغسطين الرمز بأنه " معطىً ، فضلاً عن الظاهر الذي يجلبه أمام حواسنا . يجلب للفكر أمراً مغايراً ، كأثر الحافر الذي يُعْلمنا بمرور الحيوان " [19].

ومجاوزة الرمز للظاهر المادي هي المقدرة التعبيرية للرمزية . قال مسلان مشيراً الى هذا المعنى : " أقول بوعي : إن الرمزية هي المقدرة التي يمتلكها الإنسان لتجاوز الظاهر المادي للأشياء " [20].

وتتضح القوة التعبيرية للرمز في تحول (الظاهرة الى فكرة) . ونجد هذا المفهوم عند الأديب والفيلسوف والشاعر الألماني المعروف (غويته) ؛ فالرمزية لديه تحول الظاهرة الى فكرة ، ومن ثم الى صورة تبقى فيه الفكرة ناشطة متجددة داخل صورتها . قال : " الرمزية تحول الظاهرة الى فكرة ، والتي تتحول بدورها الى صورة ، على نحو تبقى معه الفكرة ناشطة دائماً داخل الصورة ومنيعة وحية الى ما لا نهاية ،وحتى إذا ما فسرت الفكرة بكل اللغات فهي مع ذلك تبقى متعذرة البيان" [21].

وللرمز قوة جاذبة تستولي على الإنسان وتدفعه الى الإيمان بأنه الآمر المدبر لشأن العالم كما عبّر عن ذلك (كروزر) قائلاً: " يجعل الرمز بشكل ما حتى الإلهي مرئياً... فهو يجلب بقوة فائقة الإنسان الذي يعاينه ويستولي على روحه كأنه الآمر المدبر لشأن العالم " [22].

وتكمن القيمة الفاعلة للرمز في فهمه وإدراكه ، فهو ليس بذي جدوىً من غير أن يدركه مجتمع بشري ما . ويستمد الرمز قوته الجاذبة من المعنى الإيحائي له . وفي المخطط الآتي بيان للعلاقة بين (الرمز) و (المرموز إليه) و (المعنى الإيحائي) للرمز :

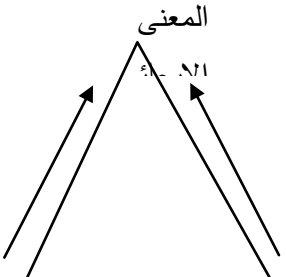

الرمز (= كلمة أو صورة أو علامة)

المرموز إليه (= في عالم الطبيعة والمادة ، أو في عالم العقل والذهن ، أي المعنى المادي والمعنى

ونستنتج من هذا المخطط أن علاقة الرمز بالمرموز إليه غير مباشرة ، إذ تكون العلاقة بينهما عن طريق المعنى الإيحائي للرمز .

ومن خلال هذه الصلة بين الرمز والمرموز إليه يمكن أن نربط الرمز باللغة ؛ فاللغة كما هو معروف في المنهج الوصفي التركيبي ما هي إلا نظام من العلامات والرموز ، وتعد من أكثر الأنظمة كفاية .

وذهب بعض الباحثين في النظام الدلالي للرموز – ومنهم رولان بارت وشتراوس – الى أن هذا النظام من قبيل الدلالة الثانوية ، والمقصود بذلك أن الرموز " لغة من درجة ثانية ونظام من أنظمة التعبير عماده اللغة الطبيعية ، غير أنه يمثل دليلاً من الدرجة الثانية " [23]، أي إن الدلالة في لغة الأسطورة وما ترمز إليه هي دلالة هامشية إيحائية لم تصل الى مرتبة الدلالة المركزية المتصفة بالثبات النسبي في لغة الجماعة أو في معجمها المخزون في الذهن . وقد عرّف أحد الباحثين[24] الأسطورة من حيث صلتها باللغة والرمز قائلاً : " الأسطورة نمط خاص من أنماط التعبير ، أو لغة خاصة تستند الى اللغة الطبيعية ، ونظام رمزي يعبر عن مشاغل البشر الفردية منها والجماعية لاتصالها بجانب الوعي منهم على اختلاف أشكاله من دين وتأريخ وفلسفة ، أو بما لا يقع منهم تحت دائرة الوعي والإدراك ، ولاتصالها أيضاً بالفعل والنشاط ومختلف أشكال التأثير في الكون والمجتمع من طقوس وشعائر وسحر وشعر وأدب وفن وهَلُمّ جرّاً" .

وللبنية الرمزية في لغة الأسطورة صلة سببية بالرمزية الدينية المستفادة من التحليل النفسي الباطني والتصور الواعي وغير الواعي للفرد والجماعة ، وقد ذهب بعض الباحثين في هذا العنوان الى القول بـ(نشاط رمزي غائر في الطبيعة البشرية) ، وكأنه يشير الى صفة فطرية للرمز في طبيعة الإنسان . قال مسلان : " كشفت المعرفة الواسعة والفهم الجيد للمجتمعات القديمة الى جانب الاهتمام الواسع المتعلق ببنية اللغة الأسطورية الأهمية المنوطة بكل تنظيم إنساني ، أي بكل منظومة دينية للغة الرمزية . وفي الوقت نفسه أبان علم نفس البواطن عن تطور مهم ، واع ولا واع ، فردي وجماعي ، لصور ورموز هي بمثابة أحلام اليقظة للإنسان التأريخي ، وكشف عن وجود نشاط رمزي غائر في الطبيعة البشرية ؛ فالرمز يظهر في الاكتشافات التي تحصل في عصرنا كأمر مرتبط بوجود الإنسان ، فهو يتداخل ضمن جميع علاقات الفرد مع الغير ، ومع الألوهية أيضاً " [25].

وربط الفيلسوف الفرنسي (دوران) في تعريفه الأسطورة بين عنصري (الرمز) و (الزمان) فقال : " الأسطورة نظم لوقائع رمزية في مجرى الزمان".

وكان بول ريكور (Paul Ricoeur) أكثر عناية بالصفة القدسية والدينية للأسطورة من خلال وظيفتها الرمزية عند الإنسان ، وارتباط أفعاله وأفكاره بوساطتها ليرى (الإنسان موقعه من العالم) ، إذ قال : " الأسطورة حكاية تقليدية تروي وقائع حدثت في بداية الزمان ، وتهدف الى تأسيس أعمال البشر الطقوسية حاضراً وبصفة عامة الى تأسيس جميع أشكال الفعل والفكر التي بوساطتها يحدد الإنسان موقعه من العالم ؛ فالأسطورة تثّبت الأعمال الطقوسية ذات الدلالة وتخبرنا عندما يتلاشى بُعْدها التفسيري بما لها من مغزىً استكشافي وتتجلى من خلال وظيفتها الرمزية ، أي في ما لها من قدرة على الكشف عن صلة الإنسان بمقدساته " [26].

وفي فهم ميشال مسلان للأسطورة نرى الأساس الرمزي لها واضحاً لأنها بحسب تعريفه إياها " كشف رمزي لعلاقات الإنسان مع الكائنات ومع الإلهي" ، وهي " لغة خاصة بالإنسان ليست ناتجة عن تخيل صرف كما اعتقدنا ذلك طويلاً تحت التأثير المبالغ فيه لعقلانية صارمة ، بل عن تعبير أولي مباشر لحقيقة مدركة حدسياً من جانب الإنسان " [27].

وتنبع أهمية الرمز في الأسطورة أو في غيرها من أوجه التعبير الإنساني من قيمته الذاتية ، وقد عبّر (توما الأكويني) عن هذا المعنى بربط فعل المؤمن بالحقيقة نفسها لا بالمعبر عنه قائلاً : " في الرمز كما تبينه طريقة الكلام نسعى الى بلوغ المسائل الإيمانية بالشكل الذي يتحدد فيه فعل المؤمن ، إذ لا يتوقف فعل المؤمن عند المعبر عنه بل يتحقق بالحقيقة نفسها ؛ فنحن لا نصوغ إيضاحات إلا لأجل إحداث معرفة بوقائع معينة ، سواء في أمور الإيمان أو العلم " [28].

وعبّر مسلان عن القيمة الذاتية للرمز من حيث التماثل بين الشكل والمضمون ، فقال : الرمز " يمتلك قيمة ذاتية لا نمط كلام ، وهو واقعة حاصلة بفعل التماثل بين الشكل والمضمون ، بين ما له تجلٍّ عينيٌ وبين ما يشكل جوهر الكائنات والأشياء " [29].

ولكي تتضح لنا الصلة بين الرمز ومدلوله عن طريق اللغة يحسن بنا تصنيف الأساطير بحسب الألفاظ المعبرة عن هذه الصلة . وهذا ما يدعو الى تفسير الأساطير مجتمعة لا منفردة والنظر فيها من خلال الثقافات البشرية على مرّ العصور ؛ فالتجزئة لا تنفع في فهمها لانها تمثل سبلاً مشتركة لرؤية إنسانية يكمل بعضها بعضاً .

رموز الإنسان وأعضائه :

عبد عرب الجاهلية الشمس ، ومثلوها بصورة امرأة عارية ، والمرأة رمز الى معاني الأنوثة والأمومة والخصب [30]. وكان (البراهما) في الأساطير الهندية يصور بأربعة وجوه وأربع أذرع ، وأما (شيفا) الإله الراقص فهو محاط بهالة من الأذرع [31]. وجانوس (Janus) في الأساطير الرومانية ربّ الأبواب والمداخل والبوابات ، وصوروه بوجهين في اتجاهين مختلفين [32].

وكان إله النار في أساطير أمريكا الوسطى من أقدم الآلهة عندهم ، ومثلوه بكَهْل ذي وجه عميق التجاعيد محنيّ الظهر ، يحمل على ظهره أو على رأسه كأساً مصنوعة لحرق البخور ، وظهر على السفح المكسيكي الأوسط قبل ميلاد المسيح [33]. ويعد إيناري (Inari) ربّ الزراعة في الأساطير اليابانية ولاسيما زراعة الأرُزّ ، وهو الغذاء الأساسي الشائع في اليابان والصين ، ولذلك رمز هذا الإله الى ربّ الخير والعطاء والنماء . وتظهره رسومه رجلاً شيخاً مع أتباعه ورسله وثعلبينِ[34].

ومن شعائر المصريين القدامى فتح فم الميت إشارة الى جعل كل أعضائه جاهزة لأداء الوظائف الجديدة [35].

ونستنتج من الأمثلة المذكورة سابقاً أن الإنسان وأعضاءه يرمزان في مجمل الأساطير الى معاني الأنوثة والأمومة والخصْب والقدرة والقوة وحراسة الحصون والقلاع والأبواب ، ويرمزان أيضاً الى إله مجسد يتصف بالحكمة والخبرة والزراعة وما يمثله من الطعام الشائع بين شعب ما وأداء الإنسان لوظائفه الطبيعية في العالم الآخر . والجامع بين هذه المعاني هو الحياة وشؤونها المختلفة.

رموز الحيوان :

(المَقَه) : اسم من أسماء القمر في سبأ ، وكان يعبد في حرم بلقيس ملكة (سبأ) في عصر النبي سليمان (ع) . واتخذ عرب جنوب الجزيرة العربية الثور رمزاً الى القمر ، وهو رمز (المَقَه) في سبأ ومأرب والنصوص اللحيانية والثمودية [36].

ومن الأساطير اليابانية : جروجين (Jorojen) ، وهو ربّ المُعّمرين والحظّ الطيّب. ويصور على هيئة رجل ذي لحية بيضاء ترافقه سلحفاة أو لقلق[37]، وهو يرمز أيضاً الى العمر السعيد المتقدم .

ومن الأساطير المصرية القديمة :رِيننِت (Renenet) أو رينيت (Renenit)، وهي آلهة تجسد أحياناً على هيئة أسد أو رأس أفعى ، وتشترك مع إله العِنب (شاي) في بعض الوظائف لأنها آلهة المحاصيل الزراعية ، ومن وظائفها تغذية الطفل منذ ولادته ، إذ تمنحه اسمه وتتبعه عندما يحاكم بعد الموت[38].

ويطلق على ربّ الغيوم والعواصف والسماء في الأساطير الفينيقية اسم حاداد (Hadad) وهو الذي يرسل الغيوم والرعد والبرق . ونظير حاداد في الميثولوجيا البابلية (آداد) ، ويبدو أن التسمية من أصل سامي واحد ، ويشار الى حاداد باسم (بَعْل حاداد) ، وبعل يعني الإله في الفينيقية ، وينظر إليه سيداً وحاكماً، ويمثّل أحياناً بثور ، وهو رمز القوة والسلطة [39].

ويعد آمون (Amon) من أشهر الآلهة المصرية القديمة ، وقد تدرج هذا الإله في المراتب والوظائف ، فقد كان إله الهواء تارة ، ثم إله الخِصْب تارة أخرى ، ثم صار ملك الآلهة

وسيد العروش ، الى أن اختص بالملوك فصار يعبد على أنه (إله الملوك) منذ عهد (آمنمهات الأول) مؤسس الأسرة الفرعونية الثانية عشرة . وصوّروه لابساً رأس كبش أو رأس إوَزّة النيل [40].

ومن الأساطير الفينيقية : بعل حامون (Baal Hammon) ، وهو ربّ السماء والإنبات ، والربّ الأكبر لقرطاجة (قرطاجنّة) المستعمرة الفينيقية . ترافق الخروف مع بعل حامون الذي كان يرسم حاملاً إنساناً في العصور القديمة[41].

ومن الأساطير المصرية ما يسمى بـ(عُوذة البقرة الوحشية) ، وهي تمثل رأس بقرة مقدسة تحمل الشمس بين قرنين ، وكانت تستعمل لبث الحرارة في الأجساد المحنّطة (المومياءات) . وتعود هذه العادة الى الإيمان بأن (رع) إله الشمس حينما غاب أول مرة قامت البقرة بإرسال كائنات نارية تسعفه حتى الصباح لكي لا يفقد حرارته [42].

وليسا (Lissa) من الأساطير الإفريقية ، وهي إلهة عند سكان داهومي . كانت تعبد على أنها ربّة الأم ، وابناها (مادو = الشمس) ، و(غو = القمر) . ويرمز إليها بالحرباء ، وهي طوطم [43]الإلهة وقبائل الداهومي [44].

وباست (Bast) أو باستيت (Bastet) من الميثولوجيا المصرية ربّة الخصب ، وهي ربّة محلية ارتقت الى إله قومي . الهرّة حيوانها المقدس ، وصورها على هيئة امرأة لها رأس هرّة ترفع بيدها اليمنى قيثارة أو درعاً [45].

ويستثنى (الكلب) من الحيوان في دلالته الرمزية الأسطورية من حيث إجماع أغلب الأساطير على التقريب بين رمزيته ومعاني (الموت والجحيم والعالم السفلي والممالك الخفية) [46].

ووظيفته الأسطورية الأولى " وظيفة دليل الإنسان في ليل الموت ،بعدما كان رفيقه في نهار الحياة " ؛ فهو الحارس الأمين في المنزل ومع قطيع الماشية ، ولذلك " يعد حارساً أسطورياً لممالك الموت ، ويقبع عند أبوابها المقدسة " .

وكان من عادة المكسيكيين القدامى الاعتناء بتربية الكلاب المختصة بمواكبة الموتى وإرشادهم في العالم الآخر ، ولذلك كانوا يدفنون مع امواتهم كلاباً لونها كلون الأسد والشمس . وما يزال شعب غواتيمالا يضع في أيامنا هذه أربعة أشكال للكلب عند زوايا المقبرة الأربع ، وأبراجهم السماوية ثلاثة عشر بدلاً من اثني عشر عند أغلب الشعوب والثقافات ، والبرج الثالث عشر عندهم هو برج الكلب[47].

ومن الأمثلة لرمزية الكلب المرتبطة بالموت والعالم الآخر الإله أنوبيس (Anubis) في الميثولوجيا المصرية ، ويمثّل هذا الإله برأس كلب أو ابن آوى ، وهو ربّ الجنازات والتحنيط عند الفراعنة ، يقود الموتى الى العالم السفلي ويشرف على الميزان الذي توزن به قلوب الموتى حينما يمثلون للمحاكمة قبالة (أوزيريس) [48].

وكان (بعل) ربّاً للخِصْب والإنبات عند الساميين القدماء ، وهو عند الفينيقيين ربّ العاصفة ومطر الشتاء . مثّلوه بمحارب على رأسه خوذة بقرني ثور[49] .

ومن الآلهة الفرعونية المشهورة : رع – حاراكتي (Ra- Harakte) ، وهو ربّ الشمس . ويصور على هيئة رأس صقر مرتدياً قرص الشمس [50].

ومن آلهتهم : بيديتي (Behdety) ، وهو الاسم الذي أطلق على (حورس) في بيريت مكان عبادته ، وهو مذبح في مصر العليا . ظهرت رسومه على هيئة رأس نسر مع صحن شمس مجنح [51].

ومن آلهتهم المشهورة المرتبطة بالصقر : حورس (Horus) ، وهو ربّ السماء والشمس الشريك لـ(رع) . يسميه المصريون (حور) ، ويسميه الإغريق (حورش) ، ولكنه اشتهر باسمه اللاتيني : (حورس) . وهو ابن (أوزيريس) و (إيزيس) ، أو شقيقهما .

وسماه الإغريق أيضاً : (هاربوكراتيس) ، وجعلوه شريكاً لـ(أبولو) . عبد في عدد من الأمكنة باشكال شتّى وأسماء مختلفة ، ولكنه يمثل دائما بصقر أو رأس صقر [52].

ومن آلهتهم المرتبطة بأجزاء الطير : أمنتي (Amenti) أو أمنت (Ament) وهي ربّة تظهر بريشة نعامة أو ريشة صقر على رأسها ، كانت في بادئ أمرها ربّة إقليم مصر السفلى الغربي ، وصارت فيما بعد ربّة الغرب كله[53].

ومن الأساطير الفنلندية : إيلماتير (Ilmater) ، وهي ابنة الهواء التي طارت فوق البحر سبعة قرون ، ثم خلقت العالم من البيض الذي وضعته بطة أو عُقاب في ركبتها ، ومن قشور البيض خلقت السموات ، ومن نقط البيض الملونة خلقت النجوم ، ومن صفار البيض خلقت الشمس ، ومن بياضه خلقت القمر[54].

ونستنتج من الأساطير المذكورة سابقاً أن رموز الحيوان فيها تدل على القوة والسلطة والعمر الطويل والحظ الحسن ورعاية الأطفال والخِصْب والنبات ونشأة العالم . وترمز بعض الحيوانات كالكلب خاصة الى الموت والجحيم والعالم السفلي . والجامع بين هذه المعاني – في الأعم الأغلب – هو القوة والسلطة والحياة والرعاية والخصب والنبات .

رموز النبات :

يرمز النبات في بعض الأساطير الى الطبيعة كالسماء والأشجار والأنهار . ومن الأمثلة لذلك : كوبالا (Kupala) في أساطير الجنوب الأمريكي ، وهو " ربٌّ تشتمل عبادته على تقديس الزهور والأشجار ومياه الأنهار . وأتباع هذه العبادة يستحمون في مياه نثرت فيها الزهور ، فإما أن يغرقوا تمثاله ، وإما أن يحرقوه في الطقوس التي تقام لعبادته . وفي الكوبالا تقديس خاص بنبتة السّرَخْس وزهرها ، وهي لا تزهر في السنة إلا مرة واحدة ، وذلك في منتصف الليل ، وهي مصدر العطاء والحظ الطيب لمن يمتلكها ، وهو الذي عليه أن يقطعها ويقتلعها أمام أعين الشياطين الذين يحرسونها " [55].

ومن الأساطير الفنلندية المرتبطة بالنبات : جومالا (Jumala) ، وهو ربّ السموات والإله الأعلى للفينيين ، وتعد السّنْديانة شجرته المقدسة [56].

رموز الأجرام السماوية والظواهر الطبيعية :

كان أتون (Aton) أو أتن (Aten) من أشهر الآلهة المصرية القديمة ، وهو اسم أطلق على الشمس في أول الأمر قبل أن يتخذ إلهاً ، ثم صار أتون يدل على القوة الإلهية التي تسكن الشمس ، وعبد إلهاً جديداً بين آلهة أخرى في عهدي (تحوتمس الرابع) و (أمنحوتب) أو (أمنوفيس) الثالث . واتخذ إلهاً واحداً معبوداً في مصر على عهد أمنحوتب أو أمنوفيس الرابع ، إذ فرض الفرعون عبادته على المصريين ؛ وبذلك ظهرت في مصر القديمة أولى بشارات التوحيد ، واتخذ أمنحوتب الرابع لنفسه لقب (اخناتون) أو (اخيناتون) ، ومعناه : (الذي يفرح بأتون) [57].

وفي نشيد أتون يمجد الفرعون المتصوف أعمال إلهة المبدع المحيي قائلاً:

" ... تظهر رائعاً عند الأفق المساوي يا أتون الحي ، مبدع الحياة ، عندما تشرق في الأفق الشرقي تملأ كل مصر بكمالك ... وعندما تغيب في الأفق الغربي تغرق الأرض في الظلام كما لو كانت ميتة ... وعندما تُبدّد الدياجي وأنت تنشر اشعتك ينهض المصران مبتهجينِ ويستيقظان ، فيغسل سكانهما أجسادهم ، ويلبسون ملابسهم ، وترتفع أذرعهم إليك لتعبدك ، ويرتفع المصر كله بالعمل ، وترتفع المواشي في مراعيها ، فيما تخضرّ الأشجار والنباتات ، وتطير الطيور من أعشاشها ... " [58].

وترمز الشمس والقمر الى (خطيئة المحارم) في بعض أساطير الشمال الأمريكي ، إذ ذُكر أليكناك (Aliqnak) أو أنينغان (Aningan) ، وهو الاسم الذي أطلقه الأسكيمو على القمر بعد أن اقترف أخ وأخته الحرام ، فصارا منبوذينِ في الأرض ، فارتفعا الى السماء ، فانقلب أليكناك قمرا ، وانقلبت أخته شمساً [59].

وكان الناس ينظرون في الأزمنة الغابرة الى الكواكب كأنها آلهة ، ثم نظروا إليها كأنها دوائر تديرها ملائكة ، ثم اتخذت مدلولاً معنوياً " وصورت كأنها مستقر النفوس الكبيرة " [60].

وتعد عِشْتار (Ishtat) من أشهر الآلهة في الميثولوجيا الآشورية والبابلية ، وتطلق على الكوكب الزُّهَرَة ، وهي ربّة الخِصْب والأمومة ، ورمز إليها بالنجمة[61].

وأماليثا (Amalthea) التي انقلبت الى برج الجدي في السماء كانت في الأساطير اليونانية عنزة الجبل التي أرضعت (زيوس) في جزيرة كريت، وهو من آلهة الإغريق المشهورة ، وورد في بعض النصوص أن حورية أرضعته حليب الماعز ،ولذلك أكرم زيوس أمالثيا بأن جعلها برج الجدي في السماء [62].

ومن الأساطير الهندية إله النار الآري : أغني (Agni) ، وهو أصغر الآلهة الفيدية الهندوسية . اتخذ شكل البرق وجلب المطر لإخصاب الأرض [63]. وهو إله النار في كتب (الفيدا) ، وله أهمية بالغة في تقديم الأضاحي والقرابين ، لأن شعائر التقديم تجرى للنار إذ يتوجب على ربّ كل منزل أن يقدم قرباناً للنار من اللبن الطازج صباحاً ومساءً من كل يوم . ويقدم القربان عند ظهور الهلال واكتماله بدراً [64].

وللنار في الشعائر الدينية الهندوسية أهمية رمزية تتعدى مسألة الأضاحي والقرابين من حيث الأداء الى الرمزية المتجددة ، أي قدسية الزمان ؛ ففي نصب المذابح تجدد نظرية (تجدد العالم) ، وقد ورد في نصوصهم أن مذبح النار هو السنة ، وبهذا المعنى يمكن أن نرى في تصورهم إعادة لصنع العالم وتجديداً لشباب الزمان (بخلقه من جديد) . والرؤية نفسها تجاه (السنة) من حيث التشابه بينها وبين إله الكون براجاباتي (Prajapati) [65] في الدلالة الزمنية المتجددة والمتصنفة بالقدسية ؛ فكل مذبح للنار جديد " يعيد إنعاش براجاباتي ، أي إنه يشد أزر قداسة العالم ، فالأمر لا يتعلق بـ(الزمان) المعتاد وبمجرد الديمومة الزمنية بل بتقديس (الزمان الكوني) ، وإن الغرض من بناء مذبح النار هو تقديس العالم " [66].

ولنا أن نستنتج مما تقدم ذكره من الأساطير أن الأجرام السماوية والظواهر الطبيعية ترمز – غالباً – الى الربوبية ومستقر النفوس الكبيرة والأمومة والخصب. والجامع بين هذه المعاني هو الربوبية والحياة .

رموز الكائنات الخيالية :

صورت الأساطير البابلية والآشورية الشياطين بصور وهيئات وأشكال مخيفة تبث الخوف والرعب في قلوب ناظريها ، كأن تصور على هيئة أجسام الإنس ورؤوس الحيوانات ، أو بخليط من أعضاء حيوانية مختلفة مخيفة ؛ فعلى سبيل المثال كان لشيطان الحمى " رأس أسد وأسنان حمار وأطراف نمر أرقط ، صوته زئير ، يمسك بيديه أفاعي هائلة " ، وله ثديان يداعبهما كلب أسود وخنزير[67].

ومن الكائنات الخيالية في أساطير ما بين النهرين إله الحرب ننغرسو (Ningirsu) ، وكان يصور على هيئة طير " له رأس أسد . يزمجر كالمياه ، ويندفع نحو البلد المعادي وكأنه العاصفة" [68].

ومنها إمدوغود (Imdogud) إلهة الغيوم الممطرة ، صوّروها على هيئة "طائر أسود له رأس أسد يزآر ، وصوته الرعد ، يطير بأجنحة عظيمة ممدودة في الجو" [69].

ومن الأساطير السلافية ربّ الحرب والخصب : سفانتوفيت (Svantovit) . كان يعبد في مدينة "(أركونا) التي تقع في جزيرة (روجن) في بحر البلطيق. تمثاله في المعبد له أربعة رؤوس ينظر الى الجوانب الأربعة ، ويمسك بيده قرناً ، وبمقدار ما في القرن من خمر يتنبّأ بأحوال السنة الجديدة إن كانت سنة خير وعطاء أو سنة شرّ وقحط [70].

وفي الأساطير اليابانية يعد ريدن (Raiden) ربّاً للرعد ، ويصور على هيئة شيطان له مخالب في أقدامه ويحمل طبلاً [71].

ومن الكائنات الخيالية ما يسمى بالهاربيات (Hrpies) في الميثولوجيا اليونانية ، وتوصف هذه الكائنات بأنها مخلوقات كريهة ، لها أجساد طيور ورؤوس نساء ، وهن دليل على الرياح والعواصف المدمرة " ينفثن رائحة نتنة في طعام ضحاياهن ، وينقلن أرواح الموتى ، ويحددن العقوبة الإلهية " [72].

ومنها : طائر الرعد (Thunder Bird) في أساطير الشمال الأمريكي ، وهو " طائر أسطوري ضخم يشبه النسر . تعتقد بعض القبائل الهنود الشماليين أنه الروح التي تسبب البرق والرعد ، وهو الذي يجلب المطر لمحاصيلهم " [73].

وشاع في الأساطير اليونانية ما يسمى بالقنطورات (Centaurs) ، وهي كائنات خيالية متوحشة نصفها إنسان ونصفها الآخر حصان [74].

ومن أساطير الشمال الأمريكي : غاوة (Gaoh) ، وهو زعيم الريح عند شعب الأرغواز ، وقد صوروه على هيئة مارد مهيمن على الرياح [75].

وكان سيكروب (Cecrops) في الميثولوجيا الإغريقية كائناً نصفه إنسان ونصفه الآخر تِنّين ، ونسب إليه تأسيس مدينة أثينا ، ولذلك سميت أيضاً (سكروبيا) . وهذه النسبة من قبيل إضفاء القدسية على المدينة . وتذكر الأسطورة أنه أدخل الى أتيكا – وهي إحدى مدن اليونان – المدنية والقوانين والشعائر الدينية[76].

ويعد براهما (Brahma) – وهو الربّ الخالق – أول الآلهة الثلاثة في الأساطير الهندوسية . وأما الآخران فهما : (فشنو) و (شيفا) . وتفيد الأسطورة أن براهما ولد من (النارايانا) ، أي البيضة الأولى ، ويصور – عادة – على هيئة أربعة أوجه وأربع اذرع ، ويجلس على عرش من اللوتس [77].

ومن الأساطير الصينية التي تمثل قوى الشر : كونغ كونغ (Kung-kung)، ويصور على هيئة " تِنّين أو وحش له قرون . حطّم أعمدة السماء الزرقاء برأسه ، وتسبب بزلازل كثيرة ما أدى الى طوفان عظيم عندما انهارت قبة السماء وسقطت " [78].

وكان المصريون القدامى يؤمنون بكائن روحاني يتصف بالقوة والحركة والتحول المادي سموه : با(ع) ، وهو في عقائدهم أحد المبادئ الروحية ومن صفات الإله القادر على التجسد بفضل هذه القوة أو الملكة التجسدية ، ويعد للإنسان نمطاً من أنماط الوجود الممكن بعد الموت ؛ فالبا(ع) حين ينعتق من الجسد يواصل الاضطلاع بكل وظائفه الحيوية من حركة وغذاء وشهوة جنسية كما تدل على ذلك الرسوم في المقابر المصرية كابتراده في شجر الجُمّيز[79] أو سفره في قارب الإله رع " [80]. ورمز الى هذا الكائن الروحاني بعصفور ذي وجه بشري . ومن المخلوقات الأسطورية في الميثولوجيا المصرية والآشورية واليونانية ما أطلق عليه اسم سفينكس (Sphinx) ، وتترجم هذه الكلمة عادة بـ(أبي الهول) ؛ فقد تجسد في الأساطير الفرعونية بخليط من الإنسان والحيوان إذ كان رأسه رأس رجل أو حيوان ، وجسده جسد أسد .

وأشهر هذه التماثيل (أبو هول) الكائن على مقربة من أهرامات الجيزة ، وهو منحوت من الصخر في عهد المملكة القديمة ،" واتخذ التمثال وضع الرابض ويحمل غطاء رأس فرعون " ، وكان الفراعنة يتخذون من هذه الكائنات الاسطورية مداخل الى المعابد والقبور لإيمانهم بأنها تحرسها ، كما هو شأن الثور المجنح في الأساطير الآشورية ، وهو تمثال يجمع بين جسد ثور مجنح ورأس إنسان ذي لحية طويلة وغطاء رأس الملك الآشوري . وكان الآشوريون يعتقدون أنه يحرس أبواب المعابد والقصور والمدن . وأما (السفينكس اليوناني) فقد صور على هيئة أجزاء ثلاثة ، الجزء الأول منه امرأة ، والجزء الثاني طير ، والجزء الثالث أسد [81].

ومن الأساطير الرومانية المتصلة بالحب والجمال ربّ الحب المسمى كيوبيد (Cupid) ، وهو نظير الربّ اليوناني إيروس (Eros) ، يصور عادة على هيئة صبي مجنح في يديه قوس ونُشّاب[82].

ولنا أن نستنتج من الأساطير المذكورة آنفاً أن رموز الكائنات الخيالية تدل على الشياطين والحرب والرعد والرياح والعواصف والربوبية والزلازل والطوفان والحب وبعض المبادئ الروحية . والجامع بين هذه المعاني – في الأعم الأغلب – هو قوى الشر والدمار .

رموز الى أشياء مختلفة :

- عظام الملوك : ذهبت الأساطير المصرية الى أن عظام الملوك مصنوعة من فضة ، وشعرهم مصنوع من ذهب ، لدلالة الفضة البيضاء على النقاء والطهارة [83].
- الرقص المقدس : كانت للرقص المقدس في مصر القديمة دلالات رمزية اختلفت في تفسيرها آراء الباحثين . وقد ربط هنري ويلد (Henri Wild) بين الرقص السحري القديم ورقص الدراويش المتصوفة في الإسلام ، فقال: " يتعين على القفزات المتكررة أن تزداد وتتصاعد كما في الذكر الحديث (حلقات الدراويش) . وهذا ربما كان من آثار الرقص السحري القديم . وفي الحالين هدف هذا الأداء هو التحطيم البطيء لفردية المؤدّي وتوليد وجد له تسمح للألوهية بأن تخترقه وتتجسد فيه " [84].

ونحن نتحفظ من هذه الصلة وتفسيرها ونحترز منها ؛ فلا علاقة بين الرقص السحري القديم ورقص المتصوفة المسلمين ، وربما كانت العلاقة بينه وبين الرقص المصري الفرعوني أظهر وأبين ، لأن طقوس المصريين القدامى امتزجت برؤىً سحرية مرتبطة بالآلهة وتقديسها ، فهي نمط من الأداء المقدس.

- (العصا) في الأساطير الهندية والصينية : ترمز العصا في الاساطير الهندية " الى سلاح بين يدي الآلهة ، ولاسيما الإله (ياما) حارس الجنوب ومملكة الموتى " . وأما في الأساطير الصينية فقد كانت العصا تستعمل لطرد الشر والشؤم عند حلول السنة الجديدة ، وكانت (العصا الحمراء) تستعمل لمعاقبة المجرمين ، ولهذه العصا سبع عُقَد أو تسع ترمز الى عدد السماوات أو الأفلاك [85].
- التاج في الأساطير البوذية : كان لتاج المُلْك (الإلهي أو البشري) خمسة ألوان في الديانة البوذية ترمز الى ما يأتي [86]:

1- اللون الأخضر : رمز الى الشمال ، وانعدام الخوف .
2- اللون الأحمر : رمز الى الغرب ، والتأمل .
3- اللون الأزرق : رمز الى الشرق والشهادة .
4- اللون الأبيض : رمز الى الوسط ، والعبرة والتعليم .
5- اللون الأصفر : رمز الى الجنوب ، والمحبة .

- ثوب القضاة في الأساطير اليابانية :كان إمّاو (Emmao) ربّاً بوذياً ، وحاكماً لـ(Yomi) ، وقاضياً تعرض عليه أفعال الخاطئين ، إذ توزن أفعال كل خاطئ قبل أن يدان ويدفع به الى الجحيم في مكانه المناسب لخطيئته . وكان إمّاو " يصور وهو يرتدي ثوب القضاة ، وعلى وجهه تعبير الوعيد " [87].

الحواشي

1- نور الدين خليل : قاموس الأديان الكبرى الثلاثة : 504.
2- الليجندات : " عبارة عن قصص أقيمت على دعائم من الواقع والتأريخ المتعلقين بالأبطال والأحداث مهما كان حظها ضئيلاً. وقد انساقت مع الأساطير في هذا التحليل الوهمي " . شابيرو وهندريكس : معجم الأساطير :7 .
3- معجم الأساطير : 7 .

4- انظـر : سـميت: موسـوعة علـم الإنسـان : 93 ، وبونـت وإيـزار وآخـرين : معجـم الإنثولوجيا والأنثروبولجيا : 68.
5- موسوعة علم الإنسان : 94 .
6- موسوعة علم الإنسان : 94 .
7- موسوعة علم الإنسان : 94 .
8- انظر : موسوعة علم الإنسان : 93 ، 94 .
9- انظر : جعفر نجم نصر : الأنثروبولوجيا التأريخية : 98 ، 99.
10- انظر : الأنثروبولوجيا التأريخية : 103 ، 104 .
11- انظر : موسوعة علم الإنسان : 94 ،95 .
12- الشامان : " الشامانية (Shamanism) مصطلح سيبيري (نسبة الـى سيبيريا) يشير الـى مركب من المعتقدات والممارسات الدينية والطبية السلالية المنتشرة في بيئات متنوعة إثنوغرافياً ، سواء في آسيا أو إفريقيا أو لدى سكان أمريكا الأصليين . ويعرّف الشامان عادة بأنه المختص بالدين مدة من الزمن ، وتعتمد قدراته على الخبرة الشخصية المباشرة " . موسوعة علم الإنسان : 345.
13- معجم الأساطير : 7 .
14- انظر : معجم الأساطير : 9 ، 10 .
15- الياد : المقدس والعادي : 128 .
16- المقدس والعادي : 109 .
17- مسلان : علم الأديان : 86 .
18- علم الأديان : 88 .
19- علم الأديان : 247 .
20- علم الأديان : 247 .
21- علم الأديان : 248 .
22- علم الأديان : 247 .
23- محمد عجينة : موسوعة أساطير العرب :69.
24- هو محمد عجينة مؤلف كتاب موسوعة أساطير العرب . انظر فيما يأتي كتابه المذكور آنفاً : ص35.
25- علم الأديان :245.
26- موسوعة أساطير العرب : 74.
27- علم الأديان : 273 .
28- علم الأديان : 248 .
29- علم الأديان : 248 .
30- موسوعة أساطير العرب: 193.
31- خليل أحمد خليل : معجم الرموز : 74.
32- معجم الأساطير : 139.
33- خليل أحمد خليل : معجم المصطلحات الدينية : 154 .
34- معجم الأساطير : 132.
35- معجم الرموز : 39.
36- موسوعة أساطير العرب : 193 ، 198 .
37- معجم الأساطير : 139 .
38- معجم الأساطير : 224 .
39- معجم الأساطير : 113.
40- معجم المصطلحات الدينية : 35.

41- معجم الأساطير : 56.
42- معجم الرموز : 30.
43- الطوطم (Totem) من الأساطير الإفريقية والشمال الأمريكي ، وهو" حيوان أو نبات أو أي شيء آخر من عالم الطبيعة يستعمل رمزاً الى عائلة أو قبيلة أو جماعة من الناس ، ويعد مقدساً. وتعلق الرموز الطوطمية أو تحفر أو ترسم بألوان فاتحة على أقطاب طوطمية كما يفعل ذلك الهنود الأمريكان " . معجم الأساطير : 256.
44- معجم الأساطير : 158.
45- معجم الأساطير : 57.
46- انظر : معجم الرموز : 145.
47- معجم الرموز : 145.
48- معجم الأساطير : 39.
49- معجم الأساطير : 55.
50- معجم الأساطير : 222.
51- معجم الأساطير : 58.
52- معجم الأساطير :125.
53- معجم الأساطير :35.
54- معجم الأساطير :131.
55- معجم الأساطير : 151.
56- معجم الأساطير : 140.
57- انظر: معجم الأساطير : 50 ، ومعجم المصطلحات الدينية : 12.
58- معجم المصطلحات الدينية : 12 .
59- معجم الأساطير : 33.
60- معجم الرموز : 148 .
61- معجم الأساطير : 135 .
62- معجم الأساطير : 34 .
63- معجم الأساطير : 31 .
64- معجم المصطلحات الدينية : 28.
65- Prajapati : كلمة سنسكريتية تعني إله الكون .
66- المقدس والعادي : 108 .
67- سهيل قاشا : تأريخ الفكر في العراق القديم : 266.
68- تأريخ الفكر في العراق القديم : 48.
69- تأريخ الفكر في العراق القديم : 248.
70- معجم الأساطير : 242.
71- معجم الأساطير : 222.
72- معجم الأساطير : 115.
73- معجم الأساطير : 252.
74- معجم الأساطير : 70 .
75- معجم الأساطير : 104.
76- معجم الأساطير : 70.
77- معجم الأساطير : 62 .
78- معجم الأساطير : 150 .
79- شجرة شبيهة بشجرة التين . انظر : مختار الصحاح ص78 (نشر دار صادر – بيروت 2008م) .

80- معجم المصطلحات الدينية : 43 .
81- معجم الأساطير : 239 .
82- معجم الأساطير : 78 .
83- معجم الرموز : 129 .
84- معجم الرموز : 32 .
85- معجم الرموز : 117 .
86- انظر: معجم الرموز : 36 .
87- معجم الأساطير : 92 .

المصادر

1- الياد (مرسيا): المقدس والعادي – ترجمة عادل العوا – دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت 2009 م .
2- بونت (بيار) ، وإيزار (ميشال) ، وآخرون : معجم الإثنولوجيا والأنثروبولجيا – ترجمة مصباح الصمد – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع (مجلة) – بيروت 1427هـ- 2006م.
3- جعفر نجم نصر : الأنثروبولوجيا التأريخية : الأسس والمجالات في ضوء مدرسة الحوليات الفرنسية – نشر دار أوما للطباعة والنشر (بغداد)، والانتشار العربي (بيروت) – 2013م.
4- خليل أحمد خليل : معجم الرموز (سلسلة المعاجم العلمية) – دار الفكر اللبناني – بيروت 1995م.
5- خليل أحمد خليل : معجم المصطلحات الدينية (سلسلة المعاجم العلمية – دار الفكر اللبناني – بيروت 1995م.
6- سميث (شارلوت سيمور):موسوعة علم الإنسان : المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولجية – ترجمة مجموعة من الباحثين بإشراف محمد الجوهري- المركز القومي للترجمة – القاهرة 2009م.
7- سهيل قاشا (الأب) : تأريخ الفكر في العراق القديم – التنوير للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت 2010م.
8- شابيرو (ماكس) ، وهندريكس (رودا) : معجم الأساطير – ترجمة حنّا عواد – دار علاء الدين – دمشق 2008م.
9- محمد عجينة : موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها – دار الفارابي (بيروت) ، ودار محمد علي للنشر (صفاقس – تونس) – 2005م.
10- مسلان (ميشال) : علم الأديان :مساهمة في التأسيس – ترجمة عز الدين عناية – نشر هيئة (أبو ظبي) للثقافة والتراث (كلمة) ، والمركز الثقافي العربي (بيروت) 1430هـ -2009م.
11- نور الدين خليل : قاموس الأديان الكبرى الثلاثة (اليهودية والمسيحية والإسلام) – مؤسسة حورس الدولية – مصر (الإسكندرية) 2010م.

إيديولوجيا الموت في رواية فرانكشتاين في بغداد

م.د. محمد جري جاسم النداوي
قسم اللغة العربية / كلية الكوت الجامعة

المُلخَّص

تُعد الرواية فناً أدبياً له من العمق والاتساع ما يجعله من أكثر الفنون الأدبية قدرةً على تمثيل الحياة، واستيعاب تجربة الأديب، ذلك أن بناءها الفني يشمل أساليب التعبير الشعرية والقصصية والدرامية، فضلاً عن قدرتها على تصوير واقع المجتمعات، والتعبير عن ضمير الإنسان ومصيره، واستيعاب التجربة التاريخية بشكل فني قادر على إثارة المتلقي وتحقيق انفعاله الوجداني. ولكن من الخطأ أن ننظر إلى الرواية على أنها تجسيد للواقع فقط، لأنها فوق ذلك تحقق موقفاً واضحاً منه، كونها الأقدر على رصد وضع مجتمعاتها من خلال ما تُجسِّده شخصياتها من أدوار، فتصير الرواية على أساس ذلك طاقة سياسية واجتماعية ذات بعد إيديولوجي له ارتهانات متعددة تبرز في نصها، ومن خلال شخصياتها، وأن هذا البعد الإيديولوجي يتداخل فيه الانفعالي، فينتج عن تداخلهما قطعة فنية ذات إحساس مرهف مشحون بالعاطفة، إذ من الممكن أن نتصور أن كل عمل أدبي فني يلزمه أن تكون له نظرية إيديولوجية، أو وجهة نظر معبرة عن فكرٍ معين، وهي التي عبَّر عنها أوسبنسكي في كتابه "شعرية التأليف" بأنَّها (منظومة القيم العامة لرؤية العالم ذهنياً) من أجل ذلك اقتضت هذه الدراسة أن تسلط الضوء على الموضوعة الرئيسة الطاغية في النص السردي لرواية فرانكشتاين في بغداد، ومحاولة تشخيص بعدها الإيديولوجي، لما لهذه الموضوعة/الموت من أثر كبير وفاعل في حياة الانسان، كونها أعظم قضية تقهر تطلعاته وتحد من طموحاته، وهي النهاية الحتمية لكل وجود، لاسيما وان فضاء الرواية/العراق الذي دارت فيه احداث الموت والتقتيل قد اتسمَ بعدِّه فضاءً مشحوناً بالموت والدمار، عندما بدأ يشق طريقه عبر مساراته المرعبة، حتى اصبح أكثر شيوعاً وفوضوية جرّاء ما مني به –العراق- من معتركات سياسية جعلته نهباً لقوى خارجية أدت إلى تصدعات واضحة في نسيجه الوحدوي. ولمَّا كان احمد سعداوي/مؤلف الرواية من جيلٍ شهد تلك الأزمة التي تفاقم أثرها على الفرد والمجتمع الذي صار يحيا في مطبٍ لموت مرعب يُمنَح لأبنائه بالمجان وبشكل قسري كل حين، لذلك كان من الطبيعي أن ترتهن كتاباتهم مع عمق الأزمة لهذه المعتركات. ولكن ماذا يمكن أن يعني الموت في رواية فرانكشتاين في بغداد إبان الحقبة الزمنية التي مثَّلتها؟ والتي كانت ما بعد الاجتياح الأمريكي للعراق. حتماً إنه ليس ما نفهمه من كلمة الموت قبل هذا الزمن، أو في غير فضاء الرواية(بغداد/العراق)، ذلك أن الكلمات ليس لها إلا معانٍ متحركة ومتغيرة من عصر إلى عصر ومن شعب إلى آخر. من أجل ذلك إرتأى هذا البحث الإفصاح عن كل ذلك بدراسة زاوجت بين التنظير والتطبيق بغية تقديم رؤية أوضح لإيديولوجيا الموت في رواية فرانكشتاين في بغداد، مُتحددةً بثلاثة مباحث، تناول المبحث الأول (إشكالية الهوية)، والمبحث الثاني تخصص بـ (الصورة الصادمة للموت)، في حين تضمن المبحث الثالث (السلطة)، وكما سيمر بيانه تباعاً.

Ideology of Death In Frankenstein a Baghdad

Dr. Muhammad Jerry JASIM

Abstract

It can say that the novel is a literary art have deepness and widening make it the most literary arts ability to show the life and comprehension literate attempt, thus, its artistic structure include ways of capillary, novelal and dramatically wording, as well as, its ability to imagining the reality of societies, utterance of human conscience and his destiny and comprehension the historical experience in technical form is able to posing the recipient and actualization his emotional fever, But it is wrong to imagine that the novel is embodiment the realty only. Because it also verify clear consideration of the realty, It is more able to observe our society situation by what its personality forms that its embodiment, then, it according to this the novel became political and society energy which have Ideology path have a lot of mortgage appears on its paragraphs, And, through its characters, and ideological bath threw is the emotional, thereby creating from there overlapping a piece of art with a sense of slender emotionally charged, since it is possible to imagine that every literary work of art has to have an ideological theory, or the viewpoint of expressing a certain ideology, Which expressed by Boris Uspenesky in his book titled "A poetic of Composition" as it is ((system of public cultures to see the world mentally)) for that, this study required to highlights the established major theme in the narrative text of the novel Frankenstein in Baghdad, and try to diagnose its ideological bath , because of this paragraph / death have a large and active effect on human life, as well as, the greatest case of indomitable aspirations and limit his ambitions, which is the inevitable end for all existence, particularly since the rang of the novel / Iraq, which took place the events of death and killing has been marked after the charged space of death and destruction, When it began to make his way through tracks the terrifying even become more common and chaotic as a result of what exposed IRAQ from the political battlefields Made it prey to external forces led to visible cracks in the fabric Unionist.

As Ahmed Saadawi/ author of the novel from generation saw the crisis that exacerbated the effect on the individual and society, which has become live falling into the death of a terrifying gives to his children free of charge and is forced all the time, So it was natural that depend on their writing with the deepest of the crisis for these battlefields.

But what it can mean the death in the novel of Frankenstein in Baghdad during the era that represented?

And that was after the US invasion of Iraq. It certainly is not what we understand from the word of death before this time, Or not on the space of the novel (Baghdad / Iraq), so that the words have not only changing and animation means between periods to another. For that felt this research disclosure of all that by a study combined between theory and application in order to provide a clearer view of the ideology of death in the novel Frankenstein in Baghdad, circumscribed by three research, The first research take over (the problem of identity), and the second one devoted to (Death shocking view), in while the third research ensuring (power), and also will show

المبحث الأول
الموت وإشكالية الهوية

إن دخول العراق/فضاء رواية فرانكشتاين في بغداد، معترك الحروب الأهلية، والصراعات الداخلية والتغيرات السياسية التي شهدها بعد الاجتياح الأمريكي له، أدى إلى حدوث تصدعات في انتمائه الوحدوي، يغذي ذلك التصدع الخليط غير المتماثل لمكونات المجتمع العراقي/مجتمع الرواية، القائم على ديانات متعددة، وقوميات مختلفة وإثنيات.

من أجل ذلك برز مفهوم الهوية بإلحاح إزاء تأزمها في ظل الصراعات الهوياتية والحروب الأهلية القائمة، وتبعاً للظروف والعوامل التي شكَّلت تحدياتٍ ضربت المنظومة الثقافية للجماهير التي كانت في يوم ما غير واعية لعدم تجانسها الهوياتي، مما تسبب بخلخلة توازنها الاجتماعي، فتولَّدت أزمة هوياتية ناتجة عن تصدع الانتماء الأوحد لها. ولكون " أحمد سعداوي" في روايته (فرانكشتاين في بغداد) مثل غيره من الروائيين[1]، جزءٌ من هذه المنظومة الثقافية، فقد حفلت رواياتهم بإحالات عديدة لتسليط الضوء على التأزم الهوياتي لشخصياتهم الروائية، وإشكاليتها لديهم. إذ تثير رواية فرانكشتاين في بغداد إشكالية هوية تبدو بصورة جلية في محنة الأقلية المسيحية في العراق، إذ تكشف الرواية ما تعانيه هذه الأقلية من ويلات التقتيل والتهجير في بلدهم العراق، تتجسد هذه المحنة بشكل واضح في الشخصية الروائية (أم دانيال) وهي العجوز إيليشوا التي تسكن زقاق 7 في البتاوين وحيدة، بعد أن رحل عنها بناتها وأكثر أقاربها خارج البلاد بسبب سوء الأوضاع في العراق، تبقى متشبثة بهذا البلد الذي ظل يلفظ أبناءه خارج أسواره، على أمل

عودة ابنها دانيال الذي اقتاده أبو زيدون الحلاق وأرسله إلى الجيش، ومنذ تلك اللحظة لم ترى ابنها قط، فظلت ناقمة على أبي زيدون، ومنتظرة عودة ابنها، فهي تستعمل ذكرى ولدها كي تتمكن من العيش في هذا الوطن الطارد، وكل من يعرفها من الجيران يعلم بهذه الحقيقة[2] لذلك يعجز فرج الدلال وهادي العتاك عن ثنيها في ترك بيتها/وطنها واستبداله بآخر مع مبلغ من المال يعينها على أعباء حياتها: ((حاول فرج الدلال أكثر من مرة، خلال السنوات الماضية أقناع العجوز إيليشوا ببيع بيتها القديم من دون أن ينجح في ذلك . كانت تكتفي بالرفض [...] وبالنسبة لهادي العتاك، جار العجوز [...] طلب منها أيضا أن تبيعه الأنتيكات التي تحتشد في بيتها [...] فقادته العجوز إلى باب البيت ولم تزد شيئاً على كلماتها الرافضة [...لكن] لم يتوقف الرجلان عن تكرار المحاولات ...))[3].

كانت أمثال هذه الممارسات والمضايقات هي الدليل على إشعار أصحاب الأقليات بأقليتهم وبنبذهم أو محاولة تهميشهم أو إقصائهم، وهي ممارسات تأخذ أشكالاً متعددة، كما حصل مع "نادر شموني" الذي تعرض هو الآخر لمضايقات عديدة تركته يشعر بالضجر وبالتهديد أيضاً، من تلك الممارسات ما كان يجده من مادة لاصقة على أقفال بيته يومياً لإرغامه على ترك بيته مفتوحاً لمن يريد التسلل إلى بناته أو إلى بيته بكل سهولة[4] ،فضلاً عن التهديدات التي كان يتلقاها بشكل دوري، إلى درجة أصبح قراره بترك البلاد أمراً لابدَّ منه، كي يحافظ على حياته وحياة اسرته، لذلك قال لأم دانيال: ((والله الحياة صارت صعبة .. ما نفع البيت إذا كانت الحياة صعبة .. خوف وموت وقلق، المجرمون بالشوارع .. الناس عيونهم تاكل الواحد وهو يمشي .. حتى بالنوم كوابيس وكلساع نفز))[5]. لكن تعلُّق أم دانيال بدارها/بلادها كان قد فاجأ نادر شموني، عندما لم يهزها كلامه آنف الذكر، بل ردّت عليه بمقتبس ديني قائلةً له: ((لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد))[6].

يثير هذا الحوار بين نادر شموني وأم دانيال محنةً جماعية للأقلية المسيحية التي تعاني تهميشاً هوياتياً وإقصاءً لها من قبل الطوائف الدينية الأخرى، الأمر الذي يجعل بعض الشخصيات الروائية لهذه الأقلية منصاعةً لفعل الإقصاء والتهميش والاضطهاد، تاركةً بلادها لملاذات أكثر أمناً لها، فينتج عن ذلك تمزقاً هوياتياً واضحاً، وشعوراً بعدم الانتماء للهوية الكبرى(الوطن/العراق)، فتنشأ انتماءات هوياتية فرعية في ملاذاتهم الآمنة تتركهم يشعرون بالقبول والاندماج. ومن أجل ترسيخ

هذا المفهوم (مفهوم التمزق الهوياتي) في الرواية بشكل دقيق، وتسليط الضوء عليه بشكل أكبر، استعان النص السردي للرواية بترميزٍ ساعد على تعميق أثره، وهذا الترميز هو انهيار بيت ام دانيال "العجوز إيليشوا" بفعل التفجير الإرهابي الذي حدث في البتاوين، بعد هجرتها للعراق/وطنها مباشرةً، الذي يرمز إلى انهيارِ التعايش السلمي الذي كانت عليه جميع طوائف الشعب في وقت ما: ((انهار بيت أم دانيال تماما. لم تتبقَ فيه حجارة فوق أخرى، فهو الذي استقبل قوة التفجير الأكبر[...] إن جدران بيت أم دانيال عملت كموانع ومصدات لحماية ما جاورها من أبنية...))[7].

تحاول الرواية في نصها السردي أن تلقي بالضوء على ضرورة التعايش والاندماج بين جميع الطوائف والأقليات الجماهيرية، وان غيان ذلك التعايش والاندماج من شأنه أن يُلحق ضرره على جسد البلد ككل، مُحدِثاً تمزقاً هوياتياً، وتفتتاً لكل أجزاء البلد الواحد. لذلك في كل مرّة تبرز للمتلقي صورة القديس الشهيد "ماركوركيس" ذي الوجه الملائكي في النص السردي للرواية وهو ((يرتدي درعاً فضياً سميكاً يغطي بصفائحه اللامعة كل جسده، مع خوذة مريشة [...] ورمح طويل مدبب مُشرع في الهواء، وكل هذه الهيئة القتالية تجثم على حصان أبيض عضلي البنية يرفع قائمتيه الأماميتين المطويتين في الهواء في محاولة لتجنب فكي غول مفترس بشع المنظر ينبثق من زاوية الصورة وهو يهم بابتلاع الحصان والقديس...))[8].في ترميز آخر للعناية الإلهية بهذه الأقلية أمام افتراسها أو وأدها، وهي صورة تمثل مدى ما تعيشه هذه الأقلية من رعب حقيقي، ومدى بشاعة فعل الطرف الآخر المعادي، وقبح مظهره الذي يجسد قبح ممارساته القمعية.. فتكون حادثة الدفن لتابوت فارغ لدانيال، إلاّ من بعض امتعته ومقتنياته[9] ترميزاً آخر، وأكثر عمقاً ودلالةً على دفن كل أمل للأحياء – أهل دانيال-بعودة الفقيد، وهو أيضاً دفن لكل أمل لهم بوطنٍ قادر على أن يسكن وجدانهم ويتربع في احاسيسهم.

من جانب آخر تحاول الرواية تسليط الضوء على إشكالية الهوية في نصها السردي، ومن خلاله أيضاً، ولكن بتلوين آخر أكثر اتساعا مما سبق بيانه، عن طريق الشخصية المحورية في الرواية (الشسمه) الذي يصنعه هادي العتاك من جذاذات بشرية تعود لمكونات وأعراق وأجناس وخلفيات اجتماعية متعددة[10] يجد تلك الأجزاء البشرية لضحايا التفجيرات ملقاة في الشارع مع النفايات، فيخيط منها جسداً كاملاً على أمل أن يذهب بهذا الجسد إلى الطب العدلي محتجاً بأنهم

أهملوا بشراً كاملاً تاركين أجزاءه في الشارع.. ولكن تجري الأحداث على غير ما يريد هذا العتاك، عندما يجد هذا الجسد روحاً تائهةً هي روح الشرطي حسيب الذي يموت بسبب تفجير انتحاري يهم باقتحام فندق السدير بسيارة نفايات وتفجيرها...

على الرغم مما تثيره هذه التشكيلة لجسد الشسمه من دلالات عميقة لمحنة القتل والدمار التي لا تقع على فئة أو طائفة دون أخرى، بل تطبق سدولها كالظلام الحالك على كل الفئات الجماهيرية المكونة لجسد الشعب العراقي، أي إن القتل والإرهاب قد أصاب كل طوائف الشعب الواحد وأعراقه، من أقليات أو أكثريات. إلّا أن هذا المكون/الشسمه بما هو عليه من تركيب ودمج لخليط متنوع لضحايا التفجيرات الإرهابية، يمنح النص بُعداً إيديولوجيا يتحدد بتشكل وعي عام لدى الجماهير المقموعة بضرورة التوحد والاندماج مرّة أخرى من أجل مجابهة هذه المحنة الجماعية. هذا من جانب، ومن جانب آخر تتجلى دلالة أخرى في أن كل طوائف الشعب وأعراقه لم تعد ضحية، بل إنها أيضاً مشاركة في فعل الإجرام، حينما يأخذ الشسمه على عاتقه مهمة الأخذ بثأر ضحايا الإرهاب عند قيامه بدور المُخلِّص والمنتظَر والمرغوب به، لكنه يصل إلى مرحلة من القتل يجد نفسه قد تلطَّخت يداه بدماء بريئة[11] وأن جسده لم يعد مكوَّناً من جذاذات ضحايا أبرياء، بل من جذاذات لمجرمين من الشعب نفسه؛ لأنهم حملوا السلاح أيضاً[12] ، فيخلص إلى نتيجة يعينه بعض مساعديه في الاقتناع بها وتبنّيها، تساعده في أن تكون سبباً مقبولاً لتبرير سلوكه الاجرامي، وتعزيز ثقته بقدسية ممارساته، هذه الفكرة تصير أشبه بمبدأ يمتثله حد الإيمان به، وهو: ((ليس هنالك أبرياء أنقياء بشكل كامل، ولا مجرمين كاملين))[13].

إن هذه المسألة تلقي بالضوء على أزمة جماعية تتجلى في إحساس بعض مكونات الشعب التي مثلتها الشخصيات الروائية، بأنها ضحية لسطوة المكون الآخر، فما تلبث أن تحاول الأخذ بثأرها والظفر بذلك المكون، يساعدها غياب الأمن والاستقرار ((كانت المعركة سريعة بين مجموعتين من المسلحين، سرعان ما انكسرت المجموعة الأولى وهربت، واستطاعت المجموعة الثانية أن تلقي القبض على اثنين من المجموعة الهاربة [...] دفعوا الشابين على الحائط، ثم صاحوا مرتين أو ثلاث "الله أكبر" وفتحوا نيران بنادقهم، تهاوا الشابان على الأرض سريعاً. وضع المسلحون بنادقهم على أكتافهم مثل مساحي فلاحين وغادروا سريعاً))[14].

هذه الفوضوية والدموية التي أشار إليها النص المقتبس تستجلي بوضوح غياب التعايش السلمي بين الشخصيات الممثِّلة لمجتمع الرواية، وانعدام الاندماج بين طوائفه وأعراقه؛ بسبب القتل وفعل التمويت، الأمر الذي يسبب تمزقاً هوياتياً داخل أوصال الانتماء الواحد،ويخلق حالة من الفوضى والدموية قادرة على تحطيم مفهوم الوطن لدى الشخصيات وتصدعه إلى درجة التعاطي معه بعدم الألفة، كونه الوطن الطارد لأبنائه، مما يخلق حالة من عدم الانتماء بين الشخصيات في حدود عالمها الروائي المتخيل الذي تحيا فيه مقموعة ومضطهدة، جرّاء فعل الإقصاء بالموت أو بالترحيل القسري...

المبحث الثاني
الصورة الصادمة الموت

يعود اهتمام الانسان بالصورة إلى أزمان سحيقة تعود إلى العصور الحجرية القديمة التي استجْلَتْ ولعه برسم أشياء من حياته ومشاهداته كبصمة يتركها للأجيال من بعده. هذا الشغف بالصورة الذي لايزال قائماً إلى الآن قد يتأتَّى من جملة حقائق، لعل أهمها عدم ثبات الصورة في كل عصر على مفاهيم محددة، أو جماليات ثابتة، فهي متغيرة بمدلولاتها وجمالياتها، مما يمنحها بعداً واضحاً من المرونة، ويبعدها عن الرتابة والجمود او التنميط، فضلاً عن أنها تثير جملة من الأحاسيس والمشاعر والرؤى في كل مرّة يتم تلقيها، ومن قِبَلِ أي متلقٍ لها، مما يساعد على تأثيرها السريع في النفوس، وشدَّة التصاقها بالذهن..غير أن في الوقت الراهن، وابان عصف الإرهاب والترهيب العالمي، برز شكل جديد للصورة روجت لها وسائل الإعلام، وتبنته المخيلة الجماهيرية بشكل غير واعٍ، أو بشكل واعٍ حسب المستويات الذهنية والمنظومة الثقافية لتلك الجماهير، فتمثَّلته في ممارساتها المختلفة، وفي مخرجاتها المتنوعة، ذلك الشكل هو (الصورة الصادمة للموت)، والشغف بالصورة العنيفة له، على الرغم من استهجانها لذلك. وحادثة احراق الطيّار الأردني (الكساسبة) من قبل ما يعرف بتنظيم داعش، بما يحمله المشهد من صدمة وعنف ووحشية، الدليل الأوضح على ذلك الشغف، علماً أن ((إدارة اليوتيوب عمدت إلى حذف مقطع "شفاء الصدور" الذي بثه داعش عن احراق الكساسبة مرّات عدّة، لكن داعش كان كل مرة يعيد تحميله على شبكة الانترنت إلى أن تيقن أنه وصل تماماً إلى مقصده))[15] لكثرة المشاهدة له من قبل الجماهير التي وجدت نفسها مدفوعة بقوة لمتابعة الحدث ومشاهدته بحماسة مروعة..

لقد تأثرت الرواية بشكل خاص، والفنون الإبداعية بشكل أعم، بهذه الذوقية الجديدة، فسخَّرت متونها السردية لخلق صورة قادرة على فعل التأثير بالمتلقي، وإحداث الصدمة الوجدانية له، وذلك بالاستعانة بقوة الكلمات لتلك المتون السردية ((وما تثيره من صور هي مستقلة تماماً عن معانيها الحقيقية))[16]. بل قد يصعب تحديد مدلولاتها بدرجة ما؛ نظراً لتشظيها، مما يكسبها قدرة أكبر على التأثير والفعل. ومن جانبٍ آخر فإن الكلمات، لاسيما في النصوص الإبداعية، لا تشكِّل كلمات

فحسب، لكنها تُحيل أو لابُدّ أن تُحيل إلى إيديولوجيا فردية أو جماعية، سياسية أو اجتماعية أو ثقافية، وذلك بحسب المتلقي لها، والبيئة والسياق المبثوثة فيه.

تعد رواية (فرانكشتاين في بغداد) رواية موت بامتياز، ذلك أنها عملت على تسخير مبناها الحكائي من أجل خلق عدّة صور صادمة للموت، وقادرة على أن تبث الرعب عند المتلقي، وتشحن جوه النفسي بالسوداوية والانفعال، تجلَّت أهمها في المراسيم الأولى لنهوض الموت وانفلاته من براثن الوحشة والظلمة، كاسراً عن نفسه طوق الفناء والتلاشي، وعودته للحياة من أجل القصاص العادل، قالت العجوز إيليشوا للشسمه في اللحظة التي انغمست فيها الروح الهائمة لحارس فندق السدير في الجثة التي خاطها هادي العتاك، صاحت عليه: ((انهض يا دانيال [...] فنهض من مكانه فوراً. جاءه (الأمر) [...] اشعلت العجوز بندائها هذه التركيبة العجيبة [...] اخرجته العجوز من المجهول بالاسم الذي منحته له: دانيال..))[17]. إن فعل الأمر (انهض) الصادر من العجوز إيليشوا، والذي يُعَد بداية الفصل الخامس من الرواية الحامل لعنوان (الجثة) كان كفيلاً بخلق جو من الخوف أو الرعب في لحظة فعل القراءة للنص، فكأنَّ المتلقي يقرأ كتاب موتٍ أو كتاب إحضار الأرواح، لاسيما أن جملة فعل الأمر أعقبتها تلبية سريعة بالإجابة للنهوض ((فنهض من مكانه)) مما منح المشهد حمولة معرفية وترميزية واضحة، وجَّهت تلك الحمولة ثقلها نحو العجوز إيليشوا التي شكَّلت لها مكانة تعالي وارتفاع على النص وعلى الواقع الدامي، أو في أقل تقدير، على المأمور/الشسمه الذي لا يزال مجهولاً غير مكتمل الصورة والهيئة لها، بل إنها هي التي اكسبته اسماً، كما أنها من منحته الحياة، حينما أمرته بالنهوض، فنهض من غياهب الظلمة والعتمة، وخرق حاجز الزمن بين عالمي الحياة والموت، ليحيا من جديد. أو هي الصيحة التي أحيت الموت/ الشسمه من أجل النهوض بمهمة القتل والتمويت.

إن النص السابق الذي تصدَّره عنوان (الجثة) عمل مع عنوانه بشكل متلاحم على خلق إشارات ودلالات عملت على توجيه فعل القراءة نحو وجهة محددة تلخَّصت بزجّ المتلقي في جوٍ من الخوف والهلع منح النص بُعداً يوتوبياً واضحاً، وفي الوقت ذاته، خلق انطباعاً أولياً لدى المتلقي تلخَّص بما اشرنا إليه آنفاً، لاسيما إذا كان هذا الموت الذي عاد إلى الحياة استجابة لنداء العجوز، هو تركيبة منتظرة ومتوسَّلٌ بها لرفع الظلم: ((أنا الرد والجواب على نداء المساكين. أنا مخلص ومنتظَر ومرغوب به ومأمول بصورة ما. لقد تحركت أخيراً تلك العتلات الخفية التي أصابها الصدأ من ندرة الاستعمال. عتلات لقانون لا يستيقظ دائماً. اجتمعت دعوات الضحايا وأهاليها مرة

واحدة ودفعت بزخمها الصاخب تلك العتلات الخفية فتحركت احشاء العتمة وأنجبتني. أنا الرد على ندائهم برفع الظلم...)).[18]

إن احدى المهام الأساسية للكلمات أنها تثير مفاهيم معينة لدى الفئات الجماهيرية، وفي أوقات زمنية محددة، لذلك فإن فعل التمويت، أو نهوض الموت مجسَّداً بشخص الشسمه من أجل التمويت والتقتيل، وفي المكان الذي دارت فيه أحداث الرواية وهو العراق، قد يُحيل كل ذلك إلى إيديولوجيا متخفية تحت رداء المبنى الحكائي للنص السردي، مُحدِداً الذهنية العامة للجماهير وتطلعها إلى مُخلِّص أسطوري أو سماوي قادرٍ على تحقيق العدل وكشف الظلم عن المساكين والمقموعين، آخذاً بثأر قتلاهم. هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإن ذلك يلقي بالضور على الإرادة المنكسرة لتلك الفئات الجماهيرية العاجزة عن قيادة نفسها وتخليصها من شبح الإرهاب والموت، من أجل هذا تنهض هذه التركيبة (للشسمه) التي هي نفسها تركيبة قتل وصورة موت صادمة للمتلقي، ولكلِّ الشخصيات الروائية التي شاهدت هذه التركيبة: ((هيئة بشعة وفم كأنه جرح في الوجه. كذلك ما روته أم رغد [...] كان جسمه لزجاً كأنه مدهون بدم [...] أم سليم تدعي أنها شاهدته [...] كان أبشع ما رأته عيناها. حاشا لله أن يخلق وجها مثل هذا. النظر إليه يورث الهم والخوف والفزع..))[19].

إن هذه التركيبة البشعة للشسمه لم تكتفِ بفعل الموت، بل عملت على خلق صورة مرعبة بثت الرعب والخوف لدى جميع شخصيات الرواية، مما جعل الجو العام للراوية جواً تسوده الدموية والعنف، تحقق ذلك من خلال الصورة التي كان-الشسمه-يقتل بها ضحاياه، كقتله للشحاذين الأربعة: ((هنالك حالة من الخوف والترقب تسود بين الأهالي، لأن من قتل هؤلاء الشحاذين الذين صاروا مشهورين بالموت وليس بالحياة، قتلهم خنقاً ثم ربط أيدي بعضهم إلى أعناق بعض في عملية معقدة وغريبة))[20].

إن الدخول في وصف بعض تفاصيل صورة الضحايا-قتل الشحاذين الأربعة-والذي تكرر أكثر من مرة في النص السردي للرواية، له دلالات عميقة، أهمها الامتثال للذهنية السائدة لدى المتلقين الميّالة إلى الشغف بكل ما هو عنيف ودموي من صور قتل صادمة لموت الإنسانية.

تتكرر في الرواية صورة الموت الصادمة التي تؤطر بكلماتها تفاصيل الحادثة بشكل أكثر ترويعاً، كما حدث لأبي زيدون الحلاق الذي قتله الشسمه ثأراً لدانيال أو لأم دانيال؛ لأنه كان سبباً

في موت دانيال قبل 20 سنة: ((كان نائماً أو بدا هكذا [...] بينما مقبض مقص من الستيل يبرز من خلف عظم القص أسفل رقبته[...] دخل أحدهم فجأة إلى المحل أثناء غياب الابن[...] استل المقص وغرزه عميقاً في ترقوة الرجل العجوز الساهي الغارق في غيبوبات الشيخوخة المتقدمة..))[21]. إن المفارقة تتحقق حينما يتبين أن أبا زيدون قد مات بالسكتة القلبية حسب التقرير الطبي[22]، مما يخلق موتاً ترميزياً لأبي زيدون، يتحدد بضرورة تشكيل صورة بشعة صادمة للشخصيات وللمتلقي تكون خاتمة لحياة هذه الشخصية، وقصاصاً عادلاً لأفعاله السابقة، وفي الوقت ذاته يكون هذا القتل إشفاءً لقلب أم دانيال التي توقد 20 شمعة أمام مذبح العذراء في كنيسة الأرمن، تشفياً بموت هذا الحلاق الذي سرق ابنها وترك حضنها يندب لقياه، حينما اقتاده إلى المجهول قبل 20سنة.

إن تكرار صورة الموت أو القتل بالشكل الذي تعرَّضت له الرواية يشكل تأثراً وتأثيراً متبادلين بالمخيلة الجماهيرية السائدة في البيئة التي انخلقت فيها الرواية، تلك البيئة التي تتصف بكونها أكثر عنفاً ودموية إلى درجة امتثال الذوق العام والذهنية السائدة بصورة القتل والدماء.

تتجلى في الرواية صورة أخرى للموت لا تتحدد في شخصية محددة أو حادثة معينة، بل في مفصلٍ مهم من مفاصل النص السردي للرواية، وهو الفضاء المُدرَك[*] بعيني الشخصيات وحواسها الأخرى التي عملت مجتمعة من أجل تأطير حدوده وترسيم معالمه، حتى يولد على وفق صورة قادرة على شحن عاطفة المتلقي الرعب والعنف والدموية: ((كان الانفجار فضيعاً [...] ارتطم في الطريق بأجساد الهاربين من الانفجار. غزا أنفه الدخان من بعيد، دخان الانفجار واحتراق البلاستك وكشنات السيارات وشواء الأجساد[...] كان الجو غائماً ينبئ بمطر غزير والعمال يصطفون بإعداد كبيرة[...] كان هناك جرحى يئنون والكثير من الاجساد النائمة أو المتحاضنة والمكونة فوق بعضها على الرصيف...))[23].

إن هذا الانفجار الذي تشكَّلت صورته الدامية بدقَّة والمسرود من قبل الراوي المتموقع في شخصية هادي العتاك، لا يتم تلقيه من خلال عيني الشخصية المُشاهِدة للحدث فحسب، بل من خلال حواسها كلها تقريباً، كحاسة اللمس(ارتطم بأجساد الهاربين) وحاسة الشم(غزا انفه) والسمع (كان الانفجار فضيعاً) والبصر أيضاً. هذه الحواس عملت مجتمعة من أجل خلق عدّة علاقات بين الشخصية والفضاء، من هذه العلاقات (علاقة التأطير، وعلاقة التفاعل الإدراكي) فالشخصية/هادي العتاك التي كانت قائمة في فضائها الروائي حددتْ انطباعاتها ذلك الفضاء بوضوح، وأبرزت إقصاءها فيه شعورياً؛ بسبب مستجدات جعلت واقعها مأزوماً ودموياً، هذه المُستجدات تمثلت بالانفجار الذي

رسمت الشخصية معالمَه وأُطُرَهُ من خلال حواسها مجتمعةً. مما يُحيل إلى تشبع جميع حواس الشخصية بكينونة الموت والدمار، إلى درجة الضجر من ذلك كله، والسأم من الوجود الذي أصبح يقيناً لدى تلك الشخصيات بأن لا جدوى منه: ((جلس [هادي] على الرصيف طويلاً .. أفترض أن مفخخة أو عبوة ناسفة يمكن أن تنفجر في أي لحظة.))[24].

إن الفضاء المُدرَك الموحي بالموت الذي تمَّ تجسيده من خلال حواس الشخصية[25] رسم صورة واضحة للموت لم تجسِّد الواقع الذي انخلقت في احضانه الرواية فحسب، بل إنها عملت على أن تشكل موقفاً منه في قدرتها على رصد تناقضاته وسلبياته، وتسليط الضوء عليها بشكلٍ فني أكثر واقعية، مما خلق مسافة بين الدلالة الحقيقية لمفهوم الوطن ودلالته المتحققة في نفس الشخصية، هذه الدلالة الأخيرة غذَّتها الأحداث السردية التي عصفت بحمولاتها الصادمة للشخصية، وأسهمت في إثراء مفهوم مغاير عن الوطن/الملاذ الآمن، عندما مارست الشخصية اسقاطاتها الإدراكية عليه بشكل شخَّص عمق أزمتها فيه. هذا من جانب، ومن جانب آخر، استجلت تلك الصور أزمة الشخصيات، ووجهت المصابيح أنوارها إلى تأزمها وتشتتها في واقعا إلى درجة انسحاقها فيه حد الإذلال، أو حد الموت والفناء.

المبحث الثالث
السُـــلطَة

تبرز السلطة بِعَدِّها ممارسة لا بُدَّ منها للتجمعات البشرية المتطلِّعة إلى تنظيم أفرادها، وتمكين اندماجهم ضمن مكون محدد يضمن لهم استمرارية العيش برفاه واستقرار، ويحقق لهم رضاهم بوضعهم، فارضاً احترام نفوذهم وسيادتهم على المكونات السلطوية الأخرى غير المتماثلة معهم، أو غير المندمجة ضمن نفوذهم وتحت قيادتهم السلطوية.

إن أي اندماج، وتحت أي قيادة سلطوية، لا يتحقق إلا من خلال تمرير الشرعية، بشكل خفي أو معلن، للأفراد، من أجل ممارسة القوة عليهم، وفرض الطاعة للسلطة، ((لذلك فإن أي شخص حُر ومسؤول عن أعماله يخضع بإرادته أو يطيع أمر شخص آخر يعتقد أنه من أصحاب السلطة، وإطاعة السلطة أمر لا يفرض بالإجبار أو التهديد بالعنف))[26]. فهي على الرغم من أهميتها لأي تجمع بشري، إلا أن ذلك لا يبرر تذرعها بالعنف، وممارسة سلطتها بالقهر والتعنيف، فهنالك ((فرق كبير بين السلطة كحقيقة اجتماعية واقعية، أو كحق اجتماعي يعتمد على التكوين السياسي الإنساني، ويجب أن يمارس بحقه، أي وفقاً لشرعية اجتماعية سياسية، وبين السلطة كواقع سياسي يقوم على القوة والتسلُّط والغلبة والقهر دونما شرعية يستند إليها...))[27].

إن هذا التباين في فهم السلطة، أو تعمد الفهم له على وفق كيفية محددة، هو ما حاولت رواية (فرانكشتاين في بغداد) الإفصاح عنه، وتسليط الضوء عليه بشكل فني قادر على إثارة اهتمام المتلقي، وزجِّه في عالم الرواية بشكل واضح. فقد اتخذ مفهوم السلطة في رواية فرانكشتاين في بغداد عدَّة وجوه، لكل منها أيديولوجيتها وممارساتها السلطوية أو التسلطية القمعية الرامية إلى فعل الإخضاع، تحدد الوجه الأول بسلطة النفوذ الأمريكي في العراق. أما الوجه الثاني فقد تمثَّل بسلطة الدولة/الحكومة العراقية بمؤسساتها ودوائرها التي تكفَّل أفرادها المنتمين لها بأداء دورها السلطوي وتحقيقه. في حين جسَّد الشكل الثالث للسلطة في الرواية شخصية الشسمه، تلك السلطة التي انبثقت وتكونت شيئاً فشيئاً حتى تضخمت كي تقوم بدورها السلطوي القائم على فعل التمرد الماورائي في كثير من ممارساته-كما سيمر توضيحه تباعاً-.

ربما يكون الوجه الأول للسلطة الأمريكية في العراق هو أكثر الوجوه قمعاً وتسلطية على الأفراد الذين يقعون تحت نفوذه؛ ذلك أنه المُسِّر للوجه الثاني والمتحكِّم به بشكل كلي، إذ إنه يتخذ من بعض مؤسساتها وسيلة من وسائل امتصاص الصدمة الجماهيرية الرافضة للتواجد الأمريكي، من أجل أن يتم تقبُّلهُ، والرضا بوجوده. ذلك أن ظاهر عمل تلك المؤسسات الناشطة في ظل التواجد الأمريكي هو قيامها على خدمة الجماهير، وحماية أمنهم، والحفاظ على سلامتهم، لكن باطن الأمر هو خلاف الظاهر تماماً؛ لأن تلك المؤسسات التي يأمر الأمريكان بتشكيلها يكون لها غايات محددة تخدم إيديولوجية التواجد الأمريكي وتقوية نفوذه في مجتمع الرواية، وتضرب رغبات الجماهير بالصميم؛ لأنها تهدد وجود هذه الجماهير، وتزعزع أمنها، وتشتت وحدتها. وقد أفصحت الرواية عن ذلك بوضوح، لاسيما ما يخص دائرة (المتابعة والتعقيب) المؤسسة من قبل الأمريكان وتحت إشرافهم للقيام بمهام محاربة الجريمة والإرهاب في العراق، بإدارة العميد "محمد سرور" والتي يقول عنها "علي باهر السعيدي" مدير مجلة الحقيقة لصديقه ((العميد سرور في الحقيقة لا يلاحق جرائم غريبة ولا هم يحزنون .. إنه موظف من قبل سلطة الائتلاف الأمريكية المؤقتة لقيادة فريق اغتيالات.

- اغتيالات؟
- نعم.. هو ينفذ منذ سنة أو أكثر جانباً من سياسة السفير الأمريكي زلماي خليل زادة بشأن خلق توازن عنيف في الشارع العراقي بين الميليشيات السُنية والشيعية))[28].

من خلال هذا الاقتباس يبرز الأثر الخطير لهذا الوجه من السلطة المُتحكِّم -خفيةً-بكل وجه من وجوه السلطة الأخرى في مجتمع الرواية، سواء بشكل طوعي إرادي، مثل العميد سرور الممثل للحكومة، أو بشكل غير طوعي لا إرادي، مثل الشسمه وأتباعه، أو أي ميليشيا أخرى لها نفوذها وسلطتها أو تسلطها، تسير-من غير وعي منها-في مسار التوازن العنيف الذي ترمي له سلطة التواجد الأمريكي. ومن جانب آخر أنها تقوم بتشكيل بعض مؤسساتٍ تحرص على تحقيق مصالحها أو حماية أيديولوجيتها، لكنها تظهر بمظهر الملاك المقدس لتلك الجماهير المخدوعة بعملها، وبممارساتها الخادمة للآخر الغربي المتحكم والمُسيطر، بما يجعل من تلك الجماهير تابعة وخاضعة ومقموعة وغير قادرةً على فعل التغيير على الرغم من تأزمها: ((دخلا [علي باهر السعيدي وصديقه محمود السوادي] إلى الكرادة، استغرقا في الزحام الذي خلقته دورية الهمرات الأمريكية التي تسير ببطء ويشهر الجنود من فوقها الأسلحة بوجه السيارات التي تسير خلفها))[29].

جاءت هذه العبارات من خلال عيني محمود السوادي الذي لم يحتمل الموقف بخلاف علي باهر الذي كان الأمر برمته شيئاً مألوفاً لديه وروتيني. غير أن العبارة الأخيرة (تسير ببطء ويشهر الجنود...) ترمز إلى التأهب من المقابل/ الجماهير، والعدائية له والحذر منه، مما يخلق جواً من الرعب والخوف القادرين على تدجين الآخر/ التابع، وإرغامه على فعل الخضوع والركون، إلى درجة أن فرج الدلال-وهو أبرز شخصية في زقاق 7في البتاوين معروفة بتسلطها-لا يمكنه مناقشة قراراتهم أو حتى الاقتراب منهم: ((ينظر [الأمريكي] باتهام إلى فرج الذي بدا مذهولاً مما يرى فهو على الرغم من سطوته إلا أنه يخاف من الأمريكان. يعرف أنهم يتصرفون باستقلالية كبيرة..وبإمكانهم أن يقذفوا بأي إنسان وراء الغيوم بمجر تغيير المزاج))[30]. في حين أن فرجاً هذا كان قد ضرب الشاب من جمعية الدفاع عن البيوت التراثية، ضربه صفعةً على وجهه واسقطه أرضاً، لمجرد أنه شاهد هذا الشاب يلتقط بعض الصور للبيوت الأثرية القديمة في منطقة البتاوين/ منطقة نفوذ فرج الدلال[31].

إن ذلك يؤكد أن مفهوم السلطة من شأنه أن يتعدى أي تصور له، متجاوزاً إياه إلى كل سلطة تدفع بالآخر/ التابع للتماثل مع قراراتها ورؤاها بشكل ما، وهذه السلطة قد تُحْكِم خناقها على أفرادها الذين يصيرون أكثر تماثلاً وانصياعاً لأيديولوجيتها، أو قد يكونوا صورة أخرى لها، يمارسون ممارساتها، ويرتهنون بآيديولوجيتها. وهو الأمر الذي يجعل من الوجه الثاني للسلطة في

الرواية/سلطة الحكومة وأفرادها، يجعل منهم صورة قامعة تعمل كمرآة تعكس قمع السلطة الأمريكية أو أي سلطة أخرى يستمدون مكانتهم السلطوية منها، لذلك جاء المونولوج الداخلي (لمحمود السوادي) فاضحاً للعنف والقمع الذي يمارسه أفراد الحكومة، عندما جاء أربعة شبابٍ من دائرة المتابعة والتعقيب ليقتادوه إلى دائرتهم بأمر من العميد سرور، يقول السوادي: ((رجال السلطة يخدمون السلطة من أجل المكانة.. ولكن بلا مبادئ، لأنهم يخدمون أي سلطة كانت، سواء صدام حسين أو الأمريكان أو الحكومة الجديدة))[32].

إن ما جعله متذمراً إلى هذا الحد، هو الطريقة التي أُخِذَ بها من قبل أفراد دائرة المتابعة والتعقيب، والتي يقول عنها إنها أشبه بالاختطاف، لكنه اختطاف يحدث بسيارة حكومية مضللة: ((لقد انتبه للرقم الحكومي للسيارة، ولكن هذا لا يكفي لبث الهدوء في نفسه، فهو يعرف حوادث خطف كثيرة تجري بسيارات حكومية))[33]. إن العنف السلطوي الذي مُورِسَ على محمود السوادي والمتحقق بطريقة الاستدعاء وطريقة استجواب العميد سرور له، أكتسب –العنف السلطوي-شرعيته كونه صادراً من دائرة حكومية تمثل سلطة بلد الشخصية بالكامل. وإن هذا العنف السلطوي قد وقع حيفه على هادي العتاك أيضاً، ومن قِبَل الشباب الأربعة، التابعين لدائرة المتابعة والتعقيب أنفسهم، ولكن وتيرة العنف جاءت بشكل أكثر قمعية وترهيباً، عندما قاموا بضرب هذا العجوز العتاك عدة ضربات، وخرقوا أحشاءه ببضعة طعنات بسكينٍ حادة، ولم يكتفوا بذلك، بل قاموا بسرقة نقوده وبعض الأثاث والانتيكات التي كان يروم بيعها، ثم أمروا هادي بهدم تمثال مريم العذراء الذي كان مدفوناً في أحد جدران خرابته اليهودية/بيته، وعندما لم يتمكن من تنفيذ أمرهم؛ بسبب الطعنات والضربات التي أقعدته تماماً، ضربوا التمثال بأخمس المسدس، فانقطع الرأس إلّا إنه لم يتزحزح من مكانه[34].

استجلت هذه الحادثة مدى تسلُّطية افراد السلطة، وسادية ممارساتهم القمعية الرامية إلى تدجين التابع. غير أن هذا الاقتباس كان قد ألقى بالضوء على ترميزٍ لتغييب قسري للديانة المسيحية، تحدد بالتمثال الذي كان مدفوناً في أحد جدران خرابة هادي العتاك، والذي تمَّ توريته تماماً عندما ألصق (ناهم) صديق هادي، آية الكرسي على الفتحة في الجدار المخصصة للتمثال، لكنها بمرور الوقت انخلعت جزئياً، حتى رفعها الشسمه اثناء زيارته لهادي وقبل مجيء الشباب الأربعة، ليرى هذا التمثال بصيص نورٍ على يدي الشسمه.

هذه الأحداث المتكررة للتخلص من التمثال سواء بالتغييب خلف آية الكرسي أو بقطع الرأس، ترمز لمحاولات الوأد للديانات الأخرى، ومحاولات الإقصاء لها أيضاً، وقصدية تغييبها وتمويتها بفعل العنف السلطوي الذي لا يتبنى مثل هذه الديانات، أو بفعل العنف الديني أيضاً، كل ذلك يجعل دلالة التغييب متحققة بشكل أوضح.

كل ذلك القمع والتقتيل الذي تمارسه السلطة، من شأنه أن يترك الأفراد/التابع أمام خيارين: إمَّا الخضوع للعنف السلطوي والقبول بالتابعية استسلاماً، أو محاولة الانعتاق من دائرة خناقها، والانفلات من نفوذ سلطتها وسطوتها بالتمرد، وتكوين النفوذ الخاص بهم، وهو ما جعل أم دانيال وبناتها، والكثير من أصحاب ديانتهم، يغادرون العراق مهاجرين إلى ملاذاتهم الآمنة في البلاد المتماثلة معهم دينياً. لكن بعض أولئك الأفراد لم يرضوا بالإقصاء أو التهميش، ولم يقبلوا أيضاً بفعل التقتيل الذي يُمَارس عليها، من أجل ذلك انبرى من الموت نفسه موتاً يوتوبياً يقاضي بالموت من سبب ذلك الخراب والدمار في فضاء الرواية بأكمله. مما يستجلي وجهاً ثالثاً للسلطة متمثلاً بالشسمه، الذي مارس تمرداً ماورائياً(**) احتجَّ به على واقعه المميت والدموي، حينما انبثق من عمق الأزمة ليمارس سطوته وسلطته الداعية إلى ترميم أنقاض عالمه المحطم ولملمته، من أجل إعادة النصاب إلى طبيعته، إن سلطته قائمة على تمرده الماورائي الذي يجابه به مبدأ الظلم وفعل التقتيل في عالمه بمبدأ العدالة الكامن في ذاته. إنه تمرداً ماورائياً يحتج به على كل القتلة والظلمة، وهو أيضاً احتجاجاً على كل نقصان في وضعه القائم.

من أجل ذلك يقوم بمحاسبة كل القتلة ممن لم تصل إليهم أيدي القضاء ويُحَاسَبوا على إجرامهم، فيحاسبهم هو بالقتل تنفيذاً للعدالة، فيقتل الضابط في بيت القحاب، ويقتل أبا زيدون الحلاق المسؤول عن موت دانيال، كما يقتل مجرماً يعد الممول للعصابات الإرهابية المسلحة: ((عدّتُ ذات ليلة وقد ثقب الرصاص كامل جسدي، كانت معركة حامية، ومطاردة مهلكة، وكدتُ أفشل في الوصول إلى رقبة ذلك المجرم الذي يزود الكثير من العصابات المسلحة بالديناميت ومواد التفجير بغض النظر عن خلفياتهم العقائدية أو السياسية. إنه تاجر موت بامتياز))[35]. وغير ذلك من حوادث القتل التي يقوم بها بشكل مباشر، وعلى وفق طريقة واحدة هي القتل بالخنق؛ لأنهم خونة، وهو المُخلِّص والمنقذ، والمنفِّذ للعدالة: ((سأقتص بعون الله والسماء، من كل المجرمين، سأنجز

العدالة على الأرض أخيراً [...] سأحاول في الأقل أن انجز "أمثولة" القصاص. قصاص الأبرياء الذين لا ناصر لهم إلا خلجات أرواحهم الداعية لدفع الموت وإيقافه))[36].

من خلال هذا الاقتباس، يتحقق بشكل محدد بعبارة (سأنجز العدالة على الأرض، وأمثولة القصاص) كيف أن الشسمه يحاول أن يُضفي بعض الشرعية على مهمته، إذ إن كل سلطة، أو كل ممارسة سلطوية لا يمكنها أن تقوم بمهامهما أو ممارساتها السلطوية أو التسلطية من غير شرعية تمكنها من قيادة الآخرين، أو بسط النفوذ. وإن تمرده هذا كان قد نشأن من انعدام المنطق أمام وضع جائر مُستغلَق، جعل أولئك الأفراد يرنون إلى خلاصٍ من هذا الوضع المميت، فيبرز الشسمه ملبياً نداءاتهم البريئة، محاولاً إعادة الأمور إلى نصابها. الأمر الذي يلقي بالضوء على نشوءِ وعي جمعي مشترك لدى المخيلة الجماهيرية/مخيلة التابع المتطلعة إلى الخلاص العادل من هذه المحنة والأزمة. لكن المفارقة تتحقق من جانب مُحدد بشخصية الشسمه التي تقوم بهذا الدور، والتي من المفترض أن تكتسب التأييد من قبل مجتمع الرواية جميعه، على الرغم من اندماج بعض الشخصيات المقموعة معه، وخضوعها له، غير أن النفوذ السلطوي القائم في الفضاء الروائي نفسه، متمثلا بالسلطات الأخرى-سلطة الأمريكان وسلطة الحكومة-التي تريد أن تنفرد وحدها بدور السلطوية، تقوم بفعل التشويه لصورة الشسمه في المخيلة الجماهيرية، وتغيير صورته من مُخلِّص للشعب إلى عدو له، من خلال وسائل الاعلام التابعة لها القادرة على بث وعي محدد في فضاء نفوذها من شأنه أن يساعد في خلق وعي مشترك متماثل مع تطلعاتها، وبالوقت ذاته، يمكنها من زيادة قبضتها على مساحة نفوذها وإضفاء الشرعية والقدسية على ممارساتها السلطوية.

إن ذلك التصارع السلطوي قد استجلى بوضوح راديكالية المؤسسات السلطوية التي تأنف عن وجود منافس لها، أو منازع يُزاحمها في بسط نفوذها، أو في إحكام سلطتها على تابعيها في أماكن نفوذها. ومن جانب آخر فإنها تحاول أن تُسيطر على المخيلة الجماهيرية وتشكِّل وعياً جمعياً محدداً؛ لتقبل جميع قراراتها وممارساتها السلطوية.

الهوامش:-

(1) ينظر في ذلك على سبيل الإشارة لا الحصر: رواية (حارس التبغ) لـ: علي بدر، ورواية (الحفيدة الأمريكية) لـ: إنعام كجة جي، ورواية (زينب وماري وياسمين)، ورواية (عراقي في باريس) لـ: صموئيل شمعون، ورايتي (يا مريم، وشجرة الرمان) لـ: سنان أنطوان... وغيرها من الروايات التي تناولت مسألة إشكالية الهوية وتأزمها.

(2) ينظر: أحمد سعداوي: رواية فرانكشتاين في بغداد، ص14.
(3) المصدر نفسه: ص 16-17.
(4) ينظر: المصدر نفسه، ص243.
(5) المصدر نفسه: ص245.
(6) المصدر نفسه: ص245.
(7) المصدر نفسه: ص305.
(8) المصدر نفسه: ص220.
(9) ينظر: المصدر نفسه، ص 72.
(10) ينظر: المصدر نفسه، ص161.
(11) ينظر: المصدر نفسه، ص47.
(12) ينظر: المصدر نفسه، ص172-173.
(13) المصدر نفسه: ص256.
(14) المصدر نفسه: ص164-165.
(15) جون ريتش: (داعش وC I A يحتكران الألوهية)، (مجلة الجديد)، عدد4، مايو/ أيار 2015، لندن، ص30.
(16) غوستاف لوبون: سيكولوجية الجماهير، ترجمة: هاشم صالح، دار الساقي، ط1، 1991، ص116.
(17) الرواية: ص63.
(18) المصدر نفسه: ص156-157.
(19) المصدر نفسه: ص97-98.
(20) المصدر نفسه: ص 90.
(21) المصدر نفسه، 93.
(22) ينظر: المصدر نفسه: ص193.

(*) لقد أفاد الباحث – قدر الإمكان – مما قدَّمَتهُ (ميك بال)، في كتابها: "علم السرد مدخل إلى نظرية السرد"(NARRATOLOGY Introduction to the Theory of Narrative) ، من رؤية أكثر دقة وجمالية للفضاء الروائي، مبتعدة في ذلك عن الرؤية السابقة له بِكونه الفضاء الذي تتحرك خلاله الشخصيات وتدور فيه الأحداث، إلى (الفضاء المُدرَك) من قبل حواس الشخصيات، فهو عندها: ((الطريق الذي تقدِّم به الشخصيات حواسها لتؤثر في الفضاء)) ، كما ترى أن الفضاء المُدرَك يضمُّ حواس ثلاث هي: (النظر والسمع والشم) التي تشترك مجتمعة في تمثيل الفضاء الروائي. يُنظر: Narratology Introduction to the Theory of Narrative : Mieke Bal , Third edition , Toronto , 2009 , P 136-137.

(23) الرواية: ص27-29.

(24) المصدر نفسه: ص117-118.

(25) ينظر أيضاً: الصفحات(60، و 14، و 50) من الرواية، وهي أيضاً مشاهد لصورة الفضاء المُدرَك من خلال عيني الشخصيات، والذي خلق ظلامية هذا الفضاء وعتمته، وسوداوية الشعور لدى المُتَلقَّى...

(26) اندرو ادجار وبيتر سيدجويك: موسوعة النظرية الثقافية " المفاهيم والمصطلحات الأساسية" ترجمة: هناء الجوهرى، المركز القومي للترجمة - مصر، 2009، ط1 ، ص 218.

(27) سالم قموري: سيكولوجية السلطة، سلسلة أفكار معاصرة (5) دار الفكر الجديد، النجف،2000، ط2، ص59.

(28) الرواية: ص195.

(29) المصدر نفسه: ص84.

(30) المصدر نفسه: ص79-80.

(31) المصدر نفسه: ص211-212.

(32) المصدر نفسه: ص184.

(33) المصدر نفسه: ص183.

(34) ينظر: المصدر نفسه،219-220.

(**) سمّا الباحث تمرد الشسمه بـ (التمرد الماورائي)؛ لأنه يقوم على عدة أسس، أهمها: إن تمرده لا يقوم على عقدة نفسية، بل من أجل قضية عامة شعبية ومصيرية، وهو أيضاً (ما ورائياً)؛ لأنه لا يستند على فكرة مسبقة-كما في الثورة التي تبدأ بفكرة ثم حركة جماعية-بل على تجربة فردية أخذ الشسمه على عاتقه القيام بها بشكل حر أكثر استقلالية، فضلاً عن أن تمرده هذا هو مطالبة ميمونة ومعللة ضد فعل القتل والدمار الذي يواجهه. وهذا في حدِّ ذاته هو روح مفهوم التمرد الماورائي وعينه تماماً. ينظر في ذلك: البير كامو: الانسان المتمرد، ترجمة: نهاد رضا، منشورات عويدات، بيروت-باريس، ط3، 1983، ص33.

(35) الرواية: ص162.

(36) المصدر نفسه، 157.

الخاتمة:-

هنالك جملة من النتائج تمَّ التوصل إليها، يمكن تحديدها بعِدَّة محاورَ، أهمها:

- تمثَّلت الرواية لموضوعة الموت بشكل أكثر فنية، عندما منحته بُعدا إيديولوجياً ساعد على تشخيص عمق الأزمة لشخصيات الرواية، وما تعيشه من انقسام وتشتت في واقعها الروائي.
- أثبتت الرواية بشكل مخيف، ومن خلال أحداثها السردية، أن الموت هو الوجود الحقيقي والسرمدي في حياة الشخصيات، إذ إن أحداث الرواية سارت نحو نهايتها ببقاء آلة الموت(الشسمه).
- كشفت إيديولوجيا الموت في الرواية عن إشكالية هوية لدى بعض الإثنيات التي بدأت تنظر إلى موقعها على أن اندماجها لا يمكن أن يتحقق مرة أخرى في ظل الظروف التي مسَّتْ نقاط توحد نسيجها المجتمعي الذي تحيا فيه.
- أفصح النص السردي للرواية أن المُتسبب الحقيقي لطوفان الموت الطاغي هي السلطات القمعية على اختلاف وجوهها، عندما لم تكن تعبأ إلا بمصالحها أو ما يحقق طموحاتها وأهدافها.
- استعانت الرواية في تشخيص موضوعة الموت ببعض وسائل الإيديولوجيا، كالتكرار والعدوى مثلاً، عندما كررت صورة الموت وفعله في المتن السردي للرواية، بشكل أدى إلى نشر الرعب والخوف لدى الشخصيات، وكأن عدوى الموت والرعب قد انتشرت بين تلك الشخصيات إلى درجة الإحساس بالعدمية من وجودها الموصوف بالدموية.
- أبرزت الصورة الصادمة للموت سوداوية الذهنية العامة لدى المُخيلة الجماهيرية في بيئة الرواية/العراق.
- كانت الرواية أكثر تماهياً مع هموم المجتمع الذي انولدت فيه، عندما حاولت تشخيص سلبياته المفروضة عليه ونكباته المتعددة، مُسلِّطةً الضوء على تناقضاته، وحيثيات واقعه الأليم.

المصادر:-

- أحمد سعداوي: رواية فرانكشتاين في بغداد، منشورات الجمل، بيروت-بغداد،2013.
- اندرو ادجار وبيتر سيدجويك: موسوعة النظرية الثقافية " المفاهيم والمصطلحات الأساسية" ترجمة: هناء الجوهرى، المركز القومي للترجمة - مصر، 2009.

❖ البير كامو: الانسان المتمرد، ترجمة: نهاد رضا، منشورات عويدات، بيروت-باريس، ط3، 1983.

❖ جون ريتش: (داعش وA I C يحتكران الألوهية)، (مجلة الجديد)، عدد4، مايو/ أيار 2015، لندن.

❖ سالم قموري: سيكولوجية السلطة، سلسلة أفكار معاصرة (5) دار الفكر الجديد، النجف، ط2 ،2000.

❖ غوستاف لوبون: سيكولوجية الجماهير، ترجمة: هاشم صالح، دار الساقي، 1991.

المصادر الأجنبية: -

❖ Narratology Introduction to the Theory of Narrative : Mieke Bal , Third edition , Toronto , 2009 .

تحضير ودراسة بعض الخصائص الفيزياوية والتحسسية لاغشية CdO:In الرقيقة

د. شذى شمعون بطرس* ** د . عباس فاضل عيسى ** حسين محمود علي

*وزارة العلوم والتكنولوجيا ، بغداد ، العراق

**جامعة واسط ، واسط ، العراق

الملخص

تم في هذا البحث تحضير ودراسة بعض الخصائص الفيزياوية لاغشية اوكسيد الكادميوم المشوبة بنسب مختلفة من الانديوم (0و2و4و6%) . حيث تم تحليل حيود الاشعة السينية(XRD) وقد وجد ان الاغشية المحضرة متعددة التبلور ذات تركيب مكعب ، كذلك بينت نتائج لأشعة السينية ان المستويات (222)(311) (220) (200) (111) المتكونة للاغشية عند الزوايا بين(20-70 درجة) مع هيمنة الاتجاه التفاضلي (111) لكل من اوكسيد الكادميوم النقي والمشوب . تم دراسة الصور المستحصلة من مجهر القوى الذرية (AFM) حيث اظهرت النتائج نقصان في معدل الحجم الحبيبي وفي كل من (Rq) و(RMS) بزيادة نسبة التشويب وهذه يعني ان ذرات الانديوم تتوزع بشكل منتظم او متناسق في شبيكة اوكسيد الكادميوم مما يجعلها منتظمة الترتيب وبالتالي يؤدي الى تحسين الخصائص التركيبية. تم حساب الخصائص التحسسية للاغشية لغاز NO_2 وبنسبة 50ppm وقد وجد ان التحسسية تزداد بزيادة نسبة التشويب حتى تصل الى اعلى قيمتها وهي (144.59%)عند درجة حرارة تشغيل ($100C^{\circ}$) عند نسبة التشويب (4wt%) ومن بعدها انخفضت التحسسية عند نسبة التشويب العالية (6 wt%) بقيمة (39.05%),وهذا يشير الى دور الانديوم في تحسين خصائص المتحسس من خلال زيادة تحسسية الغشاء . كذلك تم حساب زمن النهوض وزمن الركود للاغشية المحضرة كدالة لدرجة حرارة التشغيل.

الكلمات المفتاحية: اغشية رقيقة ، متحسسات غازية، اوكسيد الكادميوم المشوب بالانديوم

Preparation and Studying some Physical and Sensing Properties of CdO:In thin films

Dr. Shatha Shammon Batros Dr. Abbas fadel Issa** Hussein Mohammed Al Lateef***

*** Ministry of Science and Technology,Baghdad, Iraq**
****Ministry of Higher Education /University of Wasit, Wasit-*Iraq***

Abstract

In this research cadmium oxide doped with indium were prepared in different concentration (0,2,4,6%) and studied, the analysis of X- ray Diffraction (XRD) pattern were referred that all prepared films were polycrystalline in nature and had cubic structure in (311)(222)(111)(200)(220) from angles between (20-70^{o}) with preferred orientation along (111) for all samples . It was found that doping with (In) lead to increase relative in the intensity of peaks while the average grain size decreases as (In) concentration increases. the (AFM) results shows decrease in grain size and in both (Rq) and (RMS) with the increase of doped percentages, and that all the films are mostly homogeneous distribution, this improvements the structural properties.

The sensing properties of thin films has been studying towards (NO_2) gas at concentration of (50ppm). It was noted that sensitivity generally increases with the increases doped percentages even up to the highest value, namely, (144.59%) when the operating temperature ($100C^{0}$) and doped percentage (4%),and then the sensitivity decreased when the concentration of high (6%) at value (39.05%),as for the operating

temperature it was found sensitivity it increases with operating temperature to reach the highest value at operating temperature (100C°) after landing sensitivity with increasing temperature, as well as determine response time and recovery time of the films as a function of operation temperature .

Keyword: Thin films, gas sensor, cadmium oxide doping with indium

المقدمة

ان من طرائق الترسيب الأكثر أهمية والمميزة في تحضير الأغشية الرقيقة لأكاسيد المعادن هي طريقة الرش الكيميائي الحراري(Chemical Thermal Spraying Pyrolysis) وذلك لما تمتاز به هذه الطريقة من سهولة التحضير والكلفة القليلة للأغشية والسيطرة على معلمات الأغشية كالسمك ودرجة حرارة القواعد وامكانية استخدامها في الكثير من تطبيقات الأغشية الرقيقة المهمة [1]. ويمكن تعريف التحلل الكيميائي الحراري بأنه عملية انحلال حراري للمركبات الفلزية – العضوية الصلبة التي تحدث على سطح القواعد الساخنة وتكوين راسب يمثل الأغشية الرقيقة المتكونة من خلال رش محلول أملاح المادة المراد تحضيرها بهذه الطريقة، و من ثم تبدأ عملية نمو الغشاء على سطح القاعدة مع استمرار عملية الرش ومراعاة الكثير من العوامل التي تساعد على تكوين الأغشية [2]. تمتاز مادة اوكسيد الكادميوم بانها مادة ذات لون بني غامق وهي احد المركبات الكيميائية للكادميوم، ويمكن الحصول عليها من التسخين الشديد لعنصر الكادميوم, وإنها غير قابلة للذوبان في الماء او في القواعد، ولكنها تذوب في الحوامض وأملاح النشادرولها القابلية على التفكك عند درجات الحرارة العالية[3,4] ينتمي اوكسيد الكادميوم الشبه الموصل الى المجموعة الثانية (2B) للكادميوم والسادسة(6A) للأوكسجين من الجدول الدوري، ذو تركيب مكعب بلوري (Cubic) ذو وحدة الخلية متمركزة الأوجه (fcc) [5,6]. هي عبارة عن مادة شبه موصلة من مجموعة الاكاسيد الشفافة الموصلة (TCO) والتي تمتاز بصفات متعددة ومتميزة كفجوة طاقة كبيرة، نفاذية عالية للمنطقة المرئية للطيف، تحركية الحاملات العالية، توصيلية كهربائية قريبة من توصيلية المعادن من النوع السالب (n-type) ، ولها تطبيقات كثيرة في النبائط الكهروبصرية والنبائط الفوتوفولتائية واجهزة العرض وغيرها من التطبيقات [7,8]. كذلك يمتاز بتوصيلية عالية وذلك بسب وجود ذرات الكادميوم في مواقع تعويضية او بسبب وجود فراغات الأوكسجين [5]. ايضا يمتلك معامل امتصاص عالٍ وهذه بدوره يعطي له الاهمية باستخدامها في جوانب متعددة في المنظومات الخلايا الشمسية والمتحسسات والتطبيقات الكهروبصرية وغيرها من التطبيقات المهمة [9,10].

اما عنصر الاندیوم من المجموعة الثالثة (3A) و الدورة الخامسة من الجدول الدوري وهو ثلاثي التكافؤ (III) عدده الذري هو (49) وهو من العناصر التي ترتبط بأشباه الموصلات مع مجموعة العناصر (B,Al,Ga,In) وهو عبارة عن مسحوق ناعم جداً ذي لون ابيض فضي ومن تطبيقاته الأكثر شيوعاً و المهمة هو العمل على خفض نقطة الانصهار ،كذلك له مقاومية كهربائية عالية بحدود(10^{-8} Ωcm)، لذلك يستخدم الاندیوم للتشويب مع الكثير من المواد لتحسين الخصائص الكهربائية للاغشية ومنها اوكسيد الكادميوم وقد استخدم الكثير من الباحثين طريقة الرش الكيميائي الحراري لتحضير اغشية اوكسيد الكادميوم المشوبة بالاندیوم ودراسة بعض خصائصها الفيزياوية وكما في البحوث [11,12].

يهدف هذا البحث الى تحضير اغشية اوكسيد الكادميوم النقية والمشوبة بالاندیوم بثلاث تراكيز مختلفة (%2,4,6%) ودراسة بعض خصائصها الفيزياوية وايضا دراسة خصائصها كمتحسس لغاز ثاني اوكسيد النتروجين وتاثير تغيير درجة حرارة التشغيل على خصائص الاغشية .

الجزء العملي

لتحضير أغشية (CdO) المشوبة بالأنديوم (In) استخدمت مادة كلوريد الأنديوم اللامائي ($InCl_3$) وهي مادة صلبة ذات لون أبيض سريعة الذوبان في الماء ، اذ تضاف مادة كلوريد الأنديوم ($InCl_3$) وبنسب وزنية (0,2,4,6)% إلى نسب وزنية من مادة $Cd(NO_3)_2$ نترات الكادميوم بعد اذابتها في (100ml) من الماء المقطر بصورة تدريجية باستخدام خلاط مغناطيسي (Magnetic Stirrer) .

يبين الجدول (1) قيم النسب الوزنية لكل من نترات الكادميوم الزنك وكلوريد الأنديوم اللامائية لنسب التشويب أعلاها.

الجدول (1) : يبين قيم النسب الوزنية لكل من نترات الكادميوم وكلوريد الانديوم لنسب التشويب

النسب الوزنية للشائبة	كلوريد الأنديوم $InCl_3$	نترات الكادميوم $Cd(NO_3)_2$
0%	0	100
2%	2	98
4%	4	96
6%	6	94

تم ترسيب الأغشية على قواعد زجاجية مصنوعة من زجاج البورسليكات وبسمك (1mm) تقريباً وبإبعاد (2.5 cm ×2.5) بعد تقطيعها ، تنظف القواعد الزجاجية بالماء المقطر ثم تغمر في كأس يحتوي على الايثانول لإزالة أي أثار عالقة على الزجاج تغسل القواعد الزجاجية بالماء المقطر ثم تجفف جيداً ومن ثم توضع القواعد الزجاجية على المسخن الكهربائي لغرض البدء بعملية الرش. تتم عملية الرش بتنظيف جهاز الرش جيداً بالأسيتون ومن ثم بالماء العادي ومن ثم بالماء المقطر, لإزالة المواد العالقة بعدها يثبيت جهاز الرش على حامل معدني مع ضبط المسافة بين نهاية الأنبوبة الشعرية والقاعدة الزجاجية والمسافة المقاسة في البحث هي (29cm) , وتربط قنينة غاز النتروجين مع جهاز الرش(Nozzle) عن طريق الفتحه الجانبية الموجودة فيه . يثبيت قدح (beaker) أسفل جهاز الرش بحامل معدني , لجمع القطرات النازلة أثناء مدة التوقف . يوضع المحلول المحضر في خزان جهاز الرش ونبدأ التحكم بكمية المحلول المنساب عبر الصمام الموجود في جهاز الرش لحين الوصول الى معدل الرش المطلوب .

يتم تثبيت القواعد الزجاجية فوق المسخن الكهربائي بعد تنظيف سطحه جيداً , ثم نشغله حتى يصل الى درجة حرارة المطلوبة وهي °C(400). بعد الأنتهاء من عملية الترسيب يترك الغشاء على سطح المسخن بعد إطفائه حتى يبرد دون محاولة رفعه وذلك لإكمال التفاعل الكيميائي ، ترفع القواعد الزجاجية وتحفظ في حاويات جيدا بعد قياس السمك لكل نموذج . يتم اجراء الفحوصات التركيبية باستخدام جهاز حيود الاشعة السينية وجهاز مجهر القوى الذرية وايضا دراسة الخصائص التحسسية للاغشية المحضرة وحسب الظروف المطلوبة.

النتائج والمناقشة

أظهرت نتائج التشخيص بتقنية حيود الأشعة السينية (XRD) للأغشية (CdO) النقية والمشوبة أنها ذات تركيب متعدد التبلور (Polycrystalline) ذو تركيب بلوري مكعب (Cubic) ووحدة خلية متمركزة الأوجه وهذا يتفق مع نتائج البحوث المنشورة [17-13]

يمثل الشكل (1) مخطط حيود الأشعة السينية للأغشية المحضرة لاوكسيد الكادميوم النقي والمشوبة حيث لوحظ وجود ثلاث قمم في المستويات (220) ,(200) ,(111) للزوايا بين(20°-70°) مع هيمنة الأتجاه التفاضلي (111) في اوكسيد الكادميوم النقي وبقية النماذج المشوبة بنسب مختلفة وظهور نفس المستويات عند كل نسبة تشويب أي ان مستويات الانماء هي مشابهه تقريبا للحالة النقية ونلاحظ ايضا أن الشدة للقمم (220) ,(200) ,(111) تتغير مع تغير نسبة الأشابة وهذه يدل على حصول تغير في تبلور المادة مع اختلاف في نسب التشويب و ان مستويات الشدة لجميع المستويات بصورة عامة تزداد نسبياً مع زيادة نسبة التشويب وهذا يتفق مع نتائج البحوث المنشورة [14,15,17]

ايضا تمت المقارنة بين قيم المسافات $d_{hk\ell}$ المحسوبة من نمط حيود الأشعة السينية (XRD) و زوايا براك 2θ لكل شكل من أشكال حيود الأشعة السينية النقية منها والمشوبة مع بطاقة (JCPD) , تم حساب معدل الحجم الحبيبي (G.s) بتعويض القيم التي حصلنا عليها من نتائج حيود الأشعة السينية لكل شكل من الأشكال وبتطبيق معادلة شرر [14] المعتمدة على (FWHM) وكما مبين في الجدول (1) من نتائج معادلة شرر نجد ان الحجم الحبيبي يقل و(FWHM) يزداد بزيادة نسبة التشويب وهذا يشير الى ان اضافة الانديوم يؤدي الى تشكيل الاغشية بخشونة اقل والى تحسين في مستويات تبلور المادة ونقصان العيوب والانخلاعات البلورية وبالتالي تحسين

الخصائص التركيبية او نستطيع القول ان ذرات الانديوم تتوزع بشكل منتظم او متناسق في شبيكة اوكسيد الكادميوم مما يجعلها منتظمة الترتيب وهذه النتائج تتوافق مع المصادر[15,17,18].

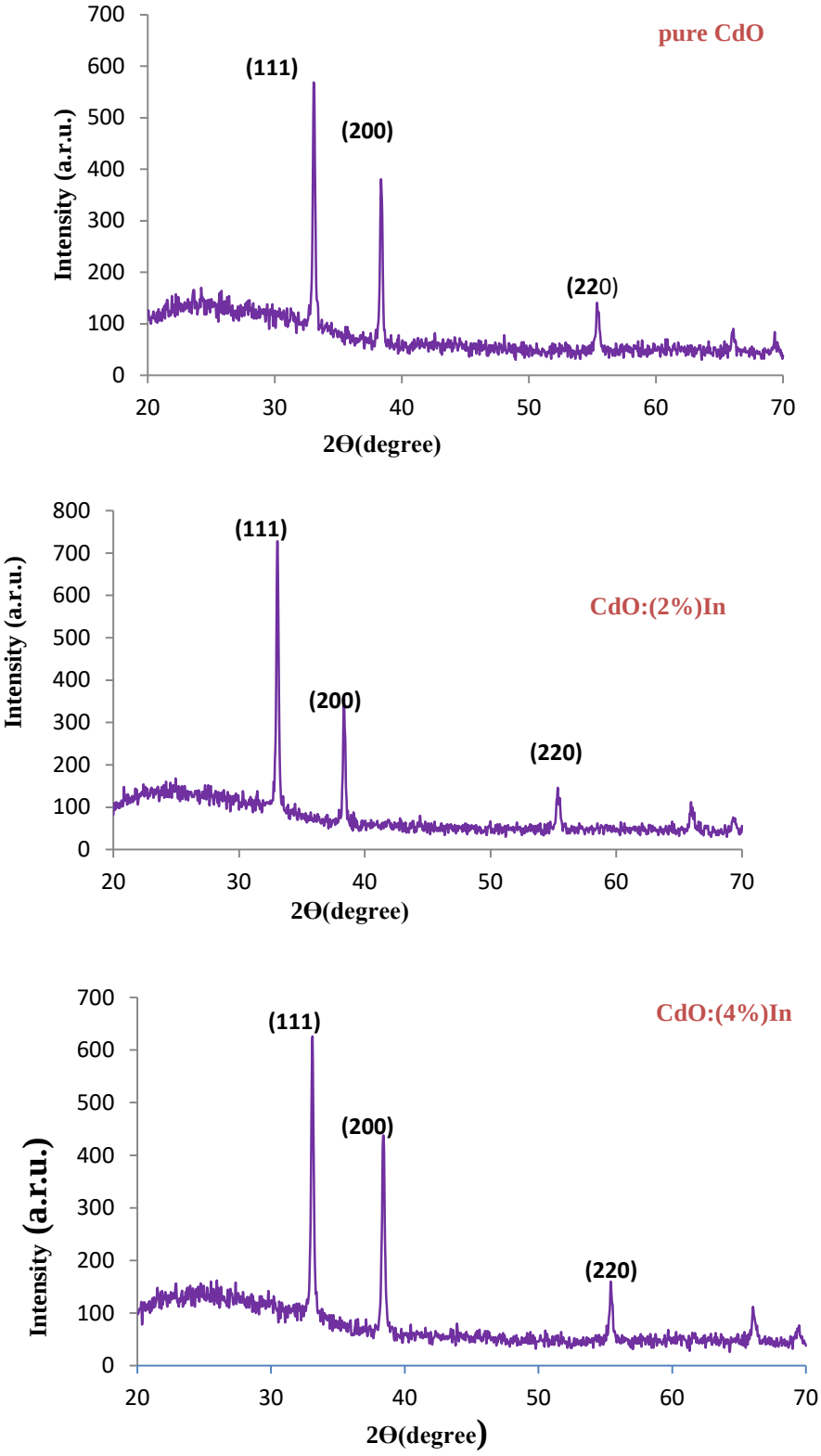

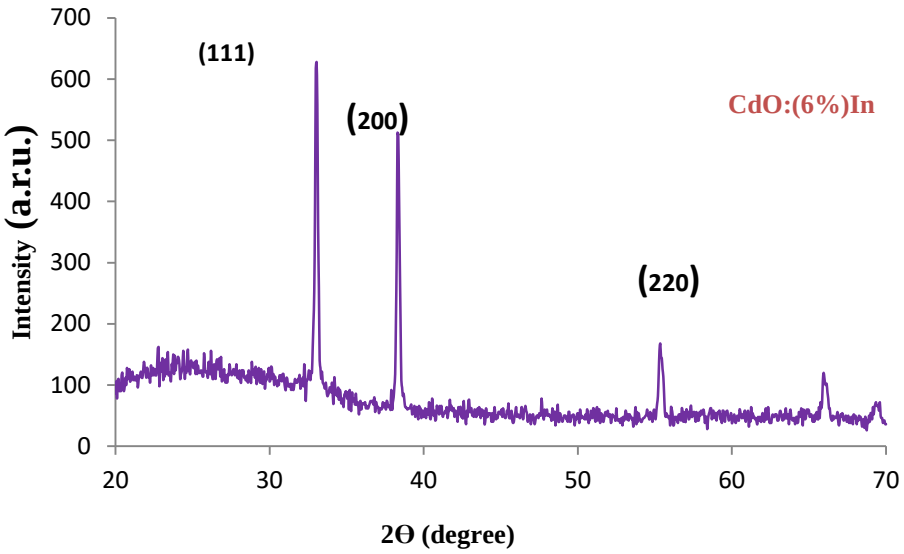

الشكل (1): مخطط حيود الأشعة السينية لاغشية (CdO) المشوب بالانديوم بنسب مختلفة

جدول (1): الخصائص التركيبية لاغشية كادميوم المشوبة بالانديوم من نتائج حيود الاشعة السينية

Materials	hkl	2θ (JCPD)	2θ	d(A°) (JCPD)	d(A°)	FWHM	I/I_o	G.s(nm)
CdO pure	(111)	33.00	33.090	2.712	2.705	0.1844	100	43.84
	(200)	38.285	38.380	2.349	2.343	0.1972	67	41.56
	(220)	55.258	55.408	1.661	1.657	0.2255	20	38.71
CdO :In(2%)	(111)	33.00	33.071	2.712	2.706	0.1945	100	41.49
	(200)	38.285	38.364	2.349	2.345	0.1986	47	41.23
	(220)	55.258	55.340	1.661	1.65	0.2079	17	42.02
CdO :In(4%)	(111)	33.00	33.106	2.712	2.703	0.2303	100	34.87
	(200)	38.285	38.403	2.349	2.342	0.2352	78	34.65
	(220)	55.258	55.421	1.661	1.656	0.2262	23	38.55
CdO :In(6%)	(111)	33.00	33.058	2.712	2.707	0.2308	100	34.79
	(200)	38.285	38.349	2.349	2.345	0.2185	88	37.37
	(220)	55.258	55.363	1.661	1.658	0.2636	25	33.00

الشكل (2) أن سطوح الأغشية النقية كما قد تبين من خلال فحص مجهر القوى الذرية انها خالية من الثقوب الأبرية و التشقق الذي يصيب الغشاء نتيجة التبريد سواء عند الترسيب او عند رفع القواعد عن سطح قاعدة المسخن. تم دراسة طبوغرافية السطح ببعدين وبثلاث ابعاد ومن ملاحظة الاشكال نجد ان السطح متجانس التوزيع ولا توجد تجمعات غير منتظمة للمساحات المرسبة, كذلك يوضح الشكل (3) توزيع الحجوم الحبيبية كدالة مع معدل قطر الحجم الحبيبي.

نلاحظ ايضا من نتائج مجهر القوة الذرية (AFM) ان اضافة الانديوم يجعل الحجم الحبيبي(G.s) يقل مع زيادة نسبة التشويب وهذه يتفق مع نتائج الاشعة السينية حيث لوحظ نقصان في معدلات الحجوم الحبيبية مع زيادة نسبة التشويب ونلاحظ ان معدل خشونة السطح (Rq) لا يعتمد اعتمادا كليا على نسبة التشويب ولكن بصورة عامة ان زيادة التشويب ادى الى نقصان في معدل خشونة السطح الا في حالة التشويب بنسبة (6%) لكنها تبقى اقل مما هي في حالة أوكسيد الكادميوم النقي هذه يدل الى ان اضافة الانديوم يؤدي الى تشكيل الاغشية بخشونة اقل او نستطيع القول ان ذرات الانديوم تتوزع بشكل منتظم او متناسق في شبيكة اوكسيد الكادميوم مما يجعلها منتظمة الترتيب وهذا يتفق مع نتائج البحوث المنشورة [18,15]، ان سمك الاغشية المحضرة هنا كانت بحدود 400±20nm. الجدول [2] يبين نتائج مجهر القوى الذرية .

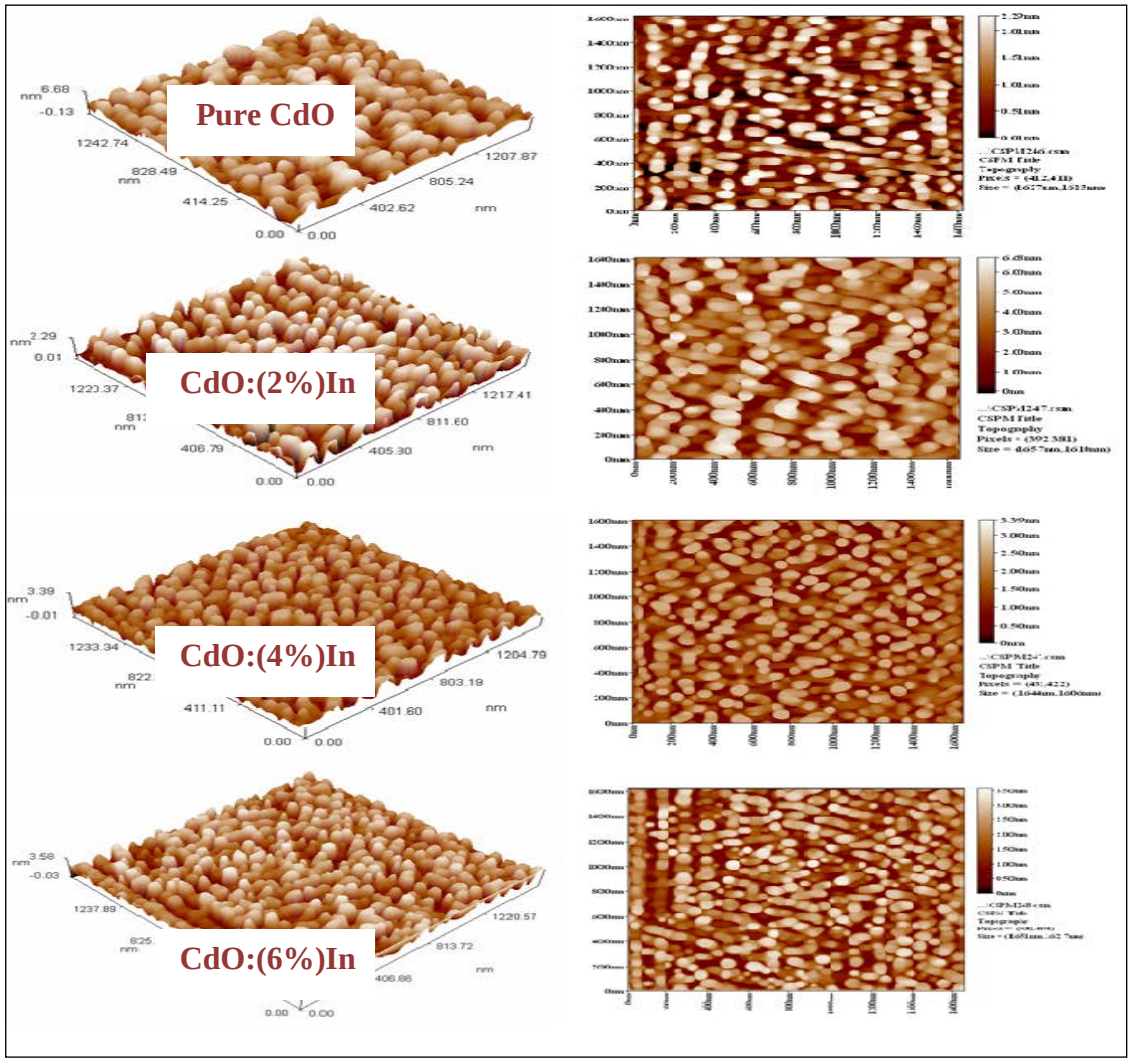

الشكل (2) : صور لمجهر القوى الذرية في بعدين(2D) وثلاث ابعاد (3D) لاغشية CdO المشوب بالانديوم بنسب مختلفة.

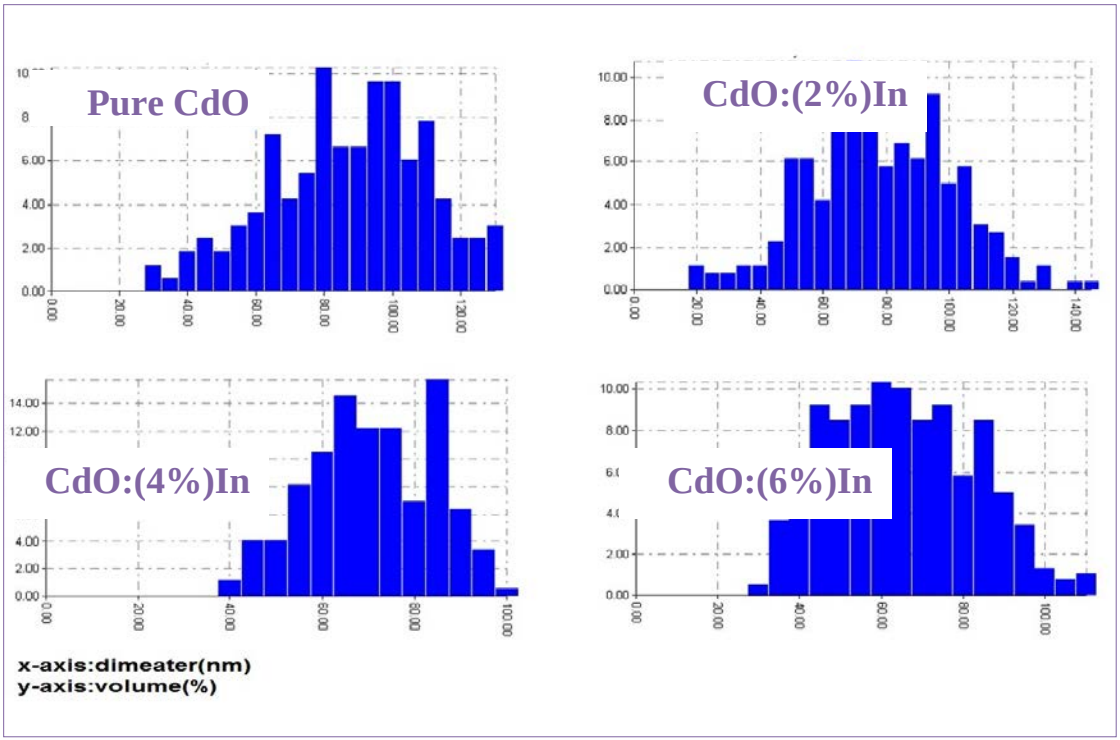

الشكل (3): يمثل مخطط التوزيع الاحصائي لمعدلات الحجوم الحبيبية لاغشية CdO المشوب بالانديوم بنسب مختلفة.

جدول (2): الخصائص التركيبية المستخلصة من مجهر القوة الذرية (AFM) لغشاء CdO النقي والمشوب بنسب %(0,2,4,6) من الانديوم.

Sample	G.s(nm)	Roughness Average (Rq)(nm)	Root Mea Square (RMS)(nm)	Peak-Pea (nm)
Pure CdO	84.24	1.15	1.38	6.4
CdO:(2%)In	75.88	0.584	0.667	2.27
CdO:(4%)In	68.33	0.516	0.602	2.09
CdO:(6%)In	62.87	0.658	0.773	3.5

الخصائص التحسسية:

تم حساب التحسسية (Sensetivity) لأغشية (CdO) النقية والمشوبة بالأنديوم وبنسب %(0,2,4,6), من خلال تطبيق العلاقة الخاصة بحساب التحسسية وهي كما ياتي [19]:

$$S=Rgas/Rair\ldots\ldots\ldots\ldots\ldots\ldots(2)$$

حيث حيث ان S هي التحسسية و R_{gas} هي مقاومة الاغشية في وجود الغاز و R_{air} مقاومة الاغشية في الهواء

يلاحظ من الشكل (4) والذي يبين تحسسية الاغشية الرقيقة عند درجات حرارة تشغيل مختلفة للنموذج النقي من اوكسيد الكادميوم والنماذج المشوبة بالنسب المبينة في كل منها وقد لوحظ أن التحسسية بصورة عامة تزداد بزيادة نسبة التشويب حتى تصل الى اعلى قيمتها وهي (144.59) عند درجة حرارة تشغيل ($100C^{o}$) عند نسبة التشويب (4%) ومن بعدها تصل التحسسية الى حالة الاشباع عند نسبة التشويب (6%) اي انه لا يمكن الحصول على استجابة عالية للتحسسية عند نسبة التشويب الاكثر من (4%) حيث ان قيمة التحسسية قليلة وتساوي (39.05) كما موضحة في الجدول (3) .اما بالنسبة الى سبب زيادة التحسسية بزيادة نسبة التشويب وذلك لان زيادة نسبة التشويب تؤدي الى نقصان الحجم الحبيبي وهذه يؤدي بدوره الى زيادة الحدود الحبيبية وعلى هذه الاساس تزداد التحسسية وذلك لان التحسسية تتناسب تناسبا عكسيا مع الحجم الحبيبي [20], اما بالنسبة لدرجة حرارة تشغيل المتحسس نجد انه فقط عند الحالة النقية لاوكسيد الكادميوم ان تحسسية المتحسس تزداد بازدياد درجة الحرارة اي ان زيادة درجة الحرارة تعمل على زيادة سرعة انتقال حاملات الشحنة وبالتالي يزداد التيار وتزداد التوصيلية للمتحسس كلما ازدادت درجة الحرارة التشغيل . اما بقية النماذج فان الزيادة في درجة الحرارة اعطت سلوكا مختلفا حيث تقل التحسسية بازدياد درجة حرارة تشغيل المتحسس بعد ما تصل الى قيمتها العظمى كما موضحة في الشكل (4) وهذا ربما يعزى الى حدوث تغيير في تركيبها البلوري اي الاحجام الحبيبية او حدوث عيوب محتملة نتيجة لتغيير في مواقع الذرات وانتقالاتها حيث تؤثر على خصائصها الكهربائية ومقاومة المادة او ان جزيئات غاز(NO_2) لا تمتلك الطاقة الحرارية الكافية للتفاعل مع السطح الممتز للاوكسجين [21]

جدول(3) : يوضح نتائج تحسسية المتحسس لغشاء CdO النقي والمشوب بنسب %(2,4,6) من الانديوم مع الحجم الحبيبي

Sample	Max.Sensitivity	Operation temperature(^{o}C)	G.s(nm) AFM
Pure CdO	9.54	300	84.24
CdO:(2%)In	43.22	100	75.88
CdO:(4%)In	144.59	100	68.33
CdO:(6%)In	39.05	200	62.87

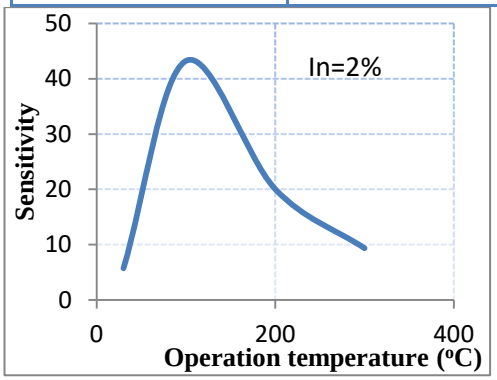

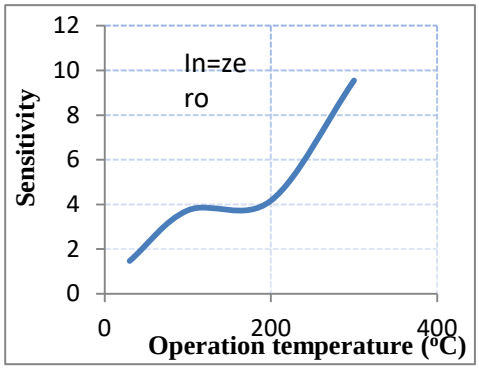

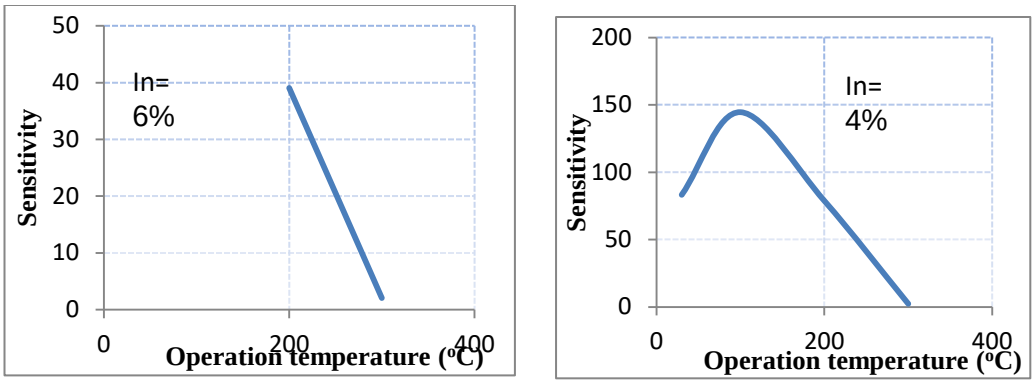

الشكل(4): العلاقة بين التحسسية ودرجات حرارة التشغيل لأغشية CdO:In بنسب مختلفة لغاز NO_2

تم قياس زمن الاستجابة وزمن الاسترجاع كدالة مع درجة حرارة تشغيل المتحسس للنموذج النقي من اوكسيد الكادميوم والنماذج المشوبة بالنسب المبينة وكما هو موضح في الشكل (4) وقد تبين بصورة عامة ان زمن الاستجابة و زمن الاسترجاع في بادئ الامر تقل بزيادة درجة حرارة تشغيل المتحسس الى ان تصل الى ادنى قيمة لها وبعدها تبدا بالزيادة مع زيادة درجة حرارة التشغيل الى ان تصل الى اعلى قيمة لها كما موضح في الشكل اعلاه .

وقد وجد ايضا من خلال الجدول (4) ان القيمة العظمى لزمن الاستجابة و زمن الاسترجاع تقل بزيادة نسبة التشويب عند درجات حرارة تشغيل مختلفة كما موضحة في الجدول (4) والسبب في ذلك لان تحسسية المتحسس تزداد بزيادة نسبة التشوب وهذه يؤدي الى زيادة سرعة انتقال حاملات الشحنة وبالتالي يزداد التيار وهذه بدوره يعمل على خفض مقاومة المتحسس وبذلك يقل زمن الاستجابة للمتحسس عند زيادة نسبة التشويب لان زمن الاستجابة هو الزمن الذي يستغرقه المتحسس للوصول الى (90%) من اقصى انخفاظ في المقاومة وبما ان المقاومة تنخفض عند زيادة نسبة التشويب فينخفض زمن الاستجابة وكذلك الحال بالنسبة الى زمن الاسترجاع وهو الزمن يستغرقه المتحسس لاسترجاع (90%) من المقاومة الاصلية للمتحسس وبما ان المقاومة تقل عند زيادة نسبة التشويب وبذلك يقل زمن استرجاع تلك القيمة من المقاومة [21] .

جول(4) يوضح العلاقة بين زمن الاستجابة وزمن الاسترجاع مع نسبة التشويب عند درجات حرارة تشغيل المتحسس لغشاء CdO النقي والمشوبة بنسب %(2,4,6) من الانديوم

Sample	Max.Responce Time (Sec)	Operation temperature(C^o)	Max.Recovery Time (Sec)	Operation temperature(C^o)
Pure CdO	18	300	66	200
CdO:(2%)In	13.5	300	58.5	30
CdO:(4%)In	9.9	200	39.6	30
CdO:(6%)In	18	200	32.4	200

الاستنتاجات

يتبين من نتائج حيود الأشعة السينية (XRD) لأغشية اوكسيد الكادميوم(CdO) النقية والمشوبة بالانديوم (In) ولجميع النسب، أنها ذات تركيب متعدد التبلور (Polycrystalline)من النوع المكعب(Cubic)وذات اتجاه سائد هو(111). أظهرت نتائج فحوصات مجهر القوة الذرية (AFM) نقصان في معدل الحجم الحبيبي ، (Rq) و(RMS) بزيادة نسبة التشويب وهذه يعني ان ذرات الانديوم تتوزع بشكل منتظم او متناسق في شبيكة اوكسيد الكادميوم مما يجعلها منتظمة الترتيب وبالتالي يؤدي الى تحسين الخصائص التركيبة.

إن التحسسية تزداد بزيادة نسبة التشويب حتى تصل الى اعلى قيمتها وهي (144.59%)عند درجة حرارة تشغيل ($100C^{o}$) عند نسبة التشويب (4wt%) ومن بعدها انخفضت التحسسية عند نسبة التشويب العالية (6 wt%) بقيمة (39.05%),وهذا يشير الى دور الانديوم في تحسين خصائص المتحسس من خلال زيادة التحسسية الغشاء .وكذلك فان التحسسية لجميع الاغشية المشوبة بالانديوم تزداد بازدياد درجة حرارة التشغيل الى ان تصل الى اعلى قيمة لها عند درجة حرارة تشغيل (100 ^{o}C) بعدها تهبط التحسسية مع زيادة درجة الحرارة وان درجة حرارة التشغيل لغاز (NO_2) بتركيز (50ppm) كان عند درجة(100^{o}C). كذلك فان زمن الاستجابة وزمن الاسترجاع للاغشية يقل بزيادة نسبة التشويب عند درجات حرارة تشغيل مختلفة وهذه يدل على زيادة سرعة المتحسس مع زيادة في نسبة التشويب وهذا يشير الى دور الانديوم في تحسين خصائص المتحسس. ان النتائج المستحصلة تبين امكانية تصنيع متحسس من اغشية اوكسيد الكادميوم المشوبة بالانديوم وعند درجات تشغيل مختلفة واختيار درجة حرارة التشغيل الفضلى لغاز معين وهذه الطريقة تكمن اهميتها كونها طريقة سهلة وغير مكلفة ويمكن التحكم في ظروف العمل المختلفة لها لتصنيع مثل هذه المتحسسات.

المصادر

[1] Mardare , D.,et al. ,"undoped and Cr-doped TiO2 thin films obtaianed by spray pyrolysis ", Thin solid films , vol.518, pp. (4586-4589), (2010).

[2] Eckertora,L.,"Physics of Thin Films", Plenum Press, New York,pp.(63-64) (1977).

(3) جاميرز, وازك. س.، هولبدي، "الكيمياء اللاعضوية الحديثة"، ترجمة د. وسام ابراهيم،ادريسعبد القادر ، دار الكتب للطباعة والنشر , جامعة الموصل،ص(110), (1980)

[4] Weast, R. C.;Astle,M.J.,"Hand Book of Chemistry and Physics",CRC Press, Boca Raton,pp.(91-94),(1979).

[5] Jarzberzki,Z. M. , "Oxide Semiconductors", Pergamon Press,London,pp.(60-61), (1973)

[6] Babcock,J.R. ,et al., "Transparent Conducting CdO Thin Film Growth Using a Highly Volatile, Thermally and Air-Stable Cadmium Precursor,"Chemical Vapor Deposition, vol.7,No.6,pp.(239),(2001).

[7] Macda,N.H.;Hosono,H.;Kawazon,H.;"Band-gap widening of CdO thin films",J.Appl.Phys,Vol.84,pp.(6174-6177), (1998).

[8] Shujin,Y.Y.,et al., "CdO as the Archetypical Transparent Conducting Oxide. Systematics of Dopant Ionic Radius and Electronic Structure Effects on Charge Transport and Band Structure" ,Chem. Soc, Vol.127,pp.(8796), (2005).

[9] Calnan,S.;Tiwari,A.N.;"High mobility transparent conducting oxides for thin films solar Cells " , Thin Solid Films,Vol.518,pp.(1839-1849),(2010) .

[10] Lide, D.R. , "In Chemical Rubbe Company hand Book of Chemistry And Physics" , CRC Press , Bocarton , Florida , USA, (1996).

[11] Ali, H.M.,et al. , "Properties of transparent conducting oxides formed from CdO alloyed with In_2O_3", Thin Solid Films,Vol.515,pp.(3024–3029), (2007).

[12] Shu,J., et al.,"tuning the properties of Transparent oxide conductors.dopant ion size and electronic structured effects on CdO-based Transparent conducting Oxide.Ga-and In-doped CdoO thin films grown by MOCVD",Chem.Mater.,Vol. 20, No. 1,pp.(220-230),'(2008).

[13] Romero,CI.Z., et.al , "Influence of firing temperature on the properties of CdO thin films obtained by the sol-gel method", Modern Physics Letters,Vol.15,pp.(726-730),(2001).

[14] القيسي,غازي ياسين,"اساسيات الفيزياء الحديثة",دار المسيرة للنشروالتوزيع والطباعة,عمان,ص(272) ,(2007).

[15] Kumaravel, R. A., Ramamurthi ,K. n., Krishnakumar ,V. b.," Effect of indium doping in CdO thin films prepared by spray pyrolysis technique", Journal of Physics and Chemistry of Solids,Vol.71,pp.(1545–1549), (2010).

[16] Douaa sulayman Jbaier," Physical Properties of Cdo Thin Films Prepared by Spray Pyrolysis Technique", Eng. & Tech. Journal, Vol.31, No. 2,pp.(185-193), 2013.

[17] Jinan Ali Abd , Rafia T. Ahmed, Nada A. Mohamed, "Effect of Molar Concentration on the Optical and Structural Properties of CdO: in Thin Films Deposited by Spray Pyrolysis",Australian Journal of Basic and Applied Sciences ,Vol.8,No.8,pp.(166-173), (2014)

[18] Ali,A.Y.,Mazin,H.H.,"Growth of nanostructured CdO:In films by PLD ",Iraq journal of applied physics, Vol. 11, No.1, pp.(15-19),(2015)

[19] Kaur, J.; Kumar, R. and Bhatnagar, M.C. (2007). Effect of indium-doped SnO_2 nanoparticles on NO_2 gas sensing properties., Sens. Actuators B-Chem., 126: 478–484.

[20] Chavan,D.N.,et al.,"CdO Doped Indium Oxide Thick Film as a Low Temperature H_2S Gas Sensor ",Sensors & Transducers Journal, Vol. 129, No. 6, pp.(122-134),(2011)

[21] Ali,A.Y.;Mazin,H.H.,"Growth of nanostructured CdO:In films by PLD",Iraq Journal of Applied Physics, Vol. 11, No.1, pp.(15-19),(2015)

العلاقة بين المحكمة الجنائية الدولية ومجلس الامن بين الاختصاص القانوني والتوظيف السياسي

م.د الاء طالب خلف
كلية العلوم السياسية/ جامعة النهرين

المقدمة

ان العلاقة بين مجلس الامن والمحكمة الجنائية الدولية ما هي الا تطبيق لسلطة مجلس الامن في الامور الخاصة بالسلم والامن الدوليين كما ورد النص عليها في الفصل السابع من ميثاق الامم المتحدة، وتحديدا ما نصت عليه المادة (39) التي تعطي الحق لمجلس الامن فرض العقوبات واتخاذ التدابير اللازمة التي تكفل حفظ السلم والامن الدوليين واعادته الى نصابه. الا ان هذه العلاقة مرتبطة بالجانب السياسي كون مجلس الامن يعد هيئة سياسية، وهو ما انعكس بدوره على طبيعة هذه العلاقة، وهو ما يدعونا الى تحليل التوظيف السياسي للمحكمة الجنائية الدولية من قبل بعض الدولة دائمة العضوية لتمرير سياساتها واهدافها ومصالحها السياسية من خلال هذه المؤسسة الجنائية الدولية التي يراد بها تحقيق السلم والعدالة على الصعيد الدولي.

فما الذي يضمن عدم اختلال علاقة التوازن المطلوبة بين الاختصاص الجنائي للمحكمة الجنائية الدولية من جهة ، والطبيعة السياسية التي قد تميّز تصرفات مجلس الأمن من جهة أخرى ، خاصة في حالة لجوء هذا الأخير إلى الممارسة الخاطئة للحقوق والسلطات المخولة له بموجب نصوص في نظام روما الأساسي.

وبناءا على ماتقدم تم تقسيم البحث الى مبحثين تناول الاول منهما سلطة مجلس الامن في الاحالة، بثلاث مطالب، اما المبحث الثاني فتناول: دور مجلس الامن في وقف اجراءات التحقيق والمحاكمة والرقابة، بمطلبين، ومن ثم خاتمة ومصادر للبحث.

المبحث الاول: سلطة مجلس الامن في الاحالة:

بدأ لابد من توضيح مفهوم التوظيف السياسي على المستوى الدولي الذي يعرف بانه (استخدام دولة ما لقضية ما لتحقيق مصلحة سياسية محددة)، وكذلك يعرف بانه (استفادة دولة معينة من حدث معيّن بغية الوصول إلى هدف سياسي معيّن)(1).

1- Hector Villarreal, Political Recruitment Theory on Cabinet Appointments, National Autonomous University, Mexico, P3.

وعادة ما تبرر الدول ولاسيما الكبرى منها استخدام هذا المنهج على صعيد السياسة الدولية من منطلق الحفاظ على الامن الدولي، الذي يرجع بجذوره الى إنشاء عصبة الامم، ومن بعدها الامم المتحدة ومن ثم التاسيس لظهور مفهوم الأمن الدولي.

وعلى صعيد المحكمة الجنائية الدولية نجد ان النظام الاساس قد اعطى مجلس الامن الحق في احالة حالة للمحكمة اذا ما رأى المجلس ان الفعل المرتكب يشكل جريمة داخلة ضمن اختصاص المحكمة الجنائية وكانت هذه الاحالة تشكل في حد ذاتها تدبيرا من التدابير التي يتخذها مجلس الامن للمحافظة على السلم والامن الدوليين.

ويلاحظ ان المادة (13) من النظام الاساس للمحكمة ذكرت الحالات التي تمارس المحكمة فيها اختصاصها بالنظر في الجرائم المشار اليها في المادة الخامسة من النظام فنصت على انه (للمحكمة ان تمارس اختصاصها فيما يتعلق بجريمة مشار اليها في المادة (5) وفقا لاحكام هذا النظام الاساس في الاحوال الاتية)(2):

اذاحالت دولة طرف الى المدعي العام وفقا للمادة (14) حالة يبدو فيها ان جريمة او اكثر من هذه الجرائم قد ارتكبت.

اذا احال مجلس الامن متصرفا بموجب الفصل السابع من ميثاق الامم المتحدة حالة الى المدعي العام يبدو فيها ان جريمة او اكثر من هذه الجرائم قد ارتكبت.

اذا كان المدعي العام قد بدأ بمباشرة التحقيق فيما يتعلق بجريمة من هذه الجرائم وفقا للمادة (15).

وبناء على ما تقدم فلمجلس الامن ان يحيل اي حالة يبدو فيها ان جريمة او اكثر من الجرائم الداخلة في اختصاصها قد ارتكبت(3).

والمقصود بعبارة حالة (هي النص الفعلي العام الذي يعتقد بموجبه ان جريمة داخلة في اختصاص المحكمة بموجب المادة (5) من النظام الاساس قد تم ارتكابها)(4).

---

2 – المادة (13) من النظام الاساسي، وكذلك براء منذر كمال عبد اللطيف، النظام القضائي للمحكمة الجنائية الدولية، دار حامد للنشر، عمان الاردن، ط1، 2008، ص136.

3 – Hemi Mistry and Deborah Ruiz, The UN Security Council and the International Criminal Court, Chatham House, 16 March, 2012, p3.

وعندما يقرر المجلس احالة تلك الحالة فان الامين العام للامم المتحدة يحيل –وعلى الفور– قرار مجلس الامن الخطي الى المدعي العام مشفوعا بالمستندات والمواد الاخرى التي تكون وثيقة الصلة بقرار مجلس الامن، وبالمقابل تحال عن طريق الامين العام المعلومات التي تقدمها المحكمة الى مجلس الامن(5).

والجدير بالذكر ان المادة (12) الفقرة (ب) استثنت الاحالة الصادرة من مجلس الامن من الشروط المذكورة في هذه المادة والتي نصت في حالة الفقرة (أ) و (ج) من المادة (13) يجوز للمحكمة ان تمارس اختصاصها اذا كانت واحدة او اكثر من الدول التالية طرفا في هذا النظام الاساسي او قبلت باختصاص المحكمة وفقا للفقرة (3):

–الدولة التي وقع في اقليمها السلوك قيد البحث او دولة تسجيل السفينة او الطائرة اذا كانت الجريمة قد ارتكبت على متن السفينة او الطائرة.

–الدولة التي يكون الشخص المتهم بالجريمة احد رعاياها.

ولذلك فان النظام الاساسي لم يكتف بجعل مجلس الامن احد الجهات الثلاثة التي يمكنها تحريك الدعوى وانما منحه امتيازا يختص به يختلف في محتواه عن السلطة الخاصه بتحريك الدعوى من احد الدول لاطراف او تحريكها من المدعي العام، اذ من شان الفقرة (2) من المادة (12) من النظام الاساس ان كفلت لمجلس الامن الحق باحالة الدعوى الى المحكمة ولو انصرفت الحاله الى جريمة دولية لم تقبل جميع الدول المعنية بها لم تقبل جميع الدول المعنية بها باختصاصاتها(6)، ومن ثم رتب ذلك اعفاء احالات مجلس الامن من مقتضيات (قاعدة

---

4 – انظر محمود شريف بسيوني، المذكرة التفسيرية للنظام الاساسي للمحكمة الجنائية الدولية، بحث مقدم للندوة العربية حول المحكمة الجنائية الدولية التي عقدت في عمان للفترة من 18–21 كانون الاول 2008، ص48.

5 – فرست سوفي، الوسائل القانونية لمجلس الامن في تدويل النزاعات الداخلية وتسويتها،دراسة تحليليه تطبيقية، مكتبة زين الحقوقية والادبيه، بيروت، ط1، 2013، ص225.

6 – علي عبد القادر القهوجي، القانون الدولي الجنائي اهم الجرائم الدولية،المحاكم الجنائية الدولية،منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت، ط1، 2001، ص334.

الرضائية) التي تشترط موافقة مجمل الدول المعنية لتحريك الدعوى امام المحكمة الجنائية الدولية(7).

المطلب الاول: مبررات منح مجلس الامن حق الاحاله الى المدعي العام:

في البدء يمكن القول ان اغلب الدول التي شاركت في مؤتمر روما كانت ضد اي ارتباط عملي للمحكمة مع مجلس الامن، على اعتبار ان مجلس الامن يمكن ان يعرقل سير المحكمة ويمنع اقامة قضاء جنائي دولي مستقل، اذ ان اعطاء مجلس الامن حق احالة الدعاوى امام المحكمة يتضمن افتراضا بان الدول الدائمة العضوية لايمكن ان ترتكب جرائم يتضمنها النظام الاساسي للمحكمة، وحتى في حالة ارتكابها لهذه الجرائم فانها سوف لن تخضع للقانون بسبب الحصانه التي يؤمنها لها حق الفيتو، لذلك استقرت هذه الدول على عدم اعطاء مجلس الامن دورا في المحكمة لكي لا يؤدي ذلك الى سيطرة السياسات الخارجية لاعضاء المجلس ويثير المحسوبية السياسية على محكمة يراد لها ان تكون مستقلة وحرة لضمان تطبيق القانون الدولي على حد سواء(8). وبالرغم من ذلك استندت الدول الاعضاء الدائمين في مجلس الامن الى اتجاه اخر يقضي بضرورة اعطاء مجلس الامن حق احالة حالة الى المدعي العام للمحكمة وذلك لاعتبارات عدة يمكن اجمالها بالاتي:

1–ان اعطاء مجلس الامن حق الاحالة الى المحكمة الجناية الدولية سوف يقلل من مبررات مجلس الامن في انشاء محاكم جنائية دولية خاصة، لا سيما بالنسبة للجرائم التي ارتكبت بعد دخول النظام الاساسي للمحكمة حيز النفاذ(9)، وهذا سوف يساهم فيما يمكن ان نسميه (سياسة مجلس الامن في تحقيق العدالة المنتقاة)، لان القرارات التي اتخذها مجلس الامن فيما يخص انشاء المحكمة الجنائية الدولية ليوغسلافيا السابقه ورواندا كان القصد منها حقا ايجاد

7 – براء منذر كمال، النظام القضائي للمحكمة الجنائية الدولية، دار حامد للنشر، عمان الاردن، ط1، 2008، ص137.

8 – Sarah Sewall and Carle Kaysen, The United States and The International Criminal Court, in the site of American Academy of Art and Sciences. (www.amacad.org/project/icc.html)

9 – عادل عبد الله المسدي ، المحكمة الجنائية الدولية (الاختصاص وقواعد الاحالة)، دار النهضة الحديثة، ط2، 2014،ص24.

محاكم جنائية دولية قادرة على حفظ السلم والامن الدوليين وذلك بمعاقبة اللذين ارتكبوا جرائم خطيرة في اقليم يوغسلافيا السابقه ورواندا، لكن في المقابل لم ينشئ مجلس الامن محكمة نائية دولية لمعاقبة مجرمي الحرب الاسرائليين على الرغم من ارتكابهم للعديد من الجرائم الدولية الخطيرة بحق الشعب الفلسطيني، لذلك فان هذه الاحالة الممنوحة لمجلس الامن سوف تقيم قيدا على هذا الاخير في المستقبل بحيث تجعله يقلل من المعالجة الانفرادية لاي نزاع على حساب الاخر لان كلمة الفصل في هذا النوع من الجرائم هو للمحكمة الجنائية وليس لمجلس الامن(10).

2- ان حق مجلس الامن في الاحالة يندرج ضمن العلاقة الوثيقة بين الجرائم التي يعاقب عليها بموجب المحكمة الجنائية الدولية وسلطات مجلس الامن في الحفاظ على السلم والامن الدوليين، كون هذه الجرائم تعد ايضا من الجرائم المخلة بسلم وامن الانسانية، لاسيما ان مجلس الامن له سلطة تقديرية واسعه وليست مقيدة فيما يتعلق بالحالات التي يمكن وصفها على انها تخل بالسلم والامن الدوليين، وان سلطته لا تقتصر على جريمة العدوان بل يمكن ان تشمل باقي الجرائم المنصوص عليها في المادة (5) من النظام الاساس(11).

وما يلفت النظر بان نص الفقرة ب من المادة 3 من النظام يمنح مجلس الامن سلطة احالة حالة بموجب الفصل السابع من ميثاق الامم المتحدة دون ان يشترط ان تكون هذه الحالة قد وقعت من دولة طرف في النظام الاساس مما يجيز لمجلس الامن باحالة قضايا تتصل بدول غير طرف وهذا يتعارض مع اهم المبادئ الاساسية الواردة في المادة (34) من اتفاقية فيينا

10 – المختار عمر سعيد، العلاقة بين مجلس الامن والمحكمة الجنائية الدولية، الندوة العلمية المحكمة الجنائية الدائمة (الطموح– الواقع– افاق المستقبل) للفترة من 2007/1/11/10، اكاديمية الدراسات العليا، ليبيا، ص4.

11 – يحيى ياسين سعود، السلطات الممنوحة لمجلس الامن بموجب ميثاق روما المنشئ للمحكمة الجنائية الدولية، مجلة دراسات قانونية، قسم الدراسات القانونية –بيت الحكمة، بغداد، العدد 30، 2012، ص105.

للمعاهدات لسنة 1969 والتي تنص (لا ترتب المعاهدة اي التزامات على دولة ثالثه ولا اي حقوق لها من دون موافقتها)(12).

اي ان المعاهدات الدولية لا تلزم الا عاقديها ولا يمتد الاثر القانوني الى دول هي ليست اطرافا فيها، والمعاهدات لا تكون مصدر حق او التزام للغير(13).

وهذا المنحى يدخل في توسع مجلس الامن لصلاحياته بموجب الفصل السابع من الميثاق دون معقب عليه مما يتيح فرص التعسف من قبل مجلس الامن ضمن البيئة السياسية الدولية الراهنه(14).

3- ان منح مجلس الامن حق احالة الدعاوي الى المدعي العام للمحكمة، من شانه ان يدعم التعاون المطلوب بين المحكمة الجنائية الدولية ومجلس الامن، اذ ان هذا الاخير بامكانه ان يقدم وثائق ومعلومات اثناء مرحلة التحقيق او المحاكمة من خلال ما يتمتع به من سلطات ووظائف، كونه الجهاز التنفيذي الموكل اليه السهر على مهمة حفظ السلم والامن الدوليين او من خلال ما يقوم به الافراد العاملون ضمن قوات حفظ السلام الدولية من تنفيذ للمهام التي يقوم مجلس الامن بتكليفهم بها في مناطق النزاعات والكوارث في العالم، مما يعني ان هذه القوات قد تكون شهود عيان على العديد من التجاوزات والجرائم الدولية الخطيرة وهذا يعد سببا جوهريا في منح مجلس الامن دون سواه من اجهزة الامم المتحدة الاخرى هذا الحق في الاحالة(15).

4- اعطاء هذا الحق لمجلس الامن جاء متفقا مع مواقف العديد من الدول، لاسيما الدول دائمة العضوية في مجلس الامن والتي ترى ان العلاقة بين المحكمة الجنائية الدولية كما هي

---

12 – للمزيد انظر المادة (34) من اتفاقية فيينا للمعاهدات لسنة 1969، وكذلك اياد خلف محمد ، حماية حقوق الانسانفي ظل المحكمة الجنائية الدولية، مجلة السياسة والدولية، الجامعة المستنصرية، العدد، ص268.

13 – للمزيد من التفاصيل انظر، سموحي فوق العادة، القانون الدولي العام، مطبعة الانشاء، دمشق، 1965، ص، ص 561- 567.

14 – اياد خلف محمد، حماية حقوق الانسان في ظل المحكمة الجنائية الدولية،مجلة السياسة والدولية، الجامعة المستنصرية ،العدد19،2011 ص268.

15 – المختار عمر سعيد، مصدر سبق ذكره، ص3.

موضحة في نظام روما الاساسي لها ما يبررها كونها تطبيق لسلطة مجلس الامن الورادة في الفصل السابع من ميثاق الامم المتحدة.

المطلب الثاني: شروط احالة الحالة من مجلس الامن الى المدعي العام

استنادا الى المادة (13) فقرة (ب) من النظام الاساسي للمحكمة فان مجلس الامن يستطيع احالة دعوى او اكثر من الجرائم الداخلة في اختصاص المحكمة والواردة في المادة (5) من النظام الاساسي(16)، وهي الشروط التي تجعل من الاحالة اجراءا وموضوعا خاضعين للقانون:

ان تكون من مجلس الامن: يعتبر مجلس الامن هو المسؤول الاول عن المحافظة على السلم والامن الدوليين ويختص بجميع انشطة الامم المتحدة السياسية عن طريق تسوية المنازعات سلميا عن طريق اتخاذه للتدابير السلمية او الرعيه اللازمة لصيانه السلم والمحافظة عليه وبالتالي فان لمجلس الامن حق استئثاري انفرادي في احالة اي حالة يراها من الجرائم الدولية وذلك باعتباره هو الجهة المختصة باتخاذ التدابير المختلفة في مجال السلم والامن طبقا للمادة (39) من الميثاق وكذلك نظرا لتعهد كل اعضاء منظمة الامم المتحدة بقبول قرارات المجلس وتنفيذها والزاميتها طبقا للمواد (25، 49) من الميثاق. وتتم الاحالة وفقا للاجراءات التي يعمل بها المجلس والمنصوص عليها في المادة 27 من الميثاق ولما كانت الاحالة الى المحكمة الجنائية الدولية تندرج ضمن المسائل الموضوعيه لذا فان قرار الاحالة يصدر بموافقة (9) من اعضاء المجلس على ان يكون من بينهم اصوات الاعضاء الدائمين، ويصدر القرار على هذا النحو ويقوم رئيس المجلس باتخاذ الاجراءات اللازمة وابلاغ الامين العام للامم المتحدة والذي يقوم بدوره باخطار الاحالة الى المدعي العام للمحكمة الجنائية الدولية(17).

---

16 – Joe Stork, International Criminal Court, Intec hemispheric Resource Center and Institute for Policy Studies, April, 1998, Vol, 3, n4, p2. (www.foreign policy–infocus.org)

17 – للمزيد من التفاصيل انظر المادة (27) من ميثاق الامم المتحدة وكذلك بن عامر تونسي،العلاقة بين المحكمة الجنائية الدولية ومجلس الامن، الندوة الدولية حول المحكمة الجنائية الدولية، للفترة من 10/ 11/ يناير 2007، اكاديمية الدراسات العليا، ليبيا، ص11.

وهذا يعني ان الدولة ذات العضوية الدائمة هي بمناى عن تطبيق هذه الوسيلة لاحالة جرائمها الى المحكمة اذا لم تكن طرفا في النظام الاساسي، وعلى هذا الاساس لن تستطيع المحكمة التعامل مع الجرائم المرتكبة من قبل اشخاص تابعين للولايات المتحدة والصين بدون قبولهم لانهما لم تنضما الى النظام الاساسي وستقفان امام محاولة من مجلس الامن عن طريق حق النقض باحالة اي جريمة قد تتهمان بارتكابها مستقبلا(18).

ان ترتبط الحالة بما هو منصوص عليها في مواد الفصل السابع من الميثاق: حيث يحمل الفصل السابع من ميثاق الامم المتحدة عنوان فيما يتخذ من الاعمال في حالات تهديد السلم والاخلال به ووقوع العدوان ويشمل هذا الفصل على (13) مادة من(39 الى 51)، اذ تخول اولى مواد الفصل المشار اليه لمجلس الامن سلطة تحديد وجود اي تهديد للسلم الدولي او وقوع عمل عداوني، ومن ثم يقدم التوصيات او يحدد الاجراءات التي تتخذ استنادا الى المادتين (41، 42) من الميثاق للمحافظة على السلم والامن الدوليين، وبناءا على ذلك يشترط في الاحالى ان تتضمن تهديد للسلم والامن الدولي(19). ولعل هذا هو السبب وراء التاكيد في قرارات المجلس الصادرة بالاحالة على ان الحالة (لا تزال تشكل تهديدا للسلم والامن الدوليين)(20)، وبالرغم من استعمال مجلس الامن للعبارة سالفة الذكر وبصفة خاصة اللفظ لا يزال فان ذلك لا يعني اشتراط ان يكون تهديد السلم والامن الدولي مستمرا، وانما يجوز ان يكون قد انتهى التهديد، المهم ان تكون الحالة وقت حدوثها قد شكلت تهديدا للسلم والامن الدولي وان يبدو لمجلس الامن ارتكاب جريمة او اكثر:

---

18 – سعيد عبد اللطيف حسن، المحكمة الجنائية الدولية نظامها الاساسي اختصاصها التشريعي والقضائي وتطبيقات القضاء الجنائي الدولي الحديث المعاصر، دار النهضة العربية ، القاهرة،2004، ص298.

19 – ضاري خليل محمود، المحكمة الجنائية الدولية المنشاة بموجب نظام روما الاساسي، مجلة الحقوق، تصدرها كلية الحقوق– جامعة البحرين ،المجلد السادس، العددالاول، 2009،ص ص192– 193

20 – راجع قرار مجلس الامن رقم (1593) لسنة 2005، بشان احالة الوضع القائم في دار فور الى المدعي العام للمحكمة الجنائية الدولية.

ينبغي ان يكون موضوع الاحالة الصادرة من مجلس الامن محصورة فيما تختص فيه المحكمة الجنائية الدولية من جرائم ، تلك الجرائم الورادة في المادة الخامسة من ميثاق روما وهي (جريمة الابادة الجماعية ، والجرائم ضد الانسانيه، وجرائم الحرب، وجريمة العدوان).

وبالتالي لا يحق لمجلس الامن ان يحيل على سبيل المثال حالة تتعلق بجرائم الارهاب او الاتجار غير المشروع بالمخدرات او بالسلاح، رغم خطورة تلك الجرائم لكن هذا لا يمنع من التعامل مع تلك الجرائم بوسائل قانونية اخرى قد يكون من بينها انشاء محاكم جنائية دولية خاصة(21).

كما ان المجلس يبقى بعيدا عن استقصاء من قام بالجريمه او في البحث في نسبة الجريمة الى فاعلها الذي هو من اختصاص المحكمة فقط(22)، اما اذا قام المجلس باستخدام طرق التحقيق والبحث والتحري لتحديد وقوع الجريمة هنا يكون قد تدخل في اختصاص الجهاز القضائي، كما انه يكون قد استخدم وسائل التحقيق التي يختص بها النائب العام والغرفة التمهيدية تابعة للمحكمة الجنائية الدولية.

المطلب الثالث: اثار الاحالة:

اثر الاحالة على سلطة المدعي العام في تقدير جدية التحقيق: ان احالة حالة معينة عن طريق مجلس الامن شأنها في ذلك شأن الاحالة عن طريق الدول الاطراف في النظام الاساسي ولا تمثل التزاما على المدعي العام للمحكمة الجنائية الدولة بمباشرة اجراءات التحقيق في الجريمة موضوع الاحالة، وانما تظل للمدعي العام سلطة تقدير البدء في الاجراءات من عدمه وبعبارة اخرى فان الاحالة من مجلس الامن لاتلزم المدعي العام بمباشرة التحقيق بل يجوز له ان لا

21 –يحيى ياسين، السلطات الممنوحة لمجلس الامن بموجب ميثاق روما المنشئ للمحكمة الجنائية الدولية، مجلة دراسات قانونية، قسم الدراسات القانونية –بيت الحكمة، بغداد، العدد 30، 2012.، ص106.

22 – فرست سوفي، الوسائل القانونية لمجلس الامن في تدويل النزاعات الداخلية وتسويتها،دراسة تحليليه تطبيقية، مكتبة زين الحقوقية والادبيه، بيروت، ط1، 2013، ص227.

يباشر التحقيقات اذا اقتنع ان الاحالة استندت الى معلومات غير صحيحة او كانت مبنيه على اهواء سياسية او افتراضات غير واقعية(23).

فوفقا للمادة 53 من البند الاول من النظام الاساسي يشرع المدعي العام في التحقيق بعد تقييم المعلومات المتاحة له ما لم يقرر عدم وجود اساس معقول لمباشرة اجراء بموجب هذا النظام الاساسي(24).

ولدى اتخاذ قرار البدء في التحقيق ينظر المدعي العام فيما يلي:

ما اذا كانت المعلومات المتاحة توفر اساسا معقولا للاعتقاد بان جريمة تدخل في اختصاص المحكمة قد ارتكبت او يجري ارتكابها.

ما اذا كانت هذه القضية مقبولة او يمكن ان تكون مقبولة بموجب المادة (17) اي غياب التحقيق او الملاحقة في الدولة المختصه ما لم تكون الدولة غير راغبه في التحقيق او الملاحقة او غير قادرة على ذلك.

التحقيق يخدم مصلحة العدالة وللمدعي العام سلطة استثنائية في تقرير صالح العدالة على ضوء جسامة الجرم ومصلحة الضحايا(25).

وعلية فالمدعي العام للمحكمة يتمتع بسلطة تقدير واسعه عند دراسة طلبات الاحالة المقدمة اله من مجلس الامن او الدول الاطراف في النظام الاساسي على حد سواء، وهو حر في تقدير المعلومات المقدمة اليه واتخاذ قرار فتح التحقيق من عدمه او البدء في المتابعه(26). واذا انتهى المدعي العام الى عدم وجود اساس كاف للمقاضاة او ان المقاضاة لا تخدم مصالح العدالة وجب عليه ان يبلغ الدائرة التمهيدية ومجلس الامن بالنتيجة التي انتهى اليها والاسباب

---

23 – احمد عبد الظاهر، سلطة مجلس الامن في الاحالة الى المحكمة الجنائية الدولية، بحث منشور على الرابط الاتي :
http://kenanaonline.com/files/0002/2796/%D8%B3%D9%84%D8%B7%D8%A9+%D9%85%D8%AC%D9%84%D8%B3[1]...doc

24 – للمزيد من التفاصيل انظر، المادة (53) من النظام الاساسي.

25 – فيدا نجيب حمد، مصدر سبق ذكره، ص181، وكذلك المادة (53) الفقرة (1) من النظام الاساسي.

26 – نجلاء محمد عصر، المحكمة الجنائية الدولية وملاحقة مجرمي الحرب، مجلة البحوث القانونية والاقتصادية، كلية الحقوق جامعة المنصورة، العدد49، 2011، ص531.

التي بنى عليها رأيه ويجوز لمجلس الامن ان يطلب من الدائرة التمهيدية مراجعة قرار المدعي العام بعدم مباشرة اجراء، وللدائرة التمهيدية ان تطلب من المدعي العام اعادة النظر في ذلك القرار، ويجوز للدائرة التمهيدية من تلقاء نفسها ودون الحاجة الى طلب من مجلس الامن مراجعة قرار المدعي العام بعدم مباشرة اجراء اذا كان هذا القرار يستند الى ان التحقيق والمقاضاة لا يخدم مصلحة العدالة، وفي هذه الحالة الاخيرة لا يصبح قرار المدعي العام نافذا الا اذا اعتمدته الدائرة التمهيدية(27).

لذلك فان النظام الاساسي قد جعل من هذه الاحالة مجرد اجراء شكلي يتم من خلاله ابلاغ المدعي العام بحالة يبدو من خلالها جريمة او اكثر تقع ضمن دائرة اختصاص المحكمة وان المدعي العام عليه ان يتاكد بدورة من صحة هذه المعلومات وكذلك لفت انتباه المدعي العام الى وقائع مهمه قد تستلزم اجراء التحقيق ومن ثم البت فيها.

وان اعطاء المدعي العام في المحكمة حق عدم قبول الدعاوى المحالة اليه من مجلس الامن جاءت للحفاظ على الطابع القانوني للمحكمة من خلال استبعاد اية واقعه يغلب عليها الطابع السياسي تحال من مجلس الامن بسبب طبيعته السياسية(28). حيث ان المحكمة هي من تملك السلطة التقديرية في ممارسة اختصاصها وهي التي تقضي بقبول هذه الواقعه او رفضها، لان هذا ينسجم مع ما ترسخ من مبادئ في اطار القضاء الدولي ومثال ذلك مبدأ (الاختصاص بالاختصاص) حيث يفهم من هذا المبدأ ان الجهة المختصه في المحكمة الجنائية الدولية وهي (المدعي العام) هي من تحدد هذه الاحالة بحيث اذا ثار خلاف حول هل المحكمة مختصة ام غير مختصه فان حسم هذا الخلاف سيكون للمحكمة ذاتها صاحبة الاختصاص الاصيل لان المدعي العام هو من يملك حرية مواصلة التحقيق او سحبه او تعديله لاي من التهم المنسوبة للمتهم(29).

اثر الاحالة على مبدأ التكامل: ان احالة حالة من قبل مجلس الامن الى المدعي العام في المحكمة الجنائية الدولية يضع مبدأ التكامل وهو احد المبادئ التي تحكم عمل المحكمة او يجب عليها مراعاتها موضع تساؤل مهم هو هل يترتب على احالة الحالة من مجلس الامن الى

27 – للمزيد من التفاصيل انظر، نص المادة (53) البند الثالث من النظام الاساسي.

28 – يحيى ياسين، مصدر سبق ذكره، ص106.

29 –لمزيد من التفاصيل انظر نص المادة (61) الفقرة (4–5) من النظام الاساسي.

المدعي العام عدم استطاعت المحاكم الوطنية بعد ذلك ممارسة ولايتها القضائية بخصوص الجريمة محل الاحالة؟، وفي هذا الصدد تباينت الاراء في محيط الفقه القانوني بين اتجاهين، الاول يرى ان المحكمة وجدة مكملة لولاية المحاكم الوطنية وهي ملزمة باحترام مبدأ التكامل، ومن ثم عدم امكانية قبول الدعاوى اذا كانت تنظر فيها محاكم دولة لها اختصاص عليها ولو كان مجلس الامن هو جهة الاحالة، والقول بخلاف ذلك سوف يتم تسخير المحكمة لاغراض سياسية تخدم مصالح الدول المهيمنة على مجلس الامن.

ومنهم من يرى ان احالة حالة من مجلس الامن الى المدعي العام من شانه ان يعطل اي مبادرة تقوم بها المحاكم الوطنية بشان ممارسة اختصاصها بشان الجريمة موضوع الاحالة(30).

ذلك ان مجلس الامن يتصرف بموجب ميثاق الامم المتحدة وليس بمقتضيات نظام روما الاساسي ومن باب المفاضلة تكون العبرة بالالتزامات التي اوجبها ميثاق الامم المتحدة على جميع الالتزامات السابقه واللاحقة له وذلك استنادا الى المادة (103) من ميثاق الامم المتحدة والتي تنص (اذا تعارضت الالتزامات التي يرتبط بها اعضاء الامم المتحدة وفقا لاحكام هذا الميثاق مع اي التزام دولي اخر يرتبطون به فالعبرة في التزاماتهم المترتبه على هذا الميثاق)(31)، ويعني هذا النص ان ميثاق الامم المتحدة يسمو من الناحية القانونية على غيره من الاتفاقيات الدولية، وقد يذهب الوضع ابعد من ذلك لانه من الناحية القانونية والعملية ليس من حق المحكمة ان ترفض طلب المجلس اذا تاكد لديها ان الدولة قامت فعلا بكل اجراءات التحقيق والبحث والمحاكمة، وليس لها ان تصرح عمليا بعدم قبول الحالة في حال اعتبار مجلس الامن الدولة غير قادرة، من ثم لمجلس الامن ان يعلم المحكمة بالنظر في الحالة حتى وان سبق للدولة الفصل في القضية ومحاكمة مرتكبي الفعل المجرم بحكم اختصاصها الوطني

30 – فارس أحمد الدليمي ، مبدأ التكامل في المحكمة الجنائية الدولية، مجلة التشريع والقضاء، منشور على الرابط الاتي:
http://www.tqmag.net/body.asp?field=news_arabic&id=2198&page_namper=p3

31 – لمزيد من التفاصيل انظر، نص المادة (103) من ميثاق الامم المتحدة.

لان الدول في هذه الحالات ملزمة بالخضوع لقرارات مجلس الامن طبقا لنصوص الفصل السابع.

عدم تحمل الامم المتحدة نفقات المحاكمه:

إذا كانت الإحالة صادرة من مجلس الأمن، فإن التساؤل يثور عمن يتحمل نفقات التحقيق والمحاكمة، وما إذا كانت هيئة الأمم المتحدة أو المحكمة الجنائية الدولية.

وفي الإجابة على هذا التساؤل، فإن الآراء التي يمكن تصورها لا تخرج عن ثلاثة:(32)

الاول: تحمل الأمم المتحدة نفقات التحقيق والمحاكمة، باعتبار أن المجلس يتصرف في هذه الحالة بموجب الفصل السابع من الميثاق، ولأن الإحالة إلى المدعي العام للمحكمة الجنائية الدولية تندرج ضمن التدابير غير العسكرية التي يتخذها مجلس الأمم للمحافظة على السلم والأمن الدولي.

الثاني: أن المحكمة الجنائية الدولية ذاتها هي التي تتحمل نفقات المحاكمة. ويشفع لهذا الرأي أن الأمر يتعلق بجريمة تدخل ضمن اختصاص المحكمة، ولا يهم نوع الجهة التي قامت بالإحالة، فيستوي أن تكون دولة طرف أو مجلس الأمن أو أن المدعي العام للمحكمة قد باشر التحقيق من تلقاء نفسه. فلا يجوز التفرقة بين ما إذا كانت الإحالة قد صدرت عن مجلس الأمن أو عن دولة طرف، والقول بتحمل الأمم المتحدة نفقات المحاكمة إذا كانت الإحالة صادرة عن مجلس الأمن.

الثالث: التفرقة بين ما إذا كانت الحالة موضوع الإحالة تتعلق بدولة طرف ووقعت في تاريخ لاحق على نفاذ النظام الأساسي للمحكمة، وبين ما إذا كانت الحالة تتعلق بدولة غير طرف دون أن تكون هذه الدولة قد قبلت اختصاص المحكمة بنظرها. ففي الفرض الأول، فإن المحكمة ذاتها هي التي تتحمل نفقات المحاكمة. اما في الفرض الثاني، يترتب على الإحالة الصادرة عن مجلس الأمن القول بتحمل هيئة الأمم المتحدة نفقات المحاكمة.

هذه هي الآراء المتصورة نظريا. ولكن في الواقع العملي، وبالإطلاع على قرار مجلس الأمن بشأن إحالة الوضع القائم في دارفور إلى المدعي العام للمحكمة الجنائية الدولية، يلاحظ أن البند السابع من هذا القرار ينص على أن المجلس(يسلم بأنه لا يجوز أن تتحمل الأمم المتحدة

32 – احمد عبد الظاهر، مصدر سبق ذكره، ،،ص ص21–22

أية نفقات متكبدة فيما يتصل بالإحالة، بما فيها النفقات المتعلقة بالتحقيقات أو الملاحقات القضائية فيما يتصل بتلك الإحالة، وأن تتحمل تلك التكاليف الأطراف في نظام روما الأساسي والدول التي ترغب في الإسهام فيها طواعية).

المبحث الثاني: دور مجلس الامن في وقف اجراءات التحقيق والمحاكمة والرقابة

المطلب الاول: دور المجلس في وقف اجراءات التحقيق والمحاكمة:

النظام الاساسي للمحكمة منح مجلس الامن حق وقف اجراءات التحقيق والمحاكمة حيث نصت المادة(16) من النظام الاساسي على مايلي (لايجوز البدء او المضي في تحقيق او مقاضاةبموجب هذا النظام الاساسيلمدة اثني عشر شهرا بناء على طلب من مجلس الامن الى المحكمة، يتظمنه قرار يصدر عن المجلس بموجب الفصل لسابع من ميثاق الامم المتحدة، ويجوز للمجلس تجديد هذا لطلب بالشروط ذاتها)(33).

ونستخلص من هذا النص،ان مجلس الامن يجوز له ان يطلب الى المحكمة الجنائية الدولية وقف التحقيق او ارجاء المحاكمة وفق الضوابط الاتية(34):

ضرورة ان يكون الطلب الى المحكمة مبنيا على قرار يصدره المجلس بهذا الشأن.

ان يتصرف المجلس بموجب الفصل السابع من ميثاق الامم المتحدة وبعبارة اخرى، يجب ان يرى المجلس ن التحقيق و المحاكمة محل الارجاءمن شان الاستمرار في اي منهما ان يشكل تهديد للسلم والامن الدوليين.

ينبغي ان يكون ايقاف التحقيق او المحاكمة لمدة محددة لاتزيد على 12 شهرا غير ان المادة 16 تسمح للمجلس بتحديد الطلب بالشروط ذاتها لعدد غير محدد من المرات.

وتجدر الاشارة الى ان نص لمادة 16 من النظام الاساسي اثار جدلا كبيرا في محيط الفقه الذي يتنازعه في هذا الشأن رأيان:

---

33 – انظر نص المادة (16) من النظام الاساسي.

34 – David Kaye, The Council and the Court: Improving Security Council Support International Criminal Court, School of Law, University of California. Irvine, 2013, p.p 4–5.

الراي لمؤيد لفكرة منح مجلس الامن سلطة الارجاء التحقيق او المحاكمة: ويستند اصحاب هذا الرأي المؤيد الى ان هذه السلطة ماهي الا تطبيق عملي لسلطات المجلس المحددة في ميثاق الامم المتحدة لاسيما الفصل لسابع منها الذي يعطي للمجلس سلطة واسعة النطاق فيما يتعلق بالمسائل ذات الصلة بحفظ السلم والامن الدوليين. كما يرى هذا الفريق ان حفظ واستعادة وبقاء قد لايكون عن طريق تدبير سلبي يتمثل في وقف الاجراءات امام المحكمة، وقد تبنته الدول الخمس االدائمة العضوية وبعض حلفائها(35).

اما الراي المعارض لمنح مجلس الامن هذه السلطة سينعكس بصورة سلبية على نشاط المحكمة ، لاسيما قد تتدخل الاعتبارات السياسية في القرار الصادر عن مجلس الامن بايقاف التحقيق او المحاكمة، ويوصف هذا القرار بانه ليس مجرد ايقاف مؤقت لعمل المحكمة،وانما في الحقيقةاغلاق الطريق امامها اي منعها من ممارسة اختصاصاتها. ومن ثم فان قرارا مثل هذا سيشكل خطورة على ضمانة الاستقلال اللازم توفرها في المحكمة كهيئة قضائية ازاء مجلس الامن كهيئة او جهاز سياسي(36).

وان ارجاء التحقيق او المحاكمة يؤدي الى نتائج سلبية وخطيرة من شانها ان تعيق لمحكمة عن بلوغ الهدف الذي اوجدت من اجلة، ولعل ابرز هذه النتائج:

اولا:- النتائج على صعيد التحقيق:

إن نص المادة (16) من النظام الأساسي جاءت متناقضة ونافية لكل السلطات التي منحها هذا الأخير للمدعي العام عند البدء أو المضيّ في التحقيق باعتبارها تحجب وتصادر كافة سلطاته بوصفه سلطة (الاتهام والتحقيق) ، وذلك عن طريق التضييق عليه من قبل مجلس الأمن الذي يعد بمثابة السلطة العليا التي تصدر القرارات الملزمة لمنعه من البدء أو المضي في التحقيق لمدة أثنى عشر شهراً قابلة للتجديد .

إن نص المادة (16) من النظام الأساسي جاء مخالفاً لمفهوم العلاقة بين جهازين مستقلين عن بعضهما بعضاً ، بحيث يتضح من هذا الدور وكأن العلاقة بين مجلس الأمن والمحكمة

35 – جمعة سعيد سرير،ابعاد العلاقة بين المحكمة الجنائية الدولية ومجلس الامن، ص22

36 – SEJLA DURBUZOVIC, International Criminal Court and the UN Security Council – a difficult relationship, p6, on:
www.euclid.int/…/Sejla%20Durbuzovic%20-%20ICC%

الجنائية الدولية لم تكن مقررة بإرادة كلا الطرفين(37)، ولا شك إن انعدام هذا التوازن يعبر بوضوح عن ارتهان وخضوع جهاز قضائي هو (المحكمة الجنائية الدولية)، لمصلحة جهازٍ آخر سياسي هو (مجلس الأمن) ، بحيث أصبح لهذا الأخير بموجب ما أقرته المادة (16) من النظام الأساسي أحقيته في تعطيل أو إلغاء الاختصاص الأصيل للمحكمة الجنائية الدولية في تحقيق العدالة، لأن البدء في التحقيق أو الاستمرار فيه هو من الأعمال الأساسية الخاصة بالمحكمة وإن كل تدخل في اختصاصها الأصيل يُعد خرقاً للمبادئ الأساسية في نظام القضاء إن إرجاء التحقيق يؤدي إلى تغليب فكرة الاستقرار على حساب العدالة ، فحينما يوقف مجلس الأمن تحقيقاً قائماً أو حتى محاكمة جارية لدواعي حفظ السلام والأمن الدوليين مستنداً في ذلك إلى أن المضي في التحقيق أو تلك المحاكمة تؤدي إلى زعزعة السلم والأمن الدوليين وفي هذا تناقض غريب، لأن المضي في التحقيق وتقصي الحقيقة عن طريق البحث عن الأدلة وجمعها يؤدي قطعاً إلى فك الغموض والالتباس حول الجريمة عن طريق متابعة خيوطها للوصول إلى الجاني الحقيقي الذي هو – دون غيره – من أخّل بالسلم والأمن الدوليين ، نتيجة ارتكابه (لجريمة الإبادة الجماعية ، أو ضد الإنسانية ، أو جرائم الحرب) ، ومن ثم ينبغي دعم هذا الجهد بعمل إيجابي من شأنه أن يكشف ملابسات هذه الجريمة ، أو تلك وليس القيام بعمل سلبي عن طريق وقف هذا الجهد وتعطيله تحت ذريعة المحافظة على السلم والأمن الدوليين .

4- بالرجوع إلى نص المادة (16) من النظام الأساسي ، ولا سيما عبارة ((لا يجوز البدء أو المضي في تحقيق)) نجد إن حرف (لا) الذي جاء في هذه العبارة يفيد النفي المستمر لحالتين من مراحل التحقيق وهي :-

أ) حالة البدء في التحقيق

يستطيع مجلس الأمن بموجب هذه المادة أن يمنع المدعي العام حتى من إثارة الموضوع وذلك بمنعه من البدء في التحقيق على الرغم من أن المدعي العام في أحيان عدة يتحصّل على أدلة كافية تمكنه من تحريك الدعوى ومن ثم البدء في التحقيق .

ب) حالة المضيّ في التحقيق

37 – عادل عبدالله المسدي ، مصدر سبق ذكره، ص 227.

المسألة تزداد تعقيد وإساءة حينما يمضي المدعي العام في التحقيق بشأن واقعة معينة ويأتي قرار مجلس الأمن فيما بعد ليوقف هذا التحقيق بعد القبض على المتهم ، أو تنفيذ آوامر الحضور ، عندها ماذا سيحل بالمتهم الذي قيدت حريته ؟ وهل سيخلى سبيله ويوقف التحقيق نهائياً ؟ أم أن المتهم يبقى على ذمة القضية؟

اذا سلمنا بسلطة المجلس في طلب التأجل لمدة اثني عشر شهراً قابلة للتجديد ، فانه يتعين البحث عن القيود والضوابط للحيلولة دون اساءة استخدام هذه السلطة صحيح ان بعضهم يؤكد ان قرار مجلس الامن بتعليق او ايقاف نشاط المحكمة سواء في حالة البدء في التحقيق او المحاكمة او الاستمرار في مباشرة التحقيق او في نظر المحكمة يحتاج الى اتفاق جميع الأعضاء الدائمين في مجلس الامن وهنا يمكن ان يظهر حق الفيتو ليؤدي اخيراً وظيفة ايجابية بمعني ان استخدام حق الفيتو من قبل دولة واحدة دائمة العضوية من شأنه ان يسلب المجلس سلطته في طلب التأجيل الا ان هذا الامل لا ينبغي التعويل عليه كثيراً خصوصاً بعد الواقع الجديد الذي شهده النظام الدولي في العقد الاخير من القرن العشرين والسنوات التالية وهو الواقع الذي اظهر بوضوح زوال نظام توازن القوى وظهور تواف غريب بين الدول دائمة االعضوية التى كثيراً ما اتفقت مجتمعه لتحقيق مصالحها والحفاظ على سلطاتها وامتيازاتها في مواجهة الدول الاخرى بما في ذلك حماية المجرمين الدوليين الذين يهمها امرهم(38).

ثانياً : النتائج على صعيد المحاكمة (المقاضاة):

بالرجوع إلى مسار التحقيق والمحاكمة في النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية، يلاحظ أنه بمجرد اعتماد التهم من قبل الدائرة التمهيدية يعني أن الدعوى قد دخلت مرحلة في غاية الأهمية ، لأن اختصاص النظر في هذه الدعوى أثناء هذه المرحلة (أي المحاكمة) قد انتقل إلى دائرة جديدة غير الدائرة التمهيدية وهي (الدائرة الابتدائية) ، حيث يقع على هذه الأخيرة وحدها عبء كفالة المحاكمة العادلة والسريعة و أن اعتماد التهم من قبل الدائرة التمهيدية يوحي وجاهة تلك الأدلة المتوافرة بحق المتهم وانتقالها إلى الدائرة الابتدائية لتفصل فيها ، عندها هل من العدالة أن يبقى المتهم موقوفاً على ذمة القضية لمدة سنة أو أكثر ؟ وإذا سمح مجلس الأمن من جديد باستئناف المحاكمة ، فهل ستستمر المحاكمة بالهيئة السابقة

38 – محمد عزيز شكري، موقف الدول العربية من المحكمة الجنائية الدولية، ورقة عمل مقدمة الى الندوة الدولية التي نظمتها اكاديمية الدراسات العليا في ليبيا، 2007، ص12.

نفسها ؟ لاسيما وإن تحديد فترة ولاية بعض قضاة الدائرة التمهيدية والابتدائية محدد في الإنتخاب الأول بثلاث سنوات ، مع الأخذ في الاعتبار استمرار القضاة الذين ينظرون قضية معينة لحين الفصل فيها(39).

كما ان ارجاء التحقيق او المحاكمة قد يترك اثاره على معالم ومسرح ومسرح الجريمة ؟ فلا شك إن إرجاء سير المحاكمة لمدة أثنتى عشر شهراً كفيل بضياع معالم الجريمة أو ربما تلاشيها نهائياً ، وفي بعض الأحوال يؤدي إلى إفلات الجناة جراء هذا الإرجاء لهذه المحاكمة ، كما قد يتراجع الشهود عن الإدلاء بشهاداتهم أصلاً أمام المحكمة ، أو قد تغيب الذاكرة لديهم عن وصف ما سيشهدون عليه بسبب طول فترة إرجاء هذه المحاكمة ، مما يؤدي إلى صعوبة الوصول إلى الجاني الحقيقي للجريمة عندها ، عندها يضيع حق الضحايا هذه الجرائم في القصاص من الجاني الحقيقي الذي ارعبهم وقتل ذويهم(40).

لقد اعتبرت هذه االمادة من قبل العديد من الباحثين و الملاحظين بمثابة المساس الصارخ بالمادة العاشرة من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان و المادة 14 من العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية و السياسية و تناقضا واضحا مع المادة 40 من نظام روما الأساسي المتعلقة باستقلال القضاة و بمبدأ استقلال القضاء عموما، وكذلك خلافا للمادة 23 الفقرة3 من المشروع الذي وضعته لجنة القانون الدولي و التي أدرجت إمكانية مماثلة و لكن بطريقة أدق و أبعد عن الاعتبارات السياسية، حيث جاء في هذه المادة أنّه لا يمكن إجراء أيّ تحقيق أو متابعة بشأن حالة يكون مجلس الأمن بصدد تناولها كحالة تحمل تهديدا للسلم أو انقطاعا لحالة السلم أو عملا عدوانيا.." هذه المادة من المشروع تسمح بإمكانية التعطيل فقط لأسباب تتعلق بالتنسيق بين المحكمة و مجلس الأمن بشأن مسائل لم تعرض بعد على المحكمة لا كما هو الحال بالنسبة للمادة 16 من نظام روما و التي تترك مساحة واسعة للاعتبارات السياسية حيث تمكّن مجلس الأمن من أن "ينقذ كل من أراد إنقاذه" من دائرة نظر المحكمة(41).

---

39 – المختار عمر سعيد، مصدر سبق ذكره، ص14.

40 – يحيى ياسين سعود، مصدر سبق ذكره، ص108.

41 – احمد ادريس، المحكمة الجنائية الدولية ومجلس الامن اية علاقة بين القضاء الجنائي والمحافظة على السلم في العالم–، مداخلة في ندوة المحكمة الجنائية الدولية الطموح الواقع وافاق المستقبل، اكاديمية الدراسات العليا، 2007، ص،ص 8–9.

وصفوة القول إن سلطة مجلس الأمن في إرجاء التحقيق أوالمحاكمة تفتقر إلى السند القانوني الصحيح الذي يجيزها ، أو يبررها ، بالرغم من تسليمنا بحقيقة المهام المكلف بها مجلس الأمن بموجب ميثاق الأمم المتحدة لان الاستمرار في التحقيق أو المحاكمة هو بالضرورة يخدم ويلبي الغاية التي يسعى مجلس الأمن جاهداً لتحقيقها ألا وهي حفظ السلم والأمن الدوليين وقمع العدوان. وعليه فإن أملنا معقود على هذه المحكمة في ممارسة عملها على أكمل وجه، كما هو الأمل معقود على اعتدال مجلس الآمن وعدم ممارسته لهذه السلطات بإفراط حتى لا ينعكس ذلك الامتياز السياسي الممنوح له سلباً على مباشرة المحكمة لوظيفتها الطبيعية كهيئة جنائية دولية مستقلة.

المطلب الثاني: الدور الرقابي لمجلس الأمن في حالة رفض دولة طرف ، أو غير طرف التعاون مع المحكمة

أجاز النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية الطلب من أية دولة سواء أكانت دولة طرف، أم غيرطرف قبلت باختصاص المحكمة إلى تقديم المساعدة المنصوص عليها في الباب التاسع من هذا النظام ، وفي حالة امتناع هذه الدول – أي الدول الأطراف أو غير الأطراف في النظام الأساسي – عن تقديم التعاون الذي قد يطلب منها من قبل المحكمة ، فإنه يجوز لهذه الأخيرة أن تخطر بذلك جمعية الدول الأطراف ، أو مجلس الأمن ، إذا أحال هذا الأخير الحالة إلى المحكمة (42).

وفي ضوء ما تقدم يمكن حصر الجهات التي تملك الرقابة على طلبات التعاون في جهتين (جمعية الدول الأطراف ، ومجلس الأمن) ، وما يهمنا في هذا الموضوع هو رقابة مجلس الأمن على طلبات التعاون هذه .

ومن خلال الدراسة لنصوص النظام الأساسي ذات العلاقة، يمكن القول بأنه ثمة عدة خصائص تميز دور مجلس الأمن عند ممارسته سلطة الرقابة على طلبات التعاون التي

42 – راجع نص المادة (87) الفقرة (5–7) من النظام الاساسي.

تقدمها المحكمة الجنائية الدولية للدول الأطراف أو غير الأطراف، وأهم هذه الخصائص هي(43) :

أولاً : انحصار رقابة مجلس الأمن على طلبات التعاون المتعلقة بالحالات التي يحيلها هو للمحكمة دون غيرها:

إن دور مجلس الأمن في الرقابة على طلبات التعاون المقدمة من المحكمة إلى الدولة المعنية المطلوب منها التعاون محصور في الحالات التي يحيلها مجلس الأمن إلى المحكمة الجنائية الدولية، دون أن يمس هذا الدور الوقائع التي يقوم بتحريكها المدعي العام نفسه ، أو الإحالة التي تقدمها دولة طرف ، أو دولة قبلت باختصاص المحكمة بموجب إعلان مسبق .

ويُستنبط هذا بوضوح من نص المادة (87 / 5 – 7) من النظام الأساسي الذي يفيد بأنه يجوز للمحكمة حينما تمتنع دولة عن تقديم طلبات التعاون للمحكمة أن يتم إخطار جمعية الدول الأطراف بذلك ، أو مجلس الأمن إذا كان هو الذي أحال الحالة إلى المحكمة ، مما يعني بمفهوم المخالفة أن القضايا التي لم تحل من مجلس الأمن إلى المحكمة، وإنما أحالتها دولة طرف، أو غير طرف قبلت باختصاص المحكمة ، أو قام بتحريكها المدعي العام ذاته وتمتنع فيه هذه الدولة المُحال إليها طلب التعاون فأنها لا تخضع في هذه الحالة إلى رقابة مجلس الأمن جراء امتناعها عن طلب التعاون ، بل تخضع فقط لرقابة جمعية الدول الأطراف .

ثانياً : نطاق الدور الرقابي لمجلس الأمن يشمل الدول الأطراف ، أو غير الأطراف

يتسع نطاق الدور الرقابي لمجلس الأمن ليشمل حالات عدم التعاون من :-

(أ) دولة غير طرف في النظام الأساسي، وهو ما أكدته المادة (5/87) من النظام الأساسي حيث يجوز للمحكمة أن تخطر مجلس الأمن عن عدم تعاون هذه الدولة إذا أحال هو هذه الحالة إلى المحكمة .

ولا شك أن خضوع دولة غير طرف لرقابة سلطة مجلس الأمن جراء عدم تعاونها مع المحكمة ينبع من السلطات التي منحه إياها ميثاق الأمم المتحدة في حفظ السلم والأمن الدوليين، وبالتالي فإن هذه الدول ملزمة بالتعاون مع المحكمة حتى وإن كانت غير أطراف

43 – حمزة طالب المواهرة، دور مجلس الامن في احالة الجرائم الدولية الى المحكمة الجنائية الدولية، جامعة الشرق الاوسط، كلية الحقوق، 2012، ص،ص، 67-68.

في نظام روما الأساسي لأن هذه الدول ملزمة بموجب ميثاق الأمم المتحدة بتنفيذ القرارات التي يتخذها مجلس الأمن بموجب الفصل السابع من الميثاق.

(ب) أجاز النظام الأساسي لمجلس الأمن الرقابة حتى على طلبات التعاون المقدمة للدول الأطراف إذا أحال مجلس الأمن حالة إلى المحكمة وامتنعت تلك الدول عن التعاون . ولابد من الاشارة الى ان هناك استثناءات على التزام الدول الأطراف في النظام بالتعاون التام مع المحكمة فيما تجريه من تحقيقات في الجرائم والمقاضاة عليها وفقا للمادة (86) وذلك بموجب الفقرة الرابعة من المادة (93) (لا يجوز للدولة الطرف أن ترفض طلب مساعدة كليا أو جزئيا إلا إذا كان الطلب يتعلق بتقديم أية وثائق أو كشف أدلة تتصل بأمنها الوطني وفقا للمادة (72) وكذلك الفقرة الأولى من المادة (93) التي تشير إلى إن الدول بموجب قوانينها الوطنية تمتثل للطلبات الموجهة إليها من قبل المحكمة لتقديم المساعدة فيما يتصل بالمقاضاة أو التحقيق أو أي شكل من أشكال التعاون والمساعدة لا يحضره قانون الدولة الموجهة إليها الطلب لغرض إجراء التحقيق والمحاكمة وهذا يعني(44):

أن الدول يمكنها رفض طلب المساعدة والتعاون من قبل المحكمة بحجة إن المعلومات أو المستندات المطلوبة تمس بأمنها الوطني.

2.إن رفض التعاون والمساعدة قد يكون بالاستناد إلى أن القانون الوطني للدولة يمنع أو يحظر ذلك وبالتالي تستطيع الدولة التهرب من تقديم المساعدة واستغلال هذا الوضع لتحقيق الإفلات من العقاب.

ثالثاً : السلطة التقديرية للمحكمة في إخطار مجلس الأمن عن حالة عدم التعاون

إن المحكمة الجنائية الدولية غير ملزمة – بموجب النظام الأساسي – بإخطار مجلس الأمن أو حتى جمعية الدول الأطراف عن حالة عدم التعاون سواء كانت هذه الدولة الممتنعة طرف ،أو غير طرف في النظام الأساسي .

ويستنتج ذلك بوضوح من عبارة ((يجوز للمحكمة .)) التي جاء بها النظام الأساسي ، حيث إن المحكمة تمتلك سلطة تقديرية في هذا الشأن تجعلها غير ملزمة أو مقيدة بضرورة هذا الأخطار ،أي أن المحكمة غير ملزمة بإخطار مجلس الأمن عن حالة الامتناع عن التعاون من قبل

44 – انظر نص المادة 93 من نظام روما الاساسي

الدول المطلوب منها ذلك إذا رأت أنه لا حاجة لإخطارهم أصلاً ، كأن يكون بمقدور المحكمة إقناع تلك الدولة الممتنعة بالعدول عن امتناعها ،بحيث لا يمكن اللجوء إلى الرقابة على طلبات التعاون من قبل مجلس الأمن إلا في الحالات التي لا مناص فيها من إخطار مجلس الأمن بحالة الامتناع عن التعاون خاصة إذا رأت المحكمة أن هذا الأخطار يحقق فائدة عملية لها أثناء مرحلتي التحقيق أو المحاكمة .

والملفت للانتباه ان المادة 87 من نظام روما الاساسي ،لم تحددالشكل الذي سيكون عليه رد فعل مجلس الامن على اخطار المحكمة له في حالة عدم الامتثال وهو مايدل على ان مجلس الامن هو الذي سيحدد السلوك الذي سيتخذه بشأن المسالة المحال عليه من طرف المحكمةوفقا لسلطاته التقديرية. فله اما ان يصدر قرارات يذكر فيها الدولة غير متعاونة بالتزاماتها الناشئة عن النظام الاساسي مستندا في هذا على الفصل السادس من الميثاق اذا كان من شان استمرار رفض الدولة التعاون مع المحكمة ان يعرض حفظ السلم والامن الدوليين للخطر او يؤسس دوره الرقابي على الفصل السابع من الميثاق، اذا قدر ان رفض الدولة التعاون مع المحكمة يشكل تهديدا للسلم والامن الدوليين ووفقا لذلك فان ستكون ماهية التدابير العقابية التي يمكن لمجلس الامن ان يفرضها في حالات عدم الامتثال،متفقة مع مانص عليه هذا الفصل من تدابير فله على سبيل المثال ان يتخذ الاجراءات القانونية غير العسكرية والواردة في المادة (41) من الميثاق، ومن يطلب من اعضاء الامم المتحدة تطبيق هذه الاجراءات القانونية والتي يكون من بينها وقف الصلات الاقتصادية والمواصلات الحديدية والبحرية والجوية والبرية والبرقية والاسلكية وغيرها من وسائل المواصلات وقفا جزيئا او كليا،قطع العلاقات الدبلوماسية، كما يجوز له ان يتخذ وبمقتضى المادة(42)من ميثاق الامم المتحدة، اجراءات عسكرية تتمثل في استخدام القوات الجوية والبحرية والبرية من اجل حفظ السلم والامن الدوليين او لاعادته الى نصابه(45).

الخاتمة:

من خلال تناول موضوع المحكمة الجنائية الدولية وعلاقتها بمجلس الامن التابع للامم المتحدة واشكاليات هذه العلاقة بين القواعد القانونية والاعتبارات السياسية يمكن القول ان المادة (16)

45 – انظر نص المادة (41–42) من الميثاق.

من النظام الاساسي وضعت اختصاصات المحكمة في ظل سياسات الدول دائمة العضوية عندما نصت على عدم البدء بالتحقيق والمقاضاة في اية دعوى لمدة 12 شهر، اذا مااتخذ مجلس الامن قرارا بذلك بموجب الفصل السابع من الميثاق مما يؤدي الى احتمال التدخل السياسي للدول الكبرى بحيث تمدد النظر في الدعوى لاجل غير مسمى.

كما ان الواقع العملي قد اصبح حجر عثرة امام المحكمة في تطبيق نظامها الاساسي على النحو الذي ارادته الدول وخاصة في الجوانب السياسية، التي يمكن لمجلس الامن من خلالها ان يتدخل في اختصاص المحكمة او من خلال معارضة الدول الكبرى لتطبيق احكام المحكمة وتنفيذها، لكن الصحيح هو ان وجود المحكمة بحد ذاته يعد انتصارا كبيرا للبشرية في تحقيق العدالة الجنائية الدولية. كما تجدر الاشارة الى انه يصعب الفصل بين الاعتبارات السياسية والاعتبارات القانونية عند التعرض لموضوع المحكمة الجنائية الدولية، ولكي تحقق هذه المحكمة الهدف من وجودها فانها يجب ان تبقى بمعزل عن اي اعتبارات سياسية اهمها تدخل مجلس الامن في عملها.

حوال مجانبة السلطة التشريعية في العراق لاختصاصها الدستوري في المجال الضريبي

(دراسة قانونية متخصصة في ظل دستور 2005 النافذ)

أ.د. رائــد ناجـي احمــد

كلية القانون / جامعة الفلوجة

The conditions of the legislative authority in Iraq to move away from its constitutional jurisdiction in the field of taxation (A specialized legal study under the 2005 Constitution)

Professor.Dr.Raid Naji Ahmed

College of Law / University of Fallujah

الملخص

على الرغم من ان دستور 2005 النافذ نظم الشؤون الضريبية بشكل دقيق وحدد السلطة التي يناط بها امر فرض الضريبة او تعديلها او الاعفاء منها او جبايتها وهي السلطة التشريعية حسب ما بينته المادة (28/اولا)، الا ان الغوص في التشريعات الضريبية المختلفة يجد ثمة العديد منها صدرت وهي ملتحفة بعدم الدستورية كونها انطوت على مخالفات تحسب على السلطة التشريعية وتثير عدم صحتها ومشروعيتها ومن ذلك قيام الاخيرة بسن قوانين تتضمن بين ثنايا نصوصها تفويضا للسلطة التنفيذية بتنظيم بعض عناصر قانونية الضريبة سواء بفرض الضريبة ام تعديلها ام الاعفاء منها وهذا يعد مخالفة صارخة لأحكام الدستور النافذ كونه عهد بالسلطة التشريعية وحدها امر الضريبة وهو اختصاص مفوض لا يجوز لها ان تفوضه الى غيرها الا اذا سمح به الدستور بذلك نزولا عند القاعدة التي تقول (الاختصاصات المفوضة لا تقبل التفويض). كما لم تقف السلطة التشريعية عند ذلك بل ذهبت الى سن تشريعات وقوانين تصحح الاخطاء الدستورية التي ارتكبتها السلطة التنفيذية في بعض الاعمال التي صدرت عنها والمتضمنة تناول بعض عناصر قانونية الضريبة مع العلم ان في هذا التناول تغول لاختصاص الاصيل واعتداء عليه. فضلا عن كل ذلك ان الاخيرة لم تلتف الى القيد الدستوري الذي يحدد صلاحياتها في الشؤون الضريبية والمتضمن عدم رجعيتها بحسب ما نصت عليه المادة(19/اولا) من الدستور النافذ فذهبت الى سن العديد من التشريعات الضريبية واعمالها باثر رجعي . فكل تلك الاعمال تعد بحق اعمال غير دستورية واجبة الالغاء سواء من الجهة التي اصدرتها ام من خلال المحكمة الاتحادية العليا عند الطعن بها قضائيا.

Summary

Although the systems of 2005 Constitution of the tax affairs accurately and select the authority entrusted with the order to impose the tax, modified, or exemption or levied a legislative authority as indicated by Article (28 / first), but delve deeper into

the various tax legislation finds many of them issued and surrounded by unconstitutionality being included on the irregularities calculated on the legislative authority and give rise to lack validity and legitimacy and that the recent establishment of the enactment of laws containing the texts of a mandate to the executive authority to organize some legal elements of the tax, whether to impose or tax amendment or exemption, and this is a flagrant violation of the provisions of cupolas T in force as a palace legislative power alone is a tax which is the jurisdiction of the Commissioner may not have to be authorized by others only if permitted by the Constitution it down at the base, which says (terms of reference do not accept delegated authority). As the legislature did not stop at that, but I went to the enactment of legislation and the laws of correct constitutional mistakes committed by the executive branch in some works that were issued by eating some legal elements of the tax knowing that in this approach exceeded the inherent jurisdiction and assaulted and involved. As well as all the recent not to circumvent the constitutional constraint that determines its powers in tax matters and not included non-retroactive as stipulated in Article (19 / I) of the Constitution in force went to the issuance of many tax legislation and its retroactive. All of these acts are against acts unconstitutional due from the cancellation of both issued by or through the Federal Supreme Court when challenged judicially.

key words:

Tax - non-constitutional - tax law - non-retroactive tax - the legislative authority

المقدمة

على الرغم من ان المشرع الدستوري العراقي الحالي اعطى للضريبة خصوصية بان اناط امر تنظيم معظم شؤونها بالسلطة التشريعية بتبنيه مبدأ قانونية الضريبة في المادة (28/اولا) حفاظا على حقوق المكلف المالية والحؤول دون تعسف السلطة التنفيذية في استخدام ما تملكه من مكنات وامتيازات في التأثير على تلك الحقوق عندما تكون بيدها الطولى تنظيم الشؤون الضريبية تلك. الا انه في الوقت ذاته حرص على الحفاظ على حقوق الخزانة العامة مثلما حرص على حقوق المكلف عندما اعتد بمبدأ أخر لا يقل اهمية واعتبارا عن قانونية الضريبة وهو مبدأ عدم رجعية القوانين الضريبية والمنصوص عليه في المادة (19/عاشرا).

ومع ذلك فان التطبيق العملي ابان خروج السلطة التشريعية عن الاطار الدستوري المحدد لها فسنت من القوانين ما يقوض الاساس الذي شاده المشرع الدستوري في المسائل الضريبية والدور الذي رسمه في هذا الصدد للبرلمان العراقي. فضلا عن ذلك ان القوانين والتشريعات الضريبية التي شرعت قبل سن دستور 2005 تنطوي على مجموعة من النصوص القانونية التي اذا ما حاكمناها وفق احكامه ونصوصه لوجدنا ان متعارضة معه.

والحقيقة ان الذي دعانا الى الخوض في هذا الموضوع هو حجم المخالفات الدستورية التي تترى من سلطات الدولة المختلفة في مجالات الضريبة تارة من قبل السلطة التشريعية واخرى من قبل السلطة التنفيذية. ولكن الاخيرة اذا صدر عنها عمل غير دستوري تتذرع بان الاولى بنت لها اساس المخالفة وعبدت لها الطريق بما سنته من قوانين مخالفة للدستور. ومن ثم لا يكون للسلطة التنفيذية بحجة هذه الذريعة الا تطبيق تلك القوانين والا عدت ناكرة وجاحدة بالوظيفة الدستورية المنسوبة لها. لكن فاتها كما فات على السلطة التشريعية ان ما يصدر عنهما من اعمال في هذا الصدد يبقى موصوما بعدم الدستورية ولا تلحقه المشروعية، ولذا فان اصابتها بالطعن امام المحكمة الاتحادية العليا سيكون مآلها الالغاء بعد ان تتبين الاخيرة من صحة الادعاء بعدم الدستورية وتتثبت منه.

ولكون ان الكثير ربما لا يقف عن هذه الامور ولا يلتفت لها بالا ظانا بان الدستورية متمثلة فيها لا محال لا سيما وان هذا العمل صدر عن السلطة التي خولها المشرع الدستوري الحالي حصرا الشؤون الضريبية وهي السلطة التشريعية حيث كانت قولته في المادة 28(/اولا) لا تفرض الضرائب والرسوم ولا تجبى ولا تعدل ولا يعفى منها الا بقانون لذا سنحاول ننفض الغبار عن بعض المخالفات الدستورية التي ارتكبتها السلطة التشريعية في الشؤون الضريبية لكي تكون صورتها واضحة وجلية، ومن ثم يمكن لمن صابه ضيم او ظلم او تجاوز ان يدعي بذلك امام الجهة التي يلوذ بها المتخاصمون وهو القضاء. كما سنحاول من خلال هذا الطرح ان نلفت الانظار الى ان السلطة التشريعية ليست مطلقة اليد في الشؤون الضريبية بل هي مقيدة بقيود دستورية لا ينبغي تجاوزها والا لحق عملها عدم المشروعية.

وسنبسط كل ذلك بحثا في مباحث ثلاثة: يتناول الاول التفويض الضريبي غير المستند لأساس دستوري، ويبين الثاني التصحيح التشريعي للإعمال الإدارية الخاطئة، وسيختص الثالث في اقرار القوانين الضريبية باثر رجعي.

المبحث الاول

التفويض الضريبي غير المستند لأساس دستوري

يراد بالتفويض بشكل عام ان يعهد صاحب الاختصاص الأصيل الى شخص آخر او هيئة أخرى بممارسة جانب من اختصاصاته وصلاحياته وفقا للشروط الدستورية والقانونية واللائحية. والتفويض بهذا المعنى قد يكون تشريعيا وقد يكون إداريا[1]. اما التفويض الضريبي، ولكون الشؤون الضريبية وفق مبدا قانونية الضريبة من صلاحية السلطة التشريعية حصرا فانه مفهومه يتحقق بأن تعهد السلطة التشريعية اختصاصها في تنظيم عناصر قانونية الضريبة بعضها او

جميعها، فرضا وإعفاء و تعديلا و إلغاء و جباية الى السلطة التنفيذية ولكن في الحدود والشروط التي يجيزها الدستور. وللتفويض الضريبي صورتان:

الصورة الاولى : تفويض مكنة التنظيم الضريبي

وتتحقق عندما تجيز بعض الدساتير بشكل غير مباشر تفويض السلطة التشريعية بعض صلاحياتها الى السلطة التنفيذية. وغالبا ما يكون ذلك في حالين **الاول:** عندما لا ينص الدستور على بعض عناصر قانونية الضريبة مثال ذلك ان يقول (لا تفرض ولا تجبى ولا تعدل الا بقانون) فهذا النص لم يتناول الاعفاء من الضريبة مما يجيز التفويض فيه. اما الثاني ان يستخدم المشرع بعض الصياغات التي يفهم منه جواز التفويض الضريبي مثل عبارة (تفرض الضريبة او يعفى منها بناء على قانون او في الاحوال المبينة في القانون) وهو التعبير الذي درجت عليه الدساتير المصرية المتعاقبة في 1971 و2014 حيث كان النص هو ان(إنشاء الضرائب العامة او تعديلها او الغاؤها لا يكون الا بقانون ولا **يعفى احد من أدائها الا في الأحوال المبينة في القانون**) ، اذ ذهب غالبية الفقه المصري ان العبارة الأخيرة (الأحوال المبينة في القانون) تفيد إمكانية ان تفوض السلطة التشريعية صلاحياتها في الإعفاء من الضريبة الى السلطة التنفيذية [2].

علما ان الدستور العراقي النافذ لسنة 2005 لم يأخذ براينا باي من الحالين تقريبا كونه نص في المادة (28/اولا) على جل عناصر قانونية الضريبة من فرض وجباية وتعديل واعفاء باستثناء عنصر الالغاء نرى امكانية تحقق التفويض فيه.

الصورة الثانية: تفويض مكنة التشريع الضريبي

تتحقق في رأينا عندما لا ينطوي النص الدستوري على أي من حالات الصورة الاولى ولكن المشرع الدستوري يسمح صراحة للسلطة التشريعية بتفويض اختصاصاتها الدستورية في ظل ظروف استثنائية للسلطة التنفيذية، ومن ثم تقوم السلطة التنفيذية محل السلطة التشريعية في تنظيم بعض المسائل التي حصرها الدستور بالمشرع العادي في ظل ظروف استثنائية. ونجد ذلك واضحا او جليا في الدساتير التي تجيز للسلطة التنفيذية اصدار اللوائح التفويضية او لوائح الضرورة.[3]

واذا ما تمعنا في ثنايا نصوص الدستور العراقي النافذ لسنة 2005 لا نجد فيها ما يفيد بتنظيم موضوع تفويض مكنة التشريع الضريبي بأي صورة من صوره ، مما يعني عدم جواز قيام السلطة التشريعية بتفويض اختصاصاتها الدستورية المتعلقة بالتنظيم التشريعي لعناصر قانونية

الضريبة الى السلطة التنفيذية. كما انه لا يمكن للأخيرة سواء مثلت برئيس الجمهورية او مجلس الوزراء سلطة إصدار لوائح تنظم عناصر قانونية الضريبية حتى ان غاب البرلمان وأيا كان الظرف الاستثنائي الذي تمر به الدولة. لان عدم نص الدستور على هذا الموضوع يفيد المنع وليس الإباحة طالما تعلق الامر بمنح صلاحيات استثنائية لسلطة معينة جعلها المشرع الدستوري حصرا من اختصاص سلطة اخرى.

ومع ذلك فان الدستور العراقي نظم حالة الظروف الاستثنائية التي يمكن ان تواجهها الدولة وأجاز لمعالجتها اعلان حالة الطوارئ ولكن جعل ذلك من صلاحية السلطة التشريعية وهو ما بينته الفقرة (تاسعا) من المادة التاسعة منه التي نصت على (أ- الموافقة على اعلان الحرب واعلان الطوارئ بأغلبية الثلثين بناء على طلب مشترك من رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الوزراء ب- تعلن حالة الطوارئ لمدة ثلاثين يوما قابلة للتمديد وبموافقة عليها في كل مرة ج- يخول رئيس مجلس الوزراء الصلاحيات اللازمة التي تمكنه من ادارة شؤون البلاد في اثناء مدة اعلان الحرب وحالة الطوارئ وتنظم هذه الصلاحيات بقانون بما لا يتعارض مع الدستور). فالعبارة الاخيرة من عجز الفقرة (ج) تشير بلا مواربة الى ان تنظيم صلاحيات رئيس الوزراء في حالة الطوارئ بموجب قانون يجب اي لا يتعارض مع الدستور وطالما ان الشؤون الضريبية هي ضمن الصلاحيات الدستورية الحصرية للسلطة التشريعية لذلك لا يمكن ان يعهد بأمرها الى السلطة التنفيذية بموجب قانون الطوارئ لما في ذلك من تعارض مع احكام الدستور الصريحة.

وخلاصة ذلك كله ان المشرع الدستوري الحالي لم يأخذ باي صورة من صور التفويض الضريبي ومن ثم فانه اية نصوص انطوت عليها القوانين الضريبية او غيرها تجلت فيها معالم التفويض للسلطة التنفيذية في مسائل متعلقة بعناصر قانونية الضريبة تعد باطلة لمخالفتها للدستور. ومع ذلك فان الواقع العملي يشير الى ان التشريعات الضريبية المختلفة تزخر بالكثير من النصوص والاحكام التي تفيد معنى التفويض لاسيما في مكنة التنظيم الضريبي سواء فيما يتعلق بفرض الضريبة ام تعديلها ام الإعفاء منها ام جبايتها بحيث تشخص مجانبة السلطة التشريعية بشكل صارخ لأحكام الدستور، وهي تمثل بحق تفويض غير مستند لأساس دستوري ومن ثم تعد أعمالها في هذا الاطار باطلة وغير مشروعة، وحقيق بكل ذي مصلحة المطالبة بإلغائها مثلما ينبغي على السلطة التشريعية استدراكها ومعالجتها بالشكل الذي يجعل أحكامها متسقة مع نصوص الدستور وسوف نستعرض في مطالب ثلاثة بعض التطبيقات التي تشير الى التفويض الضريبي المخالف للدستور وعلى النحو الاتي:

المطلب الاول
تفويض السلطة التنفيذية صلاحية فرض الضريبة

اوضحنا فيما سبق ان المراد بفرض الضريبة هو إنشاء التزام أو عبء مالي تحت مسمى ضريبة أو ما يحمل طبيعتها على عاتق شخص معين إزاء نشاط معين يمارسه أو عمل يزاوله وسواء كان هذا الأمر متولدا نتيجة انفاق الدخل أم راس المال أم استهلاكه أم تداوله أم الحصول عليه[4]. كما بينا بأن عنصر الفرض هذا من ابرز الاختصاصات الحصرية التي انيطت بالسلطة التشريعية وهو العنصر الأساسي الذي يقوم عليه مبدأ قانونية الضريبة ويتفرع عنه مجموعة من المفاهيم الجوهرية والتي بتحديدها يتحدد المعنى العام له وهي تحديد وعاء الضريبة ،والواقعة المنشئة للضريبة ،والمكلف بالضريبة ،وتحديد النطاق المكاني و ألزماني لفرض الضريبة ،علاوة على سعر الضريبة.

وعلى الرغم من الأهمية الكبرى التي يحتلها عنصر فرض الضريبة الا ان المشرع العراقي عزم في مواضع مختلفة الى التنازل عن اختصاصه الدستوري في تنظيمه واناطة امره بالسلطة التنفيذية ويمكن بيان بعض تلك المواضع وعلى النحو الاتي :

الفرع الاول
التفويض في إطار الضرائب الكمركية

من صور التفويض التي انبرت في سوح الضرائب الكمركية هي قيام مجلس قيادة الثورة المنحل والذي يعد السلطة التشريعية في ظل دستور 1970 بسن قرار تشريعي حمل الرقم (108) في 1995/10/4[5] فوض بموجبه مجلس الوزراء صلاحية تعديل نسب الرسم الكمركي الاضافي (الضريبة الكمركية الاضافية) الواردة في البند (اولا) من هذا القرار والتي تفرض على السلع المسموح باستيرادها بعد صدوره على ان يكون تعديل النسب الضريبية تلك ضمن الحدود المقررة في البند اعلاه. علما ان هذا البند نص على (يفرض رسم كمركي اضافي على السلع المسموح باستيرادها بدون تحويل خارجي وفق النسب المحددة في الجداول الملحقة بهذا القرار).

ومن البدهي القول ان تخويل مجلس الوزراء صلاحية تحديد نسب الرسم الكمركي الإضافي يعني تفويضه بالنهاية امر تحديد اسعار الضريبة الكمركية الاضافية وطالما ان من المعالم الاساسية لعنصر فرض الضريبة كما اسلفنا هي تحديد سعرها لذا يكون المشرع هنا قد فوض اختصاصه بفرض الضريبة من حيث تحديد سعرها للسلطة التنفيذية وهو يجانب صراحة احكام الدستور.

وقد يعترض البعض بالقول ان هذا التفويض تحقق في ظل الدستور السابق1970 ولا علاقة له البتة بأحكام الدستور الحالي لسنة 2005 . لكن ردنا هو ان دستور 1970 اعلاه لم يغفل النص في تضاعيف نصوصه على مبدأ قانونية الضريبة حيث بين ذلك في المادة (35) منه وجعل من بين اولى عناصر هذا المبدأ هو فرض الضريبة. ومن ثم فان القرار التشريعي اعلاه قد خالف الدستور الذي صدر في ظله. هذا من جانب ومن جانب آخر أن هذا القرار لما يزل ساريا ولم يلغ من قبل السلطة التشريعية التي حددها الدستور النافذ لسنة 2005 وهي مجلس النواب ومن ثم سريانه هذا يتضاد مع مضمون المادة(28/اولا) منه التي جعلت امر فرض الضريبة حصرا بيد السلطة التشريعية. ولذا يعد الاستمرار بالعمل بأحكام القرار المذكور امر مخالف للدستور النافذ وحقيق بالسلطة التشريعية إلغاءه كما ينبغي على السلطة التنفيذية عدم تطبيقه والا خرجت عن جادة احكام الدستور النافذ .

الفرع الثاني

التفويض في اطار ضريبة الدخل الخاصة بشركات النفط الاجنبية

خص المشرع العراقي الدخل المتحقق لشركات النفط الاجنبية بمعاملة ضريبية خاصة وذلك بتفريد قانون خاص بها غير قانون ضريبة الدخل رقم (113) لسنة 1982 ينطوي على مجموعة من الاحكام التي تنطبق على دخول هذه الشركات دون سواها، وهو القانون رقم (19) لسنة 2010[6]. وقد تضمن بعض النصوص التي تفيد معنى التفويض المخالف للدستور.

ولتوضيح ذلك نقول ان هذا القانون قد نص في المادة(1) منه على(تفرض ضريبة دخل بنسبة (35%) على الدخل المتحقق في العراق عن العقود المبرمة مع شركات النفط الأجنبية المتعاقدة للعمل في العراق او فروعها او مكاتبها والمتعاقدين من الباطل معها في مجال انتاج واستخراج النفط والغاز والصناعات المتعلقة بها). ولعل ان هذا النص ليس فيه اشكالية كونه تضمن فرض ضريبة بقانون على وعاء دخل متحقق عن نشاط معين . لكنه المخالفة التي شابت أحكام هذا القانون هو ما ورد في المادة (3) منه بقولها(يصدر وزير المالية بالتنسيق مع وزير النفط تعليمات لتحديد العقود المشمولة بأحكام هذا القانون).

فالمشرع هنا فوض السلطة التنفيذية من خلال وزيري النفط والمالية تحديد وعاء الضريبة التي هي العقود المشمولة بالضريبة اعلاه ، كما انه سيتيح لها ذلك التحكم في تعيين من يخضع للضريبة ممن لا يخضع لها بتحكمها بالنشاط المشمول بالخضوع للضريبة المذكورة (تحديد العقد)، أي ستملك مكنة تحديد الأشخاص الخاضعين للضريبة. وبما ان تحديد وعاء الضريبة والأشخاص الخاضعين لها هي من المسائل التي ترتبط مباشرة بعنصر فرض الضريبة وان هذا الأخير امره محصور بيد السلطة التشريعية التي لا ينبغي التنازل عنه باي صورة

كانت، لذا نرى ان مثل هذا التفويض الذي انطوى عليه القانون اعلاه مساس واضح بعنصر الفرض ومن ثم يعد تعديا صارخا على احكام الدستور مما يستدعي الغاءه. علما ان هذه المخالفة لا نجد لها صدى في عجز المادة (3) المذكورة اعلاه التي اجازت لوزير المالية اصدار تعليمات لتسهيل تنفيذ أحكامه. فهذا التنفيذ لا يكون فيه خروج عن الاطار الذي وضعه المشرع والشروط التي حددها.

المطلب الثاني
تفويض السلطة التنفيذية صلاحية تعديل الضريبة

يراد بتعديل الضريبة إعادة النظر في القاعدة الضريبية الموجودة من خلال إحلال قاعدة ضريبية جديدة محلها أو إضافة أحكام جديدة إليها. ووفق المادة (28/اولا) من الدستور النافذ يعد امر تعديل الضريبة من المسائل الداخلة ضمن الاختصاص الحصري للسلطة التشريعية ولا يجوز فيها التفويض إلى أية سلطة أخرى وبأي شكل كان. ومن المسلم به أن مفهوم التعديل هنا ينصرف الى جميع العناصر والمعالم الأساسية المتعلقة بالضريبة سواء تعلق الأمر بوعائها ام الواقعة المنشئة لها ام سعرها ام الاشخاص الخاضعين لها ام نطاقها المكاني ام الزماني، فضلا عن الاعفاء من الضريبة او جبايتها.

وعلى الرغم من تأكيدنا على عدم جواز تفويض السلطة التشريعية اختصاصها في هذا الأمر الى أية جهة اخرى الا ان هذا الحكم لم يسلم من الخرق والمخالفة ومن ذلك قيام مجلس قيادة الثورة (المنحل) بإصدار قرار تشريعي عام 1995 خول بموجبه لجنة الشؤون الاقتصادية المرتبطة بمجلس الوزراء البت في مقترح تعديل الرسوم المرفوع اليها من قبل وزارة المالية بالتنسيق مع الوزارات المعنية او الجهة غير المرتبطة بوزارة وعد قرار هذه اللجنة معدلا لأحكام التشريعات المتعلقة بالرسوم اعتبارا من تاريخ نشرها بالجريدة الرسمية[7].

وربما هنالك من يرد بان هذا التخويل قد انصرف الى الرسوم وليس الضرائب وحيث ان الرسوم لم ينص الدستور الذي صدر في ظله هذا القرار(دستور 1970 الملغي) على ضرورة إصدارها بقانون بل يمكن ان تصدر بناء على قانون ومن ثم يمكن ان يخول المشرع العادي صلاحيته في فرض الرسوم او تعديلها الى السلطة التنفيذية مما لا يعد هذا القرار ماسا بقانونية الضريبة.

ولكن ردنا على ذلك ان المشكلة التي بنيت عليها التشريعات العراقية منذ تأسيس الدولة العراقية ولما تزل قائمة الى يومنا هذا هي انبراء خطأ شائع تعارف عليه المشرعون المتعاقبون تمثل الخلط بين الرسوم والضرائب في التسمية وان الكثير من الرسوم التي اطلق عليه المشرع هذا الوصف القانوني هي في حقيقتها ضرائب، ومن بين ذلك الضرائب الكمركية وضرائب

الانتاج والتي يسميها المشرع بالرسوم الكمركية او رسوم الانتاج وهو ما اشار اليه مجلس شورى الدولة في احدى فتاواه[8] وعليه ان التفويض الوارد في القرار التشريعي اعلاه هو مخالف للدستور اذا ما انصرف الى الفرائض المالية التي هي في حقيقتها كما قلنا ضرائب وليست رسوم. ولذا نعتقد ان اي قرار يصدر من لجنة الشؤون الاقتصادية طبقا للقرار اعلاه بخصوص ضرائب الانتاج او الضرائب الكمركية والتي خلع عليها المشرع تسمية الرسوم خطأ كما قلنا يعد باطلا كونه بني على تفويض يتضاد مع قانونية الضريبة ولعل من بين قرارات اللجنة اعلاه الصادرة بهذا الشأن والتي ينطبق عليها هذا القول هي قرارها في 1996/8/16 الذي عدل الرسوم المفروضة على المشروبات الكحولية وفرض رسوم نوعية جديدة عليها بمبلغ مقطوع . ثم اصدرت اللجنة المذكورة قرارها ذي الرقم(75) في 2000/2/14 الذي قام بزيادة رسم الانتاج المفروض على المشروبات الكحولية كافة المنتجة محليا بنسبة (50%) عن الرسم المفروض سابقا[9]. يضاف الى ذلك قرار اللجنة الاقتصادية رقم (95) في 2001/2/22 [10]الخاص بتعديل الرسوم الكمركية المفروضة على بعض السلع المستوردة وغير ذلك من القرارات التي كانت على ذات الشاكلة.

ومن جانب آخر فانه حتى لو سلمنا جدلا ان هذه الاقتطاعات هي رسوم وليست ضرائب فأن الدستور النافذ لسنة 2005 ساوى من حيث الحكم القانوني بين الرسم والضريبة وجعل كليهما يخضعان لاختصاص السلطة التشريعية حصرا ولم يجز فيهما التفويض او الانابة. وعليه فان اي تفويض يقرره المشرع في ظل الدستور النافذ يعد منافيا لقانونية الرسم، وهو ما نراه جليا فيما تضمنه قانون التعريفة الكمركية رقم (12) لسنة 2010 النافذ والذي فوض السلطة التنفيذية صلاحية تعديل الرسوم الكمركية (الضرائب الكمركية) وكان ذلك في الفقرة (اولا) من المادة (2) منه التي نصت على(لمجلس الوزراء بناء على طلب من وزير المالية الاتحادي تعديل الرسم الكمركي المنصوص عليه في جدول التعريفة الكمركية والرزنامة الزراعية الملحق بهذا القانون في الاحوال الطارئة لضرورة اقتصادية ونقدية تستدعي اتخاذ اجراءات الحماية او المعاملة بالمثل). كما تحقق مدلول التفويض الضريبي ايضا في الفقرة (ثانيا) من المادة ذاتها التي نصت على (يفرض رسم كمركي على البضائع المستوردة غير الواردة في جدول تعريفة الرسوم الكمركية بنسبة لا تزيد على (20%) من قيمتها ولمجلس الوزراء بناء على اقتراح من وزير المالية الاتحادي تعديل هذه النسبة لنفس الاسباب الواردة في البند اولا).

فمثل هذه النصوص فيها اعتداء صارخ على ارادة المشرع الدستوري، اذ فوض المشرع العادي (مجلس النواب) السلطة التنفيذية امر تعديل سعر الضريبة الكمركية الذي يعد من معالم فرض الضريبة الاساسية وهو ما لا يملكه دستوريا ويؤشر هذا ضمن النصوص المخالفة

لأحكام الدستور التي يجوز الطعن بها امام المحكمة الاتحادية العليا والمطالبة بإلغائها كون الاختصاصات المفوضة لا تقبل التفويض.

المطلب الثالث
تفويض السلطة التنفيذية صلاحية الاعفاء من الضريبة

يعد الإعفاء من الضريبة من اكثر عناصر قانونية الضريبة التي نفذت اليها صور التفويض التشريعي، اذ تزخر التشريعات الضريبية العراقية المختلفة بنصوص قانونية تفوض فيها السلطة التشريعية اختصاصها في الإعفاء من الضريبة الى السلطة التنفيذية. ونرجع ذلك في رأينا لأسباب عدة منها أن الدساتير السابقة التي صدرت في ظلها القوانين الضريبية المختلفة مثل قانون ضريبة العرصات وقانون ضريبة العقار وقانون ضريبة الدخل وقانون الكمارك وغيرها لم تكن تجعل من بين عناصر قانونية الضريبة الاعفاء منها ومن ذلك دستور 1958 المؤقت الذي صدر في ظله كل من قانون ضريبة العقار رقم (162) لسنة 1959 وقانون ضريبة العرصات رقم (26) لسنة 1962 اذ نص على عدم جواز فرض الضريبة أو تعديلها أو إلغائها إلا بقانون[11]. وكذلك دستور 1970 الذي نص على كل عناصر قانونية الضريبة فيما عدا الإعفاء منها وذلك بقوله (أن أداء الضرائب المالية واجب على كل مواطن ولا تفرض الضرائب المالية ولا تعدل و لا تجبى الا بقانون)[12]. علما انه صدر في ظل هذا الدستور كل من قانون ضريبة الدخل رقم (113) لسنة 1982 وقانون الكمارك رقم(23) لسنة 1984 ومن ثم فان عدم النص على قانونية الإعفاء من الضريبة في هذه الدساتير فهم منه جواز قيام السلطة التشريعية تفويض صلاحياتها في هذا الإعفاء الى السلطة التنفيذية .

ومن جانبنا فإننا لا نرى في هذا التفويض ما يضاد مبدأ قانونية الضريبة طالما لم ينص المشرع الدستوري على الإعفاء منها، بل نعتقد بصحته وجوازه دستوريا لاسيما في ظل دستور 1970. لكن ينبغي ان لا ننسى ان القوانين الضريبية هي ادنى مرتبة من الدساتير وانه متى ما نصت الدساتير اللاحقة على عنصر الإعفاء وجعلته ضمن عناصر القانونية فان مثل هذا التفويض يعد غير مشروع وينبغي إلغاءه او تعديل أحكام القانون الضريبي بما ينسجم مع الدستور الساري المفعول بل ويعد ملغيا ضمنا وهذا وجه ما تحقق لدينا بعد صدور دستور 2005 الذي نص على قانونية الإعفاء من الضريبة بقوله (لا تفرض الضرائب.. ولا تعدل ولا تجبى ولا يعفى منها الا بقانون)اذ ان هذا النص يعطل في وجهة نظرنا ويجمد كل النصوص الضريبية الواردة في القوانين العادية والتي تفيد التفويض في الاعفاء من الضريبة تمهيدا لتعديلها او إلغائها بالشكل الذي ينسجم مع أحكام الدستور النافذ.

وهنا نشير الى بعض صور تفويض السلطة التشريعية لصلاحيتها في ميدان الاعفاء الضريبي للسلطة التنفيذية وهي:

اولا:- نصت الفقرة (16) من المادة(السابعة) من قانون ضريبة الدخل النافذ على (تعفى من الضريبة المدخولات الاتية :..16- دخل مؤسسات الطيران كلا او بعضا بقرار من الوزير بشرط المعاملة بالمثل ووجود خط او مصلحة جوية للعراق في بلد الدولة التي تتبعها تلك المؤسسات). وعلى ذات المذهب نص قانون ضريبة العقار في الفقرة (7) من المادة(الثالثة) منه على انه من بين الإعفاءات الضريبية هي(العقارات التي تملكها الدولة الأجنبية المتخذة دورا لسكن ممثليها السياسيين او القنصليين او لدوائرهم الرسمية اذا وافق الوزير بشرط المقابلة بالمثل .)

ففي كلا النصين منح المشرع للوزير صلاحية الموافقة على الإعفاء من عدمه فالإعفاء هنا يأتي بشكل منحة تقررها الإدارة(وزير المالية) بناء على اذن صادر من المشرع، والوزير حر على الاقل في الاصل في منح الإعفاء المذكور او منعه فليس للمكلف اجباره قانونيا على ان يمنحه الإعفاء مادام ان المشرع قد ترك الامر اليه في نهاية المطاف.[13]

وبالرغم من ذلك فان هنالك من اعترض على مثل هذا القول، فيما يخص النص المتعلق بضريبة الدخل، بحجة ان مثل هذا الرأي خلط بين ضرورة الإعفاء بقانون وبين منح الوزير صلاحية التأكد من توفر الشروط القانونية التي وضعها المشرع لاستحقاق الإعفاء. واحتج بان صياغة النص لا تؤيد ان الوزير يملك صلاحية كاملة في منح الإعفاء من عدمه لان صدر المادة السابعة المتعلقة بالإعفاءات جرت بصيغة الامر (تعفى من الضريبة المدخولات الاتية..). ومن ثم فان الوزير في نظر القائل بهذا الراي لا يملك ان يصدر قرارا بمنح مؤسسة الطيران اعفاء كليا او جزئيا اذا ما توفرت الشروط التي حددتها الفقرة المذكورة.[14]

الا ان هذا الرأي باعتقادنا فاته ضرورة التمييز بين الإعفاء الوجوبي والإعفاء الجوازي[15]. فالأول لا اشكال فيه كون المشرع يحدد الشروط القانونية المقتضاة لمنح الإعفاء دون ان يترك اي سلطة تقديرية للإدارة في منح الإعفاء من عدمه بل هي ملزمة بمنح الإعفاء طالما توافرت فيه هذه الشروط. اما الإعفاء الجوازي فان فيه مخالفة واضحة للدستور لان المشرع يعلق منح الإعفاء في كل الأحوال على موافقة السلطة المالية ممثلة بالوزير حتى وان اورد المشرع شروطا اخرى لمنح الإعفاء فهذه الشروط لا تمثل سوى قيودا يلتزم بها الوزير عند منح الإعفاء اذا رغب بذلك. ولكن لا يمنعه من التحكم في منعه او منحه بحسب السلطة التقديرية التي منحها المشرع اياه. هذا من ومن جانب آخر ان المشرع لو أراد ان يصوب الامر ويجعله في

سياقه القانوني السليم لاكتفى بذكر الشروط القانونية لمنح الإعفاء دون ان يوقف الامر على موافقة الوزير. ولعل ان مثل هذا الامر تحقق في نصوص واردة في قوانين ضريبية اخرى مماثلة للحالات المذكورة انفا ومن ذلك ما ورد في الفقرة (5) من المادة الرابعة من قانون ضريبة العرصات النافذ رقم (26) لسنة 1962 والتي جعلت من بين الإعفاءات (العرصات العائدة لحكومات اجنبية بشرط المقابلة بالمثل). اذ ان هذا النص يتضمن إعفاء وجوبيا يتقرر بمجرد توافر الشروط القانونية التي اوردها المشرع, وهي ان تكون العرصة عائدة لحكومة اجنبية وليست محلية والمعاملة بالمثل ولم يوقف الامر على موافقة الوزير.

ثانيا:- ومن النصوص الاخرى التي فوضت بمقتضاها السلطة التشريعية السلطة التنفيذية صلاحية منح الإعفاء هو ما تضمنه البند (ج) من الفقرة (5) من المادة الرابعة من قانون ضريبة العقار النافذ رقم (162) لسنة 1959 النافذ بتفويض وزير المالية او من يخوله بتمديد مدة خلو العقار الى ستة أشهر اخرى غير الستة أشهر الاولى التي حددها البند (أ) من الفقرة ذاتها وقد رتب القانون اعلاه حكما على مدة الخلو هذه وهي اعتبار العقار معفيا من ضريبة العقار. وهذا ما يفيد في نهاية الامر الى تفويض الادارة الضريبية صلاحية الاعفاء من الضريبة على اساس ان هذا الاخير قد يكون مؤبدا او مؤقتا وان منح الوزير سلطة تمديد مدة الإعفاء هي تتضمن زيادة في مدة الإعفاء المؤقت.

ثالثا:- كما يعد من بين صور التفويض في الاعفاء من الضريبة ما تضمنه قانون ضريبة العرصات من تخويل مجلس الوزراء صلاحية الإعفاء من تطبيق ضريبة العرصات وذلك عندما نص في المادة (الثانية) منه على (لمجلس الوزراء ان يستثني بعض الاقضية والنواحي من أحكام هذا القانون بناء على اقتراح الوزير). فعلى الرغم من ان اقتراح الوزير الاستثناء من الضريبة لا يثير إشكالية قانونية الا ان الاشكالية هي في تخويل مجلس الوزراء صلاحية البت في هذا الاقتراح واستثناء بعض الاقضية والنواحي من أحكام هذا القانون من الضريبة . والاستثناء يرد هنا بمعنى –الإعفاء كما بينا سابقا- اي تعفى كافة العرصات أيا كان مالكيها الموجودة في القضاء او الناحية التي يحددها مجلس الوزراء من الخضوع لضريبة العرصات وهذا امر فيه تجاوز لاختصاص المشرع في ظل الدستور النافذ .

واذا ما كانت النصوص اعلاه او التي على شاكلتها سنت في ظل أحكام دستور كما بينا لم يجعل من بين عناصر قانونية الضريبة الاعفاء منها وهو دستور 1970 الملغي وانه لا شائبة عليها طيلة فترة سريان احكامه. الا ان عيب المشروعية يلتحف بها بمجرد سريان احكام الدستور النافذ الذي اكد على جعل الاعفاء من الضريبة ضمن عناصر القانونية تلك مما يتعين الغائها لمخالفتها الصريحة لأحكامه نزولا عند تدرج القواعد القانونية.

وما يثير الغرابة لدينا ان المشرع في ظل الدستور النافذ قد انساق وراء ما كان معمولا في ظل الدستور السابق لسنة 1970 وذهب الى تفويض السلطة التنفيذية صلاحية منح الإعفاء من الضريبة . وكأن مثل هذا التفويض اضحى عرفا مألوفا لدى السلطة التشريعية او حق مكتسب ينبغي منحه للسلطة التنفيذية غافلا عن ان هذا العنصر من اختصاصه الاصيل الذي لا يجوز التنازل عنه او تفويضه، ومن ثم يعد هذا تجاوزا صريحا لإرادة المشرع الدستوري ومن ابرز الامثلة على ذلك ما قرره قانون التعريفة الكمركية رقم (22) لسنة 2010 النافذ[16]في إحدى تضاعيف نصوصه بقوله (تعفى البضائع المستوردة بواسطة البريد بحدود تحدد بتعليمات يصدرها وزير المالية الاتحادي)[17] فهنا المشرع خول وزير المالية إصدار تعليمات يحدد فيها حدود وضوابط منح الإعفاء للبضائع المستوردة بواسطة البريد سواء كانت هذه الحدود متمثلة بالإعفاء الكلي ام الجزئي ،الدائمي ام المؤقت ام نسب الإعفاء .

ولا بد ان ننوه ايضا الى ان قانون ضريبة اعمار العراق لسنة 2004 الذي ما زال نافذا بسبب عدم تطبيق قانون التعريفة الكمركية اعلاه بشكل تحكمي وبدون مسوغ قانوني – كما سنبين لاحقا– قد تضمن نصا يفيد بإصدار تعليمات لتطبيق هذا القانون بقوله تعين وتحدد على نحو اضافي البضائع المعفاة من هذه الضريبة كما تحدد ايضا الكيانات والأشخاص المشمولة بالإعفاء[18]. فمثل هذا النص تضمن تخويل السلطة التشريعية للسلطة التنفيذية في تحديد الأنشطة والأوعية المعفية من الضريبة وكذلك الاشخاص والكيانات المشمولة بهذا الإعفاء .

المبحث الثاني

التصحيح التشريعي للإعمال الإدارية الخاطئة

يراد بالتصحيح التشريعي قيام المشرع بإصدار قانون يتضمن القرارات الإدارية الخاطئة الصادرة من السلطة التنفيذية بلا سند قانوني وبأثر رجعي وغاية المشرع من ذلك إسباغ المشروعية على هذه القرارات وتحصينها من الملاحقة القضائية[19]. وتنبري هذه الحالة في الشؤون الضريبية إذا ما صدرت إعمال إدارية عن السلطة التنفيذية تتضمن فرض الضريبة أو تعديلها أو إلغائها أو الإعفاء منها وهو ما يجعلها أعمال مخالفة للدستور ومجانبة لقانونية الضريبة، فيصدر المشرع قانونا يتضمن هذه الإعمال لكي يسبغ عليها نوع من المشروعية القانونية، ومن ثم يعد مسلك المشرع هذا مخالفا للدستور وتجاوزا للدور الذي انيط به وهو تشريع القوانين[20] فضلا عن مراقبة اعمال السلطة التنفيذية ومتابعة مدى التزامها بالصلاحيات والاختصاصات الدستورية الممنوحة لها .

وفي الحقيقة ان عملية التصحيح التشريعي في الشؤون الضريبية تحققت باعتقادنا في اكثر من حالة نذكر منها ما يلي:

المطلب الاول

التصحيح التشريعي المتعلق بتطبيق قانون ضريبة اعمار العراق

سن قانون ضريبة اعمار العراق بموجب امر سلطة الائتلاف المؤقتة (المنحلة) رقم (38) لسنة 2003 وتضمن فرض ضريبة سميت بضريبة اعمار العراق على السلع المستوردة الى العراق بنسبة (5%) من قيمتها لكي تكون بديلا عن الرسوم الكمركية (الضرائب الكمركية) التي علق تطبيقها بموجب قانون سياسة تحرير التجارة رقم(54) لسنة 2004. وقد نص هذا القانون (قانون ضريبة اعمار العراق) على انتهاء العمل بهذه الضريبة بعد مرور عامين من نفاذه. وطالما ان امر سلطة الائتلاف أعلاه جعل بدء تنفيذ الضريبة المذكورة في 2004/4/15 [21] لذا فان أمد نفاذ هذه الضريبة ينتهي بتاريخ 2006/4/15 على أساس ان مدة السنتان تنتهي بهذا التاريخ ولكن ما حصل هو استمرار السلطة التنفيذية المختصة (الادارة الكمركية) بفرض هذه الضريبة وتطبيق احكامها على السلع الواردة بعد انتهاء المدة المذكورة مما شكل ذلك مخالفة دستورية واغتصابا لاختصاص السلطة التشريعية على اعتبار انها استمرت بفرض الضريبة خارج المدة المحددة قانونا. ولما تيقنت السلطة التنفيذية من جوانب هذه المخالفة تلك حاولت استدراكها من خلال إصدار مجلس الوزراء قراره ذي الرقم (3266) في 2006/12/14[22] والمتضمن رفع مشروع قانون الى مجلس النواب يفيد بتمديد العمل بقانون ضريبة اعمار العراق لمدة سنة اعتبارا من تاريخ 2006/4/15. اي ان السلطة التنفيذية حاولت اصلاح الخطأ الذي ارتكبته والمتمثل بتجاوزها الامد الزمني لفرض الضريبة والاستعانة بالسلطة التشريعية لتصحيح خطأها هذا بمد النطاق الزمني لفرض ضريبة اعمار العراق باثر رجعي من 2006/4/15.

والغرابة في الامر ان حالما رفع مشروع القانون أعلاه أقرته السلطة التشريعية وتجلى ذلك بصدور قانون التعديل الاول لقانون ضريبة اعمار العراق بموجب القانون رقم (24) في 2006/11/6 الذي تضمن نص مشروع القانون المرفوع اليها المذكور سابقا مع تمديد المدة المطلوبة من سنة واحدة الى سنتين من تاريخ 2006/4/15. وتكون بذلك قد عمدت إلى تصحيح المخالفة الدستورية المرتكبة من السلطة التنفيذية محاولة منها إسباغ المشروعية على تصرفاتها الخاطئة لتكون بمنجاة من الطعن بعدم الدستورية امام القضاء المختص لجبايتها ضريبة خارج الامد الزمني المقرر قانونا.

المطلب الثاني

التصحيح التشريعي في ظل تطبيق قانون ضريبة الدخل

تتأصل جذور هذه الحالة بتضمين قانون الموازنة العامة لسنة 2008 نص ضريبي مفاده (اولا- تضاعف مبالغ السماحات الضريبية للموظف ضمن البند (1) من المادة الثانية عشر من قانون ضريبة الدخل رقم 113 لسنة 1982 .ثانيا: تضاعف المبالغ الخاصة بقياس الضريبة في المادة 13 من قانون ضريبة الدخل رقم 113 لسنة 1982...) [23]

وتبدو الحكمة من هذا النص ان المشرع تغيا من ورائه تخفيف العبء الضريبي عن المكلف ويتجلى ذلك في الفقرة الاولى التي ذهبت الى مضاعفة السماحات الضريبية المقررة في قانون ضريبة الدخل وهذا يعني زيادة الإعفاءات الشخصية التي يحصل عليها المكلف عند محاسبته ضريبيا لأسباب اجتماعية. اما الفقرة الثانية فإنها انطوت على مضاعفة المبالغ الخاصة بمقياس الضريبة ، اي شرائح الدخل الخاضعة للضريبة. فبعد ان كانت الاسعار الضريبية متمثلة بـــ(3%) لما لا يزيد على (250000)، و(5%) ما زاد على (250000- 500000) ، و(10%) ما زاد على (500000 – 100000)، و(15%) ما زاد على (1000000) دينار. اضحت بعد هذا التعديل (3%) بما لا يزيد على (500000) ، و(5%) ما زاد على (500000- 1000000)، و(10%) ما زاد (1000000 – 2000000)، و(15%) ما زاد على (2000000)دينار. وواضح ان المكلف يستفيد من المضاعفة هذه على اساس ان العبء الضريبي سيكون بنسبة اقل وطأة واخفض مقدارا لاسيما بالنسبة لأصحاب الدخول الواطئة ممن تكون مقادير دخولهم عند حدود (2000000) فما دون، فبينما الشخص الذي يتحقق له دخل مقداره (2000000) يكون خاضعا في المقياس الضريبي الاول قبل التعديل لسعر مقداره (15%) فان هذا السعر سينخفض بالنسبة للمقياس الضريبي الثاني بعد التعديل ليكون(10%).

ونقول ابتداء انه ليس لدينا اعتراض على سياسة المشرع في تقليل العبء الضريبي على المكلف لان هذا من صميم اختصاصه الدستوري لا سيما وان هذا التخفيض يستهدف غايات اجتماعية، ولكن وجه اعتراضنا هو على تضمين أحكام ضريبية التي توصف بانها أحكام موضوعية و دائمية في قوانين مؤقتة مثل قوانين الموازنة التي لا يستغرق فترة تطبيقها اكثر من سنة وهي فترة تنفيذ الموازنة العامة بعدها موازنة سنوية. وبالتأكيد ان قيام المشرع بتضمين قوانين الموازنة العامة مثل هذه النصوص الضريبية والتي يطلق عليها اصطلاحا (ملحقات الموازنة العامة)[24] فيه الكثير من النقد كونها سوف لا تنال حظها من المناقشة البرلمانية التي تتناسب مع أهميتها بالنسبة للخزينة العامة ومصالح المواطنين على حد سواء. لا بل ان غاية الحكومة من اللجوء إليها هو الاستفادة من السرعة في التصويت عليها من حيث الزمن وقلة

الإجراءات المحيطة بتشريع قوانين الموازنة العامة وهو ما يحقق رغبة الحكومة في التوصل إلى إقرار تلك النصوص الضريبية الملحقة التي تعد فرص إقرارها ضئيلة ان هي قدمت استقلالا في صورة مشروع قانون ، وقد حكم المجلس الدستوري الفرنسي مرارا بعدم دستورية اللجوء الى ملحقات الموازنة العامة[25].

وعودا على بدء فأن جوهر المشكلة المتعلقة بالنقطة مدار البحث (التصحيح التشريعي) يكمن في انه بعد الانتهاء من تطبيق قانون الموازنة الاتحادية لسنة2008 استمرت الإدارات الضريبية المختصة بتطبيق هذه النصوص الضريبية المشار إليها أعلاه والواردة في تضاعيف هذا القانون. ومن الطبيعي ان الاستمرار في تطبيق نصوص مؤقتة انتهت مدة العمل بها يعد مخالفا لمبدأ لمشروعية اذ بنهاية الافق الزمني للقانون تغدو نصوصه محض واقعة مادية لا قيمة لها ويجوز لكل ذي شان التمسك بإزالة هذه الواقعة ، كما تعد كل الأعمال والقرارات الصادرة تنفيذا لهذه النصوص اعمالا منعدمة لافتقارها للأساس التشريعي.[26] وقد استمر هذا التطبيق في السنوات المالية(2009و 2010و 2011) على الرغم من عدم تضمين قوانين موازنات هذه السنوات ذات النصوص الضريبية المذكورة.

وبالتأكيد ان الاستمرار في تطبيق أحكام النص الضريبي اعلاه خلال السنوات المذكورة كان له اثره في تقليل الإيرادات الضريبية اذ نجم عنه خفض لحجم الدخل الخاضع للضريبة بالنسبة لكل المكلفين الذين شملتهم تلك الأحكام _ كما اوضحنا سابقا_ سواء من خلال مضاعفة السماحات او مضاعفة مبالغ مقياس الضريبة مما نجم عنه انخفاض حجم الديون المستحقة للدولة دون مسوغ قانوني او دستوري على أساس ان الإعفاء الضريبي (السماحات) لا تتقرر الا بقانون. كما ان تحديد السعر ومبالغ الدخل لا يتحقق الا بقانون ايضا بعد ذلك من عناصر فرض الضريبية التي حصر المشرع الدستوري أمرها بالسلطة التشريعية فحسب. وحالما ادركت السلطة التنفيذية ممثلة بمجلس الوزراء هذه المسألة حاول معالجة هذا الخطأ بخطأ اخر من خلال إصدار قرار كان نصه (اطفاء الديون المستحقة بذمة المكلفين بدفع الضريبة جراء استمرار الجهات الرسمية بتطبيق المادة (20) من قانون الموازنة العامة الاتحادية للسنة المالية 2008 للفترة 2009/1/1 ولغاية 2011/12/31) جاعلا سنده في ذلك أحكام الفقرة (11) من القسم الرابع من قانون الإدارة المالية والدين العام رقم 95 لسنة 2004 النافذ.[27]

والتمعن في هذا القرار يثير جملة من الملاحظات منها ما يلي :

1- ان هذا القرار لم يأخذ صيغة مشروع قانون لكي يمكن عرضه على مجلس النواب لإقراره والموافقة عليه بل صيغ وكأنه قرار نهائي قابل للتنفيذ المباشر دون حاجة الى موافقة اي

جهة اخرى، في حين ان اسقاط الدين الضريبي من ضمن الاختصاصات الحصرية للسلطة التشريعية التي تضمنها الدستور النافذ لسنة 2005 في الفقرة (اولا) من المادة(28) التي افادت بعدم جباية الضريبة الا بقانون. وحيث ان اسقاط دين الضريبة مرتبط بعنصر الجباية فتكون بذلك السلطة التنفيذية قد اغتصبت صلاحيات السلطة التشريعية .

2- ان مجلس الوزراء حاول ان يسبغ المشروعية على قراره بإسناده الى الفقرة (11) من القسم الرابع من قانون الإدارة المالية والدين العام رقم(95) لسنة 2004 المعدل. وعند الرجوع الى هذه الفقرة نجد انها نصت على (يخضع وزير المالية للقيود التي يضعها مجلس الوزراء ولوزير المالية التنازل عن حق الحكومة الفدرالية في استحصال مبلغ مستحق الدفع او إرجاء موعده او تقسيطه....) وابرز ما يمكن ملاحظته على هذا النص ما يلي :

أ- انه يفيد من جانب بان التنازل عن مبلغ مستحق الدفع هو من صلاحية وزير المالية، وهنا يثار التساؤل اذا كان الأمر كذلك ما الداعي لصدور القرار بإسقاط الدين الضريبي من مجلس الوزراء.

ب- ومن جانب آخر ان الإدارة الضريبية لم تطبق النصوص الضريبية الواردة في قانون ضريبة الدخل لكي تقدر الضريبة على المكلف وتحسب مقدار الدين الضريبي المستحق عليه ، وانما هي طبقت أحكام النصوص الضريبية الواردة في قانون الموازنة العامة ولذلك لم يترتب في ذمة المكلف دين مستحق الدفع اصلا من الناحية الواقعية او الفعلية لكي يتخلف عن دفعه.

ج- ومن جانب ثالث وهو الاهم ان القوانين العادية لا بد ان تتواءم مع نصوص الدستور النافذ بعده اعلى مرتبة منها واعظم منزلة، ولذلك كل نص قانوني وارد في قانون سابق او لاحق يعد باطلا طالما خالفت أحكامه الدستور الساري المفعول. وطالما ان الدستور النافذ لسنة 2005 نص على قانونية الضريبة في الفرض والتعديل والإعفاء والجباية فان إسقاط الدين الضريبي او إطفائه بعده مرتبط بجباية الضريبة لا يحكمه قانون الادارة مالية والدين العام وانما يحكمه هذا الدستور وهو يعد من الصلاحيات الحصرية للسلطة التشريعية لا ينازعها في ذلك احد ولا يجوز لها التنازل عنها والا حادت عن جادة المشروعية .

د- وأخيرا ان قانون الإدارة المالية نص بصريح العبارة على حق الوزير التنازل عن استحصال مبلغ مستحق الدفع، وهذا لا يفهم منه ان الأمر ينصرف إلى كل المبالغ المالية بل فقط تلك التي لا تدخل ضمن حيز اختصاصات السلطة التشريعية . وعليه فانه يمكن تطبق النص أعلاه اذا ما تم التنازل عن مبلغ القرض او اقساط الدين الحكومي او الغرامات او غير ذلك من المبالغ ولكن لا يمكن ان ينصرف البتة الى الأمور المناطة دستوريا بالسلطة التشريعية مثل الضريبة والرسم.

وعلى كل حال فان مجلس الوزراء أدرك عدم مشروعية قراره هذا وافتقاره لأساس دستوري صحيح، لذا ذهب وفي محاولة منه لتدارك مجانبته لقانونية الضريبة الى إدراج القرار ذاته نصا وروحا في مشروع قانون الموازنة العامة لسنة 2012 الذي اقره مجلس النواب في تاريخ لاحق بموجب قانون الموازنة العامة للسنة المذكورة، أذ انطوى على نص جاء فيه (اطفاء الديون المستحقة للحكومة بذمة المكلفين بدفع الضريبة جراء استمرار الجهات الرسمية بتطبيق المادة(20) من قانون الموازنة لسنة 2008 للمدة من 2009/1/1 ولغاية 2011/12/31 استنادا الى احكام الفقرة (11) من القسم الرابع من قانون الادارة المالية والدين العام رقم (95) لسنة 2004)[28].

وما يؤخذ على هذا النص، علاوة على ما طرحناه سابقا من ملاحظات عند التعرض لمضمونه الصادر عن مجلس الوزراء، ان مجلس النواب استند في اسقاطه للدين الضريبي الى ما نصت عليه الفقرة (11) من قانون الدين العام، في حين ان هذه الفقرة تفيد كما ذكرنا ان صلاحية اطفاء الديون الحكومية بيد وزير المالية. وهذا ما يثير إشكالية قانونية وواقعية وهي اذا كان الامر هو من صلاحية وزير المالية فما الداعي لعرضه على مجلس النواب وتضمينه قانون الموازنة الاتحادية ، فهذا تناقض بين وجلي يمكن لكل ذي لب ان يدركه.

وما نشكله على السلطة التشريعية محاولتها اسباغ المشروعية على اعمال السلطة التنفيذية الخاطئة التي خالفت بها أحكام الدستور من خلال استمرارها بتطبيق نصوص ضريبية منتهية النفاذ نجمت عنها زيادة حجم الإعفاءات الضريبية او تقليل العبء الضريبي والذي هو من اختصاص المشرع وحده . كما يؤخذ عليها من جانب آخر مجاراتها للخطأ الذي ارتكبته السلطة التنفيذية بإطفائها الديون الضريبية المستحقة بذمة المكلفين لسنوات سابقة وبأثر رجعي نتيجة عدم تطبيق أحكام قانون ضريبة الدخل للسنوات 2009–2011 بل طبقت أحكام قانون انتهى أمد نفاذه وهو قانون الموازنة الاتحادية لسنة 2008.

وفي كلا الحالين نرى ان ما اختطته السلطة التشريعية من مسار يمثل تصحيحا لقرار مجلس الوزراء سابق الذكر والمخالف للدستور لكونه تناول إحكاما متعلقة بجباية الضريبة وهي إطفاء الديون الضريبية المستحقة بحق المكلفين، في حين ان هذا الامر مناط بالسلطة التشريعية حصرا حسب الدستور. ومن ثم فان هذا النهج الذي اقدمت عليه يمثل مخالفة صريحة للدستور كما انه يمثل حصانة أرادت بها ان تنأى بالسلطة التنفيذية عن المحاسبة .

ويثار تساؤل في هذا المقام اذا لم يكن يحق لكل من السلطتين التشريعية والتنفيذية ان تصدر اعمالا تتضمن تصحيح للقرارات الخاطئة التي اتخذتها السلطة التنفيذية بعدم تطبيق

النصوص الوردة في قانون ضريبة الدخل فما هي المعالجة السليمة التي يستوعبها القانون ؟

باعتقادنا ان هذه المعالجة تكمن هنا بتطبيق نص المادة (32) من قانون ضريبة الدخل النافذ التي أوجبت على السلطة المالية ان تقدر الضريبة على أساس الدخل الحقيقي ولها الحق بالرجوع بالتقدير على من سبق تقدير دخله باقل من حقيقته اذا ظهرت لديها وقائع مادية بضمنها الإخبار التحريري ولمدة خمس سنوات باستثناء السنة التقديرية. اما من لم يتم تقدير دخله فيكون الرجوع عليه من تاريخ تحقق الدخل ولا يؤثر على حق السلطة المالية في الرجوع بالتقدير عدم تبلغ الأشخاص به. لأنه لو كان قانون الموازنة العامة تضمن فرض ضريبة بسعر مرتفع واستمرت السلطة المالية بتطبيق هذه النصوص فانه يحق للمكلف ان يطالبها باسترداد كل ما دفعه بدون وجه حق نتيجة عدم تطبيقها الصحيح للقانون.

بقي ان نشير اخيرا الى ان قانون الموازنة العامة لسنة 2013 قد تضمن ذات النص الوارد في قانون الموازنة العامة لسنة 2008 بخصوص مضاعفة السماحات القانونية للموظفين ومضاعفة مبالغ مقياس الضريبة [29]وجاء ذلك في المادة (20) منه ولكن أضافت لها حكم آخر ورد في الفقرة (ثالثا) منها جاء فيها (يجب ان يكون مضاعفة السماحات الضريبية ومقياس الضريبة لآخر سنة ولا يمكن تجديدها). الا ان ما لاحظناه بعد انتهاء تنفيذ موازنة 2013 هو استمرار السلطة المالية بتطبيق هذه النصوص، ودليلنا في ذلك التعميم الصادر عن وزارة المالية/ الهيئة العامة للضرائب والموجه الى مختلف هيئات الدولة وسلطاتها التشريعية والتنفيذية والقضائية والمستقلة في 2015/4/14 تضمن ايقاف العمل بمضاعفة السماحات القانونية للموظف والمبالغ الخاصة بمقياس الضريبة اعتبارا من تاريخ 2014/1/1. مما يفهم منه ان إدارات ومؤسسات الدولة المختلفة استمرت في تطبيق الاحكام الواردة في موازنة 2013 بخصوص هذا الموضوع في السنوات 2014 وجزء من سنة 2015. فعد ذلك خطأ اداريا يحسب عليها حاول التعميم المذكور استدراكه ومعالجته من خلال الطلب من الجهات المعنية بإعادة احتساب الضريبة على رواتب موظفي الدولة اعتبارا من 1/1/ 2015 في حين لم يبين الحال فيما يخص الضريبة عن سنة 2014[30]. والملاحظ هنا ان السلطة التنفيذية لم تسلك ما سلكته سابقا بخصوص موازنة 2008 بتصحيح خطأها باللجوء الى طريق التصحيح التشريعي وهو ما يحسب لها وان كان معالجة الوضع الضريبي لسنة 2014 لم تبت به وما يخشى أنها ستلجأ إليه لاحقا ومن الاولى ان يعاد احتساب الضريبة عن السنة المذكورة كما هو الحال في سنة 2014، والتي لم غاب عنها قانون موازنة ينظم شؤونها المالية، وهو ما نراه ينسجم مع ما جاء به قانون ضريبة الدخل في المادة (32) كما بينا اعلاه.

وما ينبغي الاشارة اليه اخيرا ان قانون الموازنة الحالي لسنة 2016 قد انطوى على الكثير من النصوص الضريبية التي اشار بعضها الى فرض ضريبة مبيعات على كارتات الشحن والانترنت و بالبضائع المستوردة من قبيل السيارات والسكائر والمشروبات الكحولية بنسب مختلفة فضلا عن فرض ضريبة المطار على تذاكر السفر وهي ايضا تعد ضريبة مبيعات. بالإضافة الى زيادة مقدار السماحات الضريبية للمكلفين بنسبة (25%) من مقدار السماحات القانونية المقررة في قانون ضريبة الدخل، وغير ذلك من احكام تشير بلا موارية الى سير السلطتين التنفيذية والتشريعية الى اعتماد اسلوب سبق ان انتقدناه وهو تضمين إحكام ضريبية ضمن قانون مؤقت متمثل بقانون الموازنة العامة. فضلا عن ذلك لا بد ان تأخذ هيئات الدولة المختصة وأجهزتها الإدارية المختلفة بالحسبان ان تطبيق النصوص الضريبية تلك ينبغي ان يتوقف بنهاية نفاذ موازنة 2016 الا اذا تم تضمينها ضمن احكام موازنة 2017.

المبحث الثالث
إقرار القوانين الضريبية بأثر رجعي

من المبادئ الدستورية التي تحكم النظم الضريبية المختلفة هو مبدأ عدم رجعية القوانين الضريبية والمراد به سريان القانون الضريبي من تاريخ نفاذه بنشره في الجريدة الرسمية او بانتهاء الميعاد المحدد للنفاذ بعد النشر ولا يجوز ان تنسحب احكامه على الوقائع والروابط القانونية التي سبقت ذلك التاريخ اي لا يجوز تطبيق النصوص القانونية النافذة على وقائع سابقة لنفاذها. واذا كانت بعض الدساتير المقارنة لم تشر الى عدم رجعية القوانين الضريبية بنص صريح وإنما نص على عدم رجعية القوانين بشكل عام الا اذا نص على خلاف ذلك ومنها الدستور المصري لسنة 1971 الملغي (بخلاف الدستور الحالي 2014)[31]، فأن المشرع الدستوري العراقي في ظل دستور 2005 انماز عن بان نص على عدم رجعية القوانين الضريبية بتاتا حتى وان كان ذلك أصلح للمكلف. وذلك ما نلحظه بشكل واضح لا يداخله الريبة في نص المادة (19/تاسعا) بقولها(ليس للقوانين اثر رجعي ما لم ينص على خلاف ذلك ، ولا يشمل ذلك هذا الاستثناء قوانين الضرائب والرسوم) مؤكدا على القاعدة العامة في نفاذ القوانين في المادة (129) التي نصت على (تنشر القوانين في الجريدة الرسمية. ويعمل بها من تاريخ نشرها ما لم ينص على خلاف ذلك) علما ان مبدأ عدم رجعية القوانين الضريبية ليس وليد الدستور العراقي الحالي فحسب بل هو امر اقر في معظم الدساتير السابقة ومنها دستور 1968[32]ودستور 1970[33].

ومن الجلي القول ان المعيار المعتد به في تحديد القانون الضريبي الواجب التطبيق هو مرتبط بالواقعة المنشئة للضريبة، فاذا كانت الواقعة المنشئة للضريبة أيا كان نوع الضريبة

مباشرة ام غير مباشرة دخل ام رأسمال، ضريبة استهلاك ام تداول ام غير ذلك قد تحققت واكتملت عناصرها في ظل القانون الضريبي السابق فانه لا يجوز تطبيق احكام القانون الضريبي الجديد عليها بغض النظر عن وقت تحصيلها او تسديدها وبخلاف ذلك فانه يعد خروجا عن مبدأ عدم رجعية القوانين الضريبية. وعلى العكس من ذلك اذا كانت الواقعة المنشئة للضريبة قد تحققت في ظل احكام القانون الضريبي النافذ فانه لا يجوز تطبيق احكام القانون السابق عليها والا عد ذلك خلافا لقاعدة الاثر المباشر لسريان القانون وهو المدلول الاخر من حيث النتيجة لعدم رجعية القانون الضريبي.[34]

وعلى الرغم من ان الدستور العراقي كما نوهنا أولى الاهتمام البالغ بمبدأ عدم رجعية القوانين الضريبية وجعله بالإضافة الى مبدأ قانونية الضريبة من المبادئ الحاكمة لمؤسسات الدولة ولسلطاتها واقرهما ضمن الحقوق الاصيلة التي يتمتع بها المواطن، اذ اورد الاول ضمن الحقوق المدنية والسياسية بينما نظم الثاني ضمن الحقوق الاقتصادية والاجتماعية، إلا ان السلطة التشريعية لم تعر بالا له في كثير من الأعمال والقوانين التي سنتها بعد عام 2005 و نورد ادناه بعض التطبيقات لمجانبتها للمبدأ المذكور وعلى النحو الآتي :

المطلب الاول
رجعية القوانين في ظل تطبيق قانون ضريبة اعمار العراق

سبق ان اوضحنا ان ضريبة أعمار العراق تعد من الضرائب غير المباشرة وفرضت بموجب أمر سلطة الائتلاف المؤقتة (المنحلة) رقم (38) لسنة 2003 ونفذت بتاريخ 2004/4/15 ولمدة سنتين، اي ان سريانها ينفد وينتهي بتاريخ 2006/4/15. ولما كانت السلطة التنفيذية لم تتوقف عن تطبيق هذه الضريبة خلافا للمدة الواردة قانونا، سن مجلس النواب قانون التعديل الاول لقانون ضريبة اعمار العراق رقم (24) في 2006/11/6[35] الذي تضمن نصا مفاده بتمديد تطبيق ضريبة أعمار العراق لمدة سنتين اعتبارا من 2006/4/15 اي سريان القانون بأثر رجعي وليس بأثر مباشر لاسيما وان هذا القانون نشر في الجريدة الرسمية بتاريخ 2007/3/7. وهذا ما يتعارض مع نص المادة (19/عشرة) من الدستور النافذ التي لم تجز تطبيق القوانين الضريبية بأثر رجعي وسحب آثارها على الماضي ، فضلا عن المادة (129) المشار إليها آنفا والتي أكدت على نفاذ القوانين من تاريخ نشرها في الجريدة الرسمية.

ويجدر التنويه هنا ان ضريبة اعمار العراق تأخذ حكم الضريبة الكمركية وتتمثل في وعائها، اذ تفرض على السلع الواردة الى العراق، ومن ثم فان الواقعة المنشئة لها تتحقق في لحظة معينة وهي لحظة تجاوز البضاعة الحدود الكمركية العراقية وليس كحال ضريبة الدخل التي لا تكتمل الواقعة المنشئة لها الا بعد مرور سنة باعتبارها مفروضة على الدخل السنوي

للمكلف. وطالما الامر كذلك بالنسبة لضريبة اعمار العراق فان المشرع بهكذا قانون يكون قد اوجب تطبيق الضريبة المذكورة على وقائع سابقة المتمثلة بدخول السلع الى الحدود العراقية من تاريخ 15/4/ 2006، في حين ان هذه السلع يفترض ان تكون غير خاضعة للضريبة لان التعرفة الكمركية المتضمنة للضريبة الكمركية معلق تنفيذها بموجب قانون سياسة تحرير التجارة الصادر عن سلطة الائتلاف المؤقتة (المنحلة) رقم (54) لسنة 2004. كما ان الامد الزمني لنفاذ قانون الضريبة المذكورة انتهى بتاريخ 2006/4/15، ومن ثم لا يمكن استدعاء الأشخاص مالكي البضائع او السلع لدفع هذه الضريبة الا اذا كانت الضريبة قد اخذت منهم فعلا خلاف القانون. ولذا وكما سبق وان بينا، ان عمل المشرع هنا جاء للتغطية على خطأ الادارة الكمركية بالاستمرار في جباية ضريبة انتهى موعد نفاذها ولكن هذا التغطية لا يعفى السلطة التشريعية من المسؤولية الدستورية باعتبارها سحبت اثر القانون الضريبي على الماضي بخلاف مبدأ عدم رجعية القوانين الضريبية.

وما يدعو للاستغراب أيضا ان قانون التعديل اعلاه قد انطوى بين ثناياه على تضارب بين وجلي , اذ بينما نص على تمديد العمل بقانون ضريبة أعمار العراق لمدة سنتين اعتبارا من تاريخ 2006/4/15، جاء في المادة الثانية لينص على تنفيذ هذا القانون من تاريخ نشره في الجريدة الرسمية. علما ان النشر لم يتحقق الا في 2007/3/7 كما قلنا وهذه من عيوب الصياغة التي تفقد القانون الضريبي ابرز خصائصه التي ينبغي ان ينماز بها وهي قاعدة اليقين لما شابه من تضارب وتعارض في تاريخ النفاذ.

ولا بد من الاشارة ان هذه المخالفة الدستورية لم تكن الوحيدة بل تكررت من قبل مجلس النواب في قوانين أخرى وبالنسبة للضريبة ذاتها ونبينها على النحو الاتي:

اولا:- اوضحنا سابقا ان قانون التعديل الاول لقانون لضريبة اعمار العراق نص على تمديد العمل باحكام هذه الضريبة لمدة سنتين من تاريخ 2006/4/15، وهو ما يعني ان نفاذ هذه الضريبة ينتهي بتاريخ 2008/4/15. ولكن ولان السلطة التنفيذية (الادارات الكمركية) استمرت بتطبيق هذه الضريبة بعد التأريخ اعلاه سن مجلس النواب (مثلما فعل سابقا) قانون التعديل الثاني لقانون ضريبة اعمار العراق رقم (31) لسنة 2009 والذي بين في المادة (1) منه استمرار العمل بضريبة اعمار العراق اعتبارا من 2008/4/15 علما ان هذا التعديل نشر في جريدة الوقائع العراقية بتاريخ (2010/1/25)[36] ، وبذلك يكون مجلس النواب قد طبق الضريبة المذكورة بأثر رجعي على الوقائع السابقة لنفاذ تعديل قانون المذكور اعلاه ومن تاريخ 2008/4/15.

ثانيا:- عندما سن مجلس النواب قانون التعرفة الكمركية رقم (22) لسنة 2010 تضمن هذا القانون الغاء قانون ضريبة اعمار العراق رقم (38) لسنة 2003 وإعادة العمل بالتعرفة الكمركية وفق القانون النافذ (اي قانون 22 لسنة 2010) ولما ترتب على سن هذا القانون من ارتدادات تضخمية على السوق الداخلية بسبب ما يتضمنه قانون التعرفة من فرض ضريبة كمركية وبنسب عالية على السلع المستورة دفع ذلك مجلس النواب الى تأجيل تطبيق القانون المذكور بكل ما يتضمنه من احكام الى تاريخ 2012/6/30.[37] مما يعني ذلك ضمنا الاستمرار بتطبيق قانون ضريبة أعمار العراق الى التاريخ المذكور اعلاه. ولكن لما رأت السلطة التنفيذية ان الظروف غير مواتية للعمل بقانون التعرفة الكمركية قدمت مشروع قانون يتضمن رؤيتها لمواجهة هذه الظروف وافقت عليه السلطة التشريعية فأقرته بموجب التعديل الثاني لهذا القانون رقم (27) لسنة 2013[38] اذ جاء لينص على اعادة العمل بقانون ضريبة اعمار العراق رقم (38) لسنة 2003 ولحين انجاز مراحل تطبيق قانون التعرفة الكمركية رقم (22) لسنة 2010 ، كما نص على تطبيق القانون الاخير على مراحل بالتنسيق بين الهيئة العامة للكمارك واللجنة الاقتصادية في مجلس الوزراء على تنجز آخر مرحلة بعد ثلاث سنوات من تاريخ نشر هذا التعديل في الجريدة الرسمية.

وما يهمنا في هذا التعديل للقانون بخصوص الموضوع محل البحث انه نشر في الجريدة الرسمية بتاريخ 2013/8/26 وعد نافذا من تاريخ نشره. لكن أشارت المادة ثالثا منه إلى تنفيذه من تاريخ 2012/6/30 بما يعني ان السلطة التشريعية ارتكبت المجانبة الدستورية ذاتها وسحبت آثار القانون الضريبي (ضريبة أعمار العراق) بأثر رجعي على الوقائع المتحققة قبل نفاذه. فضلا عن التضارب الجلي في تحديد وقت نفاذه اذ ورد تاريخين الاول من وقت نشره في الجريدة الرسمية والثاني من تاريخ 2016/6/30 وهي من العيوب الصياغية التي سبق الاشارة اليها.

المطلب الثاني
رجعية القوانين الضريبية في ظل قانون ضريبة الدخل

تحققت رجعية القوانين الضريبية في ظل قانون ضريبة الدخل على وجه الخصوص إبان تضمين المشرع العراقي في قانون الموازنة لسنة 2008 نص مفاده مضاعفة السماحات الضريبية والمبالغ الخاصة بقياس الضريبة والمنصوص عليهما في قانون ضريبة الدخل رقم(113) لسنة 1982- وقد فصلنا في هذا الموضوع سابقا- وبينا بان غاية المشرع العراقي هو تخفيف العبء الضريبي عن المكلفين المشمولين بأحكامه وقد اتضحت صورة رجعية القوانين الضريبية عندما حاول المشرع العراقي استدراك الخطأ الذي وقعت فيه السلطة التنفيذية (الإدارة الضريبية)، بالاستمرار في تطبيق احكام النص اعلاه للسنوات 2009و 2010و

2011 على الرغم من عدم وجود نص في قوانين موازناتها ما يفيد بذلك التطبيق . وتمثل ذلك بتضمين قانون الموازنة لسنة 2012 نص مفاده اطفاء الديون المستحقة للحكومة بذمة المكلفين بدفع الضريبة جراء استمرار الجهات الرسمية بتطبيق المادة(20) من قانون الموازنة لسنة 2008 للمدة من 2009/1/1 ولغاية 2011/12/31 استنادا الى احكام الفقرة (11) من القسم الرابع من قانون الادارة المالية والدين العام رقم (95) لسنة 2004). اذ ان هذا النص علاوة على النقد الذي سقناه سابقا بان استند في اطفاء الدين الضريبي الى قانون الإدارة المالية والدين العام وهو استناد ليس له محل من القانون، ارتكب مجلس النواب مخالفة صريحة لأحكام الدستور النافذ بان سحب حكم ضريبي وارد في قانون نافذ وهو قانون موازنة 2012 على الوقائع والاعمال المتحققة قبل نفاذه في سنوات سابقة وهي السنوات 2009و 2010و 2011 وهو ما يمثل رجعية للقوانين الضريبية بكل عناصرها ومعالمها ويعد مجانبة جلية لمبدأ عدم رجعية القوانين الضريبية الذي كما نوهنا لم يجعل له المشرع الدستوري اي استثناء حتى وان كان في مصلحة المكلف.

المطلب الثالث
رجعية القوانين الضريبة في ظل ضريبة انتقال العقار

سن المشرع العراقي قانون تعديل قانون ضريبة الدخل رقم (48) لسنة 2015[39] تضمن بين طياته نص يفيد بإضافة وعاء ضريبي جديد الى الاوعية الضريبية المنصوص عليها في المادة الثانية من قانون ضريبة الدخل النافذ رقم 113 لسنة 1982 ليكون تحت عنوان الفقرة (4) منها حيث كان نصها (قيمة العقار او حق التصرف فيه المقدر وفق احكام قانون تقدير قيمة العقار ومنافعه رقم 85 لسنة 1978 او البدل ايهما اكثر، تفرض على مالك العقار او حق التصرف فيه بأي وسيلة من وسائل نقل الملكية او كسب حق التصرف او نقله كالبيع والمقايضة والمصالحة والتنازل والهبة وازالة الشيوع وتصفية الوقف او المساطحة ويعامل المستأجر معاملة المالك عند إيجاره العقار الذي دخل في تصرفه بعقد المساطحة وتحتسب الضريبة بنسبة تصاعدية من قيمة العقار..)

ولا بد قبل الخوض في الموضوع محل البحث ان نشير ان المشرع العراقي قد اخضع الدخل المتولد عن نقل ملكية العقار او حق التصرف به لتعديلات تشريعية مختلفة وبثلاث مراحل اساسية. فابتداء جعل هذا الدخل خاضع للضريبة إبان سنه قانون ضريبة الدخل عام 1982 النافذ ولكن لم يخضع كامل الدخل، وانما الربح الصافي المتولد عنه بعد استبعاد تكاليف شراء العقار او تكاليف تملكه عن طريق الارث. وفي المرحلة الثانية وتحديدا في عام 2002 سن مجلس قيادة الثورة قراره رقم (120) استبعد هذا الدخل من الخضوع لقانون ضريبة

الدخل وافرد له نظام قانوني خاص به حيث اخضعه لضريبة مستقلة اصطلحنا على تسميتها (بضريبة انتقال العقار)[40] لكن وعائها يتمثل بالدخل الاجمالي الذي يحصل عليه مالك العقار او مالك حق التصرف فيه بعد استبعاد مبلغ معين من قيمة ذلك الدخل وهو(20) مليون دينار والمتبقي يخضع لضريبة تصاعدية وفق اسعار انطوى عليها القرار المذكور. فيكون بذلك المشرع قد تعامل مع هذا الدخل بانه رأسمال عقاري ولذلك تفرض الضريبة على قيمته الاجمالية وليست الصافية. اما المرحلة الثالثة فهو التعديل المشار اليه اعلاه اذ الغى المشرع العراقي قرار مجلس قيادة الثورة المنحل رقم (120) لسنة 2002 واعاد هذا الوعاء الى حومة ضريبة الدخل لكن ما يعاب على هذه العودة امران:

الاول: ان المشرع قد اخضع الدخل الاجمالي المتولد عن نقل ملكية العقار او نقل حق التصرف به لضريبة الدخل. وهو ما يفهم من النص المذكور اعلاه بالخضوع لهذه الضريبة (قيمة العقار او حق التصرف به) وليس كما كان عليه الحال في المرحلة الاولى وقبل صدور القرار(120) 2002 اذ كان النص هو (الارباح الناجمة عن نقل ملكية العقار او نقل حق التصرف فيه). أي ما يخضع للضريبة هو الدخل الصافي وليس الدخل الاجمالي، على اساس مفهوم الربح لا يتحقق الا بعد استبعاد التكاليف من الدخل الإجمالي. ومن جانب آخر وللتدليل على ما قلناه آنفا ان المشرع الحالي لم يأت بنصوص تعالج آلية احتساب التكاليف التي تحملها مالك العقار في سبيل شرائه او أيلولته إليه عن طريق الإرث، بخلاف ما كان عليه الحال قبل 2002 الذي كان ينص على هذه الآلية بتقدير قيمة العقار الموروث او المتملك كما كانت قبل عشر سنوات من تاريخ تصرف الوارث او المالك اذا كان قد مر على نقل الملكية او حق التصرف اكثر من عشر سنوات وتعتبر القيمة المقدرة على هذا الاساس كلفة على الوارث او المالك. اما اذا كانت الفترة المذكورة اقل من عشر سنوات فيؤخذ حينئذ بتقدير التركات او بدل التملك أي قيمة الشراء.

الثاني: ان تطبيق الضريبة على القيمة الكلية للعقار مثلما ورد في التعديل الأخير يتناقض مع ما نص عليه قانون ضريبة الدخل الذي عرف الدخل بأنه (الإيراد الصافي للمكلف الذي حصل عليه من المصادر المبينة في المادة الثانية من هذا القانون) ولذلك تبقى هذه الضريبة هي ضريبة رأسمال وان فرضت ضمن قانون ضريبة الدخل وهذا مأخذ كبير ينبغي على المشرع تداركه.

وعودا على بدء بخصوص رجعية القوانين الضريبية فان قانون تعديل قانون ضريبة الدخل المشار إليه أعلاه انطوى على سحب اثاره على الماضي ويتضح ذلك بشكل جلي في الفقرة

(ثالثا) من المادة(1) بقولها (تسري أحكام الفقرة (4) من المادة (الثانية) من القانون على معاملات نقل ملكية العقار او حق التصرف فيه التي تمت قبل نفاذ هذا القانون ولم تسدد الضريبة عنها او عن فروق التقدير المترتبة عليها) .

ففي اعتقادنا ان هذا النص انطوى على مجانبة صارخة لمبدأ عدم رجعية القوانين الضريبية. ذلك ان القانون الواجب التطبيق هو الذي تحصل في ظله الواقعة المنشئة للضريبة وهي هنا الحصول على الدخل بسبب نقل ملكية العقار او نقل حق التصرف فيه وهي تمت في ظل القانون السابق، اي قانون ضريبة انتقال العقار المنظم بموجب قرار رقم (120) لسنة 2002 الذي كان ساريا قبل التعديل محل البحث. ومن ثم لا محل لسحب اثر هذا التعديل للقانون على ما وقع في السابق من وقائع وتصرفات. كما لا يصح من المشرع ان يجعل حكمه مرتبطا بواقعة تسديد الضريبة اذ بذلك يكون قد خرج عما استقر عليه قانونا وفقها وقضاء من ان سريان القانون الضريبي يرتبط بواقعة نشوء الضريبة دون قرار تحصيلها او إجراءات ذلك التحصيل.

علما ان مثل هذا النص كان متوافرا حتى في القرار السابق رقم(120) لسنة 2002 وقد أخذنا عليه في حينها ذات المأخذ واعتبرناه مخالفا لمبدأ عدم رجعية القوانين الضريبية التي نص عليها أيضا الدستور الذي كان القرار المذكور منظما في ظله وهو دستور 1970 الملغي وفي مادته (67/ب).[41]

الخـــاتمة

لقد بان لنا من ثنايا البحث وطياته ان الضريبة وان تمثلت بصورة حق للدولة والتزام على الشخص يؤديها لها الا ان هذا الحق لا يمارس بلا قيود او حدود ضابطة له وهذه الضوابط والقيود وجدت في اعلى وثيقة قانونية تحكم الدولة وسلطاتها وهي الدستور. واذا كان الدستور العراقي النافذ اجاز كغيره من الدساتير للدولة ان تفرض ضريبة الا ان هذا الفرض لا يكون الا من قبل السلطة التشريعية حصرا كما انه لا يمكن تناوله باثر رجعي حفاظا على حقوق المكلف والخزانة العامة على حد سواء. لكن ما بان لنا من ثنايا البحث ان الكثير من تلك القيود تمت مخالفتها وخرقها من قبل السلطة التشريعية فذهبت في بعض الحالات الى تفويض اختصاصها في تنظيم الشؤون الضريبية الى السلطة التنفيذية بلا التفات للنصوص الدستورية الصريحة والضمنية التي لم تجز التفويض او اعمال احكامه في المجال الضريبي على وجه التحديد فوجدنا مرة تفوض امر فرض الضريبة ومرة اخر تفوض تعديل احكامه وثالثة تخول امر الاعفاء منها .

ولم يقف بها الحال الى هذا بل ذهبت الى التواطؤ اذا صح تعبير الكلمة مع السلطة التنفيذية في بعض القوانين التي سنتها للتغطية على الاعمال التي اصدرتها في الشؤون الضريبية كانت فيها متغولة لاختصاص السلطة التشريعية مما جعل عدم الدستورية يحوم حولها فما كان من الاخيرة الا سن قوانين متضمنة تلك الاعمال ومصححة اخطاء السلطة التنفيذية وكان مرادها من ذلك هو التغطية على عدم مشروعية اعمالها وهو منافي لأحوال توزيع الاختصاص الضريبي وهو ما دفع بالخيرة الى تكرار اخطاءها تلك في مرات عديدة دونما ترعوي بان تلك الاخطاء تشكل مخالفة دستورية ينبغي ان تحسب عليها.

واذا كان من مخالفة دستورية تحسب على السلطة التشريعية ايضا هو سنها القوانين والتشريعات الضريبية وترتيب الاثر الرجعي لها ضاربة عرضا فرض المشرع الدستوري وحكمة في المادة (19/عاشرا) والتي نصت على عدم جواز اعمال الرجعية في الضرائب والرسوم .

واذا كان مسار البحث قد انبجست منه تلك النتائج وشخصت حالة الاود والاعوجاج الذي كانت عليه السلطة التشريعية وهي تمارس وظيفتها في الشؤون الضريبية فلا بد ان نبسط بعض التوصيات والمقترحات التي نراها مناسبة مع الحال في سبيل تقويم ذاك الاعوجاج وازالة اثاره وهي على النحو الاتي:

1- نقترح على السلطة التشريعية اعادة النظر في جميع القوانين الضريبية التي صدرت قبل نفاذ دستور 2005 وكانت منطوية على نصوص مخالفة لأحكامه ومتعارضة معه في سبيل سن قانون يلغيها بما يحول دون استمرار السلطة التنفيذية بتطبيقها وهذا لا ينفي القول بإلغاء تلك القوانين ضمنا كونها تعارضت مع قانون اعلى منها منزلة واسمى مكانا وهو الدستور.

2- نوصي مجلس النواب العراقي بأن يتأنى مليا في اي مشروع قانون ويزنه بميزان الدستور وهل فيه ما يخالف احكامه ونصوصه او يتعارض مع غاياته ومراده وفيما اذا كان منطويا على تفويض الاختصاص الضريبي ام لا قبل ان يسنه او يقره لكي يجنب الطعن في دستورية اعماله امام القضاء الدستوري.

3- نوصي بإلغاء جميع النصوص التي انطوت عليها التشريعات الضريبية او المالية وتضمنت اعمال الضريبة باثر رجعي لما في ذلك من مخالفة صريحة لأحكام الدستور سواء وردت .

4- نهيب بالسلطة التشريعية ان تدافع عن سلطاتها الحصرية التي منحها اياها الدستور النافذ وعلى وجه الخصوص في الشؤون الضريبية وان لا تسمح لغيرها من سلطات لا سيما السلطة التنفيذية بان تتغول اختصاصها لما في ذلك من تجاوز للدستور وانتقاص من صلاحياتها ويتبع ذلك ان لا تبادر السلطة التشريعية باتخاذ اي عمل من شانه اسباغ المشروعية على اعمال الحكومة لان عدم الدستورية الذي توصم به هذه الاعمال سينتقل منها الى عمل السلطة التشريعية.

5- نوصي القضاء ولا سيما القضاء الدستوري المتمثل بالمحكمة الاتحادية العليا ان يمارس دوره في تأصيل المبادئ الدستورية من خلال القرارات والاحكام والفتاوى التي يصدرها ولا سيما تلك المتعلقة بالشؤون الضريبية لمال في قراراته وفتواه من اثر ملزم من الناحية القانونية والناحية المعنوية وتبادر الي اتباعه السلطات كافة دون تأويل او تفسير، كما نوصي القضاء الاداري او القضاء العادي كل حسب اختصاصه والجهات ذات الاختصاص القضائي الممنوحة قانونا مهمة الفصل في الشؤون الضريبية ان تقف عند المبادئ الدستورية التي نظمها دستور 2005 النافذ لكي لا تفوتها مهمة اعمالها او الاشارة اليها في احكامها او قراراتها.

---

[1] د.بشار عبد الهادي ، **(التفويض في الاختصاص(دراسة مقارنة))**، مطابع الدستور التجارية ، الاردن، 1982، ص49.

[2] د. محمد محمد عبد اللطيف ، **(الضمانات الدستورية في المجال الضريبي (دراسة مقارنة بين مصر والكويت وفرنسا))** ، ط1، مطبوعات جامعة الكويت ،1999،ص26.

[3] ينظر في تفصيل ذلك : شوق سعد هاشم الموسوي، **(الاختصاص التشريعي لرئيس الدولة في النظام البرلماني)**، رسالة ماجستير، كلية الحقوق/جامعة النهرين، 2008،ص114. و د. سمير عبد القادر، **(السلطات الاستثنائية لرئيس الدولة ومدى الرقابة عليها)**- رسالة دكتوراه- جامعة عين شمس- كلية الحقوق، 1985،ص395.

[4]انظر بحثنا الموسوم(**احوال توزيع الاختصاص الضريبي بين السلطتين التشريعية والتنفيذية في ظل الدستور العراقي لسنة 2005)** ،بحث موعود بالنشر في **مجلة بيت الحكمة** ، في 2015/4/29، ص5.

[5]منشور في جريدة الوقائع العراقية ع(3586) في 1995/10/23

[6]منشور في جريدة الوقائع العراقية العدد (4148) 2010/3/15

[7]منشور في الوقائع العراقية ع(3581) في 1995/9/18.

[8] جاءت هذه الفتوى بخصوص ضريبة الانتاج في 1988/6/20 التي جاء فيها (ولما كان المعروف فقهاً أن الضرائب المالية تفرض دون أن تقابلها خدمة مباشرة تقدم لمن تجبى منه في حين أن الرسم يدفع لقاء خدمة تقدم

لدافع الرسم. وفي التفريق بين الرسوم المفروضة لقاء خدمة وبين الرسوم المفروضة دون أن تقابلها خدمة كرسوم الإنتاج التي تعتبر من الضرائب غير المباشرة. عليه يقترح المجلس إعادة النظر في الرسوم المفروضة حالياً دون أن تقابلها خدمة بتعديل تسميتها إلى (ضرائب) تبعاً لواقع حالها لتصبح مشمولة بحكم المادة الخامسة والثلاثين من الدستور).انظر تفصيل ذلك د.رائد ناجي احمد، **(علم المالية العامة والتشريع المالي في العراق)** ، ط 2، العاتك لصناعة الكتاب،القاهرة،2012، ص191.

[9] منشور في الوقائع العراقية ع ع(3816) في 2000/3/6.

[10] منشور في الوقائع العراقية ع (3869) في 2001/3/12

[11] ينظر المادة (15) من الستور العراقي لسنة 1958 المؤقت

[12]ينظر المادة (35) من الدستور العراقي لسنة 1970 المؤقت

[13]انظر في ذلك د. حسين خلاف، **(الاحكام العامة في قانونية الضريبة)**، دار النهضة العربية ،القاهرة،1966، ص 67.

[14] ابراهيم حميد محسن الزبيدي، **(الفراغ التشريعي في أحكام الضرائب المباشرة في العراق)**، اطروحة دكتوراه ,كلية القانون/جامعة بغداد،2007،ص34–35.

[15]ينظر د. حسين خلاف ، المصدر السابق، ص67

[16] منشور في الوقائع العراقية ع(4170 ج1) في 2010/12/6

[17]في الفقرة (ثانيا/أ) من المادة (4)

[18] ينظر القسم (4/2) قانون ضريبة اعمار العراق الصادر بموجب امر سلطة الائتلاف الموقتة(المنحلة) رقم (38)في 2004

[19] ظهرت هذه الصورة على وجه الخصوص في قرار مجلس الدولة المصري في 12/نوفمبر 1955 انظر تفصيل ذلك لدى رائد محمد يوسف العدوان، **(نفاذ القرارات الادارية بحق الافراد(دراسة مقارنة بين الاردن ومصر))** ، رسالة ماجستير، كلية الحقوق /جامعة الشرق الاوسط، 2012–2013، ص117 وما بعدها. منشورة على الموقع الالكترونيwww.meu.edu.jo/ar/images تاريخ الزيارة 2016/9/30.

[20] انظر المادة من الدستور (61/اولا) النافذ.

[21] جاء ذلك ضمن امر سلطة الائتلاف المتضمن تعديل ضريبة اعادة اعمار العراق رقم 70 لسنة 2004 وقائع (3893)في2003/1/6

[22]في جلسته المنعقدة في 2006/11/23

[23] انظر المادة (20) من قانون الموازنة العامة لسنة 2008

[24] هي تسمية جرى عليها الفكر المالي منذ مدة طويلة وظلت مستمرة رغم ما يشير اليه بعض الفقه بانها غير دقيقة كونها تختلط بفكرة ملاحق الموازنة العامة أي المستندات والوثائق الملحقة بها. وقد هجر العمل البرلماني في ظل الجمهورية الفرنسية الخامسة تلك التسمية ليحل محلها تسمية الفرسان الموازنية للدلالة على ان مثل هذه النصوص الدخيلة على الطبيعة المالية المحضة للموازنة إنما تمتطي صهوة الموازنة وتوجهها وجهة غير وجهتها الدستورية. انظر د. هشام محمد البدري ، **(النص الضريبي بين التفسير الإداري والتفسير التشريعي)**، منشاة المعارف ، الإسكندرية، 2005، ص151–152.

[25]د. هشام محمد البدري، المصدر السابق،ص152

[26] د. هشام محمد البدري، المصدر السابق، ص159.

[27] قرار مجلس الوزراء ذي الرقم (16) لسنة 2012.

[28] انظر المادة (45) من قانون الموازنة العامة الاتحادية لسنة 2012.

[29] ينظر المادة (20) من قانون موازنة 2013

[30] ينظر تعميم وزارة المالية / الهيئة العامة للضرائب رقم (1158/8) في 2015/4/14

[31] حيث نص على عدم رجعية القوانين الضريبية والجنائية في المادة (225) منه كما ان المشرع العادي الفرنسي نص في المادة الثانية من القانون المدني على عدم سريان القانون الا بالنسبة للمستقبل ولا يجوز سريانه باثر رجعي(La loi ne dispose que pour l'avenir ; elle n'a point d'effet rétroactif.)

[32] انظر المادة (10) منهٍ

[33] انظر المادة (67/ب) منه

[34] انظر تفصيل ذلك في بحثنا الموسوم (مبدأ عدم رجعية القوانين الضريبية وتطبيقه في العراق) ، مصدر سابق، ص319– 325.

[35] منشور في الوقائع العراقية (4042) في 2007/7/3

[36] انظر جريدة الوقائع العراقية رقم (4142) في 2010/1/25

[37] كان ذلك بموجب قانون التعديل الاول لقانون التعرفة الكمركية رقم (34) لسنة 2011 والمنشور في الوقائع العراقية ع(4226) في (2012/1/16.

[38] نشر في الوقائع العراقية رقم (4287) في 2013/8/26.

[39] وقائع عراقية عدد(4391) في 2015/12/14.

[40] انظر تفصيل ذلك في كتابنا، مصدر سابق، ص185–187.

[41] انظر بحثنا الموسوم ، **(مبدأ عدم رجعية القوانين الضريبية وتطبيقه في العراق)، (مجلة جامعة تكريت للعلوم القانونية والسياسية)** ،ع(2)، س(1)،2009، ص332.

القانون الدولي لحقوق الانسان و القانون الدولي الانساني -دراسة مقارنة-

ا.م.د. رياض مهدي عبد الكاظم
كلية الاعلام/ جامعة واسط
Readh1982alzubaydi@gmail.com
07718139195

المقدمة

ان مسألة حقوق الانسان باتت موضوعا يمس حياة كل الشعوب والدول وتطورها باختلاف حضاراتها ومواقعها الجغرافية وانظمتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وهي مسألة تمس حياة كل انسان كفرد بحكم طبيعته وتكوينه، فطبيعة الانسان ذات الصفة المزدوجة، كونه كائنا فرديا وكائنا اجتماعيا في آن واحد هي التي ادت الى ظهور حقوق الانسان وباتت تشكل موضوعا لتأكيدات متعددة ومتكررة، وقد تصاعدت وتيرة هذه التأكيدات مع تصاعد الوضع العالمي الجديد، وقد وجدت هذه التأكيدات صداها ليس فقط في غالبية الدساتير وانما كذلك في الوثائق الخاصة على الاصعدة العالمية والاقليمية والوطنية.

كما ويمكن القول ان المجتمع الدولي يشهد دائما حروبا ضارية استخدمت فيها خلاصة ما جادت به عبقرية الانسان من وسائل الشر والايذاء والهدم والدمار. وبسبب ما أصاب البشرية خلال الحروب المعاصرة . سواء كانت دولية أم داخلية . من فظائع وأهوال ومآسي، فقد اتجه المفكرون والفقهاء والساسة والهيئات الدولية والوطنية والعديد من الدول إلى المطالبة بالعمل على الحد من آثار الحرب وعدم تجاوزها لمبدأ الضرورة العسكرية، بحيث تتفق مع الهدف المعلن من الحرب، من ناحية، ومع المبادئ الإنسانية من ناحية اخرى .

وتنطوي هذه القواعد على نقل الأفكار والقيم الأخلاقية، وعلى الأخص الانسانية الى مجال القانون الدولي العام. وقد اطلق على قواعد القانون الدولي العام التي تحمي حقوق الانسان اثناء النزاعات المسلحة إصطلاح (القانون الدولي الإنساني) وذلك لإضفاء الطابع الانساني على قواعد قانون النزاعات المسلحة، والفضل في استخدام هذا الاصطلاح يرجع إلى اللجنة الدولية للصليب

الأحمر، وقد اصبح هذا الاصطلاح من الاصطلاحات المتفق عليها الآن، دون خلاف، للدلالة على حقوق الانسان اثناء النزاعات المسلحة .

وبما ان القوانين التي تحكم حالات النزاعات المسلحة والتي تحمي الانسان والاعيان هي القانون الدولي الانساني فضلا عن قانون حقوق الانسان فسنتطرق الى دراسة كلا القانونين وتحديد وجه العلاقة بينهما، فضلا عن اوجه الشبه والاختلاف من خلال تقسيم البحث الى ثلاثة مباحث، يتناول الاول منها مفهوم القانون الدولي لحقوق الانسان والقانون الدولي الانساني، في حين يتناول الثاني العلاقة بين القانون الدولي لحقوق الانسان والقانون الدولي الانساني، اما المبحث الثالث فيتناول اوجه الشبه والاختلاف بين المفهومين.

المبحث الاول: مفهوم القانون الدولي لحقوق الانسان والقانون الدولي الانساني:

من الضروري معرفة الفرق بين مفهومي القانون الدولي لحقوق الانسان والقانون الدولي الانساني خاصة اذ يخلط الكثير بين هذين الفرعين من القانون، واللذين يعدان من احدث فروع القانون الدولي العام[1].

المطلب الاول: مفهوم القانون الدولي لحقوق الانسان:

من اجل التعرف على ماهية حقوق الإنسان يقتضي بنا اولا تعريف مصطلح حقوق الإنسان، وعلى الرغم من انه ليس هناك تعريف محدد لحقوق الإنسان بل هناك العديد من التعاريف التي قد يختلف مفهومها من مجتمع الى اخر او من ثقافة الى أخرى، لان مفهوم حقوق الانسان أو نوع هذه الحقوق يرتبطان بالاساس بالتصور الذي نتصور به الإنسان الا انه يمكن تعريف حقوق الانسان كما يرى رينيه كاسان وهو احد واضعي الاعلان العالمي لحقوق الانسان بانها (فرع خاص من الفروع الاجتماعية يختص بدراسة العلاقات بين الناس استنادا الى كرامة الانسان وتحديد الحقوق والرخص الضرورية لازدهار شخصية كل كائن انساني)[2]، ويعرفها الاستاذ محمد

سعيد المجذوب بانها (مجموعة الحقوق الطبيعية التي يمتلكها الإنسان واللصيقة بطبيعته، والتي تظل موجودة وان لم يتم الاعتراف بها، بل أكثر من ذلك حتى ولو انتهكت من قبل سلطة ما)[3].

اما الاستاذ باسيل يوسف فيرى ان حقوق الإنسان (تمثل تعبيرا عن تراكم الاتجاهات الفلسفية والعقائد والاديان عبر التاريخ لتجسد قيم انسانية عليا تتناول الانسان أينما وجد دون أي تمييز بين البشر لا سيما الحقوق الاساسية التي تمثل ديمومة وبقاء الانسان وحريته) [4].

وهناك من يرى ان لمفهوم حقوق الانسان معنيان اساسيان:

الأول: هو ان الانسان (لمجرد انه انسان) له حقوق ثابتة طبيعية. وهذه هي (الحقوق المعنوية) النابعة من انسانية كل كائن بشري والتي تستهدف ضمان كرامته.

المعنى الثاني: فهو الخاص (بالحقوق القانونية) التي أنشأت طبقا لعمليات سن القوانين في المجتمعات الوطنية والدولية على السواء، وتستند هذه الحقوق الى رضا المحكومين أي رضا أصحاب هذه الحقوق وليس الى نظام طبيعي كما هو قائم في المعنى الأول [5].

اما ميثاق الامم المتحدة فلم يحدد ويوضح مفهوم حقوق الإنسان لعدم ملائمة ادراج قائمة بها في الميثاق، فضلا عن ان مثل هذا التحديد او الصياغة قد لا تواكب التطورات المستقبلية لهذه الحقوق، فقد ترك واضعوا الميثاق مهمة تعريفها للمنظمة ذاتها واستقر الرأي على ضرورة وضع اتفاق دولي مستقل بها، وقد أسفرت الجهود اللاحقة عن صدور الاعلان العالمي لحقوق الإنسان وما تبعه من اتفاقات [6]. وأضحت أحكام الميثاق المتعلقة بحقوق الإنسان مع احكام الاعلان العالمي والاتفاقات والمواثيق الدولية المتعلقة بحقوق الإنسان تشكل في مجموعها بما يسمى القانون الدولي لحقوق الإنسان.

ويمكن تعريف هذا القانون بأنه (مجموعة القواعد والمبادئ المنصوص عليها في عدد من الاعلانات والمعاهدات الدولية التي تؤمن حقوق وحريات الافراد والشعوب في مواجهة الدولة وهي حقوق ملتصقة بالإنسان وغير قابلة للتنازل عنها وتلزم الدولة بحمايتها من الاعتداء والانتهاك) [7].

ويتضح لنا مما تقدم ان هناك مجموعة صفات اساسية لحقوق الانسان يمكن اجمالها بالأتي:

اولا: الازليــة: بمعنـى ان هـذه الحقـوق موجـودة منـذ خلـق الانسـان، فهـي ليسـت وليـدة التطـورات الاجتماعية والاحداث العالمية، فكما ان لكل انسان الحق في الحياة الآن فان الانسان البدائي كان له الحق في الحياة أيضا.

ثانيا: الابدية: اي ان حقوق الانسان تبقى ببقاء البشر وهذه الصفة تمثل الضامن الاساسي الذي لا غنى عنه ليحيى الانسان حياة حرة كريمة.

ثالثا: التلازم: بمعنى انها ترافق الانسان منذ ولادته وحتى قبل وفاته.

رابعا: الاعلانية: اي انها موجودة حكما لا موجب لاقراراها من قبل سلطة تشريعية او دستورية او اية سلطة اخرى وهذا ما فعلته الامم المتحدة عندما قالت بالاعلان العالمي لحقوق الانسان ولم تقل باقرار هذه الحقوق.

خامسا: الشمولية: اي ان هذه الحقوق ليست قاصرة على فئة معينة من الناس ولا على بقعة واحدة من العالم ولا على زمان محدد وانما هي حقوق موجودة ازلية ابدية ملازمة للإنسان في كل زمان وفي كل مكان ولا يستطيع احد حجبها عنه [8]، وهذا نابع عن الترابط الجدلي بين مختلف زمر حقوق الإنسان سواء أكانت حقوق مدنية وسياسية ام اقتصادية واجتماعية وثقافية ام حقوق تضامن[9].

المطلب الثاني: مفهوم القانون الدولي الانساني:

يعرف القانون الانساني الدولي بأنه (القواعد الدولية الموضوعة بمقتضى معاهدات او اعراف والمخصصة بالتحديد لحل المشاكل ذات الصفة الانسانية الناجمة مباشرة عن المنازعات المسلحة الدولية اوغير الدولية والتي تحد–لاعتبارات انسانية– من حق اطراف النزاع من اللجؤ الى ما يختارونه من اساليب او وسائل للقتال وتحمي الاشخاص والممتلكات التي تصاب بسبب النزاع)، وبعبارة اخرى يمكن تعريفه بانه مجموعة المبادئ والقواعد التي تحدّ من استخدام العنف أثناء

المنازعات المسلحة أو من الآثار الناجمة عن الحرب تجاه الإنسان عامة، فهو فرع من فروع القانون الدولي العام لحقوق الإنسان غرضه حماية الأشخاص المتضررين في حالة نزاع مسلح كحماية الممتلكات والأموال التي ليست لها علاقة بالعمليات العسكرية وهو يسعى إلى حماية السكان غير المشتركين بصورة مباشرة أو الذين كفوا عن الاشتراك في النزاعات المسلحة مثل الجرحى والغرقى وأسرى الحرب[10].

وتجدر الاشارة الى انه لم يظهر اهتمام خاص بالاشخاص الذين يعانون شرور الحرب الا في عهد النهضة، غير ان صانعي القانون الدولي الانساني الحقيقيين لم يظهروا الا في عصر الانوار. فقد صاغ هؤلاء مذهبا انسانيا اساسيا ينادي بان تقتصر الحرب على مقاتلة العسكريين، دون الاضرار بالسكان المدنيين وبالممتلكات التي ليس لها طابع عسكري. وكان من اه واضعي هذا المفهوم جان جاك روسو في كتابه (العقد الاجتماعي)، وايميرك دي فاتيل الذي تناول على نحو اكثر تحديدا قانون الحرب في كتابه (قانون الشعوب) [11].

وبالنسبة لنشأت القانون الدولي الانساني، فنجد ان قواعد القانون الدولي الإنساني المتعلقة بحماية ضحايا الحرب، نشأت أصلا بعرف دولي تجسد منذ عام 1864 ثم في اتفاقية لاهاي لعام 1899 وكذلك لسنة 1907 ثم ما تلتها من اتفاقيات جنيف عام 1949، والبروتوكولان الاضافيان لعام 1977 [12].

ومما تجدر الاشارة اليه ايضا ان قوانين الحرب التي تمت صياغتها في لاهاي أو في جنيف أو في أي مكان آخر، كانت نتاجا لتسوية واقعية بين الاعتبارات الإنسانية من ناحية، ومتطلبات الضرورة العسكرية من ناحية اخرى، والملاحظ على اتفاقية جنيف انها تعكس الميل لصالح الاعتبارات الإنسانية، اما في اتفاقيات لاهاي فأنها اخذت بعين الاعتبار الموازنة بين مثل هذه الاعتبارات ومتطلبات الضرورة العسكرية[13].

ويمكن القول ان القانون الدولي الانساني قد مر بعدة مراحل هامه كل منها تشكل تقدما ضخما، ونذكر هنا اهم تلك المراحل:

المرحلة الاولى: اتفاقية جنيف عام 1906 لتحسين حال الجرحى والمرضى في القوات المسلحة في الميدان.

المرحلة الثانية: اتفاقية لاهاي عام 1907 لتطويع مبادئ اتفاقية للحرب في البحار. كما حددت هذه الاتفاقية دائرة المقاتلين الذي يحق لهم التمتع بصفة اسير الحرب في حالة احتجازهم ومعاملة خاصة طوال فترة الاحتجاز.

المرحلة الثالثة: اتفاقيتا جنيف عام 1929، الاولى منهما تتناول الموضوع نفسه الذي تناولته اتفاقيتا عام 1864و 1906، والثانية تتعلق بمعاملة اسرى الحرب.

المرحلة الرابعة: اتفاقيات جنيف الاربع لعام 1949. الاولى والثانية منها تشكلان نصين منقحين لاتفاقيتي 1929، وتشكل الثالثة تنقيحا لاتفاقية لاهاي لعام 1907، في حين ان الاتفاقية الرابعة تغطي مجالا لم يكن قد استكشف بعد، الا وهو حماية الاشخاص المدنيين وقت الحرب.

المرحلة الخامسة: بروتوكولان اضافيان لااتفاقيات جنيف لسنة 1949[14].

ان نشوب النزاعات المسلحة وتطورها منذ عام 1949 اظهر ان اتفاقيات جنيف الاربعة لم تعد تضمن حماية قانونية كافية لجميع الضحايا وخاصة المدنيين منهم، فكان من اللازم تكميلها وتطويرها بنصوص جديدة، وفي 8 يونيو/حزيران 1977 تبنى مؤتمر دبلوماسي قد في جنيف بروتوكولين اضافيين الى اتفاقيات جنيف الاربعة، الاول يتناول حماية ضحايا المنازعات الدولية المسلحة، والثاني يتناول المنازعات المسلحة غير الدولية. وقد اعتمدت جميع دول العالم تقريبا معظم الاتفاقيات المذكورة واستكمال هذه الاتفاقيات[15].

المبحث الثاني: العلاقة بين القانون الدولي لحقوق الانسان والقانون الدولي الانساني:

لقد كان ظهور القانون الدولي الإنساني سابقا لظهور القانون الدولي لحقوق الإنسان والذي يرجع بدوره الى الاعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر عن الجميعة العامة في عام 1948 ولكن النظامين على الصعيد الفكري يعودان الى اصول تاريخية وفلسفية واحدة. ويمكن القول باختصار ان القانون الدولي لحقوق الانسان يهدف الى حماية الاشخاص ضد تجاوزات الدولة في وقت السلم، أما القانون الدولي الانساني فيهدف الى حماية رعايا العدو(اثناء النزاعات المسلحة)، لكن على الرغم من الاستقلال القائم بين الاثنين إلا ان هناك ثمة علاقة بين حقوق الانسان والقانون الدولي الانساني وهو ما سنوضحه كما ياتي:

المطلب الاول: المبادئ المشتركة بين اتفاقيات جنيف وإتفاقيات حقوق الإنسان:

على الرغم من ان هذان الفرعان من فروع القانون الدولي قد تطورا كل على حدة منفصلين عن بعضهما البعض منذ زمن طويل، الا ان ذلك لا ينفي بدئا بالتقارب التدريجي حتى اصبحا اليوم متداخلين الى حد كبير، لا ثمة غرض واحد يجمع ما بين القانونين وهو حماية البشر وخاصة المجردون من السلاح[16].

فمن جهة يمكن ملاحظة الحقوق الفردية للاشخاص المحميين في اتفاقيات جنيف، أي من المدنيين واسرى الحرب والجرحى والمرضى من العسكريين فضلا عن ان المادة (3) المشتركة في اتفاقيات جنيف الاربع لعام(1949) تلزم الاطراف المعنية ان تطبق كحد ادنى بعض القواعد الانسانية في اي نزاع مسلح ليست له طبيعة دولية[17].

وهكذا فهي تحدد العلاقات بين الدول ومواطنيها وهي بذلك تشترك مع دائرة حقوق الانسان التقليدية. ومن ناحية اخرى فان اتفاقيات حقوق الانسان شملت احكاما بشأن تطبيقها في زمن الحرب، فعلى سبيل المثال تقتضي الاتفاقية الاوربية لحقوق الانسان الصادرة عام (1950) بانه في زمن الحرب او حالات الطوارئ الشاملة التي تهدد حياة الامة يمكن ابطال بعض الحقوق المذكورة

في الاتفاقية في حدود لا تتعدى ما تحتمه مقتضيات الحال وبشرط الا تتعارض هذه التدابير مع الالتزامات الاخرى المقررة في القانون الدولي[18]. وتوجد أحكام مماثلة في المادة (45) من العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية، وهكذا فان اتفاقيات حقوق الإنسان يمكن أيضا أن تطبق في حالة النزاعات المسلحة اضافة الى تطبيقها في وقت السلم، اما بالنسبة لاتفاقيات جنيف لعام 1949، فهناك اتجاه نحو اعتبار احكامها حقوقا فردية للاشخاص المحميين، فضلا عن كونها تشكل التزامات على الاطراف المتعاقدة، ففي كل من الاتفاقيات الاربعة توجد مادة تنص على انه لا يجوز للاشخاص المحميين ان يتنازلوا عن الحقوق المكفولة لهم بموجب الاتفاقيات [19]. فضلا عن ذلك فان المادة الثالثة المشتركة بين جميع الاتفاقيات الاربعة، تلزم الاطراف المعنية بان تطبق كحد ادنى بعض القواعد الانسانية في اي نزاع مسلح ليست له طبيعة دولية[20].

المطلب الثاني: جهود الامم المتحدة لربط حقوق الانسان بالقانون الدولي الانساني:

يمكن القول ان العلاقة بين القانون الدولي لحقوق الانسان والقانون الدولي الانساني لم تحظ بالاهتمام الواجب إلا عندما انعقد المؤتمر الدولي لحقوق الانسان الذي عقدته الامم المتحدة في طهران عام(1968) والذي ربط رسميا بين هذين الفرعين من القانون، ففي القرار (23) الصادر في(12/ايار/1968) بعنوان (احترام حقوق الانسان في المنازعات المسلحة) حث المؤتمر على تطبيق الاتفاقيات القائمة على نحو افضل في المنازعات المسلحة وعلى ابرام المزيد من الاتفاقيات، وقد ادى هذا القرار الى بداية نشاط في الامم المتحدة بشان القانون الدولي الانساني، وكانت الدفعة التي تحققت في طهران هي التي قادت الى النظر بايجابية في تطوير اتفاقيات جنيف[21].

وقد تعزز التقارب بين قواعد القانون الدولي الانساني وبعض قواعد حقوق الانسان عند اعتماد البروتوكولين الاضافيين لاتفاقيات جنيف عام 1977، اذ ادخلت بعض القواعد لتقنيين حقوق لا يجوز مخالفتها في مجال حقوق الانسان على هذين البروتوكولين، فضلا عن ذلك تقدم المشرع الدولي بخطوه جديدة في سبيل الدفاع عن حقوق الانسان، باعتماد البروتوكول الاضافي الثاني

المتعلق بحماية ضحايا النزاعات المسلحة غير الدولية، وقد ظهر التاثير المتبادل بين حقوق الانسان والقانون الدولي الانساني في قرارات الجمعية العامة للامم المتحدة ومجلس الامن، فبالنسبة للنزاع في يوغسلافيا السابقة تعددت الاشارات الى القانون الانساني في القرارات التي اعتمدها مجلس الامن في عام 1992، والتي ادان فيها بوجه خاص انتهاكات القانون الدولي الانساني وحقوق الانسان.

كما ويمكن الاشارة ايضا الى الجهود التي بذلت والتي نتجت عنها اتفاقية حظر استعمال الالغام المضادة للافراد وتخزينها وانتاجها ونقلها وتدميرها(معاهدة اوتاوا)، كرد فعل دولي على المعاناة التي تسببها هذه الالغام على نطاق واسع، وتستند الاتفاقية الى قواعد القانون الدولي الانساني العرفية التي تطبق على جميع الدول وتحظر استعمال الاسلحة التي لا تميز بسبب طبيعتها بين المدنيين والمقاتلين او التي تسبب معاناة لا مبرر لها او اصابة مفرطة، وعرضت الاتفاقية للتوقيع في اوتاوا يومي 14/13/ديسمبر عام 1997[22].

ومن هنا نستطيع القول بانه يجب على الجميع دعم وتطوير هذين القانونين وتمكينهما من التطبيق اذا ما اردنا مجتمع دولي يحترم الانسان والكرامه الانسانية.

المبحث الثالث: اوجه الشبه والاختلاف بين حقوق الانسان والقانون الدولي الانساني:

من خلال ما تقدم ذكره من تعريف لمفهومي حقوق الانسان والقانون الدولي الانساني، فضلا عن اختصاص كل فرع منهما، ووجه العلاقة التي تربط كل منهما بالاخر، يتبين ان هنالك اوجه للشبه والاختلاف بين هذين الفرعين من افرع القانون الدولي العام، وهو ما سنوضحه وكما ياتي:

المطلب الاول: اوجه الشبه بين حقوق الانسان والقانون الدولي الانساني:

بالنسبة إلى وجه التشابه، فنجد ان قانون حقوق الانسان والقانون الدولي الانساني يهدف إلى تحقيق غرض مشترك يتمثل في حماية الإنسان واحترام كرامته. ومن هنا فان نقطة الالتقاء الاولية بين القانونين تكمن في ان الانسان هو محور الحماية ومحلها فكلاهما مكرس لتحقيق هذه الغاية، وبذلك فأنهما يشتركان في العديد من المبادئ ومنها.

اولا: مبدأ صيانة حرمة شخص الانسان، فللانسان حق احترام حياته وسلامته الجسدية والمعنوية، وهذا يعني في القانون الدولي الانساني صيانة الشخص الذي يسقط في ميدان القتال او الحفاظ على حياة المقاتلين الذين استسلموا[23]. وبعباره اخرى يمكن تفسير مبدأ عدم التعرض من خلال المبادئ التالية [24]:

1-لا يجوز التعرض لمن يسقط في القتال كما يجب المحافظة على حياة من يستسلم من الاعداء: فمن الواضح ان هذا المبدأ يتعلق فقط بالمقاتلين، وهو حجر الاساس لاتفاقيات جنيف لعام 1949 .

2-لكل انسان الحق في ان يعترف به كشخص امام القانون: لا تكفي حماية كرامة الانسان الجسدية والمعنوية، بل يجب أيضا احترام شخصيته أمام القانون، كما يجب ضمان ممارسته الكاملة لحقوقه المدنية، خاصة تلك المتعلقة بحقه بالالتجاء إلى القانون وتوقيع العقود، وهذا الحق منصوص عليه بلا تحفظ في الاعلان العالمي لحقوق الانسان.

ويمكن العثور على نفس التاكيد على هذا المبدأ في اتفاقيات جنيف والبروتوكول الاضافي الاول لعام 1977 حيث احتوى على اطول مادة قانونية تحت عنوان الضمانات الاساسية، وهي المادة 75 من البروتوكول.

3-من كان في حالة معاناة الحق في المأوى وفي الحصول على العناية التي تتطلبها حالته: يعتبر اتفاق جنيف الاول لعام 1864، حجر الزاوية لهذا الواجب الملزم، ذلك انه لا يكفي ان يحترم الجرحى والمرضى، بل يجب أيضا توفير الحماية والعناية بهم، التي يتعرضون بدونها لخطر الموت. وهذا المبدأ الذي وضع لصالح العسكريين زمن الحرب يصلح بالقياس للمدنيين زمن الحرب والسلم معا، وفي هذه الحالة الأخيرة فإنه يضطلع بناحية اكثر ايجابية وهي صيانة الصحة ومنع المرض. فالصحة كما عرفتها منظمة الصحة العالمية هي (حالة الرفاه الجسدي والعقلي والاجتماعي التامة ولا تعني فقط مجرد غياب المرض والعلة).

ثانيا: عدم التمييز، بسبب العرق او الدين الجنس او اللغة...الخ[25]:

ان الاخلاق الانسانية تقضي بضرورة ان تضمن لجميع الافراد حقوق اساسية معينة لايمكن فصلها عن الانسان وحياة الجماعة، كما انها تقضي بتوزيع جزء من ثروات البلد عليهم طبقا لحاجاتهم وبشكل يؤمن لهم ظروفا معيشية لائقة.

وفي الأصل وجد مبدأ عدم التمييز تعبيرا له في اتفاقيات جنيف، بمعنى وجوب إسعاف الجندي الذي يصبح خارج القتال بسبب إصابته بجراح أو مرض سواء كان صديقا أم عدوا، وأن

يتم ذلك بنفس الإستعداد. وحتى عام 1929 اقتصر الاتفاق على منع التمييز القائم على الجنسية، وفي العام 1949 إستبعد التمييز سواء ما قام منه على(العنصر ام اللون ام الدين ام المعتقد ام الجنس ام الولادة ام الثراء ام اي معيار مشابه). ومن الواضح ان منعها كان قائما ضمنا في السابق، وتم النص عليها في اتفاقيات جنيف بسبب التجربة المحزنة التي مرت بها البشرية اثناء الحرب العالمية الثانية. ويكمن العثور على نفس المبادئ في الاعلان العالمي لحقوق الانسان، الا انه لم يرد هناك ذكر للجنسية لان هناك حالات مشروعة في هذا المجال، حيث لا يتمتع الاجنبي في بلد ما بنفس الحقوق التي يتمتع بها مواطنوا هذا البلد[26].

ثالثا: مبدأ الامن، للفرد الحق في امنه الشخصي، فيحظر العقاب الجماعي والاعمال الانتقامية واحتجاز الرهائن، من جانب اخر يجب مراعاة الضمانات القضائية ومبدأ المسؤولية الفردية، ولا يجوز ان تكون هناك استثناءات من هذه الضمانات اثناء النزاع المسلح، وحتى في الاوقات الاستثنائية كالاضطرابات والتوترات الداخلية، إذ يجب اتخاذ التدابير اللازمة لحفظ الأمن[27].

المطلب الثاني: اوجه الاختلاف بين حقوق الانسان والقانون الدولي الانساني:

وبهذا الصدد يمكن حصر أوجه الاختلاف بين حقوق الانسان والقانون الدولي الانساني فيما يلي:

اولا: ان احكام حقوق الانسان تطبق بصفة خاصة في وقت السلم، ويمكن تلمس ذلك من خلال الاطلاع على الفقرة الثانية من ديباجة الاعلان العالمي لحقوق الانسان، حيث تنص على ان احترام حقوق الانسان شرط لحفظ السلم، الا انه لا يمنع من سريان احكام حقوق الانسان بصورة استثنائية في حالات النزاع المسلح، بينما نجد ان القانون الدولي الانساني يطبق أساسا في حالات النزاع المسلح سواء اكان دوليا ام غير دوليا[28] .

ويفهم من هذا ان القانون الدولي الانساني احد فروع منظومة حقوق الانسان، فالشرعية الدولية لحقوق الانسان وما يتصل بها من نصوص الدساتير والقوانين الوطنية تتناول بالتنظيم حقوق الانسان في مواجهة السلطات في وقت السلم عادة، وليس هناك ما يحول دون سريانها وقت الحرب والنزاعات المسلحة باستثناء ما تقتضيه ضرورة الاوضاع وفي حدود نص المادة الرابعة في العهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية، ثم ياتي القانون الدولي الانساني ليواجه بالذات حالة الحرب والمنازعات المسلحة الداخلية والدولية. فينظم بصفة خاصة علاقة المتحاربين وعلاقتهم برعايا الاعداء وقصده الاساس الحد من شرور الحروب واستخدام السلاح واشاعة الرحمة الانسانية بضحايا الحرب[29] .

ثانيا: اختلاف آليات تنفيذ قانون حقوق الانسان عن آليات تنفيذ القانون الدولي الانساني، فبينما تشمل الاولى هيئات حقوق الانسان ولجان تقصي الحقائق فضلا عن المنظمات الدولية والاقليمية، تشمل الثانية الحكومات وللجنة الدولية للصليب الأحمر والدول الحامية.

ثالثا: ان احكام حقوق الانسان تطبق على مستوى الافراد، بينما يطبق القانون الدولي الانساني على مستوى الدول، وبمعنى آخر ان احكام حقوق الانسان تعني بصورة رئيسة بالعلاقات بين الدول ورعاياها، بينما يهتم القانون الدولي الانساني بالعلاقات بين الدول والاطراف المتحاربة ورعاياها[30] .

رابعا: ان احكام حقوق الانسان تسري على كل الافراد دون أن تشترط فيهم صفة بعينها، وان كانت هناك بعض الاتفاقيات خاصة بفئات معينة مثل اللاجئين والنساء والاطفال، اما القانون الدولي الانساني فيحدد الفئات التي يحميها كالجرحى والمرضى واسرى الحرب. الا ان التطورات في القانون الدولي الانساني تتجه نحو اقامة نظام مماثل لنظام حقوق الانسان، اي يسعى الى حماية كافة الاشخاص من غير المقاتلين مع المحافظة في الوقت نفسه على الجوانب الخاصة التي تقتضيها الظروف التي يسري فيها هذا القانون[31] .

الخاتمة

مما سبق ذكره من تفصيل وتوضيح لمفهوم كل من القانون الدولي لحقوق الانسان والقانون الدولي الانساني والعلاقة التي تربط كلا المفهومين، فضلا عن اوجه الشبه والاختلاف بينهما يمكن القول ان القانون الدولي لحقوق الانسان (او القانون الدولي لحقوق الانسان وقت السلم) تسعى الى حماية الاشخاص ضد تجاوزات الدولة التي هم من رعاياها كقاعدة، في حين يهدف القانون الدولي الانساني (او حقوق الانسان وقت الحرب) الى حماية رعايا العدو، الا انهما يشتركان في الاهتمام بصفة اساسية بالشخص الانساني ولهذا يرتبطان بروابط عميقة وقوية في اطار القانون الدولي العام.

ويمكن القول ايضا ان القانون الدولي لحقوق الانسان والقانون الدولي الانساني قد تطورا في اتجاهين مختلفين ولكن جذورهما الروحية والفكرية تعود لنفس المنبع الى حد ما، لذا يجب على المؤسسات المعنية بحقوق الانسان ان تعزز اكثر من اي وقت مضى الطابع التكاملي للقانون الدولي لحقوق الانسان والقانون الدولي الانساني، وان تعمل لهذا الغرض على نشر المبادئ المشتركة فيما بينهما. اذ ان تكثيف جهود هذه المؤسسات في النضال من اجل دعم القانون الدولي الانساني وقانون حقوق الانسان، يمثل قوة لايستهان بها تناوئ تردي الاوضاع وتساعد الانسانية

على الانطلاق خطوات الى الامام في مجال احلال النظام ورفع الظلم عن الضحايا ومساعدتهم، فاذا كان القانون الدولي الانساني اقل تاثرا من القانون الدولي لحقوق الانسان بمخاطر التسييس، واذا كان يتضمن قواعد اكثر تفصيلا وتحديدا لحماية حقوق الانسان في حالة النزاع المسلح، فانه بامكان قانون حقوق الانسان ان تساند القانون الدولي الانساني في حالات النزاع الداخلي والاضطرابات، بالضغط الذي يمكن لهما ممارسته على الدولة ذات السيادة.

واخيرا يمكن القول بان القانون الدولي لحقوق الانسان والقانون الدولي الانساني يمثلان فرعان متمايزان من فروع القانون الدولي العام، فهما يصبان في تحقيق هدف مشترك الا وهو حماية الانسان في جميع الاحوال، لهذا يجب النظر اليه بروح تكاملية.

مصادر البحث

(1) ان من اهم فروع القانون الدولي العام هي:
1. قانون التنظيم الدولي. 2. القانون الدولي للتنمية
3. القانون الدولي لحقوق الإنسان. 4. القانون الدولي الإنساني.

(2) نقلاً عن باسيل يوسف، حقوق الإنسان في فكر الحزب– دراسة مقارنة –، بغداد، دار الرشيد للنشر، 1981، ص12.

(3) محمد سعيد مجذوب – الحريات العامة وحقوق الإنسان – لبنان ، ط1، لسنة 1986، ص9.

(4) باسيل يوسف، تسييس بواعث وأهداف الحماية الدولية لحقوق الإنسان، في حقوق الإنسان في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي، مصطفى الزلمي محرراً، بغداد، بيت الحكمة، 1998، ص72.

(5) ليا ليفين – حقوق الإنسان – أسئلة وأجوبة – دار المستقبل العربي – القاهرة –1986 – ص13 .

(6) إبراهيم أحمد السامرائي، الحماية الدولية لحقوق الإنسان في ظل الامم المتحدة – رسالة دكتوراه – كلية القانون – جامعة بغداد – 1997 – ص8.

(7) باسيل يوسف الابعاد الوطنية والدولية لاعلان العالمي لحقوق الانسان،في ندوة بغداد الدولية للاحتفال بالذكرى الخمسين للاعلان العالمي لحقوق الانسان، بغداد، 1998،ص135.

(8) خميس الحديدي، حقوق الإنسان بين الواقع والطموح، المجلة العراقية لحقوق الإنسان، العدد الأول، 2000 ص53، ص54.

(9) باسيل يوسف، الفقر وحقوق الإنسان، في الفقر والغنى في الوطن العربي، مجموعة باحثين، بغداد، بيت الحكمة، 2002، ص96.

(10) القاضي جمال شهلول، القانون الدولي الانساني، بحث منشور على شبكة المعلومات الدولية الانترنيت،ص2. www.rayam.net 2003/3/21/are/5-htm

(11) فيصل شطناوي، حقوق الانسان والقانون الدولي الانساني، عمان، دار ومكتبة الحامد للنشر، ط2، 2001، ص191.

(12) باسيل يوسف – سيادة الدول في ضوء الحماية الدولية لحقوق الإنسان – مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ط1 – 2001 – ص9.

(13) حسام عبد الأمير خلف، دور المنظمات الدولية في حماية حقوق الإنسان، رسالة ماجستير غير منشورة، المعهد العالي للدراسات الدولية، الجامعة المستنصرية، 2004، ص19.

(14) لمزيد من التفاصيل ينظر، القاضي جمال شهلول، مصدر سبق ذكره، ص3 الى ص 12.

(15) فيصل شطناوي، مصدر سبق ذكره، ص 193.

(16) لمزيد من التفاصيل حول المبائ المشتركة بين قانون جنيف واعلان حقوق الانسان ينظر، عبد علي محمد سوادي، حقوق الانسان اثناء النزاعات المسلحة والازمات، بحث منشور في المؤتمر الأول لكلية العلوم الاجتماعية (حقوق الانسان في المجتمع العربي)، عمان، 2005، ص8،الى ص13.

(17) انظر المادة (7) من اتفاقيات جنيف الأولى والثانية والثالثة والمادة (8) من الاتفاقية الرابعة في مطبوعات اللجنة الدولية للصليب الأحمر، اتفاقيات جنيف 1949/8/12. وكذلك لمزيد من التفصيل ينظر بوراس عبد القادر، التدخل الدولي الانساني وتراجع مبدا السيادة الوطنية، دار الجامعة الجديدة، الجزائر، 2009، ص228، ص229.

(18) انظر المادة (15) من الاتفاقية الأوربية لحقوق الإنسان.

(19) انظر المادة (7) من اتفاقيات جنيف الاولى والثانية والثالثة، والمادة (8) من الاتفاقية الرابعة.

(20) انظر المادة (3) المشتركة بين الاتفاقيات الاربع.

(21) نقلا عن، رياض مهدي عبد الكاظم، السياسة الخارجية الامريكية وحقوق الانسان دراسة حالة كوسوفو، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية العلوم السياسية، جامعة النهرين، 2007، ص54.

(22) انظر، فيصل شطناوي، مصدر سبق ذكره، ض199، الى 201.

(23) عامر الزمالي، القانون الدولي الإنساني مفهومه ومجالاته وعلاقته بحقوق الانسان–في مجموعة مؤلفين(دورة عنبتاوي الثانية عشر محاضرات خطط ودروس)، منشورات المعهد العربي لحقوق الإنسان، تونس 2003، ص92 وما بعدها.

(24) عبد علي محمد سوادي، مصدر سبق ذكره، ص8، ص10.

(25) عامر الزمالي، مصدر سبق ذكره، ص30.ش

(26) عبد علي محمد سوادي، مصدر سبق ذكره، ص10، ص11.

(27) عامر الزمالي، مصدر سبق ذكره، ص94.

(28) متعب العيثوي ، حقوق الإنسان تجاهلها الكبار عمدا؟ انظر الموقع،
http://www.alriyadh-.com.sa/contents/14-10-2003/-main page/index. php.

(29) الشافعي محمد بشير، قانون حقوق الانسان مصادره وتطبيقاته الوطنية والدولية، منشاة المعارف، الاسكندرية، ط3، 2004، ص280، 281.

(30) اسماعيل عبد الرحمن، الأسس الأولية للقانون الإنساني الدولي، بحث منشور في كتاب القانون الدولي الإنساني، اعداد أحمد فتحي سدور، دار المستقبل العربي للطباعة، ط1، القاهرة، 2003، ص23.

(31) القانون الدولي الإنساني واللجنة الدولية للصليب الأحمر، ملف القائمين بالتعليم، اللجنة الدولية للصليب الأحمر، ملف رقم 2، جنيف، ص21.

ذوو الأرحام واختلاف العلماء في توريثهم

م . د . صاحب جلال عجاج الصبَّاحي
المعهد التقني في الحويجة
هيئة التعليم التقني/ الجامعة التقنية الشمالية

Blood Relatives and the Scholars' Different Perspectives in Bequesting Them

Lecturer. Dr . Sahib Jalal Ajaj
Teaching in the Department of office management techniques

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله الطيبين وصحبه اجمعين وبعد.....

فان النبي صلى الله عليه وسلم قد اخبرنا بان الله اعطى كل ذي حق حقه وامرنا بان لا نضيع ما فرضه على عباده فقال : ان الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدوداً فلا تعتدوها ومن فرائضه على عباده توزيع التركة على الوجه الذي بينه الباري عز وجل في آيات المواريث , ثم ان الانسان يهتم بالمال وهو محب له وهذه جبلة جبل الانسان عليها فهو يحب المال وان كان مسلم كل التسليم بامر الله وسننه فيه فقد قال الله تعالى (وتحبون المال حباً جما) , ولقد أراد الباري عز وجل ان يكون المال بعد موت صاحبه لمن يستحقه , ومعروف ان الذي يستحقه اقاربه الذين كانو معه في الضراء والسراء وما اقرب الى الميت من ابنه وابيه وزوجه واخيه , ثم اذا فقد من يستحق المال من الورثة فكان ماله الى من يكون ؟ وذوي الارحام هم من أقارب الميت الا انهم لم يذرهم الله تبارك وتعالى في آيات المواريث , والذي دفعني للبحث في هذا الموضوع تبيين ما اذا كان ذوو الارحام يستحقون الميراث وكيفية تقديم بعضهم على بعض بعد ان ابين من هم ذوي الارحام واقسامهم واسميت البحث (ذوو الارحام واختلاف العلماء في توريثهم) فكان البحث من ثلاث مباحث , المبحث الأول في التعريف بذوي الارحام وبيان اصنافهم ومراتبهم , اما المبحث الثاني بيان من هم أصحاب الفروض والعصبات ليميز ذوي الارحام عنهم , وكان المبحث الثالث في سبب اختلاف الغلماء في توريثهم وذكر بعض التقسيمات للتركة عليهم , ثم خلصت الى خاتمة ذكرت فيها بعض اهم النتائج التي توصلت اليها وقائمة بالمراجع والمصادر التي اعتمدتها في هذا البحث داعيا الباري عز وجل ان

يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم انه ولي ذلك والقادر عليه وهو حسبي وكفى .

المبحث الاول : تعريف ذوي الارحام وبيان اصنافهم ومراتبهم :

المطلب الاول : تعريف ذوي الارحام :

الرحم في اللغة : هو في الاصل مصدر تقول : بيني وبينه قرابة وقربٌ وقربى [1] وايضاً هو موضع تكوين الجنين وجمعه أرحام [2] .

وفي الاصطلاح : هو كل قريب لايرث بفرض ولا تعصيب [3] وهم احد عشر:

ولد البنات , وولد الاخوات , وبنات الاخوة , وولد الاخوة من الام , والاخوال , والخالات , وبنات الاعمام , والجد أبو الام , وكل جدة أدلت بأبٍ بين امين , أو بأبٍ أعلى من الجد , فهؤلاء ومن أدلى بهم يسمون ذوي الارحام [4] .

ويصنفون الى أصناف عدة , والمشهور هو أربعة أصناف نسترسل في تصنيفهم في المطلب التالي .

المطلب الثاني : اصناف ذوي الارحام :

ينحصر ذوي الارحام في المشهور عند العلماء الى أربعة أصناف كما يأتي :

الصنف الأول : من كان من فروع الميت الذين يدلون اليه بواسطة انثى

وهم نوعان : أولاد البنات , واولاد بنات الابن وإن نزلوا ذكوراً واناثاً

مثل : بنت البنت وبنت ابن البنت , وابن بنت الابن , وبنت بنت الابن وهكذا نزولاً [5]

الصنف الثاني :

من كان من أصول الميت الذين يتوصلون به بواسطة انثى سواء أكانوا رجالاً وهم الأجداد الرحميون ام من النساء وهن الجدات الرحميات ,

---

[1] ـ انظر تاج اللغة وصحاح العربية , إسماعيل بن حماد الجوهري , تحقيق : احمد عبد الغفور عطار , دار العلم للملايين – بيروت – لبنان –ط1 – القاهرة 1376 هـ 1956 م 8/2 ,تهذيب اللغة للازهري 2/ 113 .

[2] ـ المعجم الوسيط ـ, إبراهيم مصطفى ـ أحمد الزيات ـ حامد عبد القادر ـ محمد النجار, دار الدعوة ,تحقيق / مجمع اللغة العربية **335/1**

[3] ـ انظر المغني ابن قدامة ج 83/7

[4] ـ انظر المغني لابن قدامة ج 7 /83 , الجواهر النيرة مختصر القدوري 259/7

[5] ـ انظر الفقه الإسلامي وادلته لوهبة الزحيلي ج/10 /494

مثل : ابي ام الميت , وابي ابي الام , وام ابي ام الميت وام ام ابي ام الميت , سواء كان كل من الجد والجدة قريبين ام بعيدين وهكذا علوّاً , أي انهم نوعان ايضاً [1] , أي نوع من الجد ونوع من الجدة .

الصنف الثالث :

من كان من فروع ابوي الميت , وهم الاخوة والاخوات , وهم ثلاث أنواع :

النوع الأول : الاخوات وان نزلوا مطلقاً , أي سواء كنَّ شقيقات ام لاب ام لام

مثل : ابن الأخت , وبنت ابن الأخت وهكذا نزولاً .

النوع الثاني : بنات الاخوة وان نزلوا مطلقاً أي سواء كانوا اشقاء ام لاب

مثل : بنت الأخ الشقيق , وبنت الأخ لاب , وابن بنت الأخ الشقيق , ام لاب وهكذا نزولاً

اما أبناء الاخوة الذكور فهم عصبة كما سيأتي بيانه .

النوع الثالث : أولاد الاخوة لام وان نزلوا

مثل : ابن اخ لام , وبنت اخ لام , وهكذا نزولاً [2] .

الصنف الرابع : وهؤلاء نوع يتفرع الى ستة طوائف على الترتيب التالي :

من كان من فروع احد اجداد الميت او جداته الذين ليسوا باصحاب فروض ولا عصبة , سواء كانوا قريبين ام بعيدين , وهم ست طوائف : الاعمام لام , والعمات مطلقاً , أي سواء كن شقيقات ام لاب ام لام

الاخوال والخالات مطلقاً , أي سواء كانوا اشقاء ام لاب ام لام , اما الاعمام لابوين او لاب فهم من العصبات وهذه هي الطائفة الأولى

اما الطائفة الثانية : فهم أولاد الطائفة الأولى وان نزلوا , وبنات اعمام الميت الاشقاء او لاب , وبنات أبنائهم وان نزلوا , واولاد من ذكرن من النساء في الطائفة الأولى وان نزلوا . [3]

الطائفة الثالثة : هم اعمام ابي الميت لام , وعماته , واخواله وخالاته جميعاً , وهؤلاء قرابته من جهة الاب , واعمام ام الميت وعماتهم واخوالهم وخالاتها وهؤلاء قرابتهم من جهة الام .

والطائفة الرابعة : أولاد من ذكروا في الطائفة الثالثة وان نزلوا , وبنات اعمام ابي الميت الاشقاء او لاب , وبنات أبنائهم وان نزلوا , واولاد هؤلاء جميعاً وان نزلوا .

---

[1] - انظر التلقين 1 / 282 , الذخيرة في الفقه المالكي 3 / 338 . الفقه الإسلامي وادلته لوهبة الزحيلي ج/10 /494

[2] - انظر البهجة في شرح التحفة 654/2

[3] - انظر البهجة في شرح التحفة 2/ 654 وما بعدها , حاشية البناني 3 / 121 .

الطائفة الخامسة : اعمام ابي ابي الميت لام , وعماته واخواله وخالاته , واعمام ام ابي الميت , وعماتهم واخوالها وخالاتها , وقرابة هؤلاء من جهة الاب , واعمام ابي ام الميت وعماته واخواله وخالاته , واعمام ام ام الميت وعماتها واخوالها وخالاتها , وقرابة هؤلاء من جهة الام .

الطائفة السادسة : أولاد من ذكروا في الطائفة الخامسة , وان نزلوا , وبنات اعمام ابي ابي الميت الاشقاء او لاب , وبنات أبنائهم وان نزلوا , واولاد من ذكرن من النساء وان نزلوا وهكذا .[1]

هذه هي أصناف ذوي الارحام الأربعة التي اشتهرت عند العلماء .

المطلب الثالث : مراتبهم من القرابة :

بقي ان نذكر ترتيبهم في الإرث فنقول هم مرتبون في الإرث كترتيبهم السابق , أي كترتيب العصبات , فلا يرث الصنف الثاني قبل الأول ولا الثالث قبل الثاني وهكذا

فيكون الصنف الأول مقدم على الثاني والثاني مقدم على الثالث , اما الفروع فهم مقدمون على الأصول , فالذي يكون من جهة البنوة مقدم على الذي يكون من جهة الابوة ومن كان من جهة الأصل مقدم على من كان من جهة الاخوة 2 .

المطلب الرابع : أحوال ذوي الارحام :

أحوال ذوي الأرحام ثلاث : ومعنى احوالهم أي احوالهم عند موت المورث

الحال الأولى: أن يكون موجودا من ذوي الارحام واحدا فيأخذ المال كله بالتعصيب اذا اتصل بالميت بعصبة , وياخذه بالفرض اذا اتصل بالميت بصاحب فرض .[3]

مثال ذلك :

مات شخص عن بنت أخ شقيق , فهنا تأخذ المال كله , ولو مات عن بنت اخ لام فتاخذ السدس بالفرض والاقي بالرد .

الحال الثانية :

أن يكون الموجود من ذوي الارحام اثنين او اكثر ويدلون بالميت بواحد أيضا هنا يأخذ المال كله أيضا ؛ لان الذي ادلو به اما صاحب فرض او عصبة وكلاهما يأخذ المال كله , ومن ثم

---

[1] - انظر, الشرح الممتع على زاد المستقنع 2 /146 , البهجة في شرح التحفة 654/2وما بعدها , حاشية الصاوي على الشرح الصغير 11 / 66 .

[2] - انظر البهجة في شرح التحفة 654/2وما بعدها , الفقه الإسلامي وادلته 10 /495

[3] - انظر الجامع للشرايع , يحيى بن سعيد الحلي مؤسسة سيد الشهداء العلمية نام كتاب 601 – 690 تحقيق جمع من العلماء باشراف الشيخ جعفر السبحاني 1405 قم 1 / 2 , معونة الي النهى 5 / 777 ,شرح منتهى الارادات للبهوتي 4 / 344-382

يقسمون المال بينهم كان الذي مات عنهم هو المدلى به , وهنا يكون الذكر والانثى سواء وهذا هو المشهور عن الامام احمد رحمه الله تعالى1.

مثال ذلك :

مات شخص عن اخت وابن بنت الأخ الشقيق , في هذه الحالة يتقاسمون المال بينهم ؛ لان جدهم واحد وهنا أيضا الذكر والانثى سواء .

اما اذا مات وترك ثلاثة اخوال , فالخال الشقيق والخال لام يأخذان المال مله ؛ لانهما يتصلان بالميت بالام ,ولا شيء للخال لاب ؛ لانه قد حجب بالخال الشقيق .

اما اذا كان بدل الخال الشقيق خالة شقيقة فتأخذ النصف والباقي للخال لاب .

الحالة الثالثة:

أن يكون ذوي الارحام اثنان او اكثر , والمدلى بهم اثنين او اكثر في هذه الحالة نقسم المال بين المدلى بهم فان سقط احد المدلى به الى الميت سقط من ادلى به أيضا ويقسم الباقي بين من ادلو به حسب حصة كل من ادلى به , ويكون الذكر والانثى سواء ايضاً .

مثال ذلك :

مات شخص عن بنت اخ لاب وبنت اخ لام وخالة وابن بنت , في هذه الحالة نقسم المال بين من المدلى بهم فتاخذ البنت النصف ويأوول لابنها , والسدس للام ويأوول للخالة , وابنة الابن تأخذ الباقي وهي حصة الأخ لاب , ولا شيء للاخ لام لانه حجب بالام .

ولو مات عن ثلاث عمات وثلاث خالات , هنا تأخذ الخالات الثلث وهي حصة الام وللعمات الاقي وهي حصة الاب ثم يقسم الثلث بين الخالات , تأخذ الشقيقة ثلاث والخالة لاب واحد , ويقسم الباقي بين العمات فيكون للعمة الشقيقة ثلاثة والعمة لاب واحد والعمة للام واحد .

ولو مات عن ابني بنت، وبنت من بنت أخرى وبنت عم , في هذه الحالة , الابنان للبنت ياخذان الثلث وهو حصة الام , والثلث الآخر لبنت البنت الأخرى وبنت العم تأخذ الاقي وهو حصة أبيها.[2]

المطلب الخامس : جهات ذوي الأرحام :

[1] - انظر المغني 7 /89 , حاشية البناني 3 / 121 .

[2] - انظر المغني لابن قدامة 7 / 89 ومابعدها .

جهات ذوي الارحام ثلاث هي : ابوة واممومة وبنوة لان القرابة اما اصولا او فروعا او حواشي هذا هو المشهور عند متاخري الحنابلة .

فالأبوة يدخل فيها كل من ادلى الى الميت عن طريق الاب كالاجداد والجدات وحواشيهم الذين ليس لهم فرض ولا تعصيب مثل ام الاب وجميع العمات والعم لام , وبنات اخوان الميت من غير امه واولاد الاخوات من غير الام وبنات اعمام الميت , وكل من ادلى بواحد من هؤلاء .

اما الاممومة : فكل من يتصل بالميت عن طريق الام من الجد والجدة والحواشي ممن ليس لهم فرض او تعصيب وهم الاخوال وأبو الام والخالات واولاد اخ الميت لامه , وكل من ادلى بواحد من هؤلاء .

والبنوة : هم كل من يتصل بالميت من فروعه وليس لهم فرض او تعصيب الذين بينهم وبين الميت انثى مثل أولاد البنات وبنات الابن وهكذا .

وفي حلة اجتمع اكثر من واحد من جهة واحدة باتصالهم بالميت فايهما سبق حجب الاخر , اما اذا كانو من جهات متفرقة فياخذ , مهما ابتعد عن الميت اذا كان من غير جهة , فياخذ كل واحد منهم حصة من ادلى به كما سبق [1]

فاذا مات شخص عن بنت بنت , وبنت بنت بنت , وبنت بنت بنت عم , هنا يكون النصف لبنت لبنت , فهي تنزل منزلة البنت , وبنت بنت بنت العم تأخذ الباقي فتنزل منزلة العم , ولا شيء لبنت بنت البنت ؛ لأن بنت البنت تحجبها لانها اقرب الى الميت ومن نفس الجهة , علما انها لا تحجب بنت بنت بنت العم لأنها ليست في جهتها.

اما اذا مات عن بنت بنت اخ شقيق وبنت عم شقيق , فهنا بنت العم الشقيق تأخذ المال كله وتحجب بنت بنت الأخ الشقيق ؛ لانها اقرب ومن جهة واحدة الى الميت .

فاذا مات عن بنت بنت و بنت بنت عمة وبنت خال , فيكون الأقرب الى الميت بنت البنت ثم بنت الخال , فهنا ننظر فنجد ان الجهات متعددة , فلا يسقط البعيد بالقريب فياخذ كل واحد حصة من ادلى به الى الميت , فتاخذ بنت البنت النصف كونها نزلت منزلت البنت , والسدس للخال كونه نزل منزلة الام , والسدس لبنت بنت العمة بالفرض , وتاخذ الباقي أيضا بالعصبة لانها نزلت منزلة الأب [2]

المبحث الثاني : بيان اصحاب الفروض والعصبات وتقسيماتهم :

[1] - انظر الفقه الإسلامي وادلته 10 / 494 ,الفرائض , عبد الكريم بن محمد اللاحم , ط1 , وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف
والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية ص 187 .

[2] - انظر المغني لابن قدامة 7 /105 , الروض المربع 1 / 65 .

. المطلب الاول : اصحاب الفروض :

أصحاب الفروض هم الذين ذكرهم الباري عز وجل في كتابه الكريم وذكر انصبائهم

يقول النبي صلى الله عليه وسلم : (ألحِقوا الفرائضَ بأهلِها فما بقي فللاولى رجل ذكر) 1 , المراد بالفرائض هنا الأنصباء المقدرة في كتاب الله تعالى وهي النصف ، ونصفه ، ونصف نصفه ، والثلثان ، ونصفهما ، ونصف نصفهما , والمراد باهلها من يستحقها بنص القرآن) 2.وقد ذكرهم الله تعالى بقوله :

(يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيما حَكِيماً) 3

وقال تعالى :

(وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوَاْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ) 4

وقال تعالى تبشيراً لمن اطاعه بالأخذ بكلامه وفصله , وتحذيراً لمن خالف امره وغير حكمه :

---

[1] - انظر الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم , تأليف: محمد بن فتوح الحميدي , دار النشر / دار ابن حزم - لبنان/ بيروت - 1423هـ - 2002م الطبعة: الثانية تحقيق : د. علي حسين البواب برقم (1007)

[2] - انظر الدراري المضيئة شرح الدرر البهية لمحمد بن علي الشوكاني ترجمة العلامة محمد بن علي بن محمد الشوكاني من أبجد
العلوم للقنوجي رحمه الله ص470

[3] - سورة النساء آية (11)

[4] - سورة النساء آية (12)

(تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ) [1]

وقال تعالى : (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُواْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [2]

اشتملت هذه الآيات على ميراث الأولاد والوالدين والأزواج والزوجات والإخوة الأخوات , وهؤلاء هم أصحاب الفروض

– فميراثُ الأولادِ في قولِه تعالَى: (يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ)

– وميراث الوالدين في قوله تعالى : (وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ)

– وميراث الأزواج في قوله تعالى : (وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ)

– وميراث الزوجة والزوجات في قولِه تعالَى : (وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم)

– وميراث الإخوة من الأم في قوله تعالى : (وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَو امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُواْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ)

– وميراث الإخوة من الأب في قوله تعالى : (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ

[1] - سورة النساء آية (13- 14)
[2] - سورة النساء آية (176)

فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُواْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

والانصباء هي : النصف والربع والثلثان والثلث والسدس والثمن .

المطلب الثاني : العصبات جهاتها وأقسامها :

العصبات لغة : جمع عصبة من العصب وهو الشد والتقوية والاحاطة , ومنه قيل للعمائم عصائب لإحاطتها بالرأس وشدها له , وسميت القرابة عصبة من الإحاطة لانهم يحيطون بالشخص او من الشد والتقوية لانهم يشدون ازره ويمنعونه من التطاول عليه 1

والعاصب، هو من يرث بلا تقدير، فإذا انفرد أخذ جميع المال ، وإن كان معه صاحب فرض أخذ الباقي بعده، وإن استغرقت الفروض التركة سقط ؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فهو لأولى رجل ذكر) 2.

أقسام العصبة :

ثم تنقسم العصبة ثلاثة أقسام عصبة بالنفس، وعصبة بالغير، وعصبة مع الغير.

فالعصبة بالنفس هم:

1 – جميع الذكور الوارثين من الأصول، والفروع، والحواشي، إلا الإخوة من الأم , لانهم يرثون بالفرض لقوله تعالى { فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث} 3

2 – جميع من يرث بالولاء من ذكر أو أنثى، كالمعتق والمعتقة .

والعصبة بالغير : هن البنات، وبنات الابن، والأخوات الشقيقات، والأخوات لأب مع ذكر مماثل لهن درجة ووصفاً، أو أنزل منهن في بنات الابن خاصة ، إذا استغرق من فوقهن الثلثين، فيرث هؤلاء الأربع مع من كن عصبة به ، للذكر مثل حظ الأنثيين .

والعصبة مع الغير : هن الأخوات الشقيقات ، والأخوات لأب مع إناث الفروع ، فتجعل الأخوات الشقيقات بمنزلة الإخوة الأشقاء، والأخوات لأب بمنزلة الإخوة لأب 1

[1] - انظرتحفة الفقهاء للسمرقندي 3 / 376 , تيسير فقه المواريث ص 182
[2] - انظرالجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم , تأليف: محمد بن فتوح الحميدي , دار النشر / دار ابن حزم - لبنان/ بيروت - 1423هـ - 2002م الطبعة: الثانية تحقيق : د. علي حسين البواب برقم (1007)
[3] - سورة النساء آية(12)

جهات العصوبة وترتيب الإرث بها :

جهات العصوبة على القول الراجح خمس ، مجموعة على الترتيب التالي :

بنوة , وابوة , واخوة , وعمومة , وولاء

فالبنوة يدخل فيها الأبناء وأبناؤهم وإن نزلوا بمحض الذكور، وكذا البنات وبنات الابن مع ذكر معصب لهن , والأبوة يدخل فيها الأب وآباؤه وإن علوا بمحض الذكور , والأخوة يدخل فيها الإخوة لغير أم وأبناؤهم وإن نزلوا بمحض الذكور، وكذا الأخوات لغير أم إذا كن عصبة بالغير أو مع الغير , والعمومة يدخل فيها الأعمام لغير أم , وأبناؤهم وإن نزلوا بمحض الذكور , والولاء يدخل فيه المعتق , وعصبته المتعصبون بأنفسهم 2

هذه جهات العصوبة على القول الراجح الذي يجعل الجد أباً.

أما على القول المرجوح الذي لا يجعله أباً فالجهات ست :

البنوة ثم الأبوة ثم الجدودة والإخوة ثم بنو الإخوة ثم العمومة وبنوهم ثم الولاء.

فيقدم في التعصيب الأسبق جهة ، فإن كانوا في جهة واحدة ، قدم الأقرب منزلة ، فإن كانوا في منزلة واحدة ، قدم الأقوى ، وهو من يدلي بالأبوين على الذي يدلي بالأب وحده ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (فما بقي فالأولى رجل ذكر) 3

ولأنه أسبق جهة ، والأب أولى من الجد لأنه أقرب منزلة ، والأخ الشقيق أولى من الأخ لأب لأنه أقوى .

مثال ذلك :

فلو مات شخص عن أب، وابن: فللأب السدس فرضاً، والباقي للابن تعصيباً، ولا تعصيب للأب ؛ لأن جهة البنوة أسبق من جهة الأبوة.

---

[1] - انظر حاشية الجمل على المنهاج 148/11 ,الرسالة للشافعي 1 / 590 , البحر الرائق 20 / 254 , اللباب في شرح الكتاب 1 / 421 .

[2] - انظر حاشية الجمل على المنهاج 148/11 , البحر الرائق 20 / 254 , السراج الوهاج على متن المنهاج للغمراوي ص 330 .

[3] - انظرالجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم , تأليف: محمد بن فتوح الحميدي , دار النشر / دار ابن حزم - لبنان/ بيروت - 1423هـ - 2002م الطبعة: الثانية تحقيق : د. علي حسين البواب برقم (1007)

ولو مات عن زوجة ، وابن ، وابن ابن : فللزوجة الثمن ، والباقي للابن وحده ؛ لأنه أقرب منزلة.

ولو مات عن عم أبيه ، وابن ابن ابن ابن عمه: فالمال لابن العم النازل دون عم الأب ؛ لأن ابن العم يتصل بالميت في الجد وعم أبيه يتصل به في أبي الجد، فابن العم أقرب منزلة.

ولو مات عن أخ لأب، وابن أخ شقيق: فالمال للأخ ؛ لأنه أقرب منزلة ولم نعتبر قوة الثاني ؛ لأن قرب المنزلة مقدم على القوة.

ولو مات عن بنت، وأخت شقيقة ، وأخ لأب: فللبنت النصف والباقي للأخت الشقيقة ؛ لأنها أقوى من الأخ لأب.[1]

المبحث الثالث : اختلاف العلماء في توريث ذوي الارحام وتقسيم التركة عليهم :

المطلب الاول : اختلاف العلماء في توريث ذوي الارحام :

اختلف الفقهاء في توريث ذوي الارحام على مذهبين رئيسيين او هما الأقوى من بين الآراء الأخرى وسوف نقتصر على ذكر هذين المذهبين منعا للاطالة .

المذهب الأول :

ذهب الامام أبو حنيفة والامام احمد رحمهم الله تعالى والشيعة الامامية الى توريثهم وهو رأي عمر وعلي وابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم اجمعين [2] وقد احتج أصحاب هذا المذهب بما يلي :

قوله تعالى (وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ) [3] معنى الآية ان اولوا الارحام بضهم أولى ببعض في كتاب الله وحكم به سبحانه وتعالى , ويشمل هذا كل الاقرباء سواء كانوا ذوي فرض او عصبة ام لا وقد بينت آية المواريث ميراث ذوي الفروض والعصبات , فكان

[1] - انظر الوسيط في المذهب 4 / 129 , تسهيل الفرائض لمحمد بن عثيمين ص 57

[2] - انظر اللباب في الجمع بين السنة والكتاب 2/ 800 , وسائل الشيعة الى تحصيل الشريعة الامام المحقق العلامة الشيخ محمد بن الحسن
الحر العاملي المتوفى سنة 1104 هـ 14 / 358

[3] - سورة الانفال آية(75)

الباقون من ذوي الارحام أولى من غيرهم بالتركة او بما بقي منها 1 , فهؤلاء أولى من بيت المال بالتركة لانهم ترجحو بالقرب وبيت المال فيه أجانب وذو الرحم أولى من الأجانب 2 وقد قال صلى الله عليه وسلم : (فمن ترك ديْناً أو ضيْعة فإليَّ ومن ترك مالاً فلورثته) 3 وهذا عام في جميع الأموال لقوله صلى الله عليه وسلم (ابن اخت القوم منهم) 4

وقوله صلى الله عايه وسلم (من ترك مالا فلورثته , وانا وارث من لا وارث له , اعقل عنه وارثه , والخال وارث من لا وارث له , يعقل عنه ويرثه) 5

وايضاً بدليل الوقائع التي وقعت زمن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة من بعده رضي الله عنهم من توريث ذوي الارحام , ونورد منها :

ان ثابت بن دحداح مات في حياة النبي صلى الله عليه وسلم , وكان ثابت لا يعرف له نسباً , لانه غريب ولا يعرف من هو , فقال صلى الله عليه وسلم : لعاصم بن عدي هل تعرف له فيكم نسباً ؟ قال : لا , يا رسول الله , فدعا ابن اخته أبا لبابة بن عبد المنذر فأعطاه ميراثه . 6

ومنها ان أبا عبيدة بن الجراح كتب الى عمر يسأله عمن يرث سهل بن حنيف حين قتل , ولم يكن له من الأقارب الا الخال , فأجابه عمر بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (الله ورسوله مولى من لا مولى له , والخال وارث من لا وارث له) 7

وجه الاستدلال : ان الخال من ذوي الارحام فيقاس عليه غيره.

وري عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه في رجل مات وترك عماً لإم وأخاً , فأعطى العم الثلثين , وأعطى الخال الثلث 8

---

[1] - انظردليل الطالب لنيل المطالب ص209 , مجمع الأنهر وملتقى الابحر 9 / 405 , الفقه الإسلامي وادلته لوهبة الزحيلي 10/ 492

[2] - انظر مختصر الخرقي 1 / 92 , الفقه الإسلامي وادلته لوهبة الزحيلي 10/ 492

[3] - انظرالجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم ,2 /274 برقم (1608)

[4] - الحديث رواه الترمذي عن احمد وقال حديث حسن انظر الجامع الصحيح سنن الترمذي السلمي ت. 209 – 279 دار إحياء
التراث العربي مراجعة : أحمد محمد شاكر وآخرون بيروت برقم (3062)

[5] - رواه أبو داود وقال حسن صحيح , سنن أبي داود سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي : دار الفكر تحقيق : محمد
محيي الدين عبد الحميد: تعليقات كَمَال يوسُفْ الحوُت والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها برقم (2899) واحمد في مسنده
برقم (17243) وابن ماجة برقم (915)

[6] - انظر الفقه الإسلامي وادلته 10/ 493

[7] - رواه الترمذي 133/15

[8] - رواه سعيد بن منصور في سننه برقم (154) انظر سنن سعيد ص 24 , السنن الكبرى للبيهقي 6 / 216

وقد قضى ابن مسعود فيمن ترك عمة وخالة , بأن للعمة الثلثين وللخالة الثلث [1]

مما تقدم كله يدل على توريث ذوي الارحام وهم الأقارب الذين ليس لهم فرض ولم يكونوا عصابة للميت .

المذهب الثاني :

ذهب مالك والشافعي وابن حزم الظاهري رحمهم الله تعالى الى ان ذوي الارحام لا يرثون , ومعنى هذا انه اذا مات شخص وليس له ذو فرض ولا عصبة ردت التركة الى بيت المال , وهو رأي زيد ابن ثابت رضي الله عنه , وقول سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير [2] رحمهم الله الله تعالى

وقد استدل أصحاب هذا المذهب بما يلي :

1 – ان الله تبارك وتعالى ذكر في آية المواريث نصيب كل من أصحاب الفروض والعصبات , ولم يذكر نصيباً لذوي الارحام شيء , ولو كان لهم حق لبينه , قال تعالى (وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً) [3] وقال صلى الله عليه وسلم : (ان الله اعطى كل ذي حق حقه) [4]

2– اما ما ذكر في توريث العمة والخالة : فقد نص النبي صلى الله عليه وسلم حينما سئل عن ميراث العمة والخالة : (اخبرني جبريل ان لا شيء لهما) [5] فما لم يذكره الله تبارك وتعالى من الانصباء لم يبينه رسوله صلى الله عليه وسلم , بل اخبره جبريل بأن العمة والخالة لا ميراث لهما وهن ذوات رحم , ولان العمة وابنة الأخ لا ترثان مع اخويهما فلا ترثان منفردتين كالاجنبيات , فانضمام الأخ اليهما يقويهما , بدليل ان بنات الابن والاخوات من الاب يعصبهن اخوهن فيما بقي بعد ميراث البنات والاخوات من الابوين , ولا يرثن منفردات

فاذا لم يرثن هاتان مع اخيهما فمع عدمه أولى [6] .

ويرد على ذلك :

---

[1] - انظر السنن الكبرى للبيهقي 6 / 216
[2] - انظر بداية المجتهد ونهاية المقتصد 276/2 , المهذب في فقه الامام الشافعي 3 /238 , حواشي الشرواني 6 / 6 , 392 , المحلى 182/9
[3] - سورة مريم آية (64)
[4] - رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح , انظر سنن الترمذي 4 / 434
[5] - انظر سنن سعيد بن منصور ص 177
[6] - انظر المحلى 8 / 312

بان قولهم ان المواريث تثبت نصاً بان التعليل واجب ما امكن وقد امكن هاهنا فلا يصار الى التعبد المحض .1

اما الحديث الذي تمسكوا به أصحاب المذهب الثاني لا يحتج به , ذلك لانه مرسل 2 ولو صح كان التوفيق بينه وبين ما رواه أصحاب المذهب الثاني أولى , وهو ان نفي الميراث عن العمة والخالة قبل نزول آية الانفال (وَأُوْلُواْ الأرحام بَعْضُهُمْ أولى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ الله إِنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) 3 يعني ان العمة والخالة ليس لهما فرض مقدر , او معناه انه لا يرثن مع صاحب فرض ولا عصبة , حتى في الرد لان الرد على ذي فرض مقدم على توريث ذوي الارحام الا انهم يرثون مع من لا يرد عليه وهما الزوجان 4 .

وهذا يعني ان ذوي الارحام يرثون مع الزوجان وعند عدم صاحب فرض او عصبة , هذا وقد حكي عن شيوخ المذهب المالكي انهم اتفقوا على توريث ذوي الارحام بعد المئتين لعدم انتظام بيت المال [5].

فمن كل ماتقدم نجد ان ذوي الارحام يرثون اذا لم يكن هناك صاحب فرض او عصبة وكذلك بيت مالٍ أو عدم انتظامه , وهذا هو الراجح , فلا يمكن إعطاء المال الى الذي لايستحقه او اضاعته في بيت المال غير المنتظم .

المطلب الثاني : قواعد توريث ذوي الارحام :

بعد ان تبين رجحان مذهب من ورث ذوي الارحام نجد ان الذين قالوا بتوريثهم وضعوا قواعد لتوريثهم على أساسها يأخذ ذوي الارحام ما يستحقون من التركة وهما طريقتان , طريقة اهل القرابة , وطريقة اهل التنزيل

اولاً : طريقة اهل القرابة :

---

[1] - المصد انفسه 8 / 312

[2] - انظر اللباب في الجمع بين السنة والكتاب 803/2

[3] - سورة الانفال آية (57)

[4] - انظر كشف المخدرات والرياض الزاهرات لشرح اخصر المختصرات 1 / 363 , الفقه الإسلامي وادلته 10 /494

[5] - انظر فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الامام مالك , محمد بن احمد عليش 1217 هـ 1299 م , جمع علي بن نايف
الشحود 5/ 334 , مواهب الجليل شرح مختصر خليل 8 / 594 , وسائل الشيعة الى تحصيل الشريعة 15 / 71 , حلي المعاصم
لبت فكر ابن عاصم 2 / 71 .

وهي تعني انه اذا ترك الميت شخصاً واحداً من ذوي الارحام أخذ المال كله , مثال ذلك :

لو مات شخص عن زوج وبنت عم , كان للزوج النصف ولبنت العم الباقي وهو النصف , ومن مات عن زوجة وبنت اخ للزوجة الربع ولبنت الأخ الباقي وهوثلاثة ارباع 4/3 , ولو مات عن خال فقط اخذ المال كله .

ثم ان ذوي الارحام يرثون على هذه الطريقة للذكر مثل حظ الانثيين .

مثال ذلك : فمن مات عن ابن بنت وبنت بنت , يقسم المال اثلاثاً لابن البنت الثلثين ولبنت البنت الثلث , وهذا يسمى التقديم بالجهة : ويعني اذا مات عن عدد من ذوي الارحام وهم من عدة أصناف كما ذكرنا اصنافهم في المبحث الأول , قدم الصنف الأول على الثاني والثاني على الثالث , وهكذا ... كما الترتيب في توريث العصبات , فلا يرث ذوي الارحام في وجود صاحب فرض او عصبة , فإذا رد المال قدم صاحب الفرض والعصبة عليهم [1]

مثال ذلك : من مات عن ام وخال وبنت بنت , يكون المال كله للام , الثلث فرضاً والثلثان بالرد , فلا شيء للخال وبنت البنت .

وكذلك يرث ذوي الارحام بوجود احد الزوجين ,

مثال ذلك : من مات عن زوجة وبنت عم لابوين , تأخذ الزوجة الربع فرضاً والباقي كله لبنت العم الشقيق

فهذه الطريقة يعتبر فيها قرب الجهة – أي القرب من الميت – وهو مذهب ابي حنيفة رحمه الله تعالى , فيجعل الجهات اربعاً بنوة , وابوة , واخوة , وعمومة

فإن كان من الجهة الأولى وارث , لم يرث من الجهة التي بعدها احد , قياساً على الإرث بالتعصيب وتسمى هذه الطريقة ,بطريقة اهل القرابة 2

ثانياً : طريقة اهل التنزيل :

اما التوريث بهذه الطريقة فيكون الاعتبار بالتنزيل , أي ينزل كل واحد من ذوي الارحام منزلة من ادلى به الى الميت ثم يقسم المال بين المدلى بهم , فما صار من مال لكل واحد اخذه ذو

[1] - انظر الدر المختار للحصفكي 386/7
[2] - انظر تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق 438/18 , مجمع الأنهر شرح ملتقى الابحر 4/ 523

الرحم , وهذا هو المشهور من مذهب احمد بن حنبل رحمه الله تعالى 1 , وكذلك الشافعية يعملون في توريث ذوي الارحام بمذهب اهل التنزيل , لانه يقدم الأسبق الى الوارث لا الى الميت لانه بدل عن الوارث , فاعتبار القرب اليه حتى لو كانوا اثنين بنفس القرب , فان كانو يورثون بالعصوبة فللذكر مثل حظ الانثيين او بالفرض على حسب نصيبهم أي فروضهم ويستثني من ذلك أولاد الأخ من الام والاخوال والخالات فلا يقسمون ذلك للذكر مثل حظ الانثيين بل بالسوية فنصيب الذكر مثل نصيب الانثى . 2

المطلب الثالث : مسائل متفرقة في تقسيم التركة على ذوي الارحام :

أولا : طريقة اهل القرابة في توريث ذوي الارحام هي للذكر مثل حظ الأنثيين كما ذكرناها في المطلب الثاني في كلامنا عن قواعد التوريث .

ثانياً : اما طريقة توريث ذوي الرحم عند أهل التنزيل كما سنبينه هنا :

القسم الأول / عند عدم وجود أحد الزوجين فلتوريثهم ثلاث حالات :

الحالة الأولى / أن يكون الموجود منهم شخصٌ واحد فيعطى المال كله كولد البنت له المال كله 0

الحالة الثانية / أن يكونوا جماعةً مدلين بشخص واحد (أي أن الوارثين من ذوي الرحم جماعة لكن سبب إرثهم أو الذي ينزلون منه شخصٌ واحد مثاله 3 أبناء بنت فهم جماعة لكن أدلوا بشخص أي علاقتهم بالميت من جهة هذا الشخص) 0 وهذه الحالة لها صورتان :

الصورة الأولى / أن يستوي إرثهم من الشخص الذي أدلوا به كمن مات عن أربعة أبناء بنت فيقسم على عدد رؤوسهم فالمسألة من أربعة لكل واحدٍ سهم واحد

الصورة الثانية / أن يختلف إرثهم من الشخص الذي أدلوا به كمن مات عن عمة شقيقة (أخت الأب لأبيه وأمه) وعمة لأب (أخت الأب لأبيه) وعمة لأم (أخت الأب لأمه) فهن مدلياتٍ للميت من جهة أبيه لكن ميراثهن من أبيه يختلف ، ففي هذه الحالة يجعل لهم مسألة كإرثهم من الشخص الذي أدلوا به وهو هنا (الأب) ويقسم عليهم المال (مال الميت) كما يقسم عليهم مال الشخص الذي أدلوا به وهو هنا (الأب).

الحالة الثالثة / أن يكونوا جماعة مدلين بجماعة ولهذه الحالة صورتين :

---

[1] - انظر المغني في فقه الامام احمد بن حنبل 86/7 , مطالب الي النهى شرح غاية المنتهى 13 / 397 .

[2] - انظر اسنى المطالب 13/ 293,الاقناع للشربيني ص**77** , الوجيز ص179 , حاشيتان قليوبي وعميرة 10 / 200 , حاشية البجيرمي على المنهاج 11 / 33 .

الصورة الأولى / أن يستوي إرث كل جماعة من الشخص الذي أدلوا به ، فيقسم المال على الجماعة المدلى بهم فما صار لكل واحد أخذه من أدلوا به.

مثال / مات عن ثلاث بنات بنت وثلاث بنات بنت ابن

	4/6	12=4×3
3بنات بنت	3	9=3×3
3بنات بنت ابن	1	3=3×1

طريقة الحل / نعطي بنات البنت ميراث البنت لانهن ادلين بها , وهي تأخذ النصف .
ونعطي بنات بنت الابن ميراث بنت الابن لانهن ادلين بها , وهنا تأخذ السدس , فتكون المسألة من ستة ويكون النصف لبنات البنت ونصفها ثلاثة ولبنات بنت الابن واحد وهو السدس من ستة , فهنا ترد المسالة الى أربعة
نقوم بتصحيح المسالة , فنضرب رؤس بنات الابن في اصل المسالة , ثم سهام جميع الورثة في الناتج كاتالي
4ـــ6
5بنات بنت لهن 3 ضرب 5 = 15
1 خال 1 ضرب 5 = 5
المثال الثاني :
مات شخص عن خمس بنات بنت وخال :
يكون لبنات البنت النصف وهو نصيب البنت , وللخال السدس وهو نصيب الام فتكون المسالة كسابقتها .
هذه الصورة الأولى
اما الصورة الثانية : مات رجل عن عمة شقيقة وعمة لام وخالة شقيقة وخالة لام وأربعة أولاد بنت .
الحل :
هنا نذكر ان ارث العمة الشقيقة يختلف عن ارث العمة لام وكذلك ارث الخالة الشقيقة عن ارث الخالة لام ,
في البداية نفصل مسالة المدلى بهم فتكون من ستة
فيكون النصف للبنات وهوثلاثة وللام السدس وهو واحد والباقي للاب وهو اثنان
ثم ثم نفصل مسالة العمات من ستة
العمة الشقيقة لها النصف وهو ثلاثة ,لانها تنزل منزلة الأخت الشقيقة للاب والعمة لام السدس وهو واحد , لانها تنزل منزلة اخت الاب لامه , هنا نصحح المرد بضرب سهم كل من ادلى في عدد رؤس أولاد البنات فكانت

العمات 8

الخالات 4

أولاد البنت 3

ثم نضرب كل كل سهم من السهام في عدد رؤس الأولاد 2 ضرب 4 = 8

1 ضرب 4 = 4

3 ضرب 4 = 12

فيكون الناتج بضرب حصة كل من العمات والخالات في حصة من ادلى بهن

العمات 2ضرب 3 =6 للعمة الشقيقة

2 ضرب 1 = 2 للعامة لام

الخالة 1 ضرب 3 = 3 للخالة الشقيقة

1 ضرب 1 = 1 للخالة لام

أولاد البنات 12 فيكون اصل المسالة 24

الحالة الثالثة :

ان يكون مع احد الزوجين جماعة مدلين بشخص واحد لكن يختلف ارثهم عنه :

مثال : مات رجل عن زوجين وخال شقيق وخال لام , فهنا كل من الخالين مدلين بالام لكن يختلف ارثهم منها :

الحل : المسالة من 4 فيكون نصيب الزوجين الربع 1 والباقي للخال الشقيق والخال لام 3 , المجموع 4 , نضرب 4 في عدد رؤس الزوجات 2 = 8 وهو اصل مسالة الزوجية فكان للزوجين 2 والباقي للخال الشقيق والخال لام 6 مجموع سهامهم ونظرنا الى سهام ذوي الارحام واصل مسالتهم فوجدناها منقسمة 6÷6 = 1

فضربنا الناتج في اصل مسالة الزوجين 1 في 8 = 8

فكان الربع للزوجات وهو 2 والثمن للخالة لام 1 والباقي للخال الشقيق 5

الحالة الرابعة :

ان يكون الموجود مع احد الزوجين جماعة مدلين بجماعة مع ان ارث كل جماعة متساوي من الشخص الذي ادلوا به

مثال : مات شخص عن اربع زوجات وعمين شقيقين وخالين شقيقين .

الحل : اصلنا المسالة من 4 للزوجات 1 وهو الربع والعمات والخالات 3 ثم صححنا المسالة على عدد رؤس الزوجات فكان 4 في 4 = 16 للزوجات 4 وللعمات والخالات 12

اما ذوي الارحام فوجدنا مسالتهم منقسمة 12 ÷ 6 = 2 فضربنا سهام ذوي الارحام في اصل مسالتهم

2ضرب 4 = 8 وهي حصة الاب

فكانت المسالة من 16 , 4 للزوجات , 8 للعمتين , 4 للخالتين .

الحالة الخامسة :

ان يكون ذوي الارحام جماعة مع احد الزوجين مدلون بجماعة مع اختلاف ارث كل جماعة من الشخص الذي ادلوا به .

مثال : مات شخص عن زوج وعمة لاب وعمتان لام وخالة شقيقة وخالة لام .

الحل : نجعل فرض الزوج وله النصف والباقي لذي الرحم ,

فكانت المسالة من 2 فكان النصف للزوج وهو 1 والباقي لذوي الرحم وهو 1

اما المدلى بهم هم الاب والام فكان للاب 2 وللام 1 فكان المجموع 3 نضرب 2 في 3 = 6 وجعلناها اصل المسالة

فكان للزوج 3 وللاب 2 وللام 1 , اما العمات فكان نصيب العمة للاب 3 والعمتان لام 1 .

هذا والله اعلى واعلم واعز واكرم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الخاتمة

الحمد لله الذي لايحمد بعد إتمام كل امر الا إياه واصلي واسلم على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين وبعد.....

في نهاية هذا البحث لامناص لنا الا ان نورد بعض اهم ما تم التوصل اليه من نتائج وكما يلي :

1- ان ذوي الارحام هم كل قرابة من الميت لايرث بفرض ولا تعصيب فنجدهم ينحصرون في أربعة أصناف ,

الأول : منها من كان من فروع الميت الذين يدلون اليه بواسطة انثى , الثاني : من كان من أصول الميت

الذين يتوصلون به بواسطة انثى سواء كانو رجالا ام نساءاً الثالث : من كان من فروع ابوي الميت الرابع :

من كان من فروع احد اجداد الميت او جداته الذين ليسو باصحاب فروض ولا عصبة وسواء كانوا قريبين

ام بعيدين.

2- ان ذوي الارحام مرتبون بالارث عند العلماء كترتيب العصبات , فلا يرث الصنف الثاني قبل الأول ولا

الثالث قبل الثاني وهكذا .

3- ان ميراثهم يختلف باختلاف احوالهم , ومعنى احوالهم أي احوالهم عند موت المورث فقد يكون دو رحم واحد

فيحوز المال كله , اويكونوا اثنين فاكثر والمدلى به واحداً فلهم جميع المال ايضاً لان المدلى به واحد فهو

اما عاصب او صاحب فرض , اما اذا كانوا كثيرون والمدلى بهم كثيرون فيكون المال بحسب حال من

ادلوا بهم .

4- ان جهاتهم ثلاث ابوة وامومة وبنوة .

5- والعصبات ثلاثة اقسام . عصوبة بالنفس , وعصوبة بالغير , وعصوبة مع الغير .

6- ان جهات العصوبة خمسة وهي بنوة وابوة واخوة وعمومة وولاء .

7- ان ذوي الارحام يستحقون التركة بعد الميت اذا لم يكن هناك صاحب فرض ولاعصبة وهو الراجح من اقوال

العلماء , اما كون المال يرد الى بيت المال فلا يترجح لان بيت المال لم يعد منتظماً في هذا الزمان .

8- لتوريث ذوي الارحام طريقتيسن هما طريقة اهل القرابة , ومعناه انهم يأخذون للذكر مثل حظ الانثيين ويكون

الأقرب فالاقرب للميت , وطريقة اهل التنزيل ومعناه ان ذوي الرحم ينزل منزلة من ادلى به أي من اتصل

به الى الميت .

9- ذكرت بض المسائل في كيفية تقسيم التركة على ذوي الارحام , سائلين الله تبارك وتعالى ان يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وان يثقل به موازيننا يوم الدين انه نعم المولى ونعم المجيب .

Conlusion

Thanks to Allah Who is blessed , and peace upon His messenger Who has sent as a mercy to the world , our master Mohammad God's blessing And peace be upon him . At the end of this reseach it is unavoidable to mention the following results :

1- the relatives are each one relative to the dead doesnot inherit imposition or kinsfolkship , they are of four kinds , the first : who is one of the dead branch indicates to him by the female , the second who is kin to the dead as ancestry of a woman , men or women, the third who is a branch of the dead parents , the fourth who is an ancestry of one of the dead grandfathers or grandmothess , who is not imposition or has blood relationship either us a kin or not.
2- The kinsfolk are 0rdered by inheritance , according to the scholars , as their order , so the second kin doesnot inherit before the first , and the third doesnot inherit before the second and so on .

3- Their inheritance (the devisees) is become different according to their condition we mean by condition or position to the dead devison that he is the single devisee , so he gets the whole money , or they might be two devisees or more and the indicantor is only one , so they get the whole money , because the indicator is one , therefore , he is either imposition or has blood relationship , but if they are many and the indicators are many too , the money will be divided according to their indication.

4- Their sides are three , fatherhood , motherhood and sonship

5- The kinships are three , soul kinship , kinship to others , kinship with others .

6-The sides of kinships are five , fatherhood , sonship , brotherhood , uncleship and loyality .

7- The relatives deserve the patrimony aftar the dead if there is no imposition or kinship , is the out weighing according to the scholars , as the money returned to the treasury isnot the predominant concept , because the exchquer is not exist in our days .

8- in 0rder to boquest the relatives , there are two methods , the method of the family of relatives , it means that the male shall have the same potion as that of two females , and the closest then the closer to the dead , the second method is the kinsfolk of descendant , thus the relative is as the same order of the indicator , in other words his relationship to the dead .
9- I have mentioned some of the methods of distributing the bequest among the relatives , and I am asking Allah be He blessed to consider this research , and to add weight to our scales at the Day of Resurrection , so H is the best Responder .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

1- تاج اللغة وصحاح العربية , إسماعيل بن حماد الجوهري , تحقيق : احمد عبد الغفور عطار , دار العلم للملايين – بيروت – لبنان –ط1 – القاهرة 1376 هـ 1956 م

2- المعجم الوسيط ـ, إبراهيم مصطفى ـ أحمد الزيات ـ حامد عبد القادر ـ محمد النجار, دار الدعوة ,تحقيق / مجمع اللغة العربية

3- الجامع للشرايع , يحيى بن سعيد الحلي مؤسسة سيد الشهداء العلمية نام كتاب 601 – 690 تحقيق جمع من العلماء باشراف الشيخ جعفر السبحاني 1405 قم

4- الفرائض , عبد الكريم بن محمد اللاحم , ط1 , وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ـ المملكة العربية السعودية

5- الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم , تأليف: محمد بن فتوح الحميدي , دار النشر / دار ابن حزم - لبنان/ بيروت - 1423هـ - 2002م الطبعة: الثانية تحقيق : د. علي حسين البواب

6- الدراري المضيئة شرح الدرر البهية لمحمد بن علي الشوكاني ترجمة العلامة محمد بن علي بن محمد الشوكاني من أبجد العلوم للقنوجي رحمه

7- وسائل الشيعة الى تحصيل الشريعة الامام المحقق العلامة الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي المتوفى سنة 1104 هـ

8- الجامع الصحيح سنن الترمذي السلمي ت. 209 – 279 دار إحياء التراث العربي مراجعة : أحمد محمد شاكر وآخرون بيروت

9- سنن أبي داود سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي : دار الفكر تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد: تعليقات كَمَال يوسُفْ الحوُت والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها

10- فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الامام مالك , محمد بن احمد عليش 1217 هـ 1299 م , جمع علي بن نايف الشحود

11- سنن بن ماجة , الحافظ محمد بن يزيد القزويني ت275 هـ , تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي دار الكتب العلمية – بيروت

12- السنن الكبرى , احمد بن الحسين البيهقي ت 861هـ تحقيق محمد عبد القادر عطا مكتبة دار الباز مكة المكرمة 1414هـ 1994

13- الشرح الممتع على زاد المستقنع , محمد بن صالح بن محمد العثيمين ت1421هـ اختصار المقنع تأليف ابي النجا موسى بن احمد بن موسى الحجاوي

14- الشي المرقوم في بيان أحوال العلوم صديق بن حسن القنوجي , دار الكتب , بيروت 1988 , تحقيق عبد الجبار زكريا

15- الفقه الإسلامي وادلته أ. د. وهبة الزحيلي أستاذ ورئيس قسم الفقه واصوله في جامعة دمشق كلية الشريعة , دار الفكر , دمشق , سوريا .

16- اللباب في شرح الكتاب – عبد الغني الغنيمي الدمشقي الميراني – تحقيق محمد امين النواوي , دار الكتاب العربي

17- مجمع الأنهر شرح ملتقى الابحر عبدالرحمن بن محمد بن سليمان الكليبولي المدعو شيخي زادة ت1078هـ تحقيق خليل عمران المنصور – دار الكتب العلمية بيروت 1419-1998

18- المحلى أبو علي محمد بن علي بن احمد بن حزم ت456 هـ مطبعة السعادة ط1 مصر

19- مسند الامام احمد بن حنبل الشيباني ت 241هـ دار الفكر مؤسسة قرطبة – مصر

20- المهذب في فقه الشافعي أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي ت 476هـ دار الفكر – بيروت

21- مواهب الجليل شرح مختصر خليل , شمس الدين أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبد الرحمن الطرابلسي المغربي المعروف بالحطاب الرعيني ت954هـ دار عالم الكتب طخاصة 1423هـ 2003م بيروت لبنان

22- الاقناع في حل الفاظ ابي شجاع شمس الدين محمد بن احمد الخطيب الشربيني – تحقيق علي محمد معوض والشيخ عادل احمد عبد الموجود – دار الكتب العلمية بيروت

23- بداية المجتهد ونهاية المقتصد محمد بن احمد بن رشد القرطبي أبو الوليد دار الفكر بيروت

24- تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق , عثمان بن علي الزيلعي ت743هـ دار الكتب العلمية بيروت – ط1 2000م

25- تهذيب اللغة , أبو منصور محمد بن احمد الازهري – دار احياء التراث العربي –بيروت ط1 , تحقيق محمد عوض مرعب

26- الجواهر النيرة شرح مختصر القدوري في فروع الحنفية , أبو بكر بن علي بن محمد الحداد الزبيدي

27- حاشية الجمل على المهاج شيخ الإسلام زكريا الانصاري – العلامة الشيخ سليمان الجمل دار الفكر بيروت

28- الدر المختار شرح تنوير الابصار في فقه مذهب الامام ابي حنيفة النعمان – تحقيق محمد امين الشهير بابن عابدين طبعة جديدة اشراف مكتب البحوث والدراسات – دار الفكر – بيروت لبنان

29 – التلقين , عبدالوهاب بن علي بن نصر التغلبي المالكي أبو محمد , ت 362هـ , تحقيق محمد ثالث سعيد الغاني , المكتبة التجارية مكة المكرمة ط1 1415هـ

30- الذخيرة في الفقه المالكي , شهاب الدين احمد بن ادريس القرافي بلا ت

31- حاشية البناني على جمع الجوامع , للتاج السبكي بلا ت

32- حاشية الصاوي على الشرح الصغير بلا ت

33- تحفة الفقهاء لعلاء الدين السمرقندي ت 539 ه دار الكتب العلمية بيروت – لبنان , ط2 , 1414 هـ /1994 م

34- الرسالة , محمد بن ادريس الشافعي , تحقيق احمد شاكر , مكتبة مصطفى البابي الحلبي , ط 1 , 1358 - 1940

35- السراج الوهاج على متن المنهاج , العلامة محمد الزهري الغمراوي , دار المعرفة

36- الوسيط في المذهب , حجة الإسلام الامام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ,ت 505 هـ تحقيق علي القرة داغي ط1 1404 ,دار السلام بلا ت

37- معونة اولي النهى شرح المنتهى (ت بن دهيش)محمد بن احمد بن عبدالعزيز بن علي الفتوحي تقي الدين بن النجار تحقيق عبدالملك بن عبدالله بن دهيش , مكتبة الاسدي , ط5

38- شرح منتهى الارادات (ت . التركي) منصور بن يونس بن ادريس البهوتي , ط 1 بلا ت , تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي

39- الروض المربع بشرح زاد المستقنع ,الشيخ منصور بن يونس البهوتي ت 1051 هـ تحقيق سعيد محمد اللحام

40- حلي المعاصم لبت فكر ابن عاصم , أبو عبد الله محمد الثاوي شرح تحفة الحاكم

41- تغليق التعليق , احمد بن علي بن حجر أبو الفضل الحافظ العسقلاني

42- حاشية البجيرمي على المنهاج , التجريد لنفع العبيد سليمان البجيرمي , دار النشر مصطفى الباب الحلبي 1345

43- حاشية قليوبي وعميرة على شرح المحلى على منهاج الطالبين , الناشر مصطفى الباب الحلبي 1375 – 1955 , ط 3

44- حواشي الشرواني والعبادي , عبدالحميد الشرواني والشيخ احمد بن قاسم العبادي على تحفة المحتاج لاحمد حجر الهيتمي

45- الانصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الامام احمد بن حنبل , علي بن سليمان المرداوي ت 885هـ , تحقيق محمد حامد الفقي , دار احياء التراث العربي بلا ت .

46- دليل الطالب لنيل المطالب , مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي ت هـ 1033 , تحقيق أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي , دار طيبة للنشر والتوزيع , الرياض ط1 , 1425 – 2004

47- كشف المخدرات والرياض الزاهرات لشرح اخصر المختصرات , احمد بن عبدالله الحلبي البعلي , دار النبلاء للنشر

48- مختصر الخرقي على مذهب الامام ابي عبدالله احمد بن حنبل الشيباني, أبي القاسم عمر بن الحسين بن عبدالله الخرقي , تعليق ابي حذيفة أبراهيم بن محمد , دار الصحابة للترث , ط 1 , 1413 - 1993

49- مطالب الي النهى في شرح غاية المنتهى وتجريد الزوائد الغاية والشرح , مصطفى السيوطي الرحيباني – حسن الشطي , الناشر المكتب الاسلامي لسنة 1381 – 1961 , ط 1 .

أثر السّياق في توجيه القراءات القرآنيّة عند أبي عليّ الفارسيّ

أ.م.د. أحمد عبدالله ظاهر
كلية الآداب / جامعة واسط

مدخل :

ويقصد بالسّياق في علم اللغة الحديث : ما ((جرى في إطاره التّفاهم بين شخصين ، ويشمل ذلك زمن المحادثة ومكانها ، والعلاقة بين المتحادثين ، والقيم المشتركة بينهما ،والكلام السّابق للمحادثة))[1] ، أو هو ((الظروف المتعلقة بالمقام الذي تنطوي فيه الكلمة أو بتعبير آخر دراسة الكلام في المحيط الذي يقع فيه ويشمل : السّياق الخارجي ـ الظروف المحيطة بالحدث الكلامي ـ))[2] .

وعلى الرّغم من ورود لفظ السّياق في التّراث العربي بهذه الصّيغة ، وبصيغ أخرى سواء أكان وروده عند اللغويين أو البلاغيين أو المفسرين أو الأصوليين ، أم لم يكن وروده عندهم إلا أنّ ذلك الورود لم يعتدّ به مصطلحاً قائماً في العلوم المشار إليها بدليل أنّه لم يوضع له تعريف معين ، ولم يجر له في كتب الاصطلاح ذكر[3].

وفكرة السّياق ((هي المركز الذي يدور حوله علم الدّلالة الوصفيّة في الوقت الحاضر ، وهو الأساس الذي ينبني عليه الشّق أو الوجه الاجتماعي من وجوه المعنى))[4] .

ويرى أولمان أنّ نظرية السّياق إذا طبقت بحكمة فإنّها تمثل حجر الأساس في علم المعنى وقد أدت إلى نتائج باهرة في طرق التّحليل الأدبي ، ومكّنت الدّراسة التّأريخيّة للمعنى من الاستناد إلى أسس حديثة أكثر ثباتاً . وأنّها قدمت لنا وسائل فنيّة حديثة لتحديد معاني الكلمات[5] .

والذي يؤيّد النّظريّة السّياقيّة الحديثة أنّ العناصر النّحويّة لا تسهم في الوصول إلى المعنى بمعزل عن العناصر الدّلاليّة فكما يمدّ العنصر النّحوي العنصر الدّلالي بالمعنى الأساس في الجملة ، يمدّ العنصر الدّلالي العنصر النّحوي كذلك ببعض الجوانب التي تساعد على تحديده وتمييزه فبين الجانبين أخذ وعطاء ، وتبادل تأثير مستمر فلا يمكن بحال نكران تأثير دلالة سياق النّص اللغوي وسياق الموقف الملابس له على العناصر النّحويّة من حيث الذّكر والحذف ، والتّقديم والتّأخير . ولا يُنكر أنّ دلالة السّياق تجعل الجملة ذات الهيئة التّركيبيّة الواحدة بمفرداتها نفسها إذا قيلت بنصها في مواقف مختلفة ، تختلف باختلاف السّياق الذي ترد فيه مهما كانت بساطة هذه الجملة[6] .

ويمكن أن نبيّن اعتماد أبي عليّ على السّياق في توجيه القراءات القرآنيّة في الآتي :

1 . دلالة السّياق على المحذوف

الحذف من الظواهر اللغويّة المشتركة في جميع اللغات[7] ، وقد أطلق عليه النّحويون القدماء تسميات مختلفة[8] منها : الاتساع ، والاختصار والإيجاز ، والاختزال ، والإضمار ، والتّصرف في تأليف الكلام .

وقد عني التحويليون بدراسة هذه الظاهرة ووضعوا لها الأحكام والقواعد ، ودراستهم لها تتشابه في جوهرها ـ وإن اختلفت في الشّكل ـ مع دراسة النحويين العرب[9] ؛ لأنّ ((هناك أصولاً مشتركة بين المنهجين أهمها وضع اعتبار للأساس العقليّ عند دراسة الصيغ والتراكيب اللغويّة))[10] ، ويمكن بيان دلالة السّياق على المحذوف عند أبي عليّ في المحاور الآتية :

أ . حذف المسند إليه (الفاعل)

فسّر أبو عليّ قراءة تشديد الميم في قوله تعالى : ﴿ إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾[11] بأنّ في (نعم) ضمير (الفاعل) و(ما) في موضع نصب ، وهي تفسير الفاعل المضمر قبل الذّكر ، والتّقدير : نعم شيئاً إبداؤها ، فالإبداءُ : هو المخصوص بالمدح إلا أنّ المضاف حُذف ، وأُقيم المضاف إليه الذي هو ضمير الصّدقات مقامه، فالمخصوص بالمدح هو الإبداء بالصّدقات لا الصّدقات ، واستدلّ على ذلك بالسّياق القرآني : ﴿ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ ﴾[12] أي الإخفاء خير لكم ، ((فكما أنّ (هو) ضمير (الإخفاء) ، وليس بالصّدقات ، كذلك ينبغي أن يكون ضمير (الإبداء) مراداً))[13] .

واتفق الزّمخشري وأبو حيّان مع أبي عليّ على هذا التّوجيه ، إذ التّقدير عندهما : أنّ (ما) في (نِعمّا) نكرة غير موصولة ولا موصوفة ، والمعنى : فنعمَ شيئاً إبداؤها[14] .

ب) حذف المسند إليه (المبتدأ)

وجّه أبو عليّ قراءة عاصم وحمزة برفع (الحقّ)[15] في قوله تعالى : ﴿ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴾[16] بأنّ الرفع يحتمل وجهين : الأوّل : أن يكون (الحق) خبر لمبتدأ محذوف والتّقدير : أنا الحق ، واستدلّ على هذا الوجه بسياق النّص القرآني الوارد في سورة الأنعام :﴿ ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ ﴾[17] فقال : ((فكما جاز وصفه سبحانه بالحق كذلك يجوز أن يكون خبراً في قوله : أنا الحقُّ))[18] ، والثّاني : أن يكون الحقُّ خبراً لمبتدأ محذوف والتّقدير : فالحقُّ منّي ، واستدلّ على ذلك بسياق النّص القرآني الوارد في سورة البقرة : ﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾[19].

وقدّر مبتدأً محذوفاً في قراءة فتح همزة (إنّ) بعد الفاء في قوله تعالى : ﴿ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[20] ؛ لأنّ المعنى عنده : فأمرُهُ أنّهُ غفورٌ رحيمٌ[21] ، وحمل على هذا التّقدير قراءة فتح همزة (إنّ) بعد الفاء في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ﴾[22] ، إذ التّقدير فيها : فأمرُهُ أنّ له نار جهنّم[23] ، وأجاز في هاتين الآيتين وجهاً آخر ، وهو أن يكون المصدر المؤول من (أنّ) وصلتها مبتدأ خبره محذوف ، والتقدير : فلهُ أنّهُ غفورٌ رحيمٌ ، ولهُ أنّ لهُ نارَ جهنَّمَ[24] .

يتضح ممّا تقدم أنّ أبا عليّ كان يعتمد على سياق النّصوص القرآنيّة في توجيه الآيات ، إذ إنّه يربط بين سياق الآيات المتصلة في سورة واحدة ، وسياق الآيات المماثلة لها في المعنى في سور أخرى .

ج . حذف جواب الجزاء

اهتم أبو علي بالسّياق الاجتماعي (غير اللغوي) بأخذه بنظر الاهتمام حال المخاطب أو علمه أو تنوعات حاله أو شخصيته ، وخير مصداق على ذلك ما ذكره في حذف جواب الجزاء عند وجود دليل يدل على المحذوف في سياق الكلام ،إذ يرى أنّ الحذف في هذه المواضع يتم لدلالة الكلام على المحذوف ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾[25] إذ قال : ((ومن قرأ (أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ) فإنّما هي (إن) التي للجزاء دخلت عليها ألف الاستفهام ، والمعنى : أإن تشاءمتم ؛ لأنّ (تَطَيَّرْنَا بِكُم) معناه : تشاءمنا بكم ، فكأنّهم قالوا : أإن ذُكِّرتُم تَشَاءَمتُم ! فحذف الجواب لتقدم ما يدلّ عليه))[26] . وقد سبقه إلى ذلك الخليل عندما قال : ((إنّ العرب قد تترك في مثل هذا الخبر في كلامهم ؛ لعلم المخبر لأيّ شيء وُضع الكلام))[27] .

ويرى أبو البركات الأنباريّ أنّ حذف جواب الجزاء في هذا الموضع أبلغ في المعنى من إظهاره ؛ لأنّ الرّجل لو قال لغلامه : (واللهِ لئن قمتُ إليك) وسكت عن الجواب لذهب فكر الغلام إلى أنواع من العقوبة والمكروه من القتل والضّرب والكسر ، فإذا تمثّلت في فكره أنواع العقوبات وتكاثرت عظمت الحال في نفسه ، ولم يعلم أيّها يتقي ، فكان أبلغ في ردعه وزجره عمّا يكره منه . ولو قال له : (واللهِ لَئِن قُمْتُ إليكَ لأضربَنَّكَ) وأظهر الجواب لم يذهب فكر

الغلام إلى أنواع من المكروه سوى الضرب ، فكان ذلك دون حذف الجواب في نفسه ؛ لأنّه قد وطّن له نفسه فيسهل ذلك عليه[28] .

وأشار أبو عليّ إلى أنّ جواب (أمّا) لا يحذف في حال السّعة والاختيار ، وجواب (إن) قد يحذف مع وجود الدّليل عليه في الكلام ، إلا أنّ (أمّا) وجوابها استغني بهما عن جواب الجزاء في قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۞ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾[29] كما استغني عن جواب الجزاء في قولهم : (أَنْتَ ظَالِمٌ) ، عن جواب : إنْ فَعَلْتَ[30] .

ومثّل لسد الفاء ، وما هو جواب له ، مسدّ الجوابين : قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾[31] فقوله : ﴿ لَعَذَّبْنَا ﴾ قد سدّ مسد الجوابين كما كان الجواب في الآية السّالفة[32] .

وبهذا حكّم أبو عليّ السّياق في الدّلالة على جواب الجزاء المحذوف ، أو في الإشارة إلى ما يسدّ مسده .

د . حذف المصدر وإقامة صفته مقامه

استدلّ أبو عليّ على جواز حذف المصدر وإقامة صفته مقامه بقوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ [33] ؛ لأنّ المعنى عنده الذين مكروا المكرات السيئات ، إلا أنّه عندما أضاف إلى السيئ قدّر الصّفة وصفاً لشيء غير المكر ، كما أنّ من قال : دار الآخرة ، وجانب الغربي قدّره كذلك فحذف المصدر من قوله : المكرات السيئات ، وأقام صفته مقامه فوقعت الإضافة إليه كما كانت تقع على موصوفه[34] . واحتج لهذا التّقدير بقوله تعالى : ﴿ اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾[35] ، وحجته في هذا التقدير ذيل الآية ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ فكما أنّ السيئ صفة للمصدر ، كذلك الذي قبل[36] . وبهذا استدلّ أبو عليّ بسياق النّص اللاحق للدلالة على المحذوف من سياق النّص السّابق .

هـ . حذف الجملة المعادلة لـ (أم)

احتج أبو عليّ على حذف الجملة المعادلة لـ (أم) بقوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ ﴾ [37] ، وقد سبقه إلى ذلك الفرّاء الذي يرى أنّ جواب (أمّن هو) مضمر قد جرى معناه في أوّل الكلمة ، إذ ذكر الضّال ثم المهتدي بالاستفهام فهو دليل على أنّه يريد ، أهذا مثل هذا أم هذا[38] .

واحتمل أبو عليّ في هذه الآية المعنى : الجاحد الكافر بربه خير أم الذي هو قانت ، بجعل (مَن) موصولة وليس استفهام[39] . ودلّ على الجملة المحذوفة المعادلة لـ (أم) بما جاء بعده من قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾[40] ، ودلّ عليها بما قبلُ من قوله تعالى :﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾[41] . ومثّل لحذف الجملة المعادلة لـ (أم) والمستدل عليها من فحوى الكلام بقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ۞ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴾[42] إذ المعنى عنده : أمفقودون هم أم زاغت عنهم الأبصار[43] .

ورأى أنّ هذا النّوع من الحذف يتم لعلم المخاطب ؛ لأنّ سياق الكلام الذي ورد فيه الحذف سياق ذو طاقة لغويّة تعبيريّة ، فلو نُطق بالمحذوف ؛ لذهبت طاقته التّعبيريّة ، وسقط سياقه وفاعليته ، إذ إنّ الكلام يُغني عن ذكر المحذوف لتمام المعنى .

2. الحمل على المعنى

والمقصود به : حمل اللغة العربية بعضها على بعض بنيةً وتركيباً ودلالةً وإعراباً ووظيفة نحويّة ، وإلحاق بعضها ببعض ، وإعطاؤه حكمه ودلالته أو بنيته وإعرابه وغير ذلك[44] ، وقد تنبّه علماء اللغة القدماء إلى هذا النّوع من العدول إذ عدّه أبو عبيدة أحد أشكال المجاز في القرآن الكريم[45] ، وأدخله ابن قتيبة في باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه[46] ، أمّا ابن جنّي فيرى أنّه من شجاعة العربيّة ، وقد أسماه في موضع آخر الحمل على المعنى[47] .

وقد أطلق عليه المحدثون تسميات مختلفة فقد أسماه الدكتور أحمد مطلوب مخالفة مقتضى الظاهر[48] ، وأطلق عليه الدكتور عبد السلام المسدي مصطلحات متعددة منها : المخالفة ، والإنزياح ، والانحراف ، والانتهاك ، وهو يعني به : انحراف عن نموذج من الكلام ينتمي إليه سياقيّاً[49] ، ومن مواضع الحمل على المعنى عند أبي عليّ :

أ . الحمل على التّذكير أو التّأنيث

ومن أمثلة ذلك ما ذكره في توجيه قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا مّا في بُطونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكورِنَا ﴾[50] أشار أبو عليّ إلى أنّ (خالصة) تكون للذكر وغيره ، واستدلّ على ذلك بقوله تعالى : ﴿ أخلصناهم بِخَالِصَةٍ ذكرى الدار ﴾[51] ؛ لأنّها إذا أضيفت إلى ذكرى ، اختصت الخالصة بهذه الإضافة ، فتكون الإضافة إلى المفعول به ، أي (أخلصوا ذكرها والخوف منها لله)، وإن أضيفت (الخالصة) إلى الفاعل كان التقدير (أخلصت لهم ذكرى الدار) ، والدار في هذين التّوجيهين تحتمل الآخرة والدّنيا[52] ، أما في سورة الأنعام فأجاز في (خالصة) وجهين إعرابيين :الأول : أن تكون مصدراً كالعافية والعاقبة، والثاني : أن تكون وصفاً ، وكلا الوجهين محتمل للآية ؛ لأنّه يجوز أن يكون المعنى : (ما في بطون هذه الأنعام ذاتَ خلوصٍ) ، ويجوز أن يكون المعنى على الصفة لكنّه أنّث على المعنى ؛ لأنّه كثرة ، والمراد به : الأجنة ، والمضامين ،فيكون التأنيث على هذا[53] . واتفق أبو حيّان مع أبي عليّ في هذين الوجهين الإعرابيين ، لكنّه رجح الوجه الثّاني[54] .

والملاحظ في توجيه أبي عليّ أنّه ربط سياق الآية في سورة (الأنعام) بسياق الآية في سورة (ص) ، واعتمد في تعدد الأوجه الإعرابية على المعنى الذي يحتمله النّص القرآنيّ .

ومن مواضع الحمل على المعنى أيضاً ما ذكره في اختلاف القرّاء في إسناد الفعل إلى المذكر أو المؤنث في قوله تعالى : ﴿ إلا أنْ يَكُونَ مِيْتَةً ﴾[55] ، إذ قرأ ابن كثير ﴿ إلا أنْ يَكُونَ ﴾ بالياء ، ﴿ مِيْتَة ﴾ بالرفع ، وقرأ ابن عامر بالتّاء ﴿ إلا أنْ تَكُونَ ﴾ بالتّاء ، ﴿ مِيْتَة ﴾ بالرفع ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿ وإنْ تَكُنْ ﴾ بالتّاء (ميتة) رفعاً ، وروى حفص عنه (ميتة) نصباً ، وقرأ نافع ، وأبو عمر ، وعاصم ، والكسائي ﴿ إلا أنْ يَكُونَ ﴾ بالياء ، ﴿ مِيْتَةً ﴾ بالنّصب[56] ، وقد وجّه أبو عليّ هذا الاختلاف بأنّ الفعل مسند إلى ضمير ما تقدم في قوله : ﴿ مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأنعَامِ ﴾[57] ، وهو مذكر وانتصب (الميتة) لما كان الفعل مسنداً إلى الضمير ، ولم يسنده إلى (الميتة) ، كما فعل ابن كثير وابن عامر . وفسّر قراءة عاصم في رواية أبي بكر (تَكُنْ) بالتّاء بأنّه أنّث ، وإن كان المتقدم مذكراً ؛ لأنّه حمله على المعنى ، وما في بطون الأنعام حُوَرانٌ فَحُمِل على المعنى كما قالوا ما جاءت حاجتك ، فأنّث الضمير لمّا كان في المعنى حاجة[58] .

ب) الحمل على الخطاب أو الغيبة

اعتمد أبو عليّ على السّياق في بيان أوجه الاختلاف بين القرّاء في قراءة بعض الآيات القرآنية ، ومن ذلك ما ذكره في بيان أوجه الاختلاف بين قراءتي الخطاب والغيبة في الفعل ﴿ تُظْلَمُونَ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾[59] ، إذ قرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي ﴿ وَلا يُظْلَمُونَ ﴾ بالياء ، وقرأ نافع وأبو عمرو وعاصم ﴿ وَلا تُظْلَمُونَ ﴾ بالتّاء[60] ، واحتج لقراءة الياء بأنّه لما تقدم من ذكر الغيبة وهو قوله تعالى : ﴿ أَلَم تَر إلى الذينَ قِيْلَ لَهُم كُفُوا أَيْدِيَكُم ... وَلا يُظلمونَ ﴾[61] ، أمّا قراءة التّاء فيرى أنّها على ضمّ االنّبي (صلى الله عليه وآله) ، والمسلمين إليهم في الخطاب ، فَغُلِّب الخطاب على الغيبة ، والمعنى : أنّكم أيّها المسلمون ما تفعلون من خيرٍ يوفَّ إليكم ، ويُجازى من أمر القتال فتثبط عنه ، بعد أن كان كُتِبَ عليه ، وأدعم هذا الرأي بقوله تعالى : ﴿ قُل مَتَاعُ الدُّنيا قَلِيْلٌ ﴾[62] ، و (قل) كلام مبني على الخطاب[63] .

وعرض الاختلاف بين القرّاء في قراءة قولـه تعالى : ﴿ أَوَلَم يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الخلقَ ثُمَّ يُعيْدُه ﴾[64] بين الخطاب والغيبة ، إذ بيّن أنّ قراءة ابن كثير ونـافع وأبو عمرو وابن عامر (يروا) بالياء ، وقراءة حمزة والكسائي (تروا) بالتّاء ، واختلف عن عاصم فروى يحيى عن أبي بكر عن عاصم ، وابن أبي أمية عن أبي بكر عن عاصم بالتّاء ، وروى الكسائي عن أبي بكر ، وحفص عن عاصم بالياء[65] ، وعلل هذا الاختلاف معتمداً على السّياق ؛ بأنّ من قرأ بصيغة الخطاب سببه أنّها سُبقت بخطاب ﴿ وَإِنْ تُكَذِّبُوا ﴾ ، وألحقت بخطاب هو قولـه تعالى : ﴿ قُل سِيرُوا فِي الأرضِ فانظُروا ﴾ فضلاً عن أنّ الكلام جرى على حكاية مخاطبة إبراهيم (عليه السلام) قومه في قوله تعالى : ﴿ وإبراهِيْمَ إذ قَالَ لِقَوْمِهِ اعبُدُوا اللهَ واتَقُوه ﴾[66] ثمّ جرى الكلام بلفظ خطابـه إيـاهم إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَا على الرَّسُولِ إلا البلاغُ المبينُ ﴾ ثم جرى الخطاب بعد ذلك منه لهم بقوله : ﴿ أَوَلَم تَرَوْا ﴾ ، ومن قرأ بصيغة الغيبة سببه أنّ الذي قبلها غيبة هو قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَد كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُم ... أَوَلَم يَرَوْا ﴾ .

ومثال آخر على دور السّياق في توجيه الاختلاف في القراءات القرانيّة ما ذكره أبو عليّ في تفسير اختلاف القرّاء في قراءة الفعل (ترجعون) بين الخطاب والغيبة[67] في قوله تعالى : ﴿ اللهُ يَبْدَؤُا الخَلْقَ ثُمَّ يُعْيدُهُ ثُمَّ إليهِ تُرجَعُونَ ﴾[68] ، فيرى أنّ قراءة الغيبة تُحمل على المتقدم ذكره ﴿ يَبْدَؤُا الخَلْقَ ثُمَّ يُعْيدُهُ ثُمَّ إليهِ تُرجَعُونَ ﴾ والخلق هم المخلوقون في المعنى ، وجـاء قولـه (يُعيدُهُ) على لفظ الخلق وقولـه : (يُرجَعُون) على المعنى ولم يرجع على لفظ الواحد كما كان (يعيده) كذلك ، وفسّر القراءة بصيغة الخطاب بأنّها انتقال من الغيبة إلى الخطاب كما في قوله تعالى : ﴿ الحَمْدُ لِلهِ رَبِّ العالمينَ ۞ الرَّحْمَنِ الرَّحيمِ ۞ مَالكِ يَومِ الدّيِنِ ۞ إيَّاكَ نَعبُدُ وَإيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ ﴾[69] .

ج) الحمل على الإفراد أو التّثنية أو الجمع

اختلف القرّاء في قراءة بعض ألفاظ القرآن الكريم بصيغة الإفراد أو بصيغة الجمع ، ويبدو لي أنّ السبب في ذلك يعود إلى الرّسم القرآني الذي يرسم الصّيغتين ـ المفرد والجمع ـ بالرّسم نفسه ، إذ لا يفرق بينهما في الأعم الأغلب إلا ببعض الحركات ، أو الحروف التي لا ترسم ، وقد حاول أبو عليّ أن يجد توجيهاً لغويّـاً لكـل صيغة عن طريق ربطهـا بالسّيـاق القرآني الواردة فيه ، ومـن ذلك ما ذكـره في توجيه القراءات الواردة في قولـه تعالى : ﴿ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ ﴾ [70] بين الإفراد والجمع ، إذ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر (إلى أثَر) بصيغة الإفراد ، وقرأ ابن عـامر وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم (إلى آثار) بصيغة الجمع[71] ، وقد فسّر أبو عليّ ذلك بأنّ الإفراد محمول على أنّه مضاف إلى مفرد ، وأجاز الجمع لأنّ (رحمة الله) يجوز أن يُراد به الكثرة بدليل قولـه تعال : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾[72] ، وعلل اختلاف القرّاء في لفظ (سراج) بين الإفراد والجمع[73] في قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً ﴾[74] بأنّ الإفراد محمول على أنّ (السّراج) هنا هو الشّمس ، وقد حسّن القرّاء هذا الوجه من القراءة ، وهي القراءة المجمع عليهـا في المصحف[75] ، واستدلّ على القراءة بصيغة الجمـع (سُرُج) بقولـه تعـالى : ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾[76] ؛ لأنّ معنى (السُّرُج) هنا الشّمس والكواكب الكبار معها ، وقد شُبِّهت الكواكب بالمصابيح ، كما شُبِّهت المصابيح بالكواكب[77] في قوله تعالى : ﴿ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾[78] ، وإنّما المصباح الزّجاجة في المعنى .

ومـن أمثلـة ذلك أيضاً ما ذكره أبـو عليّ فـي اختلاف القرّاء فـي قراءة (ذرياتنا) بين الإفراد والجمع[79] في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾[80] ، وقد صحّح أبو عليّ وكثير من العلماء هاتين القراءتين ؛ لأنّ الذريّة يُقصد بها المفرد كما في قوله تعالى :﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾[81] ، ويقصد بها الجمع كما في قوله تعالى : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ ﴾[82] ، فمن أفرد قصد الجمع ، واستغنى عن جمعه

لدلالته على الجمع ، ومن جمع فإنّه حمل ذلك على ما يجمع من الأسماء الدّالة على الجمع نحو (قوم ـ أقوام) ، (رهط ـ أرهط)[83] .

3 . احتمال السّياق لأكثر من قراءة

وجّه أبو عليّ تعدد القراءات لبعض النّصوص القرآنيّة باحتمال السّياق القرآنيّ لتلك القراءات ، ومن ذلك تفسيره لقراءتي الرفع والنّصب لكلمة (عاقبة)[84] في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى ﴾[85] فيرى أنّ وجه النّصب فيها أن تكون خبراً لـ (كان) ، وهذا الخبر مقدّم على الاسم ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[86] ، أمّا اسم (كان) على هذه القراءة فأجاز فيه أمرين وفقاً للسياق القرآني[87] : الأمر الأوّل منهما : أن يكون (السوأى) ، والتّقدير : ثمّ كان السوأى عاقبة الذين أساؤوا ، والثّاني : أن يكون المصدر المؤول من (أن) ، والفعل (كذّبوا) ، والمعنى ، كان التكذيبُ عاقبةَ الذينَ أساؤوا . ووجه الرفع في (عاقبة) أن تكون اسماً لكان ، ويكون خبرها أحد شيئين[88] : (السّوأى) ، و (أن كذّبوا) ، كما جاز فيمن نصب العاقبة أن يكون كل واحد منهما الاسم ، والتقدير في هذه القراءة : ثمّ كانَ عاقبةُ المسيء التّكذيب بآيات الله ، أي لم يظفر من شركه وكفره إلا التّكذيب ، وإن جُعل المصدر المؤول هو الخبر كان (السوأى) في موضع نصب لأنّه مصدر[89] .

وأشار إلى أنّ نصب كلمة (شُرَكَاءَكُمْ) في قوله تعالى : ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾[90] لا يخلو من احتمالين : إمّا أن يكون نصبها على العطف ، أو على المعيّة ، ثمّ رفع الاحتمال الأول بدلالة السّياق ؛ لأنّه لا يقال : أَجْمَعْتُ شُرَكائِي وإنّما يقال : جَمَعْتُ شركائي ، وأجمَعْتُ أمري فلمّا لم يجز العطف جعل نصبها على المعيّة[91] . وبهذا اختار ما هو أقرب في دلالته للواقع الاجتماعي .

يتضح ممّا تقدّم أنّ أبا عليّ اعتمد على المجال الدّلالي الرابط للتّراكيب النّحويّة في توجيه تعدد القراءات لبعض النّصوص القرآنيّة .

4 . التّقديم على وجه التّبيين داخل السّياق

يرى أبو عليّ أنّ التّقدير في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾[92] والذين يظاهرون من نسائهم فتحرير رقبة لما قالوا ثمّ يعودون على نسائهم ، وقد تقدم فيه (لما قالوا) وهو متعلق بالمصدر على وجه التّبيين[93] ، وهذا التّوجيه يذكرنا بقول سيبويه : ((إنّما يقدمون الذي بيانه أهم لهم ، وهم ببيانه أعنى ، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم))[94] ، ومثله قول العجاج[95] :

كان جزائِي بالعَصَا أنْ أُجْلَدَا

فلم يجعل (بالعصا) متعلقاً بالجزاء ، بل جعله تبييناً للجلد[96] . وأجاز في قول ذي الرّمة[97] :

فلا الخُرْقَ منه يَرْهَبُون ولا الخَنا عليهم ولكنْ هَيْبَةٌ هِيَ ما هِيا

أن يكون (هَيْبَةٌ) خبر ابتداء مقدم ، والمعنى عنده : ولكنْ قِصَّتُه هَيْبةٌ و (هي) كناية عن القصّة ، وجاز التّقديم مع الإضمار ؛ لأنّ ما تقدّم من الكلام فيه دلالة على ذلك ، فكأنّ ذكرها قد جرى وتبيّن[98] . وبهذا ربط أبو عليّ مسألة التّقديم والتّأخير بالسّياق الاجتماعيّ وخصوصاً معرفة السّامع وملابساتها الخارجيّة .

يتضح ممّا تقدّم أنّ أبا عليّ كان شديد الحرص على ربط التّراكيب النّحويّة بمحيطها الخارجي وسياق حالها ؛ ليتمكن من إعطائها الحكم النّحوي الذي تستحقه من حذف أو إضمار أو تقديم أو تأخير أو تعدّد في الأوجه الإعرابيّة .

الخلاصة

وفي ختام هذا البحث يمكن أن نوجز النتائج الآتية :

1 ـ اعتمد أبو عليّ على سياق النّصوص القرآنيّة في توجيه القراءات القرآنية ، وفي عرض الشبهات وردها ؛ إذ إنّه يربط بين سياق الآيات المتصلة في سورة واحدة ، وسياق الآيات المماثلة لها في المعنى في سور أخرى .
2 ـ حكّم السّياق في الدّلالة على المحذوف ، أو في الإشارة إلى ما يسدّ مسده .
3 ـ جعل من السّياق مجالاً دلاليّاً رابطاً يربط تعدد الأوجه في القراءة لكثير من النّصوص القرآنيّة .
4 . ربط العديد من المسائل النّحويّة بالسّياق الاجتماعيّ وخصوصاً معرفة السّامع وملابساتها الخارجيّة .

الهوامش

(1) علم النّص ونظرية التّرجمة : 29 .
(2) الدلالة السّياقية عند اللغويين : 76 ، وينظر اللغة والمعنى والسّياق : 27 – 28 .
(3) ينظر : دلالة السّياق عند الأصوليين : 61 ، فصول في علم الدّلالة : 128 .
(4) اللغة العربيّة معناها ومبناها : 337 .
(5) ينظر دور الكلمة في اللغة : 73 .
(6) ينظر : سياق الحال في كتاب سيبويه : 25 ، النّحو والدّلالة : 113 ، الدّلالة والتّقعيد النّحوي : 368 .
(7) ينظر : ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي : 9 .
(8) ينظر : الكتاب : 1 / 24 . 25 ، الأصول : 2 / 255 ، المقتضب : 3 / 76 ، 232 ، البيان في روائع القرآن : 1 / 83 ، 2 / 904 ، جماليات المفردة القرآنية : 269 .
(9) ينظر ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي : 294 .
(10) المصدر نفسه : 294 .
(11) سورة (البقرة) ، الآية (271) .
(12) سورة (البقرة) ، الآية (271) .
(13) الحجة : 2 / 399 .
(14) ينظر : الكشّاف : 1 / 501 ، البحر المحيط : 2 / 337 .
(15) ينظر: التذكرة في القراءات : 443 ، النشر : 2 / 271، إتحاف فضلاء البشر : 479 .
(16) سورة (ص) ، الآية (84) .
(17) سورة (الأنعام) ، الآية (62) .
(18) الحجة : 6 / 88 .
(19) سورة (البقرة ، الآية (147) .
(20) سورة (الأنعام) ، الآية (54) .
(21) ينظر الحجة : 3 / 312 .
(22) سورة (التّوبة) ، الآية (63) .
(23) ينظر الحجة : 3 / 312 .
(24) ينظر المصدر نفسه : 3 / 312 .
(25) سورة يس ، الآية (19) .
(26) الحجة : 6 / 39 .
(27) الكتاب : 3 / 103 .
(28) ينظر الإنصاف : 2 / 461 – 462 .
(29) سورة الواقعة ، الآية (90 – 91) .

(30) ينظر كتاب الشّعر : 1 / 64 – 65 .
(31) سورة الفتح ، الآية (25) .
(32) ينظر كتاب الشّعر : 1 / 65 .
(33) سورة النحل ، الآية (45) .
(34) ينظر الحجة : 6 / 31 .
(35) سورة فاطر ، الآية (43) .
(36) ينظر الحجة : 6 / 31 .
(37) سورة الزمر ، الآية (9) .
(38) ينظر معاني القرآن : الفرّاء ، 2 / 417 .
(39) ينظر الحجة : 6 / 92 .
(40) سورة الزمر ، الآية (9) .
(41) سورة الزمر ، الآية (8) .
(42) سورة ص ، الآية (62 –63) .
(43) ينظر الحجة : 6 / 92 .
(44) ينظر العدول عن النظام التركيبي في أسلوب القرآن الكريم : 67 .
(45) ينظر مجاز القرآن : 18 . 19 .
(46) تأويل مشكل القرآن : 290 .
(47) ينظر الخصائص : 2 / 360 . 446 .
(48) معجم مصطلحات البلاغة : 2 / 297 .
(49) ينظر الأسلوبيّة والأسلوب : 94 .
(50) سورة الأنعام ، الآية (139) .
(51) سورة (ص) ، الآية (46) .
(52) ينظر الحجة : 6 / 74 .
(53) ينظر المصدر نفسه : 6 / 74 .
(54) ينظر البحر المحيط : 7 / 386 .
(55) سورة الأنعام ، الآية (145) .
(56) ينظر : الحجة : 3 / 414 ، التّذكرة في القراءات : 265 ، النّشر : 2 / 199 . 200 ، إتحاف فضلاء البشر : 277 ، معجم القراءات القرآنيّة : 2 / 330 .
(57) سورة الأنعام ، الآية (139) .
(58) ينظر الحجة : 3 / 414 . 415 .
(59) سورة النساء ، الآية (77) .
(60) ينظر : معاني القراءات : 1 / 313 ، الحجة : ابن خالويه ، 125 ، الحجة : لأبي عليّ : 3 / 171 - 172 ، النشر : 2 / 188 ، معجم القراءات القرآنية : 2 / 146
(61) سورة النّساء ، الآية (77) .
(62) سورة النّساء ، الآية (77) .
(63) ينظر الحجة : 3 / 172 .
(64) سورة الكهف ، الآية (19) .
(65) ينظر : السبعة : 498 ، الحجة : لأبي عليّ : 5 / 426 ، حجة القراءات : 549 .
(66) سورة العنكبوت ، الآية (16) .
(67) ينظر : السّبعة : 506 ، الإقناع في القراءات : 2 / 729 .
(68) سورة الروم ، الآية (11) .

(69) سورة الفاتحة ، الآية (2 - 5) .
(70) سورة الروم الآية (50) .
(71) ينظر الحجة : 5 / 444 .
(72) سورة النحل ، الآية (18) .
(73) ينظر : الحجة : 5 / 347 ، التّذكرة في القراءات : 390 ، النّشر : 2 / 251 .
(74) سورة الفرقان ، الآية (61) .
(75) ينظر : معاني القرآن : للفرّاء ، 2 / 33 ، مجمع البيان : 7 / 276 .
(76) سورة الملك ، الآية (5) .
(77) ينظر الحجة : 5 / 347 .
(78) سورة النّور ، الآية (35) .
(79) ينظر : الحجة : 5 / 352 .
(80) سورة الفرقان ، الآية (74) .
(81) سورة آل عمران ، (38) .
(82) سورة النّساء ، الآية (9) .
(83) ينظر الحجة : 5 / 353
(84) ينظر المصدر نفسه : 5 / 442 .
(85) سورة الروم ، الآية (10) .
(86) سورة (الرّوم) ، الآية (47) .
(87) ينظر الحجة : 5 / 442 - 443 .
(88) ينظر المصدر نفسه : 5 / 443 .
(89) ينظر المصدر نفسه : 5 / 443 -444 .
(90) سورة يونس ، الآية (71) .
(91) الإيضاح : 168 .
(92) سورة المجادلة ، الآية (3) .
(93) ينظر كتاب الشّعر : 1 / 101 .
(94) الكتاب : 1 / 34 .
(95) ديوان العجاج : 76 .
(96) ينظر كتاب الشعر : 1 / 102 .
(97) ديوان ذي الرّمة : 1315 .
(98) ينظر كتاب الشّعر : 1 / 318 .

مصادر البحث

. القرآن الكريم .
. إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر : تأليف العلامة شهاب الدّين أحمد بن محمد بن عبد الغني الدّمياطي الشهير بالبنّاء (1117 هـ) ، وضع حواشيه الشيخ أحمد مهرة ، دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان ، الطبعة الثانية (1427 هـ - 2006 م) .
. الأسلوبيّة والأسلوب : عبد السلام السّلام المسدي ، الدّار العربيّة ، تونس ، 1977م .
. الأصول في النحو ، أبو بكر بن السراج (316هـ) ، تحقيق: د. عبد الحسين الفتلي ، ط2، مؤسسة الرسالة بيروت 1987.
. إعراب القراءات الشّواذ : لأبي البقاء العكبري (616هـ) ، دراسة وتحقيق محمد السيد أحمد عزّوز ، عالم الكتب للطباعة والنّشر والتّوزيع ، ط1 (1417هـ . 1996م) .
. الإنصاف في مسائل الخلاف بين النّحويين البصريين والكوفيين : تأليف الإمام كمال الدّين عبد الرّحمن بن محمّد بن أبي سعيد الأنباري المكنّى بأبي البركات (ت 577 هـ) ، تحقيق محمد محيي الدّين عبد الحميد ، المكتبة التّجاريّة الكبرى بمصر (د . ت) .

. الإيضاح : تأليف الحسن بن أحمد بن عبد الغفّار الفارسيّ المكنّى بأبي عليّ (377 هـ) تحقيق الدكتور كاظم بحر مرجان ، عالم الكتب ، بيروت . لبنان ، الطبعة الأولى (1429 هـ . 2008 م) .

. البيان في روائع القرآن ، د. تمام حسان ، ط2 ، عالم الكتب ، 2000م.

. تأويل مشكل القرآن : لابن قتيبة (276هـ) شرحه السّيّد أحمد صقر ، دار الكتب العلميّة ، بيروت . لبنان ، ط3 (1983م) .

. التبيان في إعراب القرآن : تأليف أبي البقاء العكبريّ (616هـ) ، تحقيق محمّد عليّ البجاويّ ، مطبعة عيسى البابيّ الحلبيّ وشركاه (د. ت) .

. التذكرة في القراءات : تأليف الشيخ أبي الحسن طاهر بن عبد المنعم بن غلبون (399هـ) حققه وراجعه وعلّق عليه الدكتور سعيد صالح زعيمه ، دار ابن خلدون . الاسكندريّة ، ط1 (1422هـ . 2001م) .

. تفسير البحر المحيط : لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيّان الأندلسيّ (745هـ) ، دراسة وتحقيق وتعليق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، والشيخ عليّ محمد معوض ، دار الكتب العلميّة ، بيروت . لبنان ، ط1 (1414هـ . 1993م) .

. جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير ، احمد ياسوف ، ط1، دار المكتبي، دمشق1994.

. الحجة في القراءات السّبع : تأليف أبي عبدالله الحسين بن أحمد بن خالويه (370هـ) ، تحقيق وشرح عبد العال سالم مكرم ، دار الشّروق ، ط3 (1399هـ . 1979م) .

. حجة القراءات : تأليف الإمام الجليل عبد الرّحمن بن محمّد بن زنجلة الشهير بأبي زرعة ، حقّقه وعلّق على حواشيه سعيد الأفغانيّ ، مؤسسة الرّسالة ، بيروت . لبنان ، الطّبعة الخامسة (1418هـ . 1997م) .

. الحجة للقراء السّبعة : تأليف أبي عليّ الحسن بن أحمد بن عبد الغفّار الفارسيّ (377 هـ) ، تحقيق بدر الدّين قهوجي و صاحبه ، راجعه وصححه عبد العزيز رباح و أحمد يوسف الدّقاق ، دار المأمون للتراث (د. ت) .

. الخصائص : تأليف أبي الفتح عثمان بن جنّي ، تحقيق محمّد عليّ النّجّار ، المكتبة العلميّة (د . ت) .

. الدّلالة السّياقيّة عند اللغويين : تأليف الدّكتور عواطف كنوش المصطفى ، دار السّيّاب للطّباعة والنّشر والتّوزيع . لندن ، الطّبعة الأولى (2007م) .

. الدّلالة والتّقعيد النّحوي دراسة في فكر سيبويه : تأليف الدّكتور محمّد سالم صالح ، دار غريب للطّباعة والنّشر والتّوزيع . القاهرة ، الطّبعة الأولى (2008م) .

. دور الكلمة في اللغة : ستيفن أولمان ، ترجمه وقدّم له الدّكتور كمال بشر ، الطّبعة الثّانية عشرة ، دار غريب للطّباعة والنّشر والتّوزيع .

. ديوان ذي الرّمة قدّم له وشرحه أحمد حسن بسج ، دار الكتب العلميّة ، بيروت . لبنان ، الطّبعة الأولى (1415هـ . 1995م) .

. ديوان العجّاج رواية عبد الملك بن قُريب الأصمعيّ وشرحه ، تحقيق الدّكتور عبد الحفيظ السّلطيّ ، مكتبة أطلس . دمشق (1971م) .

. سياق الحال في كتاب سيبويه (دراسة في النّحو والدّلالة) : تأليف الدّكتور أسعد خلف العواديّ ، دار الحامد للنّشر والتّوزيع ، الطّبعة الأولى (1432هـ . 2011م) .

. ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي : طاهر سليمان حمودة ، الدّار الجامعيّة للطّباعة والنّشر والتّوزيع (1998م) .

. علم النّص ونظرية التّرجمة : تأليف البروفسور يوسف نور عوض ، دار الثّقة للنّشر والتّوزيع . مكة المكرّمة ، الطّبعة الأولى (1410هـ) .

ـ الكتاب : تأليف أبي بشر عمرو بن عثمان سيبويه (180هـ) ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، دار غريب للطباعة1988.

. كتاب الإقناع في القراءات السّبع : تأليف أبي جعفر أحمد بن عليّ بن أحمد بن خلف الأنصاريّ ابن الباذش (540هـ) ، حققه وقدّم له الدّكتور عبد المجيد قطامش ، دار الفكر دمشق ، ط1 (1403هـ) .

. كتاب السّبعة في القراءات : لابن مجاهد ، تحقيق الدّكتور شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر (1972م) .

. كتاب الشّعر : تأليف أبي عليّ الحسن بن أحمد بن عبد الغفّار الفارسيّ (377 هـ) ، تحقيق وشرح الدّكتور محمود محمّد الطّناحي ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، الطّبعة الأولى (140هـ . 1988م) .

. كتاب معاني القراءات : تأليف أبي منصور محمد بن أحمد الأزهريّ (370هـ) ، تحقيق ودراسة الدّكتور عيد مصطفى درويش ، والدّكتور عوض بن حمد القوزيّ ، دار المعارف ، ط1 (1412هـ . 1991م) .

. الكشّاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل : تأليف أبي القاسم محمود بن عمر الزّمخشريّ الخوارزميّ (538هـ) ،تحقيق وتعليق ودراسة الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشّيخ عليّ محمد معوّض ، مكتبة العبيكان ، ط1 (1418 هـ . 1998م) .

. اللغة العربيّة معناها ومبناها : تأليف الدّكتور تمّام حسّان ، الهيئة المصريّة العامة للكتاب (1973م) .

. اللغة والمعنى والسّياق : تأليف جون لاينز ، ترجمة الدّكتور عبّاس صادق الوهاب ، مراجعة الدّكتور يوئيل عزيز ، دار الشؤون الثّقافيّة . بغداد (1987م) .

. مجاز القرآن : تأليف أبي عبيدة معمر بن المثنّى التّميميّ (210هـ) ، مكتبة الخانجي ، مصر ، ط2 (1970م) .

. مجمع البيان في تفسير القرآن : تأليف الشّيخ أبي عليّ الفضل بن الحسن الطّبرسيّ ، وقف على تصحيحه وتحقيقه والتّعليق عليه الحاج السّيّد هاشم الرّسوليّ المحلاتيّ ، دار إحياء التذراث العربيّ ، ومؤسسة التّاريخ العربيّ ، بيروت . لبنان ، الطّبعة الأولى (1412هـ . 1992م) .

. معاني القرآن : تأليف أبي جعفر النّحّاس (338هـ) ، تحقيق محمد عليّ الصّابونيّ ، مركز إحياء التّراث الإسلاميّ ، مكة المكرمة (1408هـ . 1988م) .

. معاني القرآن : تأليف يحيى بن زياد الفرّاء (207هـ) تحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمّد علي النّجار ، دار السّرور (د . ت) .

. معجم القراءات القرآنيّة : الدّكتور عبد العال سالم مكرم ، والدّكتور أحمد مختار عمر ، مطبوعات جامعة الكويت ، ط2 (1408هـ . 1988م) .

. معجم مصطلحات البلاغة وتطورها : أحمد مطلوب ، المجمع العلمي العراقيّ (1983م) .

. المقتضب : تأليف أبي العبّاس محمّد بن يزيد المبرّد (285هـ) ، تحقيق محمّد عبد الخالق عضيمة ، القاهرة (1415هـ . 1994م) .

. النّحو والدّلالة مدخل لدراسة المعنى النّحويّ الدّلاليّ : تأليف الدّكتور محمّد حماسة عبد اللطيف ، كلية دار العلوم . جامعة القاهرة ، الطّبعة الأولى (1983م) .

. النّشر في القراءات العشر : تأليف الإمام الحافظ أبي الخير محمّد بن محمّد الدّمشقيّ الشهير بابن الجزريّ (833هـ) ، قدّم له صاحب الفضيلة الأستاذ عليّ محمّد الضبّاع ، شيخ عموم المقارئ بالدّيار المصريّة ، خرّج آياته الشّيخ زكريا عميرات ، دار الكتب العلميّة بيروت . لبنان ، الطّبعة الثّالثة (1427هـ . 2006م) .

الرسائل الجامعيّة والأطاريح

. دلالة السّياق عند الأصوليين (دراسة نظريّة تطبيقيّة) رسالة ماجستير تقدم بها (سعد بن مقبل بن عيسى العنزي) إلى مجلس كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى . المملكة العربيّة السّعوديّة (1428هـ) .
. العدول عن النظام التّركيبيّ في أسلوب القرآن الكريم (دراسة نحويّة أسلوبيّة) ، أطروحة دكتوراه ثانية تقدم بها (أ . م . د . حسن منديل حسن العكيليّ) إلى مجلس كلية التّربيّة للبنات . جامعة بغداد (1428 هـ 2007م) .

منهج الشريف المرتضى العقلي في تفسير القرآن الكريم

أ.م.د. ثامر نعمان مصطاف
كلية الكوت الجامعة

م.م. حيدر عبد الجبار بحر
كلية الكوت الجامعة

المقدمة

الحمد لله الذي جعل كلمته العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، والله عزيز حكيم ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد بن عبد الله المبعوث رحمة للعالمين ، ونور للمتقين ، وعلى آله الطيبين وصحبه الغر الميامين .

كانت لكتابات فقهاء الأمامية الاثني عشرية في فقه الشريعة الإسلامية أثر كبير في حفظ الدين من التلاعب والتغيير ، وببركة جهودهم المتوالية في تفريع الفروع وإرجاعها إلى الأصول الأصلية في القرآن الكريم ، والسنة المعصومية الشريفة ، بقي هذا الدين الحنيف حياً في نفوس الناس على الرغم من التغيُّر الكبير الحادث في حياتهم على مر الأزمنة والعصور، والذي صار سبباً في ظهور مسائل جديدة واستحداث حوادث ، ووقائع تحتاج إلى معرفة نظر الشارع المقدس فيها . وقد هيأ الله عز وجل في كل عصر من بهم يُحفظ الدين ، وتُدفع الشبهات ، وتُحَل المشكلات في مختلف المسائل التي تعترض حياة الإنسان الفردية والاجتماعية . ومن بين هؤلاء علم الهدى السيد أبو القاسم علي بن الحسين المعروف بـ (الشريف المرتضى قدس سرّه) من أعلام القرنين الرابع والخامس الهجري . وفضله أشهر من أن يُذكر فهو الفقيه المحقق والأصولي المجدد ، والكلامي المتضلّع ، والأديب الماهر ، والمفسّر المتبحّر ، صاحب المؤلفات الكثيرة والتصانيف العديدة في أنواع الفنون ومختلف العلوم.

عدَّ الشريف المرتضى (قدس سرّه) العقل : هو الركيزة الأساسية والمهمّة في المنظومة المعرفية ، بل جعله الحاكم الرئيسي في رفع التنازع بين الأدلّة بجميع أطرافها (قرآناً وسنّة) ومن أجل ذلك كلَّه اخترنا عنوان بحثُنا ليـــكون (**المنهج العقلي في تفسير القرآن الكريم للشريف المرتضى (قدس سره))**.

اشتملت الدراسة على مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة ، فبعد المقدمة تطرقنا في المبحث الأول : إلى التعريف بشخصية الشريف المرتضى (قدس سره)، فتناولنا باختصار نسبه الشريف ، وولادته ، وأسم أمّه ، وألقابه وكنيته ، وأساتذته ، وتلاميذه ، وختمناه بوفاته ، أما المبحث الثاني فقد ضم الحديث عن العقل ودوره في تفسير القرآن الكريم عند الشريف المرتضى ، في حين شمل المبحث الثالث الكلام عن التأويل العقلي للشريف المرتضى ودوره في رفع التعارض بين القرآن والسنّة.

اعتمدت الدراسة على مصادر أساسية ، ومراجع حديثة تراوحت بين الكتب التي عنيت بسيرة الشريف المرتضى (قدس سره) بصورة عامة ، وبين الكتب التي تطرقَّت إلى مؤلفاته ورسائله، فضلاً عن كتب التاريخ العام ، والتراجم ، وقد تم تثبيتها في قائمة خاصة في نهاية البحث.

المبحث الأول : الشريف المرتضى(قدس سره) / السيرة الشخصية والعلمية.

الشريف المرتضى هو: السيد الأجل أبو القاسم علي بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن قريش بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، المعروف بـ (علم الهدى) ،أفضل أهل زمانه وسيد فقهاء عصره[1].

أمّه: فاطمة بنت الحسن بن أحمد بن الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليهما السلام)[2].

ولد في رجب سنة 355هـ/966م في بغداد ، وعاش في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين وهو عصر سيطرة البويهيين على السلطة في بغداد[3].

والشريف المرتضى (قدس سره) مجمع على فضله ، مقدَّم في العلوم مثل الكلام ، والفقه ، والأصول ، والأدب والنحو واللغة ، له ديوان شعر يزيد على ألف بيت ، وله عدة تصانيف بلغت أكثر من (117) مصنفاً[4]منها: كتاب (**الشافي في الإمامة**) ، وكتاب (**الذخيرة**) ، وكتاب **(تنزيه الأنبياء والأئمة عليهم السلام)**[5] ، تقلّد منصب نقيب الطالبيين[1] في بغداد.

---

(1) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج5 / ص69 ؛ الطوسي ، الفهرست ، ص164.

(2) الخوانساري ، روضات الجنات ، ص382.

(3) الخطيب البغداديّ، تاريخ بغداد ، ج7 / ص286 ؛ الصفدي، الوافي بالوفيات ، ج11 /ص291 الذهبي، سير أعلام النبلاء ، ج16/ ص380 ؛ السيوطي ، غية الوعاة ، ص404 ؛ القمي ، الكنى والألقاب ، ج3 / ص7 ؛ الأميني ، أعيان الشيعة ، ج5 /ص7–8.

(4) ينظر: الشريف المرتضى ، رسائل الشريف المرتضى – المجموعة الأولى ، ص33–39.

(5) الطوسي ، الفهرست ، ص164؛ ابن كثير، البداية والنهاية ، ج12/ص66؛ ابن قاضي شهبه ، طبقات الشافعية ، ج2/ ص174؛ البغدادي ، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون ،ج1/ ص306.

ألقابه وكنيته : اشتهر الشريف المرتضى بلقب **السيد** ، **والشريف** ، **والمرتضى** ، **وذي المجدين** ، **وعلم الهدى** ، ، ويكنى بأبي القاسم ، وسماته الخَلقية وصفاته الخُلقية : كان الشريف – رحمه الله – ربع القامة ، نحيف الجسم ، أبيض اللون ، حسن الصورة . واشتهر بالبذل والسخاء[2].

ومن أساتذته وشيوخه : الشيخ المفيد العالم المتكلم المشهور، اشتهر بكثرة علمه. وهو محمد بن محمد بن عبد السلام العكبري البغدادي المكنى بأبي عبد الله وابن المعلم ، والشاعر المشهور ابن نباتة السعدي ، ومحمد بن عمران المرزباني كان راوية للأخبار والآداب والشعر، وأبو القاسم بن عبد الله بن عثمان المعروف بابن جنيقا، كان قاضياً محدثاً ثقة مأموناً حسن الخلق ، والحسين بن علي بن الحسين بن بابويه، أخو الشيخ الصدوق، كان جليل القدر عظيم الشأن في الحديث. وقد وثقه أصحاب التراجم، وأخباره مشهورة في كتبهم[3].

ومن تلامذته : أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي، الفقيه الأصولي والمحدث الشهير، وأبو يعلى الديلمي سالار ، وكان ينوب عن أستاذه المرتضى في التدريس، وهو فقيه متكلم، وأبو الصلاح الحلبي ، خليفة المرتضى في البلاد الحلبية ومن كبار علماء الأمامية، وأبو الفتح الكراجكي، عالم، فاضل، متكلم، فقيه، محدث، ثقة جليل القدر، وعماد الدين ذو الفقار الأخيضري ، كان فقيها عالماً متكلماً ورعاً. وأحمد بن العباسي الرازي الدوريستي. من أكابر علماء الإمامية اشتهر في جميع الفنون[4].

عاصر الشريف المرتضى من الخلفاء : المطيع[5] ، والطائع لأمر الله[1] ، والقادر بالله[2]

،

---

[1] **نقيب:** من النقابة وهو منصب مثل العريف والمقدَّم على قومه يقوم بالتعرف على أحوالهم وأخبارهم. ينظر: ابن منظور، لسان العرب ،ج1/ ص769 (مادة نقب).

[2] الخوانساري ، روضات الجنات ، ص383 ؛ الحموي ، معجم الأدباء ، ج13 / ص 257.

[3] ينظر: الشريف المرتضى ، رسائل الشريف المرتضى – المجموعة الأولى ، ص27–28.

[4] ينظر: الشريف المرتضى ، الأنتصار ، ص47–48.

[5] **المطيع لله** : هو أبو القاسم الفضل بن المقتدر العباسيّ ، ولد سنة(301هـ/913م)، بويع له بالخلافة بعد أن خلع البويهيون الخليفة المستكفي بالله سنة (334هـ/945م) وذلك بعد أن أرغمه البويهيون على ذلك ،وكان عند دخول البويهين قد استتر منهم خوفا من بطشهم ، ولم يكن له من الأمر شيء سوى الاسم ،وكان التدبير بيد الأمير البويهي علي بن بويه (معز الدولة) توفى سنة (364هـ/974م). ينظر: ابن عبد ربه ، العقد الفريد، ج5 /ص112؛ المسعودي، التنبيه والأشراف، ص345؛ ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج6/ص343 ؛ ابن كثير، البداية والنهاية ، ج11 /ص240؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص364.

وابنه القائم بأمر الله[3]. ومن الأمراء البويهيين ، فمنهم : بهاء الدولة البويهي[4] ، وأبناؤه شرف الدولة ، وسلطان الدولة [5]، وركن الدين جلال الدولة[6] ، ثم الملك أبو كاليجار المرزبان بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة [7].

توفى علم الهدى الشريف المرتضى (قدس سره) ببغداد في الخامس والعشرين من ربيع الأول من سنة 436هـ/1044م، وعمره يومئذ ثمانون سنة وثمانية أشهر، ودفن في داره أولاً ، ثم نقل إلى جوار أجداده عند قبر أبيه وأخيه الرضي وجدَّه إبراهيم مع الأمام الحسين(عليه السلام)[8].

---

(1) **الطائع لأمر الله:** هو أبو بكر عبد الكريم بن المطيع،ولد سنة(320هـ /932م) ، تولى الأمر بعد أن خلع المطيع نفسه بعد ضغط من الحاجب سبكتكين التركي ، ولم يعد في وقته للخلافة العباسية سوى الرسم ، وقبض عليه في شعبان سنة (381هـ/991م) ، وكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة وتسعة أشهر وخمسة أيام ،وتوفى سنة(393هـ/1002م). ينظر: الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج11/ص79؛ ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج1 /ص286.

(2) **القادر بالله** : هو أبو العباس أحمد بن إسحق بن المقتدر جعفر بن المعتضد العباسي ، ولد سنة(336هـ /947م) بويع بالخلافة قهراً بعد أن قبض على الطائع لله ، تزوج بابنة السلطان بهاء الدولة البويهي. ينظر: السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى، ج4/ ص5؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج2 / ص98 .

(3) الشريف المرتضى ، الأنتصار ، ص45.

(4) **بهاء الدولة** : هو ابو نصر أحمد بن عضد الدولة بن بويه ، ملك العراق ، مات سنة(403هـ/1012م)، وكان خاضعاً لمحمود بن سبكتكين مدارياً له ، وفي عهده بدأت الدولة البويهية تضعف .ينظر: الذهبي ،سير أعلام النبلاء ،ج17/ص185؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج12/ص32.

(5) **سلطان الدولة:** هو ملك العراق وفارس، ابو شجاع فناخسرو بن بهاء الدولة بن خسرو فيروز عضد الدولة، تملك بعد أبيه سنة(403هـ /1012م) ، لقبه القادر بالله بهذا اللقب .ينظر:ابن الجوزي ، المنتظم، ج8/ص17؛ ابن العديم ، بغية الطلب في تاريخ حلب، ج6/ص2552؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء ، ج17/ص345.

(6) **جلال الدولة** : هو صاحب العراق الملك أبو طاهر فيروزجرد بن بهاء الدولة بن نصر بن السلطان عضد الدولة بن ركن الدولة البويهي ، ملك سبع عشرة سنة ،وعاش اثنتين وخمسين سنة. ينظر:ابن العديم، بغية الطلب ، ج7 /ص3259 ؛ الذهبي ،سير أعلام النبلاء ،ج17/ص577.

(7) الشريف المرتضى ، الأنتصار ، ص45.

(8) الخوانساري ، روضات الجنات ، ص 384.

المبحث الثاني : العقل ودوره في تفسير القران الكريم لدى الشريف المرتضى(قدس سره).

العقل لغةً : يطلق على المنع والحبس ، يقال: اعتقل الرجل ، إذا حُبِسَ ، ومرض فلان، فاعتقل لسانه ، إذا امتنع عن الكلام ، فلم يقدر عليه ، ووجه تسمية العقل بهذا الاسم ، كونه يمنع صاحبه عن التورط في المهالك ، ويحبسه عن ذميم القول والفعل[1].

والفهم والبيان يسمى عقلاً أيضا، لأنه عن العقل كان ، فيقول الرجل للرجل: أَعقِلت ما رأيت، أو سمعت ؟ فيقول: نعم ، يعني: أني قد فهمت ، وتبيَّنت. والعرب إنما سمت الفهم عقلاً ، لأن ما فهمته فقد قيَّدتهُ بعقلك ، وضبطتهُ ، فما سمي العقل عقلاً إلا لأنه يمسك ما علمه ، ويضبطه، ويفهمه ، فيقال: عقل الشيء، إذا فهمه ، فهو عقول[2].

وعقل الشيء ، إذا علمه ، أو عَلِمَ صفاتهُ ، من حسن وقبح ، وكمال ونقصان ، فأمسكها ، وأمكن أن يميّز بين القبيح والحسن، والخير والشر. فالعاقل خلاف الجاهل ، يحبس نفسه، ويمنعها عما يوبقها، ويردها عن هواها، ويمسك ما يعلمه، ويميز بين ما ينفعه وما يضّره في عاجله وآجله[3].

والعقل عند الشريف المرتضى (قدس سرّه) هو الركيزة الأساسية والمهمّة في المنظومة المعرفية ، بل جعله الحاكم الرئيسي في رفع التنازع بين الأدلّة بجميع أطرافها (قرآناً وسنّة) ، لأنّه يعتقد أنّ هذه الموهبة الإلهية إذا هذّبت يمكن جعلها الدعامة الرئيسة في واقع التشريع الإلهي.

ويلتفت الشريف المرتضى (قدس سرّه) إلى أنّ المأخوذ في أدلّة العقول هو الصراحة الواضحة ، الّتي لا مناص من العدول ، فإذا احتمل الدليل العقلي الاحتمال والمجاز سقطت حجّيته عن الاعتبار ، بل يتجاوز مرحلة الاحتمال والمجاز إلى مرحلة أدقّ ، وهي وجوه التأويلات الّتي يمكن استكشافها من أدلّة العقول .

---

[1] الجوهري ، الصحاح ، ج5/ ص1769.

[2] الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ، ج4/ ص18.

[3] ابن منظور، لسان العرب ، ج11/ ص458–459.

وأدلّة العقول لوحدها لا تتجاوب مع حاجات الواقع ، بل لها قيود وشروط من عدم الاحتمال ، فإذا ارتضينا ذلك سوف نحصل على مفهوم ومناط كلّي يتعاطف معنا على كلّ الأدلّة ، ويكون دليلاً وحاكماً تخضع له جميع المدارك الشرعية ، وسوف نصرف كلّ ما ورد من ظاهره بخلاف الحقّ من كتاب وسنّة إلى ما يطابق الأدلّة ويوافقها[1] .

قال الشريف المرتضى (قدس سرّه) : ((**أو ليس من مذهبكم أنّ الأخبار الّتي يخالف ظاهرها الأُصول ، ولا تطابق العقول لا يجب ردّها ، والقطع على كذب رواتها إلاّ بعد ألاّ يكون لها في اللغة مخرج ولا تأويل ؟ وإن كان لها ذلك فباستكراه أو تعسّف**))[2].

وأوضح جلاءً من هذا المتن ما قاله (قدس سرّه) : ((**إذا ثبت بأدلّة العقول الّتي لا يدخلها الاحتمال والمجاز ، ووجوه التأويلات أنّ المعاصي لا تجوز على الأنبياء (عليهم السلام) ، صرفنا كلّ ما ورد ظاهره بخلاف ذلك من كتاب أو سنة إلى ما يطابق الأدلّة ويوافقها ؛ كما نفعل مثل ذلك فيما يرد ظاهره مخالفاً لما تدلّ عليه القول من صفاته تعالى ، وما يـــــــــجوز عليه أو لا يجوز**))[3].

وقدَّم لنا في ذلك عرضاً واضحاً من أدلّة العقول ، وهو ما جاء في قوله تعالى : ((**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ...**))[4]. فقد قال : ((**هل يسوغ ما تأوّل بعضهم هذه الآية عليه من أنّ يوسف (عليه السلام) عزم على المعصية وأرادها ، وأنّه جلس مجلس الرجل من المرأة . ثمّ انصرف عن ذلك بأن رأى صورة أبيه يعقوب (عليه السلام) عاضّاً على إصبعهِ ، متوعّداً له على مواقعة المعصية ، أو بأن نؤدّي له بالنهي والزجر في الحال على ما ورد به الحديث ؟**))[5].

وينقل الشريف المرتضى (قدس سرّه) النصّ الثاني المتقدّم الّذي نقلناه قبل قليل ليبني عليه الجواب ، ثمّ يقول : ((**ولهذه الآية وجوه من التأويل ؛ كلّ واحد منها يقتضي نزاهة نبيّ الله تعالى من العزم على الفاحشة وإرادة المعصية**))[6] .

---

(1) الخطاوي ، المناهج الرّوائيّة عند الشّريف الرضي ، ص 83.

(2) الشريف المرتضى ، أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) ، ج١ / ص٣١٨.

(3) المصدر نفسه ، ج١ / ص٤٧٧.

(4) سورة يوسف ، آية ٢٤.

(5) الشريف المرتضى ، أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) ، ج١ / ص477.

(6) المصدر نفسه ، ج١ / ص٤٧٨.

وبعد أن ينقل الشريف المرتضى (قدس سرّه) أجوبة عِدّة في تفسير الآية ، يقول : ((**وإنّما أنكرنا ما ادّعاه جهلة المفسّرين ومخرّفوا القصّاص ، وقرفوا به نبي الله (عليه السلام) ، لما في العقول من الأدلّة على أنّ مثل ذلك لا يجوز على الأنبياء (عليهم السلام) ؛ من حيث كان منفّراً عنهم ، وقادحاً في الغرض المجرى إليه بإرسالهم ، والقصّة تشهد بذلك ، لأنّه تعالى قـــال** : ((... كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء))[1] ، **ومن أكبر السوء والفحشاء العزم على الزنا ، ثمّ الأخذ فيه ، والشروع في مقدّماته ، وقوله أيضاً : ((** إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ))[2] **يقتضي تنزيهه عن الهمّ بالزنا ، والعزم عليه ، وحكايته عن النســـوة قولـــهن : ((** حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمـــْنَا عَلَيْـــهِ مِن سُوءٍ))[3] ، **تدلّ أيضاً على براءته من القبيح . وأمّا البرهان الّذي رآه فيحتمل أن يكون لطفاً لطفَ الله له بهِ في تلك الحال أو قبلها ، اختار عنده الانصراف عن المعاصي ، والتنزه عنها ، ويحتمل أيضاً أن يكون البرهان دلالة الله تعالى له على تحريم ذلك عليه ، وعلى أنّ من فَعَلهُ يستحقّ العقاب ، ولا يكون البرهان ما ظنّه الجهّال من رؤية صورة أبيه يعقوب (عليه السلام) متوعّداً له ، أو النداء له بالزجر والتخويف ، لأنّ ذلك ينافي المحنة ، وينقض الغرض بالتكليف ، ويقتضي ألاّ يستحقّ على امتناعه وانزجاره مدحاً ولا ثواباً ، وهذا سوء ثناء على الأنبياء ، وإقدام على قرفهم بما لم يكن منهم))**[4] .

ونرى كذلك أن الشريف المرتضى (قدس سرّه) يبرز مقدرته العقلية في الحديث الّذي روي عن النبيّ (صلّى الله عليه وآله) : ((**إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يَصْرِفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ))**[5] ، فبعد أن ينقل النصّ الأوّل الّذي نقلناه سلفاً ويذكر تأويلات عِدّة لتخريج الخبر ، يقول : ((**ويمكن أن يكون في الخبر وجه آخر على تسليم ما يقترحه المخالفون ، من أنّ الإصبعين هما المخلوقتان من اللّحم والدم ، استظهاراً في الحجّة ، وإقامةً لها على كلّ وجه ، وهو أنّه لا ينكر أن يكون القلب يشتمل عليه جسمان على شكل**

---

(1) سورة يوسف ، آية ٢٤.

(2) سورة يوسف ، آية ٢٤.

(3) سورة يوسف ، آية 51.

(4) الشريف المرتضى ، أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) ، ج١ / ص418.

(5) ابن حنبل ، مسند أبن حنبل ، ج 6/ ص250–251 ؛ وأخرجه مسلم ، كتاب القدر ، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء ، رقم 2654 ؛ ابن حجر ، فتح الباري ، ج13 / ص398.

الإصبعين ، يحرّكه الله تعالى بهما ، ويقلّبه بالفعل فيهما ، ويكون وجه تسميتهما بالأصابع من حيث كانا على شكلهما))[1] .

والوجه في إضافتهما إلى الله تعالى . **((وإن كانت جميع أفعاله تضاف إليه بمعنى الملك والقدرة . أنّه لا يقدر على الفعل فيهما وتحريكهما منفردين عمّا جاورهما غيره تعالى ، فقيل إنّهما إصبعان له ، من حيث اختصّ بالفعل فيهما على هذا الوجه ؛ لأنّ غيره إنّما يقدر على تحريك القلب ، وما هو مجاور للقلب من الأعضاء بتحريك جملة الجسم ، ولا يقدر على تحريكه وتصريفه منفرداً ممّا يجاوره غيره تعالى ، فمن أين للمبطلين المتأوّلين هذه الأخبار بأهوائهم وضعف آرائهم : أنّ الأصابع هاهنا إذا كانت لحماً ودماً فهي جوارح لله تعالى ؟! ، وما هذا الوجه الّذي ذكرناه ببعيد ، وعلى المتأوّل أن يورد كلّ ما يحتمله الكلام ممّا لا تدفعه حجّة ، وإن ترتّب بعضه على بعض في القوّة والوضوح))**[2] .

وفي موضع آخر أضاف الشريف المرتضى (قدس سرّه) ما للعقل دَور في بيان المقصود من الحديث الشريف المذكور آنفاً : **((ما من قلب آدمي إلا وهو بين إصبعين من أصابع الله تعالى، فإذا شاء أن يثبته ثبته ، وإذا شاء أن يقلّبه قلّبه؟))** ، فأجاب : **((قلنا إن لمن تكلم في تأويل هذه الأخبار ولم يدفعها لمنافاتها لأدلة العقول أن يقول إن الإصبع في كلام العرب وان كانت هي الجارحة المخصوصة ، فهي أيضا الأثر الحسن ، يقال لفلان على ماله وإبله إصبع حسنة ، أي قيام واثر حسن ، قال الراعي واسمه عبيد الله بن الحصين ويكنى بأبي جندل، يصف راعيا حسن القيام على إبله مجداً وجوداً ويداً وإصبعاً ، فإن الإصبع في كل ما أوردناه المراد به (الأثر الحسن والنعمة) ، فيكون المعنى ما من آدمي إلا وقلبه بين نعمتين لله تعالى جليلتين فإن قيل : فما معنى تثنية النعمتين ونِعَم الله تعالى على عباده لا تحصى كثرة ، قلنا: يحتمل أن يكون الوجه في ذلك نعم الدنيا ونعم الآخرة ، وثنّاهُما لأنَّهما كالجنسين أو النوعين. وإن كان كل قبيل منهما في نفسه ذا عدد كثير))**[3] .

وقد أيَّد المناوي (ت بعد 1138هـ/ 1725م) ما قاله الشريف المرتضى (قدس سرّه) في توضيح مفهوم الحديث : **((أن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يُقلّبها كيف يشاء))** ، قال : بين اصبعين : **(دون الجمع ، إشارة إلى أن الأصبعين هما ظهور القدرة الربانية بمظهري الخير والشر في قلب العبد)**، لا أنّ لله جارحة (تعالى عن ذلك) ، وعبَّر بالأصبعين دون اليدين ، لأن أسرع التقليب ما قلَّبتهُ الأصابع لصغر حجمها ، فحركتها أسرع

---

[1] الشريف المرتضى ، أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) ، ج1/ ص321.

[2] الشريف المرتضى ، أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) ، ج1/ ص322.

[3] الشريف المرتضى ، تنزيه الأنبياء والأئمّة (عليهم السلام) ، ص174-175.

من حركة اليد وغيرها ، فلمّا كان تقليب الله قلوب عباده أسرع شيء ، خاطب الرسول المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلّم) العرب بما تعقل ، ولم يقول إلاّ ليُفهم ، وبمعرفة المتشابه يتميَّز الفاضل من المفضول ، والعالم من المتعلّم ، والحكيم من المتعجرف ، ومن آمن بالأخبار على ما جاءت به حيثُ أُلبِسَ عليه معرفتها ، لا تجب عليه أن يردّها ردَّ منكِر لها ، بل يؤمن ويسلم ويكُلّها إلى الله ، وردّ متشابه التنزيل والسنّة طريق هيّن يستوي فيه العالم والجاهل ، والسفيه والعاقل ، وإنّما يظهر الفضل بالبحث واستخراج الحكمة والحمل على ما يوافق الأصول والعقول[1].

نستنتج ممَّا تقدّم أن المنهج العقلي الذي اتبعه الشريف المرتضى (قدس سرّه) في تفسير القرآن الكريم والسنّة الشريفة قد صحّحَ الكثير من المغالطات التي وقع فيها علماء التفسير والمحدّثين الذين عاشوا قبله ، وكذلك العلماء الذين جاءوا من بعده مِمَّن أخذوا بظواهر الآيات القرآنية ، والسنّة النبوية الشريفة .

المبحث الثالث: التأويل العقلي للشريف المرتضى ودوره في رفع التعارض بين القرآن والسنّة .

المعطيات والمشتركات بين القرآن الكريم والسنّة الشريفة كثيرة ويعضد بعضها البعض الآخر في إنارة الواقع ، وتقوية السبيل في توضيح وتركيز المفاهيم الإسلاميّة الصحيحة .

وقد يبدو التضادّ بين القرآن الكريم والسنّة الشريفة نتيجة عدم تصوّر صحيح للمسألة ، أو عدم معرفة واضحة لأحد طرفي التضادّ والنزاع ، ومن هذا سوف تلوح علامات الاستغراب في رؤية الأدلّة من دون تحقيق وتمحيص ، وهذا شيء متعارف في عرف الشريعة المقدّسة إذا لم يعمل النظر إلى المخصِّصات والعمومات ، ولكن بنظرة دقيقة ترتفع هذه الإشكالات ويمكن التغلّب عليها[2] .

اعتقد الشريف المرتضى (قدس سرّه) أنّ الأدلّة العقلية الواضحة الّتي لا يدخلها الاحتمال ولا الاتساع ، والمجاز لابدّ أن يصرف ما ظاهره بخلاف هذه الأدلّة إلى ما يطابقها.

---

[1] المناوي ، فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير ، ج2/ ص135.

[2] الخطاوي ، المناهج الرّوائيّة عند الشّريف الرضي ، ص88.

ومن هذا المنطلق نرى تأويل الخبر الّذي روي عن النبيّ (صلّى الله عليه وآله) : ((**إنّ الميّت لَيعذّب ببكاء الحيّ عليه**)) ، وفي رواية أُخرى : ((**إنّ الميّت يعذّب في قبره بالنياحة عليه**))[1]. وهكذا روايات أُخرى بهذين المضمونين .

والمشكلة في هذه الروايات عندما رأينا تعارضها مع صريح الآيات مثل قوله تعالى : ((**وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**))[2]، فإنّ قبح مؤاخذة أحد بذنب غيره يدلّ عليه صريح النصّ العقلي[3] .

ويؤسّس الشريف المرتضى (قدس سرّه) قاعدته العقلية المعروفة ، وهي : أنّ المرجع الأوّل والأخير في المعرفة الدينية أدلّة العقول ، وقال في ذلك : ((**إنّا إذا كنّا قد علمنا بأدلّة العقل ، الّتي لا يدخلها الاحتمال والاتساع والمجاز ، قبح مؤاخذة أحد بذنب غيره ، وعلمنا أيضاً ذلك بأدلّة السمع مثل قوله تعالى : (وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) فلابدّ أن نصرف ما ظاهره بخلاف هذه الأدلّة إلى ما يطابقها**))[4] ، ثمّ يشرع الشريف المرتضى بتوجيه هذه الأخبار بما يطابق الأدلّة العقلية الواضحة الّتي لا غبار عليها .

ومما تقدّم يمكن القول استحالة الجمع بين مدلول الحديث ومدلول الآية الكريمة ، وذلك أن الحديث ينهى عن البكاء على الموتى ، وهو أمر يخالف فعل النبي حين دمعت عيناه ، وكَثُر بكاؤه على ولده إبراهيم حين مات حتى قال صلى الله عليه وآله وسلّم : ((**إن العين لتدمع والقلب ليحزن ، ولا نقول إلاّ ما يرضي ربّنا ، وإنّا يا إبراهيم لمحزونون**))[5].

ويمكن القول إنَّ المراد من إنّ الميّت الذي يعذّب ببكاء أهله عليه هو من أوصى بالنياح عليه بعد موته ، أو كانت هذه سنّتهِ ، فيستحق العذاب بما أوصى به[6].

إنَّ الذين يجمعون بين مدلول الحديث ومدلول الآية إنّما يرمون من وراء ذلك إلى تشكيك المسلمين في السنّة المطهرّة بأيهامهم بوجود تعارض بين القرآن والسنّة الصحيحة[7].

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز: باب البكاء عند المريض ، ج3/ص527 ، برقم:1304 ؛ وأخرجه مسلم في كتاب الجنائز: باب البكاء على الميت ، ج2/ ص636، برقم :924.

(2) سورة الأنعام ، آية 164.

(3) الخطاوي ، المناهج الرّوائيّة عند الشّريف الرضي ، ص 86.

(4) الشريف المرتضى ، أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) ، ج1/ ص340.

(5) البخاري ، صحيح البخاري ، ج2/ ص 105، رقم 1241 ، (كتاب الجنائز) باب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنا بك لمحزونون.

(6) عفانة ، دور السنّة في إعادة بناء الأمة ، ص117.

(7) الجديع ، تحرير علوم الحديث ، ص94.

ولا يصحّ الأعتقاد بوجود تعارض بين نصوص القرآن الكريم والسنّة الصحيحة نظراً لوحدة المصدر ، فكلاهما من عند الله ، كما أنّه لا يمكن أن يتعارض كلام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) مع كتاب الله أبداً ، وهو المبيّن عن الله وَحيهِ[1].

وفي هذا المجال نرى الشريف المرتضى (قدس سرّه) ينطلق من ركائزه العقلية في وضع منهج مشترك موحّد بين القرآن الكريم والسنّة الشريفة . فعندما أسّس بنيانه على القواعد العقلية الواضحة اعتبر القرآن الكريم أحد الأدلّة الواضحة الّتي تقوُّم سائر الأدّلة عليها في تشخيص الواقع .

ومن ذلك نرى أنّه يعاضد الأدلّة بعضها مع البعض الآخر ، فيأتي بالحديث ويعضده بالقرآن وهكذا بالعكس ، وهذا إذا دلّ على شيء فإنّما يدل على المعطيات المشتركة بين القرآن الكريم والسنّة الشريفة .

الخاتمة

في ختام دراستنا المعنونة **(منهج الشريف المرتضى العقلي في تفسير القرآن الكريم)** ، لابدّ من تسجيل أهم النتائج التي توصلنا إليها. إذ أوضحت لنا الدراسة بعض الحقائق منها:

إنَّ الشريف المرتضى (قدس سرّه) أنطلق من ركائزه العقلية في وضع منهج مشترك موحّد بين القرآن الكريم والسنّة الشريفة . فعندما أسّس بنيانه على القواعد العقلية الواضحة اعتبر القرآن الكريم أحد الأدلّة الواضحة الّتي تقوُّم سائر الأدّلة عليها في تشخيص الواقع ، وذلك أنّه أعتبر العقل الركيزة الأساسية في المنظومة المعرفية ، بل هو الحاكم في رفع التنازع بين الأدّلة بجميع أطرافها (قرآناً وسنّة) ، لأنّه الدعامة الرئيسة في واقع التشريع الإسلامي.

وقد يبدو التعارض واضحاً في بعض الأدلّة الشرعية ، كما هو كثير بين القرآن الكريم والسنّة الشريفة ، وذلك لعدم تصوّر صحيح للمسألة ، وعدم معرفة واضحة لأحد طرفي التضادّ والنزاع ، وهنا لا بدَّ من الاحتفاظ بظاهر الأدلّة التي يمكن من خلالها تصحيح الواقع ورفع التناقض .

كما نبّهَ الشريف المرتضى (قدس سرّه) على أن السنّة الشريفة الواضحة هي بمثابة البرهان العقلي ، كما كان القرآن الكريم البرهان العقلي .

ومن ذلك نرى أن الشريف المرتضى (قدس سرّه) يعاضد الأدلّة بعضها مع البعض الآخر ، فيأتي بالحديث ويعضده بالقرآن ، وهكذا بالعكس ، وهذا إذا دلّ على شيء فإنّما يدل على

---

[1] حمّاد ، مختلف الحديث بين الفقهاء والمحدثين ، ص133.

المعطيات المشتركة بين القرآن الكريم والسنّة الشريفة ، وأن حدود القرآن والسنّة واحدة فأحدهما يدلّ على الآخر ، فالعطاء واحد والأحكام واحدة.

وبهذه الأُمور الصريحة وما شابهها هي المنهج الّذي أتبعه الشريف المرتضى (قدس سرّه) في الاشتراك العلمي بين القرآن الكريم والسنّة الشريفة ، ويمكن من خلاله أن نخرج بنتائج موحّدة .

قائمة المصادر والمراجع

*** القران الكريم.**

أولاً: المصادر الأولية.

*** البغدادي، إسماعيل باشا بن محمد،(ت 1339هـ/ 1920م).**

1- إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، تحقيق: محمد شرف الدين، دار إحياء التراث العربي،(بيروت – د.ت).

*** البخاري ، محمد بن إسماعيل (ت256هـ/869م).**

2- صحيح البخاري ، دار الفكر للطباعة، (بيروت- 1981م).

*** الثعالبي ، عبد الملك النيسابوري (ت429هـ/1037م).**

3- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، تحقيق: مفيد محمد ، (بيروت- 1983م).

*** ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت597هـ/ 1200م).**

4- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دراسة وتحقيق محمد ومصطفى عبد القادر عطا، مراجعة نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، (بيروت، د – ت).

*** الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت393هـ/1002م).**

5- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور ، ط4، (بيروت – 1407هـ).

*** ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، (852هـ/ 1448م).**

6- فتح الباري شرح صحيح البخاري، ط2، دار المعرفة للطباعة والنسر،(بيروت – د.ت).

*** الحموي ، ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت626هـ/1229م).**

7- معجم الأدباء ، ط3، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ،(بيروت- 1980م).

*** ابن حنبل ، أحمد بن محمّد الشيباني (ت٢٤١هـ/854م)**

8- مسند أحمد ، تحقيق : عبد الله محمّد الدرويش ، دار الفكر (بيروت – ١٤١٤ هـ) .

*** الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (ت463هـ/ 1070م).**

9- تاريخ بغداد ، دار الكتاب العربي (بيروت ، د – ت).

*** الخوانساري , محمد باقر الموسوي الاصفهاني (ت 1313هـ/ 1895م) .**

10- روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات , ط2 (الكويت- 1367هـ) .

*** الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت748هـ/ 1347م).**

11- سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد العرقسوسي، ط9، مؤسسة الرسالة (بيروت – 1413م).

*** السبكي ، عبد الوهاب بن علي (ت771هـ/1369م).**

12- طبقات الشافعية الكبرى، ط2، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو ،(الجيزة – 1992م).

*** السيوطي ، جلال الدين بن عبد الرحمن (ت911هـ/1505م).**

13- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ،تح: محمد ابو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية،(بيروت – 2006م).

14- تاريخ الخلفاء ، تحقيق: محمد احمد عيسى ، دار الغد الجديد،(القاهرة – 2007م).

*** الشريف المرتضى ، علم الهدى علي بن الحسين الموسوي (436هـ/1044م).**

15- أمالي السيّد المرتضى (غرر الفرائد ودرر القلائد) ، تحقيق : محمّد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربيّة (بيروت ، د–ت).

16- الإنتصار ، تحقيق ونشر : مؤسسة النشر الإسلامي ، (قم – 1415هـ).

17- تنزيه الأنبياء والأئمّة (عليهم السلام) ، منشورات الشريف الرضي (قم ، د – ت)

18- رسائل الشريف المرتضى ، ج 1 ، تقديم : السيد أحمد الحسيني ، إعداد : السيد مهدي الرجائي ، دار القرآن الكريم ، (قم – 1405هـ).

*** الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت764هـ/ 1362م).**

19- الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط ، دار إحياء التراث (بيروت – 2000م).

*** الطوسي ، محمد بن الحسن (ت460هـ/1066م).**

20- الفهرست ، تحقيق : جواد القيومي ، مؤسسة نشر الفقاهه ،(ل–م ، 1997م).

*** ابن عبد ربه ، احمد بن محمد (ت328هـ/939م).**

21- العقِد الفريد ، ط3، دار إحياء التراث العربي،(بيروت –1989م).

*** ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد (ت660هـ/ 1262م).**

22- بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق د. سهيل زكار ، دار الفكر (بيروت –1988م).

*** ابن العماد الحنبلي، أبو فلاح عبد الحي بن أحمد (ت1089هـ/ 1678م).**

23- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ، دار الكتب العلمية ،(بيروت– د.ت).

*** الفيروز آبادي , مجد الدين محمد بن يعقوب (ت 817هـ/ 1414م) .**

24- القاموس المحيط , دار الكتب العلمية (بيروت- 1999م) .

*** ابن قاضي شهبه ، ابو بكر بن احمد بن محمد (ت851هـ/1447م).**

25- طبقات الشافعية ، تحقيق: عبد العليم خان، عالم الكتب،(بيروت -1987م).

*** ابن كثير، عماد الدين إسماعيل بن عمر (ت774هـ/ 1372م).**

26- البداية والنهاية ، تحقيق: علي شيري ، دار إحياء التراث العربي،(بيروت -1988م).

*** المسعودي، علي بن الحسين بن علي (ت346هـ/957م).**

27- التنبيه والإشراف ، دار صعب ، (بيروت ، د-ت).

*** مسلم ، مسلم بن الحجاج (ت261هـ/874م).**

28- صحيح مسلم ، دار الفكر، (بيروت – د.ت).

المناوي ، محمد بن عبد الرؤوف (ت1031هـ/1621م).

29- فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير، (بيروت -1990م).

*** ابن منظور، محمد بن مكرم المصري (ت711هـ/1311م).**

30- لسان العرب، دار صادر (بيروت، د – ت).

*** ابن الوردي ، عمر بن مظفر (ت749هـ/1348م).**

31- تاريخ ابن الوردي ، دار الكتب العلمية ، (بيروت -1996م).

ثانياً : المراجع .

*** الأميني، السيد محسن العاملي.**

32- أعيان الشيعة ، تحقيق وتخريج حسن الأمين ، ط5 ، دار التعارف (بيروت-1983م).

*** الجديع ، عبد الله يوسف .**

33- تحرير علوم الحديث ، ط3 ، مؤسسة الريان ، (بيروت – 2007م).

*** حمّاد ، نافذ حسين.**

34- مختلف الحديث بين الفقهاء والمحدثين ، دار النوادر ، (دمشق – 2007م).

*** الخَطاوي ، وِسامُ.**

35- المناهج الرّوائيّة عند الشّريف الرضي ، دار الحديث للطباعة والنشر (قم-١٤٢٧هـ).

*** عفانة ، جواد موسى محمد .**

36- دور السنّة في إعادة بناء الأمة ، المطابع التعاونية ، (الأردن – 1999م).

*** القمي : عباس بن محمد رضا.**

37- الكنى والألقاب ، مكتبة الصدر،(طهران ، د- ت).

هل تنطوي المرابحة للآمر بالشراء على مخاطر التجارة؟

احمد حمود منصور المعموري
كلية الم عارف الجامعة / قسم العلوم المالية و المصرفية
ahm171957@gmail.com 07815645434

ملخص الدراسة:

تتناول الدراسة بيان المخاطر التي تنطوي عليها المرابحة للأمر بالشراء التي تجريها المصارف الاسلامية التي أصبحت من أكثر صيغ التمويل التي تمارسها ، وبيان ما اذا كانت هي نفسها التي تنطوي عليها مخاطر التجارة التي تمارس وسيطة بين المصرف الاسلامي وزبونه طالب التمويل لشراء السلعة.من قبل التجار أفرادا ومؤسسات. وتبين من الدراسة الى ان المرابحة للأمر بالشراء لا تنطوي على اي من مخاطر التجارة الحقيقة (كمخاطر تغير السعر ومخاطر تقلب الطلب ، ومخاطر تغير الأذواق للمستهلكين)، وهي وان كانت تنطوي على بعض المخاطر(غير الحقيقة) كمخاطر (النكول ، والتلف او الهلاك قبل التسليم ، والرد بالعيب الخفي ، ومخاطر التخلف عن السداد) إلا ان المصارف الاسلامية اتخذت من الإجراءات ووضعت من الشروط ما جعل هذه العملية تكاد ان تكون خالية من المخاطر ان لم تكن كذلك. وتوصلت الدراسة الى ان المرابحة للأمر بالشراء كما تجريها المصارف الاسلامية هي تطويع لعملية الإقراض في المصارف التقليدية بادخال سلعة

Is almurabha for an order to buy involving the risk of real trade?

Abstract:

Study addresses the risk involved in Murabaha for an order to buy carried out by Islamic banks، which have become more financing formulas practiced by Islamic banks، and indicate whether are that involve risk trade، which is practiced by individual and institutional traders. The study found that the Murabaha for an order to buy does not involve any risk of real trade (risk of change in price and the risk of variability demand، and the risks of changing tastes of consumers)، which is that they involve some risk (non-real) such as (withdraw from، and damage or loss before delivery ، reply hidden defect، and the risk of default)، but Islamic banks have taken action and set of conditions that make this process almost be free of risks that were not. The study found that the Murabaha for an order to buy as carried out by Islamic banks are adapting to the lending process in conventional banks by introducing an intermediate good between the Islamic bank and its customer financing for the purchase of demanded Item.

مقدمة:

من المعروف أن المصارف الإسلامية إنما قامت على أساس الابتعاد عن التعامل بالفائدة المصرفية (الربا) أخذا وعطاء ، وعلى أساس المشاركة في الربح والمخاطر مع زبائنها. ومن حيث مصادر التمويل واستخداماتها تعمل على أساس المضاربة في جانب الخصوم وفي جانب الأصول،وتكون صيغة المشاركة في الربح هي التي تحل محل التمويل ألربوي ،ووفقا لهذا النموذج فان جميع الأصول تمول من أموال استقطبت على أساس ألمضاربه والمشاركة في الربح وهذا هو النموذج الأساس لها والذي يقوم كذلك بدور الوسائط الاستثمارية أكثر منه مصرفا تجاريا تقليديا. ولما كنت المضاربة في جانب الأصول تنطوي على مخاطر كبيرة – يبدو إن المصارف الإسلامية غير قادرة على تحملها- فابتدعت نموذجا أخرا هو نموذج المضاربة من طرف واحد في جانب الخصوم فقط ، مع استخدام صيغ متعددة في جانب الاصول. ولما واجهت اغلب المصارف الإسلامية عدة عقبات عملية وتشغيلية، ربما حالت دون استخدام صيغ المضاربة والمشاركة في الربح في جانب الأصول – تجنبا لما تنطوي عليه من مخاطرة – لذا فقد آثرت اغلب المصارف الإسلامية أن تستخدم صيغ التمويل ذات الدخل الثابت كأدوات تمويل في جانب الأصول، وان صيغ التمويل بالدخل الثابت تضم المرابحة،والإجارة،والسلم والاستصناع...(طارق الله خان،حبيب احمد 2002 ص64).

ومن صيغ التمويل بالدخل الثابت اختارت المصارف الإسلامية صيغة المرابحة، واختارت لها أسلوب خاص في تطبيقها ، فالمرابحة كما تجريها معظم المصارف الإسلامية ليست المذكورة في كتب الفقه والمبحوثة في مختلف المذاهب الفقهية المعتبرة ، فالمرابحة عند الفقهاء هي نوع من التجارة يكشف فيها التاجر للمشتري رأسماله في السلعة الموجودة في حوزته ، وذلك بحسب ما اشتراها وبما قامت عليه ثم يضيف ربحا مبينا معلوما،أما بيع المرابحة الذي تجريه المصارف الإسلامية فيبدأ من عند صاحب الحاجة (عطية 1986ص9).

وبهذا فان المصارف الإسلامية اختارت من المرابحة صيغة أخرى هي المرابحة للأمر بالشراء لما فيها من مزايا عديدة كأداة تمويل ذات دخل ثابت والتي أضحت تشكل ما نسبته (90 – 93%) من مجموع ألتوظيفات المالية في المصارف الإسلامية (السالوس 2002 ص777 ؛ أرشيد 2007 ص79).

والمرابحة للآمر بالشراء من لحظة ميلادها إلى ألان بين مجيز لها ومعتقد أنها فتحا مبينا للمصارف الإسلامية، وما بين مانع لها ومعتقد أنها البلاء إذ أصبحت في حقيقتها وشكلها لا

تختلف عن التمويل ألربوي إلا في الاسم فقط مما أزعج ألكثيرين حتى ممن كانوا مساندين لها في بادئ الأمر(عطية 1986 ص 9 ؛ ألكبي2002 ص311 ؛ طارق الله خان2002 ص69 ؛ ألهيتي 1998 ص510-511 ؛ شيخون 2002 ص141).

مشكلة البحث:

تتمثل مشكلة البحث في الإجابة على الأسئلة التالية:

1- هل المرابحة للأمر بالشراء تنطوي على المخاطر الحقيقة للعمل التجاري ؟
2- هل الربح الذي تحصل علية المصارف الإسلامية من المرابحة للأمر بالشراء يناظر ربح التجارة ؟
3- هل المرابحة للأمر بالشراء عمل تجاري أم تمويل مالي ؟

هدف البحث:

يهدف البحث إلى بيان ما إذا كانت المصارف الإسلامية بممارستها للمرابحة للأمر بالشراء تتعرض للمخاطر التي ينطوي عليها العمل التجاري كما تجريه المؤسسات التجارية والتجار ام لا فضلا عن بيان ما إذا كانت المصارف الإسلامية عندما اختارت هذه الأداة التمويلية هل لأنها تتماشى وروح الشريعة الإسلامية ؟ أم لأنها تعطي دخلا ثابتا مؤكدا ولانتفاء المخاطر فيها عكس الصيغ الأخرى كالمشاركة والمضاربة؟

أهمية البحث :

تكمن أهمية البحث في أهمية الهدف منه ، ومن كون المرابحة للآمر بالشراء أصبحت تطغى على أدوات التمويل الأخرى التي هي أكثر تماشيا مع الهدف الذي أنشأت من اجله المصارف الإسلامية بمشاركة زبائنها في الربح والمخاطر. فقد أصبحت المرابحة للأمر بالشراء تشكل ما يزيد عن 90% من أدوات التمويل الأخرى كالمشاركة والمضاربة.

فرضية البحث:

المرابحة للأمر بالشراء كما تجريها المصارف الإسلامية لاتنطوي على مخاطر العمل التجاري الذي يمارسه التجار والمؤسسات التجارية.

منهجية البحث:

يعتمد البحث المنهج التحليلي الوصفي لما تم الحصول علية من معلومات من المراجع والكتب والأبحاث التي تم الاطلاع عليها وما تكون لدى الباحث من معرفة وخبرة من خلال تدريسه لإدارة المخاطر المالية لخمس سنوات دراسية في كلية التجارة بجامعة إب اليمنية .

تعريف المرابحة :

المرابحة في اللغة مصدر مشتق من الربح وهو النماء والزيادة (الشرباصي:1988، ص188).ورد في المصباح المنير، يقال بعت المتاع واشتريت منه مرابحة إذا سميت لكل قدر من الثمن ربحا)، (إلهيتي:1998،ص509)0 وهي احد أنواع بيوع الأمانات .

أما في الاصطلاح فقد كاد فقهاء وعلماء المسلمين أن يجمعوا على مفهوم واحد دون اختلاف كبير فيما يلي بعض منها:

فعرفت (أنها بيع مرتب ثمنه على ثمن بيع تقدمه غير لازم مساواته له)،(الدسوقي: 3 / 159). وعرفت أنها (عقد بني الثمن فيه على ثمن المبيع الأول مع زيادة)،(الرافعي :9 / 5). وإنها (هو البيع برأسمال معلوم وربح معلوم)، (ابن قدامه: 4 / 129). وإنها (هي نقل المبيع بالثمن الأول وزيادة)، (الشوكاني: 681/2).

ومنها يتبين أن مفهوم المرابحة هو عقد بيع بين طرفين هما البائع والمشتري، وصورتها أن يذكر البائع -الذي هوالتاجر-للمشتري الثمن الذي اشترى به السلعة أو ما قامت عليه ويشترط عليه ربحا معلوما وهي جائزة باتفاقهم. قال الكاساني،5 /220 : "الناس توارثوا هذه ألبيوعات-المرابحة-وغيرها في سائر الإعصار من غير نكير وذلك على إجماع جوازها ".

أما حكمها فلا خلاف بين العلماء في جواز هذا العقد فيما لو قال صاحب السلعة للمشتري :هي علي بمائة درهم ، بعتك إياها وربح عشرة، وإنما وقع الخلاف فيما لو قال له: هي علي بمائة درهم بعتك بها واربح في كل عشرة درهما (ابن قدامة،4 / 199).*

ولما كانت المرابحة هي عقد بيع فإنها تقع على من اشترى السلعة وملكها ثم يبيعها بزيادة معلومة على الثمن الأول بعد تملكه لها (ألكبي 2002 ص311). أما إذا قبل بيعا بلا ربح أو خسارة فهو بيع تولية ، أما إذا قبل بيعها بأقل من تكلفتها فهو بيع الحطيطة (الوضيعة) (أرشيد 2007 ص73) . وتملك السلعة يعني تحمله للمخاطر التي تنطوي عليها التجارة التي سيتم تناولها لاحقا.هذا ويطلق على بيع المرابحة هذا بالمرابحة البسيطة تمييزا له عن المرابحة للأمر بالشراء (إلهيتي 1998 ص509-514).

المرابحة للأمر بالشراء:

وهي "طلب الفرد أو المشتري من شخص أخر أن يشتري سلعة معينة بمواصفات محددة وذلك على أساس وعد منه بشراء تلك السلعة اللازمة له مرابحة بالنسبة أو الربح المتفق عليه، وبدفع الثمن على دفعات أو أقساط تبعا لإمكانياته وقدرته المالية" (مشهور1991 ص334)،

أو هي" طلب احد العملاء من البنك شراء منتجات له يحددها العميل ويبين مواصفاتها على أن يقوم بشرائها من البنك مرابحة ويدفع الثمن إما نقدا أو على أقساط يتم الاتفاق عليها بين البنك والعميل" (المغربي 2004 ص373). والأغلب هو الدفع على أقساط .

وصورتها أن يلجأ إلى ألمصرف زبون يحتاج إلى شراء سلعة لا يتوفر لديه ثمنها، فيحدد للمصرف مواصفاتها ويطلب منه أن يشتريها نقدا ويبيعها عليه بثمن مؤجل ، يمكن أن يكون على أقساط، حيث تتحدد كلفة شراء المصرف لها وهامش ربحه (ألأسلامبولي 2005 ص60).

من التعريفين السابقين فان عناصر بيع المرابحة للأمر بالشراء هي:

1- طلب شراء مقدم من الزبون إلى المصرف الإسلامي بشراء سلعة بمواصفات محددة يقابله قبول من المصرف.
2- وعد من الزبون بشراء السلعة بعد تملكها من المصرف ومطابقتها للمواصفات المحددة مع التزام المصرف بالبيع.
3- قيام المصرف بشراء السلعة من مصدرها نقدا –كما تشير إلى ذلك مؤلفات المصارف الإسلامية وبيعها للأمر بالشراء، وغالبا ما يكون البيع بالأجل مع زيادة على الثمن متفق عليها مقدما، قد تكون محددة، أو نسبة من كلفة البضاعة وهو الأغلب .

وقد ثار الجدل والنقاش حول بيع المرابحة للأمر بالشراء فمنهم من يرى انه لا يختلف عن القرض ألربوي ، ومنهم يرون انه بيع فقد بعض شروطه، وآخرون يرون انه بيع صحيح (السالوس 2002 ص900 ؛ أرشيد ’2007 ص76). ومثار الخلاف والجدل كان ولا يزال هو مدى كون الوعد بالشراء ملزما أم غير ملزم . وهذا الالزام بالوعد او عدمه هو الذي يحدد ما اذا كان المصرف الاسلامي يتعرض لمخاطر المؤسسات التجارية ام لا.

حكم الوعد الملزم:

مما لا شك فيه أن الوفاء بالوعد مباح شرعا إلا الوعد بشيء منهي عنه ،قال ابن حزم في (المحلى، 8 /29) "من وعد بما لايحل أو عاهد على معصية، فلا يحل له الوفاء بشيء من ذلك". وكثرة الوعود قد تؤدي إلى العجز عن الوفاء،خاصة إذا ما علمنا أن الوفاء يتعلق بأمر في المستقبل، وإذا اخلف الواعد عن الوفاء فيوصم بالنفاق.وليس كل التصرفات يدخلها الوعد. فالتصرفات التي يدخلها الوعد "هي التصرفات التي تنطوي تحت التبرعات، كالقرض والإعارة والهبة وما شابهها ’أما التصرفات التي هي من ألمعاوضات، كالبيع والإجارة، ويلحق بها النكاح، فان الوعد بها لا يلزم ولا يلزم الوفاء بها"(الاسلامبولي 2003 ص48) ويستشهد على ذلك ما ذكره الإمام الحطاب في كتابه تحرير الكلام (حيث ذكره الشيخ عليش في فتح العلي المالك ،ج1،

ص217)"مدلول الالتزام لغة إلزام الشخص نفسه ما لم يكن لازما له، وهو بهذا المعنى شامل للبيع والإجارة والنكاح وسائر العقود. وأما في عرف الفقهاء، فهو إلزام الشخص نفسه شيئا من المعروف مطلقا أو معلقا على شيء فهو بمعنى العطية. وفي المرابحة للأمر بالشراء باعتبارها من المعاوضات فاختلف الفقهاء والعلماء بشأن مدى إلزام الوعد بالشراء فيها،فمنهم من يعارض ذلك ومنهم من يؤيد إلزام الأمر بالشراء بالوعد الذي ألزم به نفسه. وأبين الرأيين بشيء من الإيجاز.

ورد في كتاب ألام للإمام (الشافعي 33/3) "وإذا أرى الرجل الرجل السلعة ،فقال :اشتر هذه وأربحك فيها كذا ،فاشتراها الرجل فالشراء جائز، والذي قال أربحك فيها بالخيار إن شاء احدث فيها بيعا وان شاء تركه،وهكذا إن قال اشتري لي متاعا ووصفه لهو أو أي متاع شئت وأنا أربحك فيه ،فكل هذا سواء، يجوز البيع الأول ، ويكون هذا فيما أعطى نفسه خيار ، وسواء في هذا ما وصفت ا ن كان قال: ابتاعه واشتريه منك بنقد، أو بدين ،يجوز البيع الأول ، ويكونان بالخيار في البيع الثاني، فان جدداه جاز، وان تبايعا على إن ألزما أنفسهما الأمر الأول فهو مفسوخ من قبل شيئين :احدهما أنهما تبايعا قبل أن يملكه البائع، والثاني أنه على مخاطرة انك إن اشتريته على كذا أربحك فيه كذا ". .قال عبد الرحمن بن الحجاج قلت: للإمام الصادق يجيء الرجل فيطلب المتاع، فأشتريه ثم أبيعه منه ؟ قال : أليس إنشاء ترك ، وان شاء أخذ؟ قلت بلى، قال : لا بأس به (شيخون 2002 ص141).وجاء في كتاب الحيل للإمام محمد بن الحسن الشيباني: (قلت أرأيت رجلا أمر رجلا إن يشتري دارا بألف درهم، واخبره انه إن فعل اشتراها الأمر بألف ومائة درهم، فأراد المأمور شراء الدار ،ثم خاف إن اشتراها أن يبدو للأمر فلا يأخذها فتبقى في يد المأمور،كيف الحيلة إلى ذلك ؟ قال : يشتري المأمور الدار على انه بالخيار منها ثلاثة أيام ، ويقبضها ويجيء الأمر،ويبدأ فيقول:قد أخذت منك هذه الدار بألف ومائة درهم ، فيقول المأمور: وهي لك بذلك ،فيكون الآمر لازما، ويكون إستيجابا من المأمور للمشتري وان لم يرغب ألآمر في شرائها، تمكن المأمور من ردها بشرط الخيار فيدفع عنه الضرر بذلك) (شيخون 2002 ص520). وبعض الفقهاء يحرم استخدام الحيل لتحليل ما حرمته الشريعة. فالأقوال الثلاثة لا تجيز إلزام طالب السلعة بالشراء- ما يعرف حاليا بالوعد الملزم- استنادا إلى حديث " المتبايعان بالخيار ما لم يتفرقا ". ويورد (الدبيان، 2011) قولا للدكتور محمد الأشقر حيث يقول: "ولم نجد أحدا من العلماء السابقين من قال بهذا القول -الالزام بالوعد- القول بعد التحميص، وبعد التعب في البحث، وما نسب الى المالكية والى ابن شبرمة القاضي، ولا تصح هذه النسبة". ومن المعاصرين من ذهب إلى عدم جواز المرابحة للأمر بالشراء ما دام يتضمن

شرط الإلزام ومنهم الدكتور رفيق المصري، والشيخ عبد الرحمن عبد الخالق، ومحمد سلمان الأشقر، والدكتور حسن عبدا الله الأمين، والدكتور عبد الرزاق إلهيتي، **والدكتور الصديق الضرير، والشيخ بكر أبو زيد، والشيخ سليمان بن تركي التركي،** والشيخ محمد نجيب المطبعي والدكتور سعد الدين محمد ألكبي، والشيخ دبيان الدبيان ويوسف كمال ورفيق المصري،واللجنة الدائمة للإفتاء في السعودية، وبه اخذ مجمع الفقه الاسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي بقرار رقم(2،3) (الهيتي 1998ص521-528؛ ألكبي2002 ص 209؛ الدبيان 2011 ؛ يوسف كمال 1998 ص274 ؛ رفيق المصري2003 ص119-121).وبرروا آرائهم أنها تدخل في بيع ما لا يملك أو بيع ما لا يقبض، مستندين للأحاديث الشريفة التي ورد في ذلك. فقد جاء في (زاد المعاد: 417/5) في حديث حكيم بن حزام قال :" قلت يا رسول الله يأتيني الرجل يسألني ما ليس عندي فأبيعه منه ثم ابتاعه من السوق ،فقال : لاتبع ما ليس عندك". وفي (السيل الجرار، 2 /573)عن حكيم بن حزام :قال قلت يا رسول الله إنني اشتري بيوعا فما يحل فيها وما يحرم علي : قال : "إذا اشتريت شيئا فلا تبعه حتى تقبضه ". وفي حديث زيد بن ثابت: "نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تباع السلع حيث تباع حتى يحوزها التجار إلى رحالهم "،(فتح الباري، 442/4).وإنما كان الرأي بالوعد بصوره عامة ويغلب على الوعد بالهبات وفيه ثلاثة أراء(المصري 2002 ص119 ؛ ألأسلامبولي 2003 ص49-51).هي:

الأول:الوفاء بالوعد مستحب وليس واجب وهو رأي جمهور الفقهاء من أحناف وشافعية وحنابلة وظاهرية وبعض المالكية.

الثاني: الوفاء بالوعد واجب إلا لعذر وبه قال ابن شبرمة.

الثالث: الوفاء بالوعد واجب إذا كان الوعد مرتبطا بسبب ثم باشر الموعود السبب معتمدا على وعد الواعد فان الواعد يكون ملزما بالوفاء بوعده،ويقضي عليه بذلك الوعد. كان يقول الرجل لصديقه:تزوج ومهرك علي،ثم قام صديقه بالشروع في الزواج اعتمادا على ذلك الوعد. وهذا هو الراجح في المذهب المالكي..

والرأيين الأخيرين بعض العلماء لايرى صحتها، فينقل (الدبيان 2011) عن الدكتور محمد الاشقر قوله: "وما نسب الى المالكية والقاضي ابن شبرمة لا تصح هذه النسبة. لكن بعض الفقهاء المعاصرين كما يقول(المصري 2003 ص119-120) قد نقلوا هذا الوعد من باب التبرعات إلى باب المعاوضات ليحل محل العقد، فلما وجد هؤلاء أن المرابحة لا تجوز لأنها تدخل في بيع ما ليس عندك، فاستبدلوا الوعد بالعقد، أي جعلوا العقد وعدا وجعلوا الوعد ملزما... وخوفوا الناس من عدم الوفاء بالوعد، فحل الوعد الملزم الحلال عندهم ’محل العقد

الحرام في ألشرع. ومن الذين قالوا بالوعد الملزم الشيخ مصطفى الزرقا، والدكتور يوسف القرضاوي،والدكتور حسن الشاذلي،والشيخ محمد المختار ألسلامي، والشيخ محمد تقي عثمان، والشيخ عبدا لله المنيع، والشيخ عبد الستار أبو غده، والشيخ علي القره داغي، والدكتور سامي حمود، والدكتور عبد الحميد ألبعلي والدكتور محمد بدوي ،والشيخ عبد الحميد السائح، والأستاذ إبراهيم الدبو(المصري 2003 ص120 ؛ألهيتي 1998 ص524)، -وجل هؤلاء أعضاء في هيئة الرقابة الشرعية في عدد من المصارف الاسلامية- وفتوى المؤتمر الثاني للمصرف الإسلامي الذي عقد سنة 1983.

وإن تدعي بعض المصارف الإسلامية أن وعدها غير ملزم ، لكن إذا لم يف الزبون بوعده حملته الضرر الناجم عن عدم الوفاء بالوعد (المصري 2003 ص120). وتحميل الزبون الضرر في حالة تراجعه عن الشراء يعني بصورة أو أخرى إلزامه بالشراء.إن الفتاوى والقرارات التي أقرت بإلزام الوعد للآمر بالشراء دفع بمعظم المصارف الإسلامية لان توجه جل استثماراتها نحو المرابحة للأمر بالشراء، التي أصبحت تسيطر على المصارف الإسلامية تليها الإجارة بدلا من الأدوات الأخرى كالمشاركة والمضاربة (صديقي 1424هـ ص291) . فقد قدرت نسبة التمويل للمرابحة والمرابحة للأمر بالشراء إلى المضاربة والمشاركة في عدد من المصارف الإسلامية للفترة من 1999-2005م ، ما مقداره، 96% في المصرف الإسلامي الأردني ،97%في مصرف أبو ظبي الإسلامي، 91%في البحرين الإسلامي ،90%في المصرف العربي الإسلامي الأردني ، و70% في مصرف دبي الإسلامي (عيادة 2008 ص250).وبلغت نسبا كبرى من الأعمال الإجمالية لبعض المصارف الإسلامية كما في الباكستان 90% وفي قطر98% وفي تركيا مؤسسة فيصل المالية94% (ابو زيد ص80) وقدرت المربحات في سوق السلع الدولية وخاصة في سوق لندن المعروف ب(LMI) حيث تجري اكبر المصارف الإسلامية في الخليج العربي عمليات مرابحة يومية تتراوح بين (3-5) مليار في اليوم(الشرق الأوسط ،العدد 11382). إن تطبيق الوعد الملزم في المرابحة للأمر بالشراء دفع عدد من المصارف التقليدية إلى التحول إلى مصارف إسلامية أو فتح نوافذ إسلامية لها ليس إيمانا بالفكرة التي تقوم عليها المصارف الإسلامية بل لأنها وجدت أن التمويل بالمرابحة للأمر بالشراء مصدر جيد للعائد الثابت وقليل المخاطرة إن لم تكن معدومة.

مخاطر التجارة والمرابحة للامر بالشراء:.

النشاط الاقتصادي المشروع هو النشاط الذي لا تنفك عنه المخاطر، وأي عمل لا ينطوي على مخاطرة ويتولد عنه عائد تحوم حوله شبه الربا ،هكذا يقول المهتمون بالاقتصاد الإسلامي لانه ينطوي على المخاطر التي تبرر الحصول على الربح الحلال . يقول (قحف 1424هـ، ص43) أن الفقه الإسلامي لا يبيح لرب ألمال أن يكون في منأى عن مخاطر الاستثمار طالما انه يستحق الربح. ويقول (سويلم2007 ص66)" وتحريم الربا يستلزم تحمل الحد الأدنى من المخاطر التي لا ينفك عنها النشاط الاقتصادي ولا يتحقق النمو والازدهار إلا بها". ويقول (الجمل 2003 ص13):أن اغلب أحكام التحريم المالية الإسلامية تستند إلى مبدأ " لا عائد دون مخاطرة أو جهد " . ويقول (محسن خان،عباس ميراخور 2002 ص8) : "الاستثمار المرتبط بتحمل المخاطر يتفق والشريعة الإسلامية ، أما إقراض المال من دون تحمل المخاطرة برأس المال أو العائد المتوقع فيتعارض معها.ويقول (الساعاتي 2003 ص31):" إن جوهر العمل التجاري هو التعرض للمخاطر، فأن أي عملية تجارية تنطوي على سلسلة من الوظائف لها مستويات مختلفة من المخاطر، فليس هناك مشروع خال من المخاطر". ويرى آخرون أن المرابحة المشروعة ينبغي أن يتحمل فيها المصرف الإسلامي مخاطر الصفقة إلى أن تنتقل ملكية البضاعة إلى الزبون (عطية 1987 ص157)؛(هندي 1997 ص295). من هنا سيكون التركيز في هذا القسم على ماهية المخاطر التي تنطوي عليها المرابحة للأمر بالشراء وهل تماثل مخاطر التجارة ؟

أن بعض المخاطر التي تنطوي عليها عملية المرابحة للشراء والتي استند إليها المناصرون لهذا النوع من البيوع هي التي وردت في فتوى المؤتمر الثاني للمصرف الإسلامي الذي عقد سنة 1403هـ الموافق 1983 م والذي جاء فيها :"يقرر المؤتمر أن المواعدة على بيع المرابحة للأمر بالشراء بعد تملك السلعة المشتراة للأمر وحيازتها، ثم بيعها لمن أمر بشرائها بالربح المذكور في الوعد السابق هو أمر جائز شرعا طالما تقع على المصرف الإسلامي مسؤولية الهلاك قبل التسليم، وتبعية الرد بالعيب فيما يستوجب الرد بالعيب الخفي ".

وقرار مجمع الفقه الإسلامي ذي الرقم 13/2 في دورته الخامسة المنعقد في الكويت للفترة من 1-6 جمادي الأولى 1409 ألموافق 1.-15 كانون الأول 1988بشأن المرابحة للأمر بالشراء ونصه: " أن بيع المرابحة للأمر بالشراء إذا وقع على سلعة بعد دخولها في ملك المأمور وحصول القبض المطلوب شرعا هو بيع جائز ، طالما تقع على المأمور مسؤولية التلف قبل التسليم، وتوافرت شروط البيع وانتفت موانعه ". من القرارين المذكورين يظهر واضحا أن

المبررات الشرعية لبيع المرابحة للامر بالشراء تكمن في المخاطر التي تنطوي عليها وتتمثل في:

1-النكول.

2-التلف أو الهلاك قبل التسليم .

3-الرد بعيب خفي.

ويضيف آخرون (طارق الله خان، حبيب احمد 2002 ص69) نوعا رابعا من المخاطر هو:

4-مخاطر التخلف عن السداد.

هذه هي المخاطر التي يركز عليها اغلب المهتمون بدراسة مخاطر المرابحة للأمر بالشراء لتبرير ممارسة المصارف الإسلامية لها (حما، 2008 ص1.5-141) .والتي سندعوها – بالمخاطر الثانوية- .لكن السؤال هل تلك المخاطر هي فقط التي تبرر مشروعية التجارة (بيعا وشراء)، لكي يبرر بها عمل المرابحة للأمر بالشراء ؟أين هي من المخاطر الأخرى التي تعد المخاطر الحقيقية للعمل التجاري؟ والتي تتمثل في المخاطر الآتية:

1-مخاطر تقلب الاسعار.

2-مخاطر تغير الطلب.

3-مخاطر تغير أذواق المستهلكين .

حقا ان المرابحة البسيطة التي وردت في كتب الفقهاء القدامى والتي يمارسها التجار او بعض المصارف الاسلامية تنطوي على هذه المخاطر .لكن السؤال هل المرابحة للامر بالشراء مع شرط الوعد الملزم تنطوي على هذه المخاطر حقيقة؟.لنقرأ ذلك في السطور الآتية:

1- إذا قلنا أن المصرف الإسلامي حين يشتري السلعة من موردها الرئيسي (البائع الأصلي)يتحمل مسؤولية نقلها إلى مخازنه –أن كانت لديه- أو إلى المكان المتفق عليه مع زبونه، وخلال هذه الفترة السلعة ملك المصرف في المستندات، وإذا ما تعرضت إلى تلف جراء النقل، أو ضاعت، أو سرقت، أو غرقت في البحر...سيتحمل المصرف الإسلامي مسؤولية أيا من هذا المخاطر التي تصيب السلعة ولا دخل للأمر بالشراء بذلك. فيرد على ذلك بان هذا صحيح، لكنها لا تبرر مشروعية المرابحة هذه ولا الربح الذي يحصل عليه. وإذا قيل لماذا؟ يجاب أن مخاطر الهلاك أو التلف ليس من مخاطر التجارة الحقيقية، ويمكن التحوط ضدها وتحويلها إلى طرف أخر، من خلال التأمين التجاري أو التأمين الإسلامي، ونقل كلفة التأمين إلى الأمر بالشراء (صديقي 1424 هـ، ص26.). وهذا ما تجريه المصارف الإسلامية فعلا.

2- وإذا قيل أن المصرف الإسلامي يتحمل مسؤولية الرد بالعيب الخفي، إذا ما قام الزبون الأمر بالشراء برد السلعة بعد أن استلمها من المصرف بسبب عدم مطابقتها للمواصفات المتفق عليها، فالمصرف سيتحمل ما يترتب على ذلك . فيرد على ذلك أن هذا الشرط من حق كل مشتري، ويمكن للمصرف الإسلامي باعتباره مشتري أول أن يشترط على المورد الرئيسي أيضا الرد بالعيب الخفي لمدة أطول من تلك التي اتفق فيها مع الأمر للشراء. وبالتالي انتفاء هذا الخطر الذي هو ليس من مخاطر التجارة الحقيقية التي تبرر عمله وربحه هذان .

3- أما مخاطر النكول فيقصد به أن الأمر للشراء يمكن أن يعدل عن إنفاذ عقد البيع في الوقت الذي يكون فيه المصرف قد قام بشراء السلعة . ويقول المناصرون للمرابحة للأمر بالشراء في مثل هذه الحالة سيتحمل المصرف تكاليف التخزين ومخاطر احتمال التلف إلى أن يجد مشتريا لها وربما لا يجد من يشتريها بالسعر الذي قامت عليه بها وسيضطر إلى بيعها بأقل من ذلك (وضيعة).ويرد على ذلك أن هذا كله صحيح وهذه هي مخاطر التجارة الحقيقية التي ينطوي عليها العمل التجاري لتجار والمؤسسات،(والبيعان بالخيار)، لكن المصرف الإسلامي قد الغي هذه المخاطر من الحسبان وحولها جميعا إلى الأمر بالشراء من خلال شرط الوعد الملزم بالشراء لزبونه واشتراط تعويضه عن كل الأضرار ألتي يتعرض لها جراء نكوله بالشراء.

4- أما مخاطر التخلف عن السداد، وهي التي تبدأ بعد بيع السلعة وتسليمها للأمر بالشراء، حيث تنتفي مخاطر النكول لتبدأ مخاطر الائتمان وهي تماثل نظيرتها لدى التجار والمؤسسات التجارية التي تبيع بالاجل. اذ قد يتأخر أو يتخلف الزبون عن سداد بعض الأقساط أو كلها، وهو ما يعرف بمخاطر المماطلة عن السداد. فإذا كان الزبون معسرا فينظر ويعمل بمبدأ المسامحة، انطلاقا من قوله تعالى :"وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة" (البقرة :28.)،أما ألزبون الموسر المماطل فيعزر ويعاقب استنادا إلى حديثا الرسول محمد (ص): "مطل الغني ظلم "و " لي الواجد يحل عرضه وعقوبته " ، وأخذا بمبدأ "لا ضرر ولا ضرار". وإن كان عسر العميل أو يسره قد يصعب التحقق منه. ولما كان المصرف الاسلامي لايمكنه فرض غرامات تأخير على الزبون فانه قد احتاط لهذه المخاطر جيدا، وذلك بأن وضع من الشروط في عقد المرابحة ما يجعل من تلك المخطر شكلية فحسب ومنها (حماد 2008 ص106-107):

أ- اشترط التعويض لصالح المصرف عن الأضرار التي تلحق به خاصة مع العميل الموسر.

ب- اشتراط حلول باقي الأقساط دفعة واحدة إذا تأخر عن تسديد قسطين.

ت- اشتراط إخراج مبلغ من المال لوضعه في صندوق خاص موجه لأعمال الخير والفقراء.

ث- إلزام الزبون الموسر قضائيا بإبراء ذمته من الدين، وإلزامه بتقديم قرض حسن للمصرف يساوي مقدار الدين الأصلي ولمدة تساوي فترة التأخير عن السداد. وإذا ما علمنا أن اغلب عمل المرابحة للشراء في السلع الاستهلاكية والكمالية التي تتميز بسرعة دوران رأس المال الأمر الذي يعجل من قدرة الزبون على السداد، ومع الشروط المذكورة سابقا فإن المصرف قد ضمن المحافظة على رأس المال وربحه المحدد سلفا. مما تقدم وطالما يستطيع المصرف الإسلامي تامين السلعة ضد مخاطر الهلاك والضياع والسرقة واشتراط الرد بالعيب الخفي على المورد الأصلي، وإلزام الأمر بالشراء عل إبرام عقد البيع أو تحمل الضرر الذي يلحق بالمصرف جراء نكوله عن الشراء، وشروطه في حالة التخلف عن السداد والضمان العيني أو المالي الذي تصل قيمته إلى 115% من قيمة السلعة فهذه كافية لأن يضمن ألمصرف الإسلامي الحصول على كامل رأس المال الذي مول به شراء السلعة مع الربح المحدد سلفا.

أما مخاطر التجارة الحقيقية والمتمثلة في تغير الأسعار، وتقلب الطلب، وتغير أذواق المستهلكين فسنرى إلى أي مدى تنطوي عليها المرابحة للآمر بالشراء وكما يلي:

أ- فبالنسبة لتغير سعر السلعة في السوق بعد إبرام عقد الشراء مع المورد الرئيسي، فلا يتعرض لها المصرف الإسلامي، فسعر البضاعة الذي يسدده المصرف للمورد الرئيسي محدد بين الأمر زبون المصرف والمورد ويضيف المصرف إليها التكاليف التي يتحملها، وربحه محدد بنسبة من التكلفة الكلية للسلعة، والمصرف لا يحتفظ بالسلعة لعدم وجود مخازن لأغلب المصارف الإسلامية إن لم يكن كلها، وهي تدخل في ذمة الامر بالشراء حال شرائها وهي في مخازن المورد الأصلي ، و واي تغير في سعر السوق بعد دلك يتحمل الامر بالشراء. ولن يتعرض المصرف إلى مخاطر تقلب السعر. ولو أُفترض أن الزبون نكل عن وعده بسبب هبوط السعار السلعة في السوق، فإن الشروط التي وضعاها المصرف في حالة النكول تعوض المصرف عما قد يلحق

به من خسائر جراء ذلك.وعليه فإن مخاطر تقلب الأسعار قد حولها المصرف الإسلامي إلى الأمر بالشراء بموجب شرط الوعد الملزم.

ب- أما مخاطر تقلب الطلب فلو إنخفض الطلب على السلع وكسد سوقها وتطلب الأمر أما الاحتفاظ بها لفترة زمنية لحين تحسن أحوال السوق أوقد يبيعها بخسارة فليس للمصرف علاقة بذلك مع شرط الوعد الملزم بالشراء والتعويض عن الضرر الذي قد يلحق به جراء كساد السوق، إذ حولت هذه المخاطر إلى الأمر بالشراء أيضا.

ت- ونفس الشيء فيما لو تغيرت أذواق المستهلكين وأعرضوا عن شراء السلع التي اشتراها المصرف الإسلامي بالمرابحة للآمر بالشراء لكونها لا تشبع حاجاتهم ولا تلبي رغباتهم لعدم دراسة السوق دراسة جيدة من قبل الأمر بالشراء أو المصرف، فستبقى السلعة في المخازن لكن ليس مخازن المصرف بل مخازن الأمر بالشراء وقد يبيعها بخسارة بدلا من أن تبقى أموال مجمدة . وهنا أيضا حول المصرف هذه المخاطر إلى الأمر بالشراء بموجب الوعد الملزم بالشراء.

لكن التاجر الحقيقي ينطوي عمله على هذه المخاطر ويأخذها في الحسبان وبسببها قد يتعرض إلى الخسارة إذا ما انخفضت أسعار بضاعته أو كسد سوقها أو أصبحت لا تلبي رغبات المشترين المحتملين للبضاعة فهو إما سيبقيها في مخازنه لحين تحسن أحوال السوق إن لم يكن بحاجة إلى ألسيوله النقدية أو سيلجأ إلى بيعها بما قامت عليه (بيع تولية)، أو بأقل كلفتها (بيع الوضيعة) بدل من أن يبقيها مكدسة في مخازنه وما يترتب على ذلك من كلف مادية ومالية.

مما تقدم يمكن القول أن مخاطر التجارة الحقيقية لا ينطوي عليها عمل المصرف الإسلامي في عملية المرابحة للشراء وكذلك المخاطر الثانوية وان المصرف الإسلامي استطاع أن يتجنبها – إن لم يكن تهرب منها- بتحويلها إلى زبونه الأمر بالشراء الذي ليس لديه النقد لشراء السلعة، ولو وجد من يبيعه السلعة بألا جل، أو يقرضه النقد الذي يكفيه لشراء السلعة – بدون فائدة- لما طرق باب المصرف الإسلامي ليطلب منه شراء السلعة التي هو بحاجة لها في عمله وقد يذعن لشروطه .ومن ثم ألا يمكن القول بما قاله(صديقي 1424 هـ): إن التمويل بالمرابحة-للامر بالشراء-لايعرض مال الممول –المصرف الإسلامي- للخطر، فان هذا المال لايخلو أن يكون نقدا في يده أو دينا في ذمة زبونه، أو سلعا موعودا شراؤها بثمن معلوم، ومن ثم يصير التمويل بالمرابحة تمويلا مضمونا رأس ماله ومحددا عائده . وكل تمويل مضمون ومحدد الربح تحوم حوله شبهة الربا إن لم يكن هو الربا بعينه.

فتمويل المرابحة للأمر بالشراء وفقا لما تقدم هو تمويل مضمون رأس ماله وعائده معلوم وخالي من المخاطر الحقيقية، هو تمويل مالي وليس تمويل تجاري(درهم بدرهمين بينهما حريره) هوأقرب ما يكون إلى عمل المصارف التقليدية، وابعد ما يكون عن عمل التجارة التي تنسجم وروح الشريعة الإسلامية .

النتائج:

من خلال ما ورد في البحث ووفقا لما تقوم به اغلب المصارف الإسلامية في تطبيق المرابحة للأمر بالشراء يمكن القول بالنتائج الآتية :

1- المصرف الإسلامي يقوم بدور الوسيط الممول في العملية وليس الوسيط التجاري.
2- إن ربح المصرف الإسلامي في المرابحة للأمر بالشراء يتماشى مع سعر الفائدة على القروض في المصارف التقليدية.
3- إذا كانت المرابحة للأمر بالشراء تنطوي على مخاطر فهي تتماثل مع مخاطر القروض في المصارف التقليدية.
4- عمل المصرف الإسلامي وان ينطوي على مخاطر قد تكون مبررة بدون شرط ألوعد الملزم، لكنه استطاع التخلص منها بموجب شرط الوعد الملزم – الذي هو محل خلاف كبير بين الفقهاء – وحولها إلى زبونه الأمر بالشراء. وهذا ما دفعها إلى توجيه جل مواردها المالية لهذه الأداة التمويلية.
5- احتمال خسارة المصرف الإسلامي في المرابحة للأمر بالشراء شبه معدومة، على عكس التجارة التي يكون فيها احتمال الخسارة وارد رغم ترجيح احتمال الربح.
6- المصرف الإسلامي في المرابحة للأمر بالشراء يؤدي إلى نفس الغرض الذي يؤديه القرض المصرفي.
7- المرابحة للأمر بالشراء كما تجريها المصارف الإسلامية، ابعد ما تكون عن العمل التجاري وأقرب ما تكون إلى القرض المصرفي .

التوصيات:

1- على المصارف الإسلامية عدم تقليد المصارف التقليدية في عمليات التمويل والابتعاد عن الصيغ التي تثير الشبهات الشرعية حولها ومنها المرابحة للآمر بالشراء.
2- تدخل البنوك المركزية في رسم السياسة التمويلية للمصارف الإسلامية وذلك بتحديد الأموال الموجهة للتمويل بالمرابحة بنسبه محددة من إجمالي مبالغ التمويل في

المصرف لكي تتجه المصارف إلى صيغ التمويل التي تنسجم والهدف الذي قامت على أساسه مثل المشاركة والمضاربة.

3- طالما يناظر هامش الربح في المرابحة سعر الفائدة في السوق، فعلى البنوك المركزية أن تتدخل في تحديد هامش الربح في المرابحة في حالة وجود شرط الوعد الملزم، أما في غير وجوده فيترك الأمر للمصرف وزبائنه في الاتفاق على هامش الربح.

4- إذا ما أرادت المصارف الإسلامية أن تتجنب الشبهات الشرعية حول عملها هذا وتسمو بمكانتها والرسالة التي تنادي بها عليها:

أ- إما أن تتجنب شرط الوعد الملزم والتعويض عما قد يلحق بها في حالة نكول الأمر بالشراء عملا بقول الرسول محمد صلى الله عليه وسلم : "البيعان بالخيار ما لم يتفرقا".

ب- أو أن تتخذ لها شركات تابعة لتقوم بمهام التجارة في بيع المرابحة وتتحمل من الخاطر ما تتحمله التجارة بعيدا عن شرط الوعد الملزم.

ت- او أن تستحدث وحدة تنظيمية في المصرف تدعي (الغرفة التجارية)تتولي الأعمال التجارية التي يقوم بها المصرف الاسلامي كما يقوم به التجار.

المصادر:

1- محمود عبد الكريم(2007)، **(الشامل في معاملات وعمليات المصارف الإسلامية)** ط2، دار النفائس. عمان .

2- الجمل، محمود (2002)؛ **(إشراك المصارف الإسلامية في معاملات السوق المفتوحة للبنوك المركزية)**، (مجلة جامعة الملك عبد العزيز-الاقتصاد الإسلامي)، م 15، ص3-25 .

3- حماد، حمزة عبد الكريم(2008)؛ **(مخاطر الاستثمار في المصارف الاسلامية)**، دار النفائس للتوزيع والنشر، عمان.

4- الساعاتي، عبد الرحيم عبد الحميد(2003)؛ **(مستقبليات مقترحة متوافقة مع الشريعة الإسلامية)، (مجلة جامعة الملك عبد العزيز-الاقتصاد الإسلامي)**، م15، ص27-51.

5- السالوس، احمد على(2002)؛ **(موسوعة القضايا الفقهية المعاصرة والاقتصاد الاسلامي)**، ط 7، مكنبة دار القران، مصر.

4- الاسلامبولي، احمد محمد خليل(2003)؛ **(حكم الوعد في الفقه الإسلامي وتطبيقاته المعاصرة)، مجلة جامعة الملك عبد العزيز- الاقتصاد الإسلامي)**، م16، ص43-55

5- الاسلامبولي، احمد محمد خليل(2005)، **(المرابحة والعينة والتورق بين اصول البنك وخصومة)، (مجلة جامعة الملك عبد العزيز – الاقتصاد الاسلامي -)** م.18، ع. 1، ص 59-67.

6- سويلم، سامي ابراهيم،(2007)، **(التحوط في التمويل الاسلامي)**، المعهد الاسلامي للبحوث والتدريب، البنك الاسلامي للتنمية، جدة.

7- السيسي، صلاح الدين حسن(1997)، **(الادارة العلمية للمصارف التجارية وفلسفة العمل المصرفي المعاصر)**، ط.1، دار الوسام للطباعة والنشر، بيروت.|

8- شبير، محمد عثمان (2007)، **(المعاملات المعاصرة في الفقه الاسلامي)**، ط.6، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمان.

9- الشرباصي، أحمد (1981)؛ **(المعجم الاقتصادي الإسلامي)** ، دار الجبل .

10- شيخون، محمد (2002)؛ **(المصارف الإسلامية دراسة في تقويم المشروعية الدينية والدور الاقتصادي والسياسي)** ، دار وائل ، عمان.

13-صديقي، محمد نجاة الله **(بحوث في النظام المصرفي الاسلامي)**، تحرير منذر قحف، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، جدة.

14-طارق الله خان، وحبيب احمد(2003)، **(ادارة المخاطر- تحليل قضايا في الصناعة المالية الاسلامية)**، ورقة مناسبات رقم 5، المعهد الاسلامي للبحوث والتدريب ، البنك الاسلامي للتنمية، جدة.

15- طنطاوي، سيد محمد (2002)؛ **(معاملات البنوك وأحكامها الشرعية)**، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر.

16- عبد الله، احمد علي(2002)؛ **(صيغ الاستثمار الزراعي في النظام المصرفي السوداني)** بحث منشور في كتاب ، **(صيغ تمويل التنمية في الإسلام)** ، وقائع ندوة رقم 29 ، تحرير فخري حسين عزي، المعهد الاسلامي للبحوث والتدريب ، البنك الاسلامي للتنمية، جدة.

17- عطية ، فياض (1987) ؛ **(التطبيقات المصرفية لبيع المرابحة في ضوء الفقه الإسلامي)**، ط1 ، دار النشر للجامعات ، القاهرة.

18- عيادة ، إبراهيم عبد الحليم(2008)؛ **(مؤشرات الأداء في البنوك الإسلامية)**، ط 1، دار النفائس للنشر والتوزيع ، عمان .

19- قحف ، منذر (1424هـ)؛ **(مفهوم التمويل في الاقتصاد الإسلامي) - بحث تحليلي رقم 13** المعهد الإسلامي للبحوث والتدريب ، البنك الإسلامي للتنمية، جدة.

20- ألكبي ، سعد الدين محمد (2002)؛ **(المعاملات المالية المعاصرة في ضوء الإسلام)**، المكتب الاسلامي. بيروت .

21- كمال ، يوسف (1998)؛ **(المصرفية الإسلامية -الأزمة والمخرج -)** ، دار النشر للجامعات، القاهرة.

22- مشهور ، أميرة عبد اللطيف (1991)؛**(الاستثمار في الاقتصاد الإسلامي)** ، مكتبة مدبولي ، القاهرة .

23- المصري ، رفيق يونس (2002)؛ **(الوعد الملزم في معاملات المصارف الإسلامية)** ، **(مجلة جامعة الملك عبد العزيز- الاقتصاد الإسلامي-)** ، م15 ص119-122

24- المغربي ، عبد الحميد عبد الفتاح(2004)؛ **(الإدارة الإستراتيجية في البنوك الاسلامية)**،

(مجلة جامعة الملك عبد العزيز- الاقتصاد الإسلامي-) ، م15 ص119-122

24- المغربي ، عبد الحميد عبد الفتاح(2004)؛ **(الإدارة الإستراتيجية في البنوك الاسلامية)**،

بحث رقم 66 ، ط1 ، المعهد الاسلامي للبحوث والتدريب ، البنك الاسلامي للتنمية، جدة.

25- هندي، منير إبراهيم (1997)؛ **(إدارة الأسواق والمنشات المالية)** ، منشأة المعارف ، الإسكندرية.

<u>كتب الفقه:</u>

1- ابن حزم (2006)؛ **(مجموعة الفتاوى)** ، ج15 ، تحقيق:فريد عبد العزيز الجندي وأشرف الشرقاوي، دار الحديث ، القاهرة.
2- ابن حزم ؛ **(المحلى)**، تحقيق الدكتور عبد الغفار سليمان البنداري ، دار الكتب العلمية ، بيروت. (بدون سنة نشر)
3- الشافعي ؛ **(حاشية الدسوقي على الشرح الكبير)**، ج 4 ، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة . (بدون سنة نشر)
4- الشافعي)؛ (2003)، **(الأم)**، ج 3 ،، دار المعرفة ، بيروت .
5- الرافعي ؛ **(فتح العزيز)** ج 9 ، دار الفكر، بيروت. (بدون سنة نشر)
6- الشوكاني **(السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار)** ج.2 ، ط 2 ، تحقيق محمد صبحي بن حسن خلاف دار ابن كثير ، دمشق . (بدون سنة نشر)

7- الشوكاني؛ (قطر الولي على حديث الولي او ولاية الله والطريق اليها) ، تحقيق ابرهيم ابراهيم هلال. (بدون سنة نشر ودار نشر).
8- العسقلاني، ابن حجر(2002)، (فتح الباري في شرح صحيح البخاري)، ج.4 ،ط.3، دار الفيحاء، دمشق.
9- ابن قدامة، (1981) (المغني)، ج.4، مكتبة الرياض الحديثة.
10- ابن قدامة (1984) الشرح الكبير، دار الفكر، بيروت
11- الكاساني(1972)،(بدائع الصنائع) دار الكتاب العربي، بيروت.

نحو تفعيل دور الجهاز المصرفي العراقي في سوق العراق للأوراق المالية

أ.م.د. احمد صبيح عطية العطواني و الباحثة رأم طالب راضي الصافي
كلية الادارة والاقتصاد / قسم الاقتصاد
جامعة واسط

المقدمة :-

مع التغيرات التي تمر بها الدول العربية وتصاعد الحديث عن تغيرات اجتماعية وسياسية واقتصادية يأخذ المال الحيز الأساسي , ليس في مجال الاقتصاد فقط وانما في مجال السياسة والاجتماع أيضاً , وتكون بؤرة المال في المجتمعات كافة هي المصارف , إذ يزداد الاهتمام بالقطاع المصرفي كونه يعد قطاعاً له النصيب الأوفر أو الأساس في مواكبة التطور وإدارة الاقتصاد , ويتمثل دوره في تعبئة الادخارات وتوجيها نحو القنوات الاستثمارية والاستهلاكية التي تدعم مسيرة النمو الاقتصادي , أما بخصوص أسواق المال فقد ازدادت اهميتها في المجتمعات التي تتميز بحرية الاقتصاد واصبحت تنال الاهتمام من قبل الباحثين في كل من الدول النامية والمتقدمة على حد السواء .

وتزداد هذه الأهمية من الدور الذي تقوم به الأسواق من حيث دعم عملية التنمية الاقتصادية ولاسيما الجانب الاستثماري منها , إذ تقوم سوق الأوراق المالية على تجميع الادخارات الوطنية وتوجيها نحو الاستثمار وكذلك تقوم بإيجاد قاعدة بيانات التي يبحث المستثمر من خلالها عن المشاريع ذات العائد المرتفع والذي بدوره ينعكس على كافة الجوانب الاقتصادية والاجتماعية للبلد المعني ومن خلال زيادة الاستثمارات ستولد فرص عمل جديدة , وتنخفض معدلات البطالة , وبهذا يكون له الاثر الإيجابي على الناتج المحلي الاجمالي وحصة الفرد منه.

ويأتي أهمية الجهاز المصرفي في تفعيل سوق الأوراق المالية من طريق الاستثمار المباشر فيها والاستفادة من توظيف الاموال وتوجيبيها نحو الاستثمار كونها تحقق عائداً مقبولاً وبدرجة مخاطر مناسبة , فضلاً عن أنها تعد مصدرا أساسيا للسيولة مما يساعد المصارف في المشاركة في إدارة منشآت الأعمال والرقابة عليها .

Abstract

The Arab countries witnessed many changes in economic, political and social fields, and the money takes essential place not only in economic field but also political and social sphere, and basically it is focusing in the banks. The banking sector plays important role in mobilization of savings and direct towards investment and consumer

channels which are supporting economic growth. On the other hand, the financial markets, they may become more important in societies that are distinguished by free economics which has attracted attention of researchers in all of developing and advanced countries. Importance of markets role is increasing through support economic development, particularly investment side. The stock market is assembling national savings and direct it towards an investment, establishing database through it the investor can looking for high-return projects that reflects all of social and economic sides of the country, and also increasing investment helps to create new jobs and reducing rate of jobless which is giving positive effect on gross domestic product (GDP) and per capita.

The banking system clarifies importance of stock market activation through direct investment, employment of funds and direct it towards an investment that achieve an acceptable return at an appropriate risk level, as well as it is basic source of cash which is helping the banks to participate in management of business companies and control it.

مشكلة البحث

تتجلى مشكلة البحث في أن سوق العراق للأوراق المالية ورغم مرور سبع عشر عاماً الإ أنه لم يؤدي الدور المطلوب منه بالشكل الذي يخدم خطط التنمية في العراق , والسبب لا يعود إلى السوق وحدهُ , بل في طبيعة المرحلة التي يمر بها الاقتصاد , وضعف أداء المؤسسات العاملة فيه , ومن ضمنها القطاع المصرفي والذي يعد أفضل المؤسسات العاملة في السوق , الإ أنه مازال لم يصل إلى مستوى الطموح أو ليكون بمستوى بالمصارف في بلدان العالم الأخرى.

فرضية البحث

ينطلق البحث من فرضية مؤداها إن القطاع المصرفي رغم دوره الهام في السوق النقدية , الا انه يمكن ان يودي دوراً اساسياً في السوق المالية , ولاسيما في العراق من اجل تفعيل نشاط سوق العراق للأوراق المالية.

هدف البحث

بغية تحقيق فرضية البحث فأنه ينطلق من مجموعة من الأهداف وهي:

– بيان معرفة دور الجهاز المصرفي لما له من أهمية في دعم الاقتصاد الوطني عن طريق عمله الأساس كوسيط مالي بين المدخرين والمستثمرين.

– بيان دور سوق العراق للأوراق المالية في دعم الاقتصاد الوطني عن طريق تحليل المؤشرات التي تتضمن حجم التداول , والقيمة السوقية وكذلك عدد الشركات المدرجة في السوق .

– اقتراحَ آليات للتنسيق بين الجهاز المصرفي والسوق المالية , بغية تفعيل نشاطهما والافادة من الإمكانيات المتاحة لهما وصولاً إلى تحقيق تنمية اقتصادية مستدامة.

المبحث الاول / الجهاز المصرفي نشأته ودوره التمويلي

اولاً / مفهوم الجهاز المصرفي ونشاته

تختلف المفاهيم المفسرة للجهاز المصرفي باختلاف الأنظمة والقوانين التي تحكم أعمالها والتي تختلف من بلد إلى أخر, كما انها تختلف باختلاف طبيعة نشاط المصارف وشكلها القانوني لذلك يصعب تحديد مفهوم شامل لها.

ويقصد بالجهاز المصرفي "مجموعة المؤسسات المصرفية التي تتعامل بالائتمان في بلد و يختلف الجهاز المصرفي من بلد إلى أخر ويعود هذا الاختلاف إلى نوع النظام الاقتصادي السائد "[1] , ويعرف أيضاً بأنه "مجموعة من المؤسسات التي تتكفل بحفظ النقود وحشد موارد المجتمع من الأموال وسد حاجات البلد إلى مختلف أنواع التمويل المتفاوت الأجل وإنشاء وسائط الدفع المتداولة بين الناس وضمانها "[2].

وقد ارتبطت نشأة الجهاز المصرفي وتطوره بطريقة تطور الانتاج الرأسمالي بالقرن السادس عشر الميلادي إذ كان تدفق المعادن النفيسة من المستعمرات إلى الدول الأوربية والتي تعد العامل الحاسم لظهور الرأسمالية التجارية أول مرحلة مرت بها الرأسمالية على مخلفات النظام الاقطاعي في أوربا, وقد عرفت طريقة الانتاج الرأسمالي من خلال تراكم راس المال التجاري وانتقاله إلى راس المال الصناعي ثم إلى راس المال المصرفي بسيطرته التامة الاحتكارية على المستويين القومي والمحلي[3]. وأجمع الباحثون على ان نشأة المصارف في النصف الثاني من

---

[1] زياد رمضان ومحفوظ جودة- الاتجاهات المعاصرة في إدارة البنوك - ,ط2 - دار وائل للنشر والتوزيع - عمان - 2003 - ص3.

[2] محمد زكي شافعي ، مقدمة في النقود والبنوك ، دار النهضة العربية – بيروت ، 1970 ص 177.

[3] السيد عبد المولى , النظم النقدية والمصرفية , مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي , 1988 , ص 96.

للقرن الثاني عشر للميلاد من خلال تأسيس أول مصرف في مدينة البندقية عام 1157م , وأعقبهُ مصرف برشلونة عام 1401م وفي عام1587م أسس صرف ريالتو في مدينة البندقية واعقبهُ مصرف هامبورج عام 1619م وكذلك في إنكلترا عام 1694 ومصرف فرنسا الذي اسسه نابليون عام 1800م ثم نشأت المصارف في أمريكا بعد ذلك , ومصرف امستردام عام 1909 والذي يعد النموذج الذي اختير من اغلب المصارف الأوربية[4].

وقد عدت المصارف الأولى مصارفا" لتبادل العملات , أي مصارف للصرف إذ كان المصرف يسمح بإيداع أموال التجار ومن حقهم السحب في أي وقت ثم بدأ المصرف يقرض هذه الودائع للأشخاص والحكومات بسرية تامه من دون شهود مع عدم معرفة العملاء بهذه العملية , بعدها انتهج المصرف مرحلة جديده في التصرف بالنقود المودعة لديه من خلال منح فائدة على الودائع الثابتة المودعة لديه , واعادة اقراضها إلى الوحدات الراغبة في الاقتراض بأسعار فائدة أعلى , وكانت تلك خطوة هامة في تطور الائتمان[1]. وكان العمل المصرفي بداية الامر بقبول الودائع فقط ثم استثمار الفائض بمرحلة متقدمة من عمله وتبعا" للتطور الحاصل لاستعمال النقود كوسيط للمبادلات وقد عرف هذا النشاط عند الحضارات السومرية والبابلية والاغريقية والرومانية , أما عند العرب قبل الاسلام وتحديدا" بمكة المكرمة المشهورة بتجارتها مع بلاد الشام واليمن فكان النبي صلى الله عليه واله وسلم قبل نبوءته يشتهر بالأمانة إذ بقيت عنده الودائع والأمانات حتى قبل هجرته من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة , بعدها وكل ابن عمه الأمام علي علية السلام لإرجاعها إلى اصحابها

ثانيا / الادوار التمويلية للجهاز المصرفي.

يعد التمويل من الموضوعات التي نالت اهتماما" كبير لدى الأوساط الأكاديمية وقد عد من أهم متطلبات التنمية الاقتصادية , وذلك لان عملية التمويل والاستثمار يرتبطان ارتباطاً وثيقاً في الحياة الاقتصادية والمالية في دول العالم كافة, كما انه يعد من القضايا الجوهرية في الكثير من الدول النامية التي تسعى للقضاء على النقص المستمر في ادخاراتها المحلية والإيفاء بالالتزامات المالية في ظل النشاطات الاقتصادية . وان كلمة التمويل في اللغة العربية مشتقة من المال, فيقال تمولت واستلمت كثر مالك, وموله غيره وملته (بالضم) اعطيته المال[2].

---

(4) W Gibart the History ,principles and practice of banking .vol.new Edition Revised by Ernest sykes London G . Bell and son ,ltd ,1922 , p12

(1) سوزي عدلي ناشر , مقدمة في الاقتصاد النقدي والمصرفي , منشورات الحلبي الحقوقية , بيروت , 2010 , ص 205-206.

(2) الفيروز ابادي , محمد بن يعقوب بن ابراهيم ,القاموس المحيط , المطبعة المصرية , الطبعة الثالثة , 1933,ص2.

ويعرف التمويل على أنه " الحقل الإداري أو مجموعة الوظائف الادارية المتعلقة بإدارة الموارد المالية اللازمة لتمكين الخطط الاقتصادية من تنفيذ أهدافها ومواجهة ما يترتب عليها من التزامات في الوقت المحدد , وبصفة عامة في الأعمال يتمثل التمويل في الأعمال التنفيذية كافة التي يترتب عليها الحصول على النقود واستثمارها في عمليات مختلفة تساعد على تعظيم القيمة النقدية المتوقع الحصول عليها مستقبلا" في ضوء كمية النقود المتاحة حالياً لاستثمار العائد المتوقع منها "[3] ان عملية تمويل أي وحدة اقتصادية ينبع من مصدرين اساسيين هما :-

1. التمويل الذاتي (التمويل الداخلي):-

تعتمد عملية التمويل على الأموال المدخرة التي تحققت عن طريق الوحدات الاقتصادية , إذ تكون هذه الوحدات ذات اكتفاء ذاتي , أي أنها لا تعاني من حالات العجز وبالتالي لا حاجة إلى الأسواق المالية والمؤسسات الوسيطة , وهذا النوع من التمويل تلجأ اليه أغلب المشاريع الخاصة كما يمكن أن تتبعها المشاريع العامة إذا كان لديها استقلال مالي وذات ميزانية ذاتية[4].

2. التمويل غير الذاتي (التمويل الخارجي):-

أن انسياب الأموال المدخرة ضمن هذا الاطار سواء كان مباشر أو غير مباشر يعاد توزيعه , ففي حال المباشر يعاد تدفق الأموال من الوحدات المدخرة ذات الفائض إلى الوحدات ذات العجز والتي تكون بحاجة للقروض لتمويل عملية الاستثمار وهنا تكون بحاجة إلى الأسواق المالية , أما في حالة الغير مباشرة فأن الأموال تتدفق من الوحدات ذات الفائض إلى الوحدات ذات العجز وهنا تبرز دور المؤسسات الوسيطة التي تأخذ دور التوسط بين مجموعتين من الوحدات , فتقوم المؤسسات الوسيطة بالاقتراض من وحدات الفائض وتقديمها إلى وحدات العجز ويحتل التمويل غير المباشر مكانه في الاقتصادات المتطورة إذ أن اعتماد شركات قطاع الأعمال على المؤسسات المالية الوسيطة في الحصول على القروض طويلة الأجل كشركات التامين وهو اساس تمويلها وتعد هذه المؤسسات من اكبر حملة الاسهم التي تصدرها شركات قطاع الأعمال كما انها تحصل على قروض قصيرة الأجل من المصارف التجارية[1].

وان التمويل الخارجي ينبع من مصدرين هما:

---

[3] قورين حاج قويدر , مفهوم اهمية التمويل وانواع التمويل , متاح على الموقع.
http//www.acc4arab.com / acc/ showthread php?t=1888

[4] وداد يونس يحيى , النظرية النقدية (النظريات – المؤسسات – السياسات) , بغداد , 2001 , ص102.

[1] احمد ابو الفتوح الناقة , نظرية النقود والأسواق المالية , مدخل حديث للنظرية النقدية والسوق المالية , الطبعة الأولى , مكتبة الاشعاع الفنية , الاسكندرية , 2001 , ص10.

3. مصادر التمويل المصرفية :-

التمويل المصرفي يحتل أهمية في مختلف الاقتصادات تبعاً للدور التي تقوم به من تعبئة المدخرات وتوجيهها نحو الاستثمار بما يساهم في عملية التنمية الاقتصادية فضلاً عن تسهيل عمليات المبادلة في المجتمع , فالمصارف هي المكان الذي يقوم الأفراد بوضع مدخراتهم فيها , لتقوم بدورها بالاستثمار لهذه المدخرات سواء استثمرت في إقراضها للمؤسسات التي هي بحاجة إلى تمويل استثماراتها والتي تساهم في تسريع عملية التنمية وهي طريقة غير مباشرة ,أو عن طريق الاستثمار في مشاريع الاقتصاد الوطني , لذلك تعد المصارف الوعاء الذي يتم فيه تجميع المدخرات والودائع لكي يعود اقراضها لمن يكون بحاجة إليها , وتقوم المصارف بدورها الهام في الاقتصادات المتقدمة في حين أن الدول النامية لاتزال غير قادرة على تعبئة مصادر التمويل بالشكل المطلوب , وذلك بسبب انخفاض الوعي المصرفي لدى أفراد المجتمع والاحتفاظ بأموالهم بشكل سائل في منازلهم بعيداً عن المصارف .

4. مصادر التمويل غير المصرفية :-

ويقصد بها المؤسسات التي تأخذ دور الوسيط المالي بين الأفراد الذين يقومون بتجميع المدخرات ومؤسسات الأعمال التي تكون بحاجة إلى النقود للقيام بالمشاريع الاستثمارية أو ادامة القائم منها , إذ تقوم المؤسسات المالية الوسيطة بتشجيع الادخار وجعلة يتلائم مع المدخرين من خلال توفير الضمانات والعوائد لهذه المدخرات بشكل فائدة أو أرباح يحصل عليها المدخرين , ويلاحظ في الاقتصادات المتقدمة بان هذه المؤسسات تعمل على تخفيض حجم الاكتناز من خلال الاحتفاظ بالمدخرات بصورة نقود حاضرة , واستناداً إلى ما سبق فان التمويل "عملية اقتصادية مهمه تتمثل بتوفير الأموال اللازمة للقيام بالمشاريع الاقتصادية التي كانت بحاجة اليها تلك المشاريع وتطويرها لتحقيق التنمية الاجتماعية والاقتصادية ". ويعد نقص التمويل من المشكلات الأساسية التي تواجها الدول والتي تقف عائقاَ أمام التنمية الاجتماعية والاقتصادية , إذ كان الهدف الاساسي لتلك الدول التخلص من حالة التخلف الاجتماعي والاقتصادي بعد حصولها على الاستقلال السياسي بعد الحرب العالمية الثانية , وان مشكلة النقص الكبير في رأس المال هي العقبة الأساسية في تحقيق هدف التمويل ,فإذا كانت الموارد المالية لتلك الدول لا تكفي لتمويل استثماراتها فأنها تلجا إلى التمويل الدولي لتسريع عملية التنمية الاجتماعية والاقتصادية[1] .

وللتمويل أهداف عديدة أهمها[2]:-

---

[1] عرفان تقي الحسيني ,التمويل الدولي , دار مجدلاوي للنشر والتوزيع, الاردن, 2002 ,ص 29

[2] خالد عبد الرحيم الهيتي , على جاسم العبيدي , مبادئ الاقتصاد الاداري , وزارة التعليم والبحث العلمي , جامعة الموصل , 1990 , ص250.

أ- تحديد البرامج الاستثمارية للوحدات الاقتصادية .

ب- تحديد نوعية المصادر المالية ضمن السياق الزمني التي يتطلبها تنفيذ الخطط التشغيلية .

ت- تحديد نوعية المصادر للوحدات الاقتصادية دون التأثر على طبيعة نشاطها .

ث- اتخاذ افضل الوسائل اللازمة لغرض الحصول على أضافات مالية لوقت الحاجة .

ج- تحديد الوسائل الاقتصادية كافة لأجل تنفيذ الوحدة الاقتصادية عن طريق استخدام مصادر داخلية وخارجية .

أن السوق التمويلية بمفهومها العام تشتمل على سوقين هما السوق النقدي والسوق المالي ,وهما يرتبطان بعلاقة متشابكة فيما بينهما , ويتشابهان في الوظائف ويستخدم الزمن للتفرقة فيما بينهما , وتتعامل السوق النقدي بالتمويل قصير الأجل, كشراء أذونات الخزينة وخصم الأوراق التجارية والسلف والتسهيلات الائتمانية للوحدات الاقتصادية , وكذلك تقديم القروض , وتعتمد السوق النقدية في تمويلها على أصول نقدية سائلة كنقود الودائع والنقود القانونية. أما السوق المالية فهي تتعامل بالأسهم والسندات وقروض الأسكان والقروض الاستثمارية على أنها أصول مالية طويلة الأجل, إذ تعتمد على مواردها التشغيلية والأرباح غير الموزعة والادخارات التي يرغب أصحابها باستغلالها لآجال طويلة [3] غير إن التجارب التمويلية اثبتت ان هناك موقفين متعارضين هما:-

- يتعلق بالمدخرين إذ أن أغلب المدخرين يفضلون التعامل بالاستثمارات قصيرة الأجل (السوق النقدي) إذ تخضع لها الاقتصادات كافة (النامية والمتقدمة) على حدٍ سواء.

ففي الاقتصادات المتقدمة يعود الأمر إلى تفضيل السيولة إذ أن الأموال المدخرة تعني عدم القدرة على التصرف بالنقود خلال مدة الاستغلال وبشكل عام فان الدخل الفردي يعاني الانخفاض في الاقتصاديات النامية ومن غير المرجح ان يقبل المدخرون فقدان السيولة لمدة طويلة التي قد يحتاجونها لمـواجهة احتياجاتهم الجارية .

ففي الاقتصاديات النامية يفسر التفضيل على الأموال طويلة الأجل لأنها تتعرض لتقلبات حادة في قيمتها , أما الأموال قصيرة الأجل فلا تتأثر قيمتها لقلة للتغيرات الحادة.

- تتعلق برغبة طالبي الأموال باستغلالها لأجال طويلة إذ يلجأون إلى السوق النقدية لحصولهم على الموارد التي تعمل على تلبية احتياجاتهم لعدم امكانية السوق المالية لإشباع متطلباتهم .

[3] ف. و بيتش , ترجمة: د. محمد توفيق ماضي , تمويل المشروعات , دار الفكر العربي , القاهرة, ص25.

وان هذا التعارض بين متطلبات مصادر الادخار ذات وحدات الفائض ومستخدمي الادخار ووحدات العجز في الموارد فان تغير مواردهم من السوق النقدي إلى السوق المالي عملية متعثرة, لذا لا يمكن معادلتها الا بوجود مؤسسات مالية وسيطة (نقدية وغير نقدية)[1].

ومن خلال ذلك نلاحظ أن المؤسسات المالية الوسيطة غير المصرفية يمكنها التعامل بالأموال النقدية والقدرة على التعامل بالتمويل قصير الأجل ,أو عن طريق الاقتراض من المصارف التجارية وإصدارها للسندات ذات السيولة المرتفعة ونتيجة لاستثمارها الحقيقي إلى السوق المالي تكون قادرة على استغلال الفرص الاستثمارية التي تتمكن من خلالها عائد وباقل كلفة.

المبحث الثاني / امكانات الجهاز المصرفي في تفعيل السوق المالية

يعد القطاع المالي من أهم القطاعات الاقتصادية , وذلك ليس لمجرد تفاعله مع القطاعات الاقتصادية الاخرى , بل لتأثيراته الاجتماعية التي تشمل مختلف الشرائح سواء كانت بصورة مباشرة او غير مباشرة عن طريق المهام التي تقوم بها جميع المؤسسات والهيئات المالية وما يمكن ان يترتب عليه من نتائج اجتماعية واقتصادية , وسيتم توضيح النظرية الاقتصادية لسوق الأوراق المالية ودور المصارف في السوق

اولاً / دور الجهاز المصرفي في تفعيل السوق المالية وتطويرها.

تعد المصارف التجارية من أهم المؤسسات المالية المصرفية لمشاركتها في عمل السوق المالي , فهي تقوم بدور حيوي ومهم في الاقتصاد عن طريق تجميع المدخرات الخاصة وتوجيهها نحو مختلف أوجه الاستثمار[2], وبهذا فهي تساهم بنقل الأموال المدخرة من أيادي المدخرين إلى أيادي المستثمرين , والدور الرئيسي الذي تعمل به المصارف التجارية داخل السوق المالي هو قيامها بتوظيف المدخرات المجتمعة لديها عن طريق السوق المالي , وأيضا تقوم بشراء الأوراق المالية او بعض الأموال غير المنقولة التي تعد جزءً من عمليات الاستثمار في السوق , وان الائتمان الذي توجهه للأغراض الاستثمارية في السوق المالي له أهمية بالغة في مجالات التأثير على حركة وعمل الأسواق المالية , إذ تسمح هذه القروض بشراء الأسهم والسندات[3], التي يتم منحها للسماسرة أو الوسطاء الذين يتعاملون بالأوراق المالية أو للأفراد الذين لديهم الرغبة بإقراض جزء من ائتمان الأوراق المالية ويضعون هذه الأوراق بمثابة ضمان

---

[1] احمد صبيح عطية , مدى فاعلية المؤسسات المالية الوسيطة في التأثير على النشاط الاقتصادي مع إشارة خاصة لتجارب تشيلي لبنان والعراق , الجامعة المستنصرية , كلية الادارة والاقتصاد , بغداد,2010, ص160.

[2] حسن الحكاك واخرون , المدخل في التنظيم والادارة المالية , بغداد , مطبعة المصارف 1990, ص159.

[3] محمد عزيز , النقود والبنوك , الطبعة الاولى , مطبعة المصارف , بغداد , 1995 , ص ص 321-325.

في المصارف التجارية التي تمثل أبرز وأهم مصادر التمويل ذات الأجل القصير[1], وفي إطار المفهوم المعاصر فان دور المصارف أخذ يتعدى العمليات التقليدية بوصفها مؤسسات مالية وسيطة تمنح القروض وتصنع الاستثمارات عن طريق دورها الفعال في السوق المالي والسوق النقدي إلى دور المصارف في ضوء الاتجاهات المعاصرة إذ لم يعد محدداً في تجميع المدخرات بل وجهت هذه المدخرات نحو الفرص الاقتصادية المختلفة والتي ادت نتائجها بتراكم رؤوس الأموال . إن عمق واتساع النشاط المصرفي قد جاء بجملة من المتغيرات البيئية المحلية والعالمية , كالتحرر من القيود القانونية لأنشطتها والذي انعكس أيجابياً في تكامل ونضوج الأسواق المالية , فأعطيت مسوغات لصناعة الصيرفة , بولوج الانشطة الاستثمارية التي تلعب دوراً هاماً في تطوير وتنشيط الأسواق المالية , مثل الوساطة بالعمولة وتوفير الخدمات الاستثمارية والاستشارية وكذلك ادارة محافظ الغير من الأوراق المالية وعمليات تسويق الاصدارات الجديدة .

ان هذه النشاطات خلقت الثقة بالمصرف وقدرتها على التعامل مع الادوات المالية الأكثر مخاطرة , وادارة تلك الادوات عن طريق صناعة اسواقها , وأن صناعة الأسواق قد شكلت أهمية لدى ادارات المصارف كونها تمثل نشاطاً يعمل على توفير اسهام مصرفي لتحقيق العمق والاتساع للأسواق المالية فضلاً عن اكتسابه صفة الاستمرارية والسيولة ذات الكلفة الملائمة والسرعة المناسبة أيضا .

ان دور المصارف في صناعة السوق المالي يمكن النظر له من بعدين هما :

1. البعد الأول وظيفي كون صناعة السوق تعد نشاطاً فهو يتمثل بالمتاجرة بالأوراق المالية , إذ توجد حالة دائميه في الاستعداد لبيع وشراء الأوراق المالية ولكن مع احتفاظها بمضمون تنشيط الطلب على الأصول المالية .
2. البعد الثاني من يقوم بهذه الوظيفة أو صناعة السوق, وهو الشخص او المجموعة التي تتعامل بيعاً وشراءً بالأسهم وتحتفظ بمخزون لتلبية حاجات الزبائن .

ان صناع السوق يتخذون اشكالاً مختلفة في السوق الأولي والثانوي داخل منظومة الأسواق المالية , إذ يمثل السوق الأولي سوق جملة تباع فيه كل الاصدارات الجديدة التي تطرح من قبل المؤسسات الحكومية وقطاع الأعمال , عن طريق المؤسسات المالية الوسيطة , ولاسيما

[1] حسن احمد توفيق , التمويل والادارة المالية في المشروعات التجارية , مطبعة التقدم , القاهرة , 1992, ص212.

مصارف الاستثمار , لذلك فالسوق الأولي تتاح فيه المدخرات ليتم تحويلها إلى استثمارات جديدة وذلك بإصدار اوراق مالية لم تكن متداولة قبل إصدارها[2].

وتعد مصارف الاستثمار من أهم المؤسسات المالية التي تساهم في صناعة السوق المالي من خلال مساعدة الشركات المساهمة والحكومة المركزية لتسويق اصداراتها في السوق المالي لامتلاكها الخبرة الكافية في هذا المجال[3], وتتميز أيضا بثقة المستثمرين , وقد استطاعت ان تقوم بأدوار فعالة في تمويل أكبر المشاريع العامة والخاصة على حدٍ سواء , كما تعمل فضلاً عن عملها الاصلي بتقديم الخدمات الاستشارية لزبائنها وان هذه المصارف لا تخرج عن كونها تمثل وسيطاً بين المستثمرين لأوراق مالية معينة وبين الجهة التي اصدرتها , إذ تقدم المساعدات اللازمة للجهة المعنية ليتم اصدار الأوراق المالية وتعمل على شراء الاصدارات الجديدة وبيعها إلى الجمهور عن طريق الأسواق المالية . وأن المهمة الأساسية لمصارف الاستثمار هي التوزيع الفعلي للإصدارات بصورة منتظمة ومضمونة لبيعها للزبائن , وبالتالي تعمل هذه المصارف على صناعة السوق المالي في السوق الأولية نتيجة خبرتها الاستثمارية والاستشارية التي تعمل على تطوير الأسواق المالية بما يعود بمردود أيجابي على التنمية الاقتصادية نظراً لما تقدمة هذه المصارف للحكومات والمؤسسات من خدمات مالية في الأسواق المالية.

اما صناعة السوق المالي في السوق الثانوي فقد أخذت شكلاً اَخراً , إذ تمثل السوق الثانوي الذي يتم التعامل في داخله بالأصول المالية (أسهم وسندات) والتي سبق اصدارها من قبل السوق الأولي , بمعنى الموجود بالفعل من الأوراق المالية وتتداول الأوراق المالية في السوق الثانوي بيعاً وشراءً بين حاملها وأي شخص اَخر , ويقوم السوق الثانوي بدوره الهام بالنسبة للأفراد المستثمرين والشركات المالية وكذلك الدولة , إذ عن طريق هذا السوق تتداول الأوراق المالية بين المستثمرين , وان السوق الثانوي يعطي وجود للسوق الأولي في الإصدارات الجديدة على منح السيولة للإصدارات الأولية ولمختلف الأسهم والسندات وتُعد هذه السيولة عنصراً ضرورياً لتجمع راس المال في الاقتصاد الوطني[1], وتأخذ صناعة السوق في السوق الثانوي عن طريق عمل المصارف بالدور المتخصص الذي يأخذ على عاتقه شراء الأوراق المالية بهدفين الاول يعمل على الموازنة بين الطلب والعرض على الأوراق إذ تقوم المصارف في

---

[2] عراق العراقي , طبيعة سوق الأوراق المالية , البورصات العربية , العدد العاشر , السنة الثالثة , أيلول 1988/ , ص13.

[3] علي محمد حسين , الادارة المالية في المنشئات الاقتصادية , دار المسلم للطباعة والنشر , القاهرة , 1971 , ص66-67.

[1] عبدالمنعم محمد مبارك , محمود يونس , اقتصاديات النقود والصيرفة والتجارة الدولية , الاسكندرية , 1996 , ص91

التدخل بشراء هذه الأوراق باقل الأسعار , أما الثاني يمثل الجمع بين نشاط التجار والسماسرة في وقت واحد , إذ تقوم بعمليات مالية مقابل عمولة محددة , أو تنفذ صفقات تجارية تكون لصالحها بقصد تحقيق الأرباح لم تكن لصالحها (بيع وشراء) وان الهامش بين سعري البيع والشراء يكون ربح المصرف المختص أو المعني[2], وعليه فان سعر البيع او الشراء لأي ورقة يتم تحديدها على يد المختص , إذ يقوم في صناعة سوق مستمرة لأسهم محفظته فتؤمن استمرار السعر ومجموعة من المتخصصين يقومون بتامين الصفقة ككل للسوق , عند إذن يتحقق الاستقرار ويعكس السوق كفائتة التشغيلية عن طريق تنفيذ معاملات بأرخص الأسعار ان الخدمات التي تتم قيادتها من قبل صناع السوق في السوق الثانوي ليست مجانية , بسبب المخزون من الأسهم والسندات الذي يحتفظ به ما سوف يعرض صناع السوق لمخاطر عديدة كتكلفة الفرصة البديلة , ومخاطر تغيرات أسعار الفائدة , فضلاً عن تقلبات أسعار السوق ولكن بالرغم من ذلك فهم يحتاجون إلى إضافة تكاليف الاحتفاظ والعوائد المطلوبة ليتم التعويض عن المخاطر , ويمثل الهامش عنصراً للحماية من المخاطر , بل يتمثل بحالة من المبادلة بين المخاطرة والعائد وتعمل المصارف على اختلاف مضمون أعمالها في كل من السوق الأولي والثانوي بدعم وتطوير السوق المالي عن طريق عملية صناعة الأسواق المالية التي تقوم بها مصارف الاستثمار والتجارية بتقديم أفضل ما لديهم إلى المستثمرين في الأسواق , وهذا يؤدي بمردوده الإيجابي على عملية تنمية الاقتصاد الوطني والمخطط (1) يوضح المؤسسات التي تعمل في السوق المالي.

مخطط (1): المؤسسات التي تعمل في السوق المالي

[2] هناء عبد الغفار السامرائي , عماد عبداللطيف سالم , , اقتصاد العراق ومتغيرات البيئة العربية والدولية , الطبعة الاولى , بغداد , 2002, ص295.

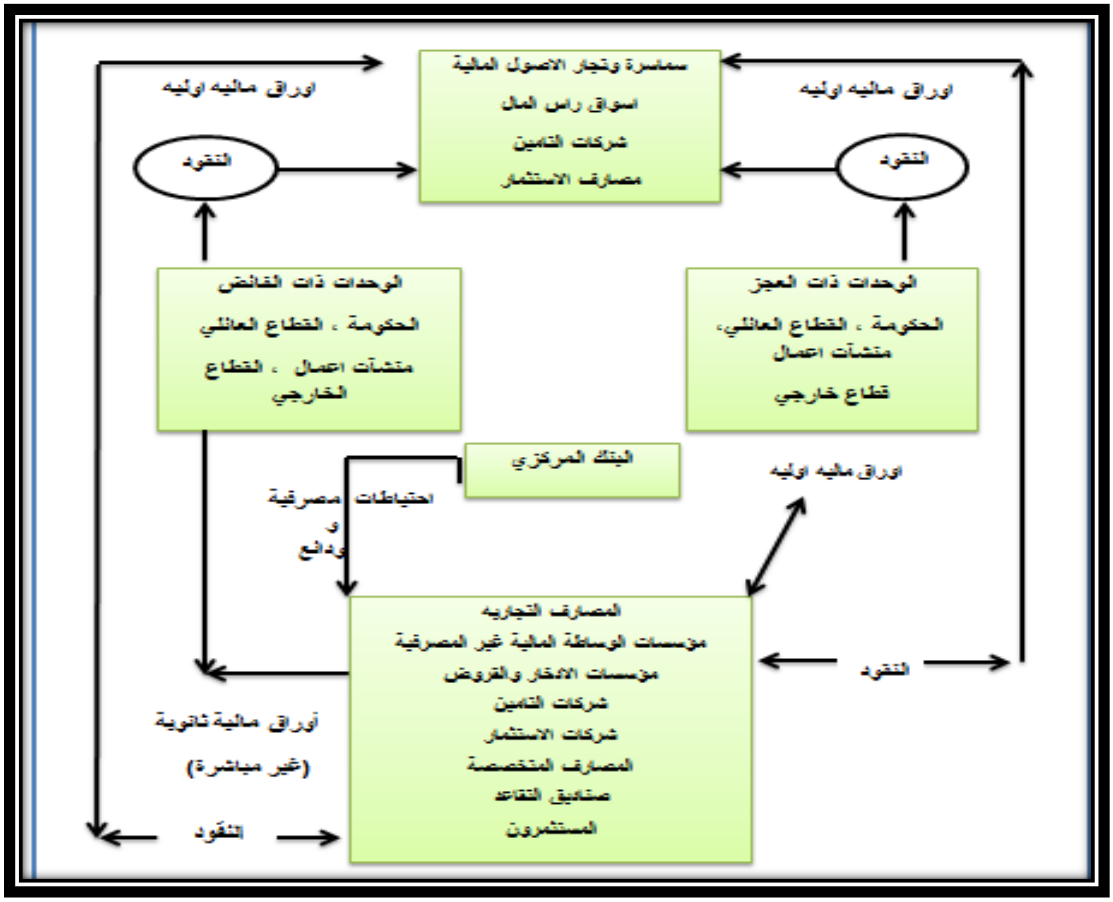

المصدر: باري سيجل , ترجمة طه عبد الله, عبد الفتاح عبد الرحمن , النقود والبنوك والاقتصاد , الرياض, 1987 , ص 72.

ثانيا / اجراءات الجهاز المصرفي من اجل تفعيل السوق المالية

لأجل قيام سوق مالي فعال , كان لزاماً على الجهاز المصرفي أن يأخذ بمجموعة من الاجراءات التي تساعده على ذلك , ولعل أهم هذه الاجراءات هي :

1. التوجه نحو الإصلاح المصرفي

أن الإصلاح المصرفي يعد الدعامة الأساسية لبناء أي اقتصاد حر يقوي من دعائم الدولة ويدفعها باتجاه عملية النمو الاقتصادي ,وإذا كانت الأسس لبناء القطاع قائمة على التخطيط العلمي والثقة والخبرة ,عندها يمكن هذا القطاع من المساهمة بخطط التنمية والاستثمار على صعيد النمو الاقتصادي للمجتمعات والدول وان من أهم متطلبات الإصلاح سواء كان اقتصادياً او سياسياً او اجتماعياً وجود الاستقرار الامني ليشجع خطوات الإصلاح ليضمن للمستثمر بيئة آمنة لممارسة مختلف الانشطة الاقتصادية , فلا وجود لأي إصلاح من غير وجود محيط اقتصادي واجتماعي مستقر , وربط الإصلاح المصرفي ببرامج الإصلاح الاقتصادي ارتباطاً وثيقاً ولاسيما فيما يتعلق بإصلاح القطاع العام ومختلف مؤسساته وكذلك

الإصلاح المالي , وبالنظر لهذه الأهمية الترابط بين الإصلاحات وبما يضمن تناسق السياسات وبالشكل التدريجي , وذلك لتحقيق النتائج الإيجابية لصالح التنمية الاقتصادية[1]. وان من أهم متطلبات الإصلاح المصرفي ما يأتي[2]:

أ. إقامة بيئة تشريعية وتنظيمية للعمل المصرفي .

ب. أيجاد توجه شامل للإصلاح المصرفي .

ت. وجود بنية مالية تحتية متطورة .

ث. دخول عنصر المنافسة في العمل المصرفي مع التأكيد على استقلالية البنك المركزي والمصارف في قرارات منح الائتمان .

ج.وجود الوعي والثقافة المصرفية لدى المجتمع .

2.الاسراع في تأهيل السوق المالي

ان التطور الذي حصل بين ميدان التمويل والاستثمار المتنامي إلى أيجاد المصادر التمويلية الدائمة للمؤسسات والشركات الوطنية , بدلا عن التمويل بالقروض , والذي نتج عنها تبعية مديونية , إلى الاسراع لأنشاء سوق مالي يتماشى مع سرعة العصر ومتطلباته المتزايدة , لذلك اصبحت السوق المالية القلب النابض للحياة الاقتصادية , ولغرض ذلك اقامت السلطة المالية بتأهيل السوق المالي بالمستوى الذي يرتقي به لخدمة الاستثمار والتنمية المحلية عن طريق الاتي[3] :

أ. اعادة هيكلة صناعة الخدمات المصرفية

حدثت تغيرات كبيرة في اعمال المصارف , فقد توسعت دائرة ومساحة نطاق اعمالها المصرفية ,فأخذت بالتوجه نحو اداء الخدمات المصرفية والمالية التي لم تكن معروفة من قبل والذي يلفت النظر إلى ان اعادة هيكلة صناعة الخدمات المصرفية قد امتدت بصورة غير مباشرة , تمثلت بدخول المؤسسات المالية غير المصرفية كشركات التامين وصناديق الاستثمار والمعاشات التي نافست المصارف التجارية في مجال خدماتها التمويلية , وهذا ما دفع المصارف التجارية إلى العمل بالتحول من العمليات التي تشكل على اساس مخاطر الائتمان إلى عقيلة مصارف الاستثمار المشكلة على اساس مخاطر السوق .

---

[1] توفيق شمبور , الإصلاح المصرفي في الوطن العربي ضروراته ومعوقاته , اتحاد المصارف العربية , بيروت , 1993, ص49.

[2] ينظر في ذلك :

- عصام الدين الليثي , مصارف الاستثمار في السودان , النشأة والتطور والاداء , اتحاد المصارف العربية , 2000 , ص75.

- عقيل عبد محمد عباس , اثر الدولة في السياسات النقدية في بلدان نامية مختارة , اطروحة دكتورا , جامعة البصرة , كلية الادارة والاقتصاد , 2005 , ص37.

[3] عبد المطلب عبد الحميد: العولمة و اقتصاد البنوك –الدار الجامعية- الإسكندرية 2001، ص 36-38-42.

ب.التحول نحو المصارف الشاملة

ازداد اتجاه المصارف في ظل اعادة هيكلة صناعة الخدمات المصرفية وبالأخص المصارف التجارية , بالتحول إلى المصارف الشاملة ,وتعد الكيانات المصرفية الساعية بصورة اساسية في تنوع مصادر التمويل , والتوظيف , والعمل على تعبئة المدخرات لكافة القطاعات وتوظيف مواردها في مختلف المجالات , فضلا عن منحها الائتمان المصرفي وتوفير كل الخدمات المتنوعة والمتجددة .

ت.تنويع انشاط المصرفي

يعد اثر تابع ومشتق للاتجاه السابق ,ويشمل هذا الاتجاه تنويع مصادر التمويل , وذلك بإصدار شهادات الإيداع القابلة للتداول والاتجاه للاقتراض طويل الاجل من خارج الجهاز المصرفي . ومن جانب التوظيفات والاستخدامات المصرفية , كان الاتجاه نحو تنويع القروض التي تمنح للغير, وتحويل المديونية المصرفية إلى مساهمات بصورة أوراق مالية قابلة للتداول , والاقدام على المجالات الاستثمارية المتجددة واداء الأعمال الصريفية الاستثمارية وكذلك تمويل عمليات الخصخصة . اما من ناحية مستوى الدخول في مجالات غير مصرفية , فيكون التوجه نحو التأجير التمويلي والمضاربة بالعملة والعمل على تعميق نشاط اصدارات الأوراق المالية ,وانشاء صناديق الاستثمار للعقود وادارة الاستثمارات لصالح زبائنها, بالإضافة إلى نشاطها بالتعامل بالعقود المستقبلية , وهي العقود التي تلزم صاحبها في شراء أصل من البائع وفق سعر يتفق عليه في فترة محددة بالمستقبل .

ث.خصخصة المصارف

تعد خصخصة المصارف الحكومية من احدى متطلبات العولمة , وحدث الاتجاه في ظل التحول نحو تطبيق برامج الإصلاح والتوجه إلى آليات السوق أن أهم دوافع الخصخصة يمكن تلخيصها بمواجهة التحديات التي تواجه العمل المصرفي وذلك في ظل المتغيرات العالمية , وتشير التجارب ان برامج الخصخصة تتركز بالأساس على تهيئة النظام الكفؤة وتوفير المناخ الملائم لاتخاذ القرارات ويصاحب ذلك تحرير كبير وتدريجي للقطاعات الانتاجية في الاقتصاد , وان المفهوم السائد نحو الخصخصة هو التحول من القطاع العام إلى الخاص بمعنى تحول الوحدات السلعية والخدمية التي تمتلكها الدولة إلى الاشخاص المعنويين والماديين جزئياً او كلياً هذا يؤدي إلى اعادة هيكلة الوحدات المعنية وبعدها تغير قوى الانتاج وربطها باليات السوق في اطار يتوافق مع التحولات التي يشهدها الاقتصاد العالمي , وبما ان القطاع المصرفي هو احد

القطاعات الخدمية لأي اقتصاد لذا يتطلب ان يأخذ بنظر الاعتبار الدور الهام بفسح المجال وبشكل حقيقي امام القطاع الخاص للاستثمار وبما ينعكس على عملية التنمية الاقتصادية[1].

المبحث الثالث / واقع سوق العراق للأوراق المالية ومعوقات عمله.

اولا / واقع سوق العراق للأوراق المالية:-

ان السوق المالي في العراق حقق انجازات هامة وفق المؤشرات الموضوعية التي عبرت عن حركة واداء السوق نحو عدد الأسهم وعدد العقود وحجم التداول فضلاً عن عائد السهم . ولوحظ ان نشاط الطلب لاسهم الشركات الصناعية والبعض من المصارف الاستثمارية والتجارية وينبئنا الواقع الحالي لمستقبل زاهر في السوق المالي للعراق بسبب العوامل الآتية:

1. ازدياد الوعي الاستثماري للأفراد لغرض الاستثمار في اسهم الشركة المؤسسة حديثاً والذي أدى إلى ظهور العديد من الشركات الصناعية والزراعية وايضاً المصارف التجارية والاستثمارية .
2. حقق سوق بغداد للأوراق المالية إنجازات في الفترة التي تلت تأسيس السوق ومع أهمية و دور سوق بغداد إلا أن السوق يفتقر لصناديق وشركات الاستثمار التي تعطي ميزة التنوع لجهاز الوساطة المالية بالإضافة إلى مساهمتها في تنمية السوق المالي .
3. شهد الاقتصاد العراقي بعدما زالت الظروف الاستثنائية التي واجهته نتيجة الحصار بازدياد عدد المصارف التجارية , إذ رافقته دخول خدمات مالية إلى عملياتها بصورة متطورة مما ساعد على تنوع الاطار المؤسسي في سوق المال المتمكن من توفير الأدوات الائتمانية ملائمة لاحتياجات المستثمرين والمدخرين وبما يصب في اتجاه التنمية والانعكاسات الايجابية على الاقتصاد .

لذلك فالاقتصاد العراقي بحاجة إلى قوة مؤسساتية تعمل على تنظيم الاستثمار بمرحلتي التداول والتسويق ولعل أهم تمثيل يمكن تواجده هو تأسيس صناديق الاستثمار الوطنية والتي بدورها سوف تنضج استثمارات صغار المستثمرين والمحليين واسهامات القطاع المختلط [1] وان لصناديق الاستثمار في الاقتصاد العراقي أهمية وكما يلي [2]:

أ. تساهم في ترشيد توظيف الأموال عن طريق المزايا التي تقدم لأصحاب الادخارات الصغيرة واهمها:

---

[1] حنان عبد الخصر هاشم , الخصخصة بين الواقع واحتياجات اقتصاديات الدول النامية , العربي للعلوم الاقتصادية , المجلد الاول , العدد الاول , 2004 , ص107.

[1] طه عبد السلام , تطوير راس المال كفيل بتفعيل دور البورصة في التنمية,مقالة منشورة على موقع جريدة الصباح , 17 / 8 /2011 , متوفر على الموقع : http : // www . alsabaah.com .

[2] فلاح خلف الربيعي , دور صناديق الاستثمار في الاقتصاد العراقي , مقالة منشورة على موقع الحوار المتمدن , 15 /4 /2008 ,متوفر على الموقع http : // www.m .ahewar.org

• توفير الخبرة الفنية من أجل اتخاذ القرار الاستثماري وكذلك مراقبة حركة الأسعار .

• تقلل المخاطر من خلال تنوع المحافظ الاستثمارية , والعمل على تدقيق فيما يخص تقارير العمليات التي تمول من قبل الصناديق .

• ان المساهم في صناديق الاستثمار يحصل على ميزتين هما المرونة والملائمة عن طريق ضمان حقه بالتحويل من صندوق لأخر بمقابل رسوم قليلة , وله الحق باسترداد قيمة اسهمه , ويمكنه ايفاء راس ماله وسحب العائد حسب رغبته .

• إن قيام إدارة صناديق الاستثمار وفق دراسة الفرص المربحة للاستثمار قبل اكتتابها سوف يؤدي زيادة الكفاءة التشغيلية لمشاريعها من دون انتظار الفرص المناسبة , ويعد هذا علاج مشكلة تأخر الاستثمار وفائض السيولة التي تساهم بانخفاض مستوى الأرباح .

ب. تساهم بتشجيع الاستثمار ذات الأجل الطويل والمتوسط الذي يبنى وفق دراسة علمية .

ت. تساهم بتعزيز دورها الاستثماري للمصارف التجارية عن طريق استخدام المصارف لصناديق الاستثمار كأوعية استثمارية والتي من خلالها توظف فائض السيولة .

ث. تعد من أنسب الأدوات التي تعمل على فسح المجال لأجل توظيف مدخرات العرب وكذلك الاجانب والعراقيين الذين يقيمون في الخارج دون الحاجة لتواجدهم .

ج.بإمكانها ان تساهم بتنشيط حركة سوق الأوراق المالية عن طريق جذب المدخرين الصغار , وهي تقدم أدوات استثمارية ملائمة لظروف المستثمرين , كما تعمل على شراء تشكيلة من الأوراق المالية التي تتداول في السوق .

ح.تساهم صناديق الاستثمار بعملية تمويل المشاريع المتوسطة والصغيرة , وهذا يحتاج إلى تظافر الجهود بين صغار المنتجين ومجموعة الحرفيين من جانب والمصارف والمؤسسات التمويلية من جانب اخر .

ثانياً / معوقات عمل سوق العراق للأوراق المالية:-

1.محدودية رؤوس أموال الشركات التي تعمل في سوق العراق ما عدا المصارف التي حددت من قبل البنك المركزي برأسمال لا يقل عن 250 مليار دينار , بمقابل 15 مليار دينار تكون لشركات التحويل المالي , ولشركات الصرافة 150 مليون , ولشركات القروض المتوسطة والصغيرة بين (1 –2) ولشركات الاستثمار المالي 150 مليون دينار .

2.تخلف بعض التشريعات المنظمة لأجل ان يكون عمل الشركات في سوق العراق وفق متطلبات التحديث لمواكبة توجه الاقتصاد العراقي باتجاه اقتصاد السوق من جهة والتشريعات القائمة للأسواق المالية والعربية من جهة اخرى .

3.ضعف وسائل الرقابة الفعالة والتي تقوم بضمان توفير الحد الأدنى من الشفافية والافصاح للمتعاملين .

4.عدم وجود الحماية القانونية التي تكفي لغرض كسب ثقة أصحاب رؤوس الأموال سواء كانوا من العراقيين أو من الأجانب للمساهمة الفعالة في الأسواق وكذلك المستثمرين .

5.ضعف المرونة لهيكل أسعار الفائدة في السوق وخصوصاَ المصارف وشركات التأمين التي تمنح القروض ذات الأجل المتوسط والطويل للأغراض العقارية .

6.ضعف أو محدودية قاعدة البيانات في اغلب الشركات وهذا يؤدي إلى عدم مساعدة المستثمر لاتخاذه القرار الاستثماري بصورة سريعة .

7.يفتقر السوق لمؤسسات الوساطة المالية وكذلك الشركات صانعة السوق مقارنة بالحاجة الفعلية لها .

8.يفتقر السوق للمؤسسات المختصة لغرض تقييم أداء الشركات المقترضة , أو التي تطرح أسهما في السوق

ويعد ضعف الأدوات المالية ومن ثم اقتصارها على القطاعات السائدة تعد من المسببات في محدودية حجم التداول لسوق العراق , وتتكفل الإجراءات الفنية تنظيم السوق عن طريق عدم ايقاف الشركة المدرجة المساهمة بالتداول في السوق , ولكن القرارات التي تصدر سوف تعالج بآليات التداول الالكتروني وخاصة بوجود توزيع الأرباح وتعاملات الأسهم الجديدة بعد ازدياد رأسمالها في معاملة الإصدارات الجديدة التي تكون قابلة للإدراج , وعندئذ تكون سيولة الأسهم 100%ومن ثم مضاعفة مؤشرات الاستثمار في السوق المالي ولا سيما إذا كان معرفة فترة الاكتتاب براس المال تتراوح بحدها الادنى بين (1 –4) اشهر باقياَ فيها المستثمر و المساهم محروم من التداول ثم ضعف الاستثمار في السوق والتزام الشركات المساهمة على الادراج بعدما يتحقق متطلبات الإدراج[1], واستخدام الوسائل الاعلامية وشبكة المعلومات للتعرف بنمط الاستثمار لسوق العراق ولا سيما باقتراب شركة الهاتف النقال الذي يقوم بتأسيس قطاع الاتصالات الخاص بصورة شركات مساهمة في العراق ولأول مرة , ولا يخفى ان لحجم والمؤشرات المالية عالمياَ لهذا القطاع وتأثيره الجيد الذي سينعكس على الاقتصاد العراقي باشتراك المستثمرين العراقيين بالاكتتاب العام لأسهم هذه الشركات , ويجب ان تبذل الجهود من قبل الشركات المساهمة في السوق لأجل التزامها بمعايير الافصاح التي وضعت من قبل الهيئة والتي تمتاز بالعالمية لتعريف كل من المساهم والمستثمر الذي له الرغبة بالاستثمار فيها بمركزها المالي الحقيقي , وان الشركات المدرجة بنسبة الربع لازالت متخلفة عن التطبيقات

[1] طه عبد السلام , مصدر سبق ذكره .

المحاسبية وفق إطار الوقت القانوني الذي يمنح لها وجاء الوقت لمحاسبة الإدارات هذه الشركات وليس الشركة بسبب ان الأعباء المفروضة على الشركة يتحملها المساهم دون المقصر لهذه الادارات .

جدول (1): تطور عدد الشركات في سوق العراق للأوراق المالية للمدة 2004–2014

السنوات	الشركات المدرجة		الشركات المتداولة		الشركات المتوقفة
	العدد	التغير %	العدد	التغير	
2004	80	------	59	-----	21
2005	85	6.25	80	35.6	5
2006	93	9.41	84	5.00	9
2007	94	1.07	85	1.19	9
2008	94	0	87	2.32	7
2009	91	-3.19	89	2.30	2
2010	85	-6.59	83	-6.74	2
2011	87	2.35	83	0	4
2012	85	-2.30	80	-3.6	5
2013	73	-14.2	70	-12.5	3
2014	74	1.36	71	1.42	3

المصدر: التقارير السنوية لسوق العراق للأوراق المالية للمدة من2004–2014.

ثالثاً / مؤشرات سوق العراق للأوراق المالية.:-

ويعرف مؤشر السوق بأنه القيمة الرقمية التي تقيس التغيرات الحاصلة في سوق الأوراق المالية , ويتم تحديد قيمة المؤشر في البداية ومن ثم مقارنته عند لحظة زمنية أخرى , مما يساعد في معرفة تحركات السوق وتغيراته , مما يتيح حريه أكبر للمستثمر بتوجيه امواله بالقدر الذي يراهُ مناسباً للحصول على اعلى ربحية ممكنه[1] .

ومن وظائف المؤشرات تمثيل سوق الأوراق المالية لقياس المخاطر النظامية(*) للأصول الفردية أو المحافظ الاستثمارية , لذا المؤشر ممثلاً (Proxy) عن السوق , وعندما تحتسب علاقة عوائد الاصول بمؤشر السوق يصبح حساب المخاطر النظامية المستخدمة متغير اساسي لأنموذج تسعير الاصول لأجل تحديد العوائد المطلوبة والمتكافئة مع مخاطر الاصل والمحفظة .

وفي أغلب مراحل التطور الاقتصادي كانت المصارف التجارية مهيمنه على القطاع المالي , ومع ازدياد هذا التطور ازداد تخصص الوسطاء الماليين نحو أسواق الأسهم والسندات ,

[1] محمد صالح الحناوي , جلال العبد , بورصة الأوراق المالية بين النظرية والتطبيق , اصدارات المعهد العربي للتخطيط , العدد الثاني , السنه الثالثة , الكويت , 2004 ,ص251.

ولغرض تحديد مدى هذا التطور وارتباطه بمؤشرات الاقتصاد اعتمد الاقتصاديون على جملة من المؤشرات أهمها :

1. المؤشر العام لسوق الأوراق المالية (مؤشر السوق).
2. مؤشر القيمة السوقية .
3. مؤشرات السيولة لسوق الأوراق المالية ويشتمل على:

أ- حجم التداول .

ب- معدل دوران الأسهم .

ت- درجة التركز.

وسوف نتناول بالتحديد مؤشرين هن سوق العراق للأوراق المالية

1. المؤشر العام لسوق العراق للأوراق المالية (مؤشر السوق)

وهو مؤشر احصائي يستخدم لقياس الأداء الإجمالي للسوق وهو رقم قياسي مئوي يعتمد على قياس حركة التغير لأسعار الأسهم لعينه من الشركات التي تساهم وتتداول أسهمها بصورة منتظمة وعددها 40 شركة أذ تكون طريقة القياس بالاستناد إلى ثابت وهو الجلسة الأولى لقياس قيمة المؤشر على اساس متحرك معتمداً على مقارنة قيمة الجلسة الحالية بالجلسة التي سبقتها , فضلاً عن استخدامه كمقياس للحركة العامة في أسواق المال , ويتكون من مجموعة من الأوراق المالية يعتقد بانها تعكس حالة السوق بصورة كاملة[1].

تُعد حركة وتغير اسعار الأسهم تبعاً للعوامل الموضوعية التي تخص المناخ الاستثماري وبيئة الاعمال في الاقتصاد وقدرتها الاستيعابية وامكانياتها الانتاجية والتسويقية وحجم ارباحها وتعد من الوسائل الهامة من الوسائل الهامة التي يتبعها المستثمرون في أسواق المال لاتخاذ قراراتهم الاستثمارية .

تعكس بيانات الجدول (2) المؤشر العام لسوق العراق للأوراق المالية , أذ عكست البيانات مستوى التذبذب في مؤشر السوق خلال مدة الدراسة (2004-2014) التي يبدو انها كانت متأثره بالأوضاع السياسية والامنية التي كان يمر بها العراق والتي انعكست على الأداء الاقتصادي والمالي للمؤسسات الاقتصادية بشكل عام , أذ سجل مؤشر السوق قيمة مقدارها (46.669) نقطة في عام 2004 , أما في عامي (2005،2006) فقد انخفض المؤشر إلى (45.644) (25.288) نفطة على التوالي وبمعدل تغير سنوي (-29.9%)(-44.5%)على التوالي , والسبب هو انخفاض أغلب المؤشرات القطاعية والتي تم احتسابها لقياس التغيرات في اسعار أسهم الشركات المدرجة لكل قطاع فضلاً عن تلكؤ عدد من

[1] التقرير السنوي العاشر لسوق العراق للأوراق المالية , 2013 , ص11.

الشركات التي تساهم في ادائها , الا ان قيمة المؤشر ارتفعت في عامي (2007–2008) أذ بلغت قيمته (34.590) (58.360) نقطة على التوالي وبمعدل تغير مقداره (36.7) (68.7) على التوالي ويعود السبب إلى عدة عوامل منها التحسن في الوضع الأمني , انخفاض معدلات الفائدة , ارتفاع معظم المؤشرات القطاعية , وفي عام 2009 اعتمد سوق العراق للأوراق المالية آلية التداول الالكتروني وتم احتساب المؤشر الكترونياً , وقد بلعت قيمة المؤشر (100.860) نقطة وبمعدل تغير (72.8 %) , فضلاً عن تطبيق الاجراءات والتعليمات التي تخص السوق من جهة الشركات المتعاملة بمبدأ الافصاح , وفي عامي (2010–2011) ارتفعت قيمة المؤشر وبنسب قليله (100.98) (136.03) نقطة على التوالي وبعدل تغير مقداره (0.11%) و(34.6%) والسبب هو اتخاذ سوق العراق المالية اجراءات شديدة بخصوص الضوابط وشروط الادراج والذي أدى بدوره إلى عدم السماح لأغلب الشركات بالتداول , اما الأعوام (2012–2013) سجلت قيمة المؤشر انخفاضاً وبنسب قليلة بلغت قيمتها (125.02) (113.15) نقطة وبمعدل تغير (–8.08%)(–9.50%), فيما تراجعت قيمة المؤشر في عام 2014 حتى بلغت (92.00) نقطة (*) بمعدل تغير(–18.6)%[1].

ورغم التذبذب الحاصل في مؤشر سوق العراق للأوراق المالية الا ان المؤشر العام له يظهر انه سجل ارتفاعا في قيمته , أذ سجل في عام 2004 قيمة مقدارها (46.669) نقطة في حين وصل إلى (92.00) نقطة في عام 2014 مع الاشارة إلى انه قد سجل نقاطاً اعلى في هذه المدة وصلت إلى أعلاها في عام 2011 أذ وصلت قيمته (136.03) نقطة , وهذا يشير إلى ان السوق العراقية سوقاً واعدة قادرة على التغير بسرعة استجابة للتغيرات الأمنية والسياسية وهو ما صوره لنا الشكل , والذي يلاحظ فيه أن منحنى المؤشر انتقل من أسفل اليسار إلى أعلى اليمين ليعكس حجم الارتفاع العام لهذا المؤشر.

جدول(2): المؤشر العام لسوق العراق للأوراق المالية للمدة (2004– 2014)

[1] سوق العراق للأوراق المالية , التقرير السنوي ودليل الشركات لعام 2014 , بغداد , ص4.

السنوات	المؤشر العام للسوق (مؤشر البورصة)	معدل التغير السنوي%
2004	64.669	----
2005	45.644	-29.9
2006	25.288	-44.5
2007	34.590	36.7
2008	58.360	68.7
2009	100.860	72.8
2010	100.98	0.11
2011	136.03	34.6
2012	125.02	-8.08
2013	113.15	-9.50
2014	92.00	-18.6

المصدر: سوق العراق للأوراق المالية , تقارير سنوية للأعوام (2004- 2014) اعداد مختلفة.
- نسبة التغير من اعداد الباحثين .

شكل (1): المؤشر العام لسوق العراق للأوراق المالية للمدة من 2004-2014

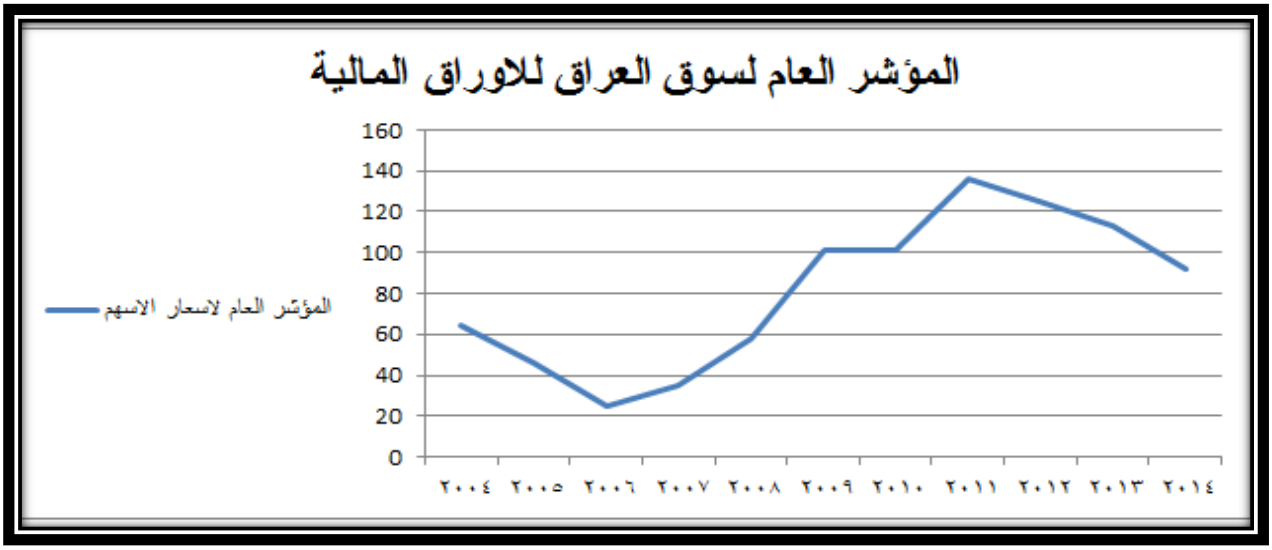

المصدر: من عمل الباحثين بالاعتماد إلى جدول (2).

2. مؤشر القيمة السوقية

يعد هذا المؤشر أحد أهم مؤشرات سوق العراق للأوراق المالية , فهو يمثل إجمالي الأوراق قيمة المالية المدرجة في السوق , وبالتالي فعندما تزداد قيمة المؤشر نتيجة زيادة عدد الأسهم أو الشركات المدرجة فانه دليل على توسع حجم السوق , لذلك فهو يعبر عن مستوى نشاط السوق والنشاط الاقتصادي .

الجدول (3) مؤشر القيمة السوقية لسوق العراق للأوراق المالية , أذ سجلت القيمة السوقية لعام 2004 (1715503) مليون دينار وقد ارتفعت في عام 2005 إلى (3160104) مليون دينار وبمعدل تغيير (84.2%), ويعد هذا التغير الايجابي في القيمة السوقية لمؤشر السوق خطوة نحو رغبة المدخرين في توظيف اموالهم في السوق المالية بعد تغيير النظام السابق ونظرة تفاؤلية لتغيرات السوق نحو البناء والتطور , الا ان هذه النظرة قد تبددت مباشرةً عام 2006 وذلك نتيجة لبروز الانتكاسات الامنية وما رافقها من نظرة تشاؤمية نحو مستقبل الاقتصاد العراقي خصوصاً بعد التيقن بأن اصلاح وتطوير البنى التحتية بات ينظر لها بالدرجة الثانية أو الثالثة من قبل الساسة الذين ركزوا بالدرجة الأولى على التناحر بينهم وتنفيذ اجنداتهم من ناحية ومحاربة الارهاب من ناحية أخرى , لذا فقد انخفضت القيمة السوقية للسوق إلى (1948548) مليون دينار في عام 2006 وبمعدل تغير سنوي (−38.3%).

وقد شهدت القيمة السوقية للسوق ارتفاعات بسيطة في الأعوام اللاحقة وبمعدلات تغير سنوية بسيطة أذا ما قورنت بعام 2005 الذي سجل (84.2%)في حين كانت معدلات التغير السنوية في القيمة السوقية للسندات من عام 2007−2013 ترتفع بنسب بسيطة وهي (10.4, 20.8 , 34.3 ,10.2, 36.9 , 7.32 ,9.25%)على التوالي , والسبب هنا يعود إلى الرغبة في استثمار المدخرات في المشاريع التي تحقق ارباحاً في ادائها السنوي كالقطاع المصرفي وقطاع التامين وبعض المشاريع الصناعية التابعة للقطاع الخاص كشركات المشروبات الغازية والعقارية وشركات الاستثمار المالي , الا انه في عام 2014 قد سجل مؤشر القيمة السوقية انخفاضاً وصل إلى (9520626) مليون دينار بعد ان كان (11451368) مليون دينار في عام 2013[1]وبمعدل تغير سنوي وصل إلى (−16.8%)هذا يعود إلى عدم نشر الحسابات الختامية للموازنة العامة للعراق وانخفاض اسعار النفط الذي قاد إلى اجراءات حكومية تقشفية وانخفاض حجم المدخرات المحلية خصوصاً وان الحكومة لم تدفع مستحقات المقاولين والمزارعين والتجار المتعاملين مع الحكومة, وكذلك ضعف عمل القطاع المصرفي أذ كان ميوله للائتمان التجاري وبنسبة أكبر من الائتمان الصناعي والزراعي نتيجة ارتكاز أغلب النشاطات المصرفية على عملية التحويل الخارجي واصدار خطابات الضمان , غياب دور المصارف كصناع للسوق.

[1] سوق العراق للأوراق المالية, التقرير السنوي ودليل الشركات للأعوام (2004-2014) اعداد مختلفة.

جدول (3): القيمة السوقية لسوق العراق للأوراق المالية للمدة (2004–2014) مليون دينار

السنوات	القيمة السوقية (1)	معدل التغير السنوي % (2)
2004	1715503	-------
2005	3160104	84.2
2006	1948548	-38.3
2007	2128868	9.25
2008	2282983	7.23
2009	3125921	36.9
2010	3446713	10.2
2011	4930232	34.3
2012	5597363	20.8
2013	11451368	10.4
2014	9520626	-16.8

المصدر: سوق العراق للأوراق المالية , تقارير سنوية للأعوام (2004– 2014) اعداد مختلفة.

- معدل التغير السنوي من عمل الباحثين.

شكل (2): القيمة السوقية لسوق العراق للأوراق المالية للمدة من 2004–2014

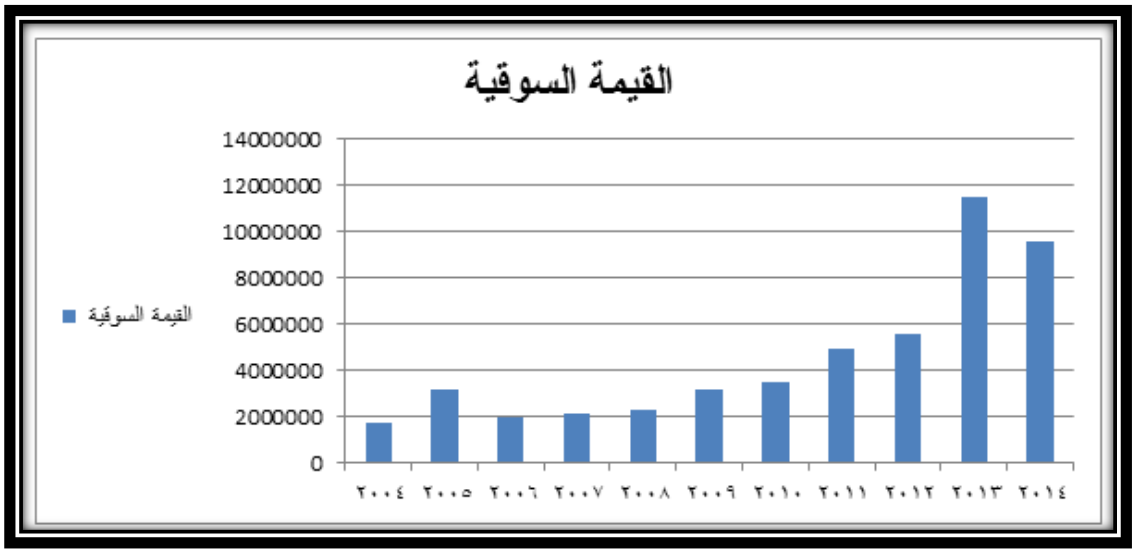

المصدر: من عمل الباحثين بالاعتماد إلى بيانات جدول (3).

الاستنتاجات

1. تعد الأسواق المالية أحد الآليات الهامة لتجمع الموارد المالية وتوجيهها باتجاه قنوات استثمارية منتجة يكون عملها دعم الاقتصاد الوطني وزيادة معدلات النمو الاقتصادي .
2. توجد العديد من المعوقات والتي أدت الى تخلف الأداء في السوق المالي العراقي , اذ تمثلت في الحروب الطويلة والديون فضلاً عن تخلف الهيكل الاقتصادي وانخفاض دخول

الأفراد وراس المال للشركات , لذلك نلاحظ أن مؤشرات التداول في عام 2004 (4127951) مليون دينار وبلغ مؤشر اجمالي القيمة السوقية (1715503) مليون دينار للعام نفسه .

3. يشغل قطاع المصارف الأهمية الكبرى للسوق المالي العراقي من حيث عدد الأسهم وحجم التداول .

4. يرتكز التعدد والتنوع في الأدوات المالية على درجة التطور الاقتصادي والذي يكون متباين من بلد لأخر ,اذ كلما ازداد التطور للبلد أدى ذلك الى تنوع وتطور الادوات المالية.

التوصيات

1.تحقيق الحد المطلوب من الشفافية والافصاح وبما يلائم المعايير الدولية وعن طريق اصدار النشرات اليومية والاسبوعية وكذلك الشهرية على أن تكون متضمنة كافة المعلومات عن السوق والقرارات التي تخص مجلس الادارة والمعلومات التي تتضمن مؤشرات الأسعار وأحجام التداول والعمل على نشر البيانات عبر شبكة الأنترنيت لاكتساب الكثير من الفرص الاستثمارية وايضاَ وكذلك إلزام المصارف التجارية بنشر تقارير ونشرات دورية تحدد فيها حجم أعمالها ورساميلها.

2.السعي نحو تطوير سوق العراق عن طريق تدريب الكوادر البشرية والتي لها القدرة على مواكبة التطورات المالي الحديثة , ومعرفة كيفية التعامل مع المخاطر المواجهة للسوق فضلاَ عن توسيع قاعدة البيانات لآجل تمكين المستثمرين من اتخاذ القرارات ومتابعة التطورات الحاصلة , وبذلك يكون للسوق الأثر الإيجابي في تطوير الاقتصاد العراقي .

3.العمل على زيادة رأسمال الشركات التي تعمل في السوق المالي العراقي وتعزيز موقفها المالي فضلاً عن ضرورة نشر بيانات أداءها بشكل دوري يعطي للمتابع صورة واضحة عن مستوى ادائها وحجم تداولاتها وارباحها السنوية لتعطيه حافزاً على التعامل مع تلك الشركات أو حافزاً للدخول والتعامل في السوق المالية بهدف الحصول على عوائد مالية جديدة تحقق له فرصاً للربح .

4.تعزيز الدور الرقابي للسوق من خلال وضع التشريعات الحديثة للسوق المالي وايضاَ اصدار القوانين التي تعمل على تنظيم تداول الأوراق المالية .

5.وضع الخطط الاعلامية للتعرف على المزيد من المزايا والفرص الاستثمارية في السوق المالي العراقي.

6.إيجاد المناخ الاستثماري الذي يلائم نشاط المؤسسات المالية غير المصرفية عن طريق وجود الشركات الصانعة للسوق وكذلك شركات التمويل وضمان الاستثمار .

7.رفع كفاءة السوق المالي العراقي من خلال وجود السياسات والمقومات , وبالأخص بعد التحرر والانفتاح الاقتصادي الذي مر به العراق بعد عام 2003.

8.السعي الى زيادة رساميل المصارف التجارية بالشكل الذي يمنحها القدرة على التعامل مع التغيرات الجديدة في الاقتصاد والتي تتطلب قدرة عالية على تمويل المشاريع الاقتصادية بهدف إحداث تنمية اقتصادية مستدامة في العراق.

9.السعي الى دمج المصارف التي يتعذر عليها رفع رساميلها بالقدر الذي يتم الاتفاق عليه وهنا تحصل ميزتين الأولى: رفع قدرتها على منح الائتمان والثانية: تمازج الإدارات والدرجات الوظيفية العليا وملامح الأفكار والخبرات وصولاً الى أداء بمستويات أعلى.

10.أجبار المصارف التي تتعامل مع البنك المركزي من خلال مزاد العملة الى توظيف نسبة إضافية من أرصدتها توظف معظمها في الشركات الجديدة في السوق المالي.

المصادر والمراجع

1. W Gibart the History ,principles and practice of banking .vol.new .Edition Revised by Ernest sykes London G . Bell and son ,ltd ,1922.

2.احمد ابو الفتوح الناقة , نظرية النقود والأسواق المالية , مدخل حديث للنظرية النقدية والسوق المالية , الطبعة الأولى , مكتبة الاشعاع الفنية , الاسكندرية , 2001 .

3.احمد صبيح عطية , مدى فاعلية المؤسسات المالية الوسيطة في التأثير على النشاط الاقتصادي مع إشارة خاصة لتجارب تشيلي لبنان والعراق , الجامعة المستنصرية , كلية الادارة والاقتصاد , بغداد,2010.

4.التقرير السنوي العاشر لسوق العراق للأوراق المالية , 2013 .

5.توفيق شمبور , الإصلاح المصرفي في الوطن العربي ضروراته ومعوقاته , اتحاد المصارف العربية , بيروت , 1993.

6.حسن احمد توفيق , التمويل والادارة المالية في المشروعات التجارية , مطبعة التقدم , القاهرة , 1992.

7.حسن الحكاك واخرون , المدخل في التنظيم والادارة المالية , بغداد , مطبعة المصارف 1990.

8.حنان عبد الخصر هاشم , الخصخصة بين الواقع واحتياجات اقتصاديات الدول النامية , العربي للعلوم الاقتصادية , المجلد الاول , العدد الاول , 2004 .

9.خالد عبد الرحيم الهيتي , على جاسم العبيدي , مبادئ الاقتصاد الاداري , وزارة التعليم والبحث العلمي , جامعة الموصل , 1990.

10.زياد رمضان ومحفوظ جودة– الاتجاهات المعاصرة في إدارة البنوك – ,ط2 – دار وائل للنشر والتوزيع –عمان – 2003.

11.سوزي عدلي ناشر , مقدمة في الاقتصاد النقدي والمصرفي , منشورات الحلبي الحقوقية , بيروت , 2010.

12.سوق العراق للأوراق المالية , التقرير السنوي ودليل الشركات لعام 2014 , بغداد.

13.سوق العراق للأوراق المالية, التقرير السنوي ودليل الشركات للأعوام (2004–2014) اعداد مختلفة.

14.السيد عبد المولى , النظم النقدية والمصرفية , مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي , 1988.

15.طه عبد السلام , تطوير راس المال كفيل بتفعيل دور البورصة في التنمية , مقالة منشورة على موقع جريدة الصباح , 17 / 8 2011 , متوفر على الموقع : http : // www . alsabaah.com .

16. بد المطلب عبد الحميد: العولمة و اقتصاد البنوك –الدار الجامعية– الإسكندرية 2001.

17.عبدالمنعم محمد مبارك , محمود يونس , اقتصاديات النقود والصيرفة والتجارة الدولية , الاسكندرية , 1996.

18.عراق العراقي , طبيعة سوق الأوراق المالية , البورصات العربية , العدد العاشر , السنة الثالثة , أيلول /1988.

19.عرفان تقي الحسيني ,التمويل الدولي , دار مجدلاوي للنشر والتوزيع, الاردن, 2002 .

20.عصام الدين الليثي , مصارف الاستثمار في السودان , النشأة والتطور والاداء , اتحاد المصارف العربية , 2000 .عقيل عبد محمد عباس , اثر الدولة في السياسات النقدية في بلدان نامية مختارة , اطروحة دكتورا , جامعة البصرة , كلية الادارة والاقتصاد , 2005.

21.علي محمد حسين , الادارة المالية في المنشئات الاقتصادية , دار المسلم للطباعة والنشر , القاهرة , 1971.

22.ف. و بيتش , ترجمة: د. محمد توفيق ماضي , تمويل المشروعات , دار الفكر العربي , القاهرة.

23.فلاح خلف الربيعي , دور صناديق الاستثمار في الاقتصاد العراقي , مقالة منشورة على موقع الحوار المتمدن , 15 /4 /2008 ,متوفر على الموقع http : // www.m ..ahewar.org

24.الفيروز ابادي , محمد بن يعقوب بن ابراهيم ,القاموس المحيط , المطبعة المصرية , الطبعة الثالثة , 1933

25.قورين حاج قويدر, مفهوم اهمية التمويل وانواع التمويل , متاح على الموقع. http//www.acc4arab.com / acc/ showthread php?t=1888

26.محمد زكي شافعي ، مقدمة في النقود والبنوك ، دار النهضة العربية – بيروت ، 1970

27.محمد صالح الحناوي , جلال العبد , بورصة الأوراق المالية بين النظرية والتطبيق , اصدارات المعهد العربي للتخطيط , العدد الثاني , السنه الثالثة , الكويت , 2004

28.محمد عزيز , النقود والبنوك , الطبعة الاولى , مطبعة المصارف , بغداد , 1995 ,

29.هناء عبد الغفار السامرائي , عماد عبداللطيف سالم , , اقتصاد العراق ومتغيرات البيئة العربية والدولية , الطبعة الاولى , بغداد , 2002,

30.وداد يونس يحيى , النظرية النقدية (النظريات – المؤسسات – السياسات) , بغداد , 2001

اثر التخطيط الاستراتيجي في تقويم الجودة الشاملة (دراسة تطبيقية في كلية الكوت الجامعة)

م.م نازك نجم عبود[1] و م.م هدية حسن مطرود و م.م سهير كريم رماني[2]

1. كلية الإدارة والإقتصاد/جامعة واسط
2. قسم إدارة الأعمال/ كلية الكوت الجامعة

الملخص

يهدف البحث الى معرفة تقويم الجودة الشاملة والتخطيط الاستراتيجي "كلية الكوت الجامعة " من وجهه نظر الإدارة والعاملين فيها وكان عنوان البحث ((اثر التخطيط الاستراتيجي في تقويم جودة الشاملة دراسة تطبيقية في كلية الكوت الجامعة)).

وقد تناولنا في هذه الدراسة مدى اهمية ممارسة التخطيط الاستراتيجي من قبل التدريسيين والموظفين لغرض توفير معايير الجودة الشاملة. وقد تضمن مجتمع الدراسة على عينة من الاعضاء هيئة التدريس والموظفين والبالغ عددها(20). وقد صممت استمارة استبيان تحتوي على مجموعة من الاسئلة وقد تم توزيعها على مجتمع الدراسة المتمثلة بإدارة الجامعة و تدريسيها و موظفيها.

وقد اظهرت الدراسة بان اثر التخطيط الاستراتيجي عالي في تحقيق رؤية استراتيجية شاملة للكلية ورفع مستوى الجودة الشاملة.

ويتكون هذا البحث على خمسة مباحث، حيث ان المبحث الاول يتضمن منهجية البحث والهدف و المشكلة و المبحث الثاني تضمن مفهوم التخطيط الاستراتيجي وأهميته في المؤسسة التعليمية ورؤية الجامعة وتناول المبحث الثالث تعريف مفهوم الجودة وأهميتها وأهدافها اما المبحث الرابع فتناول تقويم الجودة وفوائده في تحسين مخرجات الجامعة. اما بالنسبة للمبحث الخامس ضمن الجانب التطبيقي للدراسة .والمبحث السادس توضيح اهم النتائج والتوصيات التي تم التوصل اليها في هذه الدراسة.

المبحث الاول

المقدمة :

تعد إدارة المؤسسات التعليمية من أهم الأنشطة الإنسانية في المجتمعات على اختلاف مراحل تطورها، ذلك لأنها تؤثر تأثيرا مباشرا في حياة الشعوب والأمم اجتماعيا، واقتصاديا، وسياسيا، فالتعليم استثمار ناجح يؤتي أكله في كل جيل صاعد، وقد تطلب ذلك سعيا جادا من المسؤولين عن العمل المؤسسي في البحث عن سبل تطوير أدائهم، من خلال تطبيق نظريات

الإدارة التربوية الحديثة التي تعزز مكانة المؤسسات التعليمية، وتعمل على المحافظة عليها، وتسعى للرقي بها، والتغلب على كل التحديات التي تعترضها، فتحقيق الأهداف في مستوياتها الدنيا لم يعد الغاية التي تقف عندها جهود الأفراد والمؤسسات، إنما أصبح الوصول إلى درجة عالية من إتقان العمل وارتفاع مستويات الأداء الذي يصل إلى التميز هو الغاية المنشودة التي يطمح الجميع للوصول إليها، امتثالا لتعاليم ديننا الحنيف، وتطبيقا لسنة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، يقول تعالى: " صنع الله الذي أتقن كل شيء" (النمل، آية 88 ،(أي ذلك صنع الله البديع الذي أحكم كل شيء خلقه وأودع فيه من الحكمة ما أودع (صفوة التفاسير، ج2 ،421،)ويقول صلى الله عليه وسلم " إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه").

يعد التخطيط أحد المفردات المهمة التي دعا إليها الإسلام مع بداية خلق الإنسان على هذه الأرض، عندما وجه خلقه للهدف العام من خلافتهم وهو عمارة الأرض، وعبادة الله سبحانه "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون"، وحث على التخطيط والإعداد لمواجهة تحديات المستقبل " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل" (الأنفال، 60 ،(كما أن التخطيط من أهم المفاهيم الإدارية التي ترتبط بعلاقات تكاملية وثيقة بكافة المفاهيم الإدارية الأخرى التي تسهم في الارتقاء بجودة الأداء الفعلي للمؤسسة كالجودة الشاملة، والإدارة الاستراتيجية، والأداء المتوازن وغيرها.

وقد تطور مفهوم التخطيط ومر بمراحل متعددة في تعريفه واستخدامه حيث عرف بأنه " جزء مهم من الإدارة وعنصر حيوي من عناصرها، لأنه يعبر عن إدراك المستقبل وتهيئة مستلزمات التعامل معه"، ونلاحظ هنا أن مفهوم التخطيط جاء كأحد مفردات وظائف الإدارة العامة التي تنظم المؤسسات مواردها في إطاره، وتسعى إلى تنفيذ أعمالها وفقا لأهداف وضعت في سياق عملية التخطيط . (,Hussy, 3,1982,) لقد بدأ نظام التخطيط بالتركيز أولا على التخطيط المالي ووضع الموازنات، والتخطيط قصير المدى، ثم عزز لاحقا مع تطور الأعمال والظروف المحيطة إلى التخطيط 4متوسط المدى وطويل المدى، وتعقدت العملية التخطيطية في المؤسسات والشركات الكبيرة ذات الأعمال والأقسام المتعددة لتظهر عمليات التخطيط الشامل ومع ممارسة تلك المؤسسات للتخطيط الشامل وتوجيه اهتمامها نحو المنافسة والعولمة بدأت تلك المؤسسات والمنظمات الاهتمام بتحليل البيئة المحيطة فيما عرف بالتخطيط الاستراتيجي، الذي يركز على وضع المؤسسة الحالي من خلال تحليل البيئة الداخلية والخارجية، وتعرف نقاط القوة والضعف، والفرص والتهديدات التي تواجهها، والأهداف التي

تسهم في تفعيل أدائها .بدأت العلاقة بين التعليم العالي والتخطيط الاستراتيجي في العام 1959 ،في الاجتماع الرسمي الأول الذي عقد للمسؤولين عن التخطيط الاستراتيجي في التعليم العالي، حين بدأ مناخ التعليم العالي يشهد حالة من عدم الثبات بشكل مطرد تجاوز التضخم، حتى كان العمل الذي نشره جورج كيلر عام (1983 ،(بعنوان " الاستراتيجية الأكاديمية "، علامة بارزة، ونقلة نوعية نحو التركيز على التخطيط الاستراتيجي، وأصبح المسؤولون عن اعتماد الجامعات والمعاهد يصرون على اعتباره شرطا لا غنى عنه في تقييم الفعالية الإدارية والمؤسسة ككل , وبدأت نظريات الجودة الشاملة تتقدم باتجاه اعتبار التخطيط الاستراتيجي أحد أهم مؤشراتها، ليس ذلك فحسب، فتحقيق الجودة يتطلب إتقان الأداء في مجالات ومفردات عدة، تبدأ بالتخطيط، وتمر بالممارسات العملية، وتنتهي بالتقويم .وقد اكتسبت الجودة أهميتها من كونها تنبع من قيم الإنسان وفطرته، فالعمل الصحيح المتقن مدعاة للإعجاب والفخر، وليس أفضل من أن تمارس الجودة لتلامس معاني الأمانة والدقة والإخلاص، بل والإحسان الذي هو أرقى معاني مراقبة الذات، وأداء العمل، انطلاقا من رغبة ذاتية، وقيم أصيلة تؤمن بها، وتعمل بموجبها.

مشكلة الدراسة :

تكمن مشكلة البحث في معرفة ما هو دور التخطيط الاستراتيجي في تقويم جودة الاداء في كلية الكوت الجامعة , و ما مدى ممارسة ادارة كلية الكوت الجامعة في عمليات التخطيط الاستراتيجي .

اهداف الدراسة :

1. التعرف على امكانية دور التخطيط الاستراتيجي في كلية الكوت الجامعة .
2. التعرف على مفهومي التقويم و ادارة الجودة في كلية الكوت الجامعة .
3. وضع مجموعة من التوصيات التي ينبغي مراعاتها عند وضع الخطط الاستراتيجية لتحسين ادارة الجودة في كلية الكوت الجامعة .

منهج الدراسة :

ان اعضاء مجتمع الدراسة كان من اعضاء هيئة التدريس و الموظفين , و قد اعدت استمارة استبانة كأداة للدراسة.

اهم نتائج الدارسة :

- امكانية تطبيق الجودة الشاملة في كلية الكوت الجامعة .
- دور التخطيط و اثره في تقويم الجودة .

المبحث الثاني

التخطيط الاستراتيجي :-

عملية تحدد بها اهداف المنظمة في الاجلين المتوسط و الطويل و توضع لها الخطط للموارد المرصودة لتحقيق الاهداف (ابنوما\2\2008).

هناك خلط بين التخطيط الاستراتيجي و التخطيط بعيد المدى و الفرق يكون بينهما من ناحية تمسك الخطة و عدم الاستجابة للمتغيرات في البيئة الخارجية, و من الادوات للتخطيط الاستراتيجي هي :

1. **تحليل Sowt :-** هو تحليل البيئة الداخلية و الخارجية للشركة للوقوف على وضعها بدقة و تختصر الحروف الاولى من كلمات Threats Strengths Weaknesses Opportunities اي نقاط القوة و الضعف كتحليل للبيئة الخارجية .
2. **تحليل Best :-** يساعد على فهم القوى التي تعتبر بيئة العمل .
3. **تحليل المحفظة Portfolio Analysis :-** هو تحليل لعناصر هي مزيج منجات او خدمات الشركة , لتحديد التخصيص الامثل للموارد.

عملية التخطيط الاستراتيجي و جودة الاداء :-

يتسم التخطيط بأنه عملية متتالية و متداخلة , و يفقد معناه اذا ما اختل هذا التتابع او انعكس اتجاه سير العمل , و كما مبين في الشكل الاتي :

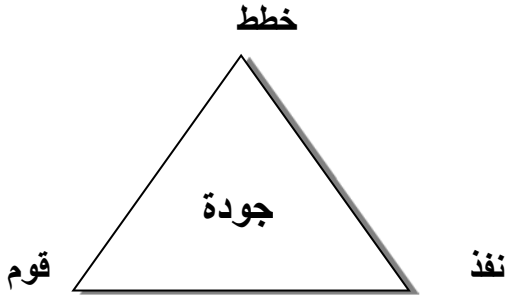

و كما بين التخطيط مدى الحاجة الى التغيير , و هو وظيفة من وظائف القيادة فيما يتعلق بالمستقبل القريب او البعيد .

و ترسم الخطط الاستراتيجية اولويات و توجهات اساسية , و هذه الخطط هي نتاج قرارات نظامية مستقرة اخذة في الاعتبار العوامل و الظروف الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية (الطالب\1994\107).

و على اللجان الفنية عند وضع الخطط الاستراتيجية دراسة نوعين من الافتراضات :

أ- افتراضات تتعلق بالعوامل التي لا يمكن التحكم بها مثل القضايا السياسية .

ب- افتراضات تتعلق بالعوامل التي يمكن التحكم بها مثل الميزانية العمومية .

و يتلخص اسلوب صياغة الخطط الاستراتيجية في تجميع المعلومات التي تشكل الخلفية العامة و تحليلها و تقويم العوامل و بمجرد الانتهاء من صياغة الخطط الاستراتيجية يتجه العمل الى وضع خطط متوسطة الاجل تغطي فترة عام او عامين (الطالب\199\108).

المبحث الثالث

ادارة الجودة :-

هي تكامل الملامح و الخصائص لمنتوج ما بصوره تمكن من تلبية احتياجات و متطلبات محددة او معرفة ضمناً و تشمل كل فرد في المنظمة في حدود مجال عمله و صلاحياته , بالإضافة الى جميع مجالات العمل و عناصره .

و قد عرفها المنصور عام 1997 : بأنها صيغة من صيغ العمل التفاوتي لأداء الاعمال , تعتمد على الامكانيات المتاحة و توحيد الجهود لتحسين الجودة و زيادة الانتاجية بصورة مستمرة من خلال فرق العمل .

و قد عرفها Turan عام 2000 : بأنها تعني المطابقة للغرض او الاستعمال او التحرر من المعيب .

و ايضاً عرفها Oakland عام 2003 : بأنها تلبية متطلبات الزبون (meeting customer regiments) .

وقد عرفتها الجمعية الامريكية (Asac) و المنظمة الاوربية لضبط الجودة بأنها المجموع الكلي للمزايا و الخصائص التي تؤثر في قدرة المنتج او الخدمة لتلبية حاجات معينة (العزاوي\2010\19) .

كما تعد جودة الادارة الجامعية من المعايير التي ينبغي توافرها ف الكلية حتى تعتمد و يعترف بجودتها , ففي ضوء ذلك يمكن قياس الجودة وفق المعايير التالية :

1. وضوح رسالة و اهداف و سياسة الادارة الجامعية .
2. وضوح اجراءات و قواعد العمل .
3. تتابع الادارة لمستويات للطلبة .
4. اهتمام الادارة بالموارد البشرية .
5. مراعاة خطة الجامعة للمجتمع المالي .
6. حسن التصرف بالمصروفات المالية .
7. مراعاة الخطط الاستراتيجية في التعليم .
8. مراعاة الالتزام بأخلاقيات العمل .

الجودة في التعليم :-

هي معايير عالمية للقياس و الاعتراف **و الا**نتقال من ثقافة دنيا الى ثقافة عالية الاتقان في المستقبل و الانتقال من الحالة الماضية الى الحالة المستقبلية و ديمومتها للأجيال الاخرى (الزواوي\2003\34) .

و كما ان الجودة وردت في احاديث الامام علي (عليه السلام) :

((فليكن أحب الذخائر اليك هو ذخيرة العمل الصالح))(الصوبطي\2014\504)

فلا بد من الاهتمام بالجودة النهائية للمخرجات و متابعتها في نجاح المنظمات , و كان نجاح اليابان في تطويرها التعليم و الانظمة المتكاملة و التخطيط الاستراتيجي و المبادرات التطويرية للمؤسسات و تطوير المهارات .

متطلبات تطبيق الجودة في المؤسسات التعليمية :-

ان تطبيق الجودة يحتاج الى وقت طويل لتغيير المفاهيم الاساسية للمؤسسة أذ ان الافراد يحتاجون الى وقت لتفهم الجودة و تفهم الاساليب الادارية الحديثة , و يمكن تطبيق الجودة الادارية بالاتي :

1. الاخلاص و الاتقان في العمل .
2. الاستمرارية في تحسين الاجراءات .
3. الاقناع بالأسلوب الاداري و الحديث .
4. تحديد المتغيرات و كيفية التحكم فيها و معرفة المعايير المطلوبة .
5. متابعة الاجراءات و مراقبة الانجاز في جميع المراحل و مراجعته لتصحيح الاخطاء .

6. اتباع اسلوب منع حدوث الاخطاء للسيطرة على السلبيات و منع حدوثها (الادارة الفضائية) اي لا ننتظر وقوع الخطأ ثم نعمل على تصحيحه و لكي نعمل على منع وقوع الاخطاء (تجنب الاخطاء وقوعها) (الصوفي و اخرون\2009\18) .

فوائد تطبيق الجودة الشاملة :-

ان استخدام مبادئ و مفاهيم ادارية لا يمكن ان يحضى باهتمام الادارة العليا , ان تطبيق مفهوم ادارة الجودة الشاملة المؤدي الى تحقيق الفوائد التالية :

1) تحسين نوعية الخدمات و السلع المنتجة .
2) رفع مستوى الاداء .
3) تخفيض تكاليف التشغيل .
4) العمل على تحسين و تطوير اجراءات و اساليب العمل .
5) زيادة ولاء العاملين .
6) زيادة قدرة المنظمات على البقاء و الاستمرار (اللويزي\2004\376) .

مجالات الجودة الادارية في المؤسسات التعليمية :-

المجال الاول : القيادة الادارية

ان ادارة الجودة الشاملة تتطلب قيادة قوية على المستويات , و ان ذكاء روح الفرد للأداء الافضل يتطلب من القادة القادرين على معرفة ما يجب عمله و لماذا؟ (الخطيب و اخرون\2006\89) .

المجال الثاني : التخطيط الاستراتيجي للجودة

يعد التخطيط الاستراتيجي جزءاً من نظام ادارة الجودة الشاملة الذي يساعد المنظمة على تخطيط الاجراءات التنفيذية التي تقوم بها المنظمة بهدف تحقيق كسر الحواجز المعرفية و التقنية و التخطيط لبناء القدرات التي تحقق للمنظمة الميزة التنافسية (العلي\2008\97).

المجال الثالث : الجودة الادارية

تشير ثقافة الجودة في تحليلها النهائي الى مجموعة القيم و المعتقدات و الاتجاهات و الاستراتيجيات التي تغرسها الادارة العليا في نفوس العاملين بمختلف مستوياتهم و تخصصاتهم , و ثقافة الجودة هي طريقة التي تؤدي بها الاعمال من حولنا و يشعر فيها الافراد بحرية المشاركة في حل كل المشاكل و القرارات بمثابة قواعد تحكم القيم و السلوك اثناء تأدية الواجب .

المجال الرابع : ادارة الموارد البشرية

العنصر البشري ثروة و اغلى ما تملكه الجامعات التعليمية و عن طريقه يتحقق الرضا و السعادة لدى المستفيدين من الكلية و أولياء الامور و المجتمع المحلي و الذي تتفوق به الجامعات الذي تسعى الى تحقيق النمو و التطور للموارد البشرية و تسعى الى تنميتها بوصفها الركيزة الاساسية العملية التنافسية (برح\2006\60) و تتمثل في معالجة :

1) الشكاوي و زيادتها , ضعف الاهتمام بالمعلومات و تحديثها .
2) ضعف الثقة بالعاملين و عدم مشاركتهم في اتخاذ القرار .
3) غياب الحلول الفعالة للمشكلات .
4) الافتقار الى النظرة الشاملة للمنظمة .

5) ضعف الرقابة و التفتيش .
6) زيادة الاجتماعات غير المنتجه (الدهون\2004\3-5) .

المبحث الرابع

التقويم في اللغة :-

من الفعل (قوم) فيقال (قوم المعوج) بمعنى ازال اعوجاجه , و قوم السلعة سعرها و ثمنها (انيس\1972\ص29) .

الاداء :-

هو مقدار الجهد الذي يقوم به الشخص لانجاز عمل ما و حسب قدراته و امكانياته (الشماع\1991\25) .

التقويم اصطلاحًا :-

فقد عرضه ساندبرج (Sandberg 1977) هو العملية التي يتم من خلالها التوصل الى تنبؤات و انطباعات و اتخاذ قرارات تتعلق بنمط او خصائص للفرد او المجموعة المراد تقيمها , و يحدد من خلالها اداءه و سلوكه و تفاعله مع الاخرين .

اهمية تقويم الاداء :-

1. تحسين اداء العاملين في الحقل التربوي و التعليمي و تطويره .
2. تحسين اداء المنظمة التربوية بشكل عام و زيادة فاعليتها .
3. اعادة توزيع المسؤوليات و السلطات على العاملين في المنظمة التربوية .
4. التنبؤ بمستوى العمل الذي يمكن ان يؤديه الفرد بالمستقبل .
5. تحديد الاحتياجات التدريبية للعاملين في المؤسسات التعليمية.
6. تحفيز اعضاء الهيئات التدريبية على النحو المهني و بذل المزيد من الجهود .

فوائد التقويم للأداء التعليمي :-

1. تشخيص مدى تحقيق الاهداف التعليمية و العاملين فيها و بذلك يعطيهم المجال لتصحيح مساراتهم .
2. معرفة المدى الذي وصل اليه الطلاب في الانجاز العلمي و اكتسابهم المهارات المطلوبة .
3. التوصل الى حالات السلوك غير المرغوب فيه عند الطلاب من النواحي النفسية و المساعدة في معالجتها عن طريق الارشاد النفسي و التوجيه .
4. تشخيص نتائج عمل التدريسي و نشاطه بحيث يستطيع ان يدعمها في المواقف الايجابية او يغير منها نحو الافضل .
5. يساعد التقويم القائمين على رسم سياسات التعليم على ان يعيدوا النظر في الاهداف التعليمية (الجبوري, الفلي\2009\327) .

اغراض التقويم :-

1. رصد علامات الطلبة في سجلات خاصة تتمثل ب (الغيابات , الدرجات , السلوك) .
2. اصدار احكام على الطلبة اما بالنجاح او الرسوب .
3. توزيع الطلبة على التخصصات المختلفة استناداً على المعدلات التي حصلوا عليها ,
4. الحكم على مدى فاعلية جهود التدريسيين و طرق التدريس المستخدم .
5. اجراء مقارنات بين علامات الاقسام الدراسية .
6. الحكم على مدى ملائمة المناهج التعليمية و السياسة التعليمية (عليمات\2006\188) .

المبحث الخامس

الجانب التطبيقي:

يتناول هذا المبحث عرض نتائج اجابات افراد العينة حول الاسئلة المطروحة عليهم في استمارة الاستبيان، وكذلك تحليل آرائهم فيما يخص التخطيط الاستراتيجي والجودة الشاملة. اذ تم تصنيف الاستمارة الى ثلاثة محاور لتحقيق الهدف المطلوب تحقيقه من تلك الدراسة ولقد استخدم الباحثين لهذا الغرض مقياس ليكرت الخماسي الذي يتوزع بين اعلي وزن له للفقرة (اوافق بشدة اعطيت ٥ درجات) ،إلى أوطأ وزن له للفقرة (لا اوافق بشدة وأعطيت ١ درجة) ،وبينهما ثلاث أوزان أخرى هي (اوافق أعطيت ٤ درجات ، محايد أعطيت ٣ درجات ،لا اوافق أعطيت ٢ درجة) بعد ذلك تم عمل جدول التوزيعات التكرارية لمتغيرات الدراسة لاعتماد هذا النوع من الجداول للأغراض عملية التحليل الإحصائي للحصول على الوسط الحسابي الموزون، والوسط الحسابي الموزون النسبي.

واعتمد الباحثين أيضا على الوسط الحسابي الفرضي البالغ (٣) كمعيار من اجل قياس وتقييم الدرجة المتحصل عليها فيما يخص متغيرات الدراسة. وبعد اجراء المعالجة والتحليل الاحصائي تم الحصول على الاوساط الحسابية الموزونة والاوساط الحسابية الموزونة النسبية وبالشكل التالي:

المحور الاول:

يهدف هذا المحور للتحقق من التطبيق السليم للتخطيط الاستراتيجي لضمان الجودة الشاملة والاعتماد الأكاديمي ومدى جودة مخرجات العملية التعليمية في كلية الكوت الجامعة.

جدول رقم (1)

رقم	الفقرات	الاجابات					المؤشرات الاحصائية	
		اوافق بشدة	اواف ق	محايد	لا اوافق	لا أوافق بشدة	الوسط الحسابي الموزون	الوسط الحسابي الموزون النسبي
1	وضع رؤية مستقبلية للكلية تراعي التطورات والمستجدات	16	4	0	0	0	4.8	96%
2	يوجد اهتمام بالتخطيط الاستراتيجي بدلا من التقليدي	12	6	2	0	0	4.5	90%
3	وضع اهداف بعيدة المدى	8	9	3	0	0	4.25	85%
4	ادخال التعديلات المطلوبة حسب حاجات الطلبة	6	13	1	0	0	4.25	85%
5	مراعات الخطط للجودة الشاملة	9	10	1	0	0	4.4	88%
6	وضع رسالة واضحة المعالم للمجتمع	9	10	1	0	0	4.4	88%

من جدول (1) يمكن استخلاص ما يلي:
المتوسط الحسابي للفقرة الأولى (وضع رؤية مستقبلية للكلية تراعي التطورات والمستجدات) يساوي (4.8) وأن المتوسط الحسابي النسبي يساوي (96%) , لوحظ من نتائج الفقرة الاولى ان الوسط الحسابي الموزون لهذه الفقرة اكبر من الوسط الحسابي الفرضي البالغ (3) وهذا يعني أن هناك توافر بدرجة كبيرة لهذه الفقرة.
حيث تحدثت أدبيات الدراسة التي تناولت موضوع التخطيط الاستراتيجي واثرة على تقويم الجودة الشاملة الى اهمية وضع خطط ورؤيا مستقبلية للكلية وهذا يعتبر من معايير الكفاءة في المؤسسة التعليمية.
كذلك المتوسط الحسابي الموزون للفقرة الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة بلغ على التوالي (4.5) ,(4.25),(4.25),(4.4),(4.4) وأن المتوسط الحسابي الموزون النسبي بلغ على التوالي (90%) ,(85%), (85%), (88%), (88%)، ان الوسط الحسابي الموزون لهذه الفقرات اكبر من الوسط الحسابي الفرضي البالغ (3) وهذا يعني أن هناك توافر بدرجة كبيرة لهذه الفقرات.

المحور الثاني:

يهدف هذا المحور الى اهمية متابعة الادارة لمستويات العلمية للطلبة وتحل مشاكلهم وتشجيع المتفوقين.

جدول رقم (2)

رقم	الفقرات	الاجابات					المؤشرات الاحصائية	
		اوافق بشدة	اوافق	محايد	لا اوافق	لا أوافق بشدة	الوسط الحسابي الموزون	الوسط الحسابي الموزون النسبي
1	استخدام التكنلوجيا في التعليم	10	9	1	0	0	4.45	89%
2	استخدام اساليب تنمية مهارات التفكير العلمي	11	9	0	0	0	4.55	91%
3	توحيد خطط التعليم	6	9	4	1	0	4	80%
4	توافر المختبرات العلمية والمهنية	14	5	1	0	0	4.65	93%
5	يستخدم الطلبة مكتبة الكلية للمطالعة واعمال البحث	12	6	2	0	0	4.5	90%

من جدول (2) يمكن استخلاص ما يلي:

المتوسط الحسابي الموزون للفقرة الاولى والثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة بلغ على التوالي (4.45) , (4.55), (4), (4.65), (4.5) وأن المتوسط الحسابي الموزون النسبي بلغ على التوالي (89%) ,(91%), (80%), (93%), (90%)، ان الوسط الحسابي الموزون لهذه

الفقرات اكبر من الوسط الحسابي الفرضي البالغ (3) وهذا يعني أن هناك توافر بدرجة كبيرة لهذه الفقرات.

حصلت الفقرات الاولى والثانية والرابعة والخامسة على درجة موافقة كبيرة جدا من قبل افراد الدراسة. اتضح من خلال اجابات افراد العينة بان ادارة الكلية تقوم بمتابعة المستويات العلمية للطلبة وحل مشاكلهم وتشجيع المتفوقين منهم. وكذلك تقوم بتوفير وسائل التكنلوجيا الحديثة والاجهزة المختبرية بالإضافة الى توفير مكتبة تحتوي على مجموعة من الكتب الرصينة التي تخص المجالات العلمية المختلفة.

المحور الثالث:

هذا المحور يخص جودة اداء الموارد البشرية والتي تسهم في تحقيق أهداف المنظمة.

جدول رقم (3)

رقم	الفقرات	الاجابات					المؤشرات الاحصائية	
		اوافق بشدة	اوافق	محايد	لا اوافق	لا أوافق بشدة	الوسط الحسابي الموزون	الوسط الحسابي الموزون النسبي
1	توفر قنوات اتصال مع البيئة والتعاون معها.	9	8	3	0	0	4.3	86%
2	وجود نضام عادل للمكافئات والحوافز لتحسين العمل	8	6	3	0	0	3.8	76%
3	يوجد تعاون بين فريق الجودة في الكلية	7	8	3	2	0	4.15	83%
4	توظيف اساليب الاشراف الفعالة في تحسين اداء العاملين	6	11	3	0	0	4.15	83%
5	تدريب العاملين بشكل دوري	8	11	1	0	0	4.3	87%

من جدول (3) يمكن استخلاص ما يلي:

المتوسط الحسابي الموزون للفقرة الاولى والثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة بلغ على التوالي (4.3) , (3.8), (4.15), (4.15), (4.3) وأن المتوسط الحسابي الموزون النسبي بلغ على التوالي (86%) ,(76%), (83%), (83%), (87%)، ان الوسط الحسابي الموزون لهذه الفقرات اكبر من الوسط الحسابي الفرضي البالغ (3) وهذا يعني أن هناك توافر بدرجة كبيرة لهذه الفقرات.

من خلال تحليل نتائج أدوات الدراسة (الاستبانة والمقابلة) ،اتضح أن النتائج تشير إلى توافر عناصر جودة التخطيط الاستراتيجي والأداء المؤسسي لكلية الكوت الجامعة بنسبة كبيرة.

المبحث السادس

الاستنتاجات :

1. ان نسبة التقديرات لوضع رؤية مستقبلية للكلية تراعي التطورات والمستجدات قد اعطت نسبة عالية حيث بلغت 6% وهذا يدل على اهتمام إدارة الكلية بوضع خطط مستقبلة واضحة .

2. اتضح من خلال اجابات افراد العينة بان ادارة الكلية تقوم بمتابعة المستويات العلمية للطلبة وحل مشاكلهم وتشجيع المتفوقين منهم حيث بلغت نسبة توافر المختبرات العلمية 93% وهي نسبة تدل على اهتمام الادارة باستخدام التكنولوجيا الحديثة . وكذلك تقوم بتوفير وسائل التكنلوجيا الحديثة والاجهزة المختبرية بالإضافة الى توفير مكتبة تحتوي على مجموعة من الكتب الرصينة التي تخص المجالات العلمية المختلفة.

3. من خلال تحليل نتائج أدوات الدراسة (الاستبانة والمقابلة) ،اتضح أن النتائج تشير إلى توافر عناصر جودة التخطيط الاستراتيجي والأداء المؤسسي لكلية الكوت الجامعة بنسبة كبيرة.

التوصيات :

1. العمل على تعمق الوعي بمفهوم الجودة الشاملة لدى القيادات في (كلية الكوت الجامعة) من خلال مشاركتهم في الدورات التدريبية و ورش العمل و المؤتمرات و الندوات و القاء المحاضرات على تجارب الكليات الاهلية و الحكومية من خلال تطبيقها الجودة الشاملة .

2. عمل دليل يوضح الوصف الوظيفي لكل موظف و كيفية تنفيذ اجراءات العمل الاداري و تنمية المتابعة و التنفيذ وفق معايير موضوعية تلتزم بها الكلية .

3. العمل على رضا الزبون (الطالب) و بيئة الزبون (الكلية) من خلال توفير الخدمات و المستلزمات الدراسية و حل المشاكل المادية و المعنوية و تقديم التسهيلات و حسب الظروف التي يمر بها البلد سواء افراد او جماعات لتحسين الكفاءة في العمل .

4. وضع برامج تدريبية لزيادة مهارات العاملين .

5. تطبيق انظمة الحوافز المادية و المعنوية .

6. معرفة الاسباب و المشكلات من خلال الدراسات للكلية التي تدفعها الى تطبيق الجودة الشاملة .

المصادر

1. القرآن الكريم .

2. ابنوما , تادانوري "التخطيط الاستراتيجي في منظومة الامم المتحدة" , جنيف , 2012.

3. انيس، ابراهيم، "المعجم الوسيط" ط2 ، القاهرة ، مطبعة دار المعارف، 1972.

4. الجبوري ، العثلي ، وداد ، عقيل، "الاسس العامة للإدارة التربوية " ، مؤسسة افاق للدراسات والابحاث ط1، 2009.

5. الخطيب , احمد "ادارة الجودة الشاملة تطبيقات في الادارة الجامعية" , بحث مقدم لمؤتمر علمي المصاحب للدورة 33 لمجلس اتحادات الجامعات العربية,الجامعة اللبنانية/ بيروت .

6. الدهون ، محمد، "الجودة الشاملة وادارة الموارد البشرية "، 2004.

7. الزاوي ، خالد محمد ، " الجودة الشاملة في التعليم " ، مجموعة النيل العربية ، القاهرة 2003.

8. الشماع ، خليل محمد حسن ، " مبادئ الادارة مع التركيز على ادارة الاعمال"، الطبعة 2007، عمان ، دار الميسرة للنشر والتوزيع ، 2007.

9. الصوفي , الزهيري , اسامة حميد , محسن صالح "الجودة الشاملة في الكلية التربوية المفتوحة من وجهة نظر التدريسيين و الموظفين" , مجلة دراسات تربوية , المجلد 7 , 2014 .
10.الطالب ، هشام " دليل التدريب القيادي " المعهد العالمي للتفكير الاسلامي، واشنطن ، ط1، 2006.
11.العزاوي ، محمد عبد الوهاب ، ادارة الجودة الشاملة "، 2010.
12.عقيلي ، عمر وصفي ، " النهجية المتكاملة لادارة الجودة الشاملة "، 2010.
13.علي , علي حسين "قضية التحديث في التعليم العالي" . جمهورية مصر العربية , 2003 .
14.عليمات ، صالح ناصر " العليمات الادارية في المؤسسات التربوية "، عمار دار الشروق، 2006.
15.منظور : لسان العرب / الجزء الثاني / دار المعارف , القاهرة , 1984 .
16.النجار ، فريد " ادارة الجامعة بالجودة الشاملة "، القاهرة ،مصر، 1999.

(سعاد) و (الناقة) في بردة كعب بن زهير أسطورة أم واقع

أ.م. د. احمد حيال جهاد

كلية التربية للعلوم الانسانية – جامعة ذي قار

– م.د. محمد مهدي ياسين

وزارة التربية– مديرية تربية ذي قار– قسم الاعداد والتدريب

المقدمة

كعب بن زهير بن أبي سلمى[1] بن ربيعه بن رباح ، شاعر عالي الطبقة من أهل نجد . ظهرت شاعريته في وقت مبكر ولا غرو في ذلك فهو ينتمي إلى بيت من بيوتات الشعر التي تألفت في الجاهلية ، فقد ورث الشعر من طرفي أبيه وأمه وورثه من بعده أبناؤه وأحفاده فيقال إن ابنه المضرب كان شاعرا واسمه عقبة بن كعب لقب بالمضرب لأنه شبب بامرأة فضربه أخوها بالسيف ضربات كثيرة فلم يمت ، وكذلك حفيده العوام بن عقبة بن كعب كان شاعرا أيضا. وله أخ شاعر مفلق معروف هو بجير وله أخت اسمها سلمى وهي شاعرة أيضا وله أخوة آخرون، وقد شب كعب بينهم شاعرا حتى أدركوا الإسلام فأسلم الأخوة جميعا إلا كعبا . ولما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة كتب بجير بن زهير إلى أخيه كعب يخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل رجالا بمكة ممن كانوا يهجونه ويؤذونه. فإن كان لك في نفسك حاجة فاقبل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه لا يقتل أحدا جاءه تائبا . فلما بلغ ذلك كعبا ضاقت عليه الأرض ، وأشفق على نفسه فلما لم يجد من شيء بدا ، حتى قدم إلى رسول الله ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعرفه - فقال يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمنك تائبا مسلما ، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟ قال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : نعم ، قال أنا كعب بن زهير . ثم أنشد لاميته المشهورة في مدح الرسول والمسلمين ، ولما فرغ منها جلله الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ببردته ومن هنا عرفت القصيدة بالبردة . تتكون قصيدة كعب من أربع وحدات هي : الغزل ، ووصف الراحلة ، ومدح الرسول ، والاعتذار. فأما المدح والاعتذار فلا يقبلان التأويل بغير ما صرح به الشاعر فالغرض الأساس من القصيدة قائم عليهما وأما الغزل ووصف الراحلة ففيهما للدارسين قراءات كثيرة ونظرات متعددة على مر العصور .

الرمز الشعري:

الرمز في اللغة: "الإشارة والإيماء" [2]، وهو ايضا "الاشارة بالشفتين أو العينين أو الحاجبين أو اليد والفم واللسان"[3]، اما اصطلاحا فهو "علامةٌ تُعتبر ممثِّلة لشيء آخر ودالَّة عليه، فتُمثِّله وتحلّ محلّه"[4]، فهو "اللفظ القليل المشتمل على معان كثيرة بإيماء إليها أو لمحة تدل عليها"[5] ، وعلى وفق هذا المنطوق فقد تم نقل الرمز من معناه الحسي اللغوي الى مصطلح ادبي ، اذا تطلق الاشارة – وهي معنى الرمز- على الايجاز " فالاشارة في كل نوع من الكلام لمحة دالة واقتصار وتلويح يعرف مجملا، ومعناه بعيد من ظاهر لفظه"[6]، فقد جُعل الرمز "ضمن الكناية غالبا"[7]، والرمزية تعتمد على الايحاء بالافكار والصور والاحاسيس واثارتها بدلاً من تسميتها ووصفها وهي بذلك تناقض الواقعية ، فالرمز "يوحي بمثال للعقل وبطريقة غير مباشرة ويخاطب الحواس بواسطة

التصوير المادي" [8] ، ونقل احمد مطلوب [9] اراء القدماء في الرمز تعود الى "العصور اليوناينة القديمة ، وكان لها تأريخا طويلا معقدا، لما فيه من الاتساع بما يجعل الامر صعبا"[10] الرمزية في الشعر العربي ليست وليدة الشعر المعاصر ولا الشعر الحديث انما تمتد جذورها الى عصور متقدمة الا انها كانت اشارات رمزية في قصائد لبعض الشعراء ، وتطورت الرموز لتكون اكثر انفعالا واكثر وجودا في الشعر الصوفي وخاصة في العصر العباسي الثاني وما بعده وتكاد تكون اتجاها فنيا جديدا في الشعر العربي وخاصة في شعر الحلاج وعبد القادر الجيلاني وابن عربي وابن الفارض وغيرهم من شعراء التصوف ، كما ان الجاحظ جعل الرمز والاشارة – من دون ان يميز بينهما- من" ادوات البيان الخمس"[11]، ولا بد لنا من مستويين لتحديد المعنى الدقيق للرمز " مستوى الاشياء الحسية أو الصور الحسية التي تؤخذ قالبا للرمز، ومستوى الحالات المعنوية المرموز اليها، وحين يندمج المستويان في عملية الابداع تحصل على الرمز"[12]، لان الرمز بمعناه العام " الدلالة على ما وراء المعنى الظاهري ، مع اعتبار المعنى الظاهري مقصودا ايضا"[13]، اذن هو "عبارة عن اشارة حسية مجازية لشيء ،يقع تحت الحواس"[14]، ولما كان الرمز حالة تتجاوز الواقع الحسي ويتخطاه إلى الإشارات الدفينة في رماله، والدلالات الخبيئة وراءه والتي تكتشفها القوة الحدسية،أضحى امتلاك الملكتين الحسية والحدسية لازماً في إبداع الرمز ، ويقسم محمد فتوح الرمز الى نوعين يطلق على الاول : " (الرمز الاصطلاحي) ويعني به نوعا من الاشارات المتواضع عليها ، كالالفاظ بأعتبارها رموزا لدلالاتها، أما الثانية : فيمكن ان نسميه بـ (الرمز الانشائي) ويقصد به نوعا من الرموز لم يسبق التواضع عليه، كذلك الرجل الذي ولد اعمى فتوضح له طبيعة اللون القرمزي بأنه يماثل نفير البوق"[15]، لقد نظر بعض المحدثين الى الرموز على انه مصطلحا ادبيا مستقلا ، فعرفوه على انه " احداث علاقة بين طرفين من خلال حذف احدهما، وجعل الآخر اشارة لطرفه المحذوف"[16]، فالرمز اذن هو " افضل رسم ممكن لشيء غير معروف نسبيا، ولا تعرف طريقة اكثر وضوحا للوصول اليه"[17]، اذ ينشأ الرمز عن " الفعل المشترك للعقل والادراك ، فالعقل (القدرة البشرية لما فوق الحسي)، والادراك (القدرة التي تعرف وفقا للأحاسيس) يعملان معا تحت توجيه الخيال لانتاج الرمز"[18].

إن النظرة العجلى لمستهل بردة كعب بن زهير (بانت سعاد) لتدعو كل من تهيأت له معرفة قصة نظمها إلى التساؤل . لماذا سعاد ؟ أهي حقا فتاة سامرت جنان الشاعر وسلبت لبه إلى درجة لم يستطع معها الانفكاك عنها حتى في لحظات اصطراعه مع الموت ؟أم أنها ترميز وأسطورة لمدلول مستقر في ذهن الشاعر إبان تلك اللحظات العصيبة ؟ ثم إن تساؤل القارئ لا يقف عند الطلسم (سعاد) بل أن ذهنه ليشغل من جديد مع استرساله في قراءة أبيات البردة التي تنقله إلى أسطورة جديدة هي (الناقة) أهي حقا راحلته التي امتطاها في رحلته الشاقة إلى المدينة كي يعلن إسلامه بحضرة الرسول أم أنها رمز لمدلول مستقر في ذهنه لا يقل شأنا لديه عن مدلول الرمز(سعاد) ؟

سعاد أم الحياة:

لقد أطبق كثير من النقاد القدماء على فهم الأبيات من 1_14 من البردة على أنها مقدمة غزلية:

1-بانَتْ سُـــــــعادُ فقَلْبِي اليـومَ مُتَيَّمٌ إثْرَهـا لـــــــــــــــــــَم يُفْـدَ مَكْبـــولُ
مَثْـــــــــــــــبُـــولُ

2-وما سعادُ غَـدَاةَ البَيْنِ إذ َرحلُوا إلا أَغَنُّ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحول

3-هيـــــفـاءُ مُقْبِلَـةً عَجْزَاء مـــــُدْبِرَةً لا يُشْـــــتَكَى قِصَـــرٌ مِنهـا ولا طـولُ

4-تَجْلـــــــو عَوَارِضَ ذي ظَلْمٍ إذا ابتَسَمـــــــــَتْ كأَنَّـهُ مُنْـهَـلٌ بالرَّاحِ مَعلُـولُ

5-شُـــــــجَّتْ بِذِي شَبَمٍ مِن مـاءِ مَعْنِيَةٍ صافٍ بـأَبْطَحَ أَضْحى وَهْوَ مَشمُولُ

6-تَنْفِي الرِّيَـــــــــــاحُ القَذَى عَنهُ وأَفْرَطُهُ مِن صَوْبِ ســــــــارِيَةٍ بِيـضٌ يَعَـاليـلُ

7-أَكْـــــــــرِمْ بـــــــها خُلَّةً لـو أَنَّهَا صَـدَقَتْ مـَواعيدَهـا أَو لَو انَّ النُّصْحَ مَقبول

8-لكنَّـــــــهَـا خُلَّةٌ قَد سِـــــــــــيطَ فَجْـعٌ وَوَلْـــــــــــعٌ وإخلافٌ وتـــــــبَديلُ
مِن دَمِهَـا

9-فما تـــــــدومُ على حـالٍ تكونُ بِـــــهـا كَـــــما تَلَوَّنُ في أثـــــــــــوابها الغول

10-ولا تَمَسَّكُ بالعَـــــــــــــهدِ الـذي إلا كَما يُـــــــــــــمسِكُ المـاءَ الغَرابيلُ
زَعَمَتْ

11-فلا يَـــــــــــغُرَّنْكَ مـا مَنَّتْ وَما إنَّ الأَمـــــــانِيَّ والأحـــــــــــلامَ تَضليلُ
وَعَدَتْ

12-كـانَت مَواعـــــــــيدُ عُرْقوبٍ لها ومـا مَواعـــــــــــــــــيدُها إلا الأَبـاطيلُ
مَثَلا

13-أرجو وآمـــــــــــــــــُـلُ وما اخَـالُ لديـــــــــــــــــــــنـا مِنكِ تَنويـلُ
أنْ تَدنو مَوَدَّتُهـا

14-أمـــــــــــــسَتْ سُـــــــعادُ بأرضٍ لا إلا العِتـاقُ النَّـــــــــــــجِيباتُ المَـرَاسيلُ[19]
يُبَلِّغُهـا

ويمكن النظر إليها على أنها عمل متكامل رائع جار مع التقليد الأدبي في مذهبه البدوي بافتتاح القصائد عبر الوقوف على أطلال الحبيبة ومخاطبتها والحنين إليها ووصف جمالها، وهي بمنزلة تمهيد لما تهدف إليه القصيدة من مقاصد وغايات ، ومقدمة كعب هذه تصف _عندهم _ بينونة الحبيبة سعاد وأثر ذلك الفراق العميق في نفس الشاعر، فما كان منه إلا أن يمضي أيامه يستحضر صورتها ويئن إلى لقياها ولثم رضابها العذب[20] . ومنهم من رأى أن (سعاد) هذه فتاة غير حقيقية وإنما هي عرف دأب عليه الشعراء في مفتتح قصائدهم ولم يحد كعب بن زهير عن هذا العرف وهو يمدح الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)،وهذا ما ذهب اليه صاحب كتاب المدائح النبوية بين المعتدلين والغلاة، فهو لا يرى في ذكر سعاد الا سيراً على ما اختطه العربي اذ كانوا عادة ما يصدرون قصائدهم بالنسيب دون الالتفات للمقام، هذا يعني ان لاحرج على الشاعر ان بدا متغزلا في مطلع قصيدته وهو بين يدي الرسول الاعظم (صلى الله عليه واله وسلم) ... ثم ينقل الكاتب نفسه رأياً حري بأن نقف عليه ،اذ يقول صاحبه : ان سعاد هذه ليست سوى رمز أو اشارة يريد بها الشاعر انساقا خفية لم يعلن عنها بل اكتفى بالإشارة اليها بوساطة سعاد (الايقونة) لا سعاد الحقيقية

كما يظن [21]، ولعل هذا الامر حري بالوقوف عليه اذ يفتتح ابوابا غير متوقعة، ومخالفة للقراءة التقليدية لهذه القصيدة التي لا تتعدى ما ذكرناه سابقا.

لقد انجلت _ بعد التي واللتين _ من لباب الدارسين المحدثين الذين عنوا بالبردة وكعبها صورة سعاد الفتاة حقيقية كانت أم خيالية لسبب واحد وكفى به حجة وهو أن الشاعر ليس في موقف الغزل الصريح بكل ما اضطم عليه هذا الغرض من وصف مفاتن الحبيبة والشوق إلى اللقاء بها ولوعة فراقها وترك الأحبة والأهلين أملا بالظفر بها والوقوف على الديار التي أمست وباتت فيها . لقد كان كعب بن زهير وبكل إيجاز أما أن يموت من يومه أو يدفع عنه الموت ردحا من الزمن بلسانه الذي رمى به في مهاوي الردى والمنية من قبل .إنها إذن مسألة حياة أو موت فناء أو بقاء وتلك لحظة تتوقف عندها كل نواميس البشر وتطرح معها كل رغبات النفس وتهون إزاءها الأماني وتلفظ أمامها اللذات . ولا شك أن مطلع القصيدة ومحورها يحملان موضوعاً ينأى عن التشبيب والغزل، الموقف لا يسمح بذلك مهما كانت عادة الشعراء العرب من افتتاح قصائدهم . فهذا موقف جديد لم يعرفه شعراء العرب ، خارج عن عادتهم التي ألفوها . وهو موقف أجلّ من كلّ موقف عرفه شاعر قبل ذلك . وكان كعب بن زهير يدرك ذلك حقَّ الإدراك ، ويُدرك أنّ عليه أن يتخيّر أطيب أسلوب يخاطب به النبوة الخاتمة ، وأطهر كلمة يقولها بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم . فلا يُعقل أن يبتدئ إيمانه بعظمة الإسلام بالتشبيب بفتاة حقيقية أو خيالية . ولو كان مطلع القصيدة يشير إلى غزل حقيقي في فتاة حقيقية لنهاه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن ذلك ولا ريب . فمن ذا الذي يجرؤ أن يعرض حبّه وغزله وتشبيبه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في موقف التائب العائذ بالرسول . ولا يتصور أيضا أن كعباً ذكر في مطلع قصيدته فتاة غير حقيقية ، اخترعها خياله ليتغزّل بها جرياً على عادة أو اتباعاً لقاعدة لأن تلك لم تكن عرفا جاريا وعادة مسلم بها في الشعر العربي قبل الإسلام ، وكان أمام كعب أساليب أخرى يتخيّر منها أطيبها وأطهرها .فضلا عن أنّ الخطر الذي يتهدّده ، كان كافياً ليبعد عن قلبه النساء والغزل والتشبيب وهماً أو خيالاً أو حقيقة .فلا بدّ _ إذن_ أن يختار كعب أسلوباً يناسب إيمانه الجديد ويناسب مقام النبوة وعظمة رسالة الإسلام وأنّى للغزل والتشبيب والنسيب أن يلائم ذلك .

ولذا مضى الدارسون يجتهدون في فك طلسم (سعاد) والاهتداء إلى مدلول هذا الرمز ،فطرح الدكتور عبد الجبار المطلبي على طاولة البحث فكرة المشركين فقال :" إن بينونة سعاد في قوله (بانت سعاد) تشير إلى بينونة المشركين أو قل بينونته ، أي انفصاله عنهم ، أولئك الذين اختارهم من قبل وكان في معسكرهم ومكث فيهم . وسعاد هذه - وهي ترمز إلى المشركين – على جمالها ليس وراء حبها طائل فلا يصدق وعدها ولا تقبل النصح من غيرها وهي خليلة خلط الفجع بدمها في المصائب والكذب في القول وإخلاف الوعد وتبديل خليل بآخر وهي فوق ذلك لا تدوم على حال وليست مواعيدها إلا الأباطيل، وتلك صفات ظاهرها يتصل بالحبيبة الجميلة وباطنها نقد عنيف لوعود المشركين بالنصر وأباطيلهم في ذلك"[22].

وهذه فكرة مع جرأتها لا نجد ما يعضدها بين ثنايا القصيدة بمعناها العام بل على العكس نجد ما ينقضها ذلك أن الشاعر قد رمز لجماعة الذكور ورؤوس القوم _المشركين _بالمفرد المؤنث - سعاد - وهذا يجعل الملمح الدلالي ما بينهما بعيدا . ثم إن الشاعر إن رام هذه الإشارة الدلالية وهو

بحضرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فقد بالغ في بيان تعلقه بالمشركين وهيفه بهم وإعجابه بما عندهم وشوقه إلى اللحاق بهم راكبا النوق النجيبات المراسيل بغية بلوغ مضاربهم ، فلا يعقل أن يرى كعب _ المزهو بإسلامه حديثا _ المشركين كـ(أغن غضيض الطرف مكحول) و(منهل بالراح معلول) و(ماء معنية صاف) وغير هذا على وفق ما يلحظ في الأبيات من 2_7.

2-وما سعادُ غَـدَاةَ البَيْنِ إذ َرحلُوا إلا أَغَنُّ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحول
3-هيـــــفـاءُ مُقْبِلَـةً عَجْزَاء مـــــُدْبِرَةً لا يُشْـــــتَكَى قِصَـــرٌ مِنهـا ولا طـولُ
4-تَجْلـــــــو عَوَارِضَ ذي ظَلْمٍ إذا ابتَسَمـــــــــتْ كأنَّـهُ مُنْـهَـلٌ بالرَّاحِ مَعلُـولُ
5-شُـــــــجَّتْ بِذِي شَبَمٍ مِن مـاءِ مَعْنِيَةٍ صافٍ بـأَبْطَحَ أَضْحى وَهْوَ مَشْمُولُ
6-تَنْفِي الرِّيَـــــــــــاحُ القَذَى عَنهُ وأَفْرَطُهُ مِن صَوْبِ ســــــــارِيَةٍ بِيـضٌ يَعَـاليـلُ
7-أَكْـــــــــــرِمْ بـــــــها خُلَّةً لـو أَنَّهَا صَـدَقَتْ مـَواعيدَهـا أَو لَو انَّ النُّصْحَ مَقبول[23]

ويطرح قارئ آخر فكرة الجاهلية وهو يفسر الأسطورة (سعاد) فيرى أن سعاد تمثل رمزاً إلى «الجاهلية » فهي السعادة للشاعر ، وهي تتميز ببهاء مظهرها وسوء مخبرها ، وإنَّ الشاعر على الرغم من كونه عازماً على القدوم إلى الرسول ، فإنه لا يزال ينظر إلى الجاهلية التي لا يمكن بلوغها أو الوصول لها تعبيراً عن التغير الذي يحدث في الواقع.وكان لا بد إذن من رحلة ينأى بها الشاعر عن هذه « الجاهلية» الباهرة الجمال الرديئة الأخلاق ولقد كان كعب شاعراً جاهلياً . وكانت الجاهلية بكلّ أعرافها وأفكارها ملكت عليه نفسه ، حتى ظنّ أنها هي الحق وهي التي تستحق الحبّ والولاء .ولقد بلغ من ذلك من نفسه حدّاً دفعه إلى أن يرتكب الإثم العظيم الذي لا يصدر إلا عن كافر محارب لله ولرسوله ، حين هجا رسول الله صلى الله عليه وسلم هجاءً أعلن فيه رفضه للإسلام وتمسّكه بجاهليته ودنياه وأهوائه ونزواته ، وما ورثه عن آبائه من هذه الجاهلية . لقد كان هذا هو حبّه الأول الذي ملك عليه نفسه ، وحدّد على أساسه موقفه ورأيه وكلمته[24].ما يقال في رد فكرة تفسير سعاد بالمشركين ،يقال أيضا في تفسيرها بالجاهلية بل ربما كانت الفكرة اللاحقة مستوحاة من الأولى دون تنويه

إن فكرة تفسير البردة بالبردة أمر يكشف النقاب عما خفي عن مدارك القراء سواء عمد الشاعر إلى ذلك الغموض أم جاء منه ذلك من دون قصد . ولذا يبدو استشفاف فكرة الحياة من الرمز (سعاد) أمرا ملائما للأحداث التي ساقها الشاعر وهو يقطع الأميال نحو المدينة المنورة كي يعلن إسلامه بحضرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ذلك أن الهاجس الوحيد الذي كان يساوره _لا شك _هو النجاة من الموت فمن حقه إذن أن يكون معنى القلب مكبله خوفا على أنفاسه من أن تصعد ولا تنزل فلما بلغه أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أهدر دمه ، لجأ إلى مزينة لتجيره من خطر الموت الذي يتهدّده ، فأبت عليه . وانتشر الخبر بأنه مقتول وتخلّى الناس عنه . وتخلّى عنه أخوه ، وشعر أنه وحيد . ، وأخذت الحياة تبتعد عنه شيئاً فشيئاً . وكان قلبه ما زال معلقاً بها ، " متيّماً بها " ، أضناه حبّها فهو " متبول " ، كأنه لا يستطيع انفكاكاً عنها " لم يُفدَ مكبول " ! وهذه هي النقطة الثانية المهمة في نفسية كعب ، حين أخذ يدرك أن هذه الحياة التي كان ينعم بها أخذت

تغيب عنه مع ما كان يحمل لها من جمال في نفسه ، فكأنها الغادة الجميلة " الهيفاء " التي يزهو جمالها ويبدو في صوتها " أغنّ " ، وفي طرفها : " غضيض الطرف مكحول " ، وفي قوامها مقبلة ومدبرة : " هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة " ، وفي اعتدال طولها " لا يشتكي قصر منها ولا طول " وفي ثغرها وأسنانها : " تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت ...." هذا الجمال كلّه الذي كان يحسّه في حياته الدنيا لم يسعفه وهو في حالة الخطر ، فنقضت حياته في الجاهليةُ عهدها، وكانت عنده أثيرة لولا نقضها لعهدها وتخليها عنه . ولكنها هي الحياة التي أخذ يكتشف مساوئها ومساوئ دنياها. إنها الدنيا المملوءة بالخيانة والغدر وعدم الوفاء، مما يرمي بالفواجع والكذب والإخلاف : " فجع وولع وإخلاف وتبديل "، حتى كأن هذه الصفات طبيعة ممزوجة بدمها لا تستطيع الخلاص منها : " لكنّها خُلّة قد سيط من دمها "!ولقد ألمح الشاعر نفسه إلى تفسير الأسطورة (سعاد) بالواقع (الحياة) في مواضع من قصيدته تلميحا يكاد يقترب من التصريح ، فرمزية سعاد للحياة يعضدها _فضلا عما سبق _ أمور هي :

_ إن لفظة (سعاد) باشتقاقها من الأصل (سعد) ومجيئها على روي لفظ (حياة) لتوحي إلى ما ذهبنا إليه ، إذ لم يعهد شاعرنا متيما بسعاد في غير بردته هذه ثم أنه لم يكن شغوفا باسمها فيكثر من ترداده مرارا في تقديمه الغزلي للبردة كما فعل أقرانه الهائمون بخليلاتهم ،ولذا يمكن القول : إن سعاد هي الحياة السعيدة التي كان ينعم بها الشاعر ، بغض النظر عن تقييدها بالمعتقد الفاسد (الجاهلية) أو مريديه (المشركين) ذلك إن كلمة " سعاد " تعبّر عن حبّه الذي كان يملأ قلبه ، حبّه الذي إن فرط به ماتت نفسه واضمحل وجوده .

_ إنَّ الشكوى الطاغية في القسم الأول من القصيدة _الغزل _ تكتنفها دلالات التعارض في المحبوبة بين ظاهرها وباطنها من ناحية ، ومن تعارض بين المحبوبة والشاعر من ناحية أخرى ، فالمحبوبة على الرغم من بهائها الظاهري الخارجي فإنها تتميز بصفات داخلية سيئة ، ثم إن اسم المحبوبة سعاد » يوحي بهذه التعارض أيضاً ، فهي لم تسعد الشاعر بل قد أسقمته وأدخلت الحزن إلى قلبه حقبة من الزمن .وهذا هو حال الحياة عموما مليئة بالتقلبات والمتناقضات لا تستقر مع امرئ على حال بعينها وكذا حال الناس مع الحياة واللبيب منهم من لم تغره الدنيا بغرورها .

_ إن نظرة فاحصة في المقدمة الغزلية التي جاءت من -14- بيتا تبين أنها مليئة بالحركة والتقلب والاضطراب كشأن الحياة ، فالألفاظ المهيمنة على نص المقدمة طغى عليها الطابع الحركي عموما ،ذلك أنها أما ألفاظ دالة على الزمن الدائر مثل (إثرها ، غداة البين ،أضحى، مواعيد ،مواعيدها ، أبد ،طوال الدهر ، ما منت وما وعدت، الأماني والأحلام ، أمست .) أو أفعال دالة على الحركة السريعة في معناها فضلا عن بنائها إذا ما علمنا أن الأفعال عموما تفيد الدلالة على الحركة والتغيير من حال إلى حال .مثل (بانت ، لم يجز ،تجلو عوارض ، ابتسمت ، رحلوا ، شجت ، يعجلن ، تجلو الرياح ، ما تدوم ، قد سيط ، زعمت ،وما تمسك ،كما تمسك ،لا يغرنك ، لو أنها صدقت ، أرجو وآمل .) أو أسماء مفاعيل قفى بها أبيات المقدمة بشكل ينبئ عن سر حشرها بهذه الكثرة وهي (متبول ،مكبول ،مكحول ،معلول،مشمول ،مقبول) وربما رام الشاعر من ذلك تصوير حاله مع الحياة التي أدبرت عنه أو تكاد فعمد إلى هذا البناء ينتقي من ألفاظه الدالة على من وقع

عليه الفعل وأضحى لا حيلة له أمام بطش الفاعل (الحياة) لكن الشاعر يأبى الاستسلام والخضوع على الرغم من قسوة الزمن به وتكالب الرزايا عليه وفقده الأمان والطمأنينة .

فالمهيمنات اللفظية على نص المقدمة_إذن_ تكشف عن أن الشاعر كان في دوامة مع الحياة يتحرك ذات اليمين وذات الشمال حركة خاطفة بحثا عن سبل النجاة وهروبا من الموت ،لقد كان ضائعا تائها هائما في البوادي غير مستقر في مقام بعد أن فقد الأمان فلا غرو من أن يظهر أثر ذلك الهيم في الأرض في مقدمة ما قال ليصور بخياله الواسع وأفق نظره البعيد حاله تلك ولما وصل في قوله إلى لب الموضوع (المدح والاعتذار) جرى شعره هادئا متسلسلا منتظما من ألفاظ راكدة ساكنة في مدلولها غايتها الإبلاغ وإلقاء الحجة فحسب فصور بشعره هدوء باله كيف لا وهو بحضرة الرسول العظيم الذي أنزل رحمة للعالمين .وقد بلغ الذروة في الهدوء والاتزان الروحي حين قال :

52-إنَّ الرَّسُولُ لَسَيْفٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ مُهَنَّدٌ مِن سُيوفِ اللهِ مَسْلُولُ[25]

_ إن الشاعر قد خلع على متيمته سعاد الصفات التي وردت مقصورة على لفظ الحياة في التنزيل العزيز من مثل (لعب ،متاع الغرور ،زينة ،لهو، متاع قليل).فالشاعر لما قال :

2-وما سعادُ غَدَاةَ البَيْنِ إذ رحلُوا إلا أَغَنُّ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحول

4-تَجْلو عَوَارِضَ ذي ظَلْمٍ إذا ابتَسَمَتْ كأنَّهُ مُنْهَلٌ بالرَّاحِ مَعلُولُ[26]

كان قد اقترب كثيرا في هذه الرمزية من قوله تعالى: ((اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة)) [الحديد :20]،علما أن البيت الأول يروى : (وما سعاد غداة البين إذ برزت)، وهذه الرواية تجعل الأحداث جميعها تدور في فلك سعاد وحدها وهو أمر لا يتحقق مع (رحلوا) الذي قد يصرف تفسير سعاد بالحياة عن مقصده. ولما قال كعب:

7-أَكْرِمْ بها خُلَّةً لو أنَّهَا صَدَقَتْ مَواعيدَها أَو لَو انَّ النُّصْحَ مَقبول

8-لكنَّهَا خُلَّةٌ قَد سِيطَ فَجْعٌ وَوَلْعٌ وإخلافٌ وتَبديلُ مِن دَمِهَا

9-فما تدومُ على حالٍ تكونُ كَما تَلَوَّنُ في أثوابها الغول[27] بِها

كان قد اقترب من قوله تعالى:((وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور)) [ال عمران : 185]. فالشاعر ساق نسق الألفاظ في قوله: (فجع وولع وإخلاف وتبديل) كما سيقت في قوله تعالى: ((اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة)) [الحديد : 20]. وواضح هنا أنّ هذا الوصف لسعاد أقرب لوصف حال الحياة الدنيا وما تحمل للناس من مصائب (فجعٌ) وغدر وكذب (ولعٌ) ، وإخلاف وتضليلُ . وكأنّه بلغه وصف القرآن الكريم للدنيا :(يا أيّها النّاس اتّقوا ربّكم واخشوا يوماً لا يجزي والدٌ عن ولده ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً إنّ وعد الله حقٌّ فلا تَغرنّكم الحياة الدنيا ولا يغرنّكم بالله الغرور) [لقمان : 33]

فكأنّه سمع هذه الآية وأمثالها في كتاب الله ، فقال : (فلا يغرنّك ما منّت وما وعدت) إنّ هذا الوصف أقرب ما يكون للحياة الدنيا وفتنتها وغرورها ، وما فيها من أمانيّ وأحلام لا تزيد عن غرور وتضليل .

إن مرحلة الانتقال من الحياة الجاهلية إلى حياة الإسلام كانت بالغة القصر إذا ما قيست بالتحول الهائل الذي طرأ على الحياة العربية بعد الفتح الإسلامي . ويلاحظ الدارس أن الشعراء منذ السنوات الأولى للإسلام بدءوا يتأثرون تأثيرا واضحا بالمعاني الدينية الجديدة وبالأسلوب القرآني مما يؤكد أن مواجهة الشاعر المخضرم للمجتمع الجديد كانت مواجهة سريعة فرضت عليه التكيف السريع [28] ، كما يلحظ عند كعب بن زهير إذ نجده في مديحه للنبي والمهاجرين يرق ويلين ويستخدم ألفاظا وعبارات ومعاني إسلامية جديدة .

الناقة أم الذات:

إن مبالغة الشاعر في وصف الناقة _مع أهميتها في حياة البدوي _ لا يمكن أن يرقى في أي حال من الأحوال إلى مبالغته في وصف الحبيبة (سعاد/ الحياة)التي لم تنل مما قال نصف ما قال في الناقة ،فقد خصص كعب -22- بيتا من بردته للناقة وهذا الأمر يدعو الباحث إلى التأمل الدقيق قبل أن يطلق الحكم معتمدا على ظاهر القول ، فما قاله الشاعر في الناقة يفوق حتى ما قاله في الغرض الأساسي من قصيدته _الاعتذار ثم مدح الرسول ومن معه . فبعد أن أعلن عن تمسكه بالحياة قرر خوض غمار الرحلة المضنية المؤدية إلى الظفر بالحياة والنجاة والأمان والنعيم الجديد ، وأشار إلى أن السبيل إلى ذلك هو (في المدينة المنورة) ، في مكان لا يبلغه إلا الإبل القوية السريعة ، وأخذ يصف هذه الإبل وصفاً دقيقاً ليُعبّر عن عظيم الرحلة التي يريدها وأهميتها وخطورتها ، فلا تصلح لها الإبل الضعيفة . ومن خلال هذا الوصف الدقيق الذي بلغ به درجة عالية من الفنّ والجمال ، يُعبّر كعب عن شدّة شوقه للقيا الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك بوصف السرعة الهائلة التي تمضي بها الإبل في رحلتها إلى النبوة الخاتمة . إنه تصوير يحمل القوة والحركة وجمال الصورة وتناسق الألفاظ وقوة السبك والتركيب وجمال اللحن . فالإبل تُسرع (تخدي) على قوائم خفاف (يسرات) كأنّها الرماح الصلبة (ذوابل) لا تكاد تمسُّ الأرض من شدّة سرعتها ، وكأنّها تمسُّ الأرض مسّاً خفيفاً جدّا ،وكأن أعصاب قوائمها (العُجايات) وهي رماح سمر لقوتها وصلابتها ، وإذا مسّت الحصى فرّقته بقوتها ورجوعهما من شدّة السرعة ، وقد عرقت لا من التعب لأنها قوية ، بل من شدّة الحر الذي بلغ حدّاً انتشر السّراب (العساقيل) على الجبال الصغيرة (القور) ، فكأنّها تلفّعت به أو التحفت به ، كأنّ سرعة تقلّب ذراعيها مع هذا الحَرّ ومع هذه السرعة ، حين اشتدّ النهار بحرّه سرعة ذراعي المرأة الطويلة (ذراعا عيطل) المتوسطة السنّ (نصَف) في لطمها على خدّيها لفقدها ولدها ، يجاوبها نساء لا يعيش لهنّ أولاد . فالثُّكد جمع نكداء وهي التي لا يعيش لها ولد . والمثاكيل جمع مثكال وهي كثيرة الثكل ، المرأة النوّاحة ، مسترخية العضدين (رخوة الضبعين) ، فقدت صوابها (معقول) لمّا بلّغها الناعون موت ولدها البكر ، فاشتدّ لطمها لخدّيها . ويسير الوشاة حول " سعاد " (جنابيها) ليمنعوا من نقل صاحبها إلى بر الأمان ، وليثبّطوا عزيمة

كعب بأنه مقتول . فلا غرو _بعد هذا _ من أن تكون الناقة في البردة هي ذات الشاعر ولا نرضى بغير هذا المدلول في تفسير هذه الرمزية يعضد ذلك أمور تلحظ في قول الشاعر منها.

_ ميله العجيب إلى صبغ الناقة بصبغة الرجل الشجاع الأصيل الكريم النجيب الشديد ،وإسناده أفعال العقلاء إليها، فقد خلع الشاعر صفات على الناقة يجعل منها كائناً أسطورياً وذلك من خلال التشبيهات العديدة التي تتوالى وتتعاقب بطريقة فريدة ، وكأنَّ الحديث عن الناقة وقوتها إنما هو حديث عن صاحبها وراكبها، ويوحي في الوقت نفسه أنَّ الناقة تمثل وسيلة وحيدة للانتقال بصاحبها من حالة إلى أخرى ، بمعنى أنَّ الشاعر يجسد خصائص « القوة والسرعة والقدرة على التحمل » في الناقة وصاحبها ، كما يؤكد دورها في الانتقال من موقف وطور إلى آخر. ولا شك أن مبالغة الشاعر في التعبير عن خصائص الناقة الجسدية والذاتية من ناحية والمناخ الذي تتحرك فيه من ناحية ثانية ، يوحي إلى أن المقصود هو ذات الشاعر لا الناقة نفسها ، فكأنَّ (الناقة/ الذات) تمثل نقيضاً للطبيعة فهي كائن أسطوري جبار منتصر، ففي الأبيات 15 إلى 23حيث يقول:

15-ولَنْ يُبَلِّغَهَا إلا عُذَافِرَةٌ لهَا على الأينِ إرْقالٌ وتَبْغيلُ
16-مِن كُلِّ نَضَّاخَةِ الذِّفْرَى إذا عَرِقَتْ عُرْضَتُهَا طامِسُ الأعلامِ مَجهولُ
17-تَرمِي الغُيُوبَ بِعَيْنَيْ مُفْرَدٍ لَهِقٍ إذا تَوَقَّدَتِ الحَزَّازُ والمِيلُ
18-ضَخْمٌ مُقَلَّدُها فَعْمٌ مُقَيَّدُها في خَلْقِها عَن بَناتِ الفَحْلِ تَفْضِيلُ
19-علْباءُ وَجْناءُ عَلْكومٌ مُذَكَّرَةٌ في دَفِّهَا سَعَةٌ قُدَّامَهَا مِيلُ
20-وجِلْدُها مِن أُطُومٍ لا يُؤَيِّسُهُ طَلْحٌ بضاحِيَةِ المَتْنَيْنِ مَهْزولُ
21 حَرْفٌ أَخُوها أَبُوها مِن مُهَجَّنَةٍ وعَمُّهَا خالُهَا قَوْدَاءُ شِمْلِيلُ
22-يَمشِي القُرَادُ عليها ثُمَّ يُزْلِقُهُ مِنها لِبَانٌ وأَقْرَابٌ زَهَالِيلُ
23-عَيْرَانَةٌ قُذِفَتْ باللحم عن عُرُضٍ مِرْفَقُهَا عَن بَنَاتِ الزُّورِ مَفْتُولُ(29)

قد تحدث عن صفات الناقة الجسدية، ثم ينتقل في البيت27 الذي يقول فيه :

27-تُخْدِي على يَسَرَاتٍ وَهِيَ لاحِقَةٌ ذَوَابِلٌ مَسُّهُنَّ الأرضَ تَحْلِيلُ(30)

فقام بتقديم صورة عن قسوة الحر في الصحراء ، وتبدو (الناقة /الذات) قاهرة للطبيعة بصبرها وصلابتها وإصرارها .

_ إن الشاعر بعد تطويله في الفخر غير المباشر من خلال الرمز _الناقة _ وبعد بث شكواه وحرقته من الوشاة والخلان الذين يرونه هالكا لا محالة عمد في نهاية الأمر وقبل انتقاله إلى الغرض الرئيس إلى التصريح بشخصه حين قال :

37- فقُلتُ خَلُّوا سَبيلِي لا أبا لَكُم فَكُلُّ ما قَدَّرَ الرَّحمَنُ مَفعُولُ (31)

وهنا أصبح الطريق له وليس للناقة التي انقطع نفسه وهو يصف محاسنها فكان حريا به أن يطلب إخلاء الطريق لها لا سيما أن هذا الفعل أكثر ملائمة لها من أفعال أخرى أسندها إلى الناقة وهي مختصة بالعقلاء . فالشاعر أدرك بعد هذا الحصار من الطبيعة القاسية مرة ، ومن الوشاة مرة ثانية ، ومن الخلان مرة ثالثة ، أنَّ نهايته اقتربت ،وإن الحياة توشك أن تفارقه وعندها لا بد من التوجه إلى قوة تتجاوز هذه القوى جميعا ، وهي قوة قدرية خاضعة للإرادة الإلهية ، ويقترن بالتقدير الإلهي الحديث عن مصير الإنسان « الموت » ، فالشاعر لم يعد يملك الخيارات الكثيرة وليس أمامه إلا أحد أمرين : إما اليأس المطلق والاستسلام التام للموت الذي يحيط به، واما التسليم للذات الإلهية وقدريتها ، وقد اختار الشاعر الأمر الثاني بعد أن وجده أكثر رجحاناً ، لأنه ينسجم مع الفكرة الدينية ،ولأنه يزرع في نفس الشاعر الثقة والأمل الجديد بالظفر بالحياة البائنة ، ولأنه يمهد للاعتذار والمديح الرسول الكريم الذي توجه الشاعر إليه.

وفي ضوء هذا فإنَّ ما كان مصدراً للموت يصبح مصدراً للحياة ، أي أنَّ الرسول حين أهدر دم الشاعر أصبح سبباً لموت الشاعر ، وهو نفسه يصبح سبباً لإنقاذه ، ولا يتم ذلك إلا من خلال الاعتذار للرسول والإيمان به وبرسالته ، فالشاعر في هذا ينتقل إلى مرحلة الامتلاء الحقيقي التي تمثل التواصل مع الرسول والرسالة وجماعة المسلمين والتوحد بهم ومعهم ، ومن ثم ينتصر الشاعر على ذاته التي فقدت التوافق الاجتماعي وعلى المعاناة التي واكبته حقبة بفعل شعوره بفقدان « سعاد / الحياة » فضلاً عن تجاوزه حالة التأزم والقلق التي تتجلى في رحلته نحو المجهول .

_ إن الشاعر يبدو ميالا وهو يصف الناقة إلى الفخر المبطن والزهو بالنفس وشحذ الهمة في وقت اصطراعه مع الموت والتشبث بتلابيب الحياة. فقد كان موقنا أن حياته في خطر وكان في خلده أنه لن يفلت من العقاب الدنيوي بعد أن أمر الرسول (ص) بهدر دمه وعلى الرغم من نأي الحياة(سعاد) عنه لم يركن إلى التقاعس واليأس والقعود عن اللحاق بها فركن إلى نفسه يشحذ همتها ويزرع الأمل فيها وقد عهدها نفسا أبية شجاعة لا تأبى الضيم وانتظار المنية ،على وفق ما يلحظ في البيتين (14 ، 15) اذ يقول:

14-أمسَتْ سُـــــــــــــعادُ بأرضٍ لا يُبَلِّغُهـا إلا العِتـاقُ النَّجِيباتُ المَـرَاسـيلُ
15-ولَنْ يُبَلِّـــغَهَـا إلا غُــذَافِرَةٌ لـــــــــــها على الأيـنِ اِرْقـالٌ وتَـبْغيـلُ[32]

_ إن الشاعر قد آلمه ما يلقى من أقوال الوشاة والمغرضين الذين يتربصون به الدوائر ولكنه مضى في شمم وإباء مواصلا الرحلة المباركة ونجد هذا المعنى مقرونا بالناقة التي يقول فيها:

22-يَمشِـــــــــــــــي القُرَادُ عليهـا ثُمَّ يُزْلِقُـهُ مِنهـا لِبَـانٌ وأَقْـرَابٌ زَهَـالِيلُ[33]

وفي يقيني أن حمل معنى البيت على ظاهره فيه من السذاجة والغباء ما لا يليق بالشاعر .فأي حشرة حقيرة هذه التي تستأهل أن تذكر في ذلك المقام المبجل ،وأي ناقة هذه التي تزيح عن نفسها القراد بصدرها وخواصرها .؟ لا شك إنهم الوشاة الذين تمسكوا بتلابيب الشاعر فأكلوا لحمه حيا فلم يكن أمام الشاعر من بد في التصريح بهم والشكوى من مكرهم وكيدهم كما في البيتين -35، 42- فيقول:

35-تَسـعَى الوُشَـاةُ جَنَـابَيْهَا وقَوْلُهُـمُ إِنَّكَ يـا ابنَ أبي سُلْمَى لَمَقْتُـولُ
42-لا تَأْخُذَنِّي بـأَقْـوالِ الوُشَـاةِ ولَمْ أَذْنِبْ وقَد كَثُرَت فِيَّ الأَقـاوِيـلُ[34]

فقد أحاط الوشاة بالشاعر وسعوا إلى تثبيط عزيمته ، ويتجلى ذلك في تأكيدهم المتيقن بـأنَّ الشـاعر مقتول ويتأكد ذلك اليقين بالتعبير الأسلوبي ، الذي جاء في سياق جملة على لسان الوشاة بالتوكيد بـ(إن واللام الداخلية على الخبر) : انك يا ابن أبس سلمى لمقتول .

_ تـراكم ألفـاظ الطبيعـة الحيـة فـي البـردة قصـد تشـبية العقـلاء مـن مثـل (الفيـل ،الجمـال الزهـر ، ضرغامين ، سباع الجو ،ليوث الأ سد ، القراد ،أغن ، الغول) يوحي إلى أن الشاعر واجد في هذه الألفاظ التي تنبض بالحياة غاية المدح ، وقد ركن إليها في أعلى مراتب المدح عنده وهو مدح الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) كما في البيت -47- اذا يقول :

47-مِن خادِرٍ مِن لُـيُوثِ الاسْدِ مَسْـكَنُهُ مِنْ بَطْن عَثَّـرَ غِيـلٌ دُونَهُ غِيـلُ[35]

فلا غرو بعد هذا من أن يتخذ كعب الناقة رمزا عن ذاته ونفسه ، وإنما اتخذ الشاعر الناقة دون غيرها ترميزا لذاته لأن العلاقة بين (الذات /الشاعر) و(الرمز/الناقة) جلية بادية لكل من يمعن النظر في أحداث البردة ذلك أنَّ الشاعر يعيش حالة القلق والتأزم بسبب الرحلة المضنية في طبيعة صحراوية قاسية ، وبسبب مجتمع يتخلى عن الشاعر ولا يجيره لأن الحفاظ على شخص قد أهدر دمه أمر لا يطيقه الكثيرون فكانت الشكوى طاغية في البردة لأنَّ المحبوبة « سعاد / الحياة » تخلت عن الشاعر تماماً ، كما أنَّ قبيلته و خلانه قد تخلو عنه كذلك لأنَّ الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قد أهدر دمه ، فضلاً عن قساوة الحياة وصعوبتها ، وقساوة الصحراء ومتاهاتها.

إنَّ قرار الرحلة يعني أنَّ الشاعر ينتصر للحياة على الموت ويتخذ الناقة بوصفها رمزا عن ذاته الطامحة بالظفر بالحياة وسيلة لتحقيق هذه الغايات المتعددة ، فقد كان مثقلا بالقلق والخواء والركود ،ولكنه سرعان ما ينتقل فيه من الاستسلام إلى الحركة ومن اليأس إلى الأمل وقد تحقق له ما أراد وعاش القابل من أيامه في كنف الإسلام عزيزا أبيا وصحابيا جليلا وشاعرا ذا قضية مقدسة .

وما كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ليبدي إعجابه الشديد فيخلع بردته على كعب من أجل أبيات من النسيب والغزل بل إن الفكرة الرائعة التي تعرضها القصيدة في ألفاظ قوية وتعبيرات غنيّة ووقع فنّي مؤثّر ، هي التي أثارت إعجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . إنها تمثّل رحلته من الفناء إلى الخلود ومن الظلمات إلى النور، وقد كان كعب صلبا قويا صابرا فيها لم يستسلم لليأس وهي رحلة تستحقّ كل هذا الجهد والعناء والبذل والصبر والمعاناة ولا يُعقل أن يكون شاغله في هذه المعاناة النفسية حبّ فتاة حقيقية أو خيالية.

الهوامش:

1) **ينظر في ترجمة الشاعر : سيرة ابن هشام : ج2 ، ص(501-515) .**
2) **لسان العرب / مادة : ر م ز**
3) **القاموس المحيط /مادة : رمز**

4) المعجم المفصل في الأدب
5) العمدة في محاسن الشعر وآدابه:ج206/1
6) العمدة في محاسن الشعر وآدابه:ج206/1-207
7) مفتاح العلوم : 411، المطول في شرح تلخيص مفتاح العلوم : 637
8) ينظر : الرمزية والرومانتيكية في الشعر اللبناني :25
9) معجم المصطلحات البلاغية : 23/3-26
10) مفاهيم نقدية : 243
11) البيان والتبيين : 76/1-79
12) الرمز والرمزية في الشعر المعاصر : 40
13) فن الشعر : 200
14) عن بناء القصيدة العربية الحديثة : 85
15) الرمز والرمزية في الشعر المعاصر:34-35
16) البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الاسلامي : 108
17) الخيال الرمزي : 9
18) المصدر نفسه: 41
19) ديوان كعب بن زهير: 109-111
20) دراسات في أدب ونصوص العصر الإسلامي ، الدكتور محمد عبد القادر أحمد ،ط1، مكتبة النهضة المصرية شارع عدلي القاهرة ، ص138_141
21) المدائح النبوية بين المعتدلين والغلاة ، ط1 1406هـ - 1986م ، ص : 19-20 .
22) آراء في دراسة النص ، المطلبي ،(بحث) منشور في مجلة كلية الدعوة الإسلامية ، ع17، 2000ف ، ص340.
23) ديوان كعب بن زهير :109-110
24) وقفة ورأي مع قصيدة كعب بن زهير /البردة ، د. عدنان علي رضا ، (بحث) دار النحوي للنشر .
25) ديوان كعب بن زهير :115
26) المصدر نفسه: 109
27) المصدر نفسه:110-111
28) في الشعر الإسلامي والأموي ، عبد القادر القط ،14_15.
29) ديوان كعب بن زهير : 112
30) المصدر نفسه:112
31) المصدر نفسه : 114
32) المصدر نفسه :111
33) المصدر نفسه :112
34) المصدر نفسه :114
35) المصدر نفسه :115

المصادر والمراجع

- البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الاسلامي : محمود البستاني ، دار الفقه للطباعة والنشر ، الطبعة1-1424ه.
- الخيال الرمزي، كوليردج والتقليد الرومانسي : ج روبرت بارث اليسوعي ، ترجمة : علي العاكوب ، مراجعة : خليفة عيسى الغرابي ، معهد الانماء العربي ، ليبيا دار الكتب الوطنية ، 1992م.
- دراسات في أدب ونصوص العصر الإسلامي ، الدكتور محمد عبد القادر أحمد ،ط1، مكتبة النهضة المصرية شارع عدلي القاهرة
- ديوان كعب بن زهير : الامام ابي سعيد السكري ، شرح ودراسة : مفيد قميحة، دار الشواف للطباعة والنشر ، الرياض – المملكة العربية السعودية ، ط1-1410هـ- 1989م.
- الرمز والرمزية في الشعر المعاصر : محمد فتوح احمد ، دار المعارف بمصر -1977م.
- الرمزية والرومانتيكية في الشعر اللبناني : اميمة حمدان ، وزارة الثقافة والاعلام - بغداد 1981م , سلسلة دراسات.
- السيرة النبوية (سيرة ابن هشام) : عبد الملك بن هشام بن ايوب الحميري المعاضري (218ه)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي ، ط3-1410ه-1990م.
- العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده ، لابي علي الحسن بن رشيق القيرواني (456ه)، حققه:محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل بيروت ، ط5-1401ه-1981م.
- عن بناء القصيدة العربية الحديثة : علي عشري زايد ، دار الفصحى ، القاهرة -1978م.
- فن الشعر : ارسطو طاليس ، ترجمة وتحقيق : عبد الرحمن بدوي ، دار الثقافة بيروت ، ط2-1973م.
- في الشعر الإسلامي والأموي :عبد القادر القط، دار النهضة العربية - بيروت ، 1987م.
- لسان العرب : ابو الفضل جمال الدين بن منظور الانصاري (711ه)، دار الحديث ، القاهرة - 2003م.
- المدائح النبوية بين المعتدلين والغلاة : محمد سعد حسين ، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، قسم التوزيع والاعلام ، ط1-1406ه-1986م.
- المطول في شرح تلخيص المفتاح : سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (792ه)، تحقيق : عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية ، بيروت ، مؤسسة انتشارات، ايران – قم ، ط1-1424ه.
- المعجم المفصل في الادب : محمد التونجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط2-1999م.
- مفتاح العلوم : ابي يعقوب يوسف بن ابي بكر محمد السكاكي (626ه) ، تحقيق: نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،ط1-1403ه-1983م.

الدوريات

- آراء في دراسة النص ، المطلبي ،(بحث) منشور في مجلة كلية الدعوة الإسلامية ، ع17، 2000ف

- وقفة ورأي مع قصيدة كعب بن زهير /البردة ، د. عدنان علي رضا ، (بحث) دار النحوي للنشر 15-كانون الاول 2004م.

تجليات الأخر في الشعر الجاهلي القبائل العدنانية أنموذجا

أ.م.د احمد حيال جهاد
جامعة ذي قار /كلية التربية الإنسانية

أ.م.د حمادي خلف سعود
جامعة ذي قار /كلية التربية الإنسانية

المقدمـــة

تُعدُّ القبيلة العمود الفقري لمجتمع عصر ما قبل الإسلام وأساسه الذي تقوم عليه في كل مقوماته . والعصبية القبلية هي السائدة ، إذ كانت سياسته المتبعة فيه، سياسة القبيلة التي تقابل الوطن في العصر الحديث[1]. وكبير القبيلة هو المتنفذ والمسؤول ، ويستمدُّ قوته من قوة أفرادها ، فضلاً عن شخصيته التي يتمتع بها . وكبير القبيلة أو شيخها " تجسيد حي للقيم العليا التي تعتز بها القبائل العربية وتفتخر وفي مقدمتها المروءة والعزّة والأنفة والكبرياء والإباء" [2]. وليس بمقدور رئيس القبيلة اتخاذ القرارات بمعزل عن أفرادها المعنيين من أصحاب الرأي والشأن، فلا بُدَّ من الرجوع إليهم لإصدار القرار النهائي [3].

وعلى أية حال لا يمكن للفرد العيش خارج القبيلة ؛ لأنها ضرورة من ضرورات الحياة ، فهي توفر له الأمن والأمان ومن دونها يظل متشرداً لا يستطيع مواجهة مصاعب الحياة وحده ، كما أن الذات " (الجماعية النحن) تتحقق عن طريق القبيلة والمجتمع أو الأُمة ، فتتحول الذات من إطارها الفردي إلى الإطار الجمعي أي النحن الجماعية ، وهذه النحن ما هي إلاّ صورة للأنا الفردية تتحقق في إطار الجماعة التي تشكل من مجموعة من الأفراد" [4]. إذ إن هناك دوافع تجعل الفرد أن يتجه نحو القبيلة والانضمام تحت خيمتها ، مما يجعلهُ يأتمر بأمرها ، ويتقبل قراراتها المتخذة .

1- الآخر القبيلة ـ بنو أسد:

ويرجع نسبها إلى أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار ، وهي ذات بطون كثيرة منها بنو كاهل ، بنو غنم بن دودان بن أسد، بنو ثعلبة بن دودان [5].

ولو أردنا معرفة العلاقات الإنسانيّة في المجتمعات القبلية التي تكون العصبية القبلية مثلها الأعلى ، لا يمكن أن تتسم علاقاتها دائماً بالودِّ والاحترام ، بل يحدث العكس ، ويكون الانفصال والابتعاد مصيرها ، وهذا ما تكشفه النصوص الشعرية . وحسبنا التعرف على مدى هذه العلاقات سواء أكانت وديّة اتصالية أو انفعالية تنافرية . ولعلَّ أول ما نقوم به الكشف عن العلاقة الودية، التي تحدث بين الذات الشاعرة والآخر القبيلة .

وفي هذه العلاقة أول ما يطالعنا التغني بأبطال القبيلة في سياق الفخر، ويأتي الفخر بذكر الصفات الشخصية ، كالكرم والشجاعة ، فهذا عبيد بن الأبرص يفتخر بشجاعة قومه بني أسد في انتصارهم على امرئ القيس بعد مقتل أبيه[6]على يد بني أسد ، فيقول عُبيد :

يـــا أيُّهـــا السَّـــائِلُ عـــنْ مَجْـــدِنا ... إنَّـــكَ عـــنْ مســـعاتِنا جاهِـــلُ
إنْ كُنْـــتَ لـــمْ تَسْـــمَعْ بآبائِنـــا ... فَسَـــلْ تُنبـــأ أيُّهـــا الســـائِلُ
ســـائلْ بنـــا حجـــراً غـــداةَ الـــوغَى ... يـــوْمَ تَـــوَلّى جَمْعُـــهُ الجافِـــلُ
يَـــوْمَ لقُـــوا سَـــعْداً علـــى مـــاقِطٍ ... وجاولـــتْ مـــن دُونـــهِ كاهِـــلُ
فـــأوْرَدوا ســـرباً لـــهُ ذُبَّـــلا ... كـــأنَّهُنَّ اللَّهَـــبُ الشـــاعِلُ
وعـــامراً أن كَيْـــفَ يعْلُـــوهُم ... إذْ التقينـــا المُرهَـــفُ النَّاهِـــلُ
وَجَمْـــعُ غسَّـــانَ لقَيْنَـــاهُمُ ... بِجَحْفَـــلٍ قَسْـــطَلُهُ ذائِـــلُ
قـــومي بنـــو دودان أهـــل الحجـــا ... يَوْمـــاً إذا أُلقحـــت الحائِـــلُ
كـــمْ فـــيهمُ مـــن أيِّـــدٍ سَـــيِّدٍ ... ذي نفحـــاتٍ قائِـــلٌ فاعِـــلُ
مَـــنْ قوْلـــه قَـــوْلٌ ومـــن فِعلُـــهُ ... فِعْـــلٌ ، ومَـــنْ نائِلـــهِ نائِـــلُ
القائِـــلُ القَـــوْلَ الـــذي مِثْلُـــهُ ... يَمْـــرَعُ منـــهُ البَلَـــدُ الماحـــلُ
لا يحْـــرِمُ السَّـــائِلَ إنْ جـــاءَهُ ... ولا يُعَفِّـــىَ ســـيْبَهُ العـــاذِلُ
الطّـــاعِنُ الطَعْنَـــةَ يَـــوْمَ الـــوغَى ... يَـــذْهَلُ منهـــا البَطَـــلُ الباسِـــلُ(7)

تزدحم الأبيات بدوال الفخر ، وتظهر الذات الشاعرة بمظهر الأنفة والكبرياء، فيطلُّ علينا من خلال نسقها الحواري ، مفتتحة ذلك بأسلوب النداء (يا أيها)، ويبدو هذا الأسلوب محملاًبالعنفوان والكبرياء ، فالذات تبدأ بتعداد مناقب الآخر/ بني أسد فتصفهم بالمجد والشجاعة والكرم . أما الجانب الثاني من الفخر فيقوم على تعداد مناقب بطونها (دودان ، سعد، وكاهل) ولا نعدو الصواب إذا ما قلنا إنَّ القبيلة بوصفها أحد تجليّات الآخر ، هي صاحبة الفعل الشعري ونقطة انطلاقه ومحور دلالته النصيّة ، كما أنها صاحبة الحضور المتوهّج في النص ، ويتجلى لنا ذلك من خلال الحضور المعرفي (الاسمي) لهذه القبيلة ، إذ تكرر ورودها ثلاث مرات توزعت توزيعاً عمودياً وبأسماء مختلفة ، ناهيك عن الأسماء الظاهرة الصريحة ، أما الضمائر فقد أشارت إلى سمات الآخر ، وقد ساقها في صورة كنايات كنّى بها عن شجاعة الآخر وقوته . ومن الموقف الشعري نفهم أن الشاعر يستذكر حدثاً زمانياً يتمثل في إحدى المعارك التي دارت رحاها بين حجر بن الحارث حين كان ملكاً على بني أسد وبين قبيلة بني أسد نفسها، وهذا ما نتلمسه عبر الكم الهائل المهيمن من الدوال الفعلية التي طغت

على النص واحتلت فيه مساحة واسعة لإظهار فاعلية الموضوع وأهميته فنجد أن التركيز على هذه الدوال جاء بكثافة لتحقيق الهدف الذي سعت إليه وهو (الفخر) وقد تركت أثراً بالغاً في نفس القبيلة/ بني أسد ، ولو لم تحدث هذه المعركة لكان الضياع مصيرها ، إذ عدّتْ هذه المعركة معركة فاصلة أعادت لبني أسد هيبتها بين القبائل ، وضاعفت إحساسهم القديم بالشجاعة، وأضافت إليهم إحساساً جديداً "دفعهم إلى الثورة على حجر وإبائهم دفع الأتاوة إليه" (8).

لقد كان لأبطال بني أسد أثرٌ واضح في النجاة والتخلص من ملك جائر وهذا ما يدلُّ عليه فعل الأمر (سائل) الذي أفاد الدلالة على الأمر وأنبأ عن هزيمة الملك واندحار جيشه .

إنَّ قراءة متأنية للنص تكشف لنا عما خلفته الأفعال في دلالتها الزمنية الماضية من أن الحدث قد انتهى ولم يبقَ سوى التغني بأمجاد القبيلة المنتصرة وهذا ما دلَّ عليه قوله :

يـــومَ لقـــوا ســـعداً علـــى مـــأقط وجاولـــت مـــن دونـــهِ كاهـــلُ
فـــأوردوا ســـرباً لـــهُ ذبَّـــلاً كـــأنهنَّ اللهـــب الشـــاعلُ
وعـــامراً إن كيـــفَ يعلـــوهُمُ إذا التقينـــا المرهـــف الناهـــلُ
وجمـــع غســـان لقينـــاهم بِـَجحْفَـــلٍ قَسْـــطَلُهُ ذائِـــلُ

لحز رؤوس بني عامر ، فلمعانها البرّاق فوق رؤوسهم ، إذ يقوم النص على الصور البلاغية متمثلة في قوله :

وجمـــع غســـان لقينـــاهم بِـَجحْفَـــلٍ قَسْـــطَلُهُ ذائِـــلُ

يخيل للقارئ وكأنه أمام منظر طبيعي يشاهده ، وهو دليل على براعة الذات وقدرتها على التصوير ، وجذب انتباه القارئ ، وكلما تعمقنا في قراءة النص تكشف لنا مشهد تصوير الذات لقوة القبيلة وشجاعتها ، من ذلك قوله :

كـــمْ فـــيهم مـــن أيِّـــدٍ سَـــيِّدٍ ذي نفحـــات قائِـــل فاعِـــل

نلمس في النص الشعري عنصراً إبداعياً يستدعي الوقوف عنده لا يمكن أن نغفل عنه ألا وهو المفارقة القائمة على القبيلتين أحداهما إيجابي يتمثل بموقف قبيلة بني أسد المؤمنة بالتضحية من أجل الحرية وحب الاستقلال ، محققاً النصر الأكيد ، والآخر سلبي يتمثل بعامر وغسان، اللتين انهزمتا في المعركة مخلّفتين وراءهما أذيال الخيبةِ المتمثل في قوله :

وعـــــامراً إن كيـــــفَ يعلـــــوهُمُ إذ التقينـــــا المرهـــــف الناهـــــلُ

فالشاعر يستخدم أسلوب المفارقة لإظهار (التناقض بين شيئين) يغلب عليهما الاختلاف والتفاوت [9]، ولا يفوتنا القول أن الذات الشاعرة قد تلاشت وذابت مع الآخر القبيلة أو الذات الجمعية كما يتجلى في البيت قول الناص :

قـــومي بنـــو دودان أهـــل الحجـــا يَوْمـــــاً إذا ألقحـــــتْ الحائِـــــلُ

مما جعل الذات الفردية أن لا تنفصل عن الآخر ؛ لأنَّ0 " الوعي بالذات لا يتحقق إلاّ من خلال الآخر" [10]. فالتواصل والتماسك ظاهرتان متأصلتان عند عرب ما قبل الإسلام . لذا نجد أن "العقد الاجتماعي بين الشاعر والقبيلة تحول إلى عقد فني جعله معبّراًَ عن مشاعرها وتطلعاتها قبل أن يكون معبّراً عن مشاعره واتجاهاته الشخصية" [11].

وعلى الرغم من الطابع الحربي لهذه الأبيات ، كلّها تكشف عن جانب من طبيعة مجتمع ما قبل الإسلام برفض الذل والهوان ، وهو الجانب المضئ الذي مارسه الآخر تجاه الكم الجمعي، أما النصر أو الهزيمة ، بالحق أو الباطل .

ومهما تكن العلاقة وديّة تواصلية بين الذات والآخر ، قد يحدث العكس أو تستمر مع الذات الجمعية القبلية من ذلك نقرأ قول الشاعر :

إنّـــا إذا عـــضَّ الثِّقـــافُ قَناتَنـــا حالَـــتْ ورامَـــتْ ثـــمَّ خَيْـــرَ مَـــرامِ
نَحْمـــي حقيقتَنـــا ونمنـــعُ جارُنـــا ونَلـــفُّ بـــينَ أرامـــلِ الأيْتـــامِ[12]

تحاول الذات أن تتجاوز أنانيتها ، وتتجه نحو المُثل العليا التي تقدمها الذات الجمعية في تحقيق الصفات الإنسانية التي تتخلق بها النفس البشرية وتؤسسها على البذل والعطاء ،

وإذا ما تأملنا النص ، تطلُّ علينا الذات الفردية مفتخرة بالذات الجمعية المتمثلة بالقبيلة ، وبشكل جلي ، وهو ما توضحه البنى اللغوية التي تفصح عنها الضمائر الظاهرة والمستترة ، حيث الهمّة والشكيمة والثقة العالية بالنفس ، فضلاً عن الأفعال المشحونة فخراً قبلياً على نحو (نحمي حقيقتنا، ونمنع جارنا، ونلفّ) .

وتستمر الذات متواصلة مع الآخر القبيلة / بني أسد لبعث ماضيها الزاهر بالانتصارات متخذة من الفخر بشجاعة أبطالها موضوعاً يمجد انتصاراتها محذرة أعداءها ، كقول النابغة الذبياني :

إذا حاولتَ في أَسَدٍ فجوراً فإنّي لستُ منْكَ ولسْتَ منِيّ
فهم دِرْعي التي استَلأمْتُ فيها إلى يَوم النِّسارِ ، وهم مَجنّي
وهم وردوا الجفارَ على تميمٍ وهم أصحابُ يومِ عكاظَ إنّي
شهدتُ لهم مواطِنَ صادقاتٍ أتيْتُهُم بوُدِّ الصَّدرِ منّي
وهمْ ساروا لحجرٍ في خميسٍ وكانوا يوم ذلكَ عندَ ظنْيّ
وهم زحفوا لغسانٍ بزحْفٍ رحيب السربِ أرعن مُرْجَحِنّ(13)

يتبدى التحام الذات وانصارها مع الآخر / القبيلة / بني أسد ، وخير دليل على ذوبان الذات الفردية وتماسكها قول الناص (فإني لست منك ، ولست مني) ، إذ تعلن الذات بُعدها وانفصالها عن كل ما يقلل من شأن القبيلة ويعلن عداءه إلى بني أسد، لذا أكد حبه للقبيلة وتلاحمه معها بقوله (فهم درعي) ومعلوم أنَّ الدرعَ حماية المقاتل الذي يوشح به . لذلك كان تأكيده باستعمال الضمير (هم) وتكراره ست مرات ، دليلاً على ترسيخ مفهوم الآخر/القبيلة في وجدان الذات الشاعرة وعقلها.

والحقيقة أن الآخر الرئيس الفعّال الذي يدور عليه مفهوم الأبيات هو (بنو أسد)، أما الأعلام (تميم، حجر، غسّان) فهي آخر ثانوي يسهم في خلق المشهد الحربي ، لذا تطلق الذات أنفاسها المملوءة عداءً وحقداً على أعداء تلك القبيلة ، وتقوم بمعاداة مَنْ يعاديها .

تعلن الذات الشاعرة الفردية وحدتها وانضمامها مع الذات الجمعية ، لتصبح تحت ذات واحدة ، في حين صار عدو القبيلة آخر بمؤازرة الذات الفردية ، وتحاور الذات ضميرها الفردي عبر الآخر ، محاولة إيجاد صيغ بديلة عن الحرب والعدوان، فتخاطب الذات الآخر/ العدو عبر الفعل الماضي (حاولت) الفعل المتصل(بتاء) المخاطب ، ولكن تبرز فردية الذات من خلال الفعل الناقص (ليس) الذي جاء مكرراً مرتين لتؤكد انفصالها عن الذات الجمعية ، ويأتي انفصال الذات الفردية عن القبيلة أو عن الذات الجمعية لإرغامها على التفاوض مع الآخر العدو الذي لا يعرف إلاّ الدمار ، حيث الذات الفردية لا تستطيع إقناع الذات الجمعية . ولكن الذات الفردية لا يمكن أن تتخلى عن ذاتها الجمعية فترجع آيسة معلنة اندماجها بدافع الإنسانية وفاءً للقبيلة، ويتجلى ذلك من خلال الجملة الاسمية الواردة في البيت الثاني :

فهم درْعي التي استلأمتُ فيها إلى يَوْمِ النَّسارِ وهم مجنيّ

إنَّ الفخر الذي أعلى من مكانة القبيلة ومنزلتها ، يمكن أن نلمسه من خلال البنى اللسانية المتكررة ، التي تشير إليها الضمائر المنفصلة (هم) الذي وردت ست مرات ، إذ كان لها أثرٌ في تعظيم القبيلة وسمو مكانتها والاعتراف بشجاعتها .

إنَّ استخدام التكرار من قبل الذات الشاعرة لا لأجل تعظيم القبيلة حسب ، بل أرادت أن تؤدي أكبر قدر لتحقيق أهدافها التي جاءت من أجلها في إثارة الرعب في نفس الآخر[14].

وتبقى الذات الشاعرة عازمة على تحدي الآخر ونلمس ذلك من خلال الأداة (إذا) الشرطية غير الجازمة ، محاولة إنذاره بعدم استعمال القوة ضدها ، ويتجلى ذلك بقول الناص (إذا حاولت) ويستمر تحدي الذات للآخر عبر أسلوب التوكيد الماثل في عجز البيت الأول (فإنّي) ثم تأتي بـ (ياء النسب) لزيادة التأكيد وتعظيم موقف الذات من جهة ، ونفيها للذل والخضوع والاستكانة للآخر العدو .

وبعد حديثنا عن العلاقة الودية التي تجمع بين الذات والآخر ، آنَ لنا الحديث عن العلاقة الضدية بين الذات والآخر، التي تبرز في اتجاهات وسياقات شتى كالتوعد بالحرب والتهديد بأخذ الثأر ، فهذا امرؤ القيس يقول :

قُـــولا لـــدُودَان عبيـــدِ العَصَـــا مـــا غـــرّكُمْ بالأَسَـــدِ الباســـلِ
قـــد قَـــرَّتِ العَيْنـــانِ مـــن مالـــكٍ ومـــن بنـــي عَمْـــروٍ ومـــن كاهـــلِ
ومِـــنْ بنـــي غَـــنْم بـــن دودان إذْ نقْـــذفُ أعلاهـــم علـــى السَّـــافِلِ
نطعـــنهم سُـــلْكى ومخْلُوجَـــةً لَفْتَـــكَ لأْمَـــيْن علـــى نابِـــلِ
حتـــى تركْنـــاهم لَـــدى مَعْـــرَكٍ أرْجُلُهـــم كالخشـــبِ الشـــائِلِ
حلـــت لـــي الخمْـــرُ وكنـــتُ امْـــرأً عـــن شُـــرْبِها فـــي شُـــغُلِ شـــاغِلِ
فـــاليَوْمَ أســـقى غيْـــرَ مسْـــتَحْقِبٍ إثمـــاً مِـــنَ الله ولا واغـــلِ[15]

فهو حين أقرَّ بأن (دودان) وهي قبيلة من بني أسد . بأنها (عبيد العصا) دليل على الضياع وخضوع الآخر(القبيلة) لبطش الآخر المُتسيّد أو غير المُتسيّد وقوته إشارة لقبول الذل والهوان . ومن خلال الحوار الذي بدأه الشاعر بصيغة الأمر (قولا) الحوار البسيط ، إذ وجّه لشخصين يطلب منهما إيصال رسالة شفوية إلى بني أسد تتضمن بلاغاً شديد اللهجة ، محملاً بالسعادة يبلغهم أنه قد استوفى حقه وأخذ ثأره من غير اكتراث بهم . ونلمس استقرار الحالة النفسية لدى الشاعر بدليل قوله :

حلـــت لـــي الخمْـــرُ وكُنـــتُ امـــرأً عـــن شُـــرْبِها فـــي شُـــغُلِ شـــاغِلِ
فـــاليَوْم أســـقى غيـــر مســـتحقبٍ إثمـــاً مـــن الله ولا واغـــل

وعليه تبدأ العلاقة الضدية بين الذات الفردية ، والآخر القبيلة / بني أسد ممثلة في بطونها ويتجلى من صيغ الأفعال الماضية (أغرّكم ، قرت ، تركنا ، حلت، وكنتُ) ، فضلاً عن الأفعال المضارعة التي تدلُّ على استمرارية المعركة ، وتحاول الذات إنزال أقصى العقوبات متمثلة بقتل الآخر/ بني أسد وتعذيبه ، ويظهر في قوله:

نطعـــنهم سُـــلكى ومخلوجـــةً لفتـــك لأُمـــين علـــى نابِـــلِ

مما جعل حضور الذات متأرجحاً بين فرديتها وانتمائها القبلي ، فعندما تعدُّ الذات نفسها كائناً مميزاً عن الذات الجمعية ، يكون حضورها في النص فردياً، وذلك لطغيان النرجسية على النص [16]. ومن الأمثلة الفردية لحضور الذات على نحو (قد قرت العينان من مالك) فهي تمثل ازدواجية الحضور أو الحضور الجمعي نحو (نقذف أعلاهم على الساحل، نطعنهم سُلكى ومخلوجةً) إذ تتجلى ذاتاً جمعية متضخمة في الفعلين (نقذف ، ونطعن). ويسوقنا النص إلى تأمل يتمثل في الآخر الجاهلي (المعتقد الاجتماعي والديني) ، فهو ينأى عن شرب الخمر (النشوة والمتعة) ما دام مشغولاً بالثأر . كما أن البيت الأخير يُشير بوضوح إلى المعتقد الديني (الآخر التراثي أو المعتقد) .

والحقيقة أن الشاعر عبّر عن الذات وعن الجماعة ؛ لأنَّ "الشاعر الجاهلي الذي عبّر بشعره تعبيراً ذاتياً عن وجوده وأحلامه وحبه ومختلف مناحي حياته لم يكن رغم ذلك يتصور الشعر عملاً فردياً ، يعبّر من خلاله عن ذاته ، بل يتصور نوعاً من النبوغ في التعبير عن أحلام القبيلة" [17].

وللعصبية القبلية أثرها الواضح في توفير الحماية للأفراد الذين يعيشون تحت خيمتها ، لاسيّما الشعراء منهم بما يقدّموا لوحدة القبيلة وتماسكها والذود عنها بأنفسهم ، وما عنترةُ ألاّ تجسيداً لقولنا . ولا تدوم علاقة الذات الشاعرة مع الآخر القبيلة على حال ، فقد يحول بينهما الخلاف ، ويفضي إلى التحدي والتحريض على المواجهة في القتال من قبل الآخر . وخير مثال على ذلك ما حدث بين الذات الفردية والذات الجمعية المتمثلة بالآخر القبيلة /بني أسد ومن ذلك قول زهير بن أبي سُلْمى في بني نوفل :

أَبْلِغْ بني نَوْفَلٍ عنِّي فقدْ بَلَغتْ ... مني الحفيظةُ لما جاءَني الخَبَرُ
القائلينَ يَساراً لا تُناظرُه ... غَشاً لسيِّدهم في الأمرِ إذ أمروا
إنَّ ابنَ ورقاء لا تُخشى غَوائلُهُ ... لكن وقائعهُ في الحربِ تنتظِرُ
لولا ابنَ ورقاء والمجدَ التَّليدُ لهُ ... كانوا قليلاً فما عزوا وما كثروا
والمجدُ في غيرهم لولا مآثرهُ ... وصَبْرَهُ نفسَهُ والحربُ تستعِرُ
أوْلَى لكم ثم أوْلى أن يصيبكم ... منِّي نواقِرُ لا تبقي ولا تَذرُ [18]

ولما أتبعت الذات أسلوب التهديد والوعيد ضد الآخر/ القبيلة ، مُتخذة من الأسلوبالطلبي المتمثل بفعل الأمر(أبلغْ) منطلقاً لذلك التهديد وبما أنه يحمل سرداً قصصياً، (فأبلغْ) [19]هو استحضار لصيغة شعرية عرفتها أبيات ما قبل الإسلام ، وقد احتلت مساحة واسعة في مقدمات القصائد والأبيات ، وهذا في حقيقته استحضار للتراث القديم ، الذي يمثل الآخر الثقافي ، فهو إشعارٌ للذات بالألم النفسي الحزين الناتج من عدم استجابة الحالة الشعورية عن سماع النبأ السيئ من قبل الآخر القبيلة/ بني أسد ، فشعور الذات بالقلق وعدم الاطمئنان متأتٍ من شعورها بعدم الرغبة بالقتال ، ونلمس ذلك في مفردة (الخبر) ولكون نص الشعر الماثل بين أيدينا يشبه إلى حدٍّ ما نص امرئ القيس السالف الذكر . وبما أن الأبيات تحمل صورة فنية نشمُّ فيها رائحة الغضب، وهذا يثير رعب الذات وأحزانها . فمفردة (الحفيظة) كانت تحمل عمقاً مأساوياً في الذات ، ويتبعها في البيت الثاني باسم الفاعل يتلوه الاسم الصريح (يساراً) الذي يتبعه الفعل المنفي بـ (لا) الناهية والصادر من الآخر الثانوي إلى الآخر الرئيس (لا تناظرهُ) ، إذ كان الفعل المذكور بمنزلة طلقة الرحمة في صدر الذات، وشلِّ حركتها وتأجيج حالة الذات النفسية ، لأجل إبعادها عن هدفها التي جاءت من ورائه ، وبكل عزيمة واقتدار تبقى الذات عازمة في الوصول إلى هدفها، وأخيراً تظهر ، هي صاحبة الموقف

المتسيّد المنتصر على عدوها . أما الآخر/ القبيلة بنو أسد بدت ضعيفة ينتابها الخوف أثر المقاومة الشرسة التي صنعتها الذات.

وعليه أن الذات اتخذت من الآخر جنساً تدميرياً إذا ما بدر منه فعلٌ عكسيٌّ ، فضلاً عن تحطيم قدراته المعنوية [20]، وذلك ما دلّت عليه الأفعال (ما غزو، وما كثروا) ويبدو الآخر من خلال النص قليل الشأن في مقابل الذات التي بدت صاحبة الكبرياء ، وهو ذم وتحقير لشأن الآخر ووضعه موضع الخساسة والعار. فالذات هي الأقوى وإن كانت في موقف الانفعال ، ويظهر التحدي واضحاً من قبل الذات موجهاً إلى الآخر بدليل قولها :

أوْلـــى لكـــم ثـــمَّ أوْلـــى أن يُصـــيبكم منّـــي نـــواقِرُ لا تبقـــي ولا تـــذرُ

إذ ينتابه القلق والخوف أي (الآخر) وهو ما توحي إليه مفردة (يصيبكم) ، وهذه المفردة مرتبطة بمفردة (نواقر) التي ارتبطت بصيغة الحاضر (لا تبقي ، ولا تذر) ، ومهما يكن إصرار الآخر على فعل الشر ، تكون الذات في مواجهته والوقوف ضده .

2- الآخر القبيلة/ تغلب :

هي من قبائل قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد ، وهي من القبائل العدنانية[21]. ومن القبائل التي كانت لها مكانة مرموقة بين القبائل الأُخرى ، والتي عرفت ببطشها وشجاعتها أيام العرب في الجاهلية . ولا ينحصر دورها في الشجاعة، بل عُرفت بقيمها المحمودة ، كالكرم ، وإغاثة الملهوف، ونصرة الضعيف، فضلاً عن ذلك دورها السياسي المشهود في تاريخ العرب قبل الإسلام . ولا يهمنا سوى معرفة العلاقة بين الذات الشاعرة والآخر القبيلة ، وكشف العلاقة الودية بينهما ، ولزاماً علينا في بداية حديثنا أن نعرف مدى هذه العلاقة ، وكشف ما تضم من علاقات ودية بين الذات والآخر كالفخر بأمجادها ، وأيامها التي سجلتها في الحروب ضد أعدائها ، ومن ذلك قول عمرو بن كلثوم :

أبـــا هنـــدٍ فـــلا تعجـــل علينـــا وانظرنـــا نخبِّـــركَ اليقينـــا
بأنّـــا نـــورد الرايـــاتِ بيضـــاً ونصـــدرهُنَّ حُمْـــراً قـــد روينـــا
وأيـــامٌ لنـــا غـــرٍّ طـــوالٍ عصـــينا المَلـــك فيهـــا أن نـــدينا
وســـيّد معشـــرٍ قـــد توّجـــوهْ بتـــاجِ المُلـــكِ يحمـــي المُحجرينـــا
تركنـــا الخيـــل عاكفـــةً عليـــهِ مقلـــدَةً أعنَّتِهـــا صُـــفونا

وقـــد هـــرّتْ كـــلابُ الحـــيّ منّـــا وشـــذَّ بنـــا قتـــادةَ مـــن يلينـــا
متـــى ننقـــلْ إلـــى قـــومٍ رحانـــا يكونـــوا فـــي اللقـــاءِ لهـــا طحينـــا
يكـــونُ ثفالهـــا شـــرْقي ســـلمى ولهوتُهـــا قضـــاعة أجمعينـــا
وإنَّ الضِّـــغنَ بعـــدَ الضـــغنِ يبـــدو عليـــك ويخـــرجُ الـــداء الـــدفينا
ورثنـــا المجـــدَ قـــد علمـــت معـــدٍّ نطـــاعنُ دونـــهُ حتـــى يبينـــا
ونحـــنُ إذا عمـــاد الحـــيّ خـــرَّتْ علـــى الأحفـــاض نمنـــع مـــا يلينـــا[22]

القصيدة تتجلى فيها الصور الجميلة والمعاني العميقة التي تصدر من الذات بحق الآخر القبيلة / تغلب ، إذ إنَّ مفرداتها ذات الجرس الرنّان الموحي بأيقونة المجد تعمل على تعظيم الذات الجمعية ، حيث الانتصارات المتلاحقة .

يبدأ النص بأسلوب النداء القريب (أبا هند) هذا الأسلوب الذي تطلقه الذات في بداية النص والذي يوحي بالتحدي والقوة والثبات ، إذ يحاول إيصال معناه إلى قلب المتلقي . والملاحظ أن الذات توجه خطابها نحو الملك ، إنه السلطة العليا في القبيلة، وهو المسؤول عن أخبارها ، يقترن أسلوب النداء بجمل فعلية إنشائية تعتمد النهي والأمر وتنعكس من خلالها الثقة العالية بالنفس واتحادها بالآخر القبيلة ، إذ يُبيّن انصهار الذات بالآخر من خلال ضمير الجماعة (لا تعجل علينا وانظرنا نخبّرك اليقينا) . وبعدها تنتقل الذات إلى ذكر مآثر القبيلة وانتصاراتها ومواقفها المشرفة تجاه أعدائها لكونها " جزءاً من حياة الجاهلية ، فقد توارثوا أخبارها جيلاً بعد جيل وأحاطوها بهالة من التمجيد والتعظيم وأرادوا فيها مصدر فخرهم الكبير ... تناسب والحالة التي يعرضون لها" [23].

ولما كانت الذات تفخر بالآخر القبيلة ، جعلتها ذاتاً جمعية متضخمة بأفرادها الذين هم مصدر قوتها ، يأتي الأسلوب الخبري (وسيد معشر) الموحي بدلالة التضخم، وبالوقت نفسه يوحي بالشعور بالشجاعة والغلبة ذلك الشعور النابع من ثقة النفس ، ثم يأتي الأسلوب الإنشائي المبدوء بالاستفهام الذي يكبر الذات والآخر ويعظمهما معاً ، ونلمح ذلك من خلال البيت الآتي :

متـــى ننقـــلُ إلـــى قـــومٍ رحانـــا يكونـــوا فـــي اللقـــاءِ لهـــا طحينـــا

وتتابع الذات القوة الفاعلة للقبيلة /تغلب الأفعال الواردة في النص التي تعبّر عن إثبات فاعلية القبيلة وقدرتها على إيجاد قرائن تمثلت بالشجاعة والتدمير على النحو التالي : (نورد، نصدر، هرت ... الخ) ولشدة الحقد والضغينة التي تظهرهما القبيلة /تغلب لأعدائها يأتي الشاعر بالظرف (وإن الضعن بعد الضعن) لتوثيق دلالة الحقد التي تطلقه الذات علناً ضد أعداء القبيلة ، إذ تعلن الذات تلاحمها بالآخر القبيلة من خلال توحيد موقفها الرافض لأي تدخل خارجي تأتي بمفردة (نطاعن) لإثبات موقفها الموحد من القبيلة وإصرارها على القتال ، وإبراز شجاعتها وقوتها .

إنَّ الآخر القبيلة كان الأسمى بين الذوات وأهمها ؛ لأنها صاحبة الموقف المهيمن على الأفعال الواقعيّة ، ثم سيطرتها الدلالية جعلها صاحبة الحضور على البنى الصياغية كالضمائر والأفعال ، التي تجعل حضورها ، حضوراً إيجابياً مميزاً، إذ إنَّ ورود الأفعال والضمائر كان متساوياً وموزعاً توزيعاً مثالياً في النص.

ويزداد توحد الذات مع الآخر القبيلة/ تغلب حتى يصل أعلى درجة في الفاعلية ، وذلك من خلال التغني بأمجاد القبيلة وأفعالها التي سجلتها على أعدائها ، ويأتي هذا التغني في قوله :

وقـــدْ علـــم القبائـــل مـــن معـــدٍّ إذا قُبـــبٌ بأبطحهـــا بُنينـــا
بأنّـــا العاصـــمون بكـــلِّ كحـــلٍ وإنّـــا البـــاذلون لمجـــدتينا
وأنّـــا المـــانعون لمـــا يلينـــا إذا مـــا البـــيض فارقـــت الجفونـــا
وأنّـــا المـــانعون إذا قـــدرنا وإنّـــا المهلكـــون إذا أُتينـــا
وأنّـــا المـــانعون لمـــا أردنـــا وإنّـــا النـــازلون بحيـــث شـــينا
وأنّـــا الشـــاربون المـــاء صـــفواً ويشـــربُ غيرنـــا كـــدراً وطينـــا[24]

عند قراءتنا للأبيات نرى أنَّ الذات ، قد ارتبطت مع الذات القبلية ، إذ بدأت تتضخم عبر أسلوب التوكيد (قد) التي لحقها الفعل الناسخ (علم) الدال على اليقين ، المرتبط بالمكان ؛

فهي صاحبة الشأن المتضخم ، ومن المعلوم أن مكان الآخر/القبيلة يقع قرب البيت الحرام ، وهذا يرجع لسمو قدرها ومكانتها المرموقة من بين القبائل ، كما تؤكد الذات قولها السابق المتمثل بعظمة القبيلة عبر الجار والمجرور (من معدٍّ) . ويفهم من سياق الكلام أن حرف الجر (من) جاء لبيان الجنس ، ولأجل ذلك ارتبط بمفردة (معد) .

إنَّ تأكيد الذات عظمة القبيلة ومكانتها وشجاعتها لئلا تدع مجالاً للشك من قبل المتلقي والإقرار بشجاعتها وكرمها الباذخ في أوقات الشدة والرخاء ، فالشعراء الجاهليون " كانوا كثيراً ما يمدحون القبيلة التي يجدون فيها كرم الجوار متحدثين عن عزتها وإبائها وشجاعة أبنائها وما فيهم من فتك بأعدائهم وإكرام لضيوفهم" [25].

وتستمر الذات في ذكر مناقب الآخر وتعدادها ، ويتبين ذلك من خلال الصيغ والتراكيب التي اعتمدها الشاعر والتي عملت في صيغتها التركيبية الموحدة عن إعطاء نغمة الكبرياء والتحدي جرساً ينسجم والنفس الأبيّة التي توحدت عبرها الذات الفردية بالجمعية ، فالصيغ (الفاعلين) الواردة على نحو : العاصمون ، الباذلون ، والمانعون)، التي كررها الشاعر أكثر من مرةٍ ، والمهلكون والنازلون والشاربون ، وكلها صيغ تعكس الطابع النفسي المتعالي، ويلتحم هذا كله بضمير المتكلم الذي ساد قافية الأبيات والذي يوحي بانصهار الذات بالآخر (الجماعة) وتعكس هذه الأبيات سمة الآخر الذي يشعر بضيم ما فعل (أبو هند) [26] الذي يمثل الآخر السلبي.

أما العلاقة الضدية بين الذات الشاعرة ، والآخر/ القبيلة ، تأتي في سياق تهديد الشاعر ووعيده "لأبناء عمومته بترك مسببات الحرب بأسلوب يميل إلى النصح والتروي في معالجة بواعث تكرار وقوعها" [27]، وهي دعوة للسلام ولمّ الشمل وإفشاء روح الإخوة والسلام بين أفراد القبيلة الواحدة بدلاً من تأجيج الروح العدائية والانتقامية القائمة على السلب والنهب مما يؤدي إلى إحياء روح الفرقة والتشتت ، من ذلك نقرأ :

إن نبشتم ما بينَ ملحة فالصا قب فيهِ الأموات والأحياء
أو نقشتم فالنقشِ يجشمهُ النا س وفيهِ الصحاح والأبراء
أوسكتم عنّا فكنّا كمن أغمـ ـض عيناً في جفنها أقذاء

أو منعـــتم مـــا تســـألونَ فمـــن حـــد ثتمـــــوهُ لـــــهُ علينـــــا العـــــلاء

لا يقـــــيمُ العَزيـــــز بالبلـــــد السهـــــ لِ ولا ينفـــــعُ الـــــذليل النجـــــاء

فـــــاتركوا الطـــــيخ والتعـــــدي وأمـــــا تتعاشـــوا ففـــي التعاشـــي الـــداء[28]

توجه الذات الشاعرة ، نقدها اللاذع وغضبها الشديد على الآخر /القبيلة بالابتعاد عن لغة التهديد والوعيد التي تطلقه نحو القبائل الأُخرى ، فتوجه الذات إلى الآخر، عبر أسلوب الشرط الموحي بالألم (إن نبشتم ما بين ملحة فالصاقب) إذ يتبين التركيب اللغوي ، الحقد الدفين الذي يوجهه الآخر لخصوم سابقين وهم (البكريون) ويذكرهم بحروب قد انتهت وذهب مع أدراج الريح مَنْ أشعلها وأوقد نارها ، ولمّا كان الأمر كذلك توجه الذات نصحها محذرة الآخر "بترك مسببات الحرب بأسلوب يميل إلى النصح" [29] والتروي في معالجة بواعث تكرار وقوعها ... " باستحضار معارك سابقة مشيراً لما أفرزته من مآسٍ وويلات، فذكراها قد امتزجت في ذهن الشاعر" [30].

فهذه الزفرات التي تطلقها الذات بوجه/ الآخر جاءت تأكيداً على عمق الموقف وصعوبته بما يحمل من ويلات وكوارث لا تُحمد عقباها ، ولصعوبة الأمر وهول الموقف بين الآخر وخصمه . نجد الشاعر يصل بين الشطرين بـ (أو) التي تفيد الجمع والإباحة ، أما فعل الخير أو الشر ، ثم تنتقل الذات إلى مخاطبة الآخر عبر طريق الحوار الداخلي ، الحوار الناتج عن حرصها على الآخر والخوف عليه من الوقوع في نار الحرب المدمرة التي إذا ما اشتعلت لن تطفئ أبداً ، فتذهب بقوته وإضعافه ثم إذلاله ، ويرفع فيها الضعيف والجبان ، وحسبنا السرد الإخباري الموحي بالصورة المكانية :

لا يقـــــيم العزيـــــز بالبلـــــدِ السهـــــ لِ ولا ينفـــــعُ الـــــذليل النجـــــاء

وهذا إخبار يدلُّ على قلق الذات وخوفها .

بعدها تنتقل الذات إلى الأسلوب الإنشائي المتمثل (بالأمر) الموحي بالرفق واللين ، فتلتمس من الآخر إلى الإصغاء ، والأخذ بطلبها من الاستماع إليها بالنصيحة ؛ لأنَّ خلاف ذلك قد يحدث العكس ، ونلحظ ذلك من قول الحارث بن حلزة :

فـــاتركوا الطـــيخ والتعـــدي وأمـــا تتعاشـــوا ففـــي التعاشـــي الـــداء

وتعيد الذات صيغة الأمر الدالة على الالتماس مرة أُخرى :

وأذكـــروا حلـــف ذي المجـــاز ومـــا قـــدمَ فيـــهِ العهـــود والكفـــلاء [31]

إذ عمّق تعلقها بالآخر/ القبيلة ، لئلا يحدث الشر معها وتذهب عظمتها، فيذكرهم بحلف ذي المجاز الذي عقد بموجبه الصلح بين بكر وتغلب وأخذ عليهم المواثيق [32].

إنَّ من أسباب نشوء العلاقة الضدية بين الذات والآخر في النص المذكور لا لشيء حدث، بل جاءت لإرساء قواعد السلم والأمان بين المجتمعات المتجاورة آنذاك ، فشعر " التهديد والوعيد هي رغبة الشعراء المتدفقة في السلام " [33].

فالشعراء دائماً نجدهم يذكرون القبائل بويلات الحرب والدمار التي تلحق الشعوب المتناحرة ، ولأجل ذلك يطلقون تهديداتهم وتوجيهاتهم لمن يسمعهم رغبةً منهم لتفادي تلك الحروب ، وليعمّ الأمن والسلام في جميع المجتمعات . ولكن نجد عند البعض وجهات نظر مختلفة للحرب ، إذ عدّوها " من سيماء القوة والشجاعة ومن عدم المبالاة بالعدو" [34].

ونحن نعتقد بصحة الحرب من سمات القوة، ولكن العربي بطبيعة الحال كارهٌ لها، فيما إذا فرضت عليه وأرغم عليها ، حينئذٍ يكون محباً لها.

3- الآخر القبيلة/ بكر :

وهي من قبائل قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد من القبائل العدنانية[35].

ويمكن أن نتعرف على العلاقة (الودية) أو علاقة التقارب بين الذات والآخر/القبيلة بكر، عبر أنساقها المتعددة ، ولعلَّ من أسماها وأبرزها نمط التغني بشرف النسب ، والشجاعة ، والكرم ، وما إلى ذلك من القيم الاجتماعية التي أنماز بها العصر الجاهلي ، كما نلحظ صفات أُخرى غير التي ذكرت ، فالعفو والصفح تأتي في مقدمتها ، ولمعرفة أنساق العلاقة الودية نطالع نص طرفة الذي يقول فيه:

ولـــيَ الأصـــلُ الـــذي فـــي مثلـــهِ يُصـــلِحُ الآبـــرُ زرع المـــؤَتبرْ
طيّـــبُ البـــاءةِ سَـــهْلٌ ولهُـــمْ سُـــبُلٌ إنْ شـــئتَ فـــي وحـــشٍ وعِـــرْ
وُهُـــمْ مـــا هُـــمْ إذا مـــا لبسُـــوا نســـجَ داوودَ لبـــأسٍ محتضـــرْ
وتســـاقى القـــوْم كأســـاً مُـــرَّةً وعـــلا الخيْـــلِ دمـــاءٌ كالشـــقِرْ
ثُـــمَّ زادوا أنّهـــم فـــي قـــوْمِهمْ غُفُـــرٌ ذنَـــبُهمْ غيـــرُ فخُـــرْ
لا تعـــزُّ الخمْـــرُ إنْ طـــافُوا بهـــا بســـباءِ الشـــوْلِ والكـــومِ البُكـــرْ
ورثـــوا السُّـــؤدد عـــن آبـــائهم ثـــمَّ ســـادُوا سُـــودَداً غيـــرَ زمـــرْ
نحـــنُ فـــي المشـــتاةِ نـــدعو الجَفَلـــى لا تـــرى الأدبَ فينـــا ينتقَـــرْ
حـــينَ قـــالَ النـــاسُ فـــي مجلِســـهمْ أقتـــارٌ ذاكَ أم ريـــحُ قُطُـــرْ
بجفـــانٍ تعتـــري نادِينـــا مـــن ســـديفٍ حـــينَ هـــاجَ الصَّـــنبّرْ[36]

لا يختلف طرفة عن سابقيه من الشعراء الذين افتخروا بقبائلهم ، ففي النص نرى الذات الشاعرة تندمج ، وتنصهر مع الآخر القبيلة ، فهي فرعٌ من أصلٍ ، لذا نجد القبيلة هي صاحبة السيادة والمؤثرة بقوةٍ وعنفوان ، فالشاعر يعرض ما أنمازت به قبيلة بكر ، كالشجاعة وكثرة خيراتها ، وما تقدمه الذات على الآخر يمثله البيت الآتي :

طيّـــبُ البـــاءةِ ســـهلٌ ولهُـــمْ ســـبلٌ إنْ شـــئتَ فـــي وحـــشٍ وعِـــرْ

إذْ تؤكد الذات رفعةِ هذه القبيلة وسمو شرفها، وعلى الارتقاء المرتبط بالزمان، ففي قوله:

وُهُـــمْ مـــا هُـــمْ إذا مـــا لبسُـــوا نســـجَ داوودَ لبـــأسٍ محتضـــرْ

إذ توحي لفظة نسج داود بالقوة وشدة البأس على عدوهم ، وتذكر على ماضٍ قتالي عريق ، وهو تقليد جاهلي للحسب والنسب العظيم والكثرة العددية .

وتمضي الذات في وصف وشجاعة الآخر/ القبيلة محاولة في بعث رسائل إلى أعداء القبيلة ، ففي قوله :

وتســـــاقى القـــــومُ كأســـــاً مـــــرَّةٌ وعـــــلا الخيـــــلِ دمـــــاءٌ كالشـــــقر

كناية عن عزمهم في تحقيق النصر ، وإصرارهم على وحدة القرار المتخذ وفي الفعل (تساقى) تكمن روح الشعرية ، فبوساطة هذه المفردة استطاع الشاعر أن يوجز المعنى ويجسده من خلال سعيه إلى خلق صورة المشاركة الجمعية في اتخاذ القرار .

ونجد أن المبالغة ، قد اكتنز بها النص ، إذ كانت حاضرة بشكل لافت للنظر، وهو أمرٌ شائعٌ ومعروف عند الشعراء الجاهليين ؛ لأنَّ أغلبهم كانوا فرساناً ويقتحمون سوح القتال ، فتعبيرهم عند الحرب واقع مشهود [37]. وتمضي الذات الشاعرة في المبالغة عن الآخر/ القبيلة ، بوصفها له بالإقدام والصبر وقت الحرب عن طريق أداة العطف (ثم) الدالة على الترتيب مع التراخي في الزمن ، ثم تتبعها بمفردة (سادوا) الموحية بالعفو والصفح عمن أذنب ، كما تذكر الذات أن الآخر قد اكتسب عزّه وورث شجاعته من آبائه وأجداده :

ورثـــــوا الســـــؤدد عـــــن آبـــــائهم ثـــم ســـادوا ســـؤدداً غيـــر زمـــر
نحـــنُ فـــي المشـــتاة نـــدعو الجفلـــى لا تـــــرى الأدب فينـــــا ينتقـــــر

ومن خلال قراءتنا لنصوص شعراء المعلقات العشر ، نجد أن الشعراء اتخذوا من المبالغة سمة طرّزوا بها أشعارهم ، حيث أرادوا بها توثيق حقيقة طبع بها عصرهم أنها أمرٌ مستحب عند بعض الشعراء لتقريب "المعنى على السامع"[38]، وتساعد على الحفظ والقبول عند السامع والمتلقي معاً .

إنَّ كثرة الضمائر في النص ، جعل الآخر صاحب الشأن المهيمن الممتلئ كرماً وجوداً وقوةً ، ونلاحظ أن الذات الفردية كانت متوحدة مع الذات الجمعية ، ويرد هذا في البيت الأول والثاني ، حيث تندمج الذات الشاعرة مع الآخر القبيلة مرة أُخرى في سياق الفخر ، فتذكر الذات خصال القبيلة ، يقول الأعشى :

إنـــي امـــرؤٌ مـــن عصـــبةٍ قيســـيةٍ شـــمَّ الأنـــوفِ غرانـــق أحشـــاد
الـــواطئين علـــى صـــدور نعـــالِهم يمشـــون فـــي الـــدفنى والأبـــراد
والشـــاربين إذا الـــذّوارعُ غوليـــت صَـــفوَ الفضـــالِ بطـــارفٍ وتـــلادِ

والضّـــامنينَ بقـــومهم يـــوم الـــوغى للحمـــدِ يـــوم تنـــازُلٍ وطـــراد
كـمْ فـيهم مـن فـارسٍ يـوم الـوغى ثقـفُ اليـدينِ يهـلّ بالأقصـادِ
وإذا اللقـــاح ترّوحـــت بأصـــيلة رتـــك النعـــامِ عشـــيّة الصَّـــرادِ
جريـــاً يلـــوذُ رباعُهـــا مـــن ضـــرّها بـــالخيمِ بـــينَ طـــوارف وهـــوادي
حجـروا علـى أضـيافهم وشـووا لهـم مـــن شـــطٍ منقيـــةٍ ومـــن أكبـــادِ
وإذا العشـــيرةِ أعرضـــت سُـــلافُها جنفـــينِ مـــن ثغـــرٍ بغيـــرِ ســـدادِ
فلقـــد نحـــلّ بـــهِ ونرعـــى رعيـــه ولقـــد نليـــه بقـــوةٍ وعتـــادِ
نبقِـــى الغبـــاب بجانبيـــهِ وجـــاملاً عكـــراً مراتعـــهُ بغيـــرِ جهـــادِ
ركبـــت إليـــك نزائـــع ملبونـــة قـــبُّ البطـــونٍ يجُلـــن فـــي الألبـــادِ
إذ لا يـــرى قـــيسٌ يكـــون كقيســـنا حســـباً ولا كبَنيـــه فـــي الأولادِ[39]

تتضامن الذات أو الذات الجمعية مع الآخر/ القبيلة، وتؤكد تلاحمها وتضامنها عبر أسلوب التوكيد (إني) الذي يعزز أهمية التوكيد مفردة (امرؤ) ، إذ جاءت نكرة لعظمة هذا التضامن وأهميته والانصهار مع الآخر ، ثم تلاها بمفردة (عصبة) المضافة على مفردة "قيّسية للدلالة على مدى كبر مساحته بينهما ، المرتبط بالظرف المكاني . الملتصق "بالشرف والسيادة ومن ثم عمل أبناؤها في كل عصر على توطيدها ليوصل الماضي بالحاضر والتليد بالطارف"[40] . ولما كانت القبيلة تعطي قيادتها لمن تثق به من أبنائها ، فالسيادة موصلة أشبه ما تكون بالوراثة ، ولا نقصد بالوراثة المعروفة في مفهومنا ، بل الوراثة التي تأتي عن طريق الاختيار لمن تثق به .

إنَّ التضامن بين الذات والآخر /القبيلة في النص ، يظهر من خلال الصورة الحركية الماثلة في قوله : (شم الأنوف) ، فكلمة (شم) تحمل الكبرياء والعظة الناتجة عند صدق التصور، النابع من دافع عصبي لإيجاد أرضية مناسبة ، تليق به وبالقبيلة التي دافع من أجلها وشغل فكره بأمورها ، لكي يرفع من مكانتها وقيمتها الاجتماعية بين القبائل الأُخرى [41].

وتأتي كلمتا (الواطئون ، الشاربون) في البيت ، واللتان جاءتا بصيغة اسم الفاعل لارتباطهما بالذات الجمعية ، مهيمنة على الذات الفردية الشاعرة ، فمفردتا الواطئ والشارب

هما اللتان جعلتا من الآخر متعاظماً متضخماً . والقول: إن الشاعر كان موفقاً في اختيار مفردات قصيدته ، إذ إنَّ إضافة (صدور نعالهم) لم يأتِ بها اعتباطاً، بل أراد من خلالها أن يعظّم الذات الجمعية . فالإنسان الشجاع ، هو الذي يحكم على صدور الجبناء ، فكنّى في (صدور النعال) للإنسان الشجاع القوي . وتستمر الذات في إعلاء شأن الآخر ومكانته ، إذ أضافت إليه صفة أُخرى من الصفات الإنسانية التي أصبح الآخر/القبيلة من خلالها في أسمى مراتب القوة والشجاعة، ولما كان الآخر يحمل المعاني والصفات الرفيعة كلها ، جعلت الذات الشاعرة تستحضر قوة الآخر ومكانته، عبر الأداة (كم) الدالة على التكثير المرتبط بأهمية الآخر ومكانته بين القبائل . وتأتي مفردة (فارس) التي تحمل تأكيد قوة الآخر وسطوته لما حققه من انتصارات متلاحقة على القبائل التي نازلته في سوح القتال.

وتتابع الذات الفردية تأكيدها الفخر القبلي ، من خلال أسلوب الشرط بوساطة الظرف الزماني (وإذا اللقاح تروحت) ، فالأداة (إذا) التي جاء بعدها فعل حتمي الحدوث. ولشجاعة القوم عمدت الذات إلى تشبيه الآخر بالغيم الذي يملأ السماء ، دليل على عطائه المستمر.

إنَّ تضخم الآخر/القبيلة من لدن الذات ، كان موفقاً صادقاً، لم يأتِ من أجل مكاسب مادية ، بل هي " مآثر استطاعت قيس أن تحققها في الجاهلية بفضل مواقف مشهودة جعلها تتربع على سدة الشرف والسيادة " [42]، فضلاً عن التصوير الرائع الذي جعلهم سادةً أشرافاً، وصفتهم أشداء ثائرون ناقمون إذا ما دعتهم العشيرة، لئن ترفع من الروح الحماسية الوثابة ، التي لا تبرد بحسب الأفعال الماضية والمضارعة صاحبة الفاعلية المهيمنة.

أما عن العلاقة الضدية بين الذات والآخر/القبيلة ، يقول الأعشى :

مـــا بـــينَ عانـــةَ والفـــراتِ كأَنّمـــا ... حَـــشَّ الغُـــواةُ بهـــا حريقـــاً مُوقـــدا
لســـنا كمـــن جَعَلـــتْ إيـــادٌ دارهـــا ... تكريـــتَ تنظـــرُ حَبّهـــا أن يُحصـــدا
قومـــاً يُعـــالجُ قُمّـــلاً أبنـــاؤهم ... وسلاســـلاً أُجـــداً وبابـــا مؤصـــدا
جَعَـــلَ الإلـــه طعامَنـــا فـــي مالنـــا ... رزقـــاً تضَـــمنَهُ لنـــا لـــن ينفـــدا
مثـــلَ الهضـــاب جَـــزارة لســـيوفنا ... فـــإذا تُـــراعُ فإنهـــا لـــن تُطـــرَدَا[43]

فهذه الأبيات تعكس نقداً واضحاً لاستكانة قبيلة (إياد) التي اضطرها موقعها في أطراف الجزيرة إلى ممالاة الفرس فينفيهم عن العرب ويشبههم بالأنباط ويتهكم بهم ، لأنهم يعتمدون في

حياتهم " الزراعة لا الفروسية والقتال ، فهم ليسوا كقومه كرماء يقدمون الذبائح للضيوف ، والشاعر هنا يهاجم كسرى حين أراد من قومه الرهائن ، ويأتي بعد إغارة الحارث ابن وعلة على بعض السواد ، ولهذا يتوعده بحرب حريقها بين عانة والفرات ، لقد تضمن النص علاقات إيجابية وسلبية بين ذات الشاعر والقبيلة ، فهو حين يعلن قوله:

ولســـنا كمـــن جعلـــت إيـــاد دارهـــا تكريـــت تنظـــر حبّهـــا أن يحصـــدا

وحين يعلن كرم قومه (جعل الإله طعامُنا في مالنا) فإنه يعكس علاقة الود والانصهار بين الذات الشاعرة والآخر/ القبيلة ، ولكنه ما إن يتحدث عن (إياد) حتى يخاصمها خصام المحب الذي يرى ذلها أمام الأعجمي الذي استلب حريتها .

فالذات توجه سهاماً قاتلة للآخر ، حين تصفهم بالمتقاعسين عن عملهم بالزراعة، إذ كان الآخر مسلوب الإرادة والفكر من لدن الذات الفردية ، كما كان ممتلئاً من ذي قبل بالأفعال المذمومة . ومن الفعل المضارع (يعالج) تظهر حالة الاستسلام والخضوع واضحة ، بينما تظهر الذات في حالة الرفض والتضخم بعظم الخصال الكريمة وجليل الفِعال ، وكأنَّ الله سبحانه وتعالى قد خصّهم بذلك ، ومن ذلك قوله : (جعل الإله طعامنا في مالنا) .

إنَّ الأفعال السلبية قد أسندتها الذات إلى الآخر/ القبيلة ، تأكيداً منه للرفض ، فهي أفعال تتسم بالاحتقار والإهانة للآخر عمداً منه والأفعال نحو (يعالج، تنظر) فالصور الشعرية التي أسندت للذات كلها تمتلئ تضخماً وعنفواناً ، فهي صور جميلة نحو (مثل الهضاب جزارة لسيوفنا) بينما الصور الشعرية التي وصفت الآخر ، كانت صوراً ذميمة قاصرة نحو (قوماً يعالج قملاً أبناؤهم) وحسن أن يصف الآخر بهذه الصور الرائعة التي تدلُّ على التقاعس والضعف في مواجهة الحياة . وعندها نقول إن العلاقة بين الذات والآخر/القبيلة ، كانت علاقة ضدية رفضاً للآخر.

وتستمر الذات في علاقتها المخالفة للآخر/ القبيلة، إذ تعلن الذات ابتعادها عن الآخر غاضبة ثائرة متوعدة خصومها بالقتال وعدم الصلح ما دامت تضمر له العداء والضغينة ، فهذا الأعشى الكبير يتجه إلى أبناء عموته (بني جحدر) ليصور ما بين الحيين القريبين من علائق

لا يسودها الوئام ، ولهذا نجد فيها روح العنف والغضب ، والشاعر يصرّح في بداية قصيدته بأنه أُصيب بـ (موازيّ) [44]أي أُمور جليلة عظيمة ويصرّح عنها :

مصـــــارعُ إخـــــوانٍ وفخـــــرُ قبيلـــــةٍ علينـــا كأنّـــا لـــيسَ منّـــا قبيلُهَـــا[45]

ويدعو في قصيدته إلى الاحتكام للحق :

نعـــــاطيكم بـــــالحقِّ حتـــــى تبيّنـــــوا علـى أَيِّنـا تُـؤدي الحقـوقَ فضـولُها[46]

ثم يتعالى إصراره على الحق ويمتلك زمام غضبه مُعلناً أنه ليس بحاجةٍ لهؤلاء الخصوم من بني جحدر ومازن ، إذ إن (شيبان) هم نصرته على الحق :

رعـــــالاً كأمثـــــال الجـــــراد لخـــــيلهم عكـــوبٌ إذا ثابـــت بطـــيءٌ نزولهـــا[47]

بعدها يهدأ ويثور معبّراً عن ذاته خير تعبير :

فـــــأنّي بحمـــــدِ اللهِ لـــــم افتقـــــدكم إذا ضـــــمَّ هَمامـــــاً إلـــــيَّ حُلُولهـــــا
أجـــــارُتكُمْ بســـــلٌ علينـــــا محـــــرّمٌ وجارتُنـــــا حِـــــلٌّ لكـــــم وَحَليلُهَـــــا
فَـــانَّ كـــانَ هـــذا حُكْمُكـــم فـــي قبيلـــةٍ فـــأنْ رضـــيتْ هـــذا فقـــلَّ قليلُهـــا
فـــــأنّي وربِّ الســـــاجدينَ عشـــــيّة ومـــا صـــكّ نـــاقوس النصـــارى أبيلُهـــا
أصـــــالحكُمْ حتـــــى تبُـــــوؤا بمثلهـــــا كصـــــرخةِ حُبلـــــى يسَّـــــرتْها قبُولُهـــــا
تنـــــاهيتُمُ عنّـــــا وقـــــد كـــــانَ فـــــيكُمُ أســـــاوِدُ صـــــرْعى لـــــم يُوسّـــــد قتيلُهـــــا
ولسْـــــنا بـــــذي عـــــزٍّ ولسْـــــنَا بكُفئِـــــهِ كمـــــا حدّثَتْـــــهُ نفسُـــــها ودخيلهـــــا
ويُخْبـــــرُكم حُمْـــــرانُ أنَّ بناتنـــــا ســـيُهْزَلْنَ إن لـــم يرفـــع الـــعِيَرَ ميلُهـــا
فَعِيـــــرُكُمُ كانـــــت أذَلَّ وأرْضُـــــكُمْ كمـــا قـــدْ عَلِمْـــتُم جَـــدْبُها وَمُحُولُهـــا [48]

وتستمر الذات الشاعرة في العلاقة الضدية مع الآخر/القبيلة ، إذ تبدأ خطابها إلى الآخر عبر أسلوب التوكيد (فإني بحمد الله) فالأداة (إنَّ) تؤكد مضمون الجملة ، بالانفصال عن الآخر ، تأخذ الذات بإطلاق تأكيدها عبر الأداة (إذا) الداخلة على الفعل الماضي المرتبط بالمكان وتخفيف لهجتها المتشنجة [49]عبر أسلوب الاستفهام (أجارتكم) هذا الأسلوب الدال

على حصول شيء، وجعلت الذات تستعطف الآخر ، ووضعه بعين الاعتبار ، فتمنيه عدم إراقة الدم .

ويأتي الشاعر بالوصل بين الشطرين بالواو العاطفة تناسباً بين الذات والآخر القبيلة ، فقد جاء بصيغة الاستفهام باستعمال الهمزة دلالة على الشعور بالخوف الذي يمنح الحرمان الدال على الضعف والوهن المسيطرين على نفسية الذات من الآخر . مما أدى إلى أن تقوم الذات بطرح السؤال من خلال الثنائية الضدية (الحلال والحرام) ، الموحي بالتشاؤم الذي يمنح اللون الأحمر الدال على الدم ولكن الذات عندما تأتي بمفردة (جارتنا) لا تقصد ذاتاً أُخرى سوى نفسها ثم تأتي مفردة (جارتكم) وتقصد من ورائها الآخر/ القبيلة .

إنَّ الذات في البيت الأول كانت هي صاحبة الفعل الشعوري المتضخم ، في حين نرى في البيت الثاني أنَّ الذات الآخر هي صاحبة الفعل الشعوري المتضخم ، حينئذٍ نجد توازناً بين الذات والآخر . ولكن نفهم من النص أنَّ الذات فيما بعد أخذت تُعيد تضخمها مرة أُخرى، وهذا ما نلمحه في البيت الثالث ، وبوساطة أداة الشرط (إن) إذ ترفض الخضوع للآخر .

وتنتقل الذات الشاعرة إلى القسم الذي يريد به تأكيد الكلام وإثباته ، لأنَّ الفائدة من التوكيد " تحقيق الجواب عند السامع وتأكيده ليزول عنه التردد فيه " [50]حتى لا يشك الآخر بكلامه أو بعدم رضائه بحكم الذل ، والذات كانت تريد أن تفصح عمّا في نفسها بأنها لا تقبل بهذا الحكم حتى أن رضيت به غيرها ، فتطلق زفرات الحرب عبر تهديدها ، فإذا ما اشتعلت لا تنطفئ ، ففي البيتين الرابع والخامس ، نجد أن الذات تصب جمّ غضبها وانتقامها إلى حد التهكم والسخرية بحق الآخر، مما تؤكد ضعف العلاقة التي تفضي إلى الانفصال ، وهذا ما دلّت عليه البنى اللسانية (لم افتقدكم) الواقعة في صدر البيت الأول التي نفيها نفيٌّ أبدي بـ (لم) وغايتها الإثبات والتأكيد على مقاطعة الآخر ، والتقليل من قدرته لئلا تعطيه أهمية وتحطّم نفسيته ، إذ ظهرت الذات فاعلاً من خلال مفردة (افتقدكم) فيما ظهر الآخر القبيلة مفعولاً به بالضمير (كم) ثم تأتي الجملة الاسمية في البيت الرابع في شن الحرب المفتوحة التي لا تنطفئ . ويسوقنا الحديث عن الآخر/القبيلة إلى الآخر التراثي . الديني ، إذ جاء القسم بالتقليد النصراني المعروف في قرع النواقيس من قبل الرهبان وربِّ الساجدين ، وتُعدُّ صرخة الحبلى حين تعينها القابلة في المخاض من قُبيل الآخر الاجتماعي الذي وظفه الشاعر في عدم مصالحتهم حتى يبوؤا بمثل جنايتهم وبغيهم .

إنَّ الصورة الشعرية التي جاءت بها الذات الشاعرة ، كانت صورة حية مثلت خسّة الآخر الذي لم يكن غيوراً ودناءته. ويبدو من النص أنه لم يكن هدفه بالدرجة الأولى هجاء القبيلة/ تغلب وذمها بقدر ما كان يستهدف بني (جحدر).

نتائج البحث

يعد شعر ما قبل الاسلام ارض خصبة وفتية يمكن معها تطبيق العديد من المناهج النقدية الحديثة , وهذه الدراسة تسعى الى الوقوف عند الاخر الذي يربط الذات مع الاخر / القبيلة.

نلاحظ في إطار علاقة الاتصال التي تحدث بين الذات والأخر / القبيلة يظهر في الأعم الأغلب أن الأخر هو صاحب الدلالة . ويطالعنا طغيان النرجسية عند الذات في بعض النصوص مما يدعوها إلى التميز والانفصال عن الذات الجماعية , وفي هذه الحالة تصبح القبيلة أخرا بالنسبة للذات الفردية.

وفي إطار العلاقة الضدية التي تحدث بين الذات والأخر, نلاحظ أن الذات هي صاحبة الحضور ونقطة الانطلاق ومحور الدلالة , في حين يتجلى الأخر اقل حضورا ضعيفا منتهكا من قبل الذات .

وفي قولنا انفصال الذات عن الأخر / القبيلة لا نعني به الانفصال الأبدي (القطيعة) إلا في بعض المواقف التي تكاد تكون قليلة نادرة وان حصل ذلك فسرعان ما ترجع الأمور كعادتها السابقة . وعلية نجد أن الانفصال الذي يحدث بين الذات والأخر / القبيلة قد يكون دافعا من دوافع القوة والصلابة التي تمنح الذات ثقتها العالية بالنفس في مواجهة مصاعب الحياة , كما يمنحها إحساسا عميقا تجاه الأخر يختلف عن إحساسها السابق.

نجد في بعض النصوص أن انفصال الذات عن الأخر قد يحدث لأجل الحفاظ على المصلحة العامة للأخر / القبيلة , وهذا ما يستدعي الأخر عدم سماع النصح من قبل الذات ويطالعنا هذا في نصوص الحارث بن حلزة في إرساء قواعد السلم والأمان بين المجتمعات المتجاورة آنذاك.

هوامش البحث :

(1) يُنظر: شعر الجاهلية وشعراؤها ، د. قصي الحسين : 16 .

(2) الأدب العربي من ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الراشدي ، دراسة وصفية نقدية ، د. حبيب مغنية : 26.

(3) يُنظر: النابغة الذبياني مع دراسة القصيدة العربية الجاهلية ، د. محمد زكي العشماوي : 117.

(4) صورة الآخر في الشعر العربي الأُموي إلى نهاية العصر العباسي ، د. سعد فهد الذويخ: 8.

(5) معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، د. عمر رضا كحالة : 21/1.

(6) يُنظر: الشعر والشعراء ، ابن قتيبة : 39/1.

(7) ديوان عُبيد بن الأبرص : 98. بني دودان : قبيلة الشاعر فخذ من بني أسد . المأقط : المأزق ، وهو مضيق الحرب . جاولت من خلفه : طاردت ودفعت . الذبل : القنا اليابس . الناهل : العطشان إلى دمائهم . قسطلة : الغبار . ذائل : طويل . الحائل : التي يأتي عليها حول ولم تحمل .

(8) شعر بني أسد في الجاهلية ، دراسة فنية ، د. أحمد موسى الجاسم : 18.

(9) يُنظر: عناصر الإبداع الفني في شعر أحمد مطر ، كمال أحمد غنيم : 271 .

(10) تمثيلات الآخر في أدب ما قبل الإسلام ، د. فاطمة المزروعي : 36.

(11) دراسات في الشعر الجاهلي ، د. يوسف خليف : 174.

(12) ديوان عُبيد بن الأبرص : 123. الثقاف: آلة تقويم الرماح . القناة : الرمح . حالت : تحولتْ وانقلبتْ. الحقيقة كل ما يحقق على الإنسان أن يحميه . الجار: كل ما يلجأ إليك . نلفُ : نجمع ونضم .

(13) ديوان النابغة الذبياني : 127 . استلأمتُ : لبستُ اللأمة وهي الدرع ، النَّسار : موضع كانت فيه وقعة.المجن : الترس . الجفار: موضع . يوم عكاظ : يوم كانوا فيه مع قريش . الخميس : الجيش . رحيب السرب : واسع. المرحَجِن : الثقيل .

(14) يُنظر: التكرير بين المثير والتأثير ، عزِّ الدين علي السيد : 171.

(15) ديوان امرئ القيس : 119 وما بعدها , دودان: قبيلة بني أسد . سلكى: طعنة مستقيمة حيال الوجه. المخلوجة : يمنّه ويسرّه . لفتك : أي ردك وعطفك اللأمان: سهمان . غير مستحقب إثماً من الله : أي غير مكتسبة ولا محتملة . الواغل : الداخل على القوم يشربون ولم يُدعَ .

(16) يُنظر: النرجسية في أدب نزار قباني ، د. خريتو نجم : 369.

(17) جدلية القيم في الشعر الجاهلي ، رؤية نقدية معاصرة ، د. بوجمعة بوبعيو: 17 .

(18) ديوان زهير بن أبي سُلمى : 305 وما بعدها . بني نوفل : من بني أسد وهم رهط الحارث بن ورقاء. الحفيظة : الغضب . يسار: غلام زهير . لا تناظره : أقتله ولا تأخره . غوائله: خبائثه. أولى لكم : تهدد .

(19) يُنظر على سبيل المثال : ديوان امرئ القيس : 117، 198، 210، 213، 348، وديوان النابغة : 104، 153، 211، وديوان الأعشى : 61، 113، 305، 355، وديوان طرفة : 97، 171. وديوان عُبيد : 48، 62، وديوان عمرو بن كلثوم: 44، 67.

(20) يُنظر: صورة الآخر في التراث العربي ، د. ماجدة حمودة : 10.

(21) يُنظر: الاشتقاق : 261/2، ومعجم قبائل العرب القديمة والحديثة : 120/1.

(22) ديوان عمرو بن كلثوم : 26 وما بعدها . المحجرين: الذين ألجئوا إلى الضيق . ذو طلوح: في حزن بن يربوع بين الكوفة وفيد . الصفون : الخيل القائم على ثلاثة . الثفال : خرقة تجعل تحت الرحى ليسقط الطحين عليها . اللهوة : القبضة من الطعام تلقى في الرحى . الأحفاض : الإبل التي تحمل المتاع . الضغن : الحقد الدفين المستتر في القلب .

(23) أيام العرب في الجاهلية وأثرها في الشعر الجاهلي ، د. منذر الجبوري : 84.

(24) ديوان عمرو بن كلثوم : 36 وما بعدها.

(25) تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي ، د. شوقي ضيف : 21.

(26) يُنظر : ديوان عمرو بن كلثوم : 23، وهو أن عمرو بن كلثوم قام بهذه القصيدة خطيباً فيما كان بينه وبين عمرو بن هند أيام الموسم في سوق عكاظ ، ثم زاد عليها وضمنها ما جري بينهما أثر محاولة أم عمرو بن هند عمل أم عمرو بن كلثوم على خدمتها ، مما أدى إلى بطش عمرو بن كلثوم بعمرو بن هند ، فكان نتاج هاتين الحادثتين هذه القصيدة.

(27) البناء الفكري والفني لشعر الحرب عند العرب قبل الإسلام ، د. سعد الجبوري : 43.

(28) ديوان الحارث بن حلزة : 11. الطبخ : الكلام القبيح . الصاقب : المكان القريب ، ابن منظور : مادة صقب.

(29) البناء الفكري والفني لشعر الحرب عند العرب قبل الإسلام : 43.

(30) المصدر نفسه : 44.

(31) ديوان الحارث بن حلزة : 13.

(32) يُنظر: شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري ، ضبطه وعلّق عليه : بركات يوسف هبود: 389.

(33) البناء الفكري والفني لشعر الحرب عند العرب قبل الإسلام : 43.

(34) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، د. جواد علي : 434/5.

(35) يُنظر: الاشتقاق : 261/2، ويُنظر: فجر الإسلام : 21.

(36) ديوان طرفة بن العبد: 57 وما بعدها . الأبر : المصلح للشيء والقائم عليه ، والمؤتبر : المستدعي إلى الصلاح ، وأكثر ما يستعمل الآبر في النخل . طيب الباء : أي ساحتهم لمن أراد معروفهم وهي وعرة لمن أرادهم بسوء . الباءة : الساحة والفناء . والوحش : المتوحش وهو كناية عن خشونة الجانب وشدته . الشقر : شقائق النعمان ، وقال الأصمعي هو شجر له ثمر أحمر . السباء : شراء الخمر ، يقال سبأت الخمر إذا اشتريتها . الشول: جمع شائلة وهي التي أتى عليها من نتاجها ستة أشهر أو سبعة. الزمر: القليل . القتار : رائحة اللحم إذا شوى . والقطر : العود الذي يتبخر به .

(37) يُنظر: الشعر الجاهلي ، خصائصه وفنونه ، د. يحيى الجبوري : 177.

(38) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : 86/2.

(39) ديوان الأعشى : 131. الغرانق : الشاب الأبيض الناعم الجميل . يُنظر: اللسان ، مادة غرنق. الدفني: ضرب من الثياب ، وقيل: الثياب المخططة : اللسان ، مادة دفن . الذوارع : البقرة الوحشية . يُنظر: اللسان ، مادة ذرع . الفضال : الخمر . الطارف: المستحدث. الرتك: مشية فيها اهتزاز ، اللسان ، مادة(رتك) . القراد : سحاب بارد تسفره الريح . يُنظر: اللسان ، مادة (قرد) . النزائع : الخيل أو الإبل التي انتزعت من أيدي الغرباء : اللسان ، مادة نزع .

(40) الأعشى الكبير ، ميمون بن قيس ، شاعر اللذة والحياة ،دراسة وتحليل ، د. مفيد قميحة: 92.

(41) يُنظر: المصدر نفسه : 92.

(42) المصدر نفسه : 92.

(43) ديوان الأعشى : 231.

(44) يُنظر: البيت الخامس من القصيدة : 175.

(45) ديوان الأعشى : 175.

(46) المصدر نفسه : 175.

(47) المصدر نفسه : 175.

(48) المصدر نفسه : 175 وما بعدها .

(49) يُنظر: المصدر نفسه : 176. الأبيل : الراهب . العِير : الإبل لا واحدة لها من لفظها .

(50) البرهان في علوم القرآن ، للزركشي : 274/2.

المصادر والمراجع

1- الأدب العربي من ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الراشدي ، دراسة وصفية، د. حبيب مغنية ، دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر ، 2007م.

2- الاشتقاق ، لأبي بكر محمد بن الحسين بن دريد ، تحقيق عبد الله محمد هارون ، الخانجي ، مصر .

3- الأعشى الكبير ميمون بن قيس ، شاعر اللذة والحياة ، دراسة وتحليل ، د. مفيد قميحة ، دار الآفاق الجديد ، بيروت ، ط1، 1417هـ . 1997م.

4- أيام العرب في الجاهلية وأثرها في الشعر الجاهلي ، منذر الجبوري ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، 1394هـ . 1974م.

5- البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت 794هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، البابي الحلبي ، ط2، (د.ت).

6- تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي ، السباعي بيومي ، مكتبة النهضة المصرية ، (د.ت) .

7- التكرير بين المثير والتأثير ، د. عز الدين علي السيد ، عالم الكتب ، 1338هـ . 1978م.

8- تمثيلات الآخر في أدب قبل الإسلام ، د. فاطمة احمد المزوعي ، أبو ظبي للثقافة والتراث ، 1428هـ . 2007م .

9- دراسات في الشعر الجاهلي ، د. يوسف خليف ، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة ، (د.ت) .

10- ديوان الأعشى الكبير ، ميمون بن قيس ، شرح وتعليق : د. محمد محمد حسين ، مكتبة الآداب بالجماميز .

11- ديوان الحارث بن حلزة ، أعاد تحقيقه : هاشم الطعان ، مطبعة الرشاد ، بغداد ، 1969م.

12- ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر ، ط2، 1985م.

13- ديوان امرئ القيس ، تحقيق : محمد أبو الفضل ، دار المعارف ، مصر ، ط3.

14- ديوان زهير بن أبي سُلمى ، صنعة الإمام أبي العباس أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني ، ثعلب ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1384هـ . 1964م .

15- ديوان طرفة بن العبد البكري مع شرح الأديب يوسف الأعلم الشنتمري ، اعتنى بتصحيحه : مكس سلغسون ، طبع في مدينة شالون على نهرتسون بمطبع برجراند

16- السبع معلقات مقاربة سيميائية أنثروبولوجية لنصوصها ، عبد الملك مرتاض، منشورات اتحاد الكتّاب العرب ، دمشق ، 1998م .

17- شعر الجاهلية وشعراؤها ، د. قصي الحسين ، المؤسسة الحديثة للكتاب ، طرابلس . لبنان ، ط1، 2006م .

18- شعر بني أسد في الجاهلية ، دراسة فنية ، أ.د. أحمد موسى الجاسم ، دار الكنوز الأدبية، ط1، 1995م .

19- الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، دار إحياء العلوم، بيروت ، ط2، 1406هـ . 1986م .

20- صورة الآخر في التراث العربي ، د. ماجدة حمودة ، الدار العربية للعلوم ، (د.ت) .

21- العمدة في محاسن الشعر ونقده ، أبي الحسن بن رشيق القيراني ، ، قدّم له وشرحه وفهرسه : د. صلاح الدين الهواري ، أ. هدى عودة ، منشورات دار ومكتبة الهلال ، 2002م .

22- عناصر الإبداع في شعر أحمد مطر ، د. كمال أحمد غنيم ، منشورات ناظرين ، ط1، 1425هـ . 2004م .

23- معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، عمر رضا كحالة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط8، 1418هـ . 1997م .

24- النابغة الذبياني مع دراسة القصيدة العربية الجاهلية ، د. محمد زكي العشماوي ، الكويت، ط2، 2009م .

أثر كف البصر في إغتراب الشعراء سبط ابن التعاويذي أنموذجاً

م.د. عيسى محسن و م.د. آيات عبد جوني
قسم اللغة العربية /كلية الآداب/ الجامعة المستنصرية

الخلاصة

يؤدي فقدان البصر الى نتائج سلبية تؤثر في نفسية الانسان، ويشكل الاغتراب بأنماطه المتعددة اهم هذه النتائج، فإذا أضفنا الى كف البصر سوء الاوضاع الاقتصادية والسياسية والوضع الأسري المفكك علمنا الوضع المأساوي الذي يصل اليه الكفيف، فكيف يكون الحال إذا كان هذا الكفيف شاعرا مُجيدا كابن التعاويذي (ت 584هـ) الذي يذكر مترجموه ودارسوه أنه ليس هناك من يضاهيه في عصره.

لقد أدى كف البصر بابن التعاويذي الى انماط متعددة من الاغتراب منها الاغتراب السياسي حيث انقلب عليه مادحوه من الساسة واصحاب المناصب ولم يعيروه اهتماما بعد عقود من المدح الذي رفع من شأنهم وأدخلهم التاريخ من اوسع أبوابه، واغتراب اجتماعي تمثل بنأي أصحابه عنه وتغيرهم بعد مصابه، وأسوء من هذا قلب عائلته ظهر المجن له وشدة جشعهم وطمعهم، واغتراب زماني يمثل تغير رؤية الشاعر للزمن والدهر باتجاه السوداوية المطلقة وهي نتيجة منطقية لاجتماع نمطي الاغتراب السابقين .

المقدمة:-

يُلحق كف البصر ضرراً فادحاً بالإنسان ويلقى بظلاله على نفسيته ورؤيته للحياة وينعكس غالباً على نمط تعاملهِ مع الناس، ويصبح الضرر أكثر فداحة إذا كان فاقد البصر هذا شاعراً كبيراً يمتلئ بالأحاسيس المرهفة كسبط بن التعاويذي[1]. فقد قيل فيه أنَّهُ (شاعر وقته، لم يكن فيه مثله، جمع شعره بين جزالة الألفاظ وعذوبتها ورقة المعاني ودقتها، وهو في غاية الحسن والحلاوة، وفيما اعتقده لم يكن قبله بمائتي سنة من يضاهيه) [2]. وأن (شعره روضة غنَّاء من رياض الشعر العراقي بلغ فيه الفن الشعري الصناعي غايته القصوى) [3].

وقد بينت بعض الدراسات النفسية ان لفقدان البصر تداعيات كبيرة، كون المكفوفين أكثر تعرضاً للإصابة بالإضطرابات النفسية من المبصرين، وان درجة تكيفهم الاجتماعي أقل من المبصرين، وأنهم يعانون جموداً في سلوكهم بسبب عوامل نفسية أكثر منها عضوية[4]، ومن الآثار الأخرى لكف البصر ضعف الثقة بالنفس وضعف الشعور بالطمأنينة والأمن التي تؤدي الى التمحور حول الذات والشعور بالأنانية والنرجسية، ومنها ارتفاع مستوى الإحباط والإنطواء والكآبة

نتيجة تأخر أو ضعف أو عدم إشباع الحاجات الأساسية وتحقق الرغبات والطموحات الشخصية، ومنها أيضاً سرعة الغضب والعدوانية وازدياد الشكوك والأوهام والاستغراق في احلام اليقظة، وعدم المبالاة بالآخرين[5]. أما الذكاء فلا يختلف فيه المكفوف عن المبصر إلا في نسبة قليلة وغير ملحوظة[6].

ويضطر المكفوف الى طلب العون من أسرته أو المقربين اليه كي يستطيع قضاء حوائجهِ مما يؤثر في علاقاتهِ مع محيطه وهو ربما يتخذ موقفاً مغايراً برفض هذا العون، ويؤدي كلا الموقفين – قبول العون أو رفضه الى عدم التكيف أو العزلة الاجتماعية[7]. إذ تعد البيئة الأسرية العامل الحاسم في زيادة الضغوط على المكفوف أو نقصانها[8]. ولم تتوافر لشاعرنا تلك البيئة الاسرية الصالحة التي تخفف وطأة مصابه إذ لم يجد من أهلهِ الا الطمع والمصلحة الآنية[9].

ان الذين يشعرون بالعزلة يتميزون بعدم التأكد من الأمور، والتشاؤم المُبالغ فيه من المستقبل، وعدم الثقة التي تصل الى حد الشك، والسخرية من دوافع الآخرين، وأنهم يجدون صعوبة في بناء علاقات قوية مع مجتمعاتهم، ويشعرون بأنهم لا يقومون بأي دور في محيطهم، ويهيمن عليهم شعورٌ برفض الآخرين لهم[10].

يقول ابن التعاويذي:– [الطويل]

أَلاَ مَنْ لِمَسْجُونٍ بِغَيْرِ جِنَايَةٍ	يُعَدُّ من المَوتى وما حانَ يومُهُ
يُرَوِّعُهُ عندَ الصَّباحِ انتِباهُهُ	وَطُوبَى لَهُ لَوْ طَالَ وَامْتَدَّ نَوْمُهُ
جَفاهُ بلا ذنْبٍ أتاهُ صديقُهُ	وأسْلَمَهُ للهَمِّ والحُزنِ قَومُهُ[11]

إنَّ التداعيات التي يمر بها المكفوف تفتح الباب مهيعاً أمام الاغتراب بمختلف أنماطهِ، ومما يدعم ما نذهب اليه هنا ما توصل اليه باحث اجتماعي معاصر من ان مفهوم الاغتراب يتألف من خمسة توجهات متشابكة هي:- التركيز على الذاتية وعدم الثقة والتشاؤم والقلق والاستياء[12].

ويذهب بعضهم الى القول ان مفاهيم كالعزلة والعجز وعدم الانتماء هي من ضمن خمسة مفاهيم مختلفة للإغتراب فضلاً عن فقدان المعايير وغياب المعاني، فالعزلة الاجتماعية هي أوضح الابعاد الاغترابية حيث ينفصل الفرد عن مجتمعه، ويشعر بافتقاده للصلات الاجتماعية مع واقعهِ. أما الشعور بالعجز فهو يعني ان المرء يشعر أنه لا يستطيع ان يؤثر في المواقف الاجتماعية التي يواجهها، ومن ثم لا يستطيع ان يقرر مصيره، أو التأثير في مجرى الأحداث، او صنع القرارات المهمة التي تخص حياته ومصيره، ويمكن ان يدخل في هذا الاطار العجز الفسيولوجي وما يحدثه من أثر عميق في ذات الفرد، واما عدم الانتماء فإنه يشمل مرحلة أكثر عمقاً وقسوة يشعر فيها الفرد بعدم قدرته على التواصل مع نفسه، وشعوره بالانفصال عما يرغب في ان يكون عليه. وبين احساسه بنفسه في الواقع، أما فقدان المعايير فهي الانفصال بين اهداف الفرد وغاياته الذاتية التي يحيا من اجل

تحقيقها، وبين قيم المجتمع ومعاييره، وفيما يخص غياب المعاني فإنها تعني ان الفرد يرى الحياة بلا معنى، لكونها تسير وفق منطق غير معقول ولذلك فإنه يعيشها دون مبالاة[13].

ان ما شهده عصر ابن التعاويذي من اضطراب سياسي أيام السلاجقة[14]. وما بعد ذلك[15] أدى الى انعدام الأمن وتردي الأحوال الاجتماعية والاقتصادية[16]. وسيادة اتجاهات دينية وفكرية متشددة ادت الى قمع الحريات الفكرية والثقافية[17]. مما أدى في النهاية الى تدهور خطير في طبائع المجتمع واخلاقياته – ولاسيما طبقة العامة – فمال الى الوصولية والتملق والرياء وتغليب المنافع الشخصية[18]. فيما التجأ الكثير من افراد المجتمع الى التصوف؛ كسلاً وتراخياً أو هروباً من الواقع المعيشي المزري أو طلباً للثراء والمناصب حتى غدا المتصوفة طبقة اجتماعية لها وزنها وتأثيرها في المجتمع[19]. ان ذلك كله يدفعنا الى القول بأنَّ ابن التعاويذي عاش – بعد كف بصرهِ – تجربة اغترابية فريدة ومؤلمة وحادة مع اننا لا ننكر انه عايش الاغتراب بمختلف انماطهِ حتى قبل فجيعته ببصره[20]. الا ان التجربة الاغترابية تعمقت لديه بعد كف البصر والتداعيات التي نتجت عنه كما سنرى لاحقاً.

مفهوم الإغتراب

ان ما تقدم من كلام عن مفهوم الاغتراب لا يشكل إلا النزر اليسير من تعريفات كثيرة ومتنوعة لهذهِ الظاهرة التي ازداد الاهتمام بها كثيراً في العصر الحديث، بل اصبحت موضوعاً محورياً تشترك فيه العلوم الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والفلسفة والأدب، ولكن الاغتراب حتى مع هذا الاهتمام الواسع – لا يزال مصطلحاً غامضاً يندر ان يتفق الباحثون على تحديده، وربما كان تشعبه في هذهِ العلوم كلها سبباً في غموضه[21]. ويؤخذ بنظر الاعتبار هنا ان لكل مصطلح تطوراً تاريخياً، حيث يبدأ بسيطاً ثم يتطور ويستعمل في حالات أوسع واكثر دقة، وان كثيراً من المصطلحات التي تستقر دلالياً في زمن ما، تجد لها تجليات عمليه في ممارسة ما او ظاهرة تكون قد سبقت تداول المصطلح او جاءت بعد ظهوره من دون ان تكون هناك معرفة بها أو بتسميتها[22]. ولا يستطيع الباحثان الاحاطة بكل ما كتب عن الاغتراب نظراً لكثرته وتشعبه وسنقتصر على اهم ما كتب فيه[23].

يعود الاصل اللغوي للفظ الاغتراب الى الفعل الثلاثي (غَرَبَ)، فالغَرْبُ الذهابُ والتنحي واغرابهُ نحّاهُ، وفي الحديث ان النبي (ﷺ) أمر بتغريب الزاني سنة إذا لم يحصنْ، أي نفيهِ عن بلده، والغربْة والغَرْب : النوى والبعدْ، والغُربة والغُرْب النزوحُ عن الوطن والاغترابْ، واغترَبَ الرجلُ نَكَحَ في الغرائِبْ، وتزوج الى غير أقاربهِ[24]. فدلالات الاغتراب لغوياً تدور حول الاغتراب المكاني (الذهاب والنوى والبعد والنزوح) والاغتراب الاجتماعي (تغريب الزاني والنكاح في الغرائب) [25]. ومع ان الأصل اللغوي للغربة، والاغتراب واحد هو الفعل

(غَرَبَ) فأن دلالتيهما تختلف الى حد ما ففي الاغتراب معنى القصد والتصميم وهو على وزن (الافتعال) ومن معانيه الصرفية الزيادة والمبالغة نحو ارتد اي بالغ في الردة وفي الغربة معنى العفوية المنبثقة من واقعية التجربة وهي على وزن (فُعلة) ومن معانيها القلة نحو نُطفة وهي القليل من الماء[26].

ان الاغتراب – كظاهرة – موضوع أزلي، موجود منذ فجر التاريخ، سبق وجوده الوعي به بكثير[27]. وهو معروف وشائع في جميع العصور، يحياه جمعٌ من الذين يعيشون حالات خاصة تكتنفها احوال من المعاناة[28]. لكنه ايضاً لازمة حياتية مكنت الانسان من صنع تقدمه الفكري والثقافي والفلسفي والعلمي، فهو يصنع حياة جديرة بأن نحياها[29].

ويعد هيجل أهم فيلسوف درس الاغتراب في العصر الحديث، فقد درج على استعماله استعمالاً مقصوداً في مؤلفاته؛ ولذا يعده بعض الباحثين أبا الاغتراب، والاغتراب عنده واقع وجودي متجذر في وجود الانسان في هذا العالم، وان هناك ثمة انفصام بين الفرد بوصفه ذاتاً مبدعة خلاقة تريد أن تكون وان تحقق نفسها، وبين الفرد بوصفه موضوعاً واقعاً تحت تأثير الآخرين، وقد عَّرفه بأنه حالة عدم القدرة او العجز التي يعانيها الانسان عندما يفقد سيطرته على مخلوقاته ومنتجاته وممتلكاته، فتوظف لصالح غيره بدل ان يسيطر هو عليها، وبهذا يفقد القدرة على تقرير مصيره والتأثير في مجرى الاحداث التاريخية بما فيها تلك التي تهمه، وتسهم بتحقيق ذاته وطموحاتهِ[30].

ويرى فرويد أنه سمة متأصلة في وجود الذات الانسانية، ولا سبيل لتجاوزها أو انكارها[31]. وقد توصل في ابحاثه الى نتيجة مفادها ان الانسان ككائن معذب في عمق وجوده، حتى انه لا يعي مصادر عذابه، فيلجأ الى وسائل تخفيفية منها مثلاً اللجوء الى اختراع الاوهام[32].

أما أريك فروم الذي يعد اكثر علماء النفس استعمالاً لمفهوم الاغتراب فقد خالف استاذه فرويد ورأى ان الاغتراب ليس صفة متأصلة في الطبيعة الانسانية، وانما هو وليد ظروف موضوعية وذاتية، ويرى ايضاً في الاغتراب نمط من التجربة يرى نفسه فيها كما لو كانت غريبة عنه، وان الاغتراب يختلف بحسب طبيعة التجربة التي يمر بها الانسان[33].

وتورد دائرة المعارف البريطانية الجديدة ستة دلالات للإغتراب ترى انها الأكثر انتشارا، وهي : العجز والاستسلام، والهراء وفقدان المعنى والتحلل من القواعد العامة المتبعة، والغربة الثقافية، والعزلة الاجتماعية، والغربة الذاتية[34].

مما سبق يتضح ان للإغتراب معانٍ متعددة نظراً لدخوله في ميادين مختلفة كالفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس والاقتصاد والادب، لكننا نرى قاسماً مشتركاً في مفهوم الاغتراب في هذا الميادين، حيث الانفصال وعدم التوافق والانسجام مع الذات الفردية، او البنية الاجتماعية والسياسية او الظروف الاقتصادية[35]. ويبقى المجتمع الأول في احداث الاغتراب لما فيه من ازمات ومتناقضات وانعدام

للمنطق، مما يحدث شرخاً في داخل الانسان، ويؤدي به الى الاحباط والنزعة الانفرادية والتوحد[36].

أنماط الإغتراب عند ابن التعاويذي

يلاحظ في شعر ابن التعاويذي الذي نظمه بعد فقده البصر[37]. تطوراً في اللغة الشعرية المستخدمة على صعيد الاخيلة والمعاني والاستفادة من الفنون البديعية كما سنرى لاحقاً، وقد يكون مرد ذلك الى الاثار النفسية الى خلفها فقد البصر من عزلة وشعور بالنقص مما حدا بالشاعر الى التعويض عن طريق تطوير ادائه الشعري[38]. وبشكل عام توجد في هذا الشعر ثلاثة أنماط من الاغتراب هي : الاغتراب السياسي والاغتراب الاجتماهي والاغتراب الزماني، وقد تحوي القصيدة الواحدة من هذا الشعر اكثر من نمط اغتراب.

أولاً: الاغتراب السياسي

سبق لنا الالماح الى ما آلت اليه احوال بغداد من التردي ابان القرن السادس الهجري من جور السلاجقة والخلفاء العباسيين وبطش الأمراء المماليك وظلم الوزراء والقضاة والحجاب وكتاب الدواوين وغيرهم، وقد ضج الشعراء بالشكوى من هذهِ الأحوال ومن ولاة الأمور، إذ لم يجدوا في ظلهم أمناً ولا عدلاً ولا رغيفاً يسد رمقهم ورمق عيالهم[39]. وكان ابن التعاويذي من اولئك الذين اولعوا بهجاء تلك الأحوال وكبار شخصيات الدولة[40]. الامر الذي دعا بعض الباحثين الى القول انه كان ظهيراً للمستضعفين المظلومين من ابناء بلده[41]. وهو رأي ينافي واقع الحال، فسيرته وديوانه يثبتان عكس ذلك، فهو احد شعراء الديوان العزيز[42]. وديوانه طافح بمدائح الخلفاء والوزراء وأكابر رجال الدولة ممن أذاقوا الشعب صنوف العذاب، وأما هجاؤه لبعض ساسة عصره احياناً فهو مجند لأغراض ذاتية بحتة كأن يكون طعناً في ممدوح لم ينل منه ما تمنى[43]. او بدفع من شخص ما [44]. وهكذا فمن أي هجائه قوله في أحد الوزراء:-

[مجزوء الكامل]

يا رَبّ قَدْ حَجَّ الوزيرُ ومَالَهُ في الحجِّ رَغْبهْ
لكن مخافةَ أن يَحُلَّ بهِ عَنِ السُّبطانِ نكبهْ[45]
يا ربّ قد وافاك مِنهُ وَمَنْ ذويهِ شَرُّ عُصبهْ
فاسدُدْ مسالِكِهم ولا ترْدُدْ لهم يا رَبَّ غربهْ[46]

أما الشعر الذي يمثل اغترابه السياسي بعد فقده البصر فيتمثل في شعر الشكوى والهجاء الموجود في قصائد المدح التي نظمها في الخليفة الناصر لدين الله واستاذ دار الخلافة[47]مجد الدين ابن الصاحب[48]ويتخذ اغلب هذا الشعر اتجاهين:

الأول اتجاه صريح (مباشر) والثاني اتجاه ضمني (غير مباشر) ويتخذ الاتجاه الثاني اهميته من أنَّ اللغة المستخدمة فيه لغة ذكية جداً، ومناورة تحتمل اكثر من وجه، ظاهرها غزل وعتاب وتشبيب كما اعتاد الشعراء ان يفعلوا في المقدمات الغزلية، وباطنها رسائل فيها من التقريع والهجاء الشيء الكثير، وقد شكا ابن التعاويذي كثيراً ما آلت اليه حاله بعد فقد البصر بأسلوب حزين ومؤثر ذاكراً مطالبة من الممدوح بشكل مباشر وصريح، وحين يواجه النكران والصدود والتسويف يكرر الطلب مُعرضاً بممدوحه ضمنياً وبشكل غير مباشر، فهو لقي من الرجلين نصباً، ولا يعتد باطرائه لهما في خطبة ديوانه التي كتبها قبل فقده البصر[49] فهذا الاطراء ليس بشيء ما دام قد قال في الخطبة ذاتها (فلا أمدحُ ألا عظيماً أخافهُ)[50] وقد سألهما العون مراراً وتكراراً بعد مصابه، فهو يقول لأستاذ الدار في مدحه له سنة(579هـ) متفجعاً ظناً منه ان الاغراق في التفجع يستجلب العطاء الجزيل:- [الطويل]

رُزِئْتُ بِعَيْنٍ طَالَمَا سَهِرَتْ مَعي لِنَظْمِ مَدِيحٍ أَوْ لِرَصْفِ ثَنَاءِ
خَدَمْتُ بِهَا الآدَابَ خَمْسِينَ حِجَّةً وَأَجْهَدتُّهَا فِي خِدْمَةِ الْخُلَفَاءِ
وَهَا أَنَا كالمقْبُورِ في كِسْرِ مَنْزِل سواءٌ صَباحي عِندهُ ومَسائي[51]

ويطريه مادحاً، ومن ثم يعرض له طلبه:- [الطويل]

أُنَادِيكَ مَرجُوّاً لِسَدِّ خَصَاصَتِي وَمِثْلُكَ مَن لَبَّى نَدَاهُ نِدَائِي
وَمَا لِيَ لا أَدعُوكَ فِي يَومِ شِدَّتِي وَأَنتَ مُجِيبِي فِي زَمَانِ رَخَائِي[52]

ويسأله ان يوصل حاله الى الخليفة:- [الطويل]

وَكُنْ لي الى جودِ الخليفة شافعاً أَنلْ حاجتي ما كُنْتَ من شفَعائِي[53]

ويبدو ان شيئاً مما رجاه منه لم يحصل فلا وجود يُقنع ولا الخليفة ينتبه لحاله[54]. فيعود اليه مادحاً في العام التالي معرضاً بحاجتهِ غير المقضية مؤثراً ان يكون ذلك في المقدمة الغزلية وبخطاب المؤنث:- [مجزوء الرمل]

بــأبي مَــنْ عَــذَّبَ القلــبَ مَــلاَلاً وَجفَــاءا

.....

ينقضـي العُمُـرُ ولا ينـوينَ للـدينِ قضـاءَا [55]

ويؤكد هذا الغمز بخطاب اقرب الى المباشرة وبالتذكير هذهِ المرة:-

وأخٍ لَمْ يَرْعَ لـي فـي مـذهبِ الـوُدِ الإخـاءَا[56]

فلما لم ير منه شيئاً عاد اليه سنة (581هـ):- مقرعاً اياه هذهِ المرة وبالتلميح والتعريض في المقدمة الغزلية وخطاب المؤنث كي لا يستثير غضبه:-

[المنسرح]

نَارُ جَوىً فِي الضُّلُوعِ تَتَّقِدُ وَمُهْجَةٌ قَدْ أَذَابَهَا الْكَمَدُ
عَرَّضَنِي لِلسَّقَامِ عَارِضُهُ وَمُذْ وَهَى خَصْرُهُ وَهَى الْجَلَدُ
كَيْفَ اصْطبَارِي عَنْهُ وَقَدْ فَنِيَتْ ذخائرُ الصبرِ فيهِ والعُدَدُ
أَحُومُ من حَولِهِ وبي ظمأٌ إلَى جَنَا رِيقِه وَلاَ أَرِدُ
أَشْكُو إلَيْهِ وَجْدِي وَأَهْوَنُ مَا مَرَّ على مَسمعَيْهِ ما أجِدُ[57]

ويعود الى التعريض والغمز من قناة الممدوح ثانية حتى في ثنايا المدح:-[المنسرح]

لا تشكِهِ ظَالماً فَمَا فَسُدَ الـ دَّهْرُ ولكنْ أَبناؤُهُ فَسُدُوا
يفديكَ يا مُحكمَ الإعادةِ والـ عَقدِ رِجالٌ للنَّكثِ ما عَقَدوا
لا يضمرونَ الوَفاءَ إنْ عَهِدُوا عَهْداً ولا يُنجِزُونَ إنْ وَعَدوا[58]

وعاوده في سنة 583هـ خوفاً وطمعاً معّرضاً به في المقدمة كحاله دائماً:-

[مجزوء الرجز]

مسلط على القلوب مايبالي مااجترح

افردني بالهم واســـ ـــتأثر دوني بالفرح

وقد جدد مطالبه في القصائد كلها ويبدو ان كل ذلك كان بلا طائل فكأن ابن التعاويذي وجد عليه موجدة عظيمة فلم يرثه بعد قتله سنة 583هـ، وحال ابن التعاويذي هذهِ مع ابن الصاحب تشبه الى حد بعيد حال المتنبي مع كافور الأخشيدي من ناحية مطالب الشاعر وصدود الممدوح وتسويفه ومن ثم تعريض الشاعر بتلك المطالب في مطالع القصائد وفي تضاعيفها الى ان يصل في النهاية الى اليأس والقنوط[59].

ولا يختلف الحال كثيراً في قصائده التي يمدح بها الخليفة فقد عرض عليه حاله كثيراً وعرض به حين لم يجد منه ما تمناه[60]. حتى أنه يأس منه ووصل في

مرارته الى الذروة ولم يجد معرضاً لذلك خيراً من رثاء زوج الخليفة في سنة (584هـ) قبيل وفاته بقليل فكأنه يرثى نفسه:- [الطويل]

قِفُوا تَعْجَبُوا مِنْ سُوءِ حَالِي وَمِنْ ضري

فمِــنْ زَفْــرَةٍ تَرقــى ومــن دمعــةٍ تجــري

وقـد كنـتُ قبـلَ اليـومِ جَلْـداً وإنّمـا

أَحالَ الهوى ما كنتَ تعهَدُ من صَبري(61)

ولم يبق له شيء يؤمله بعد ان نفض يديه من الخليفة، وارباب الدولة فحزنه ممتد الى الأبد:-

جَعَلْــتُكُمُ ذُخْــرِي لأَيَّــامِ شِــدَّتِي

ولـم أدْرِ أنَّ الـدهرَ يَسـلُبُني ذُخـري

وَقَالُوا انْقِضَاءُ الدَّهْرِ لِلْحُزْنِ غَايَةٌ

وحُزنـي مُمتدٌّ لـدَيكمْ مـعَ الـدهرِ(62).

وهي مرثية لافتة للنظر، إذ ليس فيها من رثاء زوج الخليفة ما يمكن ان يشار اليه، وهو ما عهدناه في المراثي الرسمية التي كانت (جميعها خلواً من العاطفة الصادقة والدموع الحرار) (63).

والشعراء حين لا يستطيعون الوقوف بوجه ولاة الأمر المتجبرين ولا يستطيعون الجهر بالمساوئ التي يخلفها هؤلاء يلجأون الى (مهاجمة الزمن وصب غضبهم عليه، وهم يعلمون ان أهل الزمن أو حكامه هم اساس البلاء) (64).

وقد اتخذ السبط من هجاء الزمن قناعاً يخفي وراءَهُ هجاءَه للظالمين من ساسة البلد في حال لم يحصل منهم على مراده، فهو يقول في أحدى مدائحه للخليفة: [الكامل]

زَمَنٌ خَلَتْ أَيَّامُهُ وَعُهُودُهُ وتنكَّرَتْ أَتْرابُهُ وَلِدَاتُهُ(65)

ويقول لابن الصاحب:- [الطويل]

جَفـاءٌ مـن الأيـامِ بعـد مـودّةٍ

وسَــلْبٌ مــن الأيــامِ غِــبَّ عطــاءِ

تنَكَّـرَتِ الـدنيا علـيَّ ففَوَّقَـتْ

إلــيَّ سِــهامَ الغَـدرِ بعـدَ وفـاءِ(66)

ومما يؤكد ذلك ما سبق ان أوردناه من اتهامه ابناء الدهر بالفساد في سياق أحدى مدائحه لابن الصاحب، ويُفهم من ذلك كله ان شاعرنا عاش اغتراباً سياسياً لسببين هما فقده البصر وعدم تحقيق ساسة البلد مطالبه، فقد جعله فقد البصر يعايش القلق والعزلة الاجتماعية إذ لم يجد حاجاته ملباة، وحاجاته هذهِ كثيرة تتناسب مع كثرة عياله ونهمهم ومع صعوبة تحقيق هذهِ الحاجات في ظل تعسر الحياة وندرة الأرزاق واتساع رقعة المظالم التي جلبها ساسة البلد، ولم يجد الشاعر من هؤلاء الساسة أذاناً صاغية ولا وفاءً مع كثرة مدحه لهم ورفعه لشأنهم بل ومنافحته عنهم ضد خصومهم، ومع ذلك استمر بالمدح مازجاً اياه بالتعريض تارة لعلهم يستجيبون، وبالهجاء الخفي والتقريع تارة أخرى، فهو من جهة يرتجي نفعهم ومن جهة أخرى يخشى بطشهم إذا ما صرح بهجائهم أو انقطع عن مدحهم، فكأنه اختار مواصلة مدحهم خوفاً ورجاءاً معرضاً بهم ومقرّعاً كلما سنحت له فرصة حتى إذا لم يجد في ذلك كله نفعاً مع تقادم العمر واقتراب شبح الموت نفض يديه عنهم وأعلن حزنه على نفسه ويأسه ممن لا رجاء فيهم.

ثانياً: الاغتراب الاجتماعي

يُعرف بعضهم الاغتراب الاجتماعي بالقول أنه(شعور الفرد بالانفصال عن جانب أو أكثر من جوانب المجتمع، كالشعور بالانفصال عن الاخرين، أو عن القيم والاعراف والعادات السائدة في المجتمع أو عن السلطة السياسية الحاكمة، اضافة الى ما يصحب ذلك من احساس بالألم والحسرة، أو بالتشاؤم واليأس، وما يرافقه احياناً من سخط وتمرد أو ثورة)[67]. وقد كانت الظروف الموضوعية للاغتراب متوافرة في بيئة بغداد في الربع الأخير من القرن السادس الهجري فحين زار الرحالة ابن جبير بغداد سنة (580هـ) وصف اخلاق اهلها وسلوكهم بقوله: (اما اخلاق اهلها فلا تكاد تَلقى مِنْهمُ ألا من يتصنعُ بالتواضعِ رياءً ويذهبُ بنفسهِ عُجْبَاً وكبرياء، يزدرُونَ الغُرباء ويُظهرُون لمن دُنَهُم الأنفةَ والإباءُ ... فالغريب فيهم مَعدومُ الارفاق، متضاعف الانفاق، لا يجد من اهلها الا من يعامله بنفاق، أو يهش اليه هشاشة انتفاع واسترقاق، كأنهم من التزام هذا الخلة القبيحة على شرط اصطلاح بينهم واتفاق، فسوءُ مُعاشرة ابنائها يُغلب على طبع هوائها ومائِها)[68]. وشهادة ابن جبير هذهِ لها اهميتها بوصفه قد لمس هذا الواقع على الارض وليس له في وصفه هذا مأرب يبتغيها الا الحقيقة فهو رجل رحالة غريب عن البلد وصف ما رآه وما عايشه بحذافيره، وان ما يصفه هو النتيجة النهائية التي وصلها المجتمع، نتيجة املتها قرون من الاضطرابات والصراع على السلطة والصراع بين المذاهب وبين الأجناس وشيوع الفساد الخلقي والطغيان السياسي والتفاوت الطبقي[69] وفي ظل التغيير المستمر وعدم الاستقرار في حياة الافراد يصبح الشعور بالاغتراب والوحدة نتيجة حتمية[70]. فلا غرو اذن ان ينفصل مثقفو بغداد عن مجتمعهم بعاداته وافكاره، انفصال ينبئ احياناً عن تمرد أو سخط او شك او عجز عن التلاؤم والتوافق مع البيئة السائدة.

وقد عانى ابن التعاويذي من شظف العيش وذاق مرارة الحرمان وعسف ولاة الأمور، وقضّى عمره في سؤال الخلفاء والوزراء وعلّية القوم وكل من له سلطة ونفوذ، وتفاقمت معاناته اكثر بعد فقد البصر مع ازدياد عجزه عن تحقيق حاجاته وزيادة اعتماده على الآخرين[71]، ففي ظل (صراع الانسان مع الواقع الاجتماعي، وفي ظل الحاجات المادية الاساسية للإنسان يتعمق الشعور بالاغتراب، وتزداد محنة الذات، ويتأجج الصراع بين الذات والآخر) [72]، وقد يكون هذا الآخر أقرب المقربين اليه، أهله وبنوه، الذين شعر بجفائهم وانه لا يربطهم به الا المنافع الآنية. يقول في ذلك:- [المنسرح]

وَلِـــي عِيَـــالٌ لاَ دَرَّ دَرُّهُـــمُ

قَـدْ أَكَلُـونِي دَهْـرِي وَمَـا شَـبِعُوا

لَـوْ وَسَـمُونِي وَسْـمَ الْعَبِيـدِ وَبَـا

عُـونِي بسـوقِ الأعـرابِ مـا قَنِعـوا

إذا رأَوْنـــي ذا ثَـــروةٍ جلســـوا

حَــوْلِي وَمَــالُوا إلَــيَّ وَ اجْتَمَعُــوا

وَطَالَمَــا قَطَعُــوا حِبَــالِيَ إعــ

رَاضــاً إذَا لَــمْ يَكُــنْ مَعِــي قِطَــعُ

يَمْشُــونَ حَــوْلِي شَــتَّى كَــأَنَّهُمُ

عقــاربٌ كلّمــا سَــعَوْا لَسَــعُوا[73]

ويستمر الهجاء الساخر المشوب بالآلم والحسرة الأبوية:- [المنسرح]

نظرتُ في نَفعِهِمْ وما أنا في اجـ

تِـــــلاَبِ نَفْـــــعِ الأَوْلاَدِ مُبْتَـــــدِعُ

وَقُلْتُ هذَا بَعْدِي يَكُونُ لَكُمْ

فَمَــا أَطَــاعُوا أَمْــرِي وَلاَ سَــمِعُوا

وَ اخْتَلَسُـوهُ مِنِّـي فَمَـا تَرَكُـوا

عَيْنِـــي عَلَيْـــهِ وَلاَ يَـــدِي تَقَـــعُ

فَبِئْسَ وَ اللهِ مَـا صَـنَعْتُ فَأَضْـ

رَرْتُ بِنَفْسِي وَبِئْسَ ما صَنَعُوا(74)

وهذهِ السخرية ما هي الا وسيلة لجأ اليها شاعرنا ليس من عياله حسب بل من المجتمع الذي أوصله الى هذا الدرك(75) ، فإذا كان هذا حال عياله من الجفاء وسيادة المنفعة فلا عجب ان تتقطع حبال اخائهِ مع الصحاب:- [الطويل]

جَفاهُ بلا ذنْبٍ أتاهُ صديقُهُ

وأسْلَمَهُ للهَمِّ والحُزنِ قَومُهُ(76)

ومن البديهي ان يرى المكفوف ان مصابه بعينيه احدى الطوارق التي يعجز عنها الصبر وانها اساس كل ويلاته(77) : [السريع]

فيــا لهــا طارقــةً هَــدَّني

طُرُقُهــا فــي آخــر الْعُمــرِ

طارقــة مثَّــل بــي مَسُّــها

يعجــزُ عــن أمثالهــا صَــبري

فــلا رَعاهــا الله مِــنْ حالــةٍ

ثالثــةٍ للشــيبِ والفقُــرِ(78)

طارقة أودت به الى العزلة القسرية بعد تنكر الأهل والصحاب:-

حبـيسُ بيـتٍ مُفـرداً مَسـلَماً

فيــه الــى الأحــزانِ والفكــرِ

تضـييقُ عـن خطـوي أقطـارُهُ

وهــو رَحيــبٌ واســعُ القُطْــرِ

كــأَنَّني فــي قُعــرِهِ جاثمــاً

ميــتٌ وَمَــا ألّحــدُ فــي قَبْــرِ

نـاءٍ عَنْ الأحيـاء فـي بـرزَخٍ

مُنْقَطِــعٌ عــن بيــنِهِمْ ذِكــري(79)

وجعلته يشعر بأنه دون بني البشر:-

كـأَنَّني لستُ مِنْ النَّاسِ فـي

شـــــيءٍ وَلا دَهْـــــرُهُم دَهْـــــري

ومَـــا لأنســـانيتي شـــاهدٌ

عنـــدي ســـوى أنّـــي فـــي خُسْـــرِ

أعيشُ في الدُّنيا عَلى حَالـةٍ

واحـــدةٍ أصـــحَبُها عُمـــري[80]

وهو الذي افتخر بشعره طول حياته [81]. ورأى أنه الأولى بالتقديم وهجا من قدم غيره [82]، فإذا به يكتشف بعد مصابه ان الشعر جر عليه الهوان ورقة الحال:-

فليتَ شعري يا زماني متى

أخرجُ مِنْ دائرة الشعرِ[83]

لقد قر في ذهن الشاعر الذي عاش الفقر وضنك العيش ان فقده البصر من سوء حاله وشتت من حوله الأهل والصحاب فلم يعد احد يبالي به الا بمقدار ما ينتفع منه، فارتمى في احضان الوحدة والعزلة التي اذاقته القلق والهوان فلم يجد بّداً من ترجمة آلامه تفجعاً تارة وسخرية تارة أخرى لعله بهذا يخفف شيئاً مما يعانيه، وقد يكون مصابه وعزلته وهوان حاله الحافز الأقوى الذي جعله يرتقي بأشعاره في محاولة منه لتعويض نقصه، وقد اسهمت هذهِ الاشعار في جعله شاعر العراق في وقته[84].

ثالثاً:-الاغتراب الزماني

يبدو ان مشكلة الزمان هي المشكلة الاساسية في الوجود الانساني[85]، ويظل الانسان الطرف الضعيف الخاسر دائماً في معادلة طرفها الآخر هو الزمان ومرادفاته (الدهر، الليالي، الايام، الدنيا .... الخ) فهو الطرف الذي تتعاوره العلل ويهدده الفناء في أية لحظة في مواجهة حقيقة كونية عظيمة وسرمدية، فلا يملك الا الاستسلام والخضوع، ومن أجل ذلك نسبت كل الاحداث العظيمة التي تجري على الانسان وعلى بيئته الى هذهِ القوة العظيمة، وقد حملها الانسان مسؤولية آلامه واخفاقاته ولم يتورع عن كيل التهم اليها ناسياً أو متناسياً ان كل هذا يجري بأمر الله عز وجل ولحكمة ارادها، كان هذا ديدن العرب في الجاهلية، وقد اشار سبحانه وتعالى الى ذلك في قوله على لسان أهل الجاهلية: ﴿**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**﴾[86]. وقد توارث الشعراء جيلاً بعد جيل هذهِ اللازمة فأولعوا بهجاء الدهر

ومرادفاته فهو المسؤول عن فراق الاحبة وتوالي العلل والفقر ونضوب الشباب وهجوم الشيب وغدر الناس .. الخ. وقد شكا ابن التعاويذي دهره مر الشكوى مراراً وتكراراً سواء قبل عماه[87]. أو بعده، ويتمثل موقفه من الدهر بعد مصابه في بعدين: الأول معايشة الحاضر وتصور المستقبل عبر التفجع والسوداوية والتشاؤم، والثاني هروب من الواقع عبر استذكار الماضي، وقوام البعدين عند شاعرنا موضوعات شكوى الدهر والموت والليل والشيب والشباب.

ان كف البصر يجعل الانسان كثير الشكوى ودائم الشعور بالظلم والاضطهاد[88]. فلا يجد الا الزمان الظالم ومرادفاته مرمى لسهامه:-

[الكامل]

فَاسلمْ لِموتورٍ أَبَتْ أَنْ تُقتضى

عِنْـــدَ الزَّمـــانِ دُيُونُـــهُ وتراثُـــهُ

ضـاقتْ مَذاهبُـهُ وقُـوربَ خَطْـوُهُ

فكأنَّمـا سُـدتْ عَليـهِ جِهاتُـهُ[89]

أو قوله : [مجزوء الرمل]

مـــــا لأَحـــــداثِ خُطـــــوبٍ

كيـــــدُها يَمشـــــي الضَّـــــراءا

عصـــــفتْ عنـــــدي وَهبَّـــــتْ

فـــــي بنـــــي الـــــدَّهرِ رُخـــــاءَا

وكـــذا الأَيـــامُ لا تَعْـــ تـــامُ إلاَّ الفُضَـــلاءا[90]

وقوله: [السريع]

مـا هـوَ إلاَ أَن نَبَـا الـدَّهْرُ بـي

فَمِلْـــتِ يـــالَيلى مَـــعْ الـــدَّهْرِ

ذّنْبـــي الـــى الأَيْـــام حُريَّتـــي

ولـم تَـزل أَلبـاً عَلَـى الْحُـرِ[91]

ان فجيعة الشاعر ببصرهِ وفقدانه الدعم الاسري والمجتمعي والعزلة القسرية وتقدم العمر كفيلة بازدياد التشاؤم والقلق من المستقبل أو بعبارة أدق القلق من الموت[92]:- [الكامل]

فـاليومَ عُـودُ الـدهرِ مُحتَطَـبٌ

ذاوٍ وشـمسُ العُمـرِ فـي الطَّفْـلِ

لَـمْ يَبْـقَ لِـي فِـي لَـذَّةٍ أَرَبٌ

أَنَـا مِـنْ زِحَـامِ الْهَـمِّ فِـي شُـغُلِ

أَبْكِـي عَلَـى الـدُّنْيَا وَبَهْجَتِهَـا

وَعَلَـى اقْتِـرَابِ مَسَـافَةِ الأَجَـلِ[93]

ولقد فتحت العزلة التي عاشها ابن التعاويذي بعد مصابه الطريق لاستبداد فكرة الموت بتفكيره[94] وهو ما تعده بعض الدراسات النفسية أمراً غير سوي يدل على اضطراب انفعالي[95]:- [الطويل]

كـأَنِّي ميـتٌ لا ضـريح لجنبـهِ

وما كلُّ ميتٍ لا أبَا لكَ يُضرحُ[96]

يُمسـي حَبيسـاً فـي قـرارة منـزلٍ

سـيانِ مَحْيَـاهُ بـهِ ومماتُـهُ[97]

وهـا أنـا مـن بعـدِ طُـولِ الحيـاةِ

وَالْخَفْـضِ صِـرْتُ إلَـى مَـا تَـرَى

وَغْـودِرْتُ مُنْفَـرِداً بِـالْعَرَا

وَقَـدْ قَصَـمَ الْمَـوْتَ تِلْـكَ الْعُـرَى[98]

وقد شكل الليل لشاعرنا وقتاً خصبا تتوالد فيه الهموم، فهو يشكل الذروة في الوحدة والعزلة، وقد عكس سواده قتامة النفس المثخنة بالهموم[99]، والعتمة الابدية التي يستشعرها المكفوف: [الطويل]

يـا لَـكَ مـن ليـلِ حِجـا

بٍ جُنحُـهُ مُعتَكِـرُ

ظَلاَمُـهُ لاَ يَنْجَلِـي

وصُـبحُهُ لا يَسْـفِرُ

لَـيْسَ لَـهُ إلَـى الْمَمَـاتِ

آخِـــــــــــرٌ يُنْتَظَـــــــــــرُ

مـــــا فـــــي حيـــــاةٍ معـــــهُ

لـــــذي حَصـــــاةٍ وَطَـــــرُ (100)

ان تعبير الشاعر عن دهشته من الليل الطويل المعتكر كان انعكاساً لشعوره الداخلي وذلك من خلال لفظهِ (حجاب) التي تنم عن الضيق الذي يمر به مؤكداً ذلك عبر ثنائية (ظلامه لا ينجلي) (و صبحه لا يسفر) معبراً بذلك عن امتداد تلك الظلمة الى الممات، وما ذلك الليل ولا تلك الظلمة سوى عماه الذي طغى على كل شيء من حوله، وخلق له عالماً معتماً، مؤسساً تفرده المأساوي وعاكساً آلامه ومعاناتهِ النفسية.

وتستدعي مسامرة الليل ثنائية الشباب والشيب، إذ تقف القوة واللهو والغواني الى جنب الشباب، فما يصطف الوهن وصدود الغواني الى جنب المشيب:- [الكامل]

عصـرُ الشـبابِ تَصـرَّمَتْ أوقاتُـهُ

وتبسَّـــمَتْ عـــن فجرِهـــا لَيلاتُـــهُ

أَودى بجِدَّتِـــهِ المَشـــيبُ فأَخْلَقَـــتْ

أَثوابُـــــهُ واســـــتُرجِعَتْ عاراتُـــــهُ

كانَ الشفيعَ إلى الحِسانِ فمذْ مضى

أمسَـتْ تُعَـدُّ مَسـاوِياً حسـناتُهُ(101)

وهنا نستطيع ان نلمس نوعاً من التوقيع الصوتي الذي احدثه الشاعر من خلال عدة عناصر ايقاعية تنغيمية، فمن خلال عنصر التكرار في التاء الانفجاري في (تصرمت اوقاته، وتبسمت ليلاته، بجدته، فأخلقت، استرجعت عاراته، أمست، تعدُ حسناتهِ) والشين في (الشباب، المشيب، الشفيع) فضلاً عن السين الصفيري المهموس في (تبسمت، استرجعت، الحسان، مساوياً حسناته) اقام الشاعر بناء موسيقياً دالاً على نفسية تعلو أو تهبط لتكون بمجموعها ايقاعاً منسقاً ومتناغماً، فالتكرار يخلق ذلك الجرس الموسيقي (عبر اصوات الالفاظ والحروف المؤدية الى خلق مستوى صوتي يتناسب والصورة التي يرسمها الشاعر لاثارة المتلقي وشد انتباهه وجذبه الى ما يريد التعبير عنه) (102) خدمة للغرض الذي ينظم فيه وهو التعبير عن الحسرة والندم على الشباب المنقضي.

ومما يعمق معنى الحسرة مقارنة الشاعر بين ايام الشباب وليالية التي يراها – لهنائها كومضة البرق:- [المتقارب]

كـــأنّي رأيـــتُ زمـــانَ الشـــبابِ

ونَضـــرةَ عـــيشٍ بـــهِ فـــي الكَـــرى

وَمَـــا كَـــانَ مَـــرُّ لَيَـــالِي السُّـــلُوّ

إلاّ كخَطفَـــةِ بـــرقٍ سَـــرى[103]

وبين ايام المشيب المعتمة وليالية الوئيدة التي كبدها رهينا للهموم والآلام المبرحة، يقول:- [الكامل]

دَهْـرٌ رَمَـانِي فِـي قَـرَارَةِ مَنْـزِلٍ

ضَـــنْكٍ نَهـــارِي فيـــهِ ليـــلٌ مُعـــتِمُ

لَيلـــي بـــهِ لَيـــلُ الســـليمِ وإنّنـــي

لِلْهَـــمِّ وَالْبُرحَـــاءِ فِيـــهِ لَمُسْـــلَمُ[104]

هنا يشير الفعل (رمى) الى وجود تعارض بين الفعل والدهر، ويتضح البناء الاستعاري للدهر في الاستعارة التشخيصية (دهر رماني) فالفعل هو رمى والفاعل هو الدهر، وقد قام الشاعر بتشخيص الدهر عندما اسبغ عليه فعلاً انسانياً هو الرمي فأصبح الدهر داخلاً في الاطار الانساني خارجاً عن مجال المجرد مما يؤكد فاعلية الدهر في حياة الشاعر وموقفه منه، وهي فاعلية لا تُرد وذلك لأنه محسوس الفعل أذ بيّن الشاعر التحولات التي طرأت عليه بياناً ضمنياً[105]، فضلاً عن ان دلالة الفعل (رمى) تعيدنا الى الصورة الحركية للفعل (الرمي في البئر المظلم)، فالفعل الماضي يمثل دلالة الانحصار والقيد في مكان ضنك وهو المنزل بدليل الاسم (قراراة) وهي استعارة ثانية جاءت لتؤكد الاستعارة الأولى، فالفعل (رمى) يمثل بعداً زمنياً والجملة (في قرارة منزل ضنك) تمثل بعداداً مكانياً، وهو ما أكد المعنى واغناه، ومما يشير الى محدودية المدى المكاني (قرارة منزل) وسعة المدى الزماني (رماني) رجوع الشاعر الى الماضي (الشباب) مؤكدا اغترابه الزماني، ومما يعكس سلبية الصراع بين الشاعر والزمان ليله الطويل الذي لا يقوى فيه على الراحة والرقاد .

لقد امتطى ابن التعاويذي صهوة الشعر ميمما صوب الشباب فرارا من مشيب مر تجرع غصصه وحيدا[106] ووقف أمامه (وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه):

يادار لهوي واطرابي وملعب اتـــ ـرابي وللهو والأطراب أوطـــــانُ

أعائد لي ماض من جديد هوى أبليته وشباب فيك فينـــــــان

إذ الرقيب لنا عيم مساعدةٌ والكاشحون لنا في الحرب أعوان[107]

ان الركون الى اجترار ذكريات الماضي شكل نمطا من أنماط مواجهة الاغتراب لدى طائفة من شعراء العرب سعيا لتخفيف أزمة الاغتراب التي يعانونها شحيح[108]، وهو يعكس ايضا اعترافا بسطوة الزمان وجبروته، حيث أباد من قبل الامم العظيمة والملوك العظام[109] ولم تستثن مصائبه حتى آل النبي الأطهار (عليهم السلام) :

وأناخ في آل النبـ ـي مجاهرا برزيئتيـــــن
فبدا برزء في أبي حسن وثنى بالحسيـــن
الطيبين الطاهريـ ـن الخيرين الفاضلين
المدليين الى النبـــ ـــــي محمد بقرابتين[110]

لابل أن كيد الزمان ليرقى أبعد من ذلك مشتتا شمل نجوم السماء وناسفا جبال الأرض الراسية[111]أفلا يكون في ذلك كله عبرة للذات القلقة والمغتربة وتسلية لها:

واطرح هموما أنت منـــ ـها الدهر في تعـــب وأين

فالناس في كف الحـــوا دث زُبرة في كـــــف قين

واصبر لما طرقت به ا لأحداث من صعب وهين[112]

ويؤكد الشاعر موقف الاعتبار الحكيم من الحياة المتلونة الغرور بأبيات أخرى، أبيات وشت بنفض صاحبها غبار الملذات عن مخيلته ومداهمة شبح الموت مخيلته:

فقف بي معتبرا إن مررت على جدثي وابك مستعبرا

ولاتخـــــــدعن بمغترة حديث مودتها مفـــترى

ولاتركنـــــــن الى ثروة مقيلك بعدها في الثرى[113]

لقد احترف ابن التعاويذي هجاء الزمان طوال حياته ولم يتوان عن تحميله أوزار فقره وهوان حاله ورفعه لشأن من لايستحق، وتصاعدت نبرة شكواه بعد مصابه، وبكى شبابه وأيامه الخوالي، وقد جنح الشاعر أحيانا الى الاعتبار، وهو موقف مميز لانراه يتكرر كثيرا مايدل على سيطرة الفكر السوداوي المتشائم على الشاعر بحيث لم يدع له مجالاً للتفكر واستخلاص العبر.

الخاتمة

لقد أدى كف البصر الى تبلور ثلاثة انماط اغترابية في شعر سبط ابن التعاويذي هي:-

1. اغتراب سياسي:- تجلى في شعر الشكوى والهجاء الموجود في قصائد المدح التي قالها في الخليفة الناصر لدين الله واستاذ الدار مجد الدين ابن الصاحب، وفيه اتجاهان اولهما صريح يشتكي فيه حالة للرجلين استدارا لعطفهما، والاخر وهو الأهم هجاء ضمني لهما وتعريض بهما وغمز من قناتهما يأتي به الشاعر في المقدمة الغزلية وبين ثنائا المدح باستخدام لغة يحمل اطنها من المعاني اضعاف ما في ظاهرها في تجلٍ واضح لذكاء الشاعر وبراعة اسلوبه.
2. اغتراب اجتماعي:- تمثل في مجموعة اشعار تترجم عزلة الشاعر وعجزهِ وقلقه وتشاؤمه وانسداد افق الحياة أمامه بسبب اتساع الهوة بينه وبين عياله واصحابه نتيجة عماه وتقهقر اخلاقيات المجتمع وسيادة المصالح الذاتية.
3. اغتراب زماني: وهو اكثر نمط اغترابي طرقه الشاعر بعد عماه، ويتمثل موقف الشاعر من الزمان ببعدين: الأول معايشة الحاضر وتصور المستقبل بالتفجع والتشاؤم والسوداوية. والآخر هروب من الواقع المر عبر استذكار الماضي، والبعدين يشملان موضوعات شكوى الدهر، والموت، والليل، والسيب والشباب.

الهوامش

(1) **هو ابو الفتح محمد بن عبد الله المعروف بسبط ابن التعاويذي نسبة الى جده أبي محمد المبارك بن المبارك بن علي بن نصر السراج الفقيه الزاهد المعروف بأن التعاويذي، شاعر وكاتب مشهور، ولد في بغداد سنة (519هـ) وعمل في شبابه بديوان المقاطعات، جمع ديوانه بنفسهِ ورتبه اربع فصول، وعمي في آخر عمره سنة (579هـ) وتوفي في بغداد سنة (583 هـ) أو (584هـ). ينظر: معجم الأدباء: 2560/6 – 2567، وفيات الأعيان: 466/4-473، سبط ابن التعاويذي، حياته وشعره: 42 – 67.**

(2) **وفيات الاعيان: 466/4.**

(3) **سبط ابن التعاويذي: 101 نقلاً عن بحث للمرحوم الدكتور مصطفى جواد في مجلة المجمع العلمي العراقي، مج 3/ج2، سنة 1955.**

(4) **ينظر: العزلة الاجتماعية لدى المكفوفين وعلاقتها بأساليب المعادلة الوالدية: 26.**

(5) **ينظر: بناء مقياس للأنانية، دراسة مقارنة بين المكفوفين والمبصرين: 72-73.**

(6) **ينظر: العزلة الاجتماعية لدى المكفوفين: 25.**

(7) **ينظر: م. ن 24.**

(8) **ينظر: بناء مقياس للأنانية74.**

(9) **ينظر: ديوان سبط ابن التعاويذي القصيدة 187.**

(10) **ينظر العزلة الاجتماعية لدى المكفوفين 28.**

(11) **ديوانه: 396.**

(12) **الاغتراب في الثقافة العربية، متاهات الانسان بين الحلم والواقع/ 36، الاغتراب وعلاقته بالتمرد وقلق المستقبل لدى طلبة الجامعة، 88.**

(13) **ينظر الاغتراب في الشعر الجاهلي: 6.**

(14) ينظر: تاريخ الاسلام السياسي والديني والقافي والاجتماعي: مج 10:4-18، 306-308، حضارة العراق 3: 6-36.
(15) يقول ابن الأثير مثلاً عن الخليفة الناصر لدين الله (575 – 622هـ): "كان قبيح السيرة في رعيته ظالماً، فخرب في ايامه العراق، وتفرق أهله في البلاد، واخذ املاكهم واموالهم، كان يفعل الشيء وضده" الكامل في التاريخ: 440/12.
(16) انظر وصف ابن جبير لجانبي بغداد إذ زارها سنة (580هـ)، رحلة ابن جبير 200-205، وانظر ما يذكره ابن الاثير من حوادث جرت في بغداد في القرن السادس الهجري كالفيضانات والحرائق والجدب والأوبئة وغلاء الاسعار والفتن بين عامة أهل بغداد واغارات القبائل والمواجهات مع الأمراء العجم وحوادث أخرى/ الكامل 118/11، 132-133، 137 ،152 ، 248 ، 268 ، 409 ، 410 ،411 ، 446 ، 452 ،523 ،562.
(17) ينظر: الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد 66-70، الشعر العراقي في القرن السادس الهجري 29-31.
(18) ينظر: الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد 196-204.
(19) ينظر المصدر نفسه 60-61، 195.
(20) ينظر: ديوانه 19، 27، 37، 39، 45، 47، 53، 60، 139، 142، وغيرها .
(21) ينظر: الاغتراب في تراث صوفية الاسلام 19، الاغتراب في الثقافة العربية7.
(22) ينظر الاغتراب في تراث صوفية الاسلام 9.
(23) للمزيد ينظر: المصدر السابق الاغتراب في تراث صوفية الاسلام 13-49 الاغتراب في الثقافة العربية 35-53، الاغتراب وعلاقته بالتمرد وقلق المستقبل 50-100.
(24) ينظر: لسان العرب مادة [غَرَبَ].
(25) ينظر: الاغتراب في صوفية الاسلام 12، الاغتراب في الشعر الجاهلي 2.
(26) ينظر: الاغتراب في الشعر الجاهلي 3.
(27) ينظر: تحول المثال، دراسة لظاهرة الاغتراب في شعر المتنبي 12،
(28) ينظر: الاغتراب في تراث صوفية الاسلام: 14.
(29) ينظر: الاغتراب وعلاقته بالتمرد وقلق المستقبل 50.
(30) ينظر:الاغتراب في تراث صوفية الاسلام 37، الاغتراب في الثقافة العربية 37-38.
(31) ينظر: الاغتراب وعلاقته بالتمرد وقلق المستقبل 68.
(32) ينظر: الاغتراب في الثقافة العربية 52.
(33) ينظر: الاغتراب في الشعر الجاهلي 26، الاغتراب وعلاقته بالتمرد وقلق المستقبل 73.
(34) ينظر: الاغتراب في تراث صوفية الاسلام 13-14 نقلاً عن
The new encyclopedia Britannica, w, Benton, USA, 1974, Vol, 1,P. 574.
(35) ينظر: الاغتراب في الشعر الجاهلي 39.
(36) ينظر: المصدر نفسه 5.
(37) يوجد في الديوان المطبوع (20) قصيدة قالها بعد فقده البصر، ونظن أنه قال أكثر من هذا العدد بكثير لأن جامع الديوان لم يطلع على مخطوطتين للديوان على درجة عالية من الأهمية والنفاسة، احدهما بغدادية فيها (7087) بيت، والاخرى مكية فيها (8335) بيت، بينما يحوي الديوان المطبوع على (6655) بيت فقط؟ ينظر: سبط ابن التعاويذي 93-100.

(38) ينظر: الابداع في الفن والعلم 68.
(39) ينظر: الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد 111-126، الشعر العراقي في القرن السادس الهجري 27-28، 82، 11 – 114.
(40) ينظر: ديوانه 45، 47، 59، 60، 69، 75، 139، 142، 144 وغيرها.
(41) ينظر: سبط ابن التعاويذي 104 – 107.
(42) الديوان العزيز او ديوان الخلافة ديوان يخص شعراء الدولة العباسية وكتابها يُعتقد ان الخليفة الناصر لدين الله أنشأه في أول سني حكمه. ينظر: الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد 87-97.
(43) ينظر: ديوانه 269، 296، 302، 303، 356.
(44) ينظر: الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد، 123، ديوانه 139 – 141.
(45) كذا في الديوان والصواب يحل به من السلطان.
(46) ديوانه 60 .
(47) استاذ الدار: وظيفة استحدثت في العصر العباسي الأخير، يتولى صاحبها شؤون دار الخلافة، وقد تتعدى سلطته سلطة الوزير، ينظر: حضارة العراق 64/5.
(48) هو مجد الدين ابو الفضل هبة الله بن الصاحب استاذ دار الخلافة، قام بالبيعة للخليفة الناصر لدين الله وتحكم في أمور الدولة، قتل في سنة (583هـ) بأمر من الخليفة، ينظر: الكامل في التاريخ 562/11.
(49) ينظر: ديوانه 12-13.
(50) ينظر: م. ن 12.
(51) م. ن 6 – 7.
(52) م. ن 7 – 8.
(53) م. ن 8.
(54) انظر القصيدة (57) في ديوانه.
(55) م. ن 9.
(56) م. ن 10.
(57) م. ن 151 – 152.
(58) م. ن 154 – 155.
(59) م.ن 99

(60) ينظر: مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية 289 – 291.
(61) انظر القصائد 44و 98 و 208 و 243 و 266 و 267 ديوانه.
(62) م. ن 222.
(63) م. ن 223.
(64) الشعر العراقي في القرن السادس الهجري 149.
(65) م. ن 117.
(66) ديوانه 44، الاتراب واللدات/ المتماثلون.
(67) م. ن 7، غب عطاء: قليل عطاء، ففوّفَت [اساس البلاغة/ فوف وفوَّق السهم: جعل الوتر في فوقه عند الرمي].
(68) الاغتراب في الشعر العباسي 151.
(69) رحلة ابن جبير 194.

(70) ينظر: الاغتراب في الشعر العباسي 94 – 95.
(71) ينظر: الاغتراب وعلاقته بالتمرد وقلق المستقبل 77.
(72) ينظر: الاغتراب في الثقافة العربية 52.
(73) الاغتراب في الشعر الجاهلي 115.
(74) ديوانه 272.
(75) م. ن 273.
(76) ينظر: توظيف الون في شعر المكفوفين في العصر العباسي 30.
(77) ديوانه 396.
(78) ينظر: قلق الكفيف 23، وديوانه 79.
(79) م. ن 192.
(80) م. ن الصفحة ذاتها.
(81) م. ن 191.
(82) ينظر: خطبة ديوانه 12 والديوان 6، 8، 21، 30، 67، 276، 373، 374، وغيرها.
(83) ينظر: م. ن 15 – 16.
(84) م. ن 191.
(85) ينظر: معجم الادباء 6/ 2560 ووفيات الاعيان 4/ 466.
(86) ينظر: العزلة والمجتمع 119.

(87) **ينظر ديوانه**
(88) **ينظر: قلق الكفيف 24.**
(89) **ديوانه 68.**
(90) **م. ن 121، يمشي الضراء: يمشي مستوياً، رُخاء: ريح لينة سريعة، تعتام: تختار**
(91) **م. ن 191.**
(92) **ينظر: قلق الكفيف 84.**
(93) **ديوانه 395.**
(94) **ينظر: مشكلة الانسان 113.**
(95) **ينظر: قلق الموت 18.**
(96) **ديوانه 79.**
(97) **م. ن 68.**
(98) **م. ن 482.**
(99) **ينظر: الاغتراب في الشعر الجاهلي 172.**
(100) **ديوانه 192 .**
(101) **م. ن 63.**
(102) **القيم الجمالية في شعر الكميت بن زيد الاسدي 55.**
(103) **ديوانه 482، وينظر المصدر نفسه 9، 79، 148.**
(104) **م. ن 371 .**
(105) **ينظر: البناء الاستعاري للدهر في الشعر الجاهلي، ص693.**
(106) ينظر : مشكلة الانسان 85 .
(107) ديوانه 412 .
(108) ينظر : الاغتراب في الشعر الجاهلي 200 .

(109) ينظر : ديوانه 473 .
(110) م.ن الصفحة ذاتها .
(111) ينظر : م. ن 838 .
(112) م.ن الصفحة ذاتها، الاين : الأعياء والتعب، الزُبرة : قطعة الحديد، القين: الحداد .
(113) م.ن 882 .

مظان البحث

(أ) المصادر

القرآن الكريم.

1. الابداع في الفن والعلم، د. حسن احمد عيسى، سلسلة عالم لمعرفة (24)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1979.
2. الاغتراب في تاريخ صوفية الاسلام، د. عبد القادر موسى المحمدي، بين الحكمة، بغداد/ 2001.
3. الاغتراب في الشعر العباسي في القرن الرابع الهجري، الدكتورة سميرة سلامي، دار الينابيع، دمشق، ط1، 2000.
4. الشعر العراقي في القرن السادس الهجري، مزهر عبد السوداني، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، سلسلة دراسات (215) بغداد، 1980.
5. الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد، عبد الكريم توفيق العبود، منشورات وزارة الاعلام، سلسلة الكتب الحديثة (97) ، بغداد، 1976.
6. العزلة والمجتمع، نيقولاي برديائف، ترجمة فؤاد كامل عبد العزيز، مراجعة على أدهم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1982.
7. الكامل في التاريخ، الشيخ العلامة عز الدين ابي الحسن على ابن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بأبن الأثير، دار صادر، بيروت، 14–2 – 1982.
8. تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي ولاجتماعي، الدكتور حسن ابراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مج 4، (د. ت).

9. تحول المثال، دراسة لظاهرة الاغتراب في شعر المتنبي، صالح زامل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2003.
10. ديوان سبط بن التعاويذي اعتنى بنسخه وتصحيحه د. س. مرجليوث (نسخة مصورة عن طبعة المقتطف بمصر 1903)، بيروت، دار صادر (د. ت)
11. رحلة ابن جبير، دار صادر ، بيروت، (د. ت)
12. سبط ابن التعاويذي، حياته وشعره، نوري شاكر الآلوسي، مطبعة الأزهر، بغداد، ط1، 1975.
13. لسان العرب للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم أبن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، (د. ت).
14. مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية، د. عبد الحليم حنفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987.
15. معجم الادباء (ارشاد الاريب الى معرفة الأديب) لياقوت الحموي الرومي، تحقيق الدكتور احسان عباس، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط1، 1993.
16. وفيات الاعيان وانباء أبناء الزمان، لأبي العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر بن خلكان (608 – 681هـ) حققه الدكتور احسان عباس، دار صادر، بيروت (د. ت) .

دراسة تأثير الأكاسيد والكبريتيدات على سبائك الحديد

ستار عبود عباس
جامعة واسط/كلية التربية الاساسية

الخلاصة:

يحصل أثناء عمليات الصهر والصب لإنتاج السبائك الحديدية المختلفة تخلف عدد من الأكاسيد والكبريتيدات في تلك السبائك , وذلك لكون قابلية ذوبانهما واطئة ,حيث يكونان مخلفات لا معدنية في الفولاذ. أن شكل وعدد وحجم وطريقة توزيع هذه المخلفات يؤثر على نوعية السبيكة وادائها وسلوكها في التطبيقات الهندسية. تم في هذا البحث دراسة حجم وشكل وأنواع هذه الأكاسيد باستخدام محاليل كيميائية لإظهارها ولإيجاد الدليل K_0 والذي يمثل النسبة المئوية للأكاسيد والكبريتيدات داخل البنية التركيبية للفولاذ. وكذلك دراسة العلاقة بين هذا الدليل والخواص الميكانيكية للفولاذ المطروق . من خلال النتائج التي حصلنا عليها تبين وجود علاقة عكسية بين قيم الاستطالة ومقاومة الصدمة مع الدليل K_0 والى وجود علاقة طردية بينهما وبين مقاومة الشد.

Study influence of size and sulphides and oxides on the steel alloy.

Sattar A.Abass
Science department , college of basic education, wasit University

Abstract :

Number of elements as Sulpher and Oxygen can be found as sulphides and oxides in steel, and as they have low solubility in steel, they are presented as non-metallic inclusions. The shape, number, size and distribution of these inclusions have a significant influence on the comportment of steel in various engineering applications.

The object of this study is to examine the shape and type of non-metallic inclusions by using chemical reagents and to determine the indices K_0 which give the percentage amount of these inclusions in the structure of steel. Then to investigate the relation between these indices and mechanical properties.

It is concluded that ductility and shock resistance are inversely proportional to the indices, which tensile strength is proportional directly with these indices.

أنواع الأكاسيد والكبريتات اللامعدنية:

يكون الاوكسجين والكبريت وبعض العناصر الاخرى كالسليكون والمنغنيز متضمنات لامعدنية كأطوار غير معدنية في اساس معدني ولايوجد ترابط بينها وبين المعدن الاساس وغير ذائبة فيه [1] , وتصنف المتضمنات اللامعدنية الى نوعين رئيسيين هما [2-4] .

المتضمنات الخارجية :

وهي التي تنتج من مصادر خارجية مثل الخبث أو المواد التي تلتصق بالمعدن خلال عملية الصهر والصب وغالبا ما يكون هذا النوع من المتضمنات عيانياً على سطح المصبوبة ويمكن معالجته مباشرةً.

المتضمنات الداخلية :

وهي التي تكون على شكل مركبات اغلبها من الاوكسيدات والكبريتات وتتكون نتيجة التفاعلات الكيميائية بين الالمنيوم والاوكسجين ،والسيليكون والاوكسجين ,والمنغنيز والكبريت . وهذا النوع من المتضمنات عادةً ما تكون صغيرة جداً وتحتاج الى تكبير مجهري لرؤيتها وتمييزها ويكون توزيعها منتظم داخل التركيب المجهري واحياناً توجد على الحدود الحبيبية .

وقد صنف هذا النوع من المتضمنات الى عدة أنواع , حيث صنفها الباحثان سميز وداهل الى ثلاثة أنواع حسب شكلها وحجمها وطريقة توزيعها [5] .

اما المواصفة اللالمانية القياسية DIN-50602 فقد صنفت هذا النوع من المتضمنات الى اربعة انواع هي: [6] .

1- المتضمنات الكبريتية المستطالة sulphide elongated inclusions ويرمزلها SS.

2- المتضمنات الاوكسيدية المبعثرة oxide forgmented inclusions ويرمز لها بالرمز OA (الومينا).

3- المتضمنات الاوكسيدية المستطالة oxide elongated inclusions ويرمز لها بالرمز OS (سيليكات)

4- المتضمنات الاوكسيدية المدورة oxide globular inclusions ويرمز لها بالرمز OG , .وقد تتكون متضمنات مختلفة مثل الاوكسي – كبريتيدية،أو مزيج مختلط من الالومينا وكبريتيد المنغنيز.

درجة النقاوة:

قيمة تبين محتوى المتضمنات اللامعدنية التي تكون على شكل أكاسيد أو كبريتيدات في البنية التركيبية ، ويوظف دليل يتناسب مع محتوى المتضمنات يرمز له بالحرف (K) ويعرف هذا الدليل على انه النسبة المئوية لمساحة المتضمنات اللامعدنية في البنية التركيبية ونحصل عليه من حاصل جمع عدد المتضمنات على ضوء مساحتها وأبتداءاً من حجم محدد وصاعداً .وهناك أعداد تسمى أعداد تتابع rating numbers وهي من صفر الى ثمانية توزع عليها المتضمنات حسب طولها أو عرضها أو قطرها حيث أن كل مدى معين من الطول أو العرض للمتضمنات يوضع تحت عدد تتابعي.

ويعتمد حساب المتضمنات على العامل المحسوب على أساس المتوالية الهندسية (2^{n-4}) حيث n هو عدد التتابع ويتم أعتماد عدد التتابع المعين حسب طريقة تصنيع الفولاذ ونوعه .فمثلاً في طرق الصهر بالهواء وفولاذ الهياكل والعدد يستخدم عدد التتابع رقم (4) وصاعداً أي نبدأ بحساب المتضمنات التي تكون أبعادها من العدد التتابعي رقم (4) وصاعداً أي المتضمنات التي بعرض 0.5 مايكرون وطول يتراوح بين (2200-4400) مايكرون ،ونهمل المتضمنات التي تكون اصغر من ذلك وفي هذه الحالة يضاف الرقم (4) الى الحرف (K) السابق فيسمى الدليل (K_4). اما الفولاذ المصنع عن طريق الصهر بالفراغ او في طريقة اعادة الصهر بكهربة الخبث (ESR) فيتم استخدام عدد التتابع رقم (1) وصاعداً ويسمى الدليل في هذه الحالة (K_1) اما الدليل (K_0) فيعني حساب جميع المتضمنات دون استثناء اي نبدأ بالمتضمنات التي تكون تحت العدد التتابعي رقم صفر وهي التي تكون بعرض 0.5 مايكرون وطول يتراوح بين (150-290) مايكرون أي ان الرقم الذي يلي الحرف (K) يشير الى اصغر عدد تتابعي مستخدم [6]. وقد تم أستخدام العدد التتابعي (K_0) في هذا البحث .

طريقة أعادة الصهر بكهربة الخبث :

تستخدم تقنية اعادة الصهر بكهربة الخبث لانتاج فولاذ وبمواصفات ونوعية عالية ويرمز لها اختصاراً بالرمز (ESR) . وتتلخص هذه الطريقة بإعادة صهر قطب من الفولاذ منتج بعملية صهر اولي ويغمر هذا القطب في خبث ساخن جداً فعند ارتفاع درجة الحرارة الى أعلى من درجة حرارة السيولة للمعدن فأن رأس القطب سينصهر ويمر خلال هذا الخبث السائل وخلال مروره فأنه ينقى وينظف من الملوثات كالأكاسيد والكبريتيدات من خلال التفاعل بين مكونات الخبث والمنصهر المعدني وأن المتضمنات المتبقية ستكون صغيرة الحجم وموزعة خلال المصبوبه وتكون متجانسه وخاليه من الأنعزاليه (segregation) والفجوات مما يؤدي الى تحسين الخواص الميكانيكية بشكل كبير [7] .

ومن البحوث السابقة الخاصة بموضوع المتضمنات اللامعدنية أي أستخدام نفس هذه الطريقة, توصل R.H.Elweel(1975) وجماعته الى أن الخواص الميكانيكية للفولاذ يمكن تحسينها بالسيطرة على شكل المتضمنات وذلك بالوصول الى نسبة قليلة جداً من الكبريت من خلال أستخدام طريقة الـ (ESR) .[8].

وبحث لي S.LEE(1989) في العلاقة بين التركيب المجهري والهشاشة وأكد أن الفجوات تتكون أولاً حول المتضمنات الكبريتيدية الكبيرة الحجم [9].

وأشار جونهن يو Chunhn,iuo(2000) الى سلوك المتضمنات والمادة الاساس المحيطة بها خلال عمليات الدرفلة على الحار والطرق للفولاذ, وأشار الى أن الفجوات تتكون في السطح الفاصل بين المادة الأساس والمتضمنات وتناول الاجهادات المتولدة نتيجة وجود هذه المتضمنات [10].

الجانب العملي :

مقدمة: تم في هذا البحث أستخدام نماذج من سبيكة الفولاذ واطئ التسبيك هي السبيكة (30NiCrMo16-6) وهذه السبيكة منتجة بطريقة أعادة الصهر بكهربة الخبث (ESR). والجدول رقم (1) يبين التركيب الكيميائي القياسي لهذه السبيكة [11].

جدول رقم (1) التركيب القياسي الكيميائي للسبيكة .

نوع السبيكة	C	Si	Mn	P	S	Cr	Mo	Ni
$30NiCrMo_{16-6}$	0.27-0.33	0.15-0.35	0.4-0.6	0.035	0.035	1.3-1.5	0.4-0.5	3.8-4.2

تحضير النماذج :

أن الفحوصات التي أجريت خلال هذا البحث تتطلب تهيئة خاصة للنماذج ولذلك تطلب أجراء عمليات عديدة تشمل :

أ- التقطيع : حيث يتم تقطيع النماذج من أماكن وأتجاهات معينة بوسطة آلة القطع.

ب-التشغيل : يتم تشغيل نماذج خاصة لفحوصات الشد والصدمة وبأبعاد معينة بواسطة المخرطة والفريزه .

ج- التنعيم والصقل : جرى تنعيم وصقل النماذج الخاصة بفحوصات درجة النقاوة والحجم والتركيب المجهري وذلك باستخدام ورق التجليخ بدرجات مختلفة وعجينة الماس وباحجام حبيبية مختلفة .

د- الأظهار الكيميائي : يتم معاملة النموذج بمحلول حامض النتريك والذي يتكون من (2-4%) حامض النتريك و (96-98%) كحول أيثانول أو ميثانول.

الأجهزة المستخدمة :

أ- التركيب الكيميائي : لغرض فحص التركيب الكيميائي تم أستخدام جهاز تألق الأشعة السينية X-Ray Fluorescence(XRF) .

ب- الفحوصات الميكانيكية:

تمت فحوصات الشد حسب المواصفة الألمانية القياسية DIN50125 [12], بجهاز فحص الشد Shimadzo Servo ياباني الصنع.

أما فحص الصدمة فتمت حسب المواصفة الألمانية القياسية DIN50115 [13] بجهاز فحص الصدمة (Impact) أنكليزي الصنع ,أضافة الى فحص الصلادة بمقياس برينل حيث تم أستخدام جهاز (Willson Rockwell-500) أمريكي الصنع.

جـ-فحص درجة النقاوة :

تم الفحص حسب المواصفة الألمانية القياسية DIN50602 وبأستخدام المجهر الضوئي وبتكبير 100X حيث أجري الفحص بعد أتمام عمليتي الصقل والتنعيم فتظهر المتضمنات بوضوح على سطح النموذج فيتم حسابها حسب الأنواع الأربعة الواردة سابقاً [6].

د- فحص الحجم الحبيبي :

أستخدم المجهر الضوئي وبتكبير 100X وبأتباع أسلوب الأكسدة وحسب المواصفة القياسية الأمريكية ASTM E112-96 حيث يصقل النموذج جيداً ويوضع في الفرن ويسخن الى درجة حرارة 875 ± 14 م^0 لمدة ساعة ثم يبرد بالماء ويعاد صقله مرة اخرى لا ظهار الحدود الحبيبة للاوستنايت [14] .

النتائج والمناقشة :

نتائج فحص التركيب الكيميائي :

يبين الجدول (2) نتائج التحليل الكيميائي للنماذج المأخوذة من السبيكة المنتجة محلياً.

الجدول رقم (2) يبين نتائج التركيب الكيميائي.

رقم النموذج	C%	Si%	S%	P%	Mn%	Cr%	Mo%	Ni%	V%
1	0.2	0.02	0.007	0.007	0.42	1.27	0.44	2.63	0.1
2	0.37	0.34	0.006	0.011	0.46	1.62	0.49	3.3	0.13
3	0.36	0.33	0.007	0.009	0.46	1.58	0.49	3.25	0.09
4	0.28	0.21	0.01	0.009	0.48	1.58	0.45	3.45	0.08
5	0.29	0.23	0.011	0.012	0.47	1.56	0.43	3.42	0.1
6	0.28	0.21	0.014	0.008	0.47	1.54	0.45	3.45	0.09
7	0.3	0.32	0.009	0.009	0.43	1.52	0.44	3.43	0.07
8	0.3	0.3	0.01	0.026	0.58	1.67	0.51	3.45	0.12
9	0.29	0.22	0.01	0.008	0.48	1.85	0.45	3.46	0.08
10	0.31	0.24	0.009	0.011	0.43	1.51	0.44	3.5	0.06

نتائج فحوص درجة النقاوة :

اختلفت درجة النقاوة للنماذج المفحوصة ضمن مديات متوسطة نسبياً حيث تراوحت بين -25 7.0 بالنسبة للدليل K_o (أي شمول جميع المتضمنات اللامعدنية في الحساب)

أي بعرض 0.5 مايكرون وبطول يتراوح بين (150-290) مايكرون ومع أن المواصفة تحدد الدليل K_1 في حساب المتضمنات اللامعدنية بالنسبة للفولاذ المصنع بطريقة ESR الا أننا اخذنا بنظر الاعتبار المتضمنات الأصغر أي حساب الدليل K_0 لنرى تأثير ذلك على خواص الفولاذ وهل تتغير علاقة تلك الخواص بمحتوى المتضمنات اللامعدنية في تلك الحالة عن تلك العلاقة

في حالة حساب K_1 [15] . يتضمن الجدول رقم (3) النتائج النهائية لدرجة النقاوة بدلالة الدليل K_0 والحجم الحبيبي , ان أغلب النماذج منتجة بنفس الطريقة ولكننا نلاحظ تفاوت في مقدار محتوى المتضمنات من خلال الدليل K_0 ,وهذا يعتمد على الدقة في تنفيذ خطوات العمل في عملية الصب والصهر وعلى الدقة في حساب النسبة المئوية للعناصر السبائكية المضافة وكذلك على محتوى الكبريت والاوكسجين .

الجدول رقم (3) النتائج النهائية لمحتوى المتضمنات بدلالةK_0, والحجم الحبيبي.

رقم النموذج	K_0	الحجم الحبيبي (مايكرون)	رقم الحجم الحبيبي ASTM(G)
1	8	55	5.4
2	10	50	5.7
3	7	70	4.7
4	15	40	6.3
5	18	38	6.5
6	13	45	6
7	25	35	6.8
8	20	60	5.2
9	16	55	5.4
10	5.5	43	6.2

فحص الحجم الحبيبي :

بينا سابقاً بأن للمتضمنات تأثير على حجم الحبيبات المتكونة من خلال كونها تعتبر أجنة يبدأ عندها التبلور وأن العلاقة بين عدد المتضمنات والحجم الحبيبي موضحة ضمن الجدول رقم(3) مع نتائج فحوصات النقاوة .

يمثل الشكل رقم (1) العلاقة البيانية بين الحجم الحبيبي ومحتوى المتضمنات بدلالة K_0 حيث نلاحظ من الشكل المذكور التناسب العكسي غير الخطي بينهما مع انحراف بعض النقاط مثل النقاط 8 و 10 على الشكل والتي تمثل النماذج 8 و 10 على التوالي حيث يلاحظ من الجدول رقم (2) ان النموذج رقم 10 يمتلك نسبة عالية من النيكل لذا كان الحجم الحبيبي صغيراً أما النموذج 8 فيمتلك نسبة عالية من الكروم والذي يساعد على نمو الحجم الحبيبي أي النقطتين 8 و 10 في الشكل (1).

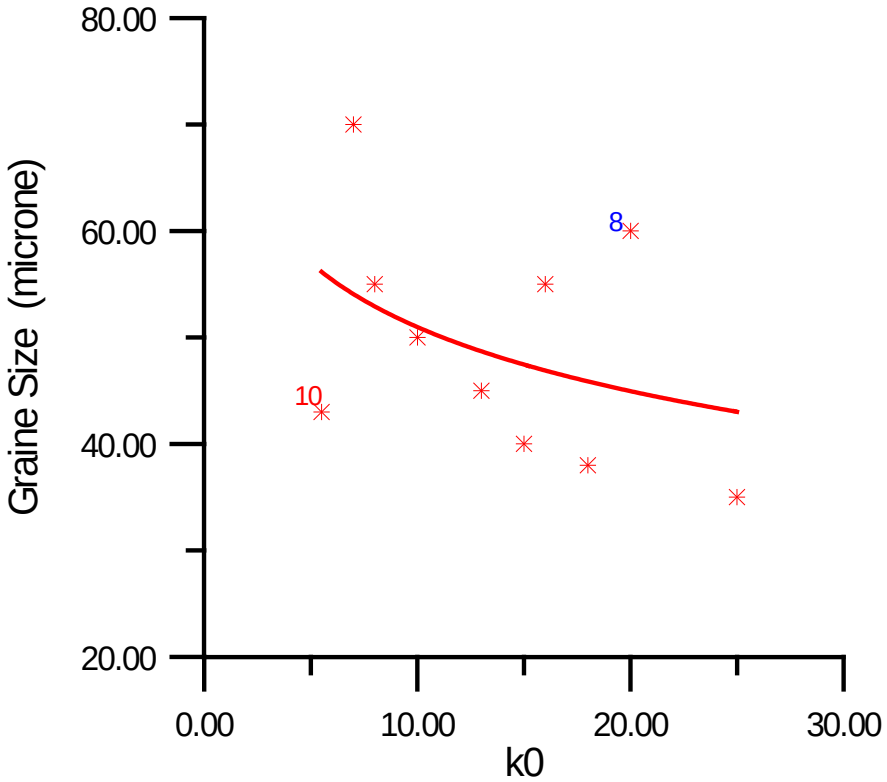

شكل رقم (1) العلاقة بين الحجم الحبيبي ودرجة النقاوة K_0.

فحص التركيب المجهري :

وجد من الواضح في هذا الفحص أن التركيب المجهري لجميع النماذج هو المارتنسايت لأنها تعرضت لعملية الأصلاد نفسها لذا فأنها تمتلك نفس التركيب المجهري حيث أن الطور يتكون عند تسخين الفولاذ الى منطقة الأوستينات ثم يبرد بالماء في مرحلة تصنيع المسبوكة . ويمثل الشكل رقم (2) صورة فوتوغرافية لتركيب المارتنسايت للنموذج رقم (1).

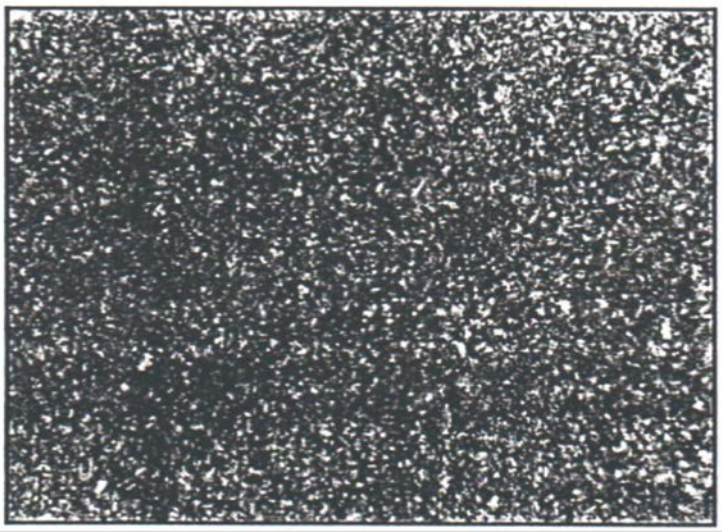

الشكل رقم (2) تركيب المارتنسايت للنموذج رقم (1) 100X.

المعاملة الكيميائية :

عند أستخدام محلول 1% من حامض الأوكزاليك على مجموعة مستطالة من المتضمنات أللامعدنية لم تتأثر بهذا المحلول مما يدل على أنها ليست كبريتيدات حديدية, بل تأثرت بمحلول 10% من حامض الكروميك وأصبح لونها داكن مما دل على أنها كبريتيدات منغنيزية كما في الشكل رقم (3) .وتأثرت بعض المتضمنات بمحلول الأوكزاليك مما دل على أنها كبريتيدات حديدية وكذالك تأثرت متضمنات أخرى بمحلول 1% من حامض الهيدروفلوريك مما دل على أنها سليكات وهناك متضمنات لم تتأثر بأي من هذه المحاليل, كما في الشكل رقم (4).

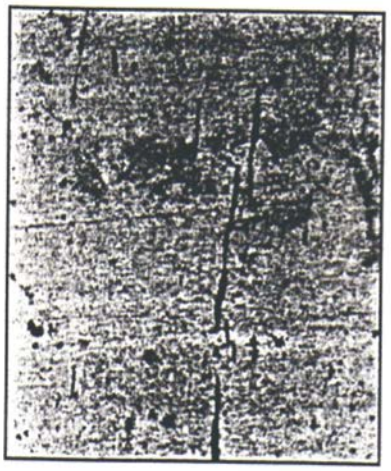

الشكل(3) متضمنات مستطالة بعد المعاملة الكيمياوية 100x

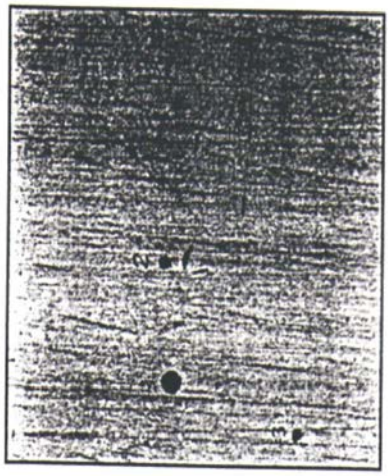

الشكل (4) متضمنات من كبريتيد الحديد وسليكات الحديد 100x

نتائج الفحوصات الميكانيكية :

يتضمن الجدول (4) نتائج الفحوصات الميكانيكية ودرجة النقاوة .
الجدول رقم (4) يبين نتائج الفحوصات الميكانيكية ودرجة النقاوة .

رقم النموذج	مقاومة الخضوع N/mm	مقاومة الشد القصوى N/mm	صلادة برينل HB	مقاومة الصدمة J	الأستطالة %	K_0
1	1020	1120	350	170	15.5	8
2	1055	1155	352	160	15	10
3	1030	1130	345	180	16	7
4	1090	1200	363	140	14	15
5	990	1070	340	135	12.5	18
6	1040	1160	350	150	14.5	13
7	1110	1200	380	110	11	25
8	980	1070	350	120	12	20
9	1100	1180	360	140	14	16
10	1120	1310	365	200	17	5.5

ويمثل الشكل (5) العلاقة بين الصلادة ومحتوى المتضمنات بدلالة K_o حيث نلاحظ التناسب الطردي بينهما لأن المتضمنات هي اطوار صلدة لذا فأنها من البديهي ان تؤدي الى زيادة صلادة المادة سواء كانت بدلالة K_o او K_1 [16] مع ملاحظة أنخفاض القيمة التي تقل فيها صلادة المادة مع أزدياد المتضمنات أي القيمة التي تسبب ضعف في تركيب المادة حيث نلاحظ هبوط الصلادة عند قيمتي K_o تساوي 18و20 فهي قيمة محتوى المتضمنات الموضحة في النقطتين (1و2) الشكل رقم (5).

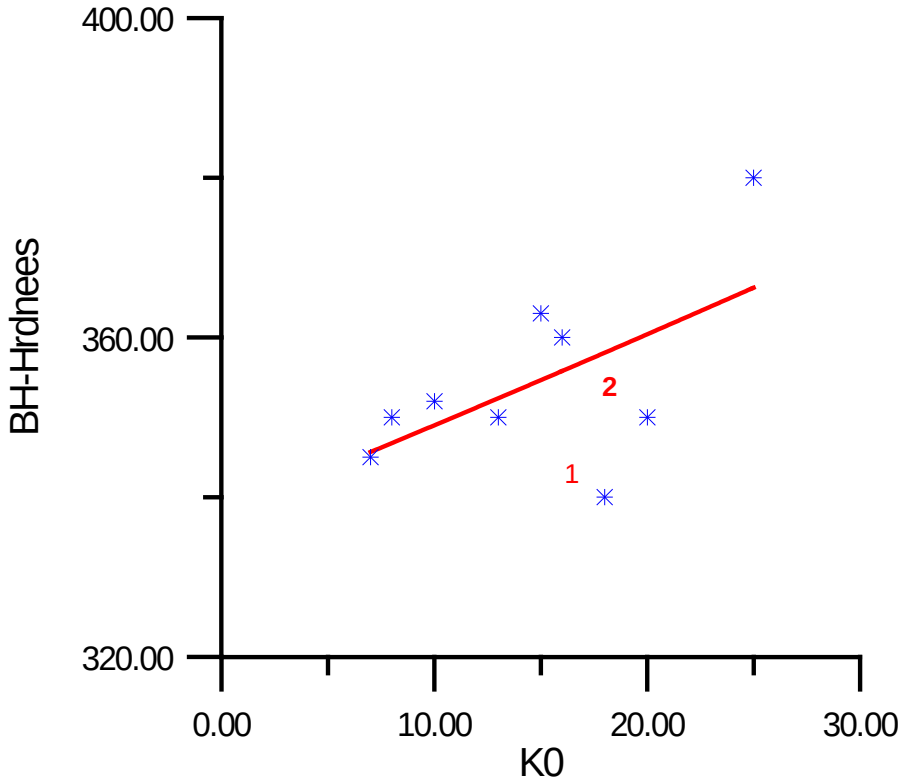

الشكل رقم (5) يبين العلاقة بين الصلادة والدليل k_0 .

أما الشكل رقم (6) فيمثل العلاقة بين مقاومة الشد ومحتوى المتضمنات K_0 حيث نلاحظ التناسب الطردي أيضاً مع وجود نقطتين تنخفض فيهما مقاومة الشد حيث ذكرنا سابقاً بأن المتضمنات تعتبر أحياناً من عوامل الضعف في تركيب المادة ,(النقطة 1 و 2) .

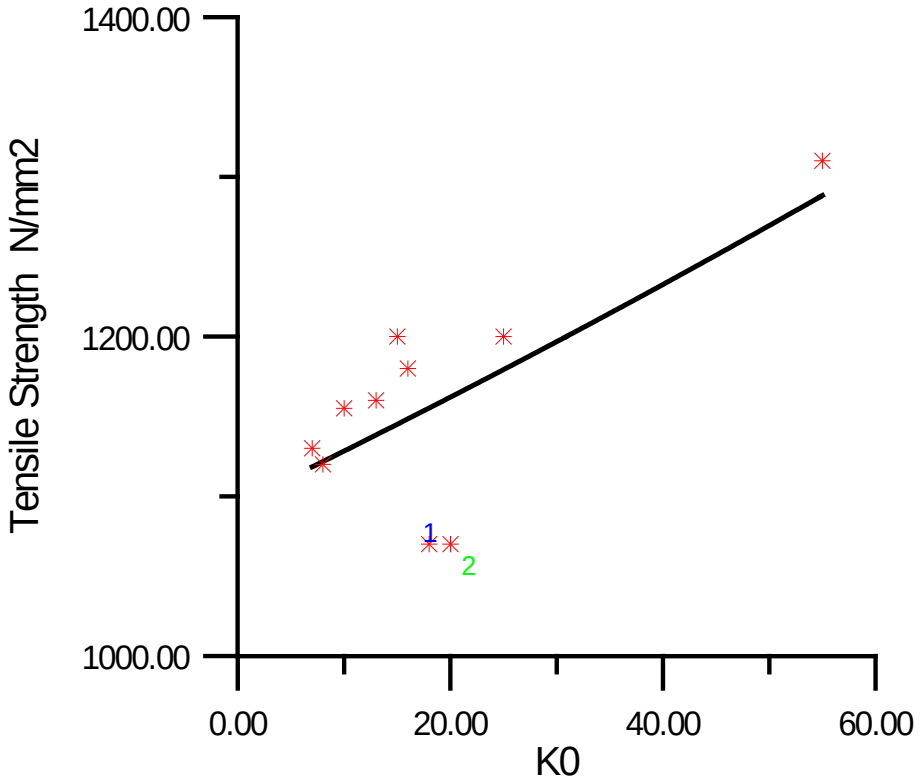

الشكل رقم (6) يبين العلاقة بين مقاومة الشد القصوى و K_0.

أما العلاقة بين الأستطالة ومحتوى المتضمنات بدلالة K_0 فيمثلها الشكل رقم (7) حيث نلاحظ التناسب العكسي بينهما مع ملاحظة أمتلاك هذه السبيكة نسبة استطالة جيدة حيث تصل الى 17% أي أمتلاكها نسبة جيدة من المطيلية .

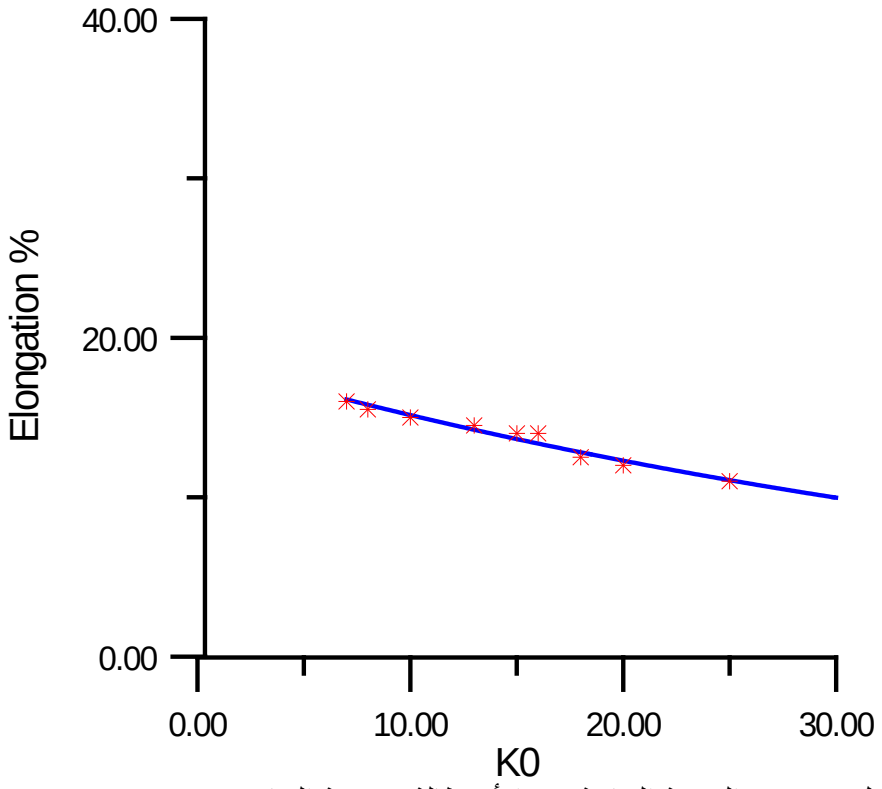

الشكل رقم (7) العلاقة البيانية بين الأستطالة ودرجة النقاوة K_0.

ويمثل الشكل رقم (8) العلاقة بين مقاومة الصدمة و K_0 ,ونلاحظ كذلك التناسب العكسي غير الخطي بينهما لأن زيادة المتضمنات تؤدي الى تحول تصرف المادة من المطيلي الى الهش أي قلة مقاومة الصدمة مع زيادة نسبة المتضمنات اللامعدنية .

ومن الشكلين (7 و 8) نلاحظ التأثير الواضح للمتضمنات على الأستطالة ومقاومة الصدمة لأن هاتين الخاصيتين الميكانيكيتين من الخواص الحساسة جداً لوجود المتضمنات اللامعدنية وهما مشابهين تقريباً للعلاقة التي حصل عليها الباحثين B.BSeth & L.E.Wagner بين كل من الأستطالة ومقاومة الصدمة وبين نسبة الكبريت الذي يمثل العنصر الرئيسي لتكوين المتضمنات [8].

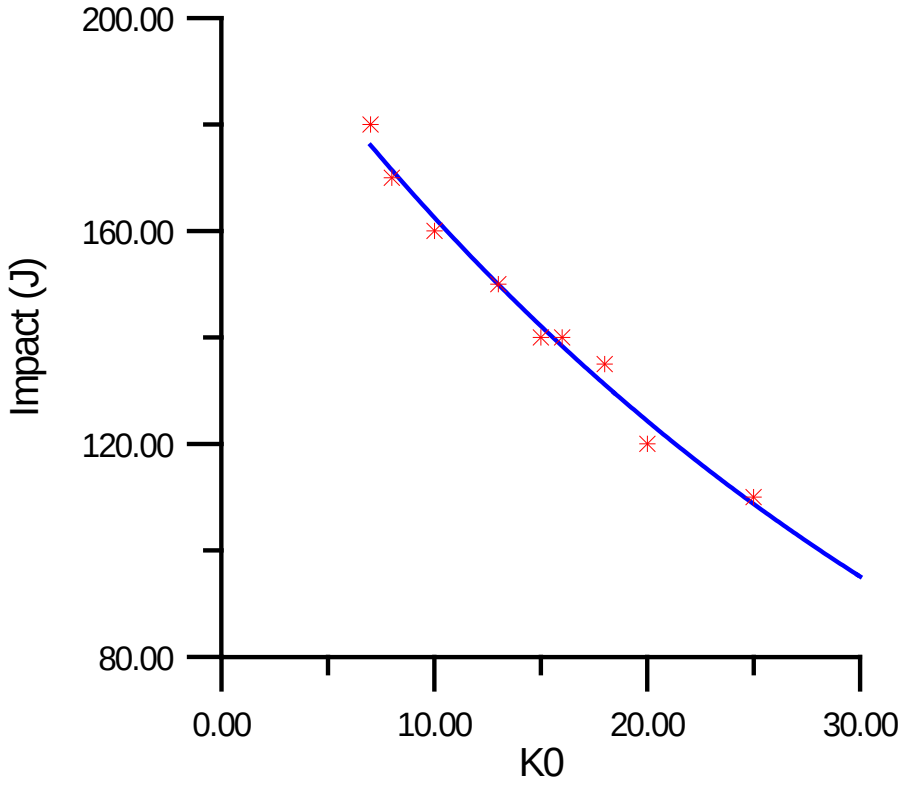

الشكل رقم (8) العلاقة البيانية بين مقاومة الصدمة ودرجة النقاوة K_0.

الأستنتاجات :

من خلال المعطيات التي حصلنا عليها في هذا البحث نستطيع أن نلخص الأستنتاجات التالية :

1- للمتضمنات اللامعدنية تأثير واضح في حالة حساب الدليل k_0 .
2- للمتضمنات اللامعدنية تأثيراً عكسياً وبشكل غير خطي على كل من الأستطالة ومقاومة الصدمة .
3- للمتضمنات اللامعدنية تأثيراً طردياً بالنسبة لمقاومة الشد القصوى والخضوع .
4- المتضمنات المستطالة والكبيرةالحجم لها تأثير أكبر من المتضمنات كروية الشكل وصغيرة الحجم .

المصادر :

1- Metal Handbook 9th edition Vol.9 "Metallugraphy and Microsructure"1985.
2- P.R.Beeley " foundry technology"1972.

3-V. Voort, George F. (1984). Metallographic, Principles and Practice. McGraw-Hill.
4- D. Kopeliovich , Non-Metallic inclusions in steel.txt, 2012.

5- Richardw.Heince and R.Loper "Principle of metal casting" 2nd edition 1967.
6- DIN Standard 50602, 1985.
7- Metal Handbook 9th edition Vol. 15 " Casting " 1988.
8- George V.Smith " effect of melting and processing variables on the mechanical properties of steel " 1977.
9-S.LEE " Correlation of microstructure and tempered martensite embrittlement " Metal Trans. Vol. 20A.June 1989.
10- Chunhn. Iuo " behavior of non-metallic inclusion plastic deformation of steel "2000 (internet).
11- Key to steel, 2001.
12- DIN Standard 50125, 1985.
13- DIN Standard 50115, 1966.
14- ASTM Standard E112,1996.
15- S.A. Abass, A.H.Atawi,S.A.Gaced, "Study the influence of non-metallic inclusions on wrought low alloy steel", مجلة الهندسة والتنمية ,المجلد التاسع/العدد الأول - آذار 2005 -
16- S.A.Abass, "(30NiCrMo$_{16-6}$) دراسة تأثير المتضمنات اللامعدنية على السبيكة " مجلة واسط للعلوم والطب , 58-50 : (2)7 2014

الدفع الشكلي ببطلان التبليغ القضائي ومعالجاته

د.نبأ محمد عبد و المحامي مهند ابراهيم حسين
قسم القانون / جامعة تكريت

الخلاصة

تأخذ نظرية الدفوع الشكلية ومنها التباليغ القضائية مكانه هامه في لما لها من اهمية عملية في مجال الخصومة القضائية وتعتبر هذه الدفوع مصطلحاً اجرائياً مضمونه يعني الاداة الاخرى من ادوات استعمال الحق في الدعوى يملك صاحبها سلطة استعمالها من عدمه وان تعلقت بالنظام العام وتخضع الدفوع الشكلية لجملة من المبادئ والاحكام التي تشكل مجتمعة النظام القانوني الذي يحدد كيفية استعمالها منذ وقت ابدائها لغاية الفصل فيها ويؤدي قبولها الى ترتيب اثار هامة ابرزها بطلان العمل الاجرائي الذي يترتب نتيجة مخالفة الاجراء القانوني او عدم توفر احد الشروط اللازمة لصحته بالاضافة لانعدام الاثر القانوني لذلك الاجراء

وتدق مشكلة البحث حين التحدث عن تمليك بعض الاشخاص لعقارات على اساس حكم غيابي صدر بحق الخصم الاخر على اساس التبليغ لخصمه فقط عن طريق النشر في الصحف المحلية ، فهل يمكن ان يعتبر مثل هذا ا الاجراء كافياً للقول بصحة الحكم القضائي الصادر ؟

المبحث الاول

النظام القانوني للدفوع الشكلية

ان استعمال الدفوع الشكلية يتوقف على إحترام المبادئ والاحكام المقررة لها والتي تتمثل في ضرورة إبدائها في الوقت المحدد لها مع توفر شروط قبولها والتنظيم المحدد لكيفية التمسك بها والفصل فيها والاثار المترتبة على ذلك وهو ما سوف نوضحه لكن قبل ذلك لا بد من تحديد مفهومها .

المطلب الاول

مفهوم الدفوع الشكلية

اختلفت مصطلحات وعبارات الفقهاء في تعريفهم للدفع الشكلي لكنهم أجمعوا على نفس عناصر ومضمون مفهومه فما هو تعريف الدفوع الشكلية ؟

اولاً: تعريف الدفوع الشكلية : عرفها الدكتور احمد ابو الوفا بأنها " : الوسائل التي يستعين بها الخصم ويطعن بمقتضاها في صحة إجراءات الخصومة دون أن يتعرض لأصل الحق الذي

يزعمه خصمه فيتفادى بها مؤقتاً الحكم عليه بمطلوب خصمه [1] . ويعد الدفع الشكلي واحد من الحقوق الاجرائية فإن تم مباشرة إجراءات الخصومة خلافاً للشكل او الترتيب او الميعاد المقرر قانوناً نتج بطلان العمل الاجرائي وتولد عنه دفع شكلي [2].

ومن هذا التعريف يتضح لنا بأن الدفع الشكلي هو الوسيلة التي يرمي من خلالها احد طرفي الخصومة وغالباً يكون المدعى عليه إيقاف سير الدعوى بصورة مؤقتة دون المساس بالموضوع وذلك بتوجيه الدفع لاجراء الخصومة دون موضوعها وكما سبق وقلنا فإن الدفع يقابل الدعوى[3] , فهل يتطلب حق إبداء الدفوع شروطاً لقبوله على غرار ما يشترط لقيام الدعوى ؟ وان كان كذلك ما هذه الشروط ؟ .

ثانيا : شروط قبول الدفع

يشترط لقبول الدفع ما يشترط لقبول الدعوى طبقا [4] , لما يأتي بيانه :

1- الصفة : يثور هذا الشرط بالنسبة للدفوع التي يثيرها القاضي من تلقاء نفسه لتعلقها بالنظام العام , اذ يجوز لأي خصم في هذه الحالة ابداؤها لتنبيه القاضي اليها يثور بالنسبة للدفوع الاخرى التي يلزم التمسك بها حتى تقضي بها المحكمة والتوافر الصفة في الدافع الاجرائي لصاحب الحق الاجرائي الذي يتمسك به الخصم في الدفع .

2- المصلحة : وهي الفائدة العلمية لقبول الدفع ويجب ان تتوفر فيها خصائص بان تكون مصلحة قانونية شخصية مباشرة قائمة وحالة وهي :

([1]) ارجع د. احمد ابو الوفا , نظرية الدفوع في قانون المرافعات , منشأة المعارف , الاسكندرية , ص 11 وما بعدها .

[2] – د. امال احمد الفرايزي, مواعيد المرافعات, منشأة المعارف: الاسكندرية, دون سنة نشر, ص126.

[3] – د. نجلاء توفيق فليح, الدفوع الشكلية في قانون المرافعات, مجلة الرافدين للحقوق, مج2, السنة العاشرة, جامعة الموصل, كلية القانون,2005,ص7.

1- د. عباس العبودي, شرح أحكام قانون المرافعات, دار الكتب للطباعة والنشر, الموصل, 2000, ص 197.

و د. ادم وهيب النداوي, المرافعات المدنية, ط2, العاتك لصناعة الكتب: القاهره, 2009, ص84.

ا- ان تكون مصلحة قانونية : اي المصلحة التي يقرها القانون اي يستند الدفع الى حق او مركز قانوني بحيث الغرض منه حماية هذا الحق او المركز القانوني اما اذا كان الدفع لا يستند على حق او مركز يقره القانون فهنا تكون المصلحة اقتصادية لا تكفي لقبول الدفع .

ب – ان تكون المصلحة شخصية ومباشرة : اي يجب ان يتعلق الدفع بصاحب الحق فيه فلا يجوز ان يبدي الدفع شخص لصالح غيره مالم يكن ممثل قانوني له اوله الولاية عليه ويرى بعض الفقهاء ان الشرط هو ذاته شرط الصفة .

ج – يجب ان تكون المصلحة قائمة وحالة : اي غير محتملة

اما فيما يتعلق بشرط الاهلية فهو ليس شرط لقبول الدفع (كذلك الدعوى) انما هي شرط لصحة الاجراءات بالتالي اذا ابدى الدفع ممن ليس اهل لأبدائه كان دفعه مقبولا لكن اجراءاته تكون باطلة وجاز للخصم المقابل الدفع ببطلان الاجراءات لعدم توفر شرط الاهلية .

ثالثا : اهمية التميز بين الدفوع الشكلية والدفوع الموضوعية

تشترك الدفوع الشكلية في صفات خاصة تتميز بها عن الدفوع الموضوعية وهذا ما سوف نحاول تبيانه :

1- انها تبدء قبل التكلم في موضوع الدعوى اي في بدء النزاع والا سقط الحق في الادلاء بها على اعتبار ان صاحب الحق فيها قد تنازل عنها وهذا بالنسبة للدفوع التي لاتتعلق بالنظام العام , اما الدفوع المتعلقة به فيجوز ابدائها في اية حالة تكون عليها الدعوى . كالدفع بعدم الاختصاص النوعي , وكذلك حالة الدفوع الشكلية التي ينشا سببها بعد التكلم في موضوع الدعوى كالدفع بسقوط الخصومة [1] , بينما الدفوع الموضوعية فللخصم ابدائها في اية حالة تكون عليها الدعوى طالما لم توضع القضية في المداولة .

2- الحكم بقبول الدفع الشكلي لا يترتب عليه انهاء النزاع على اصله الحق المدعى به فيجوز للخصم رفع الدعوى من جديد بإجراءات صحيحة بخلاف قبول الدفع الموضوعي فيعتبر حكما

(1) ارجع د. احمد ابو الوفا, المرافعات المدنية والتجارية, ط4, منشأة المعارف: الاسكندرية: 1986, ص15.

في موضوع الدعوى منهيا للنزاع على اصل الحق ولا يجوز تجديد المطالبة به امام القضاء مرة اخرى لسبق الفصل فيه[1] .

3- الحكم الصادر في الدفع الموضوعي يعتبر حكما صادرا في موضوع الدعوى واستئناف هذا الحكم يؤدي الى عرض الدعوى برمتها على الاستئناف اما استئناف الحكم الصادر في الدفع الشكلي فلا ينتقل لجهة الاستئناف من الخصومة الا هذه المسألة فاذا دفع بعدم الاختصاص مثلا وقضيت المكمة بعدم اختصاصها واستؤنف هذا الحكم فأن محكمة الموضوع رأت الغاء هذا الحكم فإنها لا تملك الا ان يعيد القضية الى محكمة الدرجة الاولى للفصل في موضوعها

المطلب الثاني

احكام الدفوع الشكلية

تقتضي دراسة النظام القانوني للدفوع الشكلية البحث في المبادئ التي تحكمها , لذا سنتناولها في فرعين :

الفرع الاول

المبادئ التي تحكم الدفوع الشكلية

تخضع الدفوع الشكلية لأحكام عامة تشترك اغلبها فيها منذ وقت ابدائها لغاية سقوطها

اولاً : وقت ابداء الدفع الشكلي : وهنا نميز بين حالتين :

ان منطق الامور يقتضي أن يبدا الخصم اولاً وفي بدء النزاع بالتمسك بكل جزاء رتبه القانون على مخالفة الشكل ثم يتدرج بعد ذلك الى الموضوع , ولم يتعلق بشكل الاجراءات من دفوع يعني بذلك عن تنازله عن التمسك بالجزاء الذي رتبه القانون على مخالفة الشكل ثم ان العدالة تقتض الا يبقى المدعى مهدداً بالدفوع الشكلية في جميع مراحل الخصومة فيتراخى خصمه في إبدائها ويكون نتيجة ذلك تعطيل الفصل في موضوع الدعوى , وتهديد الاجراءات المتخذة فيها لأنها تكون عرضة للإلغاء , إذ القاعدة ان بطلان الاجراء يؤدي الى زواله وزوال كافة الاجراءات اللاحقة له متى كان هو أساس لها وترتبت هي عليه [(2)] .

---

[1] – د. سعيد عبدالكريم مبارك, المرافعات المدنية, مطبعة جامعة الموصل, 1994,ص18–19.

([2]) راجع احمد ابو الوفا , مصدر سابق , ص 170., و د. احمد مسلم, اصول المرافعات, دار الفكر العربي: القاهره,1978, ص478 وما بعدها.

و د. وجدي راغب, مبادئ الخصومه المدنيه, ط1, دار الفكر العربي, القاهره,1978, ص87–88.

وعلى ذلك يجب على المدعى عليه ان يتمسك بالدفوع الشكلية قبل أي دفع او دفاع والا سقط الحق فيها , فإذا تمسك بدفع موضوعي او بدفع بعدم القبول يترتب على ذلك سقوط حقه في الدفوع الشكلية . وتجدر الاشارة الى انه لا يسقط حق الخصم في الدفع الشكلي إذا تضمنت عريضة افتتاح الدعوى دفعاً إجرائياً وتناولت دفوع موضوعية أيضاً.

الاستثناء : يجوز ابداء الدفوع الشكلية ولو بعد التطرق للموضوع في حالة :

أ- الدفع بالإحالة يجوز الادلاء به في اي مرحلة كانت عليها الخصومة .
ب- الدفوع الشكلية المتعلقة بالنظام العام كالدفع بعدم الاختصاص النوعي فهذه يجوز إبدائها في اية مرحلة ولو بعد الكلام في الموضوع [1] .

ج- الدفع بانعدام الاجراء يجوز ابداؤه في اية حالة تكون عليها الدعوى لان المعدوم لا تلاحقه أية حصانة ولا يتصور ان تزول حالة الانعدام لان المعدوم لا يرتب أي اثر قانوني .

ثانياً : الجمع بين الدفوع الشكلية : ان جميع الدفوع الشكلية تبدا في بداية النزاع معاً وإلاّ سقط فيما لم يبد منها فهي تبدأ بلا ترتيب معين ولكن كلها معاً وذلك لتفادي تعطيل الفصل في القضية بسبب إبداء دفوع إجرائية متتالية في مناسبات متعددة . كل هذا طبعاً ياستثناء الدفوع الشكلية المتعلقة بالنظام العام فيجوز كما سبق إبدائها في أية مرحلة [2] .

في المقابل نجد المشرع الفرنسي في قانون الاجراءات المدنية الجديد اتبع نفس منهج المشرع المصري من حيث وجوب إبداء جميع الدفوع الشكلية معاً وقبل التكلم في الموضوع لكنه شدد في موقفه فلم يستثني من ذلك حتى الدفوع الشكلية المتعلقة بالنظام العام بالتالي يجب أن تبدي هذه الاخيرة مع غيرها من الدفوع الشكلية في بداية النزاع وقبل التكلم في الموضوع والا سقط الحق في التمسك بها , لكن ذلك لا ينفي جواز إثارتها من طرف المحكمة من تلقاء نفسها في أية مرحلة تكون عليها الدعوى [3] .

---

(1) يراجع د. احمد هندي , اصول المحاكمات المدنية والتجارية , الدار الجامعية: بيروت, 1989, ص 218.

(2) ارجع د. احمد ابو الوفا , مصدر سابق , ص 172.

(3) ارجع د. احمد ابو الوفا , مصدر سابق , ص 181- 182.

الفرع الثاني: سقوط الدفوع الشكلية

1- على المدعي عليه ابداء جميع الدفوع الشكلية وجميع الوجوه او الاسباب التي تبنى عليها معا , وقبل ابداء اي طلب او دفاع في الدعوى او دفع بعدم القبول والا سقط الحق فيما لم يبد منها معناه يجب على المدعى عليه ابداء دفوعه الشكلية كلها مرة واحدة وفي جلسة واحدة .

2- يسقط الحق في التمسك بالدفع الشكلي اذا طلب الخصم رفض طلبات خصمه المتعلقة بالموضوع او ناقشها او عرض دفع كل المطلوب منه او بعضه او طلب ادخال ضامن في الدعوى او طلب التأجيل لتقديم المستندات التي تثبت براءة ذمته من الدين كله او بعضه او طلب لتأجيل للاطلاع على مستند معين قدمه خصمه كذلك اذا دفع المدعى عليه بعدم الاختصاص المكاني ثم طلب التأجيل ليثبت بتقديم مستندات معينة تبرئه ذمته من الدين وقدمها فأنه يكون قد عدل عن حقه في التمسك بعدم الاختصاص كذلك الحال اذا طلب المدعى عليه في اول جلسة محددة لنظر القضية تأجيلها لتحقيق الصلح واجلت فلا يجوز له بعد ذلك التمسك بعدم إختصاص المحكمة .

3- كما يسقط الحق في التمسك بالدفع الشكلي اذا طلب المدعى عليه ضم الدعوى الى اخرى إذا كانت مرفوعتين امام نفس المحكمة لان المدعى عليه بذلك يسلم ضمناً بصحة إجراءات الخصومة وبقيامها امام محكمة مخصصة كما يسقط حق التمسك بالدفع الشكلي إذا تمسك المدعى عليه بوقف الدعوى حتى يفصل في مسائل اولية لا تدخل في إختصاص المحكمة النوعي فلا مجال للتمسك بعدم الاختصاص المكاني .

4- يسقط ايضاً حق الخصم في التمسك بالدفع الشكلي إذا تمسك بما من شأنه أن يؤدي الى زوال الخصومة بغير حكم في موضوعها . كما لو تمسك بسقوطها او انقضائها بالتقادم [1]

([1]) ارجع د. احمد ابو الوفا , مصدر سابق , ص 173- 174. كما نصت الفقرة (3) من المادة (73) من قانون المرافعات المدنية على انه:(يزول بطلان التبليغ اذا حضر المطلوب تبليغه او من يقوم مقامه في اليوم المحدد).

5- ويسقط أيضاً حق ابداء الدفع بالشكلي إذا أبدى المدعى عليه دفعاً بعدم القبول , إذا يكون هنا قد تعرض للموضوع مما يستشف منه تنازله الضمني عن الدفوع الشكلية كالدفع بعدم قبول الدعوى لانتفاء الصفة او لانتفاء المصلحة.

المبحث الثاني

الاثار المترتبة على قبول الدفوع الشكلية

ويراد بالأثر ما يترتب على الوقائع من أحكام متمثلة بالحقوق والالتزامات للخصم في الدعوى المقامه, وعليه سنتاول هذا المبحث في مطلبين, المطلب الاول: بطلان العمل الاجرائي والمطلب الثاني بعنوان بطلان التبليغ القضائي ومعالجاته.

المطلب الاول

بطلان العمل الاجرائي .

إن الاثر الذي يرتبه القانون على مخالفة الاجراء لنموذجه القانوني فينعدم أثره الذي كان يولده لو كان الاجراء صحيحاً, فإذا لم يتوفر في الاجراء احد الشروط اللازمة لصحته فإن الاجراءات تكون باطلة , وله صور واحكام سنتناولها كما يأتي :

الفرع الأول: صور البطلان : وسنتناول صورتين هما :

1- البطلان المقرر لمصلحة الخصوم : أي المتعلق بالمصلحة الخاصة وهو البطلان الناشئ عن مخالفة قاعدة قررها المشرع لحماية مصالح الخصوم وهو الغالب في اجراءات التقاضي .

2- البطلان المتعلق بالنظام العام : أي المقرر للمصلحة العامة وهذا النوع ينشأ عن مخالفة قاعدة تستهدف حماية المصلحة العامة كمخالفة قاعدة من قواعد الاختصاص النوعي أو الاهلية وحقيقة الامر إن المشرع عندما يحمي المصلحة الخاصة يحمي في الوقت نفسه المصلحة العامة باعتبار أن ما يحقق خير الفرد يحقق خير المجموع كما أنه عندما يحمي المصلحة العامة يحمي في الوقت نفسه المصالح الخاصة لكن ذلك لا يمنع من إصطدام مصلحة الفرد بمصلحة المجتمع ومن هنا تنشأ ضرورة تغليب إحداهما على الاخرى[1] .

الفرع الثاني: احكام البطلان

[1]- د. عبد الباسط جميعي, مبادئ المرافعات, دار الفكر العربي: القاهرة, 1980,ص74. و د. عبدالرحمن العلام, شرح قانون المرافعات المدنية, ج1, مطبعةالعاني: بغداد, 1970, ص87.

1- بالنسبة للبطلان المتعلقة بالمصلحة الخاصة

اذا كان البطلان نسبياً أي مقرراً لمخالفة شرط تقرر لحماية مصلحة خاصة فإن هذا البطلان تحكمه قاعدتين اساسيتان بالنسبة للتمسك به :

أ- القاعدة الاولى : ان الحق في التمسك بالبطلان يقتصر على من شرع لمصلحته إذ لصاحب هذه المصلحة وحده حق التمسك بالبطلان فإن لم يتمسك به فليس لغيره ذلك , كما أنه ليس للنيابة العامة التمسك به كما لا يكون للقاضي حق إثارته من تلقاء نفسه بالتالي فلا يجوز مثلاً لمن صح اعلانهم من الخصوم التمسك ببطلان إعلان غيرهم في نفس الدعوى .

ب- القاعدة الثانية : تتمثل في انه ليس لمن كان سبباً في بطلان العمل الاجرائي أن يتمسك ببطلانه سواء كان هو الذي تسبب فيه بنفسه أو كان الذي تسبب فيه شخص يعمل بإسمه واساس ذلك انه لا يجوز للخصم أن يستفيد من خطأ ارتكبه أو مخالفة اسهم فيها .

2- بالنسبة للبطلان المتعلق بالنظام العام : اذا كان البطلان مقرراً كجزاء لمخالفة قاعدة مقررة للمصلحة العامة أي يتعلق بالنظام العام فإن الحكم بالبطلان ورعاية المصلحة العامة تعلو على أي اعتبار اخر ويترتب على ذلك ما يلي :

أ- للمحكمة ان تحكم بالبطلان من تلقاء نفسها : وذلك صيانة للنظام العام الذي يعتبر مخالفة القاعدة المعنية انتهاكاً لمبادئه . وقد ينص القانون صراحةً على اعطاء للمحكمة هذه السلطة , الا انه للمحكمة سلطة الحكم بالبطلان في كل مرة يتعلق فيها البطلان بالنظام العام دون حاجة لنص صريح [1] .

ب- لكل ذي مصلحة التمسك بالبطلان المتعلق بالنظام العام : أي أن كل من يكون في مركز قانوني يتأثر ببطلان العمل الاجرائي يكون له حق التمسك بهذا البطلان ويكون له هذا سواء كان طرفاً أصلياً أو متدخلاً سواء كان هو من قام بالأجراء أو الموجه اليه الاجراء [2] .

[1] – د. صلاح الدين الناهي, الوجيز في قانون المرافعات المدنية ةالتجارية, شركة الطبع والنشر الأهلية, 1962, ص67.

[2] – د. عبدالرزاق عبدالوهاب, الطعن في الأحكام بالتميز في قانون المرافعات المدنية,ج2, دار الحكمة, بغداد, 1991,ص90.

المطلب الثاني
بطلان التبليغ القضائي ومعالجاته

وسنعرض لهذا المطلب في ضوء بيان أسباب بطلان التبليغ القضائي ومن ثم كيفية معالجته وذلك في الفرعين الاتيين.

الفرع الاول : بطلان التبليغ القضائي

التبليغ القضائي هو اجراء شكلي الغرض منه ان يلحق شخص علم بمضمون تبليغ يوجه اليه من قبل المحكمة وبالتالي فانه يلزم ان يقع صحيحاً ليلحق الهدف منه .

عليه اذا شاب التبليغ اي عيب فان ذلك يؤدي الى بطلانه وعلى هذا الاساس نصت المادة (27) من قانون المرافعات المدنية العراقي على انه (يعتبر التبليغ باطلاً اذا شابه عيب او نقص جوهري يخل بصحته او يفوت الغاية منه) .

وبذلك فان المشرع قد عامل المسائل الخاصة بالتبليغات في الدعاوى العادية معاملة تختلف عن تلك التي تتعلق بالمسائل المستعجلة وبخاصة ما يتعلق بمدد التبليغات[1] لكون المسائل المستعجلة من الامور التي لا تتحمل التأخير والتي يخشى عليها من فوات الوقت ,وبذلك استوجب ايجاد مفاهيم حديثة للتبليغات القضائية ذات بعد ودور فعال في سرعة حسم الدعوى , وان الاسلوب التقليدي للتبليغات قد لا يخلو من بعض المصاعب الحقيقية التي تتمثل باحتمال تعذر التبليغ من قبل القائم به في الوقت القصير نسبياً وفي وقت نشهد فيه صعوبة التنقل و الظروف الامنية , هذا من جانب ومن جانب اخر نحتاج الى ضمان وصول التبليغ والعلم بموعد ومكان الترافع تحقيقاً لسير اجراءات الترافع وحسم موضوع الدعوى وازاء هذه الوسائل المقررة في قانون المرافعات المدنية فانها ستمثل معوقات واقعية امام تلك السبل ان اقتصرنا عليها دون تعديل تشريعي او محاولات فقهية لتعديل تلك النصوص ,خلاصة الكلام ان هنالك جملة من المعوقات التي تعترض سير عملية التباليغ القضائية والتي تمثل مشاكل اجرائية ومنها:

---

[1] – نصت المادة (22) م قانون المرافعات المدنية على انه (تراعي المحكمة محل عمل واقامة الشخص المطلوب تبليغه عند اصدار ورقة التبليغ اليه على ان لا تقل المدة بين تاريخ تبليغه واليوم المعين للمرافعة عن ثلاثة ايام وتستثنى من ذلك الامو ر المستعجلة)

1–عدم تقديم الخصوم في الدعوى العناوين الكاملة لخصومهم كما قضت بذلك المادة (16) الفقرة (3) مرافعات مدنية .

2–عدم تعاون المواطنين ومختاري المحلة مع المبلغين بل ان البعض قد يتواطأ مع الشخص المطلوب تبليغه او يخبر المبلغ بأن هذا الشخص قد ارتحل الى جهة مجهولة.

3 – عدم تثبيت العناوين الكاملة في الورقة المراد تبليغها وقد يكون سبب ذلك عدم قيام طرفي الدعوى ببيان العناوين الكاملة في استدعاء الدعوى , كما اوجبت ذلك المادة (46) من قانون المرافعات المدنية .

4– ظرف النزوح الطارئ الذي مرت به بعض المحافظات بحيث لا يتسنى تحقق الغاية من التبليغ بالنشر في صحيفتين محليتين ولمرة واحدة ولا حتى وجود مختارية تابعة لتلك المناطق الداخلة في حدود المحافظات الغير مستقرة خصوصاً ما يتعلق ببعض مسائل الاحوال الشخصية ومنها تصديق الطلاق الخارجي .

5 – تأخر نشر اعلانات وتبليغات المحاكم في الصحف المحلية .

الفرع الثاني : معالجة بطلان التبليغ القضائي

فقد اصدر مجلس القضاء الاعلى اعماماً الى المحاكم كافة ببذل العناية بخصوص الدعاوى حيث ان الاعمام يتضمن عدم اصدار قرار غيابي الا بعد اجراء التحقق من مجهولية اقامة المدعى عليه عن طريق بذل العناية الكافية[1] .

[1] – ومفاد هذا الاعمام انه (للوقوف على صحة الاجراءات التي يقوم بها المبلغين بالنسبة لمجهولي محل الإقامة في الدعاوي التي يكون موضوعها تمليك العقارات او ازالة شيوعها والتي يتم بعد ورود أوراق التباليغ مشروحاً عليها من قبل المبلغ بأن المدعى عليه المطلوب تبليغه قد ارتحل الى جهة مجهولة ونتيجة لذلك يتم نشر التبليغ بصحيفتين محليتين).
قرر مجلس القضاء الأعلى بجلسه المنعقدة بتاريخ2017/2/2 للتأكيد على ضرورة إجراء التحقيقات الكافية قبل اتخاذ القرار الذي يتضمن تبليغ المدعى عليه بالصحف المحلية ومنها الاستيضاح من المجاورين لدار سكن المدعى عليه والاستفسار من المجلس البلدي او مختار المنطقة وكذلك مراكز التموين التابعه لوزارة التجارة ومكتب المعلومات قبل اتخاذ القرار المذكور أعلاه.

يتضح من تحليل هذا الاعمام ان التبليغ لمجهول الاقامة في الوقت الراهن لم يعد كافياً ذلك لتأخر النشر اولاً وما ينتج عن ذلك من التأخر في اجراءات الدعوى وحسمها لاحقاً ثم لوجود عراقيل امام تحقق واقعة النشر منها شكلية , فأصبحنا بحاجة الى وسائل اخرى وعلى هذا الاساس صدر الاعمام وان كان قد اعطى وأفرد خصوصية لدعاوى التمليك لأهميتها وخطورتها ولا يمكن حسمها بسهولة الا بعد التحري والتحقق من صحة نتيجة الاجراءات القضائية ومنها التبليغ اذا كان مالك العقار مجهول الاقامة او السكن .

وفي حقيقة الامر ان مثل هذا الاعمام انما يمثل سلاحاً ذو حدين فمن جانب يمثل خطوة ايجابية تصب في التحقق والتثبت من محل سكن المطلوب تبليغه حتى تصبح اجراءات المرافعات بعدها صحيحة ويتسنى للمحكمة اتخاذ ما يلزم من قرارات واحكام لاحقة ويعطي فرصة في نفس الوقت للمطلوب تبليغه ان يهئ نفسه لتقديم دفوعه او ما الى ذلك ان كان لديه علم بأن دعوى ما ستقام عليه وكان على علم ببعض تفاصيلها خارج ساحة القضاء , الا انه في نفس الوقت خطوة لا تنم عن اتباع المنهج المطلوب تحققه في العمل القضائي وهو تبسيط الشكلية في الاجراءات ومنها التبليغات القضائية او التقليل من عددها بل يلزم الامر مفاتحة تلك الجهات التي نص عليها الاعمام وهي المجلس البلدي ثم بيان ما يؤيده المختار واعادة الاجابة الى المحكمة عن طريق المبلغ او الشرطي القائم بالتبليغ وهو ما يحتاج الى فترة زمنية قد تطول [1].يضاف الى ذلك ان هذا التوجه انما يعتبر محاولة تشريعية على غرار ما سبقه من محاولات تشريعية كان منها ما يأتي :

1- ما اضافه المشرع في ف(4) من المادة (62) مرافعات مدنية وللتقليل من عدد التبليغات بالقول (على الخصم طالب التأجيل غير الحاضر في المرافعة مراجعة المحكمة للتبليغ بيوم المرافعة الذي اجلت اليه الدعوى وفي جميع الاحوال يعتبر مبلغاً باليوم المذكور دون حاجة لاصدار ورقة تبليغ له)

[1] – وقد اتضح لنا ذلك من خلال زيارة قصر القضاء في تكريت واللقاء بقاضي محكمة الاحوال الشخصية السيد محمد يونس احمد بتاريخ 25\3\2017 ان ذلك صلاحية للقاضي من اجل التثبت من دقة حصول التبليغ وتحققه على النحو المطلوب و تحقق الغاية منه .

2- المادة (78) المعدلة مرافعات مدنية اوجبت على المحكمة اذا قضت بعدم اختصاصها القيمي او الوظيفي او النوعي او المكاني ان تحيل الدعوى الى المحكمة المختصة مباشرة وليس الى جهة اخرى لتحديد الاختصاص وتبلغ الطرفين او الحاضر منهما بمراجعة المحكمة المحالة عليها الدعوى وفي ذلك اختصار للوقت .

وغيرها العديد من المحاولات التي لا يسعنا ان نعرضها في هذا البحث الموجز غير ان العبرة ليست في نصوص القانون وتعديلاته وانما في جدية واصرار القاضي على تطبيق هذه النصوص وعدم التهاون او فسح المجال لتعطيلها اعتماداً على منح القاضي الدور الايجابي والمرونة اللازمة في تفسير النصوص وهو ما يصب بالتالي في مصلحة سير العملية القضائية .

الخاتمة:

بعد أن أنهينا دراسة موضوع الدفع الشكلي ببطلان التبليغ القضائي ومعالجاته, أتضح مدى أهمية هذا الموضوع ودقة مسائلة, وهذا الأمر الذي يدفع الى الاهتمام به, وذلك بوصفه أحد المرتكزات الأساسية في عملية التقاضي , وقد اختتمنا دراستنا بأهم النتائج التي توصلنا اليها, مع ايراد المقترحات التي نأمل ان تعالج الموضوع بصورة صحيحة.

1- النتائج:

اولاً: إذا كانت الشكلية تمثل أحد معالم التبليغات القضائية والصفة البارزة فيها, إلا أنها لم تعد العقبة الرئيسية أمام المتقاضين كما كانت في القوانين القديمة, بحيث يترتب على إغفال بعض أركانها بطلان العمل القضائي, بل أصبحت الشكلية ذات طبيعة مرنة, فلا يترتب على تخلف إحدى بيانات ورقة التبليغ بطلان تلك الورقة ككل وذلك إذا وجد بيان آخر في ذات الورقة من شأنه إكمال البيان الناقص وهو ما يسمى بمبدأ تكافؤ البيانات.

ثانياً: إن معالجة المشرع العراقي في كيفية التعامل مع التبليغات الموجهة إلى الشخص المقيم في منطقة بعيدة نسبياً عن محل وجود المحكمة, يعد وبلا شك من الدقة والموضوعية ما يساعد على انسيابية التبليغات القضائية, وسرعة انجازها وبما يخدم حسم الدعوى المدنية بشكل قصير.

ثالثاً: رغبة من المشرع العراقي في سرعة إتمام التبليغات القضائية لما لذلك من مردود ايجابي على مصير الدعاوى, فلم يحعل مهمة إجراء التبليغات حكراً على جهة معينة بالذات, بل منح جهات عديدة صلاحية القيام بالتبليغات, فضلاً عن بيان وسائل متعددة يمكن من خلالها إجراء التبليغات, كل ذلك ينبع من حرص المشرع على توقع كافة الاحتمالات, ولئلا يكون تحديد جهة معينة حجر عثرة تحول دون إتمام التبليغات في مواعيدها المقررة.

2- التوصيات:

اولاً: إزاء خلو قانون المرافعات العراقي من نص يمنع القائمين بالتبليغ من مباشرة عمل يدخل في نطاق وظائفهم إذا تعلق الأمر بأزواجهم أو أقاربهم حتى الدرجة الرابعة, عليه نعتقد أن اقتراح نص مادة تحت عنوان "عدم صلاحية القائمين بالتبليغ" أسوة بمبدأ عدم صلاحية القضاة أمر جدير بالاهتمام, بحيث يتنحى القائم بالتبليغ عن القيام بالتبلغيات إذا تعلق الأمر بأرقاربه أو أصهاره ابعاداً له من كافة الشبهات, بحيث تكون المادة كالآتي:

"1- لا يجوز للقائمين بالتبليغ أن يباشروا عملاً يدخل في حدود وظائفهم وذلك في الدعاوى الخاصة بهم أو بأزواجهم او أقاربهم أو أصهارهم حتى الدرجة الرابعة, وإلا كان التبليغ باطلاً.

2- للقائم بالتبليغ إذا استشعر بالحرج من إجراء التبليغات القضائية أن يعرض أمر تنحيته على رئيس محكمة الاستئناف التابع لها للبت في المسألة".

ثانياً: من اجل وضع حد للبطلان الذي يشوب التبليغات القضائية, وما يتركه ذلك من آثار قد تنعكس على نظر الدعوى متمثلة بتأخير حسمها, نقترح ايراد نصوص تجيز تصحيح التبليغات القضائية الباطلة بالاستناد إلى القواعد العامة لتصحيح الإجراءات القضائية الباطلة, بحيث تكون النصوص كالآتي:

"إذا كانت التبليغات القضائية باطلة وتوافرت فيه عناصر تبليغ آخر, فان التبليغ يكون صحيحاً باعتباره التبليغ الذي توافرت عناصره"

"إذا كانت التبليغات القضائية في شق منها باطلاً, فهذا الشق وحده الذي يبطل, أما الباقي من التبليغات فيظل صحيحاً باعتباره تبليغاً مستقلاً, إلا إذا تبين أن التبليغات ما كانت لتتم بغير الشق الذي وقع باطلاً".

ثالثاً: قد يتطلب الأمر في بعض الأحيان اتحاذ مواقف أكثر تشدداً تجاه غياب الأطراف, فاذا ما تمت التبليغات على النحو المقرر فلم يعد مبرر امام الخصوم لعدم حضور المرافعة في اليوم المحدد، حيث يتطلب الامر عدم الافراط في منع المهل للخصم مما قد يأخذ وقتاً طويلاً لحسم تلك الدعاوى ، عليه نقترح اعادة صياغة المادة (78) من قانون المرافعات المدنية على النحو الذي يمنع استخدام هذا النص للمماطلة في حسم الدعوى .

المصادر

1. د. احمد ابو الوفا , نظرية الدفوع في قانون المرافعات , منشأة المعارف , الاسكندرية .
2. 2–د. احمد ابو الوفا, المرافعات المدنية والتجارية, ط4, منشأة المعارف: الاسكندرية: 1986 .
3. د. احمد مسلم, اصول المرافعات, دار الفكر العربي: القاهره,1978 .
4. د. احمد هندي , اصول المحاكمات المدنية والتجارية , الدار الجامعية: بيروت, 1989
5. د. ادم وهيب النداوي, المرافعات المدنية, ط2, العاتك لصناعة الكتب: القاهره, 2009.
6. د. امال احمد الفرايزي, مواعيد المرافعات, منشأة المعارف: الاسكندرية, دون سنة نشر .
7. د. سعيد عبدالكريم مبارك, المرافعات المدنية, مطبعة جامعة الموصل, 1994 .
8. د. صلاح الدين الناهي, الوجيز في قانون المرافعات المدنية ةالتجارية, شركة الطبع والنشر الأهلية, 1962 .
9. د. عباس العبودي, شرح أحكام قانون المرافعات, دار الكتب للطباعة والنشر, الموصل, 2000 .
10. د. عبد الباسط جميعي, مبادئ المرافعات, دار الفكر العربي: القاهرة, 1980 .
11. د. عبدالرحمن العلام, شرح قانون المرافعات المدنية, ج1, مطبعةالعاني: بغداد, 1970.
12. د. عبدالرزاق عبدالوهاب, الطعن في الأحكام بالتميز في قانون المرافعات المدنية,ج2, دار الحكمة, بغداد, 1991.

13. د. نجلاء توفيق فليح, الدفوع الشكلية في قانون المرافعات, مجلة الرافدين للحقوق, مج2, السنة العاشرة, جامعة الموصل, كلية القانون,2005 .
14. د. وجدي راغب, مبادئ الخصومه المدنيه, ط1, دار الفكر العربي, القاهره,1978 .

حق قوامة الرجل على المرأة في ضوء الشريعة والقانون

أ.م.د. ساهرة حسين كاظم
قسم القانون الخاص/ كلية القانون/ جامعة واسط

مقدمة

تعتبر القوامة من الحقوق التي اقرها الاسلام للرجل على المرأة بما فضل الله تعالى الرجل ببعض المميزات والخصائص التي تؤهله الى قيادة الاسرة وادارة شؤونها . حيث يقول الحق تبارك وتعالى في محكم كتابه الكريم (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من اموالهم)[1].

والقوامة في الاسلام هي تكليف لاتشريف ومغارم لامغانم ، فالرجل هو الذي تقع عليه مسؤولية الكد والكدح والانفاق على الاسرة دون المرأة كما تقع عليه مسؤولية رعاية الاسرة والقيام بمتطلباتها المالية وغير المالية كما انه يتحمل مسؤولية الاخطاء التي قد تقع من احد افرادها . من هذا المنطلق يمكننا ان نبحث في حق القوامة للرجل على المرأة وفق خطة البحث الاتية :

(1)- سورة النساء / 34.

المطلب الاول

القوامة مفهومها ونطاقها واسبابها

الفرع الاول – مفهوم القوامة ونطاقها

القوامة لغة : من القيام وتعني قيام الشخص على امور غيره والسعي في مصالحهم . امالقوامة في الاصطلاح : فالمقصود منها قيام الرجل على شؤون المرأة ورعايتها والانفاق عليها[1].

وتعتبر القوامة من الحقوق التي لاتقبل الاسقاط لان الشارع اعتبرها وصفا ذاتيا لصاحبها لازما له لاينفك عنه هذا من جهة ، ولتعلق حق الغير بها من جهة اخرى . حيث تعتبر القوامة من الحقوق الاسرية الممنوحة لاصحابها لالتحقيق مصلحتهم الشخصية فحسب ، بل لتحقيق مصلحة الشخص الخاضع لها بوجه خاص ، ومصلحة الاسرة كلها بوجه عام .

فالقوامة لاتقتصر على منح الشخص سلطة على الغير بل تفرض عليه في الوقت ذاته واجب استعمال هذه السلطة في مصلحة هذا الغير بحيث تبدو وكأنها مزيجا مركبا من الحق والواجب معا . لذا فهي تخرج عن

---

(1)- الجصاص – احكام القرآن- ج2- ص228.

دائرة التعامل فلا يصح التنازل عنها ولا التصرف فيها باي شكل من الاشكال[1]. لذا يسمي بعض شراح القانون هذا النوع من الحقوق بالحقوق الغيرية لانه لايقصد بها مصلحة اصحابها وانما مصلحة الغير الذي تقررت تلك الحقوق لاجله[2].

اما نطاق القوامة فليس المقصود بالقوامة هي قوامة الزوج على زوجته فحسب بل هي اشمل من ذلك فالنص القرآني جاء مطلقا حيث يقول الحق تبارك وتعالى:(الرجال قوامون على النساء...)[3]. فقد جاءت هنا كلمة الرجال على عمومها وكلمة النساء على عمومها ، وهذا يعني ان الرجل قائم على امر المرأة سواء كانت هذه المرأة هي الزوجة او الام او الاخت او البنت....الخ من النساء اللواتي يكن تحت رعاية الرجل[4].

---

(1)- مصطفى احمد الزرقا – الفقه الاسلامي في ثوبه الجديد – ج2- المدخل الى نظرية الالتزام العامة في الفقه الاسلامي – مطبعة الجامعة السورية – دمشق- 1377ه- ص12. وانظر كذلك جميل الشرقاوي – دروس في اصول القانون – الكتاب الثاني – نظرية الحق – دار النهضة العربية – القاهرة –1966-ص37.

(2)- د. اسماعيل غانم – محاضرات في النظرية العامة للحق – مكتبة عبد الله وهبة – مصر ط2- 1958- ص16.
(3)- سورة النساء/34.
(4)- انظر في تفسير قوله تعالى (الرجال قوامون على النساء ...) الجصاص – احكام القرآن – ج2- ص228ومابعدها ، الآلوسي – روح المعاني – ج5- ص22.

الفرع الثاني- اسباب جعل القوامة للرجل دون المرأة

يذهب استاذنا الدكتور احمد الكبيسي الى القول بان (القوامة تكليف لاتشريف ومغارم لا مغانم، وهي في حقيقتها الزام للرجل بالكدح ودفع له الى العمل والكفاح وان القوامة مستحقة للرجل لقدرته على ذلك بناء على تكوين الفطرة ، ثم بما فرض على الرجل من واجب الانفاق على المرأة ، وهو واجب مرجعه الى واجب الاقدر لمن هو دونه قدرة [1].

فقد نصت الشريعة الاسلامية بقوامة الرجل على المرأة لكون الرجل اقدر من المرأة على الكد والكدح والسعي في مصلحة الاسرة وتحمل مشاق الحياة وادارة شؤون الاسرة بحكم تكوينه الفطري هذا من جانب . وكذلك ان الرجل هو المسؤول عن توفير كل مستلزمات الحياة ومتطلبات المرأة المعيشية من مأكل وملبس ومشرب فكان له حق القوامة عليها قبالة النفقة الواجبة عليه لها ، من جانب آخر. وهناك من يرى عكس ذلك حيث يقول بان القوامة ليست حكرا على الرجل وانما يمكن للمرأة ان تكون هي صاحبة القوامة اذا ثبت انها افضل من الرجل في ادارة شؤون الاسرة [2].ويذهب بعض الكتاب المعاصرين الى ابعد من ذلك حيث يرى انه لاحاجة الى وجود مدير او قائد للاسرة لان الزوجين في اطار الاسرة تربطهما العاطفة

---

(1)- للتوسع اكثر انظر كتابه –فلسفة نظام الاسرة في الاسلام – بغداد – ط2- 1410ه- ص118.

(2)-راجع حول هذا الراي :د.شبر الفقيه-المرأة العربية المعاصرة واشكالية المجتمع الذكوري- المكتبة الجامعية – بيروت- ط1- 2009-ص128 وما بعدها.

وحاجة كل منهما للاخر وانهما يكملان بعضهماويتشاركان في كل شي فلاحاجة ليكون احدهما رئيسا والاخر مرؤوسا[1].

(1)-انظر في هذا الراي :احمد القبانجي-المرأة المفاهيم والحقوق- قراءة جديدة لقضايا المرأة في الخطاب الديني- بيروت- لبنان-ط1-2009-ص136.

المطلب الثاني
عناصر القوامة

الفرع الاول – واجب الرعاية

لقد كرم الاسلام المرأة واعطاها حقوقا مالية وشخصية لم تكن تتمتع بها في اية فترة من الفترات .واجلالا للمرأة سميت سورة بالقرآن باسم النساء ومن اكرام القرآن الكريم للمرأة ان فرض على الرجل واجب رعاية الزوجة والاحسان اليها ومعاشرتها بالمعروف وان هذا الواجب مرجعه كما اسلفنا من قبل لما اعطي للرجل من حق القوامة على المرأة وهو تكليف على الرجل برعاية الاسرة والقيام على شؤونها . حيث يقول الحق تبارك وتعالى في محكم كتابه الكريم (وعاشروهن بالمعروف ...)[1].وفي الحديث النبوي الشريف يقول الرسول الكريم – محمد – صلى الله عليه وآله وسلم (ماأكرم النساء الا كريم وما اهانهن الا لئيم). كما يقول عليه وعلى آله افضل الصلاة واتم التسليم (اكمل المؤمنين ايمانا احسنهم اخلاقا وخياركم خيارهم لنسائهم ...) وقال ايضا –صلى الله عليه وآله وسلم - في حث الآباء على رعاية من هم تحت ولايتهم وقوامتهم (من كان له ابنة فأدبها فاحسن تأديبها، وغذاها فاحسن غذاءها ، واسبغ عليها من النعمة التي اسبغ الله عليه كانت ميمنة وميسرة من النار الى الجنة)[2].

(1)- سورة النساء /19.

(2)- انظر الترمذي نقلا عن د. عبد المنعم جبري – المرأة عبر التاريخ البشري- سوريا – دمشق- 2009-ص39.

ومن التبعات التي تترتب على قوامة الرجل على المرأة هو ان يتولى الرجل امر تأديب وتوجيه من تحت ولايته من النساء اذا مابدر منها ما يعرضها للانحراف والخروج عن الطريق السوي ويكون ذلك بالكلمة الطيبة والموعضة الحسنة او عن طريق الهجر بالفراش بالنسبة للازواج واذا لم ينفع معها لانصح ولاهجر فيمكن اللجوء الى الضرب . وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى في كيفية معاملة الزوج لزوجته اذا ما ظهر عليها بوادر النشوز منه وعدم طاعته (واللاتي تخافون نشوزهن فعضوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا)[1].

وكذلك ماروي عن النبي محمد-صلى الله عليه وآله وسلم_ انه قال في حجة الوداع (اتقوا الله في النساء فانهن عوان عندكم ، اخذتموهن بامانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، وان لكم عليهن ان لايوطئن فرشكم احدا ، وان لايأذن في بيوتكم لاحد تكرهونه فاذا فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح)[2].

---

(1)- سورة النساء/ 34.

(2)- انظر شرح صحيح مسلم – لمحي الدين يحيى بن حزام النووي الشافعي – تحقيق واشراف –عبد الله احمد ابو زينة- دار الشعب – القاهرة – 1393ه -1973م- ج3- ص344.

وعلى هذا الاساس فان للزوج الحق في تأديب زوجته لحملها على طاعته ولكن يجب على الزوج ان يستعمل حقه في ذلك استعمالا يطابق الحكمة التي من اجلها تقررله هذا الحق والا عد متعسفا في استعماله . حيث تشير الآية الكريمة الى وسائل ثلاث للتأديب وهي الوعظ والهجر في المضجع والضرب وهذه الوسائل مرتبة ترتيبا تصاعديا ، بحيث لايجوز للزوج استعمال احدى الوسائل الا اذا استنفذت الوسيلة التي قبلها وظهر انها لاتفيد . اي بمعنى آخر لايحق للزوج ان يلجأ الى وسيلة الهجر قبل ان يقوم بالوعظ او يستعمل وسيلة الضرب فبل اللجوء الى وسيلة الهجر. وهذا التنوع والترتيب في العقوبة يرجع الى تنوع طبائع الناس , فمن النساء من يكفيها الوعظ ومنهن من لايصلح حالها الا باشد من ذلك[1].

---

(1)- وبهذا الصدد قضت محكمة النقض المصرية بان (حق الزوج في تأديب زوجته بالضرب لايلجأ اليه الابعد سلوك طريق الموعضة الحسنة والهجر في المضاجع ولايباح الا اذا رأى الزوج ان رجوع المرأة عن نشوزها يتوقف عليه فهو منوط بالضرورة الاشد واشبه بالحلال المكروه). انظر انور طلبة – مجموعة المبادئ القانونيةالتي قررتها محكمة النقض – دار المطبوعاتالجامعية – الاسكندرية-1983- ص24.

يفهم مما تقدم انه يجب على الرجل للاحتفاظ بدوره القيادي الضابط لسلوك الاسرةان لايكون تعسفيا او تسلطيا وبالتالي يكون وسيلة لممارسة العنف ضد المأة . فعدم قدرة الرجل على حل النزاعات الاسرية بالحكمة والمشورة والنصيحة غالبا مايلجأه الى استخدام القوة فض هذه النزاعات وتتحول هذه السلطة التي بيد الرجل داخل الاسرة الى نوع من الاستبداد والتحكم[1].

واذا كان التأديب ضررا ، فاته ضرردعت اليه ضرورة الاصلاح ولكن هذه الضرورة يجب ان تقدر بقدرها فان الله سبحانه وتعالى حينما اعطى للرجل حق القوامة على المرأة وما يتفرع عنها من حق الزوج في تأديب زوجته كان ذلك ضمن ضوابط وحدود كما بيناها سابقا . فاذا زاد التأديب على القدر اللازم للاصلاح كان اساءة تستوجب الجزاء . وقد اعطى المشرع

---

(1)-د. طارق عبد الرؤوف عامر ود. ايهاب عيسى المصري – العنف ضد المرأة – اسبابه واشكاله- ط1- القاهرة -2014-ص61. وانظر كذلك د.مديحة احمد عبادة وأ.خالد كاظم ابو دوح – العنف ضد المرأة – دراسة ميدانية- جامعة سوهاج – كلية الاداب – دار الفجر للنشر والتوزيع – 2008-ص127.

العراقي للزوجة التي يسيئ الزوج معاملتها ولايحسن عشرتها حق طلب التفريق منه وهو مانصت عليه المادة الاربعون من قانون الاحوال الشخصية العراقي رقم 188 لسنة 1959 المعدل بقولها (للزوجة طلب التفريق من زوجها في الحالات الاتية : ...اذا اضر بها الزوج ضررا يتعذر معه استمرار الحياة الزوجية)[1].

وان معيار الضرر الذي جاء به القانون هو معيار شخصي يختلف باختلاف الاشخاص بيئة وخلاق وتربية . فرب زوجة لايعتبر ضربها من زوجها اضرارا بها ، واخرى يكون مجرد هجرها او جرح عواطفها اضرارا بليغا بها . لذلك كان تقدير الضرر الذي يلحق بالزوجة من زوجها ويترتب عليه التفريق متروكا لفاضي الموضوع يفصل فيه بالنظر لكل قضية حسب اختلاف البيئات وتنوع التربية.

---

(1)- انظر المادة (40) من قانون الاحوال الشخصية العراقي رقم 188 لسنة 1959 المعدل . وهذا ما نصت عليه ايضا المادة (6) من القانون المصري رقم 25 لسنة 1929 المعدل بالقانون رقم 100 لسنة 1985. وانظر كذلك المادة (112) من قانون الاحوال الشخصية السوري رقم 59 لسنة 1953 المعدل.

الفرع الثاني- واجب الانفاق

ان نفقة الزوجية واجبة للزوجة على زوجها سواء كانت الزوجة غنية ام فقيرة اوكانت مسلمة ام غير مسلمة على اعتبار ان النفقة حكم من احكام عقد الزواج الصحيح وحقا من الحقوق الثابتة للزوجة عاى زوجها بمقتضىالكتاب والسنة والاجماع والمعقول . فمن حسن رعاية الاسلام للمرأة واحترامه لها ان اعطاها حقها في التملك وفرض لها المهر والنفقة وجعل ذلك حقا لها على الرجل . وان هذا البذل من جانب الرجل يطيب نفس المرأة ويرضيها بقوامة الرجل عليها[1].

فمن الثابت في الكتاب الكريم قوله تعالى (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من اموالهم)[2]. وقوله تعالى (وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف)[3]. واما عن السنة فقد روي عن النبي محمد-صلى الله عليه وآله وسلم – انه قال في حجة الوداع (اتقوا الله في النساء فانهن عوان عندكم اخذتموهن بامانة الله ...ولكم عليهن ان لايوطئن فرشكم احدا...ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف)[4]. وكذلك ماروي عنه عليه وعلى

---

(1)- حيدر عبد فهد – حقوق الانسان في الاسلام – بحوث في حقوق الانسان – المعهد العراقي – ط1- 2007- ص202.
(2)- سورة النساء/34.
(3)- سورة البقرة/233.
(4)-النووي- شرح صحيح مسلم-ج3-ص344.

آله الصلاة والسلام من ان رجلا سأله ما حق زوج احدنا عليه ،فاجابه بقوله(ان يطعمها اذا طعم ويكسوها اذا اكتسى..)[1]. وقد اجمع المسلمون على ان النفقة حق للزوجة على زوجها وفضلا عن ذلكفان هذا الحكم واجب عقلا فالنفقة وجبت جزاء الاحتباس فمن كان محبوسا لحق شخص كانت نفقته عليه لعدم تفرغه لحاجة نفسه ، فمثلا القاضي والوالي والمقاتلة والوصي..الخ فان نفقة هؤلاء واجبة لهم في مال من هم محبوسون لحقه.ولما كانت الزوجة محبوسة بالنكاح لحق الزوج ممنوعة من الاكتساب بحقه فكان نفع حبسها عائدا اليه وبذلك تكون كفايتها عليه[2].ونفقة الزوجة الواجبة لها على زوجها تتناول كل ما يتوقف عليه كفايتها وهذا معيار شخصي يختلف باختلاف الزوجات وباختلاف الاوقات وباختلاف القدرة المالية للازواج . وفي جميع الاحوال

يتقيد حق الزوجة في ذلك بوجوب مراعاة حال زوجها يسرا وعسرا، فيقدر لها قدر كفايتها مما تسمح به حال الزوج فان كان موسرا فعليه نفقة اليسار وان كان معسرا فنفقة الاعسار . وهذا ماخوذ من قوله تعالى (لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لايكلف الله نفسا الا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا)[3].

---

(1)-الشوكاني – نيل الاوطار- ج6-ص364.

(2)- محمد زيد الابياني – شرح الاحكام الشرعية في الاحوال الشخصية – مكتبة النهضة- بيروت –ج1-ص227.

(3)- سورة الطلاق /7.

الخاتمة

بعد البحث في موضوع القوامة في الاسرة المسلمة نجد ان الشارع الاسلامي قد اعطى هذا الحق الى الرجل دون المرأة . لكون ان الرجل هو الاقدر على ادارة شؤون الاسرة وهو المسؤول عن الانفاق عليها . ومن النتائج والتوصيات التي يمكن ان نخرج بها بهذا الصدد :

اولا- تعتبر القوامة تكليفا للرجل لاتشريفا له ، حيث ترتب على الرجل واجب الانفاق على الاسرة وادارة شؤونها والقيام بكل ما من شانه الحفاظ عليها.

ثانيا-لابد من وجود قائدا للاسرة ومديرا لشؤونها والقول بخلاف ذلك يعني الفوضى وغياب التنظيم وضياع الافراد داخل الاسرة.

ثالثا-على الرجل ان يمارس دوره القيادي في ادارة شؤون الاسرة بعيدا عن التسلط والعنف وبما يوافق الحكمة التي من اجلها شرع حق القوامة له.

رابعا-نشر الوعي والتثقيف بمبادئ الاسلام الحنيف بعيدا عن التطرف والغلو والتاكيد على ان الاسلام حرص على حماية المرأة ورعاية شؤونها بان جعل القوامة بيد الرجل .

خامسا – على المرأة ان تعي دورها التربوي داخل الاسرة والذي لايقل اهمية عن دور الرجل القيادي ، فهي مصدر الحنان والعاطفة التي لاغنى لافراد الاسرة عنها ، فكلاهما مكمل للآخر.

المصادر

القرآن الكريم

1- الجصاص – احكام القرآن – المطبعة البهية المصرية- 1347ه.
2- مصطفى احمد الزرقا – الفقه الاسلامي في ثوبه الجديد – ج2- المدخل الى نظرية الالتزام العامة في الفقه الاسلامي – مطبعة الجامعة السورية – دمشق- 1377ه
3- جميل الشرقاوي – دروس في اصول القانون – الكتاب الثاني – نظرية الحق – دار النهضة العربية – القاهرة – 1966.

4- د. اسماعيل غانم – محاضرات في النظرية العامة للحق – مكتبة عبد الله وهبة – مصر ط2- 1958.
5- الالوسي-روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني- ادارة الطباعة المنيرية- مصر- 1354ه.
6- د.احمد الكبيسي -فلسفة نظام الاسرة في الاسلام – بغداد – ط2- 1410ه.
7- د.شبر الفقيه-المرأة العربية المعاصرة واشكالية المجتمع الذكوري- المكتبة الجامعية – بيروت- ط1- 2009.
8- احمد القبانجي-المرأة المفاهيم والحقوق- قراءة جديدة لقضايا المرأة في الخطاب الديني- بيروت- لبنان-ط1-2009.
9- د. عبد المنعم جبري – المرأة عبر التاريخ البشري- سوريا – دمشق- 2009.
10- محي الدين يحيى بن حزام النووي الشافعي – شرح صحيح مسلم-تحقيق واشراف –عبد الله احمد ابو زينة- دار الشعب – القاهرة – 1393ه -1973م.
11- انور طلبة – مجموعة المبادئ القانونيةالتي قررتها محكمة النقض – دار المطبوعات الجامعية – الاسكندرية-1983.
12- د. طارق عبد الرؤوف عامر ود. ايهاب عيسى المصري – العنف ضد المرأة – اسبابه واشكاله- ط1- القاهرة -2014.
13- د.مديحة احمد عبادة وأ.خالد كاظم ابو دوح – العنف ضد المرأة – دراسة ميدانية- جامعة سوهاج – كلية الاداب – دار الفجر للنشر والتوزيع – 2008.
14- حيدر عبد فهد – حقوق الانسان في الاسلام – بحوث في حقوق الانسان – المعهد العراقي – ط1- 2007.
15- محمد زيد الابياني – شرح الاحكام الشرعية في الاحوال الشخصية – مكتبة النهضة- بيروت- بلا سنة طبع .

القوانين

1- قانون الاحوال الشخصية العراقي رقم 188 لسنة 1959 المعدل.
2- القانون المصري الخاص ببعض مسائل الاسرة رقم 25 لسنة1929 والمعدل بالقانون رقم 100 لسنة 1985.
3- قانون الاحوال الشخصية السوري رقم 59 لسنة 1953 المعدل.

تطابق بعض الحقائق العلمية والمكتشفة حديثاً مع القران الكريم

د. يسرى جلوب مدلول
قسم / علوم القران / الكلية التربوية المفتوحة

الملخص :
نتناول في هذا البحث عن موضوع تطابق بعض الحقائق العلمية والمكتشفة حديثاً مع القران الكريم من خلال مطلع الحديث عن كتاب الله . فلابد من تحديد عدد من معالمه الثابتة التى منها أنه كلام الله المعجز، الموحى به إلى خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه بلسان عربى مبين ، والمنقول عنه – صلوات الله وسلامه عليه - نقلا متواترا بلا أدنى شبهة ، بنفس النص الذى أوحى إليه ، والذى نجده فى المصاحف التى خطت أو طبعت على مر العصور ، ومسجلا فى صدور الحفاظ جيلا بعد جيل ، ومن ثم على مختلف صور الأشرطة والاسطوانات الممغنطة والمضغوطة ، وعلى غير ذلك من مختلف صور الحفظ الحاسوبية المتعددة .
وقد نزلت آيات القرآن الكريم منجمة على مدى ثلاث وعشرين سنة ، وكتبت فى حياة رسول الله – صلى الله عليه وسلم - عقب الوحى بكل منها مباشرة ، ثم رتبت تلك الآيات فى مائة وأربع عشرة (114) سورة ، وسميت السور ورتبت بتوقيف من الله – سبحانه وتعالى- الذى تعهد بحفظ آخر كتبه المنزلة فحفظه حفظا كاملا ، بنفس اللغة التى نزل بها ، كلمة كلمة ، وحرفا حرفا ، بينما تعرضت أصول الكتب السماوية السابقة كلها للضياع التام ، وتعرض ما بقى من ذكريات نقلت شفاها عنها للتحريف والتبديل والتغيير ، ولا يزال يتعرض لذلك العبث إلى يومنا الراهن ، ولن يتوقف العبث بها أبدا لأن أصحابها لا يتعاملون معها كنص سماوى ، بل على أنها كتابات بشرية قابلة للتعديل والتبديل .
ولذلك فالقرآن الكريم هو الكتاب السماوى الوحيد الذى يتعبد بتلاوته ، والذى لا تصلح الصلاة إلا بقراءة فاتحته ، والذى لا يغنى عنه شيء من الأحاديث أو الأذكار أو الأدعية ؛ لأنه الوحى السماوى الوحيد الموجود بين أيدى الناس علي مدي الاربعة عشر قرنا الماضية إلى اليوم بنفس اللغة التى أوحى بها (اللغة العربية) ,والمحفوظ بحفظ الله - تعالى – له كلمة كلمة وحرفا حرفا .
وقد عجزت القدرات البشرية ، ولا تزال عاجزة عن أن تدانى كتاب الله فى روعة بيانه ، أو فى كمال صفاته ، ودقة دلالاته وصدق أنبائه وسمو معانيه ، وعدالة تشريعه ، أو فى نهجه وصياغته وتمام إحاطته بطبائع النفس البشرية وقدرته على التعامل معها وعلى هدايتها ، ودقة استعراضه لمسيرة البشرية، من لدن أبينا آدم –عليه السلام- إلى بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين – عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكى التسليم – ومن هنا كان القول بـ "إعجاز القرآن" ..(1)
في هذا البحث تتجلّى أمامنا كنوز ودُرر ولآلئ من بحر إعجاز القرآن الكريم الذي لا تنقضي عجائبه ولا تفنى معجزاته.
فقد ثبُت علمياً وبما لا يقبل الجدل أن القرآن العظيم تحدّث عن العديد من الحقائق العلمية والكونية قبل أن يكتشفها العلم الحديث بأربعة عشر قرناً!

وسوف نرى بأن القرآن تحدث عن هذه الحقائق بلغة علمية دقيقة وتعابير لغوية محكمة تدل على أن هذا القرآن كلام الله الحقّ، وأن محمّداً عليه صلوات الله وسلامه لاينطق عن الهوى، بل هو رسول الله إلى الناس كافة.

ويجب أن نتذكر دائماً أن الإعجاز العلمي ليس هدفاً بحدّ ذاته، إنما الهدف هو زيادة التثبيت اليقيني بالله عزّ وجلّ، وزيادة الخوف والخشوع أمام عَظَمَة كتاب الله تعالى، الذي قال عنه: (لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) [الحشر: 21].

وياتي هذا البحث والتطرق الى اهميته من خلال فصلين ومبحثين . يتناول الفصل الاول في بيان اعجاز القران الكريم من خلال سوره وایاته ما يتعلق بها من اكتشافات حقيقية جلية للانسان المتلقي والباحث عن اسرار الكون.

يتناول في المبحث الاول : الإعجاز العلمى لكتاب الله ونشير في المبحث الثاني الى الايات القرانية في الإشارات الكونية فى القرآن الكريم.

فيما نستعرض في الفصل الثاني من خلال المبحث الاول فيه الى الإعجاز العلمي في القرآن , فيما يشار في المبحث الثاني منه الى بعض الحقائق العلمية والمكتشفة حديثاً مع القران الكريم.

ومن خلال هذا بحثنا نوجز بعض الشواهد والحقائق الدالة على عظمة ماجاء في كتاب الله وتفسيره للحقائق العلمية التي جاء بها ويتسابق العلماء والباحثين الى اكتشاف اسرار تلك الحقائق والمكتشفات .

المقدمة

الحمد لله الذي أنعم علينا بهذا القرآن، وجعله نوراً لنا في ظلمات هذه الحياة، وصلّى الله على هذا النبيّ الأميّ الذي كان القرآنُ خُلُقَه وإمامَه وشفاءَه ونور قلبه، وعلى آله وأصحابه وسلّم تسليماً كثيراً.

ومن العلماء من يرى إعجاز القرآن الكريم فى ذلك كله وفى غيره مما يقصر الحديث عنه فهناك الإعجاز اللغوى ، البيانى ، النظمى ؛ والإعجاز العقدى والتعبدى والأخلاقى ، والتشريعى ، وهناك الإعجاز التاريخى ، والتربوى ، والنفسى ، والاقتصادى ، والإدارى ، والإعلامى ، وهناك الإعجاز العلمى والتقنى، والإعجاز العددى / الرقمى / الحسابى ، وإعجاز التحدى الذى لم يجب ولن يجب إلي قيام الساعة ، والإعجاز الحفظى ،وغير ذلك كثير. (1)

إن أجمل لحظة يعيشها المؤمن عندما يتّخذ من العلم طريقاً للإيمان بالله تعالى واليقين بعَظَمَة كتابه ومعجزته الخالدة. وما الحقائق العلمية والكونية الغزيرة التي يفيض بها القرآن إلاّ وسيلة هيّأها الله تبارك وتعالى لكلّ مؤمن ليزداد بها إيماناً بهذا الخالق العظيم، ووسيلة لكلّ ملحد يرى من خلالها نور الإيمان ونور القرآن وصدق رسالة الإسلام.(2)

ومن خلال تتعدد أوجه الإعجاز فى كتاب الله بتعدد جوانب النظر فيه ، فكل حرف من حروفه ، وكل كلمة من كلماته ، وكل آية من آياته فيها إعجاز لفظى وبيانى ودلالى ، وكل مجموعة من الآيات ، وكل سورة من السور – طالت أم قصرت – تشهد لكتاب الله تعالى بأنه معجز بما فيها من

قواعد عقدية أو أوامر تعبدية أو قيم أخلاقية أو ضوابط سلوكية أو أحداث تاريخية أو إشارات علمية إلى شيء من أشياء هذا الكون الفسيح وما فيه من ظواهر وسنن وكائنات . فكل تشريع وكل قصة وكل واقعة تاريخية وكل وسيلة تربوية وكل نبوءة مستقبلية ، وكل إشارة تنظيمية ، وكل خطاب إلى النفس الإنسانية; جاء فى القرآن الكريم يفيض بجلال الربوبية ويتميز عن كل صياغة إنسانية مما يشهد للقرآن الكريم بالتفرد كما يشهد بعجز الإنسان عن أن يأتى بشيء من مثله

وقد أفاض المتحدثون عن أوجه الإعجاز فى كتاب الله ، فكان منهم من رأى ذلك فى جمال بيانه ودقة نظمه وكمال بلاغته وروعة معانيه وشمولها واتساقها ودقة صياغتها وقدرتها على مخاطبة الناس على اختلاف مداركهم وأزمانهم وإشعاعها بجلال الربوبية فى كل آية من آياته .. !! ومنهم من أدرك أن إعجاز القرآن هو فى كمال تشريعه ودقة تفاصيل ذلك التشريع وحكمته وشموله ، ومنهم من وجده فى استعراضه الدقيق لمسيرة البشرية ولتاريخ عدد من الأمم السابقة من لدن أبينا آدم – عليه السلام - إلى خاتم الأنبياء والمرسلين – عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكى السلام – ، مما لم يكن يعلم تفاصيله أحد من الناس فى زمن الوحى .

ومنهم من رأى إعجاز القرآن الكريم فى منهجه التربوى الفريد وأطره النفسية السامية والعلمية فى نفس الوقت والثابتة على مر الأيام ، أو فى إنبائه بالغيب مما تحقق بعد نزوله بسنوات طويلة ، أو فى إشارته إلى العديد من حقائق الكون وسنن الله فيه مما لم يكن ممكنا لأحد من البشر أن يصل إلى شيء من معرفته وقت نزول القرآن الكريم ولا لمئات السنين من بعد ذلك .

ومنهم من رأى إعجاز القرآن فى صموده أمام كل محاولات التحريف التى قامت بها قوى الشر المتعددة متمثلة فى الكفرة والمشركين والملاحدة المتشككين على مدى الأربعة عشر قرنا الماضية وذلك لأن الله تعالى قد تعهد بحفظه بعهده الذى قطعه – سبحانه وتعالى- على ذاته العلية ولم يقطعه لرسالة سابقة أبدا ، وذلك بقوله العزيز : " إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ " (الحجر:9) .

الفصل الاول
المبحث الاول
الإعجاز العلمى لكتاب الله

يزخر القرآن الكريم بالعديد من الآيات التى تشير إلى الكون وما به من كائنات (أحياء وجمادات) ، وإلى صور من نشأتها ومراحل تكونها ، وإلى العديد من الظواهر الكونية التى تصاحبها ، والسنن الإلهية التى تحكمها ، وما يستتبعه كل ذلك من استخلاص للعبرة وتفهم للحكمة ، وما يستوجبه من إيمان بالله ، وشهادة بكمال صفاته وأفعاله ، وهو - سبحانه وتعالى - الخالق البارئ المصور الذى أبدع الخلق بعلم وقدرة وحكمة لا تحدها حدود ، ولا يفيها حقها وصف .

وقد أحصى الدارسون لهذه الإشارات الكونية فى كتاب الله ما يقدر بحوالى ألف آية صريحة ، بالإضافة إلى آيات أخرى عديدة تقرب دلالاتها من الصراحة . وبدوام اتساع دائرة المعرفة الإنسانية ، وتكرار تأمل المتأملين فى كتاب الله ، وتدبر المتدبرين لآياته – جيلا بعد جيل ، وعصرا بعد عصر – لا ينفك العلماء والمتخصصون يكتشفون من حقائق الكون الثابتة فى كتاب الله ما يؤكد على تحقق الوعد الإلهى الذى يقول فيه ربنا – تبارك وتعالى - : " سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ " (فصلت:53) .

وبديهى أن يتباين موقف العلماء من تلك الإشارات الكونية فى كتاب الله بتباين الأفراد وخلفياتهم الثقافية وأزمانهم ، وباتساع دائرة المعرفة الإنسانية فى مجال الدراسات الكونية التى تعرف اليوم باسم دراسات العلوم البحتة والتطبيقية من عصر إلى عصر . وأول من بسط القول فى ذلك كان الإمام الغزالى (ت505هـ) فى كتابيه "إحياء علوم الدين" و"جواهر القرآن" والذى رفع فيهما شعارات عديدة منها أن القرآن الكريم يشمل العلوم جميعا ، وأن من صور إعجاز القرآن الكريم اشتماله على كل شىء ، وأن كل العلوم تشعبت من القرآن الكريم ، حتى علم الهيئة ، والنجوم ، والطب إلى آخر ما ذكر .

وتبع الإمام الغزالى فى ذلك كثيرون ، كان من أشهرهم فى القديم الفخر الرازى (ت606هـ) ، وفى الحديث فضيلة الشيخ طنطاوى جوهرى (ت1359هـ) ، ومحمد بن أحمد الإسكندرانى الطبيب ، وعبد الله فكرى ، وعبد العزيز سيد الأهل ، وأحمد مختار الغازى ، وحنفى أحمد ، ومحمد أحمد الغمراوى ، ومحمد محمود إبراهيم ، وإبراهيم عبد القادر محمد فرج ، ومحمد جمال الدين الفندى ، وعبد الرزاق نوفل ، ويوسف مروة ، وعبد الغنى الخطيب ، وأحمد محمود سليمان ، وحسين كمال الدين ، وأحمد محمد مجاهد ، ومحمد رشاد الطوبى ، ومحمد عبد المنعم أبو الفضل ،وعبد الحافظ حلمي محمد، وعبد الله شحاتة ، ومصطفى محمود ، ويوسف السويدى ، ومنصور حسب النبى ، وعبد المحسن صالح ، وحسن أبو العنين ، وعدد كبير من العلماء المعاصرين الذين أضافوا إضافات أصيلة إلى هذا الموضوع – وأسأل الله تعالى أن يبارك فى جهودهم حتى يكملوا المسيرة على خير إن شاء الله ، وأن يجزى السابقين عنا وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء – مما أدى إلى «بروز المنهج العلمى فى تفسير القرآن الكريم »، والذى يعتمد فى تفسير الإشارات الكونية الواردة فى كتاب الله على ضوء من معطيات العلوم البحتة والتطبيقية ، مع تفاوت فى ذلك من عصر إلى عصر .

ويعتبر تفسير الرازى المعنون "مفاتيح الغيب" أول تفسير يفيض فى بيان المسائل العلمية والفلسفية ، خاصة ما يتعلق منها بعلم الهيئة ، وغير ذلك من العلوم والفنون التى كانت معروفة فى زمانه ، والتى كان هو على دراية بها .

أما تفسير الشيخ طنطاوى جوهرى والمعنون "الجواهر فى تفسير القرآن الكريم" فيقع فى خمسة وعشرين جزءا كبارا ، حاول فيها الشيخ – يرحمه الله – تفسير القرآن الكريم تفسيرا يتجاوب مع روح العصر وما وصلت إليه المعارف الإنسانية فى مجال دراسات الكون وما فيه من أجرام سماوية ، ومن عوالم الجمادات والأحياء ومن الظواهر الكونية التى تصاحبها والسنن الإلهية التى تحكمها ؛ ليبرهن للقارئ أن كتاب الله الخالد قد أحاط بالكون فى تفصيل وبيان وإيضاح غفل عنه كثير من السابقين ، وأنه بحق ينطوى على كل ما وصل وما سيصل إليه البشر من معارف .

هذا ، وقد نعى الشيخ الجوهرى – يرحمه الله – على علماء المسلمين إهمالهم للجانب العلمى فى القرآن الكريم ، وتركيز جهودهم على الجوانب البيانية والفقهية فقط بقوله : "لماذا ألف علماء الإسلام عشرات الألوف من الكتب فى علم الفقه ، وعلم الفقه ليس له فى القرآن الكريم إلا آيات قلائل لا تصل إلى مائة وخمسين آية ؟ فلماذا كثر التأليف فى علم الفقه ، وقلَّ جدا فى علوم الكائنات التى لا تكاد تخلو منها سورة ؟" ; ولذا فإننا نجده فى مطلع تفسيره يتوجه بنداء إلى المسلمين يقول فيه : "يا أمة الإسلام ، آيات معدودات فى الفرائض - يقصد آيات الميراث - اجتذبت فرعا من علم الرياضيات ، فما بالكم أيها الناس بسبعمائة آية فيها عجائب الدنيا كلها .. هذا زمان العلوم ، وهذا زمان ظهور الإسلام .. هذا زمان رقيه ، يا ليت شعرى ، لماذا لا نعمل فى آيات العلوم الكونية ما فعله آباؤنا فى علوم الميراث ؟" ، ثم يضيف : "إن نظام التعليم الإسلامى لابد من ارتقائه ، فعلوم البلاغة ليست هى نهاية علوم القرآن الكريم ، بل هى علوم لفظه ، وما نكتبه اليوم (يقصد فى تفسيره) علوم معناه ..." .

ولم يكتف الشيخ طنطاوى جوهرى فى تفسيره بتتبع الآيات واستنتاج معانيها وفق ما ارتآه فيها من إشارات إلى مختلف الدراسات الحديثة ; بل إنه قد استعان فى هذا التفسير – الفريد من نوعه – بكثير من صور النباتات والحيوانات والظواهر الكونية ، والوسائل التجريبية ، كما استخدم الآراء الفلسفية عند مختلف المدارس الفكرية وكذلك الأرقام العددية التى ينظمها «حساب الجمل» المعروف .

وقد اعتبر المفسرون من بنى عصره ذلك المنهج العلمى فى التفسير - كما اعتبر من قبل- جنوحا إلى الاستطراد فى تأويل بعض آيات القرآن الكريم على غير مقاصدها التشريعية والإيمانية ; استنادا إلى الحقيقة المسلمة : أن القرآن الكريم لم يأت لكى ينشر بين الناس القوانين العلمية ومعادلاتها ، ولا جداول المواد وخصائصها ، ولا قوائم بأسماء الكائنات وصفاتها ; وإنما هو فى الأصل كتاب هداية ، كتاب :عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملات ، وهى ركائز الدين التى لا يستطيع الإنسان أن يضع لنفسه فيها أية ضوابط صحيحة . والقرآن العظيم حين يلفت نظر الإنسان إلى مختلف مظاهر هذا الوجود إنما يعرض لذلك من قبيل الاستدلال على قدرة الخالق العظيم وعلمه وحكمته وتدبيره ، ومن قبيل إقامة الحجة البينة على الجاحدين من الكافرين والمشركين ومن قبيل التأكيد على إحاطة القدرة الإلهية بالكون وبكل ما فيه ، وعلى حاجة الخلق فى كل لحظة من لحظات الوجود إلى رحمة ذلك الخالق العظيم ورعايته . فهذا هو الشيخ محمد رشيد رضا – رحمه الله – يكتب فى مقدمة تفسيره "المنار"

ما نصه : " .... وقد زاد الفخر الرازى صارخا آخر عن القرآن هو ما يورده فى تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة فى الملة على ما كانت عليه فى عهده ، كالهيئة الفلكية اليونانية وغيرها وقلده بعض المعاصرين - ويقصد الشيخ طنطاوى جوهرى- بإيراد مثل هذا من علوم العصر وفنونه الكثيرة الواسعة فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية فصولا طويلة –

بمناسبة كلمة مفردة ، كالسماء أو الأرض – من علوم الفلك أو النبات أوالحيوان تصد القارئ عما أنزل الله لأجله القرآن".

وعلى الرغم من استنكارأعداد من علماء التفسير لهذا المنهج العلمى قديما وحديثا ، إلا أن عددا كبيرا من العلماء المسلمين ظل مؤمنا بأن الإشارات الكونية فى كتاب الله – أى الآيات المتعلقة ببعض أشياء هذا الكون على إجمالها وتناثرها بين آيات الكتاب المجيد – تبقى بيانا من الله خالق الكون ومبدع الوجود ; ومن ثم فهى حق مطلق وصورة من صور الإعجاز فى كتاب الله – الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه – وأن ذلك قد لا يتضح إلا للراسخين فى العلم من المتخصصين فى مختلف مجالات العلوم البحتة والتطبيقية – كل في حقل تخصصه – ، وحتى هؤلاء يظل يتسع إدراكهم لذلك الإعجاز باتساع دائرة المعرفة الإنسانية جيلا بعد جيل ، وعصرا بعد عصر ، مصداقا لقول الحق – تبارك وتعالى:-

" إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ) " (صّ: 88،87) .

ومصداقا لقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم- فى وصفه للقرآن الكريم بأنه : " مأدبة الله والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة عن أتبعهلا يزيغ فليستعتب ، ولا يعوج فيقوم ،ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق عن كثرة الرد "([3]) .

ومن هنا كان واجب المتخصصين من المسلمين فى مختلف مجالات المعرفة الإنسانية – فى كل عصر وفى كل جيل – أن تنفر منهم طائفة للتسلح بمستلزمات تفسير كتاب الله من إلمام بقدر كاف من علوم اللغة العربية وآدابها ، ومن الحديث وعلومه ، والفقه وأصوله ، وعلم الكلام وقواعده ، مع معرفة بعادات المجتمع العربى الأول ، وإحاطة بأسباب النزول ، وبالمأثور فى التفسير ، وبالسيرة النبوية المطهرة ، وباجتهاد السابقين من أئمة المفسرين وبغير ذلك من الشروط التى حددها علماء التفسير وأصوله ، ثم تقوم تلك الطائفة على شرح آيات الكتاب الحكيم – كل فيما يخصه – حتى تستبين للناس جوانب من الإعجاز فى كتاب الله لم يكن من السهل بيانها قبل عصر العلم الذى نعيشه . وحتى يتحقق قول الله تعالى فى محكم كتابه : "لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ " (الأنعام:67)

وانطلاقا من ذلك الفهم ظهرت مؤلفات عديدة تعالج قضية الإعجاز العلمى فى كتاب الله من أشهرها فى القديم كتاب "كشف الأسرار النورانية القرآنية فيما يتعلق بالأجرام السماوية والأرضية والحيوانات والنباتات والجواهر المعدنية" لمحمد بن أحمد الإسكندرانى الطبيب وهو من علماء القرن الثالث عشر الهجرى .

ورسالة عبد الله فكرى وهو من وزراء المعارف السابقين فى مصر فى مطلع القرن العشرين التى يقارن فيها بين بعض مباحث علم الهيئة (الفلك) وبين الوارد من نصوص القرآن الكريم فى ذلك ، وكتاب "الإسلام والطب الحديث" لعبد العزيز إسماعيل ، و"رياض المختار" لأحمد مختار (الغازى) ، وكتاب "معجزة القرآن فى وصف الكائنات والتفسير العلمى للآيات الكونية" لحنفى أحمد ، وكتاب "فى سنن الله الكونية" و"الإسلام فى عصر العلم" لمحمد أحمد الغمراوى ، و"إعجاز القرآن فى علم طبقات الأرض" لمحمد محمود إبراهيم ، و"العلوم الطبيعية فى القرآن" ليوسف مروة ، وسلسلة كتب كل من محمد جمال الدين الفندى وعبد الرزاق نوفل فى نفس الموضوع ، وكتاب "أضواء من القرآن على الإنسان ونشأة الكون والحياة" لعبد الغنى الخطيب ، و"القرآن والعلم" لأحمد محمود سليمان ، و"من إشارات العلوم فى القرآن الكريم" لعبد العزيز

سيد الأهل ، و"محاولة لفهم عصرى للقرآن" لمصطفى محمود ، و"تفسير الآيات الكونية" لعبد الله شحاتة ، و"الإسلام والعلم التجريبى" ليوسف السويدى ، و"القرآن تفسير الكون والحياة" لمحمد العفيفى ، وكتاباً "الإنجيل والقرآن والعلم" لموريس بوكاى ، وكتاب "خلق الإنسان بين الطب والقرآن" لمحمد على البار ، هذا بالإضافة إلى ما ظهر مؤخرا من كتب ومجلات عديدة وأبواب كثيرة عن الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم وفي السنة النبوية المطهرة ،وردت مجمعة فى كتب إسلامية متعددة ، أو متناثرة فى كثير من التفاسير التى حررت فى النصف الأخير من هذا القرن .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد تعرض هذا المنهج – بحق أحيانا ، وبغير ذلك فى أحيان أخرى كثيرة – للمزيد من النقد والتجريح الذى أسس على أن معجزة القرآن الكريم هى فى الأصل معجزة بيانه الذى أدرك أساطين اللغة العربية فيه ومنذ سماع أولى آياته أنه علامة فارقة بين كلام الله وكلام البشر ، وأن علينا أن نفهم الإسلام كما بينه نبى الإسلام – صلوات الله وسلامه عليه - . وكان من شواهد ذلك ومبرراته حيود عدد من الذين تعرضوا للقضايا الكونية فى القرآن عن جادة الطريق إما عن قصور فى فهم الحقائق العلمية ، أو انتفاء لشروط القدرة على الاجتهاد فى التفسير ، أو لكليهما معا .

وعلى الرغم من ذلك كله فقد تمكن هذا السيل من الكتابات عن الإعجاز العلمى فى آى القرآن الكريم من تهيئة النفوس لقبول ذلك المنهج حتى قام المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى مصر بتشكيل عدد من اللجان العلمية التى ضمت إلى علماء القرآن وتفسيره والحديث ورجاله والفقه وأصوله والشريعة وعلومها واللغة العربية وآدابها والتاريخ وتفاصيله عددا من كبار العلماء والباحثين والمفكرين فى مختلف جنبات المعرفة الإنسانية . وقد قام كل هؤلاء بمدارسة كتاب الله فى اجتماعات طالت لسنين عديدة ، ثم تبلورت فى تفسير موجز تحت اسم "المنتخب فى تفسير القرآن الكريم" ، كتب بأسلوب عصرى وجيز ، سهل مبسط ، واضح العبارة ، بعيد عن الخلافات المذهبية والتعقيدات اللفظية والمصطلحات الفنية ، وقد أشير فى هوامشه إلى ما ترشد إليه الآيات القرآنية من نواميس الحياة وأسرار الكون ، ووقائعه العلمية التى لم تعرف إلا فى السنوات الأخيرة ، والتى خصها ذلك التفسير فى مقدمته بأنه لا يمكن إلا أن يكون القرآن قد أشار إليها; لأنه ليس من كلام البشر ، ولكنه من كلام خلاق القوى والقدر ، الذى وعد بذلك فى محكم هذا الكتاب فقال : " سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ "(فصلت:53).

المبحث الثاني

الايات القرانية في الإشارات الكونية فى القرآن الكريم

ان الإشارات الكونية فى القرآن الكريم قد صيغت صياغة مجملة معجزة يفهم منها أهل كل عصر معنى من المعانى يتناسب مع ما توافر لهم من علم بالكون ومكوناته ، وتظل هذه المعانى تتسع باتساع دائرة المعرفة الإنسانية باستمرار فى تكامل لا يعرف التضاد ، حتى يبقى القرآن الكريم مهيمنا على المعرفة الإنسانية مهما اتسعت دوائرها ، تصديقا لنبوءة المصطفى –صلى الله عليه وسلم- فى وصفه القرآن الكريم بأنه : " لا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق عن كثرة الرد "([10]) .

وليس هذا لغير كلام الله تعالى .. !! لأنه لا يمكن لعاقل أن يتخيل مصدرا لهذا الكم الهائل من الحقائق العلمية فى القرآن الكريم غير الله الخالق ؛ لأنه كتاب قد أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبى أمى –صلى الله عليه وسلم- ، وفى أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين ، وفى فترة

زمنية لم يكن لأحد من الخلق إلمام بشيء من هذه الحقائق العلمية التى لم تكتشف إلا فى القرنين الماضيين ، ولا تزال تكتشف إلى اليوم وحتى يوم الدين .

والإشارات الكونية فى القرآن الكريم جاءت فى أكثر من ألف آية صريحة ، بالإضافة إلى آيات أخرى عديدة تقترب دلالتها من الصراحة ، وتشكل هذه الآيات الكونية حوالى سدس مجموع آيات القرآن الكريم .وهذه الآيات الكونية لا يمكن فهمها فهما كاملا فى إطارها اللغوى فقط – على أهمية ذلك وضرورته – ولا يمكن الوصول إلى سبقها بالحقيقة الكونية – وهو ما نسميه بالإعجاز العلمى للقرآن الكريم – دون توظيف الحقائق العلمية التى توافرت معرفتها لأهل زمننا ؛ لأن فى هذه الآيات الكونية من المحتوى العلمى ما لا يقف على دلالته إلا الراسخون فى العلم – كل فى حقل تخصصه – .

ومن هنا كانت تلك الآيات القرآنية العديدة التى تشير إلى مستقبلية الاستكشاف فى دلالات بعض الآيات القرآنية ، وذلك من مثل قوله تعالى :

* " لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ " (الأنعام:67) .

وقوله عز من قائل :* " وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ " (النمل:93)

وقوله –سبحانه وتعالى- :* " إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ " (صّ:87،88) .

وقوله –عز وجل- :* " سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ " (فصلت:53) .

وفى المقابل فإننا نجد الآيات القرآنية المتعلقة بركائز الدين من العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات قد صيغت صياغة محكمة ، محددة المعنى ، واضحة الدلالة ، لا تحتمل غير وجه واحد ، يفهمه البدوى فى قلب الصحراء كما يفهمه أكثر الناس ثقافة وعلما ، وهذا أيضا جانب من جوانب الإعجاز القرآنى التى لا تحصى ولا تعد ؛ ولذلك يحضنا ربنا –تبارك وتعالى- حضا على تدبر آيات القرآن الكريم فيقول عز من قائل :* " أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً " (النساء:82) .

ويقول –عز وجل- :* " كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ " (صّ:29) .
ويقول –تبارك وتعالى- : * " أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا " (محمد:24) .
وفى ذلك يقول المصطفى –صلى الله عليه وسلم- : " أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه "([4]) .
وإعراب القرآن الكريم يقصد به معرفة معانيه ، وفهم رسالته المتضمنة فى آياته ، والتماس غرائبه ؛ أى معرفة ما غمض من معانيه على قارئه . ويتجلى ذلك أكثر ما يتجلى فى الآيات الكونية التى تتسع دلالاتها باستمرار مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية جيلا بعد جيل وأمة بعد أمة وذلك لندرة تلك المعرفة بالكون ومكوناته وظواهره فى زمن تنزل الوحى ولطبيعتها التراكمية مع الزمن ؛ بمعنى اتساع دائرة المعرفة فيها بزيادة استقراء الإنسان للكون وتعرفه على السنن المنتظمة الحاكمة له ، والتى وضعها الله –سبحانه وتعالى- فيه ، ولولا انتظام تلك السنن واطرادها ما تمكن الإنسان من معرفة شيء عنها . وهذا الانتظام والاطراد فى سنن الكون وظواهره هو من وسائل تسخير الكون للإنسان ، وقد تحدث القرآن الكريم عن ذلك التسخير فى مواطن كثيرة .
ومبررات الاهتمام بالإشارات الكونية فى القرآن الكريم عديدة ، ولكن يمكن إيجازها فيما يلى :

1 – إن القرآن الكريم نزل لنا لنفهمه ، والآيات الكونية لا تفهم فهما كاملا فى إطار اللغة وحدها ، والمعرفة كل لا يتجزأ .

2 – إن الإسلام والمسلمين يتعرضان اليوم لهجوم ظالم فى جميع وسائل الإعلام العالمية والمحلية ؛ بسبب إنكار غير المسلمين لنبوة المصطفى –صلى الله عليه وسلم- ، وإنكارهم الوحى بالقرآن الكريم والإشارات الكونية خير دليل لأهل عصرنا – عصر العلوم والتقنيات المتقدمة – على حجية ذلك كله ، وباللغة التى يفهمونها .

3 – إننا قصرنا فى التبليغ عن الله –سبحانه وتعالى- وعن رسوله –صلى الله عليه وسلم- تقصيرا كبيرا ، ولذلك وصلنا إلى ما وصلنا إليه من تكتل أهل الباطل علينا ، وتآمرهم على ديننا ومقدساتنا وأعراضنا وأموالنا وأراضينا ، وخير وسيلة لتبليغ هؤلاء القوم اليوم فضل الإسلام على غيره من الأديان ، وفضل القرآن الكريم على غيره من الكتب : هو ما ورد من حقائق علمية راسخة فى كل من كتاب الله –سبحانه وتعالى- وفى سنة رسوله –صلى الله عليه وسلم- ؛ لأن العلم قد أصبح الوسيلة المقنعة لأهل عصرنا .

4 – إن العالم قد أصبح قرية كبيرة تلتقى فيها كل الثقافات وثقافة عصرنا الراهن ترتكز على العلوم البحتة والتطبيقية وما تنتجه من تقنيات مختلفة ولذلك فإن إثبات سبق كل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بالإشارة إلى العديد من حقائق الكون هو من أنجح الوسائل لإقناع أهل عصرنا بصدق القرآن الكريم وبصدق نبوة خاتم الأنبياء والمرسلين –صلى الله عليه وسلم- .

5 – إن المؤامرة الدولية على الإسلام والمسلمين قد أسقطت من أيدينا كل سلاح نستطيع به الدفاع عن أنفسنا وأراضينا وعن ديننا ومقدساتنا وأعراضنا وكرامتنا ، ولكن على الرغم من ذلك فقد بقى بأيدينا سلاح الدعوة إلى الله على بصيرة بلغة العصر ، ومنه الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية المطهرة ، والذى لو أحسنا توظيفه فى الدعوة إلى دين الله لفتح الله تعالى علينا الدنيا من أطرافها . والتجارب المحدودة فى هذا المجال تثبت جدوى ذلك وأهميته وعلى الرغم من ذلك عارض نفر من أبناء المسلمين قضية الإعجاز العلمى للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، ولا يزالون والسبب الرئيسى لذلك هو : ازدواجية التعليم ، والفصل الكامل بين تعليم دينى إنسانى نظرى لم يعد له اهتمام بالمعطيات الكلية للعلوم . وتعليم مدنى علمى تقنى لا يعطى للدارس الحد الأدنى من الثقافة الدينية التى تعينه على فهم أصول دينه ، وعلى حسن القيام بعباداته ، وحسن التبليغ عن الله تعالى ورسوله –صلى الله عليه وسلم- بالكلمة الطيبة والحجة البالغة ، ونتيجة لهذه المفاصلة تخوف كل من الشرعيين والعلميين من الخوض فى هذه التجربة التى بدأها علماء المسلمين فى القرن الهجرى الثالث ، واستمرت فى مد وجزر حتى عصرنا الراهن .

وكان من مبررات المعارضين ما يلى :

1 – اعتبارهم التفسير العلمى للقرآن الكريم نوعا من التفسير بالرأى – وهو مذموم عندهم – ولكن المقصود بالرأى المذموم هو الهوى ، وليس الرأى المؤسس على الحقائق العلمية الثابتة التى يقبلها كل عقل سوى ، وتؤيدها الحجة المنطقية المقبولة والدليل المادى الملموس .

2 – اعتبارهم أن الإسرائيليات كانت قد نفذت إلى التفسير أول ما نفذت عن طريق محاولات السابقين التعرض لشرح دلالة الآيات الكونية استنادا إلى ما جاء فى سفر التكوين من العهد القديم ،

وقد أثبت العلم خطأها كما جاء فى كتاب الدكتور الفرنسى (موريس بوكاى) "التوراة والإنجيل والقرآن والعلم" .

3 – إن القرآن الكريم هو كلام الله – فى صفائه الربانى – ولذلك فهو حق كله ، وثابت ثبوت الرواسى ، والعلوم المكتسبة متغيرة ولا يجوز مقابلة الثابت بالمتغير ؛ أى لا يجوز مقابلة كلام الله بكلام الناس . وللرد على ذلك نقول : إن القرآن الكريم – الذى هو فى الأصل كتاب هداية – نزل لنا لنفهمه ولنتدبر آياته بإمكاناتنا البشرية المحدودة ، وإنا لا نوظف فى مجال الإعجاز العلمى للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة إلا الحقائق التى حسمها العلم والتى لا رجعة فيها .

4 – إن العلوم الكونية انطلقت فى زماننا من منطلقات مادية بحتة لا تؤمن بما فوق المدرك من صور المادة والطاقة ، ولذلك تصاغ أحيانا صياغات منافية لأصول الدين نتيجة للصراع المرير الذى قام فى بدايات عصر النهضة الأوروبية بين العلميين ورجال الكنيسة فى العالم الغربى ، وانتهى بانحسار دور الكنيسة . وللرد على ذلك نقول : إن هذا الموقف كان فى البدايات الأولى لتطبيق المنهج العلمى فى الغرب ، أما اليوم فإن المعطيات الكلية للعلوم أصبحت تؤكد على العديد من حقائق الدين ؛ ولذلك طالبنا ولا زلنا نطالب بضرورة التأصيل الإسلامى للمعرفة بمعنى إرجاعها إلى أصولها الإسلامية.

5 – إن بعض الذين تعرضوا لتفسير الآيات الكونية فى القرآن الكريم – بغير خلفية علمية سليمة – إما تكلفوا فى تحميل الآيات ما لا تحتمله ، أو توسعوا أكثر من اللازم فى إعطاء الآية القرآنية الكريمة من المعانى ما لا تقصده ؛ والقرآن العظيم أجل من ذلك وأكرم . وللرد على ذلك نقول إن إثبات الإعجاز للقرآن الكريم وللسنة النبوية المطهرة لا يتم إلا بواسطة المتخصصين – كل فى حقل تخصصه – وعلى الناقلين عنهم أن ينسبوا كل قضية إلى محققها وإلا لأصبح الأمر فوضى لا ضابط له ولا رابط ، وهناك فرق كبير **بين دور المحقق ودور الناقل . (1)**

الفصل الثاني

المبحث الاول

الإعجاز العلمي في القرآن

الإعجاز العلمي في القرآن يقصد به حديث القرآن عن حقائق في الكون والخلق والفضاء والبحار وعوالم الإنسان والحيوان والنبات ونحو ذلك.

والإعجاز في القرآن الكريم إعجاز متنوع، ففيه إعجاز لغوي ، وهناك إعجاز تاريخي.أما الشيء الثالث الذي يمكن ان نصنفه ضمن الإعجاز فهو الإعجاز التشريعي. وهذه الإعجازات الثلاثة يضم إليها الإعجاز العلمي لتجتمع في إطار إعجاز القرآن الكريم الذي يتممه إعجاز السنة النبوية.

وأهداف الإعجاز العلمي في القرآن ثلاثة:

أولها: تثبيت مبدأ وحدانية الله عز وجل، فالله هو الإله الخالق القادر المدبر الذي قدر الأمور فجرت على تقديره، وأوجدها في هذا النظام المتناسق في جميع جوانبه في البحار والفضاء والجبال والإنسان والحيوان والنبات الذي تجده نظاماً ليس متصادماً وإنما نظام واحد يكون في النهاية خلق متكامل وراءه إرادة واحدة.

أما الهدف الثاني: فيتمثل في صدق محمد الذي كان أميا لكنه أتى بمعارف وعلوم إلى الآن كبار العلماء يعانون حتى يصلوا إلى بعضها والله عز وجل هو الذي أوحاها إليه. ويقول تعالى: وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ

أما الهدف الثالث من أهداف الإعجاز العلمي في القرآن فهو: إثراء المعرفة البشرية فالقرآن مصدر مهم من مصادر المعرفة البشرية.

ـ والأمثلة على الإعجاز العلمي في القرآن الكريم كثيرة جداً

ـ فمن ذلك أول ما نزل من كتاب الله عز وجل قوله تعالى اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ فأشار القرآن إلى أصل خلق الإنسان، وأنه خلق من علق، والحديث عن خلق الإنسان في القرآن الكريم حديث مستفيض وواسع جداً . وهو يتسم بالإعجاز ولو تتبعت مفرداته في القرآن الكريم لوجدت أنه حديث من ينظر إلى الخلق وهو بين يديه ينتقل من مرحلة إلى مرحلة ... وكلما تطور علم الإنسان الآن في موضوع الخلق والأرحام والأجنة كلما وجد أن حديث القرآن هو الصدق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فكان الحديث في خلق الإنسان أحد النقاط التي تناولها إعجاز القرآن العلمي.

ـ ومن ذلك الحديث عن خلق الإنسان يأتي حديث القرآن الكريم عن جلود الآدميين وأنها مواطن الألم كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ ـ وعن التنفس البشري الذي يضيق في طبقات الجو العليا وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء.

ـ ومن مجالات الإعجاز العلمي حديث الله عز وجل عن النحل بقوله: وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ ومن الإشارة في القرآن الكريم عن الحيوان كيف أن الله يخلق لنا من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين، وكيف أن هذا الحيوان الذي يرعى المرعى ثم يختلط بأجزائه ومنها العصارات الموجودة والأجهزة التي بداخله ثم إذا به يخرج اللبن الصافي الذي هو غذاء أساسي للإنسان.

ويتحدث القرآن الكريم أيضاً عن الثنائية في الخلق في الحيوان وغيره فيقول الله تعالى: وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ، وهذه الثنائية أقرها العلم الحديث وهو أنه لا بد وأن يكون هناك ثنائية حتى يتم التزاوج وبالتالي يتكامل ويبقى.

ـ ومن مجالات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم الحديث عن عالم الفضاء الذي يحوي الشمس والقمر والكواكب وفي كتاب الله عز وجل تقف أمام حقائق كونية كقوله تعالى: لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ويتناول القرآن دوران الفلك والنجوم وما بث الله سبحانه وتعالى في الفضاء من زينة للسماء كما يراها الناظرون إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وفي نفس الوقت ما أبدعه الخالق من نظام عجيب متماسك تصبح الأرض فيه وما عليها عبارة عن ذرة من رمل في صحراء الفضاء الواسع. كما يتحدث القرآن أيضاً عن ولادة الكواكب بعضها من بعض يقول الله عز جل : أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا أي كانتا قطعة واحدة ففصلنا بينهما، وهذا أقرب ما يكون إلى نظرية نشوء الأرض وكيف نشأت وكيف كانت كتلة غازية انفصلت عن كواكب أكبر بكثير ثم مع مرور الزمن أخذت لها مداراً بتقدير الله عز وجل وبدأت القشرة الأرضية تبرد شيئاً فشيئاً حتى وصلت إلى درجة

نستطيع أن نعيش عليها بهدوء واطمئنان واستقرار مع أنه لا يزال إلى الآن باطن الأرض يغلي ويفور، ودليلنا في ذلك البراكين التي تنبعث بين الفينة والفينة في مواطن متعددة من أجزاء الأرض.

ـ ومن مجالات الإعجاز العلمي في القرآن حديثه عن أصل المخلوقات يقول تعالى: وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء لا يقصد هنا بالدابة فقط الإنسان وإنما كل دابة تشمل الإنسان وكل ما يدب على الأرض فربط سبحانه وتعالى بين الماء وبين الحياة ، وحدثنا القرآن الكريم أن كل مخلوق كان أصله الماء ويقول الله تعالى: وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ . وقد لا يكون المقصود بالماء أنه الماء الذي نشربه لكنه شيء يسمى بصورة أو بأخرى ماء.
ومن الإعجاز العلمي أيضاً في القرآن الكريم حديثه عن الجيولوجيا والجبال والبحار والأنهار والبراكين فتجده يتحدث عن الجبال كرواس راسخات في قوله تعالى: وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ والأرض تدور كأنما هي نقاط ارتكاز حتى يكون الدوران ثابتاً لا اضطراب فيه ولا إعوجاج وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ.
وعندما يتحدث القرآن عن صورة الأرض في قوله: وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا لا يتحدث عن سطح منبسط وإنما يتحدث عن سطح مدحي بيضاوي عبارة عن كرة اشبه بالكمثرى وهذا ما أكده العلماء اليوم بأن الأرض ليست كروية مائة في المائة وإنما فيها شيء من الاستطالة.
ـ أما حديث القرآن عن الأمطار وعن الرياح والينابيع وعن دورة المياه في الأرض وكيف قرر أن الله سبحانه وتعالى يرسل الرياح فتثير سحاباً، إذن الوجه الواسع جداً للبحار تتصاعد منه الأبخرة بواسطة الإشعاع والرياح، ثم ترتفع تلك الأبخرة إلى أعلى وتتجمع حتى تصبح غيوماً، ثم تسيرها الرياح إلى أنحاء الأرض ثم تنزل أمطار فتجري في الأرض جداول وأنهار ثم تعود فتختزن في باطن الأرض وتتفجر ينابيع وآباراً من أماكن أخرى. إن هذا حديث يجد فيه المتخصص صدقاً عجيبً في وصف دورة المياه في الأرض كيف تبدأ وكيف تعود وكيف يستفيد منها الإنسان والحيوان والنبات إنه أعجاز عجيب.

والمجالات السابقة للإعجاز العلمي في القرآن الكريم هي جزء من الإعجاز الكبير الذي اشتمل عليه القرآن في مجالات التشريع، واللغة، والتاريخ. ولكن المجال العلمي أصبح الآن مثار اهتمام كثير من العلماء من خلال ظاهرة التخصص.

والتوسع في هذا المجال حفز همم علماء المسلمين – بل وغيرهم أيضاً ـ للتوسع في حديثهم عن إعجاز القرآن في مجالات الكون والحياة ونحو ذلك فظهرت ظاهرة التخصص في هذا الحديث، فمثلاً الدكتور عبدالمجيد الزنداني تجد له كتابات وأشرطة ومحاضرات حول الذرة وكيف تحدث عنها القرآن ويحدثك عن علم طبقات الأرض وعلم الجراثيم والفيروسات والكون والنجوم...

وكذلك الدكتور أحمد شوقي إبراهيم كانت له في هذا مساهمات طيبة في تلفزيون الكويت وإذاعتها، طافت بالمستمع والمشاهد في ارجاء الكويت وثناياه وربط ذلك كله بإشارات القرآن الكريم إليها إشارات واضحة جلية. وممن تحدثوا أيضا عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم الدكتور حسان حتحوت ، والدكتور خالد محمد خالد وغيرهم كثير. (5)

الإسلام بين الماضي والحاضر

لقد بدأ الإسلام قبل 1400 سنة برجل واحد هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وأصبح عدد المسلمين اليوم أكثر من ألف وأربع مئة مليون مسلم!! فما هو سرّ هذا الانتشار المذهل، وماذا تقول الإحصائيات العالمية عن أعداد المسلمين اليوم في العالم؟

يوجد اليوم أكثر من 4200 ديانة في العالم. وتدل الإحصائيات على أن الدين الإسلامي هو الأسرع انتشاراً بين جميع الأديان في العالم! ففي عام 1999 بلغ عدد المسلمين في العالم 1200 مليون مسلم.

إن الإسلام ينتشر اليوم في جميع قارات العالم، فقد بلغ عدد المسلمين في عام 1997 في القارات الست (3):

في آسيا 780 مليون. وفي أفريقيا 308 مليون. وفي أوروبا 32 مليون. وفي أمريكا 7 مليون.وفي أستراليا 385 ألف.

تطور نسبة المسلمين في العالم

كان عدد المسلمين في العالم عام 1900 أقل من نصف عدد المسيحيين، ولكن في عام 2025 سوف يصبح عدد المسلمين أكبر من عدد المسيحيين بسبب النمو الكبير للديانة الإسلامية .

ففي عام 1900 بلغت نسبة المسلمين في العالم 12.4 %، أما المسيحية فقد بلغت نسبتها 26.9 % .

وفي عام 1980 بلغت نسبة المسلمين في العالم 16.5 % ، أما المسيحية فقد بلغت نسبتها 30 % .

وفي عام 2000 بلغت نسبة المسلمين في العالم 19.2 %، أما المسيحية فقد بلغت نسبتها 29.9 % .

أما في عام 2025 سوف تبلغ نسبة المسلمين في العالم 30 % ، أما المسيحية فستكون نسبتها 25 % .

من هنا نستنتج أن الإسلام ينمو كل سنة بنسبة 2.9 بالمئة، وهذه أعلى نسبة للنمو في العالم .

كيف تحدث النبي الكريم عن هذا الأمر؟

هنالك معجزة نبوية مذهلة تحدث من خلالها الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام وبين أن الإسلام سينتشر في جميع أجزاء الأرض. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سيبلغ هذا الأمر – أي الإسلام - ما بلغ الليل والنهار).

ومعنى ذلك أن كل منطقة من الأرض يصلها الليل والنهار سوف يبلغها الإسلام، وهذا ما حدث فعلاً لأن جميع الدول اليوم فيها مسلمون.

وإذا تذكرنا بأن هذا الحديث قد نطق به النبي الكريم في مرحلة ضعف المسلمين وقلة عددهم، في ظروف لم يكن أحد يتوقع أن الإسلام سينتشر في بقاع الأرض كافة ندرك عندها عظمة المعجزة. لقد جاء هذا الحديث الشريف ليواسي المؤمنين على ضعفهم وقلة عددهم، ولو أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن رسولاً من عند الله لما تجرّأ أن يخبر أصحابه بأن الإسلام سينتشر في كافة أنحاء الأرض، إذ كيف يضمن ذلك؟

ولكن الله تعالى الذي يعلم الغيب هو الذي أخبره بهذه الحقيقة ليحدث بها أصحابه قبل ألف وأربع مئة سنة، ولتكون بشرى نصر بالنسبة إليهم، ولتكون دليلاً على نبوّته في هذا العصر!

ومن دلائل هذه المعجزة أن النبي الكريم قرن بين انتشار الإسلام وبين الليل والنهار، وهذه المقارنة دقيقة وصحيحة. فكما أن الليل والنهار يبلغ كل نقطة من نقاط الكرة الأرضية، كذلك فإن الإسلام قد بلغ كل نقطة على سطح الأرض، وهذا ما لا يمكن تخيله في ذلك الزمن.

مع ملاحظة أنه لم يكن أحد يعلم حدود الليل والنهار، ولم يكن أحد يعلم أن الأرض كروية، ولم يكن أحد يتوقع أن الإسلام سينتشر في جميع دول العالم. ولذلك يمكن القول بأن هذا الحديث يمثل معجزة علمية للنبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

كيف تحدث القرآن عن هذا الأمر؟

يقول تعالى: (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) [الصف: 8-9]. وتأمل معي كلمة (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)، ألا تدل على أن الإسلام سيكون الديانة الأولى في العالم؟ وهذا ما سيحدث قريباً إن شاء الله تعالى.

فالإحصائيات تخبرنا بأنه عام 2025 سيكون الإسلام هو الدين الأول من حيث العدد على مستوى العالم، وهذا الكلام ليس فيه مبالغة، بل هي أرقام حقيقية لا ريب فيها. هذه الأرقام جاءت من علماء غير مسلمين أجروا هذه الإحصائيات.

الأرض سبع طبقات

عندما بدأ العلماء بسبر أغوار الأرض وبذل الجهود لمعرفة أسرار بنيتها وتركيبها، وجدوا أن الأساطير والخرافات التي سادت في العصور السابقة ليس لها أي أساس علمي. وبعد أن اكتشف العلماء أن الأرض عبارة عن كرة اقترحوا أن باطن هذه الكرة يتألف من نواة، وسطح الأرض عبارة عن قشرة أرضية رقيقة جداً مقارنة بحجم الأرض، وبينهما طبقة ثالثة هي الوشاح. وهكذا قرر علماء القرن العشرين أن الأرض عبارة عن ثلاث طبقات فقط.

تطور الحقائق العلمية

ولكن نظرية الطبقات الثلاث للأرض لم تصمد طويلاً بسبب الكشوفات الجديدة في علم الأرض. فالقياسات والاختبارات الحديثة أظهرت أن المادة الموجودة في نواة الأرض ذات ضغط هائل يبلغ أكثر من 3 ملايين مرة الضغط على سطح الأرض!!

وفي ظل هذا الضغط سوف تتحول المادة إلى الحالة الصلبة، وهذا يعني أن قلب الأرض صلب جداً! وتحيط به طبقة سائلة ذات درجة حرارة عالية جداً. وهذا يعني أيضاً أن هنالك في باطن الأرض طبقتين وليس طبقة واحدة، أي طبقة صلبة في المركز تحيط بها طبقة سائلة.

ثم تطورت أجهزة القياس وأظهرت للعلماء تمايزاً واضحاً بين أجزاء الأرض الداخلية. فلو نزلنا تحت القشرة الأرضية رأينا طبقة أخرى من الصخور الملتهبة، هي الغلاف الصخري. ثم تأتي بعدها ثلاث طبقات أخرى متمايزة من حيث الكثافة والضغط ودرجة الحرارة.

ولذلك وجد العلماء أنفسهم يصنفون طبقات الأرض إلى سبع طبقات، ولا يمكن أن تكون أكثر من ذلك. والشكل المرفق يوضح هذه الطبقات مع أبعادها حسب ما وجده العلماء حديثاً، وهو من الحقائق اليقينية التي يدرسونها لطلابهم في الجامعات. والتي يشاهدونها من خلال مقاييس الزلازل ومن الدراسة النظرية للحقل المغنطيسي للأرض وغير ذلك.

لقد وجد العلماء أيضاً أن الذرة تتألف من سبع طبقات، وهذا يؤكد وحدة الخلق، فالنظام الذي يحكم الكون كله واحد. فالأرض سبع طبقات، وكل ذرة من ذراتها سبع طبقات أيضاً.

طبقات الأرض السبعة تختلف اختلافاً جذرياً من حيث تركيبها وكثافتها ودرجة حرارتها ونوع المادة فيها. ولذلك لا يمكن أبداً أن نعتبر أن الكرة الأرضية طبقة واحدة كما كان الاعتقاد سائداً في الماضي. وهنا نجد أن فكرة الطبقات الأرضية هي فكرة حديثة نسبياً، ولم تكن مطروحة زمن نزول القرآن الكريم. هذا ما يقوله لنا علماء القرن الحادي والعشرين، فماذا يقول كتاب الله تعالى؟

في رحاب السنّة المطهرة :

ولو تأملنا أحاديث الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وجدنا حديثاً يؤكد وجود سبع أراضين، أي سبع طبقات تغلف بعضها بعضاً. يقول صلى الله عليه وسلم: (مَن ظَلَم قيد شبر من الأرض طُوّقه من سبع أراضين) [رواه البخاري]. وهنا نجد أن الرسول الكريم قد فسّر صفة الطباق بصفة ثالثة وهي صفة الإحاطة بقوله عليه صلوات الله وسلامه: (طُوِّقَهُ من سبع أراضين) والتي تعني التطويق والإحاطة من كل جانب كما في معاجم اللغة، وهذه فهلاً هي حقيقة طبقات الأرض التي يطوّق بعضها بعضاً.

والسؤال هنا: أليست هذه معجزة نبوية عظيمة؟ أليس هذا الحديث الشريف يحدد عدد طبقات الأرض وهو سبعة، ويحدد شكل هذه الطبقات وهو التطويق والإحاطة، بل وفي هذا إشارة إلى الشكل الكروي أو القريب منه أي أن الحديث الشريف يتحدث عن كروية الأرض؟

إذن القرآن الكريم والسنّة النبوية قد سبقا العلم الحديث لهذه الحقيقة العلمية. بل إن القرآن قد أعطانا التسمية الدقيقة لحقيقة تركيب الأرض من خلال كلمة (طباقاً) وأعطانا العدد الدقيق لهذه الطبقات وهو سبعة، بينما العلماء استغرقوا سنوات طويلة وغيروا نظرياتهم مرات عدة ليخرجوا بنفس النتائج الواردة في كتاب الله وسنة رسول الله. فسبحان الله العلي العظيم القائل في كتابه المجيد: (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ؟) [الذاريات: 20-21].

ونتذكر أخيراً أن الله تعالى قد أودع في ثنايا هذا الكون إشارات رقمية سباعية تدل على وحدانية الخالق عز وجل، فقد اقتضت مشيئة الله أن يجعل كل ذرة من ذرات الكون عدد طبقاتها سبع، ويجعل عدد أيام الأسبوع سبعة، هذا في الدنيا أما في الآخرة فقد أعد الله تعالى لمن يكذب بقرآنه وآياته نار جهنم وجعل لها سبعة أبواب. ومن عجائب القرآن التي تثبت صدق ما جاء فيه، أن كلمة (جهنم) تكررت 77 مرة من مضاعفات الرقم سبعة، ولو بحثنا عن عبارتي (سبع سماوات، السماوات السبع) نجدها قد تكررت سبع مرات في القرآن كله. فسبحان خالق السماوات السبع! (7)

عندما بدأ العلماء باكتشاف الكون أطلقوا عليه كلمة «فضاء»، وذلك لظنّهم بأن الكون مليء «بالفراغ». ولكن بعدما تطورت معرفتهم بالكون واستطاعوا رؤية بنيته بدقة مذهلة، ورأوا نسيجاً كونياً محكماً ومترابطاً، بدءوا بإطلاق مصطلح جديد هو «بناء».

إنهم بالفعل بدءوا برؤية بناء هندسي مُحكم، فالمجرات وتجمّعاتها تشكّل لبنات وأساس هذا البناء، وتشترك هذه المجرات مع الغبار الكوني والدخان الكوني لتشكيل بناء شديد الإتقان.

كما بدءوا يتحدثون عن هندسة بناء الكون ويطلقون مصطلحات جديدة لم نعهدها من قبل مثل الجسور الكونية، والجدران الكونية، وأن هنالك مادة غير مرئية سمّوها بالمادة المظلمة، وهذه المادة تملأ الكون وتسيطر على توزع المجرات فيه، وتشكل جسوراً تربط هذه المجرات بعضها ببعض.

لقد بدءوا يطلقون مصطلحات غريبة أيضاً، فالصور التي رسمتها أجهزة السوبر كمبيوتر أظهرت الكون وكأن المجرات فيه لآلِئ تزيّن العقد! لقد اكتشفوا أشياء كثيرة وما زالوا.

وفي كل يوم نجدهم يطلقون أبحاثاً جديدة وينفقون بلايين الدولارات في سبيل هذه الاكتشافات، بل ويؤكدون هذه الاكتشافات عبر آلاف الأبحاث العلمية التي تطالعنا بها كل يوم مواقع الإنترنت والمجلات والصحف العلمية. (2)

تطـابـق مذهل

ما أكثر الآيات التي استوقفت الباحثين طويلاً، ووقفوا أمامها خاشعين في محراب جلالها وجمالها، متأمّلين دقّة بنائِها وإحكامها، وروعةَ أسلوبها وسحرها، ومتدبّرين دِلالاتها ومعانيها، ومتفكّرين في عجائبها وعلومها ومعجزاتها.

كيف لا يقفون هذا الموقف وهم أمام أعظم وأجمل وأروع كتاب على الإطلاق، ألا وهو الكتاب الذي وضع الله تعالى فيه علمَه فقال: ﴿لـكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً﴾ [النساء: 166].

إنه علم الله الذي يعلم أسرار الكون والذي أودع في كتابه هذه الأسرار، وقال عنه: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ [الفرقان: 6].

والعجيب جداً أن القرآن الكريم تحدث بدقة فائقة عن حقائق كونية نراها اليوم! والدلائل التي سنشاهدها ونلمسها في هذا البحث العلمي هي حجّة قوية جداً على ذلك.

سوف نضع أقوال أهم الباحثين والمكتشفين على مستوى العالم بحرفيتها، وبلغتهم التي ينشرون بها أبحاثهم، ومن على مواقعهم على الإنترنت، والتي يمكن لكل إنسان أن يرى ويتأمل هذه الأقوال مباشرة. ونتأمل بالمقابل كلام الله الحقّ عزّ وجلّ، ونقارن ونتدبّر دون أن نحمِّل هذه الآيات ما لا تحتمله من التأويلات أو التفسيرات.

سوف نرى التطابق الكامل بين ما يكشفه العلم اليوم وبين ما تحدث عنه القرآن قبل قرون طويلة. ولكن قبل التعرف إلى هذه الحقائق لا بدّ أن نقف على أحد الانتقادات المزعومة التي تُوجَّه للإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهرة.

هجوم على الإعجاز العلمي

صدرت بعض المقالات مؤخراً يتساءل أصحابُها: إذا كانت هذه الحقائق العلمية والكونية موجودة في القرآن منذ 1400 سنة، فلماذا تنتظرون الغرب حتى يكتشفها ثم تقولون إن القرآن قد سبقهم للحديث عنها؟ ولماذا تحمّلون النص القرآني ما لا يحتمل من التأويل والتفسير؟

والجواب نجده في نفس الآيات التي جاء فيها التطابق بين العلم والقرآن، فهذه الآيات موجهة أساساً للملحدين الذين لا يؤمنون بالقرآن، خاطبهم بها الله تعالى بأنهم هُمْ مَن سيرى هذه الحقائق الكونية، وهم من سيكتشفها.

لذلك نجد البيان الإلهي يقول لهم: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 53].

هذه الآية الصريحة تخاطب أولئك الذين يشكّكون بالقرآن، وأن الله سيريهم آياته ومعجزاته حتى يدركوا ويستيقنوا أن هذا القرآن هو الحق، وأنه كتاب الله تعالى. ويخاطبهم أيضاً بل ويناديهم بقوله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾ [النساء: 82].

إذن لو كان هذا القرآن من عند بشر أي من عند غير الله تعالى، لرأينا فيه الاختلافات والتناقضات، ولكن إذا رأيناه موافقاً ومطابقاً للعلم الحديث ولا يناقضه أبداً، فهذا دليل علمي على أنه صادر من الله تبارك وتعالى فهو خالق الكون وهو منَزّل القرآن.

وهذا هو هدف الإعجاز العلمي، أن نرى في هذا القرآن التناسق في كلّ شيء، ولا نجد فيه أي خلل أو خطأ أو تناقض، وهذه مواصفات كتاب الله تعالى. بينما كتب البشر مهما أتقنها مؤلفوها سيبقى فيها التناقض والاختلاف والأخطاء.

وأكبر دليل على صِدق هذه الحقيقة القرآنية أن العلماء بدءوا يغيّرون مصطلحاتهم الكونية: مثل (فضاء) إلى (بناء). إذن هم اكتشفوا أنهم مخطئون في هذه التسمية فعدلوا عنها إلى ما هو أدقّ وأصحّ منها بعدما اكتشفوا المادة المظلمة.

ولكن القرآن المنَزَّل من الذي يعلم أسرار السماوات والأرض، أعطانا التعبير الدقيق مباشرة، وهو القائل عن كتابه الكريم: ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصّلت: 42].

إن هذه الاكتشافات لو تمَّت على أيدي مؤمنين ثم قالوا إنها موجودة في القرآن إذن لشكَّك الملحدون بمصداقيتها، وقالوا بأنها غير صحيحة. ولكن المعجزة أنك تجد من ينكر القرآن يردّد كلمات هذا القرآن وهو لا يشعر!! وفي هذا إعجاز أكبر مما لو تمَّ الاكتشاف على أيدي المؤمنين. (2)

ولو تتبعنا آيات القرآن الكونية نجدها غالباً ما تخاطب الملحدين البعيدين عن كتاب الله والمنكرين لكلامه تبارك وتعالى. فالمؤمن يؤمن بكل ما أنزل الله سبحانه وتعالى، وهذه الحقائق العلمية تزيده يقيناً وإيماناً بخالق هذا الكون ومبدعه وهو القائل عن إبداع خلقه: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: 88].

أما الملحد الذي ينكر القرآن ولا يؤمن برسالة الإسلام، فيجب عليه أن ينظرَ ويتأمَّلَ ليصل إلى إيمان عن قناعة، وليدرك من وراء هذه الحقائق صدق هذا الدين وصدق خاتم النبيّين عليه أفضل الصلاة والتسليم.

عظمة الكون

هنالك أنواع متعددة من المجرات تسبح في الكون وتشكل لبنات بناء في هذا الكون الواسع. وتوجد في الكون المرئي من هذه المجرات أو "اللبنات" مئات البلايين!! وبالرغم من ذلك لا تشكل إلا أقل من 5 بالمئة من البناء الكوني، أما الـ 95 بالمئة الباقية فهي مادة مظلمة لا تُرى. إن كل مجرة من هذه المجرات تحوي أكثر من مئة ألف مليون نجم! فسبحان مبدع هذا البناء العظيم.

إن الضوء يقطع في الثانية الواحدة 300 ألف كيلو متراً تقريباً، وهو يقطع في سنة كاملة 9.5 تريليون كيلو متراً تقريباً، والمجرَّة التي تبعد عنا بليون سنة ضوئية، يحتاج ضوؤها للوصول إلينا إلى بليون سنة! خلال هذا الزمن يقطع ضوء هذه المجرة مسافة قدرها 9.5 ألف مليون مليون مليون كيلو متر!!

الكون لبنات بناء

والآن سوف نستعرض مثالاً على كلمات ردّدها علماء غربيّون حديثاً، وهي موجودة في القرآن قبل مئات السنين! ففي أحد الأبحاث التي أطلقها المرصد الأوروبي الجنوبي يصرّح مجموعة من العلماء بأنهم يفضّلون استخدام كلمة [لبنات بناء من المجرات] بدلاً من كلمة [مجرَّات]، ويؤكدون أن الكون مزيَّن بهذه الأبنية تماماً كالخرز المصفوف على العقد أو الخيط!!

ففي هذا البحث يقول الدكتور بول ميلر مكتشف النسيج الكوني وزملاؤه، يقولون بالحرف الواحد:

"إن المجرات الأولى، أو بالأحرى لبنات البناء الأولى من المجرات، سوف تتشكل في خيوط النسيج. وعندما تبدأ ببث الضوء، سوف تُرى وهي تحدّد مختلف الخيوط غير المرئية، وتشبه إلى حد كبير الخرز على العقد".

السَّماء بناء

وبعد أن أبحرتُ في الكثير من المقالات والأبحاث العلمية والصادرة حديثاً حول الكون وتركيبه، تأكدتُ أن هذا العالِم ليس هو الوحيد الذي يعتقد بذلك، بل جميع العلماء يؤكدون حقيقة البناء الكوني، ولا تكاد تخلو مقالة أو بحث في علم الفلك من استخدام مصطلح [بنية الكون]. وهذا يدل على أن العلماء متفقون اليوم على هذه الحقيقة العلمية، أي حقيقة البناء. وذهبتُ مباشرة إلى كتاب الحقائق – القرآن، وفتَّشتُ عن كلمة ﴿بناء﴾، وما هي دلالات هذه الكلمة.

وكانت المفاجأة أن هذه الكلمة وردت كصفة للسّماء في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاء بِنَاء وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: 64]. وفي آية أخرى نجد قوله تعالىً: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: 22].

وسبحان الله تعالى! كلمة يستخدمها القرآن في القرن السابع الميلادي، ويأتي العلماء في القرن الحادي والعشرين ليستخدموها بحرفيتها بعدما تأكدوا وتثبَّتوا بأن هذه الكلمة تعبّر تعبيراً دقيقاً عن حقيقة الكون وأنه بناء محكم، فهل هذه مصادفة أم معجزة؟! يقول تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: 101].

لآلئ تزيّن العقد!

عندما رأى العلماء هذا الكون بمناظيرهم المقربة والمكبرة، ورأوا ما فيه من نجوم ومجرات وغبار كوني وجدوا أنفسهم أمام بناء هندسي كوني فسارعوا لإطلاق مصطلح [البناء] على هذا الحشد الضخم من المجرات والدخان والغبار، ورأوا فيه ألواناً وزينة فشبهوها باللآلئ!

وفي أقوال العلماء عندما تحدثوا عن البناء الكوني نجدهم يتحدثون أيضاً عن تشبيه جديد وهو أن المجرات وتجمعاتها تشكل منظراً رائعاً بمختلف الألوان الأزرق والأصفر والأخضر مثل الخرز على العقد، أو مثل اللآلئ المصفوفة على خيط. أي أن هؤلاء العلماء يرون بناءً وزينةً.

ففي إحدى المقالات العلمية نجد كبار علماء الفلك في العالم يصرحون بعدما رأوا بأعينهم هذه الزينة:

"إن المادة في الكون تشكل نسيجاً كونياً، تتشكل فيه المجرات على طول الخيوط للمادة العادية والمادة المظلمة مثل اللآلئ على العقد".

إذن في أبحاثهم يتساءلون عن كيفية بناء الكون، ثم يقررون وجود بناء محكم، ويتحدثون عن زينة هذا البناء. ويقررون أن الكون يمتلئ بالمادة العادية المرئية والمادة المظلمة التي لا تُرى، أي لا وجود للفراغ أو الشقوق أو الفروج فيه. لقد وجدتُ أن القرآن يتحدث بدقة تامة وتطابق مذهل عن هذه الحقائق في آية واحدة فقط!!!

والأعجب من ذلك أن هذه الآية تخاطب الملحدين الذين كذبوا بالقرآن، يخاطبهم بل ويدعوهم للنظر والتأمل والبحث عن كيفية هذا البناء وهذه الزينة الكونية، وتأمُّل ما بين هذه الزينة كإشارة إلى المادة المظلمة، تماماً مثلما يرون!!!

يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: 6]. والفروج في اللغة هي الشقوق.

واليوم نحن نشاهد من خلال الصور البناء الكوني كما ظهر للعلماء في أضخم عملية حاسوبية، وتظهر المجرات كلبنات البناء التي تزين السماء، وتظهر المادة المظلمة بلون أسود.

إذن تأمل معي قول العلماء بأن السماء بناء، ومزينة، ولا فروج أو فراغ فيها، وتأمل كذلك قول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾، ألا تصور لنا الآية الكريمة ما يراه العلماء اليوم بأحدث الأجهزة؟

ونتأمل أيضاً كيف يتحدث هؤلاء العلماء في أحدث اكتشاف لهم عن كيفية البناء لهذه المجرات، وكيف تتشكل، وكيف تُزيّن السّماء كما تزين اللآلئ العقد! حتى الفراغ بين المجرات والذي ظنّه العلماء أنه خالٍ تماماً، اتضح حديثاً أنه ممتلئ تماماً بالمادة المظلمة، وهذا يثبت أن السماء خالية من أية فروج أو شقوق أو فراغ، وبما يتطابق تماماً مع النص القرآني الكريم.(2)

المبحث الثاني

بعض الحقائق العلمية والمكتشفة حديثاً مع القران الكريم

هناك من يشككون في إعجاز القرآن الكريم قائلين مثلاً إن ما ورد من حقائق علمية ـ خاصة ما يتعلق بتكوين الجنين ـ قد سبق إليها الإغريق، ومنهم أرسطو كما أنه يوجد مثلها في الإنجيل كثير، وبديهي أن تسمع من المشككين مغالطات بقصد التشويش على غير العارفين بالحقائق، وقد خاب مسعاهم ويكفي أن نخبة من كبار المختصين في العالم في علم الأجنة قد بهرتها الأوصاف العلمية الدقيقة في القرآن، فشاركت في العديد من المؤتمرات العلمية الدولية وقرر أساطين المتخصصين في ذلك العلم سبق القرآن للمعارف البشرية، بل ذهب بعضهم إلى الاعتراف بربانية القرآن وأنه ليس بقول بشر، ومن هؤلاء كيث مور Keith Moore رئيس قسم التشريح وعلم الأجنة بجامعة تورنتو في كندا، ولك أن تطالع كتابه بالإنجليزية حول تخلق الجنين البشري The Developing Humanلتجد أمامك حقائق علم الأجنة المكتشفة حديثاً على يد أشخاص معروفين متوافقة مع الدلالات الواردة في آيات القرآن الكريم وذلك شاهد على أن هذا القرآن إنما هو تنزل من خالق الكون جل وعلا.

لقد عاش المفكر الإغريقي أرسطو Aristotle في القرن الرابع قبل الميلاد؛ حيث أصاب شهرة واسعة نتيجة لتأملاته الصائبة في كثير من الظواهر الطبيعية قبل اكتشاف المجهر في القرن السابع عشر، وله مساهمات تجريبية في وصف تطور جنين الدجاجة وغيرها بالعين المجردة،حتى إن البعض يعتبره واضع أساس علم الأجنة، ومع ذلك جاءت الثورة العلمية الحديثة ابتداء من القرن السابع عشر بمكتشفات نقضت الكثير من معتقداته التي ثبت أنها خاطئة، ومن ذلك اعتقاده بتخلق الجنين من دم الحيض نتيجة للاتحاد مع السائل المنوي، علما بأنه ليس أول من وصف تطور جنين الدجاجة من الإغريق فقد سبقه أبو قراط Hippocrates بحوالي قرن عدا الكثير من اجتهاداته في الطب حتى أن بعض الغربيين ممن يحاولون قصر تاريخ العلوم على الأسلاف مجترئين على الحقيقة يعتبرونه أبا الطب.

وربما كان جالن Galen الذي عاش في القرن الثاني قبل الميلاد أكثر دقة من أرسطو في كثير من الوصف لأجنة الحيوانات بعد مشاهدتها بالعين المجردة. وفي العصور الوسطى قبل عصر النهضة عاشت أوروبا في كساد علمي جعلها لا تتجاوز ترداد أفكار الإغريق، ولذا يتعجب البروفيسور كيث مور في كتابه من وفرة وتآزر الحقائق العلمية المتعلقة بخلق الجنين في القرآن، فيقول:

(لم تضف في العصور الوسطى معلومات ذات قيمة في مجال تخلق الجنين ومع ذلك قد سجل القرآن في القرن السابع وهو الكتاب المقدس عند المسلمين أن الجنين البشري يتخلق من أخلاط تركيبية من الذكر والأنثى مع بيان تخلق الجنين في أطوار عدة ابتداءً مما يماثل في التركيب قطيرة أو نطفة تنغرس وتنمو في الرحم كالبذرة..، ومع وصف الجنين في أول مرحلة بما يماثل العلقة Leechالتي تعيش على مص دماء الغير، ثم مما يماثل كتلة ممضوغة بما فيها من علامات أسنان وانبعاجات وهو ما يتفق مع تطور الأعضاء في المرحلة التالية. ويتابع كيث مور قوله:

وإذا أردت مزيداً من الأوصاف العلمية في القرآن في مجال علم الأجنة فإني أحيلك إلى كتابي طبعة 1986م، مع العلم أن أول من درس جنين الدجاجة ـ باستخدام عدسة بسيطة ـ هو هارفي Harvey عام 1651م، ودرس كذلك أجنة الأيل Deer ولصعوبة معاينة المراحل الأولى للحمل استنتج أن الأجنة ليست إلا إفرازات رحمية.

وفي عام 1672م اكتشف جراف Graaf حويصلات في المبايض ما زالت تسمى باسمه Graafian Folliclesوعاين حجيرات في أرحام الأرانب الحوامل تماثلها، فاستنتج أن الأجنة ليست إفرازات من الرحم وإنما من المبايض، علما بأنه لم تكن تلك التكوينات الدقيقة التي عاينها جراف سوى تجاويف في كتل الخلايا الجنينية الأوليةBlastocysts ، وفي عام 1675م عاين مالبيجي Malpighi أجنة في بيض دجاج ظنه غير محتاج لعناصر تخصيب من الذكر واعتقد أنه يحتوي على كائن مصغر ينمو ولا يتخلق في أطوار.

وباستخدام مجهر أكثر تطوراً اكتشف هام Hamm وليفنهوك Leeuwenhoek الحيوان المنوي للإنسان للمرة الأولى في التاريخ وذلك في عام 1677م ولكنهما لم يدركا دوره الحقيقي في الإنجاب وظنا أيضاً أنه يحتوى على الإنسان مصغراً لينمو في الرحم بلا أطوار تخليق، وفي عام 1759م افترض وولف Wolff تطور الجنين من كتل أولية التكوين ليس لها هيئة الكائن المكتمل، وحوالي العام 1775م انتهى الجدل حول فرضية الخلق المكتمل ابتداءً؛ حيث استقرت نهائياً معرفة حقيقة التخليق وأنه يتم في أطوار.

وأكدت تجارب إسبالانزاني Spallanzani على الكلاب على أهمية الحوينات المنوية في عملية التخليق، بعد أن سادت قبله الفكرة بأن الحوينات المنوية كائنات غريبة متطفلة ولذا سميت حتى اليوم بحيوانات المني.Semen Animals

وفي عام 1827م بعد حوالي 150 سنة من اكتشاف الحوين المنوي عاين فون بير Von Baer البويضة في حويصلة مبيض إحدى الكلاب.

وفي عام 1839م تأكد شليدن Schleiden وشوان Schwann من تكون الجسم البشري من وحدات بنائية أساسية حية ونواتجها وسميت تلك الوحدات بالخلايا Cells وأصبح من اليسير لاحقاً تفهم حقيقة التخلق في أطوار من خلية مخصبة ناتجة عن الاتحاد بين الحيوان المنوي والبويضة.

وفي عام 1878م اكتشف فليمنج Flemming الفتائل الوراثية Chromosomes داخل الخلايا، وفي عام 1883م اكتشف بينيدن Beneden اختزال عددها في الخلايا التناسلية، وفي القرن العشرين تم التحقق نهائياً من احتواء الخلية البشرية الأولى Zygot على العدد الكامل من تلك الأخلاط الوراثية من الذكر ومن الأنثى وعرف عددها.

هذا هو تاريخ اكتشاف تلك الحقائق التي سبق القرآن وذكر الكثير منها قبل اكتشافها بقرون، فكيف لعالم محقق أن يجهلها أو يتجاهلها ويعارض الحقيقة! لا شك أن مثل هذا العالم سوف يتهمه التاريخ والعلم بالجهل أو الحيدة عن الإنصاف.!

يقول العلي القدير) :مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا) (نوح: 13،14)، ويقول عز وجل) :يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى) (الحجرات: 13)، قال القرطبي: بين الله ـ تعالى ـ في هذه الآية أنه خلق الخلق من الذكر والأنثى، وقد ذهب قوم من الأوائل إلى أن الجنين إنما يكون من ماء الرجل وحده، ويتربى في رحم الأم ويستمد من الدم الذي يكون فيه. والصحيح أن الخلق إنما يكون من ماء الرجل والمرأة لهذه الآية فإنها نص لا يحتمل التأويل، ويقول عز وجل) :إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ) (الإنسان: 2)، قال الشوكاني: (وأمشاج صفة لنطفة وهي جمع مشج أو مشيج وهي الأخلاط والمراد نطفة الرجل ونطفة المرأة واختلاطهما)، وقال ابن القيم: الجنين يخلق من ماء الرجل وماء المرأة خلافاً لمن يزعم من الطبائعيين أنه إنما يخلق من ماء الرجل وحده.

وأما الادعاء بسبق الإنجيل فلا يسنده دليل، وليس نادراً أن نجد من يعمل على وأد الحقيقة عن تعميم التزاماً بموروث الآباء حتى لو قام على التناقض وعابه الخلل، ولكن النادر أن ينبري محقق للنقد الموضوعي والاعتراف بالحقيقة وإن خالفت الإرث الطائفي، وهكذا ففي يقظة جريئة بين ركام التقليد اعترف المحقق الفرنسي موريس بوكاي بسبق القرآن الكريم في تسجيل كثير من الحقائق في ميادين علمية مختلفة بلا خطأ واحد بينما لم تثبت المدونات الأخرى التي تنسب للوحي أمام النقد العلمي،

ومن هنا نال بكتابه (القرآن والإنجيل في ضوء العلم الحديث) شهرة واسعة ورفعة وما ذلك إلا بسبب صدقه وجرأته التي بلغت حد الجهر بها دون تردد، وفي التماعة لا تخلو من جرأة كذلك في كتاب (دليل إلى قراءة الكتاب المقدس) المنشور في 12 تشرين الثاني عام 1982م والمطبوع بالعربية في بيروت كتب المحقق الفرنسي الأب أسطفان شربنتييه قائلاً: (إن الكتاب المقدس لاسيما

العهد القديم كتاب محير، نعلم قبل أن نفتحه أنه الكتاب المقدس عند اليهود والمسيحيين ونتوقع أن نجد فيه كلام الله غير ممزوج بأي شيء..

وعندما نفتحه نجد فيه قصصاً من ماضي شعب صغير، قصصاً كثيرا ما تكون لا فائدة فيها، وروايات لا نستطيع أن نقرأها بصوت مرتفع دون أن نخجل، وحروباً واعتداءات، وقصائد لا تحملنا على الصلاة وإنما سميناها مزامير، وفضائح أخلاقية قديمة تخطاها الزمن وكثيراً ما هي مبغضة للنساء) ص 8، (وكذلك فإن أسفار الكتاب المقدس كثيراً ما تبدو لنا مبتذلة ولا فائدة لها) ص 8، وفي الحقيقة قد شارك الكاتب في فضل جرأة الاعتراف عدد من أعلام الطائفة هم المترجم: الأب صبحي حموي اليسوعي، والكاتب لمقدمه الكتاب الأب أنطوان أودو اليسوعي أستاذ الكتاب المقدس بجامعة القديس يوسف في بيروت، والمرجع الرسمي الموافق على النشر النائب الرسولي: بولس باسيم، وما يهمنا في أقوال الأب أسطفان شربنتيييه فيما يتعلق بالجوانب العلمية عامة أو الحقائق التي فاض بها القرآن الكريم هو اعترافه بجرأة قائلاً: (قد نجد في الكتاب المقدس كثيراً من الأمور غير المطابقة للواقع) ص9، ولو تناول أي إنسان يرغب في معرفة الحقيقة جميع ما ينسب للوحي من مدونات تسبق القرآن فلن يجد شيئاً خاصة في مجال علم الأجنة، فمن أين إذن ذلك الفيض غير المسبوق من الحقائق العلمية في القرآن قبل أن يبزغ عصر الكشوف العلمية بأكثر من عشرة قرون إذا كان كل ما سبقه ناقصاً ومغلوطاً بشهادة أعلام محققين أحرار!، إن فيض التفاصيل العلمية في القرآن والتي يستحيل أن يدركها بشر زمن التنزيل هي بعض دلائل النبوة الخاتمة التي تسطع اليوم أمام النابهين دون أي خفاء. (8)

خاتمة

الحمد لله الذي يسر لي جمع هذه الإعجازات و الحجج البينة في ضوء الكتاب و السنة، و التي لا تشكل إلا القليل في كتاب لا تنقضي عجائبه كما أخبرنا الرسول الكريم صلى الله عليه و سلم، هذا الإعجاز العلمي ما هو إلا كقطرة ماء في بحر لجي، فكتاب الله جل في علاه كله إعجاز علمي و تشريعي و بلاغي و الله سبحانه و تعالى يقول : (أفلا يتدبرون القران و لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)

فهذه دعوة لتدبر كتاب الله فالقران الكريم ليس تميمة توضع تحت المخدة للتبرك بها و لكنه سلوكيات و منهج حياة. فيجب الوقوف عند حدوده و الإلتزام بأوامره فهو حبل الله الذي لا ينقطع من اعتصم به نجا بنفسه من النار و الله جل و علا يقول: (قوا أنفسكم و أهليكم نارا).

ويتميَّز كتاب الله تعالى بأنه يخاطب العقل والروح معاً، فيتحدث عن الحقائق العلمية وبالوقت نفسه يدعم هذه الحقائق بالهدف منها، وهو الوصول إلى الله تعالى، أي يتخذ من الحقيقة العلمية وسيلة للتقرب من الخالق جلَّ شأنه.

فالقرآن الكريم هو الصورة الوحيدة من كلام رب العالمين المحفوظة بين أيدى الناس اليوم بنفس لغة وحيها – اللغة العربية – ولذلك فهو معجز فى كل أمر من أموره ؛ لأنه لابد وأن يكون مغايرا لكلام البشر ، فهو معجز فى بيانه ونظمه ؛ لأنه ليس بالشعر ولا بالنثر ، ولكنه نمط من العربية فريد ، وصياغة متميزة ، لم يدركها فصحاء العرب وبلغاؤهم وهم فى قمة من قمم الفصاحة والبلاغة وحسن البيان ، وعجزوا عن الإتيان بشىء من مثله .

وبما أن القرآن الكريم هو بيان من الله تعالى فلابد وأن يكون كل ما فيه حقا مطلقا : حديثه عن العقيدة ؛ وهى غيب مطلق ، وعن العبادة ؛ وهى أوامر إلهية محضة ، وعن كل من الأخلاق والمعاملات ؛ وهى ضوابط للسلوك .والتاريخ يؤكد لنا أن الإنسان كان عاجزا دوما عن وضع ضوابط فى أى من هذه القضايا لنفسه بنفسه .

وكذلك إشارات القرآن الحكيم إلى الكون ومكوناته وبعض أشيائه وظواهره ؛ لأنه كلام الخالق ، ومن أدرى بالخلق من خالقه ؟! ، واستعراضه لسير أعداد من الأنبياء السابقين ، والأمم البائدة التى لم يدون لنا التاريخ شيئا عنها ، والاكتشافات الأثرية المتتابعة تثبت صدق القرآن الكريم فى جميع ما أورد .

والقرآن الكريم هو أيضا معجز فى دستوره التربوى الفريد ، وفى خطابه إلى النفس الإنسانية وارتقائه بها فى معارج الله العليا إلى ما لا يمكن لأى خطاب آخر أن يصل ، وفى إنبائه بعدد من الغيوب التى تحققت من قبل ولا تزال تتحقق ، وفى تحديه للإنس والجن مجتمعين أن يأتوا بسورة من مثله دون أن يتمكن عاقل من التقدم ليقول : نعم لقد استطعت أن أكتب سورة من مثل سور القرآن الكريم .

وكلما اكتشف العلماء حقائق علمية جديدة كان للقرآن السَّبق في ذلك، فنحن في كتاب الله أمام معجزة متجددة تناسب كل زمان ومكان، فالقرآن كتاب مُعجزٌ للبشر جميعاً كلٌّ حسب اختصاصه.

فمن أحبَّ أن يعرف نبأ السابقين فليقرأ القرآن، ومن أحبَّ أن يدرك الحقيقة الحاضرة فسيجدها في هذا القرآن، ومن أراد أن يُبحر إلى عالم المستقبل فعليه أن يفتح قلبه أمام هذا القرآن. والميزة التي تميزت بها معجزة سيد البشر عليه الصلاة والسلام، أنها معجزة مستمرة ومتجددة تأتي في كل عصر بإعجاز جديد يناسب لغة هذا العصر.

فجميع المعجزات السابقة لرسالة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم كانت محددة في زمان ومكان، بينما المعجزة القرآنية تجاوزت حدود الزمان والمكان وحتى حدود اللغة. إن الذي يتأمل مخلوقات هذا الكون والنظام المحكم الذي قدره الله تعالى لكل نجم وكل مجرة وحتى كل ذرة، يدرك عظمة الخالق سبحانه وتعالى، ويدرك أن الله أكبر وأعظم من أي شيء.

وهذا هو هدف التفكر في خلق الله تبارك شأنه، فالمؤمن الذي أحبَّ الله ورضي به ربّاً لا بد أن يكون في شوق لمعرفة المزيد عن هذا الإله العظيم، والتفكر في خلق الله هو وسيلة لمعرفة من هو الله!

وفي نهاية هذا البحث لا نملك إلا أن نسجد خشوعاً أمام عظمة كتاب الله تعالى وأمام عظمة إعجازه، ولا نملك إلا أن نردّد قول الحق جلّ وعلا: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: 93].

المصادر

القرآن الكريم.

(1) الإعجاز العلمى للقرآن الكريم : الحاضر والآفاق، بقلم الأستاذ الدكتور/ زغلول راغب محمد النجار/ رئيس لجنة الإعجاز العلمى للقرآن الكريم بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(2) أسرار الكون بين العلم والقرآن/المـهندس عـبد الدائم الكحيـل/
WWW.KAHEEL7.COM / موقع موسوعـة الإعجـاز العلمي في الـقرآن والسـنَّة /
www.55a.net / دمشق - سورية

3 – الألوسى : أبو الفضل شهاب الدين محمود شكرى (ت1270هـ) : "روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى" – إدارة الطباعة المنيرية – القاهرة (بدون تاريخ) ، دار الفكر – بيروت (1398هـ/1978م) ، دار إحياء التراث العربى / الحلبى / مصر (ط4) 1405هـ/1985م .

(4) ابن كثير ، الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل (ت774هـ): " فضائل القرآن" – مطبعة المنار – القاهرة (1327هـ/1909م) .

(5) الشيخ عبد الله سالم/الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ... تعريف ونماذج

(6) حقائق علمية في القرآن أفحمت المكابرين/ د. محمد دودح/ الباحث العلمي / الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة

(7) شكيب خلوقي الإعجاز العلمي في القران الكريم وفي السنة النبوية/ 2010/10/02

(8) الشيخ عبد الله سالم/الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ... تعريف ونماذج

(9) التفاسير المعروفة: تفسير الإمام ابن كثير، تفسير الإمام الطبري، تفسير الإمام القرطبي رحمهم الله تعالى.

(10) **الترمذى (2906) ، والدارمى فى "سننه" (2/525،526) من كلام عبد الله بن مسعود ، وصححه الألبانى فى "السلسلة الصحيحة" (2/267) .**

(10) معاجم اللغة العربية: لسان العرب، الصحاح، القاموس المحيط.

(11) أبحاث علمية على موقع المؤلف "أسرار إعجاز القرآن" www.kaheel7.com

أخلاقيات الحوار عند الرسول محمد (صلى الله عليه واله وسلم)

في ضوء القران الكريم

ا.م.د. محمد فهد حسين القيسي و ا.م.د. حيدر تقي فضيل العلاق

قسم علوم القران والتربية الاسلامية / كلية التربية / جامعة واسط

07725191922Dr_hayder_taqi1972@yahoo.com

المقدّمة

قال الله تعالى (**وانك لعلى خلقٍ عظيم**)(1), قال ذلك في وصف نبيه الأكرم محمد (ص) , ونحن في وقتنا الحاضر نعاني من أزمة حقيقية ؛تكاد تكون بمثابة الكارثة التي حلت بالإنسانية, ألا وهي إلغاء الآخر , ومحاولة فرض الرأي الواحد دون السماح للتعدد الفكري والثقافي ,ويزداد الأمر خطورة عندما يرتبط هذا المفهوم بالإسلام , فهنا تكون الطامة الكبرى .

لذا جاء هذا البحث كمحاولة لمعرفة موقف رسول الإنسانية من الآخر, أي طبيعة خطابه مع غير المسلمين والاخلاقيات المتبعة في ذلك ,وكيف كان هذا الخطاب , كي نتأسى به , ونعده قدوة لنا في هذا المجال ,تحقيقا لقوله تعالى:(**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة**) (2), مع الاعتماد الكبير على ما جاء به القران الكريم من توجيهات للرسول (ص).

جاء هذا البحث من خلال المحاور الآتية :

أولا – الحوار مع الكفار.

ثانيا – الحوار مع المنافقين .

ثالثا- الحوار أهل الكتاب .

وجاءت في نهاية البحث خاتمة لتوضح, ابرز ما جاء به البحث من معطيات ,ثم قائمة المصادر والمراجع .

نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن يسير على خطى الرسول الأعظم , وان يجعل بحثنا خالصا لوجهه الكريم , ومن العلم الذي ينتفع به .

أولا – الحوار مع الكفار:

رسم القران الكريم صورة متكاملة لعلاقة الرسول الاكرم (ص) وصيغة حواره مع الكفار . ويمكن لنا ان نوضح ان الحوار مع الكفار قد مر بمراحل متعددة, وذلك من خلال دراستنا للقران الكريم .وكانت هذه المراحل هي :

1. وصف الكفر وتوضيحه للرسول الاكرم .
2. ضرب الامثال ووعظ الكافرين ودعوتهم كي يعودوا عن غيهم ,وذلك من خلال ذكر قصص الاقوام السابقة التي كفرت, وتبيان ما جرى عليهم بعد عملية الكفر هذه .

3. تسلية الرسول الاكرم عن كفر الكفار, وتخفيف الوطأة عنه .
4. وعد الكفار بالعذاب الشديد اذا لم يعودوا عن كفرهم .
5. الامر بقتال الكافرين في نهاية المطاف , وذلك بعد استنفاد كل وسائل الدعوة والارشاد والحوار.

وعليه سنبدأ بأول هذه المراحل ,وهي وصف الكفر وتوضيحه للرسول الاكرم (ص), حيث يرد :(**لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثه**) (3) وهنا نجد ان الله سبحانه وتعالى يوضح لرسوله الاكرم ان الكافرين يجعلون لله شركاء في الإلوهية, وبالتالي فنحن امام اول مراحل الحوار مع الكفار وهي مرحلة تعريف الكافر للرسول الاكرم . والايات كثيرة حول ماهية الكفار وتوضيحهم في القران الكريم , ومنها :(**الذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت**) (4) وايضاً يرد حول صفات الكافرين وتوضيحها للرسول الاكرم: (**الذين كفروا يفترون على الله الكذب**) (5)

وهنا يخبر الله تعالى الرسول (ص)ان الكفار يكذبون على الله بادعائهم ان هذه الاشياء من فعل الله او امره , ثم يكمل الله تعالى الاية بقوله :(**وأكثرهم لا يعقلون**) حيث يوضح لرسوله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) أن أكثر هؤلاء الكفار لا يعقلون, لأنهم أتباع (6) , وبالتالي فهم يسيرون وفقاً لاراء رؤسائهم .

وهنا نلاحظ أنّ القران قد التفت الى امر مهم من خلال توجيه الله تعالى لرسوله الاكرم , وهو أنّه من المهم, وقبل البدء بالحوار مع الكفار هو تبيان صفاتهم العامة لرسوله , كي يكون على بينة مع من يحاور منهم, وهنا قسّمهم القران الكريم الى قسمين :

القسم الاول : وهم الاتباع . وهؤلاء لا يعقلون اغلب الامور في كفرهم , وذلك كونهم تابعين لرؤسائهم وزعمائهم , الذي يوجهونهم حيثما شاءوا .

القسم الثاني : وهم الزعماء والرؤساء. وهؤلاء يكونون بالضرورة على معرفة ودراية بالأشياء التي كفروا من اجلها , وغيبوا عبادة الله وهي واضحة .

وبطبيعة الحال فأن لكل قسم من هؤلاء الية حوار ونقاش تختلف على الاخر , ومن الواضح ان الحوار مع الاتباع يكون اسهل من الحوار والنقاش مع الرؤساء والزعماء , ذلك لان الرؤساء عندهم من المصالح والامتيازات ما يمنعهم من الهداية والإيمان , والتي ستزول حتماً عند تخليهم عن كفرهم وعبادتهم لله جل وعلا.

وهنا نلاحظ ان من اهم الامور في الحوار مع الاخر ,هو معرفة ماهيته , وكل شئ حوله والظروف المحيطه به , قبل الحوار معه , كي يكون المحاور ملتفتاً إلى سلوك افضل السبل, الموصلة الى تحقيق افضل النتائج في حواره ، لأنّ نتائج الحوار لا يمكن أن تكون موجودة

بشقها الايجابي إلاّ إذا كان المحاوِر على علم بطبيعة المحاوَر ، وملتزم في الوقت ذاته بأدب الحوار. وهذا هو منهج القرآن الكريم فهو لم يحكم على الأشخاص إلاّ بعد بيان أسباب الحكم عليهم, وهذا الأمر يعطي نتائج مهمة بحد ذاته فيما يتعلق بنتائج الحوار.

اما في المرحلة التاليه , وبعد ان وضح الله لرسوله الاكرم صفات الكفار واقسامهم , فانه يعمد الى بداية الحوار معهم , وذلك من خلال ضرب الامثال لهم ومحاولة وعظهم وارشادهم ,وذلك من خلال التفكر بعظم خلق السموات والارض واعمال العقل في هذا الجانب ، وقد استخدم القرآن الكريم ما يدلّ على ذلك من ألفاظ وعبارات منها(أفلا يعقلون، أفلا ينظرون، فلا يتدبرون) ,وكذلك من خلال تبيان ما حل بالاقوام السابقه , وكيف انهم كفروا فلم يغن عنهم كفرهم شيئاً. حيث ورد: (**أولم ير الذين كفروا ان السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما) (7).**

وهنا يوجه الرسول الاكرم عناية الكفار الى التفكر في عظمة الكون , وعظم خلق السموات والارض , وبالتالي الانتقال معهم الى السوؤال المهم :

من خلق هذا الخلق العظيم ؟

ويوجه عنايتهم بذلك الى حقيقه مهمه للسموات والارض , من خلال ان السموات والارض كانتا في البدايه مرتوقتين ,اي متلاصقتين ولم يكن بينهما فضاء , ولم يكن بينمها فرج , لكن الله سبحانه وتعالى فتقهما بالمطر والنبات, بعد ان كانت الارض مصمته(8).

وبعد مطالعة الآية السابقة , وما المراد منها نجد انه وفي حالة كون الكفار غير معاندين , وانما هدفهم الحقيقه اينما تكون, نستطيع الجزم انه وبعد الاستماع لهذا المثل الكوني والاعجاز التكويني , فان كثيرا منهم – أي الكفار – سيعيدوا النظر في عقائدهم وافكارهم , ولكن بشرط مهم وهو كما اسلفنا – يجب عليهم ترك العناد والاستكبار .

لان قسما منهم وعلى الرغم من كل الآيات الافاقيه والانفسية ، ((سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم)) فقد جاهر بعناده وكفره, كما ورد في الآية الكريمة : (**وقالوا لن نؤمن لك حتى يفجر لنا من الارض ينبوعاً . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار من خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً**) (9).

ولكن الغريب الامر انهم وحتى لو فرضنا ان الرسول قد استجاب لهم , واجابهم الى ما يطلبون نجدهم يقولون بعد طلبهم لكل هذه المعجزات :(**... لن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه)(10).**

ونلاحظ هنا أنّ هناك كمية كبيرة جدا من العناد والاصرار والتحدي للرسول الاكرم, من قبل الكفار . ولكن التساؤل الذي يطرح بقوه : ما كان رد الرسول على هولاء بعد هذا التحدي الواضح والاستهزاء المرّ ؟

نجـد ان الرسـول يجيـبهم وبكـل هـدوء **:(سـبحان ربـي هـل كنـت الا بشـراً رسـولا)** (11),ونلاحظ هنا تسامي لغة الحوار النبوي مع الكفار, فهو على الضد والنقيض من اسلوبهم, فبالنسبة لهم نجد الوقاحه والتحدي والتكبر والاصرار, الذي لم يقابل من قبله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) إلاّ بأسمى آيات التواضع والرحمة والحب والرغبة في هدايتهم , فهو يجيبهم على ما تحدوه به من خلال قوله :(**انـي ماكنـت الابشراً مـثلكم**)(12) ,وبالتالي فانا لا استطيع أن اجلب لكم ما اردتم من آيات ,لا يوجد غير الله قادر على الاتيان بها .

وبالمقابل فان الرسول الأكرم لم ييأس من هدايتهم أو يصد عنهم, فهو يخبرهم نقلا عن الله جل وعلى : (**ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف**) (13)، وهذا بطبيعة الحال منهج ثابت للرسول الأكرم (صلّى الله عليه وآله وسلّم) في تعامله مع الناس جميعا مخالفين أم موافقين ، ولعلّ هذا الأمر من أهم أسباب قبول دعوة النبي من قبل المخالفين له ، قال تعالى ((ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك)) (آل عمران /159). فحوار النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) حوار يعتمد الأسس العقلية والعلمية على حد سواء ، لأنّ هذه الأسس هي الطريق السليم للوصول إلى الغاية التي بعث النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) لأجلها، فقد روي عنه أنه قال ((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق))(14)

ومن مكارم الأخلاق التي حرص النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) عليها هي لغة الحوار ، فالحوار الهادف الذي لا يعتمد الزجر والتكفير والتنفير هو الطريق الصحيح للوصول إلى قلب الآخر ، ولذلك لم يكن رسول الله سبابا ولا فحاشا كما روى ذلك البخاري عن ((هلال بن أسامة عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال لم يكن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم)سبابا ولا فحاشا ولا لعانا....)) (15)، لأنّ السب والشتم إنما هو لغة الضعفاء الذين لا يملكون من الأدلة ما يجعلهم ينافسون الآخر في حواره ، أو حتى مجاراته فيه .

ومن هنا نستنتج ان الحوار النبوي مع الاخر – ويمثله هنا الكفار – ليس حوارا لمجرد الحوار , بل هو حوار يهدف الى ادخالهم في حضيرة الايمان , دون الالتفات الى ماضيهم بالتكذيب والجحود , وبالتالي فهو حوار يهتم بالنتائج النهائية , دون التركيز على السلوك الاني للكفار .

ومن الأمثال الأخرى للكفار التي يضربها الرسول الاكرم لهم لغرض هدايتهم, هي محاولة تذكيرهم بالنماذج التي اتخذت سبيل الكفر في الاقوام السالفة , وكيف كانت عاقبتهم , وبالتالي فان الرسول يرجو من وراء ذلك ان يراجع هولاء انفسهم , وان يحاولوا ابدال واقعهم الضال بمستقبل اكثر اشراقاً بالايمان ,حيث ورد :(**ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح**) (16) .

وقد كان نوح يرى ان امرأته استيئست من رحمة الله تعالى , وامره الله بعدم حملها معه الى السفينة , ثم ضم الله الى جمله المستثنين من عائلته ابنه أيضا (17) .

وهنا درس بليغ للكفار فيما لو كانوا راغبين في جني حصيلة مثمرة للحوار , وهو ان الله لم يغفر لأحد من الكفار , وهو امرأة نوح واوعدها العذاب, بالرغم من انها كانت زوجة احد الرسل ذوي العزم , وبالتالي فهنا نجد اولى مراحل الوعيد للكفار , بعد ان تم استنفاد وسائل الحوار الاخرى , وضرب الامثال والتخويف من العذاب. حيث يرد: **(الم يأتكم نبوء الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم)** (18). وهنا نجد ترابطا وثيقا بين أسلوب الحوار من جهة وأسلوب الترغيب والترهيب من جهة أخرى ، فأساليب القرآن الكريم مترابطة بطبيعتها ، وموافقة لما اعتاد عليه طبيعة الانسان.

وهنا نلاحظ إن أسلوب الحوار مع الكفار قد اخذ منحى تصاعديا , فقد انتقل من اللين وتحديد المفاهيم للكفر, إلي الطلب من الكفار اخذ العبرة من الأقوام التي سبقتهم , والتي كفرت بانعم الله . ومايعزز ذلك مايوضحه الله سبحانه وتعالى حول ضرورة أن يتقي الكفار النار وعذابها الأليم, حيث يرد :(**فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين**) (19).

وقيل في معنى هذه الآية فاتقوا أن تصلوا النار بتكذيبكم رسولي بما جاءكم به من عندي من تنزيلي , وقيام الحجة عليكم بأنه كلامي ووحيي (20).

ولكن وعند ضرب الامثال , ومحاولة تخويف الكفار من عاقبة الكفر, نجد أنهم بدلاً من استجابتهم للايمان , وقبولهم الدخول في الحوار الذي يفضي الى الحقيقه , نجد انهم على العكس من ذلك ,يصرون على كفرهم ويستكبرون عن الايات , ويطعنوا بشخص المحاور معهم , وهو الرسول الاكرم من خلال قولهم : (**وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا الا سحر)** (21).

وكي يواسي الله سبحانه نبيه الاكرم ويسليه عن كفر الكافرين , وعن غلظتهم وقسوتهم المفرطة في حوارهم معه , نجد انه يخاطب نبيه الاكرم كي يخفف عنه مايلاقي , من خلال الآية الكريمة:

(فلا تأس على القوم الكافرين) (22).

أي لا تحزن عليهم , وفي هذه تسليه للنبي (ص), أي فلا تحزن؛ فأن تكذيب الانبياء عادة الكفار ودأبهم , بل ان الله يطلب من نبيه ان لايتجاوز الحد في الظلم منهم , وقيل ايضاً لاتحزن على هلاكهم وعذابهم فذلك جزاؤهم المناسب (23).

وفي بعض الاحيان يصل الحوار مع الكفار الى تطور قليل نسبياً ,حيث يرد على لسانهم: **(ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض)** (24) , لكن مع هذا التنازل فان الرسول لا يساوم على المبادئ في حواره معهم ,حيث يرد :

(ان تكفروا فان الله غني عنكم) ولكن الله بالمقابل :**(لا يرضى لعباده الكفر)** (25) .

وهنا نجد أن الحوار قد وصل الى طريق مسدود, لذلك فانه ينتقل إلى مستوى آخر , وهو الوعد بالعذاب الشديد لمن يصر على الكفر, ويصم آذانه عن الحوار المقنع مع الرسول الاكرم (صلّى الله عليه وآله وسلّم) حيث يرد : **(وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير) (26)**,ويرد أيضا : **(أصلوها اليوم بما كنتم تكفرون)** (27) .

ومن هنا نلاحظ أن الحوار بعد انتقاله من مرحلة الوعظ والإرشاد, إلى مرحلة الوعد والوعيد ,نجد انه يصل إلى أخر مراحل الحوار , وبالتالي ينهي الحوار مع الكفار, بعد استنفاد كافة وسائل الهداية والإرشاد والإقناع , وبعد ان واجهوها بالتكذيب والتعنت والتعصب, لتبدأ أخر مرحلة في العلاقة مع الكفار , وهي مرحلة الامر بقتالهم واستئصالهم , بعد ان ثبت عدم جدوى الحوار معهم حيث يرد :**(فقاتلوا أئمة الكفر أنهم لا أيمان لهم)** (28) .

وفي هذا التفاته رائعة , حيث جاء الامر بقتال أئمة الكفر - أي رؤساؤه - دون الأتباع والمرؤوسين, وذلك كي تفسح للأتباع فرصه الهداية والايمان , بعد ان ثبت قطعاً ان رؤوس الكفار وزعمائهم قد تم اليأس منهم بشكل قطعي ومن هدايتهم ولكن هذا يعني قتال اتباعهم ايضاً, إن هم ساروا خلفهم وتبعوهم في تكذيب النبي (29). والدّعوة إلى قتال أئمة الكفر منهج صحيح كونهم سبب ضلال الأئمة وكفرها وطغيانها ، فضلا عن كونه (أعني الدّعوة الى قتالهم) خطوة من خطوات نجاح الحوار مع أتباعهم بعد انتفاء سبب الكفر بقتل الرؤساء.

ويرد ايضاً في نهاية المطاف في الحوار مع الكفار بعد ان لم يستجيبوا للرسول (ص)

(يا ايها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) (30)

وهنا نلاحظ المراحل المتعاقبة, التي تم التدرج بها عند حوار الرسول الأكرم مع احد اصناف (الآخر) وهم الكفار.

ثانيا – الحوار مع المنافقين :

بما ان المنافقين لايمكن لنا ان نضعهم على جهة معينة, سواء كانوا مؤمنين ام كانوا كفاراً, لذا نجد ان اسلوب الحوار معهم من قبل الرسول الاكرم (ص) , هو اسلوب قائم بمجملة على التهديد والوعيد , لان الشخص المنافق الذي لا يملك موقفاً محدداً ,لا يمكن الانتقال معهم عبر مراحل الحوار المعتادة . ولكن يمكن تلمس صيغة الحوار معهم من خلال :

- توضيح المنافقين وبيان شأنهم .

- بيان أسلوب الحوار معهم .
- تبيان نتيجتهم النهائية .

ففيما يخص توضيح من هم المنافقين ترد الاية الكريمة حول ذلك : **(الم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا)**(31), وهنا نجد أنّ القران الكريم يوضح من هم المنافقون , حيث جعلهم بمرتبة الكفار, لأنهم كانوا يوالونهم ويؤاخونهم, وكانوا معهم على المؤمنين في السر , وكانوا ينصرون الكفار على المؤمنين (32).

بل إن هناك رأي يقول ان مثل المنافقين في اغرائهم اليهود على القتال ووعدهم اياهم النصر, ثم مشاركتهم لهم واخلافهم (كمثل الشيطان) ,إذ استغوى الإنسان بكيده ثم تبرأ منه في العاقبة (33).

وهنا نجد ان المنافق لا وعد له حتى مع الكافر حيث يعتبره وسيلة للوصول الى غايته,وهذه النقطة مهمة جداً , وذلك لإثبات ما ذهبنا الية من كون المنافقين لايمكن ان نطبق عليهم شروط الحوار العامة ,فالمنافق شخص لا أخلاق له , ولا امان ,وبالتالي لا يمكن الوثوق بنتائج الحوار معه , ويؤيد ذلك ما ورد في الاية القرانية مخاطبة الرسول الاكرم :

(اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون) (34)

اذ تعني هذه الحوارية بين الله جل وعلا ورسوله الاكرم (صلّى الله عليه وآله وسلّم) : انه يامحمد اذا جاءك المنافقون يقولون بالسنتهم نشهد انك لرسوله, والله يعلم انك لرسوله قال المنافقون ذلك اولم يقولوا والله يشهد ان المنافقين لكاذبون يقول : والله يشهد ان المنافقين لكاذبون في اخبارهم عن انفسهم , وذلك أنهم لا يعتقدون ذلك, ولا تؤمن به فهم كاذبون في خبرهم عنها بذلك .(35).

وهنا نجد ان المنافق غير صادق حتى مع نفسه فكيف يكون صادقاً مع الاخرين , وبالتالي يزول التعجب, كون الحوار مع المنافقين كان حواراً مقصوراً في أعمه الاغلب على نقطتين رئيستين هما :

الاولى : توضيح صفاتهم .

الثانية : وعدهم بعاقبة السوء .

ثم يستمر توضيح من هم المنافقون , من خلال الايات القرانيه حيث يرد : (**الاعراب اشد كفرا ونفاقاً) (36) ,** وهنا نجد إن هناك مراتب وصفات للمنافقين , حيث جعل الأعراب في أعلاها و اشدها .

كما يذكر القران ايضاً حول المنافقين: (**وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ماوعدنا الله**) (37), وهنا نجد صفتين للمنافقين هما الاولى: المرض الذي استقر في قلوبهم بفعل النفاق , وبالتالي فمن الصعوبة جداً ارشادهم وعودتهم عن غيهم .

أما الثاني: فهو تكذبيهم بوعد الله سبحانه وتعالى .

كما يرد ايضاً حول صفاتهم – وهي اولى مراحل الحوار مع اي جهة – :(**إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولايذكرون الله الا قليلاً . مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا إلى هؤلاء**) (38) .

وهنا نجد جملة صفات لهم وهي :

1. الخداع لله .
2. الكسل في الصلاة.
3. مراءاة الناس.
4. ذكر الله القليل.
5. التذبذب في المواقف.

وبعد مناقشة هذة الصفات , يمكن معرفة ماهية هولاء , وهل يمكن الحوار معهم ام لا ؟

فالذي يحاول خداع الله لايفقه شيئاً , لان الله مطلع على الخفايا والسرائر . وبالتالي فهو يعلم نية العبد في عمله , فأذا اراد مخادعة الله , فالله اولى ان يخدعه ويضلله ,لأنه استحب العمى على الهدى .

اما الكسل في الصلاة فهذة النقطة في غاية الاهمية , وهي ان المنافقين ولكي يصلوا الى الأغراض التي يريدونها, فإنهم يعمدون إلى إتيان الشعائر والطقوس والعبادات الاسلامية , رغبة منهم في ايهام المؤمنين انهم معهم , ولكنهم يضمرون مالايبدون ,وقد عمدوا إلى هذا العمل كي يحقنوا به دمائهم واموالهم , واضيف الى مخادعتهم لله مخادعة النبي, وذلك من خلال مبايعتهم له وهم يضمرون خلافه(39) .

ولقد كان المنافقون شديدي الخوف والترقب رغم مخادعتهم الله , فقد كانوا يخشون من أن يفضحهم الله نعالي ,حيث يرد :(**يحذر المنافقون ان تنزل عليهم سورة تنبئهم عما في قلوبهم)(40) .**

وقد أوضح الله (جل وعلا) لرسوله الأكرم (صلّى الله عليه وآله وسلّم) من خلال هذه الآيه أنّ هؤلاء القوم – أي المنافقين- أشخاص لا يمكن التدرج معهم حسب مراتب الحوار المعروفة , فهم ليس لهم موقف محدد وثابت كي يستند علية الشخص في الحوار , بل هم

متقلبي المواقف ومتذبذبين في القناعات . وقد قيل حول سورة التوبة التي وردت فيها هذه الاية انها فاضحة المنافقين (41).

وبالاستناد لما سبق نجد ان صيغة الحوار مع المنافقين لم تأخذ مديات اوسع, ولم تكن متدرجة , وذلك كونهم اضمروا الكفر واظهروا الايمان , لذا جاءت معظم الايات التي تتعرض للحوار معهم بين مرحلتين فقط وهما :

اولاً : تبيان من هم المنافقين .

ثانياً : بيان النتيجة النهائية لنفاقهم .

حيث يرد فيما يخص ثانياً , وذلك بعد ان اوضح الله (سبحانه وتعالى) ان المنافقين هم بمرتبة الكافرين، قال تعالى :(**ولله يشهد ان المنافقين لكافرون**) (42) . وهنا نجد ان الحوار قد وصل الى مراحلة الاخيرة .ويوضح الله سبحانه وتعالى لرسوله: **(لا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم**) (43) .

وفي خاتمة المطاف معهم نجد الحكم النهائي عليهم بعد ان استنفد الحوار معهم اخر مراحلة حيث يرد : **(ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار)** (44).

وبالتالي انتهى الحوار معهم الى هذه النتيجة, بعد عدم استجابتهم لدعوات الرسول لنبذ النفاق و الإخلاص في الإيمان .

ويرد ايضاً حول خاتمتهم إن الله وعد المنافقين سواء كانوا رجالاً أم نساءً نار جهنم ماكثين فيها مخلدين هم والكفار (45).

أي إن حالة التذبذب قد زالت منهم في هذه المرحلة ,وعليه فقد قرنوا بالكفار بعد ان كانوا مذبذبين بين الكفار والمؤمنين .

ومن كل ذلك نستنتج ان الذي يسد باب الحوار على نفسه , من خلال عدم سماع الافكار ومناقشتها والاخذ بها ان كانت صحيحة, ستكون عاقبته هي العذاب الخالد.

ثالثاً : الحوار مع أهل الكتاب :

عند بداية أي حوار يجب أن تكون أولى شروطه هو توضيح صفات الجهة التي يتم الحوار معها , وذلك كي يتم التعرف على خصائصه , وبالتالي يتم معرفة كيفية ادارة الحوار معه .

وعليه فقد بدء الحوار مع اهل الكتاب بتوضيح صفاتهم ومن هم, وابرز خصائصهم :(فأهل الكتاب هم اصحاب الكتب السماويه التي نزلها الله على انبيائه , كالتوراة والانجيل) . حيث يرد حول قسم منهم: (**وان من اهل الكتاب لمن يؤمن بالله**) (46) ,وعليه فيكون الحوار معهم على اختلاف كبير من الحوار مع المنافقين , فاهل الكتاب سواء كانوا يهود ام نصارى لهم كتب

سماويه يعتقدون بها وهم يؤمنون بالله – على الرغم من أن عبادة الله عندهم يشوبها بعض الخلل سواء كان التفضيل عند اليهود والتثليث عند النصارى – لذا فان الحوار معهم اخذ منحى اكثر شمولية وتواصل .

فبعد ان وضح الله تعالى صفاتهم لرسوله, انتقل معه الى المستوى الثاني للحوار وهو اقرار اهل الكتاب على دينهم وكتبهم ,ومحاولة مناقشتهم من خلال كتبهم المقدسة, حيث يرد :

(ياأهل الكتاب لستم على شئ حتى تقيموا التوريه والإنجيل) (47).

وهذا أمر من الله تعالى لنبيه (ص) بابلاغ اليهود والنصارى الذين كانوا بين ظهرانيه, حيث يقول الله تعالى : قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى : ياأهل الكتاب التوراة والانجيل , لستم على شئ مما تدعون انكم علية مما جاءكم به موسى (ع) ايها اليهود , ولا مما جائكم به عيسى (ع) ايها النصارى, حتى تقيموا التوراة والإنجيل (48).

ويعزز هذه المرحلة من الحوار ماورد : (**لو انهم اقاموا التوراة والانجيل وما انزل اليهم من ربهم لاكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم)** (49) .

أي أنهم لو أقاموا التوراة والانجيل , وما انزل اليهم من ربهم , على الرغم من اختلاف هذه الكتب ونسخ بعضها بعض , لكن جميع هذه الكتب متفقه في الامر بالايمان برسل الله, والتصديق بما بما جاءت به من عند الله تعالى (50) .

وعلى هذا الاساس , فقد طلب الرسول منهم: (**ليحكم اهل الانجيل بما انزل الله فيه**)(51), أي أنه أراد الانطلاق بالحوار معهم من خلال كتبهم المقدسه عندهم , ذلك ان الله تعالى لم ينزل كتاباً على نبي من انبيائه الا ليعمل اهله الذين امروا بالعمل بما فيه (52).

ولم يكن الحوار مع النصارى فقط بهذه الكيفية, فقد اخذ نفس المنحى مع اليهود حيث يرد : **(إنا انزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين اسلموا**)(53).

ثم انتقل الحوار الى مستوى اخر, حيث قام بتخصيص اهل الكتاب الى اقسام , فلم يجمعهم كلهم في مرتبه واحدة , بل ان هناك تفاوتاً بينهم في الايمان , حيث يرد :

(**ومن اهل الكتاب امة قائمة يتلون آيات الله**)(54), أي إن منهم أهل التوحيد والاستقامة(55).

وفي نفس الوقت وبجنب هذه الطائفة المؤمنه والقائمه التي تتلوا كتاب الله من اهل الكتاب , نجد على النقيض منهم, حيث يرد: (**ودت طائفه من اهل الكتاب لو يضلونكم**) (56) ,وعليه فقد بدء الحوار الفعلي معهم , بعد ان وضح صفات اهل الكتاب ومحاولة اقرارهم على دينهم ,ومناقشتهم - من خلال الثوابت الموجوده في كتبهم – حيث انتقل الحوار الى الطلب الصريح

منهم بالدخول الى الاسلام, كونه الرسالة الخاتمه للرسالات السماوية سواء كانت يهوديه او مسيحيه , حيث يرد :

(يااهل الكتاب لم تكفرون بايات الله) (57), وبعد أن اقرهم على أنفسهم انهم لم يقيموا التوراة والانجيل وانهم كفروا بايات الله , بدأ الله تعالى يوضح لرسوله الاكرم مساوئ عقائدهم وبعدهم عن المنبع الرئيس لدياناتهم التوحيدية , حيث يرد : **(يااهل الكتاب لاتغلوا في دينكم غير الحق)**(58) واصل الغلو : مجاوزة الحد (59).

وبدء الحوار معهم يناقش عقائدهم الرئيسية : فأهل الكتاب يعتقدون ان ابراهيم (ع) هو ابوهم الاعلى ,ويستندون على أن عقائدهم وكتبهم جاءت على سيرته وتعاليمه , لذا فقد اوضح الله تعالى لرسوله ولهم عكس ذلك, حيث يرد : (**قل يا اهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم ومانزلت التوراة والانجيل الا من بعده)** (60).

أي لم تنازعون وتجادلون في ابراهيم وتدعون انه على دينكم, ولم تنزل التوراة والانجيل الا من بعده, اي أن الإقامة على الدعوى من غير برهان غير جائزه بالعقل, وعليه يكون ابراهيم لا يهوديا ولانصرانيا ,بل وصفه القران الكريم انه كان مسلماً (61).

ثم بدء الحوار بالعتاب الهادئ مع اهل الكتاب من خلال الاتي : **(يااهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم)** (62) . أي هلموا الى كلمة عدل لا ميل لها , فيها ترك العبادة لغير الله.(63)

ثم يشتد الحوار معهم وذلك بعد ان لم يستجيبوا لدعوات النقاش والحوار والتفكر, حيث جاء جوابهم بعد كل مراحل الحوار معهم كالاتي: (**يسألك اهل الكتاب ان تنزل عليهم كتابا من السماء)** (64) ,وفي هذا لهجة تحدي واصرار على الخطأ ,وقد قيل انهم سألوا الرسول ان ينزل عليهم كتابا من السماء يكون مكتوباً , كما كانت التوارة مكتوبة من عند الله في الألواح (65).

وبعد هذا التعنت والاصرار يصل الحوار الى مراحلة الاخيرة مع هذه الفئه من اهل الكتاب, وذلك بعد أن ثبت نجاحه في إيمان قسم من اهل الكتاب, مثل عبد الله بن سلام بن حارث الاسرائيلي وقد كان حبراً عالما عند أهله (66) .

لكنّ القسم الاكبر منهم وصل الحوار معهم إلى طريق مسدود, انتهى إلى الحرب والقتل، كما حصل ليهود بني قريضه والقينقاع وبني النضير ويهود خبير . وبالتالي فان الإسلام كمنهج سماوي قد استنفد كل الوسائل الممكنة من أجل تلافي النزاع ، ولم تكن الوسائل التي اتبعها الإسلام بعد ذلك مع هؤلاء من حرب لبعضهم وإجلاء للبعض الآخر إلاّ آخر وسيلة ممكنة من أجل الحفاظ على بيضة الإسلام.

الخاتمة

بعد اكمال البحث يمكن إيراد أبرز النتائج التي وردت فيه :

أولا – تدّرج الحوار مع الآخر في القرآن الكريم إلى عدة مراحل, مبتدءا بالرفق صعودا إلى الشدة .

ثانيا – ميّز الله تعالى بين نوعين من الكفار , وهم الرؤساء والأتباع .

ثالثا – لم يلجأ الرسول الأكرم إلى الشدة في الحوار, إلا بعد استنفاده لكل وسائل الإقناع, من خلال إتباع أسلوب الرفق بالحوار مع الكفار .

رابعا – غلب على أسلوب الحوار مع المنافقين استعمال الشدة والوعيد , ذلك لان المنافقين لا مبادئ ثابتة عندهم .

خامسا – اقر الرسول الأكرم في حواره مع أهل الكتاب كتبهم السماوية ,سواء كانت التوراة أو الإنجيل , ذلك كي يحاول إقناعهم بالإيمان بالرسالة الخاتمة , وهي الإسلام.

الهوامش

(1) سورة القلم: اية 4

(2) سورة الأحزاب: اية 21.

(3) سورة المائدة : اية 73.

(4) سورة النساء : اية 76

(5) سورة المائدة : اية 103

(6) الطبرسي , **مجمع البيان** , مؤسسة الأعلمي للمطبوعات , بيروت , 1995 , جـ 3 , ص 433.

(7) سورة الانبياء : ايه 30

(8) الزمخشري ,**تفسير الكاشف**, مكتبة مصطفى الحلي , مصر , 1966 جـ 2 , ص 570

(9) سورة الإسراء : 91 – 93

(10) سورة الاسراء : 93

(11) سورة الاسراء : 93

(12) سورة الأنفال : آية 38

(13) سورة التحريم : آية 7

(14) البخاري ، فتح الباري شرح صحيح البخاري .كتاب المناقب حديث رقم 16 باب المناقب

(15) البخاري، فتح الباري شرح صحيح البخاري /468 حديث رقم 5684

(16) الطباطبائي , **الميزان في تفسير القران ,** منشورات جماعة المدرسين , قم , 1412 , جـ 10 ,ص 227 .

(17) سورة التغابن : ايه 5

(18) سورة التوبة : ايه 24

(19) ابن جرير الطبري , **جامع البيان في تفسير القران** , دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع , ب .ت , 1995 , جـ 1 ,ص 243.

(20) سورة النمل : ايه 43

(21) سورة المائدة : ايه 68

(22) الطبرسي , **مجمع البيان**, جـ 3 , ص 383 .

(23) سورة النساء : ايه 105

(24) سورة التوبة : ايه 74

(25) سورة ال عمران : ايه 176

(26) سورة الملك : ايه 6

(27) سورة يس : اية 64

(28) سورة التوبة : ايه 12

(29) القرطبي , **الجامع لأحكام القران** , دار إحياء التراث العربي , 1985 , جـ 8, ص 81

(30) سورة التحريم : ايه 9

(31) سورة الحشر : ايه 11

(32) الزمخشري **الكشاف** , جـ4 , ص 85.

(33) المصدر نفسه , ص86

(34) سورة المنافقون , ايه 1

(35) الطبري , **جامع البيان** , ص135 .

(36) سورة التوبة : أيه 97 .

(37) سورة الأحزاب : أيه 12 .

(38) سورة النساء : أيه 142 .

(39) الطبرسي , **مجمع البيان** ,جـ 3 ,ص220 .

(40) سورة التوبة : ايه64 .

(41) ابن كثير , **تفسير القرآن العظيم** , دار المعرفة , بيروت , 1992 , جـ2 , ص381 .

(42) سورة المنافقون : ايه 1.

(43) سورة الاحزاب : اية 48 .

(44) سورة النساء : اية 145 .

(45) ابن كثير , **تفسير القرآن العظيم** , جـ2 , ص382

(46) سورة ال عمران : ايه 199

(47) سورة المائدة : ايه 68

(48) الطبري , **جامع البيان** , جـ 6 , ص 417

(49) سورة المائدة: اية 66.

(50) الطبري , **جامع البيان** , جـ 6 , ص 411

(51) سورة المائدة : ايه 47

(52) الطبري , **جامع البيان** , جـ 6 , ص 359

(53) سورة المائدة : ايه 44

(54) سورة ال عمران : ايه 113

(55) ابن العربي , **تفسير ابن العربي** , تصحيح عبد الوارث محمد علي , بيروت , دار الكتب العلميه , 2001 م , جـ 1 , ص141 .

(56) سورة ال عمران : ايه 69

(57) سورة ال عمران : ايه 70

(58) سورة المائدة : اية 77

(59) الطبرسي , **مجمع البيان** , جـ 3 , ص 246

(60) سورة ال عمران : ايه 64

(61) الطبرسي , **مجمع البيان** , جـ 2 , ص 316

(62) ال عمران : ايه 64

(63) النساء : ايه 153

(64) الطبرسي , **مجمع البيان** , جـ 2 , ص 314

(65) الطبرسي , **مجمع البيان** , جـ 3 , ص 229

(66) محمد رضا , **محمد رسول الله** , دار الكتب العلمية بيروت , 1975 , ص 151.

قائمة المصادر

- القرآن الكريم
- ابن العربي , **تفسير ابن العربي** , تصحيح عبد الوارث محمد علي , بيروت , دار الكتب العلمية , 2001 م , جـ 1.
- ابن كثير , **تفسير ابن كثير** , دار المعرفة , بيروت , 1992 , جـ2.
- ابن جرير الطبري , **جامع البيان في تفسير القران** , دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع , ب .ت , 1995 , جـ 1
- الزمخشري ,**تفسير الكاشف**, مكتبة مصطفى الحلبي , مصر , 1966, جـ 2.
- الطبرسي , **مجمع البيان** , مؤسسة الاعلمي للمطبوعات , بيروت , 1995 , جـ 3 ,
- الطباطبائي , **الميزان في تفسير القران ,** منشورات جماعة المدرسين , قم , 1412 , جـ 10.
- القرطبي , **الجامع لأحكام القران** , دار إحياء التراث العربي , 1985 , جـ 8.
- محمد رضا , **محمد رسول الله** , دار الكتب العلمية ,بيروت , 1975.

ABSTRACT

God said (and you are creating a great) Al-Qalam: 4, said that in the description of Prophet Mohammed (PBUH), and we in the present day suffer from a real crisis; almost a disaster that has befallen humanity, namely the abolition of the other, and try to impose opinion one without allowing the multiplicity of intellectual, cultural, and it becomes more serious when associated with this concept of Islam, here are a great disaster.

So, this research was in an attempt to know the position of the Messenger of humanity than the other, ie, the nature of his speech with non-Muslims, and how was this speech , and we consider an example for us in this area, an investigation on him (you've had in the Messenger of Allah a good example) Al-Ahzab : 21, with heavy reliance on what is stated by the directives of the Holy Quran to the Prophet (PBUH).

The research through the following themes:

I. Dialogue with the infidels.

II - Dialogue with the hypocrites.

III - Dialogue with other religions.

And came at the end of the study has a conclusion to explain the high points of the search data, then the list of sources and references. We ask Allaah to make us who follow in the footsteps of the Great Prophet, and that makes our purely for Allah's sake, and the science that will benefit from it.

دراسة احصائية واقتصادية لدالة الانتاج لقطاع الصناعات التحويلية في العراق للمدة 2011-1970

الاستاذ الدكتور عباس لفتة كنيهر العقابي
alafta@uowasit.edu.iq
كلية الادارة والاقتصاد/جامعة واسط

الباحثة شيماء خطاب عبيد
sema9827@gmail.com
كلية الكوت الجامعة / الكوت

المستخلص

تم في هذا البحث دراسة وتحليل دالة الإنتاج لقطاع الصناعات التحويلية للمدة 1970 - 2011 وذلك بتحليل هذه الدالة من خلال البيانات الخاصة بهذا القطاع والعمل على كشف أسباب ضعف وتدني مستواه وإنخفاض مساهمته في الناتج المحلي الإجمالي ، وهذا ما دلت عليه نتائج تحليل بياناته بإستخدام إسلوب تحليل السلاسل الزمنية ، وكذلك تم التوصل إلى نتائج مهمة كان أبرزها إن الصناعات التحويلية في العراق كثيفة عنصر العمل وهذا يعد أمراً سلبيا في قيام وتطور الصناعات التحويلية الإستراتيجية الضرورية لبناء الإقتصاد الوطني ومسألة دخول التطورات التكنولوجية التي تتطلب رأس مال كبير مقابل الاكتفاء بعدد قليل من الأفراد العاملين وينتج عنها كميات إنتاج كبيرة .

مقدمة

مما لا يمكن التغاضي عنه ان القطاع الصناعي عامة والصناعات التحويلية بشكل خاص يلعبان دورا بالغ الأهمية في خلق وتوفير متطلبات التنمية الاقتصادية بما يشمله ذلك من تطوير القطاعات الاقتصادية والاجتماعية الأخرى والعمل على استغلال الطاقات البشرية والمادية المعطلة ، والعمل على رفع انتاجية القطاعات الاقتصادية وزيادة مساهمتها في الناتج المحلي الاجمالي ، فقطاع الصناعات التحويلية – ان توفرت عوامل تطوره وخطط نجاحه – يعمل على توفير متطلبات نجاح القطاعات الاقتصادية الاخرى كونه يتميز بوجود جملة من التشابكات القطاعية مع تلك القطاعات كالقطاع الزراعي والاستخراجي ، عن طريق استغلال مخرجات تلك القطاعات ويعيد استخدامها كمدخلات له ، فضلا عن توفير متطلبات تطوير ذاته عن طريق انتاج وتطوير الآلات والمكائن والمعدات الضرورية للعملية الانتاجية ، ولذا فإن وجود قطاع صناعي متطور تتوفر فيه مقومات النجاح ويتم بناءه وتخطيط عملياته الإنتاجية وفقاً لإستراتيجية معينة تتفق وإمكانات وموارد الإقتصاد القومي سيساعد حتماً في تحقيق هدف التنمية الإقتصادية والإجتماعية الشاملة ، وهذا ما يفضي حتما للعمل على تحليل مفصليات هذا القطاع وسلوك مفرداته وسير عملياته الإنتاجية ، وأفضل الطرق لذلك هو العمل على إجراء دراسة وتحليل دالة الإنتاج لهذا القطاع والعمل على كشف نقاط الضعف فيها من أجل تنشيطها وإبراز نقاط القوة فيها وبالتالي العمل على تعزيزها .

أهمية البحث :-

تنبع أهمية البحث من كونه يسلط الضوء على أبرز ضروريات تطور قطاع الصناعات التحويلية في العراق ألا وهو الدراسة القياسية والإقتصادية لدالة إنتاج هذا القطاع والذي سيسهم في العمل على كشف نقاط الخلل والضعف فيه وبالتالي العمل على تصحيحها .

مشكلة البحث :-

تتلخص مشكلة البحث في أن من أبرز مشاكل القطاع الصناعي في العراق عدم وجود دراسة حقيقية وواضحة لدالته الإنتاجية وهذا ما يعني عدم وجود تخطيط حقيقي لسير العمليات الإنتاجية فيه .

هدف البحث :-

يهدف البحث إلى دراسة واقع قطاع الصناعات التحويلية في العراق اقتصاديا وإحصائيا وبيان مجمل التغيرات التي مر بها هذا القطاع وأسباب تردي مستواه ومساهمته في الناتج المحلي الإجمالي .

فرضية البحث :-

كان للظروف التي مر بها البلد أثرا كبيرا على مجمل مؤشرات قطاع الصناعات التحويلية ، فضلا عن ترهل عدد العاملين في هذا القطاع ، أي ان دالة الإنتاج لقطاع الصناعات التحويلية في العراق كثيفة العمل .

أولاً :- نبذة مختصرة عن دوال الإنتاج

كانت ولازالت دوال الإنتاج تعد من أهم الأدوات المستخدمة على نطاق واسع لأغراض التحليل الإقتصادي وذلك لتحديد علاقة الإنتاج بعناصره ، وكشف أثر التغيرات في تلك العناصر على كل مستوى من مستويات الإنتاج ، كما تعد من أبرز ركائز نظريات الإنتاج والإنتاجية وتأثير التطور التكنولوجي على العملية الإنتاجية ، وعلى الرغم من شيوع استخدامها في العديد من الدراسات على مستوى الاقتصاد الجزئي , ولكونها تمثل العلاقة بين مدخلات العملية الإنتاجية ومخرجاتها ؛ فقد استخدمت بشكل منقطع النظير في تحديد مجمل المدخلات اللازمة لتحقيق مستوى معين من الإنتاج وخاصة الصناعي منه ، وتحديد مدى كون الصناعة كثيفة العمل أو كثيفة رأس المال ، ويتم ذلك عن طريق قسمة مرونة الإنتاج بالنسبة لعنصر العمل على مرونة الإنتاج بالنسبة لعنصر رأس المال ، فتكون الصناعة كثيفة العمل إذا كان ناتج القسمة أكبر من الواحد الصحيح ، أما إذا كان الناتج أصغر من الواحد الصحيح تكون الصناعة كثيفة راس المال [1] . أما عناصر دالة الإنتاج فهي العمل ورأس المال والتكنولوجيا ، حيث أنه يتم خلط هذه العناصر وفقاً لإسلوب إنتاجي معين وبأساليب إنتاجية معينة ليتم الحصول على حجم معين من المخرجات . ويتم بناء دالة الإنتاج وفقا للشكل الآتي [2] :-

$$Q = AF(L, K)$$

حيث أن :-
Q :- حجم الإنتاج ، L :- عنصر العمل ، A :- العامل التكنولوجي ، K :- عنصر رأس المال .

[1] نصر عبد الله قاسم عبد الخالق ، تحليل دوال الإنتاج والإنتاجية في الصناعة الفلسطينية ، رسالة ماجستير ، جامعة النجاح الوطنية / كلية الدراسات العليا ، نابلس – فلسطين ، 2004 ، ص 27 .
[2] المصدر السابق نفسه ، ص 28 .

وقد أشارت الدراسات والتجارب الاقتصادية إن دراسة دالة الإنتاج التي تحكم العلاقات التفاضلّية بين الإنتاج وعناصره (العمل ورأس المال والعامل التكنولوجي) التي تسهم في تكوين ذلك الإنتاج, لها أهمية اقتصادية كبيرة ولاسيما بالنسبة للمنشأة الانتاجية ذاتها ، وذلك لكون دالة الإنتاج توفر كافة المعلومات الخاصة بالعملية الإنتاجية وبيان مساهمة كل عنصر من تلك العناصر في العملية الإنتاجية , وإمكانية الإحلال بينها خلال مراحل العملية الإنتاجية [3] .

وتأخذ الدالة الإنتاجية عادة صيغاً رياضية تتحدد في ضوء متغيرات عديدة ولذلك يجب إجراء عدة إختبارات إقتصادية وإحصائية قبل إختبار الصيغة الرياضية المناسبة للدالة الإنتاجية المطلوب دراستها بمجالات الإنتاج المختلفة . إن تطبيقات دوال الإنتاج بالغة الأهمية في توضيح العلاقة الفعالة بين الإنتاج وعناصره , وتسمح بتوضيح أهمية كل عنصر من عناصر الإنتاج ودوره في العملية الإنتاجية , الأمر الذي ساعد في القدرة على حساب المؤشرات الاقتصادية والإحصائية ورسم الخطط اللازمة للنهوض بواقع القطاع الذي استخدمت فيه حسابات أو تطبيقات دوال الإنتاج , كما أن تحليل دوال الإنتاج يستفاد منه في عملية التنبؤ بمستلزمات تحقيق المستويات المستهدفة من الإنتاج , كما يمكن التنبؤ بوتائر نمو الإنتاج في حال معرفة عناصر الإنتاج الداخلة أو التي سوف تستخدم في العملّية الإنتاجية مستقبلا [4] .

ثانيا :- نبذة مختصرة عن الصناعات التحويلية

القطاع الصناعي بشكل عام والصناعات التحويلية خاصة تعد من أهم مقومات التنمية الصناعية لكونها تتمتع بوجود ترابطات أمامية وخلفية (ضمن القطاع ذاته ومع بقية القطاعات الاقتصادية) ، فالصناعة تعمل على توفير المقومات والهياكل الإرتكازية في الاقتصاد الوطني ؛ ولذلك فإن أغلب الدول المتقدمة هي دول صناعية ، حيث أن إنتاجية الصناعة أعلى من الإنتاجية في القطاعات الأخرى ، كما أن التجارة الداخلية والخارجية تعتمد بشكل كبير على مخرجات القطاع الصناعي [5] ، أما الصناعات التحويلية فتعرفها الأمم المتحدة (على أنها عملية التحويل الميكانيكي او الكيمياوي للمواد العضوية وغير العضوية إلى مواد أخرى جديدة ، سواء تمت هذه العملية بواسطة المكائن أو يدوياً ، وسواء تمت في المصانع أو في البيوت وسواء بيعت مفرداتها بالجملة أو المفرد [6] . والصناعات التحويلية صناعات معقدة متنوعة الاشكال ، وهي تتأثر بجملة من الضوابط والمقومات وتخضع لها ، كما أنها تعتمد على عوامل أكثر تعقيدا من العوامل التي تعتمد عليها أو تتأثر بها غيرها من الصناعات ، وهي ترتبط بالعوامل البشرية والإقتصادية والطبيعية ، وهي تتألف من سلسلة من العمليات الإنتاجية

---

[3] أ.م .د مناهل مصطفى عبد الحمد ، محمد نوري فرحان ، تقدير أفضل دالة إنتاج للشركة العامة للأسمنت العراقية للمدة 1996 - 2010 ، بحث منشور ، كلية الادارة والإقتصاد / جامعة بغداد ، المجلد 20 ، العدد 77 ، السنة 2014 .

[4] نادية مهدي عبد القادر العبيدي , تقدير وتحليل دالة الإنتاج في شركة القادسية العامة للصناعات الكهربائية للمدة (1983 – 1995) ، رسالة ماجستير ، كلية الإدارة والاقتصاد / جامعة بغداد, 0226 , ص 32.

[5] محمد صالح تركي القريشي ، علم إقتصاد التنمية ، مكتبة الجامعة – الشارقة ، الطبعة الأولى ، 2010 ، 313 .

[6] صائب ابراهيم جواد ، اقتصاديات الصناعة والتنمية الصناعية – اقتصاديات المشروع الصناعي ، الكتاب الأول – الجزء الأول ، مطبعة جامعة صلاح الدين / اربيل ، 2011 ، ص 26 .

المتنوعة ، بعضها يرتبط بتحويل شكل المواد الخام أو المواد الأولية ، والبعض الآخر يرتبط بتركيب أجزاء المصنوعات أو السلع ، والنشاط الصناعي الخاص بتصليح أجزاء المصنوعات كصيانة وتصليح أجزاء السيارات والمكائن وغيرها [7] .

ثالثا :- واقع قطاع الصناعات التحويلية في العراق

يتمتع القطاع الصناعي بموقع متميز بين قطاعات الاقتصاد القومي المختلفة ، يعزى ذلك إلى الدور المهم والمحوري في بناء الركائز والاسس البنيوية لأي إقتصاد وتعزيزها ، فالقطاع الصناعي في العراق يتميز بأهمية كبيرة وذلك لأن صناعة النفط وأنشطتها الإستخراجية والتحويلية من أهم أنشطة وفعاليات هذا القطاع [8] ، وبما يوفره من تقدم اقتصادي عبر بناء قاعدة قوية لتطوير المجتمع بنواحيه المختلفة – فيما لو توفرت له الظروف والإمكانات الملائمة وبما يمكن أن يخلقه من تطوير لكافة قطاعات الاقتصاد القومي - [9] . غير إن التوجهات السياسية والإقتصادية الرديئة المتتالية والمشكلات الأمنية كان لها الأثر بالغ الأهمية في تردي وضع القطاع الصناعي في الإقتصاد العراقي منذ الثمانينات وحتى الوقت الحاضر ، فالحروب والتوجه نحو التصنيع العسكري بما يتطلبه من تخصيصات مالية ضخمة لإستيراد المعدات والتكنولوجيا العسكرية المتقدمة ، والتي استقطبت الموارد المالية والبشرية على حساب النشاطات الصناعات ذات الطابع المدني ، فضلا عن أحداث عام 2003 والتدمير والتوقف لأغلب المصانع ، وكذلك فتح الحدود أمام استيراد كل السلع بدون استثناء ومن دون أن يكون هناك برنامج إستيرادي واضح يوفر الحماية للمنتج المحلي ، بالإضافة إلى مشاكل التيار الكهربائي وانعدام الإستقرار الأمني وتأثيره على تردد القطاع الخاص عن الإستثمار في هذا القطاع ، كل هذه العوامل وغيرها الكثير أدت إلى القضاء على المنتج الصناعي المحلي وإخراجه من عملية المنافسة في السوق المحلية [10] .

إمكانات قطاع الصناعات التحويلية في العراق

من ابرز مميزات قطاع الصناعات التحويلية في العراق هو توفر الامكانات اللازمة لقيامه وتطوره واستمرار نشاطه في توفير متطلبات عملية النهوض بالواقع الإقتصادي للعراق ، ويمكن بيان أهم إمكانات قطاع الصناعات التحويلية في العراق بما يلي [11] :-

1. توفر العديد من الموارد الطبيعية في أغلب محافظات العراق .
2. توفر الأسواق المحلية المستهلكة لمنتجات قطاع الصناعات التحويلية .
3. توفر الأيدي العاملة الماهرة وغير الماهرة المطلوبة .
4. حاجة البلد المتنامية للصناعات المختلفة وبالأخص الإنشائية في المرحلة الحالية لإعادة إعمار البلد .

وفضلا عن ذلك يمكن الجزم بوجود مجموعة كبيرة من العوامل والإمكانات وكذلك الفرص المشجعة على إقامة صناعة تحويلية محلية ناجحة في العراق ، والتي من الممكن أن

---

[7] احمد حبيب الرسول ، جغرافية الصناعة ، دار النهضة العربة ، بيروت – لبنان ، 2012 ، ص 9

[8] جمهورية العراق ، وزارة التخطيط ، خطة التنمية الوطنية 2010 – 2014 ، بغداد ، كانون الأول / 2009 ، ص 80 .

[9] فارس مهدي ، مصدر سابق ، ص 283 .

[10] كامل كاظم بشير ، مصدر سابق ، ص 206 – 210 .

[11] وزارة التخطيط ، خطة التنمية الوطنية 2010 – 2014 ، مصدر سابق ، ص 86 .

تحقق مستويات عالية من النجاح والتقدم على المستويين المحلي والعربي خلال الأجل البعيد، ومن هذه العوامل ما يلي [12] :-

1. إمتلاك البلد لمساحات واسعة من الأراضي الزراعية التي أهملت خلال الحقب السابقة .
2. للبلد خلفية تأريخية صناعية تفوق مثيلاتها من دول المنطقة .
3. يمتلك البلد قاعدة لجذب الإستثمارات المحلية والعربية والأجنبية بشرط توفر الإستقرار الأمني .
4. إنفتاح الإقتصاد العراقي على الإقتصاد العالمي بعد عام 2003 ، وما يسري على ذلك من موافقة على المعاهدات الدولية ، ولاسيما ما يعنى منها بالتنمية الإقتصادية .
5. توجه البلد نحو سياسة الخصخصة وفسح المجال أمام القطاع الخاص لزيادة حجم إستثماراته في مجال الصناعة .
6. الوعود التي قطعتها بعض الدول بالعمل على تبني ومساعدة قطاع الصناعات التحويلية على التطور من خلال تقديم الدعم سواء كان بشكل قروض بفوائد زهيدة أو توفير مستلزمات إنجاح العملية الإنتاجية فيه ، أو على شكل تقديم المساعدات الفنية .

علاوة على ما سبق فإن من أبرز الأدوار التي من الممكن يلعبها وجود قطاع صناعات تحويلية متطور في تحقيق التنمية الإقتصادية في العراق الآتي [13] :-

1. إن قطاع الصناعات التحويلية يعمل على توفير إمكانية تصحيح الإختلال في الهيكل الإنتاجي وهيكل الصادرات لكونه سيحقق الإنخفاض المطلوب في الإعتماد على مساهمة صادرات النفط الخام في الناتج المحلي الإجمالي والتشغيل والإستثمار وميزان المدفوعات وميزانية الحكومة ، اذا ماتم رفع مساهمته في الناتج المحلي الإجمالي .
2. العمل على تعزيز الإستقلال الإقتصادي وتقليص معدلات استيراد السلع بكافة أنواعها ، مما يؤدي إلى تخفيض معدلات التبعية التجارية والتكنولوجية للدول الصناعية المتقدمة ، وهذا ما سيحققه وجود قطاع صناعات تحويلية ناضج ومتكامل الأطراف .
3. تتميز إنتاجية العمل في القطاع الصناعي بعدلات نمو أسرع إذا ما قورنت بمثيلاتها في القطاعات الأخرى، ويمكن أن يعزى ذلك إلى قدرته العالية على إستيعاب منجزات التقدم العلمي .
4. قدرته كقطاع يواكب التطورات التكنولوجية الحديثة على تحقيق الإستخدام الأمثل للقوى العاملة ، وذلك لقابليته على تحقيق الحراك المهني ، فضلا عن إجراء التغيير والتطور المستمر في الأجهزة الادارية ورفع مستوى أدائها لتواكب التوسع والتطور المستمر في المؤسسات الصناعية.
5. ديناميكية ومرونة أعلى من بقية قطاعات الإقتصاد الوطني الأخرى ، لكونه يمتلك قابلية تحفيز وتحريك وبالتالي تطوير القطاعات الأخرى عن طريق الترابطات الإنتاجية الأمامية والخلفية معها .
6. يعد القطاع الكثر مساهمة في عملية التراكم الرأسمالي وتحقيق التنويع الإنتاجي وذلك لكثرة المراحل .

---

[12] حيدر صالح مهدي ، مصدر سابق ، ص 10 .
[13] فلاح الربيعي . دور قطاع الصناعات التحويلية في التنمية الإقتصادية في العراق ، 2008 ، متاح على الموقع
. http:/www.alhewar.org

وعلى الرغم من توفر الإمكانات السالفة الذكر فإن الإقتصاد العراقي ما زال متخلفا في اغلب ميادين التنمية الإقتصادية سواء كان ذلك من حيث تحقيق التنمية الصناعية أو بتطوير القطاع الزراعي أو توفير متطلبات نمو القطاعات الانتاجية الأخرى ، ولعل سبب ذلك يمكن ان يعزى إلى مجمل الظروف التي مر بها البلد ، حيث أن العيد من خطط ومحاولات تحقيق النمو والتنمية الإقتصاديين في البلد وخاصة في مجال القطاع الصناعي قد باءت بالفشل ، وقد كانت أسباب ذلك متعددة يمكن إرجاعها إلى عدم كفاءة الجهات المنفذة لتلك الخطط التنموية أو بسبب عدم توفر إمكانات تنفيذها ، أو بسبب تعرض إقتصاد البلد في مدد تنفيذ تلك الخطط التنموية إلى تغيرات او تحولات إقتصادية وسياسية معينة كما حدث في الثمانينات والتسعينات كحدوث حرب العراق والكويت ومن ثم فرض العقوبات الإقتصادية ، فضلا عن أحداث عام 2003 ، فالإمكانات متوفرة في البلد سواء كانت الثروات الطبيعية كالأراضي الشاسعة والنفط الخام والمعادن الأخرى ، فضلا عن الموارد البشرية المتوفرة وغيرها الكثير مما يمكن إستغلاله في تحقيق تنمية اقتصادية شاملة تستند إلى تنمية صناعية فاعلة تتضمن قطاع صناعات تحويلية متطورة قادرة على قيادة عملية التطور ونقلها الى القطاع الصناعي نفسه بالإضافة إلى قطاعات الاقتصاد الوطني الأخرى .

ابرز مشاكل القطاع الصناعي في العراق

هناك العديد من المعوقات والمشاكل التي أدت إلى فشل القطاع الصناعي في العراق أهمها [14] :-

1. ضعف الجانب التمويلي نتيجة قلة التخصيصات الاستثمارية الفعلية في موازنات الدولة يتبعه قلة الاستثمارات الأجنبية القادمة الى العراق كونه بيئة طارده للاستثمار حسب التصنيف الدولي ثم يأتي بعد ذلك قصور الجهاز المصرفي وتخلفه وعدم قدرته على تعبئة المدخرات وتجهيز المجتمع بالائتمان المطلوب.
2. الدمار الذي لحق بالبنى التحتية للقطاع الصناعي سيما المصانع الكبيرة واهمال عملية اعادة الإعمار وتأهيل تلك البنى و المنشآت التي طالها التدمير والنهب
3. انتشار الفساد المالي والإداري في جميع مؤسسات الدولة وغياب الرادع القانوني والإجراءات الصارمة .
4. إرتفاع حزمة تكاليف المنتج العراقي بسبب شح الطاقة الكهربائية والمنتجات والمشتقات النفطية وتأثير كل ذلك على مجمل تكاليف المنتجات ، فضلا عن المشاكل التسويقية التي ظهرت امام منشآت القطاع الصناعي واعراض بعض الأجهزة الحكومية عن شراء منتجات الصناعة الوطنية بسبب الفساد بكل انواعه
5. ضعف الجانب التشريعي وعدم الاهتمام بمتابعة وتنفيذ القوانين الصادرة التي تنظم الصناعة الوطنية الذي ادى الى اغراق الأسواق بالبضائع الرديئة ورفع الحماية عن الصناعة الوطنية المحلية مما ادى الى إغلاق المئات من المصانع نتيجة عدم قدرتها على المنافسة سيما اثناء فترة الغاء التعرفة الجمركية .

[14] م. كريم عبيس حسان العزاوي ، أثر الاستثمار الأجنبي المباشر على نمو القطاع الصناعي في العراق للمدة (2003 – 2013) ، مجلة القادسية للعلوم الادارية والإقتصادية ، المجلد 18 ، العدد 3 ، لسنة 2016 .

6. ابتعاد ذوي الاختصاص والتكنوقراط من قمة القرار الصناعي اي استبعاد الكفاءات العلمية اصحاب الخبرة لأسباب سياسية منها نظام المحاصصة والتوافقات .
7. تهالك وتقادم وسائل الإنتاج المستخدمة في المصانع ناهيك عن تخلفها التقني والعلمي وعدم تعويضها واستيراد البديل عنها مما ادى الى شطب خطوط انتاجية بأكملها من المصانع العراقية .
8. اهمال البحث العلمي الذي يعتبر اهم عوامل النهوض بالقطاع الصناعي وحلقة الوصل بين التنمية والتخطيط .
9. تخلف الدوائر الخدمية عن تقديم مختلف انواع واجباتها للقطاع الصناعي كتخلف دوائر البلدية من جهة تخصيص الأراضي ودوائر الكهرباء والنفط والماء والتخطيط العمراني .
10. غلق العديد من مصانع القطاع الخاص تحت وطأة سوء الظروف الأمنية ورفع الدعم وهجرة العمالة الفنية ورداءة المواد الأولية المستوردة .

رابعا :- تحليل مؤشرات قطاع الصناعات التحويلية في العراق

يلعب القطاع الصناعي عامة والصناعات التحويلية بشكل خاص دوراً هاما بين القطاعات الإقتصادية في تحقيق التنمية الإقتصادية وتطوير القطاعات الإقتصادية الأخرى وتشغيل الأيدي العاملة وبالتالي المساهمة في الناتج المحلي الإجمالي . فهي من المرتكزات الأساسية لعملية التنمية الشاملة ، وعلى أساسها يمكن إقامة القاعدة اللازمة لتطوير البنية الإقتصادية والإجتماعية والتعجيل بمستويات النمو الإقتصادي وتوفير عوامل رفاهية الفرد والمجتمع . وقد مر قطاع الصناعات التحويلية بجملة من التغيرات منذ نشأته في العراق وحتى المرحلة الحالية ، وذلك تبعاً للظروف الصعبة والحروب التي حصلت في العراق . ولذلك فمن أجل تحليل واقع قطاع الصناعات التحويلية في العراق ، سيتم إستعراض التغيرات التي حصلت لبعض المؤشرات التي تعكس بوضوح مسيرة التنمية الصناعية في العراق منذ عام 1970 وحتى عام 2011 وتحليلها، أي سيتم إستعراض ودراسة وتحليل تطور هذه المؤشرات لمدة (41) سنة ، ولغرض التبسيط قسمت إلى (4) مدد ، أولها (1970-1980)، وثانيها (1981-1990) ، والثالثة(1991-2002)، والأخيرة (2003 - 2011) ، وذلك بإستعمال البيانات والمجموعات الإحصائية التي تم تحصيلها من وزارة التخطيط والتعاون الإنمائي - الجهاز المركزي للإحصاء.

1:- تحليل تطور مؤشرات قطاع الصناعات التحويلية بالأسعار الثابتة للمدة 1970 – 1980

نتيجة للأحداث التي شهدتها هذه المدة فقد حدثت تغيرات كثيرة وكبيرة على الصعيد السياسي والإقتصادي والإجتماعي في البلد ، والتي كان أبرزها تأميم النفط العراقي وما رافق ذلك من تغيرات جذرية وكبيرة في الإقتصاد العراقي ، إذ أصبحت واردات النفط العراقي الخام تعود إليه بالكامل وهذا ما شجع على العمل في إعداد الخطط الإستثمارية لتنمية قطاعات الإقتصاد الوطني كافة ولاسيما القطاع الصناعي ، وعلى الرغم من ذلك فإن عدد المنشآت الصناعية في الجدول رقم (1) كانت متذبذبة بين الإرتفاع والإنخفاض خلال أعوام المدة لكنها في الغالب تميل للتناقص أكثر في النصف الثاني أكثر مما هي عليه في النصف الأول من المدة ، وهذا ما أشار إليه التغير السنوي ونسبة التغير السنوي لهذه الأعوام ، أما نسبة التغير العامة فقد كانت موجبة وبلغت قيمتها (22.3%) ، اما نسبة الزيادة لأعوام المدة فقد بلغت (2.03%) ، حيث بلغ عدد المنشآت الصناعية نحو (36025) منشأة في عام 1980 بعد أن كانت تبلغ (

29438) منشأة في عام 1970 ، أي بواقع (8765) منشأة صناعية ، وعلى الرغم من ذلك فإنه لا يمكن التأكيد بشكل قطعي بأن التغير الإيجابي لعدد المنشآت الصناعية يعد مؤشرا إيجابيا ؛ ما لم يرتبط ذلك بتطور فعلي في السلع والخدمات التي تنتجها تلك المنشآت بحيث تمكنها من السيطرة والإستحواذ على رغبات المستهلكين في المجتمع وترفع مستوى رفاهيتهم ، ويعود سبب تناقص عدد المنشآت الصناعية في الصناعات التحويلية خلال هذه المدة إلى أسباب مختلفة منها ما يتعلق بتعطل بعض الوحدات الإنتاجية أو نقص قطع الغيار أو نقص المستلزمات الإنتاجية أو نقص الفنيين المهرة أو معوقات النقل أو تراجع الطلب على هذه السلعة أو تلك داخل أنشطة قطاع الصناعات التحويلية ، كما إن العمل على إعطاء الأولوية لبعض الفروع الصناعية دون غيرها لأسباب تتعلق بالتوسع في الصادرات والتعويض عن الإستيرادات أو سد إحتياجات الطلب المحلي كالصناعات الغذائية والبترولية والبتروكيمياوية والهندسية والإنشائية يؤدي إلى استقطاب معظم الموارد والإمكانات المتاحة ، مما أدى إلى إغلاق بعض المنشآت الصناعية الأخرى ، وهذه النسبة لا يستهان بها من الطاقة الإنتاجية لهذا القطاع .

أما مؤشر عدد العاملين في قطاع الصناعات التحويلية للمدة 1970 - 1980 ، فمما يمكن ملاحظته حصول زيادة نسبية في أعوام المدة المذكورة جميعا إلا في عامي 1973، 1976 ، حيث بلغ نسبة التغير للمدة المحددة في الجدول (72.4%) بإشارة موجبة بسبب زيادة عدد العاملين في عام 1980 ليبلغ (257.147) ألف عامل بعد أن كان يبلغ (149.071) ألف عامل في عام 1970 ، أي بواقع (108.076) ألف عامل ، حيث بلغت نسبة الزيادة نحو (6.57%) . وبما أن أي زيادة في نسبة العاملين في قطاع معين إذا ما إقترنت بزيادة الإنتاجية لذلك العامل تؤدي بالضرورة إلى تطور ذلك القطاع ومن ثم زيادة مساهمته في الناتج المحلي الإجمالي ، وإن زيادة عدد العاملين خلال هذه المدة يمكن أن يعزى إلى خصوصية هذه المدة وطبيعة التوجهات الإقتصادية فيها ، وكان تركيز الجهات الحكومية فيها على العمل في تطوير الإقتصاد الوطني عن طريق تطوير الأقطاب الرئيسية فيه وهي الصناعة والزراعة والخدمات ، وبقدر تعلق الأمر بقطاع الصناعات التحويلية فقد أقبلت الحكومة أو صانعو القرارات الإقتصادية على عمليات تنموية واسعة في القطاع الصناعي عامة وقطاع الصناعات التحويلية بشكل خاص ، كان من أبرزها زيادة عدد العاملين في هذا القطاع من أجل النهوض بالواقع الصناعي ، وهذا ماترتب عليه إرتفاع عدد العاملين في قطاع الصناعات التحويلية خلال المدة المحددة في الجدول رقم (1) .

وإذا إنتقلنا إلى المؤشر الثالث فهو قيمة الإنتاج الصناعي والذي يمثل من أهم مؤشرات هذا القطاع حيث أن زيادته تؤدي إلى زيادة القيمة المضافة ومن ثم مساهمته في الناتج القومي ، حيث كانت قيم الإنتاج في قطاع الصناعات التحويلية للمدة 1970-1980 بشكل عام متزايدة ، غير إنها تعرضت للإنخفاض في نهاية المدة أي العامين 1979،1980 ، حيث بلغت نسبة التغير العامة (72.7%) وهي موجبة الإشارة ومشيرة بوضوح إلى زيادة قيمة الإنتاج ، أما نسبة الزيادة فقد بلغت (6.61%) ، حيث إرتفعت قيمة الإنتاج الصناعي لتصل إلى (43.441789) مليون دينار في عام 1980 بعد أن كانت تبلغ (25.441789) مليون دينار في عام 1980 ، وذلك بواقع (18.521) مليون دينار .

أما بخصوص مؤشر قيمة مستلزمات الإنتاج فقد شهدت إرتفاعا ملحوظا خلال هذه المدة ، ويمكن أن نعزي ذلك إلى سعي الجهات الرسمية إلى العمل من أجل تطوير القطاع الصناعي وغيره من القطاعات الستراتيجية في الإقتصاد العراقي ، فعملت على توفير متطلبات هذه القطاعات وعلى وجه الخصوص قطاع الصناعات التحويلية لقدرته على قيادة القطاعات الإقتصادية الأخرى والنهوض بالواقع الإقتصادي وحتى الاجتماعي في البلد ، فعملت الدولة على توفير كافة المستلزمات الضرورية لتنمية الفروع الصناعية وتطويرها للعمل على إشباع الحاجة المحلية ، وتم توزيع التخصيصات الإستثمارية حسب الفروع الصناعية الرئيسية . حيث أنشأت الإتفاقيات مع مختلف الدول والشركات العربية والأجنبية من أجل توفير متطلبات أو مستلزمات الإنتاج الصناعي ، وذلك للنهوض بواقع هذا القطاع المهم والحيوي في الإقتصاد العراقي ، وتم إعفاء مستلزمات الإنتاج الصناعي المستوردة من الرسوم والضرائب الكمركية ، والعمل على وضع خطط الإستغلال الأمثل للثروات الطبيعية المحلية كالغاز الطبيعي ومخرجات المقالع الخاصة بإنتاج الحجر والحصى والرمل والمرمر ، وكذلك الكبريت والفوسفات وتطوير الممالح البحرية ، وكذلك العمل على تطوير القطاع الزراعي وذلك لكونه من المصادر الأساسية لتوفير مستلزمات الإنتاج للقطاع الصناعي ، كل هذه العوامل وغيرها أدت إلى زيادة مستلزمات الانتاج خلال هذه المدة بنسبة تغير بلغت قيمتها (9.22%) ، فقد إزدادت قيمة مستلزمات الإنتاج في عام 1980 إلى (27.341147) مليون دينار بعد أن كانت تبلغ (17.217263) مليون دينار في عام 1970 ، أي بنسبة زيادة مقدارها (0.83%) ، أي بواقع (10.124) مليون دينار .

أما المؤشر الآخر فهو القيمة المضافة والتي تعد من أبرز مؤشرات أي قطاع سواءاً كان إقتصادياً أم إجتماعياً، وذلك لأنها من أهم الوسائل المستخدمة لمعرفة مدى تطور القطاع الصناعي وكفاءته في إستخدام مدخلاته من الموارد المتاحة. وبما أن قيم الإنتاج وقيم مستلزماته جاءت مرتفعة نسبياً ، فهذا يؤدي إلى إرتفاع القيمة المضافة لأنها ناتجة عن طرح قيم مستلزمات الإنتاج من قيم الإنتاج (أي = الإنتاج - مستلزمات الإنتاج) ، كما أن القيمة المضافة ستكون مرتفعة (موجبة) عندما تكون قيم المخرجات (الإنتاج) أكبر من قيم المدخلات (متطلبات أو مستلزمات الإنتاج) ، وذلك يدل على معنوية العملية الإنتاجية وجدواها إقتصادياً ، وبعكسه إذا كانت القيمة المضافة سلبية فإن ذلك يؤشر سلبية العملية الإنتاجية وعدم معنويتها وجدواها إقتصادياً ، وبملاحظة تطور القيمة المضافة في الجدول رقم (1) نجد أنها كانت متزايدة خلال المدة 1970-1980 ، إذ بلغت نسبة التغير العامة نحو (102.1%) وبنسبة زيادة بلغت (9.28%) ،حيث تضاعفت القيمة المضافة لتصل إلى (16.621895)مليون دينار في عام 1980 بعد أن كانت تبلغ (8.224526) مليون دينار في عام 1970 ، أي بواقع (8.397) مليون دينار .

وبالنسبة لمؤشر قيمة الإجور الذي يمثل دخل العامل وتعويض جهده والوقت الذين بذله في عمله , حيث إن الإجور تمثل عائدا لعنصر العمل ، وبلغت نسبة التغير العامة له خلال الأعوام 1970-1980 نحو (50.5%) بإشارة موجبة ، وبمعدل زيادة (4.59%) ، حيث إرتفعت قيم الإجور لتصل إلى (6.583067) مليون دينار في عام 1980 بعد أن كانت تبلغ (4.373789) مليون دينار عام 1970 ، وذلك بواقع (2.209) مليون دينار .

أما بالنسبة لمؤشر تكوين رأس المال الثابت ، فإن حجم تكوين رأس المال ومعدلاته ترتبط إرتباطا وثيقا بحجم النمو الاقتصادي ومعدلاته عموما والصناعي خصوصا ، فكلما كان تكوين رأس المال سواء كان ثابتاً أو متداولا (مع إعطاء الأولوية للثابت) متزايدا كلما زاد حجم الإنتاج الصناعي ومعدل نموه ، وهذا ينعكس ايجابيا على مسيرة التنمية الصناعية خاصة والتنمية الإقتصادية والإجتماعية بشكل عام ، ومن متابعة الجدول رقم (1) يلاحظ أن معدل تكوين رأس الثابت شهد تغيرات كبيرة خلال المدة 1970-1980 ، فقد بلغت نسبة التغير لتكوين رأس المال الثابت للمدة 1970-1980 نحو (161.1%) ، كما بلغت نسبة الزيادة له نحو (14.6%) ، إذ إرتفعت قيمة تراكم رأس المال الثابت في قطاع الصناعات التحويلية خلال المدة المذكورة بمقدار (7.207) مليون دينار لتصل إلى (11.680798)مليون دينار في عام 1980 بعد أن كانت تبلغ (4.473684)مليون دينار في عام 1970 .

وإذا إنتقلنا إلى المؤشر الآخر وهو مساهمة قطاع الصناعات التحويلية في الناتج المحلي الإجمالي ، والذي يحتل موقعا متميزا في قياس تطور هذا القطاع ونمو أهميته في الناتج القومي ، كما وان الهدف الرئيسي للدولة هو تحقيق نمو متصاعد في الناتج القومي الذي يؤثر بدوره على المستوى المعيشي ورفاهية المجتمع ، ومن ملاحظة الجدول نجد أن تلك القيمة كانت متناقصة في أغلب سنوات المدة وهذا ما أشارت إليه نسبة التغير العامة سالبة الإشارة والتي بلغت (44.5%) ، كما بلغت نسبة الزيادة - والتي كانت في الواقع نسبة تناقص بسبب إشارتها السالبة - نحو (4.04%) ، حيث كانت قيمة المساهمة في GDP تبلغ(20.156534) مليون دينار في عام 1970 ، ثم تراجعت تلك القيمة لتبلغ (11.178520) مليون دينار في عام 1980 ، وذلك بواقع (8.798) مليون دينار .

أما المؤشر الأخير من مؤشرات تطور قطاع الصناعات التحويلية في العراق هو الإنتاجية والتي هي أداة مهمة في التحليل الاقتصادي وذلك لكونها تستخدم في تقييم الأداء أو دراسة تطور القطاع من خلال المقارنة بين المدد الزمنية أو من خلال المقارنة بين الوحدات الإنتاجية ، أو بوصفه معيارا لكفاءة استخدام الموارد من خلال العلاقة بين الإنتاج أو القيمة المضافة من ناحية والمستخدم من أحد عناصر الإنتاج (المواد الأولية ، العمل ، رأس المال) أو جميعها من ناحية أخرى ، ودراسة الإنتاجية في الاقتصاد العراقي وعلى نحو أكثر دقة القطاع الصناعي فيه ، يعد على مستوى كبير من الأهمية وذلك لخصوصية هذا القطاع ودوره المهم والحيوي في تنمية قطاعات الاقتصاد العراقي الأخرى ، فضلا عن كون هذا القطاع شأنه شأن الاقتصاد العراقي قد عانى من التخلف والدمار والاختناقات الهيكلية .

يمكن النظر إلى الإنتاجية بحسب العلاقة بين الإنتاج وأي عامل إنتاجي آخر، فإنتاجية العمل هي العلاقة بين قيمة الإنتاج ومقدار العمل المبذول في تحقيق تلك القيمة ، إذ انها تعكس مدى كفاءة استخدام العمل في تحقيق أقصى قدر من الإنتاج بأقل قدر من العمل . أما بالنسبة لإنتاجية مستلزمات الإنتاج فهي القيمة المضافة التي حققتها الوحدة الواحدة من مستلزمات الإنتاج ، أي إنها تعكس مدى كفاءة استخدام مستلزمات الإنتاج في العملية الإنتاجية الصناعية ، وبالنسبة لإنتاجية الأجور فهي نسبة مساهمة ما يدفع من أجور كتعويض للعاملين في الإنتاج خلال العملية الإنتاجية ، أما إنتاجية تكوين رأس المال الثابت فهي تؤشر كفاءة مساهمة رأس المال الثابت في القطاع الصناعي .

وبملاحظة الجدول رقم (1) نلاحظ انها كانت موجبة الإشارة مما يدل على أنها كانت متزايدة نسبيا خلال هذه المدة ، فيما عدا إنتاجية تكوين رأس المال الثابت والتي كانت نسبة التغير العامة لها سالبة الإشارة وبلغت (33.8%) بنسبة انخفاض بلغت نحو (3.07%) ، وبالنسبة لإنتاجية العمل فقد كانت نسبة التغير العامة لها منخفضة وبلغت (0.17%) بنسبة زيادة منخفضة جدا مقدارها (0.01%) ، أما إنتاجية مستلزمات الإنتاج فقد كانت نسبة التغير العامة لها أعلى نسبيا من نسبة التغير لإنتاجية العمل وبلغ (8.81%) وبنسبة زيادة مقدارها (0.80%) ، وأخيرا إنتاجية الأجور والتي كانت أعلى من قيم الإنتاجية المذكورة فقد بلغت نسبة التغير العامة لها (14.8%) وبمسبة زيادة (1.34%) .

مما تم ذكره يتبين أن أغلب مؤشرات قطاع الصناعات التحويلية كانت متزايدة ، والسبب في ذلك يمكن أن يعزى – كما ذكرنا – إلى زيادة إيرادات الدولة بفعل عملية تأميم النفط وطبيعة التوجه التنموي للدولة وكذلك الإستقرار الإقتصادي والسياسي والأمني خلال هذه المدة ، وغير ذلك من الظروف والتغيرات التي شجعت على تطور مؤشرات قطاع الصناعات التحويلية في العراق بالشكل الذي نراه في الجدول رقم (1) .

2 :- تحليل مؤشرات قطاع الصناعات التحويلية بالأسعار الثابتة في العراق للمدة 1981-1990

بملاحظة عدد المنشآت الصناعية نجد أنه كان متناقصا خلا أغلب سنوات المدة المحددة ، الا أن نسبة التغير العامة كانت جيدة وقد بلغت (51.1%) وبنسبة زيادة مقدارها (5.11%) ، أي بواقع (16090) منشأة صناعية، ليبلغ عدد المنشآت الصناعية في عام 1990 نحو (47552) منشأة بعد أن كان يبلغ (31462) منشأة في عام 1981 . ويمكن ملاحظة ذلك في الجدول رقم (2) .

وإذا إنتقلنا إلى عدد العاملين ، نجد أنه شهد إرتفاعا خلال اعوام وانخفاضا خلال أعواما اخرى خلال المدة المحددة ، إذ كانت نسبة التغير العامة منخفضة وبلغت (12.5%) ، اما نسبة الزيادة فقد بلغت (1.25%) ، فقد ازداد عدد العاملين في عام 1990 إلى (271.595) ألف عامل بعد أن كانت تبلغ (241.400) ألف عامل في عام 1981 ، وذلك بوقع (30.195) ألف عامل .

وبالنسبة لمؤشر الإنتاج الصناعي فقد كانت قيمه متناقصة تارة ومتزايدة تارة أخرى وهذا ما أشارت إليه الإشارة السالبة لكلٍ من نسبة التغير والزيادة اللتان قد بلغتا (13.5%) و (1.35%) على التوالي ، إذ تراجعت قيمة الإنتاج الصناعي في عام 1990 لتبلغ (29.846339) مليون دينار بعد أن كانت تبلغ (43.963366)في عام 1981 ، أي إنه إنخفض بواقع (4.690) مليون دينار .

وإذا لاحظنا مؤشر مستلزمات الإنتاج فقد كان هو الآخر منخفضا ، فقد تناقصت قيم مستلزمات الإنتاج خلال المدة 1981-1990 بنسبة تناقص مقدارها (2.47%) ، اما نسبة التغير العامة فقد بلغت (24.7%) بإشارة سالبة لتدل على ذلك التناقص ، إذ بلغت قيمة

مستلزمات الإنتاج (16.418895) مليون دينار في عام 1990 ، بعد أن كانت تبلغ(21.827615) مليون دينار في عام 1981 ن وذلك بواقع (5.408) مليون دينار .

وعلى خلاف مؤشر الإنتاج ومستلزمات الإنتاج فقد كان مؤشر القيمة المضافة موجبا ولكنه منخفضا ، وبلغت نسبة التغير له نحو (5.65%) ، بنسبة زيادة مقدارها (0.56%) ، أي إن القيمة المضافة قد إزدادت بواقع (0.718) مليون دينار لتصل إلى (13.427444) مليون دينار في عام 1990 بعد أن كانت تبلغ (12.709096)مليون دينار في عام 1981 .

وبالنسبة لمؤشر قيم الإجور نجد أنه كان مرتفعا في بداية المدة أي في عام 1981 ثم تناقصت في نهايتها أي في عام 1990 ، وذلك بواقع (2.825) مليون دينار ، إذ بلغت قيمته في عام 1981 نحو (6.122096) مليون دينار ثم أخذت بالتناقص حتى بلغت قيمته (3.296501) مليون دينار في عام 1990 ، بنسبة تناقص مقدارها (4.61%) وبنسبة تغير (46.1%) ، وكانتا بإشارة سالبة لتدل على ذلك التناقص .

أما قيم تكوين رأس المال الثابت فنجد أنها متناقصة ، وقد كانت نسبتي التغير والتناقص له سالبتي الإشارة وبلغتا (51.6%) و (5.16%) على التوالي ، إذ إنخفضت قيمة تكوين رأس المال الثابت خلال المدة المذكورة بواقع (6.718) مليون دينار لتبلغ (6.290942) مليون دينار في عام 1990 بعد أن كانت تبلغ (13.009615) مليون دينار في عام 1981 .

وبالنسبة لقيم مؤشر مساهمة قطاع الصناعات التحويلية في الناتج المحلي الإجمالي متزايد منذ أول المدة وحتى عام 1986 ، بعدها أخذ بالتناقص لترتفع من جديد لأعلى قيمة لها خلال المدة المحددة والتي بلغت (27.395729) مليون دينار في عام 1989 ، ثم إنخفضت قيمة المساهمة في نهاية المدة (عام 1990) بواقع (7.224) مليون دينار لتصل إلى (8.602773) مليون دينار ، وقد كانت نسبة التغير لها سالبة الإشارة وبلغت (45.6%) ، إذ إنخفضت قيمة المساهمة في GDP في عام 1990 لتصل إلى ماوصلت إليه من القيمة المنخفضة المذكورة أعلاه بعد أن كانت تبلغ (11.178520) مليون دينار في عام 1981 ، وبنسبة تناقص مقدارها (4.56%) .

وأخيرا هو مؤشر قيم الإنتاجية ، حيث نجد أنها جميعا كانت متزايدة بإستثناء إنتاجية العمل فقد كانت متناقصة بحيث كانت نسبة التغير لها سالبة وبلغت (23.1%) ، وبنسبة تناقص (2.31%) ، وبالنسبة لإنتاجية مستلزمات الإنتاج فقد كانت نسبة التغير لها منخفضة وبلغت (14.8%) ، بنسبة تزايد مقدارها (1.48%) . أما إنتاجية الأجور فقد كانت نسبة التغير بإشارة موجبة ليدل على حصول زيادة في إنتاجية الأجور خلال المدة وبلغت (60.4%) ، بمعدل زيادة (6.04%) ، وبالنسبة لإنتاجية تكوين رأس المال الثابت فقد كانت معدلاته متزايدة مقارنة مع مثيلاتها المذكورة ، فقد بلغت نسبة التغير له نحو (78.7%) ، وبنسبة زيادة بلغت نحو (7.87%) .

يلاحظ المتتبع لتطور المؤشرات السابقة أنه يمكن القول أن أغلب تلك المؤشرات كانت متناقصة ، وسبب ذلك التناقص في قيمة المؤشرات خلال هذه المدة يمكن أن يعزى إلى ظروف

الحرب والعقوبات الإقتصادية وإنعكاس ذلك على مجمل الجوانب الإقتصادية والإجتماعية والسياسية خلال هذه المدة كما هو مبين في الجدول رقم (2) .

3 :- تحليل مؤشرات قطاع الصناعات التحويلية بالأسعار الثابتة في العراق للمدة 1991 – 2002

وبخصوص تطور مؤشرات قطاع الصناعات التحويلية خلال المدة 1991 - 2002 ، فمن ملاحظة الجدول رقم (3) نلاحظ أن عدد المنشآت خلال هذه المدة كان متناقصا خلال أغلب سنوات المدة المحددة ، وهذا ما جعل نسبة التغير له سالبة الإشارة ومقدارها (98.7%) وبنسبة تناقص (8.23%) ، إذ أنخفض عدد المنشآت الصناعية خلال هذه المدة بواقع (40695) منشأة صناعية ليبلغ (498) منشأة في عام 2002 بعد أن كان يبلغ (41193) منشأة في عام 1991 .

أما بالنسبة لعدد العاملين فقد كانت نسبة التغير له سالب الإشارة وبلغ (42.3%) ، وبنسبة تناقص مقدارها (3.53%) ، إذ تراجع عدد العاملين ليبلغ (80.637) ألف عامل في عام 2002 بعد أن كان يبلغ (139.929) ألف عامل في عام 1991 ، أي بواقع (59.292) ألف عامل .

أما مؤشر قيم الإنتاج الصناعي نجد أنها متناوبة بين التناقص والتزايد غير أنه يمكن وصفة بأنه متناقصا بشكل عام ، فقد بلغت نسبة التغير العامة نحو (39.7%) بإشارة سالبة لتدل على ذلك التناقص ، أما نسبة التناقص فقد بلغت (3.31%) ، إذ إنخفضت قيمة الإنتاج بواقع (2.933402)مليون دينار لتبلغ (4.439879) مليون دينار عام 2002 ، بعد أن كانت تبلغ (7.373282) مليون دينار في عام 1991 .

أما بالنسبة لمؤشر قيم مستلزمات الإنتاج فقد كانت متناقصة كذلك بلغ (43.8%) ، وبنسبة تناقص بلغت (3.65%) ، إذ بلغت (2.273827) مليون دينار في عام 2002 بعد أن كان يبلغ (4.047876) مليون دينار في عام 1991 ، وذلك بواقع (1.744048) مليون دينار .

وكما هو الحال مع المؤشرات السابقة ، فقد كان مؤشر القيمة المضافة متناقصا كذلك ، وهذا ما أشارت إليه الإشارة السالبة لكل من نسبتي التغير والتناقص ، حيث بلغت نسبة التغير العامة له نحو (34.8%) ، بنسبة تناقص مقدارها (2.90%) ، إذ انخفضت القيم المضافة خلال هذه المدة بواقع (1.159354) مليون دينار لتبلغ (2.166051) مليون دينار في عام 2002 بعد أن كانت تبلغ (3.325405) مليون دينار في عام 1991 .

وإذا انتقلنا إلى مؤشر قيم الأجور نجد أنه لم يختلف عن المؤشرات السابقة ، إذ تراجعت قيمة الإجور خلال المدة المحددة بواقع (0.234329) مليون دينار لتبلغ (0.843386) مليون دينار في عام 2002 بعد أن كانت تبلغ (1.077715) مليون دينار في عام 1991 ، اي بنسبتي تغير وتناقص سالبتي الإشارة بلغتا نحو (21.7%) و (1.81%) على التوالي .

وعلى خلاف المؤشرات السابقة فقد كان مؤشر قيم تكوين رأس المال الثابت متزايدا خلال هذه المدة بنسبة تغير (69.8%) , وبنسبة زيادة مقدارها (5.81%) ، إذ ازدادت قيمة تكوين

رأس المال الثابت بواقع (1.073046) مليون دينار لتبلغ (2.610175) مليون دينار في عام 2002 بعد أن كانت تبلغ (1.537129) مليون دينار علم 1991 .

أما مؤشر قيم المساهمة في GDP فقد كانت متناقصة خلال هذه المدة ودلت بوضوح على ذلك من خلال نسبة التغير والتناقص سالبتي الإشارة ، إذ بلغت نسبة التغير العامة نحو (81.5%) وبنسبة تناقص بلغت نحو (6.79%) ، حيث تراجعت قيمة المساهمة خلال هذه المدة في الجدول (17) بواقع (6.542532) مليون دينار لتبلغ (1.480060)مليون دينار في نهايتها، بعد ان كانت تبلغ (8.022592) مليون دينار في عام 1991 (في بداية المدة) .

وبالنسبة للمؤشر الأخير خلال هذه المدة والذي هو قيم الإنتاجية ، فقد كان تطور قيمه متفاوتة ، حيث كانت نسب التغير والتناقص موجبة الإشارة لكل من انتاجية العمل ومستلزمات الإنتاج موجبة الإشارة ، حيث بلغت نسبة التغير لإنتاجية العمل نحو (4.49%)، وبنسبة زيادة بلغت نحو (0.37%) . وبالنسبة لإنتاجية المستلزمات فقد بلغت نسبة التغير لها (7.49%) ، وبنسبة زيادة بلغت نحو (0.59%) ، أما إنتاجية تكوين رأس المال الثابت وإنتاجية الأجور فقد كانت معدلات النمو المركبة لهما سالبة الإشارة وبلغتا نحو (46.5%) و(23%) على التوالي، وبنسبتي تناقص (5.37%) و (1.92%) .

مما يمكن ملاحظته أن أغلب المؤشرات كانت متناقصة هذه المدة وأشارت إلى تأثرها بشكل كبير بالظروف السياسية والإقتصادية وتأثير ذلك على سائر الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية . وذلك كون أغل توجهات الدولة خلال هذه المدة هي نحو الحرب وما يترتب عليها من أمور اقتصادية عملت بشدة على برمجة التغيرات في مؤشرات قطاع الصناعات التحويلية ، فكان من أهم نتائجها تناقص عدد المنشآت نتيجة لإغلاق أغلبها لتوفير مستلزمات الإنتاج في منشآت التصنيع العسكري وتدمير البعض الآخر على أثر الحرب ومخلفاتها ، كما تناقص عدد العاملين بسبب التوجه أغلب فئات المجتمع طوعا وكرها نحو ساحات القتال ، وبالنسبة لقيم الإنتاج ومستلزماته فقد تناقصت مما جعل القيم المضافة والمساهمة في GDP متناقصة أيضا ، وكذلك الحال بالنسبة لأنواع الإنتاجية وهذا ما أكدته نسب التغير السنوية والعامة ونسب الزيادة والتي كانت اغلبها نسب تناقص خلال اغلب اعوام المدة المحددة في الجدول رقم (3) .

4: تطور مؤشرات قطاع الصناعات التحويلية بالأسعار الثابتة في العراق للمدة 2003 – 2011

تعد هذه من اهم المدد التي شهدت تغيرات بنيوية كبيرة على المستويين الإقتصادي والسياسي وحتى الإجتماعي ، إذ تبلورت تلك التغيرات بتحولات أساسية في كافة قطاعات الإقتصاد الوطني ، وكان للقطاع الصناعي عامة والصناعات التحويلية بشكل خاص نصيبا وافرا منها وهذا ما يمكنن ملاحظته من الجدول رقم (4).

وإذا لاحظنا مؤشر عدد المنشآت الصناعية ، نجد أنه كان متزايدا بنسبة كبيرة ، حيث تضاعف عدد المنشآت الصناعية خلال هذه المدة بواقع (29542) منشأة ليصل إلى (48001) منشأة في عام 2011 بعد أن كان يبلغ فقط (18459) منشأة في عام 2003 ، بنسبة تغير مرتفعة بلغت (160%) ، وبنسبة زيادة بلغت نحو (17.7%) .

أما مؤشر عدد العاملين فنجد أنه قد ازداد بنسبة 100% ، إذ ازداد عدد العاملين في عام 2011 بواقع (173.358) ألف عامل ليصل إلى (333.729) ألف عامل بعد أن كان يبلغ (160.371) ألف عامل فقط في عام 2003 ، بنسبة تغير (108%) ، أما درجة التزايد فقد بلغت (12.01%) .

وبالنسبة لمؤشر قيمة الإنتاج ، فقد كان متزايدا كما هو الحال مع مؤشري عدد المنشآت الصناعية وعدد العاملين ، إذ بلغت قيمة الإنتاج (11.978412) مليون دينار في عام 2011 بعد أن كانت تبلغ (4.906056) مليون دينار في عام 2002 ، وذلك بواقع (7.072355)مليون دينار ، أي أنها تغيرت بنسبة (144.1%) ، وبنسبة زيادة مقدارها (16.01%) .

وإذا لاحظنا الجدول رقم (4) نجد أن قيم مستلزمات الإنتاج كانت كذلك متزايدة ، إذ بلغت نسبة التغير العامة لها (92.2%) بنسبة تزايد مقدارها (10.2%) ، إذ ارتفعت قيم مستلزمات الإنتاج خلال هذه المدة بواقع (2.647913) مليون دينار لتصل إلى (5.518372) مليون دينار في عام 2011 بعد ان كانت تبلغ (2.870459) مليون دينار في عام 2002 .

كذلك إزدادت القيم المضافة خلال هذه المدة ، لتصل إلى (6.460039) مليون دينار في عام 2011 بعد أن كانت تبلغ (2.035597) مليون دينار في عام 2002 ، وذلك بواقع (4.424442) مليون دينار، أي أنها ازدادت بنسبة تغير بلغت (217.3%) ، وبنسبة تزايد مقدارها (24.1%) .

أما مؤشر قيم الأجور فلم يختلف عن المؤشرات السابقة ، إذ ازدادت قيم الإجور في عام 2011 وذلك بواقع (0.427459) مليون دينار لتبلغ (1.665952) مليون دينار بعد أن كانت تبلغ (1.238492) مليون دينار في عام 2002 ، وبلغت نسبة التغير العامة لقيم الإجور (34.5%) ، أي بنسبة زيادة مقدارها (3.83%) .

وعلى خلاف المؤشرات السابقة فقد كان مؤشر قيم تكوين رأس المال الثابت متناقصا خلال هذه المدة ، وهذا ما أشارت إليه الإشارة السالبة لنسبة التغير العامة له والتي بلغت قيمتها (59.1%) ، ونسبة التناقص والتي بلغت (6.57%) ، إذ بلغت قيمة التكوين في عام 2011 نحو (0.436143) مليون دينار بعد أن كانت تبلغ (1.067841) مليون دينار ، أي بواقع (0.631697) مليون دينار .

وبالنسبة لقيم المساهمة في الناتج المحلي الإجمالي فقد كانت متزايدة خلال هذه المدة وهذا ما دلت علية الاشارة الموجبة لكل من نسبتي التغير والزيادة ، بحيث إزدادت مساهمة القطاع في GDP بواقع (2.060512) مليون دينار لتصل إلى (5.066943) مليون دينار في عام 2011 بعد أن كانت تبلغ (3.006431) مليون دينارفي عام 2002 ، أي بنسبة تغير (68.5%) وبنسبة زيادة (7.61%) .

المؤشر الأخير الذي سيتم تحليله هو مؤشر قيم الإنتاجية في قطاع الصناعات التحويلية ، حيث نجد أنها كانت متزايدة بشكل عام ، إذ بلغت نسبة التغير لإنتاجية العمل (17.3%) ، اي بنسبة زيادة بلغت نحو (1.92%) ، أما إنتاجية المستلزمات فقد ازدادت بنسبة تغير (27%)

وبنسبة زيادة مقدارها (3%) ، وبالنسبة لإنتاجية الإجور فقد ازدادت بنسبة تغير اعلى من النسبتين السابقتين وبلغ (81.5%) ، وبنسبة زيادة (9.05%) ، وأخيرا كانت نسبة التغير لإنتاجية تكوين رأس المال الثابت أعلى من مثيلاتها المذكورة جميعا وفي الواقع هي أعلى نسبة تغير يصل إليه مؤشر خلال المدة 1970-2011 وقد بلغت نحو (497.7%) وبنسبة زيادة مقدارها (55.3%) .

من ملاحظة التغيرات أعلاه والجدول رقم (4) نجد أن أغلب المؤشرات كانت متزايدة خلال هذه المدة – فيما عدا مؤشر تكوين راس المال الثابت والذي كان متناقصا ، ويمكن أن يعزى سبب هذه الزيادة وخاصة في السنوات الأولى من المدة إلى ظروف الحرب والتحشيد لها من قبل النظام السابق ، وتهيئة كافة المستلزمات المادية والبشرية والتي ساعدت زيادة هذه المؤشرات ، غير أنها عادت للإنخفاض في منتصف المدة المحددة لتؤشر تأثرها بظروف الحرب وما رافقها من عمليات سلب ونهب وهجرة الأيدي العاملة ورؤوس الموال الى خارج البلد ، وقد أدت الخطط التنموية التي اتبعت فيما بعد من قبل الحكومات الانتقالية – رغم ضعفها – ساعدت على ازياد قيم المؤشرات في نهاية المدة المحددة عدا قيم تكوين رأس المال الثابت والتي استمرت في التناقص لتدل بوضوح إلى عدم مساهمة أي من تلك السياسات الإقتصادية في رفع أو العمل على بناء البنى التحتية والهيكلية للقطاع الصناعي عامة وللصناعات التحويلية بشكل خاص .

إن النتائج التي تم التوصل إليها في الفقرات السابقة – والتي حددت بأربع فقرات لأربع مدد أشارت كل مدة إلى حقبة تأريخية من تأريخ العراق والظروف التي مر بها البلد خلال المدة المحددة في هذه الدراسة - دلت بوضوح على تأثر مؤشرات قطاع الصناعات التحويلية بمجمل الظروف السياسية والإقتصادية والإجتماعية الصعبة التي مر بها البلد ، وذلك ما ترتب عليه تناقص أغلب تلك المؤشرات وإنخفاض مساهمتها في تطور القطاع الصناعي ذاته من جانب وإنخفاض مساهمتها في الناتج المحلي الإجمالي من جانب آخر .

خامسا :- بناء الأنموذج القياسي

أولا :- أنموذج دالة الإنتاج الكلي لكوب - دوكلاس

إن دالة الإنتاج للصناعات التحويلية ممثلة بدالة كوب - دوكلاس للإنتاج الكلي والتي تكتب بالصيغة :

$$P(S,K) = \beta_0 S^{\beta_1} K^{\beta_2} + e^{U} \qquad (1)$$

حيث أن :

P(S,K) :- متغير الإنتاج الكلي (القيمة النقدية لجميع السلع التي تنتج في السنة) .

S : تمثل متغير العمل ممثلاً بالأجور .

K : تمثل متغير رأس المال (القيمة النقدية لجميع الآلات والمعدات) .

β_0 : الحد الثابت والذي يمثل اجمالي انتاجية عوامل الانتاج .

β_1 , β_2: تمثلان مرونة الناتج الكلي من العمل ورأس المال على التوالي .

U :يمثل حد الخطا العشوائي.

وبأخذ اللوغاريتم لطرفي المعادلة (1) , نحصل على المعادلة الخطية الآتية :-

$$LOG(P) = LOG(\beta_0) + \beta_1 LOG(S) + \beta_2 LOG(K) + U \qquad (\mathbf{2})$$

وباستخدام البرنامج الإحصائي (EVIEWS) تم الحصول على النتائج التي عرضت في الجدول رقم (5) والذي يتبين منه أن مرونة رأس المال المقدرة هي (0.224233) ، وجاءت بإشارة موجبة وهو ما يتفق ومنطق النظرية الاقتصادية وبلغت قيمة احصاءة (t) المتوافقة معها (3.210) بقيمة احتمالية (p=0.0027) والتي هي أقل من مستوى المعنوية 0.05 بكثير مما يعني معنوية المعلمة المقدرة . وبالتالي معنوية لوغاريتم رأس المال في التأثير على لوغاريتم الإنتاج LOG(P)وكذلك الحال مع مرونة لوغاريتم الأجور المقدرة والتي بلغت قيمتها (0.550486) والتي جاءت هي الأخرى بإشارة موجبة مما يعني التأثير الطردي لمتغير الأجور بالنسبة للإنتاج الكلي, وأن قيمة إحصاءه (t) المرافقة لها قد بلغت قيمتها التقديرية (4.194093) بقيمة احتمالية (p-value =0.0002) والتي هي اقل من (0.05) بكثير فهي تدل على معنوية عالية للمعلمة المقدرة وبالتالي معنوية متغير لوغاريتم الأجور بالنسبة إلى لوغاريتم متغير الإنتاج الكلي . وأيضا لوغاريتم الحد الثابت β_0 أظهرت هي الأخرى معنوية عالية بعد أن بلغت قيمتها التقديرية (0.9076337) بقيمة احتمالية (p-value =0.000) والتي تدل على رفض الفرضية الصفرية وقبول البديلة . وإن احصاءة اختبار F الخاصة باختيار مدى معنوية النموذج هي الأخرى أظهرت قيمة تقديرية بلغت (15.82223) بقيمه احتمالية (p-value =0.000) والتي تدل على معنوية عالية للنموذج ككل . والذي يعزز ذلك قيمة معامل التحديد R^2 وقيمة معامل التحديد المعدل $\overline{R}$ إذ بلغت قيمتيهما التقديرية (84.12%) و (83.31%) على التوالي والتي تعكس القوة التفسيرية للنموذج ، والذي يعني أن المتغيرين LOG(K) , LOG(S) قد فسرا ما نسبة (84.12%) من إجمالي التغيرات الحاصلة في المتغير المعتمد (LOG(P)) والتي تشير إلى قيمة عالية ومقبولة في بناء مثل هكذا نموذج .

الجدول (5) نتائج تقدير أنموذج الانحدار الخطي في المعادلة (2)

Dependent Variable: LP
Method: Least Squares
Sample: 1970 2011

Variable	Coefficient	Std. Error	t-Statistic	Prob.
LK	0.224933	0.070065	3.210334	0.0027
LS	0.550486	0.131253	4.194093	0.0002
C	0.907637	0.042177	21.51953	0.0000

R-squared	0.841245	Mean dependent var	1.180730
Adjusted R-squared	0.833103	S.D. dependent var	0.421720
S.E. of regression	0.172285	Akaike info criterion	-0.610582
Sum squared resid	1.157605	Schwarz criterion	-0.486463
Log likelihood	15.82223	Hannan-Quinn criter.	-0.565088
F-statistic	103.3305	Durbin-Watson stat	0.384683
Prob(F-statistic)	0.000000		

كما بين الجدول رقم (5) نفسه أن مجموع المرونات للعمل ورأس المال $\hat{\beta}_1 + \hat{\beta}_2 =$ $0.550 + 0.0225$ والذي يساوي (0.775) والذي يكون أقل من الواحد أي أن $\hat{\beta}_1 + \hat{\beta}_2 <$ 1 والتي تدل على تناقص غلة الحجم للإنتاج ، وإن العملية الإنتاجية تمر بمرحلة تدهور ، وبقسمة المرونة لمتغير لوغاريتم الأجور على مرونة متغير رأس المال نحصل على :-

$$\frac{\hat{\beta}_2}{\hat{\beta}_1} = \frac{0.550486}{0.22493} = 2.447$$

والتي تدل على أن الإنتاج في الصناعات التحويلية كثيفة العمل بشكل كبير. في حين أن النسبة :

$$\frac{\hat{\beta}_1}{\hat{\beta}_2} = \frac{0.22495}{0.550480} = 0.4086$$

والتي تبين مقدار مساهمة رأس المال في عملية الإنتاج الكلي .النسبتين أعلاه يتضح منهما إن الصناعات التحويلية في العراق كثيفة العمل بشكل كبير وهو ما يعد أمراً سلبيا في قيام الصناعات التحويلية في التطورات التكنولوجية التي تتطلب رأس مال كبير مقابل الاكتفاء بعدد قليل من الأفراد العاملين وينتج عنها كميات إنتاج كبيرة .

أن أهم ما يمكن ملاحظته في الجدول رقم (5) هو قيمة دربن واستون والتي بلغت (0.384683) وبما أنها اقل من قيمة معامل التحديد R^2 والبالغة (0.841245) عليه فأن البيانات تعطي مؤشراً أوليا على أن الانحدار الذي تم تقديره وفقا للجدول (5) ربما يكون انحداراً مزيفاً وخصوصاً أذا تعزز ذلك بعدم إستقرارية المتغيرات الثلاثة بالمستوى وكذلك يتعزز بإختبار سلسلة الارتباطات في البواقي . عليه سوف يتم إجراء إختبار ديكي - فولر المعدل للكشف عن مدى إستقرارية سلاسل المتغيرات كالآتي :

1. اختبار إستقرارية متغيرات النموذج

فرضية عدم إستقرارية السلسلة الخاصة بمتغيرات لوغاريتم الإنتاج ولوغاريتم الأجور ولوغاريتم رأس المال وذلك باختبار الفرضية العامة الآتية :-

H_0: Variable has unit Root = $Variable$ is not stationrry

H_1: Variable has not unit Root = $Variable$ is stationrry

نتائج الاختبار للمتغير التابع(LP=LOG(P والمتغيرات التوضيحية (LS=LOG(S)) (LK = LOG(K)), مع الفرضيات الخاصة بكل متغير والقيم الحرجة والقيمة الاحتمالية لإحصاءة الاختبار عرضت في الجدول رقم (6) و الذي يتبين منه أن إحصاءة الاختبار ديكي فولر المصحح (Dickey – Fuller test statistics) كانت ولجميع المتغيرات و بوجود الحد الثابت والاتجاه العام أو بعدم وجودهما معاً ؛ فأن القيمة الاحتمالية لجميع هذه الاختبارات كانت اكبر من مستوى المعنوية $\alpha = 0.05$ وبهذا فإننا وفي جميع الحالات لا نستطيع رفض الفرضية الصفرية وبالتالي علينا قبولها , عليه فأن جميع المتغيرات لا تعد مستقرة في المستوى أي جميعها تحتوي على جذور الوحدة . وبوجود حالة عدم الإستقرارية هذه تتعزز ثقتنا بعدم اِعتماد نتائج اختبارات الانحدار الخطي المتعدد لتأثير متغيري الأجور ورأس المال على الناتج الكلي في الصناعات التحويلية في العراق , وللتأكد من ذلك نجري اختبار سلسلة الارتباطات للبواقي .

الجدول (6) نتائج اختبار جذر الوحدة لسلاسل المتغيرات بالمستوى

Variable	Include in test equation	t statistics	MacKinnon (1996) .one-sided p-values	Null Hypothesis
LP	Intercept	-1.253892	0.6416	Lp has aunit Roo
	Trend and intercept	-1.862541	0.6555	
	None	-0.719223	0.3990	
LK	Intercept	-1.321237	0.6107	LK has aunit Roo
	Trend and intercept	-2.074829	0.5439	
	None	-1.524194	0.1181	
LS	Intercept	-1.218718	0.6573	LS has aunit Root
	Trend and intercept	-1.962218	0.6026	
	None	-1.202796	0.2060	

اختبار سلسلة الارتباطات في البواقي للنموذج المقدر

سيتم إجراء هذا الاختبار باختبار الفرضيات الآتية :-

H_0: $Risdual$ has unit Root = $Risdual$ is not stationrry

H_1: $Risdual$ has not unit Root = $Risdual$ is stationrry

نتائج الاختبار عرضت في الجدول رقم (7) والذي يبين أن قيمة (Mackinnon 1996) الجدولية جاءت جميعها أقل من إحصاءة الاختبار test statistic ، عليه أصبح لدينا الدليل

القاطع بعدم إمكانية رفض الفرضية الصفرية وبالتالي القبول بأن سلسلة الأخطاء الناتجة من تقدير معادلة الانحدار (2) تحتوي على جذر الوحدة ومن ثم القول بعدم إستقراريتها , عليه أصبح بإمكاننا إجراء اختبارات إنحدار التكامل وإمكانية استخدام نموذج تصحيح الخطأ . وذلك لأن القاعدة في ذلك هي أن الانحدار على المتغيرات التي تعاني من عدم إستقرارية (الانحدار المقام على السلاسل الزمنية غير المستقرة) ربما يتسبب بانحدار مزيف Spurious Regressionأو يتسبب بتقديرات غير مقبولة لمعادلة الإنحدار الخطي .

الجدول (7) نتائج الاختبار Augment Dickey – Fuller لسلسلة الأخطاء الناتجة من تقدير معادلة الإنحدار (2)

Include in test equation	Augment Dickey – Fuller test statist	Mackinnon (1996) One side test 5%	Prop
Intercept	-2.607644	-3.74	0.0998
Intercept and Trend	-2.742533	-4.12	0.2261
None	-2.635866	-3.74	0.097

ثانيا :- البحث في إستقرارية سلاسل المتغيرات

بعد أن تم التأكد من عدم إستقرارية ، المتغير التابع لوغاريتم الإنتاج Lp , والمتغيرات التوضيحية LK متغير لوغاريتم رأس المال و LS متغير لوغاريتم الأجور . يتم الآن البحث في إستقرارية السلاسل الزمنية للمتغيرات الثلاثة بعد أخذ الفرق الأول First Difference.النتائج عرضت في الجدول رقم (8) الآتي :-

جدول (8) اختبار ديكي فولر المعدل بعد أخذ الفرق الأول للسلاسل الزمنية الخاصة بالمتغيرات L_p وLk و Ls

Variable	Null hypothesis	Include in test equation	t-statistic	P-value
Lp	D(Lp)has a unit Roots	Intercept	-5.501226	0.000
		Intercept and Trend	-5.419671	0.004
		None	-5.543092	0.0000
Lγ	D(Lk)has a unit Roots	Intercept	-5.591745	0.000
		Intercept and Trend	-5.520113	0.0003
		None	-5.595176	0.0000
Ls	D(Ls)has a unit Roots	Intercept	-2.665844	0.0893
		Intercept and Trend	-4.977738	0.0013
		None	-2.680572	0.0087

من ملاحظة نتائج الجدول أعلاه تبين أن إحصاءات الاختبار t-statistic جاءت بقيم احتمالية أقل من $\alpha = 0.05$ لجميع الاختبارات ماعدا الاختبار الخاص بالمتغير D(Ls) في حالة وجود الحد الثابت فقد كانت القيمة الاحتمالية $(p - value = 0.08393)$ والتي تكون قيمتها أكبر من مستوى المعنوية $\alpha = 0.05$ وبالتالي وفي هذه الحالة لا يمكن رفض الفرضية

الصفرية الخاصة باحتواء السلسلة على جذر الوحدة على عكس الاختبارات الأخرى التي أدت نتائجها إلى رفض الفرضية الصفرية , وقبول البديلة , أي القبول بسكون السلاسل للمتغيرات الثلاثة بعد أخذ الفرق الأول وقد اتفق أن تكون جميع المتغيرات مستقرة بالفرق الأول عندما يحتوي الاختبار على الحد الثابت والاتجاه العام (Intercept and Trend) وكذلك في حالة عدم احتواء الاختبار على أي منهما . لذا وفي مثل هذه الحالة يمكننا الاستمرار باستخدام إنحدار التكامل المشترك وتقدير أنموذج تصحيح الخطأ (ECM) ولكن بعد أن يتم اختبار عدد التخلفات الزمنية الأمثل للجاجة لها في الاختبارات القادمة .

ثالثا :- اختبار العدد الأمثل من التخلفات الزمنية

Optimal Number Of Lags Selection

الخطوة اللاحقة هي أجراء اختبار جوهانسن Johansen Test Of Co integrating ومن ثم تقدير أنموذج تصحيح الخطأ VECM . ولكن اختبار جوهانسن للتكامل يحتاج إلى تحديد عدد التخلفات الزمنية المستخدمة (أي العدد الأمثل للتخلفات الزمنية) كذلك الحال في تقدير أنموذج متجه تصحيح الخطأ VECM والجدول رقم (9) الآتي يعرض عدداً من التخلفات الزمنية للمتغيرات الثلاث , وفقاً لخمسة معايير هي :-

LR=Sequential Modefied Test each test at 5% Level
FPE =Final prediction error
AIC=Akaike information criterion
SC= Chwars information criterion
HQ =Hanan - Quinn information criterion

الجدول (9) نتائج اختبارات اختيار التخلفات الزمنية VAR Lag Order Selection Criteria

Lag	LogL	LR	FPE	AIC	SC	HQ
0	-77.07198	NA	0.019486	4.575542	4.708857	4.621562
1	-8.459680	121.5418	0.000648	1.169125	1.702387*	1.353207
2	-1.396434	11.30119	0.000734	1.279796	2.213005	1.601940
3	5.875100	10.38791	0.000837	1.378566	2.711721	1.838771
4	19.86050	17.58165	0.000670	1.093686	2.826788	1.691952
5	24.63607	5.184900	0.000950	1.335082	3.468131	2.071410
6	40.81746	14.79441	0.000749	0.924717	3.457712	1.799106
7	65.98721	18.69753*	0.000390*	0.000731*	2.933673	1.01318*

الهدف هنا هو اختيار التخلف الزمني الذي يمكن استخدامه في الاختبارات اللاحقة مثل اختبار جوهانسن للتكامل وأنموذج تصحيح الخطأ , القرار هنا سيكون باختيار عدد التخلفات طبقا للعدد الأكبر من القيم التي تحمل (*) ضمن صف التخلف الزمني الذي سوف يتم اختياره ، أي التخلف الزمني الذي يحصل على أكبر عدد من أقل قيمة لكل معيار , وهنا سيكون الاختيار على (7)تخلفات زمنية كعدد أمثل للتخلفات التي يمكن استخدامها , كونها حققت القيم الأمثل لأربعة من المعايير الخمسة المشار إليها وهي (AIC, FPE, LR, HQ) .

رابعا :- اختبار كرانكر للسببية

يتم هنا اختبار الفرضية الصفرية الآتية :-

$H_0 = D(LK)$Does not Granger cause D(p)
وهي الفرضية الخاصة باختبار مدى تأثير المتغير التابع رأس المال بفرقه الأول D(LK) على المتغير التابع الإنتاج بفرقه الأول D(Lp) وكذلك سيتم اختبار الفرضية :

$H_1 = D(Ls)$Does not Granger cause D(Lp)

وهي الفرضية الخاصة باختبار مدى تأثير المتغير التوضيحي الأجور بفرقه الأول على المتغير التابع D(Lp). والجدول الآتي يبين نتيجة اختبار الفرضيتين .

الجدول (10) نتائج اختبار السببية

Dependent variable D(Lp)			
Excluded	Chi-sq	Df	Prop
D(Lk)	60.22656	7	0.0000
D(Ls)	91.32724	7	0.0000

من ملاحظة النتائج أعلاه يتبين لنا أن إحصاءات الاختبار Chi-sq الخاصة باختبار فرضية العدم الأولى الخاصة بتأثير المتغير $D(LK)$ على المتغير التابع D(Lp) وبما أن قيمة مربع كاي بلغت (60.22656) بقيمة الاحتمالية $(p - value = 0.000)$, وبما أن القيمة الاحتمالية كانت أقل بكثير من مستوى المعنوية $\alpha = 0.05$والتي من خلالها نستطيع رفض فرضية العدم وقبول الفرضية البديلة أي نرفض فرضية عدم وجود تأثير للمتغير التوضيحي رأس المال بفرقه الأول على المتغير التابع الإنتاج الكلي بفرقه الأول أيضا وكذلك الحال ينطبق في اختيار فرضية العدم الثانية الخاصة باختبار أثر المتغير التوضيحي الأجور بفرقها الأول وبما أن قيمة مربع كاي بلغت (91.32724) بقيمة احتمالية بقيمة الاحتمالية $(p - value =$ 0.000) وبما أن القيمة الاحتمالية أقل من مستوى المعنوية $\alpha = 0.05$بكثير فهذا يدل على رفض الفرضية الصفرية وقبول البديلة وبالتالي القول بأهمية تأثير متغير الأجور على الناتج الكلي بالفرق الأول لكليهما . من الجدير بالذكر هنا أننا لسنا بحاجة إلى أجراء اختبار مدى تأثير المتغير التابع (Lp)على أي من المتغيرات التوضيحية وكذلك لسنا بحاجة لبيان مدى تأثير أي من المتغيرات التوضيحية على الآخر .

خامسا :- اختبار جوهانسن للتكامل المشترك

بعد أن تم تشخيص سلاسل المتغيرات على أنها غير مستقرة بالمستوى وقد تحققت الإستقرارية للسلاسل الثلاث بعد أخذ الفرق الأول , لذا فأنها تعد متكاملة من الدرجة الأولى وبالتالي يمكن إجراء اختبار جوهانسن لاختيار عدد معادلات التكامل من خلال إجراء اختبار الأثر Trace testواختبار أعظم قيمة مميزة وذلك من خلال اختبار الفرضيات الصفرية الثلاث الآتية :-

$H_\circ = $ No cointegration equation
والتي تعني في حال قبولها عدم وجود معادلة انحدار تكامل وفي حال رفضها يعني الأمر على الأقل وجود معادلة انحدار تكامل مشترك واحدة .

$H_\circ = Al\mathit{m}ost$ one cointegration

والتـي تعنـي وجـود معادلـة تكامـل مشـترك واحـدة . أمـا فرضـية العـدم الثالثـة فهـي :-
H_0 = Almost two cointegration
والتي تعني وجود معادلتين لانحدار التكامل المشترك وفي حالة رفضها يعني ذلك وجود ثلاث معادلات للتكامل المشترك .

إن عدم رفض الفرضية الصفرية الأولى يعني عدم وجود تكامل مشترك بين المتغيرات الثلاث وبالتالي عدم إمكانية استخدام أنموذج تصحيح الخطأ والذي يعد مؤشراً على عدم وجود علاقات توازنيه طويلة الأمد بين متغيرات الدراسة وفي هذه الحالة يمكن إجراء اختبار Unrestricted VectorAuto Regression (VAR).

نتائج اختبار جوهانسن للتكامل المشترك عرضت في الجدول رقم (11) . ومن ملاحظة نتائج الجدول يتبين لنا أن نتائج اختبار الأثر Trace Test أظهرت أن قيمة احصاء الاختبار (Trace Test = 137.2817) أكبر من القيمة الحرجة (0.05 Critical Value=42.91525) والتي تعني ان القيمة الجدولية لـ ماكينون - هوك - مشيلس Mackinnon- Haug - Michelies (1999) p- value عند مستوى معنوية $\alpha = 0.05$ وبقيمة احتمالية (p- value = 0.0000) وبما أن القيمة الاحتمالية أقل من مستوى المعنوية , فهذا يعني رفض فرضية العدم وقبول الفرضية البديلة أي أن المتغيرات الثلاثة متكاملة في الأمد الطويل وبالتالي يمكن إجراء تقديرات VEC . وكذلك كانت نتيجة اختبار الفرضية الثانية من خلال كون أن قيمة إحصاء الاختبار بلغت قيمتها 40.46813 والتي كانت أكبر من نظيراتها الجدولية عند مستوى معنوية $\alpha = 0.05$ والبالغة قيمتها 25.87211 وبقيمة احتمالية (p-value = 0.004 وبما أن القيمة الاحتمالية أقل من مستوى المعنوية ، عليه تم رفض فرضية العدم وقبول البديلة وبالتالي الحكم بوجود معادلتين للانحدار التكاملي المشترك . وكذلك الحال مع الفرضية الثالثة من خلال قيمة إحصاءة الاختبار البالغة (13.53002) والقيمة الجدولية المناظرة لها والبالغة (12.51798) بقيمة احتمالية (p-value = 0.0337) ، وبما أن القيمة الاحتمالية اقل من مستوى المعنوية $\alpha = 0.05$ فهذا دليل على رفض فرضية العدم وقبول البديلة وبالتالي الحكم بوجود ثلاث معادلات للتكامل وهذا ما اظهرته نتيجة البرنامج اسفل الجدول الخاص بنتائج اختبار الأثر . أما بخصوص إختبار أعظم قيمة مميزة Maxmum Eigen value فهو الآخر أظهر نتائج الاختبار الأول نفسها ، وجاءت نتائجه معززة لقرارات الاختبار الأول وذلك من خلال رفض الفرضيات الثلاث وبالتالي وجود ثلاث معادلات للتكامل الأمر الذي أظهرته نتائج استخدام البرنامج في هذا الاختبار أسفل الجدول الخاص بالنتائج . وعليه يمكن الآن أجراء تقديرات أنموذج تصحيح الخطأ Error Correction Model Estimate.

الجدول (11) اختبار جوهانسن لمعادلات التكامل المشترك

Hypothesized No. of CE(s)	Eigenvalue	Trace Statistic	0.05 Critical Value	Prob.**
None *	0.942058	137.2817	42.91525	0.0000
At most 1 *	0.546813	40.43933	25.87211	0.0004
At most 2 *	0.328299	13.53002	12.51798	0.0337

Trace test indicates 3 cointegrating eqn(s) at the 0.05 level
*** denotes rejection of the hypothesis at the 0.05 level**
****MacKinnon-Haug-Michelis (1999) p-values**

Unrestricted Cointegration Rank Test (Maximum Eigenvalue)

Hypothesized No. of CE(s)	Eigenvalue	Max-Eigen Statistic	0.05 Critical Value	Prob.**
None *	0.942058	96.84240	25.82321	0.0000
At most 1 *	0.546813	26.90931	19.38704	0.0033
At most 2 *	0.328299	13.53002	12.51798	0.0337

Max-eigenvalue test indicates 3 cointegrating eqn(s) at the 0.05 level
*** denotes rejection of the hypothesis at the 0.05 level**
****MacKinnon-Haug-Michelis (1999) p-values**

أما الجدول رقم (12) فيبين أن معاملات أنموذج التأثير في الأمد الطويل والذي أظهر أن معامل المتغير Ls (لوغاريتم الأجور) في الأمد الطويل قد قدرت ب(4.258218-) وبخطأ معياري (0.20943) وكذلك معامل الأمد الطويل للمتغير (Lk)(لوغاريتم رأس المال) قدّر بـــ (3.338434) بخطأ معياري قدره (0.18796) ، أما معامل الاتجاه العام @TREND(71) فقد بلغت (0.21687) بخطأ معياري قدره (0.00734) . الإشارة السالبة لمعامل لوغاريتم الأجور تدل على أنه عند زيادة الأجور فهذا يؤدي إلى تناقص في الإنتاج الكلي والعكس صحيح ونعتقد أن هذا المؤشر بإشارته السالبة يعد تفسيرا لما يعانيه قطاع الصناعات التحويلية من تدنٍ في كميات الإنتاج والسبب يكمن في زيادة التكاليف والتي أحد أهم أسبابها تضخم عدد العاملين قياسا بالحد الأمثل المقبول على مستوى كل مؤسسة أو منشأة وبالتالي تضخم هذا العدد بالنسبة لقطاع الصناعات التحويلية ككل ، عليه فان قطاع الصناعات التحويلية يمر بمرحلة تناقص غلة الحجم ، والذي بدوره يشير إلى عجز محقق في هذا القطاع . أما إشارة معامل لوغاريتم رأس المال فأنها تشير إلى أنه في حالة زيادة رأس المال المستخدم في الإنتاج فأن الإنتاج الكلي أيضا يكون بالزيادة ، والذي يكون بأحد أوجهه زيادة الإنفاق على تحديث المكائن والآلات ، وإدخال عوامل التكنولوجيا الحديثة في الإنتاج .

جدول (12) تقدير معاملات معادلات التكامل المشترك ومعامل تصيح الخطأ

1 Cointegrating Equation(s): Log likelihood 103.3113

Normalized cointegrating coefficients (standard error in parentheses)

LP	LS	LK

1.000000	-4.258218	3.338438
	(0.20943)	(0.18796)

Adjustment coefficients (standard error in parentheses)

D(LP)	-3.043874	
	(0.42349)	
D(LS)	-0.368802	
	(0.12470)	
D(LK)	-0.235133	
	(0.38258)	

2 Cointegrating Equation(s): Log likelihood 116.7659

Normalized cointegrating coefficients (standard error in parentheses)

LP	LS	LK	@TREND(71)
1.000000	0.000000	8.410065	0.601276
		(2.12765)	(0.12782)
0.000000	1.000000	1.191021	0.090274
		(0.49424)	(0.02969)

Adjustment coefficients (standard error in parentheses)

D(LP)	-3.486117	15.43106
	(0.44274)	(2.07789)
D(LS)	-0.284516	1.099768
	(0.14141)	(0.66368)
D(LK)	0.178961	-1.311140
	(0.39543)	(1.85582)

سادسا :- أنموذج متجه تصحيح الخطأ VECM

بما أن اختبار جوهانسن للتكامل المشترك أظهر وجود ثلاث معادلات لانحدار التكامل المشترك عليه سيتم المضي قدما بتقدير أنموذج تصحيح الخطأ , ونتائج تقدير متجه تصحيح الخطأ عرضت في الجدول رقم (13) أدناه والتي تبين من الجزء الأعلى من الجدول معاملات معادلتي انحدار التكامل المشترك , أما الجزء الثاني فيظهر ثلاثة نماذج لتصحيح الخطأ , والعمود الأول منها يبين أن المتغير التابع هو متغير الإنتاج وهو ما يعد هدفنا في هذا البحث ، أما الأعمدة الأخرى فالثاني والثالث منهما يمثلان معادلات التصحيح والتي يكون فيها في كل مرة أحد المتغيرات التوضيحية هو المتغير المعتمد في النموذج المعني , عليه سينصب التحليل للأنموذج في العمود الأول من جهة اليسار في الجدول المشار إليه ، أي أنموذج تصحيح الخطأ الأول الذي يظهر معاملات المتغيرات التوضيحية والأخطاء المعيارية وقيمة احصاءة اختبار t لكل معلمة , ولكن المطلوب هنا حساب القيم الاحتمالية نتيجة اختبار كل معلمة للحكم بمدى معنوية أي من معالم النموذج المقدر , عليه سيعمد إلى استخدام نظام المعادلات لتقدير معاملات الأنموذج المقدر باستخدام طريقة المربعات الصغرى والناتج والتي عرضت في الجدول (9) والذي يكون فيه C(1) يمثل معامل التأثير في الأمد الطويل (معامل أنموذج التكامل المشترك). أما المعاملات C(3),…,C(23) فهي معاملات التأثيرات في الأمد القصير .

هنا المعامل C(1) هو معامل تصحيح الخطأ والذي يمثل معامل سرعة التصحيح باتجاه الإستقرارية في الأمد الطويل والذي يتوجب أن يكون معنوياً وسالبا بالإشارة . وفي حال كونه غير سالب الإشارة أو غير معنوي ففي هذه الحالة لا يمكن القول بوجود علاقة في الأمد الطويل بين المتغيرات المدروسة . وبما أن المعامل C(1) ظهر بإشارة سالبة وبقيمة احتمالية (p-)

value = 0.000 وهي أقل من مستوى المعنوية $\alpha = 0.05$ فهذا يعني رفض فرضية عدم وجود أثر في الأمد الطويل وقبول البديلة وبالتالي الحكم بوجود السببية طويلة الأمد للمتغيرات Ls,Lγ على المتغير التابع Lp .

إن معامل تصحيح الخطأ C(1)= -3486617 يعني أن سرعة التصحيح من عدم الإستقرارية إلى إستقرارية السلسلة قد بلغت (348.6%) وهي تعد سرعة كبيرة باتجاه التحول نحو الإستقرارية في حال فقدان هذه الخاصية في الأمد الطويل .

C(3),C(4),…,C(23) هي معاملات التأثير قصير الأمد وهنا سيتم أجراء اختبار كل من هذه المعاملات مشتركة فيما إذا كان لها تأثيراً معنويا على المتغير التابع أو عدم معنويتها أو كونها توصف بعدم تأثيرها ، وذلك من خلال إجراء اختبار Wald ، أما C(24) فهي تمثل معلمة الحد الثابت ، والتي أظهرت بدورها معنوية إحصائية إتضحت من خلال القيمة الإحتمالية المرافقة لها .

جدول (13) تقدير واختبارات معاملات معادلة انحدار التكامل

D(LP) = C(1)*(LP(-1) - 7.06122261631*LS(-1) - 0.0361687186585				
@TREND(70) + 1.03978362103) + C(2)(LK(-1) + 0.839615699394				
LS(-1) + 0.075795454254@TREND(70) - 2.25523242491) + C(3)				
*D(LP(-1)) + C(4)*D(LP(-2)) + C(5)*D(LP(-3)) + C(6)*D(LP(-4)) + C(7)				
*D(LP(-5)) + C(8)*D(LP(-6)) + C(9)*D(LP(-7)) + C(10)*D(LK(-1)) + C(11)				
*D(LK(-2)) + C(12)*D(LK(-3)) + C(13)*D(LK(-4)) + C(14)*D(LK(-5)) +				
C(15)*D(LK(-6)) + C(16)*D(LK(-7)) + C(17)*D(LS(-1)) + C(18)*D(LS(-2))				
+ C(19)*D(LS(-3)) + C(20)*D(LS(-4)) + C(21)*D(LS(-5)) + C(22)*D(LS(				
-6)) + C(23)*D(LS(-7)) + C(24)				
	Coefficient	Std. Error	t- Statistic	Prob.
C(1)	-3.486117	0.464352	-7.507495	0.0000
C(2)	-10.93976	1.373031	-7.967596	0.0000
C(3)	2.566608	0.356378	7.201916	0.0000
C(4)	1.945815	0.312926	6.218141	0.0001
C(5)	1.056682	0.235896	4.479434	0.0012
C(6)	0.763289	0.180945	4.218345	0.0018
C(7)	0.290140	0.126368	2.295993	0.0446
C(8)	0.168960	0.140167	1.205422	0.2558
C(9)	0.509825	0.137582	3.705606	0.0041
C(10)	8.163374	1.378225	5.923105	0.0001
C(11)	5.411503	1.044248	5.182202	0.0004
C(12)	3.658408	0.696919	5.249404	0.0004
C(13)	2.244115	0.582890	3.849981	0.0032
C(14)	1.842723	0.467040	3.945533	0.0028
C(15)	0.043949	0.435058	0.101018	0.9215
C(16)	-0.947407	0.546471	-1.733682	0.1136
C(17)	-17.27259	2.386986	-7.236149	0.0000
C(18)	-12.24126	1.978451	-6.187294	0.0001
C(19)	-5.151786	1.690328	-3.047803	0.0123
C(20)	1.237219	1.301404	0.950681	0.3642
C(21)	6.266423	1.330090	4.711277	0.0008
C(22)	5.462597	1.481341	3.687603	0.0042
C(23)	2.804231	1.054006	2.660546	0.0239
C(24)	1.443389	0.252642	5.713187	0.0002

R-squared	0.952906	Mean dependent var	-0.104012
Adjusted R-squared	.844591	S.D. dependent var	0.683303
S.E. of regression	0.269372	Akaike info criterion	0.402540
Sum squared resid	0.725611	Schwarz criterion	1.479971
Log likelihood	17.15682	Hannan-Quinn criter	0.769975
F-statistic	8.797496	Durbin-Watson stat	2.142663
Prob(F-statistic)	0.000554		

سابعا :-اختبار Wald

هنا سيتم اختبار مدى تأثير المتغيرات التوضيحية من خلال معاملات المتغير ضمن التخلفات الزمنية لكل متغير، أي سيتم اختبار المعاملات لمتغير لوغاريتم الإنتاج LpC(9),…,(3) بتخلفاته السابقة كمتغير توضيحي لبيان مدى معنوية التأثير المشترك لمعلمات هذا المتغير وكذلك سيتم إجراء الاختبار لمعاملات متغير لوغاريتم رأس المال LkC(16),…,C(11),C(10), لبيان مدى معنوية تأثير متغير رأس المال في متغير الإنتاج والحال نفسه يكون باختبار مدى تأثير متغير الأجور Ls ,بتخلفاته السابقة من خلال اختبار معنوية التأثير المشترك للمعالم C(23),…,C(18),C(17) .

1. اختبار مدى تأثير التخلفات السابقة لمتغير الإنتاج :-

ويكون باختبار الفرضية الآتية :-

$$H_0: C(3) = C(4) = \cdots = C(9) = 0$$

مقابل الفرضية البديلة

$$H_1: \text{At Least one of them not equal zero}$$

نتائج الاختبار عرضت في الجدول رقم (14) والتي تبين فيها أن إحصاءة اختبار F والبالغة قيمتها (9.49467) بقيمة احتمالية (p-value = 0.001) أقل من مستوى المعنوية $\alpha = 0.05$كذلك احصاء اختبار مربع كاي والبالغ قيمتها 66.46269Chi-sq بقيمة احتمالية (p-value = 0.0000) أقل من مستوى المعنوية $\alpha = 0.05$ وبالتالي الحكم برفض فرضية العدم وقبول فرضية البديلة , عليه فإن لوغاريتم متغير الإنتاج Lp بتخلفاته السبعة السابقة كأن له الأثر المعنوي على المتغير التابع (القيمة الحالية لمتغير لوغاريتم الإنتاج Lp) .

الجدول (14) اختبار Waldالخاص بالمعاملات للتخلفات السابقة للمتغير Lp

Test statistic	value	Df	Probability
F- statistic	9.494670	(7,10)	0.0010
Ch-square	66.46269	7	0.0000

2. اختبار تأثير متغير رأس المال L*k*

اختبار تأثير المتغير Lk بتخلفاته السابقة يكون باختبار الفرضية الصفرية الآتية :-

$$H_0: C(10) = C(11) = \cdots = C(16) = 0$$

مقابل الفرضية البديلة

$$H_1: \text{At Least one of them not equal zero}$$

نتائج الاختبار عرضت في الجدول رقم (15) والذي تبين من رفض الفرضية الصفرية وقبول البديلة وبالتالي معنوية تأثير متغير رأس المال Lk على الناتج الكلي Lp , أي أن المعاملات $C(10) = C(11) = \cdots = C(16)$ لها تأثير مشترك على المتغير التابع .

الجدول (15) نتائج اختبار معاملات متغير رأس المال L*k*

Test statistic	value	Df	Probability
F- statistic	8.603795	(7,10)	0.0015
Ch-square	60.22656	7	0.0000

3. اختبار تأثير الأجور Ls للتخلفات الزمنية السابقة

اختبار التأثير المشترك للمتغير الأجور يكون اختبار الفرضية الصفرية الآتية :-

$$H_0: C(17) = C(18) = \cdots = C(23) = 0$$

مقابل الفرضية البديلة

H_1: At Least one of them not equal zero

نتائج اختبار Wald عرضت في الجدول رقم (16) والذي يتبين من خلاله معنوية تأثير معاملات التخلفات الزمنية لمتغير الأجور Lsعلى الناتج الكلي في الصناعات التحويلية وذلك كون أن إحصاءة اختبار F بلغت قيمتها 13.04675 بقيمة احتمالية (p-value = 0.0003) اختبار مربع كاي Chi-square = 91.32724 بقيمة احتمالية (p-value = 0.0000) وبما أن القيمة الاحتمالية لكلا الإحصائيتين كانت أقل من مستوى المعنوية 0.05 , عليه ترفض الفرضية الصفرية وتقبل البديلة وهي أقل من مستوى المعنوية 0.05 وبالتالي الحكم بمعنوية أثر التخلفات الزمنية مشتركة على المتغير التابع Lp .

جدول (16) نتائج اختبارWald الخاص بالمتغير L*s*

Test statistic	value	Df	Probability
F- statistic	13.04675	(7,10)	0.0003
Ch-square	91.32724	7	0.0000

ثامنا :- ملائمة أنموذج تصحيح الخطأ

لبيان مدى ملائمة النموذج المقدر (أنموذج VECM) وكفايته يكون من خلال قيم معامل التحديد ومعامل التحديد المصحح وإحصاءة اختبار F الخاص باختبار مدى معنوية تأثير المتغيرات التوضيحية في أنموذج تصحيح , ويكون ذلك من خلال الرجوع إلى الجدول رقم (11) والذي تبين من خلاله أن قيمة معامل التحديد R-square = 95.29% وهي نسبة عالية جداً تمثل الكفاءة العالية للمتغيرات التوضيحية في تفسير التغيرات الحاصلة في المتغير التابع (الإنتاج الكلي) . كذلك إحصاءة الاختبار F قد بلغت قيمتها (8.797496) بقيمة احتمالية (p-value = 0.00055) وبما أن القيمة الاحتمالية أقل بكثير من مستوى المعنوية $\alpha = 0.05$ فهذا يدل على معنوية عالية لأنموذج تصحيح الخطأ المقدر . كذلك من العوامل الايجابية هو معنوية المعالم :

(13),C(12),C(11),C(10),C(9),C(8),C(7),C(6),C(5),C(4),C(3),C(2),C(1)
,C(23),C(22)C(21),C(20),C(19),C(18),C(17),C(16),(C(15),C(14),C

وذلك لأن جميع المعالم المذكورة كانت القيمة الاحتمالية المناظرة لكل منها أقل من مستوى المعنوية $\alpha = 0.05$ وبالتالي فإن (17)معلمة من معالم النموذج الـ (24) أشرت معنوية التأثير لأنموذج تصحيح الخطأ وهي نسبة عالية وكافية للحكم بأمثلية الأنموذج المقدر .

تاسعا :- اختبارات البواقي

تعد اختبارات البواقي من الاختبارات المهمة في مدى إيلاء الثقة بتقديرات أنموذج تصحيح الخطأ , وذلك من خلال إجراء اختباري تجانس تباين الخطأ Heteroskedasticiy وكذلك اختبار طبيعية توزيع البواقي .

1. **اختبار بروش – باكان – كودفري لتجانس التباين** Breusch-Pagan-Godfrey test
يجرى اختبار تجانس التباين باختبار الفرضية

H_0: The Residual is Homoskedasticiy

H_1: The Residual is Heteroskedasticiy

نتائج اختبار Breusch-Pagan-Godfrey عرضت في الجدول رقم (17) ، وهي تبين من خلالها أن قيم الاحصاءات الثلاث F- statistic = 0.530855 بقيمة احتمالية = (p-value 0.8959 واحصاءه (Obs*R-square =19.92491 بقيمة احتمالية (= (p-value 0.7010واحصاءه (Sculled explained s = 0.824513)بقيمة احتمالية = (p-value 1.000 وبما أن القيم الاحتمالية للإحصاءات الثلاث كانت اكبر من مستوى المعنوية $\alpha = 0.05$, عليه لا يمكن رفض الفرضية الصفرية وبالتالي نحكم بقبولها والحكم بتجانس تباين الخطأ وهي خاصية جيدة تعزز الثقة في أنموذج تصحيح الخطأ المقدر .

الجدول (17) نتائج اختبار Breusch-Pagan-Godfrey Heteroskedasticiy

statistic	value	Df	Probability
F- statistic	0.530855	(24,9)	0.8959
Obs*R-square	19.92491	χ_{24}	0.7010
Sculled explained s	0.824513	χ_{24}	1.000

2. **اختبار جاركي – بيرا لطبيعة توزيع البواقي Jarque- Bera for Normality test**
يجرى اختبار جاركي بيرا لبيان مدى مطابقة توزيع سلسلة البواقي للتوزيع الطبيعي وذلك باختبار :-

H_0 The Residual is Normality distribution
H_1: The Residual is *not* Normality distribution

النتائج بينها الشكل (1) والتي تبين من خلالها أن إحصاءة الاختبار Jarque- Bera = 1.796356 بقيمة احتمالية (p-value = 0.407311) وبما أن القيمة الاحتمالية اكبر من مستوى المعنوية $\alpha = 0.05$ عليه لا يمكن رفض الفرضية الصفرية وبالتالي قبولها , عليه فأن سلسلة البواقي تتوزع طبيعياً وهي بدورها تعد صفة جيدة في حال تقدير نماذج الانحدار , الأمر الذي يترتب عليه قبول نتائج تقدير أنموذج تصحيح الخطأ (VECM).

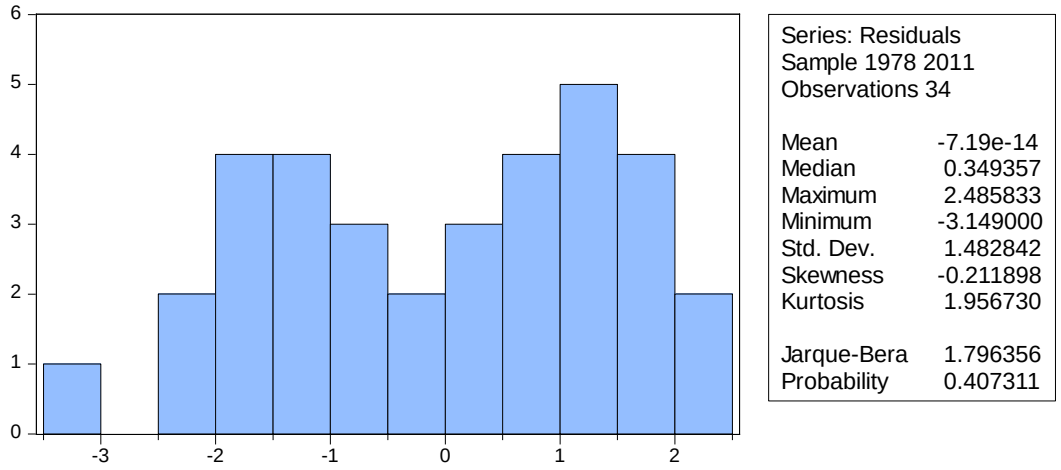

الشكل (1) اختبار التوزيع الطبيعي لبواقي أنموذج تصحيح الخطأ

3. اختبار بروش – كودفري لسلسلة الارتباطات البواقي

Breusch – Godfory Serial correlation test

يعد اختبار سلسلة الارتباطات للبواقي من الاختبارات المهمة لبيان مدى موثوقية الأنموذج المقدر , ويجرى الاختبار باختبار الفرضية الصفرية الآتية :-

H_0: There is no Serial Correlation

H_1: There is Serial Correlation

نتائج اختبار Breusch – Godfory لسلسلة لارتباطات في بواقي الأنموذج عرضت في الجدول رقم (18)والتي تبين من خلالها أن قيمة إحصاءة الاختبار F- statistic = 0.205313 بقيمة احتمالية (p-value = 0.6612) واحصاءة اختبار معامل التحديد المشاهد Obs*R-square = 0.758327 بقيمة احتمالية (p-value = 0.3839) , وبما أن القيمة الاحتمالية لكلا الإحصائيتين كانت اكبر من مستوى المعنوية α=0.05 , عليه لا يمكن رفض الفرضية الصفرية وبالتالي الحكم بعدم وجود سلسلة الارتباطات في قيم البواقي لأنموذج تصحيح الخطأ والذي بدوره يعد ميزة جيدة في تقدير الأنموذج .

الجدول (18) نتائج اختبارBreusch –Godfrey لارتباطات سلسلة البواقي

statistic	Value	Df	Probability
F- statistic	0.205313	(1,9)	0.6612
Obs*R-square	0.758327	χ_1	0.3839

أن تحليل البواقي باختباراته الثلاث اختبار تجانس التباين ، واختبار التوزيع الطبيعي للأخطاء، واختبار الارتباطات لسلسلة البواقي , جميعها أشرت على صفات جيدة ومقبولة لتقدير أنموذج تصحيح الخطأ .

الإستنتاجات

من أهم الإستنتاجات التي تم التوصل إليها ما يأتي :-

1. على الرغم من توفر الإمكانات والموارد لقطاع الصناعات التحويلية في البلد وكذلك قدرته الكبيرة على التطور والتوسع عموديا وأفقيا ، فإنه يعاني الكثير من المشكلات والمعوقات التي سببتها ظروف الحرب والعقوبات الإقتصادية المتعاقبة والسياسات الإنتاجية السيئة وتقادم الآلات والمكائن والمعدات الصناعية ، فضلا عن الإدارة السيئة ونقص التمويل والتخصيصات المالية وغيرها الكثير من الظروف السيئة التي ألقت بضلالها عليه ،
2. كانت قيم المؤشرات الرئيسة متذبذبة بين الإرتفاع والإنخفاض ولكنها شهدت تراجعا ملحوظا خلال مدة
الثمانينات وبداية التسعينات في الصناعات التحويلية بسبب الأسباب المذكورة .

3. إنخفاض مساهمة قطاع الصناعات التحويلية بالناتج المحلي الإجمالي ، مما أدى إلى جعل الصناعة العراقية مهملة وغير فاعلة في الإقتصاد العراقي ، فضلا عن كونها غير قادرة على المنافسة في الأسواق الإقليمية ، وذلك كله بسبب نقص التمويل والتخصيصات الإستثمارية وفشل إستراتيجيات التصنيع ، فضلا عن الفساد المادي والإداري .
4. كان من أكثر المؤشرات التي شهدت تراجعا في قيمها خلال الجزء الأكبر من المدة المدروسة هي الإنتاج ، والقيمة المضافة ، والإنتاجية ، وتراكم رأس المال ، ومساهمة القطاع في الناتج المحلي الإجمالي ، وهذه المؤشرات تعد من أهم مؤشرات تطور القطاع الصناعي في الإقتصاد العراقي ، وإن من أهم أسباب الإنخفاض في قيمها علاوة على الأسباب المذكورة إعتماد القطاع الصناعي بأجمعه والصناعات التحويلية بشكل خاص على المستوردات من المستلزمات الإنتاجية والتي تتصف بإرتفاع أسعارها وهذا ما أدى إلى إنخفاض القيمة المضافة في الصناعات التحويلية .
5. قلة الدراسات المتخصصة وبرامج التطوير ورداءة الخطط وسوء تنفيذها ، وقلة الكفاءات العلمية التي تمتلك الخبرة والمهارة في هذا المجال ، فضلا عن ضعف الجانب القانوني والتشريعي الذي يعمل على جذب الإستثمار لهذا القطاع ، علاوة على إنعدام برامج التدريب وإعادة التأهيل لقوى العاملة وفقا للتطورات والتكنولوجية الحديثة ، وكذلك تردي البنى التحتية ووسائل وطرق النقل والمواصلات .
6. أظهرت متغيرات الدراسة المتمثلة بعدد العاملين ورأس المال معنوية إحصائية بالتأثير على العملية الإنتاجية في قطاع الصناعات التحويلية ، كما وأظهرت الدراسة سالبية ذلك التأثير اي أن العملية الإنتاجية في تراجع كبير وخطير .
7. بينت الدراسة أفضلية وكفاءة طرائق التحليل القياسي بإستخدام منهجية انحدار التكامل المشترك ومعادلات تصحيح الخطأ .

التوصيات

1. تكثيف الجهود المبذولة في العمل على إستغلال الموارد المتاحة للإستغلال الأمثل وبكفاءة عالية لتوفير الموارد الأولية الضرورية لأغلب الصناعات ، العمل على توجيه التخصيصات والموارد المالية نحو هذا القطاع للعمل على إستكمال الهياكل والخطوط الإنتاجية وتلبية متطلبات نموه وتطوره .

2. السعي لحماية المنتج المحلي من المنافسة وعمليات الإغراق ودعمه عن طريق فرض الرسوم والضرائب الكمركية على المنتجات الأجنبية المنافسة له ، فضلا عن العمل على تشجيع القطاع الخاص على الدخول والإستثمار في الصناعات التحويلية .

3. تخفيف الضرائب والرسوم على عمليات التبادل التجاري الخاصة بتوفير مستلزمات الإنتاج للصناعات الإستراتيجية ولاسيما السلع الإنتاجية التي تلعب دورا هاما في عملية البناء والتطور الحالية على أمل أن يتم صناعتها محليا في المستقبل .

4. توجيه الإهتمام إلى القطاعات الأخرى التي ترتبط بروابط أمامية وخلفية مع الصناعات التحويلية ولاسيما القطاع الزراعي والصناعات الإستخراجية ، وذلك لكونها ترتبط معها بروابط أمامية فتوفر لها أغلب مدخلات عملياتها الإنتاجية ، وبروابط خلفية حيث تعد السوق الأكثر إستيعابا للمنتجات الصناعية ولاسيما الإنتاجية منها .

5. العمل على إجراء الدراسات والخطط الكفيلة بتوزيع الأيدي العاملة في المنشآت والوحدات الإنتاجية الصناعية وفقا لحاجة كلٍ منها وطبيعة عملياته الإنتاجية ونوعية الخبرة والمهارة المطلوب توفيرها لضمان سير العمليات الإنتاجية بإنسيابية وكفاءة عالية . والعمل على توفير البنى التحتية والخدمات الضرورية لنمو القطاع الصناعي كالإهتمام بطرق ووسائل النقل والمواصلات وغيرها من الوسائل التي تضمن توصيل مستلزمات الإنتاج ومتطلبات الإنتاج الأخرى إلى المشاريع والمنشآت الصناعية ، كما تضمن تصريف منتجاتها .

6. تفعيل دور الجهاز الرقابي على الصناعات المحلية من حيث توفر شروط الجودة والمتانة وغيرها من المواصفات التي تجعل السلع المنتجة محليا قادرة على المنافسة في الأسواق الخارجية .

المصادر

1. نصر عبد الله قاسم عبد الخالق ، تحليل دوال الإنتاج والإنتاجية في الصناعة الفلسطينية ، رسالة ماجستير ، جامعة النجاح الوطنية / كلية الدراسات العليا ، نابلس – فلسطين ، 2004 .

2. أ.م .د مناهل مصطفى عبد الحمد ، محمد نوري فرحان ، تقدير أفضل دالة إنتاج للشركة العامة للأسمنت العراقية للمدة 1996 - 2010 ، بحث منشور ، كلية الادارة والإقتصاد / جامعة بغداد ، المجلد 20 ، العدد 77 ، السنة 2014 .

3. نادية مهدي عبد القادر العبيدي , تقدير وتحليل دالة الإنتاج في شركة القادسية العامة للصناعات الكهربائية للمدة (1983 – 1995) ، رسالة ماجستير ، كلية الإدارة والاقتصاد / جامعة بغداد .

4. محمد صالح تركي القريشي ، علم إقتصاد التنمية ، مكتبة الجامعة – الشارقة ، الطبعة الأولى ، 2010 .

5. صائب ابراهيم جواد ، اقتصاديات الصناعة والتنمية الصناعية – اقتصاديات المشروع الصناعي ، الكتاب الأول – الجزء الأول ، مطبعة جامعة صلاح الدين / اربيل ، 2011 .

6. احمد حبيب الرسول ، جغرافية الصناعة ، دار النهضة العربة ، بيروت – لبنان ، 2012 .

جمهورية العراق ، وزارة التخطيط ، خطة التنمية الوطنية 2010 – 2014 ، بغداد ، كانون الأول / 2009 .

7. فارس مهدي محمد ، واقع الصناعات التحويلية الكبيرة في العراق لعام 2007 ، رسالة ماجستير منشورة ، جامعة البصرة / كلية التربية ، مجلة جامعة البصرة ، العدد 58 ، 2011 .
8. كامل كاظم بشير الكناني ، أرجوحة التنمية في العراق بين ارث الماضي وتطلعات المستقبل – نظرة في التحليل الإستراتيجي ، جامعة بغداد ، الطبعة الأولى ، 2013 .
9. جمهورية العراق ، وزارة التخطيط ، خطة التنمية الوطنية 2010 - 2014 ، بغداد ، كانون الأول / 2009 .
10. حيدر صالح مهدي ، قياس مدى تركز العاملين في الصناعة التحويلية – محافظة كربلاء حالة تطبيقية – رسالة ماجستير منشورة ، كلية الإدارة والإقتصاد / جامعة كربلاء ، 2004 .
11. فلاح الربيعي . دور قطاع الصناعات التحويلية في التنمية الإقتصادية في العراق ، 2008 ، متاح على الموقع http:/www.alhewar.org
12. م. كريم عبيس حسان العزاوي ، أثر الاستثمار الأجنبي المباشر على نمو القطاع الصناعي في العراق للمدة (2003 – 2013) ، مجلة القادسية للعلوم الادارية والإقتصادية ، المجلد 18 ، العدد 3 ، لسنة 2016.

جدول (1) تطور مؤشرات قطاع الصناعات التحويلية في العراق للمدة 1970-1980

المؤشرات	عدد المنشآت	عدد العاملين	قيم الإنتاج	قيم مستلزمات الإنتاج	القيم المضافة	قيم الإجور	قيم تكوين رأس المال الثابت	قيم المساهمة في GDP	الإنتاجية			
									إنتاجية العمل	إنتاجية مستلزمات الإنتاج	إنتاجية رأس المال الثابت	إنتاجية الإجور
التغير المطلق	6587	108.076	18.521	10.124	8.397	2.209	7.207	*(8.798)	0.296	0.130	(1.923)	0.861
نسبة التغير	22.3%	72.4%	72.7%	9.22%	102.1%	50.5%	161.1%	%(44.5)	0.17%	8.8%	(33.8%)	14.8%
نسبة الزيادة (التناقص)*	2.03%	6.57%	6.61%	0.83%	9.28%	4.59%	16.4%	(4.04)%	0.01%	0.80%	(3.07)%	1.34%

المصدر :- من إعداد الباحثة بالإعتماد على الجدول الرئيسي .

*** الأعداد بين الأقواس سالبة .**

*** نسبة الزيادة تعد كإشارة لتزايد المؤشر إذا كانت موجبة وتعد كنسبة تناقص إذا كانت سالبة .**

الجدول (2)

تطور مؤشرات قطاع الصناعات التحويلية في العراق للمدة 1981-1990

المؤشرات	عدد المنشآت	عدد العاملين	قيم الإنتاج	قيم مستلزمات الإنتاج	القيم المضافة	قيم الإجور	قيم تكوين رأس المال الثابت	قيم المساهمة في GDP	الإنتاجية			
									إنتاجية العمل	إنتاجية المستلزمات	إنتاجية تكوين رأس المال الثابت	إنتاجية الإجور
التغير المطلق	16090	30.195	(4.690)*	(5.408)	0.718	(2.825)	(6.718)	(7.224)	(33.175)	0.235	2.089	3.412
نسبة التغير	51.1%	12.5%	(13.5%)	(24.7%)	5.6%	(46.1%)	(51.6%)	(45.6%)	(23.1%)	14.8%	78.7%	60.4%
نسبة الزيادة (التناقص)	5.11%	1.25%	(1.35%)	(2.47%)	0.56%	(4.61%)	(5.16%)	(4.56%)	(2.31%)	1.14%	7.87%	6.04%

المصدر :- من إعداد الباحثة بالإعتماد على الجدول الرئيسي .

*الأرقام بين القواس سالبة (دالة على التناقص) .

الجدول (3)

تطور قيم مؤشرات قطاع الصناعات التحويلية في العراق للمدة 2002 – 1991

المؤشرات	عدد المنشآت	عدد العاملين	قيم الإنتاج	قيم مستلزمات الإنتاج	القيم المضافة	قيم الإجور	قيم تكوين رأس المال الثابت	قيم المساهمة في GDP	الإنتاجية			
									إنتاجية العمل	إنتاجية المستلزمات	إنتاجية تكوين رأس المال الثابت	إنتاجية الإجور
التغير المطلق	(40695)*	(59.292)	(2.933402)	(1.774048)	1.159354	(0.234329)	1.073046	6.542532	2.367060	0.131082	3.095798	1.577233
نسبة التغير	(98.7%)	(42.3%)	(39.7%)	(43.8%)	(34.8%)	(21.7%)	69.8%	(81.5%)	4.4%	7.1%	(64.5%)	(23.05%)
نسبة الزيادة (التناقص)	(8.23%)	(3.53%)	60.2%	(3.56%)	(2.90%)	(1.81%)	5.81%	(6.79%)	0.37%	0.59%	(5.37%)	(1.92%)

المصدر :- من إعداد الباحثة بالإعتماد على الجدول الرئيسي .

*الأرقام بين الأقواس سالبة (دالة على التناقص) .

الجدول (4)

تطور قيم مؤشرات قطاع الصناعات التحويلية في العراق للمدة 2011 – 2003

المؤشرات	عدد المنشآت	عدد العاملين	قيم الإنتاج	قيم مستلزمات الإنتاج	القيم المضافة	قيم الإجور	قيم تكوين رأس المال الثابت	قيم المساهمة في GDP	الإنتاجية			
									إنتاجية العمل	إنتاجية المستلزمات	إنتاجية تكوين رأس المال الثابت	إنتاجية الإجور
التغير المطلق	29542	173.358	7.072355	2.647913	4.424442	0.427459	*(0.631697)	2.060512	5.300715	0.461488	22.870039	3.228816
نسبة التغير	160.0%	108%	144.1%	92.2%	217.3%	34.5%	(59.1%)	68.5%	17.3%	17%	497.7%	81.5%
نسبة الزيادة (التناقص)	17.7%	12.01%	16.01	10.2%	24.1%	3.83%	(6.57%)	7.61%	1.92%	3%	55.3%	9.05%

المصدر :- من إعداد الباحثة بالإعتماد على الجدول الرئيسي .

*الأرقام بين الأقواس سالبة (دالة على التناقص) .

الجدول الرئيسي

مجمل مؤشرات قطاع الصناعات التحويلية للمدة 1980- 1970

الأعوام	عدد المنشآت	عدد العاملين	قيم الإنتاج مليون دينار	قيم مستلزمات الإنتاج مليون دينار	القيمة المضافة مليون دينار	قيم الإجور	قيم تكوين رأس المال الثابت	قيمة المساهمة في GDP
1970	29438	149.071	25.441789	17.217263	8.224526	4.373789	4.473684	20.156534
1971	31239	170.881	26.257244	20.783775	5.473469	4.772142	4.428571	18.424817
1972	30832	182.232	27.883679	16.951792	10.931886	4.674622	4.745283	21.128529
1973	27592	180.576	31.764117	20.485546	11.278571	4.40042	4.924369	23.645252
1974	27573	182.731	32.271449	23.168985	9.1024637	4.760724	6.811594	12.642536
1975	40624	236.594	44.951446	31.025283	13.926163	6.134716	13.59748	17.983745
1976	39148	228.16	46.369945	30.142918	16.227027	5.820864	6.686486	16.361389
1977	43267	245.902	47.342407	29.21787	18.124537	6.409027	3.199074	17.455805
1978	41719	249.145	49.532177	30.376693	19.155483	6.563508	14.85887	17.505778
1979	42111	274.661	48.951548	29.957806	18.993741	7.061483	16.22258	13.588885
1980	36025	257.147	43.963366	27.341471	16.621895	6.583067	11.680798	11.17852
1981	31462	241.4	34.536711	21.827615	12.709096	6.122096	13.00962	15.827309
1982	36101	252.119	39.901448	23.734911	16.166537	6.241784	12.13251	17.76229
1983	31724	239.815	35.566834	19.308897	16.257937	5.360362	8.87874	17.894589
1984	22175	221.802	36.833635	19.336496	17.497138	5.050744	4.176642	17.339848
1985	22044	230.188	37.933767	19.232114	18.701652	5.193333	3.785714	18.04228
1986	41536	263.892	41.360539	19.710857	21.649681	5.739806	3.908713	20.409135
1987	41368	224.967	35.80682	18.331953	17.474866	4.341492	1.854368	16.764007
1988	40380	249.754	39.15591	20.46946	18.68645	3.91537	1.483	20.150013
1989	54625	302.769	52.595418	29.86523	22.730188	5.007262	8.591721	27.395729
1990	47552	271.595	29.846339	16.418895	13.427444	3.296501	6.290942	8.602773
1991	41193	139.929	7.373282	4.047876	3.325405	1.077715	1.537129	8.022592
1992	26760	186.86	8.069389	4.803554	3.265835	1.013619	1.772148	5.950302
1993	32554	205.545	8.702866	4.818741	3.884125	0.757171	1.477308	7.064907
1994	27184	200.901	5.008427	3.102703	1.905724	0.425908	0.404757	4.669667
1995	31577	188.732	3.674585	2.250195	1.424389	0.336407	0.416337	3.830299
1996	32194	188.151	4.086843	2.282273	1.80457	0.399799	0.076376	3.710376
1997	31707	184.565	3.862422	2.280128	1.582294	0.376222	0.182304	1.858139
1998	25870	166.831	4.408864	2.439584	1.969279	0.448031	0.27023	2.145371
1999	30205	174.131	5.371287	3.464572	1.906715	0.676022	0.261824	1.462144
2000	77962	286.654	11.589703	6.31848	5.271223	1.434067	0.734314	2.273141
2001	69893	279.547	11.928162	6.231767	5.696394	1.736725	1.481505	3.309042
2002	498	80.637	4.4398799	2.273827	2.166051	0.843386	2.610175	1.48006
2003	18459	160.371	4.906056	2.870459	2.035597	1.238492	1.067841	3.006431
2004	18180	208.54	7.430696	4.323064	3.107631	2.314289	0.856212	3.212955
2005	10616	180.644	5.795114	3.21204	2.583073	1.938493	0.209361	2.484526
2006	12083	213.699	5.781037	2.976881	2.804155	1.655645	0.666231	2.921572
2007	13886	227.235	4.188555	2.068307	2.120247	1.318275	0.477634	2.375193
2008	487	190.247	4.063005	1.778097	2.284908	2.102394	0.445853	1.678988
2009	10864	222.502	7.215101	3.1072	4.107901	3.057155	0.498589	3.466492
2010	11716	226.825	7.922286	3.477692	4.444594	2.925327	0.42477	3.207526
2011	48001	333.729	11.97841	5.518372	6.460039	1.665952	0.436143	5.066943

المصدر :- من عمل الباحثة بالإعتماد على المجاميع الإحصائية